الجوهر الثمين

في

أخبار صحراء الملثمين

ومن يجاورهم من السوادين

تأليف

الشيخ العتيق بن الشيخ سعد الدين

الحسني الإدريسي السوقي

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

سبحان الله العليم الخبير الذي يبقى بعد فناء كل شيء وهو العلي الكبير. يرث الأرض ومن عليها وإليه المصير، الذي أحاط علمه بكل شيء جملة وتفصيلا، وعلم من شاء وما علمهم إلا قليلا ، و الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض له الحمد في الأولى والآخرة وهو الحكيم الخبير، يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ويعز من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له إلها واحدا فردا صمدا ليس له صاحبة ولا و لد ولم يكن له كفوا أحد ، والله أكبر ذلت لعظمته وكبريائه جميع الجبابرة وله الكبرياء في السموات والأرض ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ،هو حسبي وعليه توكلت وهو رب العرش الكريم، أرسل رسلا مبشرين ومنذرين وختمهم بسيد الأولين والآخرين محمد صلى الله عليه وسلم الذي جاءنا بالهدى ودين الحق وأظهر دينه على جميع الأديان وقص عليه أنباء الأمم ما يكون تذكرة وعبرة على ممر الأزمان صلى الله عليه وسلم بقدر عظمة ذاته صلاة دائمة بدوام صفاته ورضي الله على أصحابه الذين حفظ الله بهم شرعه من التحريف والتبديل، وقامت له بهم الحجة على سائر من يأتي بعدهم من الناس جيلا بعد جيل، وعن التابعين لهم بإحسان الذين قاموا بإحياء سننهم ونشر فضائلهم فصاروا بذلك من أكابر الأئمة وأفضلهم

وبعد : فيقول الكاتب المعترف بالجهل والتقصير ،الراجي عفو الله العفو القدير، محمد العتيق بن الشيخ سعد الدين –أعتقه الله وأسعدهما في الدنيا ويوم الدين– لما نشأت وقرأت من العلوم وأطلعت على إجازات سلفي في كتب الحديث، ومنهم من كتب سنده في جميع الفنون إلى مؤلفي الكتب التي قرأها ، تبينت أن الإسناد لا غنى لأحد عنه ، فتاقت نفسي إلى معرفة أشياخي من جميع الفنون.

فلما قرأت كتاب الديباج المذهب لابن فرحون وذيله لأحمد بابا تيقنت أن المتعلم لا يحصل على مقصوده من جميع العلوم إلا بالاعتناء بتصحيح الأسانيد ومعرفة طبقات العلماء وتمنيت أن لو ظفرت بمؤرخ بعد هذين الشيخين يجري على منوالها في التعريف بمن بعدهما من العلماء فلم أجد

مسعفا ولا مساعدا ، فهممت بتدارك آثار علمائنا ممن وقفت على خطوطهم أو أشعارهم أو رأيت من أخذ عنهم بالواسطة وبغيرها إلى أخبار من عاصرتهم ليستفيده من معي ومن بعدي ثم قرأت شيئا من كتب التاريخ ، فتشوفت إلى معرفة التاريخ العام للعلماء وغيرهم وحالة البلدان التي تسكنها جنسيتي قديما وحديثا ، ومن يقدم عليها سابقا ولاحقا ،فلم أزل أبحث وأفتش بحسب الإمكان ،ولم أجد من أشياخي من أقتبس منه إلا يسيرا مما جمعه شيخي وابن عمي حمّد بن محمد بن حدي فإنه نهض في عام السبعين بعد من قرننا هذا بعد ما انقرض أشياخنا الذين أدركناهم ممن لو سأله عن أخبار الماضين لأطنب له فيها على وجه التحقيق ولم يبق إلا الأقل ، ولكن معهم من المطلوب ما ليس مع من بعدهم وحاول أن يدون أخبار أسلافه وأشياخه

ولم يقم معه في ذلك الوقت غيره إلى تلك المهمة ، فجعل يفتش خزائن أصحابه ويسائل علماءهم ومعمريهم ويبحث عن الآثار القديمة والخطوط السلفية حتى جمع من ذلك ما لم يجمعه أحد من إخوانه ولا أشياخه

ولما قرأت ما جمعه وجدته غير واف بمرادي لأنه مقصور على خبر قبيلته وبعض جيرانه من إخوانه فجعلت أبحث معه وأسأل من لم يرهم من القبائل وأجمع ما يفيدونني إلى ما معنا وأراجع الخزائن القديمة فاستدركت على ما كتبه الشيخ .... فتارة أقف على قرطاس بال وأنقل ما فيه ، وتارة أقف على رسالة وجهها بعض الأمراء إلى آخر في قضية معينة، أو على قصيدة لبعض من تقدم لم يدون غيرها من أثره ، ولم يزل ذلك دأبي حتى جمعت من تلك الآثار جملة وافرة ، فصرت بين خاطر ينشطني على تدوين ما جمعت ،ليلا يضيع إن لم يقيد بالكتابة ،وآخر يثبطني على الإقدام فيما لم يسبق إليه كإنشاء فن مبتكر، فكيف يكتب فيما أهمله السلف من تأخر إلا أن يكون متعصبا يكتب كيف يشاء ، ثم يفضح نفسه على رؤوس العلماء

وأما المنصف الجاري على سبيل السلف الصالح فاقتصاره على معلوم يسير أحب إليه من خبط في نشر الآثار السلفية .....والحريصين على الجنسية الوطنية ففاوضته في الحديث إلى أن أخبرته بما هممت به وأطلعته على بعض ما جمعت , فأظهر الفرح والسرور بما استفاد مني ،ثم أفادني كثيرا مما لا مطمع لي في الوقوف عليه قبل ما أفادنيه ،وراودني على المبادرة إلى الجمع والتدوين على وجه التاريخ العام

بحيث لا أحلي أحدا من أهل البلد من ذكر ما بلغني من خبر أسلافه... سواء كان بربريا أو عربيا أو سودانيا من غير فرق بين أصناف الناس من المتصفين بالعلم أو الإمارة من غيرهم بحسب الطاقة ،

فلما ألح عليّ وكثرت الرغبة إلي من غيره من الإخوان الناهضين لمعرفة أحوال البلد بعد ما درسوا التاريخ الخارجي في أواخر هذا القرن، ترجح الخاطر المنشط فعزمت على إسعافهم بما قدرت عليه ،مع أني اعترف بالعجز عن إسعافهم بما يشفي العليل ، لعدم الممد لاسيما في العصور الأخيرة أيام الاضطراب الواقع في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الذي بعده قبل دخول فرنسا لهذه البلاد لكن قيل ما لا يدرك كله لا يترك كله.

ثم شرعت في تدوين ما جمعت وترتيبه مجتنبا للتطويل الممل، والاختصار المخل وأكاذيب القصاص التي لا يحتملها العقل ،ولا تستند إلى صحيح من النقل ،ومقتصرا على ما أتحققه من طريق الحس بالنسبة إلى المعاصرين ، ومن طريق النقل المستفيض بالنسبة إلى الغابرين ،فالاقتصار على اليسير المحقق ،أولى من الرجم بالغيب وقفو مالم يتحقق، كما أني تجنبت ما يفعله كثير من الكاتبين في الطبقات و التراجم من الإطراء الشديد والاعتماد على تحسين الظن في المكتوب عنه ، فيضيفون إليه من أوصاف الكمال ما لا حقيقة له عندهم ،ويذكرون أنه مشارك في العلوم مع عدم إطلاعهم من أثره إلا على بعضه كما يثبتون له من مكارم الأخلاق ما لم يبلغهم من طريق صحيح

وأقتصر في الكلام المتعلق بالأمم على الأجناس الساكنين في بلادنا خاصة وهم البربر والعرب والسودان وفي الكلام المتعلق بالبلدان على ما أهمل المؤرخون ذكره تفصيلاِ وهو بلاد جنوب الصحراء الواقعة بين شمال أفريقيا الذي للعرب وجنوبها الذي لأمم السودان ، لأن ذلك هو المهمل عند من وقفت على آثارهم من المؤرخين ،وأبذل الوسع في جمع المتفرق من الآثار والخطوط ،وكتابة ما أخذته بطريق الرواية محفوظا في الصدور وليست كتابة مثله معتادا وفي ضم ما رأيته في غير محله على وجه الاستطراد إلى نظائره وتبيين الصواب مما وجدته محرفا مما ينقله أهل الخارج فإن كثيرا من أصحابنا الذين يقرءون التواريخ لما نظروا إلى ما كتبه أهل الرحل عن بلادنا وجدوه مخالفا للواقع ، فالمتعصبون له لممالك السودان يضيفون إليها التوارق والصحراويين

بخلاف المتعصبين للعرب فإنهم يلحقونها إلى دول المغرب ، ولا يوجد في كلام كل منهم ما يفيد أنهم كانوا في مملكة كذا في الوقت الفلاني ، ثم صاروا إلى مملكة أخرى بعده بل كل منهم يكتب ما بدا له حتى اختلط الأمر على الناظر ولم يدر ما يأخذ به من ذلك الخلاف ، ومن الرحالين من يمر بالبلد ويرى بعض القبائل الضعيفة أو الحقيرة فيقيس عليها جميع القبائل من أهل الفضل والمروءة والنجدة الذين لم يرهم ولم يدخل منازلهم ، فشوه حالة البلد بما يسوء أهله الحقيقيين ويزهد فيه الراغبين فلما نظر أهل البلد إلى تلك المكتوبات شغفوا بما يزيل اللبس الواقع فيها وأنا واحد منهم ليس معي من حقائق الأمور التي يسألون عنها إلا اليسير مما يتعلق بالعلماء والأمراء وتصاريف الدول بين الأمم المتغلبة على أوطاننا إلى غير ذلك مما يخصنا معاشر الوطنيين من السودان والعرب والبربر ، وأما ما يشتغل به بعض المؤرخين من ذكر أحوال الأرض ومعادنها وسياسة ملوكها الأقدمون وحضارتهم و مواصلات المبحوث عنها من أجناسهم وأجيالهم فإنه أفاض في نسب البربر وذكر الخلاف الواقع بين المؤرخين في شأنهم هل هم أبناء عم العرب أو أبناء عم السودان ثم يبين الراجح عنده من ذلك الخلاف ،فمن أراد الوقوف على ذلك فعليه بالجزء السادس من كتاب العبر ، أو الجزء الأول من كتاب الاستقصاء ، وكذلك لا أطيل بحكاية ما شحنت به التواريخ الجزائرية من ذكر ما وقع للبربر مع الرومان والوندال والإفرنج وغيرهم من الأمم قبل الإسلام ، وما وقع لهم مع المسلمين الفاتحين للبلاد مما كفيت مؤنته ، ولا بالخوض في أخبار السودان التي قام بنشرها إخواننا المؤرخون في مالي والنيجر ونيجريا ....وما قاربها بحسب ما ظفرت به فعسى أن ينتفع من بعدي بما أجمعه ، وعسى أن يأتي من يفتح عليه في الموضوع بما لم يفتح عليّ فيستدرك عليّ كما هو طريق اللاحق في كل فن ، ووضعت رسالتي على مقدمة وثمانية أبواب وخاتمة ، والله المسئول أن ينفع بما جمعته من ذلك وأن يقيني المعاطب والمهالك ،ويوفقني لما يحب ويرضى في جميع المسالك.

المقدمة في ثلاثة أبحاث :

المبحث الأول في فضيلة علم التاريخ واحتياج جميع الناس إليه لاسيما العلماء اعلم أن التاريخ لا تجهل مكانته ولا تنكر إلا عند سفيه فاقد السمع والبصر وكيف ....ي من فضله ما احتج به القرآن على بعض الجاحدين وأبطل به مدعاهم من يهودية إبراهيم عليه السلام و على سائر المرسلين

فقال تعالى { يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل من بعده أفلا تعقلون } وقال { وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك } وقال { لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب } فالجاهل بالتاريخ راكب متن عمياء وخاطب خطب عشواء وما أحسن قول من قال :

ليس بإنسان ولا عاقل   من لا يعي التاريخ في صدره

ومن درى أخبار من قد مضى   أضاف أعمار إلى عمره

وقال الإمام السيوطي في كتاب المزهر: اضطربت الأقوال في أول ما أرخ به قال ابن عباس الأصل في التاريخ قوله عليه السلام (أتاني جبريل عليه السلام في ثلاث بقين من ذي العقدة فقال دخلت العمرة الحج يوم القيامة)وهو أي التاريخ تعريف الوقت من حيث هو وقت ، و الأرخ بالكسر الوقت والتواريخ مثل التاريخ ، ثم قال... ابن الجوزي ولما كثر بنوا آدم أرخوا بهبوطه فكان التاريخ إلى الطوفان ثم إلى نار الخليل ، ثم إلى زمن يوسف عليه السلام ، ثم إلى خروج موسى ببني إسرائيل من مصر ، ثم إلى زمن داود وسليمان -عليهما السلام- وقيل إن اليهود أرخت بخراب بيت المقدس والنصارى برفع المسيح- عليه السلام -

و أما تاريخ الإسلام فروى الحاكم في الإكليل عن الزهري معضلا أنه صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة أمر بالتاريخ فكتب في ربيع الأول .

و روى أيضا الحاكم وغيره أن عمررضي الله عنه- جمع الناس في خلافته سنة سبع عشرة فقال بعضهم أرخ بالبعث، وقال بعضهم بالهجرة فقال: الهجرة فرقت بين الحق والباطل فأرخوا بها فاتفقوا عليها ولم يؤرخوا بالبعث لأن في وقته خلافا ولا من وفاته لما في تذكره من التألم لفراقه ، ولا من وقت قدومه المدينة ، وإنما جعلوه من أول المحرم لأن ابتداء العزم على الهجرة كان فيه إذ البيعة كانت في ذي الحجة وهي مقدمة لها وأول هلال أهل بعدها المحرم ، ولأنه منصرف الناس من حجهم ، فناسب جعله مبتدءا انتهى كلامه .
و في بعض الروايات أن باعث عمر رضي الله عنه - على وضع

التاريخ أنه رأى كتابا فيه أن كذا وقع في شعبان فاحتاج إلى أن يعرف هل هو شعبان عامه أم شعبان عام آخر فأمر بوضع التاريخ الإسلامي و في كتاب نيل الابتهاج بتطريز الدباج للشيخ أحمد بابا التنبكتي الصنهاجي ما لفظه : والجاهل بالتاريخ راكب متن عمياء ، وخاطب خطب عشواء ينسب إلى من تقدم أخبار من تأخر ويعكس ذلك ولا يتدبر : وقد رأيت مجلسا جمع ثلاثة عشر مدرسا ومنهم قاضي قضاة ذلك الزمان وغيره من الأعيان فجرى بينهم وأنا أسمع ذكر من تحرم عليهم الصدقة وهم ذوو القربى المذكورون في القرآن فقالوا هم بنوا عبد المطلب ، وأن عبد المطلب هو هاشم ، فما أحقهم بلوم كل لائم إذ هو أصل من أصول الشريعة أهملوه ، وباب من أبواب العلم أغفلوه .إهـ

وفيه أيضا وقال ابن الصلاح الصفدي وقد يفيد التاريخ حزما وعزما ، وموعظة وعلما ، وهمة تذهب هما ، وثباتا يزيل وهنا ووهما .إهـ وفيه أيضا ومن فوائد علم التاريخ واقعة رئيس الرؤساء مع اليهودي الذي أظهر كتابا فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بإسقاط الجزية عن أهل خيبر وفيه شهادة الصحابة منهم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فجعل الكتاب إلى رئيس الرؤساء ووقع الناس في حيرة عظيمة من شأنه فقرض فعرض على الحافظ أبي بكر الخطيب فتأمله فقال هذا مزور فقيل من أين ذلك ، فقال فيه شهادة معاوية وهو أسلم عام الفتح ، وفتح خيبر سنة سبع وشهادة سعد بن معاذ وسعد مات يوم بني قريظة قبل فتح خيبر ، ففرج بذلك على الناس غما . إهـ قلت ومثل ذلك ما ذكره مسلم في مقدمة صحيحه أن بعض الوضاعين قال حدثنا ابن مسعود يوم صفين فقال له بعض الحفاظ حدثك بعد موته بعشرين سنة فخجل الوضاع ، وبالجملة فعلم التاريخ لا غنى عنه في الأمور الدينية ولا الدنيوية لكن المحتاج إليه في الحقيقة ثلاثة أصناف من الناس الأمراء والوزراء والعلماء ، أما الأمراء والملوك فلا يضبطون الدولة حق الضبط من جهة الوطن نفسه ومن جهة أهله إلا بمعرفة أحوال من قبلهم من الملوك وتصاريف الدول بينهم وما كان لهم من الأوطان أصالة وما استتبعوه بالتغلب ، ومعرفة ما تقوم به الدولة وما تختل به ، ومعرفة أحوال الدول الزائلة وأسباب زوالها وانتقال الملك من قوم إلى آخرين فإذا كان صاحب الرياسة عارفا بالأمور المتقدمة المتوقفة على علم التاريخ تفطن لما هو فيه وبنى سياسته على طريق من بقيت دولهم وحذر من طريق من أساء السياسة فذهب دولته وكذلك إذا عرف الرئيس أخبار الدول الماضية

وعرف ما كان لأسلافه من الوطن أصالة وما لهم بالتغلب أو من حكم على أوطانه بالتغلب ومن استتبعهم طوعا ، تبين له ما ينبغي أن يحرص عليه من الأوطان فيخاصم فيها أو يجاهد في طلب حريتها ، وما لا ينبغي أن يخاصم فيه أهله

بعد أن يستحقوه ومن لم يعرف هذا من الرؤساء ربما ظلم في أملاكه أو حاول انتزاع أملاك غيره فيقم من الفتن ما لو علموا حقيقة الأمور لم يقع وربما انتزعت الأملاك من أهلها الجاهلين بالتاريخ لا لدليل ، وليس التفطن لمثل هذا من أغراض العامة الذين لا يستطيعون الدفع عن أنفسهم وأموالهم فضلا عن غيرها بل من أغراض الملوك الذين وظيفتهم الدفاع عن الأوطان وسكانها فكل ذي رياسة لم يعرف من أخبار وطنه وأهله شيئا وشغل عنها بالدعة والبطالة وسوء السياسة ، يوشك أن يسلب ملكه وملك قومه وهو ذاهل ، أو ملك وهو غافل .
و أما الوزراء فوظيفتهم من القيام بالسياسات والتدبيرات وخطاب أهل الرياسات في المصالح العامة لا يتم لهم القيام بها إلا بدراسة التاريخ إذ بها يعرفون حقهم من النيابة عن الأمراء المشغولين عن كثير من المهمات بأهم منها في تنفيذ ما يصلح الرعية ، فإذا لم يدرسوا التواريخ ولم يعرفوا حقوق أمثالهم التبست عليهم الأمور فربما تسوروا على مناصب الملوك فهلكوا ، أو انحطوا إلى مراتب الرعية فضا

عت الحقوق الموكولة إليهم .

وأما العلماء فهم أحوج الناس إلى معرفة أخبار أشياخهم وآثارهم لأن ما يدينون الله به من الأعمال لا بد من إثبات دليله وتحقيقه ، ولا يحققونه إلا بمعرفة عدالة ناقليه ، ولا تتم معرفتهم بالعدالة ولا ضدها إلا بعلم التاريخ ، فإن كل علم من العلوم الشرعية له ارتباط به بحيث لا تدرك حقيقته إلا به لتوقف التمكن فيه على معرفة أهله وأحواله وتفاوت مراتبهم في ومعرفة من يعتمد كلامه منهم وغيره والمتطفل على العلم من غير أهله ، فعلم التوحيد الذي هو أصل العلوم وأهمها لا تدرك حقيقته ولا يثبت في الصدور إلا بمعرفة آثار الماضين وأولياتهم ومصائرهم ومعرفة الرسل وما جرى بينهم وبين أممهم فالمحيط بعلم ذلك يتثبت ويزداد إيمانه كما قال تعالى { وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك } وقال { لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب } وقال { أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم } ، إلى كثير من الآيات

الدالة على زيادة الإيمان بالنظر في أحوال الماضين ، فإن من نظر في ملكوت السماوات ولأرض وما كان من تصاريف الأمور من لدن بعث أول الرسل إلى يومه تبين له أن الله هو الملك الحق القديم الأزلي الباقي ، وكل ما سواه لا يتصف بشيء من تلك الصفات ، وكذلك من وقف على أخبار الرسل ومعجزاتهم وتأمل معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم وأنه الخاتم للرسل ، وإن كتابه هو العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كان على بصيرة من أمره ولا يكون كغيره ممن لم يقف على شيء من ذلك فإنه ربما جهل نبوة بعض الرسل الذين يجب تصديق نبوتهم فلا يؤمن به ويكون ممن فرق بين الرسل ، وربما اعتقد في بعض الصالحين أنه نبي ، وقد ادعى كثير من البطالين النبوة بعدما تزين بزي الصالحين في أول أمره فلما علم من اتباعه أنهم يصدقونه في كل أمر من غير فرق بين الصحيح والفاسد ولا بين الحق والباطل ترقى بهم إلى إدعاء النبوة إذ ليس مع أولئك الأتباع من الحجة ما يعرفون به أن لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، ولأن الرسل يجب أن تكون لهم المعجزات الدالة على صدقهم وليس شيء منها لذلك المتنبئ ولو تتبعت الوقائع التي افتضح فيها المدعون لجهلهم بالأمور الماضية لضاق بها مجلد ، ومن أغربها ما حكى في بعض مشائخنا عن بعض مدعي العلم في عصرنا أنه قال للناس أن ملكا هو أخذ عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب الشريعة وأخذ عن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ القرآن فسأله بعض الحاضرين عمن أخذ ملك الشريعة فعجز عن الجواب ، ولو كان هذا المدعي عارفا بأخبار الرسل ــ عليهم الصلاة والسلام ــ وأخبار الأئمة ، ما وقع في مثل هذه الفضيحة وكذلك من لا يعرف ما أحدثه المبتدعون في العقائد من عهد العباسية إلى هلم جرا يوشك أن تزل قدمه ويضل من حيث يظن الهداية فيكون من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ولو أنهم عرفوا أئمة الفن ودلائلهم وتبينوا الحق من جهتهم لسلموا من رذيلة الذهاب خلف كل داع ، وتيقنوا هدى من أمروا باتباع هداهم في قوله تعالى { أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده }. فإن في الآية إشارة على أن الإقتداء لا يصلح في الحقيقة إلا لمعلوم مشهور ، ألا ترى أن نبينا صلى الله عليه وسلم ما أمر بالاهتداء بهدى من قبله من الأنبياء إلا بعد أن قصت عليه أخبارهم وأثنى عليهم بقوله تعالى { أولئك الذين هدى الله } ، فمن اقتدى بمن لا يتحقق هداه لم يكن على سنة الاقتداء الحق ومن لم يحفظ أحوال من قبله من المشائخ والأئمة كيف يعرف المهتدين من غيرهم ومن لا يعرف المأثور

كيف ينتفع بالأثر ، ومن لا يعرف أئمة الهدى لا بد أن يتذبذب ويتخذ كل يوم مقتدى يزعم أنه يقتدي به ، ثم يتخذ آخر وآخر إلى أن يهديه الله الحجة ويثبته عليها أو يضيع عمره في غير شيء والموفق من هداه الله لأن يكون على بينة أمره بصيرا ببصيرة أهل الإيمان مقتديا بآثار من أنعم الله عليهم من النبيين وأتباعهم .وأما علم الحديث : الذي تعرف به سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الواجب على المسلمين إتباعها فمن ضروري كل مشتغل به أنه مرتبط بالتاريخ لأن موضوعه معرفة أحوال الرواة وقد اشتدت عناية المسلمين شرقا وغربا بأحوال رواته ، وألفوا ما شاء الله من الكتب في أخبارهم وصفاتهم من الصدق والكذب والضعف والقوة وبذلوا في ذلك مجهودهم لأن لا يدخل الخلل في الشرع المحفوظ وليلا يكذب الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتعرضوا للوعيد الوارد في قوله (من كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار)فمن اشتغل بالحديث غير سلوك الطريق الذي ذلله أهله واكتفى بأن يقول قال رسول اله صلى الله عليه وسلم ، صار من جملة الكاذبين الآثمين ، وقد حذر العلماء من ذلك في كل علم وشددوا التحذير في خصوص الحديث ، وذكروا أن الإسناد هو النسب العلمي وأنه من خصائص هذه الأمة فالعلم المجهول الإسناد كالإنسان المجهول النسب ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء وما توصل من قبلنا من الأمم لتبديل دياناتهم إلا بترك الإسناد والإعراض عنه فكان كل حبر يملي ما يشاء ويزيد وينقص ، ويقولون هذا من عن الله ليشتروا به ثمنا قليلا ويحرفون الكلم عن مواضعه ولذلك التبديل المنني على إهمال الأسانيد نهينا عن قراءة التوراة والإنجيل الموجودين اليوم مع أنا أمرنا بالإيمان بما أنزل إلى موسى وعيسى وغيرهم ـــ عليهم الصلاة والسلام ـــ من الأنبياء ولو وجدنا نسخة توراة لم تخرف لم ننه عن قراءتها لكن لا حاجة بنا إلى غير القرآن لكونه مهيمنا على ما قبله وناسخا لبغضه وأحدث عهدا بربنا كما في الحديث ، ومن أجل ما أحدث أهل الكتابين من التحريف ولبس الحق بالباطل وكتمان الحق لعدم ضبط الأسانيد التي تمنع المبطل من إسناد باطله إلى من شاء من أهل الحق قال نبينا صلى الله عليه وسلم (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا أمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم) ، وأما نحن معاشر هذه الأمة فمن خصائص نبينا صلى الله عليه وسلم وحفظ الله للذكر ما خص علمائنا بحفظ الأسانيد ليتمكنوا من رد الأباطيل ، وكان ذلك من وراثتهم للأنبياء الذين قبلهم فإن الأنبياء يأتيهم الوحي ببيان ما هو الحق من اختلافات من قبلهم في الديانات كما قال تعالى

(فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين و أنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) إلى قوله (فهدى الله الذين ءامنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه) ، وهذا هو حال الأنبياء آهل الشرائع ولما انقطع الوحي نال علماء هذه الأمة وراثة الأنبياء أن في كل عصر وقطر جماعة يذبون الباطل بالكتاب والسنة ، أما لفظ الكتاب فمحفوظ من التغيير بحفظ الله ، وأما معناه ومعنى السنة ولفظها فمحفوظة بالعلماء الذين يجاهدون أهل الباطل ويحفظون السنة من سوء التأويل ومن تحريفات المبطلين وأكاذيب الوضاعين ويشددون النكير على من يتساهل في نقلها قال الإمام الشافعي في رسالته المشهورة ما معناه " أنه يجب على من يروي حديث نبينا صلى الله عليه وسلم أن يحتاط في إسناده وأن يرويه عن غير أهله بل يجتهد في تصحيح روايته " واستدل لما قاله صلى الله عليه وسلم (ليبلغ الشاهد منكم الغائب ، وبلغوا عني ولو آية) مع قوله صلى الله عليه وسلم (حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج) ، أن النقل عن بني إسرائيل يجوز بغير إسناد لعزة حفظ أسانيدهم وعدم عدالة ناقليها وعدم تعلق الأحكام الشرعية بها وليس معناه الرخصة في الكذب عليهم حاشا وكلا وأما حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يجوز التساهل في روايته ونقله عن كل راوٍ من غير بحث عن أخباره لأن من حدث بكل ما سمع عدّ من الكذابين على النبي صلى الله عليه وسلم إهـ بالمعنى.

وأما علم التفسير : الذي يعرف به معنى كلام الله عز وجل فارتباطه بالتاريخ أن من اشتغل به ولم يعرف طبقات المفسرين وتواريخهم ومراتبهم في العلم ولم يعرف الناسخ والمنسوخ ولا أسباب النزول ربما تمسك بالباطل يظنه حقا ، وربما اطلع على قول من يحرف الكلم عن مواضعه فيأخذه من غير شعور فيضل ويضل ، وإذا عرف أحوال المفسرين أمن من ذلك وكان من المهتدين ، ومن ورثة المرسلين كما أشار إليه السيوطي في الإتقان في النوع الأخير منه . وأما علوم العربية من النحو والتصريف والمعاني والبديع فارتباطها بالتاريخ أن من يحتج بكلام العرب يحتاج إلى معرفة طبقاتهم ليعرف من يستدل بكلامه في البلاغة من غيره فقد ذكر أهل البلاغة أن الجاهلية والمخضرمين يحتج بكلامهم في العربية والبلاغة , والطبقة التي تلي طبقتهم يحتج بكلامهم في البلاغة لا في العربية ، وطبقة المولدين الحادثين بعد اختلاط العرب بالعجم بعد الإسلام لا يحتج بهم في البلاغة ولا في العربية وإنما يحتج

بهم في المحسنات البديعة ، ومن لم يعرف الطبقات والأيام ربما احتج بما لا حجة في من كلام المولد والعجمي المستعرب فيعد من الجاهلين والخابطين .

وأما علم السير : فارتباطه بالتاريخ كارتباط علم الحديث لأن موضوعه معرفة أحوال النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ولا يكون المرء محدثا إلا بمعرفة ذلك وقد كتب في علم السير بعض الجهلة من المسلمين وبعض الأجانب غير المسلمين فخرفوا وأبدلوا كثيرا من أوضاعه ولبسوا الحق بالباطل فمن لم يتحص منهم ومن تبديلهم بالتاريخ الحق أوقعوا الشكوك والأوهام وتعرض لما تقدم من المهالك التي يستوجبها المتساهل في رواية الحديث .

أما علم الآخرة : الذي يقوم به الواعظ وأهل الحسبة فارتباطه بالتاريخ أن المعتني به لا بد له من الاعتبار بآثار الماضين والأمراء والأغنياء وما صاروا إليه بعد الرخاء والعز من صيرورتهم ترابا لا علم لأحد به بعد أن كانوا يدعون لأنفسهم ملك الدنيا وما فيها ، ففي ذلك تذكرة لقوم يؤمنون وليس المطلع عليه كغيره ممن لا يعرف إلا يومه الذي فيه ، وأما علم التصوف : فارتباطه بالتاريخ أن المشتغل به يحتاج إلى تميز الصوفي من المتصوف فإن الصوفي هو الذي يبني أموره على الكتاب والسنة وطرق أهل الهدى من الأئمة ويبذل نفسه وماله وعزه وجاهه في سبيل الله ، والمتصوف يطلق على ذلك تارة وتارة على من يتشبع بما ليس عنده من أحوال أهل الصفاء ليرى الناس أنه منهم فيكتسب بذلك أن يحسن اعتقاد الناس فيه ويعظمونه ويواسوه وربما تكلم بكلمات تخالف الشريعة أو أتى بأفعال كذلك كما يعرفه كل من مارس كتب الصوفية وكتب علم الشريعة وقد حدث بعد القرون الثلاثة كثير من أعداء السنة لبّسوا على المسلمين بتدوين كثير من الفلسفة والزندقة على رسم أنهم صوفية يتكلمون في علوم القوم بمثل كلام أئمتهم ويعبرون بمصطلحاتهم المعروفة بينهم ، ويتوسلون بذلك إلى أعراض الفاسدة كما نبه على كثير منه القاضي عياض في كتابه الشفا، في رده على غلاة الصوفية والزنادقة ومن أولئك المردودين من يقوي باطله بتقويل بعض مشاهير الأئمة ما هم بريئون منه ليقطع بذلك كلام من يرد عليه من أهل السنة ومنهم من يطعن في بغض كبار القوم الذين ينكرون بدعهم ويشوه طريقه فيطلع من لا يعرف حاله على كلامه فيحسن الظن به ويقبل كلامه في الطريقة مع أنه عدوّ لها في الحقيقة فمن لم يعرف طبقات الصوفية

وأخبارهم واشتغل بكتب القوم من غير تحقيق المحق من المبطل ربما انقطع بما يظن به الوصول ويضل سوء السبيل .

أما علم الفقه : فهو لباب علم الحديث فما ذكر من ارتباط علم الحديث بالتاريخ يجري فيه إلا تعمد الكذب على الأئمة وتعمده على الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأما تصحيح سند نقله إلى المنقول عنه فهما في سواء قال صاحب فتح الشكور نقلا عن صاحب الفتحات القيومة أن ما كان من العلم معقولا لا يحتاج إلى معرفة قائله إلا من حيث كون ذلك كمالا فيه وما كان منه منقولا موكول لأمانة ناقله فلزم تعريفه والبحث عن حاله لأن من اعتمد في نقله عمن لا يعرف حاله كان كالباني على غير أساس إهـ منه ، وقال القرافي كان الأصل يقتضي أن لا تجوز الفتيا إلا بما يرويه العدل عن المجتهد الذي يقلده المفتي حتى يصح ذلك عند المفتي كما تصح الأحاديث عند المجتهد الذي يقلده المفتي لأنه نقل لدين الله في الموضعين ، وعلى هذا كان يعليها اعتمادا على ظاهر الحال ، ثم قال وكذلك الكتب الحديثة التصنيف إذا لم يشتهر عزوها ما فيها من النقول إلى الكتب المشهورة ويعلم أن مصنفها كان يعتمد هذا النوع من الصحة موثوقا بعدالته وكذلك حواشي الكتب تحرم الفتيا بها لعدم صحتها والوثوق بها . انتهى كلامه . وقال ابن فرحون بعد نقله ما لفظه ومراده إذا كانت الحوشي غريبة النقل وإذا كان ما فيها موجودا في الأمهات أو منسوب إلى محله وهي بخط من يوثق به فلا فرق بينها وبين سائر التصانيف ، ومر إلى أن قال وأما حيث يجهل الكاتب ويكون النقل غريبا ، فلا إشكال فيما قال القرافي ، إهـ . ونقل السيوطي في المزهر عن أبي الطيب اللغوي أن أكثر آفات الناس الرؤساء الجهال والصدور الضلال ، وهذه فتنة للناس على قديم الأيام وغابر الأزمان فكيف بعصرنا هذا وقد وصلنا إلى كدر الكدر ، وانتهينا إلى عكر العكر ، واخذ هذا العلم عمن لا يعلم و لا يفقه ولا يحسن أن يفهم الناس ما لا يفهم ويعلمهم عن نفسه وهو لا يعلم يتقلد كل علم ويدعيه ، ويركب كل أفك ويحكيه ، ويجهل ويرى نفسه عالما ، ويعيب من كان من الغيب سالما ، انتهى . الغرض منه ، قلت ومما ينبغي التفطن له من أحوال المؤلفين أن كثيرا منهم كانت بينهم وقائع أدت إلى تنقيص بعضهم بعضا والحط من قدره ووصفه بغير ما فيه من الصفات حتى لا يتعرض عن الاستفادة من بعضهم اعتماد على تجريح خصمه بل يطلب الحق حيث كان ويعظمهم ويمسك من الخوض في تلك التنقيصات الجارية بينهم فقلما تجد منعما

عليه غير محسود والله يعصمنا من الزلل ويوفقنا في القول والعمل إهـ
المبحث الثاني في التنبيه على أن علم التاريخ أعم من علم أخبار العلماء وطبقاتهم يتفقان في بعض المسائل ويختلفان في بعض؛ يتفقان في أن المعرفة بهما هي الكمال الإنساني قال أبو مصعب الزبيري ما رأيت أحدا أعلم بأيام العرب بل بأيام الناس من الشافعي ، ويروى عنه أنه أقام على تعلم أيام الناس والأدب عشرين سنة وقال ما أردت بذلك إلا الاستعانة على القلب وفي مقدمة كتاب معجم الأدباء ما لفظه فصل في فضيلة علم الأخبار قال أبو الحسن على بن الحسن قالوا لولا تقيد العلماء خواطرهم بالأخبار وكتبهم الآثار لبطل العلم وضاع آخره إذ كان كل علم من الأخبار يستخرج ، وكل حكمة منها تستبط والفقر منها تستشاد والفصاحة منها تستفاد وأصحاب القياس عليها يبنون ، وأهل المقالات بها يحتجون ، ومعرفة الناس منها تؤخذ ، وأمثال الحكماء فيها توجد ، ومكارم الأخلاق ومعاليها منها تقتبس ، وآداب سياسة الملوك والحزم منها تلتمس ، فكل غريبة بها تعرف ، وكل عجيبة منها تستطرف ، وهو علم يستمتع بسماعه العالم ، ويستعذب موقفه الأحمق والغافل ، وينزع إليه الخاص والعامي ، ويميل إلى وليته العربي والعجمي ، مر إلى أن قال : ففضيلة علم الأخبار تنبه على كل علم ، وشرف منزلته صحيح في كل فهم فلا يصبر على علمه وتيقن ما فيه من إيراده وإصداره إلا إنسان قد تجرد للعلم وفهم معناه وذاق ثمرته واستشعر من عزه ، ونال من سروره ، وقدما قيل أن علم النسب والأخبار من علوم الملوك وذوي الأخطار ، ولا تسمو إليه إلا النفوس الشريفة ، ولا يأباه إلا العقول السخيفة ، إنتهى . العرض من كلامه ، قلت وجميع هذه الفضل يشترك فيها علم بالأخبار سواء ما يتعلق بالأخبار الدنيوية وما يتعلق بالعلوم وقد أسلفت في البحث قبل هذا كيفية ارتباط علم التاريخ بجميع العلوم الشرعية ، وأما الذي اختلف فيه التاريخ العام ومعرفة طبقات العلماء خصوصا فهو أن كثيرا من الناس المعترين لا عيرة بالأخبار الماضية ويكتفي بإصلاح حاله ومآله ومعاشه ومعاده ولا يلتفت إلى خبر غيره من الجيران والمعاصرين فضلا عمن قبله وإذا سمع من يشتغل بالأخبار الماضية قرء عليه قوله تعالى { تلك أمة قد خلت } إلى { يعلمون } ، ومثلها من الآيات محتجا بها على أن ما هو من اللغو الذي ينبغي للمؤمن الإعراض عنه و لا يعد منه ذلك نقصا بل يعتبر من الأفاضل بماله من الفضائل ويغضى عنه ، وليس من ذلك معرفة أخبار الأشياخ والوارثين للأنبياء في تبليغ الشريعة فإن جميع المسلمين متفقون على وجوب معرفة سلسلة الأشياخ الذين

توسطوا بينهم وبين الشارع صلى الله عليه وسلم وإن لم يعتنوا بما سوى ذلك من الأخبار الماضية يتأكد الوجوب إذا كان أشياخ المرء هم أسلافه وآباه لأن لأولئك حقوقا زائدة على حقوق غيرهم من المشايخ غير الأسلاف ومن فوائد اعتناء خلفهم بأخبارهم وآثارهم أن لا يشككه أحد ولا يلبس عليه في سلب بعض فضائلهم التي اختصوا بها عن سلفه المعاصرين لهم من جهة إتقان العلوم والعمل بها ، ومن جهة اقتناء الفضائل والتحلق بأشرف الأخلاق ، وادعاء بعض مالهم من المآثر لمفاخر غيرهم من إخوانهم المعاصرين لهم والجائين بعدهم ليتوسل بذلك إلى أغراض له فاسدة لا يتمكن الوصول إليها مع ضبط الخلف آثار السلف ، وقال ابن فرحون في مقدمة كتابه الديباج بعد الحمد والصلاة ما نصه وبعد فإن أولى ما أتحف به الطالب للبيب ودون للأديب الأريب ، التعريف بحال من جعل ليده بينه وبين الله حجة , واتخذ اقتفاء هديه في الحلال والحرام أوضح محجة ، ثم حال الرواة عنه والناقلين منهم والمجتهدين في مذهبه والقائمين على أصوله ، والمفتين على قواعده ، والمدوّنين لمسائله ، وتميز باتهم في العلم والفهم والدين الورع والتعريف بثقاتهم ، وشهادة أهل العلم فيهم وفي مؤلفاتهم شرف العلم بهذا الفن معلوم ، والجهل به مذموم ، وليس هو مما قيل فيه علم لا ينفع وجهالة لا تضر ..إن ذلك مقول في علم الأنساب وهو فن غير هذا ، إنتهى الغرض من كلامه . وإنما سقته استدلالا على ما قررت من أن معرفة حملة الشريعة لا سبيل إلى التكاسل عنها ولا إلى إهمالها وإن أهمل غيرها من معرفة ..فبار إنتهى

تنبيه : يعلم من كلام ابن فرحون ما هو وظيفة من يتكلم في أخبار العلماء وتميز درجاتهم في العلم والفهم والدين والورع والتعريف بثقاتهم وشهادة أهل العلم فيهم ومؤلفاتهم ، وذلك هو الحق لا ما يفعله بعض المؤلفين في التراجم من تحيلة كل شخص يترجمونه بكل وصف دل على رفعة قدره في جميع العلوم وإن لم يروا له أثرا إلا في بعضها ، ولا يصفونه بغير أوصاف الكمال وليس ذلك من قبلهم ممن تكلم على الرواة والكتب بل يخبرون عن كل أحد بما كان فيه من خصلة وعن مرتبته في العلم وعن كل كتاب بما ظهر لهم أنه الحق ، وحاشاهم أن يقصدوا بذلك تنقيص أحد بل نصيحة من يبلغه الخطاب الذي تضمنه الكتاب يعرف ذلك من تتبع الآثار ، وبعض المؤلفين يخالف الطريق المألوف تحسينا للظن ، وتعصبا للقريب أو الشيخ ، ويملئون القراطيس بمثل ما ذكر إجمالا ، ثم

يعترف بعضهم بجهالة تفاصيل ما أطال في الكلام ولو أنهم اقتصروا على ما حققوا وسلكوا سبيل من قبلهم من ذكر اليسير المحقق ، والسكوت على الكثير مما لم يحقق وميزوا بين المراتب وبين الفنون التي يحققها المترجم والتي لم يحققها وله منها حظ ، والتي لاحظ له منها ، وذكروا شهود ما وصفوه به من الكمال من أشياخه وتلاميذه وآثاره العلمية لاستحقوا بذلك الشكر من الناس والأجر من الله واحتاطوا لدينهم ، وسلموا من قفو ما لا يعلمون ، وللتاج السبكي كلام في المقام ينبغي جلبه عنا نقله عنه الشيخ / أحمد بابا التنبكتي في تطريز الدباج ونصه : المؤرخون على شفا جرف هار لأنهم يتسلطون على أعراض الناس وربما مس أناسا تعصبا أو جهلا واعتمادا على نقل من لا يوثق به أو غيره من الأسباب فعلى المؤرخ أن يتقي الله قال الشيخ الوالد ـــ يعني السبكي الكبير ـــ الرأي أن لا يقبل مدح أو ذم المؤرخين إلا بشرط أن يكون صادقا ، وأن يعتمد اللفظ دون المعنى ، وأن يكون عارفا بحال من ترجمه علما ودينا وغيرهما من صفاته وهو عزيز جدا ، وأن يكون حسن العبارة عارفا بمدلولات الألفاظ حسن التصور حتى يتصور في حال ترجمته حال ذلك الشخص ويعبر عنه بما لا يزيد ولا ينقص من حاله ، وأن لا يغلبه الهوى فيطنب في مدح من يحبه أو يقصر في غيره ، إنتهى . وقد أطال ميارة في مثل هذا المقام في آخر متنه على شرح ابن عاشر بعد تمام المنظوم فلينظر إليه من أراد الإطناب ، أقول إنما سقت هذا نصيحة للمشتغلين بالتراجم من أصحابي ليجتهدوا في إخلاص عملهم لله ويحذروا مما ينكره العلماء ويسلكوا سبيل من قبلهم ، لا صدا لهم عن العمل ولا إنكارا عليهم لما لم ينكر شرعا ولا حضا لهم على الوقيعة في الأعراض ، وكيف أنكر عليهم وأنا عازم على الاستمداد مما كتبوه من المسموعات التي تبلغني وكثير مما شاهدته معهم فغبروا عنه وجمعوا شتاته ، وأدعو الله أن يلهمني وإياهم رشده ، وينفعنا بعلمنا ، وينفع به من كان معنا ومن سيأتي بعدنا من أهلنا ومن يبلغه من المسلمين حيث كانوا آمين .

المبحث الثالث

في الجواب عن إيراد يورده بعض المعاصرين من البلاد الخارجية عنّا حاصله لم أجمع أهل بلدكم على إهمال التواريخ وتدوين الآثار العلمية وغيرها مع الاعتراف من علمائكم باحتياج جميع الناس إليه لا سيما العلماء والأمراء ، وحاصل الجواب عن ذلك أن ملوك الذين يملكون هذه

البلاد من السودان والتوارق من القرن الثامن إلى يومنا هذا ، لم نسمع منهم أميرا عالما إلا إسكيا الحاج محمّد ، ومن سواه من الملوك إنما تغلبوا عليها بالقهر وليسوا من أهل الكتابة ولا من أهل التربيات السياسية ، وليس لهم بيت مال منتظم يضبطونه بالأقلام ، ولا سياسات يدونونها ، بل غاية أمرهم أخذ الغرامات من المغلوبين ، ومدافعة الهاجمين من المحاربين ، ومن العجب أن التواق لهم قلم خاص بهم لا يشاركهم فيه غيرهم من جيرانهم من العرب والسودان يسمى (تفيناغ) يتقنونه أشد الإتقان وتقع فيهم وقائع ينبغي أن تملى إلى آخر الدهر ، وكانت لهم دولت دامت مدة تزيد علي قرنين ، ولكن لم يضبطوا شيئا من متعلقات دولتهم بذلك القلم الخاص بهم ، وكذلك لهم حرف وصناعات وعلوم يتقنونها ويأخذها التلاميذ عن الأساتيذ كالطب ، وكيفية الصراع ، والفروسية ، ومكائد الحرب والضاربة بالسيوف ، وسياسة الدواب ، وسياسة المنازل ، وغير ذلك من الصنائع المتعلقة بمصالحهم كالحدادة ، والنجارة ، وحفر البئر وطيها ، وكثير مما يصنع من الجلود وغيرها مما لا يعلم إلا بالتعلم من أساتذته ولكن لا ترى من يضبط شيئا من تلك العلوم بقلمهم الخاص ولا من يشغل نفسه بتدوين شيء مهم به بل يراسلون به بعض الأحيان إذا لم يجدوا كاتبا عربيا ولا كثر أن يستعمل فيما ليس له بال ويستعمل القلم العربي واللسان العربي فيما له بال ، وإذا كان هذا حال أهل القلم الخاص من إهماله ، فكيف بغيرهم ممن لا قلم له خاصا ، وغالب الظن أن منشأ إهمالهم لاستعمال قلمهم في مهماتهم أنهم لما خالطوا العرب المسلمين وتلقفوا منهم الإسلام واللغة العربية أقبلوا على تعلم العربية لتوقف تحقيقهم الدين الإسلامي على معرفتها ، وتعذر عليهم كتابة اللغة العربية بقلمهم الخاص ، وكانت الدولة حينئذ في بلاد البربر وغيرها ، لأمة العربية ، لما كان الأمر كذلك أعرضوا عن غير القلم العربي كما أعرضوا عن كل دين سوى دين الإسلام ولكن لم يزل قلمه باقيا يعرفونه ثم آل أمر جهلهم إلى الإعراض عن التعلم رأسا ورفض كل قلم وترك أي عمل يضبط ونرى في البلد آثار قديمة على الأحجار مخطوطة به ولم تؤرخ ولم يدر أحد على التحقيق تاريخ زمان كتابتها هل كانت الكتابة قبل زمن الإسلام أو بعده ، وغالب الظن أنها وقعت قبله لما تقدم من رفضهم لما سوى القلم العربي بعد إسلامهم .. والله أعلم : ونسبة العلم إليه أسلم والتحقيق معدوم : والتكلف مشؤوم ثم إن الوطن الذي يعمره جيل أهل تماشق لم يزل صحاري ومناهل ومجالات يجول فيها أهله ويتحيرون ما يشاءون من منازله ، وليس لهم

قرية كبيرة في العصور الأخيرة وإن كانت لهم قديماً كمثل تمبكتو وتاجد وإيروان وان شجاعاً وتادمكت وإيكدز وغيرها ، من القرى الكبار التي كانت كل منها قاعدة لكثير من البلاد والسكان المتجولين في أعمالها فقد تغير الحال بعد ذلك بقرون ، وصارت تلك الأوطان أطلالاً إلى قليلاً وعمت الفوضى ولما كان أمرهم كذلك ضاع كثير مما دونوا من الأخبار وفاتهم تدوين كثير مما ينبغي أن يدون للطبيعة الصحراوية فإن ساكني الصحراء لا حاجة بهم إلى كثير من الأمور التي تؤرخ ويكتفون في تاريخ ما يعنيهم من الأمور بالأهلة كحالة العرب قبل الإسلام في أوائل الإسلام قبل الفتوحات الواقعة في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإنهم يكتفون عن تدوين التواريخ كما يدونها غيرهم بضبط الشهور والأعوان التي تقع فيها الوقائع الكبيرة وعن تدوين الوقائع بأشهرها كالحرب الواقعة بين قوم آخرين ووقوع واقعة عظمى عندهم أو شجاعة فلان أو وجود آخر أوحلمه وما لآل من المآثر والمفاخر واستيلاء آل فلان على ماء كذا أو بلد أو قبيلة وما وقع في ذلك من الملاحم والقتال والأشعار من غير مبالاة بتعيين الشهر الواقع فيه ذلك ولا باليوم وتلك الطبيعة من لوازم الصحراء لا فرق فيها بين بربري وعربي وغيرهما ولم يزل أهل صحرائنا على تلك الحالة حتى أن كثيراً من كتابهم إذا أراد أن يؤرخ شيئاً لم يجري على طريق المؤرخين من ذكر ما للهجرة أو الميلاد من السنين حين وقع ذلك بل يقول وقع كذا منذ كذا من الأعوام ثم لا يذكر العام الذي كتب فيه تاريخه فلا يفيد علماً وغير الكاتبين يقولون وقع كذا عام كذا الواقعة مشهورة ثم يعد الأعوام إلى عامه الذي هو فيه فبذلك يهتدي إلى معرفة ما بين وقته وبين وقت الواقعة من السنين ولم يسلم من هذه الصورة إلا قليل من العلماء تفطنوا لأن يعملوا كما يعمل المؤرخون وهذه الحالة التي عمت الصحراويين تخالف حالة الحواضر من العجم البيض الذين يحسبون بالشمس لا بالأهلة ولهم شؤون وأموال وضائع ومساكن وممالك ووقائع لا يقدرون على ضبطها إلا بالأقلام فإنهم ما زالوا يؤرخون قبل الإسلام يذكر اليوم من الشهر وذكر الشهر من العام وذكر ما قبل العام من الأعوام المبدوءة من وقت ما يؤرخون به ولا غنى لهم عن ذلك فلما فتح الله على المسلمين بلاد من تلك عادتهم وورثهم أرضهم وأموالهم احتاجوا في ضبط تلك الأملاك إلى ما يحتاج إليه الأولون من أهلها فعملوا تاريخهم المبدوء من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم ثم جرى عمل المسلمين المتحضرين بتاريخ الوقائع والباقون على سكن الصحاري من البربر والعرب لم يبالوا

بكثير من الوقائع بل حسبهم من التاريخ أن يعرفوا أسماء الآباء ومشاهير العلماء والأمراء ومن يتغلب على بلادهم من الملوك , ألا ترى أن المغاربة الذين يؤلفون في التواريخ ويتكلمون على الحضارات لا يوسعون القول في الدول المغربية كما يوسعونه في الأندلس ولا يؤرخون باليوم من الشهر غالباً بل بالعام بخلاف مؤرخي المشارقة فإنهم إذا أرخوا الواقعة ذكروا يومها وشهرها وعامها وكان ذلك الاختلاف بين متقدميهم لغلبة الصحراوية على المغاربة دون المشارقة والمتأخرين من المغاربة كصاحب الإستقصاء أحدثوا طريق المشارقة لعدم غلبة الصحراوية على حضارتهم ، وأما أهل بلادنا خصوصاً فلهم موانع من تدوين الآثار السلفية سوى مجرد الصحراوية ، منها ما لا يشترك فيه العلماء والأمراء ومنها ما يختص بالأمراء ومنها ما يختص بالعلماء ، أما ما يشترك فيه العلماء والأمراء فهو وظيفة المؤرخ أن يخبر عن كل واقع كما وقع فتفطنوا لأشياء يورثها نشر الوقائع من إثارة الفتنة والإحقاد بين الأحياء بذكر وقائع الأموات وخجل بعض الناس من أشياء وقعت من سلفه ، وربما جرى التباغض والتفاتن بين قوم وآخرين ثم يحدث التحاب بين أخلافهم فيكون ذكر ما وقع بين أسلافهم جفاءً ومنغصاً وربما وقع التباغض بين رجل وآخر أو قوم وآخرين ثم يحدث من عليه ولادة للجميع فيكون نشر أخبار سلفه سواء أدب في حقه فلما تفطنوا لذلك سدوا باب الأخبار عن الماضي تقديماً لمصلحة التعاضد والتواد على مصلحة العلم بالأخبار فضاع عليهم سبب ذلك كثير من المصالح وما درؤه من المفاسد أكثر ، قال شيخنا وشاعرنا محمود بن محمد الصالح في وصف قومه :

حيث السرائر لا تذاع لناشئ ... أن لا يرى ذا الصغر بعد تكهل

وأما المختص بالأمراء فهو أن بعض المؤرخين ذكر أن بعض سلاطين البلد أحرق الآثار السلفية عمداً ولم يعين جنس ذلك السلطان وبعض المؤرخين ينسبون إلى الفاجر سُنْ علي السوداني أنه مولع بذبح العلماء وتخريب ديارهم وتحريق كتبهم ، وبعضهم ينسب التحريق إلى أمراء إمُوشَاغْ وليس ذلك ببعيد لأنهم المبالغون في السكوت على الماضين حتى صار من عادتهم هجران أسماء الأموات وربما وقعت الفتنة والحروب فيما بينهم أو قتلوا غيرهم بلا سبب سوى تسمية اسم الميت بحضرة بعض أقاربهم ولا جفاء أشد عندهم من تلك التسمية وتبعهم على تلك العادة كثير من أهل البلد حتى رسخت فيهم فأعرضوا عن الأخبار

الماضية والآثار السلفية إلا قليلاً من العلماء المنتسبين للقرشية أو الأنصارية . ولعل الأمراء الذين ابتدعوا إماتة التواريخ عرضاً صحيحاً وهو إيهام الناس أن غلبتهم لم تزل ولن تزل وقد نجحوا في قصدهم فقد بلغ أهل البلد من الاستكانة لهم أن المولودين بعد انقراض دولتهم وتغلب فرنسا على وطنهم لم يزالوا معترفين لهم بالرياسة والسطوة التي لا تقاوم واستولت هيبتهم على قلوبهم تمسكاً بما وجدوا عليه آباءهم ، والغرض الذي يظن أنه مقصدهم سدوا أبواب الثورات على دولتهم فإن من ولد تحت القهر والغلبة ولم يسمع أن الغالب كان مغلوباً لا يزال تحت أمره مستكيناً لقهره منقاداً لأمره وزجره وينقطع طمعه في أن يتغير ما يراه ولا سيما إن انضم إلى ذلك انقطاع أخبار الآفاق عنه إلا وطنه الذي هو فيه كالمحصور بخلاف من انقطع على التواريخ وأولياء الإمارات وتنقلاتها فإنه ربما طمع في انتقال الأمر إليه إن كان أهلاً لذلك أو إلى أحب أو أقرب الناس إليه فيعينه بقدر طاقته إن لم يكن هو أهلاً أو يرحل إلى بعض الدول القريبة منه مستعيناً أو مستغيثاً أو خارجاً عن أهل الدولة وتلك المحذورات مأمونة لهم بجهل الرعايا ما تفعله الأمم فإن من لا يعرف آباءه أو لا يعرف أخبارهم لا يطلب ملكهم إن كانوا ملوكاً ولا يشغب على الملوك ومن لا يعرف أحوال الأقطار ولا يعرف أن الملك ينتقل عن قوم إلى آخرين بل يحسب أن كل فرع كأصله لا يتأمر إلا ابن الأمير ولا يكون الأمير إلا كأبيه في الإمارة كما يقرره سادات البلد فإذا هان اتباعهم وأمثالهم من الجهال لا يخرج عن الملوك ولا يتسور عن الملك في الغالب ولا ريب أن إولمّدن في أيام ملكهم لا يجترأ أحد من رعاياهم على الخروج إلى الآفاق لما يعرفه من سدهم أبواب المواصلات وحرصهم على حرية بلادهم ولا شك أنهم تمتعوا مدة طويلة بجهل اتباعهم ما حولهم وما قبلهم حتى أن بعض أهل بلادهم لا يعرفون من المأمور إلا ما تحت مملكتهم ، وبعض علمائهم يعرف أسماء البلاد التي يراها في الكتب ولكن يحسبه عدمت فلا يخطر بباله أن يراها فضلاً عن أن يواصل أهلها وكثير منهم إذا حدث بأخبار الماضين ينقل شيئاً من أخبار عصر أهل الصحابة ثم قليلاً من أخبار أمراء السودان ثم يشرع في أخبار إولمّدن ولا شعور له بما سوى ذلك ولا مبالاة لأنه يقصر الملك في آل كردنّ والعلم في علماء السوقيين كناتة وهؤلاء الأمراء الذين قرروا في أذهان أهل بلادهم هذه الفكرة العلية وأن تمتعوا بها فاتهم بسببها من مصالح المواصلات أكثر مما تمتعوا به غلبة اتباعهم فإن من أسباب انتقال الملك عنهم واستيلاء العدو على أوطانهم جهلهم بالأخبار وسدهم

الطرق بينهم وبين جميع الآفاق حتى تخيلوا جميع السياسات على خلاف حقيقتها وإذا أراد الله زوالها هيئ أسبابه وأزال موانعه ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، أما ما قبل أيام إولمّدن فلا سبيل إلى تحقيق الكلام عليه لما تقرر من إماتتهم ما قبلهم من الأخبار إلا أن كثيراً من قبائل البلد يزعمون الرياسات ويدعون أن لهم فيها أصولاً سابقة على أيام إموشاغ ولكن لهم عادة مقررة تمنع من تدوين تاريخهم وهي تقديم الأم في الرعاية على الأب إلى حد أن الإمارات لا تنال إلا بالأمهات إذا مات الأمير لا يستخلفون مكانه إلا ابن أمه أو جدته ولا يسألون عن الآباء. ومنهم من ينسب إلى جدته التي يتعزز بها ويسكت عن آبائه . ومنهم من غلا في تلك العادة الشنيعة إلى حرمان الابن من ميراث أبيه واستيلاء ابن الأخت أو ابن الأم عليه وحاول الناس أن يغيروا تلك الفجيعة ويكونوا كسائر المسلمين فأبوا واستمروا عليها إلى الآن فكيف يتكلم في أنساب من هذا حاله فضلاً عن معرفة أخبارهم .

وأما المختص بالعلماء من موانع التدوين سوى ما تقدم من الصحراوية فلا تكال على جودة القرائح وسيلان الأذهان وغزارة الحفظ ترى منهم جماعات كثيرة يقيدون ما يملي عليهم مشايخهم من الدروس حرصاً على ألفاظهم وجماعات يكتفون بحفظهم عن التقييد بالكتابة فيضبطون دروسهم وخطب خطبائهم وكثيراً من أشعار شعرائهم وكان المقصود الأهم عندهم هو الحفظ دون تكثير الكتابة ويخصون الكتابة التواليف القديمة واستغنوا بها عن إنشاء غيرها وترى من يقص عليك مروياته عن أسلافه وأشياخه غير متلعثم ولا مخلط ويسندها إلى من رواها عنه ولو ذهبت تكتب عنه ما يقص عليك وما يقرأ لجمعت دفاتر كثيرة ومنهم من يحفظ المتون التي قرأها من صغره إلى كبره في جميع الفنون ومنهم من يحلف أن ما أخذ عن شيخه هو الذي أخبر بحروفه بعينها من غير زيد ولا نقص ومنهم من يؤدب ولده ويوصيه ويلقنه سيرة أسلافه ولا يكتب الراوي ولا المروي عنه شيئا من تلك الوصايا وإن كان كل منهما من فرسان الكتاب ثم تنقل عنه تلك المرويات وتتسلسل فيمن بعدهم بالإسنادات الصحيحة من غير كتابة وينضاف إلى ذلك شدة الورع من كثيرين منهم فلا يخوضون فيما لم يشاهدوه من الأخبار خشية الكذب وما يشاهدونه من الوقائع في أنفسهم يمنعهم من نشرها شدة التواضع وشدة الإشفاق من زلازل آخر الزمان ووقوع الأشراط الكبرى أو بعضها ليس منهم من يرجو أن يكون بعد يومه من ينتفع بعلم حتى يشتغل بتدوين العلوم

والأخبار له وقد أدركنا من أسلافنا من كاد يجزم بانقراض الدنيا قبل أيامنا وسمعنا عن أسلافهم وأسلاف أسلافهم مثل ذلك منذ قرون فزهد كثير منهم في التصنيف في العلوم فضلاً عن تاريخ الوقائع ، هذا هو حالة الجمهور من علماء الدغوغيين وغيرهم من الحسنيين والأنصاريين والكنتيين من يحرص على تاريخ كتاب ألفه أو كتبه ومنهم من يؤلف في إيضاح المشكلات من سائر الفنون وأكثر مؤلفاتهم الرد على المبتدعين والمفتيين بغير المشهور من المذهب المالكي والذب عن طريقتهم وطريقة أسلافهم إذا ورد عليهم بعض المنكرين من غيرهم فيبينوا للأول فساد زعمه ومذهبه وللثاني حجتهم فيما ينكره عليهم وجل ما وقفت عليه من الآثار السلفية كله من هذين الشعبين والشعب الكنتي السوقي الباقي على العربية كما سيقف عليه من يقرأ تراجمهم فيما يأتي ، وأما حفظ سلاسل الأنساب فهو من خصوصيات هذين الشعبين أيضاً فهم الذين يعتنون بضبط سلاسل آبائهم من الجد الأدنى إلى علي بن أبي طالب أو إلى يعقوب أو أيوب الأنصاريين ويضبطون لأهل بلدهم من سلاسل أنسابهم كثيراً وينحو منحاهم في حفظ الأنساب وضبط سلاسلها من صار إلى السوقية بعد الكنتية من أولاد محمد الكنتي الجامع لقبائل كناتة العربية ومن ينتمي إليه من السوقية وغيرهم فقد كان منهم جماعات من العلماء يؤلفون ويتمسكون بقريشيتهم ويضبطون أنساب بني عمهم المتفرقين في القبائل الغير المتعلمة ولولا أن الله تدارك هذا الوطن بمن ورد على أهله من القرشيين والأنصاريين لدرست معالمه لما تكفيه من أسباب التأخر في الداخل والخارج ولا يزال الخلاف قائماً بين طبيعة أهل البلد العامة الراسخة وبين سياسات العلماء المبنية على اتباع السنة والتمسك بشيء من الأصل العربي من جهة الكتابة فكان العلماء منا يقيدون بالكتابة تارةً ويهملون تارةً وما أشبه حالهم بما وصف به بعض المؤلفين أهل المغرب حتى كأنه ما أراد إلا إياهم ونص كلام ذلك المؤلف وهو أبو عبد الله سيدي محمد بن أحمد الشاطيبي الأندلسي في كتابه الجمّان في مختصر أنباء الزمان ما نصه : وقال صاحب التنبيه على من لم يقع به من فضلاء فاس تنويه ما نصه : ومعلوم من شأن أهل هذه البلاد يعني المغربية عدم الاعتناء بالتعريف والتصدي لذلك بالتأليف أو تصنيف فكم من إمام مضى وسيد جحجاح موصوفاً بالعلم أو مشهوراً بالخير والصلاح لم يقع لهم به اعتناء واحتفال بل ألقي في زوايا الإهمال والاخفال ، مر إلى أن قال فمعلوم من تحقيق المغاربة عدم التسارع للتصدي للتأليف ووضعها اكتفاء بكتب الأقدمين لاستيعابها أصول

المسائل وجمعها لم يدع من مضى للذي قد غبر ... فضل علم سوى أخذه بالأثر.
وقد كانوا رضي الله عنهم مع جلالة علومهم ووفور دياناتهم وعقولهم كثيراً ما يتهمون أنفسهم بالعجز والتقصير ويرون أنهم ليسوا أهلاً للتأليف والتصدير ركوناً منهم لزوايا الخمول وإيثاراً للنجاة خوف أن يكون العمل معلول وسلوكاً لطريق السلامة الذي هو دليل على متانة الدين وعلامة ولذلك قلت لهم المؤلفات التي هي سبب الشهرة في الحياة وبقاء الذكر بعد الممات وتجد العالم إذا لم يؤلف وأدركته الوفاة ينقطع ذكره كأن لم تتقدم له حياة فكم شهدنا من عالم كبير من شيوخنا وغيرهم زين الله الدنيا بذخائر علومه لم يبق له ذكر بعد موته ذكر يحي ميت رسومه ولا أمر يدل على مطالع نجومه .انتهى كلامه
وإنما سقته لأمرين :
أحدهما: ما وقع من عجيب الاتفاق بين أهل فاس وبين السوقيين مع شدة التباعد في الوطن.

الثاني: ما استفدته من أن المغاربة الذين هم أشياخ بلادنا وأسلاف بعضهم لا يعتنون بالتواريخ التواليف كما يعتني بها غيرهم فما تعوده أسلافنا من ترك التواليف إنما تعودوه اقتداء بهم للعلل التي ذكرها المؤلف لا لمجرد التقصير فهو أحسن ما رأيت من التعبير عن حالة أسلافنا وأشياخنا فحق على من يترجمهم أن يترك كثيراً ممن يستحق الذكر ويقتصر على اليسير من أخبار من يذكرهم لعدم أثر كبير وعبارات الإمام السيوطي بعد كلام في تراجم كثير من العلماء وجملة الأمر أن العلم انتهى إلى من ذكرنا من أهل المصر على الترتيب الذي رتبناه وهؤلاء أصحاب الكتب والمرجوع إليهم في العلم وما أخللنا بذكر أحد إلا لسبب إما لأنه ليس بإمام معول عليه وإما لأنه لم يخرج من تلامذته أحد يحي ذكره ولا من تأليفه شيء يلزم الناس نشره كإمساكنا عن ذكر اليزيديين وهم بيت علم .. انتهى وعذره هو عذري في الإمساك عن ترجمة كثيرين من العلماء الذين لم أر آثارهم ولا تلاميذهم والله ينفعني وينفع المسلمين لما سأجمعه من مآثرهم وآثارهم ويعينني على نشر ما جمعت من أخبارهم إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير .

الباب الأول

في التعريف بالأجناس الذين أعزم على تاريخ أخبارهم وهم أجناس كل تماشق ومن يليهم من السودان والساكنين في شمال أفريقية الغربية وبالبلاد المتكلم على سكانها وهي بلاد السودان والطوارق.

وفيه أربعة فصول :

الفصل الأول

في تقسيم أجناس سكانها

اعلم أن سكان البلد الأصليين الذين اتفقت كلمة من وقفت على كلامه من المؤرخين على قدمهم فيه بحيث لا تعرف أولية وجودهم له صنفان من الناس ، أبيض وهو التوارق وأسود وهو جيل سنغاي وأما من جاورهم في الوطن من العرب والفلاني فإنما وصلوا إلى بلادهم بعد الفتوح الإسلامية وأما الوطن الجامع للقبائل المؤرخة فيسمه القرن الحادي عشر وما بعده اسم التكرور اقتداء بأهل مصر الذين يسمون بلاد هوسا وغاو و تنبكت ومالي ببلاد التكرور وذلك جهل من المصريين بحقيقة الأمر فإن التكرور بلاد بساحل المحيط غربي دولة مالي وكان أهله أمة مستقلة قبل امتداد دولة مالي أيام منس موسى فلما استولى عليها صارت جزء من دولته ثم أطلق الاسم على بلاد غاو حيث صارت عاصمة البلاد أيام دولة آل إسكيا ثم أطلق على بلاد هوس أيام دولة آل فودا وما بعده وجميع تلك الاطلقات نما تصدر أولا من الجاهلين بمكان التكرور ثم يصير ذلك متعارفا بين سائر الأجيال حتى أن أهل الحجاز في هذا الزمان لا يطلقون اسم التكرور إلا على بلاد هوس ثم على جميع السودان كما أن الكتاب الأولين في صحرائنا لا يطلقون الاسم المذكور إلا على بلاد غاو تبعا لما ذكرت من عرف المصريين وأما العارفون بأحوال البلاد وحقيقتها فلا يطلقون على بلادنا اسم التكرور بل إما أن يضيفوها إلى تنبكت أو إلى غاو أو يسموها باسم عام لها أو لغيرها وهو صحراء الملثمين والملثمون أجيال مختلفة وقبائل متعددة من البيض والسود ولكن غلب عليهم اسم سنغي لأن الرياسة كانت فيهم في زمن قديم على من عداهم فقد ذكر ابن خلدون أنهم من الزنوج وأنهم قدماء في الوطن الذي يعمرونه ما بين بلاد الحبشة إلا بلاد سنغي وهم أمم وأجيال لا يحصي عددهم إلا الله تعالى ويأتي الكلام عليهم إن شاء الله . وأما الصنف الأبيض وهو المسمى

بلسان التوارق كل تماشق وبلسان العرب التوارق فقال المؤرخ المصري عبد الرحمن زكي في كتابه تاريخ الدول الإسلامية السودانية وهو مؤرخ جديد ما لفظه : وسكان الصحراء أساسا من الجنس الأبيض ويرجعون إلى أصل من البربر أو العرب البربر وغالبيتهم بصفة عامة من البدو الرحل البربر من الشعوب البيضاء بأفريقيا ومواطنهم الحالية الزاوية الشمالية الغربية من القارة الأفريقية أي جهات أطلس والأقطار الوسطى وبلاد سنغال وساحل الأطلنطي ويساكنهم العرب في بعض هذه الجهات إنتهى كلامه ، قلت هذه المساكين التي ذكرها للبربر بين أطلس وفازان صار جل أهلها متعربين كبلاد موريتانيا والجزائر وليبيا وبعض أهلها إن دمج في أمم السودان بزي واللسان حتى نسية بربريته وهم كثيرون في دولة نيجر وبعض دولة مالي والباقون على الصفات البربرية كاللسان البربري منهم جيل كل تماشق ومساكنهم الآن ما بين ممت إلى صحراء ليبيا فالعرض ذكر هؤلاء الباقين على الأصل إنتهى . وأما أصلهم فقيل صنهاجة وقيل غير ذلك وأما ابن خلدون فعدهم من صنهاجة حين تكلم على مساكنهم فقال في صفحة 197 من الجزء السادس من كتاب العبر ما لفظه وأما حد المغرب من جهة القبلة الجنوب فالرمال المنهلة الماثلة حجزا بين بلاد السودان وبلاد البربر وتعرف عند الرحالة البادية بالعرق وهذا العرق سياج على المغرب من جهة الجنوب مبتدءا من البحر المحيط وذاهبا في جهة الشرق على سمة واحد إلى أن يعترضه النيل الهابط من مصر فهنالك ينقطع . مر إلى أن قال وإلى هذه العدوة الجنوبية من هذا العرق ينتهي في بعض السنين مجالات أهل اللسان من صنهاجة ومتقلب هم الحائلون هناك إلى بلاد السودان وفي العدوة الشمالية منه مجالات البادية من الأعراب الظواعن بالمغرب وكانت قبلهم مجالات للبربر إنتهى العرض منه . وذكر أيضا أن بعض هوارته جاوروا العرق المذكورة إلى جهة الجنوب حتى وصلوا إلى بلاد غوغو في زمن سابق عن الإسلام بكثير لا يعرف أوله إهـ

وما ذكروه من مجهولية أولية سكن هؤلاء البيض لمنازلهم التي كانوا فيها في الصحراء هو الذي عليه المؤرخون المسلمون الذين لا يعرفون شيئا عما قبل الإسلام وأما غيرهم من أمم العجم الذين يؤرخون فيما قبل الإسلام فيذكرون عن أوليتهم أشياء منها ما نقلته من خط ابن عمي المحمود بن أحمد بن سعد ناقلا له عن مجلة المغربية تصدرها الدولة

المغربية إلى المدينة المنورة باسم دعوة الحق وصورة ما كتبه منها :
هكذا لقد أغارت قبائل صنهاجة وزناتة على الصحراء المغربية في القرن الثالث الميلادي وما زالوا يتوغلون فيها حتى وصلوا إلى السنغال والسودان وكانوا كل ما توغلوا عملوا على حفر الآبار وغرس النخيل وإقامة المضارب في الواحات وحينما فتح العرب هذه البلاد وكانوا على جانب من الرفه والثقافة بدأ الاحتكاك بينهم وبين البربر الرعاة البدائيين فكان ذلك بداية وحدة روحية وسلالية وسياسية إلى حد ما وقد نشاء عن هذا الاختلاط هؤلاء القوم الصحراويون الذين حافظوا على البنيان الاجتماعي كالعادات والاعراب البربرية وأخذوا عن العرب اللغة والكتابة والدين والثقافة . إنتهى . من كتاب حضارات الصحراء وفيه أيضا تحت عنوان الطوارق : وتبدأ المرحلة الثالثة حوالي ألف ومائتين قبل الميلاد وهو مرحلة الحاصان حيث يشاهد على الجدران الصخرية صورة تمثل المحاربين ينتطون عربات تجرها الخيول ويعتقد بأن السكان لليبيا الذين قاموا بحركة توسعية إذ مكنهم انفرادهم باستخدام العربات من مدّ سلطاتهم إلى ضفاف النيجر وربما ينحدر الطوارق الحاليون من هؤلاء ، إنتهى كلامه ، ومراده منه ذكر شيء مما ذكره ابن خلدون وغيره أنهم لا يعرفونه من أولية طروق الطوارق لأوطانهم التي يسكنوها في الحال ومن المؤلفين في هذا العصر من ذكر أن مدة إقامتهم فيها تزيد على ثلاثة آلف سنة وذلك يبطل ما أذاعه بعض من يدعي العلم بالأخبار بأنهم ليسوا من أهل البلد أصالة بلهم مهاجرون إليه من ليبيا والجزائر والمغرب ولكن لم يثبت الأصالة في وطنهم لغيرهم من الأجيال بل زعمه خلاء لا ساكن فيه وهذه الدعوة تحتاج إلى بينة فإن لم توجد عليها بينة فما خالفها هو الأصل والله أعلم ونسبة العلم إليه أسلم .
وذكر عبد الرحمن السعدي في كتابه تاريخ السودان ما نصه : الباب الثامن في تعريف التوارق وهم المسوفة ينسبون إلى صنهاجة و صنهاجة يرفعون أنسابهم إلى حمير كما في كتاب الحلل الموشية في ذكر أخبار المراكشية ونصه : هؤلاء لمتونة ينتمون إلى لمتونه وهي من أولا لمت ولمت وجدالة ولمط ومصطوفة ينسبون إلى صنهاجة فلمت جد لمتونة وجدال ولمط جد لمطت ومصطوفة جد مسوفة وهم ظواعن في الصحراء رحالة لا يطمئن بهم منزل ليس لهم مدينة يأوون إليها ومراحلهم في الصحراء مسيرة شهرين ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام ولبس بينهم وبين البربر نسب إلا الرحم . إهـ

ثم قال في ذكر سبب خروجهم من اليمن ما نصه : لما مات تبع المؤمن غلب أهل الكفر أهل الإيمان فكان كل من آمن مع تبع بين قتيلا وطريد ومطرود وشريد فعند ذلك تلثموا بفعل نسائهم في ذلك الزمان وفروا بأنفسهم فتفرقوا في الأقطار أيام سبأ فكان خروج سلفهم الملثمين عن اليمن ما ذكر وكانوا أول من تلثم ثم انتقلوا من قطر إلى قطر ومن مكان إلى مكان بانتقال الأيام والأزمان حتى صاروا بالغرب الأقصى بلاد البربر فاحتلوا به واستوطنوه وصار اللثام زيا لهم ولأعقابهم لا يفارقونه إلى هذا العهد إنتهى الغرض من كلامه وهو صريح في أن أهل بلادنا هم التوارق وأن التوارق ليسوا من البربر أصالة ومن أصحابه المؤرخين من يعدهم من قبائل البربر مثل زناته وهوارة وفي الجزء الرابع من البيان المغربي لبن عزري 183ص ما لفظه الذي وجدته أن أصل هؤلاء القوم يعني الملثمين من حمير بن سبأ وهم أصحاب خيل وإبل وشياه يسكنون الصحارى الجنوبية وينتقلون من ماء إلى ماء كالعرب وبيوتهم من الشعر ولوبر وأول من جمعهم وحرضهم على القتال وأطمعهم في تملك البلاد عبد الله بن ياسين الفقيه وقتل في حرب جرت له مع برغطة وقام مقامه أبو بكر بن عمر الصنهاجي الصحراوي وكان اللثام سنة لهم يتوارثونه سلفا عن سلف وسبب ذلك أن حميرا تتلثم لشدة الحر والبرد تفعله الخواص منه فكثر ذلك حتى صارت تفعله عامتهم وقيل كان سببه أن قوما من أعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم إذا غابوا عن بيوتهم يطرقون الحي فيأخذون المال والحريم فأشار عليهم بعض مشائخهم أن يبعثوا النساء في زي الرجال إلى ناحية ويعقد من في البيوت ملثمين في زي النساء فإذا أتاهم العدو ظنوهم النساء فيخرجون عليهم ففعلوا ذلك وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوهم ولزموا اللثام تبركا به لما حصل لهم من الظفر بالعدو وقال شيخنا الحافظ عز الدين بن الأثير في تاريخه الكبير ما مثاله وقيل إن سبب تلثمه أن طائفة من لمتونه خرجوا مغيرين على عدو لهم وخالهم العدو إلى بيوتهم ولم يكن بها إلا المشائخ والنساء والصبيان فلما تحقق المشائخ أنه العدو أمر النساء أن يلبسن ثياب الرجال ويتلثمن ويضيقنه حتى لا يعرفن ويلبسن السلاح ففعلن ذلك وقد تقدم المشائخ والصبيان أمامهم واستدار النساء بالبيوت فلما أشرف العدو فرأى جمعا فظنه رجالا وقالوا هؤلاء عند حريمهم يقاتلون عنهم قتال الموت والرأي أن نسوق النعم ونمضي فإن اتبعونا قاتلناهم خارجا عن حريمهم بينما هم في جمع النعم من المراعي إذ أقبل الرجال إلى الحي فبقي العدو بينهم وبين النساء فقتلوا من العدو خلقا كثيرا وكان من قتل للنساء أكثر فمن

ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه فلا يعرف الشيخ من الشاب ولا يزيلونه ليلا ولا نهارا ومما قيل في اللثام شعرا :-

قوم لهم درك العلى من حمير ... وإن انتموا صنهاجة فهموا هموا
لما حووا إحراز كل فضيلة ... غلب الحياء عليهم فتلثموا
إنتهى كلام ابن عزاري .

وأما الصنف الأسود الذي يجاور البيض في الوطن أصالة ويمكن الكلام على بعض أخبارهم وأحوالهم فهم سكان نهر النيجر من قبائل السودان ما بين بلاد السنغال إلى شمال نيجريا وهم المسمى بشمال غرب أفريقيا وهم وإن كانوا في العصر الحاضر دولا متعددة لكنهم في الزمن القديم بينهم ارتباط شديد حتى صاروا بحيث يجمعهم سلطان واحد .

الفصل الثاني

في تحديد منازلها

اعلم أن التحديد بالمصطلحات الدولية الجديدة لا يمكن في هذا الوطن لأن جميع غربي أفريقية الذي كان الوطن جزء منه لا يعتبر أهله من الحدود ما يعتبر غيرهم فقد قال عبد الرحمن زكي المصري مؤرخ الدول الإسلامية الغربية الإفريقية في كتابه الذي لخص فيه زبدة ثلاثين مؤلفا من التاريخ بعضها لرحالي العرب ، وبعضها لباحث الأفرنج ، ما لفظه : ليس من اليسير تحديد الحدود الشمالية والشرقية لغربي أفريقيا فليس هنالك في الشرق أو في الشمال حواجز تعتبر علامات بارزة تحدد اتساع الأقاليم التي تحتوي عليها أفريقية الغربية ولم تكن الصحاري أو النهران الكبيران النيجر والسنغال اللذان يجريان بمحاذاة حافة الصحراء لتصد أو تعطل الشعوب المختلفة أو تعرقل تجارتهم ، مر إلى أن قال في الكلام على الصحراء : ويشغل قبائل الطوارق نحو نصف الصحراء وهم أقوام البربر ينزلون الجهات الوسطى من الصحراء العربية وينقسمون إلى أربعة أقسام سياسية كبرى ، كل منهما يقيم في أمكنة وامقاع خاصة وهي: قبائل أجّرْ بالشمال الشرقي .

وقبائل آهكّار بالشمال الغربي .

وقبائل أير إ واسْبنُ المتخالفة بالجنوب الشرقي من هضبة آير.

وقبائل إولمّدن بالجنوب الغربي وبعض بلادها جبلي هو بلاد أدْغَاغ وبعضها سهل.إهـ

وقال في الكلام على سنغي ما لفظه : وتحتمل أي بلاد سنغي الأقاليم الواقع في جنوبي تنكت ومنحني نهر النيجر وأصل سنغي : زنوج اختلطوا بالكثير من الدماء الحاميّة ، وبرغم اختلاطهم بالطوارق وللفلان فإنهم يؤلفون شعبا واحدا في جميع مظاهره ويتكلم لغة واحدة ويتخذ من الإسلام دين له . إهـ كلامه في تصريح بما قدم الإشارة إليه من عجزه عن تحديد الأوطان الصحراوية حيث ذكر أقسام الطوارق الأربعة وذكر سنغي ولم يذكر أي حد بينهم وبين غيرهم من الأمم المحدقة بهم من جميع الجهات .

وأما التحديد الإجمالي الذي هو غاية ما يمكن فيما نحن بصدده فطريقته أن يقال : حد مساكن الطوارق من جهة الشمال حدود المغرب الأدنى والأوسط والأقصى من جهة الجنوب والمراد بالمغرب الأدنى في عرف المؤرخين دولة تونس لأنه الأدنى إلى بلاد المشرق التي هي أصل الديانات الرياسات ، والأقصى دولة المغرب التي كانت عاصمتها بساحل البحر المحيط لأنها أبعد من بلاد المشرق ، والوسطى دولة الجزائر ، وهذه الدول الثلاث وإن كانت عواصمها بساحل البحر ، لكن كل واحدة منها لها حظ وافر من الصحراء ينتهي إلى العرق الذي يسمى بأدرْارْ كما تقدم عن ابن خلدون ، وتحاذيهم في الصحراء بلاد الطوارق الممتدة من ساحل البحر الغربي إلى حدود مصر من جهة المشرق ، وأما جهة الجنوب فليس للطوارق حدود فيها إلا الحدود التي أحدثها الأفرنج بين الدول كالحدود التي بين مالي وبلاد ولت ، ثم التي بين نيجر ودهومى ثم التي بين نيجريا الشمالية والجنوبية فإن ما تشتمل عليه نيجريا الشمالية وهي " بلاد كنو وسكتو وأتباعها " من الأمم السوداء ، وما تشتمل عليه نيجر وما تشتمل عليه مالي كل ذلك لم يتخذ حدا بينه وبين الطوارق وفيما أعلم ، فليس لهم حدود من جهة الشمال إلا حدود الطوارق ، كما لم يمكن للطوارق حدود من جهة الجنوب إلا حدودهم ، وأما دولة سنغال فهي في الأصل شيء من دولة مالي كما أن موريتانيا في الأصل قسم من الطوارق ، ولكن منذ انقطع أهل موريتانيا عن إخوانهم من الطوارق وتعربوا ما زالوا يدخلون سنغال ويواصلونهم كمواصلة أهل تماشق

لسنغي وهوسا ، حتى صار الأمر إلى التقاطع ولسان حال الجميع ينشد :
كلانا غني عن أخيه حياته ... ونحن إذا متنا أشد تغانيا

فلما الأمر هكذا من التقاطع بعد التواصل والتباين بعد التداخل اقتصر كل أهل الإقليم على خبرهم اعرضوا عما سواه من الأقاليم وإن كان أهله من جنسهم أو من قرابتهم كما هو واضح من آثارهم من وقفت على آثارهم من المؤرخين السودانيين من أهل تنبكت وأهل سكت وغيرهم ومن الكتاب الطوارق ، فإن صاحب الوسيط لما تكلم على صحرائهم وقبائلهم لم يلتفت إلى صحرائنا كأنه لا علم له بها إلا تنبكت وأزواد حيث تسكن قبائل العرب ، وأما مساكن الطوارق فلم يذكر منها شيئا وكذلك من وقفت على خطوطهم من أسلافنا وغيرهم من علماء بلادنا لا يتكلمون على أهل موريتانيا بل يحسبونهم من أهل المغرب ، وكذلك مؤرخوا نيجريا الذين رأيت آثارهم لم أر منهم اعتناء بأخبار سنغال كاعتنائهم بأخبار نيجر ومالي ، والسعدي والفتاش والشيخ / أحمد بابا قبلهما كأنهم لا يذكرون بلاد سنغال إلا تبعا .

فلما كان حال من قبلي كما ترى من إهمال الأقاليم التي لا يستوطنونها ، تعين على مثلي ممن يستمد منهم أن لا يوسع القول في مهملهم بل يقتصر على الدول الثلاث التي تجتمع بين السودان والطوارق وهي : نيجر ، ومالي ، ونيجريا ، فإنها هي المتواصلة فيما بينها قديما وحديثا كما أن كل أخذة منها بانفرادها تشمل على جنسين أبيض وأسود بينهما غاية الارتباط والتواصل بحيث إذا حارب أحد الجنسين مجانسه من دولة أخرى ، عاونه صاحبه المخالف له في اللغة والجنس ولا يعد نفسه أجنبيا بل أخا ناصحا يتضرر بضرر صاحبه ويفرح بفرحه وإذا حارب البيض من أهل مالي مثلا ، سودان نيجر حاربهم معهم بيضانهم ولا يعتبرون ا لجنسية بل الوطنية ، وكذلك العكس ، وتفاصل ذلك تخرج عن المقصود ، غاية الأمر أن البيض والسود المبحوث عنهم لا يتصور أن تكون بينهم حدود لأن مقتضى ما أعلم من أخبار البلد أن أهله لا يخلون من أحد أمرين أما أن يجمعهم سلطان واحد كما في أيام منس موسى وأيام إسكيا الكبير ، وإما أن تعمهم الفوضى فيستقل كل حي من أحياء كل من الفريقين بأمره وإمارته ، ففي الحالة الأولى لا يتصور التحديد بين دولة واحدة ، وفي الثانية وهي حالة الفوضى لا يجر أحد الفريقين أو الجنسين على صاحبه في المنازل ، بل نرى أن بعض السودان اختار مساكنة البيضان في الصحراء وأن بعض البيضان اختار مساكنة السودان في

منازلهم ولست أنفي التهارج بين الجنسين مطلقا إذ قد يقع بين أهل حي واحد بل المرء وشقيقه بل إنما المنفي أن تتفق إحدى الجنسيتين من مبدئها إلى منتهاها على محاربة الأخرى ومقاطعتها بحيث يضرب حد بين مساكن قوم ومساكن آخرين لا يجاوزه أحد فأنتج ذلك الامتزاج والاتصال أن بين الفريقين منازل يمتزج فيها السود والبيض كامتزاج الماء بالراح مع أن بعض السودان لهم منازل لا يسكنها أبيض ، وبعض البيض لهم منازل لا يسكنها أسود ، مثلا توارق دولة مالي كلهم تحت ولاية العامل الكبير (1)

(1) 1) كتبت هذا في وقت اتحاد (تنبكت وكاو) وبعد ذلك كانت تنبكت محافظة منفصلة ثم بعد ذلك بأعوام كانت (كدال) محافظة .

في كاو ، إلا يسيرا كان تحت حكم مُمْتِ فإذا سرت من بلاد كُنْدَام التي هي آخر حكم كاو مصاحبا للنيل المعروف عند الناس بنهر النيجر لا تزال تسير في قرى متصلة للسودان ، منهم من كان من أهل سنغي ، ومنهم من كان من الفلان ، وأما الرماة فليسوا إلا فيما بين كاو وتنبكت ، وجميع تلك المنازل يتخللها أحياء التوارق ، تارة يكونون معهم ، وتارة يكونون في عواليهم يريدون ماءهم ، ولا تزال كذلك حتى تصل إلى لَبْزَيْ التي هي الحد بين مالي و نيجر ، وليس في بلاد أوظ التي تحكم عليها كاو قرية للسودان تبعد عن البحر وتتواغل في الصحراء إلا قرية حكومية ، بل جميع صحراء أوظ مختص سكناها بالطوارق ويجولون فيها ليس لهم قرية بل ظواعن ، جالون يتخيرون أي منزل طاب لهم في وطنهم ويخالطوهم العرب أو المتغربون في بعض تلك المنازل وكذلك أعمال كاو في أربند ليس فيها قرية سوداء إلا هدّار وهي بيوت قليلة بعضها من الفلان وبعضها من بَنْبَرَ ، وبعكس ما كان في بلد كاو وبلد مُمْتِ فإنه للسودان ، وفيه قليل من البيض ، وأما ممت من قرى مالي فلم يكن تحت حكمه أبيض ، فإذا سرت من لبزيّ مغربا لا تزال تسير في الطوارق حيا فحيا حتى ينتهي حكم كاو ، وإذا سرت من تنبكت إلى جهة الجنوب لا تزال فيهم أيضا حتى تنتهي إلى سلسلة الجبال المتصلة من هُنْبَر إلى دَوَنْسَا ، فهناك تبتدأ في المنازل المختصة بالسودان إلى آخر الحدود بين مالي ، و وَلَّتَ ولت ، وإذا سرت من لبزيّ مشرقا لا ترى

قرية من السودان حتى تنتهي إلى الحدود الشرقية ، وكذلك إذا شرقت من كندام لا ترى إلا الطوارق أو العرب حتى تنتهي إلى حدود مالي من جهة المشرق ، وليس عن يسارك شيء من السكان إلا قليلا ، وأما دولة نيجر فصحرائها يمتزج فيها الجنسان أكثر من دولة مالي ، فإن جيل زَرْما الذين كان منهم رئيس نيجر كلهم صحراويون إلا قليلا ، وكذلك من كان من أهل سنغي في أربند صحراويون بل ليس في صحراء أربند من دولة نيجر شيء من التوارق إلا أحياء قليلين يجمعهم أمير واحد من آل وزّيْد ، مع أن كل حي منهم لهم أمير خاص ، ومركزهم أرض ينْكَلرَيْ وهم متفرقون بين قرى سنغي هناك يزارعونهم ويخالطونهم وإنما يفترقون مع السودان بالزّي واللغة فحسب ، وأما ما تحكم عليه من صحراء أوظ الذي هو الروح لها وحظها من أربند لا يبلغ معشار عشره فيختلط فيه الجنسان أيضا إذا سرت من تِلَابير مشرقا إلى آخر الحدود ، وإذا سرت منها إلى جهة الجنوب لا ترى طارقيا مستوطنا أصلة ، وإذا سرت من قرية أيَرُ التي هي آخر مراكزها في النيل من جهة الشمال ، وذهبت نحو المشرق لا تزال تسير في الطوارق حتى تنتهي إلى حدودها ، وأما عن يسارك فلا ترى أسودا أيضا إلا قرية طاو وقرية أكدز ، وما سوى البلاد المذكورة معمور بالسودان إلا ما يسكنه كَلْ كرسْ وإمَنَّن وإِلِسَوَنْ ونحوهم من الطوارق المندمجين في السودان حتى صاروا منهم بالزّي واللسان ، وهذا الاختلاط منتشر في الدولتين قديما وحديثا .

وأما شمال نيجريا ففيه الكثير من التوارق وأكثرهم إنما دخل في البلد تبعا لدولة آل فودي الذين دخل في بيعتهم كثير من قبائل آير وقبائل دنك وكان لهم معهم كما كان للبيض مع السودان في نيجر ومالي من المواصلة والموازرة والمناصحة ، وتفاصيل هذه المجاملات تأتي في أبواب أخر ، والمقصود الآن إثبات عدم التحديد بين سودان والدول الثلاث وبيضانها .

الفصل الثالث

في اختلاف الناس في إطلاق لفظة التوارق بالتاء أو بالطاء وتحقيق ما هو إلى الصواب

اعلم أن لفظة : الطوارق لا يطلقها أهل العلم ببلادنا إلا على جيل إموشاغ خاصة كما يخصون بهم لفظة البربر التي هي أعم لأن الطوارق

جزء من البربر وأما المتقدمون وأهل الخارج من المتأخرين فيطلقون لفظة الطوارق على جميع البرابر الملثمين الساكنين بالصحراء الحاجزة بين بلاد السودان وبلاد البربر من مبدئها بساحل البحر المحيط بأفريقيا إلى منتهاها ببلاد مصر ، ثم أطلقها المتأخرون على كل من يتكلم باللغة التي يقال لها تماشق بالشين والقاف ، وتماجق بالجيم بدل الشين وتماهق بالهاء بدلها أيضا وتمازغت بالزاي والغين والتاء ويقال للناطق بها أماشغ وأماجغ وأماهغ ، وهذا الاختلاف اللفظي إنما نشأ من اختلاف لهجات أهل هذه اللغة في النطق بالكلمات ، وأقرب الكلمات إلى الصحة تمازغت بالزاي والغين ، لأن فيها حروف مازيغ التي تنسب إليه اللغة وهو اسم جد البربر الخلص ، وما سوى تمازغت من الألفاظ كله تغييرات لاسم مازيغ ، ثم اختلف هؤلاء المطلقون أيضا في أصل الاسم يعني التوارق أو الطوارق فقيل نسبة إلى طارق بن زياد البربري الذي غبر البحر إلى الأندلس في اثنتي عشر ألفا من قومه ممدا الجيوش العرب الناشرين للإسلام عام 131هـ ، وقيل أصل الاسم الدوارع جمع درعي نسبة إلى درعة وهو واد بينه وبين سجلماسة ثلاثة مراحل ، ثم صارت إلى التوارغ بالغين ثم إلى التوارق بالقاف ، وزعم صاحب هذه القيل وهو مؤلف (قيام الدولة المرابطين) أن الجيل المسمى بهذا الاسم مع تعدد مواطنه وتباعدها كل من أصل واحد بربري درعي ، وقيل أصل الاسم التوارغ نسبة إلى ترغة بلدة من بلاد المغرب ، وقيل نسبة إلى توارجا ، وقيل نسبة تارجا وهي الصحراء باللغة البربر .

قلت وأشبه الأقوال بالصواب الأول يعني أنه نسبة إلى طارق بن زياد لأن المسمين بهذا الاسم منتشرون في مواطن عديدة بعيدة عن درعة وعن ترغت وغيرها من الأسماء المذكورة ، ولم يعرف في الأخبار الماضية التي بلغتنا أنهم صاروا إليها بعد استيطانهم درعة أو ترعة بل مازالوا فيها منذ زمن لا يعرف أوله فمن ادعى أن أوليتهم كانت بوطن بعيد عن أوطانهم الحالية فلا يسلم له إلا ببينة تصدق دعواه ، مثل أن يذكر المتنقل أولا عصره أو سبب انتقاله وإلا فلا سبيل إلى العدول عن الأصل بل مقتضى الاستصحاب المقلوب أن نقول العالم نعرف أولية انتقال هؤلاء الموجودين إلى المنازل الحالية فهم أهلها الأولون لأن ذلك هو الأصل ، وأما الانتساب إلى طارق بن زياد الذي قررت أنه أقرب إلى الصواب فليس معناه أنهم من نسله بل معناه أنهم من قومه وذلك لاختلاف فيه بين النسابين والمؤرخين فإن طارقا بربري والجيل المتكلم

عليه أيضا بربري ولعل أصحابه العابرين معه إلى الأندلس كانوا أخلاطا من قبائل شتى من قبائل البربر فعرق الكل بسم السيد الفاتح وقيل لجماعته طوارق ثم أطلق الاسم على جميع القبائل التي تركب منها الجيش الفاتح لأن ذلك الفتح صار مفخرة لهم يتعززون بها ويختارون أن يتميزوا بها على تسميتهم بالأسماء الأولى ، وعلى الجملة فالطوارق قسم من البربر نزحوا عن ممالكهم الكبرى التي في ساحل البحر الرومي واتخذوا مساكن في الصحراء الحائلة بينهم وبين بلاد السودان منذ قرون أو ألف سنة ، سواء قلنا إنهم من البربر أصالة كما قاله بعض النسابين أو قلنا أن أصلهم من حمير ثم تبربروا كما قال البعض الآخر ، وذكر بعض أهل الأنساب أن كثيرا من البربر تعرب حين تغلب العرب على البربر فكان على قبائل البربر الذين يسكنون المناطق الواقعة شمالي سنغال والنيجر أن يختاروا بين اثنين إما الخضوع للعرب وقبول سيادتهم وإما اجتناب الاصطدام بهم والرحيل إلى مناطق أخرى والواقع أن ما حدث هو قبول غالبية البربر الدخول في الإسلام ، ومن ثم تعربوا واستطاع بعض القبائل النائية النجاة فلم يلحق بها الأذى وهؤلاء كانوا قبائل الطوارق . إهـ كلامه

إذا علمت هذا ظهر لك أن جميع الطوارق الأصليين من أصل واحد وأن تعددت شعوبهم ، وأما من ادعى منهم أن أصله عربي وأثبت ذلك فيصدق ومن لم يدعه أو ادعاه بلا بينة فهو باق على الأصل من شمول اسم الطارقي له ودخوله تحت عمومه سواء يطلق عليه اللفظ في الاصطلاح الجديد أو غلب عليه التسمي بغيره ، وهذا الإطلاق العام للسكان هو مقتضى ما وقفت عليه من كلام المتقدمين ، وأما المتأخرون من كتاب بلادنا فاصطلحوا على تسمية كل قبيلة من القبائل التابعة باسم خاص لها وتسمية القبيلة المتبوعة بالاسم الأصل وهو التوارق من باب تسمية الجزء باسم الكل وذلك الاصطلاح ــــ أعني تخصيص الرؤساء باسم يتميزون به ــــ جار في بلاد آير وفي بلاد أهكار وفي بلاد تادمكة وغيرها من بلاد الطوارق وقد ذكر بعض المؤلفين من كنانة أن أهل هذه البلاد يعني بلاد تادمكة ثلاثة أقسام أهل العلم وأهل الحرب وأهل تنمية الأموال فأهل الحروب منهم يقال لهم إموشاغ وأهل العلم يقال لهم كلسوك ، وأهل الأموال يقال لهم إمغاد ، إهـ . وهذه القسمة التي ذكرها ذلك المؤلف هي التي أثارت في الطوارق كثير التبيان بحيث يتبرأ كل موصوف باسم من الأسماء المذكورة من أخيه الغير المتصف به

ويسخر منه ، فالمتدين منهم ينفي عن نفسه الاسم الذي يشترك فيه مع غيره ممن لا يرضى دينه وذو السطوة والغلبة كذلك ينفي عن نسفه الاسم الذي يجمعه مع الضعفاء والمساكين ، ومن ثم اختيار أهل الغلبة منهم لأنفسهم اسم إموشاغ وإماجغن تعززا بالانتساب إلى مازيغ الذي هو جد الجيل المخصوص بالفضائل الإنسانية التي أفردت بالتأليف وجرى الكتاب الجديدون على ما اختاره سلاطينهم من تخصيصهم باسم إماجغن و إموشاغ والبربر والتوارق وتسمية غيرهم من الأتباع بأسماء أخر خاصة وما زال الأمر كذلك حتى نسي بل جهل انتساب من عدا السلاطين إلى جدهم الجامع وهو مازيغ فضلا عما دونه من الجدود القريبين ، ومن العجائب أن آل كردنّ الذين كانوا ملوك بلادنا قبل فرنسا لما صار إليهم الملك بلغوا من التعاظم أن نفوا عن أصحابهم من إموشاغ أنهم من بني عمهم واختصوا باسم إولمدن وصار اسم أماشغ عندهم مشتركا يحتوي على قبائل كثيرة ينفون مشاركتهم في الاسم ، ونظير حالهم في ذلك الاختصاص ما ذكره محمد علي دبور أستاذ الأدب والتاريخ بالجزائر في كتابه تاريخ المغرب الكبير إذ قال في الكلام على البربر ما لفظه : أن جد البربر هو مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام ، والبربر يسمون أنفسهم الأمزيغ ويعتزون بهذا الاسم وهم لا يطلقونه إلا على الأشراف الصرحاء منهم أما النزلاء والدخلاء الذين يتبربرون منهم كعبيدهم ومواليهم فلا يسمونهم أمازيغ لأنهم ليسوا من سلالة مازيغ ، ومعنى الأمازيغ عندهم الأشراف الصرحاء أبناء مازيغ الذين يحملون شخصية البربر العظيمة ويتصفون بأخلاقهم التي تصبغهم بها الوراثة المازغية الزكية وتسمى البربر لغتهم تمازغت نسبة إلى الأمازيغ ، وقد سمى العرب الأمازيغ بربرا . إنتهى العرض من كلامه

قلت وهذه الحالة التي وصف بها البربر الذين تكلم عليهم غير بعيدة عن الصواب ، بالبعيد عنه ما اعتاده أهل بلادنا من رفع المرفه المنعم أو القوي المتسيطر نفسه عن إخوانه الذين كانوا دونه في القوة الشرف حتى ينفي عنهم الشركة في أصل النسبة وقد أثر ذلك الاختصاص خللا في تحاب أهل بلادهم وتواصلهم وتراحمهم كما أمروا ، حتى كثيرا من أهل البلد بلغوا من بغض رؤسائهم أن تبرءوا من الاسم الجامع معهم حين أرادوا هم الاعتزاز بالاختصاص به وبغضهم تبرءوا من البربرية و المازغية لكثرة من يعادي البربر الملوك فتبرءوا منه طلبا للسلامة ، وبغض القبائل المتدينة نفوا عن أنفسهم الاسم الجامع لكن المختصين به

في الزمن الأخير يرتكبون فواحش بغضتهم إليهم ، وبغضت إليهم مجانستهم من كل وجه وكل شيء وبغض القبائل الضعيفة تركوا التسمية بالاسم الجامع خوفا من سطوة الأقوياء الذين يريدون الاختصاص به وبما تقدم من النقول يظهر أن الأصل متحد وأن كثرت التميزات في الفروع ، وقد نقل عن الشيخ / بأي بن سيد عمر الكنتي : أنه رأى كتابا لبعض علماء كلسوك ، أن جميع الطوارق من أصل واحد ونسى اسم الجد الجامع لهم ، ثم أراد مراجعة ذلك الكتاب عنه فقيل له نهب . إهـ وليس هذا قدحا في قرشية بغضهم وأنصارية بغضهم فإنهم وإن كان أصلهم طارئ لكنهم عليهم أسماء أخوالهم وجيرانهم ، ومنهم من يتعزز بأمهاته ويتملك بهن كما هو عادة كثير من البربر فإنهم عا.. ذكره محمد علي بوز في كتابه تاريخ المغرب الكبير : يحترمون الأمهات ويتعززون بهن وينتسبون إليهن كما ينتسب العرب إلى الأباء وتجد منهم قبائل كثيرة يقال لهم بنوا فلانة لجدتهم فيدخل في تلك التسميات من كان أبوه عن تبعا لأمهاته وجرى على ذلك اصطلاح أهل الوطن قديما وحديثا .

الفصل الرابع

في تعريف بما يراد باسم البربر

كنت أسلفت في المقدمة أني أكتفي من الأخبار عن تعريف البربر بما سطرته المؤرخون المتقدمون من أخبارهم وأنسابهم ودولهم قبل الإسلام وفي الإسلام ، لكن لا بد لي من إيراد كلمه مختصرة مما ذكره ابن خلدون عن الجيل المسمى بذلك الاسم في اصطلاح القدماء لا في اصطلاح من خصه بجيل قليل من .... لم يعرف جل البربر أنهم موجودون ، ولكن القاصرين من كتاب بلدهم لا يعرفون من البربر إلا ذلك القيل حتى أنهم ذاوق..... على تلك اللفظة جزموا بأن ذلك القليل هو المراد بها .

فأقول قال : ابن خلدون في الجزء السادس من كتابه ما لفظه :.... إلى من يرجع نسب البربر من الأمم الماضية فقد اختلافا النسابون في ذلك اختلافا كثيرا ، وبحثوا فيه طويلا ، فقال بعضهم إنهم من ولد إبراهيم عليه السلام ، من نقشان ابنه وقد تقدم ذكره عند ذكر إبراهيم ، وقال آخرون البربر يمنيون ، وقال المسعودي من غسان وغيرهم تفرقوا عند ما كان من سيل العرم ، وقيل تخلفهم أبرهة ذو المنارة بالمغرب وقيل

من لخم ...كانت منازلهم بفلسطين وأخرجوهم منها بعض ملوك فارس فلما وصلوا إلى مصر منعتهم ملوك مصر من النزول فعبروا ....وانتشروا في البلاد ، وذكر آخرون منهم الطبري وغيره أن البربر أخلاط من كنعان و العماليق ، فلما قتل جالوت تفرقوا ...البلاد وغزا افريقش المغرب ونقلهم من سواحل الشام وأسكنهم أفريقيا وسماهم بربرا وقال مالك بن المرحل البربر قبائل شتى من حمير ومصر والقبط والعمالقة و كنعان وقريش تلاقوا بالشام ولغطوا فسماهم الفريقش البـ....لكثرة كلامهم ، وقال الكلبي اختلف الناس فيمن أخرج البربر من الشام فقيل داود بالوحي قيل له يا داوود أخرج البر... من الشام فإنهم جذام الأرض ، وقيل يوشع بن نون ، وقيل أفريقش وقيل بعض الملوك التابعة ، و للمسعودي والبكري أنهم فروا بعد موت جالوت إلى المغرب وأرادوا مصر فأجالتهم القبط فسكنوا برقة وأفريقية والمغرب على حرب من الإفرنج والأفارقة و أجازوهم على صقلية وسردانية وميورقة والأندلس ثم اصطلحوا على أن المدن الأفرنج وسكنوا القفار عصورا في الخيام وانتجاع الأمطار من الإسكندرية إلى البحر وإلى طنجة والسوس حتى جاء الإسلام ولهم ملوك رؤساء وكان بينهم وبين المسلين حروب مذكورة وقال هانئ بن بكور الضريسي وسابق بن سليمان المطماطي وكهلان بن أبي لوي وأيوب بن يزيد وغيرهم من نسابة البربر أن البربر فرقتان وهم البرانس والبتر ، فالبتر من ولد بر بن قيس بن غيلان ، والبرانس بنوا برنس بن سمجو بن أبزج بن

جناح بن اليل بن شراط بن تام بن دويم بن دام بن مازيغ بن كنعان بن حام ، وهذا هو الذي يعتده نسابة البربر ، قال القرطبي خرج بر بن قيس ينشد ضالة بأحياء البربر فهوى جارية فولدت له وعند غيره من نسابة البربر أنه خرج فارا من أخيه عمر بن قيس وفي ذلك تقول أخته تماضر:

لتبك كل باكية أخاها ... كما أبكي على بر بن قيس
تحمل عن عشيرته فأضحى ... ودون لقائه انضاء عنس

ومما ينسب إلى تماضر أيضا :

وشطت ببرداه عن بلادنا ... وطوح بر نفسه حيث يمما
وازورت ببر لكنة أعجمية ... وما كان بر في الحجاز يأعجما
كانا وبر لم نقف بجيادنا

... بنجـــد ولـــم نقـيـسم ناهبـــا ومغنمــــا
و أنشد علماء البربر لعبيدة بن قيس العقيلي :

ألا أيها الساعي لفرقـة بيننـا ... توقـف هـداك الله سـبل الأطايـب
فاقسم إن البـر بـر إخـوة ... نمانـا وهـم جـد كـريم المناصـب
أبونا أبوهم قيس غيلان في الذرى ... وفي حرمة يسقي غليل المحـارب
فنحن وهم ركن منيع و إخوة ... علـى رغـم أعـداء لئـام المعاقـب
فإنا لبر ما بقي الناس ناصـر ... وبـر لنـا ركـن منيـع المناصـب
نعد لمن عادي ، شواذة ضمرا ... وبيضا تقص الهام يـوم التـضارب
وبر بن قيس عصبة مضرية ... وفي الفرع مـن أحـسابها و الـذوائبا
وقـــيس قـــوام الـــدين فـــي كـــل بلـــدة
... وخيـــر معـــد عنـــد حفـــظ المنـــاس..
وقـــيس لهـــا لمجـــد الـــذي يقتـــدي بهـــا
... وقـــيس لهـــا ســـيف جديـــد المـــضارب
وينـــشد أيـــضا أبيـــات ليزيـــد بـــن خالـــد يمـــدح البربـــر :
أيهـــا الـــسائل عنـــا أصـــلنا .:. قـــيس غـــيلان بنـــوا العـــز الأول
نحن ما نحن بنوا بر القـوى ... عـرف المجـد وفـي المجـد دخـل
وابتنـى المجـد فـاورى زبـده ... وكفانـا كـل خطـب ذي جلـل
إن قيـسا يعتـزي بـر لهـا ... ولبـر يعتـزي القـيس الأجـل
ولنـا الفخـر بقـيس إنـه ... جـدنا الأكبـر فكـاك الكبـل
إن قيسا قـيس غـيلان هـم ... معـدن الحـق علـى الخيـر دلـل
حـسبك البربـر قـومي إنهـم ... ملكـوا الأرض بـأطراف الأسـل
وببيض تضرب الهـام بهـا ... هـام مـن كـان عـن الحـق نكـل
أبلغوا البربر عني مادحا ... حيك من جوهر شعر منتخل

مر إلى أن قال :ص313 ولم تزل بلاد المغرب إلى طرابلس بل وإلـى الإسكندرية عامرة بهذا الجيل ما بين البحر الرومي إلى بلاد السودان منذ أزمنة لا يعرف أولها ولا ما قبلها وكان دينهم دين المجوسـية ، شـأن الأعاجم كلهم في المشرق والمغرب إلا في بعض الأحايين يدينون بـدين من غلب عليهم.إهـ إلى أن قال : ص 205 من الجزء المـذكور تقـدم ذكر ما كان لهم في الصحراء والقفر من البلاد وما شيدوا من الحـصون والأطام والأمصار من سجلماسة وقصور توات وتيكـوارارين وفجـيج

ومصاب ووركيل وبلاد ربغة والزاب ونفزاوة ولحمة وغدامس ثم ما كان لهم من الأيام والوقائع والدول والمماليك وما تجهل أخباره كلها بأنه جيل عزيز على الأيام وأنهم قوم مرهوب جانبه شديد بأسهم كثير جمعهم مضاهون للأمم العالم من العرب والفرس واليونان والروم ولكنهم لما أصابهم الفناء وتلاشت عصباتهم لما حصل لهم من ترف الملك والدول التي تكررت فيهم قلت جموعهم وفنيت عصباتهم وعشائرهم وأصبحوا أخوال للدول عبيدا للجباية واستنكف كثير من الناس عن النساب فيهم لأجل ذلك مر إلي أن قال : وأما تخلقهم بالفضائل الإنسانية وتنافسهم في الخلال الحميدة وما جبلوا عليه من الخلق الكريم مرقات للشرف والرفعة بين الأمم ومدعاة للمدح والثناء من الخلق من عز الجوار وحماية النزيل ورعي الأذمة والوسائل والوفاء بالقول والعهد والصبر على المكاره الثابت في الشدائد وحسن الملك والإغضاء عن العيوب والتجافي عن الإنتقام ورحمة المساكين وبر الكبير وتوقير أهل العلم وحمل الكل وكسب المعدوم وقرى الضيف والإعانة على النوائب وعلو الهمة وابابة الضيم ومشاقة الدول ومقارعة الخطوب وغلاب الملك وبيع النفوس من الله في نصر دينه فلهم في ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف لو كانت مسطرة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعيه من الأمم وحسبك مما اكتسبوه من حميدها واتصفوا بها من شريفها أن قادتهم إلى مراقي العز ووافت بهم على ثنايا الملك حتى علت

على الأيادي أيديهم ومضت في الخلق بالقبض والبسط أحكامهم وكان مشاهيرهم من أهل الطبقة الأولى (بُلُكِّن بن زيري الصنهاجي) عامل إفريقية للعبيديين و (محمد بن خزرو) و (الخير إبنه) و (عروبة بن يوسف الكتامي) القائم بدعوة عبد الله الشيعي و (يوسف بن تاشفين) ملك لمتونة بالمغرب و (عبد المؤمن بن علي) شيخ الموحدين و (صاحب الإمام المهدي) مر إلى أن قال وأما إقامتهم لمراسيم الشريعة وأخذهم بأحكام الملة ونصرهم لدين الله فقد نقل عنهم من إتخاذ المعلمين لأحكام دين الله لصبيانهم ولستفتاء في فروض أعيانهم واقتفاء الأئمة للصلوات في بواديهم وتدارس القرآن بين أحيائهم وتحكيم حملت الفقه في نوازلهم وقضاياهم وصياغتهم إلى أهل الخير والدين من أهل مصرهم إلتماسا للبركة في آثارهم وسؤالا للدعاء من صالحيهم واغشائهم البحر لفضل المرابطة والجهاد وبيعهم النفوس من الله في سبيله وجهاد عدوه ما

يدل على رسوخ إيمانهم وصحة معتقداتهم ومتين ديانتهم التي كانت ملاكا لعزهم ومقادا إلى سلطانهم ومليكهم وكان المبرز منهم في هذا المتخب يوسف ابن تاشفين وعبد المؤمن ابن علي وبنوه فقد كان لهم في الاهتمام بالعلم والجهاد وتشييد المدارس واحتطاط الزرايا والربط وسد الثغور وبذل النفوس في ذات الله تعالى وإنفاق الأموال في سبيل الخيرات ثم مخالطة أهل العلم وترفيع مكانهم في مجالستهم ومفاوضتهم في الإقتداء بالشريعة والانقياد بإشاراتهم في الوقائع والأحكام ومطالعة سير الأنبياء وأخبار الأولياء وقرائتها بين أيديهم من دواوين ملكهم ومجالس أحكامهم وتصور عزهم والتعرض بالمعاقيل في السماع شكوى المتظلمين وإنصاف الرعايا من العمال والضرب على يد أهل الجود واتخاذ المساجد بصحن دورهم وسدة خلافتهم وملكهم يعمرونها بالصلوات والتسبيحات والقراء المرتلين لتلاوة كتاب الله أحزابا بالعشي والإشراق وتحصين ثغور المسلمين بالبنيان المشيد والكتائب المجهزة وإنفاق الأموال

العريضة شهدت لهم بذلك آثار فخلفوها بعدهم ، وأما وقوع الخوارق فيهم وظهور الكاملين في النوع الإنساني من أشخاصهم فقد كان فيهم من الأولياء المحدثين أهل النفوس القدسية والعلوم الموهوبة ومن حملة العلم ومن بعدهم من الأئمة ومن الغرائب التي خرقت العادة وأوضحت أدلة القدرة ما يدل على عظيم عناية الله من ذلك الجيد وكرامته لهم بما آتاهم من جماع الخير وآثرهم به من مذاهب الكمال وجمع لهم من متفرق خواص الأنس ينقل ذلك في أخبار توهم عجائب فكان من مشاهير حملة العلم فيهم [سعيد بن واسول] جد بني مدرار ملوك سجلماسة أدرك التابعين وأخذ عن عكرمة مولى ابن عباس ذكره [عريب ابن حميد] في تاريخه ومنهم منذر ابن سعيد قاضي الجماعة بقرطبة من ظواعن والهامة ثم [سوماتة] منهم مولده عام عشرة وفاته عام ثلاثة وثمانين وثلاثمائة كان من البتر من ولد مداغيس هلك على يد عبد الرحمن الناصر ، ومنهم أيضا أبو محمد ابن أبي زيد علم الملة وهو من نفزة أيضا ، ومنهم علماء بالنسب والتاريخ وغير ذلك من فنون العلم ، إنتهى ما أردت اختصاره من كلام ابن خلدون ولا أظن ما نقلته يبلغ عشر ما تركته وإنما نقلت هذا مع ما فيه من الطول النسبي وقد أسلفت أني لا أورد منه إلا كلمات يسيرة لأمور تدعو إلى نوع من الإطناب منها أن بعض الكاتبين من علمائنا لا يطلع اسم البربر إلا على أحياء قليلين من أهل بلدهم كانت لهم الغلبة على من سواهم من القبائل ولا يدرن كثيرا مما كتبت من كثرة

قبائل البربر وما لهم من الفضائل والعز وما ينزلونه من المنازل مع كثرة علمهم وغزارتها، فكيف يعرفون شمول اسم البربر لما سوى الجيل الذي توهموا اختصاصه به من أسباب توهم الناس اختصاص اسم البربر بقبيلة أموشاغ جهلهم بأخبار البلاد وانقطاعهم عن البربر عن البربر حتى توهموا أن ذلك الاسم مفقود على وجه الأرض واطلعوا في الكتب على شيء من أخلاقهم وأعرافهم وجهاتهم وحريتهم وكانوا يعرفون مثل تلك الأخلاق في

أموشاغ فظنوا أنهم هم البربر الذين وقفوا على شيء من أخبارهم ويقطعون بأن الجيل بذلك اللفظ المعروف قديما يعني البربر زلل بالكلية وذلك لانقطاع الأخبار عن ساحتهم والواقع على خلاف ماتوهموه فإن البربر موجودون في الوقت الحاضر بذلك الاسم الأصل وتلك العوائد القديمة يتكلمون بلغتهم البربرية فيما بينهم يتكلمون باللغة العربية في أديانهم وتجاراتهم ومعاملاتهم ، واللغة البربرية في المغرب في الوقت الحاضر منطقتان رئيسيتان إحداهما : على ساحل البحر الأبيض المتوسط من طنجة حتى حدود الجزائر وهي منطقة الريف .

نبغي أن يحرم غير أن الناس توسعوا في هذا العصر وصاروا والثانية : في منطقة الأطلس ويتكلم بها في المغرب أمم كثيرة وفي الجزائر وفي تونس وفي ليبيا ، قال بعض المتكلمين على لغات المغرب في الوقت الحاضر ، وأشهر لهجات اللغة البربرية هي اللهجة الريفية ولهجة تمازيغت ولهجة تاشلحت ، وقال بعض المؤلفين في شعوب العالم ويرجع احتفاظ المغرب باللغة البربرية إلى عاملين هما : وجود مناطق جبلية منعزلة كبيرة المساحة وبذلك استطاع سكانها أن يحتفظوا بثقافتهم القديمة ، والثانية : أن موقع المغرب جلها أكثر البلاد العربية تطرفا إلى الغرب في الشمال الإفريقي . إهـ كلامه والمراد من سوقه التنبيه على أن جيل إموشاغ غير مخصوص باسم البربر وأن البربر موجودون باسمهم في أماكنهم الأصلية ، ومن الدواعي إلى الإطناب في كلام البربر وجلب كثير من كلام ابن خلدون فيهم أن أطلق الناظر على ما كتبه عالم جيل لا يتعصب للبربر إذ ليس منهم فيستفيد من كلامه أن كثيرا من التشويهات التي لقي جنس البربر من جهة الكتاب والمؤرخين فرية وزور ممزوج بحسد وعدوان وتلك التشويهات مملوءة بها الدفاتر يأخذها الأخلاف عن الأسلاف ، ومنها أن كثيرا من القبائل البربرية لا يعترفون لإخوانهم بالأخوة لعدم معرفتهم بوجود اسم يجمعهم فلا يرقبون فيهم صلة الأقرابة

لجهلهم بمشاركتهم لهم في النسب ، فأردت تنبيههم على أنهم من إخوانهم وأن ما حدث من التميزات بسبب التعصبات والتزاات لا يسقط على المرء حق أخيه ، ومن المناكر المبتدعة أن الأخوة في الدين التي لا شك في وقوعها بين جميع أهل البلد لا يعتبرها كثير من الأشخاص فكيف يعتبر الطينة التي نسيت وجهلت ولو أن الناس اعتبروا هاتين النسبتين أو أحداهما لكان خيرا لهم ومنها تنبيه إخواني من المنتسبين للقرشية والأنصارية الذين لا يسألون عن أبائهم ولا يلتفتون إلى شيء من أخبار أهل البلد الذين يخالطونهم ويناكحونهم منذ ستة قرون أو أكثر على أن ما اعتادوه من إهمال أخبار إخوانهم وأخوالهم لعدم كونهم

من بني عمهم لا يليق منهم لما فيه من قطع الرحم فإن الرحم المأمور بوصلها غير مقصورة على بني العم ، ولأن اقتصارهم على الاعتناء بأنسابهم دون انساب غيرهم من أهل البلد فيه نوع من التقصير في حقوق إخوانهم فقد جرت العادة في بلادنا بقيام أهل القلم بحقوق إخوانهم المتعلقة بالأقلام واتكال غيرهم على أقلامهم في جميع الأمور حتى أن بعض الجهلة يزعم أنهم يقومون عنهم بتعلم فروض العين كفروض الكفاية كما أن أهل الأموال يلتزمون للمتعلمين من أموالهم ما يقوم بمونة وأهل الدفاع يدافعون عنهم أشد ما يدافعون عن أنفسهم (أن يتعلموا من حقوقهم إخوانهم ما يعتبرون مثله ....) بل ما أن يعتنوا بالكل ويهملوه رأسا ، فإن الاعتناء بمهمات الإخوان من الإيمان ، وفي الحديث لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ومنها أن يعلم الناظر في هذا **الفصل** وما قبله أن خلاصة ما وقفت عليه من كلام العلماء بأخبار بلادنا أن أهل هذه البلاد بالأصالة كلهم صنهاجيون وكلهم طوارق ، والطوارق جزء من البربر أو العرب المتبربرة وأن البربر جيل مشهور له مزايا وفضائل ولهم ملوك ودول لا ينبغي لمن كان منهم أن يستنكف من ذلك ويتبرأ منه ويتشرف بالانتساب إلى غيرهم اللهم إلا أن يكون عنده علم بآبائه يعرف به أن لا علاقة بين آبائه وبين البربر وأن علاقته هو بهم مقصورة على الخؤولة والجوار فيصدق في دعواه لأن الناس مصدقون في أنسابهم وأما من لا يقدر على رفع نسبه إلى بعض الأجداد المغايرين لأجداد أهل الوطن الأصليين فمقتضى قاعدة : الاستصحاب أن يكون من أهل الوطن بالنسب كما كان منهم بالزي واللغة والدم وغيرها ، وأما التعاظم الواقع من بعضهم حتى نفي عن إخوانه حظهم من إخوته فجهل نشأ من كبر ومن زعم فاسد وهو أن الولد يكون كالوالد دائما ذلة ورفعة

، ولم يدر هذا الزاعم الجاهل أن الخلق منذ بدء لم يزل فيه إخوان شقيقان أحدهما أفضل من صاحبه كما قضى الله ـــ عز وجل ـــ علينا

من نباء ابني آدم عليهم السلام وكما كان من أولاد نوح وأولاد إبـــراهيم عليهما السلام ، وأما رفع أنساب الموجودين اليوم إلى بعض أجداد البربر فلا سبيل إليه لتضييع أهله سلاسل أنسابهم من قديم الزمان ، وأما الرفع الإجمالي إلـــى صـــنهاجة ففيمـــا ســـطرته منـــه كفايـــة والله أعلـــم .

البـــــــــــــاب الثـــــــــــــاني

في الكلام على مدينة تادمكة وهي التـــي يـــسميها العـــرب : الـــسوق ، والتـــــــــــــوارق : أسُّـــــــــــــكْ

وفيـــــــــــــه فـــــــــــــصول :

الفـــــــــــــصل الأول

في التعريف بالمسمى بهذا الاسم على حسب مـــا رأيتـــه مـــن النقـــول اعلم أن الكتاب يختلفون في إطلاق هذا الاسم منهم من يجعلـــه مملكـــة مستقلة ، ومنهم من يجعله مدينة ، ومنهم من يجعله جيلا من الناس يضم قبائل عديدة وهذا الإطلاق هو الجاري بكثرة في العصور الأخيرة حتـــى أن الساكنين في بلاد تغارست وتنبكت في العصر الحاضـــر لا يـــسمون بهذا الاسم إلا أهل بلادهم من التوارق . وهذا الاصطلاح ما حـــدث إلا بعد تغلب إولمدن على البلاد التابعة لمدينة تادمكة فتـــارة يطلـــق علـــى جميعها مملكة إولمدن وتارة تضاف بلاد تنبكت إلى بنـــي آلاد ويطلـــق الاسم على إماراتهم التي هي تنكراكف وإركنتن وكل تموليت وتحت كل من الإمارات الثلاث أمم كثيرة يأتي الكلام عليها ، وأما من جعلهم مملكة مستقلة فالبكري في الممالك والمسالك والقلقشندي فـــي صـــبح الأعـــشى وعب الرحمن زكي مصري فإنه قسم أهل الصحراء التي فيهـــا تادمكـــة أربعة أقسام كل منها إمارة مستقلة وهي آير، وأجر وإهكار وإولمـــدن ، فراجع كلامه في الباب الأول إن شئت ، وأما القلقشندي فقال في الجزء الخامس من صبح الأعشى : وبين بلاد البربر وبـــلاد الـــسودان ثـــلاث ممالك منها مستقلة وهي تادمكة ودموسة وأهَيْرْ آير لا تحكم كـــل منهـــا على الأخريين ولا يحكم عليها أهل السودان ولا أهل المغرب . إهـــ

قلت: أما تادمكة وآير فمعلومان موجودان من ذلك العصر ولم يتغير اسم آير وتغير اسم تادمكة بما يطلع عليه من نظر في هذه الفصول الآتية ، وأما دموسة فلم تبق أمة عظيمة مشهورة بهذا الاسم في العصور المتأخرة بل بقيت قبيلة واحدة في بلاد فلتا العليا(1) تسمى باسم إدموسن ويخالطون قبيلة أخرى تسمى أدلن وكانت مساكن أسلافهم بأرض كاو ، ويقال كما حكاه الشيخ / المؤرخ السوقي محمد بن الهادي ، أول من أثار من التوارق على سلاطين الرماة جيل إدموسن وكانت بين الفريقين وقائع انتهت إلى تفرق قبائل التوارق الذين تحتهم عن تبعيتهم وطمعوا في الاستقلال عنهم وكان ذلك مبدأ اختلاف سلطنتهم ، وبعد وقائع دموسن من بعشرين عاما استولى سلاطين إولمدن على جميع ما تحت أيدي الرماة من البلاد والسكان وصار جيل دموسن أتباعهم ، وكذلك إخوانهم من أدلن قيل كانت لهم سلطنة وإمارة كبيرة حتى تغلب بنوا آلاد على رعاياهم وأجلوهم من الأوطان الأصلية إلى بلد دُور ولما بعدوا عن منازل السلاطين اتخذوا إمارة صغيرة تابعة لسلطنة إولمدن ولم يزالوا كذلك إلى انقراض دولتهم فلعل دولة دموسة اندمجت في دولة تادمكة لما صار أمرها إلى بني كردنّ لم يبق من أثرها إلا تسمية تلك القبيلة التي كانت فيما مضى تسود أمما كثيرة من البيض والسود والبقاء لله وحده ، رجعنا إلى الكلام على مدينة تادمكة قال البكري: و تادمكة أشبه بلاد الدنيا بمكة ومعنى تادمكة هذه مكة وهي مدينة كبيرة بين جبال وشعاب وهي أحسن بناء من مدينة غانة ومدينة كوكو وأهل تادمكة بربر مسلمون وهم يتقفون كما يتنقب بربر الصحاري ، وعيشهم من اللحم اللبن ومن حب تنبته الأرض بغير أعمال ويجلب إليهم الذرة وسائر الحبوب من بلاد السودان ، إلى أن قال : ودنانيرهم تسمى الصُّلع لأنها ذهب محض غير مختومة ، إهـ الغرض منه .

---

(1) 1) هذا الاسم هو السابق لدولة (بُرْكِنَافاسُو) .

وممن عدها مملكة ابن حوقل فإنه قال : وسيد ملوك تادمكة في وقتنا هذا ـــ يعني القرن الرابع الهجري ـــ فسهر بن الفاره ، وإيناو بن ستراك . مر إلى أن قال : بعد ذكر كثير من القبائل التابعة لهم ولو قلت أني لم

أصل إلى علم كثير من قبائلهم لقلت حقا إذ البلاد التي تجمعهم والنواحي التي تحيط بهم مسيرة شهور والعلماء بأنسابهم وأخبارهم وآثارهم هلكوا . إهـــــ

المراد منه . والتحقيق أن الاسم مدينة عظيمة للأولين كانت في بلاد أدغاغ هي القاعدة لبلاد أهل اللثام الذين في غربي آير وشرقي موريتانيا وجنوبي بلاد هكار وشمالي بلاد السودان وكانت قديمة سابقة على مدينة تنبكت ولها شديد اتصال بغانة القديمة التي خربها جيوش المرابطين وببلاد المغرب وبلاد السودان ، وأهل البلاد التي تحكم عليها مستقلون وكان للتجار بها اهتمام في العصور الأولى ثم تفككت الاتصالات بين أهلها وكثرت الحوادث بها حتى انتقل بها بعضهم إلى بُومْ..بيه وإلى إروان وتنبكت وجهة طاو وبلاد الجنوب إلى أن صار موضعها أطلالا ولو بيق الانتساب إلا في بعض أهلها الجائلين في بلاد تنبكت . سبحان من يغير ولا يتغير . وبعض أهلها لم يزل بقربها إلى الآن ، وأقرب المدن إليها في الوقت الحاضر قرية كدال الموجود الآن عام 1393هـ .

الفصل الثاني

في تاريخها الإجمالي

أما أول من بناها ووقت بنائها فلا يبحث عنهما المؤرخون المسلمون الذين وقفت على آثارهم ولعل الباحث على تواريخ الأفرنج سيطلع عليه ، وغاية ما يذكر العلماء عنها قبل وصول الإسلام إليها في القرن الأول الهجري أنها إذ ذاك مدينة عظيمة للبربر قديمة فلما أسلم أهلها صارت من أهم مدن الإسلام وصار أهلها من حملة الفقه ومن أهل السنة ومن محاربي البدعة لم يزالوا على ذلك إلى أن تفرقوا وتشتتوا في البلاد ثم لم يزل العلم في قبائلها إلى الآن ، وأما خرابها فشاع على ألسنة الناس أنه وقع في القرن التاسع على يد سلطان قا وسُن على ، وكتب كثير من المؤلفين ذلك اعتمادا على الأساطير الأفواه لا على مؤرخ مدون ، والصحيح خلاف ذلك لأمرين :

إحداهما : أن المتكلمين على البلدان ذكروا أنها من أهم المدن في القرن الحادي عشر وهم أعرف بالتاريخ وأحوال البلدان ولهم اهتمام زائد بأحول العالم بخلاف أهل بلادنا

الثاني : أن المؤرخون لدولة سنغي كالسعدي والفتاش وغيرهما لم يذكروا من غزوات سن علي شيئا من بلاد الصحراء بل ذكروا أنه خرب مدينة تنبكت وحاصر جنّى سنة وغزا بلاد أربند واشتغل بها حتى مات بالسيل

في غزوه لكَرْما ، وكانت المسافة بين وطنه كاو وبين تادمكة تسع مراحل بالسير الجاد في قفار ومعاطش لو سلكها سن على بجنوده البحرية الذين لا يألفون العطش حتى وصلوا إليها وخربوها لكان ذلك مفخرة لهم لا يهمل مؤرخوهم مثلها ، وفي بعض الروايات أن أهل تادمكة كانوا تابعين لإمارات أهل إسكيا محبة فيهم لأن جدهم الحاج محمد إسكيا كان تلميذا لهم يعظمهم ويحترمهم فلما آتاه الله ما آتاه من الملك دخلوا في بيعته طوعا لرغبتهم في أعماله السنية ولم يغز جنوده أرضهم ولم يأخذوه عنوة

ومما يدل على أن خراب المدينة لم يكن بسبب جنود سن علي أن جندين له أتيا بعض نساء المدينة يريدان الفساد فثار بعض أقارب تلك المرأة عليهما فقتل إحداهما وفر الأخر ، والحال أن أهل المدينة لا يستطيعون مقاومة جنود الفاجر ، وإن لم يكونوا تحت حكمه فعم الفزع من قتل الجندي فاجتمع أهل القرية إلى كبيرهم ليرى لهم ما يفعلون فقال : لهم اذهبوا إلى الجاني يدبر لكم الحيلة في الخلاص فلعله ما فعل فعلته إلا لشيء عنده فلما أتوا إلى الجاني قال : لهم حكموني في الرجال والخيل حتى أختار منهم ما أريد فحكموه فاختار من الرجال والخيل ما ذهب به إلى عوالي كاو عاصمة سنغي فوجد في العوالي مواشي أهل القرية فأغاروا عليها وفر الرعاة إلى أهل الأموال فأخبروهم فلما أغاروا على المواشي استاقوها إلى منهل عظيم في الطريق ليس بين بلادهم وبين كاو غيره ، قيل إن ذلك المنهل سَمِتْ ، وقيل غيره فلما وصلوا إلى المنهل شربوا وسقوا دوابهم وأخذوا الماء في قربهم ، ثم حبسوا المواشي في وسط المنهل يبقرونها إلى أن صار الماء دما وفرثا ، ثم أطلقوا الأعنة لخيلهم حتى وصلوا إلى بلدهم ولم ينلهم شيء من الأذى ، وأما أهل المواشي أهل كاو فتجمعوا حين بلغهم الخبر واشتدوا في الأثر منهم خيلهم ، وأكثرهم رجالة فلما توغلوا في الطريق أدركهم العطش وأهلك كثير منهم ورجع الباقون من الرجالة على آثارهم ومضى الفرسان يقتصون الأثر حتى وصلوا إلى المنهل المذكور فوجدوه فرثا ودما وليس معهم ماء فأهلكهم العطش عن آخرهم ولم يجد أهل القرية سبيلا لأخذ الثأر حتى اضمحل أمرهم بموت فاجرهم ، فلما ولي مكانه الحاج إسكيا بادره أهل الصحاري بالمطاوعة فلم يأخذ بالثأر . هذا ما يتناقله كثير من الأسلاف مما جرى بين سن على وأهل تادمكة ، والذين يزعمون أنه

خربها ما حملهم على ذلك إلا أن مدينة تنبكت التي صارت قاعدة لكثير من التوارق خربها فزعموا أن جميع الصحراء كذلك لعداوته للتوارق وأمما يبطل

هذا الزعم أن المدن التي خربها سن علي جددها أهلها بعد أمنهم بعد إسكيا ، ولو خبت المدينة في القرن التاسع وجددت لذكر ذلك من تكلم عليها في القرن الحادي عشر ، والأقرب إلى الصحة أن القرية ما خربها أحد وأن مغادرة الناس لها كانت لجفاف موضعها من الصحراء وكثرة جدبه وانقطاع التجار وجميع المرافق عنها وقلة الذهب عندهم الذي يأتي الناس إليهم لأجله ، وأما أسباب خرابها عمارة قرية تنبكت فإن المؤرخين ذكروا أن عمارتها هي خراب ما يقربها من المدن لكثرة انتقال أهلها إليها لما صارت ملتقى القوافل التجارية الغربية والشرقية وغيرهما وهاجر إليها كثير من العلماء والطلبة والأغنياء وتركوا الأوطان الصحراوية واتخذوا قرية تنبكت قاعدة أرضهم ومرجع أمورهم ، فلما انتقل الكثير من أهلها إلى ما يقربهم من البلاد المخصبة الكثيرة المزارع الغزيرة المياه و انتقل عنها جل أهل المواشي تعبا لما يصلح المواشي التي هي قوتهم بعد انقطاع الرفاق عنهم ثم البلاد النائية ثم إلى بلاد السودان المخصبة وكان المنتقلون غالبهم من أهل العلم لم يبق من يهتم به فرغب أهل الرحل عنها وزهد الناس في أخبار الضعفاء القليلين الباقين من أهلها إذ لا علم عنهم ولا مال فضاع تاريخ مغادرة تلك البقية الأوطان .

وأما دولة إولمدن التي هي آخر دول التوارق في الوطن فلم يتخذ أهلها ذلك والوطن مركزا لهم بل كانوا يجولون فيما حوله وإن كانت فيه بقايا من الناس في أيامهم فلا يعتد بها وقد وهم بعض المؤرخين في شأنها فزعم أنها ملتقى هام للقوافل في أوائل القرن الثاني عشر الهجري ، فقال وفي عام 1737م ــ 1117هـ خرجت آخر فلول الجيش المغربي لتصد هجوما عنيفا شنته تادمكة في قلب الصحراء الكبرى وهي ملتقى هام لطرق القوافل بزعامة القائد اغمَر فقضى على تلك الفلول وعاد من بقي منهم إلى تنبكت وقدموا ولائهم إلى أغْمَر فسمح لهم أن يختاروا الباشا ثمنا لخضوعهم . إهـ المراد من كلامه . ومحل الوهم منه قول (

وهي ملتقى هام لطرق القوافل) فإنه تبع فيه أقوال السلف الذين كانت في أيامهم ملتقى هاما وغاب عنه أن أُغْمر هذا لم يكن قائدا إلا لمن في أرض تنبكت من التوارق ، وأن تسمية أولئك القوم باسم تادمكة اصطلاح جديد ليس هو المراد هنا والمراد بالاسم في أيام الجيل لا المدينة وأُغْمر هذا هو جد نُخَ أمير أهل تَمُلَيْت في الحال وهو من قواد إولمدن لم يكن الوطن في أيام قيام دولتهم ملتقى هاما للقوافل ، وإنما أطلت الكلام في هذا لأني رأيت في الآثار وسمعت من الأخبار كثيرا من الخبط في هذا المقام فبنيت ما أرجوه صوابا ، والله أعلم بحقيقة الأمر .

وأما ما قفت عليه من الكلام على المدينة فيما بين القرنين الأول والحادي عشر الهجريين فمقتضاه أنها لم تزل خلال تلك المدة دار علم وعزة وملك واتصالات بأمهات المدن في السودان والمغرب فقد ذكر عياض في المدارك في الكلام على مختصر محمد ابن المواز من أهل القرن الثالث أنه أخذه عنه بتمامه قوم من تادمكة ، وكذا ابن فرحون ذكر في ديباجه ونص ما فيه ص 233 آخر ترجمة ابن المواز أن الكتاب بكماله أخذه عنه قوم من أهل تادمكة وتوفي بدمشق لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة 269 هـ وقيل سنة 281 هـ ومولده في رجب سنة 180 هـ وذكر ابن حوقل الرحالة العربي المتوفى في القرن الرابع الهجري أن ملوك تادمكة في وقته بنوا تانماك وهم الولاة وفيهم رياسة وعلم وفقه وسياسة إلى علم بالسير واضطلاع بالأثر والخبر ، وذكرها البكري من أهل القرن الخامس وأطال الكلام عليها ، وأما في القرن السادس فذكر مؤرخ قيام دولة المرابطين القائمة فيه أن نفوذهم وصل إلى تادمكة في قلب الصحراء وذكر ابن عذاري بعض القبائل المضافة إليها وذكر أنهم ممن أعان عبد الله بن ياسين على نصر السنة وإخماد البدعة في وطنهم ولم أر عنها شيئا في القرن السابع إلا أن القلقشندي ذكر أنهم خاضعون لبني مرين ، وكانت دولتهم في القرنين السابع والثامن ومع ذلك وصفهم بالاستقلال حقيقة ، وعدها مؤرخ الدول الأفريقية وهو عبد الرحمن زكي مصري من أهم الممالك في غربي أفريقية في القرن الثامن إلى العاشر ، وأما فيما بعد القرن العاشر فلم تكن مملكة لأن الملك في البلاد التي كانت قاعدتها صار بعد في قوم ظواعن لا يضبطهم منزل ، والعلم كذلك صار أهله رحالين وتفرقوا في البلدان .

وهذا التاريخ الإجمالي إنما سقته لأن كثيرا من الناس يزعم أن أخبار بلاد التوارق فيما قبل دولة إولمدن ضائع لا يقدر أحد على معرفة شيء منه فلعل الباحث يطلع على أكثر من هذا كما اطلعت عليه بع تسجيل كثير من الناس أنه لا يوجد .

الفصل الثالث

تاريخ وصول الإسلام بلاد تادمكة

الذي اتفقت عليه كلمة أهل العلم في بلادنا أن وصول الإسلام إلى أرضهم كان في القرن الأول الهجري ولكن النقول والروايات التي يعتمدونها مختلفة في تعيين طريق وصوله إليهم منهم من يقول لما وصل المسلمون والدعاة إلى أرضهم بادر أهله بالإسلام طوعا وتلقفوا معالم الشريعة بسرعة حتى لقب وطنهم بمكة الجديدة من شدة تمسكهم بآثار السلف الصالح ، ومنهم من يقول أسلموا على يد عقبة بن عامر القرشي وهو خطأ واضح من وجهين :
أحدها : أن عقبة بن عامر لم يجاوز في غزو أرض القيروان يعني دولة تونس في الحال ولم يذكره المؤرخون من الفاتحين المنتشرين بل ذكره صاحب المنقذ من الوحلة في معرفة القبلة ممن نزل أرض القيروان من جيوش الصحابة قبل غزو عقبة بن نافع الفاتح لسائر بلاد البربر ، وعقبة المتوغل في فتح بلاد المغرب لا خلاف أنه ابن نافع الفهري .

والثاني : أن عقبة بن عامر لم يكن قرشيا بل هو من جهينة ، ومنهم من يقول إن إسلامهم بسبب جيش بعثه عمر بن عبد العزيز ، وعمدة هؤلاء نقل منسوب إلى أشياخ البلد نقله محمد بن عال عن الشيخ بن كلاس بن آلّ إدرفن ولم يعين له قائد الجيش ولا تاريخه ، ومنهم من يقول وهم الأكثرون أنهم أسلموا على يد عقبة بن نافع القرشي متمسكين بنقل منسوب إلى الحسن الصغير في شرحه على البراذعي : و لفظه لما تولى معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنهما أرسل عقبة بن عامر وهو المستجاب مع الجيش في عام إحدى وستين من الهجرة وسار عقبة رضي الله عنه من القيروان يفتح المدائن والقرى إلى السوس الأقصى وهي قرية من البحر فرجع يسير في البلدان إلى أن أتى السوق وهي مدينة عظيمة فيها خلق كثير وهي يومئذ للكفار وجاهدهم عقبة وفتح الله السوق على يديه وأخذ أميرهم اسمه كسيلة وزعم أنه أسلم خوفا من أن

يقتله عقبة وهو يسر الكفر وأقام عقبة في السوق مدة وبنى فيها مساجد وجعل في المساجد مؤذنين وعمرها بدين الله ثم خرج منها وذهب وترك جماعة كثيرة من الصحابة من المهاجرين والأنصار وأقاموا فيها وولدوا فيها وهم أجداد أهل السوق وماتوا فيها وقبورهم الآن فيها ، كل قبر مكتوب عليه اسم صاحبه وعمره وكم غزواته مع النبي صلى الله عليه وسلم وفيهم أبو محذورة مؤذن النبي صلى الله عليه وسلم وخرج كسيلة مع عقبة إلى ولاتة وقتله كسيلة في صلاة الظهر من يوم النحر وهو مدفون في ولاتة الآن ، ثم استخلف الصحابة رجلان من بني بلوة وقتل كسيلة شر قتلة ، ثم رجع الجيش من ثم إلى المدينة من غير أن يمر على السوق . إنتهى النقل المنسوب إلى أبي الحسن وفي معناه رواية منقولة عن علماء كناتة الذين ينتسبون إلى عقبة بن نافع فكانوا أولى من غيرهم بضبط آثارهم قلت: لا شك أن هذا النقل مملوؤن بأخطاء لا يظن بمثل أبي الحسن صدورها منه ، فلعل الرواية لم تصح عنه ، وإن صح عنه شيء منها فقد لعبت بها أيدي التحريف

والتبديل ، فقد أطبق المؤرخون كافة على خلاف ما فيها ، فمن الأخطاء الواقعة فيها نسبة عقبة المستجاب إلى عامر ، فإنه عقبة بن نافع بن عبد القيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن الضرب بن الحارث بن فهر القرشي ، ومنها أن غزوة عقبة الذي فتح فيه المدائن إلى السوس الأقصى كان في أيام معاوية رضي الله عنه عام إحدى وستين من الهجرة فإن عقبة من نافع ذكر ابن خلدون وصاحب الاستقصاء وغيرهم أن ابن خالته عمر بن العاص أمير مصر هو الذي استعمله على أفريقية فانتهى إلى لواتة ومزانة ثم فتح سنة 42 هـ غدامس من تخوم السودان وأثخن في تلك النواحي ، وفي السنة افتتح ودان وكورا من كور السودان وفي سنة خمس ولاه معاوية رضي الله عنه على أفريقية استقلالا وبعث معه عشرة آلف فارس وانضاف إليه مسلمة البربر فكثر جمعه ووضع السيف في أهلها ، ثم بنى مدينة القيروان سنة خمسين وبنى بها الجامع الأعظم وقاتل البربر وشردهم ثم عزله معاوية عنها ، ثم ولاه ابنه يزيد على المغرب سنة اثنين وستين فدوخ بلاد البربر ومن ضم إليهم من الأفرنج بالزا... ثم سار إلى بلاد السوس ، هذا مختصر كلام صاحب الاستقصاء وابن عذاري والبكري ، فعقبة عامل يزيد حين فتح المغرب لا عامل معاوية وهو في عام إحدى وستين معزول ومن الخطاء قوله : وأتى السوق بعد أن فتح السوس الأقصى ، فإن التواريخ التي بأيدينا متفقة على

أن عقبة لما قفل من السوس والبحر المحيط انصرف راجا إلى أفريقية فلما دنا منها تفرق أصحابه عنه فوجا فوجا ، فلما وصل إلى مدينة طبنة (ذكر البكري أن مدينة طبنة مدينة كبيرة بينها وبين القيروان سبعة أيام زاد التوزري وهي خراب لا انس بها ، ويصفها بعض الكتبة بطنجة وليست هي فإن طنجة من قواعد المغرب الأقصى) لما وصل عقبة إلى مدينة طبنة أذن لسائر من بقي معه وبقي في عذ.. يسيرة وقال : أمر إلى مدينة تهوذا وإلى مدينة باديس وكانا من أعظم مدائن المغرب في ذلك الوقت ، فلما وصل إلى تهوذا

لقيه كسيلة في جيوش الروم والبربر فقاتلوهم حتى قتل عقبة وأصحابه ، ولا شك أن الطريق بين القيروان الذي قصده عقبة والسوس الذي خرج منه بعيد أن يمر بأرض السوق .

ومن الأخطاء أن عقبة أقام مدة في السوق وبنى فيه مساجد فإن البلاد المتفق على دخول عقبة لها بلاد ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وهي بعيدة من جهة الشمال عن العرق الذي هو حد المغرب من جهة الجنوب ، وذلك العرق أيضا بعيد من جهة الشمال عن صحراء الملثمين التي فيها أرض السوق .

ومنها أنه ترك جماعة من الصحابة في أرض السوق وولدوا فيها وماتوا وقبروا ، فإن الصحابة الذين في غزوته الأولى ثمانية عشر رجلا ، وسائر الجيش من التابعين ، وفي غزوته الثانية خمسة وعشرون صحابيا ، فجيشه لم يكن من الصحابة لا في مرة الأولى ولا في الثانية ، وكذلك جميع الصحابة الداخلين إلى أرض المغرب مضبوطون بأسمائهم ومقابرهم ولم يمت واحد منهم في السوق ، ومن أراد الوقوف على ذلك فعليه بكتاب الاستقصاء ص 85 من الجزء الأول .

ومن الأخطاء أن أبا محذورة مؤذن النبي صلى الله عليه وسلم كان ممن دفن بأرض السوق ، فإن أبا محذورة كما في الإصابة والاستعاب لم يفارق مكة حتى مات

ومنها أن كسيلة خرج من بلد السوق الذي كان وطنه إلى ولاتة في صحبة عقبة فقتله هناك ودفن في ولاتة فإن كسيلة لم يكن بأرض السوق بل هو من قبيلة أوربة من البرانس ، وبلاده بلاد تونس ، فإن كان أميرا على أرض السوق فالمراد بذلك أن إمارته وصلت إليه كما وصلت إلى غيره من بلاد البربر لا أنه وطنه ، وقتل عقبة أيضا لم يقع بولاتة ولم يقع في الصلاة بل التقت جموعه وجموع كسيلة بتهوذا ، فكسر عقبة

وأصحابه أجفان سيوفهم وقاتلوا حتى قتلوا جميعا وقــ... وقبورهم مشهورة بالبسيط الذي تحت جبل أوْرَشْ تزار .

ومن الأخطاء أن الصحاة لما قتل عقبة في ولاتة استخلفوا مكانه زهير بن قيس فقتل كسيلة ثم رجع الجيش إلى المدينة من غير أن يمر على السوق فإن أصحاب عقبة الذين قاتلوا معه قتلوا جميعا ، ثم ملك كسيلة أفريقية خمس سنين ونزل القيروان وأعطى الأمان لمن بقي بها ممن تخلف من العرب أهل الذراري والأثقال وعظم سلطانه على البربر ، ثم زحف زهير بن قيس البلوي في ولاية عبد الملك للثأر بدم عقبة سنة سبع وستين وجمع له كسيلة سائر البربر ولقيه بجيش من نواحي القيروان فاشتد القتال بين الفريقين ثم انهزم البربر وقتل كسيلة ومن لا يحصى منهم ثم ترهب زهير وقفل إلى المشرق فاستشهد ببرقة ، هذا مختصر كلام ابن خلدون ويوافقه على معناه سائر المؤرخين . والحاصل : أن جميع ما في هذا النقل من خبر السوق ولاتة مع ما فيه من التخليط إنما عرف في بلاد القيروان فلعل المنقول عنه أولا ذكر هذه الأمور في القيروان التي وقعت فيه ثم ذكر أن السوق في ذلك الوقت من أعماله فأسقط الناقل عنه شيئا من نقله أو حرفه فأثبت للسوق جميع ما للقيروان من نزول الصحابة وبناء المساجد وبقاء ذراري الصحابة فيه وموتهم به وإمارة كسيلة فيه وقتله عقبة ثم قتل زهير بن قيس له والله أعلم .

لا يبعد إسناد الفتح الذي وصل السوق إلى عقبة من جهة أنه لا شك في فتحه بلادا من بلاد البربر تشتد العلاقات بينهم وبين أرض السوق في الزمن القديم مثل القيروان وغدامس وكُوَار (بيلما) التي هي الحدود الأن بين نيجر وليبيا وبلاد هراة (أهكار) فلما فتحت هذه البلاد وعم الإسلام أهلها تلقاه عنهم إخوانهم المتصلون بهم رغبة وطوعا فنسب إسلام الجميع إلى عقبة الذي هو السبب الأول فيه ، فقد إنتهى في فتحه الأول بالعرب المسلمين إلى أعماق الصحراء وانتهى في فتحه الثاني على الماهول من أفريقية إلى المحيط ودخل المغرب غيره من قادة الفتح وناشريه وكانت مدة عموم الإسلام لسائر بلاد البربر ما بين 22 إلى 88 ومجموع ذلك 66 ولشهرة التي حازها عقبة في الفتح لم تكن لغيره من أولئك . وأما النقل الذي يتضمن أن وصول الإسلام إلى بلد السوق كان بواسطة جيش بعثه عمر بن عبد العزيز إلى المغرب فلعله صحيح لو

كان سنده إلى ناقل مشهور ، فإن عمر بن عبد العزيز لما تولى الخلافة سنة تسع وتسعين ولي إسماعيل بن عبيد الله على حرب المغرب وخراجه في المحرم سنة مائة الهجرية ، وكان إسماعيل حسن السيرة ولم يبق في ولايته يومئذ من البربر أحد إلا أسلم ولم يزل واليا على المغرب حتى توفي عمر بن عبد العزيز سنة إحدى مائة ، وقال العلامة محمود شِيتْ خَطّابْ وللواء من أهل العراق في كتابه قادة الفتح الإسلامي المغربي وهو مؤلف جديد لكن مؤلفه إنما يعتمد في الغالب على النقول لا على الرأي المجرد ما لفظه : ويرجع الفضل في إكمال الإسلام البربر إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فقد بعث إلى المغرب عشرة من فقهاء التابعين من أهل العلم والفضل منهم أبو الجهم عبد الرحمن بن نافع ، وأبو مسعود بن سعد بن مسعود التجيبي ، وأبو عبد الرحمن الحبلى ، وإسماعيل بن عبيد الله الأنصاري المعروف بتاجر الله ، وموهب بن عاهان بن عمير ، وإسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر ، ويفضل جهاد جهود هؤلاء الأعلام من الدعاة التابعين وغيرهم ، تعلم المغاربة أصول الإسلام فقرءوا القرآن وعرفوا اللغة العربية . مر إلى أن قال : والحقيقة أن مثل هؤلاء الأعلام من الدعاة في المغرب لا يرجع إلى خلافة عمر بن عبد العزيز فقد كان أمثالهم في المغرب العربي قبل زمانه . إهـ المراد من كلامه وهو يفيد انتشار الإسلام في البلاد المغربية في المائة الأولى ، وأما الرواية التي تفيد أن أهل السوق طاعوا بالإسلام من غير قتال فلا بعد فيها أيضاً لأن كثيرا من بلاد البربر كان إسلامه كذلك فقد ذكر المؤرخون أن بعض قواد الفتح الإسلامي وهو حسان بن النعمان منح البربر الذين يؤيدون الفتح و يوازرونه حق المساواة الكاملة مع العرب ووضح أمام البربر ما ينطوي عليه الإسلام من تسويتهم بالفاتحين العرب ومن هذه التسوية إشراك البربر في جيش الفتح ومنحهم حقهم المشروع في العطاء وفي قسمة فيء الحرب ومغانمها بلم يعتبر حسان العرب حكاما والبربر محكومين بل سوّى بينهم في الحقوق والواجبات ، وهذا يخالف ما ألفه البربر من سياسة الرومان والروم حيث كان أهل المغرب يعتبرون من موالي الرمان والروم ولهم المرتبة الثانية في المجتمع فإذا بهم في الإسلام يظفرون بالمساواة المطلقة مع العرب ، وقال محمود خطاب العراقي في الجزء الثاني من كتابه المذكور ما نصه : أن المغاربة لم يعاد والإسلام في أول الأمر ولم يقاوموه تلك المقاومة العنيفة التي شهرت عنهم إلا لجهلهم بحقيقته وعدم إحاطة علمهم بمحاسنه ومزاياه ، وقد فطن لذلك والولاة العرب بعد حين

فرتبوا لهم الفقهاء والقراء يلقنونهم العربية وينصرونهم بالدين فلما اكتنوا كنهه وعرفوا حقيقته وتمرسوا بتعاليمه السامية وآدابه العالية أصبحوا من أكبر دعاته وأحمى أنصاره فهم الذين فتحوا الأندلس وسهلوا طريقا للعرب ومازالوا بعد ذلك حاميتها وذادتها إلى آخر العهد بها وهم الذين اقتحموا مجاهل أفريقية وحملوا الهداية الإسلامية والثقافة العربية إلى السودان كما هو معلوم . إهـ كلامه و إنما سقته هنا للاستدلال على أن إسلام بعض البلاد المغربية لم يكن بالفتح ولم يكن على أيدي العرب بل كان بواسطة العرب والبربر الحاملين عنهم معالم الإسلام إلى بلادهم وبلاد إخوانهم ، فالصواب عندي في أمر إسلام أهل بلد السوق أنه قديم في القرن الأول وبذلك تواترت النقول التي بأيدينا وأن اختلف أهلها في تعيين الطريق الذي وصل إليهم به فلما اتفقت النقول والروايات من علماء البلد وأشياخه على وصول الإسلام إلى بلد السوق في القرن الأول الهجري ولم أر من لكلام غيرهم من المؤرخين ما يعارض مدعاهم بل رأيت من كلام غيرهم ما يشهد لأصل الدعوى وهو أن الإسلام انتشر في جميع بلاد البربر في ذلك القرن تعين تصديق أهل البلد في دعوى أن الإسلام وصل إلى بلدهم كغيره من بلاد البربر في أيام الفتوح ، إما على أيدي العرب أنفسهم إما على أيدي البربر الذين أخذوا الإسلام عن العرب الفاتحين والناشرين للدعوة الإسلامية فإن الطريق التي وصل بها الإسلام في بلاد البربر عديدة منها ما كان بواسطة الفتوح ، ومنها ما كان بالتلقف عن الإخوان طوعا ، ومنها ما كان بالأخذ عن الدعاة الناشرين للإسلام والفقه والعربية فقد دخل بلاد البربر من القواد الفاتحين كثير منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح في خلافة عثمان رضي الله عنه سنة خمس وعشرين من الهجرة ومعه خلق كثير من أهل المدينة وممن حواها ، ثم معاوية بن حديج السكوني ثلاث مرات الأولى سنة أربع وثلاثين في خلافة عثمان ، والثانية سنة إحدى وأربعين وآخرها سنة خمسين ، ثم عقبة بن نافع الفهري ، ثم أبو المهاجر ، ثم زهير بن قيس البلوي ، ثم حسان بن النعمان الأزدي الغساني سنة ثلاث وسبعين ، ثم موسى بن نصير اللخمي ، وممن دخلها من القادة بسر بن أبي أرطاة في سنة ست وأربعين ، وعبد الله بن الزبير بن العوام ، وعبد الملك بن مروان تحت لواء معاوية بن حديج ، ورويفع بن ثابت الأنصاري تركه معاوية بن حديج وآليا على أفريقية سنة ست وأربعين ، ثم تتابعت الفتوح السيفية والدعوات العلمية في أقطار المغرب وسائر بلاد البربر إلى أن عم الإسلام جميعها في مدة يسيرة ، قال المؤرخ العراقي محمود شيت أن

الإسلام عم بلاد البربر خلال ست وستين سنة مع تباعدها وكثرتها فإنها مسيرة شهور في شهور ويعد بعضهم من معجزات الإسلام انتشاره في البلاد الكثيرة والقبائل العديدة في مثل هذه المدة وإقبال أمم البربر عليه وسرعة قبولهم لمعالمه وأحكامه وانقيادهم له بعد أن أعجزوا الأمم الغالبة قبل الإسلام عن أن ينقادوا لهم جميعا بل ينقاد البعض ويستعصي البعض إهـ كلامه . ومراده بالأمم الغالبة قبل الإسلام الأفرنج والرمان والوند والروم وغيرهم من أهل السلطنة في بلاد المغرب قبل الإسلام وقال : أيضا في ص 166 من الجزء الثاني من كتابه المذكور ما نصه : ومع قادة الفتح وجنوده كان جيش من نوع آخر من الفقهاء والمحدثين والعلماء والقراء وكان هؤلاء يعتبرون الدعوة من الجهاد الأكبر ويعتبرون القتال من الجهاد الأصغر وكانوا يؤمنون بأن تعليم القرآن والفقه في الدين ونشر الإسلام عبادة من أجل العبادات وأرفعها قدرا ، مر إلى أن قال : وأصبح البربر من قادة الفتح الإسلامي ومن جنوده العرب سواء بسواء . إهـ الغرض منه ، إذا علمت هذا وعلمت حدود المغرب في الصور الأول وعلمت جيل البربر ، تبين لك أن أهل تادمكة جزء من أهل المغرب من البربر المتفق على إسلامهم في العصر الأول ، فإن المغرب في اصطلاح المتقدمين يقصد به كل الأقاليم الواقعة غرب مصر التي تشمل شمال القارة الأفريقية من ليبيا إلى تونس إلى الجزائر إلى البلاد التي يطلق عليها اسم المغرب في الاصطلاح الجديد ، هذا هو حد المغرب من المشرق وإلى المغرب في العصور الماضية ، وأما حده من الشمال إلى الجنوب فهو من بين البحر المتوسط إلى نهر السنغال ونهر النيجر يعني بلاد السودان وسكانه الأصليون جيل البربر ، واتفقت كلمة المؤرخين على أنهم أقدم أمة عرفها التاريخ في الشمال الأفريقي وأن مواطنهم من حدود مصر الغربية إلى المحيط الأطلسي ، وتتبع النقول المفيدة لذلك يدعو إلى الإطناب الممل فتحصل أن القول بوصول الإسلام إلى تدمكة في القرن الأول هو الذي ترمز إليه عبارات جمهور المؤرخين وأن لم يصرحوا به كما يصرح أهل البلد أنفسهم ولم أجد من علماء المؤرخين من يرد عليهم مدعاهم ، وأما جهلة المدعين لعلم التاريخ في العصور الأخيرة فيزعمون أن الإسلام لم يصل إلى البلاد الصحراوية التابعة لدولة السودان إلا في القرن الخامس الهجري بواسطة جيوش المرابطين وقائدهم عبد الله بن ياسين الذين نشروا الإسلام في بلاد السنغال وما يقاربها من أمم البربر ، وقد تقدم من النقول ما يفيد تقدم إسلام أهل تادمكة على أيام تلك الجيوش بكثير وأن بلدهم لم يزل بلدا

إسلام من القرن الأول الهجري لم ينقطع فيه إلى القرن الخامس الذي نهض فيه المرابطون لنشر دعوتهم ومذاهبهم ، ثم إلى وقتنا الحاضر بحمد الله ، وتلك النقول حجة على الزعم المذكور الذي لم يعتمد أهله على نقل صحيح بل غاية ما يتمسكون به أن المتأخرين من المؤرخين إذا تكلموا على بلاد المغرب اقتصروا على ما تحت أحكام الدول الجديدة فيظن الناظر في كلامهم أن ما أهملوه من البلاد والأجناس لا يشمله اسم المغرب ولا اسم البربر لا قديما ولا حديثا وغاب عنه أن جميع من كان في شمال بلاد السودان يشمله اسم المغرب بالاصطلاح القديم الذي جرى عليه المتقدمون الباحثون في تاريخ الإسلام وفتوحه وأين وصلت ومتى وقعت وهم أدرى بأحوال الأمم والبلاد في عصورهم ممن جاء بعدهم وخاض في لجة الأخبار عما لم يشاهده ، وكذلك من نظر في تواريخ بلاد السودان ووصول الإسلام إليها في القرن الخامس ظن أو جزم أن كل من يحكم عليه السودان في العصر الحاضر من أهل الصحراء ، لم يزل تابعا لهم في كل أمر حتى في الإسلام والعلوم ، ولو تأمل ذلك الناظر في حال أهل صحرائنا الآن في آثار أسلافهم لعلم أن لأهل صحرائنا استقلالا في العلوم والمعارف وأنهم أئمة جميع من سواهم في العلوم والأدب وهم الذين يرحل إليهم في طلب العلم ولا يرحلون إلى غيرهم في طلب سواء كان حضريا أو بدويا وإن كانوا تابعين لأحد ففي الأمور السلطانية أو في غيرها من الأمور الدنيوية ، وأما الدينية فلا يتبعون فيها أحد وكذلك أسلافهم إما أن يستغنوا بأنفسهم عن الارتحال إلى طلب العلم وإما أن يستمدوا من مصر والمغرب أو تلمسان بواسطة الرحلة إلى تلك البلاد أو بواسطة وفادة علماء تلك البلاد إليهم أو جلب مؤلفاتهم إلى بلادهم بل كل ذلك وقع منهم لاستمداد به من البلاد المذكورة ولم نجد في الآثار القديمة ممدا لهم في العصور القديمة سوى لمذكورين ، وأما في العصور المتأخرة فيستمدون من جميع من تحلى بالعلم ولا يفرقون بين العربي والفلاني وغيرهما ، وأما تمسكهم بالإسلام والعلوم الشرعية فلا حجة لأحد في أنه كان تابعا لتمسك غيرهم من الأمم بها منذ اعتنق أسلافهم الإسلام في القرن الأول إلى الآن ، والله أعلم .

الفصل الرابع

في ذكر البلاد التي لها اتصال ببلد تادمكة في الأزمان الماضيةمن جهة حكمهم على أهلها ، ذكر بعض علماء البلد في تاريخ له عثرت منه على نسخة قديمة مقطوعة الأطراف ليس في الباقي منها اسم المؤلف ولا اسم الكتاب ، وحصال ما وقفت عليه في الكلام على أهل تدمكة ووصول

جيش الإسلام إلى بلاد البربر ، ذكر ذلك المؤرخ أن جيوش عقبة وصلت إلى غدامس وأن بلد تدمكة في تلك الأيام كان تابعا لغدامس و لم أجد لغير ذلك المؤلف، معارضا ولا عاضدا يصرح بتبعيته للبلاد التي صارت غدامس جزءا من جمهوريتها وهي بلاد ليبيا ولا بتبعيته لغيرها من البلاد ، لا في تلك العصور ولا فيما بعدها إلى القرن الخامس الهجري ، وأما في القرن الخامس فذكر مؤرخ دولة المرابطين وصلت إلى تدمكة في قلب الصحراء ، ثم ذكر من أتباعهم كثيرا من قبائل أرضنا مثل إنتصر وايتواري وكذلك ابن عذاري ذكر في كتابه البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب في الكلام على عبد الله بن ياسين إمام المرابطين ، أن القبائل التي تعاونت معه على إقامة السنة وإخماد البدعة منها تلكانة ، وبنوا مسوفا ، وهاتان القبيلتان مما عده ابن حوقل من قبائل تادمكة ولا حجة مع أحد ممن وقفت على كلامهم في أنهما تعاضدتا معه وهما في بلاد المغرب الأقصى أو كان معه بعض منهما والبعض الأخر في البلد الذي نسبهما إليه ابن حوقل في القرن الرابع قبل نهضة المرابطين ، ومن سوى هذين المؤرخين لم أقف من كلامه على ما يقربهما ولا ما يرد عليهما بعد تفتيش ابن خلدون والاستقصاء ، أما ابن خلدون فلم يتكلم على حدود إمارات أهل الصحاري ولم يعتن بتعين القبائل التابعة لدولة المغرب على وجه الإحصاء ، وأما صاحب الاستقصاء فذكر في أول كتابه أن تاريخه مقصور على المغرب الأقصى المحدود بوادي ملوية فلم يعتن بالخارج عن حدوده الجديدة وإن كان داخلا فيه في الأزمان القديمة لكنه لما تكلم علي يوسف بن تاشفين وقواده ذكر أن منهم قائدا من تلكانة التي عدها بان حوقل من قبائل تادمكت ولم يبين حال ذلك القائد هل كان غربيا بعيد عن أهله أو كان بعض تلك القبيلة إذ ذلك في المغرب وبعضها في بلاد تادمكة والكل محتمل فإن الرجل ربما اغترب عن أهله ووطنه وتعزز في وطن آخر وربما انقسمت قبيلة واحدة من أهل الصحاري بين بلاد متباعدة ، وعلى كل فالمؤلف الذي أثبت تادمكت من توابع المرابطين مثبت فيقدم على النافي إن كان كما هو القاعدة وتكون مرتبته مرتبة خبر الواحد في إفادة الظن ويعتضد بما في البيان المغرب فيفيدان اليقين ، وذكر القلقشندي في صبح الأعشى أنهم خاضعون بالاسم لأبي الحسن المريني صاحب دولة الجزائر في القرن السابع وهو أوسع مملكة من غيره من أسلافه ومع ذلك أثبت لهم الاستقلال عن جميع الممالك السودانية والبيضانية ، وهذا غاية ما وقفت عليه من تعلقهم بالممالك من جهة الحكم ، وأما الممالك السود فلم أقف على ما يفيد تعلقهم

بها فيما قبل أيام إسكيا الحاج محمد إلا قبيلة إنتصر ذكر القلقشندي من أهل القرن الثامن أنهم لم يزالوا في أيامه تحت حكم أمراء السودان وهم الذين يولون أمرائهم وغيرهم من إخوانهم البيض ذكر أنهم ما زالوا مستقلين في صحاريهم ، وذكر الشيخ السوقي/ محمد بن الهادي في كتابه نصيحة الأمة : أن أول من جمع بين السود والبيض من أمراء سنغاي هو سن علي ، وغيره من المتكلمين على إمارة سن علي إنما يذكرون حربه للتوارق وشنه الغارات على من قدر له ذلك منهم لا حكمه عليهم بذلك وصفه السعدي والفتاش وغيرهما ، والمعروف بالجمع بين الفريق الأبيض والأسود أولا هو إسكيا الحاج محمد الذي جاء بعد سن علي وجبر الخلل الواقع في البلاد والعباد بسببه وهو المتفق على إمامته وعدالته وامتداد ملكه في الأقطار النائية فضلا عن الدانية وعلى أنه دخل في طاعته قبائل الملثمين الذين يسكنون في شواطئ نهر النيجر ويخالطون أمم السودان ، وأما البيض الساكنون في الصحاري البعيدة عن النهر فلم يتفق على دخولهم في طاعته برسم التبعية بل برسم الموافقة والتواد والتعاضد لما رأوا من استحقاقه لذلك لكن لم تزل منهم إمارات يتخيرون والولاة من أنفسهم ويحكّم كل على ما يليه من الرعايا ولم يزالوا كذلك إلى انقراض دولة سنغي ، وأما قواد المغرب الذين دوخوا بلاد السودان وخربوا دولتهم واتخذوا مدينة تنبكت قاعدة حكمهم فبعض الناس يقول إنهم تغلبوا على جميع البلاد الصحراوية كما تغلبوا على غيرها من بلاد السودان وانقادوا لهم ولم يزالوا تحت حكمهم إلى أن ثار ثوار منهم على أولئك المتغلبين يعني الرماة فسلبوا ملكهم واستولوا على البلاد التي كانوا يملكونها ، وكان قائد تلك الثورة أغمر بن آلاد وهو جدكل تموليت وفي ذريته يكون الرئيس الأكبو للبلاد التي يحكمون عليها ، وتاريخ تلك الوقعة عام ألف ومائة وسبعة عشر هجرية وموضع وقعتهم المشهورة يقال له كُرْزكايْ وكان من قواعد دولة الرماة فلما خربت خرب بخرابها سائر مدنهم واستولى التوارق على جميع بلادهم وزال أمرهم بالكلية ، وبعض الأخباريين يقول ما دخل تحت قواعد الرماة برسم الغلبة إلى التوارق الساكنون بقرب البحر ، وأما أهل الصحاري منهم فتمنعوا بصحاريهم من الجنود التي خربت بلاد سنغي وأعوانهم الوصول إلى أماكنهم ، ثم لما علموا أن أولئك القواد إنما جاءوا من سلطان شريف من أهل البيت النبوي وكان إخوانهم من أهل آير تابعين لحكمه دخلوا في طاعته طوعا رغبة في التعلق بالشرفاء أو دخلوا فيها تعبا لسلطنة آير التي تتناولهم في بعض الأحيان وصارت البلاد

الصحراوية من أهل تادمكة وأهل آير تابعين للمملكة المغربية من غير واسطة الرماة بل بواسطة أمراء إكدز وتمكن أهل البلاد من جلب الفوائد العلمية والمالية من أرض المغرب برسم أنهم من أهلها والله أعلم أي الفريقين كان على الصدق وأيا ما كان فالذي لا شك فيه أن أهل المغرب لما ضعفت قوابهم عن التوغل في الأقطار البعيدة واستبعد الرماة الذين كانوا في أول الأمر نوابهم وعمالهم بأمور الولاية وزعموا أنهم مستقلون بانفاذ ما شاءوا من الأحكام من غير تقيد بأهل المغرب وصاروا يختارون من أنفسهم الأمراء باسم القائد فلان والباشا فلان ، لما صار أمر الرماة مع المغرب إلى هذه الحالة اختلت أمورهم وخرج عنهم من كان في طاعتهم من الطوارق وحاربوهم وأظلم الجو على تاريخهم الحقيقي إلا أن غاية الأمر أن بلاد كاو وتنبكت وطاو ووأكدز وجميع سكانها من السود والبيض استولى عليها جيل*الطوراق وتعدد فيها إمارتهم وقسموها بينهم أقساما كل قسم مستقل بنفسه عن القسم الأخر وليس منهم خارج عن تبعية المغرب في الأحكام الشريعة والمذاهب الدينية وكثير من العوائد الأخلاق ، ثم لم تزل تلك الاستقلالات واقعة ولم تزل الحروب جارية بين أهلها فيما بينهم ينال بعضهم مرة وينال أخرى ولكن لا يدخل المغلوب تحت حكم الغالب إلى أن دهمتهم الدولة الفرنسابة فاستولت على الجميع في أوائل القرن الرابع عشر الهجري وانقطعت العلائق بينهم وبين أهل المغرب من جهة الولايات وبقس التمسك بالمذهب المغربية في أهل العلم منهم يوافقون في القراءة وفي الفتاوى ويلزم علماءهم من يستفتيهم بالتقيد بما عليه عمل المغاربة ولم يتغير ذلك بتغير الولايات وذكر العلامة الكنتي سيد عمر بن سيدي على أن أسلافهم لم يزالوا يخطبون باسم أمراء الرماة ، كما لم يذكران الرماة استولوا على جميع بلاد التوارق من مبدئها إلى منتهاها ، وأما غير الرماة من قواد السودان وثوارهم القائمين في القرن الثالث عشر الهجري كآل عثمان بن فودي في سكتو واتباع عثمان لَبُّ ومحمد جبُ في بلاد جُماري وجماعة الحاج عمر الفوتاوي في بلاد ماسنا وما حولها فيدخل في طاعة كل منهم قبائل قليلة ممن يليهم من التوارق كمثل دخول بعض توارق تنبكت في طاعة أهل فوتا وبعض توارق دنك في طاعة فودي وبعض القبائل الملازمة للبحر في طاعة أهل جماري يعني بلاد نَمَيْ وتِلابير وَصايْ . هذا غاية ما اطلعت عليه من الكلام على تعلقات أهل تادمكة بالأمم تناول أحكام الدول القريبة من بعضهم له ، على وجه الاختصار ، وأما اتحاد جميع أهلها تحت مملكة عربية أو سودانية فلم أر من النقول

ما يفيده ولم أر أثر لأية دولة في بلادهم بل لم تزل صحراء وقفارا منذ خربت المدن التي بناها الأقدمون في تدمكت وتكدا وغيرهما من مدن البربر ولم يزل أهلها ظواعن لا يضبطهم منزل وفوضى لا إمام لهم إلا ما يذكر في بعض الأحايين من اتحادهم مع آير تحت سلطان واحد في أكدز يحكم عليهم جميع التوارق الصحراويون بالنيابة عن السلطان الأعظم في فاس ، ثم ما كان من اتخاد جميع من بغربي آير منهم تحت حكم إولمدن بقيادة بني كردنّ فإن البلاد مضبوطة في أيامهم بقدر طاقتهم وسياستهم أحسن من سياسات من سواهم من إماجغن ومن السودان وإمارت إخوانهم في غربيهم وشرقيهم كلها تابعة لهم من رأس الماء وراء كُندام إلى بلاد دنك إلى تَدْغَقْ ببلاد فَلَنْك ولولا أمية رؤسائهم وصحراويتهم لكانوا أشبه دولة لكن قصارى أمرهم ما حصلوا من كون بلادهم أحسن مما قاربها من البلاد وكونهم أقرب ذوي السلطنة إلى العدالة وحسن التنظيم والتقيد بمعالم الشريعة وأحكامها فكانت بلادهم في أيامهم مستقلة عن جميع الممالك ، وأما فيما قبل أيامهم فلم أر على التحقيق ما يصرح باستقلالها ولا بتبعيتها إلا أن بعض المصريين المتكلمين على أمم غرب أفريقية رسم خريطة بلادها في القرن العاشر الهجري وسمى أهم مدنها في ذلك الوقت وذكر منها تِيسْتَّى و هكار و تادمكت وتكد أو إروان وولاتة ولم يضف كلا منها إلى دولة من الدول بل ذكر بَرْنو دولة وهَوْسا دولة وإمارة سنغي دولة أخرى تشتمل على كاو وتنبكت وجني وحوط على القواعد الثلاث بحائط يدل على مجموعها هو إمارة سنغي التي استولى عليها جنود المغرب عند انتهاء القرن العاشر ، ثم عدد الصحراء التي لم تكن كل منها تحت حكم الأخرى وذكر منها أكدز وأهكار وولاتة وتدمكت وبذلك وصف حالة البلدان في تلك الأيام معتمدا على عدة مصنفات عربية وأفرنجية قديمة وحديثة ، ثم ذكر في موضع آخر ما يدل على أهل تدمكت لم يكونوا تحت حكم الرماة حين حكموا على بلاد سنغي فقال ما لفظه : وفي عام ألف ومائة وسبعة عشر من الهجرة خرجت أواخر فلول الجيش المغربي لتصد هجوما عنيفا شنته تادمكت في قلب الصحراء الكبرى بزعامة القائد أغُمَر فقضى على تلك الفلول وعاد من بقي منهم إلى تنبكت وقدموا ولاءهم إلى أغُمر فسمح لهم أن يختاروا الباشا ثمنا لخضوعهم ، إنتهى الغرض من كلامه وهو صريح في أن أهل تادمكة مستقلون عن الممالك في القرن العاشر الذي قامت فيه دولة سنغي ، وفي القرن الحادي عشر الذي تغلب فيه أهل المغرب على بلاد السودان ، فتبين أن الرماة لم يستولوا إلا على من كان

بشاطئ البحر من أمم التوارق ويخالط أمم السودان في جميع الأحكام وفي رسالة أجدادنا إنَلْبُشْ وهو جد إخواننا كل أسكَنْ إلى سلطان تنبكت أو قائدها ما يشير إلى أن حكمه مقصور على أهل البحر من أمم التوارق وأن أمير التوارق الصحراويين في ذلك الوقت يعني أوائل القرن الثاني عشر ، وهو أك الشيخ بن كردنّ ، لم يكد أن يكون تحت حكمه وتلك الرسالة طويلة في مواضيع شتى ، ومن مواضعها تعريفه إياه بأصول السوقيين واستحقاقهم التعظيم والاحترام من جهة تمسكهم بالديانات والعلوم من بين سائر الأمم ومن جهة أنسابهم التي اختصوا بها عن سائر التوارق ، ومما ذكره في ذلك الموضوع أنهم لم يزالوا محترمين مبجلين عند أمراء سنغي الأولين حتى ضعف ذلك في أواخر أمرهم ، ثم جاءت جنود العرب مجددوا لهم حرمة عظيمة وجاها كبيرا وعظموهم في أنفسهم ونصبوا منهم أمراء وقضاة كما كانوا عليه أصلا وترك لهم كل ما معهم من الأموال والقبائل والحمد لله إلى الآن وقد صرح في موضع آخر من الرسالة بأن من بيفح عنهم لم يزالوا مجاورين للسودان في الوطن ومشاركين لهم في الأحكام فقال : ما لفظه ولم يزل كبراء أسلافنا وقضاتنا كمحمد بن إبراهيم ومحمد بن عال وباب بن أمَّ ومن بعدهم كأبناء محمد بن عال ومحمد بن البرجي ومحمد بن أشرَوْ وغيرهم من خواصهم مع مجاورتهم لكاو ، نازلين في تنبكت على كبرائها لطلب الجاه والحرمة والشفاعة ويحملون إليهم شكاياتهم في البحر من العرب والتوارك ويعقدون المجالس مع إخوانهم العلماء ، مر إلى أن قال واسأل جميع الأقاليم يخبروك بدينهم وعلمهم ودينهم وولايتهم وكونهم ذرية الصحابة وورثتهم في الدين والعلم فجعلهم من جملة التوارك وحكم لهم بحكمهم ، إهـ . وقال : في موضع آخر من الرسالة وذكرت لأك الشيخ وجميع إولمدن ما بلغنا عنك من حسن السيرة ولا بد من وقوع ذلك في قلوبهم جدا لأن طبيعتهم على الإصلاح وإن أفسدوا . ولا أقول ذلك لجميع التوارك إلا لأجل النصيحة العامة لا لأجلك بخصوصك بل لصدهم عن تنبكت لأن هذا البلد المؤسس على الخير قديما وحديثا المورود من جميع البلاد المصدر منه الخيرات لكل بقعة ، ينبغي أن يراعي حقه . إنتهى الغرض من كلامه وهو صريح في أن سكان البحر من السوقين وغيرهم من قبائل التوارق هم الذين يخاطب القائد في كف بأسه عنهم وإيصال بره إليهم وسكان الصحاري بعكس ذلك فإنهم إنما يطالبهم بكف عدوانهم عن محل السلطنة البحرية ولو كانوا تحت حكم تلك السلطنة لما كان خطابهم في حقهم كما ترى بل مقتضى الحال أن ينهاهم عن الخروج

عن الطاعة ويحذرهم من بأس أمراءهم وقوتهم ويأمرهم بالطاعة والانقياد لهم ، فتبين من كلامه أولا وآخرا أن حكم قواد الرماة على التوارق البحريين لم يتعدهم إلى الصحراويين ولم نعثر على مؤلف مجرد لأخبار الصحراويين يكشف عن حقيقة أمرهم بل نقف على تتف شتى من أخبارهم تذكر على وجه الاستطراد ويفهم من بعضها أنهم تابعون لبعض الدول ومن بعضها أنهم مستقلون بأنفسهم فلأقرب بحسب النظر القاصر ، وبحسب ظاهر ما تقدم من النقول إلى وجه الجمع بين الروايات المفيدة لاستقلالهم وبين الروايات التي تضيفهم إلى دول السودان والتي تضيفهم إلى المغرب والجزائر ، أنهم لم يدخلوا تحت حكم دولة من الدول برسم الاندماج التام والتبعية والمستمرة من أول قيام الدولة إلى انقراضها بحيث يقومون بقيامها ويزولون بزوالها بل الغالب عليهم الاستقلال والفوضى والتمنع بالجبال والمفاوز عن تغلب كثير من الجنود عليهم والغالب على من حولهم من الممالك الاقتصار على ما يليهم من البلاد والأمم والاشتغال بتدبيره أو تسخيره عن مقاساة الشدائد في طلب الوصول إلى أرضهم ثم محاربتهم فيه فن فيهم من البأس والشدة والمنعة ما يمنع كثيرا من الأمم من المسارعة إلى الاستيلاء على أوطانهم واستعمار أهلها فتركهم غالب أهل الممالك في غالب الأحيان ولم يتعرضوا لهم ، وربما بلغهم ظل بعض الدول القريبة منهم فيستسلمون لمن يعرفون من أنفسهم أنهم لا يطيقون مقاومته لكثرة جنوده وقوتهم واستيلائهم على الممالك القاصية والدانية وغلبهم لمن غالبهم من الأمم ، كما كان منهم مع دولتي المرابطين والموحدين لما امتد نفوذهم إلى أقاصي البلاد في القرن الخامس والسادس فإنهم طاعوا للمغرب في أيام تينك الدولتين ودخلوا تحت حكم سلاطينهم ، وكما كان منهم مع بني مرين ملوك الجزائر في القرن السابع فإن سلطانهم أبا الحسن الذي هو أوسع أمراءهم مملكة امتد نفوذه إلى قلب الصحراء حيث كانت بلاد تادمكت وصرح القلقشندي بأنهم من أتباعه بالاسم لا بالحقيقة ، وكما كان منهم مع أهل ملِّ في القرن الثامن أيام سلطانهم منسا موسى الذي امتد ملكه إلى أقاصي دول السودان في الجنوب وإلى بلاد الصحاري إلى تَواتْ من جهة الشمال وإلى ما وراء إكدز من جهة المشرق وإلى البحر المحيط من جهة المغرب واستولى على مملكة كاو وهي عاصمة أمم سنغاي قبل استيلائه عليها ، وقل من لم يدخل تحت حكم ملِّ في أيامه ، وكما كان منهم في القرن العاشر مع الحاج محمد إسكيا الكبير الذي هو إمام سنغي وسلطانهم وأكثرهم توسعا في لحاق الممالك القريبة منه إلى ممالكه حتى استولى

فيما يقال على ملّ ومُوش وكثير من دول السودان وعلى جميع الصحاري التي يسكنها التوارق من ولاتة إلى ما وراء أعمال إكدز فإنهم طاوعوه وسالموه ولم يحاربوه وهكذا يكون حالهم مع أهل الدول الكبار القريبة منهم كلما استفحل بعض أمراءها وتغلب عليه من قبله من أمراء بلده وعلموا أنهم إن لم يبادروه بالاستسلام دوخ أرضهم وأزال ملكهم ، استسلموا له وكانوا من أتباعه وجنوده وإذا مات ذلك المتغلب وقلص ظل دولته واقتصر خليفته بعده على الوطن الأصلي وعجز عن تدبير ما بعد عنه من الممالك الطارئة وعلموا بذلك الضعف الحادث بعد المتغلب الأول الذي انقادوا له ، قطعوا العلائق بينهم وبين الخليفة العاجز وراجعوا ما كانوا عليه قبل من الاستقلال والانقطاع من التبعية ، ولأجل ما كان منهم من مسالمة من امتد سلطانه اختلف المؤرخون الذين لم يحققوا أمرها ، في إلحاقها بالدول الكبار بعضهم يلحقها إلى دولة سنغي وبعضهم يلحقها إلى الدول المغربية وبعضهم يصفها بالاستقلال عن الممالك ، والتحقيق أن من ألحقها إلى بعض الدول فباعتبار ما هو الأغلب ، والله أعلم .

الفصل الخامس

في ذكر البلاد التي تتعلق بها من جهة التجارات وتبادل المصالح مقتضى ما وقفت عليه من النقول القديمة أنه كانت بينهما وبين بلاد السودان التي بجهة جنوبهم علاقات تجارية كما كنت بينهم وبين غانة القديمة التي خربها جنود المرابطين في القرن السادس وتفرق بقية أهلها وصار موضعها صحراء تصلح لرعاية الإبل وهو قريبة من الحوض المشهور في بلد مورتان ، وتتعلق من جهة الشمال ببلاد أهكار وبلاد غدامس وبلاد القيروان ، قال البكري في كتابه المعرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب الممالك والمسالك له مالفظه : وتادمكت أشبه بلاد الدنيا بمكة ومعنى تادمكة هذه مكة وهي مدينة كبيرة بين جبال وشعاب وهي أحسن بناء من مدينة غانة ومدينة كوكو وأهل تادمكة بربر مسلمون وهم ينتقبون كما ينتقب بربر الصحاري وعيشهم من اللحم واللبن ومن حب تنبته الأرض بغير اعتمال ويجلب إليهم الذرة وسائر الحبوب من بلاد السودان ويلبسون الثياب المصبغة بالحمرة من القطن والنولي وغير ذلك وملكهم يلبس عمامة حمراء وقميصا أصفر وسراويل زرقاء ودنانيرهم تسمى الصُلّع لأنها ذهب محض غير مختومة ونسائهم فائقات في الجمال لا يعدل بهن أهل بلد حسنا وهن يبادون التجار ايتهن تحملهم إلى منزلها ثم قال : فإن أردت من تادمكة إلى القيروان فإنك

تسير في الصحراء خمسين يوما إلى وَرَكَيْلا وهي سبعة حصون للبربر أكبرها يسمى أَغْرَم إِنْكَمَنْ حصن العهود ، ومنها إلى مدينة قسطيلية أربعة عشر يوما ومن تادمكة إلى غدامس أربعون مرحلة في الصحراء والماء فيها على مسيرة اليومين والثلاثة أحساء ، وغدامس مدينة لطيفة كثيرة النخل والمياه وأهلها بربر مسلمون وبغدامس دواميس كانت سجنا للكاهنة التي كانت بأفريقية وأكثر طعام أهل غدامس التمر والكمأة تعظم عندهم حتى تتخذ فيها الأرانب حجرا ، وبين غدامس وجبل نفوسة سبعة أيام في الصحراء وبين نفوسة ومدينة طرابلس ثلاثة ، ثم قال : وطريق آخر من تادمكة إلى غدامس تسير من تادمكة ستى أيام في عمارة سغمارة ثم في مجابة أربعة أيام ، ثم في مجابة ثانية أربعة أيام إلى الماء أيضا . مر إلى أن قال : وتسير من هذه المجابة إلى مجابة ثلاثة وفي هذه المجابة معدن الشب ، وتسير من هذه المجابة إلى مجابة رابعة إحدعشر في رمال جرد لا ماء فيها ولا نبت يتزود الرفاق الماء والخطب فيها كما تتزود الطعام والعلف ، وعلى يسار السائر في هذه المجابة جبل الرمل الأحمر الذي يتصل بسجلماسة . مر إلى أن قال : وبين تادمكة ومدينة كوكو تسع مراحل . إنتهى

وقال قبيل هذا : فأما الجادة من غانة إلى تادمكة وبينهما مسيرة خمسين يوما فمن غانة إلى سفنقو ثلاث مراحل وهي على النيل وهي آخر عمل غانة ، ثم تصحب النيل إلى بوغرات وفيه قبائل من صنهاجة يعرفون (بمداسة) ، ومن بوغرات إلى تيرقي ثم تسير منها في الصحراء إلى تادمكة . إهـ وقال : أيضا وتجارة أهل كوكو بالملح وهو نقدهم والملح يحمل من بلاد البربر يقال لها تَوتك ، من معدن تحت الأرض إلى تادمكة ومن تادمكة إلى كوكو وبين تَوتك وتادمكة ست مراحل . قلت وهذا المعدن والمكان الذي فيه غير معلومين في هذا الوقت فإنا لم نسمع معدن ملح في البلاد القريبة من بلادنا إلى في تَودْنّ وتغازا والمسافة بينهما وبين تادمكة بعيدة نحو عشرين يوما أو أكثر . إهـ وقال البكري أيضا وإذا سرت من غانة تريد طلوع الشمس تسير في طريق معمورة بالسودان إلى موضع يقال له رأس الماء وهناك تلقى النيل خارجا من بلاد السودان وعليه قبائل من البربر يسمون (مداسة) ، وبإزائهم من الشط الثاني مشركوا السودان ثم تسير من هناك على النيل إلى مدينة تيرقى ويجتمع في سوق هذه المدينة أهل غانة وأهل تادمكة . إهـ وقال : أيضا ومن تيرقى يرجع النيل نحو الجنوب في بلاد السودان فتسير عليه نحو ثلاث مراحل فتدخل بلاد سغمارة وهم قبيل من البربر

في عمل تادمكة ويجاذيهم من الشط الثاني مدينة كوكو للسودان . إنتهى كلام البكري . قلت ما ذكره من ودود رأس الماء في تلك الأيام وكونه محطة للقوافل يبطل ما يقرره بعض الكتابين من أن سُنْ علي أمير كاو هو الذي حفر رأس الماء ليلحق إلى علماء بيرْ الفارين من تنبكت فإن المؤلف إنما تكلم في أواسط القرن الخامس وسن علي من رجال القرن التاسع فبينهما أرع مائة سنة أو أكثر ، وكذلك مدينة تيرقى التي ذكر أن سوقها هو ملتقى قوافل غانة وقوافل تادمكة لم تكن معهودة الآن لكن المسافة بينها وبين رأس الماء قريبة من المسافة بينه وبين تنبكت فلعلها مما خرب بعمارة تنبكت لأن تنبكت لم تكن عامرة في أيام المؤلف ويقال لموضعها أيضا منحنى النيجر لأن نهر النيجر مازال مشرقا يخرق الصحاري إلى ذلك الموضع الذي فيه تنبكت فهناك انعطف إلى الجنوب فكان يميل إلى الجنوب مرة وإلى الشروق مرة ، وربما غرّب ومازال كذلك حتى وصل إلى بلاد نيجر ، وكذلك ما ذكره من محاذاة كوكو لمن كان على ثلاث مراحل من تيرقى إن كان مراده بكوكو شيئا من أعمالها فمسلم وإلا فمدينة كوكو نفسها تبعد عن تنبكت التي تقدم أن محلها قريب من محل تيرقي إن لم يكن هو بعينه ، والمسافة بينهما نحو عشر مراحل ، وكذلك ما ذكره من أن مدينة كوكو محلها من الشط الغربي الجنوبي ، تغير في إمارة إسكيا في القرن العاشر فبنى دياره في الشط الشرقي وبنى فيه مسجدا جامعا له غرفة طويلة ترتقي بالسلالم ولم يزل ذلك المسجد موجود ، وكذلك اسم مداسة الذي ذكر أن قبائله على رأس الماء لا يعرف الآن ولا أدري هل بقيت القبائل وتغير الاسم أو فنية في القرون الأولى . والحاصل : أن تادمكة من البلاد المشهورة في القرون الماضية وإن لم تعرف في الأخيرة وأنها كانت سوقا هاما وموردا عاما تتصل منه الطرق التجارية إلى البلاد البعيدة والقرى الكبيرة مثل القيروان وغدامس من دول البيض في الشمال الشرقي منها فإن القيروان من دولة تونس وغدامس من دولة ليبيا ، ومثل غانة قبل خرابها ، وهي من جهة مغربها ، ومثل دولة كوكو من جهة جنوبها ومنها ينقلون أنواع الأطعمة ، ويذهب أهل تادمكة على البلاد السودانية برسم التجارة وإلى البلاد الإسلامية العربية برسم التجارة والتعلم ويفيد عليهم أهل الدول المذكورة أيضا بما يرغبون فيه من بلادهم رغبة فيما عندهم من الذهب وأنواع الأمتعة فيأتي إليهم العلماء بالكتب وبالتعليم والتجار بما يظنون رغبتهم فيه مما لم يكن ببلادهم ، وكان الأمر كذلك مدة طويلة ثم جعل ذلك يتنقص بمضي العصور وتغير الأحوال حتى آلا الأمر إلى مغادرة

جمهور أهل البلد للوطن وصار أطلالا لا أنيس بها ، والبقاء لله وحده وهو الذي يرث الأرض ومن عليها وإليه المصير .

الفصل السادس

في ذكر قبائل تادمكة وأقسامها بين المناطق التي صارت أوطانهم في الحال

أما قبائلها في الزمن القديم فأكثر من أن تحصى , وأعني بالقبيلة ما يطلق عليه الاسم في عرف أهل البلد لاما يطلق عليه في عرف العرب الذين لا يطلقونه إلا على من يجمعهم جد ، والذي يطلق عليه أهل البلد اسم القبيلة جماعة متلازمة في الجوار والمناكحة والمحالفة واتحاد الوطن سواء كانوا من أب واحد أو أم واحدة أم لا والغالب من قبائلهم أن تضاف إلى الوطن الذي يجمعهم فيقال أهل بلد كذا .قلت قبيلة منهم تضاف إلى جد جامع لها إذا علمت هذا فاعلم أن القبائل التي تعمر بلاد تادمكة في الأيام التي زارها فيها ابن حوقل الرحالة العربي من أهل القرن الرابع الهجري عد منها كثيرا ثم اعترف بالعجز عن إحصائها لكثرتها وانتشارها في البلدان المتباعدة الواسعة ، ونص كلامه في **الفصل** الذي عقده لأسماء قبائل صنهاجة وبطونها وأفخاذها* هكذا ، ومن قبائل صنهاجة الخارجة عن بني غمر ، زري وقبيلة)(يسوه ، وإيفرين وإمميكيتن واتوتين واتروين واتّوارِي واسواله وبنوا كسيلة وبنوا ورتاف وإيزكارن وتلكانة ، وذكر نحو عشرين اسما لا أحسن ضبطها ولا أعرف من يسمى بها في هذا الوقت الحاضر وممن ذكرهم ممن بقي على الاسم القديم يسمى به إلى قبيلى إيلَغْماتن ، وإيمَزْوعن ، وكيلتَمُوتيْ ، وكل مكزن ، وكل فرون ، وكل دفر ، وممن ذكرهم ممن لست أعرفهم كلساندت ، وبنوا بزار ومن الموجودين في الوقت الحاضر لكن في بلاد آير ، إمكدزن ، وإكُوفان ، وإيسطّافنْ ، وكثير من الأسماء التي ذكرها غير مضبوطة ولعلها ملحونة فأعرضت عن التعرض لها ثم قال : ولو قلت إني لم أصل إلى علم كثير من قبائلهم لقلت حقا إذ البلاد التي تجمعهم والنواحي التي تحيط بهم مسيرة شهور والعلماء بأحبارهم وآثارهم هلكوا ، وقال : في موضع آخر وأما بنوا تانمَاكْ ، ملوك تادمكة والقبائل التابعة لهم ويقال إن أصلهم سودان أبيضت أبشارهم وألوانهم لقربهم على الشمال وبعدهم عن أرض كوكو وهم لأمهاتهم من ولد حام ، ويقول آخرون بل هم من صنهاجة أنفسهم ، واحتج ملحقهم لبنوة حام ، بقول الكندي أن البيضان إذا تناسلوا في بلد السودان سبعة أبطن عادوا في بلد البيضان سبعة أبطن عادوا في صورتهم وخلقهم من البياض والنقاء ، ثم قال :

وليس بمثل هذه الدعوى يتكلم على الأنساب إنتهى العرض من كلامـــه .
قلت هذه القبائل التي سماها ونسبها إلى تادمكة صار كثير منها إلى بلاد آير مثل إيفرين ، وإمكيتن ، وإزكارن ، وكـل فـروان ، وإمكـدزن ، وإكوفان ، وكثير من غيرهم وانقطعت العلائق بينهم وبين إخوانهم الباقين في الوطن منذ أزمان حتى جهل أن بينهم شيئا من الاتصال وأما من لـم يصر إلى آير من القبائل التي سماها فلم يبق في الوطن من يتسمى بهـا إلى إيلغماتن فإنهم بقوا في الوطن إلى إمارة كاو بن أمّا من بني كـردنّ فخرجوا عنه وكانوا أمما كثيرة وخرج معهم أشو جـد إمـاجغن الـذين يتأمرون في الوقت الحاضر في أرض بنكلري من أعمـال نيجـر فـي الساحل الغربي ولم أجد خبرا محققا عن غير هؤلاء من القبائـل التـي ذكرها بعد الزمن الذي دار فيه على أرضيهم وهو عـام ثـلاث مائـة وأربعين من الهجرة ، ولعل القبائل التي سماها هي التي فيها الرياسة في وقته ، ثم تغيرت الأحوال واضمحل شأن أولئك وحثت الرياسة والسلطنة فيمن أهمل تسميتهم فعرفوا بعد ذلك الزمان وبعد أيام ابن حوقـل كثـر اختلاط الأمم في عصور ازدهار مدينة تنبكت فوفد إليها رجـال العلـم والتجارة من المغرب ومن توات ومن سائر الدول التي تكتنفها فتناكحوا مع أهل الوطن الأصليين وتجددت من ذلك قبائل لم تكن موجـودة فـي القرون الماضية كما انقرض كثير من المتقدمة ، وكلا الأمرين مـشاهد بكثرة نعرف رجالا يبارك في ذريتهم فتصير ذرية واحد منهم قبيلة لهـا شأن في مدة يسيرة ، ونعرف قبائل يحكى من كثرة أصـولها وعـزتهم ورفعتهم ما يتعجب منه السامع ، ثم آلا أمرها في العصور الأخيرة إلـى الانقراض أو إلى بقاء رجل أو رجلين من بعضها أو بقـاء عبيـد لهـم يسمون بأسماء ساداتهم فلما كثر اختلاط القبائل وكثر الجهل والتفريط في ضبط أصولها وأخبارها تعذر إلحاق كثير من القبائل الموجودة الآن إلى الأصول القديمة على وجه التحقيق ، ونقل الشيخ الـسوقي محمـد بـن الهادي عن بعض المتقدمين أن مجموع قبائلهم في أيـام إسـكيا محمـد فرقتان فرقة تعتمد على إكدز وفرقة تعتمد على تادمكة والمتغلب علـى الجميع إسكيا ، ثم تفرق أمير الجماعة في إتيـسان وأدلـن وادموسـن وإمزغرسن فذهب إتيسان إلى استنبول وطلبوا من السلطان فيه أن يولي عليهم وعلى أتباعهم ومن وافقهم من إخوانهم بعض رجاله فأرسل معهم رجالا من أهل بيته فجعلوه أميرا وتوارث أولاده بعده السلطنة على إكدز ،

هذا ملخص نقله ، ثم تبرأ من عهدته فقال : كذا قيل وذكر في موضـع

آخر أن قبيلة أهل إنْسَطَّفَنْ كانوا أهل دولة يحكمون على بلاد آير حتى قدر عليهم أن قتلوا شيخا من الصوفية يقال له سيدي محمود البغدادي من أهل القرن التاسع فانتقم الله منهم وذهبت دولتهم . إنتهى وسيدي محمود هذا هو شيخ محمد بن يوسف الأنصاري المعروف بإدَّ إنْتَكَرَتْكَتْ وعنه أخذ طريق التصوف .

وأما أَدَلَنْ وإدَمُوسَنْ وإمَزْغِرِسَنْ فلم ينقل من أخبارهم شيئا بعد مبايعة إخوانهم لسلطان إستانبول وقد رأيت نقلا آخر يفيد أن أربع قبائل من قبائل الصحراء هم الذين تعاقدوا وتوافقوا على اتخاذ سلطان أجنبي يسلك بهم سبيل أئمة العدل بعد ما أعزهم الاتفاق على أمير واحد من أهل البلد ، وهم إتِيسَانْ وإبَلْكُورَيَنْ وكِيلَوَيْ ومَسُوفَة وزعم أن وطنهم الأصلي أَوْجَلَةْ ، ثم هاجروا إلى أرض آير ، والله أعلم . ثم لا يخفى أن جمهور أهل البلد أعرضوا عن التعلم قديما ورفضوا الكتابة رأسا فضاع من أمورهم ما لا يضبط إلا بالأقلام وبقي جيل منهم على التمسك بالعلوم وضبط ما ضيعه إخوانهم ولم يزالوا محافظين على الانتساب إلى السوق حيثما كانوا تبعا لانتساب أسلافهم إليه وهو المسمى باسم أهل السوق وهؤلاء لا يزالون يدعون أصالة الوطن لهم من عهد الفتوح الإسلامية إلى خراب مدينة السوق ، ويأتي الكلام على هؤلاء في الباب الثالث المعقود لأخبارهم .وأما القبائل الموجودة في العصور الأخيرة معمورا بها الوطن الذي بين بلاد آير من جهة المشرق وبين مورتان من جهة المغرب ، فمن البعيد إحصائها على وجه التحقيق لكثرة أسمائها وتباعد أوطانها واتساعها ولا أحسب أن في الوجود من يحيط بمعرفة أسمائها فضلا عن معرفة أفرادها حتى أن الإحصاءات الحكومية التي تعاني ضبطهم لم تحصل إلا البعض والطريق إلى معرفتهم على سبيل الإجمال معرفة أقسامهم ومعرفة السادات من كل قسم فإنهم انقسموا إلى أقسام ثلاثة : كل قسم منها صار مملكة مستقلة ، الأولى : مملكة دنَّك ، ويسمى أهلها أيضا تَكَرَيْكَرَيْتْ ، ومعنى دنَّكْ جهة المشرق وسميت بذلك لأنها شرق أختيها ، ومعنى تَكَرَيْكَرَيْتْ المتوسطة ، وسميت بذلك لأن أهلها توسطوا بين إمارة إكدز وبين إمارة كَردَنَّ وامتنعوا من اللحوق بكل منهما فوقعت بينهم وبين كل من الفريقين حروب آل أمرها إلى استقلال تلك الفرقة بسيادة وطنهم والدفاع عنه واتخاذ الأمراء والأئمة من أنفسهم ومبدأ أوطانهم التي تعيش فيها القبائل التابعة والمتبوعة من الحدود التي بين طاو وإكدز إلى الحدود التي بين طاو ومَنَكَ وقاعدة حكمهم في الوقت الحاضر طاو .

والثانية : مملكة بني كَرِدَنَّ وهي بغربي الأولى ، وهي أكبر من أختيها ، ويسميهما إخوانهم من أهل دَنَكّ كَلَ أتَرَمْ ، ومعنى أتَرَمْ المغرب وحدود هذه من جهة المغرب إذا اعتبرنا بني آلاد وأتباعهم مملكة مستقلة ببلاد تنبكت وإذا اعتبرناهم مندمجين فجدود مملكتهم وَلاَتَةُ .

الثالثة : مملكة بني آلاد وهي الغربية وحدها من أرض تَغَارُسْتْ إلى ما وراء رأس الماء .

وكل الممالك الثلاثة يشتمل على عدد من القبائل لا يحصى ، وكل منها تنقسم إلى أقسام ثلاثة

قسم غالب يتأمر ويدافع عن الأوطان وليس له من التعلم حظ إلا ما لا بد منه من تعلم فرض العين في بعض الأفراد ، وهذا القسم هو المسمى باسم إمَاجَغَنْ وإمُوشَاغْ وقسم مغلوب لا يتعلم ولا يحارب ولا يدافع إلا نادرا ، وهمته في تربية المواشي وتنميتها ويسمى باسم تِلَقّونْ ومعناه الرعايا لأن وظيفتهم حفظ الأموال والاعتماد على الغالبين وأداء الأتاوات والخراج إليهم في مقابلة دفاعهم عن أوطانهم واسترداد ما ينهبه المحاربون من أموالهم وهذا القسم هو الأكثر وربما وجد من بعض قبائله أفرادا ذووا نجدة يقاتلون من هجم على حريمهم ويعزون مع أمرائهم ويكون لهم بذلك اعتزاز على إخوانهم ممن ليس كذلك ولا يمنعهم من التبعية وأداء الخراج إلى الأمراء الغالبين حتى صارت القبائل الغالبة تحوز المغلوبة كحيازة الأملاك مع الاعتراف بحريتهم وربما قال بعضهم لبعض إخوانه أعطيتك فلانا أو آل فلان بمعنى أنه أعطاه خراجهم فيكون ذلك عطية مقبولة يحترز المعطي وورثته من استرجاعها ويحوزها المعطي له ثم ورثته بعده دائما والشخص المعطي أو القبيلة المعطاة لا يزال راضيا ولا يزال أولاده بعده راضين بالتصرف والواقع فيه أو فيهم أبدا ، وإذا لم يرض خلف الموهوبين بما يعمل فيه خلف الموهوب عد ناقضا للعهد خارجا عن اتفاق الجماعة وليم من كل أحد وأوذي القسم الثالث : قسم المتعلمين ووظيفتهم التعلم والتعليم والإرشاد والإصلاح بين الناس ونصح الأمراء ووعظهم ومدافعة الثائر على الوطن بالهمم والدعوات والتدبيرات ومخاصمة علماء الأفاق بالحجج حتى يبطلوا دعاواهم وينقذوا أرضهم وأهله مما يريد به أولئك الثوار يدافعون بالرسائل والقصائد كما يدافع إخوانهم الأمراء بالسيف والرمح وهذا القسم يشتمل على قبائل كثيرة بعضها لا يحمل السلاح ولا يقاتل الأعداء فرارا من سفك دم مسلم بغير حق وبعضها يحمل السلاح ويدافع عن حريمه ويتعلم العلوم كما يتعلمها من يقوم بالتعلمات ويجمع بين السيف والقلم

وذلك كثير في قبائل مملكة دنك معدوم في مملكة بني كردن قليل في مملكة بني آلاد ، والذين شغلهم القيام بوظائف العلماء والنظر في مصالح العامة عن حمل السلاح والدفاع أهل السوق , وإكَلاَّد ، وبعض إِنْتَصَرْ ، وبعض دُو اسْحَاق ، فكل هؤلاء يشمل على أحياء كثيرين ، منهم من يتعلم ويحفظ الأموال ويؤد الخراج إلى من يحوزه من أهل الغلبة ولا يغلب أحدا ولا تابع له من القبائل وهم إكَلاَّدْ ، ودُواسْحَاقْ ، وكثير من إِنْتَصَرْ وكثير من قبائل أهل السوق ، ومنهم من يشتغل بوظائف العلماء وله أتباع كثيرون يدافع عنهم بقلمه وجاهه وماله ويداري عليهم السلاطين ولا يدافع عنهم بالسنان بل يدافع عنهم بواسطة المتغلبين ، وهم بعض أهل السوق ، ويأتي الكلام على إماراتهم في الباب الثلاث .

الفصل السابع

في الكلام علي سادات القبائل من قسم بني كَرِدَنَّ وذكر سلاطينهم أما السيادة من جهة النجدة والإمارة والغلبة على سائر البلاد فهي في جيل إماجغن ولهم قبائل كثيرة يغلبون على القبائل التابعة لهم قبل دولة كَرِدَنَّ وأولاده منهم تَرْغَيْتَامُوتْ ، وإضرككن وإكَرَبَسَنْ وإفُوغَاسْ الذين كانوا في أرض مَنَكَا ويخالطون بني كَرِدَنَّ بالمناكحة والمجاورة لا الذين يتأمرون في بلاد كِدَال ويحكمون على أهلها ، ومنهم تَّهَبَنَتْ ، وتَنْكَر إكَدَشْ وأهل أنْسَنَكْ ، وإغَتَفَنْ ، وكثير يطول الكلام على بعدهم فمنهم من انقرض ومنهم من ذهبت ...... بقيام دولة كردن وأولاده ، ومنهم من صار بعد قيام دولتهم تابعا لهم متبوعا لكثير من القبائل ، قل منهم من لا تابع له وأكثرهم من له أتباع كثيرون من أمم مختلفة يحمون ذمارهم ويقاتلون عنهم ويدفعون عنهم أذية من يريدهم بسوء من المتجبرين والمغيرين ويأخذون من أموالهم يسيرا في جنب مدافعتهم عنهم وبه يتقون على القيام بوظيفتهم من الدفاع عن الوطن ، وكان كل من المتبوعين يستقل بأتباعه في الأزمان القديمة فلما قامت دولة كردن وأولاده صار كل متبوع تابعا لهم ،.وأما السيادة من جهة التمسك بالعلوم القيام بالوظائف الدينية من اتخاذ المساجد والمدارس ونصب القضاة والوعاظ وإصلاح أمور العامة من جهة دينهم ودنياهم ومشاورة السلاطين في أمور البلد والحكم عليهم بمقتضى الشريعة وأمرهم بإنفاذ ما يرونه مصلحة مما يتعلق بالبلاد والعباد ، فهي في جيل أهل السوق ويشتمل على قبائل عديدة كل منها تستتبع كثيرا من القبائل يتقيدون بهم في الأمور ، لأنهم حبسوا أنفسهم على الإرشاد والتعليم ونصح العامة والخاصة والقيام بما ضيعه أهل البلد من فروض الكفاية فصار في حقهم فرض

عين ، فامتازوا بالقيام بتلك الوظائف عن غيرهم من المتعلمين الذين يتعلمون ليعملوا وينجوا من آفات الجهل ويخلصون أنفسهم ولا يسألون عن غيرهم فنالوا التقدم على غيرهم من المتعلمين وقدمهم الملوك والرعايا على القبائل التي يشتغل بعضها بالعلوم ويعرض عنها جلها فيكون جهالها أكثر من علمائها بعكس ذلك فإن الجهل فيهم قليل ومن ليس من جملة العلم منهم يتدين بدين العلماء يسير بسيرهم حتى يظنه من رآه ولم يعرفه عالما ، وبسط الكلام على أخبارهم يأتي في الباب الثالث . ورياسة هذين الجيلين من أهل السوق وإماجعن على قبائل أرضهم لا نزاع فيها وحصر أسماء القبائل التابعة متعذر والأجيال المنقسمة إلى جل القبائل محصورون والخارج عن أولئك الأجيال محصور أيضا فأبدأ أولا بالكلام على الأجيال الأصلية وبعض ما تفرغ عنها ، ثم أذكر القبائل الخارجة عن الأجيال وبعض تقسيماتها لأن أكثرها لا أحيط به علما ، وأعني بالجيل قبيلة تفرعت عنها قبائل كثيرة وانتشرت في البلاد والممالك حتى لم يبق من العلائق بين تلك القبائل المنتشرة إلا مجرد الاشتراك في الاسم وفي الأصول القديمة ، فمن أولئك الأجيال ما يسمى باسم إمْغَادْ وهم منتشرون في كل من ممالك تادمكة الثلاثة وفي مملكة آير وبعضهم في بلاد الجزائر وقد انقطع فيهم التعلم منذ قرون فضاعت حقيقة أخبارهم القديمة كما ضاعت سلاسل أنسابهم إلى الجدود الأولين ، ورأيت في كتاب العلامة الجنهاني محمد إكنن وَتْفَنْدَسَنْ أن موطن أسلافهم في أيام فتوح عقبة بن نافع بلد بقرب قرية كِدَالْ يقال له إبْدَقَنْ فهم من أهل الوطن أصالة ، ومنهم من يزعم أنه من ذرية كُسَيْلَة ويخبط في الجهالات إذا أراد إثبات ذلك ، ولم يدر أحد من المعتبرين ما كان عليه أسلافهم في تقلبات أحوال الوطن قبل أيام كَرِدَنَّ . وحاصل أمرهم بعد استلاء كَرِدَنَّ على البلاد أن من بقي معه في الوطن صاروا رعية له ، ومن خرج إلى بلاد دنّك صاروا رعية لمن فيها من إخوانه ومن كان في أرض تنبكت صاروا رعية لإخوانهم من بني آلآدْ ، ومع كونهم رعايا يتفاوتون في أنفسهم غاية التفاوت فمنهم أماثل لم يزالوا غالبين على كثير من إخوانهم وإن كانوا مغلوبين لمتغلبي إمَاجَغَنْ مثل إمِدَّغَنْ ، وإوَرَغْوَرَغَنْ ، وأهل إهَنْ إشْكَغَنْ فهؤلاء بعدوا عن أهل السلطنة الكبرى فبقي لهم شيء من العزة والغلبة على كثير من ضعفاء إخوانهم وجعلوا يؤدون الغرامة إلى السلاطين بصورة الأخوة والمحبة والإكرام عكس ما يؤديها غيرهم ذليلا ساخطا ، فنالوا من الكرامة والإعزاز عند سلاطينهم ما لم ينله من يشاركونه في اسم إمْغَادْ ، وكانوا

أهل نجدة يدافعون عن أموالهم وحريمهم من هجم عليهم من المغيرين الأجانب وربما غزوا مع سلاطينهم فيبلون بلاء حسنا وليس من قبائلهم الكثيرة من يرضون لأنفسهم باسم الضعف والذل بل الغالب في أفرادهم الشجاعة والنجدة وقوة الساعدين والخفة في الحركات ، وأما بذل الأموال والشفقة على المساكين وإيواء المنقطعين ، وإطعام الجائعين فكان لهم من ذلك الحظ الوافر ، ويزعم بعضهم أنه لا مساوي ولا مداني لهم في المكارم المالية لكن لم يكتب لجمهورهم أن يتفطن لما تفطن له إمْغَادْ من حسن السياسة مع الناس كافة ومع الرؤساء خاصة ، الذي تمكنوا به من الرياسة على غيرهم ومن إكرام أهل الفضل لهم جميعا يكرمهم أهل الفضل والعلم لتقيدهم بهم في الديانات وتشبههم بهم في اجتناب السفاسف ، وأهل النجدة لمشاركتهم لهم فيها مع تسليم التقدم لهم ، والرعايا لانتفاعهم بهم من جهة العطاء ومن جهة الحماية وليست تلك الصفات لغيرهم من القبائل التي يطلق عليها اسم إمْغَادْ بل صار وصفهم الخاص تثمير الأموال ورعايتها والقيام بحوائج أهل الرياسة وأهل العلم عموما وخصوصا فقد كان كثير منهم لا يرى حقا للعلماء إلا الرجل أو لأهل بيت كان أسلافه يراعون حقوق أسلافه كما لا يرى لأهل الغلبة حقا عليه إلا لقوم مخصوصين كان أسلافه مع أسلافهم كذلك وصارت تلك الحقوق لازمة تورث وتوهب ولم يزل ذلك دأبهم مع علمائهم ورؤسائهم إلى الآن وكثير من قبائلهم لم يعتن بغير أمر الماشية فنالهم الذل بذلك عند كثير ممن يحكمون عليهم وأعظم الأسباب في ذل أذلائهم وامتهان أهل المروءة والرياسة لهم إعراضهم عن التعاليم الدينية والاستغناء بسياسة المواشي عن اقتناء المروءة وتعلم الديانات فغالبهم لئام جفاة لا يقتنون المكارم ولا يتعلمون شيئا من الآداب ولا من الأحكام فهانوا على الناس وسقطوا في أعينهم وأهانهم ولاة أمرهم ، وأشد أهل الرياسات إذلالا لمن تحت حكمه منهم قبيلة إِفُوغَاسْ الذين يحكمون في بلاد كِدَال وأما من تحت إولمدنّ وبني عمهم منهم فمن أكرم نفسه منهم أكرم ومن أهانها أهين ، ثم لما حكم فرنسا على البلاد وتفرق أمر الإمارات اتخذوا من كل حي من أحيائهم أميرا على قومه بعضهم لا يحكم على غير حيه وبعضه يحكم على حيه وعلى أحياء تابعة لهم كأمير إمْغَادْ في تِس وأميرهم في كُس وأمثالهما ، وأكثر أمراء قبائلهم لا يزال تابعا لأمير أكبر منه من قوم آخرين ، وكانت الرياسة في هؤلاء لا تنال إلا بالأم وكانت لهم جدات لا يترأس فيهم إلا من ينتمي إليهن من جهة الإناث ولو كان مجهول الأجداد ولا يترأس فيهم ابن الرئيس إذا لم تكن أمه منهن ، وغلا بعضهم قبائلهم

في إكرام الأم وإهانة الأب حتى أهملوا التوارث بالطريق الشرعي فكان الولد منهم لا يرث أباه بل خاله أو ابن خالته أو غيرهما ممن يشاركه في الأمهات وغلبوا على التمسك بتلك الشنيعة كل من يطلب تغييرها من أهل الدين ، ومن أهل تلك الشنيعة حي أهل أغِرسْ في بلاد أرَبَنْدَ ، وبعض أهلها رجع عنها في العصور الأخيرة فكانوا كسائر المسلمين في التوارث على قانون الشرع مع تقديم الأمهات على الأباء وتوارث الرياسات بهن فكان ابن الأخت هو الذي يقوم في مقام خاله الرئيس دون ابنه ، ولم تتغير تلك العادة إلى الآن إلا في ثلاثة رجال كانوا من الشرفاء وكانت أخوال آبائهم ممن يتوارثون الملك بالأمهات ، ولما نالوه غلب نور آبائهم عادة أخوالهم وأبطلها فورث كل منهم مقام أبيه في السيادة وغزل عنه ابن أخته وهم أقَرَيْبُ بن بَايْ بأرض تِنَكُفْ ورث إمارة أبيه بعد كيت وكيت وأرادت قبيلته غير ذلك ولم يحصل مرادهم ، وهذا الأمير ممن ينتمي إلى أيَتَّ ، والثاني والثالث إكَرْوَيْ بن مَطَال في أعمال كاو ، ومن جهة المشرق ، وسليمان بن كَرَيَنْ في أرض تِسِ وهما من ذرية الشيخ أبي الهدى .

ومن الأجيال ما يسمى باسم إنْصَرْ وهم قسمان : قسم لا يقال له الأنصر ، وكانوا في الزمن الأول قبائل كثيرة ذوي عزو وغنى وعبيد ومواشي وإمارات تستقل كل منها بأتباعها مع أنهم في تبعية أمراء إمَاجَغَنْ ، منهم أهل أنْشَوَاكْ الذين انتقلت الإمارة فيهم أخيرا إلى بني مختار من الشرفاء للذين يسكنون فيما حول كاو ، ومنهم أهل أغَبُ وكانوا فيما قيل ذوي كثرة وعزة في الأزمان القديمة لكن صاروا إلى القلة والضعف في الأزمان الأخيرة ، ومنهم تَفَلَيْتَتْ وهؤلاء لم تبق لهم بقية كثيرة ، ومنهم أهل أمَاسِنْ وكانوا فيما مضى أهل علم ورياسة ثم انقرض بفهم العلم وبقيت لهم الرياسة على عبيدهم ومواليهم إلى الآن وهم أحسن حالا من كثير من أهل البلد من جهة المروءة ومجانبة السفاسف والتشبه بأهل الفضل والصيانة وكانت إمارتهم في الزمن الأول تابعة لإمارة إمَاجَغَنْ كغيرها من الإمارات ثم استقلوا في أيام فرنسا عن التبعية وصار أميرهم لا حاكم عليه إلا الحكومة الفرنسية ، القسم الأخر من قسمي إنْصَرْ يقال له دَبَّاكَرْ وهم أمة كثيرة كانوا في الزمن الأول يسكنون بأرض كِدَالْ وينسبون إليه ولهم فيه نخيل لم يزالوا يخدمون فيها إلى زمن قريب من حكم فرنسا على البلاد واشتهروا بالخيل العتاق وبكثرة البقر وإن كان فيهم من يتسم بالعلم والشجاعة أو الرياسة في زمن ماض فقد طال العهد بذلك وكان نسيا منسيا وصاروا إلى الضعف والأمية وتبعية أهل العلم في

الأمور الدينية وبعض الدنيوية والاعتماد على حماية إماجغن واللياذ بهم ولم يزالوا على ذلك إلى آخر الدهر ، وأما انتسابهم إلى الأنصارية فينكره بعض الناس إلا من جهة الخلف أو الولاء وقد انقطع العلم قديما في عامتهم بحيث لا يقر أحد على أن يثبت لهم نسبا خحيحا ولا خطوط قديمة بأيديهم تثبت لهم أي نسب وهم موجودون بكثرة في البلاد وكانوا مع عدم التعلم يباعدون عن كثير من المناهي وأكثرهم يختار التشبه بأهل الصلاح والتعلم بهم على التعلق بغيرهم وكانوا أترك للمال الحرام من غيرهم من العوام ويندر أن تجد فيهم خصمين في مال بل الغالب فيهم من يختار أن يفوته حقه على أن يأخذ من حق غيره وكانوا محبين لأهل الخير عموما وخصوصا بني محمد المصطفى من الأنصار السوقيين فهم الذين يتولون أمورهم ويعتمدون عليهم في جميع الأحكام الشرعية وربما توسطوا فيما يجري بينهم وبين السلاطين يستشفعون بهم في شفعهم السلاطين فيهم ويعدونهم حريما لهم ولم يزالوا تحت حكم أولئك الأنصار السوقيين يزكون أموالهم ويعقدون أنكحتهم ويعملون فيهم كل ما يعمله القضاة فيمن تحت ولايتهم ويطيعونهم في جل الأمور ولم يتغير ذلك إلا في القليل منهم إلى الآن ، ومن الأجيال ما يقال له انتصر : بهمزة مكسورة ونون ساكنة وتاء وصاد مفتوحتين وآخره راء ساكنة ، ويقال له أيضا أيت إنصر :بهمزة مفتوحة وياء وتاء ساكنتين ، ومعنى الكلمة أولاد إنصر بهمزة مكسورة ونون ساكنة وصاد , والمراد بهم الأنصار ، وهذا الجيل يسكن في بلاد تَغَارُسْتْ وتنبكت وكُنْدَامْ وفيهم عزة ومنعة وكانوا في أيام تغلب إمَاجَغَنْ تحت حكمهم وفي أيام تغلب فرنسا مستقلين بإمارة عظيمة لا يطمع أحد في استتباعها بل يخشى أكثر الأمراء من حكمهم عليهم وعلى أتباعهم ، وأما نسبة جمهورهم إلى أنصار النبي صلى الله عليه وسلم فمن القطعيات عندهم حتى أن بعض جهالهم لا يعترف لغيرهم بالأنصارية ويفتخرون بمآثر الأنصار كما يفتخر الولد بمآثر آبائه ويبالغون في تعظيم من ينتمي إلى الشرافة ويرون لهم من الفضل والتقديم ما لا يرون معشار عشره لغيرهم وإن بلغ من التعاظم ما بلغ ويرون من أفضل القرب التغرير بالنفس في نصرة الشرفاء وفدائهم بأنفسهم كحالة الأنصار الصحابة مع جد الشرفاء صلى الله عليه وسلم ، ومنهم أقوام يدعون الانتساب إلى علي بن أبي طالب ــــ رضي الله عنه ــــ من جهة الأباء ولكن غلب عليهم اسم أخوالهم ، ومنهم أقوام يدعون من بقايا إمَقَّشَرَنْ الذين كانوا في الزمن الماضي أهل الرياسة على بلادهم وهم المؤسسون لقرية تنبكت في القرن الخامس الهجري ومضت فترة من

الزمن وهم على الرياسة والغلبة ثم أخنى عليهم الدهر وذهب ملكهم وتشتتوا في القبائل والبلدان واضمحل أمر دولتهم واندمجت بقاياهم في الأمم التي انتقلت إليهم العزة والغلبة ، ومنهم أناس كثيرون لا يعرف لهم أصل ولا جد ولكن غلبت عليهم نسبة ساداتهم وأسمهم وهو : إنْتَصَرْ أو أيَتَ إنْصَرْ ، ثم اعلم أن هذين الاسمين المتقاربين لفظا وخطا متباينان معنى وقصدا لأن إنْتَصَرْ : بتقديم النون على الصاد من القبائل الصنهاجية الساكنة في بلاد تادمكت قبل الإسلام وذكرهم صاحب الممالك والمسالك من سكان الصحراء الكائنة بين تادمكت وبلاد العرب وسماهم باسم بني يِنْتَسَرْ من صنهاجة فلينظر إليه من أراد التحقيق ، وذكرهم أيضا صاحب قيام دولة المرابطين وعدهم من قبائل تادمكت التي وصل إليها حكم المرابطين أهل الدولة المغربية في القرن الخامس ، وذكرهم أيضا صاحب صبح الأعشى وعدهم من قبائل البربر التابعة لملوك السودان والمخالطين لهم في المساكن .

وأما لفظة : إيَتَ إنْصَرْ بتقديم الياء على التاء والنون فمعناها أولاد الأنصار وذلك يباين بربريتهم إلا من جهة الخؤولة ويثبت لهم العربية بالأصالة وإن طرأت عليهم البربرية بالمجاورة والمناكحة ، والشيخ / حامّ بن محمد الأمين الكلاديّ من علماء القرن الثاني عشر لما خطب الأمير ابن الأمير كَاوَ في أمر البلاد وسكانها ذكرهم باسم الأنصار وأثبت لهم الأصالة في الوطن الذي يسكنونه ، ونص خطابه إياه بعد كلام كثير في النصائح والمواعظ هكذا : اعلم أن الناس جميعا من دنكّ إلى ولاتة عيالك ، مصارنك البرابيش تنبكت الأنصار ، كنت إكلاد مر إلى أن قال : اعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصى بالأنصار وقال : (الله الله في الأنصار اقبلوا من محسنهم واصبروا عن مسيئهم) . مر إلى أن قال : وأما الأنصار فهم أنصارك ولولاهم ما لبست سروالا لأنهم أهل البلد قديما وحديثا حقا صرفا والسلام . وكذلك من معه ومن بعده من العلماء الذين وقفت على ذكرهم لهذا الجيل لا يسمونهم إلا بالأنصار ولعلهم أعرف به من غيرهم وكثير ممن لقيت يرفع نسبه إلى يعقوب الأنصاري الذي تنتمي إليه جماعة من السوقيين الأنصارية . وقد أفردت الباب السادس من هذا الكتاب بأخبار الأنصار السوقيين المشاركين لهم في الأنصارية ، ثم إنه لا يقدح في انتساب المنتسبين منهم إلى الأنصارية مشاركة غيرهم لهم في التسمية بالاسم العام والذي لاشك فيه أن العزة المعهودة في الأنصار موجودة فيهم ، وأما اتصافهم بشريف الأوصاف الإنسانية من العلم والنجدة فمما لا نزاع فيه منذ زمن طويل وقد رأيت

آثار بعض علمائهم في القرن الثاني عشر الهجري وبعده ولكن موضوع تلك الآثار أشياء جرت بينهم وبين بعض إخوانهم في مسائل علمية اختلفوا فيها ثم صار الأمر فيها إلى أمور غير مرضية فرأيت الغض عنها والاستغفار لي ولجميع أولئك المختلفين وأود أنها لم تنشر ، ومن أشد الاختلافات بينهم وبين الناس الاختلاف الواقع بينهم وبين كناتة من عهد الشيخ / المختار إلى هذا العصر فقد رأيت آثار كل من الفريقين وغض كل منهما من صاحبه وليس من طريق أسلافي وأشياخي الغوص في لجة التعصب لكل منهما على الأخر بل طريقهم الإمساك عن الخوض في ذلك والاعتراف بالفضل لأهله أيا ما كانوا أو غض الطرف عن عيوب كل مسلم وذلك الطريق هو أحب الطرق إلي وقد حدثني بعض ....أن أول فتنة وقعت بين الفريقين كانت في أيام الأمير كَاوَ بن أمَّ فأرسل إليه الشيخ / المختار يستنصره وكان الأمير معتقدا للشيخ ومعينا ومطاوعا فهمّ بنصرته ثم شاور في ذلك أشياخ السوقيين الذين لا يورد ولا يصدر إلا عن رأيهم فنهوه عن ذلك وأمروه أن يخلي سبيل الفريقين لأن كلا منهم يشتمل على جلة من العلماء والأولياء لا يسلم من الهلاك من تعرض لأذايتهم فانتصح بنصحهم وكف عن نصر الجميع ومن أراد تفاصيل أحوالهم واستقصاء أخبارهم فليراجع مكتوبات علمائهم فإنهم أدرى بهم وأما غير العلماء منهم فلا أطيل الكلام عليهم لعدم الإحاطة بحقيقة أخبارهم .

ومن الأجيال المشتملة على عدد من قبائل : جيل دُو اسْحَاقْ وهم من قبائل البربر وإسحاق الذي ينتسبون إليه لم يبق من يعرفه ، وربما وهم أو تجرأ بعض الخائضين والطاعنين فيلحقهم باليهود غاضا من منصبهم لم يحملهم عليه سوى الحسد والجهل ولا حجة معه إلا أنه يزعم أن جدهم الذي ينتسبون إليه هو إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهما السلام والد يعقوب المسمى بإسرائيل الذي هو جد اليهود ، ولم يدر ذلك الطاعن أن طعنه لم يصادف محلا لأمرين : إحداهما : أن الفخر بالأنساب وصلاح الأباء لو كان فيه فائدة لكان من انتسب إلى إسحاق بن إبراهيم الخليل ـــ عليهما السلام ـــ أعلى من غيره ومهما كان شك في أصلهم فالذي لا شك فيه أنهم حازوا من كرم الإسلام واقتفاء الفضائل والمكارم وحب العلم وأهله وكف النفس عن كثير من الرذائل وكثرة حملة القرآن فيهم ما قصر عنه كثير من الناس وأغناهم عن الافتخار بالأنساب الذي يشتغل به كثير من لم يتصف بأوصاف من يفتخر بهم وقدما قيل :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا ... يغنيك مضمونه عن النسب

إن الفتى مَن يقول ها أنا ذا ... ليس الفتى من يقول — اليوم — كان أبي
الأمر الثاني : أن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ليس جدا للبربر وهم من قبائل البربر فقد حدثني بعض العرب المغربيين أن في بلاد المغرب أحياء يشابهونهم ويشاركونهم في اللسان الذي يتكلمون به ، ويقال : لذلك اللسان تَاشَلِيحْتْ ووجدت بخط بعض أهل المغرب المعاصرين هكذا توجد زاوية أيْتْ إسحاق بقبيلة زيان إقليم بني ملال وتبعد عن مدينة مراكش بنحو مائتين وخمسين كيلو متر وهي زاوية قديمة وسكانها برابرة ، والبربرية قريبة من إمَازَغَنْ ولغتهم التي ينطقون بها وهي تَاشَلِيحْتْ من اللهجات البربرية التي ينطق بها كثير من أمم البربر في بلاد المغرب ، وقال بعض المتكلمين عن سكان المغرب من أهل هذا العصر وأشهر لهجات اللغة البربرية هي اللهجة الريفية ولهجة تَمَازِيغْتْ ولهجة تَاشَلِيحْتْ . إهـ المراد من كلامه إذا ثبت أن ذُو إسْحَاقْ من قبائل البربر وأنهم ليسوا من بني إسرائيل فاللائق أن يبحث عن جدهم إسحاق الذي ينسبون إليه في بلاد المغرب التي فيها إخوانهم وكم في المغرب من رجل شهير يقال له إسحاق في العصور الخالية منهم إسحاق بن محمد بن عبد الحميد أو عبد المجيد الذي ورد عليه إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم عام مائة واثنين وسبعين هجرية وهو أمير أوْرَبَة و جمع عليه كافة برابرة المغرب فبايعه وبايعه سائر قبائل البربر وتأسست بذلك الدولة الأدارِيسية المغربية ، ويسمى باسم إسحاق كثيرون غير هذا لا يبعد أن يكون بعضهم هو جد هذا الجيل ولعل الباحث عن تاريخهم في البلاد المغربية يطلع على ما يروي غليله .
وأما وصول أسلافهم إلى الوطن الذي يسكنونه في الوقت الحاضر وهو أعمال أنْسَنْكْ وأعمال مَنَكًا فلا يقدر أحد على ذكر أوليته لأن استيطانهم لتلك الأوطان قديم سابق على أيام كَرِدَنَّ التي ضاع ما قبلها من تواريخ البلد واستفدت سبقيتهم على أيام ذلك الأمير وكونهم من حملة الفقه في تلك الأزمان من رسالة كتبها واحد من قضاة أهل السوق في زمن سابق على تلك الإمارة وهو القاضي / أمَّدْ والد محمد البشير جدِّ — كَلْ — إكَدَشْ فإنه وقفت له على رسالة يخاطب فيها علماء بني إسحاق ، وإبَيْبَتَنْ ، وعلماء بني أغْمَنَّ ، وستأتي الرسالة في ترجمة منشئها في الباب السادس . أما حالتهم في أيام بني كَرِدَنَّ وما بعدها فحاصلها : أنهم لم يوافقوهم ولم ينافقوا في شأنهم بل أظهروا لهم كثيرا مما يكتمه غيرهم من إنكار بدعهم وغصوباتهم ولم يعاملوهم بالمدارة التي يعاملهم بها

غيرهم فحطوا مرتبتهم ولم يعترفوا لهم بأية فضيلة لا من جهة تعظيم أهل العلم منهم ولا تقريب أهل النجدة منهم وصيروهم من قبائل الرعايا التي تقوم بسياسة المواشي وتنميتها وأداء المغارم منها واشتهروا بملك الإبل الكثيرة وجودة إبلهم ونجابتها ، وكانوا يستغنون بالحلال عن الحرام ويواسون بأموالهم العلماء والفقراء وذوي القربى والغرباء ويؤدون الغرامة إلى من غلب على وطنهم ويوجد فيهم بعض حملة العلم وأكثرهم عوام جل همهم تنمية الأموال وحفظها مع حسن السمت والتمسك بالديانات ، وأكثر ما يتعلم جمهور المتعلمين منهم في العصور الخالية حفظ القرآن ودراسة المختصرات ممن الفقه المالكي كالأخضري والعشماوي ومنهم من يترقى إلى قراءة رسالة أبي زيد القيرواني كلها أوبعضها ، ومنهم من يترقى إلى قراءة مختصرات خليل وشراحه ولا يقرءون غير ذلك من الفنون وفيهم الصلاح والتقى والورع من لم ينفعوه لم يضروه وأحب الناس إليهم أهل العلم وأبغضهم إليهم أهل الفسق واللهو ، وكان لعوامهم مزية على غيرهم من العوام بما يتمسكون به من الديانات وكف الأيدي عن الظلم ولهم لسان خاص لا يشاركهم فيه إلا قبيلة إكْدَالَنْ ببلاد طَاوَ ويزعم بعض الباحثين في التواريخ أنهم من إكْدَالَنْ وأن أصل ذلك الاسم جدالة من قبائل البربر وأن أصل ذلك اللسان الذي يتكلمون به مخالطتهم لأمم السودان في قديم من الزمان ومناكحتهم لهم فترتب من مخالطتهم إياهم نطقهم بلسان مزيج فيه كلمات من لغة السودان وكلمات من العربية وجله الكلمات التارقية فكانوا يخاطبون كل من سواهم من الأمم بالتارقية الصريحة ويتحاورون فيما بينهم بلسانهم الخاص وقد تقدم أن ذلك اللسان يتكلم به كثير من برابرة المغرب في الوقت الحاضر ويسمونه باسم تَاشَلِيحْتْ ، ولا فرق بينهم وبين سائر الطوارق المجاورين لهم في الوطن الذي يعمرونه في الوقت الحاضر إلا تلك اللهجة ، الزي واحد والأوطان والعوائد متحدة هذا ملخص حالهم الجامع .

وأما نسبتهم إلى جدهم إسحاق : فقد تقدم أن التحقيق فيها لا يوجد عندي ، وفيهم طوائف ينتسبون في الوقت الحاضر إلى أجداد شرفاء وجلهم من ينتسب إلى محمد المختار المعروف بأيتًّ بن إبراهيم من بني عم الشيخ أبي الحسن الشاذلي فبعض الناس يحتاط لدينه ولا يتعرض لأي منتسب في رفع نسبه إلى ذلك الشريف وبعض المولعين بالتحقيق في الأمور يتوقف في تصديق جل من يرفع نسبه إليه لأن الأسماء تتشابه والرسوم القديمة معدومة وجل المدعين لتلك النسبة وقد حدث انتساب كثير من

الناس إليه في الأزمان الأخيرة لم يكونوا يعرفون فيما مضى بحيازة الشرف لا نفسهم ولا بتسليم أهل العلم ذلك لهم فأنا ممن لا ينفي ولا يثبت إلا ما صاحب حيازة وخطا قديمين ولا أشتغل بالخوض في مجهولي ولا أبطل دعوى أحد ولا أثبتها بغير بينة والله أعلم .

ومن الحائزين لتلك النسبة إلى أيَتَّ حيازة قديمة مصحوبة بخطوط أهل العلم منهم من قبيلة دو إسحاق حي أهل أكَّلِ تَغْمَ (نسبة إلى وسمهم الخاص) وجدهم الجامع لبطونهم اسمه ضَافِ بن آنِفْ بن الفقيه ابن مرزوق بن أيَتَّ ، وأخذت عن الشيخ أحمدُ بضم الدال دائما بن الشيخ آدم وكان هو وأبوه من أعلم أهل هذه النسب ، أخذت عنه أن هذا المركب آبن مرزوق لقب للفقيه أيتَّ لا أن مرزوقا كان ولده وكان هو ابن أيتَّ وجدهم الجامع لفصائلهم اسمه حَمَّ هود وهو ابن الصالح بن ضَافِ المذكور الجامع لبطونهم وكان حَمَّ هودَ من أهل العلم على ما أخبرني به بعض ذريته وهو الشيخ أحمد بن الشيخ آدم فقد رأيت عنده نسخة قديمة من المدونة أحسبها كتبت في القرن الحادي عشر الهجري وأخبرني أن جدهم المذكور هو كاتبها وله كتب غيره بخط يده ، ثم ورثها أولادها وورّثوها من بعدهم ثم توارثها أهل العلم منهم إلى أن وصلت إلى يد الشيخ الذي رأيتها عنده ، وأهل ذلك البيت لم يزل فيهم العلم على ما يقال يتوارثونه كابر عن كابر وخلقا عن سلف من جدهم السابع إلى أحفاده المعاصرين ولم يزالوا على حيازة الانتساب إلى أيتَّ وكتابة أسماء أجدادهم وأجداد بني عمهم الأقربين الذين لا يتعلمون إلا اليسير من المختصرات التي تتعلق بفرض العين ولا يرفعون رؤوسهم لمزاحمة أهل البيت المذكور في العلم ومشاركتهم بل لما حازوا عليهم فضيلة التعلم وفقهم الله لعدم حسدهم وأكرمهم بإجلالهم لإخوانهم العلماء وتفضيلهم على أنفسهم وافتخارهم بكونهم منهم وكذلك إخوانهم العلماء وفقوا لعدم الترفع عليهم والشفقة بهم وإظهار محبتهم والإعلان ببنوة العم لهم فنال الجميع بركة ما وفقوا له زادهم الله كل خير ووقاهم كل ضير وقد وقفت على كثير من سلاسل إهَنَّقَتَنْ تنتهي إلى أيتَّ فكتبتها مع سلسلة نسب هؤلاء في الباب الخامس حين تكلمت على بني أيتَّ . وأما غير أهل أكَّلِ تَغْمْ و إهَنَقَتَنْ من كَرْسَسْتَنْ ، و إدَكَرتَنْ وغيرهم فلم يكن فيهم أهل بيت يتوارثون العلم ويحفظون الخطوط القديمة التي تحفظ بها الأنساب كأهل

البيت المذكور ، فمن اعترف له أهل العلم من أهل ذلك البيت بأنه من بني عمهم وأن أجدادهم العلماء ما زالوا يعترفون لأجدادهم أنهم من بني عمهم فلا سبيل إلى نفي ما أثبته أولئك العلماء لأنهم أدرى بأهل بيتهم ، ومن لم يعترفوا له فعليه أن يتثبت في الانتساب ليلا يتعرض للعن الذي يعاقب به من انتسب لغير مواليه مطلقا فكيف من رفع نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم بلا يقين أعني باليقين حيازة موروثة الأقدمين من الأباء أو خطوطا كذلك لا اليقين الذي ينفيه بعض الجهلة الحسدة ممن لا يعرف بالشرافة لمعاصريه متمسكا بطول العهد وعدم الأمانة في النساء فإن ذلك اليذين غير معتبر ولا مشروط عند العلماء ولو اعتبر لضاق الأمر لجريان تلك العلة في كل ولد مع والده فتتعطل جميع الأحكام الشرعية المتعلقة بالأنساب كالإرث والنكاح وغيرهما ومن الجائز للنسب الشريف من غير أولاد أيتَّ حي يقال له أشَرِيفَنْ وسيدهم في الحال بَايْ بن السالم بن ختير وهم فيما بلغني بنوا عم بني مختار الأمراء الذين يأتي الكلام عليهم في الباب الخامس وهؤلاء ما زالوا يدعون الشرافة وتسلم لهم من جميع أهل بلدهم حتى صار اسم الشرفاء لقبا لهم ، وليست عندي سلسلة آبائهم ومتى ظفرت بها كتبتها عند سلسلة بني مختار الذين يقال هم الذين يشاركونهم في الجد . ومن أحياء ذُو إسحاق حي يقال له أهل بَرْيُ ينتسبون إلى جدنا إبراهيم الدغوغي وليسوا من أهل العلم والخط حتى تكون معهم النسخ القديمة التي تشهد في مثل هذا المقام ولكن النسب الذي يدعونه لا يدعيه غيرهم من إخوانهم ولا يدعون أنساب إخوانهم الذين يخالطونهم بالقرابة الجوار فلعلهم لم يتمسكوا بهذه النسبة إلا لدليل كان مع أسلافهم ثم ذهب بذهاب العلم فيهم ، ولو كانوا يفترون في الانتساب لانتسبوا إلى بعض الجدود الذين ينتسب إليهم إخوانهم المشاركون لهم في الاسم ، وأما أجدادنا الذين يخالطونهم في المساكن ويعاضدونهم في الأمور وهم المعتنون بالأنساب أشد من اعتناء غيرهم بها ، فلم أر من خطوطهم القديمة شيئا من هذا لأن مهمتهم فيما وقفت عليه من آثارهم إنما هي ضبط أولاد علي بن يحي بن إبراهيم الدغوغي سواء كانت ولادته لهم من جهة الذكور أو من جهة الإناث ولا يتعرضون لذرية ما فوق عليّ من الأباء ، ولا ينفون الانتساب إلى إبراهيم الدغوغي من غير طريق عليّ بن يحي عمن يدعيه ولا يثبتونه على وجه القطع كما يقطعون بنبوة العم لكل من ينتسب إلى عليّ بن يحي وكذلك والدي وأعمامي الذين أدركتهم لا ينفون عن أحد نسبا يدعيه إلى فوق عليّ بن يحي من أجدادهم ، ورأيت منهم ميلا إلى من ينتسب إلى

الحي المتكلم عليه من الإسحاقيين ، ويتقرب إليهم ببنوة العم ولا يبحثون عن التحقيقات في ذلك بل يقرّبون ذلك المتقرّب إليهم ويكرمونه مجوّزين صدقه لأن الناس مصدّقون في أنسابهم ، ثم إن أهل هذه النسبة الدغوغية من الإسحاقيين كانوا فيما مضى حيا واحدا يقال له أهل بَرْيُ وهو اسم بئر كان وطنا لأسلافهم ثم انتشروا في قبائل الإسحاقيين تبعا لأمهات والأخوال وتخير الأوطان .

ومنهم أهل بيت كانوا من أهل العلم وهم آل محمَّد بفتح الميم بن يَانْك يسكنون بساحل وادي أزَوَغْ . وأما علماء بني إسحاق في الزمن القديم : فلم أقف لهم على أثر أثبته وأستدل به على موثوره وإنما رأيت أثر لبعض علماء السوقيين استفدت منه وجود بعض أهل العلم فيهم قديما كرسالة القاضي أمَّدْ التي كتب بها إلى علمائهم ، ورسالة للقاضي محمد الشيخ بن سلَهُ من القرن الثالث عشر يردّ فيها على عالم منهم يقال له أفَدْ ، ويثني على فتوى عالم آخر منهم يقال له وَفَلكَنْ بن إبراهيم وهو من أهل البيت الذي تقدم أنهم لم يزالوا يتوارثون العلم من جدهم السابع إلى الآن ، ولفظ الرسالة سيأتي في ترجمة منشئها في الباب السادس ، ومن وقف عليها بتأمل علم أن المردود عليه من أهل الفقه وإن كان صاحبه أفقه منه ، ومن علمائهم في الزمن القديم من انتقل عن وطن قومه إلى بلاد دنْكْ فنال من التعظيم وحسن الإقبال ما شاء الله ، فجعل يعلم الناس الفقه وكان له كثير من التلاميذ والأتباع ، ولم يزل في جوار إزَاوتَنْ حتى مات واسمه عبد الجبار بن حَنَتَفَتْ وهو من بني عم أهل أكَل تَغْمَ وبقيت ذريته عناك ، وكانوا أهل علم وصلاح وقضاء ، واسم سيدهم الآن محمد بن عبد الحميد ، ومنهم من هاجر إلى دنْكْ برسم خدمة العلم ونشره فنال من العز والجاه والبركة ما شاء الله ، ولم يزل ذلك يتزايد في ذريته إلى أن صار بنوه يتخذ فيهم إمام يقيم الحدود على من ببلده من المسلمين من غير فرق بين القوي والضعيف ، ومن ذريته الإمام محمد الذي يلقب باسم الإمام في بلاد كَلَ أغْلاَلَ في الوقت الحاضر وهو ابن محمد المؤمن بن عبد الكريم بن أسَّحُو ، وجميع هؤلاء يلقب بالإمامة وجدهم رجل من دُو إسحاق ، ومن مهاجريهم جماعة كانوا من أتباع أهل أغْلاَلْ في الوقت الحاضر ، وحدثني محمد إبراهيم بن محمد المؤمن إمام أهل أغْلاَلْ أن أصل أولئك القوم وصل إلى بلادهم شاكين من إغارة بعض جنود أسلافهم عليهم وأخذهم أموالهم فكانوا لا ينفكون عن قول (لا إله إلا الله) لا يزيدون على ذلك ، فلما سمعهم بعض المشائخ وهم على تلك الحالة ، قال للمغيرين ردوا على هؤلاء المساكين أموالهم فقد

عصموها بكلمة الإخلاص من كل مسلم فردوا عليهم أموالهم فلما قبضوها اختاروا الإقامة مع ذلك الشيخ الذي ردّ عليهم أموالهم فكانوا معه إلى أن مات ، ثم بقوا مع قومه وتوارث أولادهم ذلك الجوار وتلك التبعية إلى الآن ، ولم يخبرني بقبيلتهم التي خرجوا منها ، ولم ألق من رجالهم من يتأهل لأن أسأله .

والحاصل : أنهم ـــ يعني الإسحاقيين ـــ في الزمن القديم يوجد فيهم بعض العلماء بقلة ولكن لم تطمح نفوسهم من التعلمات إلى ما منّ الله على أولادهم بنيل حظ وآفر منه في هذا القرن فقد كان منهم أحياء يستقلون بتعلمهم وتعليمهم والقيام بمساجدهم ولا يستمدّون من علم غيرهم ، فكانوا قاصرين في العلوم مجتهدين في العمل بما علموا ، ومنهم أحياء وأقوام يستمدّون من علماء أهل السوق ففاقوا إخوانهم المستقلين بتعاليمهم لكن لم يصلوا إلى مرتبة الإنشاء في العلوم لا نظما ولا نثرا فلم يتركوا أثرا يدل عليهم .

وأما حفظ القرآن : فهم من أكثر الناس عناية به ، ويوجد فيهم من الحفاظ ما يزيد على المائة حدثني الشيخ الوالد عن بعض أشياخهم أنه لما أغار عليهم بعض المغيرين في أيام دخول فرنسا للبب وذهبت أموالهم وهاجروا من موضع الإغارة في الصحراء إلى ماء البحر مات من مجموعهم ثلاثمائة شخص فيهم مائة من حفاظ القرآن ، وكذلك حدثني بعض ثقات أصحابي ممن يخالطهم مخالطة زائدة على مخالطة كثير من الناس لهم أنه يوجد فيهم مائة من الحفاظ في عام ألف وثلاثمائة وسبع وستين من الهجرة ، ثم نقص ذلك العدد ولكن بقيت من حفاظهم بقية نسأل الله أن يبارك فيهم ويطيل أعمارهم ، وأن يزيد في أحداثهم على أعدادهم وأن يجعلهم من أئمة المتقين وأما حملة العلم منهم في هذا القرن : فمنهم الشيخان الجليلان محمد بن يَانْك ، ومحمد بن عال وهما في أعمال مَنَكَا ، وكل منهما ينتمي إلى بيت الشرافة لأن ابن عال من بني عم بَايْ بن السالم ، وابن يَانْك من بني عم أهل بَرْيُ ، وكل منهما له مسجد وتلاميذ يأخذون عنه مختصر خليل وغيره من مختصرات الفقه المالكي ، وترفع إليه الخصومات ويقضي فيها بمرضي عند العلماء ولا يقرأ غير الفقه من العلوم ، ومات كل منهما وترك في حيه متدينين ولم تترك مثله في الاشتهار بالعلم ، ومنهم حَيْنَحَا وكان من أهل الفقه والصلاح ونفع المسلمين وإكرام الضيوف وخدمتهم بيديه ، وكان يراسل العلماء في النوازل ويحمل أهل حيه على التدين والفقه والورع فضالوا حركة اجتهاده في الإصلاح وكانوا أحسن حالا من كثير من القبائل ومات حَيْنَحَ

وترك الصلاح والعدل في حيه وخلف ثلاثة من البنين يقودونهم بمثل حال أبيهم وأعلم الثلاثة وأورعهم وأزهدهم وأحصرهم على العمل بالعلم ابنه أزَّمْزِمْ وهم أيضا في أعمال مَنَكَّا .
ومن علمائهم في أعمال أنسَنْك الشيخ آدم بن محمد وبنوه وهم محمد الأمين ، ومحمد المختار والمنير وأحمد وأعلم الأربعة المنير وأحمد .
ومنهم الشيخ عبد السلام ابن الخصائص وهؤلاء هم الذين ترقت هممهم أولا عن الاقتصار من العلوم على كتب الفقه فاشتغلوا بعلم النحو وأخذوه عن علماء أهل السوق ، ثم بعلم اللغة فكانوا علماء في النحو والفقه وشيء من التصوف ، ثم ترقوا إلى التعلق بأذيال الشيخ القطب حمّاد بن محمد وكانوا من أصدق الناس في محبته ونصرته وبذل نفائس أموالهم له ، والتبرك به وطلب الدعاء منه لأولادهم وقومهم ، ودعوا إلى محبته والتعلق به جميع قومهم فلبوا هم طائعين صادقين ووفد عليه جميع أحيائهم رجالا ونساء وصغارا راغبين في التبرك والدعاء والعلم فقابلهم الشيخ بالقبول والإقبال والتقريب والترحيب ، وعاملهم كبراء أصحابه بمثل ذلك من الترحيب والتكريم والتقريب ، فنالوا ببركة التعلق بالشيخ والدخول في زمرة أشياعه وأتباعه وبركة إقباله عليهم وتقريبه لهم أن زادت رغبتهم في العلوم وترقت هممهم إلى الازدياد منها على ما يتعلمه من قبلهم من علماء أسلافهم ، وصبروا على مشاقّ التلمذة والغربة في طلب العلم ، وبذل الأموال الكثيرة في تحصيل النسخ الخطية من كتابها فيدفع واحد منهم كثيرا من البقر لمن يكتب له كتابا من كتب العلم ، وساعدهم إخوانهم من علماء أهل السوق بفتح باب المواصلة وتيسير طرق التعلم زيادة على ما يعاملونهم به قبل دخولهم معهم في تلمذة الشيخ حمّاد فإن المؤاخاة بين أتباعه لا تساويها مؤاخاة قبلها ، والمناصحة والتواد بينهم كذلك فقد كان عبد السلام يؤثر إخوانه في الإرادة على إخوانه في القرابة ، ويؤثرونه أيضا على غير العلماء من قرابتهم وكذلك أمثاله من قومه لا يميزهم جماعة أهل السوق إلا من يعرف أشخاصهم ثم انفتح باب المطابع فانتشرت كتب العلم واشتراها الراغبون فيها فتيسر لهم بذلك من تحصيل العلوم ما كان قبل متعسرا ، وزادت الرغبة في العلوم من مشتري تلك الكتب وأشتد العناية من أسلافنا بترقية أولئك الراغبين إلى المقامات العالية في العلوم ، فبرعت منهم فئة في النحو واللغة والفقه كالشيخ المنير بن الشيخ آدم وأهل بيته ، وأحمد بن مختار والشيخ عبد السلام بن محمد بن الخصائص وابنيه أحمد بضم الدال ومحمد أحمد ، والميسور ابن محمد ، وابني أخيه وهما عبدُ وفاضل أبنا الحسن بن محمد

، وسعد الدين بن أبَلَّ ، ثم زاد أقوام منهم في هذا العصر على العلوم التي يتداولها قومهم فقرء وأكتب الحديث كالبخاري ومسلم والموطأ ، ثم أخذ أحمد بن آدم شيئا من علم التفسير عن الشيخ الوالد عام تسع وستين وثلاثمائة وألف هجرية ، وكان أول من أخذ التفسير من قومه ، ثم ما زالت أراود من يشتغل بعلم النحو منهم على أن يقرأ علم البيان ليذوق حلاوة العربية ويفهم حقيقتها وأراود منهم من يشتغل بالفقه الفرعي تدريسا وإفتاء على أن يقرأ علم الأصول وما ذلك إلا لشدة حرصي على ترقيهم وتكثير سواد علماء البلد بهم ، فقرء جماعة منهم تلخيص المفتاح للقزويني في علم البيان ، وقرء بعضهم ألفية المعاني للسيوطي ، ومن أولئك الشيخ البكّاين الوافي ، وقرء فاضل بن الحسن مراقي السعود في علم الأصول والسلم المرونق في علم المنطق على شيخنا وابن عمنا حمّدبن محمد بن حدي وأخذه عنه بعض أصحابه ، وهؤلاء المذكورون في قيد الحياة عام ألف وثلاثمائة وسبع وتسعين إلا المنير فإنه مات عام ألف وثلاثمائة وثلاث وثمانين وإلا عبد السلام فإنه مات عام ألف وثلاثمائة وثمانية وسبعين هجرية .
وأما الآثار العلمية فلم أر شيئا منها لمتقدميهم ورأيت لعبد السلام رسالة في الرد على من ينكر الصوفية ، ولبعض الموجودين في الوقت الحاضر قصائد ، وللشيخ أحمدُ بن آدم قصائد وفتاوى منثورة ، وكذلك لفاضل بن الحسن فتاوى منثورة ، و لولا أن هؤلاء المذكورين على قيد الحياة وأخشى أن يكون في الكلام عليهم إطراء وتزكية لكتبت شيئا من أحوالهم ومآثرهم .

ثم إن جميع من ذكرت أسماءهم من العلماء من حي إهَنَقَّتَن ولهم تلاميذ من أحياء إخوانهم من إدُكَرتَنْ ، وإبَلْنَغتَنْ وغيرهم يرجى لهم التقدم في العلوم ونسأل الله أن يزيدنا وإياهم من كل خير وأن يقي جميعنا كل ضير .

وأما الإمارة فيهم فيما قبل أيام فرنسا فكانت تابعة لإمارة إمَاجَغَنْ كل حي منهم يكون فيه سيد يتكلم مع الأمراء في شئون قومه إلا أن حي إدُكَرتَنْ ، وحي إهَنَقَّتَنْ يتحدان على أمير من إدُكَرتَنْ من أهل البيت يقال لهم أهل إسَمُتَنْ ، وأهل ذلك البيت ليسوا من بني إسحاق أصالة ، ويقال إن جدهم وجد أمراء إشَضَنَهَرَنْ وأخا لهم انقرض نسله ، كانوا إخوة ، وهم من قبيلة بأرض آير يقال لهم إقّرَنْ فغاضبوا قومهم فهاجروا عنهم إلى أرض إولَّمَّدَنْ فلما رآهم أمير البلد عجبوا لسمتهم وشجاعتهم فآواهم وقربهم

وأكرمهم ، ونكح واحد منهم في قبيلةِ إِشَضَنَهرَنْ ثم صارت رياستهم إلى أولاده إلى الآن ، ونكح الآخر في بني إسحاق وكان لأولاده فضل على أولاد أخوالهم إلى أن صارت إليهم سيادتهم ، وأميرهم في أيام الأمير الإنصار بن النابغة محمد يوسف وكان أميرا على إِدُكَرتَنْ و إِهَنَقَتَنْ جميعا ، ثم جاء الحكم الفرنسي وكثر الاضطراب والاختلاف والشتات فكان إِدُكَرتَنْ مع إِولَمَّدَنْ وتآمر عليهم فال بن أفَدْ وحاربوا فرنسا أعواما ثم صالحوهم واتخذوا عليهم حاكما في مَنَكَا ، وتخلف إِهَنَقَتَنْ في بلاد أنسَنْكُ وانقطعوا عن تلك الإمارة فذهب زعيمهم محمد أدَرْ كجُحْ بن آدم إلى فرنسا فسالمهم وأمروه على قومه وانقطعت العلائق والإمارية بين الفريقين وصار كل منهما يستقل بإمارته عن الأخرى وصار أمير إِدُكَرتَنْ تابعا لأمير إِمَاجَغَنْ يوسطه بينه وبين الحكومة الفرنسية وصار أمير إِهَنَقَتَنْ مستقلا عن الإمارات لا حاكم عليه إلا الحكومة الفرنسية ، ثم لما مات محمد أدَركجُحْ خلفه ابنه أيوب وكان من الأبطال ومن أهل الهمم والعاليةفحاول أن يحرر قومه من سلطنة كل أحد عليهم وأن ينقلهم من الضعف إلى القوة ومن المسكنة إلى العزة فبدأ أولا بصيد الأسود وجاء في قتلها وإصابة منافذها بما يستغربه كل من شاهده من أهل الرماية ، وسمعت من يحدث عنه يوما يقول ما رأيت من يواجه الأسد فيصيب جبهته إلا أيوب ، وكان ذلك المحدث من قوم ذوي نجدة وإصابة في الرمي وساعدته الحكومة الفرنسية بالمدافع والرصاص الكثير فجعل يفرقها فيمن وثق بقوة جأشه من قومه ، وعن قريب كان منهم أقوام يشتهرون بالإصابة وقتل الأسود ، ثم ترقى بهم عن الصيد إلى مدافعة من يصول عليهم من الظلمة وعدم الرضا بالاتضاع فقاموا بالدفاع كما يقوم غيرهم من أهل النجدة ، ووقعت بينهم وبين من يثور على حريمهم من جيرانهم أيام كان الظفر فيها لهم ، واستنكف بعض الناس ذلك فهجم عليهم ظلما فكفوا عنهم وصاروا أمة مستقلة يقودهم البطل أيوب ومكث في الإمارة نحو أربعين سنة ، ثم تفرق قومه فريقين واتخذوا أميرين أحدهما من حي تَرْكَازَ والأخر من إِكَرَيْرَيَنْ وهو سَال أخو أيوب ، ثم خلع وخلفه محمد بن أيوب وهو الأمير عام سبعة وتسعين وثلاثمائة وألف ، وللفريق الأخر أمير اسمه حماد بن محمد بن الصديق وفي غير إِهَنَقَتَنْ من الأحياء أمراء يبلغون إلى العشرة بعضهم تحت حكم مَنَكَا وبعضهم تحت حكم تَلاتَيْتْ وبحسبي من التعريف بهم ما سطرت ، وعسى أن يتخذه بعض الكاتبين أساسا يبني عليه فيطنب ويأتي من تفاصيل أخبارهم بما تقر به عين الودود وينفحم به كل خصم لدود .ومن

الأجيال ما يسمى باسم إنَسْلَمَنْ ومعناه المتدينون الضعفاء وهم قبائل كثيرة في بلاد تَغَارُسْتْ وتنبكت فيهم أحياء يبنون المساجد ويقرءون القرآن ويعتنون بحفظه ويتعلمون ما يتعلق بفروض الأعيان من الفقه ، وهمتهم في التدين وتنمية البقر حتى صاروا مثلا في ملك الكثير من البقر وفيهم بعض العلماء ويتخذون القضاة من أنفسهم وهم منتشرون فيما بين تَغَارُسْتْ وبين منتهى أعمال كُنْدَامْ من جهة موريتانيا وهم من سكان البلد الأصليين لكن لم أقف على تفاصيل أخبارهم ، ومنهم من كان من قبيلة إمَقَّشَرَنْ الذين حازوا رياسة البلد قبل قرية تنبكت وهم الذين أسسوها أولا ، وهم أرباب الأمة التي سمي البلد باسمها على ما قال عبد الرحمن السعدي في تاريخه ، وكانت لهم الدولة والرياسة مدة من الزمن ثم أخنى عليهم الدهر وزال ملكهم وانقرض الأكثر وتشتت الباقي في القبائل والأوطان ، وبعض أسماء القبائل الموجودة في الوطن المذكور وهو ما بين تَغَارُسْتْ وراء الماء مذكور في الكتب القديمة المتكلمة على القبائل في القرن الرابع الهجري ، ثم لما قامت دولة إدَمُوسَنْ وأُدَلَنْ دخل كثير من تلك القبائل في تبعيتهم ثم لما حكم فرنسا على البلاد اتخذوا منهم أمراء كثيرين تابع لإمارات إمَاجَغَنْ وبعضهم تابع لإمارات أيْنْتَصَرْ وبعضهم مستقل بنفسه ، ويزيد عدد القبائل التي يشملها اسم إنَسْلَمَنْ على أكثر من مائة قبيلة .

ومن الأجيال الكثيرين في القسم الشرقي من أقسام تدمكة ما يسمى باسم إبَلْكَرَيَنْ وهم في أعمال طَاوَ وفي الوقت الحاضر ، ومنهم من كان أسلافه ببلاد تنبكت وبلاد كاوَ ، ومنهم من كان أصيلا في الوطن الذي يسكنه ، ولم يدر أحد ممن لقيته تاريخ دخول أسلافهم لأوطانهم الحالية ، فالأشبه أنهم من أهل تَكَدَّ الذين تفرقوا في البوادي بعد خرابها وصاروا إلى الشتات بعد الاجتماع ، وتفاصيل أخبارهم من جهة الإمارات ومن جهة العلم يطول بذكرها الكلام ، وقبائلهم أكثر من أن تحصى ، منهم أهل العلم وأهل المال وأهل النجدة ، ومن يجمع بين تلك الأوصاف ، ومنهم من يكون تابعا لإمارات إمَاجَغَنْ الذين معهم ، ومنهم من يستقل بإمارته كأهل أغْلالْ وإكَدَالَنْ ، وكل من هذين المستقلين يحكم على قبائل عديدة يتعذر إحصائها كما يتعذر إحصاء من كانوا في تبعية كَلْ نَانْ ، وإرولَنْ ، وإخِرْخِرَنْ من القبائل ، وبعض القبائل التارقية صار في تبعية أمير المُشَاكَرَ وهو عربي خالط أسلافه التوارق وساكنوهم وشابهوهم في

الزي والعادة لا يفرق بين أحدهم وبين التارقي إلا أن يتكلم باللغة الحسّانية ، فمن مخالطتهم للتوارق أنهم كانوا تحت حكمهم في أيام استفحال دولتهم ، وكان لهم حلفاء كثيرون من قبائل التوارق ويغزون معهم ويدافعون المغيرين على الوطن معهم ، فلما زالت الدولة التارقية وكثرت الإمارات استقلوا بإمارتهم وتبعهم بعض القبائل التارقية واتحدوا معهم في الحكم ، وقد قام بتفاصيل أحوال هؤلاء الجماعات رجال من أهل بلدهم ، فأرحت قلمي من مزاحمتهم فيما كانوا به أعلم . وكان هذا الجيل أكثر الأجيال المشتمل عليها بلد إولَمَّدَنْ شرقا وغربا وجميع أهله ومن يجاورهم من العرب و إمَاجَغَنْ ، وإمْغَادْ صاروا في منطقة طاوَ ، وقد نقلت عن الزعيم الأغلالي الباحث في التاريخ وهو محمد إبراهيم بن محمد المؤمن أسماء لبعض علمائهم وتواريخ وفياتهم ، وأماكن مقابرهم وعدّ فيهم خمسين : إثنان وعشرون منهم من كَلْ أغْلاَلْ ، وسبعة من التَّوَاري ، وسبعة من دَاغْمَنَّ ، وثلاثة من إمِلَّنْ ، وأربعة من أشَرِيفَنْ ، واثنان من إكَدَالَنْ واثنان من إجَوَنْجَوَتَنْ ، وواحد من كَلْ ألَكُوضْ ، وواحد من تَرط إبَرْكَوْ ، وواحد من السوقيين .

أما الأغْلاليون : فهم أحمد بن محمد بن بو بكر توفي في شعبان عام 1357هـ ، ومحمد بن شفيع توفي في صفر عام 1367هـ ، ومنهم عبد الفتاح ، ومحمد بن عبد الفتاح ، وعبد المنان بن محمد أفِرْ توفي عام 1367هـ ، ومحمد بن بو بكر ، ومحمد بن بو بكر الفقّ ، وحبيب بن محمد توفي عام 1330هـ، ومحمد دَهَمَّ بن محمد توفي 1336هـ ، وعبد الكريم بن محمد توفي 1326هـ ، وسيدي محمد بن إبراهيم توفي 1335هـ ، وعبد الله ضكّر توفي 1350هـ ومحمد الشفيع بن عبد الكريم توفي 1335هـ ، ومحمد المؤمن بن عبد الكريم توفي 1384هـ ، ومحمد العاقب بن حبيب 1338هـ ، وخليل الرحمن بن يوسف له مؤلفات وتوفي 1348هـ ، وابنه محمد عبد الله ابن خليل الرحمن توفي 1352هـ ، وإبراهيم بن محمد لم يؤرخ وفاته ، والحسن آشّ وهو الأب الرابع لمحمد المؤمن وكان معاصرا لأمير خَتُّوتُ ومات قبله ولم يدر تاريخ وفاته

وعبد الصمد بن حبيب ، وكنز التقى وهذا لم يؤرخه ، ومحمد الرشدي توفي عام 1390هـ .

وأما التوارقيون : فهم ، سيد الناس ، والقاضي مَحَا له ترجمة وتوفي عام

1180هـ ، ومحمد البوصير .
والإكْدَالِيون : فت لم يؤرخ ، ومحمد ش توفي عام 1359هـ .

وبنوا دَغْمَنَّ : إبراهيم بن عبد الله ، والشافعي بن عبد الله الصالح بن عبد الرحمن وعبد الرحمن ، والقاسم بن إبراهيم توفي 1344هـ ، ويعقوب بن إبراهيم ت 1354، ويوسف بن محمد ت 1369هـ .
وأما إمَلّلَنْ : فهم ، عبد الغفور بن سيد البكا 1357هـ ، وسيد البكا توفي 1316هـ
وبـاهيم .
وأما إجَوَنْجَوتَنْ : فهما ، علي إلَيّنْ ، والحسن أجكَر .
وأما الذي تَرط إبَرْكَوْ / فهو حيا ت 1374هـ
وأما الذي من كَلْ ألكُوضْ : فهو محمد مَّ بن عثمان توفي 1352هـ .
وأما أشَرِيفَنْ : فهم محمد الفزاز 1363هـ ، وسيطور ، والدَّلَّ ، وعبد الله ءابَلَّ ، وهؤلاء لم يؤرخون .
وممن قيد أسماءهم سوقي اسمه محمدُ لنَا توفي 1379هـ ، وفلانّي اسمه عثمان صنْبُ توفي عام 1320هـ إنتهى ما نقلته عن محمد إبراهيم بن محمد المؤمن من أسماء علمائهم في الحاضر وأما إماراتهم العظمى في الوقت الحاضر سبع إمارة : إمارة إروَلَنْ ، وإمارة كَلْ نَانْ ، وإمارة إخِرْخِرَنْ ، وإمارة تَلَّم إدِسْ ، وإمارة كَلْ أغْلالْ ، وإمارة إكْدَالَنْ ، وإمارة الْشَاكَرَ . وكل منها تحكم على ما لا يحصى من القبائل ، وكلها تحت حكم طَاوَ في الزمن الماضي وصاروا في الوقت الحاضر مستقلين بحكومة في تَنْتَبَرَضِنْ هي محل الحاكم الأكبر وتحته حكام آخرون في تَلِيَّ ، وفي أمَسَّرَا ، وفي إيلَغْ ، وبعض إخوانهم كان في حكم كِيتَ من أعمال طَاوَ وهو إلسَوَنْ ، وكانوا أقرب أمم التوارق إلى الجنوب إلا كَلْ كَرَسْ .
ولما أنجز الكلام على الأجيال التابعة لإولّمَدَنْ إلى ذكر كَلْ كَرَسْ وليس عندي من أخبارهم كان يستحق أن يعقد له **الفصل** أو الباب ، وكان لهم بعض تعلق مع المتكلم عليهم أردت أن آتي بشيء من أخبارهم وأخبار إخوانهم من آير ثم أعود إلى ذكر القبائل الكبيرة من قبائل إولّمَدَنْ .فأقول أما جيل كَلْ كَرَسْ فهم أشد توغلا في الجنوب ، وأشد انتشارا في البلاد الجنوبية والشرقية في أعمال نيجر ومركزهم مَادَوَا ، ومنهم أمم كثيرة ببلاد هَوْسَا من حكومة نيجريا ومنهم من كان في بلاد تشاد وهم أكثر

عددا وأشد قوة وبأسا من كثير من أجيال التوارق المـذكورة ، وربمـا أطلق عليهم اسم آير الجنوبي وأطل اسم آير الشمالي على بـلاد إكَـدَزْ وأعمالها ، وربما أطلق اسم آير ويراد به خصوص مـا تحـت إكَـدَزْ ويسمى كَلْ كَرَسْ باسمهم الخاص ، وكان من جيل كَـلْ كَـرَسْ أحيـاء يتعلمون ويتخذون مساجد ومدارس ، ومن علمائهم في القرن الثالث عشر من جرت بينهم وبين علماء السوق المعاصرين لهم ماجريات ومكاتبـات في شأن الأموال والكتب التي تغير جنودهم على أهلها ويأخذونها ، فكان العلماء من بلاد كَلْ كَرَسْ يفتحون جنودهم بحلية ما ينهبون مـن بـلاد إوَلّمّدنْ واسترقاق ما يسبون من الناس ، وكان العلمـاء بـبلاد إوَلّمّـدن ينكرون ذلك ويراسلون أمراء الجنود ويعظونهم ويـذكرونهم ويـشفعون إليهم في ردّ أموال الضعفاء التي يأخذونها ، فتـارة يـشفعونهم وتـارة يردونهم ويحتجون بفتوى علمائهم الذين كانوا يفتونهم بحلية ما ينهبون ، ومن تلك المراسلات ما جرى بين الشيخ محمـد إكـنن بـن وَنْقَنَدَسَـنْ الكُنْهَانيّ وبين عالمهم عبدُ من كَلْ أكِفْ ، ورسالة محمد إكنن عندنا وهي نحو أربع كراسات ، وملخصها إبطال ما يحتجون به لإباحة الإغـارات على بلاد المسلمين ونهب أموالهم ، واسترقاق رقابهم ، وفيها شيء ممـا يتعلق بتاريخ بعض القبائل ، ويذكر فيها لمن يخاطبه أنه ليس من ذريـة فلان ولا فلان ولا ذرية أكَّاكْ إنتَغِرتْ الذين يجمعون بين أهـل الـسوق وبين كثير من علماء كَلْ كَرَسْ ، ولم أدر قبل الإطلاع على كلامـه أن بين الفريقين علاقة من جهة النسب ، ثم رأيت بخـط بعـض القـدماء المعتنين بضبط الأنساب وهو جدي لأمي أحمد بن محمد بن بَلّى ومـن خطه نقلته بلا واسطة وأعرف خطه فوق معرفتي لخط يدي ونقلت منـه أن قضاتهم وقضاة أهل تِغَرَرَتْ كانوا من جد واحد بينه وبين أهل السوق قرابة أو هو منهم واسم ذلك الجد سيد بن أبو يحي وذكر اسم أمه وتعذّر عليّ تصحيحه فتركته ، ثم ذكر معاصره من قضاة أهل تِغَرَرَتْ ونـسبه فقال هو المختار بن المازري المعروف باسم أنازلْ بن إلياس بن إبراهيم بن مالك بن المنير بن أويس بن سيد بن أبو يحـي ، وحـدثني بعـض المعاصرين أن المختار هذا هو جد الأمير البَدَيْ المتوفى عـام خمـس وتسعين وثلاثمائة وألف هجرية ، وذكر معاصره من قضاة كَلْ كَـرَسْ أيضا فقال هو سيد محمود بن وشَّر بن آيَّ بن عبد بن آيَّ بن الصادق بن أويس بن سيد بن أبو يحي ، المذكور ، ولم أر من نقول المتقـدمين مـا يتعلق بأنسابهم وتواريخهم سوى هذا ، وأظن الباحث المفتش متى وُجـد يطلع عليه . ومن أخبارهم في الأزمان الماضية أنهم يغيرون على مـن

يشاءون من أهل آير ودَنَّكْ واولِمَّدَنْ وأمم السودان ولا يجترئ أحد ممن حولهم أن يغزو بلادهم ، بل قصارى أهل الدفاع من البلاد المحتفة بهم أن يدافعوا من هجم منهم على بلادهم ، وبعض أهل النجدة من أرض إولِمَّدَنْ لا يثبت أمام جنودهم بل يهرب كما تهرب الضعفاء ، وبعكس ذلك حالهم مع آير الشمالي فإنهم يتبادلون معهم الغزوات ويدافعونهم ، وإذا أغارت جنود آير الشمالي على بلادهم قابلوهم وقاتلوهم حتى يخلصوا ما نهبوا من بلادهم ، وربما سلبوهم ما أتوا به من المراكب واللباس والسلاح وسرحوهم إلى بلادهم أذلاء مقهورين ، وربما قتلوا قادتهم وأرسلوا أتباعهم ، وربما أفنوا بعض السرايا ولا ينفلت منهم أحد. ومن أخبار كَلْ كَرَسْ أن المتحاربين من غيرهم ربما استنصرهم بعضهم على البعض الآخر فينصرونه فيهزم من نصروه ضده ، وربما نصروا أهل دَنَّكْ على أهل أتَرَمْ . ومن أخبارهم في التعزز أنهم لا يرضون لغيرهم المشاركة في اسم إمَاجَغَنْ ويرون أنفسهم فوق كل أحد لما أوتوا من العدد والعُدد ، وشدة البأس ، وجودة السلاح ، وعتاقة الخيل ، والبركة ، والخصب في بلادهم ، ويجلب ما يشاءون من منافع نيجريا وأمتعتها ، ومخالطتهم لأهلها . وحدثني بعض أشياخنا أنه لقي بعض ساداتهم في الأعوام الجديدة فتلقاه بالترحيب والإكرام والمحادثة حتى أفضى بهم الحديث إلى ذكر الأمور الماضية فأطنب له في الفخر بمآثر قومه حتى قال : له ما غزا واحد من أشرافنا بلادكم قط وما جرى بيننا وبين أمرائكم إولِمَّدَنْ حرب فإنا نستنكف أن يكونوا أكفاءنا في الحرب ، وإنما يغزو بلادكم رعاع من رعايانا أو كما قال . ولم تزل العزة على أهل بلادهم فيهم إلى الآن ، فيهم كرام يكرمهم المتغلبون على البلاد من فرنسا ويكرمهم أهل الرياسة في دولتهم ، ولا قدرة لي على الإطناب في تفاصيل أخبارهم لأني ما زرت بلادهم وما لقيت رجالهم . وأما جيل آير إكَدَرْ فمقتضى ما وقفت عليه من الآثار وما سمعت من الأخبار أنهم لم يزالوا مملكة مستقلة كما ذكره القلقشندي من أواخر القرن الثامن الهجري في كتاب صبح الأعشى ، ورمز إليه الشيخ محمد بن عبد الهادي في كتابه نصيحة الأمة ، وتارة يكون أهل تادمكة تابعين لهم في الحكم كما في أيام السلطان الْعُدَالَ وتارة تكون الحرب شديدة بين أهل البلدين فيتبادلوا شنّ الغارات فيما بينهم كما هو الحال إذ هجم التغلب الفرنسي على البلاد ، وتارة يقع السلم بينهم فيتزاورون ويتبادلون المصالح والمنافع ، وربما انتقل بعض القبائل أو الرجال عن وطنه من كل من البلدين إلى الوطن الآخر فينال فيه ما شاء من العز والكرامة حتى كثرت

الاختلاطات وانعقدت المودات بين كثير من قبائل البلدين ، ووقع التناسب بين كثير منهم حتى قال بعض شيوخنا وهو محمد بن أحمد بن الشيخ في بعض تآليفه ما نصه : وأما جدتنا ءابَّ بنت إدَّنتَمَزْكِدَّ فلها أخوان وست أخوات فما لم يكن من نسلها مما بين رأس الماء وتَكَمَ فمن نسل أخواتها وأخويها .إهـ وكثير من قبائل آير داخل في الوطن الذي ذكر حدوده وأما تبعية أهل تادمكة لهم من جهة الرياسة والإمارة فيكفي منها ما ذكره محمد بن دانيال وغيره من : (أن أصل إمارة كَردَنَّ جد أمراء البلد أن سلطان إكَدَزْ وهو الذي استعمله على بلاد تادمكة وكان ذلك السلطان نائبا لأمير المؤمنين في فاسْ) . إهـ كلام العلامة محمد بن دانيال وسمى السلطان باسم العُدَالْ ، وكذلك غيره من العلماء الذين رأيت كلامهم على سلطان إكَدَزْ في أيام كَردَنَّ ، ولكن الشيخ محمد بلُّ بن عثمان بن فودي إمام سكَتُ ذكر في كتابه إنفاق الميسور في تاريخ التكرور أن محمد الباقري بن العُدَالْ وسلطان إكَدَزْ وفد عليهم عام ألف ومائتين وثلاثة عشر ، وكانت إمارة كَردَنَّ في أواخر القرن الحادي عشر ، فلا أظن من كان أبا لمن في أوائل القرن الثالث عشر يولي ويستعمل في أواخر الحادي عشر إلا أن يكون كل منهما من الطاعنين في السن فتكون إمارة الوالد منهما منعقدة في أواخر القرن الحادي عشر ثم تمتد إلى أواسط الثاني عشر ، ثم تنعقد إمارة الابن فتمتد إلى أوائل الثالث عشر ، ويمكن أن يكون السلطان المولي لكَردَنَّ سابقا على العُدَالَ لكن كانت الشهرة بعده للأمير العُدَالَ فنُسبتْ إليه أعماله وأحواله لجهل النسابين أن لغيره من السلطنة مثل ما له . وعلى كل فسلطنة إكَدَزْ على بلاد إولَمّدَنْ في أيام كَردَنَّ متفق عليها ، وإنما البحث في تعين السلطان ، وقد رأيت تاريخا وضعه بعض أهل إكَدَزْ يذكر فيه سلطانهم في القرن الحادي عشر وبعض غزواته وما وقع من الوقائع في أيامه وسماه باسم محمد المبارك وذكر أنه تولى السلطنة في عام 1067هـ ثم مات وتولى ابنه محمد أكَّبَّ في عام 1098هـ فالمناسب لأن يكون واليا في أيام كَردَنَّ السلطان محمد المبارك ، وأما العُدَالَ فلا أظنه إلا معاصرا للأمير كَاوَ ، أو لابنه أمَّا ، وذلك هو المناسب لأن يكون محمد الباقري بن العُدَالَ من أهل القرن الثالث عشر الذي كانت فيه إمارة التَّابِغْ بن كَاوَ ، ولم أجد ما يفيد القطع لكن الأقرب إلى الصحة أن أمير إكَدَزْ المعاصر لكَردَنَّ سابق على أيام العُدَالَ .

أما التبعية من جهة المشيخة وأخذ العلم فغاية ما بلغني فيها أمران : أحدهما : أن الشيخ محمد بن يوسف الأنصاري ، والشيخ أبا الهدى

الهاشمي وكلاهما معاصر للإمام السيوطي الذي عاش في القرن التاسع ومات في أوائل العاشر كل منهما رحل من أرض تادمكة إلى أرض إكَدَزْ فأخذ فيه العلم الظاهر والباطن عن الشيخ سيدي محمود البغدادي وصار كل منهما قدوة يقتدى به .

والثاني : أن شيخا من إكَلاَدْ يقال له حَامَّ بن محمد الأمين ، وكان من أهل القرن الثاني عشر أخذ ترجمة تفسير الجلالين باللغة التارقية عن عالم من علماء آير ، ثم أخذها عنه علماء أهل السوق وتمسكوا بها إلى الآن . ولم يصل إليّ كثير من تفاصيل أخبارهم من جهة الإمارة ولا من جهة العلم في العصور المتأخرة ورأيت أرجوزة يعيب ناظمها على رجلين من أهل دَنَّكْ خراجا عن طاعة سلطان إكَدَزْ وسمّى ناظمها نفسه في آخرها ، ولا أدري هل هو من أهل إكَدَزْ أنفسهم أو من المتعصبين لهم كما لا علم لي بزمان إنشائها إلا أن محمد بن الهادي ذكر ما حاصله أن ثورة حَمِدتُّ على أهل أتَرَامْ وقعت أيام انقطاع كَرُظ وطائفته عن سيد إوَلَمَّدَنْ إلى دِنَّكْ ، وذكر أيضا أن حركته الجهادية إنما حكى بها حركة آل فودي في هَوْسَا ، وفي بعض الخطوط القديمة رسالة للقاضي أمَّدْ والد محمد البشير يبطل فيها ألفاظ حَمِدتّ ، ولم أقف على الرسالة بعينها وإنما وقفت على كلام لبعض العلماء يسند إليها نقلا متعلقا بغرضه الذي يتكلم فيه فعلى أنه معاصر للقاضي أمَّدْ فلا شك أن زمنه سابق على زمن كَرُظ ، وعلى زمن عثمان بن فودي خلاف ما زعمه محمد بن الهادي ، ومقتضى معاصرته للقاضي أمَّدْ أن ثورته وقصائد المعارضين له ورسائلهم وقعت في أيام كَردَنَّ ، أو في قريب منها .

هذا لفظ الأرجوزة : بسم الله وصلى الله على محمد وآله وسلم

الحمد لله الذي قد أمرا ... بالطوع وانقيادنا للأمرا

ثم الصلاة والسلام دائما ... على الذي شرع شرعا قائما

محمد وآله الأبرار ... وصحبه وجيله الأخيار

وبعد : فالرد هنا عمدت ... على حَدًا حَدًا كذا حَمِدتُّ

قد كفرا جماعة الإسلام ... ثم تهوّرا على الإمام

وأبطلا تبايعا بزعمهم ... وأوجبا إعادة لنفسهم

وخرجا قولا وفعلا همطا ... وغلطا رأيا وعرضا هرمطا

وأرسلا له كتابا خربشا ... كم من جهالات لهم قد نبشا

فصنعة النظام ما دراها ... راقمها إذ ما له نراها

وإنما هو الكلام برقطا ... مظنه نظما به تبرقطا

مــر إلـــى أن قـــال : بعــيد ذكــر عيــوب الــــنظم :
أنــى لمــن خــضرم فــي الكـــلام ... أن يتعــاطى صــنعة النظـــام
يرسله لحضرة الأمير ... كأنه الفائق في التحرير فما اقتحـــامكم علـــى
الــــسلطان ... إلا غــــرور الــــنفس والــــشيطان
وإنمـــا نـــرى بكـــل الكتـــب ... الـــشرع يـــأمر بحـــسن الأدب
قـــدر مقـــام المـــرء الكمـــال ... فكيـــف مـــن لـــه الجنـــاب العـــالي
وهي(1) الإمارة فكم مـــن حـــق ... أتـــى وتعظـــيم لهـــا عـــن خلـــق
ســـــلطاننا أخلـــــده الإلـــــه ... وزاده عـــــدلا كمـــــا ولاه
وشـــده بـــالعون والعـــلاء ... ومـــده نـــصرا علـــى الأعـــداء
ونالـــه مرامـــه بكلـــه ... فـــي الـــدين والـــدنيا بخيـــر رســـله
فكم جلى من كربة والظلم ... وكـــم شـــفى شـــكوى الـــورى بـــالحكم
وحمـــل النـــاس علـــى الــشر يعـــه ... وســـدّ للمفاســـد الذريعـــه
وجانب الحق وأهلـــه نـــصر ... والظلـــم لـــم يـــرض بـــه ولا أمـــر
بـــل إن يـــرى ضـــرورة الإســـلام ... بغوثـــه يبعـــث كـــالأعلام
يقـــصدهم جيـــل المحاربينـــا ... قـــد كنـــتم لهـــم مجاورينـــا
وأنـــه اعتنـــى بكـــم مـــرارا ... أنـــذركم عـــسكره مـــدرارا
ففـــارقوا أشـــراركم قـــرارا ... واعتزلـــوا جـــيلهم فـــرارا
فلـــم تزالـــوا لهـــم راكنينـــا ... تخـــالطونهم وســـاكنينا
وقـــــــد علمـــــــتم أن نـــــــار الظلـــــــم
... تـــــسم جـــــارا لـــــبيتّم يحـــــف بـــــالخطم
كمـــا يقـــول ربنـــا الإلـــه ... فـــي محكـــم التنزيـــل قـــد نهـــاه
ظلمتم من لـــم يكـــن قـــد ظلمـــا ... لكـــن نفـــس أمـــره لـــم تعلمـــا
تـــالله ياصـــحبي لقـــد دريـــتم ... بـــأن جيـــشا منـــه مـــا رأيـــتم
إلا بعيـــد مـــا أغـــرتم أولا ... وثانيـــا لثالـــث قـــد عـــولا
بخ ترون الظـــالمين عنـــدكم ... بـــل قيـــل أيـــضا يأخـــذون رفـــدكم
ثـــم يغيـــرون بهـــا الإمامـــا ... تـــستعظمون منـــه الانتقامـــا
مـــــر إلـــــى أن قـــــال : بعـــــد بيتـــــين :
إن انتظـــرتم مـــا ســـوى الفـــساد ... وجحفـــل هيـــئ للجهـــاد
ألا تـــرون مـــا رأت بلقـــيس ... أمـــا لكـــم فـــي شـــأنها مقـــيس
ومـــع ذا فليـــتكم شـــكرتم ... للرؤســـا ثـــم الأميـــر جئـــتم
فمـــا خـــلا الـــدنيا مـــن العـــدوان ... والظلـــم والفـــساد والطغيـــان
وإنمـــا يكـــشف ذاك الأمـــرا ... يـــشكى إلـــيهم فيزلـــوا المنكـــرا
وغيـــر الاشـــتكاء بالبيـــان ... زيـــادة الفـــساد والطغيـــان

فما انتقدتما ولا غزوتما ... بل على الإسلام أغرتما
قد وجب الجهاد عنكم ، قلتما ... مع الإمام ليته فعلتما
ذاك الذي هو الجهاد قد نرى ... نص عليه العلماء الكبرا

---

(1) كذا في الأصل . ألم يكن نصب الإمام واجبا ... فإنه فرض الجهاد لا حبـا

ولم تكن ناحية فيها كفى ... ذو شوكة منها فليس ذا وفا
لأنه يؤول للنزاع ... إذ لم يكن يرضى لسد الأوزاع
وطاعة الإمام فرضا وجبت ... في نص محكم الكتاب ثبتت
كذاك في قول النبي الطاهر ... صحيح نقل في الحديث الظاهر
والعلماء أجمعوا عليه ... وكلهم نقله لديه
ولا يرى في العلم بالبرهان ... خروجكم عن طاعة السلطان
وإنما يرى لذي اعتزال ... إن ثبت الجور لذي العرزال
تلك طريقة الضلال والردى ... أبطلها قول النبي ذي الهدى
ومن عصى الأمير فهو قد عصي ... كذاك في معنى حديث وبصا
والشكر فرض إن أتى بالقسط ... والصبر حتم إن يكن بالقسط
خصوص عصمة للأنبياء ... دون السلاطين والأولياء
والخلفا من بعدها الولاة ... قد أحدثوا الجور كذا الزلات
وسلف الخير لهم انقادوا ... وما يرى في الشرع ما أعادوا
بل هم بـادنهم يقيمون الجمع
... والعيد الجهاد في كل تبع
ليس لهم إلا الدعاء الصالح ... وعندهم علم ورأي راجح
هذا الذي رضوا به والشرع ... أصوله طرا كذاك الفرع
وعالم إن صمَنْ نجيب النجبا ... خرابكم وطنه ما أعجبا
إذ كم بلاد وقرى قد خربوا ... وأهلها بعلمهم قد ذهبوا
والأرض تنقص من الأطراف ... مصرا وبلدة قرى الأشراف
حتى يصير الكل للفناء ... كذاك قال الله ذو البقاء
فكم تلقينا بهذي القرية ... من علماء العلم دون مرية
وبعضهم أدركتما عندكما ... تعظيمه وصيته فوقكما
كشيخنا إنْكِلَّ بحر علمه ... وغيره من علماء قومه
فالكل ما قلتم فلم يشيروا ... به وسيركم فلم يسيروا
أرأيكم أجدر بالصواب ... مما هو المنصوص بالكتاب
كلا ولا من علماء العصر ... بله الذين قبله في الدهر

والله ما سير الجهاد سرتما ... بل جيل أهل الظلم قد كثرتما
لم يأل جيشكم خبالا ما فعل ... أفسد كتبا وزنى ثم قتل
من المراض والصغار والنسا ... وشتت القراء كانوا مجلسا
إلى أن قال : بعد بيتين :

جررتم الوبال بالمفاسد ... لكل مسلم من المساجد
فكل مسلم هنا ومنكما ... فدمه وعرضه عليكما
قد حان ينتهي بنا الملام ... فبيننا وبينكم سلام
ناظمها عبد الإله الواحد ... محمد بن أحمد بن حامد
طمعه من يلوذ اللاجي
ج ... بلطفه ويرتجيه الراجي
ثم الصلاة والسلام سرمدا ... على النبي العربي أحمدا
وآله وصحبه الكرام ... بمبداء الأمور الختام
ومن الأجيال المشتملة على القبائل الكثيرة جيل إنْصَرْ وهؤلاء منقسمون قسمين :
قسم يسكنون بشاطئ البحر : لهم عزة وشرف وفيهم في سلاف الدهر إمارات وعلماء منهم أهل أنْشَوَاكْ بقرب كوْكوْ ، ومنهم أهل أمَاسِنْ وأهل أغَبُ وأهل تَقَلَيْتْ ، وهؤلاء جميعا كانوا أهل ثروة وعزة ثم انقرض العلم فيهم وبقيت الإمارة ، ثم زالت إلا قليلا .
القسم الثاني : يقيمون في البلاد القريبة من كِدَالْ وفي كِدَالْ نفسها وليس لهم من الإمارات ما لإخوانهم المذكورين ولكن لا يحكمون عليهم ولا يرضون بالانقياد لغير إوَلَّمَّدَنْ واشتهروا بالخيل العتاق يشتري فرسهم بعدد كثير من أنواع المواشي فصاروا أهل جدة وأموال ، ويقال لهم في العصر الأخيرة دبَّاكَرْ وهم أحياء كثيرون كلهم يجاورون إوَلَّمَّدَنْ وينحازون إليهم ليدفعوا عنهم فإنهم ليسوا أهل حرب ونجدة ، وفي البلد أسماء كثيرة لقبائل صغيرة لا أطيل بتعدادها ، والقبائل المشتملة على عدد هي التي ذكرتها . ومن القبائل ذوات العدد والنجدة وليسوا أهل ثروة ولا علم إفُغَاسْ ، وإشَضَنْهَرَنْ ، وإدْنَانْ ، وشَمَنَمَّسَّ ، وهؤلاء القبائل تحتوي كل منها على عدد من القبائل ولكل منها إمارة مستقلة في العصور الحاضرة ففي أرض كِدَالْ إفُغَاسْ وإمارتهم هي الكبرى التي تحتها إمارات ، وفي أرض بُرَمْ وإدْنَانْ ، وفي أرض كَاوَ إمارة شَمَنَمَّسَّ ويرى جيل إمْغَادْ أن هؤلاء منهم وهم يستنكفون عن التسمية باسم إمْغَادْ لأن ذلك الاسم مختص في بلاد كِدَالْ بالرعايا الأرذلين اللئام مع أنه في

بلاد أرَبَنْدَ اسم لقبائل من الكرماء ليهم شرف وعزة ونجدة وثروة بحيث كان لهم أتباع ، وإماراتهم في أرَبَنْدَ سبع ما بين بلاد هُدَّار إلى بلد دُور ، ولهم في أرض كَاوَ في الساحل الشرقي إمارات خمس كانت كلها تحت إمارة الشرفاء آل المختار .

الفصل الثامن

في الكلام على إمارات القسم الذي يتولاه كَرِدَنَّ وأولاده الغربيون وسيرتهم في الملك وذكر ملوكهم وترتيبهم في الملك أما فيما قبل أيام كَرِدَنَّ فكانت الرياسة والمعزة والغلبة في قبائل إمَاجَغَنْ منها: تَاهَبَنَتْ ، كَلْ تَيُنَّتْ ، كَلْ تَبَنْكَرْتْ وهما أصل واحد ، واسم جد كَلْ تَبُنَّتْ البَدْر ومسكنه وادي أسَكَّارَيْ ، وكان تحت حكمه أمم كثير من السودان (إهَتَنْ) يحكى أنه يستسقي من بحيرة أضَرَنْبُكَرْ على رؤوس الناس من مسافة يومين أو ثلاثة وصورة استقائه أن يرفع المرء القلة فيناولها آخر ولا يزال كذلك حتى يصل إليه في مقدار ساعة ونحوها كذا حدثني محمد أحمد بن أجَّمْجِمْ وهو ثقة . ومن قدمائهم كَلْ أكَيسْ ، وإكَرَابَسَنْ ، وتَنْكَر إكَدَشْ ، وتَكَّرْمَتْ السوداء ، وإروَلَنْ البيض وليسوا أهل رياسة الآن ، ولم يبق منهم إلا واحد . إهـ ومِنْ القدماء تَرْغَيْتَامُتْ ، وهم عشر قبائل ، وأهل الإمارة منهم الآن وهم أهل أكَيْكْ ، طوار عليهم من جهة المشرق في بلاد تَمَزْكِدَّ واسم جدهم الخارج من تَمَزْكِدَّ مُدٌّ وإخوانهم في هذه البلاد تَمَزْكِدَّ ، وإبَرَكِتَنْ ، قيل وإكَرْنَزَنْ ، وإروَلَنْ ، وهؤلاء هم أهل الرياسة والإمارة قبل كَرِدَنَّ ولم أر من تكلم على تحديد إمارات هؤلاء وأهل كَرَسْ لا يطلقون اسم أمَاجَغْ إلا على أنفسهم ويقولوا لجميع من في غربيهم إولَمَّدَنْ ، ولجميع أهل آير إمْغَادْ .
وأما ولايتهم في أيام كَرِدَنَّ فحدها : جنوبا من أرض تَدْغَقْ في أرض فَلَنْك إلى ما وراء دُور(1)
وحدها غربا : قيل رأس الماء وقيل ولاتَة ، وحدها : شرقا الصحراء التي بين نَتَّكْ وآير ، وحدها شمالا : بلاد أهَكَّارْ القريبة من أتَكُرْ ، وأما الرعايا من أهَكَّارْ المنتشرون إلى بلاد أدْغَاغْ فصاروا من رعية إولَمَّدَنْ ثم هاجروا إلى إخوانهم الأقوياء فاستراحوا من الغرامة .

---

(1) من دولة بُرْكِنَافَسُو .وغالب أمرهم مع أهَكَّارْ المسالمة لا كحالتهم مع أهل آير الذين لم تزل الحرب قائمة بينهم وبين إولَمَّدَنْ إلى انقراض الغارات بتغلب فرنسا على البلاد .
أما مبدأ أمرهم في الولاية فذكر الشيخ / محمد بن دانيال أن العُدَال أمير

إكَدَزْ من جهة سلطان أسْطَنْبُلْ هو الذي استند إليه كَرِدَنَّ فولاّه على بلاد تادمكة جميعا ثم أعرض أهل البلد عن تبعية سلطان إكَدَزْ ، ثم تفرقوا بأنفسهم فرقا ولكن السلطنة العامة عليهم لم تزل في بني كَرِدَنَّ ، وقال الشيخ سيدا عمر بن الشيخ سيد علي الكنتي من أولاد سيد المختار في كتابه كشف الغمة عن ضعفاء الأمة في خطاب يوجهه إلى بعض إخوانه ما لفظه : ومن المعلوم بديعة أن القطر الذي أنتم فيه إلى منتهى المعمور من الجهة المغربية أرض ساسة منذ قرون ليس فيها سلطان يقيم الحدود ويستعمل الأمور السياسة على هيئتها الشرعية إلا ناحية الغرب من فاسْ ومراكش وأعمالهما فإنها كانت في بيعة الشرفاء الإسماعيليين وكانت حواضر بالتكرور يخطبون في الجوامع يوم الجمعة كتنبكت التي هي قاعدة البلد ويفد عليهم من يفيد من تلك الناحية ، وقد بعدت عنهم المسافة من إجراء الأحكام الشرعية على وجوهها في الأماكن النائية عنهم مع غفلة أمراء الوقت وضعف عنايتهم بإقامة رسوم الأحكام الشرعية فاسندوا الأمر إلى من فيهم من العلماء والأولياء ومتغلبة التوارق بخطة الإنصاف للمظلوم من الظالم والتعاون مع علمائهم على إقامة شعائر الإسلام ودفع المحاربين والذين تحت أولئك المتغلبين ما بين زوايا وهم المسمون عند البربر إنَسْلَمَنْ وبين لحَمْةٍ وهم المشهور عند البربر بإمْغَادْ ، والمتغلبون لصوص وهم المسمون عندهم إمَاجَغَنْ يأخذون المغارم على من تحتهم مع تفاوتهم في الظلم والعدل وهكذا الحال إلى منتهى العمارة من جهة المغرب إلا أن لصوص المغرب الأقصى عرب وكذلك زواياهم ولحمتهم ولصوص جهة التكرور المتشرقة توارق أي بربر ، وكذا غالب زواياهم ولحمتهم . إهـ كلامه وهو يشير إلى تقسيم التوارق وكتقسيم صاحب الوسيط لأهل موريتان . كما يشعر كلامه أن التوارق الذين يعرفهم توارق دَنَّكْ لأنهم الذين يسمون العالم أنَسْلَمْ ، والرعايا إمْغَادْ ومن عداهم من أجيال البربر الذين في غربيهم لا يشاركونهم في ذلك الاصطلاح بل يسمون كل قبيلة باسمها سواء كانت من أهل العلم أو أهل الرعاية ، أو أهل النجدة .

وأما سيرتهم : فالغالب ممن يتكلم عليها علماء كناتة كالشيخ السيد المختار الكبير وابنه سيد محمد وابن ابنه أحمد البكا بن سيد محمد ، وتبعهم في ذلك الشيخ سيد عمر بن سيد علي فإنه قال : في كتابه المذكور بعد كلام يفصل فيه إمارة السودان على إمارة البربر ويبالغ في تنقيص جيل البربر وينسبهم إلى الخبث ما لفظه : وفي القرن الحادي عشر كانت وقعة تِغَرْغَرَتْ بين التوارق والرماة وكانت التوارق تحتهم

كالعبيد يرعون لهم المواشي فمن يومئذ جعل أمر الرماة ينحل ودولـتهم
تُقل حتى.... التوارق عليهم لله الأمر من قبل ومن بعد . فتغلب التوارق
على تنبكت التي هي قاعدة تلك الارن.... النيل إلى نواحي رأس المـاء
من الجهة المغربية ، وأقلهم ظلما وأخفهم حرابة جيـل إولَمَّـدَنْ ، وقـد
....مشائخ كناتة حين هووا من العام المفتتح للثلاثين بعد المائة والألـف
فكانوا يتركونه عن رأيهم ويعمرون الأرض معهم ويلوون العمائم علـى
رأسهم عند التقدم فعمرت الأرض ون ....فكان المتولون مـنهم لكناتـة
تحت يد سلطان واحد يرجعون إلى أمره وينفعلون لحله وعقده فـسادهم
بفساده وصلاحهم بصلاحه ، فكانوا مدة كَردَنَّ بن شود ، ثم مدة ابنه ألكَ
الشيخ ثم مدة ابنه أمَّا غاية في العدل ونهاية في الاستقامة قائمي الدولة لا
يذبح غاصب شاة في رأس الماء إلا انتهى إلى الـوالي أمرهـا فينكـل
الغاصب وأغرمه الشاة بضعفها فضلا عن غيرها من المواشي والعروض
والأرض في غاية الخصب والرعية في غاية العدل فيما بين العلم مـنهم
والخاص فكانوا لا يتولى منهم سلطان إلى على يد علمـاء وقتـه بعـد
اجتماعهم عليه وفاتحتهم له بالدعاء ، وتكويرهما العمامة ولا يته علـى
رأسه تبركا واعتقادا أو تأسيا بما يبلغهم مما مضى عليه عمل السلف ثم
يختار المتولي منهم من علماء وقته من يوثق بديانته وعلمه فيتخذه قطبـا
تدور عليه رحى أعماله في رعاياه ومملكته ويتخذه قاضيا مختارا يرجع
إليه الخصومات والمنازعات ويوليه خطة القضاء والعلماء الذين بإزائهم
من السوقيين هم الذين يتولون إخراج زكاتهم بعد حسب أموالهم ويتولون
عقد أنكحتهم وتسمية أولادهم وتجهيز أمواتهم وهم في ذلك الزمن أخـف
الظلمة ظلما وأقل المحاربين حرابة يسير التاجر فيهم بتجارته بلا خفيـر
ذهابا وإيابا ، ثم لا يصاب منه الأملئ ظفر من طبيغ المستعمل لاستفافها
وإن حاربوا عدوا خارجا وظفروا به لم يسرفوا في القتل تأثما ورغبة عن
سفك الدماء أعف العوام فروجا حتى لا تكاد فيهم ابن زنى ومرجعهم في
منازعاته وخصومهم إلى الحكم الشرعي والمرافعة إلى الحـاكم ، وهـم
أرضى الناس بما حكم عليه به ومن تجرد منهم للحرابة وقطـع الـسبيل
سقط من أعينهم ونزل بينهم عن منزلته ، ومن تدين مـنهم عظـم فـي
صدورهم واحترم فيها بينهم ولا يدعون مخالطهم ومجاورهم إلى حطيطة
من دينه والشركة معهم في شيء مما هم فيه من التلصص والاسـتخفاف
بالأحكام الشرعية ، ومن عمل بعملهم من الطلبة هان عليهم واستخفوا به
وصغر في أعينهم ومن وقع منهم في معصية أحب ألاّ تظهر عليه وتبرم
من نسبتها إليه هذا ونحوه من نتائج الإيمان وإن كان ناقـصا بملابـسة

كبائر المعاصي إذا كمال الإيمان وزيادته بصلاح الأعمال وزيادتها ، كما أن نقص الإيمان لنقصان الأعمال ، ومدار أمورهم في تلك الأزمنة على الأشياخ » إهـ المراد من كلامه ، وأول كلامه يشير إلى الاستخفاف بجيل التوارق وذمهم ، ووصفهم بالخبث حتى أطال في ذلك ، ثم أتى بماتيسر له من صفاتهم الحميدة ، والله يغفر له ما نال منهم ولعله ما نال منه ما نال إلا تقليدا لبعض أعدائهم الذين دأبهم نشر فضائح جيل البربر حسدا ، أو بغيا فنقل قولهم على وجه التقليد ، ثم أثبت لهم ما أثبت من الفضائل ، وشهد بما علم ممن رآهم وما سمع عن قبلهم .
وقوله (إن التوارق كانوا تحت الرماة كالعبيد يرعون لهم المواشي... إلخ) إن كان مراده بالتوارق بعض الجيل الذي يسكن بقرب البحر ويكون تحت سلاطينه فمسلّم ، وإن أراد أن جميع التوارق حتى سلاطينهم وساداتهم كانوا عبيد الرماة يرعون لهم مواشيهم فذلك غير صحيح لما تقدم من أن سكان الصحاري من التوارق ولم يدخلوا تحت حكم الرماة فأولى أن يكونوا لهم كالعبيد ولم نسمع من الولاة من عم أجيال التوارق بالاخضاع والإذلال لا من سُنغَايْ ولا الرماة ولا من غيرهم ، بل ضعفائهم الذين يطرعون على منازل السودان ، أو يجاورونهم بالأصالة هم الذين يستضعفونهم في بعض الأحيان لقلة عددهم وعُددهم وبعدهم عن إخوانهم الصحراويين الذين لو كانوا معهم وتمنعوا بهم ما نالهم الأجانب بسوء ولكنهم اختاروا مساكنتهم مع الذل على عز ببعدهم عن الوطن المألوف . إهـ

أما كَرِدَنَّ جد ملوك إولَمَّدَنْ

فلم أقف على شيء من أثره ولا تاريخ امو........ إمارة أمَّا بن أكَّ الشيخ ذكر الشيخ سيد عمر أنه على سيرة أبيه وجده في العدل والإصلاح ووجدت في بعض الكتب القديمة قرطاسا قديما بآليا مقطوع أواخر السطور مكتوبا في رسالة منه إلى بعض أهل القوة والنجدة من عرب أزَوَادْ يهددم فيها ويشدد عليه النكير ويسبه لما بلغه من أخذه شيئا من مال العرب الضعفاء ، ويستفاد من تلك الرسالة أمران :
أحدهما : حكمه على أولئك العرب
والثاني : بذله الجهود في إغاثة الضعفاء وتنكيل الأقوياء .
ونصها بعد البسملة والصلاة ، (من السلطان أمَّا بن السلطان أكَّ الشيخ بن السلطان كَرِدَنَّ إلى أولاد سليمان وخصوصا منهم محمد بن رحال ومحمد بن حافظ ، ومحمد بن منصور ، قائلا لمحمد بن منصور الله يلعن أباك وجدك ، ياخدعة ويالكع بن لكع نسيت أن أخوالي قتلوا أخوالك فبالله

الذي لا إله إلا هو لتعودن في ألَّ إلذين هم أجدادك ، الله يلعن جدتك وجد جدتك ، وقد حلفت لكم بالله لا أفقد بعيرا ولا فرسا مما نهبتموه ، ولكن استثنيت ابن رحال وابن حافظ ، وابن منصور في الحلف بالحرب إن ردوا عليّ جميع ما عندهم من مال البربيش وأما غيرهم ....وابن يوسف فليخلفوا بيني وبينهم ، وأنت يا ابن حافظ متى رددتم جميع ما عندكم ....أنت مع أصحابي الذين يقدمون عليكم حتى أضيك موضع بنيك بلا شك الله يلعنك ....إذ قد علمنا أنه لا فائدة فيكم حيث قام ابن غيلان ...أبل بن الخير دول ويضم ....إبل إخوانكم ولا تحمونها أنتم منه بل يغيرون عليها كما يغير عليهم وهذا واضح ......لستم على شيء ....والسلام ......) وهذه البياضات للكلمات المقطوعة أواخر السطور .إهـ ويقال إنه أول من انقسمت المملكة على يديه بسبب أن ابن عم له يقال له كَرُظ بن التقريسْ بن محمد بن كَردَنَّ ، وقع بينهما تفاتن أدى إلى قتل كَرُظ واحدا من أبناء أمَّا فانحاز إلى بلاد دتَّكْ ، وكان فيها كثير من القبائل المشتمل عليها اسم تادمكة لما انحاز إليهم لجأ إلى شريف مشهور هناك اسمه أسامة هو جد الشرفاء الموجودين في تلك البلاد ، لا يسمون باسم سوى الشريفن فعمّمه ذلك الشريف بعمامة الإمارة لبلاد دتَّكْ جميعا سودانا وبيضا ، وأقبلت عليه قبائل البلد إقبالا شديدا ، وكان ذلك مبدأ انقطاع تلك البلاد من مملكة إولَّمَّدنْ الغربية فلما انقطع أولئك اقتصر إخوانهم يفي الجهة الشرقية على ما حول نهر أزَوَاغْ وامتدت ولايتهم من أزَوَاغْ إلى ولاتة ولم أقف على شيء من تاريخ أمَّا إلا أنه معاصر لعلماء كانوا في أواخر القرن الثاني عشر الهجري مثل الشيخ الكبير الكنتي فإنه عاصره وعاصر ابنه كَاوَ فلعل أمَّا أسبق منه ، قال الشيخ سيد عمر بن سيد علي في كتابه المذكور ما لفظه : كان أمَّا يفد على الشيخ الكبير ويفد الشيخ عليه في مصالح العامة وفد عليه أمَّا مرة فلما كان اليوم الثالث أرحل رواحله للرحيل فبعث إليه الشيخ بفرس وناقتين لقحاوين فلما قدم الرسول عليه بذلك رده بما معه فخرج إليه الشيخ فتلقاه بالسلام فلما استقر بهم المجلس قال له الشيخ لِمَ رددت ما بعثت به إليك اتقللته قال : لا والله إلا أني لما خرجت من بيتي عددت الناس ثلاثة رجال رجل مظلوم مشتك أزيل ظلامته وأدافع شكايته ، ورجل مؤسر متى أطمع فيما يسمح به من ماله ، ورجل صالح ذو بركة أنال من بركته وصالح دعائه فأما الرجلان الأولان فقد ظفرت بهما فأزلت ظلامة هذا , وأما الثالث فلم أظفر به فوالله لا أرزءك زائدا علي ما أكلت من ضيافتك ولولا ما خفت من سوء الأدب ما أكلت

منها مأكولا ولا شربت منها مشروبا ، فدعى له وارتحل مغتنما ما نال من الدعاء ، ووفد عليه الشيخ مرة في آخر عمره فلما أخبره في الرحيل من عنده قال : له يا سيدي أدع لي واستوص بالأرض وأهلها خيرا ، فقال : له الشيخ لا بأس فقال له أما أنا فميت في هذا العام فقال لم قال : أراني أمرض أمراضا لا أعتادها فقال له الشيخ لا بأس على الأرض بعدك خلفت رجالا فقال لم أخلف من أراه يغني عن المسلمين ويرد عنهم المظالم فقال الشيخ ما بال أخيك مهمّد وهو أبو تَكِولَّتْ ، فقال له مهمّد قد أدرك الكبر وبه من الشره في الدنيا ما لا يقيم معه قسطاس العدل ، فقال له الشيخ فأكَدَدُ ابنك وهو أبو كَلْ أهَرَ ، قال : ذلك رجل وجهته ومحبته لإولَّمَّدَنْ وذلك قاض بإثارهم على الزوايا والمساكين وهيهات يعدل مع ذلك ، قال الشيخ فكَاوَا ، قال : ذلك رجل صدق إلا أن السلطنة لا تتخلص إليه إلا وقد انتشر الجور في الأرض وفي أحوال الناس فلا يغني عن الضعفاء والمساكين شيئا . فمات أمَّ ذلك العام وكان الأمر كما تفرس في الغرض من كلام سيد عمر . وتقول : الروايات التي تتلقاها الناس عن أسلافهم لما مات أمّا است... الناس مكانه أخاه مهمّد جدّ تَكِولَّتْ (وكَاوَا من عادة إولَمَّدَنْ ومن يحاكيهم توقير الكبار فلا يـ.... صغيرا على كبيره ولا رجلا على عمه) بل يقدمون الكبير في النسب على الصغير وإن كان أحسن حالا .. ويرون خلاف ذلك من أكبر العقوق ، وكانوا يرون العقوق من أكبر الكبائر وأفضح الفضائح فقدما ولاية عمهم مهمّد لأجل العمومة فكان منه أمور ينقمها العامة حتى خاف أهل الحل والعقد من اخز.... الأمور إن دام الأمر بيده فاتفق الناس على خلعه ، ولم يجترئ على ذلك أحد ، كما تقول رواية أخرى قبيلة إبْهَوَنْ كان أخا لكَرِدَنَّ فلما مات أبوهما في السلطنة ولاه الناس مكانه لأنه أكبر فرأى الناس شيخا لا يستقيم معه ملك فاستحي أصحابه من خلعه فأغروا به عامتهم فأخذوا الطبل من بيته وجعلوه في بيت كَرِدَنَّ ثم لم يعد الأمر إلى بيته . هذا ولما اشتدت الحاجة إلى خلع مهمّد جدّ كَلْ أهَرَ فانتزع منه الطبل الذي يكون علامة على الإمارة ويكون عند الأمير ووضعه في بيت أخيه كَاوَا فاستمرت الإمارة في أولاده إلى آخر عهدهم ، وكان لهم في التأمير طريق وسـ...
بين الملكية التي لا يلتفت فيها إلى أهل الشورى ، وبين الجمهورية التي تحاكي الخلافة الأولى التي لا تنال بالإرث ، بل بالأهلية ومشاورة أهل الحل والعقد ، وطريق إولَمَّدَنْ أن الأمير العام لا يكون إلا في ذرية كَاوَا وبشرط أن تختاره الجماعة كلما مات السلطان سكت أهل بيته ينتظرون

من تراه العامة وأهل الرأي والعلم-أهلا للتقدم منهم لا يجترئ واحد منهم على طلب الإمارة لنفسه صريحا بل يستهجنون ذلك ويرونه من الشره القبيح فإذا تمت كلمة الناس على واحد منهم وأمّروه فلا يعزل حتى يموت ولا يجترئ أحد على نقل الخلافة والسلطنة من أهل بيت الأمير الأول .
ولما انتقلت الإمارة من تَكِوَلّتْ لم تعد إليهم ولكن لهم مت التعزز والتاعظم والاحترام في إخوانهم ما ليس لغيرهم من بني جدهم .
وأما كَلْ أهَرَ فهم أقل حرابة وتكبرا وتعاظما وهم ألين جانبا وأرحم للضعفاء وأشد محبة لأهل الخير وأشد شوكة وأكثر عدد وأقوى من كل جهة من جهات النجدة لكن لا يكون فيهم السلطان ولا يكون في غيرهم إلا بإذنهم ، فصارى أمرهم أنهم هم القائمون في نحر كل عدو بالذب عن الحريم والوطن وبإنصاف المظلوم من الظالم وإن كان الظالم من أعزهم والمظلوم من أهون الناس عندهم فنالوا بذلك غاية التمكن ووضع لهم القبول في الأرض ، وهابهم بنوا عمهم السلاطين ولم يزالوا كذلك إلى آخر أمرهم . تكون السلطنة في بني كَاوَا ، والنجدة والدفاع والرفق بالناس في كَلْ أهَرَ .
إمارة كَاوَا بن أمَّا لما انتقل الملك إلى كَاوَا كثرت الأحداث والتفرقات في المملكة وثارت عليه الثوار من الخارج وخرج عنه بعض الزعاء وانحازوا إلى ابن عمه ختوت بن كرظ الذي خرج جده عن والد كَاوَ أمَّا ابن أك الشيخ فوقعت فتن يطول الكلام بسوقها واستعان ختوت بأهل آير الذين في الشمال الشرقي منه وأهل كرس الذين في الجنوب الشرقي منه فاتفق معهم على الإغارة على بلاد كَاوَ فكثرت الهزائم والانتقالات إلى ما وراء النهر وإلى جهة الجنوب وقام بعض السودان بزعامة عثمان لب ومحمد جب يريدون أن يحكوا حركة آل فودي في في بلاد هوسا فكان ذاك الحرب يدعوا إلى نبذ بيعة إولمدن ويدعوا إلى جهادهم وجهاد من معهم وبيعة كثير من القبائل فاشتغل كاو بالحروب ومدافعة الثوار حتى اختل نظام ملكه، ومن أسباب افتراق كلمة رعيته خروج جماعة إلْغُمَاتَنْ بقيادة زعيم من غير قبيلتهم بل من بعض قبيلة إولمدن يقال له أشو وكانت تلك الجماعة ذوي بأس وعدة وعدد فعبروا نهر النيجر عند تِكَناسِتِنْ وبعدوا عن أرض السلطنة فكانوا تابعين بالاسم للدولة يرسلون إليهم بالمعونات والغرامات ولكن فاتهم ما هو أكبر وهو اجتماعهم في الدفاع الوطني حتى أمر ملك الجماعة معهم إلى الحروب فانقطعت إمارتهم عنهم إلى آخر الأمر ، وسيأتي الكلام على تلك الجماعة وكان من آخر أمر كَاوَا أن ابن عمه خَتُوتَ أرسل إليه يستعينه في أمر

الجيلاني فبعث جيشا غرمرما إلى تلك البلاد الشرقية ، وقاد بنفسه فمات في تلك الغزوة بأرض واختصار الجيلاني أنه رجل من أتّواري قام يدعو إلى السنة وكثرت أتباعه في أرضه حتى قام على أمير إوِلَمَّدَنْ الذين بدنك فحاربه حتى غلبه الجيلاني فأرسل إلى كَاوَا أمي إولَمَّدَنْ الذين في غربي أولئك يأمره بطا....ولانقياد له فأرسل كَاوَا كتابه إلى علمائه وأشاروا إليه بحربه ودفعه ونسبوه إلى البدعة وأشد في ذلك سيد محمد بن الشيخ المختار الكنتي ، وجل ما رأيت من رده عليه راجع إلى أنه ادعى أنه المهدي المنتظر في آخر الزمان فذكر الشيخ في رده صفات المهدي المنتظر وأنه ليس ذلك الرجل ووافقاه على ذلك علماء إكَدَشْ وسكت كثير من العلماء فأضطرمت نار الحرب بين الفريقين واضطربت الامـ..... وملح بعض الناس في بعض ، ثم سكن ذلك بإذن الله تعالى فزعم أهل دنك أن الغلبة لهم وأضدادها خلاف ذلك كما أن أهل دنَكْ يزعمون في ذلك الرجل أنه وليّ سنيّ ينشر الدين الحق وينفي ظلم الظالمين وغيرهم يزعم أضداد تلك الصفات ، وقد رأيت قصيدة يمدحه فيها محمد بلُّ بن الإمام عثمان بن فودي ويعده من أهل الصلاح والفضل ولم يزل أهل ناحيته يعتقدون فيه ويكرمون أهله لصلاحه وهم أعلم بأمره ، وأما أسلافنا الموجودون في ذلك الوقت فلم أر من آثارهم شيئا من أخبار.. لا مخالفته ولا موافقته والله أعلم وهو المدعو أن يغفر للجميع ، وممن نقل من أخبار الجيلاني سيد عمر بن سيد علي في كتابه كشف الغمة المذكور فقد قال : في ما نصه: ومن انحاز من أولئك إلى دنَكْ كان أقل حرابة وأكثر عدلا من متغلبة التوارق بناحيته إلى أن قال : وهم كانوا تحت بيعة آل فودي وأمورهم دائرة عليهم وأكرم بآل فودي من علماء أتقياء ذوي عدل وتجددا للدين وجهاد صحيح على قانون الجهاد فكانوا مدة الشيخ عثمان بن محمد بن عثمان فودي في استقامة دولة وقوة صولة وقد امتد ملكه يمينا وشمالا فبلغ كَوكو وهُنْبَرَ واط...مُوش وامتد شرقي إلى أرض صُنَارْ ــــ من بلاد سودان الخرطوم الآن ــــ أطراف اليمن وشمالا على بَرْنُو الأكراد إلى إكَدَازْ وإلى إغَـزَ.. ، ويقال الآن إفْرَونْ ووضع له الرعب والهيبة في قلوب الناس النازحة ، ثم قال : ولم يزالوا في امتداد من دولتهم . واشتداد من صولتهم إلى أن طرق ساحة مما.... الجهاد البربري الساقط الشروط المودي للبوار والخسار والسقوط بسبب خارج في صقع دنك يسمى سيد محمد الجيلاني فبايعوه على رسم الجهاد ليصرف التوارق عماهم عليه واستولى على إولّمّدنْ الذين بدنك صاروا تحته كالعبيد ثم أرسل كَاوَا بن أمّا ومن معه يريد البيعة ويتظاهر

بالمهدوية ، وأوعدهم إن لم يبايعوه أن يأتيهم بجنود لا قبل لهم بها وارتاع منه جميع التوارق وسموه الجَيْنَ نالسْ وسماه العرب بُوكَطَـايْ ، فرفع المكتوب إلى الشيخ سيد محمد مستنجدا له ومستشرا فألف الشيخ كتابا في الرد عليه وإبطال مخرقته ، وشجع كَاوَا ومن معه على رده إن لم يرعوا عن بلادهم ، وبالكف عنه إن اقتصر على أرضه وأجاد في ذلك ويبين أوصاف المهدي وعدد أمراء العدل وأمراء الباطل وأطال في ذلك إلى أن قال : فيقال لهم ناشدناكم الله هل المهدي محمد بن الجيلاني بويع بين الركن والمقام وقد صح عنه عليه الصلاة والسلام أن المهدي المعلوم يبايع بين الركن والمقام ، ويقال لهم ناشدناكم الله هل المهدي محمد الجيلاني ولد بالمدينة المشرفة وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أن المهدي المعلوم يولد بالمدينة ، ثم ذكر أمورا من أخبار المهدي المنتظر ليست في محمد الجيلاني ، منها أنه يبعث إليه بعث من الشام فيخسف به ، ومنها أنه يسكن أنطاكية ، ومنها أنه يوافق اسمه اسم النبي واسم أبيه اسم أبيه ، ومنها أن المهدي المعلوم حفيد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والجيلاني إنما مخرق بساكنِيِّ دنك ممن لا دين يعصمه ولا حيفظة تحميه ولا مروؤة تحجزه . هذا كله من كلام سيد عمر ، ثم قال : ثم أطال في إفساد أمره . ومما جرى بين كَاوَا وسيد محمد في أمر الجيلاني أن قال الشيخ ماترى في أمر هؤلاء الذين يخرجون عنك من كل جهة فقال له كَاوَا أما السودانيون الذين يزعمون أنهم يدعون إلى إحياء السنن وإخماد البدع فلا أتعرض لهم ، وكيف أقاتل من يدعو إلى الله ، وأما البَلَكْرِيُّ الذي كان بين أسلافه وأسلافي ثأرات وأعلم أن غرضه الأهم الأخذ بتلك الثأرات فلا أخلي سبيله بل أدافعه عن بلادي ما استطعت . إهـ وهذه الرواية تفيد أن دفاعه له لأجل حرب قديم موروث من الأسلاف وإن كانت الرواية الأخرى تفيد أن غزوه له إغاثة وإعانة لابن عمه خَتُوتْ ولا مانع من صدق الروايتين جميعا ، ومن الخارجين عن إمارة كَاوَ على ما حدثني الشيخ محمد أحمد ابن أجَّمْجم المشهور بالإمارة والقضاء في أرض أضَرَانْبُكَرْ أسلاف إمَتَّنْ ، وأهل تِغَزَرْتْ ، والسَّوَنْ ، وسبب خروج إمَتَّنْ الذين من نسلهم أهل بَنْكُوكُ وهم أهل بيت أمَدُّورْ عضو من أعضاء دولة نيجر وكانوا من أهل تَبُنَّتْ واسم جدهم أكَمَّرْ أنهم تفاتنوا مع إولّمّدن ، وكان بينهم يوم عظيم مات فيه كبير كَاوَ ، واسم رئيسهم الذي حارب إولّمّدن أكُسْ ، وأما تِغَزَرْتْ فتبعوا أُلئك ، وكانوا في الأصل من أهل العلم ويقال لهم في سالف الدهر إفْقَرْ ، حدثني الشيخ محمد أحمد بن أجَّمْجم أن اسم جدهم محمد الحاج خرج من الحجاز إلى

مصر إلى مراكش ثم إلى ولاتة ، ثم إلى السوق ثم إلى بَكَر ، ثم إلى تَملتْ ، ثم إلى أضَرْنْبُكَرْ ، ثم إلى سَنْسَنْ وهناك أقام حتى مات وخلف نسله وصار قبيلة فيهم العلماء ، ثم انقرض فيهم العلماء واشتغلوا بالإمارة ، وأميرهم الآن البَدَيْ بن إسماعيل . مأا تاريخ كَاوَ فلم أر من تعرض له وقد عاصر رجالا من أواخر القرن الثاني عشر كالشيخ الكبير والشيخ حامّ الكلالي فهما من القرن الثاني عشر ، وأما الكنتي فقد أدركه القرن الثالث عشر ، وأما الكلادي فلم أجد تاريخ وفاته ، هذا وكتابه الذي أرسله إلى كَاوَ حاصل مضمونه أن قال له بعد سلام وإيصاء اعلم أن الأمة المحمدية التي بين تَادْغَقْ وولاتة كلهم أمانة في عنقك تسأل عنهم فلا تغفل عن ذلك ، واعلم أن إصلاحهم بصلاحك وفسادهم بفسادك فاستقم يستقيم أمرهم ، واعلم أن أهل تنبكت والبَرابيشْ والأنصار هم أهل البلد إصالة فإذا أحسنت إليهم أحسنت إلى الجميع . أو كما قال . ثم وصاه بقبيلة إكَلاَدْ ، ثم ختم كلامه بما يفيد أنه أسن منه فقال : عمك حامّ .

إمارة النابغ بن كَاوَ بن أمَّا

تأمر بعد وفاة أبيه على من يخرج عنه من التوارق والسودان والعرب ، ورأيت رسالة منه إلى رئيس الطائفة التي خرجت إلى بلاد تِيرَ ، وهو أسَنفَلّ بن وزَيْدُ يلومه على عزل أمير من أمراء سنغي الذي معه في الوطن واسمه فُون ، وقال : له في الرسالة لمَ عزلته من غير مشورة مني نقضت عزلك إياه ورددته إلى إمارته . وذلك دليل على حكمه على العازل والمعزول معا . أما العرب فرأيتُ رسائل من أولاد سيد محمد بن الشيخ الكبير إليه وهم سادة جميع العرب الذين في شرقي إمارة جَبْرِيًّا ، منها رسالة أحمد البكا بن سيد محمد إليه ونصها : أنه من عبد ربه الغني به أحمد بن محمد بن المختار إلى السلطان ابن السلطان بن السلطان بن السلطان النابغ بن كَاوَ بن أمَّ بن ألَكْ الشيخ ، بالسلام الأسنى ، والتحية الحسنى ، ونحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو والوصية لنفسي ولك بتقوى الله العظيم ، واقتفاء آثار نبيه الكريم لأنه تعالى يقول ل{ قل إن كنتم تحبون الله } الآية هذا فيما يرجع إلى اتباعه صلى الله عليه وسلم ، واقتفاء آثاره ، وأما التقوى فحسبك فيه قوله تعالى { والعاقبة للمتقين } وقوله { من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين } ولا يعزنك تسويل الشيطان ، أن التقوى ولإتباع صار في زمننا هذا من متعذر الأمور ومتعسرها ، فما لم تتق فيه فاتق في سواه ، وما لم تتبع سنته صلى الله عليه وسلم فاتبع في غيره ، { وأتبع الحسنة السيئة تمحها إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين } وإياك والتهاون بذوي

الانتساب إلى رب الأرباب ، وإن كان الانتساب إليه فيما نرى مدخولا ، وعملهم الذي يتقربون به إليه تعالى معلولا ، فإن ذلك غير قادح في نفس انتسابهم ، ولا مبيح للوقوع بجنابهم ، فإنه سبحانه ربما انتقم منهم بتسليط العباد ، وانتقم لهم لسابق الوداد ، وانتقامه منهم تطهير أوتأديب ، وانتقامه لهم تنكيل وتعذيب ، ولا يخافك ما بين المقامين فشتان ما بين الانتقامين ، فاضرع إلى الله أن لا ينتقم بك منهم ، ولا ينتقم بهم منك ، وأن يسد ذلك الباب جملة وتفصيلا عنك ، والله تعالى يوفق الجميع للرشاد ، ويعصمنا وإياكم من الزيغ والعناد ، وبعد فسترى أخانا أبا بكر بن عبد الله بن عم المَخْطَارْ قادما عليك بالمهر الذي تطلبه مني . مر إلى أن قال : فها أنا بعثت به إليك متلافيا ، ما فات غير ملتفت إلى ما فرط منك أدنى التفات ، فإن كنت في استرضاء كما أنا راغبا ، فابعث إليّ صخبة بامة سباعية كأحسن ما تكون ، فإني إليها محتاج للدين ، والسلام . إهـ بخط منشئها البكا بن سيد محمد .

ومنها رسالة سيد محمد بن الشيخ سيد محمد ـ كان سمي أبيه ـ ونصها : هكذا

(بسم الله ، والحمد لله وحده ...إلخ) .

ومنها رسالة أخيهما الشيخ المختار المعروف بباد جد أمراء كُنْتَ يعتذر فيها عن مغادرته أوطانه المألوفة في أَزَوَادْ إلى بلاد تنبكت ، ويذكر له خراب ذلك الوطن ، ويستشيره فيما يفعل ، ويخبره بما أصاب قبائل من العرب ، وهي طويلة نحو ورقتين أو ثلاث ، فمنها أن قال : له (خرجت حين خرجت من أهلي غائبا بنية شهرين ..إلخ) .

وآخر أمره أنه جرت بينه وبين عمه في دنك حروب فجمعوا قبائل دنك ، ومن طاوعهم من آير وأهل كَرَسْ فأغاروا على وطنه بتَلَاتَيْتْ يقودهم موسى بن بُضَالْ وهجموا على الوطن من غير كثير استعداد من أهله فاشتد القتال بين الفريقين حتى جُرح النابغ في بعض المنافذ ودفن في تُفَبَيُغْ ، ومولده ، ووفاته لم يؤرخا . ومقتضى معاصرته لمن في منتصف القرن الثالث عشر من الأشياخ أنه كذلك .

أصَّلْم بن النابغ بن كَاوَ تأمر بعد أبيه ولم يعش طويلا ولم يخلف أيّ أثر يذكر ، ومن نسله الأمير تَلْجَاتْ الذي ولي بعد تُفَنُّتْ .

الأنصار بن النابغ بن كَاوَ أمر بعد أخيه أصَّلْم وذهبت أيامه في الحروب ولم يسس الرعية إلا بالدفاع عن الأوطان ، فم...حاربهم جماعة هَلَوْ بن وَزَّيْدِ التي هي منتهى المملكة من جهة الجنوب الغربي ، وسبب ..أنهم

كانوا من أتباعه أولا فهاجر بعض القبائل إلى بلادهم وأحسنوا إليهم وءامنوهم وأسقطوا عنهم كثير من المغارم فتسامع الناس بسيرتهم مع أتباعهم ، وكانت أحسن من سيرة ملوك...فرغبوا في الانحياز إليهم ، وكان من المنحازين إليهم قبيلة إهَلَشَّنْ ، وإكُيْبَتَنْ ، وكثير من مماليك ...فطلب سادة ألئك المماليك أن يستردوهم فمنعهم الأمير أسِنَفَلْ بن وَزَّيْدِ الذي كانوا ... فشكوه إلى سلطان البلد الإنصار بن النابغ فأرسل إلى ذلك الأمير يأمره بأن يخلي سبيل أولئك وأن يرسل إليه جميع القبائل التي في بلده وإلا أتاه بجنود لا قبل له بها فلم يلتفت ذلك الأمير إلى ... فلما رجع الرسول إلى الإنصار امتلأ غيظا وخنقا على جميع من في ذلك البلد ، ثم مات أسِنَفَلْ بفور...فأوصى أخاه هَلَوْ بن وَزَّيْدِ أن لا يرد أولئك إلى من فروا منهم وأن يفديهم بنفسه وماله وأتباعه ...ولي بعد موت أخيه أظهر الحماية والذب وأنه لا يخافه أحدا فلما بلغ ذلك الإنصار قامت قيامة واستنكف أن تعلن تلك الفئة القليلة حربه فحشد جيوشا في بلده ، ثم ....بأمر السودان ...يمر بهم في الطريق إلى أن التقت الجيوش فانتصرت الفئة القليلة مع رهبهم من السلطان وجنوده واستعظامهم مقاومة السلطان ثم غزاهم السلطان بعد ذلك أربع أو خمس مرات وينتصروا على ما يزعم قصاص ذلك الفريق ، وأضدادهم يزعمون خلافه ، والحق أن تلك الطائفة لم تزل قائمة من ذلك العهد إلى الآن لم يعاملهم أولئك السلاطين بما يعاملون به من حاربهم بعد الظفر ....إلى أن تغلب فرنسا على بلادهم . وأما أيامهم يوم كُلْمَنْ في أكِرِرْ ، ويوم تِـرَ ، ويوم في ساحل ، ثم كان أخر الأميرين أن اصطلحا وخلى السلطان بين الأمير ومن يهاجر إليه بشرط أن يؤدوا إليه ...التي يؤدونها إليه قبل ، ثم مات عن قريب في أوائل القرن الرابع عشر الهجري . وممن حاربهم الإنصار أهل دتك كانت بينه وبينهم وقائع آخرها في مَنَكَا سنة خمس وثلاث مائة بعد الألف 1305هـ ، ومات في ذلك اليوم ابنه دُرَّةَ ، فلما مات انهزمت طائفته ، والإنصار بنفسه لم يمت في ذلك اليوم بل مات حتف أنفه في وادي إنْشَوَاكْ وقبره عند تلّت إنَنَ قريبا من وادي سمِتْ بنحو يوم ، ولم أتحقق تعيين عام وفاته .

مَدِيدُ بن القُطّب بن كَاوَ .لما مات الإنصار خلفه مَدِيدُ وحمد الناس سيرته ومكث أعواما قلائل ثم فاجأهم أمر فرنسا واضطرب أمر الناس لأجل دخولهم في البحر ومداخلة أهله من السودان وإغرائهم على حرب التوارق وجميع البيض ، ثم داخلهم أمير العرب حماد بن محمد وصالحهم ونصحهم بأن قال لهم إن البلد لا تملكونه مادامت في قوة التوارق ، ولا

تقدرون على مقاومتهم في صحاريهم لأن جيشكم لم يأنف إلا البحر وتنعمه ، فإن رأيتم أن تعينوني بالسلاح والخيل تبعتهم وتتبعدهم فإني أعرف بلادهم ومكامنها ، فلا زال بهم وبأتباعهم إلى أن الجأهم إليكم حيث كنتم ، وأما الرجال فحسبي منهم ما معي لا أطالبكم بفرد واحد من عسكركم » ففعلوا وأمدوه بسلاحهم التي تقتل من بعيد ، وجمع رجال العرب فأعطاهم السلاح ، وأذن لهم بأمر فرنسا في أخذ ما شاءوا من الخيل حتى تم استعدادهم وسلاطين البلد غافلون عن هذه المكيدة ، وقد علموا أن الأمير العربي يحاربهم ولكن لا يعبئون بحربه فصارت العرب والسودان وفرنسا حربا للتوارق وحالوا بينهم وبين منافع البحر ، فهمّ السلطان مَدِيدُ بأن يفد على القائد الفرنسي في كَاوَ ويصالحه ، ويشارطه ليتفرغ لحرب الخارجين عليه من أهل مملكته وشاور أصحابه فاستنكفوا عن بيعته أحدا أيا كان فلم يفعل ، ثم بدا له أن يسير إليه بعد ما كثرت الزلازل والغارات وهجر الناس عن أوطانهم إلى حيث كان حتى اجتمعت عليه خلائق لم يكونوا يجاورونه ، وعم الضيق الجماعات الكائنة معه بالأصالة والمهاجرة إليه فعزم على ملاقاة القائد الفرنسي فسار حتى بلغ شرقي حوض نَقْ فمات ودفن هناك .ما جرى بينه وبين الفرنسي أنه لما وصل إلى كاو عام 1317هـ سأل عن سلطان تلك البلاد وكان سأل عنه قيل في تنبكت فاتفقت له الكلمة أن جميع البلاد تحت حكم مَدِيدُ فأهدى له سرجا ولجاما من ذهب ، فلما وصلت إليه الهدية تردد في قبولها وردها ثم قبلها ، فلما أتى على ذلك عام رجع ذلك الفرنسي إلى كَاوَ للاستيطان ، فأرسل إلي مَدِيدُ يأمره أن يأتي إليه ليفاهمه ويتصالحا في أمر إقامته بالبلاد ولم يقدر لقائهما .

ولم يصل إلي كثير من أخباره على التفصيل إلا أن من يعرفونه ممن أدركتهم يثنون عليه خيرا ، وقد رأيت رسالة منه إلى أمير تَنْكَرإكِفْ في وقته تتضمن شكره له ما عمل من نصحه وقيامه بمن معه من رعايا في أرض تنبكت وحسن طاعته له وذكرله أن ذلك ديدن أسلافه مع أسلافه .

وأما أبوه القطب

فلم يصل إليّ من خبره إلا أنه هو القائد لجيش إولمّدنْ الذي سار لاستنقاذ توارق بلاد تنبكت من سلطان الفُلاّن فالتقوا معهم وراء أرض هُدَّار فاشتد القتال بين الفريقين حتى هزم جيش الفلان ....أهل ذلك البلد من غلبتهم ، ومات كثير من سادات التوارق في ذلك اليوم ومنهم قائدهم القُطْب بن كَاوَ ودفن في أرض كُرْبَنْ .

لاوَيْ بن النابغ بن كَاوَ

مات مَدِيدُ وخلفه لاوَيْ بن النابغ فساءت سيرته في الناس واشتغل بجمع الأموال لاسيما... البقر فقد اشتهر بجمعها وملكها فوق ما يملك ، وضرب المثل بكثرة بقره ، وزهل عن أمور المملكة وتدبيرها ، وأخذ الأعداء يختطفون الوطن من كل جانب ولا يلتفت لذلك ولما غـ.....الناس أنه لا قدرة لهم على مفارقة أوطانهم ، ولا ترك مرافق البحر التي ألفوها ولا صحاري الأعداء مع ما نالهم من الضعف ، اتفق رأيهم على مصالحة فرنسا ليتمكنوا من أوطانهم ، ويتفرغوا لمقاومة أمثالهم ممن لا يدينون لغلبتهم ، فلما ذكروا ذلك للأمير أعرض عن المـ..... جنبا ، وخاف أن فرنسا إذا ظفروا به قتلوه فزادت الشدة والضيق على الناس وهو لا يـ....ولايتـ....إليهم ، فلما طال بهم الضيق من كل وجه اجتمعوا على خلعه ، ولم يخلع أحد قبله من سلفه فعظم خلعه على الناس إذ لم يكن خلع السلاطين معهودا عندهم ومكثوا مدة متحيرين فقام سيد كَلَّ أهَرَ التَّرْغيبْ بن إلكو وكان أهل بيته هم الذين يتولون نقل السلطنة من موضع إلى موضع ، ويتولون تخير من شاءوا للسلطنة فجمع العلماء وأهل الرأي ....ومن سائر القبائل التابعة لهم فذهبوا إلى بيت فِهْرُ بن الإنصار وابتدأ العلماء والقراء في الدعاء له كما هو عرفهم في ابتداء التأمير فثارت سحابة من السماء ولم يفرغ الناس من شئون تأميره حتى جاءهم الغيث المربع ، وكان ذلك ابتداء خصب جبر كثيرا من الخلل الواقع قبله ، فلما علم لاوَيْ بخلعه استراح بعد ما أطال العتاب والتهديد ولم يلتفت إليه أحد ولم يصل أذاه إلى أحد .

فِهْرُ بن الإنصار بن النابغ بن كَاوتَامر فهر في حدود العشرين من القرن الرابع عشر بعد ما تفرقت المملكة وتشتت القبائل وانضاف كثير منهم إلى فرنسا وجعلوا منهم أمراء مستقلين عن إمارة إولِمّدن وبقي كثير من القبائل في تبعيتهم ، فسار إلى كَاو واجتمع بالقائد الفرنسي وتصالحا وأمنه الفرنسي وتتابع الناس إلى تلك المصلحة فاطمأنت البلاد وأمرعت وسكنة الفتن وعاد إلى الناس كثير من مجدهم وحمد الناس سيرته ، وكان شجاعا شهما بطلا ، ثم ثبتت دار المحكمة الفرنسية في مَنَكَا فحكمت عليه وحكمته في كل من في ذلك البلد من القبائل بعد ما كان جلها تحت أنسنكُ ، وكَاوَ ، ومن الباقين معه تَهَبَنَتْ وأتباعهم ، ثم اختاروا الانحياز إلى أصدقائهم من السودان الذين في أرض تَلاَبير فغضابهم حاكم مَنَكَا الفرنسي ، ثم سيرهم إلى أصحابهم الذين اختاروا مجاورتهم فبقوا كذلك إلى الآن ، ومركز حكمهم في أيَرُ آخر أعمال نيجر من جهة مالي ، هذا ولما تمت إمارة فهر على القبائل التي تحكم عليها مَنَكَا حالا مكث أعواما

يؤدي يسيرا من الغرامة إلى حكومة فرنسا ، ثم ساء التفاهم بينه وبينهم لكثرة السعايات حتى كان آخر أمره أن نقض الصلح بينه وبينهم فتبعه جل القبائل على ذلك وتخلفت فئات داموا على حفظ عهدهم مع بقاء بعضهم على السنة ، ولم يتركوا محاربة النصارى إلا لضعفهم ، وبعضهم لما تخلف عن نقض الصلح كان معهم على إخوانه الناقضين فأضرمت البلاد وامتلأت بالفتن عام 1334هـ ولم يزل الأمير فهر محاربا لهم ولمن يعاونهم وجرت أمور يطول الحديث عليها ، غزا أهل فلنك من السودان لكونهم مع فرنسا فهزمهم ، ثم هزمه فرنسا الذين معهم ، ثم رجع إلى منزله بأضَرَنْبُكَرْ فاجتمعت إليه قواد فرنسا معهم العدة العظمى من أنواع السلاح الغريبة المدمرة من بعيد ، وليس مع فهر وحزبه إلا قوة الجأش والصبر الأنفة السيوف والرماح ، فلما التقوا بالفرنسية أرسلوا لهم الرصاص والبنادق من مسيرة ميلين أو أكثر فهزموهم هزيمة فظيعة كادت أن لا تبقى منهم بقية ، وصار ذلك اليوم يوما يؤرخ به ، فلما هلك من هلك ونجا من نجا طلب الناس من الأمير فهر أن يعاود إلى مصالحة فرنسا ، فقال : لهم لا أعيش في أمانهم أبدا ، فذهب في يسير من عياله وساق إبله أمامه مشرقا ، فلما بلغ أرض أكَيْدُ منتهى الجدود بين طاوَ ، ومَنَكَا فاجاه جيش أهَكَّارْ وكانوا عونا لفرنسا على محاربهم فقاتلهم قتلا شديدا بإرسال الرصاص الخارج من البارود حتى علم بعضهم أن الحديد لا يؤثر فيه فاتخذ بندقة من خشب وجعلها في البارود وصنع لذلك صناعة يعرفها أهلها فرماه بها وأصابته ومات منها وكان آخر سلاطين إولمّدن الأحرار ، ثم كانوا كسائر الناس الذين تحت حكم فرنسا إذا مات الأمير قام قومه وتخيروا منهم من يقوم مقامه فيأتوا به إلى الحاكم الفرنسي فيمضي فعلهم .

الفصل التاسع

في ذكر إمارات إولَمَّدَنْ الواقعة بتبع فرنسا

إمارة أكَرَّكَرْ بن كَرِكَر

أول أمير أمره فرنسا من إولمّدن أكَرَّكَرْ بن كَرِكَر من ذرية النابغ ، مدة إمارته سنتان ، ولم ...آثاره ولا الأخبار عنه .

تَقَنُّتْ بن فهر بن الإنصار

لما مات أكَرَّكَرْ تأمر تَقَنُّتْ بن فهر فأساء السيرة فعزله فرنسا بعد أعوام وأمروا ابن عمه تَلْجَاتْ بن الخَجَابْ فمكث في الإمارة نيفا وثلاثين سنة ، ثم قام أمر إرْدِيَا فتخلف عن إجابة حزبه فسار إليهم هَمَتُ بن فهر فقربوه وصار الأمر إلى أن بعض الناس يقول هو الأمير ، وبعضهم يقول لم

يزل تَلَجَاتْ أميرا وأيا ما كان فقد انقطع حكمهم الحكومي على كل أحد بسبب مالي ...وانقطع حكمهم المستقل بسبب فرنسا ، والملك لا يدوم إلا لله وحده .

ومدّتهم من كَرِدَنَّ إلى آخر أيام فهر لا تقل عن ثلاثة قرون .

الفصل العاشر

في إمارات من سوى بني كَرِدَنَّ الغربيين من إخوانهم الشرقيين ومن قبائل غيرهم من أموشاغ (بنوا كَرُظَ) لما خرج كَرُظَ جد كَلْ نَانْ عن ابن عمه أمَّا، ويقال كان افتراقهما في أرض تِكِرِرْتْ من أعمال مَنَكَا ، شرّق إلى بعض القبائل النائية وتبعه من تبعه من الرعايا واستعان بأمراء آير حتى حصلت له إمارة ...خارجة عن إمارة ابن عمه ، وذلك مبدأ إمارة دنك من إولمّدن ، ثم حمد الناس سيرتهم فهاجر إليهم بعض القبائل التي تحت حكم إخوانهم ، وممن هاجر إليهم فرقة من العرب يقال لهم المشاكرا ، وكانوا ذوي عدد وأولي بأس وفيهم الأنفة لكن خضعوا لقوة إولمّدن فكانوا يودون إليهم الخراج نياقا أو خلا وما شاء السلاطين ، ثم ...التفاهم بينهم وبين الإنصار بن النابغ فخرجوا عنه إلى دنك ، وكانوا تابعين لحكم كَلْ نَانْ من إولمّدن وخرج إليهم من غير هؤلاء قبائل من المساكين أهل الرعاية ، ورأيت بخط بعض العلماء أنه — أي كَرُظَ — لاذ بشريف جليل القدر مسموع القول يقال : له أسامة فعممّه وأمره على بعض القبائل ودعا له بالنصر والغلبة فاستجيب له في وفي أهل بيته بعده ، وذلك الشريف هو جد قبيلة أشّرِيفَن الذين في طاو وإنْكَلْ وهي قبيلة مشهورة بالصلاح والفضل والعلم وأتباع السنة فلما تم الأمر لكُرظَ قامت الحرب بينه وبين بني عمه الذين في غربيه ودامت تلك الحروب والفتن إلى أن قام أمير محمد الجيلاني من قبيلة أتْواري فاستتبع من شاء الله من الرعايا فقام برسم جهاد أهل الضلال والبدع وتقوّى بآل فودي أمراء سكت فاتخذ جندا وحارب به رئيس آل كَرُظَ فغلبهم بعد كيت وكيت فراسلوا إخوانهم الغربيين الذين كانوا يحاربونهم وصالحوهم ليستعينوا بهم على جنود محمد الجيلاني ، وكان أمير الشرقيين إذ ذاك خَتُّوتُ ، وأمير الغربيين كَاوَ فقام الأمير كَاوَ بنصرتهم لقرابتهم منه ولخوفه على بلاده من جنود الجيلاني وغيظه عليهم فخرج بنفسه قائد جيوش إلى تلك البلاد فمات في تلك الغزوة ثم لما تأمر بُضَالْ بن خَتُّوتُ قامت الحرب والغارات بينه وبين بني عمه الغربيين أيضا فكانت بين الفريقين وقائع أشهرها وقعة تَلاتَيْتْ ، التي جرح فيها سلطان الغربيين النابغ بن كَاوَ وفي بعض المنافذ فاستعظم أهله ذلك ثم انهزموا أمام العدو وحملوه على

السرير حتى مات في ساحل إغَشَرْ سَدِيدَنْ بموضع يقال له تَفَ أَبَيُغْ ودفن هناك ، ويقال إن قائد ذلك الجيش الذي قتله موسى بن بضال فلما مات أخذته الحمية وطلب قاتله ليقتله فإنه ما أراد موت ، بل غلبته ، ولما رجع موسى إلى أبيه بُضَال وتحقق سلامته لم يسأله عن شيء أولا إلا عن سلامة النابغ فلما سأله سكت وأطرق ففهم السائل المسئول عنه مات فأنّ أنّة ثم ...لابنه قتلتني حين قتلت ابن عمي فلا أعيش بعده أسفا وحزنا فأعرف ما صنعت فإنك قتلت أحد أبويك في تَلاَتَيْتْ ، وقتلت الأخر هنا يعني نفسه ، ولما مات بُضَال خلفه ابنه موسى فكانت بينه وبين إخوانه الغربيين غارات وحروب وأنشدت في ذلك أشعار كثيرة تدل على موا...أهلها في تلك الحروب ونجدتهم ، وبسالتهم وما ينالون من أعدائهم ، وناهيك بتلك الأشعار جودة وبلاغة في اللغة التارقية التي أنشئت بها وهي محفوظة في صدور رواتها إلى الآن ثم مات موسى وخلفه محمد بن الكُمَيْتِ ، وكان رجلا صالحا دينا فطلب إطفاء تلك النيران واجـ...الإنصار بن النابغ وتصالحا واستقام أمر البلاد وعمها الأمن والخصب والراحة وجال التجار بضاعهم لا يتعرض لهم بسوء ، ثم نشئت ناشئة من الغربيين وكان ما كان حتى أثاروا بعض الحروب ليعيشوا بما يغيرون عليه من أموال أهل دنك فوقعت وقائع بين الفريقين وآخرها وأشهرها وأكبرها وقعة مَنَكَا التي كانت في عام خمس أو أربع بعد الألف وثلاث مائة 1305هـ ومات فيها دُرَّةَ بن الأمير الإنصار ، وكثير من أتباعهم فانهزمت جيوش الإنصار وامتلأ الناس رعبا وساق أهل ما شاء الله من الأموال وسبوا المماليك ، ولم يتجرأ أحد من أهل القوة على أن تبعهم وأيس الناس مما ذهبوا به ومما جرى بين محمد بن الكميت وبين أهل بلادنا أنه لما ذهب جيشه وهاب أهل القوة أن يتبعوه ، قام رجلان أخوان من أهل العلم والفضل وهما عمنا الميمون أبنا أحمد وكانا معروفين في بلد دنك ولهما تلاميذ هناك ، ولهما قرابة من السلطان محمد بن الكميت فتوكلا على الله وتوجها إلى محمد يستشفعان بقرابتهما وفضلهما وعلمهما فلما أتيا إلى محمد أكرم مثواهما وا..يهما بالتبجيل فمكث عندم ما شاء الله ثم أخبراه أنهما يريدان أن يرد عليهما ما غنم جيشه من أموالهما ومن أموال من ي جوارهما ، وكان بتبعيتهما كان من أهل الأموال المنهوبة يستشفع بهما ، فقال لهما الأمير محمد إني ما أخذت شيئا من أموال بلادكما إلا بفتوى علماء بلدي فلأجمعنكما بهم ، فإن تبين أن ما أخذه الجيش حلال لهم فلا سبيل لي إلى...منهم ، وإن تبين أنه ليس لهم فسأرد عليكم ما لم يفت ، فجمع علماءه وذاكروا ضيفيه

حتى تبين أن الحق مع الضيفين فرد عليهما من أموال أهل بلادهما ما لم يفت ، ومحمد هذا لم يزل أمير حتى تغلب فرنسا على بلده ، وتحت حكمه من قبائل : إمَزْوَغَنْ ، وإمْغَادْ ، كثيرا ثير لا يحصى منهم إيجوَنْجوَتَنْ ، وإزَاوتَنْ ، وغيرهم . ومن أتباعه من إمُوشَاغْ : إرولَنْ ، وإخِرْخِرَنْ ، وتَكَرْمَتْ ، وتَلَّمْ إدِسْ ، وفي حكمه أيضا قبيلة أشَّرِيفَنْ . وأما أهل أغْلالْ ، وأتَّوَارِي وأتباعهم فلم يدخلوا تحت إمارته مثل دخول غيرهم من قبائل إيَنْكُورِيَنْ بل لم يزالوا طائفة قوية متدنية ينفذون ما أرادوا من الأحكام على أهل بلادهم وينكرون مناكير إمُوشَاغْ غير خاضعين لهم ، بل حكموا عليهم في بعض الأوقات كأيام محمد الجيلاني وجرت بينهم وبينهم حروب حتى أيسوا من إخضاعهم واستتباعهم وسلموا حريتهم ، وكانوا مستقلين بأنفسهم يتخذون من أنفسهم ألقاب السيادة كالإمامة العظمى والقضاء وغير ذلك ، ولم يزالوا على ذلك من عهد قديم من منذ زمان أسَحُو الذي جعله زعيم أشَّرِيفن في زمانه أميرا على الجماعة ودعا له بالنصر والبركة ، ثم زمان ابنه الشيخ عبد الكريم والد محمد المؤمن إلى وقتنا هذا ، وكان إمامهم في الوقت الحاضر محمد بن محمد المؤمن خلافة عن ابن عمه محمد بن شافع الذي أقامه عمه محمد المؤمن مقامه بعدما أضعفه الكبر ، وفيهم الآن جماعة من أهل الفضل منهم محمد إبراهيم بن محمد المؤمن ، وكان معتنيا بالتواريخ ، ويدون أخبار الأجانب فضلا عن أخبار قومه ، فمن أراد التاريخ المفصل لجماعته فلينظر إلى ما كتبه وإلى ما كتبه أصحابه الناهضون بنهوضه .

إمارة إولَمَّدَنْ الذين في دِنَّكْ بعد تغلب فرنسا .لما مات محمد بن الكميت الذي هو الرئيس العام حين الهجوم الفرنسي تنازع ابن عمه الخُرَيْر وابن أخته إسماعيل في إرثه فجرت بينهما حروب ، وذهب الخرير إلى آير واستنجدهم فأنجدوه بجيش وغزا به أرض صاحبه فصنعوا بهم ما قدر لهم ، ثم استعان الأخر بفرنسا فغزا صاحبه ومن معه بعسكر فرنسا ، وكانا كذلك مدة ، ثم خلص الأرض للخُرير وأقام أميرا حاكما محكوما عليه من جهة فرنسا ، ثم قام أهل البلد جميعا ينقضون الصلح الواقع بينهم وبين فرنسا فأضرمت الفتن بين الفريقين ، فريق أهل البلد وفريق فرنسا حتى هاجر بعض أهل البلد إلى كَوسَنْ رجل من قبيلة إكَظْكَظَنْ من أهل آير كان يقاتل عساكر فرنسا على رسم الجهاد بمدد أمده به سلطان أستنبول وادبل على العساكر الفرنسية في بعض الأيام فظن الناس أنه يستطيع مقاومة القوات الفرنسية فسارعوا إلى الانضياف إليه ليغيثهم ويعينهم ، ثم هزمت جيوش كَوسَنْ فانفضت الجموع القاصدون له وتمكن

فرنسا من التنكيل بمن خرج عنهم إلى تلك الجماعة فرجع أهل دنك إلى أوطانهم التي تغلب عليها المتغلب برسم الانقياد والخضوع ومراجعة الصلح ، فصارت إمارتهم إمارات عديدة ، كل منها مستقلة ، وإمارة إروَلَنْ من القبائل نحو أربعين أو أكثر ، وإمارة إخِرْخِرَنْ ولهم أتباع كثيرون ، وإمارة المُشَاكَرَا وبتبعيتهم قبائل من ...وشيئ من قبائل التوارق ، وأما إمارة إكْدَلَنْ ، وإمارة تِلَّم إدِسْ ، وإمارة أهل أغْلاَلْ وهي أكبرها وأكثرها علما ، وإمارة كَلْ نَانْ وهم قوم الخُرير ، فلما رجع الناس إلى مصالحة فرنسا وكان الأمير الخُرير ابيا من ...أنف أن يعيش تحت حكم أحد فلم يرجع حين رجع الناس ، بل سار في الصحاري قاصدا إلى جهة ..فاتخذ الناس الذين يتبعونه أميرا من تَكَّرْمَتْ يقال له مَطَفَ فقام مقامه في الملك فسار بسيرة فيما بينه وبين أمرائه من فرنسا وفيما بينه وبين رعيته ودام كذلك مدة نيف وثلاثين سنة ثم ساء التفاهم بينه وبين فرنسا في سنة 1369هـ فانتهز بَاظ بن الخُرير ذلك فرصة فا...إلى الحاكم الفرنسي في طَاوَ وأسعفه بما امتنع مَطَفَ من إسعافه به واتفقا على خلعه وأقام سلطان فرنتا بَاظ مقامه لأنه المستحق لإرث أجداده ، وهذا الرجل ما صار إليه الملك من جهة الوراثة بَاظ في الملك سنين ، ثم مات وخلفه أخوه محمد عام .. وهو عام 1395هـ . هذا خبر إمارة كَلْ نَانْ على وجه الاختصار .

وأما إراولَنْ فكان منهم رجل ذوا قوة وشجاعة ودهـ...يضرب به الأمثال وهو الغِمَارَةْ بن خَليل لا يتغرض له أحد في زمانه من شدة بأسه ، وكان له قصص غرام وأنشدت الأشعار في حروبه وغلبته لمن يغالبه ، وكان من أمره أنه لما رجع أهل بلاده إلى مصالحة فرنسا بعد هزيمة كَوَسَنْ أنف عن الانقياد إليهم فهام على وجهه يتتبع القبائل ويغير مع بعض على بعض دأبه أن يحارب بعض القبائل وحده حتى يغلبهم ويسالموه ثم يصير معهم على عاداهم ، كان مرة مع آير ومرة مع إهَكَّارْ ، ومرة مع أهل الساحل من أهل تَفِلَلَتْ ، فكان كذلك متغربا عن أوطانه حتى بدا له أن يرجع إلى بلاده فقصد سلطان قواد الفرنسية في زَنْدَرْ حتى هـ...عليه فسأله الفرنسي عمن هو ، فقال له أنا الغِمَارة الذي تسمعونه ، وتطلبونه ، فكذبه ، ق...لا يجترئ على أن يأتيني ، فقال له أنا هو ، فافعل ما شئت ، فأراد الفرنسي أخـ...فسجنه ولبث في السجن ما لبث ثم أتى إلى الفرنسي فقال له إنني أتيتك اليوم لحاجة ...من قضائها ، فقال له ما هي فقال له الغمارة هذه العسكري الذي يتولاني في السجن يسـ...ويغضبني وأريد أن تخلي بيني وبينه حتى أصارعه ، فقال

له الفرنسي لا سبيل إلى ذلك لأني أضر بك ، وذلك العسكري لا يقاومه أحد ، بل وزنا قوته بقوة رجال فنفس لقائك إياه تهلك ، فقال الغمارة ذلك أحب الأشياء إلي ، فلم يزالا كذلك يراوده التارقي ويمانعه الفرنسي حتى غلب التارقي والعسكري في أثناء ذلك يمتلئ غيظا ويمتعص ، فأذن لهما الفرنسي في الصراع فتصارعا فضربه الغمارة الأرض فمات ، فتعجب من كان يعرف ذلك العسكري ، ثم قال له سلطان القواد إن في هذه البلاد قبيلة يقال لها إكَرْدَنْ كانوا ذوي شدة وبأس يتمنعون بالصحاري والجبال ، وكانوا يفسدون فأعجزوا الحكومة فهل تستطيع أن تقود جيشا وتذهب إليهم حتى تأتيني بهم أو بأموالهم ، فقال له الغمارة نعم ، فأرسل معه جيشا وغزوا أولئك القوم فلما سمعوا بهم هربوا فخالفوهم إلى أموالهم فاستاقوها ، ثم رجع الأعداء إلى منازلهم فساروا في أثر مواشيهم حتى لحقوا بمن ساقوها فاشتد القتال بين الفريقين حتى هزم العسكر الفرنسي فتحيل الغمارة وكمن للعدو وغاب خبره عن أصحابه العسكريين فرجعوا إلى سلطانهم وأخبروه أنهم لقوا العدو فحاربوه ، ثم هزمهم فسألهم عن الغمارة فقالوا له مات . وأما الغمارة فلما علم أن أصحابه إنهزموا ورجعوا إلى بلدهم برز إلى رعاة الإبل وحده فاستاق منها ما شاء الله ثم بلغ الخبر إلى أهلها فطلبوه حتى قاربوه وظنوا أنه لا يراهم وهو قد رآهم فنزل ونزلوا بمكان قريب منه ليبيتوه فاحتال لهم بأن فرق بين الأمهات وأولادها فعقل كثيرا من أمهات ، وذهب بأولادها فجعلت تصيح وترغو طول الليل ، والأعداء يسمعونها وينتظرون الصبح بإغارتهم ، وهو قد سار بالإبل الليل ولم يزل يشتد ويسوق حتى بلغ إلى مقصده حيث كان السلطان الذي أغزاه فدخل عليه فأنكره وقال له ألم أسمع أنك متّ فقال له بل سقت إليك إبل إكَرْدَنْ وهاهي ذه بفنائك فخرج الفرنسي فرأى إبلا راعته فقال له من معك ، فقال له الغمارة وهل معي إلا الذين هربوا إليك قديما ، فتعجب الفرنسي وأعجب بما رأى فقال له هل حاجة تسرك كما سرتني هذه فقال له الأمن والرجوع إلى الأوطاني ، فقال له ارجع إلى وطنك حاكما على كل تارقي ، فلما وصل إلى بلاده برسم الإمارة العامة حسد وسحر فمات ، وتأمر بعده القاسم بن هِمَّ ، وخلفه الغانم ، ثم مات وخلفه بَدْرٌ بن هِمَّ ، ثم مات وخلفه أبَرَضْ بن القاسم وهو حي في عام 1395هـ وبتبعيته كثير من القبائل .

وأما إمارات إكَدَلَنْ ، وإخِرْخِرَنْ ، وتَلَّمْ إدِسْ فلها قوم يؤرخونها تفصيلا .

أما مملكة بني آلآد فانقسمت أيضا إلى إمارات كثيرة ، وهي : تَنْكَرَإكِفْ ، إركَنَتَنْ ، كَلْ

تَمُولَيْتْ ، ولم أعرف منهم كثيرا فيما قبل فرنسا .
أ ـــ أما كَلْ تَمُولَيْتْ : فجدهم أُغْمَرْ بن آلأدّ سمعت أنه قائد جيوش في أيامه ، وأيا بعد وصول فرنسا إلى البلاد ودفاع الناس لهم عن الأوطان ، فمن المشهورين بدفاعهم ، وقتالهم شَبٌّ بن فَنْدكُمْ أمير تَنْكَرإكِفْ ، والإرَكْنَتَنْ معهم يوم تَهْتَسْتْ ، وفيه مات بعض ساداتهم وهو موسى بن كَرِكْيْ من إرَكْنَتَنْ ، أما إرَكْنَتَنْ فوصلت إلى بلادهم في عام 1391هـ فسألت عن أمرائهم فأخبرت أن أمير إرَكْنَتَنْ في ذلك الوقت الميمون بن البكاوي بن غَلِيٌّ بن المسبوق بن كَسْكَسُ بن يوسف بن إنْتَقَدْ بن إلْبَاكْ بن آلأدّ ، وجده إنْتَقَدْ هو الجامع لجميع إرَكْنَتَنْ وأبوه إلْبَاكْ هو الجامع بينهم وبين أهل بُرُمْ ، وأهل بُرُمْ أسود ، وأبيض ، وأمير البيض في ذلك الوقت إبراهيم بن يونس ، وأمير السود تقي بن الضَّيْغَمْ . وقبائل إمُوشاغْ التابعة لإمارة إرَكْنَتَنْ منهم من كان من بني ألأدّ وهم كَلْ تَكِولَتْ ، والجامع بينهم وبين إرَكْنَتَنْ ألأدّ نفسه ، وأميرهم حينئذ... سِيلَ بن موسى .
ومنهم من ليس من بني ألأدّ وهم خمس قبائل :
1 ـــ إهَنْ إسَطَفَنْ ، وأميرهم الشيخ بن موسى .
2 ـــ تَكَرْبُكِتْ ، وأميرهم كَنَلٌ بن محمد .
3 ـــ إمَزْغِرَسَنْ ، وأميرهم مُلْهَا بن سَعْدُ .
4 ـــ إيدَغْوَنَنْ وأميرهم ابن وَرَمَّنْدَنْ .
5 ـــ إمِيهَلَنْ ، وأميرهم سيد بن مخمد .
ويتبعهم من قبائل البيض سوى إمُوشَاغْ ، إمْغَاد ، وأكبر قبائلهم إهَيَوَنْ نَضَغْ ، وهم فرق فيهم أمراء زهاء عشرة أشهرهم ثلاثة :
1 ـــ عماد الدين بن أشَّمَسَنْ . 2 ـــ والْمَلْهَا .
3 ـــ وأحمد بن بَدُ .
وقد لقيت بعضهم في عام 1391هـ فأخبرني أن أصلهم من إفُوغَاسْ كِدَالْ .
ومن قبائل إمْغَادْ :
2 ـــ أكْتَفْ ، وأميرهم رضوان
3 ـــ تَضْوْ ، وأميرهم غيسى .
ويتبعهم من قبائل إنَسْلَمَنْ : إفُوغَاسْ ، وأميرهم محمد أحمد بن علي .
ويتبعهم كثير من السود
ب ـــ وأما تَنَكَرإكِفْ : فجدهم أحمد بن ألأدّ ، وفيهما أميران ، أمية بن

أشَيبان بن أوَّاب ، ومُرادِس بن الدَّغِيب بن شَبُّنْ ،.
ويتبعهم من بني ....إبَطْوَنْ ، وأميرهم محمد الأمين بن أبي بكر .
ومن قبائل إمُوشاغ من غير بني ألآد خمس وهم :
1 ـ تَلَّم إدِسْ ، وأميرهم عبد الله بن عثمان .
2 ـ وأرْكَسلِكِ ، وأميرهم أحمد بن تريسكِنْ .
3 ـ وإهْمَدْ ، وأميرهم إنْزَكْ .
4 ـ وثلاخ ، وأميرهم غمر بن همَّ .
5 ـ وأنيكَرْ ، وأميرهم أكَّ بن غمر .
جـ ـ أما كَلْ تَمُولَيْتْ : فجدهم أغُمر بن آلآد ، وأميرهم في ذلك الوقت تُوخَ بن إفستَنْ ، وليس معهم شيء من بني عمهم .
ومعهم من قبائل إمُوشَاغْ غير بني عمهم : كَلْ تَبُورتْ . ويتبعهم كثير من السودان وقليل من إمْغاد .
هكذا أخبر من سألته عن القبائل ولم أزر بنفسي واحدة منها فالعهدة على المخبر .
وقيل إن إمارة بني آلآد كانت أولا على قسمين فقط : قسم إركَنَتَنْ ، وقسم كَلْ تَمُولَيْتْ ، ثم صارت إمارة إركَنَتَنْ إلى تَنْكَر إكِفْ ، فاغتصب إركَنَتَنْ إمارة أهل تَمُولَيْتْ ، وكان الأمر على ذلك إلى التغلب الفرنسي فصارت الإمارات ثلاثا ، واسترجع أهل تَمُولَيْتْ إمارتهم ،فكانوا إمارة مستقلة ، وكل من تَنْكَرإكِفْ ، وإركَنَتَنْ مستقلة كذلك . والله أعلم .

الباب الثالث

في الكلام على الجيل المسمى بلسان العرب أهل السوق وبلسان التوارق كَلْسُوكْ

وفيه تسعة فصول :

الفصل الأول

في معنى الاسم ، وأصله ، واطلاقاته الأخيرة اعلم أن معنى هذه اللفظة وأصلها سكان الموضع الذي يقال له بلسان التوارق أسُكْ ، وبلسان العرب السوق ، وهو موضع بقرب كِدَال كانت فيه مدينة كبيرة تسمى تَادَمكة وتلك المدينة على ما اتفقت عليه كلمة أهل العلم من أهلها وأهل السياحة في الأقطار من غير أهلها هي قاعدة لما بين آير وبلاد موريتانيا من السكان البيض كما أنها هي القاعدة لما بين أهكَار من جهة الشمال وبين بلاد السودان من جهة الجنوب وإليها ينسب كل من كان تحت حكم أهلها سواء كانوا قريبا منها أو في غاية البعد عنها من أي جهة من

الجهات التي تكتنفها وهم أمم تفوت الحصر وأجيال لا يجمعهم اسم واحد إلا أهل تادمكة ، وفيهم لهجات مختلفة وإن كان أصل لسانهم متحدا ويقال أصلهم صنهاجة من قبائل البربر أو العرب المتبربرة ، ثم انتقل إليهم كثير من قبائل البربر من جهة المغرب ومن جهة الجزائر ومن جهة ليبيا ، واختلط الكل وتكونت منهم إمارة عظيمة ، ثم انتقل إليهم كثير من العلماء والشرفاء والأنصار حتى صارت منهم قبائل عديدة ينتمون إلى الشرفاء وأخرى ينتمون إلى الأنصار وازدهرت تلك المدينة وسار أهلها بسيرة أهل الصدر الأول حتى لقبت بمكة الجديدة من شدة تشبه أهلها بالسلف الصالح وقد تقدم الكلام على المدينة وأهلها في الباب الثاني ، ولما خربت المدينة وانتشر أهلها في الصحاري التي يسكنها غيرهم من أصحابهم إنتسب كل قوم إلى المواضع الذي يسكنونه وقت الشتاء والصيف وتركوا الانتساب إلى الوطن الأصلي وهو السوق حتى نسي انتساب الجل إليه وبقي الانتساب إليه مخصوصا بمن يسكن في قربه من أهله ، ثم صار أهل السوق في القرون الأخيرة لقبا مختصا بالمتعلمين لا يشاركهم فيه غيرهم ولو كان مشاركا لهم في أصل النسبة إلى أرض السوق ويشاركهم فيه كل متعلم ولو عبدا أسود ، وأصل اختصاص الاسم بالمتعلمين أن العلم انقرض في البلاد القريبة من السوق وتمسك أهله بما لم يتمسك به غيرهم من العلوم والديانات ، ولم يزل الأمر كذلك حتى صار اسم السوقي حقيقة عرفية في المتعلم أو مرادفا له عند بعض الناس وعند بعضهم لقبا على قبائل مخصوصة ، ويقال إن أصل اختصاص اسم أهل السوق بالقبائل التي يطلق عليها في العصور الأخيرة ، إن بعض السلاطين لما تغلب على القبائل التي يحملها في عبارات المتقدمين اسم أهل تادمكة وكان رجلا صالحا محبا للخير وأهله جمع أهل العلم من كل قبيلة فأخبرهم أنه لا يحب السلوك إلا على قنون الشريعة ، ولكن لا يعرف معالمها فيريد منهم أن يبينوا له حدود الشريعة ويعاونونه على إقامة رسومها ما استطاعوا بأن يرشدوا عامة الخلق إلى الطريق القويم فمن أطاع خلى سبيله ومن أبى قهره على الامتثال ، وذلك السلطان بالغ الجهد في تعظيم أهل العلم ورفع أقدارهم فوق غيرهم والاقتداء بهم ولانقياد لهم فأمر ببناء المساجد والمدارس من كل قرية وحي وجعل يأخذ من العامة شيئا من الغرامة يقيم به شوؤن جنده ورعيته ، وإنما أباح أخذ ذلك من أموال الناس لفقدان بيت المال عندهم واحتياج جنده قضاته ومدرسيه إلى ما يقوم بمصالحهم ، ومن سيرته أنه أمر عماله أن لا يأخذوا المغرم من أهل العلم إكراما لهم وتعظيما ولأنهم من العمال

الآخذين فلا يكونون من المأخوذ منهم كما لا يأخذونه من أهل الدفاع فصار دفع الغرامة في أيامه مختصا بأهل الأموال الذين لا يتعلمون ولا يدافعون عن الأوطان ، ولما رأى الناس بعد مدة ما خص به السلطان أهل العلم من الكرامة وما اسقط عنهم من الغرامة بادروا كلهم إلى بناء المساجد والمدارس كل قبيلة اتخذت مسجدا ومدرسة فلما طاف جباة الغرامات في القبائل وجدوها كلها متصفة بالوصف الذي نهاهم السلطان عن قرب أهله فرجعوا إليه بلا شيء وقالوا لم نر أحدا إلا موصوفا بالوصف الذي حذرتنا من قرب المتصف به ثم شكوا إليه ما يئول إليه حال البلد إن لم يغير ترتيبه المذكور ، فإن الجند المدافع إذا لم يرتزق من غير كسب اشتغل بالكسب لمعاشه عن الدفاع فيختطف الأعداء من كل جانب الوطن ، وإذا لم تأخذ شيئا من المعلمين والمتعلمين وصار الناس كلهم إما معلما أو متعلما فمن أني تأخذ ما يقوم به أمر الجند إذ ليس لأهل الصحراء بيت مال تنتظم به أمورهم إنما يعيش مدافعوهم مما ينالوا من أهل الأموال الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم وأموالهم فلما سمع من مقالهم تفكر وجعل يردد فكرته فيما يجمع به بين ترتيب الجند الذي لا غنى للبلد عنه وبين ما أمر به من إسقاط المغرم عن أهل العلم بعد ما اشتغل جميع العامة بالإقبال على التعلم فما زال يردد فكرته ويراجع نفسه حتى أنتج له حسن طويته حيلة تتخلص بها ، وهي أنه عمد إلى إبله فأخذ منها بكرات بعدد قبائل رعيته ووسمها بسمات القبائل بعد ما أشهد عليها أنها من إبله ومن ملكه كل بكرة عليها وسم قبيلة ، ثم أمر الرعاة بسوقها إلى الإبل فتركها حتى برء أثر الكي ونبت الشعر مكانه ثم أمر بإحضارها كلها فلما حضرت أمر عماله بالطواف بها على القبائل على رسم أنها ضوال ظفروا بها وأخذوا يبحثون عن أربابها وأمرهم أن لا يخاصموا فيها أحدا بل يسلمونها لكل من ادعاها فامتثلوا كل ما أمرهم به وطافوا على أهل المساجد وكلما أتوا قبيلة وجدوا رجالها مجتمعين ي مسجدهم فيسلموا عليهم ، ثم يعرضون عليهم البكرة التي عليها وسمهم ويسألون عمن يعرفها من الجماعة فإذا فعلوا ذلك قام بعض القوم وادعاها وشهد له أصحابه أنها ملكه فيتركها له العمال كما أمروا ، ثم يمضون إلى مسجد آخر فيعاملون أهله بما عاملوا به من قبلهم فيفعلون كما فعلوا فما زالوا كذلك مع الناس حتى أتوا إلى مسجد الجماعة الذين ينتمي إليهم من بقي عليهم اسم السوق في العصور الأخيرة وهو مسجد جامع لرجال من شعوب شتى ولكن وجدهم إخلاص النية لله تعالى جلهم من أصل عربي قرشي وأنصاري وبعضهم من أهل البلد الأصليين ولكن طالت

مجاورتهم ومناكحتهم لأولئك الشرفاء والأنصار حتى اختلطت دمائهم وامتزجت واتحدت قبيلتهم واتفقوا على لتمسك بالدين وتعلمه وتعليمه حتى اشتهروا بذلك من دون سائر من سواهم وتأدبوا بآداب الصوفية في جميع أحوالهم وضيقوا على أنفسهم في كثير من الزهد والورع والقناعة والتوكل والاجتهاد في طلب الحلال فأنتج لهم عملهم مغايرة غيرهم من إخوانهم الذين لا يعملون بمثل أعمالهم حتى صاروا من بين إخوانهم كأنهم جيل مستقل لا يرضى مخالطة غيره ولو كان أمس قرابة وبالغوا في مخالفتهم حتى انفردوا بوسم يخصهم ، فلما وقف عمال السلطان الذين معهم البكرات على الجماعة الموصوفين بما ذكر وهم في مسجدهم يتذاكرون العلوم سلموا عليهم فردوا عليهم السلام ثم قالوا لهم هذه بكرة عليها وسمكم فخذوها فقالوا لهم حاشا لله ما منا من يعرفها فجاء الرعاة يراودوهم على أخذها تثبتا لحقيقة حالهم وهم لا يزيدون إلا تأبيا فلما أئسوا منهم انصرفوا بالبكرة إلى ربها فقصوا عليه جميع ما رأوا من سائر القبائل التي أخذت وسمها والتي لم تأخذه فلما سمع مقالتهم أمرهم أن يرجعوا في أثرهم ، وقال لهم ردّوا عليّ بكرات وخذوا من كل قبيلة بكرة مع التي أخذوها ، فلما جمعوا له النياق قال لهم وظفوا الغرامة على كل آخذ وأما القبيلة التي لم تأخذ وسمها فلا تقربوا هم إلا معظمين ولا تأخذوا من أموالهم شيئا أبدا ، فقد علمت أن هؤلاء المعرضين عن مال غيرهم هم المخلصون لله المستحقون للكرامة ، وأما غيرهم من المتعلمين فتبين أنهم مراءون وإن تعلمهم لاتقائنا لا لاتقاء الله فلما علم أهل المساجد الحادثة أن حيلتهم لا تنجيهم من السلطان أعرضوا عن التعلم ، والجماعة وأقبلوا على تثمير أموالهم وتنميتها ، وبقي أولئك المخلصون لا تضرب عليهم الضرائب ولا يطالبون بشيء من وظائف الإمارة . قلت هكذا أخذت هذه الحكاية عن الثقات الأكابر من سلفنا ، وكانت قريبة من التواتر بين السلف ينقلها الأخلاف عن الأسلاف مع عدم تعيين السلطان صاحب الحيلة ولا تعيين العصر الذي وقعت فيه ، والأقرب إلى ما وقفت عليه من النصوص أن هذه الواقعة كانت في أيام المرابطين لأن صاحب تاريخهم ذكر في كتابه المسمى (قيام دولة المرابطين) أن نفوذ المرابطين وصل إلى تادمكة في قلب الصحراء وأن من القبائل التي كانت تحت حكمهم قبيلة إنْتَصَرْ ، وقبيلة التواري . إهـ قلت وهاتان القبيلتان من تادمكة أحدهما موجودة الآن في قسم تنبكت والأخرى في قسم طَاوَ . إهـ وذُكر صاحب الممالك والمسالك أن جدالة ، ولمتونة ، وبني وارث هي التي قامت بعد الأربعين وأربع مائة 440هـ بدعوى

الحق ورد المظالم وقطع جميع المغارم ، وهم على السنة متمسكون بمذهب مالك بن أنس رضي الله عنه . إهـ وذكر ابن عذراء ما لفظه : قال بعض المؤرخين في المجموع المفترق ، وفي كتب غير ذلك أن بعد الأربعين والأربع مائة 440هـ قامت قبائل في الصحراء من صنهاجة يعرفون ببني وارث وخلفهم لمتونة ، وجدالة وهم يجاورن البحر ليس بينهم وبينه قبيل غيرهم وهذه الثلاث قبائل في ذلك الوقت مسلمون قاموا بدعوة الحق ورد المظالم وقطع المغارم وهم متمسكون بالسنة ، وكان الذي شرع فيهم ذلك ودلهم على أرشد المسالك عبد الله بن ياسين . إنتهى منه ص 11 من الجزء الرابع مطبعة دار الثقافة بيروت ، وفيه أيضا ص14 اجتمع لعبد الله بن ياسين جيش كثيف من لمتونة ، ومسوفة ، ولمطة . إهـ الغرض منه ، ومسوفة ، وبنوا وارث الذين ذكرهم قبيلتان من قبائل تادمكة على ما ذكوه ابن حوقل فإنه ذكر كثيرا من قبائل صنهاجة الذين كانوا بأرض تادمكة وذكر منهم بني وارث ، وبني مسوفا ، وكثيرا ذكرته في الباب الثاني . وابن حوقل توفي في القرن الرابع الهجري ، ونهضة عبد الله بن ياسين كانت في أواسط القرن الخامس فلما صرح المنتدب لتدوين أخبار المرابطين بأنهم حكموا على بلاد تادمكة ، وصرح ابن غذراء ، والبكري بأن بني وارث ، وبني مسوفة كانوا من جند عبد الله بن ياسين الذي هو مؤسس دولة المرابطين ، وصرح ابن حوقل بأنهم من قبائل تادمكة كانوا من أتباع المرابطين ومن قرأ أخبار دولتهم وأخبار شيخهم عبد الله بن ياسين وما لأهل العلم في أيامه من العز والمكانة عند السلاطين وتأمل حالة أهل السوق مع أهل بلادهم وأهل السطوة والسلطنة وجد من المشابهة بين الحالين ما يجزم بسبب اعتماده على أن أصل اختصاص السوقيين بالاسم المنفرد بهم مبدأه من ذلك الوقت وقد بقيت في أهل بلادنا آثار وعادات وتعبدات تشبه آثار تلك الدولة ، ودولة الموحدين بعدهم ، ومن طالع أخبار الدولتين تبين له ذلك ولكن التاريخ المفيد للقطع بذلك معدوم والله سبحانه وتعالى أعلم . ووهم بعض الرواة فأسند القصة المذكورة من وسم النياق ومكر القبائل بها إلى كَرِدَنَّ جد سلاطين إولّمّدن وذلك خطأ فاحش نشأ من جهل تاريخ إمارة كَرِدَنَّ فإن إمارته إنما كانت في أواخر القرن الحادي عشر الهجري ، وتسمية الجماعة المخصوصة باسم أهل السوق سابقة على ذلك القرن فقد رأيت خطا منسوبا إلى عم أجدادنا عالَّ بن محمد بن الغزالي فيه وصفه بالسوقي وهو من أوائل القرن العاشر ، وكذا رأيت في الخطوط القديمة أيضا أن أم الشيخ أبي الهدى سوقية وهو من القرن التاسع ، وفي

بعض أن أم بني علي بن يحي بن إبراهيم الدغوغي من أهل السوق وهم من أوائل القرن التاسع تقريبا ، فتحصل من هذا أن تميز أهل السوق بما لهم من المزايا على غيرهم سابق على إمارة كَرِدَنّ بكثير ، لكنه لما تأمر تقوى بهم وتقووا به ، وعمل أولاده من بعده على طريقته في برهم ، وتبجيلهم وتقديمهم فيما سوى الحرب وكانوا على ذلك مدة نيف على قرنين حتى جهل كثير من الناس أن قبل أيامهم شيئا يعتبر علمه إلا أيام وصول الإسلام إليهم على يد من نشر الإسلام في المغرب في القرن الأول الهجري .

الفصل الثاني

في تقسيم طبقاتهم

اعلم أن أهل السوق ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى : أهل البلد الأصليون الذين كانت أسلافهم في الوطن قبل الفتوح الإسلامية ، وهؤلاء لا يدعون لأنفسهم أن لهم أصلا عربيا وإنما يدعون السابقة في الإسلام والتمسك بالعلم قديما وحادثا ، وهم أمم لا تحصى ، جلهم تركوا التعلم رأسا فلم يتعلق الغرض بذكرهم لأنهم صاروا رعايا لا علم فيهم ولا ملك ولا دفاع ، ومنهم قبائل يتعلمون ......منهم انتصر في بلاد تنبكت وقبائل كثيرة من تلك البلاد يجمعهم لفظ إنَسْلَمَنْ ، وإكَلَّد ، وإفُوغَاسْ في بلاد كَاوَ وكثير من القبائل في بلاد طاوَ منهم التواري ، وكَلْ أغْلالْ ، وإزَاوتَنْ ، وإملّلَنْ ، وإجَوَنْجَوتَنْ ، ودَغْمِنّ ، ومنهم من صار إلى بلاد آير ، وهؤلاء لا يسمون في هذا الزمن باسم أهل السوق بل كل منهم يسمى باسمه الخاص وقل من يعرف أن لهم علاقة ببلد السوق ، وهؤلاء ضاعت سلاسلهم المتصلة إلى الأجداد الجامعين لهم إلى أن تتصل السلسلة بالأسماء القديمة الموجودة في التواريخ وعسى أن يطلع عليها بعض الباحثين الراغبين ، وإن لم يخفظها من قلت عنايته بها من السلف الغابرين . الطبقة الثانية : من تناسل من ناشري الإسلام الذين فتحوا البلد ، وخالطوا أهله ، وناكحوهم حتى حصلت منهم أمة مباركة فيهم العلماء والصلحاء وفضلوا إخوة الإسلام على إخوة النسب فلم يحفظوا من أنسابهم ما قبل الإسلام ، ولا ما يصلهم بجد غير الصحابة الذين صاروا كلهم من ذريتهم بعضهم من جهة الأمهات ، وبعضهم من جهة الأباء ، ولكن غلبت عليهم طبيعة أهل البلد الذين طبعوا على رفع مرتبة الأم فوق مرتبة الأب إلى حد ما ، حتى أن كثيرا من القبائل ينسبون إلى الجدات الجامعة ، ويعتبرونهن في إماراتهم ، ولا يلتفتون إلى الأباء فأثرت هذه الطبيعة في ذرية أولئك الصحابة وقصروا في حفظ سلاسل آبائهم المتصلة بالصحابي الذي هو جدهم إلا

أولاد عقبة بن نافع فإن معهم سلسلة نسب تنتهي إليه وتغززون بقرشيته وقرابتهم من النبي صلى الله عليه وسلم سببا ونسبا ، وغيرهم لا يزال يدعي أنه من قرب الناس إليه سببا لأنه من ذرية الصحابة مع إهمال سلسلة آبائه حتى ضاعت ، وفيهم جماعة من أهل العلم يعرفون أن الانتساب إلى بعض الصحابة لا يكفي في معرفة النسب لأنهم ليسوا من قبيلة واحدة إذ ليس في العرب قبيلة إلا وفيها رجال صحابيون ، ولكن دعاهم إلى الاكتفاء بذلك القدر من الانتساب مع عدم كفايته في باب الأنساب ، إن التعززات الجاهلية بالأنساب ليسوا من أهلها بل ينشد لسان حالهم قول الشاعر :

أبى الإسلام لا أب لي سواه ... إذ افتخروا بقيس أو تميم

وقال الأخر :

عليك بتقوى الله في كل مسلك ... ولا تترك التقوى اتكالا على النسب

فقد رفع الإسلام سلمان فارس ... وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب

وأحسن من ذلك قوله تعالى { إن أكرمكم عند الله أتقاكم } الآية . وقوله عليه الصلاة السلام (كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي) فلم يلتفتوا إلى سبب ونسبب غير سببه صلى الله عليه وسلم الذي يعم جميعهم من غير نظر إلى تميمية ولا قيسية ولا مضرية ولا غيرها ، مما يلاحظه العرب كما لم يلاحظوا التعزز بالأمهات الذي هو دأب أخوالهم من أهل البلد ومن أجل إعراضهم عن تلك التعززات الجاهلية زال عنهم اسم التوارق ، والبّربر الذين يتعزز بها غيرهم من إخوانهم الذين جعلوا كلا من الاسمين خاصا بالأعزاء وأهل الغلبة وتسموا باسم يختص بأهل العلم والدين وهو أهل السوق ، وهذه الطبقة هي التي ذكرها محمد بن الهادي في كتابه نصيحة الأمة وسبقه إلى ذلك عمنا إنَلْبُشْ من أهل القرن الثاني عشر ، وسبقهما إلى ذلك عم جدنا السادس محمد بن عالّ الذي كاد أن يكون مجددا في بلده في القرن العاشر فقال مخاطبا لبعض ملوك سُنغاي وهو إسْكِيا إسحاق ما لفظه : اعلم أن اسم السوقيين أصله لإمَرَوَنْ ، والسوق الذي ينسبون إليه بلد في أضْغَغْ نزلته الصحابة في آخر غزواتهم فبنوا فيه مدنا عظيمة وجامعا ومصلى ومساجد ، وحفروا فيه آبار كثيرة عددها أيْقَشْ يعني ألف ومائة وأحد عشر 1111، ونشروا فيه العلم وولدوا فيه فرجع من رجع وبقي كثير وقبورهم الآن فيه كل قبر مكتوب فيه اسم صاحبه وعمره ودينه وعمله وحاله وكم غزا مع محمد صلى الله عليه وسلم . مر إلى أن قال : إن إمَرْوَنْ ذرية الصحابة بلا شك وخالهم عقبة المستجاب ، وقد ورثوا

العلم والدين من بآبائهم إلى اليوم ، والحمد الله تعالى تجد صبيا صغيرا منهم يغلب الكبار من غيرهم كحال أجدادهم أهل الحجاز يحفظون فنون العلم كلها وما تغير دينهم منذ خلقهم الله تعالى إلى هذا اليوم بسبب من الأسباب وبذلك يعرفون في جميع البلاد وكل من شهد عند القاضي الأكبر الأستاذ النقي الذي لم ير مثله في بلادكم ولا في غيرها المجمع على علمه ودينه وعدالته صاحب تنبكت محمود رحمه الله يطلب تزكيته إلا السوقيين فإنه قطع بأمانتهم وعدالتهم وقال لا نطلب تزكيتهم وقد جربناهم فوجدنا أصلهم خالصا تابعين لأجدادهم في العلم والدين الخالص . إنتهى الغرض من كلامه وهؤلاء الأعلام الثالثة لم يقصدوا إلى تاريخ طبقات السوقيين ولا تراجم علمائهم إنما مقصودهم أن يبينوا للسلاطين وغيرهم أن لجماعة السوقيين أصلا في العلم والعدالة ليس لغيرهم من الطوارق وأنهم لم يغيروا ما عليه أسلافهم من مبدأ وصول الإسلام إلى أرض السوق إلى آخر القرن العاشر ، وكذلك الرحالة ابن حوقل الذي زار أرض تادمكة في القرن الرابع وصف أهلها بالعلم والفقه ووصفهم به البكري أيضا في القرن الخامس. وأما إمَرْوَنْ : الذين ذكر الشيخ ابن عالّ أنهم أصل الاسم فلم يبق في البلد قبيلة تسمى بذلك الاسم في هذا العصر ، وقد رأيت من آثار الشيخ محمد بن الهادي ما يدل على أن حيهم من إمَرْوَنْ ، ثم سألت الشيخ الثقة الصالح العالم بن العالم إفْنَقَنْ بن أكَّنَتْ عمن يسمي بالاسم المذكور فقال : لي هذا الحي الذي كنت منه هو المسمي بذلك الاسم في العصور السابقة وقيل إنما سموا به لأن أهله بلغوا الغاية في الإحسان إلى الناس حتى صاروا يسمون بهذا الاسم الذي معناه في لغتنا : الأباء ، من شدة رأفتهم بالناس وقيامهم بحوائجهم ومن إحسانهم إلى إخوانهم السوقيين أنهم هم القائمون عنهم بدفع ما يرضي عنهم السلاطين الذين يأخذون الغرامة من كل أحد إلا السوقيين هذا حديث الشيخ محمد الصالح المعروف بإفْنَقَنْ ،

وأخبرني أيضا أن المسمين بهذا الاسم أولا انقرضوا عن آخرهم ومن بقي بذلك الحي في هذا الوقت ليسوا منه إلا من جهة الأمهات فقط ، وأخبرني أن ذلك الاسم يجمعهم مع قبائل عديدة من قبائل السوقيين الذين يسكنون بقرب البحر ، وسيأتي ذكر أسمائهم . إهـ والحي الذي كان إفْنَقَنْ رئيسهم يسمي في العصور الأخيرة أهل بُكُ والموضع الذي ينسبون إليه بين أنَسْنَكُ وكَاوَ ولكن زالوا عنه إلى موضع آخر يسمي تِس ، وهذه الطبقة لا سبيل إلى تاريخها إلا على وجه الإجمال الذي ذكره ابن عالّ

من أنهم لم يزالوا على سيرة أهل الحجاز في الصدر الأول لم يحدثوا شيئا من البدع إلى منتهى القرن العاشر الذي فيه ابن عالّ وهو أي ابن عالّ ينافحهم مرة وينافح عنهم أخرى ، أما منافحته إياهم ففي رسالة وجهها إليهم تأتي في ترجمته يذكرهم ما قام به من مصالحهم مع مجازاتهم له بأنواع من الجفاء ، وأما منافحته عنهم ففي رسالته المذكورة التي وجهها إلى إسكيا إسحاق يبين له فيها مناقبهم ، وفي رسالة أخرى وجهها إلى بعض الأمراء ينكر عليه عدم تعظيم علماء إمَرْوَنْ وستأتي أيضا ، وذكر العلامة محمد بن الهادي أن آخر أمره معهم أن ارتحل عنهم واعتزلهم واختار لسكناه موضعا يقال له تُنْدهَكْ وهو موضع قريب من بئر أنُ ملّنْ ، ولم يزل فيه حتى مات منعزلا عنهم .
ومن هذه الطبقة قبائل تعربوا منذ قرون ، ولكن ما زالوا يعترفون بأنهم من أهل السوق وهم : أهل إروَانْ ، وأهل مُشْبَبَهَ ويقال لهم أبو جيبيهه ، وأهل إنْشكَّغَنْ ، وحاصل ما كتبه القدماء من أمر هؤلاء أنه لما خرب السوق وصار أهله إلى تتبع الصحاري خرج منه أحمد بن آدَّ والصالح بن محمد ، ومن معهما من أولياء الله يلتمسون موضعا للعبادة إلى أن أتوا البلد بئر يقال له أروان واسمه بالبربرية أهَرَنوَان : ومعناه السبخة الصالحة للبقر ، لأن البئر مالح ، وعنده أناس يصطادون فصاروا عنده يعبدون الله ذلك في زمن جودر وبنوا فيها بنيانا قليلا ساكنين فيها للعبادة واشتهروا بالفقه والولاية والدين ولهم حرمة في جميع البلاد فصار الناس يتصدقون عليهم ويرجون البركة منهم ومن أبنائهم إلى الآن إلى أن عمرت عليهم البلاد وحكم فيها جودر المذكور وظهرت سبخة اتغاز فصار الناس يحملون الملح منه ويبيعونه في تنبكت . مر إلى أن قال فصار في أروان عمارة ثانية وبنوا فيها مسجدا ثم بعد ذلك حج أحمد آدَّ ورجع ، وخرجت منهما ذرية بارك الله فيها فصار القاضي من أبناء أحمد بن آدَّ ، والإمام من أبناء الصالح بن أبي محمد .
أما تاريخ أحمد بن آدَّ فهو : (أحمد بن آدَّ بن محمد بن أبي بكر بن غوث بن بلال بن ثور بن مالك بن عبد الرحمن بن عبد الجبار ..إلخ) نسب الشاذلي المشهور ، إنتهى الغرض مما وجدته من خط العالم الثقة أوسُكْ بن هَلَيْ الكَلادِي .الطبقة الثالثة : أولاد الشرفاء والأنصار الذين دخلوا بلاد السوق بعد أهل الطبقة الثانية بقرون متمسكين من أخبار أصولهم بما لم يتمسك بمثله غيرهم من أمثالهم وما زال ذلك يتناقص لمجاورتهم من لم يعتن بذلك، حتى كان آخر أمرهم أن لم يبق في أيديهم إلا حفظ أسماء آبائهم من غير التفات إلى ضبط عصورهم وتدوين آثارهم وهؤلاء هم

الذين انتهت إليهم الرياسة العلمية في بلادهم من القرن التاسع الهجري إلى يومنا هذا وهو آخر القرن الرابع عشر من أجل تفوقهم في العلوم والآداب نالوا مكانة عند سلاطين بلادهم حتى حكموهم فيما سوى أمور الحرب من سياساتهم الدينية والدنيوية ، ولم يزالوا على ذلك إلى أن بدأ الاحتلال في سلطنة إولمّدن في أوائل القرن الثالث عشر فأكثروا من مخالفتهم ومتابعة أهوائهم وتركوا التقيد بأقوال علمائهم فأقبل العلماء على إرشاد المسترشدين ، إفتاء المستفتين ، وتعليم المتعلمين ، وتركوا التعرض للسلاطين في أمورهم إلا قليلا ممن لا تأخذه في الله لومة لائم فيعظهم إيثار التبليغ الشريعة على نفسه ، وربما انتفع المذكر بما يقوله المذكور ولا يخلص إليه هو شيء من الشر ولم يزل أمرهم مع السلاطين هكذا إلى أن زالت دولة إولمّدن في أوائل القرن الرابع عشر ثم لم يزالوا قائمين بالتعليم والتعلم والإرشاد والإفتاء والوعظ مع كونهم تحت حكم فرنسا إلى الآن .

والمشهورون من هذه الطبقة بالوصف المذكور ممن ينتمي إلى الشراقة :

1 ـــ بنوا إبراهيم السدغوغي .

2 ـــ وبنوا إغفَنَسَنْ .

3 ـــ وقليل من أولاد أيتَ ، فإن جل أولاده لا يقال لهم أهل السوق .

4 ـــ وممن ينتمي إلى الفهرية من جهة عقبة بنوا أبي البتول وهم جماعة منقسمة بين قبائل لم يستقلوا باسم يجمعهم ،([1]) وأشهرهم الآن بنوا حَمَكُ الذين كانوا من كَلْ تَكَلَّتْ .

وممن ينتمي إلى الأنصارية قبيلتان :

5 ـــ بنوا يعقوب .

6 ـــ وبنوا أيوب . وهؤلاء الأجداد الستة هم الذين بارك الله فيهم ونشأت منهم ذرية طيبة عمر الله بهم الإسلام فيما بين رأس الماء إلى بلاد أزَوَغْ ، ومكثوا على ذلك خمسة قرون لم ينقطع العلم من مجموعهم بحمد الله تعالى ، وسيأتي الكلام على قبائلهم وعلمائهم في الباب الرابع ....وبجوار هؤلاء في البلاد أحياء ينسبون إلى السوق وليسوا من هؤلاء الأجداد الستة وأولئك ليس عندهم من العلم ما كان عند إخوانهم المشهورين ، وإن كان عند بعضهم منه حظ وافر وليس عندهم من أخبارهم ما يعتمد عليه حتى يعرف هل هم من أهل الطبقة الأولى أو الثانية ، وفي البلد أحياء من أهل العلم يسميهم بعض الناس أهل السوق ،

---

[1])يشاركهم في هذا من قبلهم ومن بعدهم ممن ذكر يعني الاسم القبلي (كل كذا)

ويسميهم بعضهم أشَرَفَنْ يعني الشرفاء ويثبتون لأنفسهم الشرف لكن بجدود غير المذكورين ومنهم من يعترف بأن جده حديث الدخول إلى البلد بعد ما صار السوق أطلالا ولم يروه ، وهؤلاء منهم أحياء بأرض بَنْبَ ونفر يسير بأرض بِنْكَلَرَيْ ببلاد نيجر واسم أبيهم محمد أحمد بن نجيّ ويلقب بكَمَنْكَمَّ وستأتي سلسلة آبائه وما حفظت عنهم من تاريخيهم .

الفصل الثالث

في تعدد قبائلهم وتعين منازلهم وذكر أهل الصحاري منهم والساكنين في أعمال البحر بقرب السودان

أما الساكنون بساحل البحر :

فمبدأهم ([1]) من أرض تِنْبُكْتُ إلى أرض بِنْكَلَرَيْ وهم أمم عديدة منهم من يستوطن البحر كأهل بَكُ في أرض أنْسَنْكُ كانت لهم إمامة دينية على كثيرين من قبائل البيض والسودان من وطنهم الأصلي إلى منتهى بلاد الطوارق ومن جهة الجنوب ، وإليهم ترجع أمورهم الدينية من التعلم والقضاء وأخذ الزكوات منهم وصرفها في مصارفها الشرعية وغير ذلك من الوظائف الدينية توارثوا ذلك خلفا عن سلف ، ولهم إمامة دنيوية على كثير من الرعايا وعلى بعض أحياء إخوانهم السوقيين مثل :

1 ـــــ أهل جنْهَانْ .

2 ـــــ وأهل فَنْبُلَج.

3 ـــــ وأهل تَنْبغَ أكَل .

4 ـــــ وأهل إسَكَنْ .

5 ـــــ وأهل جرَتْ .

6 ـــــ ومَلْخَيا ، في الزمن الماضي ثم استقل عنهم ما عدا أهل كَنْهَانْ وأهل فَنْبُلَكُ . واشتهر هذا الحي من أهل بُكُ بأنواع المكارم والفضائل الدينية والدنيوية حتى قال فيهم بعض عاريفهم أحسن ما وصفوا به وأخصره أنهم أقرب الناس إلى قول الشاعر :

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا ... .

ولبثوا قرونا على ذلك لم تزل محلتهم تنتج الأفاضل من العلماء والكرماء والأمراء ولهم مزارع في البحر يعمل فيها أتباعهم ثم صار أمر ذلك الحي إلى إسراع الفناء فيه كما هو عادة المترفين لا سيما إذا كانوا بيضا في بلاد الجنوب فكم من قبيلة بيضاء كانت مساكنهم في جهة الشمال وكانوا حينئذ ذوي عدد ، ثم صاروا إلى جهة الجنوب فتوسعوا في الملاذ

---

[1]) يعني :بداية امتدادهم

والشهوات ومالوا إلى الراحة والبطالة فعن قريب عمهم الفناء ، وتلك سنة جارية لا تتخلف وأهل هذا الحي الأصليون لم تبق لهم بقية إلا من جهة النساء فقد تزوج منهم قوم من الشرفاء ومن الأنصار وبقي نسل أولئك حاكمين على ما يحكم عليه أخوالهم ، ومن ألئك آل أكَّنَتْ الذين صار إليهم ملك من بقي من الرعايا التابعة وستأتي تراجم مشاهيرهم عند تراجم بني عمهم كما تأتي تراجم أخوالهم الأنصاريين في تراجم بني عمهم أيضا .ويلي هذا الحي من جهة الشمال حي أمَاسِنْ ومساكنهم في إِبَنْغْ نفُغَلْ ثم يقال .... وهؤلاء كانوا سابقا من أهل العلم ، ثم انقرض فيهم العلم في أوائل القرن الرابع عشر الهجري ، ....ثم حي أهل تُنْدَبِ وهؤلاء لا يرتحلون في الزمن الماضي بل كانوا مقيمين عند الهضبة التي ينسبون إليها.ثم حي أهل إسَكَنْ بين تُنْدبِ وبُرم . ثم حي أهل زُمْكِّيْ ، ثم أهل إِبْرِمَّنْ ، ثم أهل إمْ تَبرقْ ، ثم أهل أتَرَمْ ، ثم أهل غَيْرَغْ وهم لا يفارقون البحر ولهم مزارع وعندهم خطوط شاهدة لهم بملك أسلافهم للأرض من أيام آل إسكيا إلى الآن ، ثم أهل كَنْشَش في أرض تَغَارُسْتْ ، ثم من كان في مدينة تنبكت وعواليها من أهل إرْوان ، وأهل إنْشَكَّغَنْ ، ثم جماعة من أهل غَيْرَغُ صاروا إلى أرض كُنْدَامْ ، وهؤلاء المعدودون هم أهل البحر أصالة وفي أيام إولمّدن صار بعض الساكنين في الصحراء الشرقية يعني بلاد أوْظَ ينتقلون إلى مجاورة إخوانهم في البحر منهم من استوطن معهم وأعرض عن الصحراء ، ومنهم من يصل إليه مرة ويبعد عنه مرة جائلا في أبار الصحاري الشرقية ، وبعضهم عبر البحر إلى صحراء أرَبَأدَ فبقي فيها مستوطنا إلى الآن مثل قبيلة أهل تِمُكَّسِنْ ، وقبائل بني إدَّ إنْتَكَرَتَّتْ ، وغيرهم من الأحياء .
وهؤلاء الأحياء البحريون لا سبيل إلى ترجمة أفرادهم على وجه التفصيل وأستطيع أن أقول إجمالا كانوا أهل علم وفضل ، ومما حال بيني وبين بذل الجهد في تحصيل بعض ذلك أن كثير من هؤلاء الأحياء يعترف أهلهم الحاضرون بأن أهلهم الأولين انقرضوا عن آخرهم ، والباقون منهم طارئون من قوم آخرين كمثل أهل بُكُ وأهل إسَكَنْ وأهل كَرَتْ وأهل تَكِدِتْ فإن أهل هذه الأسماء الأولين انقرضوا والذين يتسمون بهذه الأسماء في العصر الحاضر بعضهم من قريش وبعضهم من الأنصار ولا علاقة بينهم وبين أهل الأسماء الأولين إلا الخئولة .
أما مَلَخْيَا : ففيهم العلم قديما وحديثا ، ومن علمائهم الأولين : عبدُ بن حَمَّسٍّ فقد رأيت له شعرا حسنا ، وله فتوى يعارضه فيها محمد بن دانيال الذي عرف أنه لا يعارض إلا فحول العلماء وقد وقفت على

تأليف محمد بن دانيال لم أقف على المردود ولم أقف على تاريخ حياته إلا أن معارضه محمد بن دانيال عاش في أواخر القرن الثالث عشر الهجري وأدرك أوائل الذي بعده ومن مشاهيرهم الشيخ إبراهيم وقد سمعت من أشياخنا مدحه بالعلم وتفوقه على كثير من أقرانه ولم أطلع على شيء من آثاره .

ومنهم الطيب بن إسحاق كان من المتضلعين في علم النحو وله فيه مؤلفات منها نظمه لشذور الذهب وأوله :

قال ابن إسحاق المسمى الطيبا ... وهو لأنصار النبي نسبا وكان تعلمه في حيه ثم كان تلميذا للشيخ المحمود بن محمد من أهل تِيس ولازمه حتى هاجر معه إلى الحرمين وأقام بالمدينة حتى مات فيها رحمه الله ،

ومنهم عبد القدوس بن القاسم هاجر به أبوه مع المحمود والطيب وهو صغير ومات أبوه وبقي في تربية الطيب وتلمذته حتى كبر وله مؤلفات في موضوعات شتى وله ترجمة واسعة ، وكان من أهل المراتب في دولة آل سعود ، وكان من المناصب في أيام عبد العزيز وابنه سعود ومات في أيام فيصل ، ومن علمائهم المشهورين في أواخر القرن الرابع عشر الهجري إنْطَكْطَكَا وابنه مَدَسًّا ، وعَلْوَاتَ ، وفيهم كثير من أهل العلم وسبق مني أن عزمت على زيارة حيهم لألقى علماءهم الأحياء وأطلع على آثار الأموات ولم يقدر ذلك حتى صرت إلى جمع ما حصلت ، والإعراض عن طلب الزيادة خشية أن يفوت ما جمعت وغالب ظني أن في حيهم من الآثار ما يستفيد منه المطلع عليه . وأما أهل تَنْغَ أكَّل : (وأصل هذا الاسم أن البئر الذي يسكنون عليه أسلافهم وقع على عبد فمات وسمي البئر بهذا الاسم ومعناه قاتل العبد وتحولوا عن محل ذلك البئر ولكن بقي عليهم الانتساب إليه تبعا لانتساب أسلافهم ، ومثل كثير في القبائل التي تنسب إلى مواطن أسلافهم) فترجمتهم على وجه الإجمال أنهم حي من العلماء يتعلمون ويعلمون سائر الفنون ويحرصون على العمل بعلمهم ، وعنايتهم بالعلوم العربية من النحو والبلاغة والأصول أشد من عنايتهم بغيرها ومن عناية غيرهم بها ولا سيما النحو فقد سلم لهم السبق فيه ولهم في تعلمه وتعليمه طرق مسهلة بحيث لا يرحل إليهم طالب يطلبه إلا نجح باستثناء نادر لم يوفق ، وقد رأيت كثيرا من طلبة أحيائنا يعجزه علم النحو في حيه فيرحل في طلب العلم بل المعروف رحلة الناس إليهم في طلب علم النحو ونجاح الراحل إليهم ، ومن مشاهيرهم في الزمن القديم أحمد بن الهادي ، ويعمُر وهو شيخ والدي ،

وغمْنا ، وأحمد بن مكّا ، واليسير ، وأمْسترْ ، وكثير من أمثالهم ومن بعدهم أحمد بن سيدي الأمين الأنصاري ، وجماعة من أهل بيته وإنْكَنَّا بن حَازْ ، وابنه زين الدين ، وكثيرون يطول بعدهم الكلام .

هذا ما تيسر من أخبار الأحياء السوقيين الساكنين بجوار السودان في البحر ، والساكنين في أرَبَنْدَ .

وأما الساكنون في الصحراء الشرقية يعني (أوَظ) فهم :

1 ــ حي إكَدَشْ .

2 ــ حي أهل تَبُورَقْ .

3 ــ وحي أهل تَكَلاَلْتْ .

4 ــ وحي أهل تِكِرَتِنْ .

5 ــ وحي أهل كُنْهَانْ .

6 ــ وحي أهل تِمُوكَسِنْ . وهؤلاء هم الذين بلغني من أخبار أسلافهم أن أمراء إوِلِمَّدَنْ لا يرضون مباعدتهم عنهم تارة يجورونهم على منهل واحد ، وتارة يسمحون لبعضهم في اتخاذ منزل قريب منهم وأما بنوا أعالَّ الذين في أرض كِدَال فلم يلازموهم كما لازموا المذكورون بل لم يزالوا مع إفُوغَاسْ والذين لا يرضون بمباعدتهم عنهم في الأوطان هم الذين يتخذون فيهم قاضي القضاة الذي إليه المرجع في جميع أحكام الدولة ينفذ ما يرضاه من الأحكام وينقض غيره ، والمخصوص بهذا المنصب واحد من أولاد محمد البشير بن أمَّدْ ، لكن لا ينفذ شيئا إلا بمشورة أهل العلم من الأحياء المذكورين وموافقتهم ، ومن هؤلاء يكون كبار العلماء الذين يرفع إليهم ما يختلف فيه العلماء من غيرهم فيرفعون الخلاف ويكون منهم المدرسون والمفتون الذين إليهم المرجع في سائر الفنون ، وهم الذين يتولون تأمير الأمير الكبير من آل كَرِدَنَّ الذي هو سلطان سلاطين البلد فيختار منهم مستشارا وناصحا يرشده ويعظمه في أمور لا يجترئ غيره على مخاطبته فيها ، وكان هؤلاء كالعاصمة لعلماء البلد وأمرائه لا يورد الأمراء ولا يصدرون إلا عن آرائهم ولا يخالفون لهم أمرا في الغالب ، وذلك حين كانت دولتهم قائمة قبل دخول فرنسا للبلاد ولما ذهبت دولتهم بالتغلب الفرنسي اضطربت الأحوال وانحلت الضوابط وصار كل حي من أحياء السوقيين يستقل بمسجده وشئونه الخاصة بمن يتبعه من الناس مع ارتباط بينهم في الأمور الجمهورية واتحاد في المذاهب والآداب .

ولم يبق ضابط لمنازل كَلَسُوكْ إلا أن جمهورهم تحت حكم الحاكم الكبير

في كَاوَ ونظيره في تِنْبُكْتُ وحد مساكنهم من حدود مالي شرقا في جهة طَاوَ إلى آخرِ أعمال تنبكت غربا ، وبعضهم في النيجر ، وبعضهم في بُرْكِنَافَاسُو .

الفصل الرابع

في كيفية إقراء السوقيين وتعليمهم بحسب ما رأيته في حينا وما سمعته عن أسلافنا

وذكر العلوم التي يتعلمونها إذا بلغ الصبي منهم خمس سنين وخمسة أشهر كتبوا له حروف الهجاء حتى يتقنها ثم يأخذون في إقرائه القرآن برواية ورشٍ عن نافع ، يكتبون له لفاتحة ، ثم المعوذتين ثم الإخلاص ثم قصار المفصل ثم طواله إلى أن يتمرن على قراءة كل ما يكتب له ثم ما بقي من المنزل يكتب الشيخ للتلميذ أسطر أو سطورا إلى ثمن الحزب أو ربعه أو أكثرِ فيكرره التلميذ حتى يحفظه ويقرؤه خلف ظهره ، ثم يكتب له وهكذا فمنهم من يختمه متقنا حفظه بحيث لا يراجعه في المصحف ، ومنهم من يختمه غير متقن الحفظ ، ثم يحفظه بعد الكبر ، ومنهم من يختمه في عامين أو أكثر وقليل منهم يختمه في عام وقد أدركت شيخا من أعمامي من أهل تَبُرَقْ اسمه سايْ بن القاسم سمعت أنه ختم القرآن ورسالة أبي زيد في عام واحد وقرأ الأجرومية وملحة الإعراب للحريري وألفية ابن مالك في العام الثاني ، ولم أسمع مثل ذلك لغيره ، ومنهم من يمكث على قراءته أعواما ولا يتيسر له حفظه فإذا أيس شيخه أو أبيه من استظهاره له أعرض عن إقرائه إياه وشرع في تعليمه فرض عينه كيلا يبلغ جاهلا به ، فإذا فرغ الصبي من قراءة القرآن سواء كان فراغه بحفظه أو بعجزه عن الحفظ انتقل إلى رسالة أبي زيد القيرواني فيكتب الشيخ للتلميذ ما يقدر على حفظه وحفظ ترجمته باللغة التارقية فإذا حفظ درسه جعل الشيخ يترجم له الدرس كلمة كلمة حتى يتقن حفظه وفهمه فلا يزال التلميذ يترقى ويتدرج في فهم كيفية الترجمة ، فمنهم من يجمع بين تفهم ما يمليه عليه الشيخ من المسائل الفقهية وبين فهم اللغة التارقية ، ثم منهم من يختم رسالة أبي زيد القيرواني ثم يأخذ في علم النحو ، ومنهم من لا يختمها . وأما علم النحو : فهو المقصود الأهم عندهم حتى صار عند بعضهم معيارا على العلوم من أحسنه جعله وسيلة إلى غيره من العلوم حتى يتقنها ومن لم يحسنه ترك التعلم رأسا لاستحيائه من اللحن في الكلام الذي يوجبه الجهل بالقواعد النحوية ، واللحن في القراءة عندهم من أقبح القبائح وسيرتهم كما قال القائل :

النحو زين للفتى ... يكرمه حيث أتى

من لم يكن يحسنه ... فحقه أن يسكتا
وكما قال ابن مالك في أول كافيته :
وبعد فالنحو صلاح الألسنة ... .
إلى آخر البيتين ، وكيفية تعلمه عندهم أن يقرأ الصبي مقدمة ابن أجروم أولا قراءة تفهم وتحقيق ، إذا شرع في حد الكلام لقنه الشيخ ما يجيب به الممتحن في درسه بأن يسأله عن التركيب أهو كلام في اصطلاح النحاة أم لا ، فلا يزال يدربه ويمرنه على ذلك حتى يحقق الفرق بين ما هو كلام وما ليس بكلام ثم ينقله ، إلى تحقيق الفرق بين الاسم والفعل والحرف بعد معرفة علامات كل منهما حتى يحقق الفرق بينهما أيضا ثم ينقله إلى باب الإعراب فكلما وقف على مثال أعربه له كلمة كلمة ، ثم يفعل به كذلك في سائر الأبواب حتى يتم الكتاب فمنهم من يفهم كيفية إعراب التراكيب قبل ختم المقدمة ، ومنهم من لا يفهم إلا أقل القليل ثم منهم من يقرأ ملحة الإعراب للحريري ، ومنهم من يقرأ قطر الندى لابن هشام ، ثم يقرأ ألفية ابن مالك ولامية الأفعال له ، وهذا هو القدر الذي لا يكتفون بدونه وهو المرتبة الدنيا عندهم التي من قصر عنها لا يتكلم في المجلس ولا يؤخذ عنه العلم إلا تحفيظ القرآن .

وأما العلوم الشرعية فلا يجترئ على التكلم بها سواء كان له حظ منها أم لا ، ثم منهم من يزيد على هذا قراءة كافية ابن مالك وشرحها له ، ومنهم من يزيد عليه بقراءة الفريدة للسيوطي ، ومنهم من يزيد عليه منهج السالك للأشموني ، ومنهم من يقرأ الشافية في الصرف ومنهم من يضيف إلى هذا قواعد الإعراب ومعرفة أحكام الجمل فمن حصل هذا القدر نجح في علم النحو واستقل عن المشائخ والمدرسين وصار من الأساتذة فيه وهذه المرتبة هي الوسطى التي من نالها انتصب لتدريس التلاميذ مع اعترافه بقصوره عن مقام أهل المرتبة الثالثة ، ثم منهم من إذا وصل إلى هذه الغاية اكتفى بها وانتقل إلى العلوم الأخرى ، ومنهم من يتوسع في المطولات والحواشي فيشغل كثير من أوقاته بالعكوف على مطالعة الفن ، ثم ينتقل بعد سنين إلى غيره من العلوم مع عدم نسيانه لما حفظ من كتبه ومعاودته لمطالعة ما لم يحفظ من المطولات حتى يبلغ فيه مرتبة المؤلفين ويدرس فيه ويديم المذاكرة فيه والبحث مع قراءة غيره من الفنون وأهل هذا المقام هم الذين تلقي إليهم الفنون بالأزمة فيحصّلونها في أسرع مدة ثم يتوسعون فيها إلى أن يصيروا مشاركين في سائر الفنون

و... زون السبق على الأقران وتنتهي إليهم الرياسة العلمية بعد الكهولة وهذه أعلى المراتب ثم ينتقل التلميذ بعد الفراغ من علم النحو إلى معرفة اللغة العربية بطريق معرفة مفرداتها ومعرفة تراكيب أهلها ومقاصدهم ، منهم من يدرس مقامات الحريري ومنهم من يدرس مختارات الشعر الجاهلي ، ومنهم من يجمع بينهما ،ثم يشتغل التلميذ بمطالعة ما في يده من معاجم اللغة مثل القاموس والجوهري وغيرهما

وأما علم المنطق : فإذا حصل التلميذ ما قدر له من النحو واللغة على اختلاف مراتب التلاميذ وتفاوتها انتقل إلى علم المنطق فيقرأه الشيخ السلم المرونق للأخضري فإذا أحسن بملكة الفن نفسه استقل عن المشائخ ، فمنهم من يكتفي بالسلم وشروحها ، ومنهم من يتوسع في غيرها من مؤلفات الفن .

وأما علم الفقه : فبعد تحقيق الفنون الثلاثة يختلف أمر التلاميذ فيه ، منهم من يشرع في علم الفقه المالكي فيستغرق فيه ما بقي من عمره إلا قدر ما يسمع تفسير القرآن العزيز أو يسمع من الأحاديث صحيح البخاري ونحوه والغالب على مثل هذا أنه إذا أوصل إلى حد الشيخوخة أقبل على التصوف والعمل بما علم ، وربما أعرض عما كان يتعاطاه قبل ذلك من التعليم والإفتاء حتى ينتهي أجله .

وأما علم المعاني والبيان والبديع : فيقرأ منه التلميذ على الشيخ تلخيص القزويني بشرح السعد التفتازاني أو الجوهري المكنون أو ألفية المعاني ، ثم يقتصر البعض على ذلك ويتوسع البعض في المطولات والحواشي ، ثم ينتقل إلى الفقه فيقرأ منه على الشيخ مختصر خليل فيقتصر البعض على ذلك ويتوسع البعض في سائر كتب الفقه إلى أن يصير من الأئمة .

وأما علم التفسير : فلم يصل إليّ على التحقيق ما يعملون في تعلمه قبل القرن الثاني عشر وأما في القرن الثاني عشر فأخذ شيخنا حَمَّ بن أحمد بن الشيخ ترجمة تفسير الجلالين باللغة التارقية عن شيخ من إكَلاَّدْ يقال له حَامَّ بن محمد الأمين وهو أخذها عن بعض علماء آير فلما وصلت الترجمة إلى علماء تَكَلاَلْتْ الذين منهم الشيخ حَمَّ الناقل لها أولا تلقفها عنهم إخوانهم من سائر الأحياء مع اعترافهم بالفضل لمن أوصلها إليهم أولا ولحيه حتى اشتهروا بذلك وتوارثوا ذلك المنصب الجليل خلفا عن سلف إلى الآن ، وكانت الترجمة المأخوذة على الشيخ الكَلاَّدي مقصورة على تفسير الجلالين لكن لما كثر تناقل الأشياخ لها نحو اذلك المنحى وتوسعوا في ترجمة كتب التفاسير على النحو المأخوذ عن الأشياخ الأول ولم يزل ذلك عملهم إلى اليوم ويرحل إليهم أشياخ الأفاق للسماع منهم ،

ولقد اخترعوا في الصناعة التفسيرية منهجا عزيزا يعجز عنه الفحول وهو أنه لا ينتدب لأخذها عن الشيخ المفسر إلا من وثق من نفسه بمعرفة علوم الأدب من النحو والمعاني واللغة والفقه ولا ينتصب لسماع الناس منه إلا من شهد له أقرانه وشيوخه بإحرازه قصب السبق من سائر الفنون التي تعتبر في آداب المفسر مع قوة العارضة وجودة التعبير بكل لغة يريد أن يعبر بها وملاحظة المعاني الدقيقة التي لا يلاحظها إلا القليل ، فإذا عقد مجلس التفسير حضره جميع الناس لسماع معنى كلام ربهم ثم يختلفون في الاستماع ، فمنهم من يسمع للاتعاظ وأخذ بعض الأحكام التي نص عليها الذكر ، ومنهم من يجلس لتفهم المعاني ولكن لا يجترئ على أن يؤخذ عنه ما أخذ تعظيما للقرآن وإشفاقا من القول في القرآن بغير الصواب ، ومنهم من استعد لأن يسمع ما سمع مضيفا على نسفه أن يقول ما لم يسمع وإن كان صحيحا في نفس الأمر ، ومنهم من لا يضيق على نفسه ذلك التضييق بل يروي بالمعنى ويعبر عما استحسن من أقوال أهل التفاسير وإن لم يأخذه عن شيخه وهؤلاء الذين يجوزون وراثة شيوخهم ويلقبون بلقب فلان المفسر وسيأتي تراجم جماعة منهم .

وأما علم الأصول : فيقرعون منه جمع الجوامع لابن السبكي وتتفاوت مراتبهم فيه ، فمنهم من يحفظه ويحقق شروحه وحواشيه ، وكثير منهم نظمه ليقربه إلى الطالبين ويقرعون أيضا أصول مذهب مالك كالقرافي والبقوري ، ومنهم من يحفظ الورقات لإمام الحرمين ويكتفي بذلك القدر من حفظ المتون الأصولية وقد نظمها بعضهم في العصور السالفة وفي عصرنا ، ومنهم من قرأ جمع الجوامع قراءة تحقيق حتى وقف على ثمرة علم الأصول وغايته ثم تكاسل عن ممارسة الفن لأن العمل بقواعده من وظائف المجتهدين ، وقد أكثر العلماء من القول بانقراض الاجتهاد فلا يرون الفائدة في تعلم ما لا يعمل به ، ومنهم من يميل إلى القول ببقاء الاجتهاد ما بقيت الأمة ويحس من نفسه ببلوغ الاجتهاد المذهبي أو الاجتهاد في الفتوى ويرى القول بصحة تجزء الاجتهاد وهؤلاء هم الذين يمارسون كتب الفن ويعملون بمقتضيات قواعده في النوازل الحادثة التي تحتاج إلى إعمال النظر وهم الذين يؤلفون في الأمور التي تنزل ببلادهم ويعتمدهم الناس في الفتاوى والدروس الأصولية وينتهون إلى أقوالهم عند الاختلاف والتنازع وأهل هذه المرتبة قليلون بالنسبة إلى أهل المرتبة الوسطى كما أن أهل المرتبة الوسطى أيضا أقل قليل بالنسبة إلى غيرهم من العلماء الذين لا يحسنون إلا النحو والفقه والبيان والتفسير .

وأما علم الحديث : فلا يتعلم في المدارس عندهم بل طريقتهم فيه أن من

حصل العلوم المذكورة فتاقت نفسه إلى معرفة علم الحديث اشتغل بمطالعة الكتب الموضوعة في ذلك العلم كألفية العراقي وشرحها وألفية السيوطي وشروحهما ومقدمة القسطلاني وتوجيه النظر في علم الأثر ونخبة الفكر وغيرها من علوم الفن فيمارسها حتى تصير له ملكة في الفن .وأما كتب الحديث وأشد عنايتهم من هذه الكتب صحيح البخاري ، فهو الذي يعتادون قراءته في المساجد كل عام في شهر رجب وشعبان ثم يقرءون كتاب الشفا للقاضي عياض في شهر رمضان ، لم يزل ذلك سيرة موروثة فيهم وفي إخوانهم من أهل تنبكت من لدن القرن العاشر إلى الآن ...

وأما علم العقائد : فكانوا فيه أمة سلفية لأن أول ما يقرءون منه عقيدة أبي زيد القيرواني التي ابتدأ بها أبواب رسالته فهي التي لا تكاد تجد منهم من لم يقرأها ، ثم منهم من يزيد عليها صغرى السنوسي ، ومنهم من يقرأ وسطاه وكبراه أيضا ، ومنهم من لا يقرأ بعدها شيئا من العقائد حتى يكبر ويتضلع من العلو فيستغني عن نقل كلام كل أحد بما فهمه من كلام الله عز وجل وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ولا ينتسب إلى مذهب أحد ولكن أقرب المذاهب إليهم مذهب الأشعري فإنه هو الذي ينتمي إليه بعضهم وعندهم من كتبه إضاءة الدجنة للمقري ، وكتب السنوسي الثلاثة فقد أصاب لما ذكرت من استغناء أكثرهم بقراءة عقيدة ابن أبي زيد التي هي عقيدة السلف ولأنهم لا تكاد تسأل واحدا منهم عما عنده من مذهب الأشعري فيأتيك بشيء إلا تأويل المتشابه الذي ليس مذهبا لمعين بل هو شق خلاف أخذ به فرقة وأخذ آخرون بالتفويض فكما لم يكن التفويض مذهب أحد معين كذلك التأويل لم يختص به معين ، ومن نسبهم إلى الأشعري فلم يخطئ لوجود كتب الأشاعرة عندهم ولكونهم تابعين لعلماء المغاربة الذين ذكر صاحب الاستقصا أنهم ما زالوا في العقائد على ما عليه السلف إلى أن أتاهم محمد بن تومرت مهدي الموحدين في المائة الخامسة قادما من المشرق آخذا بمذهب الأشعري في العقائد فنشره في أهل المغرب حتى صار الأمر عنده وعند أتباعه أن من لم يقل بمقال الأشعري في العقائد فليس بموحد ،ثم استمر ذلك في البلاد المغربية إلى الآن لكنني لم أر مدرسا في العقائد يوقف التلاميذ علي ما انفرد به الأشعري عن غيره من أئمة السنة كالماتريد والحنبلي ، ولم أر من الكتب التي بأيديهم ما خالف فيه الأشعري غيره حتى ينسب إليه مذهب فيه إلامسائل يسيرة ذكروا فيها خلافه للمعتزلة ومخالفة المعتزلة لم ينفرد بها واحد من أهل السنة بل كل من كان على

ما كان عليه السلف الصالح من أهل القرون الثلاثة يخالفهم قبل ولادة الأشعري وبعدها ، وكذلك ما في كتب السنوسي من ذكر الصفات الواجبة والمستحيلة والاستدلال عليها بالآيات والأحاديث ليس مذهبا لمعين بل الصفات ثابتة بالكتاب والسنة بأدلتها ولا مخالف في ذلك من المسلمين فكل من لم يكن إلا على ما عليه السلف الصالح من العقائد فلا نسبة إلا إليهم ومتى وجد شيئا يختص بعض العلماء باستخراجه وأخذ الناس بذلك القول والتزموا لا لدليل إلا لقوله له نسبت ذلك المقلد إلى من قلده كما في المسائل الفقهية التي لا ينسب فيها المذهب لإمام إلا إذا كان هو الذي أخرجه باجتهاده ، وأما إذا كان مقولا قبله فلا ينسب إليه إلا من جهة أنه هو الذي نقله إلى من أخذه عنه من الأتباع .

وأما علم القراءات ، وعلم الحساب ، وعلم النجوم ، وعلم التصوف : فلهم منها أيضا نصيب وأفر لكن لم تجر عادتهم بتدريسها إذ لا ينظر فيها إلا المنتهي من العلوم المذكورة المستغني عن مراجعة الشيوخ لا سيما علم التصوف فإنه لا يشتغل به في الغالب إلا الشيوخ فإذا شرعوا فيه اشتغلوا به عن غيره حتى يكون تعلمه والعمل به آخر أمرهم .وأما علم صناعة الإنشاء : فليس عندهم من العلوم بل لم يعرفوا أنه موجود قبل أواخر هذا القرن الرابع عشر ، ولما وقفوا على كتبه لم يلتفتوا إليها اكتفاء بما ألفوه منذ قرون من أن من عرف العربية تكلم بها من غير أخذ الكيفية عن أحد ، فمنهم من طبع على نظم الشعر فكان له قصائد كثيرة ولم يخلف إثرا منثورا ، ومنهم من هو بعكس ذلك يلقي الكلام المنثور ولا ينظم ، ومنهم من يجمع بينهما ، ومنهم من يفوق أصحابه الناظمين والناثرين في سائر العلوم ولكنه لاينشئ لا نظما ولا نثرا وهم الأكثر ، وجلهم إنما سكت تورعا من أن يقول شيئا لم يسمعه فاكتفى بنقل ما قيل قبله ، ومنهم من سكت عن الإنشاء حذرا من النقاد ، كل حزب بما لديهم فرحون .

وكذلك العروض : منهم أفراد ينظرون في كتبه وجلهم لا يلتفت إليها لأن طبيعتهم في الإنشاد الاحتراز من الغيوب التي يذكرها أهل العروض فكانوا في ابتداء أمرهم يدركون تلك العيوب أخذا بما قرءوه من أشعار الجاهلية فيحترزون منها حتى صار الاحتراز منها سجية راسخة فيهم فأنشد لسان حالهم قول الشاعر :

مستفعلن فاعلن فعول ... مسائل كلها فضول

قد كان شعر الورى صحيحا ... من قبل أن يخلق الخليل

وأما علم النجوم : فحظهم منه ما يتعلق بالتوقيت والاستقبال فقط .

وأما علم الحساب : فحظهم منه معرفة ضرب الأعداد بعضها في بعض يستعينون بذلك على مسائل على الفرائض. وما سوى هذا من العلوم لا يتعلمونه كما أن الصناعة المدرسية غير معروفة عندهم بل غاية التدريس عندهم إلقاء الشيخ الدرس على التلميذ يحل ما أشكل ويفسر ما أعضل إما بالقراءة فقط إن كانوا كبارا عارفيين بالعربية أو بالتراجمة باللغة التارقية إن كانوا صغارا لا يحسنون العربية ، ثم يقف عند كل مسألة يفهمها لهم وبين لهم ما خفي عنهم من معناها ويحل ما أشكل من مبناها ، يتبرع بذلك في بعض الأحيان ويجيب تارة من سأله من نجباء الإخوان ويستعين بما حضره من الشروح والحواشي ويملي عليهم ما فهمه من الكتب أو يقرأ عليهم لفظ الكتاب فيكتفون بقراءته على التفسير ، وإذا فرغ الدرس شرعوا في تكرار ما ترجم به الشيخ حتى يحصلوا حفظ لفظه ، ثم يتفرغون لتفهم المعنى ، ثم لحفظ المتن هكذا إلى آخر الكتاب وربما اكتفى بعضهم بسماع بعض الكتاب من الشيخ ويجيزه الباقي أو يحصله بالمطالعة كأنما يسمه من الشيخ هكذا حالهم في الدرس سماعا وإسماعا وتعلما وتعليما :

وأما الوظائف المدرسية : التي نقرأها في كتب العلماء الحضريين فهم بمعزل عنها لأن بيت المال مفقود عندهم والتنظيمات الدولية كذلك لا كلام للأمراء في أمور التعليم فضلا عن أن يرتبوا الرواتب بل العلماء الذين حبسوا أنفسهم في إقامة الدين هم الذين يتولون تعليم أهليهم من غير مشاورة أحد ومن غير عوض ، اللهم إلا أن يرغب في التعلم من ليس في قومه من يعلمه فيأتي إلى زاوية أهل العلم فيعاقد بعضهم على أن يقيم عنده برسم التعلم ويعينه على مؤنته بما قدر عليه من ماله أو يرسل بعض الناس ولده إلى بعض القراء ليحفظه القرآن فيواجره على ذلك بما تراضيا عليه من المال وقد بلغني عن الأسلاف أنهم يجمعون تلاميذ الحي في بيت واحد على شيخ واحد يقرئهم وقد مضى ذلك الزمن وآل الأمر إلى أن كان معلم يقوم بتعليم أهله فقط ما داموا صغارا ، وما داموا يقرءون صغار العلوم فإذا كبروا ورغبوا في التعلم اختاروا لأنفسهم من العلماء من يجتمعون إليه فيقرأ عليهم بعض الكتب التي يدرسونها بعد النحو واللغة تارة يكون ذلك الاجتماع على فن البيان وتارة على الأصول وتارة على خليل ، وتارة على التفسير ولا منتدب لإعانة أي منهم على ما هو فيه من الدرس أو التدريس .

ومما يتعلمونه في زمن التدريس صناعة الخط لأن الصبي منهم إذا عرف حروف الهجاء أمره الشيخ أن يحكي صور الحروف التي يراها

على لوحه فإذا عرف كتابة صورة الحروف ترقى به إلى تجويد الصورة ، ثم إلى تعريف آداب الخط من وصل الموصول وفصل المفصول لا سيما في خط المصحف فإنهم يحرزون من الخطاء فيه أكثر مما يتحرزون من الخطاء في غيره على أن كثير من علمائهم لا يكتب شيئا من القرآن وإن كان يتقن حفظه إلا ناظرا في المصحف ليلا .. لف خطه فيأثم ، ومنهم من يستحضر القواعد التي حررها الأشياخ لخط المصحف حتى حفظها حفظه للقرآن وأولئك يكتبونه من غير نظر في المصحف . ثم إن خط السوقيين جملة له مزية على غيره من الخطوط التي ببلادهم فلكل جيل من الكتاب صورة للخط تخالف صورة غيرهم لا يشبه خط العرب خط الفلان ، ولا يشبهان معا خط إهَتَنْ ، ولا يشبه جميعها خط السوقيين فإن أقرب الخط إلى خطهم خط أهل المغرب الذي تكتب به المصاحف المطبوعة في المغرب بقراءة ورش ..بعينه خط أسلافهم الأولين كما رأيته في كتبهم وعلى ألواح قبور أجدادهم الأقدمين ، ..تجددت فيه صنعة في القرن الثاني عشر تميز بها السوقيين على غيرهم من الكتاب وأشدهم إقامة لتلك الصنعة ثلاثة أحياء : أهل تَبُرَقْ ، وأهل تَكَلاَلَتْ ، وأهل تِكِرِتَنْ ، فقد اعترف لهم إخوانهم في العصور الأخيرة بإحرازهم قصب السبق في تلك الصنعة ثم صار الأمر إلى انفراد الأحياء الثلاثة بها من غير مشاركة ولا منازعة ، من أراد من إخوانهم أن يستنسخ كتابا طلب من بعضهم أن يكتبه له فتارة يسعفه بذلك المطلوب مجانا ، وتارة يعتذر له فيسترضيه بالمال الجزيل ...تلك الصناعة الجيدة التي انفرد بها فكان بعضهم يأخذ على كتابة الكتاب الواحد ...ـــن البقر ، ومنهم من يأخذ عدد الجمال ، ومنهم من ليس له من الحرفة إلا الخط يكتب الكتب ...يعطونه•من أصناف المال حتى استغنى بذلك في مدة يسيرة وهذا قبل وصول الكتب ...ـــة إليهم التي لم تصل إليهم إلا في أوائل القرن الرابع عشر الهجري ، فلما انتشرت المطبوعات انتفع بها بعضهم لأن ثمنها أقل من ثمن المخطوطات ، وبعضهم رضي بالثمن الغالي الذي يحصل بالخطوط رغبة فيه لأنه أجود الخطوط التي رأيناها وأبقاها إلى أطول مدة فترى من عنده كثير من المطبوعات لكن لم يستغن به عن طلب استنساخ نسخ عديدة بالخط السوقي ، وكثير من الكتب الموجودة في المطابع تعمل فيه صناعة بالخط ترغب فيه فوق الرغبة في نفس الكتاب مثلا تفسير الجلالين يكتب في ورق كثير جيد أضعاف م يكتب فيه مطبوعا ، ثم يحشى بكتب كثيرة بعضها في التفسير وبعضها في الفقه وبعضها في الحديث عضها في

فنون أخر وتكون تلك الحواشي طررا رقيقة مزينة للكتاب لا يحسن صناعتها كثير من الخطاط المجيدين فأولى غيرهم ، وتلك الصناعة أصعب ما يلقى الخطاط من جهد الكتابة ومن ظفر بكتاب تفسير الجلالين محشى بالصورة المذكورة فكأنما ظفر بوقر جمل من الكتب في شتى الفنون لا سيما إن كان مطرره من المعتبرين الذين يكابدون المشاق في رعاية المنسيات واختيار الفوائد التي لا ستحضرها جل الناس ويستغرقون في ذلك جل أعمارهم لا من الناقلين الذين يأخذ أحدهم كتاب محشى فينقل ما فيه إلى كتاب من غير معاناة أية مشقة إلا مجرد نقل الكلام وهؤلاء وإن كان لطرير من قبلهم فضيلة على تطريرهم لكن عملهم لا يساويه عمل في تكثير الفائدة العلمية مع قلة المجلدات فكتاب تفسير الجلالين مخطوطا محشى بالصورة المذكورة لا يساوي المطبوع معشار عشر قيمته عند أهل البلد ، وكذلك كتاب الشفا للقاضي عياض يبالغون في تكبير ورقه وتجويد خطه وتحشيته حتى يكون مخطوطه فوق مطبوعه بنحو عشرة أضعاف ، وكذلك شرح السعد التفتازاني للتلخيص ، وكذلك شرح كافية ابن مالك في النحو وشرح عبد الباقي والشبرخيتي لمختصر خليل وكثير من الكتب التي جرى عملهم بتجويد خطها وتحشيتها ، ومن الكتب ما لا يهتمون بتجويد خطه بل يكفيهم تحصيله ، وتلك لا يفضلون مخطوطها على مطبوعها كالسابقة إلا من جهة أن من أراد شرائها يعرف أن كاتبها لا يسلمها فيما تسلم فيه المطبوعة لأنه عانى من المشاق ما لا يعلم حقيقته إلا من ذاقه بخلاف من اشترى مطبوعا ليبيعه فإنه لم يعان مشقة بل متى استفاء أكثر مما دفع رضي به ، ومن الكتب الموجودة في أيديهم ما لا يوجد في المطبوعات أصلا وهي كثيرة منها تآليف للسوقيين وتواليف للكنتيين ، وأهل تنبكت ، وأمثال هؤلاء من علماء أهل الصحراء الذين ليست لهم مطابع ولم ترسل كتبهم إلى الآفاق الطابعة ، ومنها كتب توارثوها عن أسلافهم مخطوطة ولم يظفروا مطبوعة ، ولولا خشية الإطالة لعددت كثيرا من هذا القسم ، ومن القسم الذي قبله مع الاعتراف بالعجز عن الإحاطة بها تذييل في الكلام على عملهم في المداد والأقلام .

أما المداد : فيلونونه بجميع الألوان يجعلونه أسود وأحمر وأصفر وأخضر أما الأصفر والأخضر فلا يكتبون بهما الكتاب بل يزينون بهما ويكتبون بهما بعض الكلمات قليلا ، وأما الأحمر فيكتبون به المتون المشروحة وبعض الكلمات من غير المتن مثل أوائل الكلام ، أما الأسود فيكتبون به الشروح والطرر والألواح وسائر ما يكتبون سوى المذكورات

، وطريقتهم في خط المصحف أن يكتب كله بالمداد الأسود وتكتب همزاته المحققة بالمداد الأصفر وتكتب ألفاته بالأحمر ويشكل به ، ولهم كتب في آداب خط المصحف يعتنون بها ويستعملونها في كتابة المصحف .

أما اللوح : فلا يتأدبون في كتابته كما يتأدبون في كتابة المصاحف ولكن يعتبرون فيه ما لا يعتبرون في غيره من الكلام ، وأما ما يصنع فيه مدادهم فكثير وأجوده أن تحرق حجارة كانت في بلادهم تسمى (تَفِدَتْ) حتى تسود ثم تخلط بدقيق القرظ والعلك فيجعل في ذلك ماء فإذا اختلط هذه الأشياء تولد من اختلاطها ماء منعقد شديد السواد هو المداد الأسود والأحمر يصنع من حجارة تَفِدَتْ أيضا لكن يبالغ في إحراقها حتى تحمر ويضاف إليها العلك ولا يجعل فيه القرظ لأن طبيعته التسويد .

وأما القلم : فيعملونه من قصب فيبري رأسها ثم يشق المبري نصفين ثم يبري كل شق حتى يكون رأس القصبة رقيقا جدا ، ثم يحرفه الكاتب على وفق مراده . وإنما تكلمت على صناعة الخط مع الكلام على العلوم لكون تجويد الخط من متعلقات العلوم فقد جرب أن صناعة الخط الجيد من أمارات بقاء العلم في القبيلة فإذا أقبلت قبيلة أو أهل بيت على العلوم كثر فيهم الكتاب المجيّدون ، فإذا نقص فيهم العلم نقص فيهم الاعتناء بالخط فلا يزالون كذلك ينحطون من مرتبة إلى أسفل منها حتى ينعدم فيهم الخط ويبقى فيهم التعلم ويتخذون من غيرهم كتابا يكتبون لهم فإذا انقرض ذلك الجيل اقتصر من بعدهم من العلوم على مرتبة أدون من مرتبتهم فلا يزالون يسقطون العلوم شيئا فشيئا إلى أن يبقى الخلف الذي لا شيء معه من الخط ، ولا العلوم فيذهب ريح تلك الأمة لا يعرفون أن لهم سلفا في التعلم فربما بقي شيء من كتب أسلافهم بأيديهم ، وربما ضاعت الكتب حتى لا فرق بين من كانوا من أهل العلم أصالة وبين غيرهم ممن ليس لهم أصل في التعلم .

الفصل الخامس

في كيفية القضاء والإفتاء عندهم أما القضاء : فليس عندهم من الوظائف السلطانية التي يوليها السلاطين من شاءوا ويعزلون من شاءوا لأن سلاطينهم أميون لا يعرفون من الأمور إلا ما يتعلق بالحرب والسلاح وإمارتهم إنما كانت أولا بالتغلب ، ثم صارت إلى رأي أهل الحل والعقد بشرط أن لا يخرجوها عنهم إلى غيرهم من القبائل فإمارتهم لا تكون إلا بالعلماء وولاية القضاء لا تتوقف عليهم ، وليسوا منها في شيء إلا أن يصدر العلماء من تولية من يولون فيقونه على إنفاذ أموره يقهرون من

خالفه على الانقياد ولا يمنعونه من إقامة الأحكام إلا الحدود فا..ـــــهاهم الذين منعوا من إقامتها في زمن كَاوَ وما بعده فتولية القضاء أولا موكلة إلى العلماء ينظرون فيمن توفرت فيه شروط القضاء التي ذكرها خليـــل من جماعتها فيولونه ذلك المنصب ثم كانت منهم جماعات يتوارثون ذلك المنصب لكن لا بمجرد التعصب والهوى بل بأن يتفق أن يكـــون العلـــم والفضل في أهل بيت فيكون للابن ما للأب والجد أو فوقه فإذا اتفق مثل ذلك في أهل بيت بقي فيهم القضاء أزمانا لكن لا يتولاه أحـــد مـــنهم إلا بالإجماع من أهل الحل والعقد على استحقاقه لذلك المنصب مـــن جهـــة العلم والأمانة والفطانة كما استحقه والده وجده فإذا قصر الابن عن آبائه طلبوا من أهل البيت وبني عمه من يستحق ذلك المنصب فيولونـــه مـــا للقاضي قبله من **الفصل** بين الخصوم والنظر فيما ينظـــر فـــي القـــضاة والولاة من أمور من يتبعه من الناس هذا هو الذي يعملونـــه فـــي حـــق جماعة لهم مسجد يرجعون إلى أهله في أمورهم لأن العادة فيهم أن الحي الذي كثر فيه العلماء هو الذي يحكم على أمم كثيرة ممـــن لـــيس فـــيهم العلماء ويرجع إليهم في الأمور وينفذون كل أمر ذي بال عند مسجد هم وغير أهل العلم لا يكون فيهم مسجد كذلك بل مساجد هم مقصورة علـــى أداء الصلوات فيها ، وجميع ما ينزل بهم من النوازل أو يقع بهـــم مـــن الخصومات يرفعونه إلى مسجد علمائهم الذي إذا أطلق لفظ المسجد فـــي كلامهم فهو المراد ومن تلك المساجد التي تحكم على أهل المساجد لكون علمائها أكثر علما وعددا وفضلا ما سواها من المساجد بأن أهلها أكثـــر علما وأشد مهابة وتعظيما في قلوب الســـلاطين .....مـــسجد آل محمـــد البشير ، ومسجد أهل تكَلاَلَة ، ومسجد أهل تَبورقْ ، ومسجد أهل كُنْهَانْ ، ومسجد بني أعَالّ الذين يقال لهم في الزن الماضي أهل تِتَمَصْكَرْ..ـــها اســـــمـــــم أهـــــــل تِمُكَـــــــــسِنْ

وأهل هذه المساجد في حكم حي واحد في جميع أمـــورهم الدينيـــة إنمـــا اختلفت ...هم من جهة أن لكل حي منهم منزلا ينفرد بـــه فـــي الـــشتاء والصيف فنسب إليه ، وربما اجتمعوا أحيانا في منـــزل واحـــد ، وهـــذه الجماعة هم الذين يساكنون الأمراء في الصحاري ،وكان لأهلهـــا مزيـــة على غيرهم ...ـــباهم أنها هي التي حازت مرتبة قاضي القضاء يتعقبون الأحكام ولا تتعقب أحكامهم وينكرون عليهم وإذا ولوا واحد منهم القضاء فلا يعزل بل يبقى في وظيفته حتى يموت ويكبر جدا فيولي من أصحابه ممن رضيه للناس ....منصب الإنفاذ منهم يكون من ذرية محمد البـــشير لكن لا ينفذ أي شيء إلا بمشاورة أصحابه ....ثوا على هذه الحال قرونا

. وأصل اختصاص آل محمد البشير بهذا المنصب وهو القضاء على القضاة اختلف فيه الروايات فأهل تَكَلَالْتْ ......أن جدهم المختار الملقب بتَبَّلَّ لما ولي جد أمراء إولمّدن إمارة بلاده ...العدَال سلطان إكَدَزْ رحل الشيخ الشريف تَبَّلَّ إلى العُدَال ليوليه خطة القضاء كما ....خطة الإمارة فلما وصل إليه وذكر حاجته أبي عليه فألح عليه الشيخ حتى قل ....ان لا أوليك ذلك المنصب إلا بأن تأتيني بعشرة أفراس من عتاق خيل دبَّكَرْ المشهورين ...هم أجود ما في البلاد من الخيل يباع أحدهما بمائة من البقر أو من الإبل أو أكثر من أصناف ...متاع ، وكانت قبيلة دَبَّاكَرْ حينئذ تحت أمر الشيخ الشريف تَبَّلَّ المذكور فأخذ ..شرطه السلطان وولاه السلطان ما طلب منه ثم رجع إلى بلاده فقال لأخيه الأنصاري ..محمد البشير جد جماعة إكَدَشْ أريد أن تحمل عني ما حملت فولاه القضاء ثم صار باقيا في ذريته بمشاورة أهل بيت تبل ومغاوتتهم واستفائهم في النوازل يستفتونهم في جزئية ويذاكرونهم حتى يتفقوا على حكم فإذا اتفقوا عليه أنفذه القاضي من آل محمد البشير وإذا أنفذه فلا يتعقب وإذا أفتى واحد من أهل بيت تبل في شيء فلا يلتفت آل محمد البشير إليه بعين الانتقاد بل بعين الاعتقاد والإلزام لمن خلف قولهم هذا ما أخذته عن شيوخ أهل تكَلَالْتْ رواية ، وروية من خط بعض أسلافهم .وأما آل محمد البشير فيقولون إن أصل اختصاصهم بمنصب قاضي القضاة أن الأمير كَردَنَّ لما تولى الإمارة على البلاد جمع أهل العلم وطلب منهم أن يعينوا له أعلمهم وأصلحهم فاتفقت كلمتهم على أمَّدْ والد محمد البشير فولاه القضاء العام ، ويمكن الجمع بين الروايتين بأن الشيخ محمد المختار المعروف بتبل ما آثر أخاه محمد البشير بتلك الأمانة الجليلة إلا لما علمه فيه من استكمال شروط القيام بها من جهة العلم والديانة والنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم فلما آثره بها وكان الأمير كَردَنَّ هو الذي يقوي القاضي على الإنفاذ أسند إليه أنه هو الذي ولاه القضاء من أول الأمر ولا مانع من أن يقيمه أخوه في مقامه من فصل الخصومات ويقويه الأمير على الإنفاذ ويبقى أمر **الفصل** في ذرية الشيخ وأمر التقوية في ذرية الأمير وينسى أمر المتسبب الأول لطول العهد ولأنه لا داعي إلى نشر هذه القصة بين كل أحد لأن ذرية الشيخين متفقة فيما بينهم لا ينافس بعضهم بعضا في شيء وكل منهم يقر لصاحبه بالفضل ويثني عليه ي المجالس ويشيد ذكره ولا غرض لذرية الشيخ الشريف في نشر هذه القصة والتعزز بها والاستطالة على الناس بسببها لأنهم من أهل الزهد والتواضع تتبعهم المناصب ويعرضون عنها ولا

ينظرون إلا فيما يقربهم إلى الله وقد نالوا من أهل الشيخ الأنصاري من التبجيل والتعظيم والتوقير والتكريم ما أغناهم عن التقرب إليهم بالفرية ومن شدة المحبة والصداقة ما يمنعهم من التعزز عليهم والاستطالة ، اعلم أن هذا الشيخ ما رحل هذه الرحلة ونحل هذه النحلة طلبا لعرض الدنيا بل إنما عمل هذه العمل لكون أهل بلده آلفين للفوضى لا داعي فيهم ولا مطيع بل كل منهم يدعي الإمارة لنفسه على قومه أو على أهل بيته أو على غير معين ولكن لا يزال تمنيه نفسه أنه على شيء ، فلما تفطن الشيخ لدائهم الهام وعلم أنه لا تنتظم عليه أمورهم تحيل عليهم نصحا لهم وحرصا على أن تتحد كلمتهم تحت قيادة دينية بأن أغرى عليهم السلطان المذكور ليوحد كلمتهم من حيث لا يشعرون ولم يكتف بتوحيدهم تحت إمارة كَرِدَنَّ لأنه جاهل لا ينظر في الأمور بنفسه بل بالاستناد إلى أهل العلم فلما ظفر بمراده من كون أهل البلد تحت حكم رجل واحد يقيمه السلطان مقامه زهد في مباشرة تلك الأمور وأناب فيها أخاه الذي كان يعتقد فيه أنه يقوم بحقها . والله أعلم

وأما أهل البحر من السوقيين فيذكرون أن أمير إمَرَوَنْ الذين كانوا في أرض أنسَنْكُ هو الأمير على قبائل السوقيين ، هكذا حدثني بعضهم ، وزعم بعضهم أنه رأى في خزانة الكتب السلفية المخطوط عند بيت الشيخ إفْنَفَنْ بن أكِنَتْ كتابا قديما يستأذن بعض آل البشير فيه كبير حي إفْنَفَنْ في تولية بعض قضاتهم ولم يؤرخ ذلك الكتاب فيعلم الناظر فيه هل هو قبل إمارة كَرِدَنَّ أو بعدها ، ولكن أَهْل بُكُ أنفسهم لا يزالون يعتقدون أن أمورهم الشرعية والسياسية موجودة قبل كَرِدَنَّ بقرون فلما تغلب كَرِدَنَّ على البلاد صالحوه بأموالهم وأبقاهم على جميع ما كانوا عليه من الخطط والوظائف من الإمارة والقضاء وغيرهما ، وقد سمعت من أشياخهم الذين أدركتهم كثيرا من هذا ، وأما سلفي فلم أسمع منهم شيئا من هذا نفيا ولا إثباتا ، وقد سمعت عن غير واحد منهم أن سيد جماعة آل محمد البشير الذي يكون عنده المسجد ويتولى القضاء ...سفرة سنوية يعملها كل عام ، إذا أراد أن يأخذ فيها أرسل إلى كبراء الأحياء الذين تقدم أنهم كحي واحد حتى يجتمعوا عنده فيخرجوا في سفرتهم المشهورة ..سفر القضاء فيتبعوا أهل المساجد ينظرون في أحوالهم وقضائهم فمن وجدوه ...م بغير مشهور مذهب مالك نقضوا حكمه ومن وجدوه يحكم تبعا لهواه أدبو، ...زلوه ونظروا في أعمال الناس يقيمونها ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ...لحون ما يحتاج إليهم من الأمور ، هكذا يعملون في جميع البلاد التي يجمعهم واياها ...طان واحد ، ولا

يزالون كذلك حتى يطوفون على جميع أهل المساجد وربما مكثوا في ذلك عاما حتى صار عرفا في بلادهم أن من أطال في السفر قيل فلان سافر سفر القاضي وكان ..في أيام الأمراء من كَرِدَنَّ ، ولما اختلفت مملكتهم وتعددت فيها الإمارات وكثر الخوارج على سلطانهم العام آثر ذلك في انضباط أمور القضاة وانقيادهم لمن كان له منصب قاضي القضاة فخلا الكثير من المتفقهة الجو فجعلوا يفتون ويقضون من غير تقيد برؤسائهم واستولى الجهل والكسل والبطالة على أمراء البلد فتركوا كثيرا مما يعمله أسلافهم من تقوية العلماء على إنفاذ الأمور وصاروا يقولون نحن لا نعرف فضل بعض العلماء على بعض فالرأي أن تخلي سبيلهم فلما صاروا إلى ذلك الأمر ضعفت قوى الجماعة الذين يفتشون عن الأحكام وبقيت فيهم القوة العلمية لأن معهم من فنون العلم وسائل ومقاصد ما لم يكن مع غيرهم ، فلم يتركوا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما يطيعون وأقاموا الجهاد اللساني وجهدوا أقلامهم في تغير المناكر وكلما سمعوا فتيا أحكما يخالف المشهور راسلوا أصحابه وردوا عليه وأبطلوا قوله وكلما سمعوا مبتدعا في قطرهم نادوا بالنكير وشهروا بدعته وحذروا الناس منها فنصرهم الله في قلوب الخلق قبول كلامهم وإيثاره على ما يخالفه وتدارك الله الأمة بذلك القدر من جهادهم ونفع بهم أهل بلادهم كان ذلك حالة البلاد من أواخر القرن الثاني عشر إلى أوائل القرن الرابع عشر ، فلما استولى فرنسا على البلاد عام ألف وثلاث مائة وسبعة عشر 1317هـ سقط كل ما بأيدي الأمراء من أمور البلد واستقل كل قوم بأمورهم من التأمير وتولية القضاء ولم يبق إلا السلاطين الحي وهو العلم الشرعي وسخر الله المتغلبين على البلاد من فرنسا للمسلمين فأقبلوا على جباية الأموال وقمع الظلمة وخلوا بين الناس وبين أمورهم الدينية والسياسية ، من أجمعت الجماعة من أهله على تولية الإمارة أو القضاء أمضوا ذلك ، ثم أولوه من التعظيم والتقدير ما يقدر به على إصلاح أمور رعيته وأتباعه ، فلما استقل كل قوم بتوليته من شاءوا منهم لم يبق من يفتش على المتفقهة الباطلين المبطلين إلا من جهة ألا علمية فمن اعترف أهل بلده بكونه أعلم وأتقن كان قوله فيهم أنجح وأبقى سواء في ذلك قومه وغيرهم فإذا نزلت النازلة في بعض القبائل التي ليس فيها من يشار إليه بالأعلمية رفعوها إلى عالمهم فإن تيسر له الجواب وإلا رفعها إلا من كان أعلم منه وربما رفعت إلى ذلك الأعلم من أول الأمر فإذا أجاب بشيء وقفوا عنده في الغالب وقد ينكر بعض الجهال ما حكم به عليه فيلومه أصحابه ويعيرونه بعاندة الحق حتى يرجع إلى الصواب ويذعن

لما قال ذلك العالم وربما شكى المحكوم له إلى الحكومة الفرنسية فيسألونه عما قال علماء الإسلام في النازلة فإذا أخبرهم بأن العلماء حكموا له على خصمه فعاند ولج مكنوه من حقه وأزالوا ظلامته ربما عيروا المعاند بعناده وربما سجنوه أو ضربوه ، وربما سأل أهل الحكومة عن أعلم أهل بلد يأمرون الناس بالوقوف عند مقاله ويهددونهم بالسجن إن خالفوه وينهوا غيره من المتفقهة عن معارضته والتعرض للأحكام في كل محل يبلغه قوله فكان لعملهم هذا ...في صلاح الأمة وتمسكهم ببعض الحق (إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) { ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون }

وأما الإفتاء : فله عندهم طرفان : أسفل ، وأعلى ،الأسفل : فهو دون القضاء لأن غايته أن يستفتي المرء من كان أعلم منه وإن كان ذلك عالم قاصر في العلم فيجيبه بما علمه وربما لم يحط ذلك المفتي إلا بكتاب واحد فيقرأ ...من غير إلزام ، وربما كان المسئول طالبا والسائل ممتحنا له يريد أن يعرف قدره في فقاهة النفوس ....مقروءه وفي تأهله لصنعة القضاء إن توجهت إليه ولا يسمى هذا المفتي قاضيا وقد رأيت من علمائنا يتحامى عن منصب القضاء حذرا مما ورد من الوعيد على الجور فيه ولكنه يتعاطى هذا من الإفتاء ، ومنهم الشيخ محمد الصالح المعروف بمثال بن الأمين ، وعمي أحمد بن عُمار كل منهما ....بين خصمين ولكنه إذا سئل عن شيء رفع الكتاب وقرأ المسألة التي فيها حكم النازلة ثم ...من معه من أهل العلم ، أما أنا فلا أحكم وأما أنت فإن كنت تقول لذينك الخصمين شيئا فهذا هو ....إلى حكم ما سألا عنه ، وقد صحبت هذا الشيخ محمد الصالح بن الأمين السوقي الكنتي مرة .....رو أنا حديث السن لم أقرأ من الفقه إلا رسالة ابن زيد وأبوابا من مختصر خليل وعنايتي إنما أصرفها إذ ذاك إلى النحو وعلم البيان ، وكنت حقيرا في نفسي قاصرا عن مرتبة الجواب في مسألة من مسائل الفقه ، فإذا حضر الخصوم مجلسنا قال : لي ذلك الشيخ الذي كنت معه استمع لهم فإذا فرغوا من إلقاء حججهم وسألهم عن البينة ونظر في جميع أحوالهم حتى لم يبق إلا الجواب أخذ الكتاب وقرأ لي فيه حكم نازلتهم ، ثم قال لي قل لهم شيئا فإني لا أفصل الخصومات فأترجم لهم ما قرء من الكتاب ، ولم يزل ذلك حاله مع الخصوم ومعي وأظن أنه تفرس مني أو كوشف بأن ذلك الشأن سأصير من أهله ولذلك نصبني للفصل بين الناس بالصورة المذكورة وفي تلك السنين التي لم أعتن إلا بالنحو والبيان أيضا أجازني في الإفتاء القاصر عن القضاء شيخ الشيوخ في وقته الذي سلم

أهل عصره سبقه في معرفة مسائل الفقه وصناعة القضاء ، وهو خالي حُمَيْد بن عبد الرحمن بن الميمون الأنصاري اليعقوبي فقد بعثني إليهم جدي والد أمي عبد الله بن الميمون نائبا عنه إلى جهة أزوَغْ وكان أولئك القوم الذين بعثني إليهم لا يرفعون خصوماتهم إلا لأهل ذلك البيت الذين منهم جدي عبد الله وابن أخيه حُمَيْد فلما عزمت على الخروج من الحي ناولني الشيخ حُمَيْد بن عبد الرحمن كتاب سعد الشموس والأقمار محشى بمسائل من كتب الفقه وأكثر حواشيه ما اختاره ذلك الشيخ من نوازل الشيخ بَايْ الكنتي ، وناولني نسخة من تحفة ابن عاصم قديمة بخط أسلافهم محشاه بالنوازل والمسائل ، ثم قال لي إن ستسأل عن أشياء فمتى ما سئلت عن شيء فتأمل حتى تعرف الباب الذي هو مظنة الجواب عما سئلت عنه ثم اقرأ الباب فإذا وجدت من متن الكتاب وطرره ما تقطع بأنه جواب ما سئلت عنه فأجب به وإلا فعليك بلا أدري وقد علمت أنه ، وقد علمت أنه أجازني بالإفتاء قبل التفقه إلا ثقة منه بمعرفتي باللغة العربية بحيث لا أخطئ في ترجمتها ، وتسهيلا لما أجازني لأنه لا لزام فيه ولا يحتاج إلى كثرة التفتيش ولا غيره مما يشترط في الإفتاء إلا على .

وأما الطرف الأعلى : من الإفتاء فهو فوق مرتبة القضاء لأن شرط من ينتصب له أن يكون محيطا بالعلوم العربية من النحو ، واللغة ، والمنطق ، والبيان ، وكلام العرب ، ممارسا لأصول الفقه ، وفروعه ، ماهرا في التفسير ، والحديث ، محلى بالتقوى ، والورع ، موصوفا بالهمة ، والشجاعة بحيث لا يخاف في الله لومة لائم ، لم يفته من شروط المجتهد المطلق إلا النزر اليسير ، وربما كان عنده من العلوم ما يقصر عنه مجتهد الفتوى ومجتهد المذهب لكن لا تطمح نفسه إلى الاجتهاد بل يبالغ في التقييد بمذهب مالك والعمل بمشهوره .

ووظيفة المتحلي بالحلي المسطورة أمران :أحدهما : رفع ما وقع من الخلاف بين أصحابه القاصرين عن مقامه الذين قصار أحدهم أن يخبر بنقل كتاب أو كتابين من غير معرفة بقواعد المذهب وأصوله ومداركه ولا إحاطة بما فيه من الخلاف في نفسه ولا خلافه لغيره من المذاهب ، ولاتقييد مطلقاته ولا تخصيص عموماته فإذا اختلف هؤلاء فيما بينهم فالمفتي الأعلى هو الذي يفصل بينهم ويرجح لهم في الخلافيات ويفيد بعضهم ما ليس عنده من العلم وهو الذي يبين لهم في الغالب ما يجب نقضه من الأحكام وما لا ينقض بعد أن يحكم به ، وربما اعتقد بعضهم في معلومه أنه مجمع عليه ليس لأحد أن يخالفه لأن خلافه خرق الإجماع

متفاوتون في مراتب التقليد منهم المقلد المحض الذي لا يعرف من الفقه إلا ظاهر ما في مختصر خليل مع المقصود عما في شروحه من تقييد الإطلاق وتخصيص العموم وتضعيف شيء مما ذكره وترجيح غيره عليه وغير ذلك مما هو وظيفة الشارح والمحشي ، ولا يلتفت إلى ذلك لظنه أن الحق محصور في مسائل المختصر أو الرسالة ، ومثل هذا لا يستقضى ولا يستفتى إلا أن يكون مستفتيه جاهلا فإذا أفتى في شيء فلا يعمل بفتواه ما لم تعرض على أعلم منه فإذا عرضت على الأعلم وأجازها عمل بها وإلا فلا ، وإن أفتات على العلماء وحكم في شيء نقض حكمه له اتق الله ولا تتبع فلانا في شيء خالف فيه كبار العلماء فإنه لا حجة في قوله وحده ، منهم المطلع على الشروح والمطولات وليس له حظ من علم الأصول ولا قدرة له على النظر ، ولا الترجيح فهذا يفتي بمنقولاته وإذا لم يجد عن نازلته فيما بيده من الكتب ردها إلى الأعلم ، ومنهم المتبع الذي يسميه من حصر تقسيم الإفتاء في الاجتهاد والتقليد مقلدا وهذا لأنه يسمي كل قاصر عن الاجتهاد مقلدا دون من فرق بين التقليد والاتباع فجعل التقليد مذموما لفقدان شيء من الدليل فيه والاتباع محمودا لأن المتبع معه سلطان من الدليل أن عمل بقول بعض المجتهدين من غير اطلاع على دليله إلا أن ذلك المجتهد ثبت عليه ولم يرجع عنه إلى أن مات فهو عامل بالدليل ، لأن المجتهد دليل ، إن عمل به مع معرفة دليله فإن كان ذلك الدليل نصا فهو غير مقلد للمجتهد فيه لأن المراد لا يقلد إلا في نظره أما ما رواه فغاية أمره فيه نقله لمن يرويه عنه فإذا بلغ إلى الراوي فهما فيه سواء لا يقلد فيه اللاحق السابق وإن كان له فضل السبق والمشيخة ، وإن كان ما أخذه عن المجتهد نظرا لذلك الإمام وكان ذلك العامل من أهل النظر فوافق نظره نظر المجتهد فهو اجتهاد وافق اجتهادا ولا يخرجه ذلك النظر عن متابعة إمامه بل هو المتبع له حقا لأنه الذي أحاط بشيء من علومه وعرف مقامه وأتبعه عن بينة ، ومن قرأ النحو ، والبيان ، وأصول الفقه وقواعده وشيئا من الأحاديث والآيات التي فيها الأحكام وكان له حظ من فقاهة النفس وصل إلى مرتبة الاتباع وترقى عن التقليد وإن قصر عن الاجتهاد المطلق ، ومثل هذا المتبع هو الذي يكثر نصبه قاضيا في مساجد السوقيين عملا بقول خليل في شروط القاضي مجتهد وإلا فامثل مقلد ، فإذا قضى في شيء فلا يتعقب حكمه وإن نصب للقضاء من لم يستوف هذه الشروط فليس له من الأحكام إلا الإمضاء لما اتفق عليه أصحابه المستكملون لهذه الشروط كلما أتاه خصمان أو خصوم استحضر من أصحابه من يتصف

بما تقدم من الأوصاف ولا يكتفي بما معه من العلم إن كان قاصرا عن مرتبتهم ، وأنفذ ما اتفقوا عليه فإذا أنفذ لا يتعقب إنفاذه بل هو الذي يتعقب إنفاذ غيره إن شاء كما قيل :
وننكر إن شئنا على الناس قولهم ... ولا ينكرون القول حين نقول
وهؤلاء المتبعون هم القائمون بالجهاد القلمي يردون على من خالف السنة في أقواله وأحواله وعلى من خالف مشهور مذهب مالك ممن لم ينتصب لفصل القضاء ، وأما القضاة فلا ينقضون من أحكامهم إلا ما خالف قاطعا أو جلي قياس ولا يرخصون لأحد في متابعة أقوال غير المالكية من أهل المذاهب بل يعدون ذلك من البدع ، وقد جرت مشاغبات ومخاصمات بين العلماء من السوقيين وغيرهم قديما وحادثا في هذا التطبيق ومقابله من التوسيع على الناس في العمل بماشاعوا من أقوال العلماء : فمال إلى التوسيع طائفة من أسلافنا : منهم عم أجدادنا محمد بن عالّ بن أدّ الغزالي فقد رأيت له رسالة ينحو فيها منحى التوسيع وينكر على أهل زمانه من السوقيين تشديدهم على الناس بإلزامهم مذهب مالك حتى آل بهم ذلك أن يحكموا على أحد بتحريم زوجة أو مال لم يحرم عليه في غير مذهب مالك من المذاهب ويمتنعون من إفتائه بالإباحة الواقعة في غير المذهب فيعال صبر ذلك المحكوم عليه فيعاشر تلك الزوجة أو ينتفع بذلك المال تبعا لهواه معتقدا حرمة ما يعمله ، ولو أنهم أفتوا بالإباحة تبعا لمن قال بها ما وقع بذلك الإثم وإنجاء واحد من الأمة من المعصية أحب إلى الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم من التزام مذهب معين .
هذا حاصل ما يميل إليه في هذه الرسالة وتبعه في ذلك المنحى من أهل القرن الثالث عشر محمد بن الهادي ، ورأيت رسالة أخرى للشيخ ابن إركّيْ تَلْفِ الفلاني سماها (تحفة أهل السوق بما لا ينال بركوب الجمال والنوق) وهي جواب عن أسئلة سأله عنها محمد ابن الهادي المذكور .
ومن تلك الأسئلة هل يجوز للمقلد أن يعمل بمذهب إمام غير إمامه ومن محصل ما أجابه به : أن أهل المذاهب قلما تسلم أحوالهم من المناقضة لأنهم يقولون بأفواههم أن الأئمة كلهم على هدى من ربهم ومع ذلك لا تجد منهم إلا من يضيق على الناس ولا يجيز العمل بغير مذهب إمامه إلا في محل الضرورة التي تبيح المحظور ، وذلك إساءة أدب بالأئمة حيث أنزلوا قولهم في تلك المنزلة ، ومن الجهال المدعين للعلم من لا يجيز متابعتهم ولو في محل الضرورة بل يتحيل لقول منسوب لأهل مذهبه ولو شاذا وربما تمسك بشيء لم يصح في مذهبه ويترك مقابله الصحيح في

مذهب الغير وليس ذلك من الاحتياط للدين في شيء ولم يرد في الشرع ما يدعوا إليه . إهـ حاصل كلامه .وعلى هذا المنحى أشياخ حي تَنْغَ أكَلْ : فإنهم يفرقون كثيرا من أصحابهم في تحقيق علوم العربية وتحقيق علم الأصول بعضهم يحفظ جمع الجوامع لابن السبكي ويعتنون به فوق اعتناء غيرهم فاكتسبوا بذلك أنهم لا يعتقدون انقراض الاجتهاد كما يعتقده غيرهم ولا يحصرون الحق في قول واحد من الأئمة يدرسون مذهب مالك ويتعلمونه ولكنهم إذا أرادوا الانتقال إلى غيره من المذاهب في بعض المسائل انتقلوا ، وربما نظروا في دليل المخالف فيعتقدونه أرجح فيعملون بقوله لرجحان دليله ولا يعدون ذلك خروجا عن مذهب الإمام مالك بل يجعلونه حق المتابعة للأئمة لأن الأئمة كلهم نقل عنه ما معناه وحاصله الإرشاد إلى الأخذ بالدليل والفرار من التقليد المحض ، وتلك الأقوال كثيرة في كتبهم فوسعوا على أنفسهم في كثير من المسائل مع شدة ورعهم في كثير منها وتحرجهم في كثير يعمله غيرهم من أصحابهم وكان ذلك طريقة لهم قديمة يأخذها الأخلاف عن الأسلاف .
ومال إلى التضييق والتزام مشهور مذهب ملك : طوائف أشدهم في ذلك حي إكَدَشْ : الذي يكون فيه قاضي القضاة فكم من مؤلف لهم في الرد على من خالف مشهور مذهب مالك وينكرون على من توسع في أقوال العلماء من غير تقيد بواحد معين ، وعلى من ادعى الاجتهاد من أهل بلادهم ثقة من نفسه بالأهلية ويبينون له أنه إن أحاط ببعض شروط الاجتهاد فقد عدم جلها : مثلا إن كان نحويا أصوليا بيانيا فليس محدثا وإن كان معه شيء من كتب الحديث فلم يعرف الناسخ والمنسوخ ، وإن كان بيده شرح ينبه على الناسخ والمنسوخ فلم يحط مواقع الإجماع والخلاف ، إلى غير ذلك مما يردون به على من خالف طريقهم في الفتوى متمسكا بحجج باردة ومعتمدا على أقوال واهية . وقد أحسن عمنا العلامة محمد بن دانيال الشريف الدغوغي في بعض ردوده على متفقهة عصره إذ قال : ما حاصله (إنا لم نعتقد انحصار الحق في مذهب مالك بل نعتقد أن الأئمة المجتهدين كلهم على هدى من ربهم لكن رجحنا مذهب مالك لأن عندنا من مؤلفاته أصولا وفروعا نحوا من خمسين مصنفا وليس كذلك مذاهب أصحابه فليس عندنا من الأصول الشافعية وليس عندنا مؤلف يتكفل بتبيين قواعد مذاهبهم وفروعها ، بل نجد في كتاب مؤلف في مذهب أن يقول مؤلفه خلافا للشافعي مثلا ، ومثل ذلك لا يعتمده العاقل في أمور دينه بل يلزمه أن يحيط علما بمن يقلده دينه من جهة قواعده وأقيسته ، ويعلم ما رجح عنه من الأقوال وما استمر عليه

إلى أن مات ، ويصحح سنده إلى ذلك المقلد ، ومتى اختل شيء من هذه الشروط فلا يصح التقليد بل من التلاعب بالدين أن يعمل المرء بكل قول وقف عليه من غير معرفة قائله ولا دليله) . هذا معنى كلامه ولفظه لم يحضرني وقت الكتابة وهو كلام في غاية التحقيق والإنصاف . وأما علماء أهل تَكَلَّتْ : فطريقتهم أن من سألهم أفتوه بمشهور المذهب ومن لم يسألهم وخالف المشهور ، وعمل بقول بعض العلماء فلا يتعرضون له لأنهم لا ينقضون من الأحكام إلا ما خالف قاطعا أو جلي قياس ، ولا ينكرون إلا ما أجمع على تحريمه إلا أن يكون القول الذي عمل به المخالف معلولا أو غريبا لا يرون العمل به جائزا وإن ظنه العامل به فيبينون له أن ما زعمه دليلا لا دلالة فيه وأن ما ظنه خلافا يسوغ العمل به ليس كما ظنه ، وليس كل خلاف جاء معتبرا . وأما أهل تَبُرَقْ وأهل تِكِرَتِنْ : فلم أر لأسلافهم في ذلك نظما ولا نثرا لكن لم أسمع مخالفتهم لعلماء أهل تَكَلَّتْ في شيء من الأحكام بل بلغني عن أسلاف هذه الأحياء أنهم شيء واحد في الأحكام ، وعلى ذلك أدركت من أدركتهم ولم يزل ذلك الاتحاد إلى الآن ، وقد حدثني بعض أشياخ أهل تَبُورَقْ وهو حَبَّ بن محمد أحمد وكان عارفا بأخبار الأسلاف أدرك جماعة من علماء جيه وكبرائه وأمثالهم من غيرهم من القبائل وأخذ عنهم كثيرا من أخبار الماضين حتى صار سلفيا علما وإن كان معاصرا جسما ، حدثني مرة وأنا مشتغل بالرد على متفقهة بلغني عنه حكم أنكره فشرعت في إنشاء رسالة لأوجهها إليه ، فقال لي الشيخ محمد حَبَّ لا يعجبني أن تفعل ذلك لأن سلفك الذين رأيت من آثارهم أنهم يكاتبون علماء الآفاق ويردون عليهم وينكرون ، ما زال سلفنا نحن يشفق على فعلهم ذلك لأنهم جربوا أن من تصدى لمقارعة العلماء لا يطول عمره بل كثير من أولئك المنتدبين للردود مات في أثناء تلك المراجعة والمكاتبة ، بعض أولئك الخصوم إذا عجز عن المحاجة مال إلى السحر فقتل به من خاصمه ، وبعضهم لا يزال يتوجه إلى الله في إهلاك خصمه ، ومنهم من يجاب دعائه فيهلك من دعا عليه فتبين لي من قوله أن طريقة أسلافهم تعظيم العلماء والتسليم لهم والسكوت عما صدر منهم لأنهم يخالفون أن يجاوزوا الحد المأمور به إن اشتغلوا بالخصومات فقدموا السلامة مما يغضب العلماء ويشوش خواطرهم على غنيمة أبطال أقوال بعضهم وعاكسهم أهل تَكَلَّتْ في المنحى فإنهم باعوا أنفسهم وهانت عليهم في جنب ما يصلحون من أمور الأمة وما يذبون به عن بيضة الإسلام فكان منحاهم مثل ما قال يحي بن معين وقد قال له بعض الناس أما تخشى أن يكون

هؤلاء الرواة الذين تجرحهم خصمائك يوم القيامة ، فقال : لأن يكون هؤلاء خصمائي أحب إلي من أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم خصمي وهو إذا خنت شرعه ، ولم أنف عنه ما يدنسه به المبطلون ، لا بد أن يخاصمني فيما أودعني الله من شرعه وأمرني بتبليغه كما بلغني .
وكانوا لا يخافون في الله لومة لائم سواء كان سلطانا أو عالما أو غنيا أو قريبا ، ويرون سكوتهم على الباطل خيانة منه للشرع ، ولا يرون الرد على عالم منافيا لتعظيمه ، ولا إبطال قوله الباطل مانعا من احترامه وتقديمه ، ومن دواعيهم إلى ما يعملون من الردود أن كثيرا من زوايا قطرهم وعوامه وسلاطينه يحتجون على إباحة الشيء بسكوتهم عنه فتأثموا من السكوت لأجل ذلك .

الفصل السابع

في كيفية تسويدهم ، ومعاملتهم مع القبائل التابعة لهم

أما اسم الإمارة فجل أحياء السوقيين لا يسمون به واحدا منهم لكراهتهم ما يعمله الأمراء من تعدي الحدود وأنواع الظلم ، فكان اسم الأمير عندهم لقبا سيئا يأنف منه كثير من ساداتهم فيما قبل احتلال فرنسا لبلادهم وكانوا تابعين لأمارة إولَمَّدَنْ مستغنين بتبعيتهم عن اتخاذ الأمراء من أنفسهم إلا ما كان من أهل بُكُ فإنهم لم يزالوا يتخذون الأمراء من أنفسهم وكان أمرائهم حاكمين على كثير من قبائل إخوانهم وقبائل من الرعايا قبل قيام دولة إولَمّدن بقرون فيما يقال ، ولما قامت دولة إولَمّدن حكموا عليهم كما يحكم السلاطين على أمراء البلدان مع بقاء إمارتهم على أتباعهم ، ولما جاء فرنسا وسلبوا الملك من إولَمّدن صادف ذلك أن فيهم أميرا لبيبا عاقلا عالما ووليا صالحا وهو أكِنَتْ فعظم في قلوبهم وأبقوه في إمارة أسلافه واستروح رائحة عدله قبائل لم يكونوا تحت إمارة أسلافه قبل فأضافهم الحكام الفرنسيون إليه وكان من السلطين ثم مات وخلفه ابنه سيد محمد ثم ابنه إفْنَفَنْ وهو حي الآن 1393هـ .وغيرهم من قبائل أهل السوق لم يُدْعَ واحد منهم باسم الإمارة بعد حكم فرنسا على البلد وانحلال إمارة إولَمّدن ، فكان في كل قبيلة من قبائلهم أمير بعضهم يتأمر على قومه وعلى كثير من القبائل غيرهم ويدعى باسم أمير الأمراء يعنى ما يقال له بلغة فرنسا (كَنْتُ) وبعضهم لا يتأمر إلا على قومه خاصة ويحكم عليه غيره من السلاطين الذين يطلق عليهم اسم أمير الأمراء وما زالوا على تلك الحالة الجديدة إلى الآن عام 1392هـ . وأما السيادة فكثيرة فيهم لكن على رسم الإمامة للجماعة والقيام بمؤنهم وكونهم منقادين لأمر السيد ونهيه متقيدين به في جميع أمورهم الاجتماعية وإذا

أرادوا تقليد أحدهم السيادة بنوا عند بيته مسجدا على حسب حالهم ، تارة يبنونه بقصب ، وتارة بشجر ، وتارة بحائط حجر ، وتارة يعجلهم الرحيل عن التعليم بأية علامة فيتخذون أمام بيت السيد مصلى يجتمعون فيه لإقامة الصلوات معظمين لحرمة البيت الذي يجاوره المسجد ويجتمعون فيه لمشاوراتهم وفصل الخصومات بين من يتقيد بهم من الناس ولا يخاصمون فيما بينهم غالبا ، وقاضيهم إنما ينصبونه لعوامهم وأتباعهم ، والأغلب أن يكون صاحب المسجد هو القاضي وهو القيم بأمور الجماعة ، وربما يتخذ من أصحابه من ينصبهم لفصل الخصام وتفتيش الكتب لطلب ما هو الحق في النازلة ثم يتولى تنفيذ ما اتفقوا على أنه هو الحق ، ولا يعزل سيدهم عن منصب أقاموه فيه بل يبقى فيه إلى أن يموت فإذا مات نظروا في الأصلح لجماعتهم فذهبوا إلى بيته وإذنوا عنده وأقاموا الجماعة للصلاة ويكون ذلك تسويده ، ومن الغالب أن ذلك التسويد يكون لكل قبيلة في أهل بيت مخصوصين منهم لا يتجاوزهم إلى غيرهم من أصحابهم وإن كان لهم من الفضل مثل ما لأهل ذلك البيت ، ولأهل تلك البيوتات الذين يختصون بإقامة المساجد حول بيوتهم ، من التقديم والاحترام عند أصحابهم الآخرين ما يحول بينهم وبين إقامة غيرهم في مقامهم بل يجعلون ذلك متداولا بينهم خصوصا مقدمين الأكبر فالأكبر من جهة النسب وإن كان أصغر سنا ، ومما يعملونه عند بيت السيد الملاصق للمسجد تدريسهم وقراءة كتب الحديث والمدائح النبوية فيجتمعون عنده لقراءة صحيح البخاري في شهري رجب وشعبان وقراءة الشفا للقاضي عياض في شهر رمضان وقراءة القصائد العشرينيات في المديح النبوي إذا استهل رمضان فعملهم في النهار إصلاح شؤونهم الضرورية والحاجية في أول النهار فإذا صلوا الظهر اجتمعوا إلى المسجد فقرءوا جزاء من الشفا ، وقد جزءوه على ثلاثين جزاء عدد أيام الشهر فإذا فرغوا من قراءة الجزء صلوا العصر وقرءوا شيئا من المدائح ثم اشتغلوا بمؤن الصائمين وإفطارهم إلى الليل فإذا أذنوا لصلاة العشاء اجتمعوا وصلوا العشاء ثم التراويح ثلاث عشرة ركعة ويختمون القرآن في التاروبح ، وكانوا آخذين بأن ليلة سبع وعشرين من رمضان هي ليلة القدر فيختمون فيها تراويحهم ، ثم يجتمعون لختم القرآن تلاوة ، ثم يفسرون شيئا من السور للوعظ والتذكير والتعليم ، وإذا حزبهم أمر لا قبل لهم به فربما اجتمعوا في مسجدهم فقرءوا المصحف كاملا ويتوسلون إلى الله بتلاوته ويدعون بما أرادوا فيستجاب لهم وكان من مجرياتهم أن ختم القرآن سبب لقضاء الحوائج فجرى عملهم بختم القرآن في النوائب

منهم من يختمه وحده ، ومنهم من يختمه مع الجماعة ، ومنهم من يجمع أهل القرآن ليختموا له القرآن ويدعوا له ، وربما اجتمعوا إلى المسجد في زمن قحوط المطر فيجتهدون في التوسلات والدعوات ثم يخرجون إلى المصلى الاستسقاء .

وأما السيد الذي يجاور المسجد بيته فوظيفته القيام بمؤن الجماعة الداخلية وسياسة القبائل الخارجية ومواصلة الرؤساء ومدافعة من يستطيعون دفاعه عن حرمهم والقيام بأمور الوفود ضيافة وإجازة وتفريق ما يصل إليه من المال فيهم وفي حوائجهم .وأما معاملتهم مع الناس فمبنية على سيرة السلف الصالح ينصحون الأمراء بطاعتهم وبرهم وعدم الخروج عن ظالمهم لأجل ظلمه لهم مع الإعراض عن سوء أفعالهم والإنكار عليهم باللسان إن ظنوا الإفادة في ذلك ، وبالقلب إن لم يظنوها ، ويعظونهم في بعض الأوقات ويرهبونهم من عاقبة الظلم ويدافعونهم عن الضعفاء بالتذكير والوعظ ويشفعون إليهم فيهم وربما نالوا عندهم من الجاه ما يمكنهم من رد كثير من ظلمهم عن الضعفاء الرعايا وقد يكون من أمرائهم صالح يتقيد بأقوالهم ويسمع منهم كل أمر ونهي ويكون منهم متوسط يكف ظلمه عنهم خصوصا ، ولا يكفه عن غيرهم ، وربما وقعت فتن وحروب يعجز الأمراء عن التدبير فيها فيقوم العلماء بأمر الرعايا ويرحل بعضهم إلى الأمراء الذين يبثون جنودهم إلى بلادهم فيستميلونهم ويلاطفونهم حتى يجيروهم ويؤمنوهم على بلادهم وأموالهم ، وقد يكون من العلماء من هو أوسع جاها من الأمراء في أهل البلد وفي البلاد الخارجة عنهم التي لم يبلغ إليهم حكمهم فيستظل الناس بظله ويستجيرون به ، ورب وقعة انقلب فيها الأمر على أمرائهم وثار عليهم من لا قبل لهم به وأيقنوا بالهلاك والذل فدافع عنهم العلماء بأقلامهم ودعائهم حتى ينجلي عنهم العدو ثم يقبل العلماء على شأنهم من التعليم والإرشاد ونصح الأمة ويخلون بين الأمراء وشئون إمارتهم ، وأما غير الأمراء من الناس فهم الذين يقوم العلماء بجميع أمورهم يخاصمون عنهم ويذبون عنهم ويأخذون صدقات أموالهم ويفرقونها في مصارفها ويتولون عقد أنكحتهم ويأخذون منهم تركة من لا وارث له فيصرفونها في مصارفها بيت المال التي في بلدهم فيفرقونها على الشرفاء والمدرسين والمؤذنين والفقراء والمساكين ، وليس في صحرائهم بيت مال منتظم ولا ولاة منظمون للأمور السياسية بل ليس فيها من الأموال التي تقوم بالمصالح العامة إلا الزكاة وليس لأمرائهم كلام في الزكاة إلا أنهم يعينون أهل العلم على أخذها من مانعها قهرا وأما صرفها في مصارفها فهم بمعزل عنها بل زكاتهم مما يتولاه

العلماء كزكاة غيرهم ويشددون عليهم في إخراج زكواتهم أشد مما يشددون على الضعفاء وينقادون لذلك فوق انقياد غيرهم حتى صار بعضهم يقول لمن يتولى إخراج زكاته من العلماء لا أعينك عليها بشيء اذهب إلى مالك واجمعه وطهره واترك لي ما بقي بعد تزكيته وجرت فيهم قضايا كثيرة من الإذعان لحق المال لم تجر في غيرهم من الناس .
وأما قسمة الزكوات التي تجمع إليهم من سائر القبائل الضعفاء والأمراء فموكولة إلى الكبراء من أهل المساجد ، كل جماعة متقيدة بأهل مسجد يجمعون إلى كبيرهم ما يخرجون من الصدقات فيقسمها بين المستحقين مضى على ذلك زمن طويل ، ثم حدث أن كل جماعة من أهل الأموال يكون لهم من أهل العلم من يتقيدون به ويختصون به وما من قبيلة من قبائل التوارق التي يحكم عليها بنوا كَردَنّ فيما بين رأس الماء وبلاد دِنْك إلا وفي السوقيين رجل أو أهل بيت يحكمونهم على أنفسهم في إخراج زكواتهم وفصل خصوماتهم وإصلاح أمورهم التي يقدرون على إصلاحها سواء في ذلك قبائل الأمراء وقبائل الضعفاء لا يتحاكمون إلى غيرهم إلا أن الشيخ المختار الكنتي وبنيه لهم من التقديم والتعظيم عند أهل السوق ما ليس لغيرهم من جهة أن الشيخ المختار الكبير هو شيخ أسلاف بعضهم في طريق التصوف والورد القادري وكثير من العلوم ويعتقدون في آله أنهم من كبار الأولياء ومن العلماء فكانوا يستفتونهم في بعض المسائل ويحرضون أتباعهم على تعظيمهم والاقتداء بهم والتقيد بهم ، وليس في البلد أهل علم يرجع إليهم أهل السوق ويسألونهم غير آل الشيخ ، وليس فيه قبيلة إلا مقلدة لهم وتحت حكمهم إلا قبيلة ذُو إسْحاق فإنهم لا يحكمونهم على أنفسهم كتحكيم الرعايا لهم ولكنهم أشياخ لهم يأخذون عنهم العلوم ويحترمونهم ويناصحونهم ويرجعون إليهم في الفتاوى ويهدون إليهم كثيرا من أوالهم بطيب نفس وليس من عادتهم أن يتقيدوا بهم كتقيد قبائل إمْغَادْ وأمثالهم بهم ، لأن فيهم العلماء قديما فكثير مما يعمله أهل السوق في الرعايا والعوام يعمله فيهم رجال منهم من أهل العلم وإذا عجز علمائهم عن بعض نوازلهم رفعوها إلى أهل السوق ، ولم يكن السوقيين سعاة على زكوات ذُو إسحاق يختصون بأخذها كما يختصون بأخذ صدقات غيرهم من القبائل .
ثم اعلم أن أصل هذا الاختصاص صحيح من جهة الشرع لأن مبناه على أن كل جماعة لهم ساع يختص بأخذ زكاتهم وصرفها فإذا لم يختص بها أحد وتمكن أهلها من إعطائها لم شاءوا وتذرعوا بذلك على منعها في بعض الأحيان بخلاف ما إذا اختص بأخذها معين فإنه يقوم بأخذها طوعا

أو كرها ومن الناس من يعترف بأنه لولا احترام من يأخذها منه ما أداها أصلا ، ومنهم من إذا لم يأته من يألف أخذها إياها منه لم يدفعها لأحد وتبقى عنده سنين ولهذا كان بعض علمائهم يقول بان الجماعات التي حيزت زكواتها لبعض العلماء لا يجوز لغيرها أخذ الزكوات منهم ولا يجوز لهم صرفها عمن اعتاد أخذها ، ومن لا معرفة له بأخبار البلد ربما ينكر عليهم تلك الفتيا زاعما اختصاص الأخذ بالمعين من باب اختصاص الزكاة بالمعين وجعلها ملكا وارثا ، ومن أنصف وتأمل العلة المذكورة لم ينسبهم إلى الجور والظلم في ذلك الاختصاص بل يظهر له أن اجتهادهم صواب ، وقد ظهر ذلك في السنين الأخيرة لما انجلت الضوابط واتبع كل ناعق ، ادعى بعض العوام أنه أعرف بمصارف زكاته وأنه لا كلام لأحد في زكاة آخر فصار بعضهم يتولى قسم زكاته ويصرفها في مصارف غير التي أمر بها وعن قريب تلكاء عن إخراجها ثم منعها أصلا .هذا ولا يحسب الناظر فيما ذكرت من أن أصل الاختصاص صحيح شرعا أني أنفي عن جميع من يتولى أخذها أنه يخطئ في حقها أو يجور في صرفها بل أعترف بأن منهم الصالحين وغيرهم فمن صالحيهم من يأخذ كثيرا من الزكوات ويفرقها في المستحقين ولا يمسك منها شيئا لنفسه ولا لأهله ، ومنهم من يأخذ منها قدر حاجته ويفرق الباقي ، ومنهم من لا يتعرض لأخذها أصلا فرارا من أن يأكل منها غير حقه وهؤلاء هم الذين بقي العلم والفضل في نسلهم وبقي لهم شيء من الاحترام في قلوب العامة ، ومن غير الصالحين من جعلها ملكا له وارثا ورثه من آبائه وأجداده وخان الأمانة في أخذها وفي صرفها وتوسع فيها وأسرف ومنع المستحقين من حقهم فيها وإن وجد من أرباب الأموال من دفع زكاته لبعض المستحقين غضب على الدافع والمدفوع له كما يغضب على غاصب ماله فعوقب هؤلاء برفع البركة من أرزاقهم واستخفاف أهل الأموال بهم وقبض العلم من جلهم ، وبعضهم حرموا من أخذها ممن يدفعها أسلافهم إلى أسلافه إنا لله وإنا إليه راجعون ،{ لو أنهم أقاموا التورة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون } .

الفصل الثامن

في شهادة العلماء من غيرهم بفضلهم وممن شهد لهم بالفضل القاضي العادل والإمام الفاضل صاحب تنبكتُ محمود بن عمر من أهل القرن الثامن فإنه نقل عنه أنه قال كل شاهد أطلب تزكيته إلا السوقيين فإني قد سبرتهم فوجدتهم عدولا تابعين لطريقة أسلافهم من أهل الحجاز ، وشهد

لهم أيضا كثير من علماء تنبكت ، وولاتة وأخذوا عن بعضهم كما سيأتي تفصيله ، وشهد لهم أيضا بالفضل إمام سَكَتُو عثمان بن فودي ، وابنه محمد بِلُّ ، والشيخ الفلاني من أهل دُور شيخ بن إرْكَيْ تَلْفِ وشهد بفضلهم أيضا عالم من قبيلة أدُو علي من قبائل موريتانيا وفد على بلادهم في القرن الثاني عشر الهجري وأكرموه فأنشد قصيدة في مدحهم ، ثم سمى منهم رجالا وهم محمد البشير جدّ إكَدَشْ الذين في مَنَكَا وهو قاضي القضاة في وقته ، وسمى أيضا البكري بن أكَايّ وهو عم أجدادنا كل تَبُورقْ الموجودين حاليا ، وذكر منهم ألكْ القاري بهذه اللفظة العجمية والقاري أخو البكري المذكور وله ابنان محمد إكسنن وسيدي بوبكر وكلاهما عالم فاضل ولم يعين المقصود منهما ، وذكر معهم أحمد بن الشيخ جد أهل تَكَلَاتْ ، والقصيدة وقفت عليهما في قرطاس قديم كثير الانكسارات والانقطاعات ومن المنقطع منها اسم ناظمها وتاريخها ، وإنما قلت أنه من أهل القرن الثاني عشر لأن من ذكرهم من أعيان السوقيين عندي تراجم بعضهم وآثارهم وكلهم عاشوا في القرن الثاني عشر الهجري ، ومنهم من أدرك أوائل الذي بعده ، والذين ذكرهم كلهم من الضغوغين وأثبت لهم الشرف إلا القاضي محمد البشير فإنه أنصاري ، والقصيدة لم أطلع على أولها ، وأول ما وقفت عليه منها قوله :

ولكنني أراك سافرت مفردا ... وهل لغريب مرصد من مُصافي
ورافقت قوما لا تعي من خطابهم ... سوى ما تعيه من كلام ريَاف(1)
وجلت على حرف قفارا مهامها ... ببزّورة ناس صالحين عفاف
وجبت بلاد السوقيين بحز فد ... ترضى حصى قيعانها بخفاف

(1) 1) قبيلة من قبائل العجم .

فألفيتهم في الفقه والنحو أبحرا ... عقولهم في الفهم غير ضعاف
فأعملتها بالسير حتى أنختها ... بباب كريم صادق القول وآف
محمد البشير قاضي مهذب(1) ... كثير رماد البيت ضخم الأثافي
فقيه نبيه بحسن متواضع ... تردى بأخلاق حسان نظاف
توارث من أبيه مجدا وسؤددا ... ومجد جدوده الأكارم واف
يجود بلا من لمن يبتغي الجدى ... ولا يتحرى للندى من يكافي
وعرج على البكري(2) واذكر خصاله ... شمائله عزت عن الإتصاف
وهوب كريم ظاهر الفضل ماجد ... وهل ريئ بحر غاض بالاغتراف
مآثر ألكْ القاري(3) في الفهم جمة ... وعى فقه مالك بمحض اقتطاف

وعب فنون العلم عبا وما اكتفى ... بمص ولا حسو ولا بارتشاف
وأحمد نجل الشيخ(4) حبر معظم ... ولي تقي ذو طباع نظاف
فمالك لم تذكر كراما أكارما ... نمته جدودهم لناس شراف
فإن بحورا للضغوغي تنتمي ... لهم نسب عال بغير خلاف
ولولا الهوى ما صغت مدح أكارم ... وأنت خديم المصطفى بقواف
عليه صلاة الله ما قال مادح ... أمن ذات حسن ظاهر غير خاف

وممن شهد لهم بالفضل قطب العارفين ، ومنهل الغارفين ، سر الله المكتم ، والشيخ الأعظم السيد المختار بن أحمد الكنتي جد الشيوخ المشاهير ، وشيخ المربين في بلده وهو المعروف في بلاده بالشيخ الكبير فإنه انشد قصيدة في مدحهم والدعاء لهم ويعرض فيها بشيء مما جرى بينه وبين إنْتَدَسَرْ وهم الذين يسميهم ببني جالوت ويثني على أهل السوق بأنهم لا يعملون مثل عملهم وتلك القصيدة هي :

---

(1) 2) هو جد حي إكِيْـتَدَشْ الذين في أرض مَنَكَا .
(2) 3) البكري هو ابن أكَّايْ وهو عم أجداد أهل تَبُورَقْ وبنته عائشة هي أم أحمد بن محمد المصطفى جد سادات أهل تِكِرَتَنْ ولا عقب له غيرها .
(3) 4) هو جد أهل تَبُرَقْ .
(4) 5) هو جد أهل تَكَلاَلْتْ له ولادة على جميعهم من جهة البنات ، وهو ابن عم همّاهمَّا الجامع للموجودين في الوقت الحضر من أهل بيته والمنسوبون إليه بالأباء انقرضوا .

جزى الله أهل السوق عنا بفضله ... فما حسدوا فضلا وما نطقوا هجرا
فإنهم ذاقوا عسيلة علمهم ... فأورثهم فضلا وأعقبهم ذخرا
يضمون علم الغيب عفوا لعلهم ... ففازا بقصب السبق واستحدثوا فكرا
إذا طاب أصل المرء طابت فروعه ... وإن خبثت صارت نتائجها عُشرا
إلا أن أهل الجهل أعداء من غدا ... إلى العلم منسوبا لرفضهم الأخرى
ولا عيب فيهم غير أنهم غدوا ... هداة لأهل الخير تجبرهم جبرا
حووا كل فضل عن كرام أجلة ... رووه عن آباء مداولة دهرا
لهم عقبة جد تهدوا بهديه(1) ... ويحي(2) ولم تلبس أعارقهم خسرا
تشاركنا ثذي الكرام ونتنمي ... إلى باذخ من جذم عدنان ، لا فخرا
وليس إلى جالوت يجمعنا أب ... ولكن إلى خير البرية نستقرا(3)

ورثتم علوم السابقين ولم تكن ... بمحدثة يزري بها الوهم ما اعـروری
نمـتكم ثـدي المجـد تمتلجونهـا ... تغـد بكـم غـدا وتـرويكم درا
إذا قيل أي الناس خير قبيلة ... فأنتم خيار النـاس مـا ارتفعـوا قـدرا
وكل وعاء بالذي فيه راشح ... وأنـتم وعـاء العلـم لا زلـتم ذكـرا
لكل أناس حرفة عرفوا بها ... وحـرفتكم نـشر العلـوم كمـا يـدری
سموتم إلى العليا سماء رفيعة ... تقاصر عنها كـل ذي سـبب قـصرا
ودرتم بأفلاك السيادة أسعدا ... ومن لم يلح لجـم اهتـداء يلـح بـدرا
فأشرق وجه الأرض إما بعلمكم ... وإما بآبـاء بـدت أنجمـا زهـرا

---

(1) 1) بنوا عقبة المستجاب من السوقيين قليل بالنسبة إلى غيـرهم إلا أن بنات بنيه الرافعين نسبتهم إليه لهن الولادة على جل قبائل الـسوقيين فجدودته لهم كانت في حق بعضهمن جهة الأباء وفي حق بعضهم مـن جهـــــة بنـــــات أبنائـــــه

(2) يحي هذا لعله ابن إبراهيم الضغوغي الذي ينتسب إليه كثير مـن الـــــسوقيين الأشـــــراف .

(3) مراده بخير البرية قريش لا رسول الله صلى الله عليه وسلم فـإن الناظم لم يدع لنفسه الشرافة ولم يدعها له غيره وإنما يدعي أنه قريـشي من ذرية عقبة بن نافع الفهري الفاتح الأكبر لبلاد المغرب .فلا زلتم اريا

بحلـق محـبكم ... وبـين ضـلوع الحاسـدين لكـم ، جمـرا
عهدناكم من أعظم الناس غيرة ... على الدين سام الماكرين بـه مكـرا
تحوطونه من كل باغ وتجبروا ... كسور مبانيـه فجبـرا لهـا جبـرا
رمته بنوا جالوت(1) عن...نيقها ... بطوب جفار خوفمـا صـادقت صـــخرا
ولكنّ أمر الدين آل لرقـة ... فـلا سـور يحميـه منيعـا ولا حجـرا
وواعجبا من بعد أن كان درة ... تصان ، وعلقـا لا يعـار ولا يـشرا
غدا عند جل الناس نسيا فأصـبحت ... رسـوم مغانيـه مقفلـة قفـرا
تكاد ضلوع المؤمنين لوحشها ... تهد ، ومن حـق الابـاهر أن تفـرى
لقد درج الناهين عن كل منكر ... يضيق فضاء الـصدر عـن حملهـا صـــبرا
تعالوا إلى نصر الإله ودينه ... فها نحن جيـران لكـم نبتغـي نـصرا
ووالله لـولا الله أخشاه فـيهم ... لألبـستهم بوسـى وداهيـة حمـرا
ولو شئت أطعمت الصفاح لحومهم ... ومن دمهم انهلت قبل القنا السمرا
ولكن أصون العرض عن كل فاسق ... جحود لنعمي الله يكفرها كفـرا

وإلا فأرض الله واسعة الفضا ... يهاجر من يخشى على دينه الكسرا
فإن ضياع الدين غبن ومن يكن ... يحاول صون الدين يستعذب المرا
بلينا بقوم لا عقول تكفهم ... ولا علم يدنيهم ولا دين يستبرا
يرون فساد الدين فخرا بجهلهم ... كما العنكبوت أبصرت نسجها وكرا
ومن لم يخف ربا ولم يخش سبة ... ير السوء إحسانا وفعل الخنا برا
وإن عناء أن تحدث جاهلا ... ويحسب جهلا أنه يعلم الجفرا(2)
يرومون أسباب الرياسة غرة ... بفعل دمار طالما مثلهم غرا
يبيعون على دينهم بقلامة ... فلا الدين يبقى لا ، ولا العز يسمرا
إلا من يعز الله ليس يذله ... سواه ، ومن يُذلل يذل ويستزرا
فلذ بجناب الله إن جنابه

---

(1) 4) بنوا جالوت مراده بهم البربر فقد قيل أن جد البربر هو جالوت الذي قتله دوود عليه السلام ، ويشير بتسميته إِنْتَصَرْ بني جالوت إلى أنهم من البربر لا من الأنصار الذي يدعون أنهم آباءهم . والله أعلم
(2) 5) علم يدعي أهله أنهم يطلعون على المغيبات ..

... منيع ، ونعمى الله بالشكر تستشرى
رضينا به ربا وبالدين حجة ... وبالمصطفى من كل داهية سترا
ومن يتقي يجعل له الله مخرجا ... ويجعل له من أمره أبد يسرا
عليكم سلام الله ما ذر شارق ... وما حن مشتاق بحاجته ورّى
انتهت هذه ، وله أخرى مثلها يقول فيها :
ولو كنت بوابا على باب جنة ... لقلت لأهل السوق أنتم لها أهل
وله رسالة في مثل هذا المعنى يخاطب فيها لخوانه من السوقيين ويذكر لهم أنه لا يعتبر أحدا من أهل البلد سواهم ويعتذر لهم عما جرى من الحروب بينه وين إِنْتَصَرْ ويذكر لهم أنه يرى دفاعهم عن الضعفاء من الواجب عليه لما رزق من الجاه والمكانة فوجب عليه الدفاع عن حريمه والضعفاء والمحتمين به ويذكر فيه شيئا من هنات إِنْتَصَرْ أوجب سقوط حرمتهم وأباح مقاتلتهم وذكر أيضا أنه لولا مراعاة خواطر السوقيين ما تكلم في ذلك الشأن .وله كلام كثير في التنويه بأقدارهم يطول القول باستقصائه وجرى على إجريائه ابنه الخليفة الشيخ سيدي محمد فقد ذكر عنه الولي العارف حَنَّ بن أَمَتَّالْ أنه زارهم مرة فطلب من بعض السوقيين أن يصحبه إلى حيه ليقرأ أولاده علم النحو فاعتذر له الرجل فلامه أصحابه في الاعتذار وراوده على أن يسعفه بما يريد ولو كان

شاقا عليه فسلم الرجل فلما علم الشيخ سيدي محمد أنه ظفر بمرغوبه قال : لجلسائه اعلموا أن رغبتي في معلم منكم يعلم أولادي النحو ليست لأجل تعليم علم النحو فحسب بل ليعلمهم الآداب السوقية فإني لا أعرف على وجه الأرض أو في هذه البلاد مثلهم في الآداب واتباع السنة فأحببت أن يتربى أولادي على يد بعض فضلائهم .

الفصل التاسع

في ذكر أسماء من وقفت على تواليفهم من علمائهم من القرن العاشر الهجري إلى أواخر الرابع ولعلهم لا يبلغون معشار عشر علمائهم الذين لا يؤلفون لأن العادة في بلاد الصحراء التي يسكنون فيها عدم الاعتناء بالتواليف وإهمال التواريخ والسكوت عن نشر فضائل علمائهم وآثارهم وضبط أشياخ المرء وتلاميذه وقد ذكر بعض علماء المغرب في الوقت الحاضر أن ذلك مما ابتلى به المغاربة قديما وحديثا وتأسف على ضياع التاريخ في المغرب من القرن الثالث الهجري إلى التاسع فلما كان ذلك حال أهل المغرب الذين كانت لهم الخضارات القديمة وكانت فيهم دول مؤرخة يعتني بأخبارها كثير من الكاتبين فالصحراء السائبة عن الممالك والحوضر منذ قرون أولى بأن لا يعتني أهلها بما لم يعتن به غيرهم ممن يأخذون علومهم وآدابهم ويعدون أنفسهم منهم ، قال محمد المختار السوسي في كتابه سوس العالمة ، السبب الوحيد في ضياع أخبار تلك القرون هو ما ابتلى به السوسيون إلى اليوم من عدم الاعتناء برجالهم والتفريط دائما لا ينتج إلا الجهل المظلم وهذا العيب لا يزال فيهم ماثلا إلى الآن كأنه ممتزج بدمائهم مستحوذة على الباب هم فلولا دواع خاصة لبعض الناس لما رأينا أيضا من القرن التاسع إلى الآن إلا مثل ما نراه فيما قبل مما بين القرنين الخامس والثامن . إهـ

وأما أنا فحين قمت بتفتيش الأثار العلمية ودجلت في أحياء السوقيين للبحث عن آثارهم قدمائهم لم أزل أقف على مكتوبات يذكر أهلها أن أسلافهم لم يزالوا متمسكين بالتعلم ولكن لم أر لهم مؤلفا قبل القرن العاشر ....

أما القرن العاشر : فوقفت فى أخبار عم أجدادنا محمد بن عالّ الذي ذكر عنه الشيخ محمد بن الهادي أنه ابن أربعين عام الألف الهجري على أنه له أربعة شروح على مقدمة الأجرومي في النحو ، وشرحا على لامية الأفعال لابن مالك ، وكثيرا من الرسائل والخطب .

والقرن الحادي عشر : لم أقف على شيء أتحقق أنه مؤلف فيه إلا رسالة ....أمَّدْ أبي محمد ....جد إكَدَشْ . والقرن الثاني عشر : رأيت من

تواليف أهله رسالة في التوحيد للشيخ إنَلْبُشْ جد أهل إسَكَنْ ومنظومة له في التوحيد سماها (هادية القلوب) ، ورأيت في بعض الخطوط أن له شرحا عليها ولم أقف عليه ، ومنظومة في الفرائض سماها (عدة الحافظ) وأجاد فيها وكثير من الناس يشتغل بحفظها ، ولابنه أهَمَّ منظومة أيضا وقفت عليها ولكن لم أنقلها .

ومن مؤلفيهم في القرن الثاني عشر الهجري أحمد بن الشيخ وأبنائه الثلاثة وابن بنته أحمد بن هَمّهَمَّ ، وميد بن محمد المعروف باسم وَمَلَّنْ .

والقرن الثالث عشر وأواخر الثاني عشر : من مؤلفيه الصالح بن أحمد بن القاري ، وابنه مهدي ، ومحمد الأغ بن أحمد وهؤلاء من أهل تَكَلاَلْتْ ،

ومن أهل تَبُرَقْ : أحمد بن محمد إكْنَنْ بن القاري المعروف بالإمام .

ومن إكَدَشْ : سَلَّهُ ، وبنوه .

وأما في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الذي بعده : فمنهم محمد بن ميدِ ، وابنه محمد الصالح من أهل تَكَلاَلْتْ ، ومحمد بن دانيال من شرفاء إكَدَشْ ، ومحمد إكْنَنْ وَنْقَنْدَسَنْ من أهل كُنْهَانْ ، ومحمد بن الهادي ، وعبد الحكيم من أهل بُكُ ، وأحمد بن الهادي من أهل تَنْغَ أكَلِ ، وأحمد بن أمشكَّعْ من أهل تَكدِتْ .

وأما القرن الرابع عشر : فالمؤلفون في أوله ووسطه أكثر ممن قبلهم ، وفي أواخره أكثر ، وكثير منهم تأتي تراجمهم ومؤلفاتهم في الباب الرابع وما بعده ، تقبل الله منا ومنهم .

الباب الرابع

في الكلام على السوقيين الدغوغيين

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول

في تحقيق شرافة الدغوغين ، وصحة نسبتهم إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أما الشرافة نسبهم فلا يختلف فيها اثنان ، ولايتردد في ثبوتها من يجارهم في الأوطان لكثرة مثبتيها من العلماء المعتبرين من قديم الأزمان ، ولتواتر علماء بلادهم على إثباتها لهم كالشيخ السيد المختار بن أحمد الكنتي أحد المجددين في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل الذي بعده فقد ثبت عنه أنه قال : من أثبت انتماءه إلى إبراهيم الدغوغي أو إلى محمد المختار المعروف باسم أيتَّ فلا شك أنه شريف ، وكالشيخ القاضي الصالح ابن محمد البشير الذي هو قاضي القضاة في وقته ، وأبو القضاة الحازين منصب قاضي القضاة في أيامهم ، وكذلك سائر القضاة

والأقطاب من قبائل السوقيين وغيرهم ، وكذلك أهل المغرب الأقصى لم يزالوا يقطعون بشرافة الدغوغين الموجودين ببلادهم ممن ينتمي إلى إبراهيم الدغوغي الشهير في القران السادس الهجري ، وقد كتب إلى بعض علمائهم في الوقت الحاضر بأخبار الدغوغين الموجودين ببلادهم وأن بعض المؤلفين في القرن الحادي عشر تكلم على مدرستهم ومؤلفاتهم وذكر أن مؤلفاتهم في القرن العاشر تكاد تملأ الأرض ومما كتب إلي من أخبارهم أنه لا يشك من يعرفهم في شرافة نسبهم ولم يزلوا مشهورين بذلك في تلك البلاد كما كان إخوانهم الذين ببلاد السوقيين مشهورين به ولم نسمع من قدماء العلماء السوقيين من يتردد في شرف نسبهم إلا أن الشيخ الباحثة المولع بالتحقيق محمد بن الهادي أبدى بحثا في ذلك حاصله أمران :

إحداهما : انتساب معاصريه من الدغوغين إلى إبراهيم الشهير محقق ثابت لكثرة الخطوط القديمة المثبتة له ، وكذلك انتساب إدريس بن عبد الله إلى علي بن أبي طالب محقق ، وأما انتساب إبراهيم إلى إدريس على الوجه الذي يكتبه الناس فلا يسلمه لا يستبعد مع ذلك شرافته .الأمر الثاني : أن بعض المؤلفين ذكر الدغوغين ورياستهم في أعمال فاس وأثبت لهم الرياسة ولم يثبت لهم الشرافة ، فلما أورد بحثه أجابه معاصره من الدغوغين بأجوبة لم أقف على نص شيء منهما وإنما وقفت من آثارهم على عدم تأثرهم بقوله وعدم توقفهم بتوقيفه وترددهم فيما هم عليه قبل بحثه .

وأما الجواب عن بحثه متى تمسك به من أراد النفي أو التشكيك فبأمور كثيرة منها أن سقوط بعض الأسماء في سلسلة أباء المرء لا يمنع من صحة نسبه وأن سكوت من ذكر رياستهم عن شرافتهم لا يستلزم عدم شرافتهم لأن المخبر عنهم بالرياسة لا غرض له في كر الأنساب إنما غرضه الكلام على الرئاسة فليس سكوته عما لم يتعلق به غرضه من شرافة نسبهم دليلا على نفيه له مع أنه لو صرح بالنفي لكان المثبتون أكثر وأرجح .

فلما قام معاصروا محمد بن الهادي بجواب بحثه المتقدم استمر الناس على ما أدركوا عليه أسلافهم من الجزم بشرافة الدغوغيين ولم يمنعهم من الجزم بها عدم تحقيق أسماء الأباء الذين بحث فيهم الشيخ ابن الهادي وجوز سقوط نحو سبعة أوثمانية من الأسماء في السلاسل التي بأيدي معاصريه مع تحقق أصل النسب في ذاته وإنما جزموا بصحة النسب الذي بحث فيه على فرض تسليم مدعاه من سقوط بعض الأسماء فيما بين

ابراهيم وإدريس بن إدريس اعتمادا على تواتر أهله على حيازته وتواتر القضاة من بلدهم على إثباته لهم مع علمهم بما ورد من الوعيد الشديد في انتساب المرء إلى غير مواليه وإلحاق نسب المرء إلى غير آبائه .
وأما عدم الإحاطة بطرفي النسب واسطته من أوله إلى آخره فمنصوص على أنه غير قادح في ثبوت أصل النسب الذي لم يزل أهله يجوزونه ويثبته لهم القضاة ويعترف لهم به كل من يعرفهم اعتمادا على ما يسمع من أسلافه وأشياخه . وممن نص على ذلك الشيخ العلامة هاشم بن أحمد بن عبد الواحد فإنه نقل عنه ما لفظه : اعلم أنه يكتفي في ثبوت النسب لمدعيه بالسماع الفاشي وشهرته به ودعاء الناس به ويتقوى في ذلك بثبوته عند القضاة لا سيما عند تقادم رسوم المنتسبين إليه بذلك ووجود كثرة الشهادات فيها وتوقيع الأئمة من العلماء والقضاة العدول عليها . مر إلى أن قال : ولو شرط في ثبوت النسب الغلم بوسطه وطرفيه لكان ذلك شرطا محالا ، ولم يثبت لأحد نسب بالسماع ، وإذا كان هذا صحيحا في أنساب لا تعظيم العناية بها عند أصحابها ، فلا يثبت بذلك النسب الشريف أحزى وأولى لما علم من عناية أهله به وتحفظهم عليه وإثباتهم له بالرسوم والصحيحة وكثرة الشهادات فيها ولما علم من إثبات القضاة لها ورعايتهم حق النبوة فيها . إهـ ما نقله عنه الشيخ الثقة محمد بن محمد بن محمود .
وممن نص على ذلك أيضا الشيخ سيدي محمد بن ناصر الدرعي في كتابه (طلعة المشتري في النسب الجعفري) ولفظه : اعلم أن وجود الاضطراب في أعمدة الأنساب كثير ، فقد وقع في غير ما عمود من أنساب أشراف فاس وغيرهم ومع ذلك فقد قالوا إنه لا يضر ، ولاعتماد شرعا ما هو على لشهرة والحيازة ، قال : ولما تكلم صاحب الإشراق على بعض أعمدة أشراف فاس التي وقع فيها الزيادة والنقص قال : عقبه ما نصه : وهذا غير قادح في نسب من ثبت شرفه بالحيازة المعتبرة فيه شرعا ولا سيما إن حصلت معها الشهرة والاستفاضة كهؤلاء الأشراف لحمل ذلك على خطاء الناقل وتحريف الناسخ كما يقع كثيرا في الأنساب من كثير من المؤرخين والموثقين ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الله القصار في رسالته التي كتب بها لابن عرضون ، وقد نقله الشيخ المسناوي في بعض مقيداته ، ثم قال : قلت وكذلك سيدي الوليد العراقي في (الدر النفيس) وغيره وعقده في (درة الفاخر) فقال : حين تكلم على نسب الشيخ الجزولي رضي الله عنه ما نصه :
قلت وهذا واضح شهير ... له نظائر فلا يضير

فلم تزل زيادة الآباء ... ونقصها يعرف باستقراء
في رفع أهل النسب المسلم ... إذا حكاه بعض من لم يعلم
وصرحوا بأنه لا يقدح ... في نسب له احتياز أوضح
نص عليه البارع القصار ... ولكل من بعد إليه صاروا
ثم قال : قلت بحاصل تقرير هذا المبحث أن النسبة للجد الأعلى قد تكون ثابتة على سبيل القطع لاشتهارها واستفاضتها ، ويكون عدد رجال عمودها ثابتا بطريق الآحاد فتكون النسبة الإجمالية مقطوعا بها والعدد التفصيلي مظنونا أو مشكوكا وهذه النسبة الإجمالية هي التي وكل الشارع أمرها إلى أمانة أربابها فقال : الناس مصدقون في أنسابهم .

أما عدد رجال العمود سيما إذا طال فلا يرجع فيه إلى علماء النسب الماهرين في ، وأعظم شاهد على هذا نسبة قريش إلى إسماعيل عليه السلام فإنها مقطوع بها ، وأما عمود نسبها من عدنان إلى إسماعيل — عليه السلام — ففيه اضطراب كثير ومع ذلك لا يقدح في صحة نسبة قريش إليه ، وهذا واضح ، وكذلك نقول ليس كما غلط العامي في نسبه أو جهله فزاد فيه أو نقص أو فعل ذلك عمدا أسقطنا دعواه في ذلك النسب ونفيناه عن البيت الذي ينتمي إليه ويدعى عند الناس به لأن جهله لعمود نسبه أو كذبه فيه لا يوجب نفيه عن النسب الثابت له شرعا ، وهذا لأن العبرة إنما هي بما اشتهر وحيز متنا لنسبة لا بما يسرد من أسماء الأباء المنقولة آحادا ، التي الغالب عليها عدم الصحة سيما مع طول الزمان وتعاقب الأجيال وفي هذه النسبة التفصيلية قال ابن مسعود كذب النسابون . لا في النسبة الإجمالية ، وإلا فتلك قد صدق الشارع فيها أربابها ، ويقرب من هذا المعنى ويؤيده ما سئل عنه القاضي أبو الوليد بن رشد في شهادة المغيار ، فإنه سئل عن رجل من العدول كان هو وأبوه ينتسبان أمويين ، ثم بعد ذلك ينتسب معافريا فهل يقدح ذلك في عدالته ، فأجاب لا يقدح ذلك في عدالته لأنه يقول أنني الآن حققت نسبي وعلمت منه ما جهله أبي وجدي ، ومن هذا المعني ما ذكره الفقهاء من أن النسب لا تعجيز فيه قال بعضهم :
وسائل التعجيز ممن قد مضى ... يمضي له في كل شيء بالقضا
إلا ادعاء حبس أو طلاق ... أو نسب أو دم أو عتاق
انتهى العرض من كلام سيد محمد بن ناصر الدرعي .

وفي كتاب (ابتهاج القلوب) لعبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي أن بعض العلماء وجد بخط بعضهم رجالا لم يذكرهم الإمام البصيري في نسب الشاذلي حين سرد نسبه فأعتمد العلماء على ذلك وأدخلوهم في سند ذلك النسب . إهـ منه بواسطة شيخ الشيوخ حماد ناقلا له عن العلامة الفلاني ابن إرْكَيْ تَلْفِ ، وفيما نقلته كفاية في الجواب عن كل من أراد البحث في الأنساب المشهورة المحوزة بأنها لا تثبت لأهلها إلا إذا أحاطوا علما بجميع أسماء آبائهم وأخبارهم وتواريخهم . وأما التصريح بنفي الشرافة عن الدغوغيين فلم يبلغنا عن واحد من أهل بلادنا أنه فاه به من منذ وصلوا إلى أوطانهم الحالية إلى عام أربعة وأربعين وثلاث مائة وألف هجرية 1344هـ فحينئذ وقعت نزعة شيطانية بين بعض الدغوغيين وبين إخوانهم المنتسبين إلى يعقوب الأنصاري وكان الفريقان الدغوغي والأنصاري قبل تلك النزعة في غاية المصافاة ومباذلة التعظيم والتوقير والاحترام فجرت بينهم أمور لا تليق بالنشر على الأوراق منها نفيهم لشرف من تغيظوا عليه مع اعترافهم بشرف من لم يتغيظوا عليه من عشيرته الأقربين ، وقد عصمني الله من التلطخ بها حين وقعت فلا أخفف شيئا من أوزارها عمن تحمله بل أستغفر الله لي ولكل من اقترف منها خلاف الصواب ودامت تلك النزعة مدة سبعة أعوام أو ستة ثم قام أولوا الأحلام والنهي من كلا الفريقين لإطفاء النائرة وإرشاد الناس إلى الصواب والإصلاح فلم أصل إلى سن التميز إلا بعد ما فاء الفريقين إلى أمر الله وإصلاحا ذات بينهم كما هو اللائق بجليل منصبهم ، وأدركت الشيخ الوالد معظما للفريق الأنصاري ومبجلا لهم ولأسلافهم وأوصاني بحفظ عهدهم وقرء علي سيرهم وأخبارهم ما جعلته عمدة فيما كتبت من تراجم أعيانهم الذين ستأتي تراجمهم في الباب السادس من هذا الكتاب ، وإني أبرؤ إلى الله من معاملتهم بغير ما وصاني به الشيخ الوالد ومن ذكر شيء مما دفنه أسلافي من الجفوات الواقعة في أيام التدابر لكن لا بد لي من ذكر شيء مما وقع منهم في نفي الشرف عمن تغيظوا عليه من الدغوغيين وما أجابهم به الدغوغيين من الحجج على إثبات شرف نسبهم ، وما حملني على نشر ذلك مع ما أسلفت من عدم تعرضي لما وقع بين الفريقين وأنا طفل لم أصل إلي حد التمييز إلا خشية أن يصل إلى بعض الناس ما أذاغوا من نفي الشرف ولا يصل إليه ما أجيب به النافي فيظن أن النفي الواصل إليه هو الحق كما قيل من يسمع يخل ، وأنه لا يؤمن

أن يغتاظ عليهم رجل آخر في زمان أو مكان ليس فيه من يدافعه كما دافع محمود بن محمد الصالح وأصحابه نفاة وقتهم فوجب إقرار جواباتهم لتكون باقية معدة لكل جاف ناف للنسبة الشريفة إلى آخر الدهر ، إذا علمت هذا فاعلم أنه لما أعلن أولئك القوم بنفي ما أجمع السلف وتبعهم الخلف على إثباته منذ قرون ، قام بنصحهم ونهيهم والرد عليهم وإبطال كل شبهة ألقوها في نفوس من لا علم عندهم جماعة من أئمة الطائفة الدغوغية ونظموا في ذلك وكتبوا وأجادوا بأجوبة مبكتة لكل خصم ونصائح تدل على أنهم لا يريدون إلا الإصلاح وتذكيرات ينكر بها من قدرت هدايتهم وتنويهات بأقدار سلف أولئك الطاعنين واحتجاجات بأقوالهم وأفعالهم على ضد ما جاء من أخلافهم ، فممن نظم في ذلك عالم الشعراء وشاعر العلماء شيخ الشيوخ محمود بن محمد الصالح من أهل تَكَلَالَتْ فإنه نظم قصيدة نصح بها نفاة الشرف المجمع على ثبوته وجاد لهم بالتي هي أحسن ومدح أسلافهم وذكر مناصحتهم لأسلافه وتقديم أسلافه لأسلافهم مع توفر أسباب التقدم في أسلافه فقال : في مدح أسلافهم وتقديم أسلافه لهم مع استحقاقهم للتقدم:

أنصار دين الله لا أعداءه ... نزهون ما مونون لا غذار
هم ماهم هم سادة هم قادة ... سلفت لنا بوصالهم أعصار
وجرت مجالس في النصيحة بيننا ... بكرامة زرناهم أو زاروا
متعاقدين على المودة بيننا ... خلفا قديما شاده النجار
فهم بنوا آبائنا وبناتهم ... وهم لكل عيوننا إقرار
كنا نقدمهم على أهلية ... فينا بها لجميعهم إقرار
إذ لم تزل في كل دور تظهر الـ ... أقمار من أفلاكنا ، الأقدار
من كل حبر خير تتلقن الـ ... أوراد عنه وتؤخذ الأذكار
في الماء يرقم والظلام سراجه ... ويقيم ما ينقص أو ينهار
منهم كذا وكذا وليا عابدا ... تبكي بإثر وفاته الأشجار
تروي عجائب عن حماه كرامة ... لا تستقل بحملها الأسفار
منهم غيوث هاطلات ديمة ... تسقي بها الإنجاد والأغوار
وأسود بأس في الندى فياضة ... من دأبها التذبيح والتنحار
وفتى يفيد ويستفيد فتضبط الـ ... ألفاظ عنه وتؤثر الأخبار
ومناظر متبحر ومدرس ... علم البيان ، فدا به التفسار
وفتى ، بما يفتي به يفتي ولا ... يقضي بذي ضعف فسل هل جاروا
وفتى جيه أيد تعنو له الـ ... أشرار والدعار والشطار

سبب الزمان نما يقول ، مهابه ... ويرشد ما يأتي ، له أخبار
كنا على هذا ، نقدم أوجها ... منهم ، فما من شأننا استكبار
ونرى الظهور بلية وألية ... جهدية فيهمنا الإبرار
ونرى الخمول على الظهور ديانة ... وصيانة ، فقضى به الستار
حتى إذا بلغ العليم بأمره ... ميقاته ، فإذا لنا إظهار
طلعت بسعد للولاية فوقنا ... شمس قضى بظهورها القهار
فرأت أشعة نورها لقلوبنا الـ ... أسرار فانكشفت بها الأسرار
ودعت إلى باب الرضى فأجابها ... قوم رضى فتحت لهم أبصار
ثم اعتذر عن مجوابته لهم بأنهم ليسوا ممن يسكت عنهم كما يسكت عن الجهال ، لعلو منصبهم فقال :
فلو أن قوما غير من قدمتهم ... ذكروا لنا ، لعداهم الأذكار
وسكت عنهم سكتة معهودة ... منا ، إذا ما نالنا استصغار
أما الذين تقدموا ، فنجلهم ... أن لا يقوم بنا ، لهم إعذار
أو أن نقاطعهم بغير إمارة ... خصلت بها الأرحام والأصار
أو أن تكون مجانة وخلاعة ... تتمي لهم ، أوَ ما لهم أبصار
أو أن ترى أعراضنا غرضا لهم ... تحتني له لقسيهم ، أوتار
ثم خاطبهم بإثبات ما ذكر من شرافة عشيرته والاحتجاج لها بخطوط العلماء وإثبات القضاة من أسلافهم ، وتوقيعاتهم وحيازة العلماء من أسلافهم لها وتقادم خطوطهم المثبتة لها وتواتر السلف والخلف على قبولها ، وكون المنتسبين لها هم الضابطين لأنساب غيرهم فكيف يجهلون أنسابهم ، وكونهم من العارفين بما ورد من الوعيد باللعن على من انتسب إلى غير أبيه وغير ذلك فقال :
أنفيتمُ نسب الشرافة وإنهم ... حازوه واحتفظوا به واختاروا
أوَ كاذبون ، أم أنتم ... إن الزمان بأهله دوار
أترون أحمد(1) والكبير محمدا(2) ... وصغيره(3) كذبت لهم أسطار
أبناء هَمَّهمّ غرة عصرهم(4) ... وحماة ركن الشرع والعمار
أو أحمد بن الشيخ(5) مع أبنائه ... وهم هداة سادة أخيار
أو عمنا مهدي بن صالح(6) الرضى ... وهو الفتى النهاء والأمار
أو شيخه ابن الشيخ أحمد(7) جدنا ... وهو الفتى الفسار والقسار
وأبو شعيب وه(8)و من تدرونه ... أدرى وأعرف ، ناظم نثار

---

(1) 1) أحمد بن همّهمّ هو الجد الثالث للناظم وهو من أئمة العلماء في

وقته وكذلك أخواه ووصفهم بعض الشيوخ ممن بعدهم بأنهم وصلوا مرتبة الاجتهاد ، وبأنهم من كمل الأولياء ، وأبوهم همّهمّ ينتهي نسبه إلى علي بن يحي بن إبراهيم الدغوغي .

(2) 2) (3) (4) محمد بن همّهمّ أخو أحمد هو الجد الثالث للكاتب وأخوهما اسمه محمد المختار وهو جد عبد اللطيف بن الفاطمي ، والإخوة الثلاثة كانوا من أقطاب وقتهم كما كان أبوهم وابن عمه أحمد بن الشيخ وبنوه .

(3) 5)

(4) 6) مهدي بن الصالح بن أحمد وهو الذي يؤخذ عنه التفسير في أيامه وهو شيخ محمد الصالح الذي هو شيخ شيوخنا في التفسير وغيره من العلوم وهو من عشيرتنا من ذرية جدنا أحماد بن أنْكَ ولم يبق من ينتسب إليه بالأبناء ، وبنته هي أم الشيخ مفلح والد الولي ذو الكفلي .

(7) 7) مراده بهذا الشيخ ألأغ بن أحمد بن همّهمّ وهو شيخ الشيوخ في وقته وشيخ مهدي بن الصالح في التفسير وغيره ، وجميع الشيوخ الذي ذكرهم من الشيخ أحمد جده الثالث إلى ابنه هذا من بيت واحد وهم من بطن الغزالي بن علي بن يحي ، وهم أجداد أهل تَكَلَاْلَتْ .

(8) 8) هو محمد بضم الميم ابن محمد بفتحها ابن سيدي بو بكر وهو شيخ أهل تَبُرَقْ في وقته وأبوه وجده كذلك وابنه شعيب كذلك وابن ابنه محمد بن شعيب كذلك ، ينبغي أن تسمي سلسلتهم سلسلة الذهب وهو من بطن آمن بن على بن يحي .

من مثبتى الشرف الذي أنكرتم ... وكذاك هارون(1) الفتى النظار
وكذا سلالة دانيال(2) محمد الـ ... ـعلامة الناسبة الحبار
والصالح البكاء(3) نجل محمد بـ ... ـن الشيخ ميد ، وأمره سيار
هو من أجل شيوخنا وأشدهم ... ورعا وضبطا ، صادق مختار
ولقد تواتر عنه أن الكذب لم ... يكتب عليه ، ومثله أوزار
حاشا وحاشا أن يكون له على ... أدنى الصغار مطلقا ، إصرار
ما كان يجزم في كثير علومه ... ورعا وخوفا هاجه التذكار
هو جازم بالأمر لا متلكئ ... عن صدق نسبتنا ولا مختار
فيقول للأبناء حيث تهيئوا ... لمزاحنا وهم لنا حقار
ها هم بني الحسن الرضى إياكم ... وإذاتهم ، وله بذا أطوار
طورا بذاك ، وتارة يعلو به ... لنذار أو فهر به التنهار
هو من تلامذ من مضى ومرغب ... فيهم ، وفيهم راغب ذكار

زكاهم عدلا ، وعــنهم قــد روى ... ودرى ، فهــل لجــدالكم أقــصار
فكفــى بمــن قــدمتهم وبواحــد ... مــنهم شــهيدا ، أننــا الأخيــار
أتــرون مــن قــدمتهم جزمــوا بمــا ... أنكــرتم وهــم بــه غــرار
أتــرونهم يتــمــدون تواصــيا ... بــالمنكرات وهــم لهــا النكــار
أتــرونهم لــم يعلمــوا أن ادعــا ... ء شــرافة ممــا لــه اســتنكار
ما لم يكــن بــدليل صــدق مثبتــا ... ولربمــا كــشفت لهــم أســتار
أترونهم لــم يعرفــوا آبــائهم ... فهــم الــذين لكــل علــم صــاروا
والناس حتى الجاهلون بأصــلهم ... أدرى ، فمــا الإقــرار والإنكــار
فليأخــذ الحلمــاء مــنكم أيــديا ... مــن غيــرهم ، أولا فهــم أمــار
مــــــــر إلــــــــى أن قــــــــال :
إنا بنوا البطل ابن هاشم الذي ... هــو صــاحب الحمــلات والكــرار
صهر النبــي وســيف مولانــا علــى ... أعدائــه الطعــان والنحــار

---

(1) 9) (10) هارون بن محمد أخو دانيال والد العلامة محمد المذكور ، وهما مشهوران في أيامهما ولكل منهما ترجمة واسعة وهما من بطــن أحمــــد الأحمــــر بــــن علــــي بــــن يحــــي .
(2) 11) هو من ذرية أبي الهدى وهو أبو الشيخ إسماعيل ، والــصالح علمه ووصفه والبكاء وصفه فقط واشتهر في أيامه بكثرة بكاء الخــشية حتى لقب عند كثير من معارفه بذي البكاء . إهــ

إنا بنوا الحسن الذي تدرونه ... من بــضعة المختــار ، هــل نحتــار
ما كوننا غرباء في التكرور بال ... موهي لنا حيث الرجــال اكتــاروا
إن الــبلاد تجــاورت وتقاربــت ... وتحــاورت وتــدانت الأعــصار
وتعارفــت أنــسابها وتراســلت ... كتابهــا ، وتــساوت الأســفار
وقــــــــال : قبــــــــل هــــــــذا
إنا بنــوا يحــي بــن إبــراهيم مــن ... جــد لــه إدريــسنا المغــوار
شــيخ المغاربــة الــذين ســمعتم ... وأبــوا الرجــال تجلــه الكفــار
مــــــــر إلــــــــى أن قــــــــال :
ولنحــو أعنــى بالــشرافة مــنكم ... بالخزرجيــة ، إننــا الــسطار
في كل أمر لا تــزال يراعنــا ... خــدما لنــا ، فيــه لنــا اســتكثار
لا ســـيما أمـــرا هـــمّ بـــه احتمـــت
... أرعراضــــنا ودماءنــــا والــــدار
وبــه نفــوز بطهــرة أزليــة ... وعــسى نفــوز ، إذا تفــور النــار

وبه اعتنى المولى بنا ، فتألفت ... في بيتنا ، الأسرار والأنوار
أفهذه حق وتلك فرية ... فعليكم للفارق الإظهار
ثم قال : في أخر القصيدة مشيرا إلى ما لأهل بيته من الفضائل قديما بسبب قرشيتهم وما تجدد لهم ببركة ظهور الشيخ المجدد فيهم وهو حماد بن محمد قطب زمانه الذي صار مفخرة لجميع قطره فضلا عن قبيلته وخوانه ، وكان أبواه معا من قبيلة بني على بن يحي بن إبراهيم الدغوغي ، فقال :
إنا قريش خير من وطئ الثرى ... وأعز من يلقى إليه الثأر
فلنا الإمامة والإمارة والريا ... سة والرياضة والدجى والنار
ولنا السماحة والحماسة والدها ... والكيد والإصحار والإبحار
ولنا الدراهم والدنانر والندى ... والزرع والأموال والتجار
ولنا العمائر والعشائر والفضا ... ئل والبطون ، بها لنا استظهار
ولنا المراكب والمناكب والعصا ... ئد والقصائد والحمى والدار
ثم قال : في ذكر ما نالوا ببركة الشيخ :
بطلوع نجم السعد فينا ، ضوعفت ... بركاتنا ، فغلامُنا بصار ج
منا بياني ونحوي وصير ... في ، ومنا قارء مفسار
ومفقه بالمنطق اتضحت له الـ ... أقسام والأشكال والأسوار
متكلم جدل خلافي حسا ... بي على وفق القدى ، نظار
ومصرع ومصرع ببيانه ... في نظمه أو نثره ، سحار .

ومحدث عرف الحديث رواية ... ودراية ، فعنت له آثار
ومناظر عرف الأصول مفرعا ... عنها ، فعن إصدارها أصدار
فلنا الحروف وصرها وصريرها ... وسرارها ، ولنا بها أسرار
ومثلث ومربع ومجدول ... إظهاره لضميره إضمار
هي في الخزائن والصدور نضن أن ... تغشى بها وكناتها الأطيار
ولنا التصوف والتصرف في الدجى ... والنور ، والإقبال والادبار
ما ذا أعدد والفضائل فيهم ... مجموعة ، فتبارك المختار
ثم حقق شرافة قومه وأنصارية إخوانهم الذين يخاطبهم ، وذكرهم ما بين أسلاف الأنصار وأسلاف الشرفاء من المناصحة والمعاضة وأرشد الخلف إلى أن يسيروا على منهاج سلفهم فقال :
فإلى متى هذا التشاجر والأذى ... أوليس منكم راشد أمار
أو ليست الأنصار عبية نصحنا ... أو لم تكن عضدا لنا الأنصار

أو لـم نقم بحقـوقكم ويعمكـم ... مـن جيلنـا الأجـلال والإكبـار
فقفوا وكفوا إنـه كفكفـت مـن ... قلمـي ، وختـام قـولي استغفار
هذا آخر قصيدته المنبئة عن جزمه بشرف نسبته ولا يمترئ من يعرفه في أنه عدل رضى لا يرضى بصدور خلاف الأولى منه تعمدا فكيف بالصغيرة فكيف بالإصرار على الكبائر التي من أشدها أن ينتسب المرء إلى غير أبيه مطلقا فكيف بالانتساب إلى الجناب النبوي كذبا وافتراء .

وأما الكاتبون في إثبات شرف الدغوغين والجواب عن شبه الطاعنين في نسبهم فمقدمهم وقائدهم وأشدهم قياما بالذب عن نسبه وحمايـة لحريمه وأنصحهم لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ولأهل البيت والنبوي ولحمة العلم خصوصا ، ولمن جمع بين شرف العلم وشرف النسب ، هو شيخ الشيوخ الجامع بين الشريعة والحقيقة والهادي إلى أقوم طريق حماد بن محمد ،ثم شيخ الشيوخ في علمي الظاهر والباطن محمد بن محمود ، ثم ابن عمه مفلح بن محمد ، ثم الشيخ حمّد بن محمد بن حـادي ، ثـم الشيخ الخضر بن الشيخ حماد ، وكل من هؤلاء أتى بأبحـاث بـاهرة ، واحتج بحجج ظاهرة ، وجلب جميع أقوالهم يدعو إلى التطويل الممل وإهماله من الاقتصار المخل ، فلا بد من ذكر خلاصـة أبحـاثهم مـع السكوت عن جل كلامهم ، فمما كتبه القطب الأجل الشيخ حماد بن محمد في ذلك قوله لمعاصره العالم الشهير في قطره محمد أحمد بـن الجُنَيْـد الأنصاري وقد أرسل إليه رسالة فيها (وإن كانت أجداده أهل الشرف في الطين) فكتب إليه الشيخ حماد ما نصه : صدقة فيما نطقة ، فما أحسن ما انتكبت عن التكذيب وصدقت لقد قرطس سهمك ورب البيت الحرام إذ لم تذهب في بنيات الطريق كما ذهب فيها كثير من الأنام ، لأكلت مداك ، ولأسمعت عداك فإنهم ممن له الشرفان شرف النسب الكريم وشـرف العلم العظيم ، توارثوا الشرف من آبائهم كابرا عن كابر واشتهروا به بين الأوئل والأواخر ، وحكم لهم بذلك لسان الناظم والناثر ، وكم من ناقل له عن ناقل آثر ، فصار من قبيل المتواتر ، ثم اسـتدل بنقـول وخطـوط جماعة من العلماء والقضاة وسمى كثيرا ممن تقدمت أسـماءهم فـي القصيدة وزاد عليهم البكري بن أكَّايَّ وابن عمه إنَلْـبُشْ ، علـى كـون شرافة أهل بيته من قبيل المتواتر ، ثم قال وإذا كان تواترا كان مقطوعا به إذ التواتر يوجب علم اليقين لأنه بمنزلة العيان بل هـو أعظـم مـن المعاينة لأنها قد يقع فيها الذهول والغفلة بخلاف التواتر فـإن الجماعـة الجمة لايمكن السهو من جميعها ولا الغفلة من كلها ، وهو الدليل على أن

هذا القرآن هو الذي أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم وأن الأئمة الأربعة هم أرباب المذاهب المتبعة وأن ذلك البيت هو الذي أمرنا بطوافه . إهـ ثم احتج بكلام الشيخ المختار الكنتي وجزمه بشرافة الدغوغيين وبني أيتّ ، ثم ذكر بيتين من قصيدة لرجل من دو علي يمدح بها من قدم على أحيائهم من السوقيين في القرن الثاني عشر الهجري وهما :
فمالك لم تذكر كراما أكارما ... نمتهم جدودهم لناس شراف
فإن رجلا للدغوغي تنتمي ... لهم نسب عال بغير خلاف ثم قال وهذا القاضي الشيخ سلّهُ بن محمد البشير على ما كان عليه من الخصال الحميدة ، والمناقب العديدة ، والتنقيب والتنقير في طلب حقائق الأمور رضي الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة مثواه ، قد حكم به لأسلافنا في غير ما قاضيه ، وعمهم من أجله وأمر بتعظيمهم ومعرفة حقوقهم إما كلية وإما جزئية .وهكذا القاضي الجامع بن الحقيقة والشريعة والطريقة ، حامي الحقيقة ، وناسل الوديقة ، وسائق الوسيقة ، مفرد الثلاثة الفائز بالقدح المعلي ، لا هو ممن يعرف ولا ممن جار بعد المعرفة عن الطريق المثلى ، القصير النسب حَنَّ بن أمَّتَّالْ جعلهما الله ممن يكال له غدا بأوفى مكيال ، قد حكم لآبائنا بإرتداد رداء الشرف الفاخر ، واستظلالهم بظله وتقلدهم قلائد دره الناضر ، وعظمهم لأجله ، بقوله وفعله ، وهذا محمد الأمين ....قد اقتدى بمن قبله في ذلك ، وأقر آبائنا على شرفهم من غير نكير على أولئك ، لا زالت سحائب الرحمة على ضريحه هاطلة ، ولا زالت أجور أعماله الصالحة إليه وأصله ، وكذلك من بعده من الخلفاء ، جزاهم الله غدا بإحسانه جزاء الحنفاء . ثم قال وأيضا فقد قال مالك الناس مصدقون في أنسابهم التي حازوها كحيازة الأملاك ، ويشمل ذلك دعوى الشرف فيمن عرف به آباءه ، قول من قال لا يشمل دعوى الشرف ، محله إذا لم يعرف هو ولا آباءه به ، وأيضا فالدعوى الكاذبة لا تستمر سنين عديدة وقد قسم الرب بعزته على أن دعوى الكاذب لا تبقى بعد سبع سنين ، وأيضا فلو لم يكن دليل إلا أن كل واحد من آبائنا أخبر بذلك ولده مع كون كلمتهم في ذلك واحدة لكان كافيا ، أما أولا فلأننا عنهم أخذنا كل ما يطلب فيه التحقيق واليقين ، أخذنا عنهم القرآن متحققين أن ما علمونا هو الكتاب الذي كان جبريل يعارض رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه وأخذنا عنهم كتابة حروف المعجم لا عن شك وأخذنا عنهم كذا وكذا وهم علماء ثقات عدول ، والعلماء مصدقون في النقول ، فكيف يصح أن نؤمن ببعض ما نقلوا ونكفر ببعض .

وأما ثانيا : فلأن من أنكر العلم بطريق الخبر كمن أنكر حصول العلم بطريق المشاهدة ، من السوفسطانية فلا يستحق المكالمة لأنه سفيه لا يعرف نفسه ، فإن معرفة كونه مخلوقا من ماء مهين ، إنما ثبتت بالخبر فإذا أنكر كون الخبر موجبا للعلم لم تحصل له معرفة نفسه ولا يعرف دينه فإن طريق معرفته الخبر والسماع ، خصوصا فيما يرجع إلى الأحكام ، ولا يعرف دنياه لأن معرفته الاغذية ولا دراية ، تحصل بالخبر . مر إلى أن قال : ونحن وجدنا كل أحد مطمئن النفس بمعرفة هذه الأشياء عالما بحصولها قطعا بالخبر بمنزلة العلم الحاصل به بالمشاهدة فمن تيقن حصول العلم بطريق الخبر في هذه لأشياء كيف ينازع في حصول العلم بعمود النسب من طريق الأباء والأجداد والعلماء والأولياء والخاص والعام . مر إلى أن قال : بعد كلام كثير في خرمة الطعن بالأنساب ما لفظه : هذا ومما يدل على حرمة الطعن في النسب قوله صلى الله عليه وسلم (شعبتان لا تتركهما أمتي النياحة والطعن في الأنساب) أي أنساب الناس من غير علم مع أن اللائق تركهما لكونهما من أمر الجاهلية ، فيقع كثيرا الطعن في نسب شخص إلى ولي أصحابي مع أن الإنسان مؤتمن على نسبه ، والطعن فيه من الكبائر ، وقوله صلى الله عليه وسلم (خمس من قواصم الظهر) أي مهلكات فذكرهن إلى أن قال : (واعتراض المرء في أنساب الناس) ش يعني كأن يقول هذا ليس بشريف . وقوله صلى الله عليه وسلم (اثنتان في الناس هما بهم كفر النياحة والطعن في الأنساب) النووي أي هما من أعمال الكفار وأخلاق الجاهلية ، أو أنه يؤدي إلى الكفر ، أو أنه كفر النعمة والإحسان ، أو أن ذلك في المستحل له وفي هذا الحديث تغليظ لتحريم الطعن في النسب ، ثم قال : هذا ولكن مع المخطئين الذاهبين في تلك المذاهب مصيبون مسلمون ما هنالك من المآثر والمناقب ، فقد قيل في المثل السائر (مع الخواطئ سهم صائب) فما نحن إلا المسك عند ذوي الحجا نضوع ، وعند

الجاهلين نضيع ، فشتان ما بين مذهبي الفريقين في هذه العاجلة ، وما بين مورديهما في الآخرة الثاجلة ،
راحت مشرِّقة ورحت مغربا ... شتان بين مشرق ومغرب
وأنت بحمد الله ، أيها الناصح الألمع الشارب بأنقع ، الحامي الحميا ، الباهي المحيا من خير الفريقين السالك في أمثل الطريقين ، وقد سلكت في ذلك مسلك قضاتنا الذين سلفوا ، وأولادهم الذين خلفوا ، فإنهم أخذوا

في ذلك السهم الأكثر وفازوا منه بالحظ الأوفر ، إنما يعرف ذا الفضل من الناس ذووه وما غبر الأنسان عن فضل نفسه بمثل اعتبار الفضل من كل فاضل ، وأحسن النقص أن يرمي الفتى قذى النقص عنه بانتقاص الأفاضل ، ثم ذكر من مثبتي شرفنا جماعة أثنى عليهم بالفضل والتقوى منهم محمد إنتَكَلسُتْ ، ومحمد بن هُلَيْ ، ومحاح ، وسيدي محمد بن أسَّاي ومحمد الأمين أبو أيَّيْ وجده إنبَّدْ ، وأحمد بن مُخَا ، والتقي هاني وأبوه سيدي محمد وجده ملَّو ، ومحمد بن السالي (وجميع المذكورين من أهل تِنَقَّبَان وأهل تَكَرَنَّتْ) ، ثم ذكر من أعيان غيرهم الولي الصالح محمد أحمد بن الثاني ، ومحمد المعروف باسم أكَّنَتْ ، والشيخ بايْ بن سيد عمر الكنتي وابن عمه الميمون بن حماد . إنتهى المراد من كلام الشيخ حماد باختصار .وأما الشيخ محمد بن محمد محمود : فملخص ما كتبه من ذلك ، إثبات شرف نسب قومه إعتمادا على أمور : أولها السماع الفاشي من العدول وغيرهم وجلب نقولا فقهية تثبت الاعتماد على السماع الفاشي ، ثم ذكر قول من قال من أهل المائة الثامنة لا يثبت الشرف بعد سبع مائة ، وضعفه بما نصه وقول من قال : من أهل المائة الثامنة ومن تبعهم من أهل لمائة التاسعة لا يثبت الشرف بعد سبع مائة فأحرى بعد ثمان مائة ، قول ضعيف لا يعرف لهما فيه سلف وهو قول باطل لا تمكن صحة إلا أن يريد قائله انشاء النسب إلى الشرف وإثباته في حق من لا يكون معروفا به في زمن من الأزمنة ولا في موضع من المواضع قبل هذين القرنين فيكون قولا صحيحا ، ولكن لا يختص بالقرنين المذكورين فإن هذا الحكم صحيح فيما قبلها ، والعمل على هذا القول ذريعة إلى الطعن في هذا النسب الشريف مع شهرة مدعيه ولك بدعة عظيمة وغرر كبير ، وجه بطلان هذا القول إذا أراد به صاحبه العموم في معروف النسب الشريف ، وغير المعروف ، أن ذلك مفض إلى إبطال الحق بعد ثبوته ، وإلى كون الصواب خطئا بعد تقرر كونه صوابا ، وبينا ذلك أن من ثبت شرفه في المائة السابعة إلى القرن الثامن والتاسع لا يثبت في ذريته ، فيلزم من القول المذكور أن ينقلب ما كان حقا مشهورا في المائة السابعة وثابتا بالرسوم الصحيحة ، إلى كونه باطلا وما كان فيها صوابا إلى كونه خطئا بعد المائتين والقرنين المذكورين ، إلى أن قال : وهذه اللوازم كلها باطلة فيبطل ملزومها وهو القول المذكور .الأمر الثاني : أن هذا النسب قد اشتهر من حيازتنا له ما اشتهر ، وانتشر من إطلاق اسمه علينا ما انتشر ، حازته الفروع عن الأصول حيازة المرء لتالده ومأثِلِه وورثه الأواخر عن الأوائل وراثه تسلسلت

بسلسله وقد قال مالك الناس مصدقون في أنسابهم ، قال الشبرخيتي أي على ما حازوه وعرفوا به كحيازة الأملاك ، ومن ادعى خلاف ذلك كلف إقامة البينة وإلا حدّ . إهـ ومثله في التوضيح وقول تت بلغني تقيده بغير دعوى الشرف يحمل على ما إذا لم يعرف هو ولا آبائه بذلك ومثله للزرقاني قال : فيجد من قال الثابت نسب ، أثبت حريتك إهـ . الأمر الثالث : أن الانتساب إلى البيت النبوي والانفصال عن الأصل العلوي الذي اتفقت عليه كلمة آبائنا الأوائل والأواخر ووقع عليه تـوطئ الأكابر منهم والأصاغر لو كان أكذوبة تكذبوها أو جمرة باطل الهبوها لأفلت نجومه مع تطول السنين واضمحلت رسومه مع تعاقب القرون فإن الأخبار الكاذبة التي لا أصل لها لابد مع طول الأمد من اضمحالها وخسوف شمسها وهلالها كما يشهد به ما ذكره السنوسي في الوسطى ونصه : وفي صحف دانيا عليه السلام وقد نعت الكاذبين وقال فيهم لا تمتد دعوتهم ولا يتم قربانهم وأقسم الرب بساعده لا يظهر الباطل ولا يقوم لمدع كاذب دعوة أكثر من ثلاثين سنة فاعتبر من هذا الكلام عدم طول دعوة الكذاب أكثر من ثلاثين". مر إلى أن قال : وهذا النسب لم نزل بعد من حيازته والاعتناء بحفظه وضبطه بمكان ولم ينتقل اشتهارنا به ومعرفتنا به عما كان ولا زالت الوية إطلاق اسمه علينا وأحاديث احترام العلماء والقضاة جانبنا به مذكورة مأثورة .الأمر الرابع : دلالة الخطوط والرسوم الكثيرة المتظاهرة على انتسابنا إلى بيت الشرف الشهيرة المكتوبة في زمن فيه أصحاب العلم وأصحاب العقول وأئمة الأخبار وقضاة عدول وما فيهم من يجور عن الحق ويميل بل حكمهم حيث جال الشرع يجول ، قوامون لله بالقسط لا تأخذهم في الله لومة لائم ، ولا يقر فيهم على المنكر لا جاهل ولا عالم ، بل يتنافسون على سد ثغور هذا الدين الحنيف ويسارعون إلى مغفرة من ربهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أيا كان وممن كان ، وتغييره بإخلاء الزمان منه والمكان ، فما امتدت أيديهم إلى تغيير ما في تلك الرسوم والخطوط بل امتدت إلى إجلال أهلها وإحلالهم بالمحل المغبوط ، وما ترفرفت شفة أحد منهم بإنكار ما هنالك بل تحركت بما يتضمن إقرار الانتساب والواقع من أولئك ولا حكم حاكم منهم على أصحاب تلك الرسوم بما يسلبهم رداء الشرف القشيب ويقيمهم عن ظلال رضه الخصيب ، مع أنه لا رغبة تمنعهم ولا رهبة تزعهم فلو كان منكر إلا نكروه ، وأبطلوه وما أقروه ، وإنما حكم بما يدل على أنهم كواكب أفلاكه ولآلئ أسلاكه ، شرع في تعيين أسماء أهل تلك الخطوط وتزكيتهم

وأسماء القضاة المثبتين لشرفهم وأطال في ذلك وأجاد ، وأطنب وأفاد ، ثم ذكر أشياء من الاعتماد على تلك الخطوط فقال : والاعتماد على الرسوم في إثبات الانساب من دأب العلماء قديما فقد قال الشيخ العالم الفلاني شيخ بن إرْكّيْ رحمه الله ما زال العلماء قديما وحديثا يعتمدون في ثبوت الأنساب على رسوم متداولة ففي كتاب إبتهاج القلوب لعبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي أن بعض العلماء وجد بخط بعضهم رجالا لم يذكرهم الإمام البصيري في نسب الشيخ الشاذلي رضي الله عنه حين سرد سنده فاعتمد العلماء على ذلك الخط وأدخلوهم في سند ذلك النسب .

إنتهى بخ هذا ما أردت نقله من كلام الشيخ محمد بن محمد محمود ، ولم أجد من كلام الشيخين مفلح بن محمدُ ، وحمدَ بن محمدْ زيادة على كلامه توجب أن أنقل نصها .

وأما الشيخ الخضر بن الشيخ حماد : فنقل كلام والده وكلام خاله وشيخه محمد وكلام ابن عمه مفلح وشيئا من شعر محمود بن محمد الصالح ، وجلب من الحجج المثبتة مثل ما جلبوا ثم ذيله بكلام حصره في خمسة مطالب وتتمة وأطال في ذلك في كتابه التبر التالد في مناقب الشيخ الوالد ، (وهو كتاب كبير ألفه في أخبار والده الشيخ حماد وتكلم فيه على نسبه وإثبات شرفه)

ونص كلامه : (المطلب الأول : في تقرير دليل التواتر ، وتكلم على تواتر أهل البلد على وسم الدغوغيين من سلفنا بسمة الشرف وتواتر أهل النسب أنفسهم على حيازته والدا عن والد أشد من حيازتهم للطريق التالد ، إلى أن قال : وما زال شرفنا متواترا بحمد الله من قديم الزمان مقروا باللسان ، ومقرقوما بالبنان إلى هذا الأوان ، وقد أتقنا تفاصيل الأخبار الدالة على اشتهاره في الطبقات الأواخر من عهد جدنا آمن بن علي بن يحي(1) وهو من أهل القرن التاسع أو خواتم الثامن على مادلت عليه القرائن ثم إلى عهد محمد بن عالَّ ، ثم إلى عهد إنْلبُشْ ، وعمنا البكري ومعاصريهما ثم إلى عهد جدنا سيد وأبناء هَمَّهَمَّ وهكذا إلى هذا العصر ، وقد غاب عنا تفاصيل أحوال الطبقات العلي من أجل أن التاريخ قد ضاع في

---

(1) 1) يحكى أن آمن بن علي وفد على سلطان من سلاطين سنغاي في أرض كُرْرَكَايْ قادما من الصحراء فسأله السلطان عن ...وعن حاجته إليه فانتسب له الشرافة فقال له سأخبرك فإن صدقتني أكرمتك وإلا قتلتك فأمر السلطان بذبح شاة فذبحت وسلخت وأخذ كتفها وكشط اللحم عن

العظم وكتب عليها اسم الشريف آمن ثم عاد اللحم على العظم وخلط الكتف بسائر اللحم ثم جعله في قدر وألقاه على النار وشدد على خادمه في تعجيل طبخ = = اللحم والمبالغة في إيقاد النار تحت القدر وامتثل أمره حتى تمزق اللحم جميعا من شدة الطبخ وبقى الكتف المكتوب عليه اسم الشريف، لم تؤثر فيها النار فصدقه السلطان وقضى حاجته وهي أن يقطعه أرض غَيْرَغ . بلاد التكرور منذ دهور ، فلم يبق إلا أثارة محفوظة في الصدور لا تجدها مقروءة في كتاب مسطور ، وسبب ضياعه تواتر الفتن وترادف المحن في هذه البلاد ومن أعظمها فتنة الفاسق سُنْ علي في القرن التاسع ثم صولة أمير المغرب على سُنْغَيْ ، ثم فتنة النصارى ثم غارت عرب الساحل على أهل البلد ، وفي كل فتنة ممامر أهوال تشيب النواصي وتزيل والرواسي ، وبعد إذ تقرر ثبوت التواتر في الطبقات النازلة على ما تقدم ، فنقول بثبوته في الطبقات العالية أيضا بطريق الاستصحاب المقلوب الذي قرره أهل الأصول وهو دليل من أدلة الشرع معروف مقبول وحاصله الإستدلال بثبوت الأمر في الزمن الثاني على ثبوته في الزمن الأول وصورته هاهنا أن نقول قد ثبت تواتر هذا الشرف من عهد جدنا آمن وعهد محمد بن عالّ إلى هذا اليوم فدل على ثبوته فيما قبل ذلك إذ لو فرض عدم ثبوته أولا ، لاقتضى عدم ثبوته أيضا في الزمن الحال بقاعد الاستصحاب المستقيم وهو عكس المقلوب وعدم ثبوته في الحال باطل وما أدى إلى الباطل فهو باطل . إهـ

ثم قال : (المطلب الثاني : في بيان أن قلة الوسائط بيننا وبين الحسن بن علي مع تطاول المدة إلى القدر الذي هو مبلغها الآن لا يقدح في صحة ما ندعيه من الشرف إذ غاية ما هنالك تجويز اسقاط بعض الأباء في الرسوم التي اعتمد عليها أسلافنا ، وهذا لا ينافي صحة النسبة بعد ثبوتها بالتواتر وحيازتنا لها الحيازة التامة القاطعة لكل شبهة مع الاعتماد على خطوط العلماء المثبتين من غير معارض ولا قادح بواهن ولا متين . مر إلى أن قال : وأما الطبقات التي انقطعت أخبارها فمحكوم عليها بموافقة ما بعدها كما تقدم ، فتجويز النقص لا يؤثر في صحة النسبة الإجمالية ، وإنما يؤثر في معرفة النسبة التفصلية كما صرحوا به ، إهـ المراد منه

ثم قال : (المطلب الثالث : في تقرير قاعدة التصديق في الإنتساب وهي مروية عن إمامنا مالك رضي الله عنه ، ومما يشهد لها أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بعث إلى الناس وهم قبائل شتى كل قبيلة تنتسب إلى جد معلوم وتنتمي إلى أرومة من الأروام ، أما العرب منهم فعمدتهم في حوز إنتسابها الحفظ ورواية الكافة عن الكافة من غير اعتماد على الرسوم

لأنهم أميون لا يقرءون ولا يخطون وهم مع ذلك جاهلية جهلاء لكن أقرهم النبي صلى الله عليه وسلم على دعاويهم ولم يبلغني أنه قال : لواحد منهم إنك لست من الضئضئ الذي تنتمي إليه بل من ضئضئ آخر ، وإنما سيرته الاكتفاء بما الشتهر من ذلك وتواتر فدل هذا على تصديق الناس في الأنساب مطلقا ولو كانوا كفارا فكيف بالمسلمين وأولاهم بذلك أهل البيت النبوي لأنهم أكثر الناس عناية بأنسابهم كما لا يكذبه واحد من أعدائهم ولا من أحبابهم) . إهـ العرض منه .

ثم قال : (المطلب الرابع : في بيان أن نسبتنا معشر الدغوغيين إلى الشجرة الطاهرة والأرومة الفاخرة الزاهرة قطعي لا ظني خلاف ما يدعيه الجاهل ويقضي به الغبي المتساهل ، ولست أنكر أن العقل يجوز الذهول على من ليس بمعصوم واغتراره بباطل مزخرف بالرقوم بأن يتراءي له السقيم الموهوم في هيئة الصحيح المفهوم فيجريه على اللسان أو ينشره بالبنان في كتاب مرقوم ، لكن لا عبرة بالتجويز العقلي بل بالقضاء الشرعي وقد علمت أن الشارع قد رتب الأحكام على الأمور الظاهرة من غير التفات إلى الاحتمالات العقلية النادرة وإثبات الأنساب من ذلك فمن ثم لا يليق الطعن في نسبة احتمال السهو من الموقعين أو تجويز صدور البغي من بعض الأمهات أو نحو ذلك فإن هذه الاحتمالات عقلية لا تعتبر في الشرع بل مقتضاه الجزم بصحة كل نسبة عند توفر شروط التصحيح فمن هذه الحيثية كان إنتماءنا إلى البيت الشرف قطعيا لا ظنيا .ومن أجل ما قررناه كنت أقولُ إني لا أتحرج من أن أحلف بالله العظيم على صحة نسة الضغوغين وأنهم شرفاء عند الله ومرادي أن شرفهم ثابت بحكمه الذي نزله على رسوله صلى الله عليه وسلم بناء على ما مر من أن الشرع مبني على اعتبار الظاهر ، والله يتولى السرائر ، ولهذا قال صاحب أسهل المسالك في باب الردة أعاذنا الله منها ومن كل سوء عند قول الشيخ خليل (وفي قبيح لأحد ذريته عليه السلام) ما نصه : تنبيه مما يندرج في كلام المصنف أن يقال لأحدهم أن نسبه ظني لا قطعي ونحو ذلك من المقالات لأنه وإن كان كل نسب كذلك بحسب التجويز العقلي ، فهو مقطوع به بحسب الظاهر وعليه تترتب الأحكام الشرعية ، ولا منافات بين كون الشيء مقطوعا به شرعا ومظنونا عقلا ولذا ورد عن غير واحد من أئمة الشرفاء أنه إذا خاطبه النبي صلى الله عليه وسلم في المنام بقوله ياولدي سر بذلك غاية السرور وأعلن بأنه حصل له الاطمئنان بصحة نسبته إليه ، قال الشيخ مس وهذا التجويز العقلي هو والله أعلم محل ما نقله ابن عرفة عن شيخه ابن عبد السلام

كما في البرزلي من أنه كان يقول نسب سبع مائة عام لا يثبت في هـذا الزمان) إهـ .قلت وأما قول العلامة المقري لبعض مشاهير الشرفاء في مجلس الملكأبي عنان المريني وقد جرى بينهما كلام أما شرفي فمحقق بالعلم الذي أنا أبثه ولا يرتاب في أحد وأما شرفك فمظنون ومن لنا بصحته منذ أزيد من سبع مائة عام فمراده شرف الدنيا ومنزلتها ورياستها كما يفصح عنه قوله الذي أنا أبثه ولا يرتاب فيه أحد أي لحصوله عيانا فلا يدخله حتى التجويز العقلي الذي يدخل نسب غير المعصوم ، فلا يرد عليه ما أورده عليه مس وسلمه الرهوني من أن شرف العلم إنما هو من حيث ثمرته وقبوله عند الله تعالى وذلك ليس بمظنون فضلا عن كونه مقطوعا به فهذا غير خاف عمن هو دون الإمام المقري بمراتب قطعا فكيف يخفى عليه حتى يعترض عليه به والسياق ولا يقتضيه بل المقام يأباه فتأمله منصفا ، على أن حسن الظن المطلوب في حق عوامهم فضلا عن خواصهم فضلا (1)عن مطلق علمائهم فضلا عن خواصهم مثل الإمام المقري المشهود له بالعلم والديانة كما اعترف به الشيخ مس نفسه وكما في ترجمته في تكميل الديباج وتواليفه شاهدة له بذلك أيضا ، يوجب(2) حمل ما صدر منه على أنه ليس لحق نفسه بل لحفظ حرمة العلم وللتنبيه على منزلتها في الدين خوفا اناستخفاف بها الوجب كمايأتي للكفر والعياذ بالله تعالى لا سيما إن حصل ما يؤذن بالاستهانة والاستخفاف كما هو شأن أرباب النفوس سيما عند هيجان الغضب وثوراته ، والشاهد يرى ما لا يراه الغائب فيكون ذلك من باب النصيحة الواجبة مع استصغاره لنفسه واحتقاره لها وتحققه أنا الشرف في الحقيقة إنما هو لمنصب العلم الشريف لله ، ولأظهر أنها مقالة صدرت في حال الغضب وألفاظ الغضب تقع على غير الحقيقة غالبا ، قالوه في قول ابن عباس في حق نوف الكالي رضي الله عنهم كذب عدوالله ، وماحمل عليه قول ابن عبد السلام المذكور وقول الإمام المقري أن

---

(1) 1) الجواب عن قول المقري للشريف (شرفي بالعلم محقق وشرفك مظنون) .

(2) 2) هكذا بالأصل ولعل الصواب (وفي مطلق) .القرشية اليوم مظنية من التجويز العقلي للبحث فيه مجال ، قاله أحد تلامذة أبو عبد الله التماق ، قال الرهوني وهو ظاهر لأن المتبادر منه خلافه . إهـ والظاهر أنه أشار لنحو ما نقله جلال الدين السيوطي في كتابه شطور

الأعلام في مباني الإيمان والإسلام عن شيخه شيخ الإسلام البلقيني من أن للعد في هذه المسألة يندر وجوده وإنه كان يقول من نحو ثلاثمائة سنة ندر وجود عقد صحيح في نكاح على مقتضى النص فيما جاء (لا نكاح إلا بولي وصداق وشاهد عدل) إهـ وفي الرهواني ما يوافق هذا ونصه : وقد ورد عن غير واحد من الأئمة ممن ينتسب إلى هذا النسب الطاهر أنهم إذا رأوا في المنام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وخاطبهم بقوله يا ولدي سروا بذلك غاية السرور وأظهروا الفرح به غاية الظهور ، وأعلنوا بأنهم حصل لهم الاطمئنان بأنه قد صحت نسبتهم إليه صلى الله عليه وسلم ومع لك فمرادهم أن ذلك بإعتبار ما في نفس الأمر بالتجويز العقلي فإن الإجماع منعقد على أن اقتراف بعض النساء ليس بمستحيل عقلا ، ولبس مرادهم أن ذلك في الظاهر وأنه مظنون بإعتبار الأحكام الشرعية ؛ بل هم جازمون بأن النسب ثابت لهم ولغيرهم قطعا بإعتبارها ، ولا غرابة في كون مستند الحكم ظنيا والحكم نفسه وما ترتب عليه قطعيا ، فإن الإجماع منعقد على أن ما لم يصل إلى حد التواتر والاستفاضة من أنواع الإخبار والشهادت ، إنما يفيد الظن وإن كانت أفراده تتفاوت بالقوة والضعف ومع ذلك فقد جعلوا الأحكام المبنية عليها وما تفرع عنها قطعية ، فأرقوا بذلك الدماء مع عظمها وأباحوا بها الفروج مع وجوب الاحتياط لمراعاة حرمتها . مر إلى أن قال : فمن أطلق القول بأن النسب ظني غير مصيب وإن حاز من العلم والفضل أوفر النصيب ، فإن الشرع ألغى هذا التجويز العقلي ورتب الأحكام الشرعية القطعية على ظاهر الأمر فأباح للأب ووصيه بشرطه جبر البكر على النكاح دون مشاورة وأباحها بذلك للأزواج مع عدم رضاها وإظهارهاالكراهية لذلك وسوغ خلوة الرجال بالنساء المحارم وأوجب عليهم التواصل وحرم عليهم القطعية والهجران ورتب على ذلك الوعيد العظيم في الآحاديث الصحيحة ومحكم القرآن فقال جل من قائل { فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم } كما حرم على كل شخص أن ينتسب إلى غير نسبه الظاهر كان من مطلق الناس أو من أهل البيت الطاهر ، ورتب على ذلك الوعيد الشديد ففي أصح الصحيح من حديث سعد وأبي بكرة معا أن رسول الله الله صلى الله عليه وسلم قال (من دعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام) وفيه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال (لا ترغبوا عن آبائكم فمن رغب عن أبيه فهو كافر) ثم المعلن بهذا القول

المطلق المواجه به غيره عند التكلم مع إقدامه على ذلك الأمر العظيم ، قد ذكر في نفسه ما لا يحل له أن يذكر وطعن في نفسه وعرض بأمه وهو لا يشعر فإن قائل ذلك لم يخصه بأهل البيت بل هو عنده عام في كل حي من بني آدم وكل ميت إلا من ثبتت له العصمة أو شهد له المعصوم ، فمن قاله في أهل البيت لزمه أن يقوله في غيرهم بالأحرى لأن نفي ذلك عن أهل البيت أحق وأولى ، لعلو همتهم وسمو مرتبتهم ، وقد عهد ذلك في القرشيات في الجاهلية فكيف بالهاشميات منهن فكيف بالفاطميات في الإسلام فقد ثبت من قول هند بنت عتبة حين تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم { يأيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولايزنين } على النساء أوَ تزني الحرة يارسول الله صلى الله عليه وسلم . مر إلى أن قال : وقد وقفت على جواب في المسألة لشيخ بعض مشائخنا العلامة المحقق أبي عبد الله سيدي محمد المسناوي فإنه سئل بما نصه بعد ما صدر بالافتتاح ، جوابكم عن مسألة هي أن رجلا يدعي المعرفة والفقه تحدث مع الناس قائلا لهم ، بعد انجرار الكلام إلى سادتنا الأشراف أن الزمان قد طال وليس على الفروج فقال : النساء غير مؤتمنات كأنه يحتج إلى أن من ثبتت له هذا النسب الطاهر والمجد الفاخر ، يطعن فيه ولا يتحقق له نسب ، بل قدصرح بذلك فهل يجب نهيه عن هذه المقالة الشنعاء وإن عاد عوقب ، أو يعاقب من أول مرة ، أو لا ينهى ولا يزجر . أجبنا مأجورا مشكورا .

فأجاب بما نصه : اعلم أنما ذكره المذكور على تقدير صحته لا يختص كما في وصلة الزلفى للفقيه الصالح أبي العباس أحمد بن علي السنوسي الابو سعيد رحمه الله بالشرف بل هو عام في أولاد آدم ما عد المعصوم ، فإن نسبته محققة فالمتشكك في نسبة من ثبت شرفه شرعا بموجبه بما ذكر من أنه ليس على فروج النساء اقفال يلزمه ذلك في نفسه وإن يشك في نسبته الثابتة لأبيه ، لاحتمال أن تكون أمه قد بغت فيكون لغير رشدة والاحتمال المذكور موجود طال الزمن أو قصر فإن احتج لنفسه بأن الولد للفراش وبأن الأم من أهل النزاهة والصون اللذين لا تتطرق لهما التهمة ، قيل له هذا مشترك الإلزام بينك وبين من تطعن عليه ، فإن صح جوابا لك صح لغيرك أيضا من باب لا فارق ، ثم اعلم ثانيا أن القول المذكور وإن كان محتملا في نفسه أو جائزا في حد ذاته لا يقدح في حق من ثبتت للجناب النبوي نسبته شرعا واستفاضت بين الناس شهرته نقلا وسمعا لأن غاية ذلك التحوير العقلي لأن تكون النسبة غير ثابتة لمدعيها

وحائزا شرعا باعتبار الواقع ونفس الأمر ، وأنها ظنية أو شكة لعدم ما يفيد اليقين والقطع فيصير التحوير المذكور في محل المنع لاعتبار ما جاء به الشرع من إجراء الأحكام على مقتضى الظاهر وترك البواطن موكولة إلى عالم السرائر فإن النسبة باعتباره محكوم بها قطعا عند ثبوت موجبتا وسببها فيعامل حائزا بما يقتضيه حاله الرفيع كما يعامل تنقصه بالأدب الوجع ، لا سيما إن أنضاف إلى ذلك ثبوت القرائن العادة والدلائل الشاهدة التي تنسلخ لها الألباب ، ويرتفع معها تخالج الظنون وخطرات الارتياب كما يوجد في مشاهير الأشراف السالمين من معتبر الاختلاف ، وبذلك تتفاوت الأنساب من حيث هي في القوة مع اتحاد المنسوب إليه وكان للشرف مراتب كما هو منصوص عليه فمنه الجلي والآجل والخفي والأحنى وبحسب ذلك يتفاوت الاعتقاد ويختلف اطمئنان النفس إليه وثلوج الفؤاد وقد قسم الفقهاء كما في التبصرة مستند شهادات السماع إلى ما يفيد العلم وهو التواتر كالسماع بأن مكة موجودة . وإلى ما يفيد ظنا قويا يقرب من القطع وهو الاستفاضة كالسماع بأن نافعا مولى ابن عمر وأن عبد الرحمن صاحب ملك هو ابن القاسم وإلى ما يفيد مطلق الظن وهو شهادة السماع التي يقصد الفقهاء الكلام عليها .المطلب الخامس : في استدراك أنظار أخر تشهد لصحة دعوانا للشرف فمنها أن ما عرف به أسلافنا الدغوغيون من الورع والتقوى يزعهم عن مواقعة الصغائر فضلا عن الكبائر فكيف بما هو أكبر من التلاعب بنسب رسول الله صلى الله عليه وسلم والانتساب إليه بالزور والبهتان والإصرار على ذلك في ممر الساعات والأزمان ، وأيضا ارتقاءهم في درجات الضبط والاتقان مما يبعد الريبة ويثلج الصدر بأنوار الايقان ، ومعلوم أنهم هم أهلة التحقيق وأدلة الهداية إلى سواء الطريق وكلهم أو جلهم موسوم بسيمي التعديل والتوثيق إليهم تسند الروايات ومن بينهم تستمد الأفهام والدرايات ، وتجلى عن القلوب الأصداء والعمايات فما من علم إلا وقد اقتطفوا من أزهاره وتطلعوا إلى درك أسراره خوض أنهاره وهتك أستاره فأنى لهم أن يجهلوا ما خصهم من الأنساب وهمم النظار والضباط والكتاب ، وأيضا للدغوغيين نظراء في الضبط والتحرير جلهم من أبناء إخوالهم وعماتهم ومن تلاميذهم الوفاة بعهودهم ، وفيهم قبائل أخرى من أعيان السوقيين ، ومن أنجب أولئك أبناء الثمانية المشهورين ، وأحزاب الأنصار أيوبيين ويعقوبيين وكلهم موازر لنا ومعاضد في إثبات هذا الشرف ، وبعيد كل البعد أن يتفق هؤلاء الجماهير ، وجلهم من العلماء المشاهير على أمر لا أصل له ولا حقيقه ليروجوا بين الخليقه ، ثم إنهم

يكتبونه وثيقه ، وينتهجونه هم ومن حذا خذوهم طريقه لا والله ما توافقوا إلا عن علم وإتقان وتحقيق وإيقان ، ونظروا معان ، كما هو عادة الفضلاء في كل عصر وأوان . ومنها أن محتدى النبي صلى الله عليه وسلم محفوظ من أسلافه كما هو محفوظ من أعلاه إكراما له عليه الصلاة والسلام ألا ترى كيف قيض الله له من يدافع عنه من العلماء والسلاطين من أول الدهر إلى آخره فمن تجراء على الانتساب إليه بالباطل فقد عرض نفسه لتعاضد السيوف والأقلام على زجره وإهانته فالعالم يسجل بتكذيبه ، والسلطان يبادر بتنكيله وتأديبه ثم إن الناس يمقتونه كلهم لسوء صنيعه ، قال خ في باب الردة عاطفا على ما يقتضي التشديد في التنكيل ، وفي قبيح لأحد ذريته عليه السلام مع العلم به كان انتسب له واحتمل قوله وقد بلغت العناية بحماية هذا الحريم في القرون الأولى أن الشرفاء لا بد لهم من نقيب(1) يتولى منهم أمورا منها ضبط أنسابهم حتى لا يدخل منهم دعى ، ومنها منع نسائهم أن ينكحن إلا الأكفاء صيانة لأنسابهن وتعظيما لحرمتهن ، وإلى بني أعمامنا بني عمران إنتهت هذه الرياسة في فاس أيام ابن خلدون فكانوا نقباء الأشراف في عهده كما في ديوان المبتدء والخبر ، وممن تكلّم على النقابة الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله حيث قال : من خصائصهم رضي الله عنهم يعني الشرفاء استعمال النقباء منهم عليهم وهذه النقابة وضعت في الأصل لصيانتهم عن أن يتولى عليهم من لا يكافئهم في النسب ولا يساويهم في الشرف . إهـ المراد من كلام النبهاني ، ثم مر الشيخ الخضر في الكلام على النقباء إلى أن قال : فهذه سيرة الخلفاء مع الشرفاء ...ـين كان ربع الخلافة آهلا ما به العفا ، فلما تهدمت أركانها وانكسفت بعد طول الإشراق نجمانها ، صار رجل البلاد فوضى لا راعي لها ولا سائس ولا قائد فضاعت الخطط فلم يبق من ينظم الأمور على أساليبها

---

(1) 1) نقابةالأشراف موجودة في هذا العصر بالمملكة المغربية التي فيها ملك الشرفاء ، وأظنها موجودة في سائر ممالك الأشراف كالأردن ، واليمن ، والعراق ، وليبيا ، وإن كان الملك في الثلاث الأخر صار إلى الجمهورية وإلى غير الشرفاء .المعروفة ولا من يشيدها على مبانيها المألوفة وحينئذ صارت جماعة المسلمين نائبة مناب الأئمة في حماية حمى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان في كل بلد قوامون بالقسط كلهم يدافع عن هذا الحريم ما استطاع فلو كنا تسورنا على دعوى الشرف من غير بينة لقام بالإنكار بعض حماة الدين من العلماء

والسلاطين لكنهم سكتوا عنا من غير خوف يزعهم ولا هيبة تردعهم بل استبدلوا السكوت بالإقرار فاعترفوا لنا بصحة الإنتساب إلى بيت النبي المختار صلى الله عليه وعلى آله الأخيار وصحابته الأبرار منها أن منصب الشرافة علق نفيس يتمناه حيث قدر على تناوله كل مرؤس ورئيس لئن لا يتجراء على إدعائه من يتضوا بأضوائه ولو كان من أقيال اليمن واوذوائه . مر إلى أن قال : و الدغوغيون مع كونهم غرباء في التكرور قد تظاهروا باحتيازه على ممر الدهور وفيهم المسكين والضعيف والمقهور والشيخة التي لم تكن بشيء مذكور ، وكل منهم يفصح بدعواه كما شاء لكن لا يشنغ عليه القاضي بذلك ولا الباشا ، ولا يقال في الناس أنه اخترع ما لم يسمع قبله كلا وحاشا ، وقد كان معهم عظماء من أجيالهم أو من الأجانب القاطنين بحيالهم لا يدعو لأنفسهم تلك المرتبة مع كونهم في الظاهر أهلا لكل منقبة ، ألا ترى كيف تبرأ منها الولي الشهير والعالم المنير الشيخ محمد بن يوسف ـــ المعروف بـإِدّ إِنْتَكَرَتَّتْ ـــ والأولياء والقضاة المتفرعون عنه رضي الله عن المستقدمين منهم والمستأخرين ورضي عنا معهم ، فلو كانت بالمجد واكتساب المبرة لنالوها ، ولو كانت عند مناط المجرة ، أو بالسلطنة وامتداد الملك في الأفاق لكان الأولى بها إسْكيا الحاج أو إسْكيا إسحاق ، أو كانت للجحاجحة السادة والضراغمة الذادة لاحتازها النابغ وأقوامه القادة ، أو المطالع الكتب المقارعي الكتاب لكانت كناتة أسرع إليها من السهم الصائب ، والسائر من النجم الدائب لكان الله خص بها أولاد فاطمة مع بن أبي طالب ، فلم يكن لها من ورائهم مدرك ولا طالب ، فما هي الأمنة أكرمنا الله بها نحن وأبناء أعمامنا في المغرب والمشرق من جميع القبائل والشعوب والله يختص برحمته من يشاء .

إنتهى العرض من كلام الشيخ الخضر وتتمة مطالبه التي تركتها ولم أنقلها يغني عنها ما قدمته في أول الفصل من ذكر السبب الحامل على تدوين ما أجاب به السادة الدغوغيين عن الطعن في أنسابهم فليراجعه من أراد الوقوف عليه ، أو من مرّ به ذاهلا عنه .

الفصل الثاني

في ما اختص به الدغوغيون السوقيون من المفاخر والمآثر

كتب الشيخ العالم الثقة حمّد بن محمد بن الخضر من شيوخ أهل تكلالت في وصف بني علي بن يحي من قبائلهم ما لفظه : لم يزل بنوا علي بن يحي ومن تناسل منهم متسمين بالشرف والعلم مرتسمين بالتقوى والكرم والفهم وانتشر لهم من الصيت مايفضي بالحسود إلى التسكيت واشتهر

عليهم من خصال البر والتقوى ما لا تكاد قدر من سواهم تتحملـه ولا عليه تقوى تعلموا فعلموا وعملوا وأنفقوا وأحسنوا فأملوا ، وقاموا لله وبالمصالح جارين على هدى السلف الصالح وكانوا أباة لضيم ، والبدور المزيجة للغيم فمنهم العلماء العاملون ، ومنهم العارفون الكاملون ، ومنهم الأغنياء المنفقون والكرماء المرفقون ، ومنهم الزهاد الفانون والعباد على أحسن قانون . إهـ فمما اختصوا به من الآثر إقامة العلم فيهم مدة تزيد على خمسة قرون من القرن التاسع الهجري إلى أواخر الرابع عشر لم تخل قبيلتهم من جماعة يشار إليهم بالبنان ، ويعدون بالخنصر ، وليس في قليمهم من يشاركهم في تلك المفخرة فيما نعلم إلا أبناء عماتهم من بني الثامنية المشهورين بأتَّمَنْ ، وبني يعقوب وأيوب الأنصاريين ، وما يذكر السيد المختار الكنتي عن أجداد كناتة وما سوى هؤلاء من أهل العلم ببلادنا لا يتسلسل فيهم العلم مدة طويلة بل يوجد عالم أو علماء في قبيلة أو أهل بيت ثم ينقطع العلم من أهل ذلك البيت وينتقل إلى آخرين من إخوانهم أو ينعدم في القبيلة بالكلية بموت عالمهم ، والطائفة الدغوغية منذ دخلوا بلاد الطوارق في أوائل القرن التاسع الهجر لم يزل فيهم عالم أو علماء إلى الآن والحمد لله على ذلك ولست أنفي عن غيرهم من إخوانهم وجود العلماء فيهم قديما وحديثا لكن لم أر من يدعي معرفة أخبار أسلافه الأولين كما يدعيها الدغوغيون إنما يعرف غيرهم أخبار أبيه أو جده الأدنى أو شيئا من كرامات جد له مشهور من غير نظر إلى ما له من الآثار العلمية والخطية وما جرى بينه وبين معاصريه وتاريخ حياته وتعيين عصره ومن أحياء السوقيين من ينتسب إلى جد شهير بالعلم والولاية ....كذرية أبي الهدى ، ذرية محمد يوسف لكن لم يعتنوا بضبط أخبار من بعدهما من أولادهما ولاتدوين آثارهما ولا آثار غيرهما من عشائرهما إلا قليلا من أخبار بعض الأعيان الموجودين في أواخر القرن الثاني عشر فما بعده وغير أولاد هذين الشيخين وبني أعمامهم لا يعتنون بضبط ما تسلسل فيهم من العلماء بل يكفيهم أن يعرفوا على وجه الإجمال أن أسلافهم لم يزالوا يتوارثون العلم ويخدمون فيه ويعظمون لأجله .

ومما اختصوا به إعراضهم عن المناصب الدنيوية مع غاية الاستعداد والاستحقاق فلا يلون للسلاطين وظيفة من الواظائف التي يليها أمثالهم كالقاضي وولاية الزكوات والوزارة وغيرها من أمور الرياسة إلا قليلا منهم تربى عند أخواله وتحلق بأخلاقهم ، وأما المناصب الدينية فهم

السابقون إليها وفيها هم المدرسون والناقلون للعلوم والمفتشون لخزائن العلوم والباحثون عن أهل البدع والرادون عليهم وهم الآمرون والناهون لا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يهابون ملك الملك ولا غنيا لغناه ولا قريبا القرابة اتفقوا على هذه السجايا والأخلاق مع تباعدهم في المواطن وعدم التعارف بين كثير منهم لأنهم متفرقون في الأوطان والأحياء لا تجد حيا منهم إلا وفيه جماعة لا تشاركهم في عمود الأجداد وكثير منهم ينتسب إلى ما ينسب إلى إليه أخواله من الأوطان ويتخلق بأخلاقهم مع محافظته على عمود نسبه وحيازته لبني أعمامه حيث كانوا ويذكر أنه منهم لا من القوم الذين كان بينهم والطبيعة التي يتوارثونها ويتفقون على مقتضاها جعلا من الله لا عن المشورة مهم أنه إذا أطأنت البلاد وتنافس أهلها في المناصب والرياسة رغبوا عنها وفوضوا كل أمر إلى من يتأهل للقيام به من إخوانهم وأقبلوا على شئونهم الخاصة وعلى نشر العلوم بين العامة والخاصة وإرشاد الناس والإصلاح بين المتنافرين منهم وحض العامة والخاصة على متابعة السنة ومجانبة البدعة وامتازوا من بين إخوانهم بتلك الأخلاق حتى كأنهم لم تخلق إلا لهم ، ومما اختصوا به حسن القيام بأمور البلد إذا اضطربت أحوال أهله وعمت الزلازل والفتن والرعب وانتشر النهب والأسر والقتل واستوت الملوك بالمملوك الثبيت بالهبيت والأنام بالأنعام وطمع الأجانب من كل جهة في استأصال شأفة أهل البلد واسترقاقهم وتخريب ديارهم وإجلائهم وقل أن تخلو بلادهم من مثل هذه الأمور في القرون الماضية فإذا وقع شيء منها وعجز قادة البلد عن حماية حريمهم ويئس الضعفاء ممن يذب عنهم واشدت الحروب بين أهل وطنهم وبين من يحاورهم من الممالك والأمم وعز التفاهم بين الجميع قام رجل أو رجال من بني علي بن يحي الدغوغي وحاول تلك الزلازل والفتن بلسانه وسنانه وقلمه وقدمه وسار في البلدان وزار أهل السلطنة أو راسلهم وذب عن الأمراء كما يذب عن الضعفاء ويلوذ الأقوياء بجاهه وحرمته عن السلاطين الأجانب كما يلوذ به الضعفاء ولا يزال كذلك يخاصم العلماء المثيرين لسلاطينهم ويلاين أهل القوة والسلطنة حتى تطمئن البلاد على يديه وإذا إطمأنت عاد إلى طريقة أسلافه من الإعراض عن المناصب الدنيوية وإحالتها على من يرغب فيها ويتأهل للقيام بها والإقبال على ما يصلح الأمة ولهم في ذلك نهضات مأثورة وآثار مشهورة تتجدد بتجدد القرون ، ويعمل فيها كل خلف ما يعمل في أمثالها أسلافه الأولون فمن تلك النهضات ما ينفردون به ومنها ما يشاركهم فيه إخوانهم الملازمين لهم في الجوار في جميع الأمور .

فأول من رأيت أثر نهضاته النافعة منّ الدغوغيين السوقين : شيخ الشيوخ في وقته محمد بن عالّ بن أدّ بن الغزالي بن علي بن يحي بن إبراهيم الدغوغي وهم من القرن العاشر الهجري فإنه لما راجت دولة سُنْغَايْ في أيام إسكيا إسحاق بن داوود ونفذ حكمهم في المناطق وساء التفاهم بينه وبين التوارق جميعا وأهل السوق خصوصا وكاد الفريقان يصطدمان ولم يبق فيهم ناه ولا منته ، لما كان ذلك قام الشيخ محمد بن عالّ مقام لم نسمع من يشاركه فيه ولا من يرجو نجاحه فحمله الحرص على سلامة أهل وطنه عموما والسوقيين خصوصا على مخاطبة سلطان سنغاي الذي بلغ من الهيبة والتعاظم ما قدر له فكتب إليه رسالة يخبره فيها بأمور أهل السوق وأصولهم ويذب عنهم ويبرء ساحتهم مما يثير عليهم غضب السلطان فكانت تلك الرسالة سببا السكون غضب السلطان على من يجاور الشيخ المرسل من الناس فعظمه وعظم السوقيين لأجله وصار يكرمهم ويقدمهم على غيرهم ومهد لهم الكرامة في قومه ورعيته واحترموا في جيله إلى انقراض دولة سنغاي ، ثم لم تزل بقايا ذلك الاحترام في سنغي لمن يقربهم من السوّقيين إلى الآن .

النهضة الثانية : على حسب ما اطلعت عليه من الأثار نهضة الشيخ محمد المختار المعروف " بتَبَّلَ " وهو ابن محمد بن البكري من سبط الغزالي بن علي بن يحي يلتقي مع ابن عالّ في جده الأدني وهو أدّ بن الغزالي ، وعاش في القرن الحادي عشر الهجري وكان عالما جليلا وجيها مسموع الكلمة ونهضته أنه تفطن لحالة أهل بلده من عدم التقيد بما يخالف أهواءهم من الأحكام الشرعية وكثرة جهلة المفتين فيه وحكمهم بأشياء غير مرضية خاف من عموم الفساد بسبب ذلك ولم يجد ما يظنه رادعا لإفسادهم إلا أن يتولى قضاءهم من له سلطان يقهرهم على قبول الحق وينفذ فيهم الأحكام الشرعية ويوحد كلمتهم فسار إلى بلاد آير ولقي صاحب إكَدَزْ الذي استنابه سلطان المغرب على أهل صحراء الملثمين وذلك النائب هو الذي استعمل كَردَنَّ جد إولَمَّدَنْ على بلاد تادمكة .....فلما لقي النائب طلب منه أن يوليه القضاء العام على جميع البلاد التي استعمل عليها كَردَنَّ أميرا ، فامتنع النائب من توليته إلا بشرط أن يعطيه عشرة من عتاق خيل دبّاكرْ المشهورة بالسبق والجودة فرضي الشيخ بذلك حرصا على تمام مراده من توحيد أهل بلده تحت حاكم ينفذ فيهم الأمور الشريعة فلما تم العقد بينهما رجع الشيخ الشريف إلى بلاده وتأمل أصحابه وأهلياتهم ليولي خطة القضاء من يتأهل لها ، فظهر له أن

يوليها لأمدْ أو ابنه محمد البشير جد قضاة أكدشْ فولاه الخطة لما يرى من علمه وأمانته وصيانته وتفرغ هو لما كان فيه من الشئون قبل ، وحصل غرضه من انضباط الأحكام وجريها على مشهور مذهب مالك ونقيد الناس بحكامهم طوعا وكرها ، ثم قام الشيخ الأنصاري الذي ولي الخطة أحسن قيام ورتب أمور القضاة أحسن ترتيب فأعجبت ولايته الأمير كردنّ فأقره وقواه على الانفاذ كيف شاء وحصل على رض الشيخ الشريف من انضباط أحكام أهل بلاده ولم تزل خطة القضاء باقية بأيدي أولاد محمد البشير يتوارثونها إلى انقضاء مدة إولمدن في أوائل القرن الرابع عشر الهجري ومدة بقاء القضاء المستقيم في بلادنا من عهد محمد المختار المعروف باسم تبّل وأخيه محمد البشير إلى زمن الاحتلال الفرنسي تزيد على قرنين ونصف قرن تقريبا جزى الله بأحسن الجزاء كلا من الشيخين على نيته وعمله وتقبل من المتسبب ومن المباشر وممن جاء بعدهما وأحسن متابعتهما ، ثم ليعلم الناظر فيما كتبته أنه هو الذي رأيته عن أشياخي عن أسلافهم وهناك رواية أخرى وقفت عليها من بعض الخطوط القديمة تذكر أن الأمير كردن هو الذي جمع علماء السوقيين وسألهم عن أعلمهم وأعدلهم فاتفقت كلمتهم على أن محمد البشير أعلم وأعدل هؤلاء منصب قاضي القضاة ، ثم توارثه بنوه من بعده كلما تأمر واحد من أولاد كردن اتخذ قاضيا من أولاد محمد البشير يعاونه على ما هو فيه من أمور الرّعية ، ولا تنافي بين الروايتين غاية ما بينهما أن في الأولى زيادة من عدول على ما في الثانية لأن الأولى مصرحة بأن الشيخ الشريف هو الذي ولى أخاه الأنصاري ما تولاه من نائب السلطان ، ثم أقر الأمير فعله وولاه ثانيا بعد مشاورة أهل العلم والفضل ، والرواية الثانية لم تنف ما أثبتت الأولى بل أفادت أن ولاية القضاء في آل محمد البشير مبدأها أن أمير البلد هو الذي اتخذ جدهم قاضيا ولا مانع من أن تنسب إليه توليته القضاء لأنه هو الذي أقر تولية أخيه الشيخ الشريف له بعد مشاورة أهل العلم والفضل . والله أعلم

النهضة الثالثة : نهضة محمد المعروف باسم إنَلْبُشْ وهو محمد بن وَدِّيَ من سبط أحمد الأحمر ابن علي بن يحي ، فإنه لما اشتدت سطوة الرماة وغلبتهم في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل الثاني عشر وخاف جميع الطوارق من شوكتهم لا سيما من يسكن مع السودان ي البحر ومن يسكن بقرب البحر منهم وعمت الرهبة منهم وضعفت الحماة عن مدافعتهم ، لما كان ذلك قام إنلْبُشْ كقيام ابن عالّ في عهد إسكيا فكتب إلى قائد الرماة في تنبكت رسالة طويلة يبين له فيها أخبار بلده وبين له فيها أصول

السوقيين وأنسابهم وأن منهم شرفاء يستحقون التعظيم والاحترام لأجل نسبهم الشريف وعلماء وصلحاء وأولياء يستحقون الاحترام لعلمهم وفضلهم ويذكر فيها بعض ما بين أسلافهم وأسلاف أهل تنبكت من المواصلات والمودات فكانت رسالته سببا لسكون غضب القائد وأعرض عن غزو الطوارق وأظهر من إكرام أهل السوق وإجلالهم لا سيما الشرفاء منهم ، ما يعجز عنه الواصف وصار ذلك في الرماة سنة باقية إلى الآن كلما لقي واحد منهم سوقيا شريفا أظهر له البشر والانقياد متعززا بأن أسلافه من موالي الشرفاء لا يستعصي لواحد منهم ولا يخضع لغيرهم أيا كان ، ولا يمنعهم من توقيره وإجلاله عدم معرفة شخصه إذا سمعوا أنه شريف .النهضة الرابعة : نهضة جدنا وعم جدي الثاني وهو أحمد بن همّهمّ من سبط الغزالي بن علي يحي هو عاش في أواخر القرن الثاني عشر في أيام الأمير كَاو بن أمّ ، فإن الأمير كاو لما وصلت إليه الإمارة سآت الأحوال وكثرت الاضطرابات والخرجات عنه ودامت الحروب بينه وبين الخارجين عنه في دنّك وفي أترامْ وفي جهة الجنوب واستغرقت الحروب أيامه إلى أن كان آخر أمره أن قتل في غزوة غزاها إلى بلاد دنّك محاربا لابن عمه خَتوت سلطان دنّك ، فلما عمت الزلازل في ذلك الوقت وأيس أهل بلادنا من حماية حماتهم ودفعهم عن الحرب وكاد أهل دنّك يفنون أهل بلادنا بالقتل ونهب ما بأيديهم وصار أقويائهم كالضعفاء في عدم التعرض للدفاع قام الجد المذكور أحمد بن محمد أحمد المعروف باسم همّهمّ واستصحب من إخوانه محمد المصطفى بن محمد إكِنن الأنصاري جد أهل تِكِرَتنْ وسارا سرا ولم يفشيا سرهما لأحد وكان الشيخ محمد المصطفى قد نهب مال قبائل من دباكر كانت تابعة له فلم تطب نفسه بعدم التحرك في استردادها وليس في الناس من يثق به كما يثق بالشيخ أحمد المذكور فشاوره فيما يصنع فقال له إني ذاهب معك إلى السلطان ختوت نطلب منه أن يرد إلينا ما نهبته جنوده من أتباعك ومن غيرهم من أهل بلادنا وكان أهل دنك في ذلك الوقت لا يظفرون بأحد من أهل أترامْ إلا قتلوه فلما عزم الشيخان على المسير سرا ، استعمل الشيخ أحمد بعض الأوفاق فسارا محجوبيين عن الأبصار حتى أناخا بباب السلطان خَتوت فسخر لهما وأكرم مثواهما فلما كلمه الشيخ أحمد في رد الأموال المنهوبة قال له إني لم أغز بلادكم إلا بأمر علماء بلادي فإن شئت أجمع بينك وبينهم وتخاصمهم فإن كان الأمر كما يقولون من حلية أموال أهل بلادكم لنا علمت أن لا سبيل عليّ وإن ظهر أنهم على باطل رددت إليك جميع ما لم يتلف من أموال أهل بلادكم

فقال له الشيخ أحمد ذلك الجمع أحب إلي من كل شيء فبني بيتا كبيرا
وأنزل فيه الشيخين ثم بعث عماله في قبائل بلده يحشرون العلماء حتى
جاءوه بجماعة كبيرة من العلماء وممن جاء ليحضر الخصام والمحاجة
فلما اجتمعوا قام الشيخ أحمد في نحورهم وخاصمهم حتى خصمهم وبين
لهم فساد ما زعموا من أن فيهم إماما يجب طاعته على سائر الطوارق
ومن خرج عن طاعته حل دمه وماله ، وأن جميع من كان في بلاد كاو
خارج عن الطاعة لا فرق بين الأمير والمأمور منهم ولا بين العالم
والجاهل , وذلك الزعم قديم في أسلافهم يأخذه الأخلاف عن الأسلاف من
عهد جدجد وحمديت في أوائل القرن الحادي عشر إلى أواخر القرن الثاني
عشر الذي كانت فيه إمارة جنوت ، فلما خصمهم الشيخان أحمد بن محمد
أحمد ومحمد المصطفى بن محمد إكنن في الموضوع المبحوث فيه انتقل
معهم الشيخ أحمد إلى المباحثة في سائر الفنون فجعل يغلبهم في الفنون
التي يقرؤونها ويملي عليهم من مسائل الفنون التي لا يقرؤونها ما لم يخطر
ببالهم ولم يقرع أسماعهم ولم يزل معهم على ذلك حتى أقروا له بين يدي
سلطانهم بالسبق والغلبة ورغبوا من سلطانهم أن يحبسه لهم حتى يأخذوا
عنه من العلوم التي لم يسمعوها إلا منه ، ويحققوا عليه كثيرا مما أخذوه
قبله وتبين لهم أنهم قاصرون عن شأوه فيه ثم طلبوا من الشيخ أن يقيم
معهم يقتبسون من علومه ففعل وأقام الشيخان في ضيافة السلطان يعلمون
الناس ويرشدانهم ويفتيان في صعاب النوازل وبعث السلطان عماله في
القبائل يجمعون ما لم يتلف من الأموال التي يطلبها الشيخان حتى جمعوا
له كثيرا ثم جاءهما ورجعا إلى أهلهما سالمين غانمين ونالا من الهدايا
عند أهل بلده ما شاء ولولا تلك الرحلة التي لم يبق أهل ذلك لأهل أترم
نفسا ولا مالا ولكن الله شاء أن يمن على عباده بهما على حين يأس من
المدافعين فرجعا إلى الناس ما نهب من أموالهم وكسرا من شوكة الأعداء
المغيرين على بلادهم لأنهما بينا لهما أن لا حجة لهم شرعية في الإغارة
على بلادهم فكف عن العدوان والاعتداء عليهم كثير ممن كان يظنه قبل
جائزا ، ولم يبق إلا المحاربة بين سلاطين آل كاو وسلاطين آل جنوت
يحاربونهم مرة ويغزوا آل كاو بلاد أضدادهم فينهبون ثم يتبعونهم
ويقاتلونهم ، ويسالمونهم مرة ويتزاورون فيما بينهم .
ومما يحكى فيما جرى بين الشيخ أحمد والسلطان جنوت في إقامته عنده
أنه لم يداهن ولم يكذب في مخاطبته له حتى صار السلطان يختبر صدقه
في أشياء لا يجترئ أحد على صدقه فيها ، فمن ذلك أنه صادقه يوما وقد
حفر الشيخ حفرة ثم دفنها وضرب عليها بيده فقال له السلطان أعزم

عليك أن تخبرني بما صنعت ، فقال الشيخ هذا عمل عملته لك لئلا تقدر على غزو بلادنا ما دمت حيا ، فلما سمع مقالته عجب من صدقه وثباته وشجاعته وثقته بربه واعتماده عليه ثم ذهب إلى بيته وأتاه بقميص وعمامة فاخرتين وقال له هذه القميص وعمامتها ما وصلتا إليّ إلا البارحة اهداهما إليّ بعض أصدقايي وكان اشتراهما بعشرة من العبيد ، وقد اهديتهما لك وآثرتك بهما، في مقابلة ما جربت من صدقك وثباتك منذ أتيتني إلى هذا اليوم ، وجرت بينه وبين السلطان وعلماء بلده أمور كثيرة كان مآلها إجلالهم له وعادت بركة سعيه على أهل بلاده شكر الله مسعاه وجعل الجنة مثواه ومأوه .

النهضة الخامسة : نهضة عمنا الشيخ هارون بن محمد من سبط أحمد الأحمر ابن علي بن يحي وهو من القرن الثالث عشر عاصر في أوله ومن في آخره من الأعيان وجرت بينه وبين معاصريه ماجريات شعرية وكان في أيام الأمير النابغ بن كاو ، وحضر حروبه مع بضَال بن ختوت سلطان دنك وحروبه مع الخارجين عنه من السودان ، وكانت في أيامه دولة آل فودي في سكتو وتابعهم طوارق دنك وسودان نيجر ممن كان قبل في حكم آل كاو فخاف من جنوده أهل بلادنا جميعا وانسدت عليهم أبواب التحيل للخلاص منهم ، فقام الشيخ هارون المذكور مقاما هاشميا وتأمل حالة أهل بلده فتبين له عجز جميعهم عن تخليص الوطن وأنه لا يدفع عن الوطن وأهله إلا هو أو مثله فخاطب إمامهم محمد بن بلّو بن عثمان بقصيدة أولها : كذاك يسود ، بالجدود له ، النسل ... إلى سيد سادت جدودته قبل

له اخضوضعت في عزها البيض الكحل ... إلى الشيخ نجل الشيخ والعلم الذي

ثم مضى في مدحدائه وتهنئته بظفره وفتوحاته لبلاد أعدائه والاعتراف بإمامته إلى أن قال :

تقوم بما قامت به اليد والرجل ... بعثت بهاتي بيعة مستمرة

مشوشة ، فالطل يعقبه الوبل ... فلا تستقل اليوم ذا من عجالة

وهي طويلة أو متوسطة وسأنقل جميعها في ترجمة ناظمها ، فلما بلغت القصيدة إلى الإمام محمد بلّو فرح بها وعظم ناظمها وكف جنوده عن بلاد الناظم ومنعهم من إعانة من يستعين بهم من أهل دنك على أهل أترم فلم يسمع منهم أدنى أذى لمن ببلاد الناظم إلى أن مات .

ثم كانت ثورة الحاج عمر بن سعيد الفوتاوي القائم برسم الجهاد في بلاده إلى بلاد ماسنة إلى بلاد تنبكت وما حولها من رعايا أولمّدن فعظم

الرعب من جنوده حتى خاف منهم أهل أهكار فيما قيل ، وبعثوا إلى الحاج عمر يناشدونه أن ينكف عن بلادهم ، وهمّ الأمير النابغ بغزو عماله الذين تغلبوا على بلاد تنبكت وما حولها من أوطان الطوارق فأرسل إليه الشيخ سيد المختار بن سيد محمد بن الشيخ الكبير المختار بن أحمد الكنتي ينهاه عن ذلك وأرسل إلى قضاته أبناء الشيخ سلّه ليكفوه عن الغزو ويحذروه عن التعرض لمدافعة الحاج عمر فخاف الناس من جنوده وأيسوا من مدافعتهم ، وجعلوا يتغلبون على بلاد الطوارق بلدا فبلدا حتى خيف من استيلائهم على موضع السلطنة العظمى الذي يسكن فيه النابغ وجميع العلماء السوقيين فأنشد الشيخ هارون المذكور قصيدة يخاطب فيها إمام الفوتاويين وأولها :

مني سلام يفوح كالريحين ... إلى الأمير العظيم الشأن في الدين [

ومنها :

يرجو بذلك أجرا غير ممنون ... يا ثائرا ثار للعليا بهمته
عن المنائم قصدا للميامين ... عدلت والناس في شؤم وذبذبة

وهي طويلة وسأوردها بتمامها في ترجمة ناظمها ، وقال في آخرها :

أعنتكم بالرماح والسكاكين [
... وإنني لو قدرت أن أعينكم

يصغي إلى آية من سورة التين ... لكن مثلي ، وضعف المرء معذرة [

يريد قوله تعالى { ثم رددناه أسفل سافلين } إشارة إلى ضعفه وكبره .ثم ختمها بقوله :

دياجي الشوك من وحي الشياطين ... ها إن ذي بيعة تجلو بصحتها [
هدية من عبيد الله هارون ... وإنها وهدايا الخير مرأمة [

فلما وصلت القصيدة إلى الحاج عمر عظم موقعها في قلبه وفرح بها وكف بسبب ناظمها عن الوطن الذيهو فيه ونال الناس الأمن ببركة نهضته وشعره وانصرفت جنود فُوتَا عن ساحته . والحاصل أن جنود الفلان الدعاة من جهة المشرق في هَوسَ وما والاها من بلاد الطوارق إلى دنك ، وجنود فُوتَا الدعاة في المغرب من البحر المحيط إلى تنبكت ، ما دافعهم عن البلاد التي تحت حكم آل كاو ، أي مدافع من أهل النجدة ولا يستطيعون مقامتهم ولولا أن الله من على

الوطن وأهله ببركة هذا الشيخ وقلمه لا استأصل الفلان وفُوتا جميع من كان مع إولمّدن جزاه الله عن سعيه أحسن الجزاء .
فإن قلت : كيف تمدح هذا الشيخ وقد نقض بيعة أميره الذي يجاوره ويقرر كثير من أصحابه إن بيعته هي اللازمة لهم وليس لهمم الخروج عنه ثم نقض بيته إمام سكتُو الذي أرسل إليه بيعته . فالجواب : أنه لم ير إولمّدن أيمة يمنع الخروج عنهم إنما يراهم غالبين من استطاع أن يخرج عنهم فلا عليه إذا أمن فتنة أو رذيلة ، وقد رأى من ضعفهم عن مقاومة جنود أهل سكتُو ما دعاه إلى الخروج عنهم إليهم ، لأنهم أعلم وأقوى شوكة وأشد اتباعا للسنة وإنكار البدع وقد تبعهم كثير من علماء دنك وأمرائها ثم ساء التفاهم بين أمراء دنك التابعيين لأهل سكتو وبين أهل بلاد الناظم وصادف ذلك تغلب الحاج عمر على أعمال تنبكت واستيلائه على كثير من الطوارق وإذعان أهل الشوكة من جميع الأقاليم له حتى كتب الشيخ سيد المختار بن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ الكبير المختار الكنتي إلى الأمير النابغ بن كاو لما سمع أنه يريد أن يجمع الجنود لمقاومة جنود الحاج عمر ومدافعتهم ، ينهاه عن التعرض لهم ويأمر قضاته بكفه عن ذلك وذكر لهم أن الجنود الفوتاوية لا قبل لأحد بها ، وأن سلطان أهكّار أرسل إلى سيدهم الحاج عمر يناشده الله أن يرجع عن بلاده ولا يحاربه ، وكان ذلك السلطان من أشد الناس قوة وأكثرهم عددا ، فلما رأى الناظم ضعف أمراء بلده وجهلهم وجورهم وسمع عن الحاج عمر ما يعجبه من الخصال الحميدة ، بعث إليه بقصيدته المتضمنة بيعته له ، ليكفه بذلك عن غزو وطنه .
ويحتمل أنه لم ينتقل عن بيعة أميره الذي يجاوره حقيقة ولكنه راسل الأمير برسم البيعة وأظهر لكل منهما من الود والصفاء ما يحترمه لأجله وينكف به عن بلاده وليس ذلك من الكذب والخيانة والمنهي عنها بل هو من الإصلاح المأمور به ، وقد نجح قصده والحمد لله جزاه الله أحسن الجزاء .وهذا القدر من نهضاتهم العائدة على أهل وطنهم بالنفع العام يسير بالنسبة إلى غيره من نهضاتهم التي يتوصل غيرهم بمثلها أو بما دونها إلى المناصب الرياسية ، ويتعزز بها على جلب إليهم المنافع وعلى من عجز عن الاتيان بمثلها من إخوانهم ، وقد عصم الله الدغوغين من ذلك الهمهم رشدهم وأكرمهم بفضلية الاخلاص في العمل والاعراض عن الرياسات الدينوية فكان من نتيجة عملهم لله أن كل من سواهم من أهل الرياسات يتمتع بحظه من الرياسة في مدة قصيرة ثم يزول عنه ذلك إلى غيره من الأجيال وإلى غير أهل بيته من قبيلته بخلاف من صرف همه

إلى الرياسة الدينية من الدغوغيين فإنهم لم يزل فيهم من يشار إليهم بالبنان ويرجع إليه في الأمور من القرن التاسع إلى يومنا ، كانوا كذلك مع الطوارق الذين يتملكون في الصحراء قبل قيام دولة آل إسكيا ، ومع سنغاي في دولتهم ومع آل كردنّ في دولتهم

ولما استولى فرنسا على البلاد التي يسكنونها وماج الناس بعضهم في بعض وعدم كل منهم مألوفه وتغيرت الأوضاع واحتيج إلى قادة يقودون الناس إلى ما فيه صلاحهم وعجز القواد الأولون عن القيادة ولم يطمع فيها من لم يكن يألفها قبل وأيس جميع أهل الوطن أن يجدوا ملجاءا ومرجعا. قام رجال من علماء السوقيين منهم دغوغيون ، ومنهم شيخان جليلان من ذرية أبي الهدى وهما الشيخ المفسر محمد الصالح بن محمد بن ميدِ ، والشيخ العالم الأمير محمد المعروف باسم أكّنَتْ ، والدغوغيون منهم الشيخ حماد بن محمد وعمه شيخه نوح بن محمد ، وغيرهما واتفق الكل على مصالحة فرنسا على قليل من المال ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم وأديانهم وتبعهم كثير من الناس وآمنوا وخالفهم كثير من العلماء والأمراء والأتباع فلقوا من الخوف وأنواع البلاء ما ألجأهم إلى المصالحة بعد سنين ، وكان للسابقين إلى المصالحة إجلال وانتمان عند القائد الفرنسي يحكمهم فيمن صالح بعد سنين ويؤمرهم عليهم فكانت لذلك إمارات ناسخة للإمارة الأولى لكن الشيخ الدغوغي نوح بن محمد لما تراجع الناس واتفقوا على الاستسلام والمصالحة أمر من لجأ إليه من القبائل الضغيفة حين أوقع الصلح بأن يتخذوا أميرا سواه وأخبرهم أنه لا يحب الإمارة ولا أن يسمى باسم الأمير وأرسلهم إلى السيد محمد ـــ بفتح الميم ـــ أمير الشريفَنْ وأوصاه بهم ولمْ يلتفت إلى ما يصنعه غيره من طلب الإمارة بواسطة فرنسا ، وكان أهله بعده كذلك تطلبهم المناصب وينفرون عنها ، ولما عزم أمراء البلاد في عام ألف وثلاث مائة وأربعة وثلاثين على نقض الصلح مع فرنسا ونصب الحرب لهم برسم الجهاد ووقعت بذلك فتن لم يقع مثلها في البلاد وعم الوطن الفساد ووقع ما لا يطيق القلم حصره قام سيدان جليلان أحدهما من ضئضئ آمن بن علي بن يحي بن إبراهيم الدغوغي وهو حماد بن محمد ـــ بضم الميم والدال ـــ وهو من أهل تَبُوقْ والآخر من ضئضئ أحمد بن الأحمر بن علي بن يحي وهو محمد بن سيد محمد سيد أهل إسَكَنْ فاجتهدا في اطفاء تلك الفتن وإصلاح أمر البلاد وأهلها وتبعهما كثير من الناس وخالفهما كثير ثم تبين أنهما على الحق فرجع إليهما من خالفهما ، أما محمد بن سيد

محمد فإنه لما عزم محمد أحمد بن الجنيد وأتباعه على نقض الصلح ونصب الحرب سار إلى القائد الفرنسي وأخبره أنه باق على الصلح فأمنه الفرنسي على من تبعه ومن لاذ به فآل الأمر إلى أن انحاز إليه بعض من نقضوا الصلح بعد الهزائم الواقعة عليهم فاستجاروا به وحسبهم من اتباعه الذين لم ينقضوا الصلح فأمنوا بذلك من العقوبات التي يُعاقب بها فرنسا من ظفروا به من ناقضي الصلح . وأما الشيخ حماد بن محمد فكان أبصر بالأمور وأخبر بعواقبها لما له من الفطنة الكاملة والكشف التام فكان أشد الناس قياما في انقاذ المسلمين من ورطة تلك الفتن وما يترتب عليها من العقوبات فنهى جميع من يظنه يستمع لقوله من الأمراء والعلماء الرعايا عن نقض الصلح لما ظهر بعد من عدم استعدادهم لملاقاة مستكمل آلات الحرب من الطيارات والمدافع والآلات النارية وغير ذلك من العدد التي لم تر ولم تسمع ولم تخطر بالبال لأحد من أهل البلاد الذين ليس عندهم من السلاح إلا السيف والرمح الذان لا ينفعان إلا من قريب ولا يدافع بهما إلا مثلهما فمن ليس بيده من آلات الحرب إلا سيف والرمح لا يقدر على مقاتلة من بيده إلا الآلات التي تهلك من بعيد، ولما تفطن الشيخ ومن معه إلى حالة العدوي من القوة والاستعداد ، وحالة أهل البلد من الضعف رأى أن تعرض الضعيف لمحاربة القوى من القاء اليد إلى التهلكة المنهي عنه فنهوا عن النقض لذلك ، ورأى غيرهم خالفهم في النظر ودعا الناس إلى نصب الحرب ونقض الصلح أن حرب فرنسا جهاد واجب عليهم لما توهموه من قوتهم ، ولما ينتظرونه من نصر الله لمؤمنين على عدوهم ولو كان أكثر عددا وأشد قوة ، واشتد الخلاف بين الفريقين ليقضي الله أمرا كان مفعولا ، وصمم كل على رأيه حتى كاد القتال يقع بين الناقضيين وغيرهم بل وقع بعض ذلك لأن الناقضين يستحلون أموال إخوانهم الذين لم ينقضوا ، ويغيرون عليها ويدفع بعضهم عن حريمه وتنتهك حرمة البعض ولما رأى الشيخ حماد كثرة الفساد راسل أمراء بلده يطلب منهم كف الفساد وراسل أمير الأمراء في ذلك الوقت فهر بن الإنصار حين بدا له من الكشف أنه عازم على نقض الصلح ووافقه على ذلك قضاته فنهاهم على انفاذ عزيمتهم وحذرهم من أن تهلك الأمة على أيديهم فلم ينتهوا وانتهى بعض من نهاهم ، فكتب الشيخ حماد رسالة ووجهها إلى قائد فرنسافي كاويخبر فيها بأنه لم ير نقض صلحهم ولا شيئا من خيانتهم أمرا جائزا ، ومما ذكر فيها أن ملوك فرنسا الأولين ينهون عن الظلم ويأمرون بالعدل وأنهم لم يخونوا أحدا ممن عاهدهم فلا يحل لأحد أن يحونهم ، وأن النصارى الذين كان فرنسا

على دينهم لا يعادون المسلمين كمعاهدة اليهود والمشركين لهم وذكر فيها كثيرا من الآيات والأحاديث ، فلما وصلت الرسالة إلى القائد الفرنسي فرح بها ونسخ منها نسخة مترجمة باللغة الفرنسية وأظهر من إجلال مرسلها وتعظيمه والتنويه بقدره ما لم يظهر مثله لغيره ، وكان القواد بعده يزورن الشيخ للتبرك به ويجلونه لكنه لا يلتفت إلى ذلك ولا يطلب منهم إلا الشفاعة لأحد من الناس ، أو بعض حوائجه الخاصة وقد شفعوه في كثير ممن يريدون عقوبتهم في ذلك العام وفيما بعده ، وكان من سيرتهم معه أنهم لا يشاورن غيره في أمر يريدون انفاذه ولا يتركون له ما صمموا على فعله وهو لا يردون كلامه في شيء ، فلما وقعت الهزائم على الناقضين وقتل من قتل وفر من فر وسجن من سجن وضاقت الأرض على الناس بما رحبت لجأ إليه كثير ممن خالفه وأمنه فرنسا فيمن لجأ إليه وشفعوه فيه لكن لما اطأنت البلاد بعد تلك الحروب والفتن وقتل بعض السلاطين الأولين وانقاد جل سلاطين البلد لأمر الشيخ حماد ، وكانوا له تلاميذ يتصرف فيهم كيف شاء ، وكان أتباعهم ورعاياهم مثلهم أوفقوهم في ذلك أعرض الشيخ عن مخالطة الحكومة والتوسط بينها وبين الناس كما يفعله غيره من سادة البلد في ذلك الوقت وخلى بين الناس وبين أمرائهم وأقبل على شأنه من الإرشاد والسعي في المصالح وتربية المريدين مع تمكنه من الحكم على أهل بلده من جهة الأسباب الظاهرة ومن جهة مارزق من تسخير الكون له وخضوع الجبابرة بين يديه وعزل من رأى الاصلاح في عزله وتولية من لم يره الناس أهلا للولاية فكان الناس يشكون إليه الأمراء ويشكيهم ، والأمراء إذا تشتت عليهم بعض الرعايا شكوا إليه فيسكن النافرين ويصلح بينهم وبين أمرائهم ولكن لم يغير ما كان عليه قبل من الاعراض عن المناصب والزهد في الرياسة مع الحرص على اصلاح الأمة .

ومما جرى بينه وبين الأمير فهرٌ في أيام عزمه على نقض الصلح مما يدل على اهتمامه بأمر الأمة وعلى كونه من أهل التمكين ، ومن أهل الكشف ، ماحدث به الزبير بن محمد الأمين وهو من حملة القرآن ومن العدول ، سمعته يحدث الشيخ الوالد قال : له بعثني الشيخ حماد أنا وابن عمه محمد أحمد بن محمد الصالح إلى الأمير فهرٌ وهو في كاو وقد سآء ما بينه وبين القواد الفرنسيين في كاو ، وفي تنبكت حتى هم بالخروج عليهم ، ومع الأمير علمان من علماء أكَدَشْ وهما : إظْبَظَبْ بن محمد بن دانيال من ذرية عم أجدادنا أحمد الأحمر بن علي بن يحي ، ومحمد إسْغَيَرْ بن أيوب من بني محمد البشير ولم يسمع أحد قبل ذلك أن الأمير

وشيخيه عازمون على نقض الصلح . قال : الراوي قال لنا الشيخ حين أرسلنا قولا للأمير فهرّ إياك أن تنفذ ما هممت به من نقض صلح الفرنسيين فإن ذلك أمر لم يحضر أوآنه وإذا حضر سبقتك إليه ، واعلم أني أنا الساعي في سلامتك والقائم بك لئلا يهلكك فرنسا في تنبكت وما قمت بك لرغبة ولا رهبة ولكن لما رجوت من صلاح بعض أمور المسلمين على يديك ، وتذكّر ما عملته بك في الليالي ألست التي تطلب منها العدو إهلاكك في تنبكت من غير شعور أحد وأنا أدافع عنك بأمر إلهي لا تحيط به العقول ففي الليلة الأولى خرجوا بك من القرية بعد ما نام الناس وأركبوك على فرس يقوده عسكري ويسوقه آخر وعن يمينك آخر وعن يسارك آخر وساروا بك إلى انصداع الفجر فلما تجلى الصبح رأوا القرية التي خرجوا منها وعلموا أنهم قضوا ليلتهم هائميين ورجعوك إلى محبسك فلما كانت الليلة الثانية خرجوا بك على النعت المذكور وجدوا في السير فما أدركهم الفجر إلا من حيث ساروا ، فلما كانت الليلة الثالثة خرجوا بك على النعت المذكور فبينما هم يجدون السير إذ عرض لهم شخص أبيض الثياب أطول من كل ما رأوه حتى كلت أبصارهم عن إدراك رقبته فامتلأت قلوبهم رعبا منه ورجعوا على آثارهم هاربين حتى دخلوا القرية ، ثم تحولوا عن المركب البري وحملوك في سفينة بعدما نام الناس فتاهوا وضلوا الطريق حتى أصبحوا في مبدء سيرهم وفعلوا مثل ذلك في الليلة الثانية ، وفي الثالثة اعترض مركبهم شيء يحرك الماء بقوة يمنعه من السير فهابوا ورجعوا غيّر هائمين ، فإن كنت تعرف هذه الأمارة فاعلم أني أنا الذي ألبس الأمر على العساكر بإذن ربي وأنا الذي قمت أمام الفرس فرعب قائده وأصحابه وأنا الذي حركت الماء أمام السفينة لئلا تسير ، وما سعيت في اصلاح أمرك وكف عدوك إلا لإصلاح الأمة على يديك ، وإن صدقت الأمارة فاتق الله ولا تهلك المسلمين فإن ما ترجوه غير واقع ، ثم قولا للشيخين لا تتركا الأمير ينفذ ما عزم عليه فإنه لا يحصل بانفاذه إلا على الهلاك والإهلاك . فلما بلغت الرسالة إلى الأمير والشيخين أجاب الأمير بأن قال : لهما قولا لفلان بن فلان يعني الشيخ المرسِل والله ما كلمت أحدا بشيء مما أرسلت إلي فيه ، ووالله لئن تخلصت من هؤلاء الظالمين لأنزلن بفنائك ، ولأكنن خادمك ، وحالب بقرك ، ولكن لم ينصرف عن عزيمته وأجاب محمد إسْغَيَرْ بأن قال : لهما قولا للشيخ قد تغير ما كنت تعلم من تمكن أهل بيتنا من نواصي آل كردنّ إنما ذلك الآن لبني محمد بن دانيال هم الذين يتمكنون من صرف الأمير عما أرادوا ، وإلى ما أرادوا . وأجاب إطْبَطَبْ بكلام

حاصله أنه لا يجبن عن ملاقاة العدو والكافر وإن جبن غيره ولا يستمع لأي ناه ، وصارف له عن حربهم . وتبين بعد حين أنهم لا يقدرون على طاعته لأن الثلاثة ماتوا في ذلك العام بسبب الحرب الواقع بينهم وبين العدو . ولما أئيس الشيخ من موافقة هؤلاء الثلاثة له جعل يرسل غيرهم من السادات وينهاهم عن النقض فيتمثل البعض ، ويخالف البعض ، ثم كتب الرسالة المذكورة التي وجهها إلى القائد الفرنسي وتمكن بسببها من الشفاعة في كثير ممن يستحق القتل أو العقوبة الفظيعة .

ومن الحركات الاصلاحية العامة التي يقوم بها الدغوغيون حركة عمنا محمد بن حدي في تلك الأعوام التي اضطربت فيها الأمور وذلك أنه لما وقعت الحروب الشهيرة بين العرب وإولمّدن ثم بين فرنسا والتوارق ثم بين أهكّار والناقضيين للصلح الفرنسي ، ووقعت الهزائم وفر الناس عن أوطانهم في أوْظَ إلى أرَبَنْدَ خوفا من الأعداء ، وكان الشيخ محمد بن حدي جارا لإولمّدن ومخالطا لهم فلما قتل منهم العرب من قتلوا وتفرقت الرعايا والاتباع وعلم الشيخ المذكور أن لا قرار معهم وأنهم عجزوا عن الحماية والدفاع عن أنفسهم فضلا عن غيرهم ، انحاز عنهم إلى موضع بعيد عنهم بقرب البحر ولم يذهب إلى أرَبَنْدَ كما ذهب إليه غيره فبقي منفردا في المنزل الذي صار إليه ولنيس بين كَاوَ ومَنَكَا في تلك الأعوام من المعتبرين غيره ، فنهض نهضة هاشمية لم يشاركه فيها سواه ، راسل أمير العرب وأشياخهم وجعل يهدي إليهم الهدايا الجزيلة ويستميل قلوبهم حتى تمكن حبه وتعظيمه من قلوبهم ، ثم طلب منهم أن يجيروا من استجار به من الضعفاء ومن الأصدقاء ففعلوا ، ثم راسل أمير أهكّار وسادتهم وأرسل إليهم من طرف بلاده ما كان عزيزا أو معدوما في بلادهم حتى صارت الرفاق منهم تفد عليه بالتحف من بلادهم ويجيزهم من تحف بلاده بما يستطرفون ونال من تعظيمهم واحترامهم ما لم ينله أحد فلما سمع الناس بما نال من الوجاهة والمكانة عند العرب وأهكّار الذين كانوا أخوف من كل مخوف في تلك الأعوام طمع كل من هاجر من أهل أوْظَ إلى أرَبَنْدَ أن يرجع إلى وطنه في ذمة الشيخ وأمانه فلجئوا إليه واحتموا به من إغارات المغيرين الذين يراسل أمرائهم ويهاديهم وبعد مدة يسيرة من سعيه المذكور رجع الناس إلى أوطانهم التي جلوا عنها لأجل الخوف ، ثم لما وقع الصلح الثاني بين فرنسا وإولمّدن بعد ما نقض الصلح الأول وتمكن أمرؤهم من استرداد بعض الاتباع الذين انفضوا عنهم زمن الاحتلال الفرنسي وزمن نقض الصلح ، وكان كثير من أولئك الاتباع والرعايا والموالي يشق عليهم الجلاء عن الأوطان التي ألفوها إلى

أوطان أمرائهم في أرض مَنَكًا فاستغاثوا بالشيخ محمد فطلب من أمرائهم أن يتركوهم في منازلهم ولا يكلفوهمّ الجلاء وكان وجيها عند أولئك الأمراء فكفوا عمن استجاروا واستغاث به ، ولم يتفق لغيره تلك السنين أن يكون وجيها عند المتضادين من العرب وإولمّدن وأهكّار فلما جمع بين الأمراء المكورين بالاحسان والمدارة نام الناس في ظله وانقادوا لعقده وحله حتى هدأت الأحوال وأمن كل أحد على نفسه وماله ، فاقبل على شأنه وخلى بينهم وبين أمرائهم ولم يمل إلى الرياسة . ولهم حركات كثيرة اصلاحية على هذا المنوال .

والغرض من سوقها أمران :

أحدهما : التنبيه على ما اعتاده أهل هذا البيت من الاهتمام بمهمات البلد التي يضعف غيرهم عن القيام بها واصلاحهم من الأمور الدنيوية ما عجز عنه من يزعم أنه هو أهل القيام بها ، لأن كثيرا من الناس يزعم أنهم لا يقومون إلا بالأمور الدينية لشدة اعتنائهم بها واعراضهم عن الرياسات ، ويزعم أن الأمور الدنيوية لها قائمون بها من غيرهم يصنعون فيها كل أمر من غير معاونة العلماء .

الأمر الثاني : إفادة الدغوغيين الموجودين واللاحقين سيرة أسلافهم السابقين التي حازوا بها السبق على من سواهم ليتخلقوا بأخلاقهم التي أبقت فيهم المجد مدة تزيد على خمسة قرون ، ولا يغتروا بمجرد الانتساب إليهم فإن من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه وما أحسن قول من قال :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... وإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وليتأملوا ما عليه سلفهم من الاهتمام بأمر المسلمين ، والتمسك بسنة سيد المرسلين ، وأخلاق السلف الصالحين فيعملوا بصالح أعمالهم مخلصين لله تعالى فيما يأتون وما يذرون ، ويتركوا كل بدعة محدثة تؤخرهم عن اللحوق إلى صالح سلفهم الماضين ، وتسلبهم من العز الموروث ما تسلبه البدع من المغيّري والمبدلين ، والله أسأل أن يعصمهم من سلب النعم وحلول النقم ، وأن لا تزال منهم بقية على ما كان عليه الأولون ، وتحي ما اندرس من معالهم ، وتشيد كل بناء أسسوه ، وتكون مع سلفها كما قيل :

عهود من الآبا توارثها الأبنا ,,,, بنوا أسها لكن بنوهم لها ابني

ومما اختصوا به من بين سائر إخوانهم السوقيين الحرص على كتابة أنسابهم وضبط كثير من أحوال أسلافهم وتاريخ قضاياهم ومؤلفاتهم بالطريق المألوف عند المؤرخين بعكس ما يفعله غيرهم من المؤرخين

بالقضايا الشهيرة فإنهم لا يؤرخون بالهجرة ولا بالميلاد إنما صورة تاريخهم أن يقولوا وقع كذا عام كذا ثم يعدون الأعوام من ذلك العام إلى العام الحاضر وبذلك يعرفون كميتها . ولولا المصارعة الواقعة بين حال الدغوغيين ومن نحا نحوهم من بني الثمانية وبني الأنصار[1] ، وبين طبيعة أهل البلد الذين بلغوا من إهمال أخبار الماضين ، أن تعودوا هجران أسماء الأموات وأخبارهم لضاعت أنساب أهل البلد وأخبار أسلافهم بالكلية ولما عرف أحد قومه ولا عشيرته الأقربين ولا كل ما لم ير ولم يسمع ، وما أحسن كلمات ساقها الشيخ حمّدَ بن محمد في وصف قبيلة بني علي بن يحي من ولد الدغوغيين الذين هم عشيرته إذ قال بعد كلام على بعض المشاهير من أعيانه ، مالفظه : وبالجملة جعل الله أهل هذا البيت رحمة لناحيتهم في عصرهم دينا ودنيا ، وملكهم أمر مصالح من أراد منهم بلا ثنيا ، فا ما انقرض علم من سواهم وبقيت من علمهم أثاره أو سبقوا الطلب إلى الطلب فكانوا أول من أدرك به ثأره ، أو وقع كلا الاحتمالين وهو الواقع إن شاء الله فقد لقي كثير منهم علماء تنبكت التي هي قاعدة هذه البلاد وأخذ عنهم وأخذوا عنه . ثم قال : وكم ممن يتراءى له خلال ما ضبط من أحوالهم أنه لا خصوصية للتعليم على ما عداه من الوظائف التي قاموا بها ، بل لهم في رعاية المصالح قدم راسخ ، وإن فاز بالاشهرية علمهم الذي ليس لاتصافهم به ناسخ فما هو إلا أن طلعوابدورا في سماء بلاد التكرور ، وقد أخذ بنواصي أهلها الغرور ، فاشتهدوا في استنقاذ بيضة الدين ممن استباحها ، وشمروا في تبييض ليلها بعد ما سود الفساد صباحها ونشروا للديانة الفضل كل ميت ، وعمروا بالكرم والسماحة غير ما بيت ، صنفوا ، وكتبوا ، وألفوا ، ورتبوا ، ووهبوا فأحسبوا ، وفرقوا ، ما اكتسبوا ، وأوبوا فيما هم فيه وما عرسوا ، فعلموا وعملوا وعلموا ودرسوا ، وساسوا إذ ملكوا ، وسلكوا كما سلكوا ، وضبطوا أمورهم بالكتاب والسنة ، فلا يرون على أنفسهم إلا لهما منه ، وكانت التقوى لهم سيرة ، بها يدينون ربهم في العلانية والسريرة ، وحرموا حرام الشريعة ، وأحلوا حلالها ، فكأنها ما خلقت إلا لهم ، ولا خلقوا إلا لها ، فهم على ما يقاسونه من كثرة المبتدعة ، ويعانونه من قلة المرتدعة ، وعلى ما بهم من توارد الزعازع والزلازل ، وتطارد الحوادث والنوازل ، لا يعتقدون إلا أن الدين خير

---

[1])بنو الثمانية ، لم ينحو نحو الدغوغيين إذا كان المراد بنحو النحو هنا مثل المراد بقول علي بن أبي طالب لابي الاسود (انح هذا النحو ،) فإن الثمانية من عهد جدودهم أبي الهدى وباب وربيعة في القرن التاسع ما زالوا عاضين على العلم وذلك امر مشهور جدا فالتعبير هنا قد يفهم منه ولو من بعيد أنهم تبع في العلم للدغوغيين ، والسؤال متى بدا التاريخ العلمي السوقي ، نعم بدا في القرن التاسع ، وهل الثمانية الأدرعيون في ذلك الوقت عالة على احد في العلم دغوغيا او غيره وهكذا

كسبهم فما دام معهم فبحسبهم ، فمن ثم لا يغلبهم عليه غالب ، ولا يلحق غبارهم فيه طالب ، فما علموا شنعة في الدين إلا ثاروا عليها ، وكلما سمعوا هيعة طاروا إليها فصاروا في جبهة لياليهم غرة ، وفي صرة مواليهم ومواليهم درة ، ولعيون من وفقه الله قرة وفوق أجساد المخذولين حصبة أو عرة ، وفي أفواه العموم والخصوص مثلا سائرا ، وفوق أمواج الجهل المتلاطم فلكا دائرا ، عُرف بذلك أولهم وآخرهم ، وذكر به حيهم وناخرهم وأرفع منصب لهم نالوا به السبق والتقدم في تلك الليالي — يعني بعد منصب العلم والعمل — منصب العلوية فقد أثبتوها لأنفسهم بالحفظ والضبط ، وشواهد النقل بالخط ، وأقر لهم بالاتصاف بها الولي والعدو ، وتوالى بنيلهم لصفائها ، العشي والغدو ، ورفعت بذلك لله أقدارهم ، وعرف به والله مقدارهم ، وتواصى بحفظه المفوقو والفائق حين لا توضع إلا في مواضعها الحقائق ، وحين لا ينازعهم منازع فيها كيف وأنساب غيرهم إنما عنهم تؤخذ لأنمهم الضابطون المعتنون ، فلا جل ما امتازوا به من الانتساب إلى البيت النبوي تنافس في الانضمام إليهم كل اتصف بصفة السوقية ، ورغبوا في مناكحتهم فخطبوا إليهم بناتهم رغبة في بركة النبوة ، وطمعا في تلك البنوة ، اشتبكت الأغصان المنقشة من دوحة الشجرة المباركة فهذا محمد بن يوسف المدفون في تَكَرَنَّتْ جامع أكثر الطوائف اليعقوبية ممن ينتمي للسوقية من الأنصار أمه رحمة الله بنت داوود ذي الخص وهي من ضئضي الغزالي بن علي يحي ،([1]) وكذلك كل من يختص باسم السوقية لأهل هذا البيت عليهم ولادة ولولا ما في تفصيل ذلك من الخروج عن الغرض لفصلت منه ما تيسر ، وناهيك من قيام الماضين من زرياتهم بحقوق أهل هذا البيت ما إستطاعوا من تعظيم وتوقير وتبجيل وإكرام ورفع فوق الأنفس حبا ، لهذا النسب الشريف وتقديما لمنصب العلم مضى على تلك الطريقة سلفهم واقتدى بهم فيها خلفهم حتى أني بنفسي ... ما تركت من ذلك بقية في أوائل القرن الرابع عشر ثم كان ما كان .

وفي رسالة للشيخ حماد رضي الله عنه بعد كلام في ذكر إمامة هذا البيت العلوي لغيرهم ، مانصه : حينئذ نقول فلا نقبخ ، ونرقد فنتصبح ، ونشرب فنتقمح ، ونفرح ونمرح ، لا يرهقنا مس حيف ، ولا يقلقنا سل سيف ، ولا نبالي بمن قام أو قعد ، ولا بمن أبرق وأرعد ، ولا نلتفت إلى من تنب عتوده ، ولا نخاف جفاء ممن استقام أو تارد عوده . إهـ كلام الشيخ حماد ثم قال الشيخ حمّدا

[1]) الذي في كتب الانساب أن داوود هذا عم الثمانية فما معنى الضنضي هنا يا ترى ؟

تنبيه : لا يفهم من كلامي سامعه أني بما بالغت من الثناء على هذه الطائفة ، بلغت بهم ما لم يبلغوا ولا هم بصدده من مرتبة الولاية العامة بحيث ينفذ أمرهم ممن شاءوا كيف شاءوا وحيث شاءوا بل قصارى قولي فيهم أنهم أوتوا من العلم والكرم والتأدب بآداب الشرع مالم نسمع من اتفق له مثله ممن عاصرهم في ناحيتهم فأخذه عنهم من أخذه ، ونبذه وراء ظهره من نبذه ، كيف وأني لهم الولاية العامة وهم في ناحية نائية عن سواد الإسلام الأعظم أقويائها متغلبة لا يتركون شن الغارات على الحارات ، وضعفائها جهلة لا يفرقون بين الاشارات والعبارات . إهـ

قلت ومن أكبر وأنفع أثر لهم في هذه البلاد ، حركة جدنا أحمد بن الشيخ بن أحماد ، فإنه لما نشاء وفتش الكتب ونظر في آثار الرجال ، وعلم أن السند هو العروة الوثقى للعلماء ، والصلة المتصلة الموصلة بمددها للأولياء ، وأن من انقطع به السبب ، لم يتصل به النسب ، تاقت نفسه إلى معرفة الأسانيد ، وعلت همته عن التمسك بالمجهول من التقاييد ، فقد قيل لولا الاسناد لقال من شاء ما يشاء فطلب من أهل بلاده الأسانيد ولم يجدهم معتنين بها ولا ملتفتين إليها فأنكر عليهم إجماعهم على إهمال الأسانيد وجهلها وجلب أدلة في تحريم قراءة كتب الحديث من غير رواية ولا إجازة ، وأنكروا عليه بحثه في ذلك فكتب رسالة يبين فيها رأيه من وجوب معرفة الأسانيد وحرمة قراءة الحديث من غير رواية ، وذكر فيها بعض ما جرى بينه وبين إخوانه من المخاصمات ، وما آذاه به بعضهم من سيئ المقالات ، وستأتي الرسالة بتمامها في ترجمته لينظرها من أراد ، ويستفيد منها من تاقت نفسه إلى معرفة طريقة أهل الإسناد ، وعلت همته عن تقديس المداد ، واعتقاد الحق في كل بياض رقم فيه بالسواد ولما أيس من موافقة إخوانه له في المنحى ومن وجود مسند في بلاده يسلك به سبيل أهل الملة السمحا ، ويصله بأهل السند المتصل ، لا المقطوع ولا المعضل ولا المنفصل ، رحل إلى تبكت معتربا في سبيل الله ومغترفا من بحار فضل مولاه ، فلقي بها العلماء الأجلة وأخذ عنهم وأخذوا عنه وظفر بوصل الأسانيد ، وكانت عنايته أولا بخصوص سند الحديث لما يخشى في التحديث بلا رواية من تعمد الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم وسع الدائرة فوصل أسانيد جميع الكتب التي تقرء في بلاده من شيخه الذي أخذ عنه إجازتها إلى مصنفيها من غير فرق بين كتب الحديث وغيرها من سائر الكتب المدونة في الفقه ، وفي الأصول ، وفي النحو ، وغيرها ، وجمع ذلك في كراسة ، ثم رجع إلى

بلاده فأجاز من إخوانه كل متأهل من جهة العلم والعمل والديانة والفطانة بشرط الوقوف عند ما أشكل ، والمراجعة لما أعضل ، والتمكن من كلام العرب وآدبهم لئلا يتسبب في لحن القاصر وتغييره كلام الرسول صلى الله عليه وسلم تغييرا يبدل معناه ، وتقررت تلك الشروط عند الآخذين عنه حتى صار المجيزون يكتفون بأن يقول المجيز أجزت فلانا بالشروط المتعبر ، ثم أخذ عنه الإجازة بنوه الثلاثة وهم : محمد المعروف باسم حَمَّ ، ومحمد الأمين ، ومحمد أحمد ، وأخذها عنه أيضا ابنا بنته محمد ، وأحمد ابنا ابن عمه محمد أحمد المعروف باسم هَمَّهَمَّ ،([1]) وعن هؤلاء انتشرت الإجازة [2] في سائر السوقيين بحيث لا تجد من أهل البلد من يتصل اسناده إلا بواصتهم ثم انتشرت عن السوقيين إلى غيرهم من المتعلمين بواسطة بعض تلاميذهم أخذها الشيخ سيدي المختار بن أحمد الكنتي الذي قيل عنه هو المجدد في أواخر القرن الثاني عشر ، ثم تسابق الناس إلى أخذها وتنافسوا فيها فرحلوا من أقاصي البلاد وأدانيها ، إلى ذرية هذا الشيخ وأهل بيته الذين يقال لهم أهل تَكَلْتْ([3]) لينالوا حظا من ذلك التراث العظيم ، ويصلوا بواسطة أهل ذلك البيت إلى النبي الكريم ، وصار ذلك العمل سنة باقية يأخذها الأخلاف عن الأسلاف إلى يومنا ، متع الله المسلمين ببقاء أهلها والراغبين فيها والمسعفين بها . وستأتيك نسخة من دفتر إجازتهم المتداولة في ترجمة آخذها الأول أحمد بن الشيخ رحمه الله تعالى .

الفصل الثالث

في تقسيم الدغوغيين الموجودين ببلاد الطوارق

اعلم أن جميع من بلغني أنه ينتسب إلى إبراهيم الدغوغي من المتكلمين باللغة التارقية ثلاثة أقسام وإن كان لهم رابع أو خامس ، فلا علم لي به ، وأذكر الأقسام الثلاثة مرتبين مقدما من لا ترجمة له كبيرة ليتسع المجال لمن لهم التراجم .

---

[1])بل وممن اخذها عنه جاره في تجللت العلامة محمد الإمام الأدرعي وابنه محمد المختار أودعها الشيخ محمد الحاج لكتابه لسان الترجمان

[2]) الذي يظهر انه إذا كان قد شاركهم في الاخذ عن شيخهم غيرهم فالمتبادر أنه كما اخذ عنهم أخذ عن بقية إخوانهم ويدل عليه ما يأتي في نفس الكتاب من تسلسلها عن طريق سله ومحمد وملن بن ونكل

[3]) تسمية أهل هذا البيت فقط هم أهل (تجللت) مع انهم نزلوها مع بقية أخوانهم الأدرعيين توجهوا إليها معا ونزلوا فيها معا كما يأتي في غير ما موضع في هذا الكتاب لا معنى له ، ولو اريد ان الكلام هنا على إجازة أحمد بن الشيخ فالكلام عن اهل بيته فهذا يقف امامه ايضا ما تقدم من انه كما أخذها عنه أولاده اخذها عنهم غيرهم من أبناء الغمام ومحمد بن محمد بن ونكل الادرعي المعروف بوملن كما ذكر الشيخ إسماعيل في الدرر الثمان ويأتي أنه عنه تسلسلت في هذه الناحية

القسم الأول : منهم من ينتسب إليه بواسطة رجل يقال له سَتَنْبَبْ وهم قبيلة أهل بُرمْ من دووسحاق ، وهؤلاء لم يكن فيهم العلماء المعتنون بأخبار أسلافهم وأشياخهم وليس معهم من الآثار السلفية ما يقوي مدعاهم ، ولا مع غيرهم من الشاكين في نسبهم أو النافين له ، ما يرد عليهم زعمهم بل لهم شبهة عسى أن تكون شاهدا لهم على مدعاهم وهي أن من يشاركونهم في الاسم من جيل دواسحاق ليس منهم من ينتسب إلى هذا الجد سواهم وكثير منهم يدعي الشرافة لكن من جهة جد غير إبراهيم فلا هؤلاء ينتسب إلى إبراهيم فدل ذلك على أنهم لم يفتروا في أنتسابهم إليه ، إذ لو كانوا يفترون في نسبهم لادعوا بعض أجداد إخوانهم المشاركين لهم في سائر القرابات ، ولا سبيل لي إلى القطع بشيء من ما ضيهم القديم لعدم ما استدل به من الخطوط القديمة عندهم فإنهم منذ قرون لا يتعلمون من العلوم إلا ما هو فروض العين ، ومنهم من يحفظ شيئا من القرآن دون معرفة معناه ، وأكثرهم رعاة عوام لا يلتفتون إلى غير الرعاية ولعل كثيرا من خطوطهم التي يتمسك بها أسلافهم ذهب بذهاب العلم فيهم ولم يبق في أيديهم إلا ضبط أسماء آبائهم بالحفظ يأخذها الأخلاف عن الأسلاف من غير تقييد بالكتابة ، وأما أجدادنا الذين يخالطونهم في المساكن ويعاضدونهم في الأمور وهم المعتنون بالأنساب أشد من اعتناء غيرهم بها ، فلم أر من خطوطهم القديمة شيئا من الكلام على غير بني علي بن يحي من الدغوغيين لأن مهمتهم على حسب ما وقفت عليه من آثارهم إنما هي ضبط أولاد علي بن يحي بن إبراهيم سواء كانت ولادته لهم من جهة الذكور أو من جهة الإناث ولا يتعرضون لذرية ما فوق علي من الأباء ولا ينفون الانتساب إلى إبراهيم الدغوغي من طريق علي بن يحي عمن يدعيه ولا يثبتونه له على وجه القطع كما يقطعون ببنوة العم لكل من ينتسب إلى علي بن يحي وكذلك والدي وأعمامي الذين أدركتهم لا ينفون عن أحد نسبا يدعيه إلى من فوق علي بن يحي من أجدادهم ، ورأيت منهم ميلا إلى من ينتسب إلى الحي المتكلم عليه من الإسحاقيين ويتقرب إليهم ببنوة العم ولا يبحثون عن التحقيقات في ذلك بل يقربون ذلك المتقرب إليهم ويكرمونه مجوزين صدقه لأن الناس مصدقون في أنسابهم ، مع احتمال أن يكون الجد المنسوب إليه مشابها لغيره في الاسم فالتبس الأمر على غير أهل التحقيق من المنتسبين إلى الجدود القديمين ، ولم يحققوا سلسلة آبائهم ، وأخبارهم . والحاصل : أن السلامة ... في السكوت عن الخوض فيما لا تعلم حقيقته . ثم إن أهل هذه النسبة الدغوغية من الإسحاقيين كانوا فيما مضى حيا

واحدا يقال له أهل بَرْيُ وهو اسم بير كان وطنا لأسلافهم ، ثم انتشروا في قبائل الإسحاقيين تبعا للأمهات والأخوال وتخير الأوطوان ، ومنهم أهل بيت كانوا في هذا الزمان من أهل العلم وهم آل محمد بن يانك يسكنون بساحل وادي أزَوغْ .
القسم الثاني : من ينتسب إلى إليه بواسطة رجل اسمه أكَّار الرباني بن إبراهيم الدغوغي وهؤلاء كثيرون منتشرون في القبائل السوقية وغيرها ، ومنهم أهل علم وغيرهم والسوقيون منهم أولاد أُعالَّ بضم الهمزة وفتح العين الممدودة ولام مفتوحة مشددة في آخره .
وبنوا أُعالَّ قبيلتان : بنوا محمد بن أحمد ويقال لهم أهل تِمُكَسِنْ ومعناها جباة الزكوات .
والقبيلة الثانية بنوا وَنْكِلَّ ويقال لهم أهل أضْغَاغْ ومسكنهم أرض كدال ومن علمائهم في الوقت الحاضر :
بآي بن مخاخ ،
وأخوه عيسى بن أحمد ،
وحمتِس ،
وسيد البكا أبنا أكَّ ،
وفيهم أهل العلم قديما وحديثا ولم أقف على شيء من تفاصيل أخبار قدمائهم ، ويحكى عن بعضهم شيء من الكرامات .
ومنهم أهل بيت تركوا العلم رأسا وحملوا السلاح وكانوا من أهل النجدة فسموا تَكَرَ أسَلَمْ ومعنى اللفظة الجماعة الملقية للّوح وذلك لإعراضهم عن طريقة أسلافهم من التعلم ، وتعلم منهم في هذا الزمان رجل واحد اسمه : محمد ويعرف بلقب شَمَلَ أخبرني بعض بني عمه المتعلمين أنه عالم .
وأما قبيلة أهل تِمُكَسِنْ فكانوا كسائر قبائل السوقيين منهم العلماء والأولياء والشعراء ورأيت لبعض أسلافهم شيئا من القصائد ولم أر لهم مؤلفا منثورا ، وأشد إخوانهم السوقيين اتصالا بهم حي أهل تَكَلَتْ فلهم عليهم مشيخة مازالون يراعون حرمتها ولو لم يأخذ واحد منهم عن واحد من أولئك الأشياخ مباشرة . وحي إكَدَشْ آل محمد البشير ، ولهم قرابات مع غير هذين الحيين لكن هؤلاء أحب إليهم من جميع الأحياء ، وعلمائهم الأولون لم أر من اعتنى بضبط آثارهم إلا قليلا من القصائد لقليلين من شعرائهم .
وأعلمهم في الوقت الحاضر بنوا مَحمد بن اليمان وهم :
عال ،
إغاسْ ،

أحمد بن بعض السدال ،
وكان هؤلاء الإخوة كالحلقة المفرغة بارك الله فيهم ، لهم أشعار كثيرة وأجوبة عن المسائل ، وأكثرهم وأجودهم شعرا محمد إغْلَسْ وكان من المفلقين المجيدين إلا أن شعره يُكثر فيه من غريب اللغة فاستصعب على جل الناس فهمه حتى صار كاللغز لا يفهم إلا بأن يحله فنفر عنه بعض الناس ، وله أجوبة عن المسائل التي سأل عنها الشيخ محمد محمود بن الشيخ السوقي الأرواني ثم التنبكتي جميع علماء السوقيين المعاصرين له وأكثر فيها من الامتحانات والألغاز من سائر الفنون فأجابه محمود بن محمد الصالح من أهل تكَلَتْ ، وعيسى بن تَحَمْدُ من أهل تَبُورَقْ ، وإغْلَسْ من أهل تِمُكَسِنْ ولم ينتدب غير الثلاثة لجوابها مع كثرة العلماء في أحياء السوقيين في ذلك الوقت .ومن أجوبته المنظومة : جوابه للشيخ سيدي محمد بن باي من آل الشيخ المختار الكنتي ، وكان سيدي محمد نظم قصيدة يسأل فيها علماء زمانه عموما وعلماء السوقيين خصوصا عن حكم الحج في الطيارة وما يتعلق بركوبها من الشروط فأجابه جماعة منهم محمد إغْلَسْ هذا ، ثم أرسل إليه الشيخ الكنتي بقصيدة فيها بعض العتاب على أشياء منها دعواه للإجتهاد في بعض النوازل فأجابه بأخرى ، ثم طالت المناشدة بينهما إلى سنين ولم يعترف له بأي شيء يريد أن يعترف له به ، وكان محمد إغْلَسْ مشاركا في الفنون نحوا ولغة وأصولا وبيانا ، وأما الفقه فلم يتقيد فيه بمذهب ملك الذي هو مذهب أهل بلده فعيب عليه ذلك حتى أنكر بعض الناس أن يسمى فقيها ، وربما تطمح نفسه إلى الاستغناء عن كتب الفقه بالآحاديث ، ويرى مثل رأي من قال :
إلا الحديث وإلا الفقه في الدين ... كل العلوم سوى القرآن متعبة
وما سواه فوسواس الشياطين ... العلم ما كان فيه لفظ حدثنا
وربما مال إلى الاجتهاد في بعض النوازل فينكر عليه من لا يرى أن الاجتهاد ممكن في الأزمان الأخيرة ، وربما اعتمد في الفتوى على كتب الحنابلة فيعيب عليه كثير من الملتزمين للمذهب المالكي ، وجرت بينه وبين المنكرين عليه خصومات شديدة ومناقشات ، ومشاعرات يطول الكلام بإخصائها ، وحاصلها أنه لا يرضى قصوره عن مرتبة أهل الحديث وأهل الاجتهاد ولا يرى التقليد واجبا عليه لما من آلات الاجتهاد ، ولا يرى نفسه إلا تابعا للسنة ، وربما مال إلى الانكار على المتصوفة كثيرا من مقالاتهم وأحوالهم مع الاعتراف بفضيلة الصوفية المتمسكين بالسنة وكان من أشد الناس محبة لشيخنا الخضر بن الشيخ حماد واعترافا بسبقه إلى الفضائل وكماله في المقامات وتكلم بذلك في كثير من قصائد.

ومات رحمه الله أواخر صفر عام ألف وثلاث مائة وخمسة وتسعين هجرية 1395هـ .

وأما أخوه عال فمشارك في الفنون أيضا لا سيما علم الأصول نظم جمع الجوامع لابن السبكي وادعى مرتبة الترجيح بين الأقوال المخلفة ، وقال لي مرة أن بعض الناس ينكر عليّ أن ادعى الاجتهاد مع أن الشيخ محمود بن الصالح قال : لي اعترف لك ببلوغك مرتبة الاجتهاد في بعض الجزئيات بناء على القول الصحيح من أن الاجتهاد يتجزء ، وأنا بنفسي غاية ما ادعي أن المسألة التي اختلف فيها في الفروع وكثرت الأقوال فيها إذا نظرت فيها وفي مدارك العلماء فيها فلا احتاج إلى ترجيح من مرجح فيها ولا أرى نظر غيري فيها حاكما على نظري ولا أقلد من بنى على قاعدة استنبطها إذا اطلعت على دليل أقوى من دليله .
وله شعر كثير ورسائل في الفتاوى ، وكان حسن الخلق لين الجانب جوادا سمحا ، ومات رحمه الله في ذي الحجة من عام ألف وثلاث مائة وستة وتسعين هجرية 1396هجرية .
وأما أخوهما أحمد فمشارك أيضا لكن أحسن الفنون عنده وأحبها إليه شروح خليل وغيرها من كتب المذهب المالكي وعلوم الصوفية ، وربما خاصم أخويه المذكورين لاختلاف منحاه لمنحاهما وتجري بينهم في ذلك مناشدات ، وهو في قيد الحياة وقت الكتابة وهو عام ثمانية وتسعين بعد ألف وثلاث مائة .
ومن علمائهم الأجلة :
أحمد بن حسنٌ وكان منافسا للثلاثة في سائر الفنون ومات بعد ألف وثلاث مائة وسبعين .
ومن مشاهير علمائهم قبل زماننا :
إنتَلْمَان وهو أبو أم بني محمد المذكرين كان ذا علوم وكرامات اعترف له معاصروه بالسبق في العلوم ومات عالم ألف وثلاث مائة ونيف وأربعين هجرية .
ومن أبناء عمهم الذين يلتقون معهم في الجد الثاني عشر أهل وَام وهم حقيقة من أهل هذا الحي يلتقون معهم في جدهم أبي بكر ذي الفيلة لكنهم استوطنوا بلدا قريبا من هُنْبَر يقال له وَام فنسبوا إليه ، وكانوا أهل علم وفضل .

ومن مشاهير علمائهم قبل زماننا إنْكَسُنَنْ وأبناه : محمد الصالح وعمر ،
ومن علمائهم في الوقت الحاضر :

محمد الأمين بن تَكَدُتْ ،
وأحمد بن وآف ،
ومحمد إكْنَنْ ،
وإلَّلْ أبنا محمد الصالح بن إنْكَسُنَنْ ،
ولو انتدب منتدب لاستقصاء أخبار هؤلاء ومناقبهم لجاء بمجلد أو مجلدات ولم أر لهم منظوما ولا منثورا .
وأصل تسمية هؤلاء القوم باسم أهل تِمُكَسِنْ : يعني الزكوات أنهم هم المتولون لجمع الزكوات من قبل إمْغَادْ الكثيرة في بلادهم فسموهم بذلك الاسم ، وكان سلفهم الذين سموا بهذا الاسم أولا ، إذا جمعوا الصدقات فرقوها في المستحقين إذ لا إمام يسوقونها إليه ليفرقها فكانوا كغيرهم من إخوانهم السوقيين كل أحد منهم أو كل قوم يجمعون صدقات أتباعهم ومواليهم إلى مساجدهم فيفرقونها في المستحقين ، وحدثني الشيخ الوالد عن بعض من يعرف أجداد أهل الزكوات هؤلاء أن واحدا منهم إذا جمع أو اجتمعت إليه الزكوات الكثيرة ضرب لها حائطا أو حيطانا ثم قام إليها يفرقها في المستحقين وفي المصالح العامة حتى تفرغ ولا يمسك لنفسه ولا لولده ولا لحاجة من حوائجه شيئا منها ثم يسير في أصدقائه من إمْغَادْ ويواسونه من مالهم بما ليس من الصدقات وينتفع هو وعياله ومن يمونهم بذلك ، ومن بعده من أولاده وأهل بيته لا يضيقون على أنفسهم في الانتفاع بها كتضييق الجد مالمذكور بل ينتفعون بها وينتفعون من ورد عليهم من الناس فكانوا لأهل بلدهم موردا يردونه يطلبون إليهم الحوائج ويصدرونها بما قدروا عليه ، وكان ذلك عادة جارية فيهم إلى الآن يأخذها الأخلاف عن الأسلاف ، وأما قرى الضيف ومواساة الوافدين وغيرهما من خصال الكرم فصاروا فيه مثلا سائرا أدام الله مجدهم وبارك فيهم . القسم الثالث : من أقسام الدغوغيين من ينتمي إلى ابراهيم الدغوغي بواسطة حفيده علي بن يحي وهذا القسم أكثر من الذين قبله عددا وعلما ، وأشهر منهم انتسابا إلى الدغوغية حتى أن كثيرا من أهل بلادهم لا يعرف أن لهم مشاركا في الدغوغية ولا يتبادر غيرهم إلى

ذهنه متى أطلق الاسم الدغوغي وهم المختصون بالخصائص السابقة في الفصل قبل هذا ، ومنهم أهل النهضات المعدودة وإن كان لغيرهم من إخوانهم حركات مثل حركاتهم فلم أقف على ذلك وقدبحثت فلم أجد ، وهذا القسم هو الذي أستطيع بسط الكلام فيه لأن أهله هم عشيرتي الأقربون ، وهم أشياخي وأشياخ أشياخي وهم الذين يجمعني الوطن مع كثير منهم ومن ليس معي في الوطن منهم بيني وبينهم الاتصالات والمزاورات حتى كأنني وإياهم في وطن واحد ، والكلام على هذا القسم يستدعي أبحاثا من جهة وصل أنساب الموجودين في الوقت الحاضر منهم إلى علي بن يحي الذي هو الجامع لبطونهم المتفرقة في الأوطان ، ومن جهة تقسيم بطونهم بين المواطن ، وذكر مشاهير حملة العلم من كل بطن من بطونهم المتفرقة ، ومن جهة تاريخ وصولهم إلى بلاد الطوارق التي صارت مسكنا لهم في العصور الأخيرة

أما بطون بني علي بن يحي فثلاثة بنوا الغزالي وبنوا آمن وبنوا أحمد الأحمر وله ولدان غير الثلاثة وهما : عبد الرحمن ، وآبَّل ، وقفت على ذكر أسمائهم في الخطوط القديمة ولم أعرف من ينتسب إليهما إن كان فالغزالي تنتسب إليه جماعات كثيرة متفرقون في الأوطان : ينتسب إليه الدغوغيون من أهل تَكَلْتْ : الذين منهم الكاتب وهم بنومحمد أحمد المعروف باسم هَمَّهَمَّ ، ومسكن أسلاف هؤلاء في القرون القديمة أَمَاسِنْ من أعمال كِدَال وفيه قبر جدهم أحماد بن أنك بن أبي بكر بن أدَّ بن الغزالي ، ثم نزل جدهم حفيده هَمَّهَمَّ أرض أمَسْرْكَضْ في أعمال كَاوَ وفيه قبره ، ثم انتقل أولاده إلى موضع قريب منه وهو بئر تَكَلْتْ الذي ينتسبون إليه وأقاموا هناك مدة طويلة ، ثم غادرها أولاد أولادهم في أوائل القرن الرابع عشر الذي كثر فيه الزلازل فصاروا يتجولون في أعمال كَاوَ ولا يضبطهم منزل معين ولكن لا يخرجون عن أعمال كَاوَ يمينا ولا شمالا ولم يزل عنهم الانتساب إلى تَكَلْتْ إلى الآن .

وينتسب إلى جدهم أحماد بن أحماد : بنو عمهم باب بن أحماد أخي هَمَّهَمَّ وهؤلاء يسكن بعضهم في أرض جس مع أخوالهم من أهل تَنْغَ أكْل ، ويسكن بعضهم في أرض هُدَّار .

وينتسب إليه رجلان كانا من ذرية الشيخ محمد المختار المعروف باسم تَبَّل : وهما أحمد ومحمود ابنا نَجِيٌّ ومسكن محمود منهما حي خاله محمد بن عبد الله في أرض مَرْكُي .

وينتسب إليه رجال من أهل تِكَش

ورجـــال مـــــن أهـــــل كَـــرَتْ
ولم أعثر على سلسلة نسبهم وينتسب إليه حي في فَنْبَلْكُ : يقال لهم بنـو أحْنَى وأطلعوني على سلسلة نسبهم بخط جديد وذكروا أنهم نقلوا النسخة التي رأيتها من نسخ قديمة ، وحدثني الشيخ الوالد أنه زار قبـر جـدهم أحْنَى فرأى على لوح قبره أسماء أبائه إلى رجل اسمه الغزالي وكان معه في الزيارة الشيخ العالم الثقة محمد الصالح بن أحْنَى فسأله عـن اسـم الغزالي الذي رآه في الأسماء المكتوبة على اللوح هل هو الغزالـي بـن علي بن يحي الذي هو جد الشيخ السائل أو رجل آخر يشابهه في الاسـم فقال له الشيخ المسؤل حدثني ابن عمي شَاغَتْ عن والدي أحْنَى أنه هو ، وحدثني أحمدَ بن عبدُ من ذرية الشيخ هابَّ أن بعض أهل بيته الأقـدمين كتب كتابا كان في خزانة الشيخ إفْنَقَنْ بن أَكّنَتْ وكتب في آخـره اسـمه وأسماء آبائه إلى أن التقى مع بني أحْنَى في جدهم ثم رفع نسبه إلـى أن بلغ به الغزالي المذكور ، ولأهل هذا الحي سلف في العلم والعمل وفيـه كثير من حملة العلم ولكن جل عنايتهم بالرواية لا بتدوين آثار تدل علـى أهلهـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــا .
وجميع هؤلاء ينتسب إليه بواسطة ابنه محمد المعروف باسم أدَّ وهو جدنا معـــــــشر أهـــــل تَكَلَّـــــــتْ
وينتسب إليه رجال من أهل غَيْرَغْ : وهي من أعمال تَغَارُسْتْ قريبة منها ليس بينهما إلا نهر النيجر ، تَغَارُسْتْ في الساحل الغربي ، وغَيْرَغْ فـي الساحل الشرقي ، وهؤلاء يرفعون نسبهم إلى رجل اسـمه حنبـل بـن الغزالي وليس في أحيائنا من ينتسب إلى هذا الرجل لا من جهة الـذكور ولا من جهة الإناث ولكن أسلافنا يعترفون بأن هذا الحي من بني عمهم .
وينتسب إليه بواسطة ابنه عقيل بن الغزالي : رجال في أرض بَنْكَلَـرَيْ من أعمال تِرَا جمهورية النيجر وجدهم اسمه المكُودي وابناه سعد والذاكر هما الذان تفرغت عنهما تلك الجماعة ولم يشاركهم غيـرهم مـن أهـل وطنهم في النسب وتنتمي نسبتهم إلى باب بن حام بن عقيل بن الغزالي ، وباب هذا له ولادة على كثير من أحيائنا وغيرهم من جهة الإناث ولـم أقف على تعيين عصره لكن من وقفت على تاريخ عصورهم مـن بنـي عمه المساوين له في مرتبة النسب عاشوا في القرن العاشـر الهجـري فأظنه هو كذالك ، وبنوه من بعده تغربوا عن أوطان بني أعمامهم إلـى أوطان بعض أخوالهم من أهل بَكُ من أعمال أنْسَنْكُ وكانوا من جملة ذلك الحي ثم انتقل بعض ذلك الحي إلى أرض إغْشَرْ من بلاد نيجـر وتبعـه جدهم المسمى أنك وبقيت ذرية أولئك المنتقلين هناك ونشأ منها حي يقال

لهم أهل إغْشَرْ ثم انتقلوا إلى أرض تِرًا فسكنوه منذ مدة تزيد على قرنين أو ثلاثة لكن لم يزل عنهم الانتساب إلى وطن أسلافهم القديم وهو إغْشَرْ وبه يعرفون إلى الآن ، وهذه الجماعة لم يصل إلي من أخبار علمائهم الأولين شيء إلا أنهم لم يزالوا مبجلين محترمين في أهل بلدهم لماحازوا من النسب الشريف ومن الاتصاف بالأوصاف الحميدة والخصال الشريفة ووصل إليّ من خبر سعد بن المكودي أنه عالم عامل ورأيت شيئا من شعره لا بأس به وسمعت أنه لم يقرأ النحو ولكن لا يلحن في العربية وربما قرأ في مجلس من المعربين يرقبونه ليلحن فيعصم الله لسانه من الزلل والخطأ فيتعجب الناس ويعترفون بأنه ممن اختصهم الله من فضله ورحمته بما شاء كيف شاء وعاش الشيخ سعد بن المكودي هذا في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الذي بعده ومات بعد العشرين من القرن الرابع عشر وخلف بنين أربعة ذوي فضل وصلاح وأعلمهم : أحمد والمهدي وكانا فرسي رهان في العلم والعمل قرءا علم النحو واللغة والفقه والحديث والتفسير والتصوف ، ونشرا علما كثيرا في أرضهما وأحييا كثيرا من السنن أماتا كثيرا من البدع وأنفقا في سبيل الله وجاهدا أنفسهما وأهليهما وانتفع بهما من شاء الله دينا ودنيا ، ولم يزالا على الجد في الطاعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإحسان إلى القريب والبعيد واقتناء الفضائل حتى مات المهدي في ذي الحجة من عام ألف وثلاث مائة وسبعة وثمانين 1387هـ وبقي أحمد يترقى بعده في مراقي أهل الكمال إلى أن مات عام ثماية وتسعين 1398هـ . له شعر كثير جيد ليس فيه شيء مما يذم شرعا بل هو من المحمودات شرعا كالمديح النبوي والدعاء لكشف الضر أو جلب الخير . ولأحمد تأليف جيد في الذب عن شيخه حماد وتقرير ولايته وكماله والجواب عن شبه الطاعنين في مقامه وفي سيرته وفي أتباعه ، وكان أحمد هذا من أكبار أصحابه مع صغر سنه ولم يزل دائبا في خدمته منذ تعلق به في أيام شبابه إلى أن توفى شيخه وهو في سن الكهولة ثم صحب الشيخ المحمود بن الشيخ حماد الذي هو الخليفة بعده وأحسن صحبته وصحبة أهل بيته وقرابته ودام على بره والسفر لزيارته حتى أدركه ضعف الكبر فكان سواصله بالهدايا والمراسلة ولايرضى الانقطاع عنه بل يعد نفسه من أهل حيه وإن كان وطنه بعيدا ولم يزل يعترف بفضيلة الشيخين الولد والوالد ويشكرهما ويتبرك بهما ويرى تعلقه بهما من أكبر ما من الله به عليه وخدمته للشيخ حماد من أسباب ما فتح به عليه من العلوم والمعارف والآداب ، سألته

في آخر أعوامه عن حاله في التعلم من صغره إلى كبره فقال : لي أقرأني أخي التبيان بن سعد أحزابا من القرآن في صغري ثم أرسلني والدي مع ابن عمنا حامد الكنهاني فقرأت في حيهم متن الأجرومية وشيئا من ألفية ابن مالك ، ثم جاء أبو بكر المعروف باسم أتُوتَا قادما من والدك الذي أخذ عنه النحو فأخذني عمي من الشيخ الكنهاني وأدخلني في خوزة أتُوتَا فأخذت عنه النحو وشيئا من اللغة وتمكنت من تجويد قرأة الكتب ثم قرأت شيئا من مختصر خليل ثم لازمت الشيخ أتُوتَا وأخذت عنه الورد التجاني الذي أخذه عن شيخه بَادِي من أهل تَكَرَنْكَتْ والتزمته مدة ، ثم جاءني بعض الأخوان وأخبرني عن الشيخ حماد وببعض ما جرى بينه وبين أصحابه وأطلعني على بعض قصائده ووارداته فوقع في قلبي وتعلق به خاطري ولم أعزم على اتخاذه شيخا لأني ملتزم للورد التجاني قبل ذلك وقرأت شيئا من كتب التجانية وأطلعت على تشديداتهم وتحجيراتهم على أهل وردهم في التعلق بغير شيخه وطلب النفع من غيره فدفعت لذلك الأخ الذي أطلعني على بعض أمره هدية يسيرة وقلت له أبلغها إلى الشيخ وأخبره أني أُرِيْد منه صالح الدعاء ولم أزد على ذلك فلما حال الحول رجع إليّ ذلك الأخ قادما من الشيخ وزادني من خبره فازداد شوقي إليه فتحيرت في أمري ومكثت مدة لا أكلم أحدا حتى تفرس فيّ شيخي أتُوتَا ما بي من الحيرة وصادف ذلك نزول الشيخ موسى بن إِنَمُدْ الكنهاني عندنا وكان إذ ذاك تيجانيا فبسط لي الكلام في فضائل أحمد التجاني ووِرده وطريقته ووافقه شيخي أتُوتَا على ذلك فما زالا بي حتى رضيت بالاستغناء بأحمد التجاني عن كل أحد ثم ذهب الأخ الذي أوسطه بيني وبين الشيخ حماد وهو محمد بن أبو والد مَلّوْ ورجع إلى بلده ولقي الشيخ فأخبره بما كان مني مع الرجلين ثم رجع إليّ وقال : لي إن الشيخ أخبرته بما كان منك من الميل إليه وما كان من الرجلين من صرفك عنه فقال : لي لا يضرني تخلفه عني إنما يضره هو ، فلما سمعت منه تلك الكلمة وددت أنت مت قبلها أو أني لم أخلق فانعزلت متفكرا في أمري وخائفا من انقطاعي عن طائفة أهل الله فلبثت مدة على تلك الحالة ثم حضرت مجلس شيخي الذي أخذت عنه الورد ولم أكلمه ورأى ما بي من الغم فابتدرني بالكلام وقال : لي إن كنت مشغوفا بالاتصال بالشيخ حماد ولم يحبسك عن المسير إليه والتعلق به إلا مراعاة حقي ، فافعل ما تطيب به نفسك وقد أذنت لك في ذلك وأسقطت عنك كل حق لي عليك من جهة المشيخة وتلقين الورد ، ففرحت بقوله فرحا لم أفرح مثله فسرت إلى شيخنا حماد في المدة التي يحاول فيها الاختفاء عن الناس ويمنع الوافدين

عليه من مخالطته فلما اجتمعت به قال : لي إن ما أنا فيه الآن من كثرة الأعداء والجواسيس والسعاة بالفساد لا يناسبك أن تقيم معي فيه فسر إلى سيدي محمد بن ماح في أرض تِسِ وأخذ عنه شيئا من كافية ابن مالك فإذا زال الخوف فارجع إليّ ففعلت ما أمرني به وبعد مدة يسيرة زال الخوف وبسط الأمن وسخرة الجبابرة والظلمة للشيخ وظهرت كراماته وكثرت الوفود فرجعت إليه وأخبرته أني أريد الانتقال إليه ولا أرضى بالبعد عنه فقال : لي أما تعلم أن الصحابة لو اجتمعوا في المدينة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سعتهم ، يشير بذلك إلى أن صحبته ومحبته لا تستلزمان مجاورته كما لم تستلزم صحبة الرسول صلى الله عليه وسلم مجاورته ، ثم قال : لي ارجع إلى منزلك في أَكَلَ وكن الواسطة بيني وبين الشيخ أَتُوتَا والأمير غَايِدِينْ ، ونائبا عني في ذلك القطر وخادما فيما كان بيني وبينهم فرجعت إلى أرضي وأقمت فيه بأمره لا كإقامة أصحابي الذين يقيمون فيه لكونه مولدهم وموطن أسلافهم ، واجتهدت في خدمة الشيخ والتنويه بقدره ونشر فضائله والذب عنه وكانت المتاعب والمشاق التي أتحملها في خدمته أحلى عندي من كل حلو ولما شرعت في خدمته كان ذلك هو تعلمي واشتغلت بها عن كثير المطالعة والدرس ففتح علي ببركتها . هذا ما حدثني به مشافهة وقد شهدت أنا عليه أمورا كثيرة من الخير قل من يعتني بها كاعتنائه منها حب المساجد وإقامة الجماعات فيها على كل حال من الرخاء والشدة والأمن والخوف وحب من يعتني بالصلاة ف المساجد وتقريبه ولو كان أجنبيا وتعظيمه ولو كان عند الناس حقيرا والزهد فيمن لا يعتني بالجماعة ولو كان من أقرب الأقارب ، ومنها الفناء في حب الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وآله وأصحبه ، والإكباب على مطالعة كتب السيرة النبوية ، وكتب أخلاق السلف الصالح ، وكتب السادة الصوفية والتقيد بما يرى فيها من الآداب والتخلق بما فيها من الأخلاق ، وقد عرفته وأنا صبي وهو يباحث الشيخ الوالد ويناظره في السيرة لما يراه معتنيا بكتبها ومشتغلا بها علما وعملا فوق ما يشتغل بها غيره من أقرانه ، وكان ذلك الفن أحب الفنون إليه وكلما اجتمعا سمعتهما يتحدثان في فن السيرة ولم يزل على ذلك إلى أن كبرت أنا وتوفى الشيخ الوالد فكنت أسير إلى بلده وأجتمع به ويكلمني في سائر الفنون العلمية ولكن الغالب عليه ما يتعلق بالأحاديث والسيرة وقد صحبته أكثر من ثلاثين سنة ولم أر مجلسه خاليا من الذكر ولا خاليا من الكلام في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأخبارهم وغزواتهم وكأنه لا يحب أن

تصدر منه حركة إلا محاكية لحركة من النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أو من الصحابة ، أو من التابعين ، أو من أكابر الأولياء سواء كانت حركة عبادة أو عادة أو معاملة ويسرله بعض ذلك ودام عليه حتى مات ، ومنها حب الصالحين وتعظيمهم وعونهم بقدر الطاقة والتشبه بهم والتخلق بأخلاقهم ، ومنها محبة الحرمين الشريفين وكثرة السفر إلى زيارتهما وإعانة قرابته على السفر إليهما حج أربع مرات وسير أهله إلى الحج وأقام بعض ذريته في الحرمين مدة تزيد على عشرة أعوام وهو يجري عليهم النفقة ويهدي إليهم من إحساناته ما يتقوون به على التعلم والتعبد إلى أن رجعوا إليه ، وفضائله لا تحصى ومات في شعبان من عام ألف وثلاث مائة وثمانية وتسعين 1398هـ وخلف أولادا أعلمهم المحمود وإسحاق .

وأما من ينتسب إلى الغزالي من غير ابنه عقيل المذكور فأولاد محمد بن الغزالي وهم بطون متفرقون في الأوطان وأكبر بطونهم بنوا إنكّ بن أبي بكر بن محمد بن الغزالي وجميع من تأتي تراجمهم من العلماء الغزاليين من هذا البطن ، ولا أترجم من غيْرهم إلا محمد بن عالّ بن محمد بن الغزالي فإنه لم يبق شيء من المنتسبين إليه بالأباء وبقيت آثار من علمه لا بد من ذكرها وذكر مؤثرها وما سوى هذين البطنين لم أقف على شيء من آثارهم على وجه التفصيل غاية ما بلغني من أخبارهم أنهم لم يزالوا متمسكين بالتدين والتعبد والتعلم .... فأبدأ أولا بترجمة محمد بن عالّ ثم بتراجم بني إنكّ .

***

1 ـــ ترجمة الشيخ الشهير محمد بن عالّ : ولد عام 960 هـ وتوفي 1030 هـ

هو بن عالّ بفتح اللام وتشديدها ابن محمد المعروف باسم أدّ بفتح الهمزة وتشديد الدال المفتوحة وهو ابن الغزالي بن علي بن يحي بن إبراهيم الدغوغي ، وأبوه عالّ لم أقف على شيء من أثره استدل به على خبره ، وقد وقفت في أثر غيره على ما يدل على أنه من العلماء المعتبرين ومن الثقات المعتمدين ، وصورة ما رأيت من ذلك أن بعض القدماء كتب مسألة فقهية وكتب في آخرها هكذا صح من خط الفقيه عالّ بن أدّ بن الغزالي بن يحي بن إبراهيم الضغوغي العربي مصححا له عن الشيخ

الفقيه محمود رحم الله الجميع) . إهـ قلت محموذ هـذا هـو القاضـي الشهير بتنبكت وله من التآليف شرحه على خليل . رجعنا إلى الكلام على الشيخ محمد بن عالّ هو العالم العلامة ، والبحر الفهامة المـشارك فـي الفنون كما صرح به في بعض رسائله وخطاباته لأخوانه السوقيين فـي زمانه ، وقد اشتهر في الأسلاف أنه من رأساء العلماء حتى كـأنهم لـم يعرفوا له في وقته مثلا ولا في قطره شكلا وكان صاحب تآليف ورسائل ، ومنشئ كثير من الخطب وأجوبة في مسائل ، فمن تآليفه : شرح لامية الأفعال لابن مالك سماه (فك اللامية وتوضيح القاعدة) وقفـت علـى نسخة منه عند إخواننا من أهل غيْرغ ومكتوب في آخره أن كاتبها محمد بن لميط السوقي الملقب بأكوّ ، وكتبها لأخيه وحبيبه محمد بن الطاهر بن محمد بن محمد بن أكّ الداني بن نانّ بن أدّ بن الغزالي بن علي بن يحي ، وتلك النخة رأيتها في تغارُسْتْ يوم الأحـد سـلخ شـوال مـن عـام 1391هـ .

وذكر الشيخ حمدَ بن محمد بن حدي في ترجمته له أن له شـرحا علـى لامية الأفعال سماه (فتح الأقفال) قال : وهو شرح بسيط كان الماضون من أهل هذه البلاد يتداولونه فيما بينهم وينتفعون به ثم انتشرت بحمد الله بعد قصور الهمم ، شروح كثيرة بواسطة القلم الطـابعي فتـرك رأسـا واشتغل الناس بتلك الشروح . إهـ وذكر الشيخ محمد بن الهـادي أنـه وضع على متن الأجرومية أربعة شروح ، ولم أطلع على شيء منهـا ، ورأيت في بعض رسائله أنه قال : هممتُ بالتصنيف في كل فن من فنون العلم ولعل كثيرا من مؤلفاته ضاع بسبب الأعداء المغيرين على بلادنا . أمـا الـنظم فلـم أر لـه فيـه إلا أبياتـا مكتوبـا فـي أولهـا :

لـدين مقـرء بـلا إمتـراء ... قـد ظهـر الفـساد فـي الإقـراء
وغيبـة دائمـة فـي المحـك ... لمـزجهم مجلـسهم بالـضحك
وشـغلهم بمنكـر لا ينكـر ... وخوضـهم فـي باطـل لا يحـصر
ونبـذوا وطرحواالهدايـة ... وطلبـوا مجـرد الروايـة
أصـول ديـنهم لكـي يقـدموا ... لوصـدقوا فـي قـصدهم لقـدموا
فيجـدوا بـذا فتـوح الـرب ... فيتطهـروا بعلـم القلـب
وذاك نـور منـه للرحمـان ... العلـم علـم القلـب لا اللـسان
لأنـه مهلكـة الإنـسان ... علـم اللـسان ضـحكة الـشيطان
أول مـن يـصلى سـعير النـار ... وعلمـاء الـسوء فـي الأخبـار
وذا ، أخـي نهايـة الخـسران ... قـرأهم عـون علـى العـصيان
حجـة الإسـلام مـع القرافـي ... نـص علـى ذاك أبـو التلاقـي

إذا غدا الخلق كمثل الصم ... أجاز في المنهاج دفن العنم
عزلهم كلا ، جميع الحين ... فواجب على مريد الدين
مستعصما من حسرة الفوات ... منتظر الخطفة الممات
جل عن الأمثال والأشباه ... حتى يلاقي رضى الإله
لأنه يعطيه ما يهواه ... فليس للعبد سوى مولاه
طاعته عز وغنم وشرف ... عصيانه ذل وخسر وتلف
أنتهت .

أما رسائله فضاع جلها وقد وقفت على رسالة له يوجهها إلى أمير سنغاي إسكيا إسحاق بن إسكيا داوود يذكر له فيها أصول السوقيين وأنهم من ذرية الصحابة وأنهم لم يزالوا أهل علم وعمل به وليسوا كغيرهم من أجيال التوارق ، يستميله بذلك ليبذل لهم من الإحترام والإكرام ما يستحقونه م جهة علمهم ومن جهة صلاح أصولهم السابقين واللاحقين ، ومما كتبه من أوصافهم ما لفظه :
تجد صبيا صغيرا منهم يغلب الكبار من غيرهم كحال أجدادهم من أهل الحجاز يحفظون فنون العلم كلها وما تغير دينهم منذ أسلموا إلى هذا اليوم بسبب من الأسباب وبذلك يعرفون في جميع البلاد ، وكل من شهد عند القاضي الأكبر الأستاذ التقي النقي الذي لم ير مثله في بلادكم ولا في غيرها المجمع على علمه ودينه وعدالته صاحب تنبكت الشيخ محمود رحمه الله ورضي عنه يطلب تزكيته إلا السوقين فإنه قطع بدينهم وأمانتهم وعدالتهم وتبريزهم وقال : لا نطلب تزكيتهم وقد جربناهم فوجدنا أصلهم خالصا تابعين لأجدادهم في العلم والدين والخالص . إهـ كلام الشيخ محمود ، ثم قال : صاحب الرسالة محمد بن عالّ وقد كان منهم أولياء كبار كالحاج الشيخ الكبير أبي الهدى وقاضي جدك أبي عمر الداني ومن لا يحصى كثرة ومنهم من بلغ في الولاية أن يصلي في بلادنا مشاهدا للكعبة المشرفة لا يحرم بالصلاة حتى يظهر الله له بنائها . إهـ الغرض منها وهي طويلة .
وقد جرت له مع بعض معاصريه أمور أوجبت أن كتب إليهم رسالة يخبرهم فيها بأن أسباب التباغض والتحاسد بين الناس أمور كان بمعزل عنها فلمَ يؤذي مع برأته من تلك الأسباب ومع بذله جهوده في الذب عنهم وعن حريمهم ، ومكافحة السلاطين والرؤساء في حمايتهم ولكن لم يرعوا فيه أي حق بل جزوه جزاء سنمّار ، وليس أول مصلح قاسي تلك الألام

كما يعرفه من قرأ القرآن ونظر في أخبار الماضين .
ونص تلك الرسالة بعد البسملة والصلاة : (الحمد لله رب العلمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين من عبد جميع المسلمين وجميع المؤمنين في الله محمد بن عالّ إلى جميع أهل السوق علمائهم وجهالهم وخواصهم وعوامهم ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،
أما بعد : فأسباب التنافس والتحاسد عندكم ثلاثة أشياء : القضاء والإمارة وكثرة الجيران والأتباع فيعلم الله سبحانه الذي من نسب إليه علم ما ليس كذلك في علمه فهو كافر باجـ...برآتي منها ، والإمارة عندي كالكفر ، والقضاء عندي كأكبر الكبائر ، والجيران عندي .... حالت بيني وبين جنة في الدنيا أتنعم بها دينا ودنيا حتى أنتقل فيه وكفى بالله علما وكفى بالله شهيدا ، ويعلم الله الذي يعلم السر وأخفى ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء أني لأحب أن يكون لي جار ولا صاحب قريب أو أجنبي إلا من يعلم الله أنه لا سبب لمصاحبته لي إلا المشاركة في دوام فكر وعبادة لا يفتر فيها وغير من هذه صفته فأبغض كوني معه كبغضي كوني في النار ، ولولا خوف قطع الله سبحانه سبحانه لقطع عباده لقطعتهم ولقد عزمت على ذلك عزما صميما يعلمه الله تعالى فأراني من العبر والآيات ما هو أعلم به ولو جاوزته لقطعني كما قطع الشيطان فصاحبتهم بقهره وخدمتهم بأمره وصرت راعيا لهم قائما عليهم وعلى أموالهم وجعلت نفسي فداء لأنفسهم وعيالي فداء لعيالهم أدفع عنهم جميع الجبابرة وجميع الظلمة من جميع الناس في البلاد حتى سقط فمي وعمى بصري وفني جسدي بشدة الجوع والعطش ودوامها عليّ في اتباع جنود المغيرين عليهم في رد أموالهم ولا يرحمنى أحد منهم بشربة ماء ولا لبن فمت مرات فأحياني الله بلطفه الجميل ولا أطلب الأجر إلا من الله تعالى والأجل ما علمه الله تعالى من أني ما قمت عليهم وخدمتهم إلا فيه ، منعني من نفع يحصل لي منهم ولو شربة ماء في عطش ، لئلا ينقص أجري والحمد لله والشكر له على ذلك وأنا فارح بذلك غاية الفرح لا حازن عليه أدن... حزن إذ ليست الدنيا دار جزاء المؤمنين ، وإنما قلت جعلت نفسي فداء لأنفسهم وعيالي فداء لعيالهم وعلمي فداء لعلمهم لأنهم لا يتكلفون مشقة في اتباع أموالهم بل لا يتبعونها خوفا من العدو والمغيرين فيها أن يقتلوهم ، وخوفا من العطش والجوع وأنا أتبعهم بعلم الله بلازاد ولا ماء أياما وليالي ولا أبالي من قتلني منهم وهم يكتمون أنفسهم عنهم وأنا بنفسي ألاقيهم ، وكلهم يتسببون لعيالهم بالتجارات

والأسفار ، وأنا لا أنسبب لعياني بسبب من الأسباب ولا بسفر من الأسفار وفارقت عقد المجلس لهم لاشتغالي بمدافعة الجبابرة والظلمة عنهم وصاروا كلهم والحمد لله أغنياء وصار عيالي فقراء وكلهم يعقدون مجلس للعلم وأنا لا أعقد مجلسا للعلم حتى كأني جاهل مع أني عالم بحقيقة جميع الفنون بفتح رباني صير جميع الفنون في قلبي كنطة حتى عزمت في صغر سني وشبابي على أن أولف في كل فن تأليفا يوضحه لجميع المسلمين كالشمس فشغلني عن ذلك مدافعة فتن أخر القرن العاشر وما بعده عن السوقيين خصوصا وعن جميع المسلمين عموما ، ترجيحا للدفع عنهم على التأليف المذكور فأعانني الله الذي قال في كتابه { ولينصرن الله من ينصره } بما علمه في قلبي فكنت لهم ولجميع المسلمين في الرباط الدائم والجهاد القائم حتى فني جسدي في راحة أجسادهم ، واشتغلوا بالتعلم والتعليم وجمع المال وأنا وعيالي في جهل وفقر ، وكثرة شدة بكاء عيالي يقولون لي : السوقيون وجميع المسلمين اشتغلوا بالتعلم والتعليم وجمع المال فكن بنا على ما كانوا عليه وما أصابهم أصابنا وما نجوا منه نجونا منه ، وأقول : لهم أتركوني في هذا الدفع وهاجروا إلى غيري من العلماء يعلموكم ، ولولا هذا الدفع ما بقي من يتعلم ولا من يعلم ، فيقولون لي : نجاتنا أو هلاكنا مع المسلمين أحب إلينا من أحب إلينا من اشتغالهم بتعلم والعلم وتعليمه وبجميع المال دوننا وقد منّ المنان سبحانه في صغري وشبابي بغنائي به عن غيره فكنت بمجرد فضله وكرمه ولطفه في عالم الملكوت لا في عالم الملك فلا أعلم غيره ولا أرى ولا أسمع إلا ذكره وعلمه وعبادته ، ومحال عندي أن أكون إلا على ما كان أهل عالم الملكوت من دام الذكر علما وعملا بلا فترة فأصابني شؤم هذا البلد المشؤم هو وأهله القاطعون لعبادة الله بسبب ما وقع بين الأستاذ محمد بن أبي محمد وبين خالي عمر بن السيوطي (1)رحمه الله فعزم الأستاذ عزما صميما لا دواء له على الركوب إلى أسْكي داوود فجفت من ذلك فتنة يهلك بها جميع السوقيين دينا ودنيا فقلت له أنا نائب عنك فسكن غضبه فنبت عنه حتى سكن الله غضبه والله أعلم . فرجعت إلى عبادة الله وتأليف العلم حتى وقع بين القاضي محمد إبراهيم وبين خالي عبد الرحمن بن السيوطي مثل ذلك لأجل طلبه الصلاح منه فغضب عبد الرحمن غضبا شديدا عزم به على قطع مادة جميع السوقيين فأمرني القاضي بمعانة على دفعه فأبيت حتى حلف أن لم أعانه على دفعه ليهربن من هذه البلاد أبدا فأعنته عليه بالله ، ثم رجعت إلى العبادة والتأليف حتى نزلت فتنة جَوْدَرْ فملأت ما بين السماء

والأرض فقمت بدفعه في الله فأعانني الله وعظم حرمتي وجاهي عندهم إلى اليوم ، فملأ الشيطان قلوبكم من حسده ما لم أر ولم أسمع مثله ففرحتم فرحا ظهر لجميع الناس بما وقع على بيتي وكتبي وأهل حي من جند شعبان وقلتم الحمد لله الذي أحيانا حتى ذهبت حرمته وجاهه وعمل لزوجته ما لم يعمل لأمة من الإماء ، وهذا ضد ما وجب عليكم من شدة الحزن والأسف على منزلة عبدكم عوضا نفسه من أنفسكم وعياله من عيالكم وعمله من عملكم يقر عند كل من عظم الله

---

(1) 1) السيوطي هذا رجل من السوقيين لقب بهذا اللقب تبركا بجلال الدين السيوطي لا لأنه من قرية أسيوط التي ينتسب إليها جلال الدين السيوطي الشهير ووهم بعض النسابين فزعم أن السيوطي المصري هو الذي تنتسب إليه جماعة السوقيين مع أن المصري صرح كثير من المؤرخين بأنه لا عقب له وزمانه قبل زمان هذا السوقي بقليل .

المؤلفحرمته عنده بأنه أسفل من جميعكم وأنكم أعلم منه وأعز منه وقد سماني بعضكم إلها من دون الله فتبت إلى الله من الدفع عنكم الذي سميت به إلها وتبرأت من مشاركتكم فيما سوى الإيمان بالله وعبادته حتى ألقى الله كبراءتي من إبليس وجنوده ، والإنسان لا يحسد عبده بما فتح الله عليه من الجاه والحرمة ، لأن منفتهما له وإنما يحسد من ينافسه وينكر عليه والسلام) . أقول هذه الرسالة هي أعون شيء على وضع الترجمة لمنشئها فإنه ترجم فيها حالته من مبدأها إلى منتهاها ، وبين أن له ثلاثة أطوار : الطور الأول طور الشباب ومهمته فيه تعلم العلم وتدينه والتصنيف فيه وهذا الطور هو الذي أشار إليه في الرسالة بقوله مع أني عالم بحقيقة جميع الفنون بفتح رباني صير جميع الفنون في قلبي كنقطة حتى عزمت في صغر سني وشبابي على أن أولف في كل فن تآليفا يوضحه لجميع المسلمين كالشمس . والطور الثاني طور الكهولة ومهمته فيه السعي في مصالح المسلمين والدفع عن حريمهم وفداء نفوسهم وأموالهم بنفسه وماله ومكافحته الأعداء المغيرين والسلاطين في الذب عن حريمهم واسترداد ما نهب من أموالهم ، وهذا هو الذي أشار إليه في الرسالة بقوله وصرت راعيا لهم قائما عليهم وعلى أموالهم وجعلت نفسي فداء لأنفسهم وعيالي فداء لعيالهم أدفع عنهم جميع الجبابرة وجميع الظلمة من جميع الناس في البلاد ..إلخ وبقوله : فكنت لهم ولجميع المسلمين في الرباط الدائم والجهاد القائم حتى فني جسدي في إراحة أجسادهم ، وأشتغلوا بالعلم والتعليم وجمع المال وأنا وعيالي في جهل وفقر ..إلخ .

والطور الثالث : طور الشيوخة : وشأنه فيه اعتزال الخلق والإقبال على الحق والزهد في الجيران والاتباع وهو الذي أشار إليه بقوله : ويعلم الله الذي يعلم السر وأخفى ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء أني لا أحب أن يكون لي جار ولا صاحب قريب أو أجنبي إلا من يعلم الله أنه لا سبب لمصاحبته لي إلا المشاركة في دوام فكروعبادة لا يفتر فيها ، وغير من هذه صفته فأبغض كوني معه كبغضي كوني في النار ...إلخ ، وذكر الشيخ السوقي محمد بن الهادي أن آخر أمر هذا الشيخ المترجم أنه اعتزل مجامع إخوانه السوقيين وارتحل عنهم إلى منزل يقال له تِنَدْهَكْ ومات فيه .إهـ قلت وهذا المنزل قريب من أَمَسَرْكَضْ الذي نزل فيه أجداد أهل تكلّتْ في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل الثاني عشر وصار منزلا لهم ولأولادهم ومن تناسل منهم يتحولون فيما بينه وبين تَكَلّتْ وإكَرَرْ إلى أوائل القرن الرابع عشر الهجري ، والقوم الذين نزلوا أَمَسْرَكَضْ وتَكَلّتْ هم الأقربون إلى محمد بن عالّ يشترك معهم في جده الأدنى محمد بن الغزالي . إهـ

وله رسالة في الذب على إخوانه يخاطب بها بعض الأمراء وأظنه عملها في طور الكهولة الذي هو طور دفاعه وذبه ولفظها :

(بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، من محمد بن عالّ إلى قرة عينه وثمرة قلبه الأمير المبارك والواصل الرحم محمد الملقب بأتَكَكْ بن آخَسَنْ كمل الله سعادته في الدنيا والآخرة وأدام الله عليه العافية يسلم عليه غاية السلام ويعلمه بأني لا أترك ما دمت حيا نصيحتكم في دنياكم وآخرتكم لأن الله تعالى يعذبني على كل تفريط في أمركم وأن الله قد جعلني واحدا منكم وأظهر ذلك لجميع الناس أحمرهم وأسودهم عربهم وعجمهم وإذا علمت هذا فاعلم بأنا لما وصلت الرحم علمنا أنك أفضل من جميع من سبقك إلى منزلتك تلك من أولكم إلى آخركم لكن حدث منك أمر صير ما حسن منك قبيحا عند الله وعند رسوله وعند جميع أمته وهو أنك قد بلغني بتواتر علماء إمرون .. وجاهلهم أنك لا تعظم العلماء ولا تقوم إليهم ولا تتلقاهم إذا نزلوا بك ولا تزورهم ، واعلم يا أخي وحبيبي وخليلي بأن تعظيم العلماء حسنة لا يحتاج معها إلى حسنة وتحقيرهم سيئة لا يحتاج معها إلى سيئة ومن عظمهم فقد عظم الله ونبيه لأنهم ورثته وخلفائه ولا يحتاج إلى عمل غيره ومن حقرهم فقد حقر الرسول صلى الله عليه وسلم فهو كافر بلا خلاف بين العلماء وزوجته بائن منه وهو خارج من الأمة منقطع الرجاء من الله

مع أن إمَرْوَنْ ليس تعظيمهم لأجل العلم فقط بل يجب تعظيم كل جاهل منهم لوجهين : أحدهما أنهم ذرية الصحابة بلا شك ، والآخر أن الله قد جعلهم معكم من أب واحد وأم واحدة). انتهى العرض منها ، والمرسل إليه لا علم لي بشيء من أمره ولم أر من يعرفه ، وإمَرْوَنْ الذين يونب على عدم تعظيمهم كذلك لا أعرف منهم إلا الاسم ولم يبق من يتسمى في بلادنا في هذا العصر ، وحدثني الشيخ إفَنْفَنْ بن أكَّنَتْ أن الحي الذي صار حيه هو المسمى بذلك الاسم في العصور السالفة قبل ورود أجداده عليه وأهل الرياسة والعلم فيه في تلك الأزمنة انقرضوا عن آخرهم والبقية الموجودة التي يتأمر فيها أهل بيت إفَنْفَنْ فريقان : هاشمي منهم إفَنْفَنْ ، وأنصاري منهم آل يوشع ، وصار أتباع أخوالهم المنقرضين أتباعا لهم إلى الآن ، والعاقبة للمتقين .

وأما أجوبته وفتاواه فوقفت منها على جوابين يظهر أنهما صدرا منه في أيام قيامه بأمور العامة قبل طور العزلة والخلوة ، ويتبين فيهما منحاه في الفتوى من طلب التسهيل على الأمة وعدم الجمود على ما هو المشهور في مذهب معين ، إذا كان في الجمود حرج على المستفتي بحيث يخالفه مع اعتقاد حرمة ما ارتكبه ولا قادر على صرفه عن شهرته والأحسن والأنصح أن يطلب له وجه ولو شاذا يمنعه من ارتكاب ما يعتقده محرما .

الجواب الأول لفظه :

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بنْ عالّ إلى كبيره الفقيه باب وإلى جميع فقهاء إمرْوَنْ سلام عليكم ، أما بعد : فإن الصواب بينكم وبين إخوانكم الذين ابتلاهم الله بلفظ تَرْهَامْ (1)

(1) 1) يعني أن يقول الرجل في حق زوجته هذا اللفظ ومعناه في لغتهم هي حرام . إهـ

ولا قدر لكم على صرفهم عن ذلك أن تتركوهم على ما التزموا من تقليد الخلاف الذي أخبرهم به قدمائكم فبذلك تطيب قلوبكم فإن شرط النهي عن المنكر أن يكون مجمعا عليه وهذا اللفظ لا بد أنه مختلف فيه لأنه إما تحريم فالخلاف فيه أكثر من خمسين قولا وفي مذهبنا فيه ستة أقوال سابغها أنه لغو وقد اختلف فيه المفسرون والمحدثون والمتفقهون من الصحابة إلى الآن ، وإما طلاق ثلاث في كلمة واحدة ، وقد قال في بعض الشافعية لا يلزم فيه شيء لأن النهي يقتضي فساد المنهي عنه ،

وحكى التلمساني قولا ذكر أنه في النوادر : أنه إنما تلزم فيه واحدة وأخذه بعضهم من مسائل متعددة في المدونة ، ولا يمكن خروج هذا اللفظ عن هذين الوجهين إلى ثالث وفي كل منهما خلاف ، وقد صرحوا لكم بأنهم قلدوا من العلماء من جعلها لغوا وقد قال العلماء كخليل في توضيحه وغيره : أن اختلاف العلماء رحمة على هذه الأمة وتوسعة من الله تعالى عليهم . وقالوا لا تقولوا الخلاف بل قولوا السعة . فارحموا إخوانكم ووسعوا عليهم كما وسع ربهم عليهم فإن هذا الدين يسر ، يسروا ولا تعسروا ، وسكنوا ولا تنفروا ، وقد نص بعض المحققين على أن تقليد الشاذ فيما ابتليت به الأمة أفضل وأقرب من إتباع المشهور مع عدم القدرة على صرفهم عن ذلك الذي اعتاده ولو كانت لنا قدرة على صرفهم لكنت أولكم في هذا ، فإن صوبتم كلامي فخلوا سبيلهم وما قلدوه وإلا فاهربوا عنهم ولا تخالطوهم ولا تكلموهم ، ولا تعاملوهم مع دوامهم كلهم على حرام مجمع عليه ، وقد شهدتم بأنه ليس فيهم أحد إلا وزوجته بائنة منه بهذا اللفظ الوقا ، وإن كانوا كلهم زناة بإجماع فكيف تتخذونهم إخوانا وأصحابا وأحبابا ، وتنسبون إليهم أولادهم وزوجاتهم ، وأنا أشهدكم أني إنما طابت نفسي بتقليدهم هذا الخلاف إذ لا عاصي بالإجماع إلا من عمل عملا لم يقلد فيه أحد من علماء الأمة وقد كتبت هذا نصيحة لا تشهيا معتمدا فيه على أمور علمتموها . والسلام .)

الجواب الثاني :

(بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، من محمد بن عالّ إلى كل من وقف على هذا الرسم من العلماء والطلبة مسلما عليه ومعلما له بأن أبا يحي بن أبي بكر أتاني فقال : لي أن بعض الطلبة رخص لي في عدم فراق زوجتي التي تزوجتها قبل تمام العدة ، فقلت خالف الاجماع من قال ذلك فلما أيسته من ثبوت النكاح قال : لي هل وقع قول أحد من العلماء بجواز نكاحها بعد عدة الفسخ فقلت له مشهور مذهب مالك أن التحريم متأبد ومقابله أنه لا يتأبد ويتزوجها بعد انقضاء العدة وهو لمالك وغيره من أصحابه وعبد العزيز بن أبي سلمة وقول جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، فقال : لي إني قلدت هذا القول في تزوجها بعد العدة إن رضيت ، فقلت له إن اختلاف هذه الأمة رحمة ونعمة يجب على الإنسان شكرها . والسلام .)

وأما خطبه : فالموجود عندنا منها ثلاث ثنتان للعيدين والثالثة للاستسقاء

، ولم يزل أهل بلادنا يخطبون بها من أرض ذلك إلى منتهى بلاد التوارق من جهة المغرب فيما بلغني ويستغنون بها عن انشاء خطب جديدة وجرى العمل بذلك من زمانه في أواخر القرن العاشر إلى أواخر القرن الرابع عشر الهجري .

(بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على طه الكريم (1) الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ، وأوجد النوع الإنساني ولم يكن شيئا ، وأجرى عليه تصاريف القضاء والمقدور ، وامتحنه في هذه الدار بأنواع المحن والكدور ، ثم نقله إلى دار البرزخ مودعا روحه في المستودع وجسده في القبور ثم يعيده يوم البعث والنشور ، ويحاسبه على النقير والقطمير ، فمن فائز ظفر بالسرور ، وخاسر ينادي بالويل والثبور ، أستغفر الله ثلاثا ، اعلموا أنه لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب ، ولا ينكشف إلا بتوب ، فتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ، وقد رأيتم مخايل العقوبة المهلكة ، فبادروا بالتوبة ورد المظالم ، واجتناب المحارم مخافة أن تكون المعاصي سببا في منع الغيث ، وقال تعالى : {وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم } وقال : { إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم } وتصدقوا فإن الصدقة تدفع البلايا ، وتذللوا لربكم وتضرعوا له وأسألوا منه إقالة العثرات ، لعله يدفع عنكم العقوبة بفضله وجوده ورحمته التي وسعت كل شيء ، من لم يتذلل لربه عند نزول الملمات ، ويسأل منه إقالة

(1) 1) ليعلم أن ما يبدأ به المترجم رسائله من قول (الحمد لله وحده) هو الذي جرى عمل السلاطين في المغرب بختم الكلام به وهو علامة على كتبهم في أيام الموحدين ، فمن استعملها في الأزمان المتقدمة فذلك دليل على أنه تابع للمغاربة أو متشبه أو محاك لهم ، فهذا الشيخ وأمثاله من أهل وطنه لعلهم ما زالوا يحاكون أهل المغرب في الشؤن العلمية والدينية قديما من عهد الموحدين أو قبله ومن ذلك مواظبة أهل بلدنا على قراءة الحزب الراتب في المسجد كل يوم وكل ليلة حتى يختم ثم يبتدءون ، وكان ذلك من أعمال شيوخ الموحدين ، وبذلك يبطل زعم من يزعم أن بلادنا ليست لها علاقة بالمغرب إلا بواسطة الجنود الهاجمين على بلاد سنغي بقيادة جود ومحمود بن زرقون . إهـ

العثرات ، فهو جبار عنيد عن الخير والفرح بعيد ، قال : تعالى { ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون } ذمهم على ترك التضرع في كشف ما نزل بهم ، أستغفر الله ثلاثا ، عباد الله العمر بضاعة والرابح من صرفه في طاعة ، قال الله تعالى في محكم الآيات ردا على من يتمنى رفع الدرجات وهو معرض عن الطاعات غافل عن رب الأرض والسماوات { أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين ءامنوا وعملوا الصالحات } يا من لا يعرف عباده منه إلا العفو والإحسان نسألك ونتوسل إليك بكتابك العظيم وبرسولك محمد صلى الله عليه وسلم المصطفى الكريم أن تكشف ما نزل بنا من ضر ذنوبنا وهمومنا وغمومنا وأحزاننا أنت العالم بذنوبنا فاغفرها ، وأنت العالم بحوائجنا فاقضها ، وأنت العالم بأحوالنا فاسترها { هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العلمين } .

الثانية من خطبتي الاستسقاء :

(أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ، سبع مرات ، الحمد لله سامع الأصوات ، ومجيب الدعوات وكاشف الكربات وغافر الذنوب الذي أنعم وأكرم وحكم وأحكم وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، أحمده حمد من اعترف بالعجز عن ثنائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله في عزه وكبريائه ، وأشهد أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم سيد أصفيائه وخاتم رسله وأنبيائه صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وسلم تسليما ، أستغفر الله ثلاثا ، { استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا } اللهم أمنن علينا بمغفرتك ما قرفنا وأجابتك في سقيانا وسعة رزقنا واغفر للمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات ، اللهم اسق بلاد .... وعبادك وبهيمتك وانشر رحمتك واحي بلادك الميت إنك على كل شيء قدير أستغفر الله ، اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين ، اللهم ببابك أنخنا ، ولمعرفك تعرضنا ، وبكرمك تعلقنا ، وبتقصيرنا اعترفنا وأنت أكرم مسئول ، وأعظم مأمول ، اللهم ارحم عبادا غرهم طول امهالك ، وأطمعهم دوام افضالك ، ومدوا أيديهم إلى أكرم منوالك ، وتيقنوا أن لا غنى لهم عن سؤالك ، اللهم إن لم نكن كما أمرتنا فأنت ذو غنى عنا فارحم تضرعنا وأسقنا وأفعل بنا ما أنت أهله يا ذا الفضل العظيم ، وانشر علينا من رحمتك وأنزل علينا من بركاتك واسقنا غيثا نافعا يغمر البلاد والعباد آمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن تابعهم سبحان ربك رب العزة عما يصفون

وسلم على المرسلين والحمد لله رب العلمين) .
خطبتا عيد الفطر وهي اثنتان أولاهما :

(بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على طه الكريم ، تكبر بلا حد ثلاثا أو خمسا أو سبعا أو تسعا ثم تقول الله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا ، وسبحان الله بكرة وأصيلا ، والحمد لله على ما هدانا الله أكبر كلما كفره الكافرون ، الله أكبر كلما أخبر عن جلاله المخبرون ، الله أكبر كلما ذكره الذاكرون ، وغفل عن ذكره الغافلون ، الله أكبر الحمد لله خلق الحركة والسكون وفجر الأرض اليابسة بالعيون { إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون } الله أكبر ما صام صائم وأفطر ، الله أكبر ما ندم نادم على ما سلف من ذنبه واستغفر ، الله أكبر ما صاح خطيب بالمنابر وذكر ، الله أكبر الحمد لله الذي قصم بالموت رقاب الجبابرة ، وكسر به ظهور الأكاسرة ، وقصر به آمال القياصرة ، الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة فنقلوا من القصور إلى القبور ، ومن ضياء المهود ، إلى ظلمة اللحود ، ومن ملاعبة الجواري والغلمان إلى مقاساة الهوام والديدان ، ومن للتمتع بلذائذ الطعام والشراب إلى التمرغ في بواطن التراب ، اشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي جعل لكل شيء وقتا وأجلا مقدرا وأشهد أن محمدا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله سيد البشر ، الشفيع للمشفع في المحشر نبي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ومع ذلك قام على قدمه الشريفة حتى تفطر ، صلى الله عليه وسلم الأمين ، تزودوا للرحيل إلى الجنان في رضى الرحمن ، وحاذروا الوقوع في النيران ، في سخط الديان ، { وقوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون }

{ واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا } واتقوا زلزلة الساعة { إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد } اتقوا { يوم يقول لجهنم هل إمتلئت وتقول هل من مزيد وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد } واتقوا { يوم يقول الإنسان يومئذ أين المفر . كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر } واتقوا { يوم يقول الكافر يا ليتني كمنت ترابا } وتفكروا عباد الله في أحبابكم وأصحابكم وأزواجكم وأبائكم وأمهاتكم والأباعد والأقارب وذوي المودة والأجانب قد استوحشت منهم

الديار وانقطعت عنهم الآثار وصاروا هنا في الأجداث للسيئات وللأوزار قد هجرهم الحبيب وسلا عنهم القريب قد ضيقت عليهم اللحود ، وتمزقت منهم الجلود وسالت عيونهم على صفحات الخدود ، ودبت في أجسامهم أصناف الهوام للدود ، وبقيت أرواحهم في البرزخ إلى اليوم الهائل الموعود ، فلم ينفعهم ما جمعوا ، ولا حصنهم ما بنوا ومنعوا ولا منعهم كل ما صنعوا ، وصارت القبور لهم قرارا ، وفرت الأحباب عنهم فرارا ، فانتبهوا يا معشر الإخوان ، واجتهدوا في طاعة الرحمن ، من قبل مفارقة الأحباب والأوطان ، وصلوا الأرحام ، وافشوا السلام ، واطعموا الطعام ، وصلوا باليل والناس نيام ، تدخلون الجنة بسلام ، وتوبوا إلى ربكم أجمعين ، لتدركوا منه الفوز المبين ، وإلا فإنا اليه راجعون)
الثانية :

(تكبر ما شئت ثم تقول الله أكبر ما التزم الملتزم ، الله أكبر ما أقيلت هناك عثرة وندم ، الله أكبر عدد من بالعقيق خيم ، الله أكبر عدد من بالبيت العتيق يمم ، الله أكبر عدد من صلى الفرض قصرا وتمم ، الله أكبر عدد من سعى بن المروة والصفا ، الله أكبر ما اهتزت المنابر بذكر المصطفى ، الله أكبر ما ازدادت المحاضر بذكره شرفا ، الله أكبر الحمد لله الذي خلق الجنة فأعدها دار خلود لأوليائه بفضله ، وخلق النار فأعدها دار خلود لأعدائه بعدله ، ورسوله الذي فضله على جميع الأنام صلى الله عليه و على آله الغر الكرام ما مطر غمام ، وعطر كِمام ، الله أكبر أيها الناس اتقوا سحر الدنيا فإنه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (الدنيا أسحر من هاروت وماروت) واغتنموا أيام الحياة ، وأكثروا من ذكر هازم اللذات ، وقاطع الصلات ، وكونوا من المصلحين ولا تكونوا من المفسدين ، وكونوا من الذاكرين ، ولا تكونوا من الغافلين ، وتوبوا إلى ربكم من كل ذنب فإن التوبة فرض بإجماع المسلمين ، { ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون } { ومن لم يتب فأولئك هم الفاسقون } وتدبروا قول ربكم في كتابه المبين على لسان رسوله الأمين بعد أعوذ بالله من الشيطان اللعين { فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهو فإن الجنة هي المأوى } فإن حاصلها أن المطيع في الجنة ونعيمها ، والعاصي في النار وحميمها فرحم الله إمرءا كثر من الزاد ، وجد في طاعة الله وجاد ، واعلموا أن يومكم هذا يوم عظيم ، فضله رب كريم ، أباح فيه الطعام ، ورحم فيه الصيام ، وافتتح به حج بيته الحرام وأمركم فيه بالصلاة والزكاة ، وفعل

المعروف على الدوام ، وتتنزل فيه الملائكة الكرام ، فيشهدون مساجدكم وينتشرون في طرقاتكم ليتصفحوا وجوه العالمين ، ويكتبون ثواب الصائمين ، ويقفون على أباب السكك ويكتبون ثواب من إلى مصلى العيد سلك ، فقد روى البيهقي واللفظ له عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا كان غداة الفطر بعث الله الملائكة في كل البلاد فيهبطون إلى الأرض وينادون بصوت يسمعه كل ما خلق الله إلا الجن والإنس يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم اخرجوا إلى رب كريم يعطي الجزيل ويعفو عن الذنب العظيم فإذا برزوا إلى مصلاهم يقول الله تبارك وتعالى يا ملائكتي ما جزاء الأجير إذ وفى عمله ، فتقول الملائكة إلهنا وسيدنا أن توفيه أجره فيقول الله تبارك وتعالى يا ملائكتي أشهدكم أني قد غفرت لهم أجمعين ، ووهبت المسئيين المحسنين ، والغافلين الذاكرين ، والقانطين الشاكرين ، ورحمتهم وأنا أرحم الراحمين ، فتفرح الملائكة وتستبشر بما يعطي الله هذه الأمة إذا أفطروا من شهر رمضان) وفي بعض الآحاديث (أن هذا يوم عظيم تعظم فيه العطيات وتغفر فيه الخطئات) فتغافروا فيما بينكم يغفر الله لكم ، وتواهبوا الحقوق فيما بينكم يهب الله لكم من رحمته ، وقد فرض فيه نبيكم صلى الله عليه وسلم زكاة تطهركم على كل واحد منكم وعلى من نفقته واجبة عليكم برق أو زوجية أو قرابة صاعا أو ما قدرتم عليه من الحبوب والثمار أو ما كان قوتا ولو ورق الأشجار بغروب شمس ليلة العيد أو بطلوع فجرها على خلاف في ذلك بين العلماء الأخيار فيأثم من أخرها مع القدرة إلى غروب شمس يوم الإفطار . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العلمين) .

وأما خطبة عيد الأضحى فلفظها هذه فيما قيل قوله : (واعلموا أن يومكم هذا يوم عظيم ...الخ) فإذا بلغ الخطيب إلى هذا المحل في عيد الأضحى فليقل (واعلموا أن يومكم هذا يوم عظيم فضله رب كريم أباح فيه إراقة الدماء ، وأذن فيه بتزيين الدمى ، واعلموا أن بالضحية يغفر الذنب العظيم وينال الثواب الجسيم ، والعفو العميم لأنها سنة النبي الكريم ، وثوابها كما قال ألوا الألباب أفضل عند الله من عتق الرقاب وفيها خير من صدقة تسعين دينارا من الثواب ، فينبغي فيها الاجتهاد ولو تشتري بأحب الأولاد ثم من ظفر بها فليل ذبحها بيده ليقتدي بسنة سيده ، ثم ليجمع بلا حد بين الأكل والصدقة والإهداء ليسلك بذلك ملك أئمة الهدى

فرحم الله إمرءا أكثر من الزناد وجد في طاعة الله وجاد ، وفي بعض الأحاديث (أن هذا يوم عظيم تعظم فيه العطيات ، وتغفر فيه الخطئات فتغافروا فيما بينكم يغفر الله لكم ، وتواهبوا الحقوق فيما بينكم يهب الله لكم من رحمته ، والضحية سنة مؤكدة على كل حر غير حاج بمنى استطاعها ، وأقلها جزع ضان وثني من غيرها سالم من العيوب الأربعة ، والنقص من غيرها ومن الشركة إلا القريب سكن معه وأنفق عليه في أجرها يذبح من ذبح الإمام إلى آخر ثالث أيامها ، والنهار شرط فلا تجزء من ذبح ليلا من لياليها ، فحول الضأن أفضل من خصيانها ، وخصيانها أفضل من إناثها وإناثها أفضل من ذكور المعز ، والمعز من إناثها وإناث المعز أفضل من الإبل والبقر جميعها ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين ولمؤمنات الأحياء منهم والأموات ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العلمين) . إنتهت وتقدم أن آخر أمره الاعراض عن الفتاوى والخطب ومخالطة الناس والانقطاع إلى ربه .

***

2 ــ ترجمة : ابنه محمد بن محمد بن عالّ : من العلماء المشهورين في القرن الحادي عشر وليس عندي من خبره إلا أمران : أحدهما أن الشيخ أحمد بن الشيخ ذكر في رسالته التي ينكر فيها على أهل عصره عدم اعتنائهم بالرواية كما هو دأب من سواهم من العلماء أن أسلافهم كانوا كغيرهم ممن يعتني بالرواية ، وإنما وقع التساهل فيها بعد أيام الأسلاف واستدل على مدعاه من اعتناء سلف السوقيين بالرواية بما لفظه : (وجدت في خط كتب كاتبه في آخره إنْدَغْ محمد ما نصه : استدعى مني العالم المتفنن محمد بن الشيخ محمد بن عالّ إجازة صحيح البخاري ومسلم وكتاب الشفا للقاضي عياض فأجزت له روايتها عني بروايتي لها ، ثم ساق سنده بكل الكتب إلى مؤلفه . إهـ

الأمر الثاني : أن بنته هي أم الشيخ إنْلُبُشْ جد بني عمنا أهل إسكَنْ ، وإن كان له ابن فلم يعقب ذلك الابن ولم نسمع من ينتسب إلى هذا البيت من جهة الأباء وعشيرته الأقربون المشاركون له في جده الأدنى هم الذين يقال لهم في العصور الأخيرة أهل تَكَلَّتْ .

***

3 ــ ترجمة الشيخ محمد المختار الملقب (تَبَّلَ) :

نسبه هو : محمد بن البكري بن محمد الملقب أَنْكَ ابن أبي بكر بن محمد

الملقب أدّ بن الغزالي ولم أطلع على ميلاده ووفاته لكن وجدت من أخبار معاصريه ما تبينت باعتماده أنه عاش في أوائل القرن الثاني عشر فلعله مثلــه فــي إدراك أول القــرن الثــاني عــشر لــه .
وأما علمه وكراماته فلم يزل الناس يتحدثون بها ولم أقف له على إنــشاء لا نثرا ولا نظما إنما وقفت على كثير من النقول لا تصحح إلا من خطه وكأن أولئك النقلة لا يحتاجون إلى تصحيح شيء وجدوه بخطه من شــدة ثقتهم به في الضبط والعدل ، وقد عقد له الشيخ حمد بن محمد بن حــدي ترجمة يقول فيها : وقد وصل إلينا من خبره ما يفيد أنــه عــالم مــتقن وتحرير متفنن فعندنا جمل من نظمه ونثره وحل لبعض مشكلات أهــل عصره . إهـ واوقن أن هذا الشيخ لم يخبر عنه بما أخبر إلا بيقــين لا يخالطه شيء من الحدس والتخمين . وممن أخذوا عنه من كبار العلمــاء محمد إكنن بن محمد سيدي الأنصاري من أهل تِكِرَتِنْ أخذ عنــه الفقــه وأخذ عنه ترجمة مختصر خليل باللغة التارقية ، وتلك الترجمــة ليــست مقصورة على متن المختصر بل تضيف إليه كثيرا من زبــدة مــا فــي الشراح بطريق سهلة التناول تقرب مسائله على كثير ممن لم يتضلع في العلوم ، ثم بقيت تلك الرواية متوارثة في ذريــة الــشيخ محمــد إكــنن الأنصاري معظمين لها لتعظيم شيخهم المنقولة عنه أولا ، وتعظيم رواتها من أسلافهم وعرفوا من بين سائر أهل بلادهم بالتقدم في الفقه ويرحــل إليهم في طلبه ويفوز الراحل إليهم بمناه من التفقه غالبا ولم يزل فيهم من يقوم بالتفقه والتفقيه من أول القرن الثاني عشر الهجري إلى آخر الرابــع عشر ، ولا يزال أثر الشيخ محمد المختار باقيا ما بقيت الروايات الفقهية التي يتمسك بها أولاد تلميذه محمد إكنن ومن يأخذون عنهم مــن ســائر القبائــــــــــــــــــــــــــــــــــل .
وأما أولاد الشيخ محمد المختار فلبث فيهم العلم مدة ثم آل الأمــر إلــى ذهاب العلم في أكثرهم ثم انقرض من ينتمي إليه بالأباء ولــم يبــق الآن ممن ينتمي إليه إلا رجلان بقيا في أرض مَرْكَيْ وهما أحمد ومحمود أبنا نجي بن إبراهيم الذي هاجر من بلادنا إلى مكة وبقي فيها حتى توفي عام ..... وأما أولاده من غير جهة الأباء فكثيرون وفيهم كثير من حملة العلم . ومما جرى بينه وبين تلميذه محمد إكنن الأنصاري أن الشيخ الــشريف محمد المختار كان تحت ولايته قبائل يقال لهم إنْصَرْ ويقال لهــم دَبَّــاكَرْ وكان يتولى تعليمهم وإرشادهم وفــصل خــصوماتهم وأخــذ زكــواتهم وتفريقها على المستحقين وكان فيهم كالنائب عن إمام المسلمين كما جرت به العادة في البلاد النائية عن أئمة المسلمين فلما آنس الرشد والسيادة من

تلميذه المذكور ولاه من أمر دَبّاكَرْ ما كان يتولاه فقام بأمورهم أحسن قيام يعلمهم ويدافع عنهم وكان بنوه من بعده كذلك مع أبنائهم يوالونهم ويدافعون عنهم ويقومون بمصالحهم الدينية والدنيوية ولم يزالوا معهم كذلك إلى الوقت الحاضر وهو آخر القرن الرابع عشر ، والحاصل أن آثار الشيخ محمد المختار التي لم تزل باقية إلى الآن إنما بقيت بواسطة تلميذه محمد إكنن ثم بواسطة أولاده ومن أخذ عنهم ومن آثاره تولية القضاء العام الذي أخذه من سلطان إكَدزْ للقاضي جد قضاة المتوارثين للقضاء في أيام إولّمّدن وهو محمد المختار المعروف بأمَّدْ وابنه محمد البشير ثم بقيت تلك الخطة في ذلك البيت يتولونها ويتوارثونها إلى إنتهاء إولّمّدن في أوائل القرن الرابع عشر أيام التغلب الفرنسي ، وقد سردت القصة في الفصل الثاني من الباب الرابع الذي ذكر فيه كثير من نهضات الدغوغيين ويظهر مما تقدم من قصصه شدة اعتنائه بالبيت الأنصاري اليعقوبي فوق ما يعتني بغيرهم من قرابته حيث بقي خطة القضاء العام في آل البشير (إكَدَشْ) وولى بني عمهم من أهل تِكِرْتِنْ ما ولاهم من أمر دَبّاكَرْ كما يظهر من حالة أهل بيتي بعده ، أنهم شديد والاتصال بأهل هذين البيتين الأنصاريين .

***

4 ــ ترجمة : آلادْ بن أحماد بن أحماد بن محمد العروف باسم (أنْكَ) : وهو أخو جدنا هَمّهَمّ عقد له الشيخ حمدَ بن محمد بن حدي ترجمة يذكر فيها أنه لا عقب له وأن أباه كان مدفونا بساحل أمَاسِنْ من أعمال كِدَالْ ، ثم قال : لم يصل إلينا من أمره إلا كرامة فاذه ، وأعجوبة شاذه ، هي أنه يوم وفاته كان وحيدا في سفرة ليس معه فيها أنيس غير قين أظنه تلميذا فلما دنا أجله أخبر القين بقرب أجله وهما إذ ذاك على شاطئ نهر أمَاسِنْ ، ثم قال : للقين إذا أنا مت فاصدع هذه الصخرة وناد بأعلى صوتك وقل إن فلان بن فلان قد مات ، وكانت الصخرة قد صورتها يد القدرة على صورة قلب حتى أن لها عروقا تشبه نياط القلب وفي رأسها انفتاح يشبه شق القلب فصار الناس يقولون لها دَكْ أُولْ وأولْ بلسانهم معناه القلب وكانت طويلة ملساء ، فقال له القين كيف لي بصعوبة هذه الصخرة مع كونها ملساء مقاء ، فقال : له تتطامن لك حتى تصعد عليها ، ثم نزل عن راحلته واغتسل في بركة هناك ولبس ثيابا له جددا قد أعدت لذلك ثم صلى ركعتين وتسجى بثوبه واضطجع فإذا هو قد توفي إلى رحمة ربه الرحيم ، وبعد هذا ذهب القين إلى الصخرة فلما أتاها تطامنت وصعد عليها ثم تطاولت فنادى كما أمره المرحوم ثم تطامنت كالمرة الأولى

حتى نزل عنها ورجعها إلى حالتها القديمة ، فبينا هو في الانتظار إذا برجال عليهم ثياب بيض لا يدري ممن هم ولا من أين هم قد وفدوا على ذلك المتوفى فحفروا له وفرغوا من جميع شأنه ثم غابوا ورجع القين إلى أهل المرحوم فلما روى لهم القصة العجيبة نهضوا إلى المحل فلما وافوه وجدوا بقايا من السدر والغسالة والأكفان فقضوا العجب والله أعلم بحقيقة الحال . إهـ ما ذكره .

***

5 ـــ ترجمة : أحمد بن الشيخ بن أحمادُ بن محمد المعروف باسم (أنك) :هو أول من رأى الانعزال عن مجمع السوقيين الذين اجتمعوا فيه لإقامة الدين وتجديد ما عفا من سنن سلفهم بسبب الشتات الواقع فيهم فيما قبل دولة آل كَردَنَّ ، وكان من أمرهم بالاجتماع فيما يقال محمد البشير بن أمَّدْ جد إكَدَشْ الذين في أوض مَنَكَا فكانوا على رأيه من الاجتماع والاتحاد مدة مديدة ثم بدا لهذا الشيخ وابن عمه محمد أحمد المعروف باسم هَمَّهَمّ وهو جد من ينتمي إلى الغزالي بن على من أهل تَكَلْتْتْ أن ينعزل عن المجتمع السوقي وينفردا في موضع خال يقدران فيه على إقامة شيء من حدود الشريعة وتجديد شيء من العمل بكتاب الله وسنة رسوله ويفرا من الفتن التي تلازم مواضع الجماعات فلما أبزا مضمرهما من اعتزال المجمع شق ذلك على أصحابهما فقام رجلان من ذرية الثمانية المشهرين باسم أَتَّمَنْ وقلا لهما نحن معكما حيثما توجهتما ، والرجلان محمد بن ونكلّ من ذرية الشيخ الشهير أبي الهدى أحد الثمانية ، وابن عمه محمد الإمام بن محمد بن أحمد بن ربيعة أخي أبي الهدى وسار الأوتاد الأربعة إلى موضع بينه وبين محل المجمع السوقي مسيرة يوم وذلك أول انعزال الطائفة المسماة أهل تَكَلْتْ واستقلالهم بمسجد ينفذون فيه ماشاءوا من غير تقيد بأحد ولم يزالوا على استقلالهم الديني من ذلك اليوم في أوائل القرن الثاني عشر إلى يومنا هذا وهو آواخر الرابع عشر ، وإنما ذكرت هذا في ترجمة الشيخ أحمد لأن أثره فيه مبارك محمود لم تزل بركته تعود على المسلمين من أهله وغيرهم إلى الآن وسيأتي سرد هذه القصة في ترجمة جدنا محمد أحمد المعروف باسم هَمّهمّ .رجعنا إلى الكلام على الشيخ أحمد بن الشيخ قال فيه الشيخ حمدَ بن محمد بن حدي ما لفظه : وهو سيد الأساتذة وشيخ التلامذة وكان ممن يضرب به المثل في العلم ويشار إليه بالبنان في التعليم وقال فيه صاحب فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور كان رحمه الله فقيهاً نحوياً لغوياً محدثاً أصولياً بيانياً منطقياً متفنناً أخذ عن شيخه العلامة المحدث

الفقيه الصالح سيدي محمد بغيغ الونكري التنبكتي صحيح البخاري وصحيح مسلم وكتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى والموطأ والخصائص الكبرى والصغرى للسيوطي ، وأخذ عنه شيخنا سيدي أحمد بن سيدي محمد بن موسى أيجل الزيدي والقاضي سنبير بن القاضي سيد الوافي جميع مروياته من الحديث والفقه وغيرها بشرط الوقوف عند ما أشكل والمراجعة لما أعضل ، وأخذ عنه الشيخ سيدي أحمد بن سيدي صالح البلاغة والمنطق وعلم الأصول وعلم الحكم والحديث وعلم التفسير ، وأخذ عنه ابنه الشيخ محمد الأمين ، ولم أقف على تاريخ وفاته 0 اهـ ثم قال : في ترجمة الشيخ الشهير العالم الكبير قاضي أَرَوَانْ وجد القضاة من آل أحمد بن آدّ في تنبكت ما نصه : وأجازه الشيخ سيدي أحمد بن الشيخ السوقي أن يروي عنه جميع مروياته عن شيخه من الحديث والفقه وغيرهما وعن جملة ما أجازه صحيح مسلم والخصائص الكبرى والصغرى للسيوطي0 اهـ

قلت وممن أخذ عنه من غير أهل بلده باب ابن الفغ بكر الفلاني الماسني .... وممن أخذ عنه من العلماء الأجلاء الذين صاروا أئمة في الدين الشيخ المختار بن أحمد الكنتي لكن بواسطتين فقد ذكر صاحب الطرائف والتلائد أنه أخذ رواية كتب الحديث عن شيخه سيدي علي بن النجيب عن شيخ له سماه عن الشيخ أحمد بن الشيخ السوقي ، وممن أخذ عنه أبناءه الثلاثة محمد أحمد ومحمد الأمين ومحمد المعروف باسم حمّا وهو الذي صارت إليه وراثة أبيه من المشيخة وأخذ الناس عنه ، وممن أخذ عنه أبناء بنته محمد وأحمد أبناء محمد أحمد المعروف باسم همّهمّا أخذا عن جدهما أحمد بلا واسطة وبواسطة ابنه حمّا ، وأما شيوخه في بلده الذين أخذ عنهم العلم فلم أر من اعتنى بتدوين اسمائهم وضبط المأخوذ عنهم وليس من عادة أهل بلده الإعتناء بمثل ذلك قديما ولا حديثا إلا ما كان من أشياخ الرواية في كتب الحديث فإنه لم يزل مضبوطا من عهد هذا الشيخ الذي جدد أمر الرواية في بلادنا إلى الآن ، وقد ألف رسالة في نحو عشر ورقات يذكر فيها حالة أهل عصره من إهمال الأسانيد وقراءة كتب الحديث بالرواية ويذكر فيها ما لقي من بعض معاصريه من شديد الأذى وسوء القول لما أخبرهم أن مقتضى النقول التي وقف عليها أن الحديث لا تجوز قراءته بغير رواية فهو بنفسه يختار أن يفوته أجر قراءة الحديث على أن يبوء بإثم قراءته من غير رواية فأمسك عن القراءة فقامت قيامة معارضيه وعجزوا عن مقاومة نقوله بمثلها فعمدوا إلى تضليله ونسبته إلى البدعة وإلى تضليله

للأسلاف والأشياخ الذين لم يقل واحد منهم مثل قوله ويذكر من جوابه لهم قوله : (أما قولَ بعضهم لو كان الأمر كما ذكر من منع قراءة الحديث بلا رواية ما عمل أسلافنا السوقيون بخلافه ؟ فالجواب أن الأسلاف رحمهم الله ونفعنا ببركاتهم لا نسلم أنهم عملوا بخلاف ذلك بل المظنون به أنهم لا يقرأون الحديث إلا بعد روايته كما هو اللائق بأمثالهم ممن اشتهر بالعلم والتقوى ولا يلزم من عجزنا عن الشيء عجزهم عنه ولا من عدم اطلاعنا عليه عدم اطلاعهم عليه ولا من تساهلنا في ترك المأمورات وارتكاب المنهيات تساهلهم فيها هذا مع أن من أدعى ذلك لم يدع سبيلاً إلى العلم به ولم يكن عنده كتب فيها ذكر أحوالهم ومناقبهم لعدم اعتياد التواليف الكافلة بذلك في بلادهم كما هو العادة في غيرها فصار الأمر إلى جهلنا بكثير من أحوالهم ونعلم من أحوالهم العلم والدين بتلقفنا ذلك عمن ادركنا فوجب علينا أن نظن بهم الخير بفعل المأمورات ما لم يثبت خلاف ذلك فإذا ثبت خلاف ذلك على من ثبت ممن ليس بمعصومٍ فلا نقول باستحالته فإذاً البينة على من يدعي على اسلافنا السوقيين قراءة الحديث بلا رواية مع ما اشتهروا به من العلم والدين لا على من لم يقع منهم سوى اطلاعه على المنع في المسألة وتركه لمّا اطلع على منعه من غير تعرضٍ لما عليه اسلافنا السوقيين في المسألة ولا لعملهم فيها، هذا وقد وجدت في كتبهم ما يدل على عملهم بالمطلوب من الرواية إذ قد وجدت في خط كتب كاتبه في آخره أنه إنْدَعْ محمد ما نصه استدعى مني العالم المتفنّن محمد بن الشيخ محمد بن عالّ إجازة صحيحي البخاري ومسلم وكتاب الشفا للقاضي عياض فأجزت له روايتها عني بروايتي لها ثم ساق سنده بصحيح البخاري إلى أن وصل إلى مؤلفه الشيخ محمد بن اسماعيل البخاري ، وساق سنده بصحيح مسلم إلى مؤلفه مسلم بن الحجاج ، وساق سنده بكتاب الشفا للقاضي عياض إلى مؤلفه ويكفيني ذلك في تقوية ظني بأن اسلافنا السوقيين معتنون بالرواية وهو المطلوب لرد ما يلبس به بعض الطلبة في هذه البلاد ، إنهم متى ظهر لهم نقل يخالف معتقدهم أو غرضهم وعجزوا عن نقل أشهر وأقوى منه ليعتمد ، أو أوضح ليزول الإشكال دفعوه باعتراضات لا جدوى لها ومن جملتها أنهم ينصبونها لمن لم يحصل ما يؤذيهم حبالةً ليوقعوه فيها فيحصل لهم الانتقام منهم والشماتة بهم ونسيانه النقل المخالف لغرضهم وتلك الحبالة قولهم أسلافكم اعلم منكم واسبق وأفضل وهم لم يقولوا هذا ولم يعملوا به بل إنما حدث من عندكم حفظنا الله من محدثاتكم أو حفظنا الله من فلان بن فلان أو يا فلان احذر من الشيطان

أن يضلك عما عليه السلف وهذا كله إنما يقولونه ليوقعوا الواقف على النقل (1) في مهالك الدنيا والآخرة بانتقاص أسلافنا السوقيين المشتمل على مهالك الدنيا والآخرة إذ يخاف على منتقصهم مع ما اشتهروا به من العلم والصلاح والولاية أن يعاقب بثلاث عقوبات أو واحدة منها إما بتفريق الهموم في الدنيا بمحبة الفخر والتكاثر أو عمى القلب عن التصديق بمواهب خاصة الله أو موالاة أعداء الله ويخاف عليه أيضاً من سوء الخاتمة)

---

(1) مراده بالواقف على النقل نفسه وبالنقل ما دعاه إلى ترك قراءة الحديث بغير رواية مر إلى أن قال : (أي شيء يحمل على انتقاصهم وقد بان الرشد من تعظيمهم واحترامهم وتحسين الظن بهم من الغي من ضد ذلك بل قد تحققنا والحمد لله أن ما وصلنا من علمهم وفضلهم وديانتهم معشار معشار معشارهم ولكن لا يمكننا أن نعتذر لكل ما ظهر لنا من النقول مخالفاً لما نعتقد ولما نريد بالكذب عليهم بأنهم عملوا بخلافه مع جهلنا بعلمهم إذ لا نجد في كل نازلة وجدنا فيها النقل خبراً تطمئن النفس إليه بأنهم أفتوا فيها بكذا مخالفاً للنقل ولا كتاباً فيه ذلك لعدم اعتيادهم للتأليف فمضوا مع علمهم وأحوالهم فلم يبق لنا الاقتداء بهم إذ لا يتصور الاقتداء بمن لا ترى أثره وما بقي لنا إلا التبرك باحترامهم وتعظيمهم والاقتداء بامثالهم الذين صنفوا الكتب التي بينوا لنا فيها الحلال والحرام فليس العمل بما في الكتب قادحاً في مناصبهم بل ولا في مناصب الطلبة الذين كانت احوالهم ناطقة بقدحهم فيهم والعياذ بالله تعالى)

مر إلى أن قال في مقام الاحتجاج على أن مخالفة المرء لأشياخه وأسلافه طالباً للحق والصواب ليست قدحاً فيه ما نصه : (وقد قال السيوطي في الدوران الفلكي عن ابن الكركي وكذا إني أصرف عمري في أذى الناس مشيراً إلى ما أصنفه في الوقائع العلمية ذكرى لمن هو ناس ورداً للخطأ ببيان الصواب وكشف الالباس وهذا فرض من فروض الدين بين وحتم لازم لمن هو عليه متعين أمر الله به العلماء في الكتاب وحث عليه رسوله ووعد عليه بجزيل الثواب وأوعد على كتمه من غير عذر بوبيل العقاب وفعله الصحابة والأتباع طراً والأئمة الأربعة بعدهم وهلم جرا ، لا يرى أحد منهم في العلم مجابهم ولا يراعي فيه شيخه وما كان يسميه إلا الاساتذة . ورد المزني على استاذه الشافعي ولم يجد له عن الرد ملاذٌ ورد إمام الحرمين على أبيه في عدة مسائل وأقام على تخطئة والده في

كتاب النهاية . وألف السبكي في حديث الاعتكاف كتابه قدر الامكان وأوقفه عليه فشكره وسماه له شحذ الأذهان . اهـ وقد ألف أيضاً كتاباً سماه تشييد الأركان من لم ليس في الامكان أبدع مما كان راداً به على عالم ألف كتاباً رد به على حجة الإسلام أبي حامد الغزالي قوله ليس في الإمكان أبدع مما كان وسماه هدم الأركان من ليس في الامكان أبدع مما كان ، فإذا تحقق أن رد العلماء على من أخطأ فرض فلا حامل لهم على ترك الفرض ولا عبرة بإرضائي بما يخالف الشرع بل العبرة برضى الله ورسوله والعياذ بالله من إرضاء المخلوق بسخط الخالق)

مر إلى أن قال : (ثم لا بد من الإتيان ببعض الشكاية لساداتنا وعلمائنا السوقيين فيما أذاب الأكباد ، وأشاب الأولاد وأضحك الحسود وذهب ببركات البلاد وحبس الأحرار والعبيد عن الدخول في زمرة جنة الخلود ، ورماهم في أهل دار الوقود من الجرأة على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل من لا تمييز له بين الفاعل والمفعول بل ومن لا يحسن حروف التهجي من أ ب ت ث ولا تكذبوني فلقد سمعت بعض من يتصدى للتحديث يقول في هجاء عين عين بالكسر ولا يتصور منه أن يقولوا كلمتين إلا وقد لحنوا لحناً فاضحاً وهو صلى الله عليه وسلم لا يلحن فيكذبون عليه فيدخلون في عموم الوعيد الدال عليه الحديث الذي أسنده البخاري في أول ثلاثياته)

مر إلى أن قال : (لو اعتصب معكم كل من في البلد لم يردني ذلك عن ذب الكذب عن صاحب الشريعة ولو اجتمع أهل المشرق والمغرب في صف كان جانب نصرة المصطفى صلى الله عليه وسلم أقوى ذريعة

إن تلقه الأسد في آجامها تجم ... ومن تكن برسول الله نصرته

وكل جمع قام في نصرة الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم مخذول ومن رام العلو في الأرض بالباطل فهو ساقط مرذول ومن نصر كاذباً على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد فجر ومن هجى من انتصر للنبي صلى الله عليه وسلم فقد كفر ووراء ذلك من الله كل خزي ونكال ، وكل هوان وإذلال)

مر إلى أن قال : (وقال الإمام الشافعي إذا علم الرجل من محدث الكذب لم يسعه السكوت لأن العلماء نقاد ولا يسع الناقد إلا تبيين الزيوف 0 اهـ ما أردت نقله من كلامه وهو يتضمن دروساً مهمة من خبر المؤلف نفسه ومن خبر أهل عصره وسلفه حيث وصف نفسه بأنه واقف عند الأمر ،

والنهي متبصر فيما يأتي وما يذر ، وذاب عن حديث سيد البشر ، منتصر للسنة لا يخشى من أحد ملامه ، ولا يجزي السيئة بمثلها ولا يثنيه عن مرامه ، خوف أن يقال أتى بشيء لم نسمعه من قبله ويشير كلامه إلى أنه قرأ من العلوم ما سوى الرواية والتاريخ أخذاً عن مشائخ قومه وأهل بلده وأنه أحاط بما لم يحط به كثير من طلبة وقته وبلده من سائر الفنون وأن كثيراً ممن يعارضه في المسألة المبحوث فيها ليس بصدد معارضته ولا يجادله على طريقة أهل الجدل المعتبرين إنما يغالطونه بأمور خارجة عن القصد لا تنهض دليلاً لهم وأنه يتفطن لما يعاملون به من غلبهم في الخصام من نصب أعراض المشائخ والأسلاف حبالة لصيد من خصمهم وغلبهم بأن يقع في أعراض أولئك ويحتقرهم فيهلك في دينه ودنياه فيشمتوا به أو بأن يشغلوه عما أراد فيكون مثلهم في البطالة والعجز ودناءة الهمة والتكاسل لكنه وفقه الله وعصمه من حبائلهم وفطن لمرادهم منه فجادلهم بالتي هي أحسن ونوه بمقدار سلفهم من العلم والصلاح والولاية وبين أن مقتضى تحسين الظن بهم أنهم لم يتواطئوا على إهمال ما يعتني به غيرهم من سائر علماء الأمة لكنهم مضوا مع كثير من علمهم واندرست آثارهم لعدم اعتيادهم للتأليف) ثم .... موافقتهم إياه على مقصوده مضى على متن همته العلية حتى حصل مقصوده كما أراد ، وكان من أمره أنه لما أيس من مساعدة أهل وطنه له على مرامه رحل عنهم إلى البلاد التي فيها أهل العلم مثل تنبكت وإروان وغيرهما من بلاد العلماء الصحراويين فلقي كبار المشائخ وأخذ عنهم ما يحتاج إليه من وصل الاسانيد وأخذ عنهم كثيراً من العلوم ومنهم من أخذ عنهم الروايات والاسانيد ونال في رحلة تلك ما شاء الله من التبجيل والاحترام وجلب فيها كثيراً من الكتب التي لم تكن في بلاده من الحديث والفقه والقراءات وسائر الفنون وعوضه الله من الغربة وأنواع الأذى التي قاسها حين انتدب لنصرة السنة والحديث ومن المشاق التي ارتكبها في الاسفار وما اقتحم من الاهوال والاخطار ومن التجول بين المفاوز والقفار أن صيره إماماً من ائمة المتقين ومجدد الكثير من أمور الدين حتى كأن اهل بلده لم يكن فيهم مرشد في أيامه إلا إياه من شدة اعتماد الناس عليه في أمور دينهم واعتماد من بعده على علوم أولاده وأهل بيته ولولا ما صرح به في الرسالة من كثرة علماء السوقيين في وقته وقبله لقطع الواقف على الآثار السلفية المعتمدة على علمه والمستمدة من خطوطه أنه أول من نشر لواء العلم في قطره وإن لم يكن كذلك فهو نادرة عصره وقد صرح بعض الفضلاء من أواخر القرن الثالث عشر

وأوائل الذي بعده وهو الثقة ابن الثقة ابن الثقات شعيب بن محمد من أهل تَبُورَقْ وكان شديد الإعتناء بضبط الماضين وحفظ أحوالهم بأنه من المجددين والمؤسسين لبناء الديانات في بلده فقد روى أنه قال : لبعض أصحابه خذ عني أنه ما وصل إلى هذه البلاد شيء ما من العلم إلا بواسطة أهل أمَسْرَكَضْ يعني أهل بيت أحمد بن الشيخ ، ويروى عنه أيضا أنه أقر ببلوغ هذا الشيخ وأهل بيته مرتبة الاجتهاد ، وأظنه إنما يعني الاجتهاد المذهبي لما عندهم من قوة الاستعداد أو الاجتهاد في جزئية معينة لا الاجتهاد المطلق المختلف في انقراضه وبقائه كما أظن مراده بقوله ما وصل شيء من العلم إلى هذا البلاد إلى بواسطتهم أنه إنما عني كبار العلوم وصعابها وإسناداتها وإلا فالمعلوم من خبر السوقيين أنهم ما زالوا متعلمين وفيهم كبار العلماء قبل زمن الشيخ المذكور ، ولا أظن الشيخ شعيبا يخفى عليه ذلك لكنه لا يعتبره بالنسبة لما أفاض الله على هذا الشيخ وأهل بيته بعده ومما يفهم من كلام الشيخ أحمد في رسالته المذكورة من الدروس التاريخية أن أهل السوق لم يكونوا راحلين في طلب العلم في الأزمان التي قبل زمن الشيخ أحمد بل كل منهم يكتفي بما أخذ عن أسلافه عن أسلافهم وأسلاف أسلافهم ولذلك لم يتأثروا بآثار معاصريهم من علماء المشرق والمغرب ولم يخالطوهم ولم يسيروا بسيرتهم في التعاليم والتصانيف بل انقطعوا عن العمران في صحراء جافة لا تهتم بها رفاق العلماء والتجار ولا يجد أهلها سبيلا إلى المواصلات بعد القرون الأولى لكثرة الإغارات والمحاربات فيها وفيما حولها ، وحيل بين أهلها وبين السفر إلى أية جهة حتى إلى الحرمين الشريفين فلما كان أمر أهلها على ما ذكرنا تمسكوا بما يأخذون عن أشياخ بلدهم واستغنوا بما يروون عما يروّون فلم يشتغلوا بالتدوين والتصنيف لبعدهم عن بلاد العلماء الذين يصنفون ، ولكثرة الحروب في صحرائهم وكثرة نهب المحاربين للكتب فلما أراد الله إنقاذ أهل وطننا من كثير من المهالك والفتن والواقعة فيه من آخر القرن العاشر الهجري إلى آخر الذي بعده قيض لأهله أميرا يردع كثيرا من الظلمة ويدافع عن الوطن وأيده بجماعة من أهل النجدة وجماعة من العلماء منهم هذا الشيخ وأضرابه فتمكنوا من مواصلات كانت محظورة عليهم قبل ، واجتمعوا بالعلماء في قرية تنبكتُ ورأوهم يؤلفون في النوازل فحكوهم في ذلك فكان أهل القرن الثاني عشر ومن بعدهم من السوقيين ينظمون وينثرون ، وكان من قبلهم لا يعملون مثل عملهم لما ذكر من انقطاعهم عن العمران وانقطاع الأخبار والموصلات عنهم في القرون السابقة هذا ولما

تعلقت همة الشيخ أحمد بن الشيخ بركوب الأخطار في طلب الرواية ووصل الأسانيد انتصارا للنبي صلى الله عليه وسلم وسنته جذبته العناية الربانية إلى شيخ من شيوخ تنبكتُ كان له سند متصل في كتب الحديث خاصة فأجازه بمروياته وهو محمد بن محمد بغيغ بن محمد كورد وسيأتي سند إجازاته له ، ثم جذبته إلى الشيخ سيد محمد بن المختار الكنتي (1) فأجازه بما قرأه على شيخه إبراهيم الملاّ يخافيّ وأجازه فيه وغيره من كل ما صحت له روايته عن أشياخه كلهم إجازة مطلقة وأن يحدث عنه ما شاء ويجيز من شاء بالشرط المعتبر وأعطاه ثبت إجازته في سائر الكتب التي أجازه إياها من سائر الفنون من الحديث والفقه والنحو وغيرها ، وستأتي نسخة ذلك الثبت في ترجمة تلميذه وابن بنته محمد بن محمد أحمد لأنها إنما وجتها بخط ذلك التلميذ . ولما رجع إلى قومه بمغنمه الجليل من وصل الأسانيد بادر كل من لم يعمه الحسد من متعلمي بلده إلى أخذها عنه كما أخذها هو عن أشياخه مع اقتصار من رأيت إجازتهم على وصل أسانيد كتب الحديث ، وكثير منهم يقتصر على إجازة صحيح البخاري وكتاب الشفا للقاضي عياض لعدم وجود غيرهما عنده ولأن قراءة هذين الكتابين في المساجد صارت من عادة أهل البلد فكانوا يختمون صحيح البخاري في شهري رجب وشعبان ويختمون كتاب الشفا للقاضي عياض في رمضان يعتادون ذلك كل سنة ويستغني به أكثرهم عن قراءة ما سوى هذين الكتابين من كتب الحديث .

---

(1) 1) لا يذهب الوهم إلى أن سيدي محمد هذا هو ابن الشيخ الكبير مؤلف الطرائف والتلائد فإن والده وشيخه الشيخ المختار الكبير من تلاميذة أحمد بن الشيخ في الرواية وبينهما واستطان ، والشيخ أحمد في القرن الثاني عشر والشيخ المختار والد صاحب الطرائف عاش في أخره ومات في الذي بعده . إهـ وأما كتب النحو والفقه فلم أر من يعتني من المتقدمين بأسانيدها ولا من عنده نسخة منها إلا قليلا من أهل بيت الشيخ الذي أتي بها ، وجرى ذلك الإهمال في تلك العصور وفيما بعدها بحسب ما اطلعت عليه من الإجازات القديمة والحديثة المقصورة على كتب الحديث ومع ذلك يعتني بعضهم بضبط ألفاظ شيخه الذي يترجم له الكتاب الذي يقرؤه بلغتهم التارقية ويشدد على نفسه في ذلك الضبط بحيث لا يجوّز النطق بلفظ مارادف للفظ الذي لفظ به شيخه ويعتقدون في ذلك الصنيع أنه هو الرواية المعتبرة التي يعتني بها الأشياخ ، ومن العجب أنهم لا يسألون عن أشياخ أشياخهم المترجمين لهم فضلا عما ورآهم من

الأشياخ إلى أن ينتهي السند إلى مؤلف الكتاب الذي يقرؤنه كما هو حقيقة الرواية ، ولكن يشددون على أنفسهم في ضبط اللفظ الذي لا بأس بذكر مرادفه بدله وأظن منشأ ذلك أن أهل أمَسَرَكَضْ لما وصلوا الأسانيد التي لا توصل في بلادهم قبلهم توسعوا في أمر الأسانيد وأحدثوا فيها طريقا لهم من ضبط ألفاظ الشيخ بعينها وضموا ذلك إلى ما معهم من الأسانيد فكان ذلك الضبط كمالا في حق التلميذ وحكاية لما عليه السلف المحدثين من الاعتناء بألفاظ الرواية ، ثم انقلب الأمر في العصور الأخيرة وصار الناس يهملون الأسانيد التي لا بد من ضبطها ويتمسكون بما زيد عليها من ضبط ألفاظ المترجم بعينها وليس فيما يعتنون به شيء من غرض الرواية الذي هو الاتصال بالمؤلفين ، ثم بأشياخهم ثم بالسلف الصالح ثم برسول الله صلى الله عليه وسلم على الطريق الذي يسلكه العلماء من مبدأ الإسناد والرواية إلى يومنا هذا .

والحاصل : أن الشيخ أحمد بن الشيخ وأولاده وأهل بيته هم الذين يجيزون سائر علماء بلدهم بالرواية المشهورة عندهم التي سيأتي لفظها وألفاظ المجيزين بها في تراجمهم الآتية ، وليس له أثر علمي أبقى منها في البلاد القريبة من بلده . ومن آثاره العلمية رسالة له يرد بها على بعض علماء دنك ، وتلك الرسالة إنما رأيتها بخط الشيخ محمد بن حبّ بن محمد أحمد من أهل تَبُورَقْ وكان يختصرها ولم أر الأصل الذي نسخها منه ولفظ ما كتبه :

(بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العلمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وبعد : فيقول عبيد الله أحمد بن الشيخ وقع السؤال عما حدث وفشا من تخطئة بعض متعلمي ما وراء أزَوَغْ من يسمي مولانا جل وعز وعلا باسم " يَلَّ " بالياء والمفتوحة وللام المفتوحة المشددة بعض بتفخيم اللام وبعض بترقيقها ، والمخطئي متمسك في التخطئة بالوقوف على أن أسمائه تعالى توقيفية ولعله لم يفتش ولم يمعن النظر في المسألة حتى يعرف الخلاف فيها أولا ثم يعرف محله كما يدل عليه استمراره على التخطئة وقوله منذ سنين " إكَاكْ الله الخير ، إكْفِكْ الله الخير " (1) ونحو ذلك مما أدركه (2) متدولا بين جميع أهل اللغة البربرية تأثما ، ولو أمعن النظر وحرر النقل في المسألة لكف عن التخطئة المستلزمة لتخطئة جميع أهل اللغة البربرية وأليائها ، أولهم وآخرهم لأنه ائيَلّ بتفخيم اللام هو اسمه تعالى في لغتهم كما يدل عليه تواطئي صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم وعالمهم وجاهلهم ومن لهم منهم حظ في العربية بالتعلم ومن لا علم له بخلق اللغة العربية فكيف

بتعلمها ، وللغة كما في مطالع المسرات بشرح دلائل الخيرات أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ومقاصدهم وهذا يشمل كل لغة . إهـ فإذا تأمل المنصف ما ذركر وانطباق اللغة عليه عرف أن يلَّ اسم مولانا عز وجل بلغتنا أهل اللغة البربرية فلا يبقى إلا جلب النقول المزيلة لأشكال المسألة المبينة لصورتها ولمحل الخلاف فيها فيظهر بذلك أن المخطئي أجدر بالتخطئة ، فأقول والله المستعان : قال الأجهوري في شرحه لعقيدة أبي محمد بن أبي زيد

---

(1) 1) معنى إكَّاكْ فعل بك ، ومعنى إكْفِكْ أعطاك . إهـ

(2) 2) لعل الصواب ويجدها عما أدركه . إهـ تنبيهات الأول الأصح أن أسماؤه تعالى توقيفية فلا يطلق عليه إلا ما ورد به الكتاب والسنة المتواترة ، وأجمعت عليه الأمة كالباعث ، قال الشاذلي عند قوله الباعث الرسل ..إلخ ، الباعث اسم من أسماء الله تعالى من غير خلاف ثبت بالإجماع ، وقال : عند قوله كلم الله موسى قال الفحولي في شرح الأسماء الحسنى أجمع أهل السنة على أن الله تعالى يوصف بأنه متكلم وقد ورد فعله في القرآن وذلك يتخرج على الخلاف في تسميته بما لا يوهم نقصا ولم يرد فيه إذن . إهـ وهل يطلق عليه تعالى ما ورد آحادا ؟ مذهب الجمهور نعم محتجا بقوله تعالى { أتقولون على الله ما لا تعلمون } وخبر الآحاد لا يفيد العلم ، وأجيب بأن هذا من باب العمل وهو يكفي فيه خبر الآحاد قاله عج عند قوله المدبر . وقال الشاذلي في شرح العقيدة الألى من الرسالة قال المشدالي أن أسماء الله توقيفية فما ورد فيه الأذن أو المنع عمل به ، وما لا إذن فيه ولا منع فإن لم يوهم اللفظ فسادا نمنع ما يوهم بالأولى ، وإن لم نمنع ففي إطلاقه ما يوهم الفساد خلاف . إهـ قلت ظاهر كلام غيره منع إطلاق ما يوهم الفساد اتفاقا ، قال : في المقاصد محل النزاع ما اتصف الباري سبحانه بمعناه ولم يرد إذن فيه ولا منع منه ولا ما يبين المراد به وكان مشعرا بالجلال من غير وهم إخلال . إهـ ومر مؤلف الرسالة إلى أن قال : وقد اتفق العلماء على أن الله تعالى لا يسمى إلا بما سمى به نفسه وسماه به رسوله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وانعقد عليه الإجماع ، ثم اختلفوا هل من شرط الاسم أن يكون مصرحا به لا غير أو لا فرق بين المصرح به أو مشتق من فعله للاتفاق على أن كل فعل لا بد له من فاعل إما ظاهر وإما مضمر وإما مقدر وهو الصحيح عند أهل النظر ما لم يمنع مانع من الاشتقاق بأدائه إلى صفة مستحيلة على الله تعالى نحو ماكر من يمكر ، ولاعن من يلعن

وناس من نسيهم ، وما جاء من ذلك في مقابلة أو مجازاة . انتهى وقال السيوطي في الكوكب الساطع نظم جمع الجوامع :
ثالثها الاسم فقط دون الصفه ... أسماؤه سبحانه موقوفه
والفعل والمظنون في المعتبر ... ويكتفي بمرة والمصدر
وقال : في شرحه الصحيح وهو مذهب الأشعري توقيفية فلا يجوز أن يطلق عليه شيء من الأسماء والصفات إلا أن ورد به نص من كتاب أو سنة ، وقال القاضي والمعتزلة يجوز أن يطلق عليه الأسماء اللائق به معناها وإن لم يرد به الشرع ما لم يوهم نقصا ، واختار الغزالي الفرق بين الاسم والصفة فشرط التوقيف في الاسم دونها ، وعلى الأول هل يكتفي بالاطلاق مرة أو لا بد من التكرار والكثرة فيه رأيان حكيا بلا ترجيح ، وقد صححت الأول لأنه الظاهر من صنيع العلماء ، وهل يكتفي فيه بخبر الواحد ؟ الظاهر هو كسائر الأحكام أو يشترط وروده بلفظ الوصف ، أو يكتفي ورود الفعل والمصدر ، قال البلقيني ظاهر كلام الشافعي في الرسالة ... فإنه قال : في خطبتها الجاعلنا من خير أمة . إهـ وقال النجاري في حاشيته على شرح جمع الجوامع لجلال المحلي قد نبه السيد قدس الله سره في شرح المواقف على أنه قيس الكلام في أسمائه تعالى على الأعلام الموضوعة في اللغات إنما النزاع في الأسماء المأخوذة من الصفات والأفعال . إهـ ونحوه للشيخ يس في حاشيته على شرح أم البراهين للشيخ السنوسي وقال الشيخ زروق في شرح أسماء الله الحسنى ، الثانية : أي من المسائل أن الأسماء توقيفية فلا تثبت إلا بنص أو إجماع على الصحيح ، وأثبتها قوم بالاشتقاق من الأفعال والصفات أو ما جاء من الصنيع في الدعوات وغيرها وهو مرجوح عند العلماء ملحوظ عند الصوفية وعليه جرى الشيخ البوني وانتهى في تقسيمها إلى مائة ونيف وخمسين والله أعلم .إهـ)
وقد كتب الشيخ محمد حب بن محمد أحمد في الأصل المنسوخ منه هكذا قلت وكتب ناسخها ما نصه : انتهى ومن خط مؤلفه نسخه رحم الله السلف وبارك في الخلف آمين . ومن آثاره على ما يقال أبيات أجاب بها بعض العلماء الفلانيين عن أبيات أرسل بها إلى علماء السوقيين ملغزا في أل الموصولية ونص أبيات الفلاني :
مهتدين وهم ثقات نجاب ... إنني سائل فحول الزمان الـ
ـف مالكها وذاك صواب ... وأقول لهم فما أمة تخـ
ليصل منكم إلينا جواب ... وهي وارثة له دون أخت
ونص جواب الشيخ السوقي هكذا :

فاسمعوا وليقل منكم عتاب ... سنجيبكم بحق جلي حكمها ولها عليها مناب ... إنها صلة تعاقب " أل " في دون من إختها ، فذلك الجوب ... أحرزت حركات إعرابها من وهذه الأبيات كنت أحفظها وأنا صغير يعايي بها ولم أدر الملغز والمجيب ، ثم رأيت في خط شيخي وابن عمي حمد بن محمد بن حدي أن الشيخ متّال بن الأمين حدثه أن أبيات اللغز لعثمان بن فودي مؤسس الدولة الإسلامية في سَكَتُو وأن أبيات الجواب لأحمد بن الشيخ وكنت حينئذ جاهلا بأخبار سكتو وولاتها ثم وقفت على كتاب إنفاق المسير في تاريخ التكرور للشيخ الإمام محمد بلو بن عثمان الذي كان عونا لأبيه في التأسيس وأرخ نهضتهم الجهادية التي هي الحجر الأول من تأسيسهم (بعام شريج) يعني بألف ومائتين وثلاثة عشر عاما من الهجرة فعلمت أنه لم يدر الشيخ أحمد حتى يجاريه في شيء ، ولكن عثمان المؤسس للدولة الإسلامية ليس هو ابن فودي مباشرة بل هو عثمان بن محمد بن عثمان بن فودي وبيتهم فيما قيل بيت علم قديما ، فلعل عثمان بن فودي جد عثمان المؤسس هو الذي جرت القصة بينه وبين أحمد بن الشيخ لأنه الذي يحتمل أن يعاصره أو جرت بين عثمان المؤسس وبين بعض آل بيت الشيخ أحمد فطال الزمان وخلطت الرواة فنسبوا القصة إلى العلمين الشهيرين ، والتاريخ يقضي بأن هذاين الشيخين لم يجري بينهم شيء لأن السوقي مات في أوائل القرن الثاني عشر والفلاني عاش في أواخره وأوائل الذي بعده . وتحكى له كرامات أجلها أنه لما وضع على شفريه قبره سمع الناس هاتفا من القبر يقول مقبول أحمد بن الشيخ ، ومن كرامته ما وقع له مع بعض علماء تنبكتُ وذلك أن الشيخ التنبكتي كان حسن الاعتقاد في الشيخ أحمد ولكنه ممن يقول بتحريم شرب دخان تبغ ، والشيخ أحمد يشربه فلا يحمله تحريم شرب الدخان على عدم تعظيمه والتبرك به ولا يحمله تعظيمه على إباحة شرب الدخان فلقيه في بعض المرات بالتبجيل والاحترام فلما أراد أن يفترقا سأله التنبكتي أن يؤثره بعمامته التي على رأسه تبركا فآثر الشيخ أحمد بها فلما وضعها على رأسه وجد رائحة دخان تبغ راسخة فيها فكأنه استنكر تلك الرائحة ولكن أمسكها مع ذلك فلما نام رأى النبي صلى الله عليه وسلم في مقامه وهو يقول له ادن مني ادن مني رائحة عمامك الطيبه فلما انتبه الرائي رجع عن قوله وتاب من مخالفة الشيخ وزاده توقيرا واحتراما . وأما سند الإجازات التي أخذها عن محمد بن محمد بغيغ بن محمد كودر عن أبيه عن جده فهو أن هذا الشيخ التنبكتي أجازه بصحيحي البخاري

ومسلم ومطأ الإمام مالك وكتاب الشفا للقاضي عياض ، وقال أحمد في ثبت إجازاته عن هذا الشيخ ما نصه :
(أما كتاب البخاري فقال : فيه أخبرني محمد بن محمد بغيغ بن محمد كودر بجميع صحيح البخاري إجازة وقراءة مني عليه من أوله إلى آخر بدء الوحي وأو كتاب الإيمان ، ومن هناك إلى آخر الكتاب إجازة مقرونة بالمناولة قائلا كما أخبرني به سيدي والدي الفقيه محمد بغيغ بجميعه قراءة مني عليه وسماعا منه بلفظه غير مرة . كما أخبرني بذلك شيخه ووالده الفقيه الإمام محمد كورد رحمه الله قائلا أجازني بذلك شيخنا الإمام القاضي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن الحاج لطف الله بهم آمين قائلا أجزت له أن يرويه عني بحق روايتي عن شيخنا الفقيه محمد صالح بن عبد الرحمن بن أبي بكر قراءة ، قال : أخبرني به شيخنا أبو العباس أحمد بن الفقيه الأمين بن أبي بكر سماعا عن والده الفقيه الأمين المذكور قال : أخبرني به شيخنا الإمام العلامة جلال الدين عبد الرحمن بن الشيخ كمال الدين السيوطي الشافعي إجازة ، قال : أخبرني بجميع صحيح البخاري الشيخان المسندان جلال الدين عبد الرحمن بن أحمد القمصي ومحب الدين محمد بن الحسين علي الحلبي بقراءتي على الأول من أوله إلى كتاب البيوع ، وعلى الثاني من كتاب البيوع إلى أخر الصحيح ، قال : أخبرنا به أبو الحسن بن أبي المجد الدمشقي قال : أخبرتنا به وزيرة بنت أسعد التنوخي قالت أخبرنا أبو عبد الله الزبيدي ، قال : أخبرنا به أبو الحسن الداودي ، قال : أخبرنا به أبو محمد السرخسي ، قال : أخبرنا به أبو عبد الله الفربري ، قال : حدثنا البخاري .
وأخبرني به أيضا شيخنا والدي محمد بغيغ بن محمد كورد المذكور قراءة عن شيخه أبي عبد الله محمد كورد المذكور عن شيخه أبي عبد الله محمد أحمد بن عبد الرحمن المذكور إجازة عن شيخه محمد صالح بن عبد الرحمن المذكور إجازة عن شيخه أبي العباس الفقيه أحمد المذكور عن الفقيه محمد بن صالح عن الطاهر بن زيان المغربي عن عبد الحق السنباطي نعن الإمام ابن حجر عن الحموي عن الحجاري عن الزبيدي عن الداودي عن السرخسي عن الفربري عن الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن بردزبه البخاري الجعفي رضي الله عنه وأرضاه . إنتهى
وأما صحيح مسلم فقال : فيه أخبرني به شيخنا محمد بن محمد بغيغ ، قال : كما أخبرني به شيخنا ووالدي محمد بغيغ قائلا : أخبره بذلك سيده ووالده الإمام محمد كورد ، قائلا : أخبره بذلك شيخاه أبو عبد الله محمد

، وأبو العباس أحمد أبنا إنْدَغْ محمد بن أحمد بن أحمد إجازة ، ومناولة ، قائلا : الأول أخبرني بالمسند الصحيح-تأليف الإمام الحافظ مسلم بن الحجاج النيسابوري إجازة لجميعه شيخنا السيد الأجل بركات بن محمد بن عبد الرحمن الحطاب المكي المالكي بمنزله بمكة المشرفة في ذي الحجة سنة إحدى وثمانين وتسع مائة قال : أخبرنا به العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن الخاوي إجازة إن لم يكن سماعا قال : أخبرني به المسند الرُّحلة عبد الرحيم بن محمد بن الفرات القاهري ، قال : أخبرنا به أبو عبد الله البياني قال : أخبرنا به الشهاب بن عساكر قال : أخبرني به فقيه الحرمين أبو عبد الله محمد بن الفضل الفُراوي سماعا قال : أخبرنا عبد الغافر الفارسي قال : أخبرنا به أبو أحمد محمد بن عيسى الجلودي بضم الجيم سماعا قال : أخبرنا به أبو إسحاق إبراهيم ين محمد ين سفيان الفقيه النيسابوري سماعا قال : حدثنا به مؤلفه الحافظ مسلم بن الحجاج النيسابوري .وأما الموطأ فقال : فيه أخبرني به محمد بن محمد بغيغ بن محمد كورد قائلا : أخبره بذلك أخوه شقيقه أحمد بن محمد بغيغ بن الإمام محمد كورد قائلا : أخبرني به سيدي ووالدي محمد بغيغ بن محمد كورد قائلا : أخبره بذلك أشياخه الثلاثة سيده وأبوه الإمام محمد كورد وشيخه محمد بن أحمد بن محمود بغيغ وشيخه الإمام القاضي محمد بن محمد كُرَيْ والسند له قائلا : أخبرني بذلك سيدي عمي أبو العباس أحمد القاضي بن إنْدَغْ محمد رحمه الله تعالى قائلا : أخبرني به إجازة سيدي القاضي أبو حفص عمر بن الفقيه محمود التنبكتي قال : أحبرني به الأخ في الله الفقيه إنْدَغْ محمد بن الفقيه الأثري محمد بن أحمد التازختي قال : أخبرني به إجازة شيخنا الفقيه شرف الدين أبو محمد عبد الحق بن محمد بن عبد الحق السنباطي قال : أخبرني به أبو الحسن علي بن الفخر بن عثمان بن محمد البارنباري قال : أخبرنا شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي قال : أخبرنا أبو عبد الله أحمد بن محمد ابن عبد الله الخولاني إذنا ، قال : أخبرنا الفقيه أبو الوليد يونس بن عبد الله بن مغيث الصفار أخبرنا أبو عمر عثمان بن أحمد بن محمد بن يوسف اللخمي المعافري عرف بالقسطيلي أخبرنا أبو عيسى يحي بن عبيد الله بن يحي الليثي قال : أخبرنا به الإمام الحجة أبو عبد الله نجم السنن مالك بن أنس الأصبحي رضي الله وأرضاه آمين .وأما كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى : فقال فيه أخبرني به محمد بن محمد بغيغ بن محمد كورد قراءة عليه للجزء الأول وإجازة لباقيه إجازة مقرونة بالمناولة قائلا : كما أخبرنا به شيخنا ووالدنا الفقيه الإمام الأثري أبو عبد الله خاتمة

حفاظ المدرسين ، وبقية زهاء المتورعين شيخنا وشيخ أمثالنا محمد بغيغ لطف الله به وجعل الجنة منزله ومثواه مع أمهاتنا قراءة مني لجميعه وسماعا منه غير مرة مع سرد وتفسير لكماله بحضرة عدة مجالس آخرها عصر يوم الأحد السابع والعشرين من جمادي الآخر عام تسعة وسبعين وألف ، قائلا : كما أخبرني به شيخنا ووالدنا الفقيه الفهام المحدث الأصولي النحوي العروضي جدنا وشيخ شيوخنا أبو عبد الله محمد كورد بن القاضي محمد ساجْ قائلا : أخبرني به شيخنا الإمام الهمام أبو عبد الله الفقيه القاضي محمد بن أحمد بن الفقيه القاضي عبد الرحمن بن أبي بكر بن الحاج لطف الله بهم وجعل الجنة منزلهم ومثواهم مع أسلافنا وأشياخنا آمين قراءة مني عليه وإجازة مقرونة بالمناولة قائلا : أخبرني به إجازة ومناولة سيدي الفقيه محمد سلَ بن الفقيه أحمد بن إبراهيم ابن أبي بكر بن الحاج قائلا : أخبرني به إجازة سيدي الفقيه النبيه التقي يحي بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن الخطاب عن شيخه شيخ الإسلام العلامة بركات بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن الخطاب قائلا : أخبرني به سيدي الوالد قراءة لجميعه قال : أخبرني به محمد بن ناصر الدين المراغي قال : أخبرني به والدي أبو بكر بن الحسن المراغي قال : أخبرني به أحمد بن أبي طالب الحجار عن أبي الفضل جعفر بن علي الهمداني قال : أخبرني به الحافظ أبو طاهر السلفي قال : أخبرني به مؤلفه الإمام أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي رحمه الله تعالى ورحمهم وأعاد علينا من بركاتهم وبركات علومهم آمين .

وأما كتاب الخصائص والمعجزات الكبرى والصغرى للإمام الحافظ السيوطي فقال : فيه أخبرني به محمد بن محمد بغيغ قائلا : أخبرني به شيخنا ووالدنا محمد بغيغ قراءة مني عليه وسماعا منه غير مرة قائلا : كما أخبره به شيخه ووالده الفقيه الإمام محمد كورد قراءة وسماعا غير مرة كما : أخبره به سيده الفقيه العلامة أحمد بابا قائلا : أخبرني سيدي عمي محمد العاقب بن الفقيه محمود التنبكتي قائلا : أخبرني به سيدي شمس الدين اللقاني قائلا : أخبرني به ناصر الدين اللقاني قائلا : أخبرني به شيخنا العلامة المؤلف عبد الرحمن السيوطي كان الله لنواله آمين) .

وأما الشيخ سيدي محمد المختار الكنتي فوصل له أسانيد نيف وعشرين كتابا منها الخمسة المذكورة في أسانيد محمد بن محمد بغيغ ، ومنها سنن أبي داوود ، ومنها سنن الترمذي ومنها سنن ابن ماجة ، ومنها سنن النسائي الصغرى والكبرى ، ومنها في فن النحو يقدمه ابن آجروم وألفية

ابن مالك ، وفي فن الأصول كتاب جمع الجوامع لابن السبكي ، وفي علم الفقه مختصر خليل ورسالة ابن أبي زيد ، ومنظومة ابن عاشر ، ومختصر ابن عرفة ، وفي علم القراءات تأليف الخراز ومنظومة ابن بري ، وفي علم السير كتاب الشمائل . وستأتي أسانيد الجميع في ترجمة محمد بن محمد أحمد الذي رأيتها بخطه .

وهذه الرحلة التي وصل فيها الأسانيد بواسطة العلماء التنبكتيين وأخذ فيها عن العلماء وأخذوا عنه لم أسمع ممن أدركتهم من سلفنا أنه رحل غيرها ولكن وقفت في تفتيشي للمكاتب القديمة على قرطاس بال مكسور الأطراف مكتوب فيه حاصله أن مرسل الكتاب يفيد المرسل إليه أن أهله على غير ويطلب منه الدعاء في مواطن الإجابة ومواقف الحج وإبلاغ تسليمه على النبي صلى الله عليه وسلم ولا أدري أحصلت تلك الحجة أم لا ولفظ الرسالة هكذا :(بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله ، الحمد لله وحده ، الصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وبعد : فمن صاحب الخط أحمد بن ونكلّ إلى شيخه وأخيه وحبيبه أحمد بن الشيخ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فإن سألت عن عيالك وأهلك وجيرانك ما خصك وما لم يخصك فعلى خير والحمد لله ، وأما مرادي منك فهو ما علمته من الشركة في صالح الدعاء فإذا وقفت على عرفة عشية عرفة فلا تنسنا من الدعاء وكذا في مواسم الحج وكل موضع يستجاب فيه الدعاء وعند الملتزم فإذا تم حجك وزرت الروضة وسلمت على صاحبها عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام فسلم لي عليه بعد سلامك عليه كما سلمت عليه ، ومرادي عندك أيضا أن تجعل هذا الكتاب في كتابك الذي لا تفارقه كيلا تنساني ، والسلام اعلم أن صاحب الخط جاء من جهة عيالك قبيل مجيء حامل الكتاب وبعده غيره فسألته عن حالهم فقال : لي كما تحب وترضى وكل من جاءنا من جهات السوقيين فلا يذكر لنا إلا العافية والحمد لله .إهـ) .

6 ـــ ترجمة جد جدودنا محمد أحمد المعروف باسم هَمّهَمَّ :

نسبه : هو ابن أحمادُ بن أحمادُ الكبير بن محمد المعروف باسم أنْك بن أبي بكر بن أدّ بن الغزالي ، يلتقي مع الشيخ أحمد بن الشيخ في الجد الأدنى وهو أحمادُ الكبير

وهو من العلماء النحارير ، والسادة المشاهير ، ولم يشتغل بالتصانيف ، ولم يصل إلي من خير علمه إلا حكايات شفويه ينقلها الأخلاف عن

الأسلاف من يومه إلى يومنا ، وكتب ابن عمي وشيخي حمدَ بن محمد بن حدي وهو سابق عليّ في السن أدرك من لم أدركهم من الأسلاف وأخذ عنهم من الروايات كثيرا فاتني أخذه عنهم ، وكتب عنه ما لفظه :(وقد وصل إلينا من خبره ما يفيد أنه عالم قيم بالمصالح إلا أن أحمد بن الشيخ كان أشهر منه في العلم رياسه ، ومحمد أكثر منه سياسة . إهـ واتفقت كلمة من أدركناهم على أن له كتبا كثيرة ولكن لم يترك منها ولم يبق بيد ورثته إلا ثلاثة من الكتب وهي تفسير الجلالين ، وكتاب الشفا للقاضي عياض والتصريح لخالد الأزهري على ألفية بن مالك ، والثلاثة مكتوبة بخط أبيه أحماد بن أحماد وهي أعز عليه ولذلك جمعها في مخلاة لا يفراقها حضر ولا سفرا ، ولا في خوفه ولا أمن ، وما سوى الثلاثة من كتبه خاف عليه من إغارة بعض المحاربين في بعض الوقائع والفتن الملازمة لوطنهم فنقلها إلى كهف من كهوف أَمَسْكَرَضْ وحجب عليها ودعا الله أن لا يطلع عليها أحد أيا كان وأدركته المنية قبل استخراجها من الكهف فلما انجلى العدو طلب الناس الكتب فعمي عنها كل راء فعظمت الرزية من فقد الكتب على أهله فوق رزيتهم بموته هو لأن تلك الكتب مشتملة على مهمات العلوم وكان الناس يعتمدون عليها فاستعملوا كل حيلة للوقوف عليها وعز الاطلاع عليها إلا أن بعض الرعاة وقف عليها فرجع إلى أهلها مبشرا لهم فصحبه الناس ليوقفهم عليها فلما دنا من موضعها التبس عليه الأمر حتى كان سقي الخمر فلما رأى الناس ما أصاب الراعي علموا أنه ما أتى إلا من قبل دعاء الشيخ أن لا يطلع أحد على الكتب فعزم ابنه أحمد المعروف باسم عَامّ وكان من المهرة في علم الأوفاق والأسرار على أن يعمل شيئا يقف به على مكمن الكتب فصلى ركعتي الاستخارة ودعا بما شاء الله ثم نام فرأى والده في النوم وقال : له يا أحمد لا تبطل عملي ـــ يعني الذي عمله حين ستر الكتب ـــ فلما انتبه من النوم عاد على نفسه باللوم ، وحل نطاق الحزم ، وتلكأ بعد الجزم ثم لم يزل الناس يتلهفون على فقدان تلك المكتبة ويعتقدون أن فيها مفتاح كل مقفل من العلوم .إهـ ومن خبره الدال على سيادته ما جرى بينه وبين إخوانه يوم انفصالهم عن المجمع السوقي وابتدائهم للاستقلال بأمورهم الداخلية سواء كانت دينية أو دنيوية ، وسأحدث أولا عن المجمع السوقي الذي انفصلوا عنه ثم عما كان من المنفصلين بعد انفصالهم : أما المجمع السوقي الشهير فأصله على ما يقال أن محمد البشير بن أَمَّدْ لما تولى منصب قاضي القضاة في أيام السلطان كَردنّ بن أشود جمع من تفرقوا في الصحاري القريبة من موضع السلطان من أحياء السوقيين

وأنزلهم على بئر يقال له أغَارُسْ إنْتِنْتَلْقُونْ وجمعهم علـــى رســم إقامــة شعائر الدين وبنى لهم مسجدا جامعا يصلون فيه ووظف لهم وظائف من العبادات يقومون بها ورتب منهم سعاة على صدقات أموال أهل بلـــدهم وولاة على تفريقها على مستحقيها وقضاة متفرقين في النواحي يتولى كل منهم فصل الخصام بين من يليه من الناس وكانت عادة قاضي القضاة في تلك السنين أنه كلما انقضى أبان نزول الأمطار جمع وجوه القبائل القريبة منه ورؤوس علمائهم ونهض بهم وطافوا في المساجد القاصـــية مـــنهم يمتحنون علوم أهلها وأديانهم ويفتشون عن كل ما خالف القانون الـــسلفي من أعمالهم وما خالف مشهور مذهب مالك من فتاويهم ويشددون علـــى من خالف المشهور ويعزلون من شاءوا ويولون من يرونه أهلا للولايـــة الشرعية ولا يزالون كذلك يطوفون في الأحياء والقبائل يأمرون وينهون ويغيرون ما يرون المصلحة في تغيره ومكثوا على تلك الحالـــة دهـــرا طويلا ويسمون سفرتهم تلك سفرة القضاء لأن مبناهـــا التفتـــيش علـــى القضاة ، وربما مكثوا فيها شهورا وألف الناس تطويل القضاة المفتـــشين للغيبة عن أهليهم حتى صار اسم بسفرة القضاء لقبا على السفر الطويل ، ولم يزل المجمع السوقي على ما بلغنا يطلب أهله إقامة مراسم الـــشريعة وتجديد ما عفا منها في وطنهم في العصور السابقة وتسنى لهـــم بعـــض مرامهم وعجزوا عن البعض وكانت آثار الجهود التي بذلوها مـــن ذلـــك الوقـــــــت هـــــــي الباقيـــــــة إلـــــــى الآن .

وأما انفصال أسلاف أهل تَكَلْتْ عن المجمع المذكور فتروى في ســـببه روايتان : الأولى : أن جدنا المترجم محمد أحمد المعروف باسم هَمَّهَـمّ كان له جار يحتمي بحماه وهو جد مَلُّو فآذى بعض الناس ذلـــك الجـــار إذاية عزه الصبر عنها فشكا محمد أحمد إذاية جاره إلى الأمير والقاضي فلم يقوما بحقه كما يعجبه فغضب من إخفار ذمته ومن عدم قيـــام أهـــل القوة بحقه وحق جاره فحلف لا يقيم بهذا المجمع فشق ذلك على جميـــع الناس لجلالته عنده فلما أصحابه أنه لا يرى أن يخث نفسه قـــام محمـــد الإمام بن محمد أحمد ، ومحمد بن ونكلّ وتبعاه إلى حيث سار وســـاروا إلى محل بينه وبين محل المجمع مسيرة يوم للراكب المجد وذلك المحـــل هو المسمى أمَسْرْكَضْ وبنوا فيه حائطا للمسجد واتخذوه مسكنا يقيمـــون فيه أوقات الإقامة ويرتحلون عنه في أيام الانتجاع ويجولون فيمـــا بينـــه وبين إكَرِرْ إلى أن يقضي أبان الأمطار فيرجعون إليه وأقاموا على ذلـــك إلى أن توفى هذا الشيخ وابن عمه أحمد بن الشيخ ودفنا في مقبرة هنـــاك ثم بقي أولادهم وأولاد إخوانهم ومن تبعهم من الجيران في ذلك الموضع

حائزين له مدة من السنين ثم انتقلوا إلى منزل تَكَلْتْ فأقاموا فيه وانتسبوا إليه وبقي الانتساب إليه في إعقابهم إلى الآن . الرواية الثانية : أنه أراد الخروج إلى الحرمين ومزايلة أوطانه فلم يلتفت إلى شيء ولم يستمع إلى عاذل وحاول الناس أن يصدوه عن عزمه فأبى إلا إنفاذ مراده فسمع بذلك الشريف أُوَّ جد أشَرفنْ الذين بتأمرون في وادي إنْشَوَكْ قريبا من قرية كاوَ فأرسل إليه أني ذاهب معك وأريد أن تنتظرني يسيرا حتى أفرغ من الاستعداد فانتظره في أمسْرَكَضْ حتى لحقه فلما التقيا قال : له الشريف أُوَّ إني لا يؤنسني غيرك فإذا ذهبت ذهبت وإذا ذهبنا معا ضاع الناس الذين لا قوام لهم من جهة الدين إلا أنت ولا من جهة الدنيا إلا أنا ولا أظنك تجد خيرا دينيا ولا دنويا أفضل من نشرك لما علمت بين الناس فالرأي السديد أن نجتمع ونتعاون على إقامة الدين ورعاية مصالح المسلمين على قدر طاقتنا تقوم بوظائف العلماء وأقوم بوظائف الأغنياء وأقوم بمؤن المتعلمين وتنشر العلم فرضي قوله وعقدا عقدهما المبارك ونفع الله المسلمين بهما وبعقبهما إلى الآن .وهناك رواية : بأن السديدين الجليلين وهما أحمد بن الشيخ وابن عمه محمد أحمد لما علما أنهما لا يتمكنان من إنفاذ مرادهما من حمل الناس على العمل بالكتاب والسنة إختارا الانعزال فخرجا فرارا من الفتن ثم استصوب أخواهما رأيهما فلحقا بهما فخرجوا كما خرج فتية الكهف المذكورون في القرآن إلا أن قومهم الذين خرجوا من بينهم لم يتخذوا من دون الله آلهة يعبدونها ولم يعبد غير الله في بلدهم منذ دخلوا في الإسلام إلى الآن ، وأما البدع والفتن فقلما يفارقونها فيما يقال ، فلما اعتزل هذا النفر مجمع إخوانهم ابتغاء مرضاة الله وآوا إلى كهف أمَسْرَكَضْ أوآهم الله ونشر لهم من رحمته وهيئ لهم من أمرهم رشدا وكان أول شيء بلغنا أنهم تكلموا فيه بعد انفصالهم عن المجمع أمر المسجد لأن العادة في قومهم أن المسجد لا يكون إلا عند بيت سيد الحي ومن علامة التسويد عندهم أن يؤذن عند بيت من يريدون تسويده فإذا اتخذوا المسجد حيال بيت أحدهم صار ذلك البيت منتداهم ومحل فصل خصوماتهم ومحل قسم الصدقات ومأوى الضيوف ومحل الوفود الكرام وللعظماء من سائر القبائل وصار رب المنزل الذي عنده المسجد هو القيم على جماعته والمدافع عنهم والمكافح لأرباب الرياسة والمنظم لأمورهم الدينية والدنوية في الداخل والخارج ولذلك لا تكون المساجد إلا عند من يرتضيهم أهل الحي للتسويد وكان أكثر الناس يتلكأون عن اتخاذ المساجد عند بيوتهم لما تستلزمه من المشاق ولما فيها من التصدي لأمور الرياسات التي ينفر عنها كثير من

الصلحاء فلما انفصلت الجماعة المنعزلة وحان وقت الصلاة أراد جدنا محمد أحمد بن أحماد أن يتخذ بيت أخيه محمد الإمام مسجدا لهم فأبى الإمام واتفق مع أخيه وابن عمه محمد بن ونْكِلّ على اتخاذ المسجد عند بيت محمد أحمد فأذن محمد بن ونكل عنده وصلى محمد الإمام بالناس ثم ذكرا لأخيهما محمد أحمد أنه هو الذي ينبغي للقيام بمؤن المسجد وأنهما لا يقصران في معاونته وموازرته ودافعهما أولا رغبة في الخمول والتواضع ورغبة عما فيه رائحة الرياسة ثم غلباه واتخذا عنده المسجد وكان ذلك مبدء اتخاذ أهل تكَلّتْ للمسجد عند أهل بيتنا واختصاصنا به ، وكانت العادة كلما مات من عنده المسجد من أهل بيتنا أن يجيء واحد من بني محمد بن ونكلّ إلى بيت أكبر من بقي فيؤذن عنده ويجيء واحد من بني محمد الإمام فيؤم الناس ويكون ذلك علامة تسويده وذلك للتأسي بعمل السلف في اليوم الأول والتبرك بهم ولم يزل الأمر على ذلك إلى الآن .

ومن أخبارهم بعد استقرار أمرهم واستقلالهم باتخاذ المسجد أنهم زهدوا في المناصب الدنيوية من الإمارة والقضاء وغيرهما من أسباب الاستتباع وتنافسوا في الأمور الدينية واقتناء المكارم في أقرب مدة تلاحق بهم من إخوانهم من تعجبه حالتهم فأتمروا بأوامرهم واقتدوا بهم فانتشر صيت جماعتهم بد ما كانوا يطلبونه من الخفاء والخمول وصار الناس يقولون كان محلتهم مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم في أيام نزول الوحي وأقبل عليهم كل ذي عقل سليم بالتبجيل والاحترام ونالوا من قبول وعظم ونصحهم ما لم ينله غيرهم من أهل بلدهم ونفر عنهم أهل البدع ويسوامنهم فكانوا على هذا مدة تقارب قرنا ثم نزل فيهم الوباء أواخر القرن الثاني عشر فأفنى كبارهم في وادي إنْمَنَاسْ ولم يبق من الرجال إلا ثلاثة فقاموا أحسن قيام بالأيتام وا لنساء وبارك الله فيهم وفي علمهم حتى نشأ أولئك الأيتام رجال ساعدوهم وعاونوهم على حفظ العلوم والتمسك بسيرة سلفهم الصالح فعاد عليم من البركات ما سلى معاصريهم عن المعصبية التي عم حزنها جميع أهل الوطن من موت الأشياخ . رجعنا إلى الحديث عن يوم الانفصال والاستقلال بالمسجد ، ذكر الشيخ حمّدبن محمد بن حدي أن الجماعة المتلكم عليها لما فرغوا من الصلاة قام محمد الإمام وقال : لأخوانهم أما وظائف المسجد من الإمامة في الصلاة وقراءة كتب الحديث التي جرى العمل بقراءتها في المسجد وتعليم الصبيان ونسخ كتب العلم فأنا القائم بها فلله ما وفى بذلك العهود وما وفى به ذريته من بعده وما قاموا بتلك الوظائف وما زالت تلك الوظائف سنة

فيهم جارية باقية وأعمالهم زاكية راقية ، وأما السيد همّهمّ فوظف على نفسه القيام بالمصالح العامة من ترتيب الوظائف ومكافحة السلاطين وملاقاة الوجوه وإنزال الضيوف وإجازة الوفود والسعي على الأرامل والمرامل ونحو ذلك فكان كذلك ولم يزل من ذريته قائم بما تسعه مقدرته من ذلك على توالي الأيام وتفاقم النوب والخطوب إلى وقتنا هذا . إهـ كلامه

ولم يذكر شيئا عن الشيخ محمد بن ونكلّ ولا أظنه تخلف عن مضمار إخويه في القيام ببعض الوظائف والذي لا شك فيه أن ذريته لم يتخلفوا عن ذرية أخويه في شيء من التعاليم واقتناء المكارم وبث العلوم ومما وصف به الشيخ حمد بن محمد تلك الجماعة قوله ومنذ انعزالوا تلك الانعزالة لم ترم ذريتهم موضعا أقواموا فيه للانضمام إلى غيرهم إلا ما لا يستثنى لقلته تأسيا به وتطبّعا بطباعهم واقتداء بسيرتهم من الفرار من الفتن والضغائن المورثها الجوار فكثيرا ما سمعت من أدركت منهم يقول : تزاوروا ولا تجاوروا فإن الجوار يورث الضغائن بل الناس ينضمون إليهم وينضافون محبة فيهم ورغبة في دينهم ودنياهم . إنتهى والحاصل : أن هذا الشيخ المترجم وهو محمد أحمد المعروف باسم هَمَّهَمَّ سن سننا شريفة أم فيها من بعده من ذريته وأهل بيته واقتدى به فيها من بعده فكان سلف خير وكان أولاده خلف خير فمن سننه الانحراف عن تواية أهل الرياسة له أي عمل فقد كان معاصر السلطان إولمّدن ألك الشيخ بن كردن ، والقاضي في أيامه مّحمد البشير بن أمّدْ وكانا محبين لأهل العلم ومجلين لهم وكانا يوليان العلماء خطة القضاة وقسم الصدقات والواجبة بين المستحقين وغير ذلك من الولايات التي لا ينتظم أمر الناس إلا بها ويقسمان قبائل الرعايا بين العلماء كل منهم يتولى ممن يليه من الرعية ما يتولى الإئمة وأبى هو من ولاية أي عمل بتولية أحد إلا بحكم النيابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبليغ شرعه للعامة والخاصة ولم يتقيد إرشاده ونصحه وتعليمه بقوم دون قوم بخلاف من يتولون أمر الأمة بتولية السلاطين فكان واحد منهم مقيد بالقوم الذين ولاه السلطان أمورهم لا يتعداهم إلى غيرهم فلما قام بالنيابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبليغ الشرع من غير تقييد بأمر ولا مأمور معين أقبل عليه سادة عصره وقادته بالتبجيل والاحترام وتسليم قوله وفعله وقام بنوه بعده مقامه في الحرية من تولية أحد إياهم وعموم نصحهم وإرشادهم لسائر الناس . ومن سننهم عدم الانحراف عن قول الحق في أي موطن لا يهابون جبارا لسطوته ولا غنيا طمعا فيما بيده ولا قريبا خوف انكسار

خاطره بل يدورون مع الحق حيثما دار ، يعرفهم بذلك جميع أهل بلدهم من ذلك الوقت وهو القرن الثاني عشر الهجري إلى آخر الرابع عشر ، وله كرامات تذكر ومن أجلها نجابة أولاده وتسلسل العلم في عقبهم إلى وقتنا وقد قيل شعر :
وأجلها نجابة الأبناء ... نعم الإله على العبادكثيرة ولم أقف على تاريخ ميلاده ولا وفاته لكني على يقين من أنه عاش في النصف الأول من القرن الثاني عشر لأن ابن عمه الأدنى أحمد بن الشيخ رأيت من أثره ما يفيد ذلك لأن أولاده رأيت تواريخهم عاشوا في أواسطه وأواخره كما سيأتي في تراجمهم .

***

ترجمة بني أحمد بن الشيخ الثلاثة

***

7 ــ ترجمة محمدبن أحمد بن الشيخ ويقال : له حَمَّ :
وصفه شيخي وابن عمي حمد بن محمد بن حدي بأنه أكبر أولاده أبيه ووارث سره ثم وصف إخوانه وأقرانه من بني عمه بأن قال : هذه الطبقة كانت نتيجة للتي من قبلها وكالتجديد لما عسى يندرس من قويمة سبلها ، بل هم أزواج من نبات شتى نشأت عن صاد وبلها، وترميم لمكاء ينقطع من متين حبلها . ثم هي أيضا ذات أركان أولها غطريفيها العريف وطل أهلها الظليل الوريف ، محمد المعروف باسم حَمَّ كان رضي الله عنه غاضا في العلوم بضرس قاطع ، وبالغ في تحقيق حقائقها للمحل الشاسع ، على قدم راسخة بخطو واسع ، ترجمه أبوبكر البرتلي في فتح الشكور في أعيان علماء التكرور بما نصه : كان رضي الله عنه عالما عاملا بعلمه زاهدا ورعا تقيا سخيا سنيا متفننا في العلوم العقلية والنقلية شيخا في علوم التفسير واللغة والعربية والحديث وكانت السوقيون تفضله على أخيه محمد أحمد في العلوم وقال عنه محمد الكلادي ابن محمد الأمين سمعت بعض أشياخي يحكي عن الشيخ محمد أحمد أخي صاحب الترجمة أنه قال أن أخاه لا تصح إمامته لأنه لا يقدر أن يقرأ القرأن إلا ممزوجا بالتفسير وكان مع كونه نبيلا في العلم لا يقضي بين خصمين أبدا فأتاه يوما خصمان فعرضا عليه خصومتهما فأبى أن يقضي بينهما فلازماه حتى أيسامنه ونصرفا فتنح تناول الكتاب فأرى المسألة بعينها الحاضرين وقال لهم لا يقع في وهمكم أني إنما امتنعت من الحكم بينهما لعدم معرفتي بالنازلة إنما امتنعت لأني أرجو أن ألقى الله وأنا لم أقض بين اثنين .ومن ورعه أنه لا يفسر كتابا حتى يحضر شرحه ولوكان من

الكتب التي يتداولها في العادة النساء والصبيان ، فأتاه يوما تلميذ بكتاب يريد قراءته فقال له الشيخ احضر شرّحه فقال له التلميذ يا سيدي هذا الكتاب النساء والصبيان يفسرونه بلا شرح فقال له الشيخ اذهب إلى النساء والصبيان يفسروه لك وأما أنا فلا أفسره حتى يحضر شرحه ، ومنه أنه لم يتزوج قط فقيل له في ذلك فقال أخاف أن لا أفي بحقوق الزوجية مر إلى أن قال : لم يطلع عليه الفجر وهو نائم قط ، توفي في عام سبعة ومائتين وألف . انتهى كلام البرتلي لكن ما ذكره من أنه لم يتزوج قط أبعد بعيد عن ساحة الصواب فإن السيد المذكور قد تزوج بلا ريب وولد له ونشأت عن أولاده ذريته طيبة ما زالوا بارك الله فيهم يتناسلون من لدن عصره إلى وقتنا هذا بحيث لو أحصيت ممن بقي من جيله من لم ينشأ عن تلك الذرية لما أبقيت منهم كثيرا فلعل المترجم صاحب فتح الشكور إنما أراد هو أو بعض رواته بقوله لم يتزوج قط . صغير المترجَم وهو محمد أحْمد المترجم فيما يأتي بعد فإنه هو الذي لم ينسب إليه النسابون ذرية ما لا من السابقين ولا من اللاحقين فيشبه أن يقال فيه أنه لم يتزوج قط والله أعلم بالصواب . هذا وقد أخذ الشيخ عن كثيرين وأخذ عنه كثيرون فمن الذين أخذ عنهم شيخه حامّ الكلادي عن شيخ له آيَريّ أخذ عنه رواية تفسير القرآن العزيز باللغة التاريقية ، رحل إليه فيها وهو في بلده فتلقفها عنه وكان أبا عذرها بالنسبة إلى السوقيين ومن والاهم ثم تلقفها عنه وبواسطته من قسم له ذلك من الناس وصارت كلمة باقية في عقبه وسنة جاية في آل بيته حتى أن كثيرا من أهل نهواحيهم لا تسمح نفسه أن يأخذها إلا عن واحد منهم فكأن الوحي لم ينزل إلا في أفنيتهم وحتى أن جنيا مسلما يسمى محمد إنْ تِلَدِنْ كان يحضر مجالسهم التي يعقدونها لها. مر إلى أن قال : بعد كلام كثير يتضمن أشياء كثيرة منها سبب اتصالهم بذلك الجني ، ومنها الكلام على تفسير القرآن بالعجمية ، ومنها فضيلة روايتهم العجمية المسماة برواية أهل أمَسْرَكَضْ . قال : وبالجملة فما أحوج أهل هذه الناحية إلى التوصل لتلقف هذه الرواية وما لنجعها في قلوبهم وأنفعها في عملهم وما أكثر حسنات من وصلها إليهم وسنها فيهم بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة) .هذا وأما رواية الحديث فقد أخذها عن أبيه أحمد بالسلسلة السابقة إجازة ثم أخذها عنه معاصروه وتسلسلت عنهم إلى من بعدهم من لدن ذلك العصر إلى يومنا هذا أخذ عنه ابن اخته محمد(1) بن محمد أحمد إجازة صحيح البخاري وصحيح مسلم وأجازه قراءة كتاب الشفا ورواية كتاب

الخصائص الكبرى للسيوطي ، وكتب له جميع ذلك بيده ، وممن أجازهم صاحب الترجمة قاضي القضاة في وقته الصالح الملقب باسم سَـالِه (2) ابن محمد البشير أخذ عنه رواية صحيح البخاري المسندة ، وممن أخذوا عنه إجازة صحيح البخاري محمد الملقب وَمَلَّنْ بن محمد بن ونكـل (3) وعـن هـؤلاء تلـسلت الإجـازات فـي هـذه الناحيـة .

---

(1) 1) محمد بفتح الميم الأولى هو شيخ من بعده في الإجازة وهو جدنا الثالـث وستأتي ترجمته .

(2) 2) هـو جـد إكَـدَشْ الـذين بأعمـال مَنَكَـا .

(3) 3) هو الجد الثالث للشيخ إسماعيل المفسر بـن محمـد الـصالح الجلاّليّ .وله كرامات منها ما جرى له مع كَأوَ أميره إولَمّدن في عصره ، وذلك أنه في بعض وفاداته على علماء تِنبكت صادف ذلك الأمير فقال له الأمير إني امتحنك اليوم وإني لمشتاق إلى رؤية فرس لي قـد خلفته عند أهلي حين السفر فأريد منك أن تعمل لي عملا أراه بـسببه الـساعة فقال له الشيخ حَمَّ إن كنت صادقا في تلك الإرادة فاغمض عينيك سويعة ففعل فإذا هو بفرسه ينشط ويمرح حول أخيته في حظيرتـه التـي هـو مربوط فيها ففرح وجعل يتأمله جد التأمل هنيهة ، ثم قال له افتح عينيك فلما فتحهما احتجب عنه فقال له الأمير إن كان هذا من علم الأوفاق فـلا تعد إلى عمله لأحد بعدي فإنك إن عدت إليه عبدت من دون الله تعـالى فالرأي السديد عندي إذا أبت إلى أهلك أن تغمد إلى بقرة تـذبحها وتقـد جميع مسكها سيرا واحدا وتشد به وثاق هذا الكتاب الذي تعلمت منه هذا العمل فلا يفتح أبدا . ويقال إن كلام هذا الأمير وقع في نفس شيخه موقعا ففعل كل ما أمره به وسمى الناس ذلك الكتابَ بذي السر وبقي كذلك إلى الآن . وكان علم الأوفاق قبل ذلك متداولا ثم قـل النـاس منـه إهـ هكذا ساق الشيخ حمّدَا هذه القصة ناقلا لها من أفواه سلفه علـى الحالـة التي ساقها من عد بعض الناس لها من الخوارق التي تظهر على أيـدي بعض الأولياء على سبيل الكرامة وعد بعضهم لها من الخـوارق التـي تظهر على يد علماء الأوفاق والكل محتمل . والله أعلم ثم كتب الـشيخ حمّدا بعد هذه الحكاية ما لفظه : (ومثل هذا ما جرى له أيضا مع هـذا الأمير نفسه وذلك أنهما في بعض السنين يتوارد حياهما بئر أمَـسْرْكَضْ وفي بعض الأيام أضل رعاة إبل الأمير فحلا كان راحلة لأم بنيه وكانت تسمى تَوَتّتْ فجعلوا يتفقدونه ويتتبعون المظان وينشدونه عنـد الـواردة ولما يئسوا من العثور على أثره والوقوف على خبره اتهموا به أرقاء حي

الشيخ حَمَّ وقالوا لابد أنهم هم الذين سرقوه وذبحوه فأتوا الحي ليفتشوا على الأرقاء منازلهم وما فيها من الأمتعة تطلبا لخبر الفحل واستقصاء فتقل ما راموا من ذلك على ساداتهم وجادلوهم وبرأوا المماليك علما منهم ببرآتهم من مثله بعد التجربة والإختبار فما اقتنع الناشدون بتلك التبرئة بل لجوا وتمادوا على عزائمهم والسيد حَمَّ ومن معه لم يزالوا بهم حتى ردوهم ولم يصلوا إلى مقصدهم ثم رجعوا إلي حيث جاءوا بعد اللتيا والتي سيئة ظنونهم مسيئة أقوالهم ولما أصبح صباح الليلة التي بعد ذلك اليوم ووردت أمات الفحل أخذوا يسقون أول قطيع منها وإذا بفحلهم المضل قد ترآى لهم من بعيد وهو يحجل في قيوده ويهدر فتماروا فيه حين رأوه فمن قائل هو هو فبيناهم في جدال ومراء إذ به حانيا رأسه في الجام ليكرع وعند ذلك استيقن الخبر من استبراب ثم إنه بعد ما ارتوى انصرف إلى أماته وإخوانه وجعل يستاقها إلى الجام قطيعا بعد قطيع ولم يزل ذلك حتى ارتوت عن آخرها وضربت بعطن ثم أوى إلى جانب مما حواليها وضرب بعطنه كذلك فلما أخذوا في العل نظروا فلم يروه وجعلوا يتفقدونه ويقولون أن هو فإذا به ميتة تدب في لحمه وإدايمه الديدان وباهابه من الجفاف وغاية اليبس ما يدلهم على تقادم موته فحينئذ تفطنوا أن جميع ما كان منه ليس إلا تبرئة لساحة المتهمين ومن يومئذ تبرأوا من التعرض لسادة ذلك السيد { ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز } . إهـ ما كتبه الشيخ حمدًا من ترجمته ولم أطلع على شيء أزيده عليه ، وأما عقبه فسيأتي على أهل الأثر منهم .

***

8 ـــ ترجمة الشيخ محمد الأمين بن أحمد بن الشيخ :

كتب الشيخ حمدا في ترجمته ما لفظه .كان من العلماء النحارير وأرباب التقارير والتحارير له تأليف وسط سماه (نخبة الفكر فيما تخرج منه زكاة الفطر) وقد أفاد فيه وأجاد , وله أيضا قصيدة يذب فيها عن أسلافه , وشرح عليها في حل ألفاظها وذكر مئاثر أولئك الأسلاف ووصل كثير من أنسابهم وبعض تنبيه على أصولهم وكان السلف يتداولونه ويرجعون إليه فيما يتعلق بالمذكورات فكأنه لم يسبقه أحد ممن قبله إلى مثل ذلك وما وقفت له على أثر غير هذين مع كونه مشهورا بالعلم والتقوى فيما بين من لهم به خبرة وإن لم يبلغ في الاشتهار بهما رتبة كبيره حَمَّ رضي الله عنهما ، ومن حديثه أنه في بعض وفادته على علماء تنبكت سأله بعض المعتقدين له أن يناوله لقمة كان قد التقمها وهو ناظر إليه فناوله الشيخ إياها فالتقمها السائل ولما نام بعد ذلك رأى رسول الله صلى الله

عليه وسلم في منامه فلما انتبه أنشأ هذين البيتين :
من ليس في يمينه يمين ... إني وربي هذه يمين
بالبر مني والجزا قمين ... إنك يا محمد الأمين
]

إنتهى كلامه ، قلت وقد ظفرت بعد وفاة الشيخ الذي نقلت ترجمته له بقصيدة له من بحر الرجز في مدح النبي صلى الله عليه وسلم كل بيت من أبياتها شطره الأخير من ألفية ابن مالك قاصد به معنى غير المعنى المقصود به في فن النحو ولفظ القصيدة هو هذا :

غير دعاء ورجاء ربه ... يقول من ليس له من ذنبه
على الذي استقر أنه الصلة ... للقلب مني لوعة متصلة
كالله بر والأيادي شاهدة ... من هو للخلق المتم الفائدة
في النظم والنثر الصحيح مثبتا ... من فضله على الأنام قد أتى
أوفى خليلنا وأصدق بهما ... من خله جبريل في السرى فما
قد خصص الفعل بأن ينجزما ... من خص بالرؤية والنجوى كما
وما بإلا أو بإنما انحصر ... من فاز بالمعالي كلا واشتهر
على ضمير لائق مشتملة ... من نفسه علية مفضلة مميز كنعم قوما
معشره ... من قدره عز عن أن يفسرُه
ولو توالت زمر الأعداء ... من يسبق القوم لدى اللقاء
وكونه أصلا لهذين انتخب ... من اعتراه شرف أما وأب
لقد سما على العدا مستحوذا ... أقسم برا في يميني إن ذا
فما لنا إلا اتباع أحمدا ... من أسس الدين لنا وشيدا
بر يزين وليقس ما لم يقل ... من بمحامد الأمور وعمل
يكن إلا غاية الذي تلا ... محمد ختم نظام الرسل لا
من ألبسن من زاركم نسج اليمن ... وحكمه التقديم في الأصل كمن
وجوزوا التقديم إذ لا ضررا ... مقدم عليهم بلا مرا
على الذي في رفعه قد عهدا ... بمدحه يا صاح فه معتمدا
فما أبيح إفعل ودع ما لم يبح ... لكن إذا مدحته بما منح
لم يك قول معه قد نبذا ... لأن مدحه تعبدا إذا
بالرافع ، النصب له محققا ... ولذ به تسمُ فمن تعلقا
كحاله إذا به... يتصل ... ... حال من سنته ينعزل
فهو به في كل حكم ذو ائتسا ... بشرى لمن كان به تأنسا
كطاهر القلب جميل الظاهر ... إذ لا يرى في خلق ربي القاهر
يخص فالرفع التزمه أبدا ... بالمجد هاهنا وباللوا غدا

عن الذي خبره قد أضمرا ... كم غيب التاح له فأخبرا
مروع القلب قليل الحيل ... فهذه اللهنة من ذي أمل
يصل إلينا يستعن بنا يعن ... راج من الحبيب أن يقول من
وآله المستكملين الشرفا ... صلى إلهنا على ذا المصطفى
***

9 ـــ ترجمة الشيخ محمد أحمد بن أحمد بن الشيخ رحمهم الله :

قال فيه صاحب فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور كان رحمه الله تعالى عالما محققا متفننا موصوفا بجودة القريحة والنجابة ، وقال عنه محمد لالّ الكلادي سمعت بعض أشياخنا يحكي عنه أنه كبر ولم يحفظ القرآن فحفظه في ظهر السفر في تفسير الجلالين لا في مصحف مستقل ، وقال : أيضا وسألنا شيخنا محمد بن أبي بكر وكنا نتعجب من نجابته وجودة قريحته فقلنا له أين أنت منه فأقر له بالفضل وأثنى عليه وحكى لنا حكاية قال : التقيت معه في سفر فوقعت نازلة فأفتيت فيها والشيخ محمد أحمد السوقي ليس حاضرا فلما حضر قال : لي مباسطا ما الذي جرأك على أن تحكم في موضع نحن فيه" فضحك شيخنا وسلم له . إهـ وقال محمد حدثني من لا أتهمه أن أباه بلغ غاية الكبر والشيخ محمد أحمد لم يولد بعد فأمر بعض أهله أن يزوجوه ، وقال : لهم إني أحس بعالم في ظهري فزوجوه وولد له الشيخ محمد أحمد فكان آخر نسله وتوفي رحمه الله تعالى في الوباء الذي وقع في عام سبعة أو ثمانية بعد المائتين والألف . إنتهى ما ذكره صاحب فتح الشكور ، وقال الشيخ حمّدا بعد نقله ما في فتح الشكور قلت وسيأتيك إن شاء الله بعض كلام على هذا الوباء وما قيل في سببه .

ثم قال : ولمحمد أحمد هذا شرح على متن الأجرومية بسيط سماه (مفهم الأقران) كثير الفوائد قد انتفع به كثير من أهل العصور السالفة في أيام قلة الكتب وعزتها بسبب توقف خطها على اليد ثم لما انتشرت النسخ بواسطة المطبعة اشتغل بها المتأخرون عن الشرح المذكور ، وأما النظم نقف له منه إلا على سبعة أبيات تشير إلى رسوخ قدمه في التوحيد وهي هذه :

كيف يشا لمن يشا ... يا فاعلا لما يشا
ومانعا لمن يشا ... ومعطيا لمن يشا
إلا الذي أنت تشا ... عبدك هذا لا يشا
موافقا لما تشا ... يا ربنا اجعل ما نشا

فـــالطف بنـــا فيمـــا تـــشا ... إن لـــم تهيـــئ مـــا نـــشا
مخالفـــا لمـــا تـــشا ... كيـــف يكـــون مـــا أشـــا
خلاف ما الله يشا ... ومن أنا حتى أشا

ومما يشهد لنجابته وتبحره في العلم غاية ما يروى أنه في بعض السنين قد تغرب عن وطن أهله وقصد إلى مدينة ولاتة وكان السبب في تغربه على ما قيل اختصاص كبيريه حَمَّ ومحمد الأمين بتعليم كل من في ناحيتهم من الطلبة فترك التصدر لمثل ما هما فيه احتراما لهما واحتشاما فارتاد محلا ينفق فيه من علمه فيستريح صدره من شدة ما يجده من اصطدام الفنون فيه من غير آخذ ، ثم لما وصل إلى ولاتة وكانت مدينة مأهولة مشحونة بالعلماء وغيرهم وتسامع علمائها بقدومه لم يتمالكوا أن تجشموا لقاءه لامتحانه فلما اجتمعوا عليه وامتحنوه وجدوه بحرا من العلم زاخرا لا طاقة لهم بمكافحته ولا مناطحته بل غلبهم جميعا فلما رأوا ذلك أرسلوا إلى عريف لهم في ناحية أخرى كان لهم شيخا مقدما فيهم وذكروا له أمر القادم واقترحوا عليه أن يحضر فلما حضر فاوض السوقي القادم فإذا به قد فاقه كما فاق من قبله وما هو إلا أن أشار عليهم بأن يفتلوا له في السنام والغارب رجاء أن يقيم فيما بينهم يعلمهم ما يحتاجون إليه مما عنده من العلم فعرضوا عليه الإقامة فوافقهم على ذلك وأجابهم بما يقرا عينهم منه ثم أقام عندهم واشتغل بتدريسهم الفنون إلى تمام سنتين جرداوين وعند تمامهما أو قريب منه نهض على ساق الجد أحد إخوانه الثمانيين (1) وهو إدَّ ابن الإمام ، وقال : لا يقر لي قرار ما لم ألق أخي محمد أحمد ولئن لقيته لاجتهدن في إيصاله إلى أهله وقرابته ، وكان ممن بينه وبينه قرابة ماسة ، ثم أعمل المطية ، ورمى بها تلك الشقة النطية ، ولم يزل يجوب الفيافي ويقطع الموامي تترامي به المساوف حتى وصل إلى المساكن

---

(1) 1) نسبة إلى الثمانية ويقال لهم بلسان التوارق (آتَّمَنْ) وهم جماعة من العلماء ولدوا لرجل واحد من الأشراف ويقال إنهم صنوان وتفرغت من ذرية طيبة مباركة يتوارثون أنواع الفضائل من العلم والولاية والمجد وجل تلك الذرية من قبيلة أهل تَكَلَّتْ وغيرهم منتشرون في القبائل . العتيق

التي أخوه فيها ساكن ، بعد ملاقاة أصناف تعب وأين ، والأشراف غيرما مرة على أنواع من الحين ، وكان الشيخ محمد أحمد رضي الله عنه لما احتبس في مدينة ولاتة دعته نفسه إلى رأي غير فائل ، انتجه فكر في المعلوات جائل وهو أن بذل جهده في استكتاب بالكتب فيما وصل إليه أخوه المقتص لأثره والمختص بالبحث عن خبره إلا وتحت يده وقر ست نياق من الكتب التي تجددت باستكتابه ، وحين تلاقي هو أخوه واستبشر كل منهما بلقاء الأخر عزم على الرجوع معه إلى الأهل ومعاهدهم ثم انصرفا ومعهما تلك الأوقار وغيرها مما الله أعلم به فلما وصلا إلى الأهل تسامع بهما كل حي من أحياء السوقيين فكان قدومهما عند الجميع نعمة غير مترقبة فجعلوا يتلقونهما أفواجا وفرادى ثم طفق الشيخ محمد أحمد يتحف كل من تلقاه من أهل العلم ببعض تلك الكتب الجديدة وهي مكتوبة بخط أهل البلد المكتوبة فيه وكان مخالفا لخط السوقيين فكان ذلك سببا في استصعاب دراستها ولكن ألجأتهم الحاجة مع ما بهم من شدة الحرص على ما تحتوي عليه من أنواع العلوم إلى الرغبة فيها وتلقيها بأكف القبول فاغتنموها فرصة ما ظفروا بمثلها قط فمازالت تلك النسخ متداولة بين أسلافنا وتنسخ منها نسخ أخرى إلى أن انتشرت النسخ الطابعية في هذه السنين الأواخر فاستغنى بها المتأخرون عن تلك ، ولكن لا نكاد تطلع على خزانة من خزانة من خزائن كتب السوقيين الموروثة عن آبائهم إلا وتقف فيها على نسخة أو أكثر من تلك النسخ الولاتية فلله بقاء أثر هذا الشيخ إلى مثل هذه المدة جزاه الله عن عمله خير الجزاء . إنتهى ما ساقه من القصة ويستدرك عليه ثلاثة أمور :

أحدها : أن ما ذكره من تحديد مدة غيبة الشيخ في رحلته بسنتين يخالف ما ذكره شيخنا محمود بن محمد الصالح في خطابه للشيخ محمد محمود بن الشيخ الأرواني التنبكتي فإنه ذكر أن مدة عيبته في رحلته خمس سنين وهو أشبه بالصحة لأن المخطوطات التي جاء بها الشيخ من رحلته إن كان هو الذي أمر بكتابتها كما يحكى فليس من المعتاد تحصيل مثلها بالخط في مدة عامين أوأقل .

الثاني : أن من أخذنا عنهم الرواية من أسلافنا لا يذكرون أن الشيخ الرحالة بادر إلى القفول بنفس وصول أخيه إليه بل يذكرون أنه أقام معه مدة حتى فرغ من شئونه وإن أخاه الذي طلبه طالت غيبته حتى أئس الناس من الاجتماع به ثم طلع على الناس مع صاحبه المطلوب بغتة بعد ما أئس منهما .

الثالث : أن بعض إخواننا من أهل إرَوَان حدثني أنه أخذ من أسلافه أن بلدهم أن بلدهم إرَوَان كان محلا لكبار العلماء تدرس فيه جميع العلوم الشرعية ويرحل إليه الطلاب من الآفاق القريبة والبعيدة ومكثوا على ذلك مدة ثم تغير الحال وذهب كبار العلماء وقل العلم حتى كاد يذهب بالكلية فوفد عليهم شيخ من السوقيين في تلك الفترة فشكوا إليه ما صاروا إليه من قلة العلم بعد ما كان عليه أسلافهم من الاشتهار به فأجاب طلبتهم ومكث فيهم واختار من شبانهم عشرة وشرع في تعليمهم وحبس كل واحد منهم على تعلم فن من فنون العلم التي تقرأ في بلادنا مختصا به لا ينظر في غيره وامتثلوا أمره وجد الشيخ في التعليم والتلاميذ في التعليم فعن قليل من السنين نجح كل من العشرة في فنه فقال لهم الشيخ إن الفنون التي ذهبت في بلادكم رجعت إليكم بإذن الله والحمد لله على ذلك فليكن كل منكم معلما لقومه في فنه الذي علمته له ونجح فيه فكانوا كذلك ورجع إليهم ماذهب من علم أسلافهم ومجدهم هكذا حدثني الراوى عنأسلافه ونسي اسم الشيخ الذي جدد في أسلافه العلوم فغلب على ظني أنه محمد أحمد صاحب الرحلة المشهورة لأن السقيين لم يكونوا أهل رحل ولم نسمع منهم راحلا إلى تلك الجهة في تلك الأزمان إلا أحمد بن الشيخ وابنه محمد أحمد وأحمد بنالشيخ لم يطل الغيبة بحيث يعلم الجماعة بالصورة المذكورة فالغالب على ظني أن صاحب القصة ابنه وبذلك يجمع بين ماذكره الشيخ حمّدامن أن مدة إقامته في ولاتة سنتان وبين ماذكره الشيخ محمودبن محمد الصالح من أن مدة غيبته خمس سنين فتكون مدة إقامته لتعليم أهل إرَوَانْ سنتين أوثلاثا ومدة إقامته بولاتة سنتين والجميع خمس سنين والله أعلم ونسبة العلم أسلم ثم إن الشيخ حمّدا لما فرغ من ترجمة الشيخ محمد أحمد وقصة رحلته أتبعها بقصة أخيه الذي طلبه حتى اجتمع به ورجع إلى حيِّهما فقال : ومن العجائب ماجرى للشيخ إدَّ بن الإمام في تفتيشه عن أخيه محمدأحمد وهوأنه في بعض أيام سفره أدركته الهاجرة في فيفاء جرداء ما فيها قط مستراح لأحد فجعل يجد في السير ماوّبا يرتاد أي نابت على وجه الأرض يتقي بظله من الوقدة ويستريح تحته بالرقدة فإذا هو بسرحة عالية عظيمة ملتفة الأغصان على وفق ما يرضي المسافر فأنضى إليها العنس وأجهد في الوصول إليها النفس فلما وصل إليها صادف تحتها من عظام جيف الحيوانات ناسا وغير ناس ما يوجب النفار منها والفرار وبحق لمن رآه

وعاينه عدم السكون والقرار ولكن مع ذلك أكره نفسه على تكلف القيلولة تحتها ليقضي الله أمرا كان مفعولا ثم لما قام قائم الظهيرة أخذ في الاستعداد للصلاة فحمل وضوؤه إلى مكان قريب فلما شرع في الوضوء رأى قبلة وجهه حصيات من التراب تتطاير قليلا قليلا في مكانين متقاربين فاتبع نظره ما بدا له واشتغل مدة بالنظر إليه عما هو فيه ولم يزل يتأمل ويتفكر فيما يرى حتى ألهم أن حصيات الكانين من آثارهما إلا نفس يجري من منخري حيوان كامن في باطن الأرض فحينئذ حمل على ذلك المظنون برمح له من أجود ما أنت راء من أمثاله وتحرى ما بين المنخرين فطعنه به طعنة صادقة ساخ بها سائر رمحه في الأرض حتى انتهى إلى مبدء الزج فاتفق أنه قد أصاب رأس ذلك الحيوان الباطن وعند ذلك تفرغ لما شرع فيه أولا من أداء فريضة الصلاة وما سلم من صلاته إلا والأرض ترتج وتهتز وتزلزل تزلزلا شديدا ولها صوت كصوت الرعد القاصف ولم يبرح هو ينتظر لماذا يئول الأمر إلى خرجت له بعد حين لية من حية كانت أعظم حية رئيت على وجه الأرض فالتوت تلك الحية على الرمح كالدائرة ثم جعلت جثتها تخرج كذلك لية لية وتلتوي على الرمح كالأولى فما تم خروجها من باطن الأرض حتى صار مجموع الليات كالهضبة العظيمة فلما استيقن أنها كانت ميتة عالج تخليص رمحه من تلك الجثة نهاية المعالجة فهيهات يجد إلى ذلك سبيلا فلم يعد أن راح ومضى لسبيله متأسفا على ما فاته من استصحاب الرمح ولم يزل مجدا في السير إلى أن ساقه غروب الشمس إلى قوم هم أقرب الناس إلى مكان السرحة المذكورة فبات عندهم وبمجرد وصوله إليهم بادروه بالسؤال عن أي مقيل راح منه لعلمهم أن لا مقيل في الجهة التي جاء نحوها إلا تلك السرحة فأجابهم بأنه راح من السرحة وعندها قال ، فاتفقوا على تكذيبه وقالوا له هيهات لا يمر بتلك السرحة أحد ما إلا وهلك فكيف نصدقك في القيلولة عندها أوما رأيت كثرة جيف المارين بها من القوافل والرواحل وما زالوا به حتى جاءهم بأغرب عندهم وأعجب وهو قتله لذلك المهلك للمارين فما زادهم حديثه إلا تماديا وتوغلا في التكذيب فحينئذ أخبرهم بارتباك رمحه في رأس تلك الجثة وأنه أعوزه تخليصه من العظام ، وقال لهم وإن بقيتم في ريب إلى الآن فأغدوا بنا غداة غد إلى مكان السرحة ليغنيكم المنظر عن المخبر ، فلما أصبح الصباح غدوا عليه واستصحبوه إلى موضع السرحة فلما دنوا منه ترآى لهم شبه هضبة فاتفقوا كلهم على أنهم مع شدة معرفتهم بالسرحة قديما وحديثا لا يعهدون عندها هضبة قط فكادوا أن يصدقوه في دعواه لكن بقي لهم أن يشاهدوا

ما ذكر لهم في شأن الرمح فما انتهوا حتى بلغوا المحل فعند ذلك علموا الأمر مشاهدة فعظم الرجل في أعينهم وزادوه تبجيلا وإعزازا وبالغوا في الدعاء له والثناء عليه ثم رجعوا ينحتون تلك العظام التي ارتبك بها الرمح حتى خلصوه وسلموه له ومضى لسبيله فلله دره ما أعظم نفعه ، ثم بعد أيام وقع في شدة أخرى وتخلص منها بإذن الله تعالى وذلك أنه قد مر ذات يوم في أثناء الطريق وإذا هو بلصوص كامنين في تلك جنبتي الطريق فوثبوا إليه على غفلة فما راعه إلا أحدهم وقد أخذ بزمام الناقة واستمسك أصحابه بكل من قوائمها الأربع محاولين لاستنزاله عنها ومستعجلين راجيا كلا منهما أن يستخلصها لنفسه فجعلوا يختصمون فيها أيهم تكون في حصته والشيخ مع ذلك مطمئن النفس آخذ في الاختيال لتخليصها ونجاة نفسه فبينما الملأ في شدة الخصام إذ به قد أطلق رأس الناقة من الزمام ثم ضربها فوثبت نافرة أشد نفار وجعلوا يتعلقون بها لئلا تفلت فما زالوا يتساقطون عنها لشدة نشاط أوجب لها إحداث حركات لا يستطيعون معها أمساكها والشيخ في أثناء ذلك ثابت على ظهرها غير متزلزل ولا مضطرب فلما انقطعوا عنها أئسين من الظفر به صاح به صائح منهم وقال : إن أمك لمنجبة بك ولم يزل هو تشتد به ناقته جريا حتى إذا أيقن بالأمان رجع الزمام إلى الناقة ، ثم سار على هينته إلى أن بلغ المقصد . انتهى ماكتبه ولم أجد عليه زيادة .

***

10 ـــ ترجمة جدنا الثالث محمد بن محمد أحمد المعروف باسم هَمَّهَمَّ :

كتب عنه الشيخ حمدًا ما لفظه : كان رضي الله وأرضاه مشهورا بالعلم والتقوى والكرم ومشهود له بالفضل عند سائر الأمم فهذا الولي الصالح سَلَهُ بن محمد البشير قد شهد له بالحلم والجود في مرثيته له تأتي في موضعها حيث قال :

.... ومن عقله عند الفساد وجوده

وقد حدث عن نفسه أنه ما نزل في القرآن أمر إلا وقد امتثله ولا نزل فيه نهي إلا وقد اجتنبه وعنه أيضا أنه قال : ما ارتكبت محظورا ما منذ امتاز لي الخيطان الأبيض والأسود إلا أني في زمان الصبا فرغت ذات يوم من ملاعبة أمثالي من الصبيان فضيت إلى أمي فلما جئتها تناولت شيئا تافها مما بين يديها فبادرتني بالزجر فقالت لي إياك الحرام فأقلعت بالفور وأظهرت الندم ثم لم أعد بعد ذلك إلى فعل شيء يشبه أن يعد محرما أيا كان إلى الآن . وأما علمه فمن شواهده أنه أول من تلقف الرواية الآيَرِيَة عن خاله وابن عمه حَمَّ بن أحمد بن الشيخ ثم ترقى في

اتقان صنعة التفسير إلى حيث يعوزه تارات تمييز بعض كلمات المنزل من كلمات تفسير الجلالين حتى يروى أنه في بعض الليالي التمس أهله من يصلي بهم صلاة التراويح في مسجدهم وكان إمامهم الراتب إذ ذاك غائبا فلجأوا إلى محمد ليقضي لهم تلك الحاجة لاعتقادهم أنه المستحق لذلك فلما شرع في القراءة أشكل عليه تميز بعض القرآن من نص تفسيريه ، فلما رآعاه الهاتف به من قومه يقول له يا ابن هَمَّهَمَّ إنا إنما أقمناك لتتلوا علينا القران لا لتفسيره فعند ذلك تنبه لما وقع منه وصادف ذلك إتيان الراتب الغائب وفزع الناس إليه وأمهم كما يريدون وانصرف الشيخ إلى ما الله أعلم به من شئونه . قلت وما كتبه من إسناد هذا الأمر أعني عدم تميز نص القرآن من نص التفسير إلى هذا السيد محمد هو الذي اتفقت عليه كلمة روات أشياخنا والمؤرخ البرتليي إنما أسندها للشيخ محمد أحمد بن أحمد فانظر هل وقعت لأحدهما ثم للآخر كما يقع الحافر على الحافر ، أو كان إحدى الروايتين خطأ والأخرى صوابا ولكن أهل مكة أدرى بشعابها ، والله أعلم . ومن شواهد علمه على ما رواه ثقاة المشايخ أنه في بعض المرات خرج في سفر هو وأخوه أحمد ونزلا ذات يوم على بعض الأحياء فصادفا أمرا يريبهما وهو أنهما ما تلقلاهما مستبشروا لا غيره ولم يظلل عليهما ومع ذلك صبرا على مر الهجير تحت شجرة لم تريق أغصانها فما زالا يضربهما حر الشمس حتى صارا إلى الاستظلال ببعض ما معهما من الأكسيت وبعد ما عزما على الرحيل بدأ اليأس حين زالت الشمس لقيا بعض خدم أهل الحي فقال له صغير الأخوين أحمد إظهار الغضب بلغ عنا أهل الحي إنا لا حاجة بنا إلى شيء ما إلا ماهرا في صنعت الإعراب فلما وصل الخادم إلى الأهل وحدثهم بما سمع كانت تلك الكلمة عندهم داهية من الدواهي وندموا على إضاعة فرصة كانت إضاعتها لهم غصة وأسروها في أنفسهم ثم ما زالوا ينتظرون إياب الوفد ليسبروا غور تلك الكلمة فلما قضى السيدان نهمتهما رجعا في حافرتهما حتى إذا أفضى بهم السير إلى محاذات ذلك الحي تخيرا للمبيت قوما أخرين هم على قرب من أهل الحي وكانت فيهم رجل يدعي لفسه مرتبة التقدم في العلم وقد كانا يعرفانيه بذلك ويعرفان أنه ليس كذلك وإنما هو مدع معاند ويعتقدان أنه هو الحامل لأهله على ما صنعوا بهم ولا من الفعلة السوء فلما سمع بمقدمهما الرجل خرج إليهمامستطلعا طلعت الكلمة الماضية ومتعرض للمنافحة والمناطحة وما وصل إليهما إلا وقد أخذا مضاجعهما للنوم وتهياءا للاستراحة من أعمال الليل ومحادثة القوم فلما وقف عليهما وحياهما تحية الإسلام فهما أنه

بارز للمبازة فما استتم أداء التسليم إلا وقد فرغ جدنا محمد من إلتهاب للدفاع والنزاع وفي أول وهلة نبهه لما يكد ينتبه له من إنطواء البسملة على سائر علوم القرآن ثم شرع يشرح له ويبيين ويطلع على تحقيق ما قال إلى أن انفلق عمود الصبح وقد انتهى به الشرح والتبين إلى آخر النصف الأول من المنزل فحييئذ انقطع نخاء الدعاء الرجل لمقاومة وانقمع راكبا متن اليأس من المقامسة والمعاومة ثم مضى السيدان لشأنهما . ومما يشهد لاشتهار هذا السيد بالتفنن في العلم أنه نزل في بعض أسفاره على حي من السوقيين وقد تزيى ببزلة الصوفية فنظروا إليه بأعين الاحتقار ولم يتزحزح بذلك عن حالته المألومة من الصبر والوقار فما زال إلى أن جعل الداعي لصلاة الأولى بعد أن حان وقتها وشرع هو في الاستعداد للصلاة ثم مضى إلى المسجد وصلى فيه مع جماعة وبعد ما فرغوا من أعمال الصلاة هيأوا كتاب الشفا للقاضي عياض وناولوا شيخهم جزاء منه ليملي عليهم وكانت السيد الضيف قد أوى إلى ناحية من البيت في أخريات القوم ولم يجد ممن هنالك من يلقي إليه باله فكيف بمن يلقي له حاله وأما شيخ الطائفة فبتدأ القراءة وبعد هنيهة عنت له خطأة في بعض حركاة الإعراب فهمهم الضيف وغمغم ثم لم يتمالك أن نبه من يليه من الحاضرين على خطأة القارئ فارتاب المنبه ولكن أشاع في النادي بما سمع على سبيل التعجب من تخطأة هيان بن بيان لذالك الشيخ المعظم مع جلالته وحشمته وتوسطه بحبوحة حلقة كان أهلها تحت خدمته ثم سرى الخبر عن التخطأة في نواحي المجلس إلى أن وصل إلى الشيخ المهيب بنفسه فأظهر غاية الإنكار وجعل يحمق إلى ذلك المبتذل هيبهة ثم أقسم له جهد يمينه لا أترك قولي لقولك وأصر على خطأئه ثم عاد إلى القراءة مرة أخرى فما لبث إلا قليلا حتى سقط سقطة ثانية فعاد السيد الضيف بتنبيه مثل الأولى وأجر القوم الهنة اللاحقة على إجراء السابقة وشيخهم أيضا سلك في الانكار المسلك الأول وأعاد القسم إلى حالي الماضي وأصر كذلك على خطأئه الأخر ثم عاد إلى القراءة مرة ثلاثة فبعد حين لحقت سقطة أخرى بأختيها المتقدمتين فما ملك السيد الضيف نفسه في ترك تنبيهة ثالثة فرجع الأمر إلى ماهو عليه أولا لكن في هذه الثالثة زاد القارء على قوله لا أترك قولي لقولك . أن قال وإنكنت محمد بن همهم فحّ الآن له السيد الضيف الكلام وقال له ذلك الذي سميت هوهذا الذي ينبهك مذ اليوم والذي قال لك في جميع المواضع الثلاثة هو الصواب الذي لا محيد عنه فلما قرع سمعه هذا الكلام ناشده الله والرحم هل صادقا في أنه هو ذلك الرجل الموصوف

والعلم المشهور المعروف فقال له اللهِ أنا والله هو فما لبث أن نهض من مجلسه مسرعا ونحا نحو ذلك السيد فلما وصل إليه عانقه معانقة اللام للألف , وتلقاه كتلقي المشغوف الكلف ثم راوده على الجلوس في مجلسه مقرا له بالسبق وأنه الستحق للتقدم ولإقدام وحق غيره الوقوف في حضرته على الإقدام ولا تسئل وراء ذلك عما جرى له على يديه من وجوه البر والإكرام . اه

وأما كرمه فمن أعدل شهوده قول ألولي الصالح سَلّهُ في مرثية له تأتي في محلها :

لسائله بحران يلتقيان ... ومن حلمه عند الفساد وجوده ومن شواهده أيضا ما تواترت عليه رواة السلف من أنه إذا أراد اهله الانتقال من منزل إلى آخر أمر بناقته وفرسه فرحلتا ثم أوقفهما عنده فإذا جلا جميع الحي عن المنزل أخذ بزمام هذه ومقود هذه ومضى إلى حيث مضى أهله وهو مع ذلك معلق نعليه في ساعد كفه ومراده بجميع ذلك الرفق بالضعفاء فإذا مر بأول ماش ألقى إليه بزمام الناقة أو مقود الفرس فإذا مر بالآخر ألقى إليه بمقود الآخر فإذا صادف الثالث ألقى إليه بالنعلين ومشى بنفسه حافيا حتى يصل إلى حيث يريد . ومن تلك الشواهد أنه احتاج ذات يوم في غيبة غابها إلى أن يقف إلى نار يأخذ من شررها شعلة يصل بها إلى التدخين في آلة شرب الدخان فبينما هو يتمنى إذا هو بمفتاد قد شوى فيه بعض السراق شاة كانوا سرقوها فلما وقف عليه الشيخ أناخ عنده راحلته فجعل يدخن ببعض الشرر فإذا هو بالمقتصين لأثر السراق فسألوه عن السراق وقال لهم الشيخ لم تبق لكم تهمة إلا تلقائي فغرموني وهذه ناقتي فقد وهبتها لكم في قضاء شاتكم فأبوا عليه وقالوا له لا و الله لا نتهمك فلا نغرمك فما زال يلح عليهم في أخذ الناقة قضاء الشاة وسترا على السراق وهم الآخرون يلجون في الامتناع من الأخذ حتى آل بهم الأمر إلى عفوا عن السراق رعاية لحرمة ذلك الشيخ وتروكوا له ناقته ثم انقلبوا راجعين إلى حيث جاءوا . ومما يشهد لبلوغه الغاية في الكرم ما جرى له مع زوج المرأة الناشزة ، وذلك أنه في بعض آناء غيبته عن الأهل قد أوى بعض الليالي إلى حي من أحياء العوام بالفور من نزوله عليهم سمعهم يتذكرون نار لقريبة من حيهم بحيث كانوا يرونها عيانا ويحدثون أنها متوقدة في وسط قبر فتسمع السيد كلامهم حتى استيقن من قبلهم الخبر فسألهم أولا عن السبب فحدثوه أنه قبر زوجة كانت في حياتها ناشزة عن زوجها ولما ماتت شهد الزوج من حضره حينئذ أنه لا يعفيها عن حقه أبدا ولا تنفعها شفاعة شافع فلما وضعت في قبرها لم تزل

تلك النار تتأجج فيه كل ليلة كما ترى فلما استقصى ما عندهم من خبر المرأة والنار سألهم ثانيا أن مسكن الرجل فذكروا له مكان سكناه ثم سألهم ثالثا عن قبر المكان وبعده فأخبروه أن المسافة بينهما مقدار ثلاثة أيام وسألهم رابعا عن ظنهم في الرجل إن استشفع إليه المرأة فقالوا له قد حلف أن لا يشفع فيها أحدا ثم استخار الله السيد وبات عازما على المضي إلى الرجل في غداة غد فلما أصبح الصباح أمضى عزيمته في قصد الوصول إليه و أوصل السير في الثلاثة الأيام إلى أن وصل ، ولما قر عنده به القرار خلا به مرة وأطلعه على خبيئته واستشفع إليه للزوجة فلم يشفعه وعاوده مرات كل ذلك لا يجاوبه إلا بشتان أو هيهات فقال له السيد أشتري منك حقك عليها بما شئت من مالي بالغا ما بلغ فائسه وقنطه فقال له الشيخ للاكاد أريم مركزي عندك مالم أظفر بمنيتي أو تقدر منيتي وبقي الرجل على التصميم حتى إذا أراد الله إظهار فضيلة ذلك السيد ألقى في روع الرجل أن قال له وفيت لي شرطي أنعمتك بما شئت فقال له هاته قال هو أن تقيم عندي في منزلي مدة ما تكتب لي بيدك الكريمة مصحفا كاملا بجميع همزاته وشكلاته ثم تقابله للتصحيح فالتزم له السيد الشرط وبعد حين تفكر فتذكر وراجع الرجل فقال له بقي لي شيء قال له سهيم فقال إن نفسي لا تطيب ببقاء المرأة في جميع عذابها الذي هي فيه ما لم أفرغ من كتابة جميع المصحف فأريد من كرمك وفضلك أن تسامحها في كل ليلة من ليالي الكتابة بقدر ما حصلته في اليوم الذي قبل تلك الليلة فقال له الرجل لك ذلك إكراما لك وتفضلا عليك فاستبشر بما قال وقرت به عينه وقد كان السيد كأنه كوشف ببعض ما جرى أو بكله فإنه لما أراد فيما مضى الانفصال عن الحي المجاورين للقبر قاصدا إلى مكان الزوج أوصاهم بأن يترصدوا نار القبر حتى إذا رأوها متنقصة أرخوا ليالي التنقص مبتدئين من أولى ليلة رأوا فيها ذلك التنقص وعلى تلك الوصية فارقهم ثم لما أصبح عليه صباح الليلة التي وقعت فيها المشارطة بينه وبين الزوج بادر السيد إلى آلة الكتابة ففرغ من إصلاحها وتجويدها ثم انتهض غير وان إلى ما يريد فما أتت له الليلة الأولى مما بعد ذلك اليوم إلا وقد فرغ من كتابة حزبين وآفيا بجميع الشروط من الهمز والشكل والمقابلة ولم حصل ذلك عاود الرجل توثقا وقال له قد فرغت من كذا وكذا فسامح الزوجة بقدر ما حصّلت فقاله قد فعلت فاستغفر وحمد الله على تخفيف البغض ثم لم يزل كذلك عند غروب شمس كل يوم من أيام الكتابة يفرغ من كتابة حزبين ويستسمح الرجل بقدر ذلك من حقه حتى انتهت الكتابة بانتهاء شهر كامل ثلاثين ، فلما

تسنى له الغرض عزم على الرجوع وعلم المستضاف بعزيمته فحينئذ أحضر له من أنواع الكرامة ما الله أعلم به فبالغ السيد في الامتنان من الانتفاع ، وقال له هيهات أما أنا فلا أرزؤك شيئا مّا أبدا فو الله لا يراني الله منتفعا منك بغير ما حصلت ، ثم انقلب إلى جيران القبر وبمجرد وصوله إليهم بادرهم بالسؤال عن حال نار القبر وعاجلوه بالبشرى بأنه قد انطفات وسألهم عن الكيفية فقالوا له لم تزل تنقص شيئا فشيئا من منذ ليلة كذا إلى أن صارت بعد نصف شهر دخانا لا لهب معه وجعل الدخان ينتقص كذلك إلى ليلة كذا فبعدها فقدنا رؤيته بالكلية كأن لم يكن قط ثم سألهم عن تاريخ ليلة ابتداء التنقص وليلة انتهائه فذكروهما له فتأمل فإذا المبدء أولى ليلة من ليالي الكتابة والمنتهى هو أخرى ليلة من لياليها فما استبشر السيد بشيء مثل استبشاره بنجاة تلك المرأة على يديه ولله الحمد والمنة ، ثم لم تزل ذرية تلك المرأة ترعي حق الود والإخاء لذرية ذلك السيد إلى يومنا هذا والله ذو الفضل العظيم . انتهى ما كتبه الشيخ حمّد بن محمد ولم يذكر من روى عنه ، والذي أخذته أنا عن الشيخ الوالد سعد الدين بن عمار الذي كان صاحب القصة جده الثاني زيادة على هذا أن الشيخ محمد ما وصل إلى زوج المرأة إلا في بلاد تنبكت وقد طلبه من بلاد زَمْكَيْ وأن الحي المجاور للقبر حي أهل تَنْغَ أَكْلِ وأن المرأة المشفوع فيها من قوم يقال لهم إِكَتَوَنْ كانوا في ذلك الزمان كجزء من ذلك الحي السوقي وأن الشيخ لما كان في الطريق صادف بعض معارفه وأصدقائه فوجد عندهم ست بقرات ولما وصل إلى الرجل الذي يطلبه وطلب منه الشفاعة فامتنع قال له خذ هذه البقرات الست في مقابلة أن تعفو عن تلك المسكينة فأبى فقال له الشيخ خذها وأزيدك عليها الجمل الذي أنا عليه وكان جملا نجيبا فلم يزده ذلك إلا إباء ونفورا ثم بعد تقنيطه له في قبول كل وسيلة توسل بها إلى مقصوده عنده قال له لا أشفعك فيها إلا إذا التزمت لي أن تكتب لي مصحفا وصفه كذا وكذا مما يتعلق بالتصحيح وتجويد الخط فرضي ثم كان من أمرهما ما كتبه الشيخ حمّدا من غير إختلاف بين روايتي وروايته . وأما حمله فيكفي شاهدا عليه قول الشيخ القاضي سلَهُ بن محمد البشير في وصفه له في أبيات رثى بها قوما من جماعته كان من بينهم :
لسائله بحران يلتقيان ... ومن حلمه عند الفساد وجوده وقد وقع شيء من التغاضب بين قومه وبين بعض إخوانهم فجرت بين أحداث الفريقين هنات وهنات أثارت غضب سيد الحي السوقي وهو حَمَّ بن أحمد بن الشيخ وكان شيخ المترجَم وخاله ولا يجترئ على مخالفته فعزم الشيخ حمّ

على مفارقة أولئك الإخوان والهجرة إلى بلد بعيد منهم وقطع العلائق بينهم وبين أولئك الإخوان لأنهم أهل ثروة ينفعون إخوانهم السوقيين بأموالهم حتى قال بعض سفهائهم إن هؤلاء السوقيين لا قدرة لهم على مفارقتنا لأنهم عيالنا فإذا فارقونا ماتوا جوعا وعطشا وتلك الكلمة هي التي أثارت غضب الشيخ حمّ فعزم على أن لا يجاورهم أبدا وكان قد عزم قبل ذلك على الجلاء عن أوطانهم القريبة من البحر والرجوع إلى معاهد أسلافه في الصحراء لكن فتل له كبير الجماعة في السنام والغارب حتى انحل عزمه ورضي بالمقام مع فلما حدث له ما أثار غضبه أخفى أمره وأمر جماعته بالرحيل وكتمان أمرهم ليلا يعوقهم ذلك الكبير وأمثاله من جماعته عما يريدون فخرجوا ليلا وكان عندهم كثير من بقر أولئك الإخوان الذين غاضبوهم فتركوها في الحظائر وخرجوا بمالهم ولما أصبح الصباح وعلم جيرانهم بخروجهم تفرق رأيهم في شأنهم فالكبير الشريف وأولو الأرحام من جماعته كان رأيهم أن يخرجوا في آثارهم ويسترضوهم وغير أولي الأحلام قالوا خلوهم وما شاءوا فسيرجعون إليكم لأنهم لا غنى لهم عنكم وبعد مدة نزل الوباء والطاعون في الجماعة التي خرجوا منها وكثر فيهم الهلكى بحيث صار من يتولون دفن أمواتهم لا يرجعون إلى الحي لأنهم لا يفرغون من دفن ميت إلا شرعوا في دفن آخر بل ربما أدرك الموت بعض من تهيأ للحفر والدفن فيصير مدفونا ، ولما رأى الكبير تسارع الفناء في قومه أيقن أنه وقع فيما خاف من هلاك الناس بسبب نقض العهود وإغضاب العلماء فترك مشاورة الناس واختار رسولا ثقة من قومه وقال : له أمض على ما تستطيع من غاية العجل حتى تصل إلى حمّ وقومه فإذا وصلت فاختف في مكمن قريب من الحي بحيث لا يراك أحد إذا جن الليل فاجتهد قدر وسعك في أن تخلو بمحمد بن هَمَّهَمَّ وحده فإنه أرفق بنا وأحلم من غيره وأشك له ما نابنا واستشفع لي به وقل له ناشدتك الله والرحم وقديم العهد الأكيدالا اجتهدت في تدارك من بقي من إخوانك وأصدقائك إن كان ينفع التدارك فإن لم تكن لهذه فمن لها ، ثم قال : للرسول أيضا إياك أن يشعر بحضورك السيد حمّ فإنه لا تكاد شدة موجدته علينا تسهل عليه الحلم عنا والرفق بنا فانتهض الرسول لتبليغ الرسالة ولم يزل بين إدلاج وتاويب حتى إذا وصل إلى قريب من الحي اختفى فلما تسنى له أن يخلو بمحمد بلغه الرسالة كما أمر ، قلت هنا انتهى ما كتبه الشيخ حمّد من أمر الرسول ومرسله والغرض من سوقه للقصة حكاية قول الكبير المرسل لرسوله في شأن مَحمد فإنه أرفق بنا وأحلم وقول الشيخ في روايته إياك أن يشعر بحضورك السيد حَمَّ ليس

مما أخذته عن الشيخ الوالد بل الذي أخذته أن الذي نهى السيد المرسِل رسوله عن اطلاعه على سره ، هو أحمد صغير المرسل إليه وهو الذي وصفه المرسِل بشدة الغضب عليهم وخاف أن يغلب غضبه عليهم رحمته بهم ولا مانع من إخفاء السر عن الرجلين معا . إهـ ثم قال الشيخ حمّدا بعد كلام طويل في طلب أهله له بعد ما ظنوا أنه ذهب إلى القوم الذين غاضبوهم ، ما لفظه : وأما السيد مَحمد فنحا مسرعا نحو الحي الشاكين وما انتهى حتى وصل إليهم ولا تسأل بعد وصوله لهم عن سرعته التجائهم إليه في رفع الوباء عنهم وهو أيضا لما قربه القرار استدعى بلوح وكتب عليه ما شاء الله ثم غسله وسقاهم غسالته فبإذن الله لم يشك أحد منهم قط ألما من ذلك ولوباء بعد الاستقاء من تلك الغسالة ثم جمعوا له تركات الموتى من كل ناطق وصامت وقد أوصى له كثير من الموتى بالثلث فعزل مناب الوصايا على حدة ، وما تصدق به عليه من أدركه حيا على حدة ، ثم قسم كل تركة على أربابها وجمع بعد ذلك ما أوصى له به وما أهدي له وما تصدق به عليه ففرق جميع ذلك على الباقين من الورثة رفقا به وجبرا لخواطرهم وما أبقى لنفسه من ذلك إلا أربع طقات من القطن في غاية التفاهة قد أعدها لقضاء دين في ذمته ثم انقلب إلى أهله راشدا وما زالت نهضته تلك كلمة باقية في عقبه وفي عقب ذلك الكبير الشريف إلى يومنا هذا فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيرا . إهـ ما كتبه الشيخ حمّدا في الموضوع وبعض الرواة يزيد أنه لما فرغ من مهمته من انقاذ الناس على يديه وقسّم التركات على أهلها قال له كبير الجماعة أريد أن تتولى أمر جماعتنا وإخراج زكواتهم وتفريقها كما شئت وكان من عادة أهل البلد أن يتولى إخراج زكوات القوم يكون كالوالي عليهم لا يتصرفون إلا بأمره ولا يعاملون أحدا إلا بإذنه فلما عرض عليه ذلك قال : له إن تلك الخطة لا أريد أن يتولاها إلا من كانوا يتولونها قبل من إخواني المجاورين لكم دائما وأولئك الإخوان بعضهم من ذرية الأنصاريين وهم أهل بيت خنّ وبعضهم من ذرية الشيخ أبي الهدى وهم أهل بيت الشيخ إسماعيل بن محمد الصالح فقال : له الكبير أما أنا فلا أفوض ذلك إلى غيرك وأما أنت فكل ما فعلت لا أرده فكان الأمر كما قال : الشيخ ولم يزل أهل هذين البيتين هم المتولين لإخراج تلك الأموال من السادة وأتباعهم إلى الآن ، وأما ذرية محمد وأهل بيته فحظهم من ذرية أولئك القوم الاحترام والصداقة وإعطائهم من أموالهم على وجه الهدية والصلة وأما صدقاتهم فلا حظ لهم منها .ومن شواهد كرمه : إقرار أخيه أحمد الشمهور باسم عامّ بالسبق إلى المكارم وقوله له ما

سبقتك إلى مكرمة إلا وجدتك سابقا إليها ومن مواطن قوله له ذلك على ما يحكى أن رجلا من أصدقائهم الذين يقال لهم أهل تِمُكَسِنْ أجدبت بلادهم ذات سنة فجمع ذلك الرجل واسمه حَمَّنَانَ بن إركَّغْ جمع أمما كثيرة وسبقهم إلى جهة الجنوب منهم حيث يجلب الطعام إلى البلاد التي لا يزرع أهلها فلما وجدوا طلبتهم رجعوا بميرتهم إلى بلادهم ففاجأهم قطاع الطريق ونهبوا جميع ما بأيديهم حتى جردوهم من الملابس وحتى جعلوا يأخذون أوعية الطعام ويفرغون ما فيها على الأرض ليذهبوا بها وكأنهم لا حاجة لهم في الطعام فلما رأى سيد الرفقة ذلك قال : لهم أريد منكم شيئا لا يضركم أن تعلموه وهو أن لا تخلطوا ما تخرجونه من الأوعية فرضوا بذلك فأخذ أوراقا وكتب عليها أسماء أرباب الظروف كل ما خرج من ظرف كتب اسم صاحبه على ورقة ودسها فيه ثم سار إلى بلده ليس معه شيء ولا عليه شيء ومعه قين له حتى قرب من حي الأخوين الكريمين محمد وأحمد ابني هَمَّهَمَّ ....اذهب إليهما وأخبرهما بأمرنا فلما جاءهما الرسول وجدهما في بيت الكبير محمد وهما يكتبان بعض الكتب وكان من عادة الصغير أنه يلازم الكبير في بيته فلما أخبرهما القين الخبر بهض الشيخ أحمد إلى بيته ليأتي بملابسه وكان ملابس أخيه تحت رجله حنيئذ فلم يتمالك أن نهض بالوعاء الذي فيه الملابس واشتد عدْوا وسعى على قدميه حتى وصل إلى الأخ المسلوب فكساه بفور وصوله إليه ، وأما الأخ الصغير أحمد فإنه بمجرد وصول الخبر إليهما سارع إلى منزله وأخذ ثيابه وعدا إلى محل الأخ ظانا أن يسبق إلى كسوته فوجد كبيره قد سبقه إليه وخلع عليه خلعته السنية فما تمالك أن قال لأخيه ما هذه بأول مرة سابقتك فيها إلى مكرمة فسبقتني ثم خلع خلعة على القين الذي مع أخيهما ثم أخذ كل منهما ناقته وشد عليها رحلة وأعطاها للسيد فكانت خلعة الكبير وناقته للسيد نفسه وخلعة الصغير وناقته للقين فشكر لهما وسر بصنيعهما حتى بلغ به السرور أن قال لهما هذه لا أنساها أبدا ولا ينساها أولادي فضمن على أولاده قبل وجودهم ولكن الله أكرمه بذرية طيبة تصدق وعده حتى سرى ذلك إلى ذرية إخوانه فكانوا لأهل بيتنا خير صديق وأكبر نافع من ذلك الوقت إلى الآن وقد مضى على ذلك أكثر من قرنين وذلك من كرامات جدهم ومن كراماته التي ظهرت في هذه القصة على ما يروى أنه لما انفصل من حي الأخوين واتصل بجماعته بادر إلى جمع المراكب والظروف وذهب إلى المحل الذي ترك فيه الطعام وهو في بلد بعيد لم يصل إليه إلا بجهد جهيد فوجده بحاله لم يتغير منه شيء ولعله لم يطلع

عليه أحد بعده فاستخرج الأوراق المدفونة وجعل كل قسم في ظرف خاص به موسوما بسمة تبين من هو له ثم انصرف جاعا إلى أهله محفوظا من كل سوء حتى أدى الأمانات إلى أهلها وحصل مراده من إيصال النفع إلى من ذهب في طلب نفعهم أولا ، وذلك مما يكرم الله به من أحسن عملا ، كذلك يجزي الله المتقين ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين .

رجعنا إلى الكلام على الشيخ مَحمد بن هَمّهَمّ أما علمه وحلمه وجوده فقد سبق منها ما يكفي ولكن لم أطلع له على أثر علمي لا منظوم ولا منثور ، ومما يحكى من كراماته وكشوفاته أنه أتاه رجل فقال له : ياشيخ إني قصدتك لأسألك عن إعراب كلمة من القرآن أشكل علي إعرابها ولكن نسيتها ونسيت الحزب الذي هي فيه قبل وصولي إليك فقال له الشيخ أما الحزب فمن سورة النحل وأوله { وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين } وأما الكلمة فهي (شيئا) من قوله تعالى { ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا } وهي مفعول مطلق فتعجب السائل وقال له والله إنها هي . وأما وفاته فكانت عام خمس ومائتين وألف من الهجرة 1205هـ بسبب وباء وقع في حيهم بأرض إنْمَنَسْ ومات فيه أشياخ الحي وغيرهم ولم يبق من رجالهم على ما قيل إلا ثلاثة ستأتي تراجمهم وبارك الله فيهم وربوا الأولاد الأيتام حتى بلغوا وتعلموا وصار حيهم كحالهم الأول وأحسن فرحم الله الجميع وتقبل منهم أحسن أعمالهم .

هذا وأما أسانيد الإجازات التي أسلفت في ترجمة شيخه أحمد بن الشيخ أني سوف آت بها في ترجمة هذا الشيخ لأنه هو الذي رأيتها بخط من أخذها عنه مباشرة فقد كان عندي قبل نهب كتبي وكان مما نهب ثم وجدت منه ورقتين ضاع ما بينهما فأردت استدراك ما بقي وإن كان فيه نقص وصورة ما وجدت بخط تلميذه الذي صار إليه إرثه العلمي وهي كما يلي :

(بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم الحمد للهه رب العلمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين . وبعد فقد أجاز مَحمد بن محمد أحمد بن أحمادُ لمحمد الصالح بن أحمد بن محمد القاري بن الشيخ بن أحمادُ : جميع ما أجازه له شيخنا وشيخ شيوخنا أحمدبن الشيخ ، قال : كما أجاز له سيدي محمد بن المختار الكنتي (1) مما قرأه على شيخه إبراهيم الملا يخافي وإجازه فيه وغيره من كل ما صحت له روايته عن أشياخه كلهم إجازة مطلقة ، وأن يحدث عنه ما

شـاء ويجيـز مـن شيـاء بالـشرط المعتبـر ،

---

(1) 1) الكنتي هذا يوافق صاحب الطرائف والتلائد في اسمه واسمه أبيه ونسبته إلى كُنتا ولكن ليس هو لأن الشيخ المختار والد صاحب الطرائف كان من الآخذين عن تلاميذ أحمد بن الشيخ كما في (الطرائف) وكـان أحمد في القرن الثاني عشر والشيخ المختار في آخره . المؤلف . قـال : فأما خليل فقرأته على شيخنا الإمام الصدر الهمام أبي عبـد الله سـيدي محمد القسنطيني . وقرأته أيضا على شيخنا الإمام أبي العبـاس سـيدي أحمد بن الحاج الفاسي عن الشيخ سيدي أحمد ميارة وسيدي عبد القـادر الفاسي كلاهما عن سيدي عبد الواحد بن عاشر وأبـي عبـد الله محمـد الجنان ، فالأول عن أبي عبد الله القصار ، والثاني عـن أبـي العبـاس المنجور ، وهما عن أبي الحسن علي بن هارون ، وزاد القصار بالأخـذ عن بدر الدين القرافي ، فأما ابن هارون فعن ابن ..غازي عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن ابن محمد بن أبي بكر بن عثمان السخاوي ، وأما القرافي فعن والده وأبي زيد عبد الرحمن الأجهوري ، وهما عـن شمس الدين محمد بن حسن اللقاني عن نور الدين السنهوري عن الـشيخ عبادة عن جمال الدين عبد الله الأقفهسي عن الشيخ بهرام عن المـؤدب خليـل .

وأما جمع الحوامع : فقرأته على شيخنا أبـي عبـد الله سـيدي محمـد القسنطيني ، وعلى شيخنا سيدي أحمد بن الحاج الفاسي عن شيخه الإمام أبي محمد عبد القادر الفاسي عن أبي زيد عبد الرحمن الفاسي ، وأبـي محمد عبد الواحد بن عاشر عن أبي عبد الله محمد القصار عن أبي عبد الله محمد خروف التونسي عن ناصـر الـدين اللقـاني عـن زكريـاء الأنصاري عن عز الدين عبد الرحيم بن الفرات عن مؤلفه الـشيخ تـاج الـدين أبـي نـصر عبـد الوهـاب بـن تقـي الـدين الـسبكي .

وأما صغرى السنوسي : فقرأتها على شيخنا أبي عبد الله سـيدي محمـد القسنطيني ، وعلى شيخنا سيدي أحمد بن الحاج عن الشيخ أبـي محمـد عبـد القـادر الفاسـي عـن أبـي زيـد عبد الرحمن الفاسي عن أبي العباس أحمد المنجور عن أبـي عبـد الله محمد اليسيتيني عن أبي زكرياء يحي السوسي وأبي سعيد عثمان المنوئي ، فالأول عن أبي عبد الله محمد بن أبي مدين ، والثاني مع أبي عبـد الله محمد بن أبـي مـدين عـن المؤلـف الـشيخ الإمـام الـصالح أبـي عبد الله محمد بن يوسف بن شعيب السنوسي . وأما الألفية : فقرأت منها

على شيخينا أبي عبد الله سيدي محمد القسنطيني من المقصور والممدود إلى الوقف والباقي إجازة ، وقرأتها على شيخنا سيدي أحمد بن الحاج عن أبي محمد عبد القادر الفاسي عن أبي الحسن علي بن الزبير السجلماسي عن أبي زيد عبد الرحمن آعْرابْ المكناسي عن أبي مجير عن أبي محمد عبد الواحد الونشريسي عن ابن غازي عن تاج الدين بن عثمان بن محمد الديمي عن أبي العباس أحمد بن حجر .. إلخ اهـ ما في القرطاس الأول وسقط بعده واحد أو اثنان وأما القرطاس الآخر فصورة ما فيه : بسم الله الرحمن الرحيم وأما ملخصه فبالسد المتقدم إلى القصار عن أبي العباس أحمد الدقون عن أبي عبدالله المواق عن أبي عبد الله محمد بن .....بن عبد الملك المنثوري عن القاضي أبي بكر أحمد بن أبي القاسم .... الكلبي عن الوزير أبي عبد الله محمد بن يحي بن رفيع عن أبي العباس أحمد بن محمد العزفي عن أبي محمد عبد الله بن محمد الحجري عن يوسف بن محمد ابن مغيث عن أبي القاسم حاتم بن محمد بن حاتم الطرابلسي عن الإمام أبي الحسن علي بن محمد بن خلف المغافري المعروف بالقابسي .

وأما الشمائل : فالثلاثة قراءة على شيخنا سيدي أحمد بن الحاج ، وإجازة عن أبي محمد عبد القادر الفاسي عن عم أبيه أبي زيد عبد الرحمن الفاسي عن أبي عبد الله محمد القصار عن أبي نعيم ولي الله رضوان عن أبي زيد .... سقين عن الشيخ زروق عن فخر الدين أبي عمر عثمان الديمي عن شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله الرشيدي عن أبي الفتح محمد بن حاتم عن يوسف بن إبراهيم الكردي عن محمد بن اسماعيل بن إبراهيم المنير عن تاج الدين أبي اليمن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن الكندي عن أبي محمد بن محمد بن عبد الله البسطامي عن أبي القاسم أحمد بن محمد الخلـ .... عن أبي القاسم علي ابن أحمد الخزاعي عن أبي سعيد الهيثم بن كليب الاد .... الشاشي عن أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي .

وأما كتاب الشفا : فالثلاثة بالسد المتقدم إلى سُقَيْن عن أبي عبد الله محمد بن غازي عن أبي عثمان الديمي عن أبي عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الرشيدي عن أبي الفتح محمد بن أحمد بن حاتم الخطيب الشافعي عن أبي عبد الله الوَادِءَاشي عن أبي العباس أحمد ابن محمد بن الغماز .... عن أحمد بن علي بن حكم عن مؤلفه أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض .

وأما رسالة الشيخ محمد بن أبي زيد : فالثلاثة قراءة لبعضه على سيدي أحمد بن الحاج وإجازة لجميعها وإجازة عن الباقين عن أبي محمد عبد القادر الفاسي عن الفقيه أبي زيد عبد الرحمن الفاسي عن أبي عبد الله القصار عن أبي زيد عن أبي عبد الله القصار عن أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن إبراهيم .... عن أبي عبد الله محمد بن غازي عن الأستاذ أبي عبدالله الصغير عن أبي الحسن علي بن أحمد الورتاجي عن أبي وكيل ميمون مولى الفخار عن ....أبي عبد الله الفخار عن أبي العباس الزواوي عن أبي عبد الله محمد بن ....القيسي عن أبي علي سالم عن أبي محمد صالح عن أبي القاسم بن بشكوال عن أبي محمد بن عتاب عن أبي محمد مكي عن مؤلفها الإمام أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني رحمه الله تعالى .

وأما ابن عاشر : فعن الثلاثة عن أبي العباس أحمد ميارة عن أبي محمد عبد القادر الفاسي عن مؤلفه أبي محمد عبد الواحد بن أحمد بن عاشر الأنصاري رحمه الله تعالى .

وأما تأليف ابن الحاجب : فعن الثلاثة عن أبي العربي الفاسي عن القصار عن التسولي عن الدقون عن المواق عن ...عن أبي عبد الله محمد بن محمد بن عمر عن أبي الحسن بن سليمان القرطبي عن القاضي تقي الدين أبي عبد الله بن رازين عن مؤلفه الشيخ أبي عمر عثمان بن أبي بكر المعروف بابن الحاجب رحمه الله تعالى .

وأما تأليف ابن عرفة : فبهذا السند إلى المنثور عن مؤلفه أبي عبد الله محمد بن محمد بن عرفة التونسي رحمه الله تعالى .

11 ـــ ترجمة الشيخ أحمد بن هَمَّهَمَّ ويلقب (عَامَّ) :

كان مشهورا بالعلم والكرم والشجاعة وسخاء النفس والبر بقرابته عموما وخصوصا شقيقه مَحمد الذي سبقت ترجمته وقد جرت بينهما قصة تدل على كرمهما وإخلاص كل منهما النصح والمودة للأخر وكان ذلك في عقبهما إلى الآن بحمد الله تعالى فكان ابن الأخت من ذرية أحمد يقرب ابن عم أمه من ذرية مَحمد على ابن خاله الأقرب ويرضون ذلك وكان ابن الأخ من أولاد أحمد يفضل ابن عم أبيه من أولاد محمد على عمه الأقرب من غير إنكار أحدهما على الأخر بل من شدة البر والتقريب ، ويولونهم تربية صغارهم وتعليمهم وإنكاح إخوانهم وبناتهم وكان ذلك عادة جارية يتوارثها الأخلاف عن الأسلاف . هذا والقصة التي أشرت إليها مما يدل على كرمهما وبر كل منهما أن ذرية الشيخ هَمَّهَمَّ لما أمنوا

من الخوف الذي كان السبب في وضع والدهم مكتبته في الكهف وأئسوا من الاطلاع على تلك الكتب بعد بذلهم الجهود في طلبها قاموا بكتابة الكتب واسترجاع ما قدروا على استرجاعه من ذلك التراث فجعلوا يرحلون إلى البلاد التي يجلب منها الكاغد بعضهم يذهب بنفسه ليأتي بما استجاد من أنواع الكاغد وبعضهم يرسل بضاعته مع من يثق به فلما أراد المسافرون إلى بلد الكاغد أن يخرجوا عيّن محمد رأسا من البقر ليستبضعه وأخبر أخاه أحمد بذلك وإن أكبر مهمة له في الكاغد بعد حصوله أن يكتب فيه نسخة من صحيح البخاري ونسخة من شرح الشبرخيتي على مختصر خليل ولم يأمره بأي عمل في ذلك بل جرى على عادته معه من أخباره إياه بكل مقاصده فلما تهيأ الركب أرسل معهم الشيخ أحمد ذلك الرأس بلا مشاورة صاحبه واشتروا الكاغد ولما جاء به أوصلوه إلى من أرسل معهم الضاعة فلم يراجع أخاه في شيء ولم يسأله هو عن شيء لأن كل تصرفاته ماضية عنده ولم يزد الشيخ أحمد بعد وصول الكاغد إليه على أن شرع في الكابة وما انتهى حتى جود كتابه ثلاثة أجزاء من نسخة صحيح البخاري وهي ما عدى سفره الثاني فإنه أعوزه وجود نسخة منه حينئذ ، وكذلك حصل من أجزاء شرح الشبرخيتي ثلاثة وهي ماعدا الثالث الذي أوله " باب البيوع " تركه لعزة وجود نسخة منه لكنه لما أعوزه وجدانها كتب مكانها ما يساويها من شرح الزرقاني على المختصر فتمت له الأجزاء أربعة وحين فرغ من تحصيل الكتب وتصحيحها جلدها بيده ثم جعلها في وعاء صالح لها واحتملها على كاهله حتى ألقها بين يدي أخيه محمد وقال : له هذا ثمن بضاعتك التي أخبرتني بها سابقا ، وأخبرتني بمرادك منها ففرح أخوه بذلك ثم قال : له خذ الجميع معك فيه بعينها أجرة صنيعك من أوله إلى آخره فذهب بها واستمتع بها مدة حياته ثم ورثها ولم تزل موجودة بيد أولاده ، وما زالوا يسمحون لمن شاء مطالعتها من أولاد عم آبائهم الذي آثر بها أخاه الذي هو جدهم ، وأما شجاعته : فيشهد لها سفره إلى دنّك في أيام الحروب والغارات والواقعة بن أهل دنّك وأهل أتَرام الذين كان معهم وما جرى له مع السلطان خَتّوتُ من محاورات تدل على ثبوت الجأش وصدق التوكل ، وما جرى له مع علماء قطره مما يدل على تفوقه عليهم في سائر العلوم وسبب سفرته تلك على ما بلغني من أفواه الثقات أن خَتّوتُ سلطان إولمدنّ دَنَّكْ غزا بلادنا بجيوش لا قبل لأحد من أهل الدفاع والقتال بها فكيف بالضعفاء والرعايا فنهبوا ما اطلعوا عليه من الأموال وغيرها وكان من أكثر من نهبوا جماعة تتبع الشيخ محمد

المصطفى بن محمد إكْنَنْ الأنصاري اليعقوبي جد أهل تِكِـرتَِنْ ومـنهم جماعة من دبّاكَرْ فشق ما ناب دبّاكر على محمد المصطفى فوق ما يشق عليه ما نابه هو وحيه فتفكر فيما يصنع بهم ثم أنتجت له فكرته المباركة أن يذهب على أخيه أحمد بن همّهم ليتعاونا على تخليص بعض أمـوال ضعفاء المسلمين الذين أغار عليهم خَتُّوتُ وجنوده فوافقه على السفر إلى بلد الأعداء الغيرين في زمن لا يجتري أحد من أهل البلد فيه أن يتوجـه إلى تلك الجهة ولا أحد من أهل تلك الجهة يتوجه إلى الجهة الغربية منهم إلا في جيش غرمرم من شد ما كان بين أهل البلـدين مـن التبـاغض والتناخر بحيث لا يأمن أحد أن يلقى آخر فينجوا منه ، ولكن الشيخين لم يلتفتا إلى تلك المخاوف بل غلبا جانب التوكل مع الحـرص علـى نفـع المسلمين فسارا مع المخاوف حتى وصلا إلى السلطان خَتُّـوتُ فتعجـب الناس من وصولهما إليه مع كونهما من أهل البلد الذي يحارب أهله ومع كونهما من أشياخ أعدائه الذين يعتبرونهم أقوى قوة لهم فأنزلهما السلطان وأكرمهما لأنه سبق أن اجتمع بالشيخ أحمد قبل الحرب فأحبـه وحـسن اعتقاده فيه حتى صار يسميه باسم الشيخ فلما استقر بهما القـرار عنـد السلطان سألهما عن سبب سفرهما وإلى أين توجهان فقالا لـه لا نقـصد غيرك ولا حاجة لنا إلا أن تشفعنا في المساكين الذين سيقت إليك أموالهم فقال : لهما إني لم أعز على بلادكم إلا بعد مشاورة علماء بلـدي وهـم الذين قالوا لي لا حرج عليّ في غزو بلادكم ولا نهب أموال أهلها بـل دماء أهل بلادكم حلال فضلا عن أموالهم لأنهم خوارج بغاة ولا فرق بين السلاطين والرعايا ، وأما علماء بلادكم فهم الـذين يقـوون الـسلاطين ويتعاونون معهم على المناكر فهم أشد ظلما فلا بدّ لي مـن احـضارهم وجمعهم ومناظرتكما لهم حتى يتبين لي المحق من المبطل فإن كنتما على حق رددت عليكما ما لم يفت من أموالكما ، وأما ما أتلفه الجيش فقد سبق فيه السيف العدل ، فأرسل إلى العلماء ليناظروا الضيفين فلما حـضروا تقدم إليهم السيد أحمد وحاجاهم واحدا واحدا في سائر الفنون حتى غلبهم جميعا في جميع العلوم فأرسلوا إلى عميدهم الذي يقتبسوا مـن علومـه ويعترفون له جميعا بالأعلمية فلما حضر وناظر الـشيخ الـضيف أخـذ بطريق من قبله في الإعياء والمغلوبية فقال لهما السلطان أرسـلا مـن معكما من الأتباع ليفتشوا عن أموالهم فكل من رأوا عنده شيئا يعرفونه أو يعرفون وسمه فليقولوا له أني آمره برد ذلك الشيء إلى أهله ومن أبـى من تسليم ما بيده فليس بينه وبينهم كـلام ومـا علـيهم إلا أن يرجعـوا فيخبروني ففعلوا ذلك حتى جمعوا من أموالهم وأموال إخوانهم ما لم يتلف

قبل وصول الشيخين إلى السلطان ثم ساقوا الجميع إلى بلدهم . وأما العالم الذي لجأ إليه إخوانه لينقذهم من المغلوبية فإنه لما وقف حماره في العقبة ورأى أدونيته في المرتبة رغب في الاستفادة منه بذل ما توهمه أولا من قدرته على مجاراته فقال : للسلطان وكان عنده ذا حرمة ونفوذ كلمة " أعلم أن ضيفك هذا عنده من العلوم ما ليس في بلادنا فمن نصحك لأهل بلدنا وإحسانك إلى المسلمين أن تحبسه عندك حتى نغترف من بحار علومه فأمر الشيخ بالمقام معه حتى يستفيد منه كبار علمائهم ما يفيدونه غيرهم ممن دونهم في المرتبة فرضي الشيخ بذلك لرغبته في التعليم وحرصه على نفع المسلمين فاجتمع الطلبة الكبار والصغار للأخذ عنه وابتداء بتدريسهم في جميع الفنون ثم قال لأخيه محمد المصطفى وكان ماهرا في تدريس خليل وشروحه كل درس فقهي فأنت له وأقوم أنا بجميع ما سواه فشرعا في التعليم إلى مدة قيل أنها شهران ثم انصرفا إلى بلادهما .

ومن مظاهر الشجاعة التي رويت عن أحمد في تلك المدة أنه لا يتلكأ عن قول الحق في شيء سئل عنه ولا يبالي بمن سخط أو رضي ، ويروى أن السلطان الذي يقيم عنده غاب يوما في بعض شئونه فلما رجع زار الشيخ فصادقه وقد حفر حفرة فقرأ شيئا فيها ثم أهال عليها التراب وضرب عليها بكفه ، فقال له يا شيخي أريد أن تخبرني بعملك هذا ما هو ؟ فقال له بديهة هذا العمل إنما عملته لأجل أن لا تخرج إلى بلادنا برسم الغزو الإغارة أبدا فما كان من السلطان إلا أن قهقة تعجبا وإعجابا بما رأى من صدقه وشجاعته ، ثم ذهب إلى بيته فورا ورجع إليه ومعه قميص وعمامة من أجود ما رأى الناس وقال له خذ هذا وإنما أتاني البارحة هدية من بعض الرأساء إليّ وكان اشتهراه بعدد من العبيد ليكرمني بها وما اتحفتك إلا لما جربت عليك من عدم الميل عن الحق رغبة ولا رهبة . هذا آخر ما بلغني من القصة فجزى الله الشيخين والسلطان خيرا . وأما علمه : فيعترف به من عاصره وناظره ومن اطلع على آثاره ومن أغرب ما يحكى مما يدل على تبحره في العلم أن بعض من نهض لمناظرته سأله عن كلمة الإخلاص فقصر عن مراده فجعل يلقي عليه الأسئلة ويعجز عنها ، ثم يذكر له الجواب وما زال كذلك يسأله عما يتعلق بالكلمة من سائر الفنون حتى طلع الفجر فقال للناس لو لم يطلع الفجر لبينت له تعلق القرآن كله بالكلمة سورة سورة ، ومن أعجب وأغرب ما يروى من تبحره في سائر العلوم ما يسطر منها وما لا يسطر ما جرى له مع الشيخ الكبير سيدي المختار بن أحمد الكنتي الذي أذعن

له جميع معاصريه من جهة العلم والولاية وهابه الناس وفخافوا من معارضته أن يصيبهم ما يصيب من تعرض للأولياء من جهة الدين ومحصل ما بلغنا مما جرى بينهما : أن الشيخ المختار نزل عليه مرة فأعد ما يناسب من أنواع الكرامة والضيافة ، ثم أخذ بيده وغابا عن الناس ولم يرجعا إلى أن طلع الفجر فسئل الشيخ أحمد عما جرى بينهما في المذاكرة فقال : أما أنا فلم أستفيد منه شيئا وأما هو ففي أثناء مباحثتنا جرى على لساني ذكر كتاب (مطالع المسرات شرح دلائل الخيرات) وكأنه ما قرع سمعه قبل ذلك فلما رأيته متشوفا إليه لقنته إياه ثم رجعنا إلى المفاوضة فيما سوى ذلك إلى الصباح وفوق كل ذي علم عليم . وأما أثاره العلمية فكثيرة يعتمدها الناس في كل شيء عملت فيه ولم أطلع من فوائده المنثورة إلا على أوراق حل بها ألغازا نظمها لإعجاز بعض من يجاريه فعجز عن حلها فطلب منه بعض إخوانه أن يحل تلك الألغاز ليستفيد منها الطلاب ولكن ذلك الحل ضاع ولم أجد منه إلا ورقتين ، وأما ذلك اللغز فلم يزل معجزا حتي قام بعض حفدة الناظم بحل بعضه ، ورأيت منه نسخة ثم ضاعت كما ضاع غيرها من كتبنا بسبب الأعداء . ومن منظوماته في فن مصطلح الحديث التي أولها : مصليا على النبي الأحمد ... يقول أحمد بحمد الأحد خمسة أوجه ، يكون مرسلا ... إن حديث المصطفى يجري على

موقوفا، البلاغ ، نظمها خذا ... ومسندا ثمت مقطوعا ، كذا متصل إلى النبي الأمجد ... فإن يحدث عالم بسند عن شيخه ابن عمر عن شافع ... فمسند ، كمالك عن نافع فهو مرسل كما قد قررا ... إن يسقط الصحاب كابن عمرا صلى عليه الله ما الصبح بدا ... كمالك عن نافع عن أحمدا يدعونه المقطوع مثل قوله ... وقطعه لسند أي كله قال أبو هريرة المعروف ... قال رسول الله ، والموقوف من غير ذكر المصطفى الأواب ... إذ كان موقوفا على الصحابي أن النبي الخاتم النظم السني ... ثم البلاغ قوله بلغني إهـ ومراده " بالنظم السنيّ " نظام الرسل عليهم الصلاة والسلام . ومن منظوماته في الفقه نظم جيد قرّب به فهم ما أشكل من مسألة تراجع الحملاء الستة وكانت من الصعاب المنغلق فهمها على كثير من الطلبة ولا يتقنها إلا القليل ، ونظمه هو : مصليا على إمام المرسلين ... أقول بعد حمد رب العالمين

وشرح ما مثله به الخليل ... ياسائلي حل تراجم الحميل
لتهتدي به إلي السبيل ... خذه بعون الصمد الجليل
وزد له الشافي إذا يشفيكا ... وسمّه الكافي إذا يكفيكا
به بحرمة النبي الهادي ... والله أسأل انتفاع البادي
واللطف من ربي قد رجوت ... ها أنا في المقصود قد شرعت
ومن يبيع لهم تحملا ... رتّب مثال هؤلاء الحملا
الفائزين بمُقام طيبه ... على أسامي الفقهاء السبعه
فقاسم ، سعيد ، الأجلة ... وهم عبيد الله ثم عروة
خارجة ، تركا بهؤلا ... ثم أبو بكر ، سليمان تلا
سواه بالشرا واعطاء الثمن ... واخصص عبيد الله بالبيع ومن
يمتاز ، والتفصيل للمطلوب ... وكل طالب فبالتبويب
حملة ، للصحب بالست مائه ... باب ، عبيد الله باع سلعته
عن نفسه ، والخمسَ عن باقي الفئه ... أن يلق عروة يناله مائه
ترتيبهم مختصرا مفصلا ... باب ، التقاء عروة معهم على
من المبين حسب دون لبس ... وهو يطالبهم بخمس
عنه ، وحملا ما ثنتين عن ثقه ... فصل : من القاسم يأخذ المائه

حمالة عن الصحاب الأربعه ... إذ يستوي معه في الأربع مائه
أصلا ، فخمسة مع السبعينا ... فصل : سعيد يدفع الخمسينا
عن نفسه الخمسة والعشرين قد ... فصل : فإن يلق أبا بكر يُؤد
عن صاحبيْه الغائبين فاقبلا ... ثم يؤدي مثلها تحملا
بالأصل ، يعط النصف واثني عشرا ... فصل : وحيثما سليمانَ يرى
بستة وربع بينهما ... إذن فيبقى مثلها مقسما
يؤخذ بالستة والربع فقد ... فصل : وخارجة حيثما وُجد
مطالبا بالمائتين عده ... باب : التقاء قاسم من بعده
أصالة خمسين ثم قالا ... فصل : فإن يلق سيعدا نا
أعطيت ، كن بنصفها معينا ... عن صحبنا المائة والخمسينا
وخمسة ، بمثلها ساويت ... قال أنا السبعين قد أديت
مني وسبعة ونصف ثم جز ... فحطها وبالثلاثين ففز
معه اللقاء ، للذي تقررا ... بمثل ذا يجيب من تكررا
بالنصف والمائة ممن استتر ... فافترقا ، كل يروم اثني عشر
سبعا ونصفا بثلاثين تمد ... فصل : فإن يلق أبا بكر يُؤد
خمس وسبعون ، بنصفها أحملا ... وبعد أخذها يقول فضلا

قــد دفــع العــشرين بعــد الخمــسة
وكــل واحــد لخمــسين ارتحــل ... يجيبــه بأنــه لعــروة
مــن ثــم خمــسة وعــشرين قبــل
يعطــي سليمانُ لــه يقينــا ... فــصل : وخمــسة مــع العــشرينا
علــيّ مثلهــا وأنــت مثليــا ... فبعــد أخــذها يقــول بقيــا
لعــروة مــن قبــل ستا وربــع ... فيهــا ، يجيبــه بأنــه دفــع
نصف الذي يبقيه بعــد الحــط ... فــي مثلهــا ساواه ، ثــم يعطــي
وثمــن وتــسعة فيقتنــع ... لــستة وربــع وهــو الربــع
والنصف والثمن يعطي إن ظهر ... فصل : وخارجــة خمــسة عــشر
عشرة والنصف واثنين جمع ... بــاب : سعيد طالــب المائــة مــع
مع الثلاثــين وسبع يلفــى ... فــصل : أبــو بكــر يــؤدي النــصفا
يبقــى يريــد منــه بالحمالــة ... فنــصف خمــسة وسبعين التــي
أديــت خمــسين لأولــين ... ثــم أبــو بكــر يقــول إنــي
اثنين بعــد عــشرة ونــصف ... دعهــا ونــصف مــا بقــي ، أفــي
والنــصف والــستين دون مــين ... فــصار كــل طالبــا بــاثنين
ثــم ثلاثــين وربعــا إن وجــد ... فــصل : ويعطيــه سليمان أحــد
بمثلها فساوني ، يقول ... وإذ يقول إنني حميل

حمالــة بربــع وســتة ... أخــذني الأول أعنــي عــروه
وثمنــا مــع تــسعة مجتمعــا ... وقاســما أعطيــت أيــضا ربعــا
وخمــسة فحــط مثلهــا قمــن ... وذاك عــشرة ونــصف وثمــن
ثلاثة الأرباع ، يعطيــه إذن ... فنــصفها الــسبعة مــع نــصف ثمــن
ثلاثة ثمنا ونــصفه ، الربــع ... فــصل : وخارجــة عــشرين دفــع
بالنصف والستين بعــد اثنــين ... بــاب : أبــو بكــر ملاقــي اثنــين
أصــالة ، للفــرد والربــع تــضم
النصف بالحمــل فــصد عنــه ... فــصل : سليمان ثلاثــين غــرم
ثــم أبــو بكــر يريــد منــه
حمالــة لكــل مــن أتــاه ... لأن جملــة الــذي أداه
ثلاثة الأثمان وصــلها انجلــى ... ثلاثــة مــن بعــد عــشرين إلــى
في مثلهــا ، فالكــل يــسقطان ... مــع نــصف ثمــن وهمــا سيان
فبانتــصاف البــاقي إذ ذاك قنــع ... مــن الثلاثــين وفــرد وربــع
ثمــن واثمــان ثلاثــة تبــع ... وهــو ثلاثــة ونــصف وربــع
خارجة الذي من الصحب بقي ... فصل : فإن يكــن أبــو بكــر لقــي

من بعد عشرين وربع سبعه ... يعطيه ربع ثمن ونصفه
خارجة المكمل التلاقي ... باب : سليمان إذا يلاقي
ربع ثمن ، نصفه من بعد ... فصل : فخارجة قد يؤدي
كما تقدم بلا تفاوت ... عشرين ثم ربع وسبعة
منهم قد استوفى الذي تحملا ... خاتمة : قد بان أن الأول
ومن سعيد مائة وخمسه ... فمائة من قاسم أصاله
من بعد عشرين بغير مريه ... ومن سعيد مائة وخمسه
ومن سليمان ثماني عشر ... ومن أبي بكر بخمسين أثر
بست خارجة مع ربع يتم ... مع ثلاثة من الأرباع ثم
كذاك تعمل لباقي الخمسة ... مجموع ما استوفاه خمس مائة
قد غرم المائة دون زائد ... وبان أيضا أن كل واحد
عن صحبه يأخذه مكملا ... إذ كل ما يدفعه تحملا
إكماله مفصلا مسهلا ... هنا انتهى والحمد لله على
والآل والصحب أولي الرشاد ... مصليا على النبي الهادي ومن
منظوماته الفقهية : أبيات في الفرق بين ما يجوز بيعه ، وتحت كل من الأقسام الثلاثة أربعة فلأول قد رمز له بلفظ (بجكن) فالباء لطعام البيع والجيم لطعام الإجارة ، والكاف لطعام الكراء ، والنون لطعام النكاح ، فهذه الأنواع الأربعة هي التي لا يجوز بيعها قبل قبضها ، والثاني : رمز له بلفظ (قسم) فالقاف لطعام القرض ، والسين لطعام الاستهلاك ، والهاء لطعام الهبة ، والميم لطعام الميراث ، فهذه الأربعة هي التي يجوز بيعها قبل قبضها .
والثالث : رمز له بلفظ (جكصخ) فالجيم لطعام الجزاف ، والكاف لطعام الكتابة ، والصاد لطعام الصلح عن دية الخطأ ، والخاء لطعام الخلع ، فهذه هي التي في بيعها قبل قبضها خلاف والنظم الجامع لهذه الرموز مع فكها هو هذا :
فبيع بجكن قبل قبض محرم ... بَجَكَنٌ قَسَهَمٌ جَكَصَخٌ رمز الأطعمة
نكاح ، وقبل القبض جوز قسم ... طعام بيوع والإجارة والكرا
فميراثا ، وخلف جكضح يعلم ... عنيت طعام القرض مستهلكا هبه
وخلع ، بمنع والإباحة يرسم ... جزاف كتابة وصلح عن الخطا
وله أرجوزة في نظم فصول مختصر الأخضري وترك باب السهو لأن ناظما قبله اقتصر في نظمه على الباب وترك الفصول فقام هو بنظم الفصول وقال : في أول نظمه
لنا فروض دينه وفصلا ... الحمد لله الذي قد كملا

نظافــــة القلـــوب والأبـــدان ... وتمــم النعمـــة فـــي تبيـــان
علـــى النبـــي الهاشـــمي أحمـــد ... ثـــم الـــصلاة والـــسلام سـرمدا
يعنـــي باتقـــان الفـــروض والـــسنن ... وآلـــه وصـــحبه وكـــل مـــن
فـــي نظـــم مـــا تركـــه المزمّـــري ... وبعـــد بـــالعون مـــن المقتـــدر
سيدنا الشيخ الإمـــام الأخـــضري ... محمـــد بـــن أبـّ مـــن مختـــصر
وعـــن جميـــع مـــا ســـواه ســـكتا ... فإنـــه بـــنظم ســـهوه أتـــى
لطالـــب تكميـــل نظـــم العبقـــري ... ثـــم اسـميه بنيـــل الـــوطر
وقـــــال : فـــــي آخـــــره مؤرخـــــا نظمـــــه
بما يزيل الـــشك والـــنظم انقـــضى ... وإن نـــسيت عـــدهن فالقـــضا
خيـــر الـــورى نبينـــا محمـــد ... بحمـــد رب العـــرش يـــوم مولـــد
من بعد ألف سنة ومائة ... سنة خمس وثمانين التي يا ربنا صل عليـــه
أبـــــدا ... مـــــن هجـــــرة الهـــــادي الأمـــــين محمـــــدا
واغفـــر لنـــا واغفـــر لكـــل مـــسلم ... وآلـــه وصـــحبه وســـلم
وهذا النظم وصنوه العبقري هما اللذان جرى عمل الشيخ الوالد بإقرائهما الصغار التلاميذ بعد إقراء عقيدة ابن أبي زيد القيرواني وقبل شـــروعهم في علم النحو وجرى كثير ممن بعده على ذلك الطريق ، وله منظومات أخرى في العروض والمنطق ووقفت على منظومة بخطه يرد فيه علـــى بعض العلماء وذكر أن السائل الذي يجيبه لم يعرفه بـــل وقـــف علـــى السؤال محذوفا منه اسم السائل وحاصل السؤال أن كاتبه يـــشكو إلـــى علماء السوق أن بعض من يقول بحرمة النبات المسمى (تَبَـــغَ وطـــابَ والطباق) بالغ في التشديد في تحريمه إلى أن كفر من يستعمله وعده من المشركين واستدل على تكفيره بقوله تعالى { واعبد الله ولا تشركوا بـــه شيئا } وذكر السائل الشاكي أنه لا سبيل للعلماء إلى السكوت عن تكفيـــر ذلك المحرم للمسلمين المتناولين لها ، فلما وقف على السئول نظمه ثـــم نظم الجواب المتضمن للرد على ذلك العالم المحرم وإبطال قوله فقـــال :

فـــــــــــي نظـــــــــــم الـــــــــــسئوال

الحكـــم العـــدل الخبيـــر جـــلا ... الحمـــد لله العلـــي الأعلـــى
ثم على الهادي الصلاة والسلام ... من لا يضل لـــيس ينـــسى لا ينـــام
ولا نهايـــة لهـــا ولا تحـــد ... العـــروة الـــوثقى صـــلاة لا تعـــد
هـــدى مـــصابيح الـــدجى الأجلـــه ... وبعـــد هـــذا فـــإلى أدلـــه
والحـــقّ أعنـــي جيـــل أهـــل الـــسوق ... معـــادن العلـــوم والتحقيـــق
ذاك الـــسلام وبغبـــر يفـــوح ... مـــسلما بخـــالص الـــود يبـــوح
شـــفاء الأســـقام كمـــا أدركـــتم ... وقـــائلا لكلهـــم لا زلـــتم

لمعــضل وفــي الــدجى المــصباح ... فــأنتم الــدواء والمفتــاح
قد بلغ ابن قُطّبُ فيــه مــا بلــغْ ... فــإن أمــر منــع طــابَ أو تَبَــغْ
ازداد والتــشديد فــي المنــع قــصد ... حرمهــا كمــا ســمعتم وقــد
عبــد الأوثــان أهــل الفريــة ... بجعــل مــن يــشربها مــن جملــة
وغيــر ذلــك ، وأنــه قطــع ... بواعبــدوا الله إلــى شــيئا نــزع
الأمــر مــنكم وإلــيكم البيــان ... مــصمما بأنهــا شــرك فــالأن
من الحديث ومن الكتاب ... فأتوا بما يرشد للصواب

نــصحا بــلا حقــد ولا تعنــت ... فبينــوا الحــق لأهــل الــسنة
بكم ، بل الذب عليكم حقيق ... فتــرك ذا الأمــر سدى لــيس يليــق
بالنص نقلا عن حماة الأمــة ... فلتــدفعوا الــضيم عــن أهــل القبلــة
يهــول ، والعيــاذ بــالله العظــيم ... لا تتــساهلوا فــذا أمــر عظــيم
معبــودة ، والخيــل والأبنيــة ... إن قلــتم فــإذًا الأطعمــة
يعبد غير الله جــل ، كــالوثن ... فالــشرع آمــر بهــا مــن دون أن
مــن الخــلاف ينتهــي للعلمــا ... فقــد يــسينا الآن نفعهــا ومــا
مــشدد مــنهج كفرنــا انــتهج ... وإنمــا نطلــب بطــلان حجــج
على اسم من نثره بل انحــذف ... هــذا ملخــص ســئوال لــم نقــف
نحــن وإيــاه بجــاه الهــادي ... أرشــدنا الله إلــى الــسداد
وآله الغر وصحبه الكــرام ... صــلى عليــه الله مــا جــن الظــلام
والجــــــــواب هــــــــو هــــــــذا :
الــصمد البــر الــرؤف النــافع ... الحمــد لله المجيــب الواســع
لعمــة هديــه الــدين قــيم ... نحمــده علــى أجــل الــنعم
ملــة خيــر خلقــه الغــراء ... مــن خــصنا بالملــة الــسمحاء
مفتاح ما انعلق ، طه الــصالح ... أحمــد مــصباح الظــلام الناصــح
وضاءت الأفق بأنوار القمر ... صــلى عليــه الله مــا طــاب الثمــر
ذا المــستدل بــالكلام العــالي ... وبعــد فــانظر أولا لحــال
صــرف فــرد مــا ادعــاه بــاد ... فــإن يكــن مــدعي اجتهــاد
وكم إمام راسخ بــذا قــضى ... لأنــه فــي الــزمن الخــالي مــضى
إلــى هــواه مائــل وخلَــف ... لا يدعيــه اليــوم إلا جلــف
بمــذهب ونــاقلا مــا وجــدا ... وإن يكــن مقلــدا مقيــدا
مكتفيــا بــذلك المقــام ... مــن نــص كتــب مــذهب الإمــام
ومــا علــى أحمــد بَــابَ اعتمــدا ... فــإن يكــن لمالــك مقلــدا
القــدوة المحقــق المــشهور ... وشــيخنا علــيّ الأجهــوري

ومـا بتأليفيهمـا فيهـا اقتنـع ... المفتيين بإباحـة طَبَـع
وللزيـادي لـم يكـن بالتـابع ... أو أن يكـن مقلـدا للـشافعي
المفتيـين بـالجواز أيـضا ... وللفقيـه الـشوبري الأرضـا
ولـم يثـق بالـشيخ عبـد الله ... أو لأبـي حنيفـة الأوّاه
بحـل شـربها بـلا امتـراء ... الناسـك العابـد فـي الإفتـاء
بالشيخ مرعـي هـو المقدسـي ... أو لابـن حنبـل ولـيس يأتـسي
بحل شرب تَبَغ ببت ... العالم الكامل حيث يفتي

من كـل مـن بحـل طَـابَ يحكـم ... أو لـم يقلـدهم ولا غيـرهم
وكـان خلـف العلمـاء رحمـه ... وغيـره اكتفـى بهـم أئمـه
رحمة مولانـا الجزيـل النعمـة ... ولـم يخـلّ غيـره فـي سـعة
مـشددا منفـرا مكفـرا ... ولـم يكـن ميـسرا بـل عـسرا
محمـد أرسـله الإلـه ... لأهـل لا إلـه إلا الله
لو مـال فـي استفافها للحرمـة ... مخالفـا اجمـاع أهـل الـسنة
ومـا لنـا والجـدال مثلـه ... فكيـف يـسأل إذا عـن قولـه
مبينـا للمنـصفين ضـعفه ... هـلا نـذبت بـالعراء سـخفه
بواعبـدوا الله ، علـى مقالـه ... هـذا وإن نظـرت فـي اسـتدلاله
تجنـب الـشيء الـذي قـد حلـلا ... وحملِـه عبـادة الله علـى
إذ العبـادة هـي التوحيـد ... علمـت أن زعمـه مـردود
نـص علـى ذاك ألـو البيـان ... فـي كـل موضـع مـن القـرآن
فـسره كـل فقيـه معتمـد ... فواعبـدوا الله " بوحـدوه قـد
ولا بتـرك كـل شـيء حلـلا ... لـيس بتـرك طَابَـةٍ مـؤولا
فـسّره الغـر بغيـر مريـة ... كـذلك الإشـراك بالتـسوية
تأويلهـا بمنـع طَابَـةٍ إذن ... لا تـشركوا أي لا تـسووا فانبـذن
بما المناوي به الحديث حـل ... وزعمـه فـي مـن تـشبّه ، بطـل
بالـصالحين كهـم فانتبهـا ... وهـو إكـرام إمـرء تـشبها
يهـان محـذورا بـلا توقـف ... ومـن بـزي الفاسـقين يكتفـي
إذ كفـر الـشارب ، ذو بطـلان ... وزعمـه أصـالة الـسودان
مـن عنـده تبـدو فـي الإبتـداء ... إذ لـيس يعتبـر فـي الأشـياء
بحكمـه ، بـالإذن أو بـالمنع ... وإنمـا العبـرة بعـد الـشرع
ذي النفع في الأصح ، أن يحلا ... والحكـم بعـد الـشرع أن أصـلا
دل على هذا الـدخان الطيـب ... كـم مـن طبيـب مـاهر مجـرِّب

لـــــه ، وللـــشيوخ منـــصوصات ... وكـــم منـــافع مـــشاهدات
للانتفاع بالجميع والسلام ... ومـــن هنـــا يـــنظم فـــي سلك الطعـــام
من ليس مـــن أســـر الـــردى يفككـــه ... يـــا عجبـــا لعاقـــل يـــشككه
أم كيـــف يـــستفزه الجـــدال ... فكيـــف يـــستميله الخيـــال
بالنقل حـــال كونـــه صـــريحا ... أم كيـــف ينـــسى نفـــع مـــا أبيحـــا
مـــن أهـــل قبلـــة ومنعـــه ورد ... أم كيـــف يقطـــع بتكفيـــر أحـــد
من ذاك تحذير ، عـــن البـــشير ... ففـــي حـــديث الجـــامع الـــصغير
الله لفظه ، وقد تجلى ... كفوا عن أهل لا إله إلا

فـــي منـــع كفـــر شـــارب الطبـــاق ... وهـــذه تكفـــي بالاتفـــاق
فطـــالعن رادع الأذهـــان ... وإن أردت غايـــة التبيـــان
وعنـــد مـــا حُـدّ لـــه . قـد انتهـــى ... ويـــرحم الله إمـــراءا تنبهـــا
على النبي والصحابة الكرام ... ثـــم صـــلاة الله مـــع أزكـــى الـــسلام
وحاصل النظم : أن عالمين من المالكيـــة وهمـــا أحمـــد بـــاب وعلـــي الأجهوري ، وعالمين من الشافعية وهما الزيادي والشوبري ، وعالما من الحنفية هو عبد الله الناسك العابد ، وعالما من الحنابلة وهو الشيخ مرعي المقدسي كلهم أفتوا بحلية تناول تَبَغْ فمن قلدهم فلا سبيل إلـــى تـــضليله فكيف بتكفير ه وأن المسارعة إلى تكفير المسلمين خلاف ما أمر به النبي صـــلى الله عليـــه وسـلم مـــن الكـــف عـــنن المـــسلمين . وأما وفاته ففي عام ألف ومائتين وخمسة 1205هـــ كما تقدم وخلف من الأولاد الذكور ثلاثة صاروا كلهم من كبار العلماء وهم محمود ومحمـد المختار ، ومحمد الاغ ، ولا ينتسب إليه الآن من جهة الـذكور إلا أولاد محمود ، وأخيه نوح ابني محمد الصالح بن عبد الـرحمن بـــن محمـد المختار المذكور ، وخلف بنات أنجبن بكبار العلماء ، ولـم يبـق مـن جماعتنا من يعد من كبار العلماء إلا وهو من نـسله بـارك الله فـيهم .
***

12 ـــ ترجمة محمد المختار بن هَمَّهَمَّ ويعرف باسم " حَكَاكَ " :

وهو القائم بأمر جماعته بعد وفاة إخوته ، وكبار بني عمـه بالطـاعون المتقدم ذكره الواقع في عام ألف ومائتين وخمس 1205هـــ ، ويروى أن ذلك الوباء لم ينج فيه من حيهم أو أحيائهم إلا ثلاثة رجال محمد المختار هذا ، وأخوه محمد بن الإمام ويعرف باسم " إدَّا " ، والصالح بن أحمـد وكان أصغر الثلاثة سنا ، ومن كبار العلماء مع صغر السن ولما مـات

كبار الحي وبقي الصغار الأيتام والأرامل والأيامى وكثير من الضعفاء اتفق رأي الثلاثة على أنهم لا يعملون عملا يجبر ما أصابهم إلا خدمة العلم بالتعليم والكتابة والتمسك بالهدي النبوي وسيرة السلف الصالح ولما سمع إخوانهم وقرابتهم من غير الحي بالحادث الواقع في الجماعة وأن جميع العلماء ماتوا همّ بعضهم بالرحيل إلى محل البقية ليذهبوا بالصغار إلى منازلهم فلما سمعوا أن محمد المختار حي حمدوا الله على بقائه وبقاء إخويه المذكورين وأيقنوا أنهم سيقومون مقام الجماعة فاجتهدوا كلهم في القيام بواجبهم من التعليم والإرشاد وحسن القيام على أموال الجماعة وتنميتها ، وكان الشيخ محمد المختار قبل ذلك لا يذكر مع أخويه لبره بهما وتقديمه لهما فلما ماتا ومات كبار الشيوخ من بني عمهم وبقي خلفهم قام مقامهم في تربية أولاد الكل وتعليمهم والقيام بمؤن الجماعة أحسن قيام وإعانة صاحباه أحسن إعانة ولم يمض عليهم كثير من الزمن حتى بلغ أولئك الصغار الأيتام وهم على ما يرام فرجعوا ما ذهب من مآثر أسلافهم ، وكان أولاد شقيقيه ستة بنوا مَحمد ثلاثة ، وبنوا أحمد ثلاثة ، وأولاد بني أحمد بن الشيخ جماعة أيضا وليس فيهم من رحل في طلب العلم وإنما أخذوا العلوم بواسطة الشيخ محمد المختار وأخويه المذكورين وكانوا كلهم من كبار العلماء فيكفي من حسن تربيته لهم ما ظهر عليهم وكفى من فضله قيامه مقام الجماعة ولم أر أثرا له في غير القيام بحيه بعد وفاة إخوانه وكاتَبه بعض شيوخ بلده وهو حَامَّ بن محمد الكلادي ، وذكر له أن النصيحة لوكانت تترك لأحد لجلالة قدره لتركت في حقكم ثم كتب إليه نصائح ووصايا في حق إخوته وأولاد إخوته وجيرانهم وعمل بجميع تلك الوصايا وأسس عليها أعماله وتخلق بما فيها من أخلاق السلف الصالح ، وكانت تلك الآداب التي كتبها إليه هي أخلاق جماعته من بعده ومن شدة تمسكه بالسنة صار أهله يضرب بهم المثل في اتباع السنة حتى قال بعض الناس لا فرق بينهم وبين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . ومات وورث كتبا كثيرة ولم أقف على تاريخ وفاته .

13 ـــ ترجمة الشيخ الصالح بن أحمد والد الشيخ مهدي :

هو ابن أحمد بن القاري بن الشيخ بن أحماد بن إنك يلتقي مع بني هَمَّهَمَّ في جده الثالث أحماد بن أنك ولم يبق أحد من ذريته إلا من كان أولاد مفلح بن محمدُ من أهل تَبُورَقْ فإن أمه عيش بنت مهدي بن الصالح . كان الشيخ الصالح يعرف عندالناس من غير تركيبه مع محمد وهو نفسه إنما يعرف نفسه باسم محمد الصالح بن أحمد وهو الذي يكتبه في الإجازات التي وقفت عليها بخطه ، هو ثالث إخوته الذين كانوا بقية خير

بعد الوباء المفني لحيهم أو أحيائهم ، وكان أصغرهم سنا لكنه هو المنتدب لأخذ رواية التفسير عنه ، وهو الذي تسند إليه الإجازات لرواية كتب الحديث وكل ما أخذ من رواية التفسير والحديث في بلادنا إنما أخذ بواسطته وهو أخذ عن جدنا محمد بن هَمَّهَمَّ وعنه أخذ من بعده وله تمكن في النحو واللغة والتفسير والحديث والفقه ورأيت من آثاره شرحا مختصرا على قصيدة ابن مالك في المقصور والممدود سماه (تحفة الأريب) وكتابا مختصرا في التصريف ، وهو الذي أخذ عنه شيخ الشيوخ محمد ألاغ بن أحمد الذي صار بعده عمدة في الفنون وتوفي في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري ودفن في مقبرة إظْكَوَنْ مع جماعة من بني عمه ولم أر من ذكر تاريخ وفاته .

14 ـــ ترجمة شيخ الشيوخ مهدي بن الصالح : هكذا يعرف على ألسنة الناس بغير " أل " وهو بنفسه يزيدها في كتاباته هو من كبار أواسط القرن الثالث عشر الهجري وهو كأبيه في العلم وإجادة الخط ، أخذ عمن أخذ عن والده وورث من والده كتبا كثيرة وكتب بيده المباركة كثيرا من الكتب بأجود خط ، وكان الكتاب في بلده يعترفون بأن خطه وخط والده هما أجود الخطوط ، انتهت إليه رياسة أهل بلده في الفنون العلمية وغلب على طبيعته علم اللغة والنحو والتفسير والحديث على حسب ما وقفت عليه من آثاره ورأيت كثيرا من خطوطه أما العلوم التي غلبت عليه فله كثير من الشوارد في حل مشكلها نحوا ولغة وتفسيرا ، وله تقريرات على الكتب التي يطالعها كشأن والده وأما الفقه فلم أر فيه أثره لكن فشا في بلده أنه إمام في سارئر العلوم وتلامذته الذين أخذوا عنه صاروا بعده أئمة في أقوامهم ، وأما التفسير فإليه انتهت الرياسة فيه في وقته وهو المرجع في روايته ولم أقف على تصنيف فيه إلا رسالة سماها (كنه الجواب وفاكهة أهل الألباب) في الكلام على قوله تعالى { وإذا أخذ الله ميثاق النبيئين لما آتيناكم من كتاب وحكمة } إلى قوله { لتؤمنن به ولتنصرنه } . ومن طليعة الأخذين عنه مَداحْمد بن مِدَوْ وكان قرينه ، ومحمد الصالح بن محمد بن مَيَدِ ، وكان صحبه في أواخر القرن الثالث عشر الهجري ثم عاش بعده إلى أن صار في أوائل القرن الرابع عشر أمة يرحل إليه من سائر النواحي لأخذ التفسير عنه ومن أخذوا عنه التفسير في أحيائنا هم الأئمة فيه بعده ، ليس في أحيائنا في هذا الوقت من يأخذ التفسير باللغة التارقية رواية إلا بواسطة محمد الصالح بن محمد بن ميد عن مهدي بن الصالح . وأما رواية الحديث بالإجازة فكذلك ووقفت على إجازة بخطه أولها بعد الحمد والصلاة (وبعد : فيقول

صاحب الخط مهدي بن محمد الصالح قد أجزت أخي محمد أحمد بن محمد الأمين بن مَحمد بن هَمَّهَمَّ بقراءة كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، كما أجازني به الشيخ محمد ألاغ بن أحمد بن هَمَّهَمَّ قائلا كما أخبره به الوالد المذكور محمد الصالح قائلا كما أخبره به العالم أحمد بن هَمّهَمّ قائلا كما أخبره به الشيخ أحمد بن الشيخ إجازة وقراءة منه عليه لنحو خمسة عشر جزءا كما أخبره محمد بن محمد بغيغ ..ألخ) . وأما مشائخه فلم يشتهر منهم إلا ابن عم أبيه محمد ألاغ بن أحمد وهو الذي يسند إليه رواية الحديث والتفسير ، ورأيت بخطه في قرطاس بال أنه أخذ عن أحمد المشهور بميدي ابن ومَلّنْ كما أخذه عن الوالد الصالح قائلا كما أخذه عن النحرير محمد المختار الملقب بسكَوْنا كما أخذه عن الشيخ الفاضل سيد المختار الكنتي ، ثم سرد أشياخ السيد المختار إلى آخرهم ، كذا وقفت عليه في قرطاس بال سقط فيه عين المأخوذ وغرضي من سوق هذا أن الشيخ أخذ شيئا عن غير أهل بيته . ومن منظوماته قوله في ذكر مراكب النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء :

سبع مراكب بلا إمتراء ... كان له في ليلة الإسراء
فبعده المعراج للسما ، أقبس ... أولها البراق للمقدس
منه إلى أن انتهى للسابعه ... فبعده أجنحة الملائكه
سدرة الإنتها العظيمة الحلى ... فبعده جناح جبريل إلى
فبعده الحيزوم ، من يباهي ... ورفرف لساق عرش الله
لقاب قوسين ، فنعم القدوه ... منه لعليين ، ثم القدره

وأما صلاحه وورعه وعمله بعلمه فإنها تضرب بها الأمثال إلى أن وصلت إلينا بعد قرن وكأنها إنما وقعت أمس لشدة اعتناء الناس بنقلها خلفا عن سلف ، وكان ممن ألقي عليه المحبة والمهابة مع خضوعه ولين عريكته وحسن خلقه ، ويحكى من عجائب غضه للبصر أنه إذا أراد أهله الرحيل أعلموه ليلا فسار إلى الموضع الذي أخبروه أنهم يريدون الرحيل إليه فإذا وصله وعين المكان الذي يريد البناء فيه اعتزل في موضع قريب من المحل الذي يريد البناء فيه فإذا حس بالأنعام والظعن تدثر بثوبه وسأل من معه عن المراكب الحاملة للأثقال وأمر بالإسراع في إنزال الأثقال عن المراكب فإذا ضربت خيمته توجه إليه بعض خواصه ليقوده إلى منزله لأنه لا يزال معمضا عينيه لئلا يقع بصره على بعض أمتعة الغير فيقاد كالأعمى حتى يجلس في سريره وبعد ذلك يفتح عينيه ويشرع في الإقراء والتدريس ثم يأمر جماعته بتعهد المواشي وإصلاح حالها ثم يقبل على الذكر إلى آخر النهار وكان ذلك دأبه دائما يبدأ نهاره بالذكر ثم يقبل على

التعليم ثم يأمر بإصلاح أمور المعاش والقيام على المواشي ثم يختم بالذكر لم يترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه . ويحكى من غضه لبصره أن بعض أصدقائه أتاه وقال له أهديت لك ثورا كبيرا جيدا فقال : له ما يدل على قبول هديته ولم يزد على ذلك فقال : له المُهْدى لا تطيب نفسي إلا بأن تصحبني إليه حتى تنظره فتعلم أني تخيرته لك فقال له الشيخ لا حاجة لي في ذلك حسبي ما وصفته به من الكبر الجودة فألح عليه الواهب حتى قام معه إلى البقر غاضا بصره مقودا كالأعمى حتى وقفه عليه ووضع يده عليه فحينئذ فتح عينه حتى نظر إليه ثم أغمضها لئلا يقع بصره على غيره من بقر الواهب فقاده قائده غاضا حتى أجلسه في مجلسه الذي قام منه ، ويحكى عنه كثير من الكرامات الخارقة للعادة من ذلك ما حدثني به الشيخ الوالد عن ابن عمه محمد الصالح بن عبد الرحمن وكان ثقة قال له كنت ذات يوم مع والدي عبد الرحمن والشيخ مهدي وأنا صغير يردفني والدي فبينا نحن نسير في فلاة ليس فيها شجر ولا مأوى إذ رأينا جيشا من أهل آيَرْ يقصدنا ولا مندوحة لنا فلما تحققنا وأيقنا أن لا بد لنا من ملاقاتهم قال والدي للشيخ مهدي إن كان معك حيلة فأت بها فإن هذا العدو لا بد لنا منه فنزل الشيخ وحفر حفرة صغيرة ثم قرأ فيها ما قرأ وتفل فيها ثم أهال عليها التراب وضربها بكفه المباركة ثم استوى على راحلته وقال : لصاحبه لنسر إلى حيث نشاء ، قال الراوي محمد الصالح فلما ركبنا التقينا مع الجيش وشققناه فلم يلتفت إلينا أحد حتى خرجنا إلى آخرهم ولما تيقنت أنّهم لا يروننا جعلت العب بما على جمالهم من المتاع وآلة الحرب ربما أخذت مجن أحدهم فقلبته وحولته عن مكانه ولا يشعر صاحبه بذلك ثم ألتقي آخر فأفعل معه كما فعلت مع صاحبه ولم يزل ذلك دأبي معهم حتى وصلنا إلى آخرهم ونحن محجوبون عنهم لا يروننا بإذن الله . ومما يحكى من كراماته أن بعض الناس آثره بما يعده للبذر فلما جاء أبان الأمطار وليس معه بذر جلس مغتما لا يدري ما يصنع فأنبت زرعه أضعاف ما ينبته قبل ولم يعمل فيه شيئا من أسباب الإنبات وسرد القصة على ما يحكى أن الشيخ أجدبت منازله في الصحراء فألجأه الحال إلى جوار السودان في منازلهم البحرية ، وكانت هي مجدبة إلا أنها خير من منازل البر وفي بعض الأيام ركب الشيخ مع صاحب له يعرف لغة السودان ليترجم له ما يجري بينه وبين من يقابلهم فألجأهم الحر في وسط النهار إلى بيت منفرد لا ظل في ذلك المكان غيره فلما أتوا إلى البيت دخله صاحبه بغير استئذان وجلس هو حول البيت ينتظر الإذن فخرجت ربة البيت وكان زوجها غائبا فصبت

عليهما من الجفاء اللساني ما قدرت عليه فجعل صاحب الشيخ يجاوبها في بعض المرات وكان عارفا بلغتها والشيخ غير عارف بها فلما علم الشيخ بالقرائن أن المرأة لا ترضى بنزولهما في بيتها قال : لصاحبه هلا أخبرتها بمن أنا فعسى أن تتكف إذا عرفتني ، وكان غرضه في أن تعرفه وتغير حالها شفقة عليها لأنها إذا سمع أهل البلد أنها قابلته بالجفاء مقتوها واحتقروها فقال لها صاحبه الذي يجاورها ، هل سمعت بالشيخ مهدي الذي يسمع الناس معنى كتاب الله فقالت له وهل في الوجود من لم يسمع به فقال لها هو هذا الذي حول البيت فلما سمعت منه تلك الكلمات صاحت ونادت بالويل والثبور وجعلت تلقي التراب على رأسها من شدة الندم ثم جاءت بفراش مزين وجعلته في البيت وأمرته بالدخول ثم شرعت في إكرام الضيفين بما تقدر عليه ثم حضر زوجها فلما رأى زوجته تبذل جهدها في الخدمة للضيوف قال : لها من هؤلاء الأشراف الذين تخدمينهم فأخبرته الخبر فمضى إليهما وسلم وعظم ثم عمد إلى شياهه فذبح أجودها وأحسن إليهما فلما أرادا الارتحال بعد صلاة الظهر قال له صاحب المنزل عندي ظرفا من الأرز أعدّه للبذر وقد أهديته لك وأثرتك به ثم ودعهما وانصرفا مكرمين ، وأما المؤثر فلما جاء زمن الأمطار ولم يجد من يسعفه بشيء من الطعام لا بالشراء ولا الهبة ، جلس آئسا من إنبات زرعه على سبيل العادة فلما أنبتت الزرع التي تجاور زرعه أنبتت مثلها أو أحسن منها فتعجب الناس من ذلك وما زال زرعه ينموا حتى جاء أوان الحصاد فنال منه أضعاف ما كان يجده منه قبل إذ كان يخدمه بما هو المعتاد فتيقن أن ذلك إنما وجده ببركة إكرامه للرجل الصالح الذي أكرمه هو وزوجته وآثره ، ومثل هذا من حكاياته الخارقة كثير . وأما وفاته فلم أقف على تعيين تاريخها إلا أن القرن الرابع عشر أتحقق أنه لم يدركه لأني رأيت من ولد في أوله ولم يدركه ، وقبره بقرب قبر أبيه في إظكوَنْ .

***

15 ــ ترجمة مَدَ أحمد بن مِدَوْ بن حمَّ بن أحمد بن الشيخ :

هو آخر من ينسب إلى أحمد بن الشيخ من جهة الصلب وأمه من ذرية أكَّايَّ تلتقي مع أبيه في علي بن يحي ، وهو إمام حيه بعد الشيخ مهدي وكان من أكبر الأخذين عنه ثم صار قرنه يرسل إليه بعض التلاميذ ثم صار إليه الأمر بعده من جهة التعليم والإفتاء ومن جهة القيام بمؤن الحي وكان مع علمه وعمله شهما شجاعا عاذا نفس أبية ألقي من المحبة

والمهابة في قلوب سائر الخلق ما يتعجب منه السامع وكان مشاركا في الفنون ، حدثني بعض أشياخي عن شيخهم محمد الصالح بن ميدِ وكان من أقرانه ومن تلاميذته أنه قال : له ليس في مختصر خليل مسألة أصعب على شيخنا مدَ أحمد من الأخرى من شدة ضبطه لمسائله وكان من أكثر أهل بلده كتبا في سائر الفنون إرثا من أبائه وورّث هو من الكتب وقر عدد من المراكب وكان يحققها فكان لا يرضى لنفسه مرتبة التقليد ولكن لا يجادل من ينكر عليه من موجبيي التلقيد ولا يفتي إلا بمشهور مذهب مالك ، وربما أحال الخصوم على غيره من إخوانه وأغلب من يحيل عليه الخصوم فيما بلغني ابن عمته عَمْنَا بن أحمد شيخ أهل تِكِرَتِنْ ، وكان الشيخ عَمْنَا فقيها أصوليا ماهرا في صناعة القضاء سلم له معاصروه السبق في شئون الإفتاء والقضاء ، وكان من معاصري مَدَ أحمد في حي إكَدَشْ الشيخ الإمام الكامل العالم العامل محمد بن دانيال فقد ذكره في بعض تآليفه ووصفه بأوصاف الكمال وشهد له بأنه التقي النقي الورع العدل وذكر أن حكمه لا يجوز أن يتعقب . وأما شيوخه فلم أعرف منهم على التعين إلا مهدي بن الصالح لكن أتحقق أنه لم يرحل في طلب العلم إلى أي بلد بل تعلم في حيه فجميع من سبقه من علماء حيه يمكن أن يأخذ عنه كما هو الشأن في طلب العلم عندنا ، وأما الآخذون عنه فمنهم جماعة أخذوا عنه التفسير منهم جدي عُمَار بن محمد الأمين ، وأهل طبقته من حيه وغيرهم ، ومنهم شيخ الشيوخ محمد الصالح بن مَحمد بن ميد وهو الذي أخذ عنه الفقه ، وأما تصنيفه فلم أر منه إلا رسالة مختصرة في حل ما يستشكله أهل وقته من عبارة السعد التفتازاني في حد الملكة وقد تلقاها الناس بالقبول وانتفعوا بها ، ويحكى من كراماته أنه في بعض المرات زار حيا من إخواننا وأصدقائنا إكِلاَدْ وكانت أرضهم مجدبة منذ سنين فشكوا إليه حالهم وما قاسوه من الشدائد وقالوا له نريد أن تفسر لنا كتاب الله فعسى أن ننال ببركة ذلك غيثا فأجابهم لما طلبوا فأخذ يفسر لهم القرآن بلغتهم حتى ختمه فلما فرغ من ذلك قال اللهم إن كنت تعلم أن ما حدثت به هؤلاء هو معنى كتابك فأغثهم غيثا نافعا ينجبر به ما انصدع في السنين الخوالي من أمورهم فأنزل الله عليهم غيثا مغيثا أنبت كل معتاد وأنبت من النبات الغير المعتادات في بلدهم كثيرا حتى صار الناس يكتسبون أنواع الطيب والحلي وحتى الإبر التي يخاط بها صارت تكسب من البلد ودامت بركة ذلك الغيث في بلادهم سنين هكذا حدثني الشيخ الخضر بن الشيخ حماد عن أسلافه . وأما ولادته ووفاته فلم أطلع على تاريخها بل وقفت على بعض خطوطه

مؤرخا هكذا (1240) وقد عاش بعد ذلك التاريخ إلى النصف الأخير من القرن الثالث عشر الهجري وقبره في إظكْوَنْ حيث كان قبر جده وقبر شيخه مهدي وقبر الصالح والد مهدي رحم الله الجميع .

***

16 ـــ ترجمة أحمد المعروف باسم (أحَمَّ) بن حكَاكَ : هو من العلماء العاملين كأبيه وجده ولم أقف على تاريخ ولادته ووفاته ولكن ابن عمه الذي هو جدي الثاني أتحقق أنه عاش في أوائل القرن الثالث عشر الهجري وتوفي في أواسطه وهو قرينه كما لم أقف على تعيين مشائخه وتلاميذه وليس له رحلة في طلب العلم ولم يأخذ شيئا إلا من أهل بيته فهم الذين يرحل إليهم الطلاب في أيامه ولا يرحلون إلى غيرهم فيما بلغني ، وأما خطه فهو أجود الخطوط ، وقد رأيت مما يدل على أنه من أوائل القرن الثالث عشر مكتوبا في آخر تفسير الجلالين لفظ ذلك المكتوب هكذا : (انتجز هذا الحل المبارك بحمد الله ميسر المسالك تحت يد مكمله لخاله أحمد بن المختار الملقب بحمّكاك رحمنا الله وإياه قبيل غروب شمس يوم الإثني في شهر الله جمادي الأخرى عام 1221هـ من الهجرة النبوية نسأل الله السلامة بجاه محمد صلى الله عليه وسلم الذي أرسل إلى الورى وخير من دفن تحت الثرى) انتهى ما كتبه قلت وذلك الكتاب هو مَحمد بن بلىبن ادّا بن الإمام ، وتسميته جده أبا خاله بحمكاك بزيادة الميم المشددة بين الحاء والكاف هي الجارية على بعض الألسن وبعض الناس لا يزيد الميم بين الحاء والكاف وإسقاطها هو الغالب في العصور المتأخرة . وترك من الأولاد محمد المختار ، وثلاث بنات إحداهن أم شيخنا محمد الصالح ابن محمد بن ميدِ رحم الله الأصول والفصول آمين .

***

ـــ تراجم بني مَحمد بن هَمَّهَمَّ وهم : محمد الصالح ومحمد الأمين ومحمد إكنَنْ .

***

17 ـــ أما محمد الصالح :

فلم يصل إلي من خبره كثير لأنه لم يترك ولد يذكر به بل خلف آثارا علمية وقفت عليها أثناء التفتيش منها نخسة من تفسير الجلالين مخشاة ينقول كثيرة من كتب التفسير وغيرها وكان هو كاتبها بأجود خط ، ومنها إجازته في صحيح البخاري ونصها : (الحمد لوليه ، والصلاة والسلام على محمد نبيه ، وبعد فيقول أحمد بن محمد إكْنَنْ قد أجزت

الأخ في الدين والطين محمد الصالح بن محمد همّهمّ في قراءة الصحيح للبخاري بالشرط المتعارف بين أهل هذا الشأن كما أجازني بذلك الشيخ الصالح بن القاضي محمد البشير قائلا كما أجازني بذلك محمد الملقب بحَمَّ بن الشيخ أحمد بن الشيخ) ثم سرد السند المشهور إلى محمد بن إسماعيل البخاري .

***

18 ــ وأما محمد الأمين :
فلم يصل إلي من خبره إلا أن عمي أحمد بن عُمار المشهور باسم الكرماني قال : لي سأل من يعرفه من الثقات الكبار عن حاله في العلم فقال : له بحر لا ساحل له في العلوم ولكنه آثر الخمول على الظهور وكان من الصوفية له تلاميذ في الطريق الصوفي من قومه ومن غيرهم منهم الشيخان الجليلان الصالح بن سيدي بوبكر والشيخ الأنصاري عَمْنا ، مات في أواسط القرن الثالث عشر الهجري وخلف من الولد ثلاثة إثنان منهم مشهوران بالعلم والعمل وهما : جدي الأدني عُمار ، وأخوه مَمَّا .

***

19 ــ وأما محمد إكْنَنْ بن محمد : فهو من العلماء بشهادة خطوطه التي عندنا فقد ورّث خزانة كبيرة من الكتب بعضها في الفقه وبعضها في الحديث وبعضها في السيرة وله تعاليق وحواش عليها تدل على أنه مطلع عليها وعلى غيرها مما يصحح منه طررها وكان صبيا حين مات أبوه في أوائل القرن الثالث عشر وبقي تحت كفالة عمه حكاك وأخذ العلم عن أهل بيته وكان ممن أجازهم الشيخ الصالح ابن أحمد ونص إجازته له بعد البسملة والصلاة : (الحمد لله الذي جعل أسانيد العلم أنسابا وفتح إليه أبوابا والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم ، وبدائع الحكم ، وبعد فيقول كاتب الحروف محمد الصالح بن أحمد قد أخبرت الأخ محمد إكْنَنْ بن محمد بجميع صحيح البخاري قراءة من أوله إلى كتاب الدعوات في السفر الآخر منه وإجازة لباقيه لكن بالشرط المعتبر وهو الوقوف عند ما أشكل والمراجعة لما أعضل كما أخبرني بذلك أبوه مَحمد بن محمد أحمد قائلا كما أخبرني به الشيخان حَمَّ وأبوه أحمد بن الشيخ إلى آخر السند) قلت وهذا الشرط الذي شرطه عليه المجيز يدل على أنه يعرف منه أهلية الوفاء به كما أن التزامه هو له ، دليل على أنه يعرف من نفسه تلك الأهلية وكفى بهذا دليلا على أنه من العلماء الأجلة ، وتوفي في منتصف القرن الثالث عشر الهجري وقبره بمعهد أسلافه تَكَلَّتْ ، وترك ولدين مباركين وهما الخضر المعروف باسم حَدِي والمصطفى .

***

20 ـــ ترجمة الخضر بن محمد ويعرف باسم حَدِي : كان من أعلم أهل زمانه في سائر الفنون ومن أجودهم خطا ، وكان مولعا بنقل العلم حتى حدثني بعض أشياخي أنه إذا أوقف على قطعة من القرطاس بالية جهد نفسه في تدارك ما فيها فجدده في قرطاس آخر ، وكان مشاركا في الفنون عربية وحديثا وتفسيرا ومصطلح حديث وتصوفا وخط مصحف وخلف في جميع تلك الفنون كتابا أو كتبا ولم أعثر على نظم ولا نثر ، وكان محبا مؤقرا ذا كرامات أورثت له المحبة والمهابة في قلوب كل من رآه فممايحكى من كراماته أنه أتى قرية من السودان على شاطيء البحر فطلب منهم أن يحملوه في سفينتهم فأعرضوا عنه ولم يلتفتوا إليه فلما تحقق منهم الإباء عمد إلى سجادته فألقاها على البحر ثم جلس عليها أمر عبدا له معه أن يجلس خلفه فأمتثل أمره ثقة به فطفا بهما الجلد وجرى بهما كما تجري السفينة ولم يشعر أهل القرية بذلك إلا بعد مدة فلما نظروا إليه وهو يسير على البحر سقط في أيديهم وفزعوا ثم سارعوا إليه بالقوارب حتى لحقوه وناشدوه أن يدّخل في سفينتهم لئلا يصيبهم مكروه بسبب خذلانهم له فلما ألحوا عليه سامحهم وأسعفهم بمرادهم . ومما يحكى منها أنه مر ببيت من قبيلة دَبّاكَرْ فسلم عليهم ثم جلس خلفه لئلا ينظر إلى داخل البيت ثم مد يده من وراء ظهره إلى البيت وقال لأهله اجعلوا لي في يدي تَبَغْ فخرج إليه رب البيت وانتهره ثم صب عليه الجفاء ما قدر له حتى نسبه إلى الوقاحة وغيرها مما هو بريء منه فلما أكثر عليه لم يزد على أن استوى على دابته ثم مضى أمامه ولم يجبه ببنت شفة فلما أدبر قام ذلك الجافي إلى فأس ورفعه وقصد شجرة قريبة من بيته ليقطع منها غصنا السخالة فلما ضربها بالفأس طارت منها شوكة إلى إنسان عينه فاستمكنت منه فطلب أهله إخراج الشوكة وعالجوها بكل حيلة فلم ينفعهم شيء من ذلك فصاروا في حيرة وغم ثم قام شيخ كبير السن منهم وقال لهم إن كان الرجل الذي ذهب عنكم آنفا من أولياء الله الذين ينتقع ممن آذاهم فقد عامله صاحبكم بما يوجب أن ينتقم الله منه لوليه فاطلبوا ذلك عسى أن يفرج الله عن صاحبكم ببركته ودعائه فاتفق رأيهم على طلبه واقتصوا أثره حتى لحقوا به وطلبوا منه أن يرجع معهم إلى صاحبهم ليسعى في كشف ما نزل بهم فاعتذر لهم ولم يزالوا به يذكرون له ما يصابحبهم من شدة الوجع حتى غلبت عليه الشفقة فكر راجعا معهم حتى وقف على صاحبهم وقد انتفخ رأسه وكاد يغشى عليه من شدة الوجع فلما جلس إليه الشيخ مسح على عينه فسقطت الشوكت ،

وقال له كيف أنت الآن فقال له أما الوجع فقد زال وأما بصري فإن لم يزدد الآن فلم ينقص وعرضوا عليه المال فأعرض عنه إلا قليل من التبغ الذي سألهم إياه من أول الأمر . وله كرامات أخرى يطول استقصائها . وأما شيوخه فمنهم ابن عم أبيه ألاغ بن أحمد أخذ عنه التفسير والحديث وأجازه بسند أهل بيته المشهور . وعاصر الشيخ مهدي وعبد الرحمن ولم أطلع على أخذه عنهما ولا أخذهما عنه . وممن عاصره من المشائخ قطب زمانه حَنَّ بن أمَّتَّالْ ، ولم أقف على ما يفيد أخذه عنه بل بلغني أن الشيخ حَنَّ لما احتضر وأئس منه أمر الناس بأن يرسلوا في طلب الشيخ الخضر ليحضره ، وكان الحاضرون لا يرجون أن يبقى حتى يحضر من كان غائبا ولا يرون فائدة في استحضار أحد لم يكن بذلك المجلس فأمروا بعض الحاضرين بأن يغيب عن المجلس ويوهمه أنه يطلبه فلما أفاق من بعض سكراته قال : للناس ألم أقل لكم أبعثوا إلي الخضر حتى يحضر ، فقال : له بعضهم عقد بعثنا في طلبه فقال : لهم من بعثتم فقالوا فلان ، ثم أفاق بعد ذلك ، وقال : لهم ألم أقل لكم أبعثوا إلي الخضر فقيل له قد بعثنا فقال : إن فلانا الذي زعمتم أنكم أرسلتموه لم يذهب بل هو في بيت فلانة لامرأة من الحي فلما علموا أنه ليس بصدد أن يخفوا عليه شيئا لكونه من أهل الكشف ، بعثوا من جاء به فلما حضر جلس خلف الستر فلما أفاق الشيخ من السكرة سأل عنه فأخبر أنه قد حضر فناده ليس ذلك مكانك أدن مني فإني لا أريد أن يغسلني غيرك ثم دخل عليه الستر وجرى بينهما من الأسرار ما الله أعلم بحقيقته ثم قضى نحبه فتولى تجهيزه ، ويعد ذلك من كراماتهما معا . ومات في أواخر القرن الثالث عشر الهجري ودفن في موضع من البحر يقال له أكْورَ بن تَاشَرين وكاو . وله أخ اسمه المصطفى ويعرف باسم (حَممنف) وكان من أجود الناس خطا وابناه من أهل العلم ولا عقب لهما وبلغني أنهما من أهل الفضل وممن يسعى في نفع المسلمين تقبل الله من الجميع .

***

21 ـــ ترجمة الشيخ محمد بن حَدي :

هو محمد بن الخضر المعروف باسم حَدي بن محمد إكَنَنْ بن محمد بن هَمَّهَمَّ :

وأمه عائشة بنت محمد ألاغ بن أحمد بن همّهمّ يجمع والده في في الجد الثاني ، كان من العلماء العاملين والأولياء الكاملين أديبا فصيحا نحويا بيانيا لغويا فقيها ، والغالب عليه من العلوم علوم القرآن والحديث فهي التي اشتدت عنايته بها مع مشاركته في غيرها ، وأما شيوخه فأغلبهم أهل بيته من الأعمام والأخوال ، وفي صغره أرسله عمه بعد موت أبيه إلى حي أهل تِكِرَتِنْ برسم التعليم ورباه أبنا عَمْنا والميمون وابن عمهما أحمد بن الصالح فقرأ في ذلك الحي متن الرسالة لابن أبي زيد ، وعلم النحو ، وشيئا من مختصر خليل ، ثم رجع إلى حيه زمن شبابه فأدرك من أقاربه مشائخ أجلة منهم ابن عم أمه عبد الرحمن بن محمد المختار وابنا عم أبيه دنية مَمّا ، وعُمار ابنا محمد الأمين وابن عم أبيه مَد أحمد بن مِيد هو المشار إليه والمقلد زعامة تدريس العلوم بعدهم فكان صاحب الترجمة من أكبر الآخذين عنه ومن أقرانه فتلقى عنه كثيرا من العلوم وباحثه في مسائل عديدة ، وممن أخذ عنهم ولازمهم من الشيوخ ابن خالته لُولُ بن البصيري من أبناء بَابَ أحد الثمانية المشهورين باسم أتَّمَنْ ، ومنهم معاصروه من بني عمه مِنْ أهل تَبُورق كأولا مَحمد بن سيدي بويكر ، وأولاد محمد المختار المعروف باسم تَالْ وغيرهم من حيهم ، وله مذاكرات ومراسلات مع غيرهم من علماء بلده من أهل السوق والعرب ، وأما الآخذون عنه فقليلوا لأنه مشغول بالأمور العامة عن التدريس ، وكان حريصا على التعلم والمطالعة مع كثرة النوائب والشواغل التي لولا كونه من أهل النفوس الأبية والهمم العلية لأنسته ما حصل من العلوم فكيف يزداد معها تحصيل ما لم يحصل ، وكان ملازما لقرآة صحيح البخاري وختمه كل عام في شهري رجب وشعبان وختم الشفا في شهر رمضان وقراءة قصائد المدائح النبوية كل ليلة من رمضان كما هو عادة قومه من زمان قديم ، وكان محبا لأهل الخير محبا للعلماء من كل أمة معظما له مسديا إليهم معروفه ، جرت له في ذلك قضايا كثيرة فنال من بركة تعظيمه لأهل العلم تعظيم الناس له ليس في بلده عالم ولا سلطان ولا زعيم إلا وهو يقر له بالفضل ويواصله ويراسله في المهمات ، وأحب الناس إليه من يشتغل بما يعنيه وأبغضهم إليه البطالون والمفسدون ، وأحب العلوم إليه كتب التفسير والحديث ثم كتب السيرة النبوية ، ويحرص على التخلق بما فيها من الآداب وقد نال من ذلك حظا وآفرا وكان له كثير من الكتب المدونة فيها ، وأما الفقه فقد كان مشتغلا به حين يفصل بن الخصوم لئلا يقول إلا ما رآه منصوصا فلما كبر سلم أمر الخصومات إلى ابن أخيه محمود بن محمد الصالح فاستراح

من مطالعة كتب الفقه واشتغل بما سوّاها ، وأما التصنيف فلم يكثر منه لما إبتلي به من مقاساة أمور شاغلة وفتن متتابعة فإنه حين كان بضدد أن يشتغل بالتصنيف في النصف الأخير من القرن الثالث عشر الهجري قامت الحروب بين أهل بلاده وبين أهل دنّك بين الإنصار بن النابغ أمير إولمّدن أتَرَمْ وبين محمد بن الكميت أمير إولمّدن دَنّك فلقي الناس من تلك الحروب شدائد لا تحصر حتى كان آخر الأمرين الفريقين وقعة مَنَكَا في عام ألف وثلاث مائة وخمسة 1303هـ أعوام ثم قامت الفتن الواقعة بسبب دخول فرنسا للبلد وجلاء الناس عن أوطانهم فارين منهم ثم الفتن الواقعة بين فرنسا ومن والاهم وبين من نقضوا صلحهم بعد ما أبرموه مدة من السنين وقام في تلك الأمور قياما لا يتفرغ معه للتصنيف وقد رأيت له جوابا عن أسئلة وجهها إليه الشيخ بايْ بن سيد عمر الكنتي في نحو كراسة وقصيدة وجهها إلى الشيخ أيضا ، وله رسائل في فتاوى كثيرة ، وكان لا يستريح من الاجتهاد في الطاعات مع غاية الضعف والكبر فكان يختم القرآن في جميع الحالات ، وكان من المهرة به حتى كأنه لا يفتر عنه ولا شغل له سوى تلاوته ومع ذلك لا يترك الإطعام والإهداء إلى الجيران والإحسان إلى الصغار لا سيما التلاميذ واليتامى ويمازحهم ويتالفهم مع شدة هيبته في قلوب الكبار ، ومن عادته أنه إذا أصبح وفرغ من أحزابه وأوراده طاف في جيرانه مستصحبا الشيء من الهدايا يفرقها وربما حمله معه شيئا من الفاكهة يخص به الصغار فإذا أتى إلى بيت قام خلفه فسلم على أهله ثم نبذ إليهم شيئا مما معه ويتلقاه الصغار ويكلمهم بشيء مما تطيب به أنفسهم ثم يتحفهم بشيء من ذلك ولا يزال على ذلك حتى يرجع إلى منزله ولم يجلس عند بيت أحد ثم يشتغل بأمور الأهل والأضياف فإذا فرغ من ذلك أقبل على المطالعة وربما أمر بعض أهله أن يقرأ عليه الكتاب ويستمع له ولا يزال كذلك إلى آخر النهار ثم يشتغل بأمور عشاء الناس حتى يفرغ منه ثم يصلي العشاء ويفارق الناس ويشتغل بالعبادة من صلاة وتلاوة ثم ينام قليلا ثم يؤذن للفجر عند السدس الأخير من الليل فيطوف في جيرانه يوقظهم للصلاة حتى يجتمعوا في المسجد فيصلي الصبح بغلس ثم ينفرد عن الناس ويشتغل بالذكر إلى طلوع الشمس وقد أدركته في آخر عمره وكان كبيرا ضعيفا لكنه لا يترك الصوم ولا قيام الليل ولا السعي في المصالح حتى لقي الله وكان ربما حكى عن شيخه وابن عم أبيه مدَ أحمد بن مِدَوْ أنه قال له ذات يوم وقد تهيأ الناس للصلاة فرأى شيخه عجلا يعدو إلى أمه فناداه يا محمد بن الخضر اذهب وحل بين ذلك العجل وأمه فإن

الصوم والصلاة عبادة النساء وعبادة الرجال السعي في مصالح المسلمين ولما بلغ أشده اجتهد في التمسك بسنة سلفه من القيام بالمؤن وتدريس العلوم وإرشاد الأمة إلى ما يسعدهم في الدارين ولما قام ذلك المقام أبتلي في أول أمره بأمور تشتت البال منها : موت أقرانه من أهل بيته وبقيت بعدهم ذرية صغار فصبر على ترتيبهم والقيام بهم وقاسى من ألم الوحدة والانفراد شدائد فإنه لم يرض بالاندماج في أية أمة وجماعة على رسم التابعية كما هو شأن أسلافه فلما ظهر عدم الانضياف إلى أحد من الناس حقد عليه الكبراء من أهل العلم والرياسة وحسدوه وأرادوا به السوء وقابل ذلك بالصبر ودفع السئة بالحسنة والإغضاء الجميل حتى منّ الله عليه بأن بلغه المنى من الصغار المربيين أشد أزره ابن عمه سعد الدين بن عُمار وأخويه وبابن عمه محمود بن محمد الصالح وأخويه فعززوه وتمكن من كثير من مهماته بسببه بعد ما ألقى من كيت وكيت فأظهره الله على كثير ممن حسده وأعدؤه وسلم الناس له وبأهل بيته التقدم على أمثالهم وأضدادهم ومن شدائد التي قاسها وظرت فيها شجاعته وسيادته وكرمه وقام فيها مقاما لم يقم غيره مثله إنه لما تفاتن الطوارق مع العرب وصادف ذلك دخول فرنسا للبحر وهاجر أهل البلد عن مواطنهم الأصلية فرارا منهم واشتدت الأمور وماج الناس بعضهم في بعض قابل ذلك بالصبر واستمسك بعروة الكتاب والسنة حتى مرت عليه تلك الفتنة ورجع الناس إلى أوطانهم وصالحوا فرنسا ولم يصب جماعته ما أصاب غيرهم من الإهناة والسلب والقتل وبقى كثير من الناس لا مال لهم ولا ملاذ فلجأوا إليه وانحاز بمن معه إلى موضع خال من الجماعة التارقية قريبا من قرية أهل السودان يقال لها بلسان التوارق إبنغ نفغل وبلسان السودان كركر وكان أمير تلك القرية تلمي في حي الشيخ عندالشيخ مهدي وسمه عبد الله بن إنسين وكان بينه وبين الشيخ صداقة قديمة ومودة شديدة فلما أوى إليه آواه وأحسن إيواء وبسط عليه معروفه ودعى قومه إلى إكرامه وإعانته وحرضهم على تعظيمه فامتثلوا لأمره ومكنوه من أموالهم وخدمهم وأعطوه كثيرا من الأطعمة فانهال كثيرا من الجياع لينالوا القوت وسمع كثير ممن بعدوا عنه ما فتح به عليه من الأرزاق فجعلوا يرسلون إليه الرفاق ليجلبوا منه الطعام فينالون مرادهم وكان كذالك مدة من السنين وكانت الحرب قائمة بين التوارق والعرب يقتل فيها الضعفاء ويسلبون فيفر كثير من الناس ويلجأون إليه فغضب أمير التوارق على أتباعه الذين فروا من بلده إلى البحر فراسله الشيخ وطلب منه الأمان بكل من لاذ به فشفعه فيهم ثم راسل أمير العرب حماد بن محمد وشيخهم

الأكبر باي بن سيدي عمر ومن والاهما من كبراء العرب ووأصلهم بالهدايا والتحف وإكرام وفودهم الذين يفدون عليه حتى نال منهم حظوة ومكانة وأمنوه من شر كل عربي فأمن كل من بينهما من التباغض والتقاتل ولكن الفريقين معا جربوا منه أنه لا يعادي أحد الأحد وأنه يؤدي لكل ذي حق حقه ولا يسعى إلا فيما فيه صلاح الأمة لا يفرق بين أبيض وأسود ولا بين عربي وعجمي ولم يتفق لغيره في ذلك الزمان أن يجمع بين صداقة أمير التوارق وصداقة أمير العرب ، ولما نقض التوارق الصلح بينهم وبين فرنسا بزعامة فهر بن الإنصار في أرض مَنَكَا ، وزعامة محمد أحمد بن الجنيدي في أرض أرَبَنْدَ وتبع كلا منهم أغلبية الناس ولم يبق على الصلح إلا قليل من الناس غالبهم الضعفاء كان العرب وأهَكَار مع فرنسا في حرب التوارق فأفسدوا في الأرض إفسادا كبيرا وبالغوا في النهب وتشويد الناس عن أوطانهم حتى كاد البلد أن يحلو من السكان فلجأ كثير من الناس إلى الشيخ المترجم فراسل أمير أهَكَار موسى بن أمَاسْتَنْ وكان بينهما تعارف من غير تراء بل من كثيرة ثناء مسافري قومه على الشيخ وذكرهم من إحسانه إليهم وتودده إليهم ما جعل له ذكرا حسنا في بلادهم فلما أرسل إليه يطلب الشفاعة للضعفاء الذين ليسوا من أهل الحرب ولا يقدرون على الدفاع عن أنفسهم وأموالهم ، نهى المغيرين من قومه عن قرب ساحته وعن انتهاك حرمته فانتهوا بنهيه واستراح الناس الذين بقربه من شرهم إلى أن زالت الفتن وأطمأنت البلاد ثم لما تفرق أهل بلاده بين حكومة مَنَكَا وحكومة كَاوَ وكان كل تارقي في حكومة كَاوَ تابعا لإمارة الشرفاء من أولاد مختار الذين يسكنون بالقرب من كاو ولاذ به كثير من الضعفاء الذين يجتمعون بحماه ولا يريدون أن يكونوا تحت أمر غيره ممن يكلفهم ما لا يطيقون احتموا به لما رأوا من وجاهته عند الرساء لا لكونه أميرا فجعل يلاطف أمير الشرفاء ويدفع إليه من ماله ما يرضيه مقابل أن لا يكلف أولئك الضعفاء شيئا من الغرامات التي تفرضها الحكومة على الناس فرضي الأمير منه ما أراد من دفع السوء عن أولئك كان ذلك دأبه مع أمراء الشرفاء من عهد يحي بن محمد وابن عمه الصالح بن مَدَمَّ ، وفي أول إمارة محمد أحمد بن محمد إكنن بن مختار ثم قال : له الأمير محمد أحمد أن هؤلاء اللائذين بك لا بد أن يؤدوا الغرامة بالوجه الذي يؤديها الناس به بأن يكتبوا في الديوان وتحسب أموالهم ويؤدوا ما يؤدي غيرهم فأرى أن تخلي سبيلهم ودار الكلام بينهما في ذلك حتى قال الشيخ له خل عن هذا الأمر والأمير يعلل طلبه من الشيخ أن يخلي بينه وبين أولئك بأنه يخاف

على نفسه وعلى الشيخ إن ظهر للحكومة أن في البلد أقواما لا يعملون ما يعمله غيرهم وعاهده على أن لا ينالهم مكروه يقدر على دفعه عنهم فسلم له مراده واتخذ منهم أميرين أبيض للبيض وأسود للسودان فاستراح الشيخ من تبعاتهم المتعلقة بالحكومة وكان ذلك قبل موته بعام . الحاصل أنه ما زال مدة حياته يسعى في دفع شر الأقوياء عن الضعفاء مع سعيه في إيصال النفع إلى كل من شاء الله وكان مشتهرا بالكرامات الخارقة مع عدم الركون إليها والوقوف معها فمن عدم ركونه إليها ما حدثني بعض تلاميذه من غير حينا أنه جالس ذات يوم إذ أقبل عليه رجل من العرب يجبيه فأساء الشيخ لقاءه على خلاف عادته مع من جاءه فما زال يغلظ عليه في القول حتى قال له العربي قل وافعل ما شئت فإنك لا تخفى علي بعد ما أظهرك الله لي فقام إليه وناجاه وقال له لا تفش السر فإني لا أريد الظهور فانصرف عنه راشدا ثم أخبر الرجل الناس أنه مكث مدة طويلة من الدهر يخلو ويتعبد ويتوجه إلى الله ويسأله أن يظهر له بعض كمل الأولياء ، فبينا هو كذلك إذ طلع عليه شخص اسمه محمد بن حَدِي ولم يكن رآه قبل ذلك ولا سمع باسمه فلما أصبح طلب الاجتماع به وجعل يسأل عنه من لقيه حتى وجد من دله عليه في ذلك اليوم وإنما أساء ملاقاته أول مرة ليتغير اعتقاده فيه ثم لما تثبت الرجل ولم يزلزله ما قابله به قال : له لا تفش سرنا . وأعلى من هذه الكرامة استقامته على الطاعات وفعل الخيرات من أوله إلى آخره وعدم فتوره عن الصيام وقيام الليل إلى أن وصل إلى نيف وثمانين سنة ومات 1356هـ رحمه الله .

***

22 ـ ترجمة الشيخ حمَّدَ بنْ محمد بن حَدِي :

هو محمد أحمد المعروف باسم (حَمَدَ) ابن محمد بضم الميم ابن الخضر المعروف باسم (حَدي) بن محمد إكْنَنْ بتح الميم ابن محمد بفتح الميم ابن هَمّهمّ بن أحماد بألف وضم دال في جميع الأحوال ابن أحماد بالضبط المتقدم ابن انكّ بن أبي بكر ويقال بَا بكر ابن إدّ بن الغزالي بن علي بن يحي ، وأمه خديجة بنت عُمار بن محمد الأمين بن مَحمد تجتمع أمه مع أبيه في الجد الثاني وأم أبيه بنت الاغْ بن أحمد تجتمع مع والده في الجد الثالث ، ولد عام 1324هـ في موضع قريب من البحر يسمى (تِنْظَبُّ) ثم ما زال أهله يتجولون في أعمال كاو وصحاريها لا يضبطهم منزل معين إلا أنهم لا يبعدون عن مدينة كاو أكثر من مسافة يومين ، وأسرته حي من أهل السوقيين يقال لهم تَكَلْتَتْ نسبة إلى موضع نزله أسلافهم في

القرن الثاني عشر الهجري واستوطنوا فيه مدة من السنين ينتجعون الأمطار في زمن الربيع ثم يرجعون إليه في الشتاء والصيف كما هو عادة غيرهم من الرحّل ثم جلوا عنه وبقي عليهم الانتساب إليه كما هو الحال في كثير من القبائل الصحراوية يزايلون موطنهم الأصلي ولكن يبقى عليهم الانتساب إليه وأصل الاسم من ينتسب إلى واحد من الأجداد الثالثة الذين خرجوا من المجمع السوقي واتخذوا مسجدا مستقلا في أرض أمَسْرْكَضْ ثم تحولوا منه إلى تَكَلْتْ وهم : هَمّهمّ بن أحماد من ذرية الغزالي بن علي بن يحي ، ومحمد الإمام بن أحمد من ذرية ربيع أحد الثمانية المشهورين باسم (أَتَمَنْ) ، وثالثهم محمد بن وَنْكِلَّ من ذرية أبي الهدى ، وذرية هؤلاء الأشياخ الثلاثة الذين انعزلوا أولا هم الأصل في التسمية ولكن لما خرجوا من ذلك الموطن الصحراوي وجددوا منازل قريبة من البحراجتمعوا بإخوان لهم بعضهم من ذرية بَابَ أخي ربيعة وأبي الهدى ، وبعضهم من ذرية أيوب الأنصاري وكانوا لا يفارقون البحر حين كان إخوانهم في الموطن الصحراوي تارة يسكنون في العوالي من قرية كاو بوادي إنْشَوَاكْ ، وتارة ينزلون في وسط الجزائر البحرية ولكن علاقتهم بإخوانهم الساكنين في الصحراء لم تزل شديدة الاتصال والارتباط يتعلمون منهم ويناكحونهم ويواصلونهم بكل ما سوى التزام الجوار ويجاورونهم في بعض الأحيان وتشتد رغبتهم في أن يجاوروهم لكن علاقاتهم بسكان البحر من البيض والسود تمنعهم من ذلك فلما قرب منهم من كانوا ينتسبون إلى تَكَلْت جاوروهم ولاصقوهم واتخدوا معهم في جميع أمورهم فغلب الاسم على الكل .طريقة أخذه للعلم ، وذكر مشائخه ، وتلاميذه : أما طريقة تعلمه فإنه لما بلغ عمره خمس سنين أسلمه والده إلى ابن عمه وخال المترجَم سعد الدين بن عُمار بضم العين وزيادة الألف بعد الميم وبعض الناس يسقط الألف ، وقال : له هو لك ملكا تاما فأخذ في تعليمه وتأديبه وابتدأ بتحفيظ القرآن يكتب له أسطرا ويحبسه على قراءته حتى يحفظها ثم يكتب له أخرى فأقرءه أولا العشرة الأخيرة لابتدائه بالمفصل ثم أقرأه من سورة البقرة إلى سورة الأحزاب فاشتغل ببعض الشئون الهامة عن مباشرة تعليمه فسلمه إلى شيخ تلك الصنعة في أحيائنا وهو أحمد البكا بن البخاري ، وحدثني أن الشيخ أحمد البكاء نفسه ما تولى إلا إقراءه وتحفيظه وأما الكتابة على لوحه فمتوليها ابن أخيه عيسى بن حَلاَلَ ، ومحمد بن البكاي نادرا ، فلما ختم القرآن رجعه إلى مربيه وشيخه الأول حافظا لجميع المنزل برواية الإمام ورش وذلك في السنة الثامنة من عمره واستمر حفظه له من ذلك الوقت حفظا

متقنا لم يتخلله نسيان إلى أن مات ولما علم مربيه الشيخ سعد الدين أنه حفظ القرآن شرع في تعليمه الدين والأدب فأقرأه عقيدة ابن أبي زيد القيرواني واقتصر له عليها ثم أقرأه (نيل الوطر في نظم فصول الأخضري) لعم جده أحمد بن همّهمّ ثم نظم محمد أبّ (لباب السهو) من الأخضري الذي سماه (العبقري) فلما علم أنه أحرز العقيدة وأحكام الصلاة شرع في تعليمه العربية فأقرأه مقدمة الآجرومي ثم قطر الندى لابن هشام ، ثم الألفية ابن مالك بشرح السيوطي ، ثم لامية الأفعال لابن مالك في التصريف ، ثم الكافية له ، وحين اشتغاله بقراءة الكافية أقر له أقرانه وأشياخه بالسبق في علمي النحو والصرف فنقله من فن النحو إلى علم اللغة فأقرأه مقامات الحريري ومختار الشعر الجاهلي ، وصادف فراغه من هذين الكتابين بلوغه سن الشباب فأقرأه الربع الأل من مختصر خليل الذي يتكلم على العبادات ولم يجاوزه ثم أمره أن يأخذ علم البلاغة عن الشيخلماهر فيه محمود بن محمد الصالح فقرأ عليه شرح السعد التفتازاني على مختصر القزويني تلخيص المفتاح ، ثم رجع إلى مختصر خليل فقرأه منه على شيخ مشائخ البلد في الفقه وهو محمد أحمد بضم دال أحمد دائما ابن الصالح المعروف باسم (فُكَّ الكنتي أصلا السوقي مصيرا وقرأ شيئا منه على عبد الل بن الميمون بن أحمد شيخ أهل تِكِرَتينْ في وقته وقرأ منه بعضا على محمد الصالح المعروف (بالسدادَ بفتح الدال في جميع الأحوال بن الصالح المعروف باسم (أسَيْ) ثم شرع في قراءة الحديث فأخذ رواية صحيح البخاري عن شيخه مربيه وعن والده محمد بن حَدي واشتغل بمطالعة شروحه من غير أن يأخذها عن أحد فطالع شرح القسطلاني وتحفة الباري وشيئا من فتح الباري ثم أخذ عن والده رواية الشفا للقاضي عياض وأجازه فيه وقرأ شيئا من شرح الحريشي عليه ثم انتقل إلى التفسير فأخذ النصف الأول من تفسير الجلالين عن الشيخ محمد بن محمد محمود وهو من أهل تَبُورَقْ ، ثم رجع إلى حيه فأخذ النصف الآخر عن مربيه الأول وهو سعد الدين ، ويعد فراغه من قراءة الكتب المذكورة بطريقة الأخذ عن المشائخ تحرر من التقيد بشيخ معين أو كتاب معين فجعل يأخذ العلوم بنفسه ويتعلم ما شاء من الفنون بواسطة من يرتضيه من المشائخ وبغير واسطتهم فأخذ عن كبار العلماء من حيه أهل تَكَلْتْ ، ومن أهل تَبُورَقْ ، ومن أهل تِكِرَتِنْ ، ومن أهل إسكَنْ ، ومن أهل تَنْغْ أكَلْ ، ومن العلوم التي أخذها بالمطالعة ومهر فيها من غير واسطة معلم معين علم مصطلح الحديث اشتغل به مدة يدرس ألفية العراقي ويحفظها ويطالع شرحها المسمى فتح

الباقي على ألفية العراقي . وكذلك علم الأصول لم يأخذه عن واحد من أشياخه المذكورين على نحو ما أخذ به غيره من الكتب المتقدمة بل كانت له نسخة من كتاب الكوكب الساطع مشروحا بشرح السيوطي فاشتغل بحفظها واتقانها حتى حصلت له ملكة في الفن يقتدر بها على مذاكرة أهله فيه ومناظرتهم في مسائله حتى اعترف له المشتغلون بالفن أنه من السابقين فيه ، ثم كتب بيده نسخة من شرح المحلي على جمع الجوامع واستفاد نسخة من حاشية البناني عليه وأخرى من حاشية العطار ، وطالع شيئا من أصول الحنفية وشيئا من كتب المالكية التي تجمع القواعد والفروق ، ثم صار هو المرجع في فن الأصول كغيره من الفنون التي أخذها عن المشائخ وكثر الآخذون عنه من أقرانه وكانوا أسن منه فضلا عمن كانوا دونه في السن وممن عاصرهم وأخذ عنهم بغير طريق التدريس الشيخ مفلح بن محمَّدُ، ومحمد بن البكاي ، وأخوه المرتضى ، وأحمد بن موسى الأنصاري ، والشيخ إسماعيل بن الشيخ محمد الصالح ، وممن عاصرهم وأخذ عنهم وأخذوا عنه وهم كثير حميد بن عبد الرحمن بن الميمون الأنصاري ، وأخوه نوح ، ومحمد الصالح المعروف بمَتَّال ، وأخوه أحمد بضم الدال ابنا الأمين ، ومحمد الشيخ بن موسى ، وأحمد بن مَكَا وإنْكَنَّ من أهل تَنْغْ أكَل ، وجماعة كثيرة من أهل تَبُورَقْ ، وأهل إسْكَنْ ، ومنهم علماء إكَــلاَدْ ، ودو إسحاق ، وبعض علماء موريتانيا . وأما الآخذون عنه فيتعذر إحصاءهم لكثرتهم فإنه حين قرأ ألفية ابن مالك تفرس منه أشياخه أنه يَقْدر على تدريس صغار الطلبة في علم النحو فكانوا يأمرون من يقرأ النحو بأن يلقنه درسه فيه ويأمرونه هو بالصبر على تدريسهم ليتدرب على وظيفة التعليم فكان في صباه يأخذ عمن هو فوقه ويأخذ عنه من دونه في العلم فما وصل سن الشباب إلا وه شيخ لكثير من طلبة العلم في سائر الفنون التي تقدمت كيفية أخذه لها عن الشيوخ ولما بلغ أشده وانقطع لعقد مجالس التعليم تفطن الناس لفضيلة حازها على غيره من المعلمين وهي الصبر على التعليم وبذل الجهد في التفقهم والتبيين بحيث لا ييأس من تفهم الطالب ما يملي عليه بل يكرر عليه ويغير له العبارة كلما عبر له عن شيء ولم يفهم غير له العبارة حتى يفهم وغيره من المعلمين إذا لم يفهم عنه التلميذ في المرة الأولى إلى الثالثة رما أعرض عنه وأراح نفسه من معاناة تفهيمه وطريقته هو الصبر على التعليم والإقبال على من لم يفهم من التلاميذ ومراجعته حتى يقر بالفهم ويرضى عنه وبذلك الخلق رغب كثير من المتعلمين في الأخذ عنه منهم من أخذ عنه فنا واحدا ومنهم من أخذ عنه فنين ومنهم من أخذ

أكثر ، وكثير ممن وصل على يديه في علم النحو لم يتتلمذ لـه إلا بعد يأسه من نفسه ويأس مشائخه من تفهيمه وإذا تتلمذ له فتح له على يديه ، ومن الآخذين عنه من يقرأ عليه كتابا من أوله إلى آخره ومنهم من يأخذ عنه دروسا من كتاب ومنهم من يحضر مجلسه ، وأما من استفاد منه بلا تلمذة بل بطريق المذاكرة والمناظرة فلا يحصون ، منهم من استفاد من فيه بلا واسطة ومنهم من استفاد من كتابه وكثير من أهل عصره استفاد مما كان يكتبه في حل الإشكالات الواقعة في الكتب فقد كان مولعا منذ نشأ بتبيين ما ينبهم من التراكيب وإيضاح ما يشكل منها وكتابة ذلك على حواشي الكتب وعلى طروس مستقلة وربما كتب في ذلك رسالة تفيد من نظر فيها من الأكابر فضلا عن الأصاغر ، وأما أنا فلم يقرأني كتابا من أوله إلى آخره كما كان يصنع بأقراني بل كان ملازما للشيخ والوالد الذي أقرأ عليه لا يفارقه حضرا وربما رافقه سفرا فكل كتاب قرأته أخذت بعضه إبتاء من الوقت الذي أقرأ فيه القرآن وأنا ابن سبع سنين إلى أن شرعت في قراءة كتب العربية ثم غيرها من الفنون وربما حضرت مجلس إقرائه لكتاب قرأته قبل ذلك فأستفيد منه ثم لما مات الشيخ الوالد لازمته كما لازمه هو في حياته وكان حضوري معه في منزله أكثر من حضوري في منزلي وجل حديثنا على عائد إلى كتب العلم فكنت أكثر استفادة منه ممن يأخذ عنه كتابا أو كتابين . والحاصل أنه إن كان في إخوانه أو أهل بلده من لم يستفيد منه فأقل قليل جزاه الله خيرا . وأما التصانيف : فأول ما عمل فيه شرح شواهد الكافية في عنفوان شبابه استغرق فيه وقتا طويلا يجمع ما ببلده من كتب النحو واللغة وشروح الشواهد حتى جمع كتابا ضخما ثم اشتغل بمهمات أخرى عن تنقيحه ثم ضاع في النكبة التي ضاعت فيها مكاتب جماعتنا في كاو ، ثم وجد بعض الكتاب ولم يوجد الأكثر وهو كتاب مفيد في النحو واللغة ، ثم نظم قواعد الاعراب لابن هشام وسمى النظم (مواعد الاطراب في نظم قواعد الإعراب) وله شرح سماه (تحبير المقال على منية الأمّال) وهو نظم للشيخ محمد بن البكاي لما في لامية الأفعال من القواعد مع زيادات مفيدة من شروح اللامية ، وله رسالة (في الرد على من بالغ في إنكار تأويل الصفات) التي يؤولها الخلف حتى وصل إلى التمثيل أو التشبيه ، وبين فيها طريق السلف وطريق الخلف وأقوال العلماء ، وله في الفقه جواب عن رسالة أرسلها إليه الشيخ المرتضى بن البكاي (في مسألة الاستحقاق) فأجابه على طريقة الشرح لكلمات الرسالة والجواب عنها حتى صار ذلك نحو ثلاثة كراريس بين فيها كثيرا من مسائل الاستحقاق

، وله نظم (في الفرائض التي تعول) ، وله (رسائل في حل مشكلات الدروس) وله (نظم الورقات) لإمام الحرمين في الأصول و (نظـز التلخيص) للقزويني سماه (قوالب التخليص) وهو آخر ما نظم فرغ من نظمه في أيسر مدة ثم بالغ في تهذيبه وجعله على أسلوب غير مـألوف للرجاز من رعاية الساكن والمتحرك من مستفعلن في كل كلمة ورفـض ما يذكر تتميما للبيت وحمله ذلك على الإتيان بعبارات يصعب فهم المراد منها على كثير من الناس لكن ملازميه الذين يعرفون كلامـه المنظـوم والمنثور ويعرفون استعمالاته لا يخفى عليهم مراده ، وأما القصائد فهي أكثر مما سواها لأنه ما زال يعملها من صغره إلى كبره ويعملهـا فـي موضوعات مختلفة فلا يحصرها أحد إلا بجهد جهيد وتطويل ، فبعـضها في المديح النبوي وبعضها في أجوبة المسائل وبعـضها فـي التهنئـات وبعضها في التقاريظ وبعضها في المراثي ويكفي الراغب فـي اقتنائهـا ومحاكتها أن يأخذ من كل موضع بأجود ما قال فيه وينبغي لطالب علـم البلاغة عن ومحاسن الأشعار أن يدونها ويحفظها ففيها كفاية عن شـعر المتقدمين ، وتعلو مرتبتها في البلاغة عن جل مراتب المتأخرين .وأمـا علم التصوف الذي يعرف فيه طريق القوم وآدابهم وأخلاقهم وكرامـاتهم فليس مما يؤخذ عندنا بالتدريس لم يذرسه عن أحد ولم يدرسه عنه أحـد بل نشأ بين شيوخ حيه وهم يقرءون كتبه بالمطالعة ويتأدبون بما فيها من الآداب وينخلقون بما فيها من الأخلاق فلما نشأ ووجد أشياخه على تلـك الحالة ووجدهم يتخذون شيخا يعتقدون في الكمـال وينـشدون أشـعارا تتضمن التسليم له والانقياد ويطلبون منه التربية والترقية لما وجد أشياخه كذلك عمل مثل ما يعملون وهو شاب فأنشد قصيدة تتضمن تـسليمه لـه واتخـاذه شـيخا مربيـا ومرقيـا وأول قـصيدته :

.... حماد السياح معتمدي ..

ولما وصلت قصيدته إلى الشيخ حماد بن محمدُ الذي هو مربي السالكين ومرقي الواصلين الجامع بن الشريعة والحقيقة ، وإمام أهل الطريقة قبلها ولكن لم يجبه بالشعر كما كان يجيب من قبله من المريدين ولم يكثر عليه من الأوامر والنواهي والوصايا كما يعمل مع غيره بـل أمـره إجمـلا بمتابعة شيخه سعد الدين بن عمر والاهتداء بهديه وامتثال أمـر والـده محمد بن حَدي فقد كان من العلماء والأولياء الأجلة وممن يعتني بمتابعة السنة في أقواله وأفعاله فكان الشيخان مرآته في الطريقة وكـان الـشيخ الأكبر يأمره كثيرا بمتابعتهما والإحسان إلى أمه ثم إلى جميع الناس وكان

ذلك أكثر ما يأمره به ، وكان من عادة الشيخ حماد مع المريدين أن المتعلم منهم لا يلزمه من الأورادأولا لا التعلم ثم عددا يسيرا من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فكان التعلم والتعليم وخدمة الشيخ هي أجل أوراده وجل ما يستخدمه فيه نسخ الكتب ربما أمره بالكتابة واجتهد في امتثال ما أمر به فمما كتب له جزء من صحيح البخاري وشيء من تفسير الجلالين وشيء من شرح المحلي على جمع الجوامع وكثير غيرها ، وربما أرسله في بعض الحوائج الخارجية والداخلية وإذا أرسله في بعض الحوائج فرجع إليه لم يبرح ساحته حتى يقول له الشيخ اذهب إلى والديك حتى تؤدى حقهما ، وربما أجل له أجلا للرجوع إليه فيجتهد في أن لا يتعدى ما حد له من المدة ، وكان الشيخ الأكبر يعده من كبار أصحابه مع صغر سنه ويضمه إلى خاصة مجله وكان يمازحه على العادة الجارية في البلاد من مزاحمة ابن العمة لابن الخال لأن أم الشيخ بنت عم أبيه يجتمعان في الجد الثالث ومع ذلك يدنيه ويقر له بالفضل كلما جالسه وإذا غاب عنه في بعض الشئون أظهر الحنين إليه والشوق إلى لقائه ، وربما قال لبعض من معه اذهب إلى خارج الحي لعلك تلقى فلانا فتبشرني بحضوره عندي ، ومما حرى من الشيخ من تخصيصه إياه بخصائص لا يشاركه فيها كثير من الخواص أن الشيخ مرض مرضا شديدا في العام الذي قبل عام وفاته فاعتزل الناس وانفرد به أخص خواص حيه فجعلت الوفود يفدون عليه على العادة ولكن لا يصلون إليه وأكثر أهل حيه يحتجب عنهم فضلا عن غيرهم وكان الشيخ المترجم وشيخه سعد الدين غائبين إذ ذاك فقال الناس إذا حضرا فلا تحجبوهما عني فليسا ممن يحجب وذلك قليل من كثير من تقريبه له وتخصيصه إياه بأنواع من الخصائص فنال ببركة ذلك التقريب أن صار من كبار مع صغر سنه وصار يزاحم أشياخه في الكلام في قضايا يحجم كثير من الكبار عن الخوض فيها لدقتها وكانت حالته في بر الشيخ الأكبر وبر والديه وبر شيخه الأول الذي يربيه وجده في التعلم والتعليم من العجائب لأن من رأى أثر تعلمه وتعليمه في المدة التي صاحب فيه أشياخه وأبويه لا يراه مشتغلا بغير الكتب ليلا ونهارا ومع ذلك يجتهد في إرضاء والديه والنيابة عن والده في الأمور التي يقوم بها قبل ضعف الكبر من القيام بأمور حيه وأمور الضيوف المتكاثرة ومن رأى أثر خدمته لخاله الذي رباه ظنه مختصا بذلك ومع ذلك يعده خدام الشيخ الأكبر وأحدا منهم كأنه لا يفارقهم لكثرة حضوره معهم وكان مسكن حيه ربما بعد عن مسكن الشيخ بمرحلتين أو ثلاث أو فوق ذلك ولكن الغالب حضوره مع الشيخ

قرب حيه أو بعد وببركة ما ناله من البر بشيوخه ووالديه وتخلقه بأخلاق الكبراء وهو صغير فتح له من الجمع بين الأمور العظام ما فتح له وترقت همته عن مصاحبة أقرانه ومشاركة الأحداث في أمور اللهو واللعب واتخذ كبار الأشياخ أصحابا وأوى إليهم فآووه وعدوه واحدا منهم وشاركهم في الأمور العظام ، ومن القضايا التي تكلم فيها مع كبار المشائخ وكان كثير من المشائخ يهاب الكلام فيها : مسألة اتخاذ الشيخ المربي بعد وفاة الشيخ حماد بن محمد رضي الله عنه فإن الشيخ لما توفى عظم مصابه على المريدين فلما أفاقوا من غشيته تفرقوا ثلاث فرق : فرقة تهاب أن تسمى أحدا بعده باسم الشيخ وترى أن تبقى بلا شيخ سواه لأنهم لا يرون أن تصرفه يزول بالموت ، وفرقة : ترى أن تستخلف بعض كبار أصحابه ولم يصرحوا باسم من يرونه خليفة ، والفرقة : الثالثة تفرست في ابنه المحمود أنه هو المستحق للخلافة عن أبيه ظاهرا وباطنا وهو إذ ذاك شاب وهذه الفرقة هم آل بيت المترجم جميعا وقليل من الناس سواهم وكثير من المريدين لا يجترئ على الكلام في القضية بل ينتظر ما يحكم به الكبراء ممن جمع بين الشريعة والحقيقة ، وممن يدنيهم الشيخ إليه ويبث لهم بعض أسراره فكان الشيوخ الكبار من قبيلة الشيخ المترجم وهم سعد الدين بن عُمار ، ومحمود بن محمد الصالح ، والسدَادَ بن الصالح ، وإسماعيل بن محمد الصالح ممن سارع إلى تعيين الشيخ المحمود خليفة وأنشدوا في ذلك قصائد تتضمن الحكم بأنه المستحق للخلافة وحكم معهم هذا المترجم مع صغر سنه وتقديمه لأشياخه المذكورين ولم يستغن بما قالوا وما رأوا بل أظهر رأيه مع أرائهم لا لمجرد التقليد بل لما وضح له ولهم من الأمارات وما يستنبطونه من أقوال الشيخ الأكبر بعضها لم يصل إلى من خالفهم وبعضها وصل إليهم ولكن لم يفهموا منه ما فهم هؤلاء ، وأول قصيدته في الموضوع :

فبراهان دعواك الخلافة قاطع ... بوجنتك النور التراثي ساطع ثم ذكر من فضائل الشيخ المحمود ما قد عليه ومن استحقاقه للوراثة ما قدر له ، ثم اتفقت الفرقتان اللتان لم تسبق إلى ما قال الأولون على الرجوع إلى ما قالوا واتفق الجميع على اتخاذه خليفة بعد مذاكرات وأبحاث من العلماء في طلب تحقيق ما يصرون إليه فلما اتفق الكل على الحكم باستحقاقه والانقياد إليه كان من أكبر أصحابه ومن أوفاهم له بحقوق الصحبة والإرادة حتى كان لا يجيب من سأله عن شيء من حقوق المشائخ أو من طلب منه أن يفسر له بعض كلامهم لا يجيبه بأكثر من قوله سلم تسلم ولا يستفيد منهم ولا ينكر عليهم بل اكتفى بما يأخذه من شيخه عن الأخذ عن

غيره والشيخ أيضا يقربه ويقدمه على غيره من خواص أصحابه ويعترف له بمثل ما يعترف له به وكان كل منهما يعامل صاحبه بتوقير الكبير والاستئناس بمعيته كحال الأقران وكان الشيخ حماد ألا يخلي مجلسه العلمي من ذكره والتنويه بقدره في علمي الظاهر والباطن وكان يؤثر نظره في العلوم على كل من معقوله ومنقوله وإذا وقعت نازلة أو وقعت لغيره وسأله عنا فإن اتسع الوقت لأن يعرضها على الشيخ المحمود فلا يعمل فيها شيئا إلا بعد سؤاله ومشارته وإن الجأه الحال إلى القول قبل سؤاله ومراجعته لغيبته عنه فلا بد أن يعرض عليه ما قال حين يلتقيان فإن وافقه اطمأن وإلا نقض كل ما أبرمه إلا أن يكون الشيخ المحمود يأبى له ذلك ويرجعه إلى المناظرة ويجبره على أن يبدي ما عنده من النظر كما يفعل مع غيره فإذا كان ذلك وتناظرا فيما بينهما ومع أصحابهما حتى ظهر الصواب سارع إليه سواء كان موافقا لنظره الأولا أو مخالفا له وكان أحرص الناس على تلقف ما يمليه من العلوم ، وتدوين ما ينشيه من منثور ومنظوم حتى أن كثيرا مما كتبه الشيخ المحمود من الرسائل العلمية لا تجده مدونا عند غيره لشدة حرصه على الاستفادة منه وللمحافظة على آثره كيلا تضيع كما ضاع كثير من الآثار التي لم يقم أحد بتدوينها ومن عجيب أمره معه أن كلا منهما يبالغ في تعظيم صاحبه ويرى له من الفضل ما لا يراه لغيره ولا يراه له غيره ، ومما يرى له الشيخ المحمود من الفضل تفضيله لكلامه نظما ونثرا على كلام غيره من أصحابه ويذكر لنا أنه لا فضل لكلام المتقدمين من الأدباء والظرفاء على كلامه ولذلك ربما فوض إليه أمر التأليف رضاه عن إنشائه نظما ونثرا ، يأمره بمشاركته إيه في إنشاء قصيدة وتأليف كتاب لاتحاد أسلوبهما في الإنشاء فإن الشيخ حمدا مع كونه ينشد القصائد قبل تعرفهما ، آل أمره إلى أن حبس نفسه على محاكاة كلامه في النظم والنثر والاقتداء به في الاستعمالات حتى صار التطبع طبعا وتشابه كلامهما حتى لا يكاد أحد أن يفرق بين كلاميهما فقد سلم لهما أصحابهما للسبق في ميدان الفصاحة والبلاغة وما يتبعهما من المحسنات وأن غايتهما لم تدرك مع كون العلماء والبلغاء والشعراء متوافرين في قومهما لا منازع لهما ولا مخالف وكل منهما يشارك التلاميذ في اعتناء ما يؤلف صاحبه وما ينظم ، ولما نظم الشيخ المحمود جمع الجوامع لابن السبكي وكان الشيخ حمدٌ قد حفظ نظم السيوطي له قبل ذلك بما ينف على ثلاثين سنة سارع إلى حفظه وشاركه في صغار الطلبة حتى حصل حفظه في مدة يسيرة قبل حفظ الطلبة له ووجد من خفة اللسان في قراءته ما لم يجده غيره كنت معه

ليلة ونحن ضيوف في بعض أحياء إخواننا فلما اجتمع علينا رجال الحي بعد صلا المغرب قام عني وتركني عند الجماعة ورجع إلي قبل صلاة العشاء وقال لي قرأت كتاب (الجوهر اللامع نظم جمع الجوامع) للشيخ المحمود في غيبتي عنك وقرأت معه ورد القادرية وكان مما من الله عليه سرعة الحفظ وخفة اللسان ، وأحب الوظائف إلى الشيخ حمّدَ أن يكون خادم الشيخ المحمود في جميع ما يقدر عليه ومعينا له في جميع الأمور وأما الشيخ المحمود فأحب الأشياء إليه أن يتنعم بمجالسته ومذاكرته في فنون العلم ومناصحته ومشاورته في الأمور لكن لما علم منه الحرص على تولي خدمته طيب نفسه بأن يقول له أخدم في كذا ولكن لم يستخدمه إلا في التعليم والتأليف والخط والإنشاء أو هما معا فإنه تارة يأمره بالتأليف في موضوع ثم بإرسال نسخة مما ألف إليه ، وتارة يحبسه ليكتب له مؤلفاته أو غيرها ، وتارة يعرض عليه بعض مؤلفاته أو قصائده ليغير ما شاء ويقر ما شاء ، ومما يخدمه فيه بذل الجهد في تعليم من معه من الإخوان من غير فرق بين الصغار والكبار وتنشيط المتعليمن وما رأيته فارغا من هذه الخدمة حتى أتاه مرض الموت وهو مشتغل بكتابة نسخة من نظمه للتلخيص وتهذيبها وتنقيحها وكان من إحسان الشيخ المحمود إليه أن ذلك النظم حفظه مع غناه عنه تحببا إلى الناظم ثم أمره بأن يكتب له نسخة منه فاشتغل بذلك حتى غُلب عليه قبل موته فأتم بعض خواص تلامذته وهو محمد بن أحَمَ كتابتها بعد موته وأرسلها للشيخ المكتوبة لأجله رحمة الله عليهما ، ومما خصه به من بين سائر إخوانه أن طبيعة كل منهما المبالغة في إكرام الضيوف الأجانب فضلا عن الأقارب وكانت العادة في بلادنا أن الضيف إذا كان مكرما معظما فلابد أن تذبح له بقرة أو عدد من البقر أو الغنم ويوسع في الإطعام على من معه وعلى من يتلقاه على من يجاور المضيف من الناس إكراما للضيف النازل ، وكان الشيخ المحمود سابقا في ذلك المضمار يقر له بذلك السبق كل من يعرفه لكنه إذا نزل به الشيخ حمّدَ فلا يتكلف له من القرى ما يعمله في حق غيره بل يكون واحد من أهل البيت ينفق عليه مما ينفق على نفسه ضيفا أو واسعا إذ لا يراه غير نفسه وألزمه أيضا أن يعامله بمثل ذلك فعامله به فصار كل منهما في منزل صاحبه كصاحب المنزل ، ومما يعامله به الشيخ حمّدا ولا يلتزم غيره معاملته به أنه لا يقطع أمرا دونه وربما استشاره في المحقرات التي لم يعتد الناس الاستشارة في مثلها أما المهملات فلا يرد فيها ولا يصدر إلا عن رأيه سواء كانت مما يخصه في نفسه أو ما يخصه مع خواص أهل بيته أو كانت مما يعم جماعته أو

يعمهم مع غيرهم من الإخوان والأجانب كل ذلك لا يورد فيه ولا يصدر إلا عن رأيه ، وكان ذلك منه عادة مستمرة جارية حتى استقر في أذهاننا معشر أهل بيته التابعين لرأيه أن ليس لنا أمر نستقل به دون ذلك الشيخ زيادة على ما يلتزم له غيرنا من سائر الناس لما ربانا به من إدخاله في خواص أمورنا الداخلية ، وجيع ذرية الشيخ الأكبر حماد يعاملهم بمثل ما يعامل به شيخه الذي تفرعوا عنه من البر والتعظيم والإحسان لا فرق بين صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وإنثاهم ولأخوي الشيخ المحمود من ذلك وهما المنير والبشير ما ليس لغيرهما ، وكان من أخلاقه الصبر حتى كأنه لا يفرح ولا يفزع بل كان أمره معتمد لا في جميع الحالات ولم أر شيئا من الزلازل أثر في صبره ما أثر فيه أن يرى بعض أولئك القوم مشوش الخاطر ولا يقابل أي أمر إلا بالصبر واستشارة الشيخ المحمود فإذا استشاره اطمأن إلى ما يشير به ، ومن الأمور التي شوشت باله ولا يريد أن يعمل فيها شيئا إلا بأمره أن الشيخ المنير بن الشيخ حماد أخا شيخه المحمود قام في أواخر عام 1373هـ فنهض ببعض أصحابه قاصدا الخروج من الأوطان والتوجه إلى مكة وكثير من أهل البلد في ذلك الوقت إما مهاجر بالفعل وعازم على الهجرة وقليل منهم رأيهم التثبت والصبر في أوطانهم والسفر إلى مكة لأداء الحجد فقط ثم الرجوع إلى أوطانهم وإن نالهم من لمشاق والمخاوف ما نال من يريدون الخروج بقصد عدم العود إليها ، ولما خرج الشيخ المنير بقصد الهجرة تاق بعض الناس إلى تبعيته وصبر بعضهم مع الشيخ المحمود الذي لم ير رأي أخيه ولم ير إلا الصبر فتشتت هموم من لم يرض بفراق كل منهما بعد اختلافهما في النظر ، وكان حي الشيخ إذ ذاك في بلد غير البلد الذي فيه الشيخ المحمود فمر بنا الشيخ المنير حين خرج مهاجرا فلما مر ذهبت معه غير متلفت إلى شيء ولا قاصد لمقصد معين سوى صحبته على كل حال فلما خرج من حينا وأنا معه شق فراقنا معا على الشيخ حمّدا فكتب إلى الشيخ المحمود يستشيره ويستعلم منه مراده ويستفتيه فيما عم قطرهم إذ ذاك من كثرة مفارقة الأوطان باسم الهجرة من غير استعداد من جل الناس ولا أهلية كثير منهم للفرار من الفتن والبدع ، ولا مبالاة كثير من أولئك الخارجين بالدين العيني فضلا عن أن يهاجروا عن مظان الفتن والبدع ، ولما ورد عليه كتابه أجابه بما لفظه :

(بسم الله ، الحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله ومن تلاه ، من كل براواه ، وبعد : فيعود عليك وعلى من معك من السلام أحلاه مذاقا ، وأطيبه انتشاقا ، ومن التحايا ما يملأ الجو إشراقا ، ويفق

الدر انتساقا ، ثم إن الذي سألت عنه بتشوف ، وبثثت إليّ من شكواه على تخوف ، فأمر إلى ربي وربك مرجعه ، ومنه مبتدأه ومطلعه ، ونحن فيما بين ذا وذاك منتظرون ، ولهواطل سحائب اللطف مستمطرون ، ما منا من يقول لأفلن ، ولا من يجترئ ليسبق القضاء فينفي بلا أو لن ، بل نحن متثبتون إلى الآن ، ومثبتون من كادت الزلازل تستقره من الخلان ، على أني نظرت فأيت القلوب كان زممت بحبال التقاد ، والنفوس كانما تساوي ولو بغير زاد ولا عتاد ، ولا أدري هذا الجشر ليوم الحشر ، أم لأمر لا يعلم إلا الله لبه المكنون الذي تحت القشر ، فمن لم يتثبت لما أرى ، بل انحلت لصبره في أول أمره العرى ، فلا أراه يقف من دون قاف ، ولا يجلو بفيه ولو لذ قرقاف ، بل لا أظنه يهنيه مقام قبل يوم القيام ، ولو بات جار الزمزم والمقام ، فالرأي عندي التثبت مع الثبات ، حتى يظهر ما يريد هذا السائق بالنات ، شعر :

فقلما يدرك المطلوب بالعجل ... لا تعجلن لأمر أنت طالبه

وذو التعجل لا يخلو من الزلل ... فذو التأني مصيب في مقاصده ومن

تواقيعات ذي الرياستين : أن أسرع النار التهابا أسرعها خمودا . وأحسن من ذا وذاك ، وأطيب نفحا من مسك ذاك ، قوله عليه الصلاة والسلام (المؤمن وقاف والمنافق والثاب) ومما روينا عن أبينا آدم عليه السلام أنه قال (لأولاده كل عمل تريدون أن تعملوه فقفوا له ساعة فإني لو وقفت ساعة لم يكن أصابني ما أصابني) ، ثم إني ما كتبت هذا مغالبة للقضاء الجاري ، ولا صدا عن سبيل الملك الباري ، لكن خفت أن تعيث في جنسيتنا الغول ، فلم يكن لي بد من أن أقول ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، الصبر مفتاح الفرج) إهـ فلما وصل إليه الجواب اطمأنت نفسه واستراح ، وعن قريب فرج الله كربته بأن رجعنا الله إليه لأن الشيخ المحمود أرسل إلى أخيه رسالة يأمره فيها بالرجوع إليه والسليم للقضاء والصبر وصحب حامل الرسالة شيخهما وابن عم أبيهما محمد بن نوح ولما وصل إليه الشيخ مع رسلة الشيخ شاورني خاليين فأشرت عليه بامتثال الأمر فرجعنا . وأما حاله مع جماعته فقد سبق في ترجمة والده أنه هو القيم بجماعته وبالضيوف وبحوائج جيرانه وأهل بلده ومقاومة الأقوياء ودفعهم عن الضعفاء ومقاساة أنواع الشدائد في ذلك وسبق من هذه الترجمة أن والده كان يوليه الأمور في حياته ويخدمه في صغره ويربيه بذلك فلما نشأ وضعف والده قام مقامه بالنيابة ولما مات والده قام مقامه بالخلافة والوراثة ولما مات شيخه وخاله الذي رباه قام مقامه أيضا ونال سيادة جماعته ووراثة أسلافه في القيام بموئن الجماعة والإحسان

إلى القريب والأجنبي ثم زاد على أسلافه أنهم إنما يقومون بأمور الناس تبرعا وليس فيهم من يتسمى باسم الإمارة بل كانوا يتباعدون عن ذلك الاسم ويكرهونه ويهابونه لما فيه من الأخطار الدنيوية والأخروية ، وهذا الشيخ المترجم اتفقت جماعته على تأميره وتوسيطه بينهم وبين الحكومة وهو إذ ذاك غائب لأسباب تقتضي ذلك وخافوا أن لا يوافقهم فاستشفعوا بالشيخ المحمود ليأمره بأن يفعل ما يريدونففعل ما أرادوه فامتثل هو أمر الشيخ ورضي أن يلقب بالإمارة ولكن لم يعمل كما يعمل غيره من مخالطة الحكام وطلب الحوائج منهم وطلبها من الرعية بل كان حاله مع أهل الحكومة أنه لا يأتيهم ويعطيهم ولا يسألهم وحاله مع الرعية أنه لا يأخذ منهم غير ما تلزمهم الحكومة وما رأيتهم وفوا بلازمهم من جهة الحكومة بل ربما تكاسلوا أو أبوا عن دفع ما يلزمهم فيدفع ماله عنهم ، وكان الحاكم في تلك السنين لا يعمل شيئا إلا بواسطة الأمراء فبدالي أن أسافر إلى مكة لأداء الحج فجئت إلى الحاكم الفرنسي أطلب منه ورقت التسريح فقال لي إلا أن يحضر أميرك ويأذن لي فذهبت إلى الحي وجئت معه فقال : له الحاكم هل تأذن لهذا الرجل أن يسافر قبل أن يؤدي غرامة الحكومة ، فقال : له اعطه التسريح وأما الغرامة الحكومية فأنا المسئول عما يلزم قبيلتي منها بالغا ما بلغ ، وكان لا يأتي القرية إلا لغرض خاص فإذا أتاها لم يعمل ما يعمل الأمراء من مقابلة الحاكم حتى كان آخر أمرهم معه أن عظموه وبجلوه لما رأوا منه من عدم الاعتناء بشيء سوى التعلم والتعليم وإصلاح أمور الناس فأعفوه من استحضاره ، وربما وجهوا إليّ خطابا في بعض شئونهم التي يخاطبون فيها الأمراء نيابة عنه مع حضوره ويتركوا توجيه الخطاب إليه تعظيما له فأقوم بتلك المهمة لأريحه وأصلح ما يريدون إصلاحه وربما أصلحت شيئا من تلك الأمور ثم أخبره فيشكرني .

وأما وفاته فعند غروب الشمس يوم الإثنين 12 جماد الأولى عام ألف وثلاث مائة وتسع وثمانين 1389 هجرية .

***

ـــ تراجم بني محمد الأمين بن مَحمد بن هَمَّهَمَّ : وهم مَمَّا ، وعثمان ، وعُمار ، ومَحمد بفتح الميم وهم في أواخر القرن الثالث عشر ، ومَحمد الذي هو أصغرهم عاش في النصف الأول من القرن الرابع عشر .

***

23 ـــ أما محمد أحمد المعروف باسم (مَمَّا) :

فأدركت قليلا من عاريفه وكانوا يصفونه بأنه العالم العامل وأنه العاض على السنة بنواجذه في زمن تستولي فيه البدع حتى صار من يعرفه يستدل على كون الشيء سنة بأنه كان يعمله ولا يطلب لشيء عمله دليلا من الكتب بل يكتفي بصدوره منه ، وأما كونه من كبار العلماء فدليله ما حدثني به شيخي وابن عمي محمود بن محمد الصالح أنه ما رأى من العلماء من يجل في عين شيخه محمد الصالح بن محمد بن ميد ولاسمع منه مبالغة في مدح أحد بالعلم إلا رجلين : مَمَّا ، وأمَخْلَكْ وهو من علماء إكَدَشْ ولا عقب له ، ولم أطلع على تعيين من أخذوا عنه ولا من أخذ عنهم (إلا أني رأيت يخط الشيخ ميدي) إلا أني رأيت بخط الشيخ مهدي بن الصالح أنه أجازه في كتاب الشفا ولفظ ما كتبه بعد البسملة والحمد والصلاة على النبي (وبعد فيقول صالح الخط مهدي بن محمد الصالح قد أحزت أخي محمد أحمد بن الأمين بن محمد بن هَمّهمّ بقراءة كتاب الشفا بتعريف المصطفى كما أجازني به الشيخ محمد ألاغ بن أحمد قائلا : كما أخبره به الوالد المذكور محمد الصالح قائلا : كما أخبره به العالم أحمد بن هَمّهمّ قائلا : كما أخبره به الشيخ أحمد بن الشيخ إجازة وقراءة منه عليه لنحو خمسة عشر جزءا ، كما أخبره محمد بن محمدبغيغ بن محمد كورد كما أخبره شيخه ووالده محمد كورد قائلا كما أخبره به محمد بن أحمد قائلا : كما أخبره به محمد سِلَّ بن أحمد بن إبراهيم كما أخبره يحي بن محمد كما أخبره العلامة بركات بن محمد قائلا كما أخبره والده قائلا : كما أخبره محمد بن ناصر كما أخبره أحمد بن طالب كما أخبره الحافظ أبو طاهر السلفي قائلا : كما أخبرني به مؤلفه الإمام أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي .) إهـ وما رأيت له مؤلفا منثورا بل وقفت له على قصيدتين جيدتين في زمن صغري ولم أرهما بعد الكبر ، مات في العشرة الأولى من القرن الرابع عشر ولم يعقب رحمة الله عليه آمين .

***

24 ــ وأما أخوه مَحمد :

فكان زاهدا صوفيا يختار الخمول على الظهور إلا في تفريق ما بيده فإنه كان فيه مشهورا ، وأما المناصب التي تكسب الشهرة فتعرض عليه ويعرض عنها ، ومات في حدود العشرين من القرن الرابع عشر ، وترك ثلاث بنات كلهن أتت بعالم أو عالمين أو أكثر بارك الله فيهم .

***

25 ـــــ ترجمـــــة عُمـــار بـــن محمـــد الأمـــين :

واسمه محمد الصالح ولكن غلب عليه التسمية باسم عُمار بألف بين الميم والراء هو من العلماء العاملين ، ومن الشيوخ الكاملين ، ومن الأجـواد المتلفقين ، ومن الأتقياء المخلصين ، أما ولادته فلم تحقق تاريخها ولكنها في النصف الأخير من القرن الثالث عشر الهجري ، ومات في عام عشر وثلاث مائة وألف 1310هـ ، وكان ممن يجيد الخط ونفع بخطه كثيـرا من إخوانه من حيه ومن غيرهم ، وكانت له وفادات على إخوانـه مـن العلماء القريبة بلادهم من بلده ، وإفادته إياهم أكثر من من استفادته منهم على ما بلغني فإن كثيرا ممن أدركت من أشياخ القبائل التي يزورها قليلا ما يسكتون عن الثناء عليه ، وكان ممن ألقى عليه المحبـة والمهابـة ، وكان وجيها عند الرؤساء والأقوياء يستشفع به الضعفاء إلـى الأقويـاء فيشفعونه فيهم ، وكان لا يهاب أحدا من الجبابرة ولا يداهن الأمراء مـع مخالطته لهم بل يغلظ على مرتكب المحظور منهم ويعز علـيهم ويـذل للمؤمنين ، ومما جرى له من ذلك أن بعض جبابرة إولمّدن نـزل عليـه قائد الجيش يريدان أن يغزو بلاد تنبكّت ، وكان ذلك الجبار ممن يعظمه ويعتقد فيه أنه من أهل الكرامات الذين ينتقم الله ممـن آذاهـم سـريعا ، فمكث ذلك الجيش عنده مدة يضيفهم ويريدون منه أن يدعو لهم بـالظفر والغلبة فلما أرادوا الرحيل إلى الوجهة التي يقصدونها جاء إلى قائـدهم فقال له أن تلك الجهة فيها أصدقاي وتلامذتي وبعض قرابتي فأريـد أن تتصرف عنها فقال له أما هذه فلا سبيل إليها فإن الجيش عـازم علـى مقصده لا يصرفه عنه صارف فألح عليه الشيخ وقال له لا بد أن تشفعني في أهل تلك الجهة وترجع إلى أهلك فإن كان ولا بد من الغزو فـاذهبوا إلى جهة أخرى فما زالا كذالك يراوده الشيخ ويلاطفه ويمانعـه الجبـار حتى غضب عليه الشيخ فقال له لئن لم ترجع عن هذه الوجهـة لأدعـن عليك وتصير أجبن من كل جبان ويسلط عليك الخوف والفزع حتـى لا تأمن عند رأية العدو إلا بالفرار إلى النساء ، وكان ذلك القائد المهدد من أشجع قومه وأقدمهم على اللقاء فلما سمع ذلك التهديد امتلأ قلبـه رعبـا وصار يلوذ بحقو مهدده ويستعطفه ويسترضيه والتزم له أن ينصرف عن تلك الجهة ولا يخالف له أمرا ما دام حيا فرضي عنه ورجع بجيشه وأمنه على من ينافح عنهم . وأما جوده فقد تواترت عليه كلمة من يعرفه مـن العوام والخواص حدثني من يعرفه من غير حينا أنه وفد ذات مرة علـى أبيه وأعمامه راجعا من سفرة سافرها إلى بلاد أتَرَمْ وقد ساق كثيرا مـن

البقر فلما نزل على حي الرجل الذي يحدثني أهدى له أهل ذلك الحي مائتي بقرة فاستقبله أهل ذلك البلد من أولي القربى والمساكين والأصدقاء وذوي الحاجات فجعل يفرق عليهم ما أتى به من البقر وما ناله من الحي المذكور حتى لم يبق في يده إلا ثلاث بقرات فأمر بذبحها وشرحها وتقديدها لتكون إداما للضيوف ، وحدثني ذلك الرجل أيضا أنه رأه ليلة اجتمع فيها عليه كثير من الضيوف وترادفت الجماعات حتى بلغوا من الكثرة أن ذبح ثلاث بقرات لإدامهم فلم يف لحم تلك البقر بحاجته بل صار بعد ما نفدت يملح الماء ويأتدم به . وأما علمه فلم يتحقق عندي منه إلا ذكر الناس له من كبار العلماء ورأيت من خطوطه ما يشهد لذلك فقد ترك كتبا كثيرة في سائر الفنون وله على بعض كتبه تعليقات وحواش تشهد بأنه من كبار أهل العلم وليس عندي مما كتبه بيده إلا كتاب الإتقان في علوم القرآن وكل من نظر فيه علم أن كتابته ليس صانعا مجرد بل مفيدا يبين ويقف على مايستحسنه من القواعد ولملح وكان عندنا نسخة من المغني لابن هشام فيه خطه وخط أخيه مَمَّا . وأما شيوخه فلم أسمه منهم إلا أنه ممن أخذ التفسير عن الشيخ مدَ أحمد ولآخذون عنه جلهم من أخذ عنه التفسير ، وكان من المفتين وممن يفصل بين الخصوم وربما كان المحكوم عليه ملدا وممن لا تناله الأحكام فيلجأ إليه المحكوم له في تخليص حقه منه فيقابله بالوعظ إن كان من الجبابرين وبالملاطفة إن كان من غيرهم حتى يأخذ للمظلوم حقه . واشتهر عنه ذلك وعرف به فكان الضعفاء من أهل بلده لا يرضون بالتحاكم إلا إليه لما يرجون من قيامه بهم وما شاهدوه من وجاهته عند من يخافون سطوته وجوره من أقويائهم وهذا بعض ما أخذته ممن يعرفه من أهل البلد ، وأما أولاده فلم آخذ عنهم كثيرا لأنه مات وهم صغار وقد أكرمه الله بكرامة الإصلاح في الذرية فقد ترك من الأولاد ثلاثة كلهم صار عالما عاملا وبنتين كل منهما أتت بعالم جليل ومات في عام ألف وثلاث مائة وعشرة أعوام 1310هـ وقبره في مقبرة إظكَوَنْ رحمة الله عليه وعلى أسلافه وأخلافه آمين .

***

26 ـــ ترجمة الشيخ محمد أحمد بن عُمار : وهو أكبر من أخيه الشيخ سعد الدين سنا هو الشيخ العالم العامل التقي النقي الفاضل الكامل ، نشأ عفيفا حييا نظيفا سخيا سلم له من يعرفه السبق في الصلاح والورع وحسن الخلق والتمسك بالسنة والبر بالناس عموما وبقرابته خصوصا وبذل المعروف وقرى الضيف ولزهد في الدنيا ، وكان من حلمة القرآن حريصا على تعليمه وتحفيظه لأولاده وأقراني منه أيها الكاتب عشرين

حزبا قبل موته وكان يشتغل في آخر عمره بكتابة نسخة من تفسير الجلالين وقد كان أخذ التفسير عن الشيخ محمد الصالح بن محمد بن ميدي ، وكان ضابطا لما روى عن شيخه ويفضله أخوه الشيخ سعد الدين على نفسه في ضبط رواية التفسير ولم يكثر الأخذون عنه لأنه صرف همه إلى كتب الأخلاق والمواعظ واشتغل بها عن الكتب التي جرى العمل بأخذها عن المشائخ وأكثر مجالسه مجلس يعظ فيه الناس ، وكان محببا إلى الناس مهيبا محترما مؤقرا جليلا في عين كل من رآه ، ويضرب به المثل في الورع ، ومن ورعه أنه لا يأخذ شوكا معلقا بثوب أحد خشية أن يعلق به شيء من مال الغير ، وكان من أحرص الناس على اتباع سنة السلف الصالح وسنة سلفه المبنية على السنة ، مات عام 1352هـ.

27 ـ ترجمة الشيخ سعد الدين بن عُمار :

مولده شهر ذي القعدة عام ثلاث مائة بعد الألف 1300هـ ، نسبه هو ابن عُمار بن محمد الأمين بن محَمدٍ بن هَمّهمّ بن أحماد بن أحمادُ بضم الدال في الحالات كلها وزيادة ألف بين الميم والدال في الأول وفي الثاني وهو ابن أنْك بن أبي بكر ويقال له عند البعض با بكر بحذف همزة أب وبالألف في جميع ...الأول وفتح كاف بكر ابن أدّ بن الغزالي بن علي بن يحي بن إبراهيم الدغوغي بالدال والضاد أو الطاء كل ذلك رأيته في الخطوط القديمة ، وأما أمه فهي عائشة أم المؤمنين بنت أهَمّنُ واسمه مُحمد بضم الميم والدال ابن مَحمد بفتح الميم الأولى ابن محمد إكْنَنْ بن القاري بن أكّايَّ بن محمد بن إنْكِلَّ بن محمد بن آمن بن علي بن يحي ، يلتقي أبواه في الجد التاسع وأم أمه خديجة بنت ميدِ بن محمد أحمد بن سيدي بو بكر بن القاري ، تلتقي أمه مع أمها في الجد الثالث . وأسرته جماعة أهل تَكَلّتْ وهم بطون بن بطون بني علي بن يحي تفردوا عن إخوانهم في أوئل القرن الثاني عشر الهجري بقيادة هَمّهمّ بن أحمادُ وابن عمه أحمد بن الشيخ ولم يصحبهما من إخوانهما في ذلك الحين إلا رجلان أحدهما من بني أبي الهدى والآخر من بني ربيعة أخي أبي الهدى وهؤلاء النفر هم أول من اختط أمَسْرَكَضْ وعمروه وبنوا فيه مسجدا ولازموه سنين ثم غاض ماءه وضاق عن ماشيتهم فتحولوا إلى منهل آخر قريب منه يقال له تَكَلّتْ فاستوطنوه ونسبوا إليه واشتهروا به أو اشتهر بهم وهو منهل في صحراء أوْظ بينه وبين قرية كاو مسيرة يومين للمجدّ من جهة الشرق المنحرف إلى الشمال كان موطنا لهؤلاء القوم من منذ أوائل القرن الثالث عشر الهجري إلى أن جلوا عنه أوائل دخول فرنسا

للبلاد في أوائل القرن الرابع عشر ، ثم ما زالت الفتن والاضطربات تضرب بهم الجهات إلى أن صاروا لا مقر لهم خاص بل كانوا يتجولون في الصحاري التي تحاذي كاو وتارة ، وتارة فيما يحاذي أنْسَنْكْ لا يجاوزون محاذاة كاو إلى الشمال في الغالب ولا محاذاة أنْسَنْكُ إلى جهة الجنوب ولم يحدثوا بلدا يجوزونه كحيازة أسلافهم لبلد تَكَلْتْ فبقيت عليهم التسمية الأصلية ولم تتغير إلى الآن . وأما أحواله في طلب العلم فإنه لما دخل في السنة السادسة من عمره جعله والده في المكتب فلما تمهر في معرفة حروف الهجاء وأخذ في قراءة القرآن أخذه شقيق أمه أسَّالَ بن أهمَّنُ وأخذ يقرأه القرآن برواية ورشْ حتى ختمه حافظا له من وراء ظهره وقد دخل في السنة الثامنة من عمره ولم يزل على ذلك الحفظ إلى أن مات ، فلما استقر المنزل في جوفه وأمن أهله من نسيانه له أرسلوه إلى إخوان لهم في أرْبَنْدَ يقال لهم تَنْغْ أكَلْ وكانوا مشهورين بالتمهر في علم النحو وبذل جهودهم في تعلمه وتعليمه فوق ما يعمله غيرهم من أصحابهم ، وكان من المجرب أن من ارتحل إليهم في طلبه لا بد أن ينال منه ما قدر له ، أرسله عمه مَمَّا وكان هو الذي يتبناه ويتولى أموره دون والده مع بعض شيوخ ذلك الحي وهو يَعمُر بن عبد الرحمن ابن أقَّ وكانت بينهما قرابة ماسة فأخذ يَعمُر في تعليمه متن الأجرومية وربما أمر بعض الصغار بتعليمه وأكثرهم في ذلك الشيخ أحمد بن مَكَا ثم صار أمر تعلمه غير مقيد بعلم بل كان موكولا إليه لما رآه شيخه من حرصه على التعلم فلم يختص بأحد من علماء الحي بل يأخذ عن جميعهم ومن أشدهم عناية بتعليمه فيما حدثني به مشافعة الشيخ أحمد بن الهادي وممّا بن حَمّنا ، وكل الحي محبون له ناصحون مرشدون لا يألون جهودهم في تعليمه فمكث فيهم خمس سنين وقرأ فيهم الأجرومية ومحلة الإعراب للحريري وألفية بن مالك ولامية الأفعال وجمل ابن الهائم وألفية السيوطي في النحو وأضاف إلى ذلك كثيرا من القواعد والفوائد من كتب أخرى وامتحنه أشياخه وأصحابه حتى شهد له الجميع بالسبق والفضل ، حكى لي في معرض تنهيضه أياي أيام يقرءني النحو أنه ذات ليلة يذاكر بعض أصحابه في مجلس معقود لإلقاء الامتحانات فسأل بعض من يدعي منافسته منهم عن معنى بيت من الألفية ابن مالك وكلما أجابه عن سوال أو عجز عن الجواب سأله عن جزءية من جزءيات القواعد المشتمل عليها البيت فما زال يعجزه ويفحمه حتى أفحمه مائة مرة من متعلقات ببيت واحد ، فأقر له ذلك المنافس بالسبق وأيس منه من كان يرجو أن يلحق شأوه من أصحابه فلما نال هذه المرتبة وشهد له أشياخه ببلوغ

المنى من عليم النحو أرسله إلى أهله فسبق إلى حي أخواله وأعمامه أهل تَبُورَقْ وكان منهم فرسان مشاركون في الفنون كالشيخ عمران بن محمد الصالح الذي أتى في صحبته وأخوته الشيخ شعيب بن محمد ، ومحمد بن محمد محمود ، والسيعد بن محمد الأمين ، وعميهما بُلَّ وحَدى ، وغيرهم فامتحنوه فوجدوا عنده ما يرضيهم فمكث مدة في ذلك الحي يذاكر أصحابه ويناظرهم ويأخذ عن كبار المشائخ ، ثم رحل إلى حيه فلما وصله اشتغل بحفظ كافية ابن مالك ومطالعة المغني لابن هشام والإتقان في علوم القرآن للسيوطي وضبط مسائل الكتابين فصار لا يجتري أحد على مذاكرته في النحو وانتشر ذكره واشتهر صيته أيام شبابه ثم قرأ مقامات الحريري ومختار الشعر الجاهلي ، واشتغل مدة بمعرفة كلام العرب حتى تمهر في اللغة وتمكن من الإنشاء نظما ونثرا ، ومع اشتغاله بالمطالعة في تلك المدة كان لا يستريح من شاق العمل في أمور أهله فقد مات أبوه وعمه مدة غيبته في طلب العلم وتركا عيالا قام بها أصحابه عنه إذ كان غائبا ، ولما حضر لم يطاوعه طبيعته بأن يريح نفسه وكلَ أمرهم إلى غيره فصادف ذلك كثرة الإغارات على البلد وزلازل الحروب العامة والواقعة في العشرة الثانية من القرن الرابع عشر أيام استيلاء فرنسا على البلاد ولم تزُل إلى عام ثلاث وثلاثين وجاهد ن فسه في ذلك ولكن لم يترك التعلم والمطالعة ففي أثناء تلك المتاعب حصل علم مصطلح الحديث وعلم السيرة النبوية ، وعلم الأصول ، وكثيرا من مختصر خليل ، ولم تنضبط كيفية أخذه لهذه العلوم ، فبعضها أخذه عن غير واحد من المشائخ وبعضها أخذه من الكتب بالمطالعة ، وأما مختصر خليل فأخذ بعضه عن الشيخ الثقة محمد أحمدُ بن فُكَّ من السوقيين الكنتيين ، ثم اشتغل بشروحه حتى أتقنه وحققه ، ثم أخذ التفسير بالرواية التارقية المشهورة عند أهل حيه عن شيخ الشيوخ محمد الصالح بن مَحمدْ بن ميدِ آخر عمره أي الشيخ ، وأخذ عنه أشياء سوى التفسير وانتفع به ، ثم اشتغل بطالعة الكتب من غير أخذ عن أحد حتى أتم دراسات الفنون التي تقرأ ببلده أخذا ومطالعة وهو ابن بضع وعشرين سنة ، وكان فائقا في النحو وعلوم القرآن تفسيرا وتجويدا لا سيما علم التجويد فإنه صار مندرسا في بلده فجدده الاعتناء به والاشتغال بكتبه حتى صار إماما لمن بعده فيه ، وكذلك علم مصطلح الحديث لم يشتغل به أكثر أصحابه كاشتغاله به حتى فاق فيه ، وكذلك علم السيرة والمغازي لا مداني له فيه ، وما سوى هذه العلوم من الفقه وأصوله ، وعلم البيان ، واللغة يشاركه فيه أكثر أصحابه ، ولما حصل من العلوم المذكورة ما تيسر له أخذ في

السوقي الكنتي

رواية ومشافهة فيترجمها له مراعيا المعنى ما عسى أن يغفل عنه فيستقر معناها حينئذ في ذهن السائل ، وربما سئل بعض العلماء غير المعانين لها عن معنى آية أو كلمة فيصعب عليه التبيين على وفق المراد ، ولذلك لا ينصب أهل بلادنا لتلك الوظيفة إلا من يرونه أعلم ، ولا ينتصب لها إلا من يجد من نفسه ثقة بالوفاء بالمراد منه وبعد تحصيله لمرتبة التدريس في الفنون ، اشتغل بالتصنيف والإفتاء ، فأما تصانيفه فأكبرها شرحه على قصيدة محمد محمود بن شيخه محمد الصالح المفسر سماه (تنبيه الإخوان على جوالب الرضوان) وهو شرح واسع يبلغ خمسمائة ورقة بالقالب الكبير ، فيه من جميع الفنون ، وفيه مواعظ وحكم على حسب ما تكلم عليه صاحب القصيدة فإنه تكلم على أمور كثيرة من البدع أحدثت في وقته ، وكثير من السنة قصر فيه الناس فكان جل كلام الشيخ في الشرح متعلقا بذلك الغرض ، وفيه كثير من علوم القوم . ومن تصانيفه حواش حشّى بها تفسير الجلالين مرتين ولم يسندها إلى نفسه على أنها من تصانيفه ولكنها في الحقيقة تصنيفه لأنه هو الذي عاني جميع شتاتها ورعاية تناسبها مع ما يحشيها به حتى مكث في ذلك نحو ثلاثين عاما قلما يخلو من تلك الخدمة ويعمل مثل ذلك على كتبه الفقهية ليس منها كتاب إلا حشاه بالطرر المفيدة المناسبة ، وقلّ كتاب من كتبه إلا عمل به مثل ذلك ، وكثير من أصحابه تفضّل عليه بمثل ذلك ، ربما كتب لإخوانه المعاصرين له فوائد علمية يقتصر في شأنها على عزو فيها لأربابها ولا ينسبها إلى نفسه كما هو سبيل قومه من عدم نسبة منقولاتهم إلى أنفسهم بل ينقلونها ويسندونها إلى أربابها ولا يجمعونها على وجه التأليف المسند إلى جامعه . ومنها الزام ..بالسنة المتبعة ، وإن صارت شعارا للفسقة المبتدعة وسببه أن بعض تلامذته استشكل إليه قول العياشي في جامع رحلته : (وقد استحب بعض العلماء ترك السنن إذا صارت شعارا للفسقة المبتدعة) فكتب في الرد على ذلك وإيجاب اتباع السنن رسالته المذكورة . ومنها (تخليص الحذاق من وثاق تزويج الأبّاق) وهو جواب عن سؤال أرسله إليه بعض الإخوان في حكم آبق خرج من بلد سيده وعجز عن رده ثم أراد النكاح وامتنع سيده من الإذن في عقده ولم يقدر عليه بشيء سوى العضل لمنع الحكومة من قهر المماليك ، فوسع له في الجواب حتى أقنعه بالمنقول والمعقول . وحاصل ذلك الجواب مفسدة الفاحشة التي تترقب من الآبق إذا لم يعقد له أشد من مفسدة العقد له بغير إذن السيد . ومنها (نظم قطر الندى) لابن هشام في النحو . ومنها (نظم مختصر خليل) من أوله إلى باب النكاح . ومنها (

التدريس في الفنون التي تقرأ بعد علم النحو فإنه لم يزل يدرس فيه منذ بدأ قراءته وهو ابن عشر سنين ، وكان يُقرأ الأجرومية حين اشتغل هو بقراءة الألفية ، وكان ذلك أو اشتغاله بالتدريس في النحو ثم لم يزل يشتغل بالتدريس فيه إلى آخر عمره . وأما غير النحو من الفنون فلم يشتغل بالتدريس إلا بعد الشباب ، ولما شب درس في اللغة ثم درس في الفقه ثم في غيرهما من الفنون وكثر الآخذون عنه حتى فاتوا الحصر لأن جميع قبيلته صاروا من تلاميذته وأخذ عنه كثير من أهل الآفاق فممن أخذ عنه من حيه من الشيوخ الشيخ محمود بن محمد الصالح ، و الشيخ حمّدَ بن مُحمد ، والكرماني أخوه وأحمد بن الأمين ، وحبّ ونوح ، ابنا محمد الصالح ، ومن بعدهم من أهل حيه أهل تَكَلْلتْ ، وممن أخذ عنه من أهل تِكِرَتِنْ الشيخ حُميد بن عبد الرحمن وإخوته وبنو عمه وجيمع طبقتهم أخذوا عنه التفسير وشيئا من الفقه وشيئا من علم النحو ، وممن أخذ عنه من أهل تَبُرَقْ الشيخ المحمود بن الشيخ حماد وطبقته أخذوا عنه شيئا من التفسير وربما أخذوا عنه كثيرا من مسائل الفنون سوى التفسير ، وممن أخذ عنه من شيوخ أهل الآفاق الشيخ أبو بكر بن محمد الأمين المعروف باسم أتُوتّا ، وأحمدُ بن سعد ، وجميع حيهما ، وحي إفنْفَنْ بن أكّنَتْ ، والشيخ عال بن محمد بن اليمان شيخ أهل تِمُكَسِنْ وإخوته وجميع المتعلمين من حيه ، ثم أخذ عنه حي تَنْغَ أكَلِ ، وحي أهل كُنْهَانْ كثيرا من النحو والفقه والتفيسر ، وأخذ عنه حي إكَدَشْ كثيرا من العلوم ، فكانت أحياء المتعلمين ببلده كلهم من تلامذته ، وأما غير المتعلمين من أهل بلده فلا ينفك عن تعليمهم على قد طاقته وطاقتهم كلما نزل ببعض الأحياء أحدقوا به ليسمعوا عنه بعض العلوم أو المواعظ بلغتهم التي يعرفونها فيسعفهم بمطلوبهم من ذلك ، وأجل ما يؤخذ عنه تفسير القرآن بالتارقية الذي أخذه عن الشيخ محمد الصالح بن محمد بن ميدِ عن أشياخ قومه فإنه ممن ورث مقام شيخه ومنصبه من تبليغ الناس معنى القرآن بلغتهم التارقية وكان ذلك منصبا عظيما لا ينتدب له إلا من كان مشاركا في الفنون قادرا على التعبير عن كل معنى يعتبره البلغاء والأدباء في كلام العرب باللغة التي يترجم بها ، وربما حضر ذلك المجلس من العلماء من يحسن الفنون العلمية ولكنه لا يجترء على الانتصاب لتلك الترجمة لعزة الإتيان بالمعاني العربية وافية في لغة غيرها ، وربما استصعب على بعض أولئك الفضلاء معنى آية فيطالع كتب التفسير حتى يحصّل ما قيل فيها ومع ذلك لا يزول إشكاله حتى يعرضها على بعض الترجمين المُعانين لتلك المصاعب المعتنين بضبط ما أخذوه عن أشياخهم

قصائد) في الرد على من خالف الحق من أهل عصره وبلده .
أما شعره فكثير وجله في المدائح النبوية ، ومنه ما يتعلق بالمواعظ ، ومنه ما يتعلق بالدعاء في النوائب والاستسقاءات ، ومنه ما يتعلق بشيخه في الطريقة حمّاد بن محمد وابنه الشيخ المحمود ، وليس منه ما يتعلق بالأمور المكروهة شرعا .
وأما الإفتاء فسبيله فيه التلكأ عن الجواب لكثير من السائلين وإرسالهم إلى غيره من العلماء ليكفوه أمرهم حذرا من أن يتسم بوسم القضاء ، ويتعرض لما في تولي فصل الخصومات من الأخطار وحذرا من الوعيدات الواردة في حق قضاة الجور ، فإذا ظن أن جواب المسألة تعين عليه لعدم وجود أهل العلم في محل النازلة أو لعدم رضا أهلها بكلام غيره ، أو لتوجيه بعض إخوانه إليه السؤال ليبين له حقيقة الأمر فإن كان عنده من يفهم العربية أطلعه على جواب المسألة في الكتب وقرأه عليه ثم أمره بتبلغ السامعين ما قرأه عليه أو كتب عليه ملخص الجواب إن كان غائبا وإن كانت المسألة مختلف في جوابها ، فإن كان المختلفان أو المختلفون يرضون بترجيحه ذكر لهم الراجح عنده ، وإن طالبوا بالدليل بيّنه لهم وإن لم يرفع إليه إلا حكاية الخلاف بين المجيبين أعرض عن الكلام فيها وتركهما وخرج من عهدتها ببيان أنها من المختلف فيه ، وإن كان الراجح عنده من الخلاف غير ما أفتى به المجيب ، وكان مُقلا من فصل الخصومات إلا أن يلجأ إله بواحد من الأمور المذكورة ، وطريقته في الفتوى العمل بمشهور مذهب مالك وتقديم أقوال الكبار من المشائخ على نظره ، والتصبر في أقوال كثير من العلماء لا يقلدهم تقليد الأعمى بل يطلب دليل أقوالهم ما استطاع فإن لم يتبين له أو تبيّن له خلافه عمل بمقتضى الدليل مع تعظيم من ترك قوله وتبجيله ، ولا يعدّ مخالفة من لم يقم له دليل على قوله من العلماء غضا من منصبه كحاله مع غير الإمام مالك من الأئمة الذين يعتقد جلالتهم وفضلهم ولا يعمل بمذاهبهم ، وكان في أول ابرازه لهذا المنحى من عدم التقيد بكل ما قيل يعارضه بعض القاصرين من الطلبة الذين يحتجون بكل مكتوب من غير نظر في حاله وحال قائله ويحتج عليهم بنقول العلماء المتبصرين الذين ينحو منحاهم ، ثم آل أمره إلى تسليم فحول العلماء له انظاره وأبحاثه في الفنون فأحجم عن معارضته كثير ممن تصدى لها وعلموا أنهم قاصرون عن مقامه في النظر ، وأنه وصل إلى ما لم يصلوا إليه ، وأنه كان ألزمهم للعمل بما قام عليه الدليل وأحسنهم أدبا مع الأسلاف والشيوخ ، وكان يقدم كثيرا من معاصريه الذين قام له البراهان على فقاهتهم وإصابتهم وتيقظهم على

كثير ممن قبلهم ، وليس كبعض الناس من يرون الفضل للسابق على اللاحق مطلقا ، وجرت له في ذلك أبحاث ونزاعات مع بعض أقرانه وكان يشدّد في الرد والاحتجاج عليهم ويقرر لهم أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء في أي وقت شاء يؤتي منه الابن ما لم ينله الأب ولا الجد . وممن كان يقدم فتواهم على فتوى من قبلهم الشيخ بَايْ بن سيدّ عُمر الكنتي ، وسيد عمر بن سيد علي الكنتي ، ومحمد الصالح بن مَحمد بن ميدِ ، وشعيب بن مُحمد ، ومُحمد بن مُحمد محمود ، وكل هؤلاء جالسهم وناظرهم ورأى أثارهم حتى تبين له أنهم من السلف وإن كانوا في القرن الرابع عشر فكان يفتي بما ثبت عنهم كما يفتي بأقوال المتقدمين من أهل المذهب . وأما أخلاقه فمبنية على أخلاق السلف الصالح المبنية على أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم المبنية على القرآن ، وكان متضلعا من علم السيرة النبوية ومن كتب أخلاق السلف وأحوالهم لا سيما السادة الصوفية كثيرا النقل لما استحسنه من تلك الكتب ، وكان إذا نقل شيئا يتمكن من العمل به عمل به وإذا واظب على عمل من أعمال البر وفتشت نقوله وُجد منها ما بني عليه ذلك العمل ، ومن أحواله في العمل بما علم ما حدثني به نفسه أنه كان في ابتداء أمره يميل إلى أحاديث الترغيب والروايات المكثرة لأجور العمل القليل ، فكان يعمل بتلك الأعمال التي وردت الروايات بفضلها والترغيب فيها ويعتني بها ثم تفطن لما في ذلك من عدم مجاهدة النفس اعتمادا على الأعمال المرغب فيها مع ما يلوح على بعض تلك الروايات من سمات الوضع فاشتغل بأحاديث الترهيب قمعا لنفسه وهضما لها وإبعادا لها عن العجب ومن الاتكال على العمل فلبث مدة يشتغل بالترهيبات ويجاهد بها نفسه ثم تفطن لأن تلك الروايات تكاد أن تقنط الناس من رحمة ربهم فهرب من اليأس من روح الله الذي يترتب على شدة الترهيب ومن الأمن من المكر الذي رما يترتب على كثرة الترغيب إلى الأخذ بكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فعكف على خدمته بالتلاوة والتدبر والتفهم والإئتمار بأوامره والانتهاء بنواهيه ، ولم يزل على ذلك إلى أن اجتمع بالشيخ القطب حمّاد فسلم له القيادة ومثل بين يديه للتلمذة على وجه التربية والترقية فأحاله على التعلم وقال له : (خليت بينك وبين كتبك لما علم من حاله من التثبت في النقول والتقيد بصحيحها فكانت أخلاقه فيما يتعلق بعبادة ربه مبنية على حب الطهارة والنظافة وأن المحافظة على الصلوات في أول الوقت مع الجماعة في الصلوات المفروضة ما شُرعت فيه من النوافل وكثيرا ما يقول :

صلى عليه ربنا العلي ... ولم يصل فذا النبي وبعض أصحابه قال لي إن هذا البيت من نظمه هو وأنا لم أسمع منه ذلك ، وكان من حرصه على الصلاة في الجماعة أنه يستيقظ غالبا في آخر الليل فيصلي ما شاء الله ثم يقرأ ما تيسر له من القرآن ثم يطوف في جيرانه يوقظهم ، ويرى إيقاظ النائم للصلاة من التعاون على البر والوجب ....وربما أيقظ منهم من ليس ماء له يتوضأ به فيجده وقد أعدّ ماء للمتوضيين فيتوضئون معه الصبح ، ومن عجب أمره في المحافظة على الصلوات أنه إذا مرض مرضا شديدا عجز فيه عن أداء الصلاة قائما وجالسا بادر إلى أدائها في الوقت مضجعا ولا ينتظر جفة يرجوها في أواخر الوقت أوبعد انقضائه ، ويقول إنما الواجب على المكلف الإتيان بالمأمور به كما أمر على قدر طاقته ، وانتظار الخفة الحاصلة بعد الوقت خطر فربما جاء الموت قبل حصولها ، وكان إذا بلغ منه شدة المرض حد الغيبة عن الحواس ربما أحرم للصلاة وشرع فيها فيغشى عليه فإذا أفاق بعض الإفاقة فلا يسأل ولا يجيب سائلا ولا يلتفت إلى غير الصلاة بل يحرم للصلاة وربما غشي عليه قبل الإتيان بها ويتكرر ذلك منه في اليوم الواحد مرات ، كلما أحس بشيء بادر إلى أداء الصلاة ثم يغمى عليه ، وكان يكثر من تلك الإحرامات التي لا شعور بعها في مرض موته وربما رآه بعض الناس بعد موته فيخبر أنه رآه يصلي أو يدرس كما هو حاله في الحيوة الدنيا. أما حاله في المحافظة على الأوراد فقريبة من اله في المحافظة على الصلوات يؤدي الموقوت منها لوقته ، ويقضي فائتها ولا يسامح نفسه بالتساهل فيها ويرى مذهب من جعلها فوق النوافل لازمة كلزوم النذور ، وجاءه بعض إخوانه عائدا له في مرض موته فسأله عن حاله فقال له هذا المرض الذي عجزت فيه عن أداء المسبّعات لا حاجة لي في البراء منه ، فقال له ذلك العائد السائل ما حاصله إن فوات المسبّعات لا ينبغي أن يزهدالمرء في الحياة فدعا الله أن لا يبرأ فاستجيب له ، وأوراده سوى المسبّعات والقادرية كثيرة منها أدعية مأثورة لا يتركها ليلا ولا نهارا ، ومنها آيات مجموعة في أغراض معيّنة دينيّة ودنيويّة ، ومنها الحزب الراتب الذي جرى عمل عومه بقراءته في المساجد كل ليلة وكل يوم من أول القرآن إلى آخره ويكون ختم القرآن بذلك العمل في مدة شهر وخمسة أيام لأن ليلة الجمعة إنما يقرءون فيها سورة يس ويومها يقرءون فيه سورة الكهف وفي غير الجمعة يقرءون حزبا مساءا وحزبا صباحا ، ومنها ختمة الأسبوع ، وكم له من تلاوة غير مضبطة لأنه من المهرة بالقرآن وممن خفت عنهم تلاوته ومن المستأنسين به فلّما يفرغ من

تلاوته آناء الله وأطراف النهار إلا لأمر مهم من التعليم أو من ضرورياته ، وربما ختم القرآن مرتين في اليوم ، وربما ختمه في حاجة يريد قضاءها فتقضى ، والغالب من حالته في العبادة والأوراد أنه إذا صلى الصبح في أول وقتها جلس في مصلاه يدعو ويقرأ إلى أن تطلع الشمس فيصلي ركعتين الإشراق ثم يشرع في خدمة العلم بالتدريس والخط ، وربما اشتغل بالتدريس قبل طلوع الشمس فيدوم فيه إلى قرب الزوال . وأما أمر العيال وتدبير الأموال فله فيه نوّاب من الخدم والتلاميذ ولكن لا يفرض إليهم الأمر بالكلية بحيث يكون منها كالفارغ أو كالأبله الذي لا همة له بل يرشدهم إلى الأصلح مما هم فيه ويوصيهم فيما يحتاج إلى الإيصاء ثم يقبل على الشئون التعليمية والخطية . وأما أخلاقه في معاملة الناس فمبنية على البر والصلة والإحسان إلى القريب والبعيد وتقريب البعيد حتى يظن أنه من أقرب الناس إليه نسبا ، ولا يحسب جليسه أن أحدا أحب إليه منه ولا يحتقر ذليلا لذله ولا جاها لجهله ويؤتي كل ذي حق حقه ، وكان مبالغا في الاستشارة يستشير كل من معه من صغير وذليل وخادم ولا يقابل جليسه إلا بما يسره فإذا جلس إليه الزائر حدّثه بما يستأنس به ويكلمه فيما هو مهتم به من الأمور ، وربما بحث لبعض العوام في شيء من الشئون التي يحسنها فيظن أنه يستمعه ، فإذا أقبل على الحديث أقبل هو على الكتابة ، وربما خاطبه بمايخيله أنه يستمعه أداء لحق مجالسته وإذا سمع أن بعض إخوانه أحسن إلى بعض قرابته استبشر بذلك من جهة المحسِن لما تيسر له من الإحسان ومن جهة المحسَن إليه لما تجدد إليه من النعمة ، وكان مثلا في وصل الرحم ولا يرى الرحم المأمور يوصلها مقصورة على المحارم والأقربين كما يراه بعض الناس بل يرى قرابته أمه كأمه في البر وقرابة أم أمه إلى السابعة كالأم القربى ، ويرى أولاد أبيه الخامسة كأولاد أبيه الأدنى في الصلة ، وكان نسّابة لحديث تعلموا من أنسابكم ما تصلوان به أرحامكم ، فكان يعتني بمعرفة الأنساب وصلة الأباعد من أهلها ، وربما حكى لمن يرغبه في وصل الأرحام ما ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم (رأى ليلة الإسراء رحِما معلقة بالعرش تشكو القطيعة فسألها عن العلاقة بين القاطع والمقطوع فقالت : أربعون أبا) أو كما قال . فكان لا يستبعد القرابة لأجل هذا الأثر ، ويرى تقريبها ووصلها بقد الطاقة ، وربما قال : صلوا أرحامكم ولو بالسلام ، وأما غير الأقارب فيعاملهم بالبر والنصح والإرشاد وحسن اللقاء وبذل المعروف حتى لا يفرق من يشاهد معاملته لهم بين ذوي القربى وغيرهم ، وكان جودا محببا إلى الناس ومتوددا

إليهم ، ربما أهدى إليه مال كثير من بعض الإخوا فيفرقه على الناس من غير فرق بين القريب والبعيد والأجنبي ولا يمسك منه شيئا لحوائجه ، وقد رأيته مرة وقد وآساه بعض إخوانه بنصاب من البقر ففرقه كله ولم يبق منها شيئا ، وأما مادون النصاب فقلما يأتي عليه شهر إلا وجده وفرقه وإذا أتاه شيء من المال فكأنه يحمل شيئا ثقيلا ما لم يفرقه فإذا فرقه استراح ، وكانت حالته في الإنفاق مبنية على الإيثار مع الحاجة كما هو العادة في أهل بيته فإنهم لا يعدون إنفاق الفضل من الجود والسخاء بل يرونه من الواجب ولا يصفون بالجود إلا أهل الإيثار ، وكان أهل بيته مشهورين بذلك حتى حازوه كحيازة المواريث ، ويحكون عن جدهم محمد أحمد المعروف باسم هَمّهَمّ أنه يفرق الأموال يوما فقال له بعض أصحابه ابق لأولادك شيئا يعيشون به فقال له إن كانوا لله كان لهم وإلا فلا حاجة لي في إعانة العاصي . ومن أحسن معاملته مع الناس أنه كان ممن ألقيت عليه المهابة التي تلقى على الكبار من أهل العلم وأهل السنة فكان يمازح الصغار والكبار على نحو المزاح النبوي لتزول هيبته من قلوبهم ويتمكنوا من رفع الحوائج إليه فشكر الناس له ما فتح لهم من أبواب المؤانسة والمواصلة حتى كان أحبّ إلى كثير منهم من الأقربين إليه . ومما بني عليه معاملته قوله صلى الله عليه وسلم (لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه) فكان لا يحب لنفسه وقرابته شيئا إلا أحبه لسائر المؤمنين لا يترك نصحهم وأمرهم بالتعلم قلّ أن يرى أحدا أو يجالسه إلا أمره بالتعلم ورغبه فيه ويظهر غاية الحزن والأسف إذا ظهر له أن قوما من أهل التعلم انقرض فيهم العلم . وأما معاملته لأهل العلم من قومه ومن غيرهم فالمحبة والإجلال والتقريب وتعليم من يرغب في زيادة العلم منهم وكثرة إفادته لهم كلما استفاد شيئا من العلم ولقي من يتأهل لذلك أفاده إياه حرصا على بث العلم وإيناسا لأهله ، ورغبة في أجر التعليم ، والاستفادة منهم من غير فرق بين الصغار والكبار بل فرحه بالاستفادة ممن هو دونه سنا أو علما ، أشد من فرحه بالاستفادة ممن هو أكبر منه سنا لحرصه على تجدد العلم في الشبان وعدم رفع نفسه عن الأصاغر والاعتراف بأن فضل الله يؤتي منه الصغير أكبر مما آتي من هو أكبر منه .

وأما معاملته مع الأمراء فهو أن من كان أميرا عليه يؤدي إليه حقه من الطاعة في المعروف ومن النصح ومن المواساة بالمال إذا نابت نائبة يحتاج فيها إلى الاستعانة بالإخوان ومن عادته أن يبدأهم بالإعانة قبل استعانتهم إياه ومن لم يكن أميرا عليه من إخوانه ومعارفه الأمراء يعامله

بالنصيحة والأمر بالعدل والنهي عن الجور ، وربما سمعته يقول لواحد منهم اعلم أن الأمير إذا ولي أمر الناس فإحدى رجليه في الجنة والأخرى في النار فإن عدل كانتا معا في الجنة وإلا صارتا إلى النار ، وكان مسموع القول عند كثير منهم معظما محترما مشفعا فيمن يستشفع به عندهم ،وربما قص عليهم بعض القصص السالفة المزهدة في الظلم والجور ، والرغبة في العدل وذلك هو الكثير من محادثته لهم ولا يطمع أحد منهم ، في مداهنته له ولا استمالته له بحطام الدنيا بل يتبركون به ويسألونه الدعاء ويكتمون عنه أمورهم ما يعرفون أنه إذا اطلع عليه أنكره ، ولم أر من يجهر بين يديه بالمنكرات خوفا من إنكاره وكفه للفاعل عما أراده من السوء فإنه لا يخاف في الله أحدا لا قويا ولا غنيا ولا سلطانا ولا عالما ولا ذا جاه بل يسوي بين الناس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وربما إئتمر مأموره أو انتهى منهيه ببركة أخلاصه في الأمر والنهي فقد اشتهر بين من يعرفه أنه لا يأمر ولا ينهى لغرض دنيوي بل يأمر وينهى في الله ولله ، ومن أخلاقه الصفح والعفو وإذا رأى من إخوانه من يميل إلى الإنتصار باحثه في ذلك وقرر له أن أجر الاحتمال أحسن من الإنتصار ، وأن العفو عن المقدرة هو سيرة الأحرار والأخيار ، فإذا عارضه بعض إخوانه المغتاظين في ذلك صبر على مكافحة ولأينه حتى يرجعه إلى ما أراد من العفو عن أخيه الذي يأسف عليه وجرت له في ذلك قضايا مع كبراء إخوانه الذي لا يجترئ أحد على معارضتهم ولا مباحثتهم ، ولكنه لا يمنعه ما لهم من الفضل والجلالة من أن يرشدهم إلى الأولى ، فكان إذا أتى أحدا منهم لينصحه ولم يلق منه القبول من أول الأمر صبر ولاينه ولا يزال كذلك إلى أن يفيء المغتاظ لأمر الله ببركة نصحه ثم يبالغ في شكواه والثناء عليه ومحبته وإجلاله لصبره على ما قابله به من عدم القبول أو مرة حتى رجعه إلى الصواب وتكرر ذلك منه حتى عُرف به فيأتيه بعض الناس فيقول له إن فلانا العالم أو الأمير ارتكب أمرا غير مرضي ولا نظنه يقلع إلا بأمرك فيبادر على زيارته ويخلو به وينهاه فينجح في مسعاه ويرجع مأجورا مشكورا إن شاء الله . ومن أخلاقه بذل الجهود في إصلاح ذات البين كثيرا ما أتيت معه بعض الأحياء الأجانب فأسمع من يقول له فلانا وفلان متنافران أو أن آل فلان وآل فلان متفاتنون ولا نرجوا لإصلاح بين الفريقين إلا على يديك لأنك المؤتمن عند كلا الفريقين وغيرك لا يسلم من الاتهام من أحد الجانبين فيسعى في الإصلاح بينهم ويوفق لمن أراده ، وهذه حالته في غير قومه فقومه أحرى لا يسمع

من بعضهم كلمة تنافي محبة أخيه ونصحه والثقة به إلا ردها عليه وقبّح في عينه وإذنه رذيلة التشاجر والتباغض بين المسلمين وأيّده الله وآتاه من التوفيق والتيسير في أمر الإصلاح بين المتدابرين ما يتعجب منه الراءون والسامعون . وأما معاملته لشيخه في الطريقة فقد بلغ من محبته وتعظيمه وإيثاره على الناس وإيثار قرابته على غيرهم ما ليس وراه غاية وآثر ما أخذ عنه على غيره من المنقول والمعقول وتبرّي له من كل دعوى واستسلم بين يديه وسلم له نفسه وماله واعتقد بيعته وطاعته أمرا واجبا وجعل يدعو الناس إليه ويرغبهم في التعلق به ويذكر لعوامهم كراماته ولخواصهم ما يمكن ذكره من مقامه الموجب للرغبة في التعلق به ويجمع قصائده ويفسر للناس منها ما كان جوابا لقصائد مريديه ويعترف بالعجز عن معنى وإرداته مع التصديق التام بمضمونها ويثني عليه في المجالس ويقرر أعلميته في الظاهر والباطن وأعرفيّته بأمور الدنيا وتدابيرها كأعرفيته بالأمور الدينية ويقرر أنه وارث نور النبي صلى الله عليه وسلم وأخلاقه وأنه إمام الأولياء في وقته ويذب عنه أقوال المنكرين والمعاندين متقيد في .... بالكتاب والسنة وآثار السلف وأقوال السادة الصوفية متبرءا من البدعة والإطراء ومن القول بدون علم ومن دعوى علم شيء من علوم القوم التي تذكر ولا تسطر مع مداولته لكتبهم والإطلاع على إصلاحاتهم ومقاصدهم ونقله لكثير من خلاصة ذلك لكن غاية مقصوده في نقل تلك العلوم والأقوال أخذ نفسه بالعمل بمقتضاها من التسليم لأهل الله وحسن الاعتقاد فيهم وتصديقهم في أقوالهم وتوجيه ما يحتمل المخالفة من أفعالهم وحسن الأدب معهم كافة ، ومع من اتخذه شيخاً والتزم طاعته خالصة وليس مقصوده دعوى الاتصاف بصفات أهل الكمال الذي يتوهم كثير من أهل الكلال أن معرفة تلك الأوصاف بمنزلة الاتصاف بها فيخبط في أساليب الضلال ويجرف كثيرا من أقوال كمّل الرجال ، لينال بذلك تعظيم العامة وحظا من الحطام السريع الزوال ، وأني يكون قصده ذلك وقد جمع بين ما تعلمه من العلوم قبل شيخه وبين ما أمدّه به الشيخ من الأسرار والأنوار بعد تسليمه له بنفسه وبراءته له من العلوم والرسوم فإنه ما نزل بساحته برسم الإرادة والتسليم حتى طالع كثيرا من كتب الفن (كالبحر المورود في المواثيق والعهود) لشعراني وغيره من الكتب وتأمل من شروط الشيخ والمريد ، والإرادة وآداب السلوك والرفقاء في الطريق وقطاع الطريق ما دعاه إلى التثبت والتبصر في أمره ، فتبصّر حتى طالعت بصيرته أنوار الشيخ وعرض أقواله وأحواله على ما عنده من الكتب فوجد بينها من الموافقة ما دعاه إلى الرحيل إليه والاستسلام

بين يديه استسلاما كليا غير مشوب بشيء من الأعتراض والانتقاد ولا من التردد والحيرة وسوء الاعتقاد . وقد حدثني عن أول ليلة اجتمع له فيها برسم المبايعة وأن الشيخ المراد قال له ما ذا رأيت من كتب الطريقة فأخبره بما رأى منها فقال له ما حاصل ما استفدت منه في هذا الشأن فقال له الشيخ المريد حاصل ما استفدت منه أن حقيقة الإرادة أن يكون المريد بين يدي شيخه كالميت بين يدي الغاسل فقنع منه بذلك الجواب . وهذه الحكاية تلقنتها منه في سن الصبا يحكيها لي ليمكن من قلبي حقيقة التسليم الذي يترتب عليه انتفاع التلميذ بشيخه ولم يحك لي صورة ما جرى بينهما بعد السؤال والجواب من صيغة المعاقدة والذي شاهدت من أفعاله وأسمعه كثيرا من أقواله الحرصُ على مشاهدة ذاته والاستصباح من مشكاته ، والعكوف على خدمته وإيثاره على نفسه وقرابته وإيثار قرابته ومريديه على غيرهم ومقاطعة من لم يتخذه شيخا من أهل صداقته ووده ، وكثرة الحنين إليه كلما غاب عنه ولا يغيب عنه إلا في خدمته كان حيّاهما غير متجاورين إلا نادرا ولكنه قلما يمكث في حيه مدة فارغا من خدمته لأنه إذا وفد عليه لا يرحل إلا بإذن ه ولا يستأذنه بل يبقى معه إلى أن يقول له الشيخ ارحل إلى قومك وأدّ بعض حقوقهم ثم ارجع إليّ في وقت كذا أو يقول له إذهب إلى أمّك حتى تراك ثم امض إلى محل كذا وإئتيني منه بكذا وارجع إليّ بعد مدة يعينها له ، وإذا وقت له وقت الحضور فلا يتخلف عنه اختيارا ، ولا يبالي بما في ذلك من المشاق بل احتمال المشقة في تلك المتاعب ألذّ عنده من كل لذيذ ، وأحب إليه من رفيع المراتب ، وإخوانه في الإرادة أحب إليه من إخوان القرابة ، وكان يرى نصحهم وتعظيمهم وبرهم ومواساتهم حقا واجبا وكثيرا مّا أسمعه يقول المريد لا يؤدي حق مولاه إلا إذا أدى حق نبيه ولا يؤدي حق نبيه إلا بأداء حق شيخه ولا يؤدي حق شيخه إلا بأداء حقوق إخوانه . وكلما رأى مريدا يستخف ببعض إخوانه مع ادعاء متابعة شيخه ومحبته ذكّره بهذا وذكر أن ارتباط المريدين بالشيخ يوجب مراعاته فيهم وتعظيمهم بتعظيمه وبرهم ببره ، والاستخفاف بهم ربما يسري إلى شيخهم ، وبهذا يأخذ نفسه ومن يقتدي به في حق الشيخ ومريديه . ومن خدمته للشيخ تعليم من جاء برسم أخذ العلم فيرسله إليه ليعلمه ، ومنها الخظ فإنه من أجود الناس خطا ، وكان يأمره كثيرا بنسخ الكتب له أو لبعض إخوانه وربما أمره بالإنشاء فيكتب في النازلة امتثالا لأمره وأداء لحق خدمته ، ومنها التدريس وخصوصا في التفسير فإنه ربما أمره بإسماع الناس معني القرآن وأمره مرة أن يفسر لأهل حيه وأهل تِكِرتن وأمره مرة بأن

يملي التفسير على ابنه المحمود الذي ورث مقامه بعده واتخذه الأكابر بعده شيخا وخليفة وتبعهم الأصاغر ومن خِدَمه الوفادة على الأحياء المتعلقين بالشيخ ليعلمهم ويفهمهم أمر الإرادة وحقوق السلوك والمشيخة ويصلح من أمورهم الدينية والدنوية ما يحتاج إلى الإصلاح ، وربما أمره بالإصلاح بين المتنافرين فيسعى في ذلك ويتيسر له مراده ، وربما بعثه إلى من يرغب في مقابلته من الأكابر برسم نيابته عنه بعثه نائبا عنه في استقبال وجه الشيخ السني بايْ بن سيد عمر من نسل شيخ الشيوخ السيد المختار الكنتي ، و كان في صحبته ابن عم الشيخ محمد أحمد بن محمد الصالح والشيخ محمود بن محمد الصالح وغيرهم ، وبعثه إليه ثاني مرة مع أسامة بن حمود واستفاد من تينك الرحلتين نقولا كثيرة نفع بها ما انتفع ، وما استفاد من الأنوار والأسرار أعظم وأكبر ولم يزل دائبا في خدمته إلى أن توفي ، ولما توفي وخلفه ابنه الشيخ المحمود الذي كان في حياة والده من التلاميذ الذين أخذوا عنه العلم التزم له من التعظيم والتوقير مثل ما يلتزم لوالده وسمعته يقول في أيام خلافة المحمود وهو يذاكر بعض كبار المريدين في شأنه ما معناه (أن ما يلتزمه للشيخ المحمود من التوقير أكبر مما يلتزمه لوالده لأن والده أكبر منه سنا فيوجب الطبع توقيره على كل حال ، وبعكس ذلك ابنه الخليفة فإنه أصغر منه سنا وإذا لم يلتزم شديد الأدب في حقه فربما تميل نفسه إلى استصغاره) ولبث في صحبة الشيخ المحمود بضع عشرة سنة متبادلين أنواع البر والتعظيم والمحبة والوفاء حتى كان من آخر أمره معه أن مرض الشيخ المحمود مرضا شديدا خيف من موته فيه فعاده الشيخ المترجم ومكث عنده ليالي ثم رجع إلى حيه فمرض ومات وعوفي الشيخ المحمود ، ولما بلغه موته قال الشيخ المحمود : رب فداء خير من المفدى . وفسر بعض الناس ذلك بأن الشيخ المتوفى هو الذي دعا الله أن يعافي الشسخ المريض ويقبض مكانه . وحدث بعض المكاشفين وهو إبراهيم بن أحمد البكا في تلك الأيام أنه رأى في يقظة كالنوم أو النوم كاليقظة صورة شخصين أتيا فتكلما في شأن المريض فقال أحدهما لصاحبه إذا فُدي ببعض كبراء إخوانه شفي فقال له إنما يكفي في فدائه اثنان . فانتبه الرائي مذعورا وسكت عما رأى فبعد أيام ما ت صاحب الترجمة والشيخ حُميد بن عبد الرحمن الأنصاري شيخ أهل تِكِرَتِنْ ، وحينئذ أخبر الرائي برؤياه وذكر أن الشيخين هما اللذان فديا الشيخ المريض وبعد موتهما تمّ برئه .

ومن إيثاره لشيخه الأول على نفسه أنه زار بعض أصدقائه ممن كان بين

أسلافه وأسلافهم ودٌّ وإخاء وصلة وبر ولم يكونوا من مريدي شيخه فلقوه الترحيب والإكرام وأكثروا عليه من الهدايا ولم يبعث منهم إلى شيخه هدية إلا رجل واحد فأنكر ذلك وقال لرفيقه في السفر هو الشيخ حمّد بن محمد وأنا معهم إذ ذاك ارجع بي إلى إشَنَضَهَرَنْ الذين لا يفضلونني على الشيخ وأما هؤلاء فلا مُقام لي فيهم بعد ما رأيت من رفعهم إياي عليه فرجعنا وتركهم وأعرض عنهم

ومن حالته في خدمة شيخه أنه إذا زار بعض أصدقائه الذين يعظمونه ويأتمرون بأمره أمرهم بإرسال الهدايا إلى شيخه ورغبهم في الاتصال به وحاشاه أن يريد بذلك نيل شيخه من أموالهم ولا شيئا من الأعراض الفانية التي بأيديهم فإن همته بعيدة عن التعلق بالفاني فضلا عن همة شيخه بل مراده بما يبذل من الجهود في ترغيب الناس في التعلق بشيخه أمران :

أحدهما : النصيحة للمسلمين أن لا يفوتهم الفوز ببركة الشيخ والتعلق به . والثاني : نصيحة شيخه بتكثير الأتباع له ليكثر أجره لأن أجور الإرشاد تكثر بكثرة الأتباع كما قيل :

فانظر إذن قدر النبي محمد ... والمرء في ميزانه أتباعه

ومن حالته مع شيخه حماد أنه لا يذكر ما بينهما من القرابة النسبية خشية أن تكون محبته وبره له لأجل القرابة ، صرح لي بذلك غير مرة ، وشيخه هو الذي يثني عليه ويقربه ويصفه بالإصابة في الأمور ووضع الأشياء في مواضعها ويقول : خالي وابن أختي ويذكر تارة أنه من بني عمه .وكانت القرابة بينهما مشتبكة من وجوده كثيرة منها ، منها أنهما يلتقيان في الجد التاسع عليّ بن يحي ، ومنها أن أم كل منهما بنت عم الأخر يلتقي معها في الجد الثالث وأم الشيخ المترجم تلتقي مع شيخه في الجد الثاني وبينهما كثير من القرابات سوى هذا ، ويعتبر تلك القرابات فيمن سوى شيخه ممن يشاركه فيها ، وأما هو فأقرب قرابة يتقرب بها إليه قرابة المشيخة والتلمذة التي هي أجدى وأبقى ، ومن حسن اعتقاده فيه ماكنت أسمعه منه كثيرا وكتبه في كتابه (تنبيه الإخوان) وخاطبه به في الشعر الذي أنشده وأرسله إليه برسم اتخاذه شيخا مربيا ومرقيا وحصنا وملجئا ، وهو أن سكون البلاد وطمأنينية أهلها ، وبث الأمن فيها ، وأمن الطرق وكثرة الخصب والبركة وكثرة ظهور العلم في أقوام ليسوا من أهله في الأزمانن الماضية ، وزيادة العلوم فيمن كانوا يتعلمون قبل كل ذلك ببركة الشييخ وهمته ودعائه وإرشاده وتدبيراته المصيبة ، وإذا سمع من يتحدث بالزلازل والفتن الماضية قبل التغلب

الفرنسي وأسند تسكين تلك الزلازل وإخماد نيرانها إلى فرنسا زجره عن ذلك وقال له الشرّ لا يأتي بالخير ، وذكر له أن ما حدث في البلاد من الخير إنما كان ببركة صاحب الوقت وهو شيخه وإنما ظن الناس أن ما أصبحوا فيه من الخير إنما حصل بواسطة فرنسا لأن العام الذي جاء فيه بعض قوادهم إلى قرية تنبكت التي هي قاعدة البلاد هو مبدأ ظهور أمر الشيخ للخاصة وإن كان ظهوره للعوام بعد ذلك بسنين ، وهو الذي وردت عليه فيه الواردات الأولى ووجد الناس بركتها ثم كلما حدث منها شيء ازدادت البركة حتى تمت بظهوره البين للخاص والعام . هذا معنى ما كنت أسمع منه كثيرا ، ولا أظنه حدث به عن تخمين وظن ، بل عن يقين وجزم لمَا رأيت فيه من إنكار الكذب وبعض أهله وما أعلم منه من التباعد عن إعاء الكشف والتطلع إلى معرفة الغيوب فإذا أتى بصيغة الجزم في الأخبار علمنا أنه لا يخبر إلا عن يقينه ، وما ذكرت من حاله معه يسير ، وتفاصيله يضيق عنها نطاق التعبير .

وأما محبته شيوخه له ورضاهم عنه فأمر اتفقت عليه كلمتهم من شيخه الذي أخذ عنه النحو وهو صبي إلى شيوخه في علوم الظاهر إلى شيخه في الطريقة كلهم يقربه ويُحله بمحل الولد ، وذلك علامة انتفاع التلميذ بسر شيخه ووصول مدده إليه واتخاد معانيهما كالناقة التي ترءم فصيل غيرها لا يتم التألف بينهما حتى يشبع من لبنها وتجد فيه ريحه فتقبل عليه ويُقبل عليها لما حدث بينهما من شبه البعضية ، فمن محبة شيخه في التفسير له ما حدثني عنه أنه قال لة حين أراد أن يأخذ عنه التفسير وكان شيخه يحرضه على الأخذ عنه قبل فوات ذلك حتى قال له التلميذ حرصي على ذلك أشد من حرص أحد عليه فألتفت إليه شيخه بصورة الإنكار وقال له أتظن أن محبتك لنفسك أشد من محبتي لك أنا أشد منك محبة لأهل بيتك وكان أهل بيته هم أخوال شيخه ذاك وأشياخه ، وكان من أبر الناس بهم وأنصحهم لهم وأحسن اعتقادا فيهم ، ثم قال له لو كان ما معي من العلوم قميصا لنزعته عني وكسوتك إياه أنت وابن عمك محمود بن محمد الصالح ، ثم طلبت لابني يوسف وابن ابنتي محمد بن البكاي ملبوسا آخر . أو كما قال . وأما شيخه في الطريقة فهو أشد أشياخه إقبلا عليه وحرصا على مجالسته ومؤانسته وإظهارا لتعظيمه وبره وأكثرهم ثناء عليه ومدته معه أطول من مدته مع كل ممن تقدمه لأن مدة صحبته له زملازمته إياه وتقيده به زادت على عشرين سنة ، ومن ثنائه عليه أنه قال كل المريدين آمرهم وأنهاهم إلا سعد الدين والسّدادَ فإني أكِلهما إلى كتبهما . ومنه أنه كان يفسر قصيدته التي منها :

أهل عصركم لنيل انتفاع ... يا أولي الفضل والديانة دلوا فسمى جماعة من مريديه منهم المترجَم ، وقال : وأمثالهم هم أولوا الفضل والديانة . ومنه أن أمه أرسلت إلى الشيخ تطلب منه الدعاء بالنجاة من النار فأجابها بأن قال : " من كان سعد الدين جزءا منه لا يخشى عليه من النار " . ومنه ما حدثني به الثقة الملازم لهما وهو الشيخ حَمَّدَ بن محمد أنه قال : " سعد الدين لأخشى عليه الضلال " . ومنه أنه قال : فيه " رأس المريدين الصادقين " . ومن تقريب شيخه له واختصاصه إياه بخصوصية ليست لكثير من الخواص أن شيخه مرض في العام الذي قبل عام وفاته مرضا شديدا اعتزل فيه الناس واحتجب عنهم فلا يجترىء أحد من الجيران بعد ذلك على زيارته وفي تلك المدة وفد الشيخ سعد الدين وابن أخته الشيخ حَمّد ابن محمد على حي الشيخ الأكبر فوجد الناس منكفين عن زيارته ومواصلته فتأدبا مع المتأدبين فلما سمع الشيخ بقومهما أرسل إليهما أن إئتيا إليّ ، فإني في غاية الاشتياق إليكما ولستما ممن يحجب فذهبا إليه والناس ينظرون إليهما ويتمنون لو وجدوا مثل ما وجدوا ، ولا يجترىء أحد على أن يتبعهما ، وثناء الشيخ عليه بالصدق والبر والوفاء لا ينحصر. ومن أخلاقه حسن الجوار قل من جاوره ثم فارقه إلا ذكر أنه لم يجاور مثله في حسن الجوار كانت حرمة جاره عنده أعظم من حرمته ، وسدّ خلته أحب إليه من سد خلته ، يواسيه بما له يزهد في ماله ، يسعى في حوائجه ولا يرفع إيه حاجة ، وإذا كان له مال مع ماله سوّى بينهما في الرعاية والإصلاح ، ويتفقد أحوال جيرانه ويسأل عمن يعنته الرحيل لمرض أو فقد مال وغير ذلك فيتوقف عن الرحيل حتى تزول الأعذار ثم إذا شرعوا في الارتحال سأل عمن ليس معه من المراكب ما يحمل أثقاله فيعينه ؟ وربما خدم بينفسه في حمل أثقال الجيران على المراكب ويذكر أن ذلك من سيرة أسلافه ، فإذا وصل إلى المنزل المتجدد بادر على حط الأثقال عن جميع المراكب وسأل عما بقي من الأمتعة وتفقد أحوال الجميع ، ولا يزال كذلك حتى يتلاحق إليه جميع أصحابه ويخبره كل منهم أن كل ما يهتم به من المال والمتاع وصل كما يرضى .

ومنها حسن المرافقة في السفر إذا كان في سفر فهو المتولى لحمل الأزواد لهم والقيام بمؤنهم وحفظ مراكبهم والرفق بها ويجبرهم على السرى إذا كان الطريق لا ماء فيه ويخشى العطش على أصحابه إذا أصبحوا في معرسهم ويجبرهم على النزول في المكان الذي يصلح لرعي الدواب ، وإن كان لا قوت فيه ، كل ذلك لرعاية حق الدواب فما ظنك

برعاية أربابها ، ومنها حسن التربية فقلّ أن ينشأ شاب في تربيته إلا في صورة الكهول والشيوخ وفي عقولهم . لأنه لا يحتقر الصغار فيحدثهم بما تحتمله عقولهم من العلوم ويلقنهم كثيرا من السنن والفضائل في أيام الطفولة كما يلقنهم سورَ القرآن ويأخذهم بالمحافظة عليها كما يأخذهم بالمحافظة على الفرائض ، ويربيهم بعد البلوغ من الأخلاق الصوفية بما أجمع عليه كالإعراض عن اللغو والصمت وكثرة الذكر الحذر من العجب والرياء والسمعة والجد في الطلب والعزم وتجريد الهمة والإحسان إلى المسيء وغض البصر عن المحارم ولكف عن الشبهات والقناعة والثقة بالله والتوكل عليه وحسن التواضع مع التباعد عن الضعة والتعزز بالدين مع البعد عن الترفع والشفقة بجميع الخلق وتوقير الكبير ورحمة الصغير ويرغبهم في التمسك بالسنة ويبغض إليهم البدع وأهلها ويزين لهم الشجاعة والكرم وخصال الحرية ويكره إليهم الجبن الضعف والطمع والتواني والكسل وكثيرا ما يقول الجد بالجد والحرمان بالكسل ، فانصب تصب ، عن قريب غاية الأمل ، وربما أنشدنا معشر التلاميذ قول القائل :

فأولدها غلاما مع غلامه ... تزوجت البطالة بالتواني
وأما البنت سماها ندامه ... فأما الابن سماه بجهل ولا يزال يترقى بهم من حالة إلى أعلى منها بحسب أفهامهم إلى أن يصلوا إلى حد الكهولة وهم على ما يرضى من الأخلاق والأوصاف ، وكان من الزهاد والمتوكلين الذين لا يدخرون للغد ولكنّ لا يرضى لعياله أن لا يكون شيء من المال بأيدهم ويذكر لهم أن من دعاء السلف قولهم : اللهم اجعل الدنيا في أيدينا ولا تجعلها في قلوبنا . وينهض أهله في الكسب والقيام بمؤن الناس وحفظ المال ورعايته ، وحسن تدبيره ، وإذا أصبح أهله في منزل لا مرعى فيه ولا قدرة لهم على التحول أمرهم بإرسال المواشي إلى ما يصلحها ، ومنعهم من إمساكها في الجدب لأجل الانتفاع بها وربما قال لي في أيام شبابي : لا تنظر إلى ما كنت عليه الآن من عدم الرعاية والقيام بالماشية فإني لست عليه حين كنت في سنك بل كنت أرعى وأخدم وأسعى في كل ما يصلح عيالي وعيال إخواني وجيراني ، فكن كذلك واجتهد في أصلاح ما قدرت عليه من أمور المسلمين ولا تكن على أحد كلا ، ولا يلتبس عليك التوكل بالاتكال ولا الزهد بالكسل ، ولا الرشد بالشح ، ولا الجود بالتبذير . وبهذا كان يربينا معشر تلامذته وقرابته ، وقد كان معي في وصاياه جماعة من أولاد إخوته وأخواته وتلامذته ، وبعض التلامذة ليسوا من أهل قرابته ولكن لا يألوهم نصحا ، ولا

يفضلني عليه بشيء من النصيحة وكنت في صغري إذا أردت أن أخدم في شيء من الحوائج منعني من ذلك وقال : لي لا أحتاج إلى خدتك ولا إعانتك ولا أريد منك إلا التعلم ولا يأمرني في ذلك الوقت إلا بالتعلم والتعليهم من دون من الطلبة ، فلما ناهزت الشباب وعلم أني وجدت في التعلم لذة لا أغرض عنه بعدها انتقل بي من ذلك الوادي إلى الحض على حفظ المال ورعايته وتدبيره ، وربما قال لي أترك القراءة وانظر في أمر المال فقد قيل : لا قراءة لمن لا حمار له .فلما تمرنت على الجمع بين القراءة والرعاية انتقل بي إلى الأمر بالقيام بحوائج الجيران والإخوان ، ثم أقامني في خدمة الأضياف والوافدين وكان كثير الضيوف ومن المبالغين في إكرامهم والترحيب بهم وعشت معه أربعة أعوام لا يريحني من الجمع بين التعلم والتعليم وحفظ المال ورعايته والقيام بما يقوم به من المؤن وخدمة الضيوف وتهذيب الأخلاق وغير ذلك من أنواع البر وعلى ذلك فارقته . وأشهد لقد أدى ما لي عليه من الحقوق ، وأدعو الله أن يجازيه عني حسن الجزاء . ومن حسن تربيته : أنه لا يقص علينا من الأمور الماضية إلا ما يزيدنا من محبة الناس وبرهم وحسن النصيحة لهم وأما ما يهيّج منا الحقد فلا يخبرنا منه بادني كلمة وقد وصف محمود بن محمد الصالح أهل بيته جميعا بأن ذلك سيرتهم فقال فيهم :
أن لا يرى ذا الضغن بعد تكهل ... حيث السرائر لا تذاع لناشيء
ومن أخلاقه الت يربنا فها حسن الملكة فكان يكرنا كثيرا بقوله تعالى في آية الأمر بالإحسان إلى الوالدين والأقارب والجيران وغيرهم { وما ملكت أيمانكم } وبقوله صلى الله عليه وسلم (إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فأطعموهم مما تطعمون وأكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون) وما في ذلك المعنى . ومن أخلاقه الرقة وكثرة البكاء عند سماع الموعظة ولا سيما عند ذكر شيء من أخبار أخبار علماء السوء قلما تمر عليه آية بلعام بن باعوراء إلا بكى حتى يرحمه الحاضرون . والحاصل أنه متقيد فيما نراه بالسنة في مركبه وملبسه ومدخله ومخرجه ومعاملته كلها ، وتفصيل ذلك يدعو إلى الطويل الممل ، فمن أجل ملازمته للسنة وتمسكه بها أكرم بشهادة أهل الصلاح له أنه هو السني وأى بعضهم النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقال له إن سعد الدين هو ابني الذي لا يعقني . وربما رأي بعض الصالحين النبي صلى الله عليه وسلم في صورته لشدة متابعته في الأقوال والأحوال .
وأما الرحلة إلى الخارج في طلب العلم فلم يخرج لها بعد الكبر وقد خرج في آخر عمره إلى أداء الحج فصدته الحكومة الإنجليزية في أرض أجْنيْن

من بلاد السودان فرجع أنشد أبياتا يسلي فيها نفسه ويذكر من رضاه بالقضاء حلوه ومره وذكر فها أن أجر نيته وتعبه في الطريق لا يضيع وأول تلك الأبيات :
فلا نمنعن أجر تلك البلية ... إلهي إن نمنع بلوغ البنية
نوينا وما الأعمال إلا بنية ... ووفر لنا أجور نياتنا فقد
إلى أن قال :
ـفرن واعف عن خفية وجلية ... إلهاي ذنوبنا التي رجعت بنا اغـ
ـحكيم وأنت ذو الهبات السنية ... وأخلف لنا مت تلك خيرا فإنك الحـ
نحب لنا خيرا بحسنى المشية ... عسى أن يكون ما كرهنا من الذي
فلا يأتني إلا كذاك منيتي ... على أنني راض بما قد قسمت لي
ثم دعا في آخرها بأن يرزقه الله العودة إلى مكة فمات قبل أن يعود إليها ، ولكني أرجو أن يكون دعاؤه مستجابا لأني رزقت ببركة دعائه حجا وزيارة ، ثم حججت عنه وزرت ودعوت له وأعطيته ثواب حجي وزيارتي وجزيت بذلك ما يقابله من إحساناته إلي وأسأل الله أن يجزيه عني بأحسن الجزاء .
وله قصائد كثيرة تتضمن رضاه بقضاء الله وأغلب ذلك في المراثي ، ومن ذلك قوله في مرثية صديقه أتوتا بن محمد الأمين :
كَلا . وما عن مراده له ثان ... الله أكبر فرد ما له ثان
نصابه ، آية الرحمن في شان ... بل إنه كل ما يوم كما نطقت
الله جل ، البقاء والسوى فان ... كما تنوح التي من قبل تلك بأن
كل بقبضته سبحانه . عان ... فحقنا بالقضا الرضي ونصبر إذ
والله يعلم ، فلنفزع لإذعان ... وكلنا جاهل ما فيه مصلحة
أجر عظيم وذاك فيه ربحان ... وفي الرضى راحة لنا هنا وغدا
مع الغناء وذاك فيه بخسان ... كما يفوت عظيم الأجر من جزع
مر إلى أن قال :
أمور دنياي ساع غير منان ... رب أكفه أمرا خراه كما هو في
ربي استجب وامح أوزاء وأدراني ... يا رب يا رب يا رباه ربي يا

وقصائده في هذا الباب كثيرة . ووفاته في الثالث عشر من جمادي الأولى عام ألف وثلاث مائة وإحدى وسبعين 1371هـ .
***

28 ـــ ترجمة أحمدُ ـــ بضم الدال في جميع الأحوال ـــ ابن عُمار :

وهو صغير أخويه المذكورين ولد عام ألف وثلاث مائة وأربعة 1304هـ . وقرأ شيئا من القرآن ولم يتمه ، وقرأ على ابن خاله الشيخ مُقْلح بن آلادْ شيئا من علم النحو ، ثم قرأ في حيه الكافية لا بن مالك ودأب على مطالعة كتب النحو كالمغني لابن هشام وحاشية المصنف عليه واشتغل بكتب النحو أعواما حفظا ومطالعة ، ثم قرأ مختصر خليل وشروحه وشيئا من علم البيان ، ومن علم المنطق ، ومهر في تلك الفنون شابا ، وكانت له فيها تلاميذ ، وممن أخذ عنه من المشائخ محمد أحمد بضم الدال ابن الصالح الملقب فُلّ ، وأكثر أخذه للعلوم عن كبيره الشيخ سعد الدين وابن عمه محمود بن محمد الصالح ، وأخذ عن كثيرين سواهم من حيه ومن غير حيه كالشيخ محمد بن محمد محمود من أهل تُبُورَقْ ، وكالشيخ إسماعيل بن محمد الصالح ، وكان نقالا للعلوم قلما يخلو ساعة من النهار من نقل العلوم سواء في المنشط وفي المكسل ، ثم صرف همه إلى كتب التصوف كلإحياء للغزالي وشروحه وغيرها وتخلق بالأخلاق الصوفية وغلب عليه ذلك العلم وكان أحب العلوم إليه ، وكان من كبار المريدين للشيخ حمّاد ثم لابنه المحمود وقد بذل جهده في النصيحة لهما والوفاء بحقوقهما والإحسان إلى من يتعلق بهما لأجلهما ، أما الشيخ حماد فلا أحفظ شيئا مما جرى بينهما لأن الشيخ توفي وأنا صغير ، وأما الشيخ المحمود فكان يثني عليه كثيرا ويعظمه ويعده من كبار الأولياء ويذكر تارة " أنه وحده أمة " وربما احتج به على البطالين ويقول لهم لو فعلتم مثل ما يفعل أحمد الكرماني ويعده من أكابر أهل السنة ، وكان سنيا في أقواله وأفعاله لين الجانب إلا أن يرى منكرا أو يسمعه فيكون شديدا على مرتكبه وكان يباشر تغيير النكرات بيديه ولا يكتفي بالنهي عنها بل كثيرا ما على بعض المنتهكين بالسوط ، وكان لا تأخذه في الله لومة لائم ، ولم يزل من شبابه إلى شيخوخته يتعرض للشهادة في سبيل الله بقول الحق عند الجورة من السلاطين وأهل السطوة حتى خاف منه جميع من يعرفه فلا أمير ولا ذا شوكة يتجرؤ على اقتحام المنهيات بين يديه لهيبته ألقيت عليه والتجريب الناس أنه لا يصبر على رؤية المنكر ولا يداهن فيه أحدا وربما بطش ببعض المرتكبين للمنهيات ، وكان أحرص الناس على الاستفادة من كل من يتسم بالعلم ويتواضع للصغار الذين يعرف فيهم الأهلية فضلا عن العلماء الكبار وهو من أبعد الناس عن الافتخار بالعلم مع ما أوتي منه ولا يفصل بين الخصوم تورعا وربما أتاه خصمان

فيفتش الكتب حتى يحقق فقه المسألة ويطبقه على نازلتهما ثم يمسك عن الفصل بينهما ويرسلها إلى بعض العلماء أو يقول لهما إذهبا حتى أسأل العلماء عن مسألتكما وإذا إطلع على ما لا يجوز تأخير القول فيه في بعض أسفاره ولا يرى من يحيل عليه وأفتى فيه فلا تطيب نفسه حتى يعرض قوله على أصحابه حين يرجع إلى الحي ، وأما الخصال الحميدة من الزهد والورع والوفاء والصدق وتعظيم أهل الله والبر بأمه وبكبيريه وعمه فقد فاز من ذلك بالحظ الأوفر ، وأما أبوه فمات وهو صغير فأقام كبيريه وعمه مقامه من البر والتعظيم ومن تواضعه أنه لا يؤلف ويستغني بأقوال العلماء عنن أن يحدث قولا يسنده إلى نفسه وفي بعض المرات كتب في نازلة فعرض قوله على بعض الشيوخ ولم يوافقه فمحا ما كتب من شدة تسليمه للمشائخ ، ولو كان غيره كتب ما كتب من الأدلة على ما قال لم يمحه لقول أحد ولكنه آثر التواضع وبرآة ذمته من أن يعلق بها حق لأحد ، وكان لا يلتفت إلى الكرامات ولا يركن إليها ولكنه ربما أقسم على شيء لم يقع أنه سيقع إتكلا على ربه فيبر الله قسمه وله في ذلك المواضع قصائد كثيرة تتضمن ثقته بربه . وتوفي لست خلون من رجب عام ألف وثلاث مائة وإحدى وثمانين 1381هـ .

***

29 ـــ ترجمة : محمد الصالح ـ المعروف بمَسَّا ـ ابن مَحمد الأمين بن مَحمد بن هَمّهمّ :

ولد عام اثنين وعشرين وثلاث مائة وألف 1322هـ ، قرأ النحو واللغة وشيئا من الفقه على ابن عمه سعد الدين بن عُمار ومكث مدة عند الشيخ مُفْلح بن آلآد واسمه مُحمد ـ بضم الدال دائما ـ يأخذ عنه شيئا من النحو ونشأ نحويا لغويا بلغيا حسن الخلق بساما في وجوه الناس محببا إلى من يعرفه ، وأخذ عنه قليل من التلاميذ علم النحو كابن خاله الشيخ إسماعيل بن سيدي محمد الأنصاري الذي هاجر إلى مكة فدرّس هناك مدة ثم انتقل إلى الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية وصار عضوا من أهل دار الإفتاء فيها ، وكابن أخته المحمود بن يحي الأنصاري ، وكان قرين الشيخين حمّدبن محمد وذي الكفل بن مفلح وكان يناظرهما في سائر الفنون وله شيء من الشعر ضاع جله وظفرت منه بقصيدة يمدح فيها آل مختار الشرفاء الذين يتأمرون في صحراء كاو

ومنافسيهم من أبناء هامّ الأنصار الذين ينافسونهم في اقتناء المكارم والمفاخر وأولها :

حسنَ الايالة ، أهل هذي الدار ... يا دهر أفنيت الديار فدار
وجدارها من عسجد ونضار ... دار من الدارات أسس أسها
والدهر يغفل عن بناة جدار ... دار لعزة والجدار جدارها

إلى أن قال :

أفد بني المختار والأنصار ... بشبابها وجدارها وربوعها
لذّ الحديث وكان كاستغفار ... قوم إذا ذكروا بفاخر مجدهم
يأبى وآب إلى بني المختار ... المدح إن مدحت قبائل غيرهم
متعوذا من قربهم ومزار ... والنقص إن نقصوا يميل لغيرهم
أوّ الشريف وصنوه الأنصاري ... أكرم بهم وبني الذين تنافسا

وهي طويلة إلى أن قال :

يغرركم إبليس بالأشعار ... يا أيها الأخوان والأخوات لا
وعظوا بمثلهم من الأغيار ... كم غرر الأقوام ، والسعداء من
بالله ربكم القديم الباري ... يا إخوتي وأحبتي وقرابتي
تنبوا النواهي مدة الأعمار ... قوموا بالله وامتثلوه واحـ

من مفخر الأخرى وفي تي الدار ... فبذلك نال المنى أجدادكم
لا كاذب مُطرٍ لكم غدار ... هاء النصيحة من صديق صادق
وبنوا خئولته القدى الأبرار ... ذاك الذي أنتم بنوا أعمامه

وهي طويلة . وله غيرها كثير ، ومات في شوال من عام 1351هـ ولا عقب له رحمنا الله وإياه آمين .

***

30 ـــ ترجمة محمد الأمين بن المختار بن أحمد بن حكاك بن همّهمّ .

وتقدم تراجم سلفه :

هو عالم سني وقورا أديب له حظ من العلوم الشرعية أخذ التفسير عن ابن عمته محمد الصالح ابن محمد ، وأخذ عنه علوما كثيرة ولازمه في الجوار إلى أن توفي الشيخ محمد الصالح ثم لازم جوار أبنائه الشيخ إسماعيل وأخويه ، وأغلب العلوم عليه علم العقائد وهو الذي صرف إليه جل عنايته ، وكان احرص الناس على الإرشاد والدعاء إلى التوحيد وتعليم العامة عقيدتهم وما فرض عليهم عينا ، وأتعب نفسه في إدخال

العامة المهاميل في الإسلام من بلاده في أعمال كاو إلى منتهى بلاد التوارق في أرض تِرَا ، وكان له تلاميذ كثيرون يعلمهم الدين الإسلامي والفرائض ، وكان فانيا في حب الرسول صلى الله عليه وسلم يشتغل كثيرا بأمداحه ، وكان عننده مسجد جماعته يحسن القيام بوظائف المسجد من العبادة والذكر ومن الإحسان إلى المجتمعين فيه وإيثارهم على نفسه بما يجد من المعونة ويثني عليه جيرانه وعارفوه بحسن السمت وحب الصالحين وأنواع البر والإحسان إلى القريب والبعيد والأحنبي والغريب ، ومن إحساناته ما بذل من الجهود في تحصيل الكتب المطبوعة بالشراء عند ابتداء وصول المطبوعات إلى بلاده فاشترى منهاكثيرا وأنفق بعضها على إخوانه وورّث بعضها ، وكانت له كتب كثيرة من ميراث أبيه وجده مخطوطة بالخط السوقي وأضاف إليها المطبوعة التي اشتراها فكانت مكتبته ضخمة وانتفع الناس بها . ومات عام 1350هـ وترك ذرية صالحة أخرهم ابن ابنه المسمى الفاطمي ، وخلف بنتين كان لهما ذرية من أهل العلم .

31 ــ ترجمة أحمد بن محمد أحمد بن عُمار : هو العالم العامل الفهامة الكامل ، نشأ في عبادة الله وتقواه وزين في قلبه حب الخير وتشبه بكبار الشيوخ في أيام الصبوة وحبب إليه التعلم وهو صبي ورزق من سرعة الحفظ وحسن الفهم ما يعجز عنه أقرانه ، قرأ القرآن برواية ورش وحفظ وهو ابن تسع سنين ثم لم ينسه إلى أن مات ، أقرأه والده ثلاثين حزبا ثم توفي فأخذه ابن عمه وعمه حمّدين محّمد بن حدي برسم التعليم والتربية فسلمه له عماه فاعتنى به أشد الاعتناء وأقرأه ما بقي له من المنزل حتى ختم القرآن ثم رباه بصغار العلوم قبل كبارها فأقرأه باب العقائد من رسالة ابن أبي زيد ثم أقرأه نظم فصول الأخضري المسمى " بنيل الوطر " ثم نظم باب السهو منه المسمى "بالعبقري " ثم أقرأه الآجرومية وألفية بن مالك ولاميته وكافيته ، ثم نظمه لقواعد الإعراب المسمى " مواعد الإطراب " وهو أول من أخذه عنه ثم أقرأه نظمه لورقات إمام الحرمين وهو أول من أخذه أيضا ، ثم مقامات الحريري حفظ كل هذا ولم يبلغ الحلم ثم قرأ عليه المنطق ثم قرأ تلخيص المفتاح في جماعة من أصحابه على الشيخ محمود بن محمد الصالح ، ثم شرع في حفظ مختصر خليل وكان يطالع من كتب النحو واللغة الحواشي الكبيرة ويضبط كثيرا من قواعدها ، ثم أخذ التفسير عن عمه سعد الدين بن عُمار وابتدأ نظم الشعر وهو ابن عشرين سنة ولكنه ليس على طريقة المجان والمبالغين في المدح والذم بل على طريقة الفضلاء والصالحين ومن شعره قصائد في

مدح النبي صلى الله عليه وسلم وضعها على حروف الهجاء كلها لكل حرف عشرة أبيات ، فقال : في حرف الهمزة :
متواضعا في الله غير مراء ... عج بالمطي العوج نحو حراء
والمروتين وزمزم وكداء ... وأقدر في بذرعك في التردد بينها
وقل الهيام من الغرام وراء ... وأنثر هنالك نظم عقد معا ذرا
فاسلك ركابك في طريق قباء ... فإذا فعلت ولم يقم بك عائق
ميزانه بالقسط لابعداء ... واقض الغرام بها الحقوق وأوفه مَن مدحه قبل
الولادة جاء ... وابلغ إلى حيث النبي محمد
في الفضل حتى حاز سبع سماء ... عمن به أسرى ليظهر باعه
خيرا وإرضاء له بعطاء ... ووآه كون مثله من حاله
قل لي ، إذلك لم يكن بحباء ... وحباه من أسمائه الحسنى ألا
ما دون حصرته انحصار بقاء ... وأتم نعمته عليه وناله
وقال في حرف الباء :
بالصرف في مدح ذوات القباب ... ما حسن تدبير ليالي الشباب
دع غزلا في فرتني والرباب ... فلزهير أو لعلقمة
غناء ، أمداح لباب اللباب ... وسرح الخاطر في رضة
أقر من الله حتى الضباب ... محمد من برسالته
لرحموت الملك الحق باب ... بحسبة عارضة ، إنه
ينفضها يوم تشيب الشباب ... وأنه أول ذي هامة
من عمل البر وحوش يباب ... يا خير خذ مني بيمنى يد
إلى اكتساب المعلوات انصباب ... تنفك تأبى أن يكون لها
من يتأذى بوقوع الذباب ... يا عجبا عاصيان بارئه
ـعهد لدى الله بأمن التباب ... إطلع الغيب أم اتخذ الـ
وقال في حرف التاء :
مع قصور الليت ، أو تجويد بيت ... ليت شعري وقصاري الجهد ليت
ترقل العيس إلى أول بيت ... أعلى شح أبى قلمون ، بي
عن ذوي الأعذار منها كيت كيت ... بيت أمن وضع الله به
زوره أكثر من صرعي الكميت ... بيت عز يصرع الوجد إلى
سوء ما ، من عمل السوء أتيت ... ويح نفسي حاد بي عن زورة
ة ، ولولا أن هداني ما اهتديت ... لكن الله هداني لهوا
صفوة العالم من حي وميت ... وهداني لهوى زور الهدى
يخرج الخبا ويدري ما طويت ... سيد أقسم بالله الذي
وإن أنأتني العوادي فنايت ... لبقلبي ساذج من وده

كل موذ أينما كنت ثويت ... كيف لا ، وهو مجري من أذى
وقـــال فــي حــرف الــراء :
فتيرا جهارا وتيرا سرارا ... دعاك منادي الغرام مرارا
مقر الهدى فالبدار البدارا ... يردد ذاء مقر الهدى
نواها فمالك والاصطبارا ... وهاتي البقاع التي تشتكي
بأخفاق غلب ألذ فأرى القفارا ... فعذ إليه ورضّ إذِ
وهشت فألق إليها الغبارا ... فأما مررت على روضة أريد القرار بأم
العذارى ... وقل لست لي مقصدا إنما
خطيبا وفيها ارتضى الله جارا ... ففيها أقام سنين ، الهدى
وتزور أوزار ذيها ازورارا ... فهَنا كر يربح ضعف المنى
بتردية الدور بالدار دارا ... على يد من نال ما لم ينل
مرارا ، ألم تكف تلعك فخارا ... رسول رأى الله سبحانه
أنلنا المنى وأقلنا العثارا ... به وبه وبه مالكي
وقـــال فــي حــرف القــاف :
لسبب ما غير ذكر الغقيق ... ما أرقى ما شرقي بالعقيق
لقربه من دار طه الشفيق ... تدري لماذا شاقني ذكره
منه ، لحزب في الضلال غريق ... من جاء بالوحي على فترة
رضوانه منهم ، سواء الطريق ... يهدي به الله من اتبعوا
وآيه ، ذوق عذاب الحريق ... وينذر المستهزئين به
في غار ثور ، ذي الخال العتيق .:. أكرم بأتقى قومه ، شفعِه
من حبه الصادق ، كل صديق ... فقد تلقى هديه وسلا
في العز ، مذ أسلم ، خير فريق ... وبأبي حفصة من لم يزل
للجيش بالعسر على ما يليق ... وبأبي عمر ، وتجهيزه
في الله ، إيواء الشقيق الشقيق ... وبعليّ وبإيوائه
وقـــال فــي حــرف اليــاء :
بها صفوة اللب من خير حي ... مريد تهامة عني حي
حلي الحي ، لكنني غير حي ... وآله إني وإن كنت في
إلى جهل ما بين حي ولي ... فإن الهوى كاد يبلغ بي
وقـــال فــي آخرهــا :
على الله أبناء صلب قصي ... محمد يا من به كرمت
مديح جنابك أحكم طي ... طويت حروف الهجاء على
بإلياس دوود جالوت عني ... فجائزتي اليوم طول المدى
بنسبة أو صحبة أو بأي ... ومنتسب ما له نسبة

ولكوي قلوب العدا أي كوي ... فنحن نحوز السرور به وبقية القصائد ضاعت ، ويكفي هذا شاهدا على أن شعره ينحو به منحى الصالحين لا منحى الطالحين ، وأما أعراضه عن صحبة البطالين والأحداث فبلغ فيه مبلغا يضحك بسببه كثير من الناس وهو ملتزم بأدب من قال : " لا تصحبن من لا ينهضك حاله ، ولا يدلك على الله مقاله " وكان كل ما أخذه من العلم إنما أخذه عن أشياخ حيه كالثلاثة المتقدم ذكرهم ، وهم الشيخ حمّدا والشيخ سعد الدين والشيخ محمود وغيرهم من أشياخ قبيلته ، وأما الرحلة إلى الخارج في طلب العلم فلم تكن منه ، وخرج مرة في التجارة إلى بلاد السودان رأى كتبا كثيرة استفاد منها علوما لم يكن استفادها من قبل ولم يقصر همه على مطلق البيع والشراء كما يفعل التجار ، وحدثني بعض أصحابه وهو من الثقات أنه قال له حين رجع من ذلك السفر لو محي جميع ما بأيديكم من نسخ شرح كافية ابن مالك لأمليتها عليكم من حفظي ، وأنا أثق بذلك لما شاهدته ونحن صغار من سرعة حفظه ومحبته للعلم وتلذذه بالتعليم في سن الصبا وفي سن الشباب . وأما الأخذ عنه فلم ينضبط لكنه ما زال يعلم الصغار في صباه ، ومات قبل أن ينتصب للأخذ عنه في أوائل عام 1370هـ

***

ـــ تراجم بني أحمد بن هَمَّهَمَّ ، وهم محمود ، ومَحمد المختار ، ومحمد الاغ

32 ـــ أما محمود :

فلم أر من شيوخي من يعتني بتفاصيل أخباره لأنهم مقضوا قبل نضدتنا لتدوين الأثار السلفية ويا ليتهم بقوا إلى أيام النهضة فنأخذ عنهم كثيرا مما لم نلتفت إليه إلا بعد فراقهم والذي أخذت عن أشياخي إجمالا من منذ رأيت قبره في مقبرة إنْمَنَسْ مع قبر أبيه وعمه مَحمد وأنا صبي ، أنه اتفقت الكلمة في صغره وشبابه على أنه ثالث القرينين أبيه وعمه مع صغره ومرتبتهما في العلم ليست مما يرجى تحصيله عند من يعرفهما من أهل البلد الذي كانا فيه فقد اعترف من يعرفهما أن ما فتح عليهما وعلى إخوانهما وأبناء عمهما أبناء الشيخ أحمد بن الشيخ لم يعهد مثله لغيرهم في قطرهم ولم يزل الرواة يتناقلون خلفا عن سلف أن هذا الابن وصل إلى مرتبة آبائه وأشياخه حتى وصل إلينا ذلك ولم تطل مدته بل مات قريبا من عام موت أشياخه ولم يبق بعدهم إلا مقدار عامين ، ولم

يصل إليّ من تفاصيل خبره كثر وكتب الشيخ حمّدا ما لفظه : وبلغني عن محمود بن أحمد أنه في رحلة إلى تبكت صادق عند بعض علمائها كتابا يرغب فيه فسأله إياه فامتنع ثم سأله شرائه منه فامتنه ثانيا ثم سأله الإعارة فأبى ثم سأله أن يسمعه إيه وكان بينهما حجاب ، وقال له متى استوقفتك فقف فرضي بذلك فأحضر محمود الكاغد وآلتي الخط فأخذ ينقل ما يمليه عليه وكلما أتم الصفحة الأولى من الصحيفة استوقفه لييبس المداد قبل التحويل فيقف فما زالا كذلك حتى ختم الكتاب فقال المملي تم الكتاب فقال الكاتب وتمت الكتابة فقال المملي ما أسرعك فقال الأخر ما .....خلك .اهـ ويحكى من خبره أيضا أن عمه محمد المختار المعروف باسم حَكاك سافر إلى سَكتُ فلما وصل إليها وسمع من فيها من العلماء أنه قدم عالم من بلاد الصحراء لا نظير له خرجوا إلى لقائه وذاكروه وناظروه وغالبوه فما زال يغلبهم ويفحمهم واحدا بعد واحد وكان مما جرى بينهم وبينه أن قال له بعض علمائهم وهو شيخ بن عثمان بن محمد بن فودي هل في جيلك أعلم منك أو مثلك فقال له عندنا ابن أخ لي هو أعلم مني فأرسل معه إليه ثلاثة أبيات يلغز فيها ويطلب منه لها فلما وصلت إليه حلها ببيت واحد ولفظ أبيات اللغز :

تكون به الخواطر في وثاق ... ألا أيها المجلي التعامي
وبسط وفرق هاتيك البواقي ... فما تحليق إبهام بتلو
ومهزوزا إلى يوم التلاقي ... وبسط التلو ممدود الفوق
ويوق بها الدواهي والبواقي ... ومن يدر الثلاث ينل مناه

والجواب هو :

له شرك ، بذا نفى الوثاق ... أقول " الله " فرد لا يكون

وبيان اللغز وجوابه أن الإبهام إذا حلق بالسبابة ومدت الأصابع الثلاث البواقي يشبه ذلك خط لفظ الجلالة كما أن السبابة إذا رفعت وحدها فذلك إشارة إلى التوحيد ، وقوله " بذا نفى الوثاق " فيه توجيه فإن اللغز وثاق وقد حله بهذا الجواب وهو الله فرد كما أن وثاق العذاب الأخروي يحل بتوحيد الله تعالى . وأما وفاته فبلغني أنها وقعت عام ألف ومائتين وسبعة 1207هـ .

***

33 ـــ وأما محمد المختار بن أحمد ويقال له حمّليل :

فكان عالما وليا ذا كرامات فمن كرامته ما جرى له مع الدلل جد أمراء تاشَرينْ وقصته أن ابنه طغى في أيام شبابه فاعتدى على فرس للتابع

أمير إولمّدن وعرقبه ثم لحقه الندم وأيس من الحياة وانقطعت عنه سبل الخلاص بحسب زعمه ثم لجأ إلى شيخ من كَلَسُّوكْ الأنصارين يعتقد فيه الخير والبركة وهو محمد الأمين جد مسلم فشكا إليه ما وقع فيه ابنه وخوفه عليه وكان ذلك الشيخ الأنصاري جارا لهم ملازما لتَاشَرين فلما قص عليه السوداني القصة فزع كفزعه ثم قال لا حيلة معي في هذا الشأن ولكن أدلك على شيخ لي في بلد تَكَلّلت إذا فزعت إليه فأرجو أن لا يسلط عليك من تخاف منه فأرسله إلى الشيخ محمد المختار وأوصاه أن يبذل همته في الدعاء له أو التحجيب عليه فتجشم السواداني المشاق السفرية حتى وصل إليه فلما أتاه وقص عليه القصة قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين فإما دعا له وإما كتب له ورقة فيها الاسم الأعظم وأمره بتعليقها على نفسه ثم قال له انصرف إلى أهلك راشدا آمنا ، فلما بلغ خبر موت الفرس إلى ربه سلطان البلد جمع جيشا وقال لهم لا بد أن تجتهدوا في طلب الجاني فمن وجده فليذبحه فلما ظهر به بعضهم أضجعه وحدد سكينا كبيرة لتعجيل ذبحه فلما أمرّها على حلقه كلت كأنما يقطع بها صخرة فما زال يحددها ويمرّها على حلقه ولا تزداد إلا كلالا حتى أيس من بلوغ مرامه فتركه ثم مضى إلى الأمير وأخبره الخبر وأخبره أن الجاني مقيم في حيه لا يهرب وبعد مدة بدا للأمير أن يسير إلى البحر في بعض شئونه فلما نزل بقرية ذلك الجاني قام على ساق الجد في إكرامه وضيافته ولم يلقه بنفسه حتى فرغ من الضيافة وتيقن أن جميع الجيش شبعوا ، ثم توجه إلى صاحب الفرس وسلم عليه فرج عليه السلام ثم قال له أحقا أنك قتلت فرسي طلما فقال له نعم ثم جرى بينهما كلام يسير يسأله الأمير ويجيبه ولا يرى منه فزعا ولا جزعا ثم قال له إني حين قصدت هذه القرية عازم على ذبحك ولكن لما رأيتك وشاهدت من كرمك وشهامتك ما شهدت ألقي في قلبي من حبك ما أنساني ما جئت لأجله فجمع أهل القرية ثم قال لهم هذا الرجل الذي فعل ما لم يجترىء عليه أحد هو أميركم ثم قال له هو ، مثلك من رعيتي لا أوثر عليه رجلا فضلا عن أن أقتله بفرس فاذهب آمنا ثم انصرف السوداني إلى قومه وجمع منهم للسلطان ما اعتادوا دفعه إليه من الضرائب والغرامات فلما أمن السوداني من شر السلطان أرسل إلى شيخه محمد المختار وقال له إني لك بمنزلة العبد القن لا أعصي لك أمرا وأخذت الميثاق على أولادي أن يكونوا لأولادك كما كنت لك ما بقيت بقية من هؤلاء وهؤلاء . هذا ما أخذت عن سلفنا من هذه القصة وقد شاهدت بنفسي من الصداق والمودة بين ذرية السوداني وذرية الشيخ مثل ما يكون بين ذوي القرابة النسبية

أو فوقه ومن المجرب أن من دام على العهد من ذرية السوداني يكون أعز قومه وأغناهم ومن أراد الله أن يزيل نعمته عليه منهم زين له الشيطان نقض العهد فتعجل إليه العقوبة ولم يزل أهل الفضل منهم على رعاية العهد إلى الآن . وأما علمه : فلم أطلع منه إلا على إجازة كتبها الشيخ الصالح بن أحمد والد مهدي بيده ونصها بعد البسملة والصلاة : (الحمد لله الذي شرف بالإسناد هذه الأمة المحمدية وخصهم بتصحيح الأخذ عن المشائخ في الدين ، وبعد : فيقول صاحب الخط محمد الصالح بن أحمد قد أخبرت الأخ محمد المختار بن أحمد بجميع صحيح البخاري إجازة كما أخبرني محمد بن محمد أحمد بن أحماد قائلا كما أخبرني به محمد بن أحمد بن الشيخ وأبوه أحمد المذكور بجميع صحيح البخاري إجازة وقراءة ...الخ) السند المشهور وإنما استدللت بهذه الإجازة على أنه من العلماء لأن المجيز وأهل بيته لا يجيزون في رواية الحديث إلا كبار العلماء ممن شهدوا أهليته في سائر العلوم ولا يطلب منهم الإجازة إلا من يثق بنفسه ، أما من لم يبلغ تلك المرتبة ويخشى عليه اللحن في اللفظ أو المعنى فلا يجيزونه فرارا من أن يلحن فيشاركوه في إثم الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم فإذا أجازوا أحد منهم لا يكون مجيزا إلا بعد أن ينتصب لمرتبة الرياسة في العلوم ومن دون تلك المرتبة لا يجيزوا ن كان مجازا ، وكان ذلك هو طريق أهل هذا البيت الذي تؤخذ عنهم الإجازات في بلادنا من عهد الشيخ أحمد بن الشيخ الذي هو أول من جدد الإجازة في كتب الحديث إلى أشياخنا الذين مضوا في أواخر القرن الرابع عشر الهجري . وممن شهد له بالفضائل واحد من بني عمه العلماء وهو محمد الأمين بن همّهمّ بن أكدّ يلتقي معه في الجد الثاني وهو أحمادُ بن أحمادُ فإنه قال في رثائه :

حين إذ قيل لي قضى حمّليل ... بت في قلق وهو طويل
دكدكت كل شاهق مستطيل ... ثلمة مر قبلها ثلمات
عثرات الأيام عما قليل ... ولتستقصين جيلا فجيلا
كم له في سراتهم من قتيل ... هكذا عود الزمان بنيه
ـن لدى كل بكرة وأصيل ... وإذا وجه الرزايا إلى الديـ
ووكيل المنون غير مُقيل ... فمتى يستقيم للدين أمر
فالبكا روحة لكل عليل ... فابك ما استطعت آله غيري آل ـه
وللمحسنين ، برد المقيل ... كان لي حمَّليل حم له اللـ
إن مضى راغما ، لذاك السبيل ... سلوةَ النفس ثم لما أتاها
هونت حاله بقال وقيل ... أصبح الفرح في تباريح نكس

مات في النصف الأول من القرن الثالث الهجري ولم أقف على تعيين عام وفاته وقبره في تِنْ ألِنَ

34 ـ شيخ الشيوخ محمد ألاغْ بن أحمد ـ ويعرف باسم آلا :

هو العالم العلامة والفاضل الفهامة نادرة زمانه وقطب أوانه ، إمام عصره في العلوم النقلية والعقلية ، حدثني شيخي عن شيخه عن تلميذ للشيخ المترجم أنه لا تأتي عليه ليلة من الليالي صحيحا إلا قرأ فيها حزبا من القرآن بالقرآت السبع ثم قرأ ألفية ابن مالك في النحو وألفية العراقي في مصطلح الحديث وعلومه ، ثم ينام قليلا وينتبه في وقت السحر ويشتغل بالعبادة إلى أن تطلع الشمس ثم يشتغل بالتدريس وحل الإشكالات ثم بمؤن عليه وضيوفه وجماعنه هكذا حاله دائما لم يجعل لنفسه حظا من الراحة بل لا يزال يجهدها في خدمة العلم والعبادة ومصالح الناس . أخذ العلم عن أهل بيته ولم تكن له رحلة بل صار يرحل إليه من الأفاق للأخذ عنه وأجل شيوخه الصالح بن أحمد وهو الذي أخذ عنه رواية التفسير والحديث وكتب له الإجازة ، وكان من أكبر تلامذته وهو الذي انتصب لخلافته في الأمور الدينة والدنيوية وشهد له أهل الحل والعقد باستحقاقه لمنصب وراثته ، وكان من تلامذته الذين حملوا لواء العلوم الشيخ مهدي بن الصالح الذي تقدمت ترجمته ، وأبو البركات النجم الساطع ، والكنز الجامع ، معدن الفضل والكرامات ، جد أهل الفضل والمقامات ، من يغني اسمه عن وصفه ذاك مَحمد ـ بفتح الميم ـ ابن سيدي بو بكر من أهل تَبُورَقْ فقد رأيت إجازته له بخط المجيز نفسه ولفظها بعد البسملة والصلاة : (الحمد لله حمدا يوافي نعمه ويكافئي مزيده والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله وصحبه وبعد : فيقول كاتب الحروف محمد ألاغْ بن أحمد بن همّهمّ قد أخبرت أخي مَحَمد بن سيدي بن القاري إجازة بجميع صحيح البخاري قائلا كما أخبرني به شيخي محمد الصالح قائلا كما أخبرني به شيخي مَحمد بن همّهمّ قائلا كما أخبره به الشيخ حمّ قائلا كما أخبره به الشيخ أحمد بن الشيخ ...إلخ) ومن أهل تِكِـرَتِنْ الشيخ الإمام العامل الفاضل النجم الثاقب صاحب الكرامات والناقب عَمْنَا واسمه محمد أحمد بن أحمد ولو لم يكن لهذا الشيخ من الفضائل إلا أخذ هؤلاء الثلاثة عنه لكفاه ذلك شرفا وفضلا ، فإن كلا من الثلاثة ممن تضرب به الأمثال ، وتشد للأخذ عنه الرحال ، وكان كل منهم قدوة في العلم والعمل ، وكم من بلغه الله بواسطة كل منهم الأمل ، وله منظومات في الفنون على نمط منظومات أبيه حتى التبست نسبة كثير منها على الناس فمنهم من ينتسب إليه نظما ينسبه غيره إلى أبيه ومنهم من يعكس فمما نظمه في

حــد خطــاب الوضــع وتحقيــق أمثلتــه قولــه :
أو شــرط ، أو مانعــا ، أو يكونــا ... وكــون شــيء سـببا مُبينـا
هو المــسمى بخطــاب الوضــع ... ذا صــحة ، أو فاسـدا بالـشرعذ
وضعه في شرعه ، رب أحـد ... أي ليـضاف الحكـم للمـذكور قـد
لنا من الأحكـام . تيـسيرا لنـا ... ..د رأبـه مـا لا يكـون معلنـا
أداء ما قـر بـشرط أو سـبب ... وغيـر ذا مـن الخطـاب لطلـب
بين الخطابين ، بـه مـن حققـا ... أو مـا نـع ومـا ذكـرت فرقـا
منـه الوجـود ، وكـذلك العـدم ... فالـسبب الـذي وجـوده لـزم
مثـل بمـا الفتـى علـى قامتـه ... يلـزم مـن عدمـه لذاتـه
وكـالزوال الوجـوب الظهـر ... لواجبيـة صـلاة العـصر
ما كان منه الانتفاء الشرط ، ضم ... وبلذاته التـي فـي الحـد ، عـم
ذي الصدق مقرونا بفقـد الحجـر ... كمـا إذا كـان طلـوع الفجـر
كالحيض في وقت لما يأبى ظهر ... ومما وجود ما نـع معـه اسـتقر
بفقـد شـرط ووجـود مـانع ... وعـدم اللـزوم فـي ذا واقـع
ما يقتضي وجود غيره اجتمع ... وضم أيضا مـا مـن الأسـباب مـع
ممـا يـرى مـستوجبا للطهـر ... كـالبول يـصحب افتقـاد الغيـر
دأبـا ، بـه أن يعـدم المـشروط ... فالـشرط مـا عدمـه منـوط
أو عدما لذاته عنه بعيد ... مع كون إيجاب وضده وجود

نصاب عين ونـصاب الماشـية ... كمثـل حـول الوجـوب تزكيـة
شرط يرى ا لسبب معه قـد حـصل ... وقولنـا لذاتـه بـه ، دخـل
ملـك نـصاب هـو ذو تمـام ... كـان يكـون مـع تمـام العـام
حال عليهـا مـع وجـود الـدين ... أو معـه مـانع كحـول عـين
دين ، وفي الثاني سقوطها زكن ... فتوجـب الزكـاة فـي الأول مـن
لـسبب ومـانع تبينـا ... لكـن وجوبهـا ومـا ذا باينـا
مـستلزم العـدم حيثمـا جـرى ... فالمـانع الـذي وجـوده يـرى
وضـده لذاتـه ، ممـا اتـسم ... ولـيس فقـده بإيجـاب العـدم
للعـين والـصحة للـصلاة ... كالـدين والكفـور للزكـاة
أن يسـوى المـانع ممـا مـرّا ... وقولنـا لذاتـه مِـن جـرّا
إذا لـذاك لا لفقـد المـانع ... يجـري مـع انتفائـه فـالواقع
حـول ، وملـك لنـصاب كمـلا ... كعـدم الـدين إذا معـه انجلـى
مما له الوجها ، شـرع الخـالق ... ذو صـحبة هـو الـذي يوافـق

كـــذا علـــى المـــشهور فـــي الطعـــات ... بالاتفـــاق فـــي المعـــاملات
ما وقعـــت عـــن القـــضاء مغنيـــه ... وقيـــل طاعـــة صـــحيحة هيـــه
شرع الإلـــه الحـــق فهـــو فاســـد ... وصـــاحب الـــوجهين أن يعانـــد
وهكـــذا فيهـــا علـــى المـــشهور ... فـــي غيـــر طاعـــة بـــلا نكيـــر
من العيادة ، فـــساده بـــدا ... وقيـــل مـــا لـــم يغـــن عـــن ضـــد الأدا
ومن المنظومات التي يقال هي له ويقال هي لأبيه : أبيات يـذكر فيهـا منازل الشمس في الشهور الشمسية إبتداء من ينار إلى جنبر ففي أربعـة أيام من يناير تطلع الشمس مع بلع ، وفي السابع عشر منه تطلع مع سعد السعود وفي الثلاثة منه تطلع مع سعد الأخبية ، ويكون ما بين المنزلتين ثلاثة عشر يوما فأول الحرف كل كلمة رمز لاسم الشهر وآخر الكلمـة رمز لاسم المنزلة وما بين الأول والآخر رمز لعدد أيام الـشهر ولفـظ الأبيـــــــــــات هـــــــــــو :
فَكْهَرْ مَيَبْ مَكْجَنْ أهَبْ أيَحَثْ خذا ... يَدَبْ ويَيْـزَسْ ويلـخ فَيْـبَمْ كـذا
يَكْبَنْ يهط يـيْحَجْ أاَخْ أيْـدَصُ أم ... مـادٌ ، مَيَـدَهٌ مَكْـزَه يَطَـدُ ثـم
أَلَقَ نَيْجَشٌ ونَكْوَنٌ جمع ... أكْزَعْ شَـطَسْ شَـكْبَغْ أهَـزْ أيْحَـلُ مـع
منازل الشمس بها تميز ... دَطَبْ ودَ كَبَدْ ، هذا الرموزفـأول الحـروف للشهور ، والمنزل المختص بالأخير . اهـ أبيات الرمز ثم أتبعها ببيانها وبيان أول منزلية كل ليلة ولم أحفظ تلك الأبيات لكن يغني عنها أن تعلم أن كل منزلة تطلع مع الشمس إذا عددت منها إلى أربع عشرة فالخامسة عشرة هي أول منازل الليل فإذا بدأت منها إلى الثانية عشرة صادف ذلك طلوع الفجر وبين طلوع الفجر وطلوع الشمس منزلتـان وحـل أبيـات الرمز أن " يَدَبْ " معناها أن يناير يومها الرابع المرموز له بالدال تكون فيه االشمس مع بُلع المرموز له بالياء وتطلع في اليوم السابع عشر منـه المرموز له بييزس " مع سعد السعود وذلك هو معنى " يَيَزسْ " وتطلـع في اليوم الثلاثين منه المرموز له باللام مع سعد لأخبيه وهو المرموز له بالخاء من " يَلَخْ " ومعنى " فَيْبَمْ " أن اليوم الثاني عـشر مـن فبرايـر المرموز له " بيب " تطلع الشمس فيه مع الفرغ المقدم المرموز له بالميم وتطلع في الخامس والعشرين منه المرموز له بالكاف والهاء مع الفـرغ المؤخر المرموز له بالراء في كلمة " فَكْهَرْ " ومعنى " مَيَبْ " أن اليـوم العاشر من مارس المرموز له بالياء تطلع الشمس فيه مع بطن الحوت ، ومعنى " مَكْجَنْ " أن اليوم الثالث والعشرين منه المرموز له بالكاف الجيم تطلع مع النطّح المرموز له بالنون ، ومعنى " أهَبْ " أن اليوم الخـامس من إبريل المرموز له بالهاء تطلع فيه مع البطين المرموز لـه بالبـاء ،

ومعنى " أيْحَثْ " أن اليوم الثامن عشر منه المرموز له بالياء والحاء تطلع مع الثريا المرموز له بالثاء ، ومعنى " مَأدٌ " أن اليوم الأول من مايه وهو المرموز له بالهمزة تطلع فيه مع الدبران ، ومعنى " مَيَدْهٌ " أن الرابع عشر منه المرموز له بالياء والدال تطلع فيه مع الهقعة ، ومعنى " مَكْزَه " أن اليو السابع والعشرين منه المرموز له بالزاي والكاف تطلع فيه مع الهنعة ، ومعنى " يَطَدْ " أن اليوم التاسع من يوليه المرموز له بالطاء تطلع فيه مع الذراعين ، ومعنى " يَكَبَنْ " أن اليوم الثاني والعشرين منه المرموز له بالكاف والباء تطلع من النثرة ، ومعنى " يَهَطْ " أن اليوم الخامس من يوليو طلع فيه مع الطرف ، ومعنى يَيْحَجْ " أن اليوم الثامن عشر منه المرموز له بالياء والحاء تطلع فيه مع الجبهة ، ومعنى " أأخْ " أن اليوم الأول من أغْشتْ تطلع فيه مع الخرتان ، ومعنى " أيَدَصْ " أن اليوم الرابع عشر من أغشت تطلع فيه مع الصوفة ، ومعنى " أكْزَعْ " أن اليوم السابع والعشرين منه تطلع الشمس فيه مع العواء ، ومعنى " شَطَسْ " أن اليوم التاسع من شتنبر تطلع فيه مع السماك ، ومعنى " شَكَبَغْ " أن اليوم الثاني والعشرين منه تطلع فيه مع الغفر ، ومعنى " أهَزْ " أن اليوم الخامس من أكتوبر تطلع فيه مع الزباني ، ومعنى " أيْجَل " أن اليوم الثامن عشر تطلع فيه مع الأكليل ، ومعنى " ألو " أن اليوم الحادي والثلاثين منه تطلع فيه مع القلب ، ومعنى " نيَجَش " أن اليوم الثالث عشر من نوفمبر تطلع فيه مع الشولة ، ومعنى " نَكْوَن " أن اليوم السادس والعشرين منه تطلع فيه مع النعائم ، ومعنى " ذطبْ " أن اليوم التاسع من دجنبر تطلع فيه مع البلدة ، ومعنى " دَكْبَدْ " أن اليوم الثاني والعشرين منه تطلع فيه مع الذابح . وله منظومات غير هذه ، ومات في أول القرن الثالث عشر الهجري ، ولم يخلف ولدا ذكرا بل كان له ثلاث بنات اثنتان منهما جاءت كل منهما بعالم جليل وهما أم محمد بن حدي ، أم أبناء البصيري بن أحمد ، والثالثة أتت ببنت هي أم الشيخ مفلح ، وقد قيل :
و أجلهن نجابة الأبناء ... نِعم الإله على العباد كثيرة

35 ــــ ترجمة الشيخ عبد الرحمن بن محمد المختار : هو من مشاهير النصف الأخير من القرن الثالث عشر ، مات أبوه وهو صبي فرباه عمه محمد ابن الأغ بأي نوع من أنواع التربية الجسمية والروحية ولم أسمع أنه أرسله إلى غيره ليتعلم منه بل أخذ علمه وأدبه ومن حسن تربيته له أنه لم يرد شيئا من هباته في أيام صغره ، وكان مطبوعا على السخاء

ونفع الناس وهو صبي وكلما سمع مربيه أنه أعطى أحدا من الناس شيئا أجازه ذلك ويقول أريد أن يتدرب على السخاء ونفع الناس ثم يبدله من ماله هو مثل ما أعطى ومرة يقول من علامات رشده محبته لإيصال النفع إلى المسلمين ، وكان من كابر العلماء والأولياء زاهدا كريما جوادا متخلقا بأخلاق السلف الصالح وكان أحب العلوم إليه ما يزهد في الدنيا ويرغب في الآخرة ، وله مكتبة كثيرة ورثها من أسلافه ومن الكتب التي تركها " العلوم الآخره في أحوال الآخرة " وسمعت أنه لا يزال ينظر فيه ويطالعه ويعتبر بما فيه ، وكان معاصرا للأمير الإنصار بن النابغ ، وكان يأتيه ويعظمه ويذكره ولا يجتريء الناس على مثل ذلك ولا يزيده تغليظه عليه في الوعظ إلا محبة ومهابة في قلبه . يحكى أن ذلك الأمير ريئ بعد موته فقال له الرائي ما ذا رأيت فقال له قد رأيت ما ينذرني به شيخي عبد الرحمن ولا ينذرني به غيره من الأشياخ ، وكان جبابرة بلده مسخرين له يعظمونه ويتبركون به ويعتقدون فيه الخير كما يعتقدون أن من أساء إليه لا تتأخر عقوبته فلا يكادون يقربون من ينتسب إليه بأي أذاية ولا يأتيهم مستشفعا لمظلوم إلا شفعوه فيه ، هذا هو المجمل من أخباره ، وأما فضائله المفصلة فأحسنها وأصدقها ما شهد له الثقة العدل شيخ الشيوخ محمد الصالح بن ميدي وكان من ملازميه زمخالطيه فلما مات رثاه بقصيدة عدد فيها فضائله ، وأظنه ترك أكثر مما ذكر لورعه فإنه نقل عنه أنه ما كذب قط والقصيدة هي هذه:

رضيت إذا بما فعل المريد ... جرى قدر المليك بما يريد
فما يبقى الكبير ولا الوليد ... سيذهبنا ويهلكنا جميعا بأن الله يفعل ما يريد ... إلا أني أقول على يقين
بلوح الله قدر ، ذا بعيد ... فما جزعي وما حزني على ما
سخي في سخاوته فريد ... وذلك أن قضى علم كريم
أقاربه به أن لا يبيدوا ... كثير العلم وارثه وموص
غريبا ليس يعرفه البليد ... كثيرا ما أفاد الناس علما
وإن كثرت ، ولو طالت عهود ... ولا ينسى علوما قد رآها
قد أوتي علم موهبة ، وطيد ... ويعضد علمه عمل أراه
بأحسنها ، العيان له شهود ... يدل على المكارم ثم يأتي
فطارفه لهم ولهم تليد ... وصول للأقارب والأقاصي
ومن غنم ، ومن ذاك العبيد ... فمن إبل تحنّ ومن ثياب
وأحمزة وفاكهة تزيد ... وأطعمة وأشربة وخيل
حلائب أو ركائب أو قديد ... ومن بقر يقسمها احتسابا

وآنكها وأكثرها حديد ... وآنية الطهارة من نحاس
ومما كان ينفقه ، الجلود ... وأطرفة وأوطئة وكتب
وهوب ليس يعروه الكنود ... وأسقية وأكسية فعَبْدُ (1)
سيتعبه تضاعف ما يفيد ... ومادحه وإن أعلى وغالي
يملكهم فنائله عتيد ... يعير الناس أطوارا وطورا
بلا من يكدر ما يجود ... فيالك من تبرعه بمال
لصاحبه وإن أفلت سعود ... ويالك من تورعه على ما
صروف الدهر أو نكد أكيد ... ولا يبدي التشكي إن جفتهم
فهذا العدل ناشره فقيد ... فتنسيه مسرته أساه
لهيبته ويكرمنا المريد ... يهاب الجاهلون ، لنا جنابا
ويكفينا مئونة ما يئود ... يجيز الوفد إن وفدوا بخير
سوى السنن القديم ومما يحيد ... وينزلهم منازلهم ويأبى
وإن ناواه ذو سفه حسود ... ويألفه أكابر كل حي
عواقبه بها سدد سديد ... أوائل رأيه كره ولكن
ولوعد السنين ، ولا القصيد ... فما حبري فضائله بمحص
ليشهد فضله الجمّ الجنود ... وما أرثيه من جزع ولكن
لآخره ، وما منا جحود ... فيكثر أجره لحديث انتم
وبالريحان يتبعه المزيد ... فيا رب أجزه عنا بروح
وعاملنا كما يجزي الودود... وثبتنا وثبته امتنانا
تقبل يا إلهي يا حميد ... ومنا كل صالحة ومنه

(1) 1) علم بإسقاط المضاف إليه وهو الرحمن .

على متن الصراط كما نريد ... وهب لي ثم هب له جوازا
من الفردوس يهنانا الخلود ... وأسكنا وأسكنه العلايا
مراتبه يشيّد ما يشيد ... وبلغ في حياتي نجل عبد (1)
شماتة كل شمات يكيد ... وأعل بناته وقين كلا
ومن هو حيث كان ، له حفيد ... وأسبغ جاهه أبدا علينا
رسول الله أرشده الرشيد ... بجاه محمد خير البرايا
صلاة ثم تسليم مديد ... عليه من المهيمن كل حين
جرى قدر المليك بما يريد ... وآل محمد ما قال راث
رضيت رضى بما فعل المريد ... وصحب محمد ما قال راض

(1) 1) علم .

وكان مشهورا بالكرامات ومما يحكى من كراماته ويأخذها الأخلاف عن أسلافهم حتى وصلت إلينا أن بعض من يتعلق به من المساكين أسرت ابنة لها إلى بلاد كَلْ كَرِسْ وأيس منها أهلها ولكن أمها لم ينقطع طمعها منها من شدة محبتها لها فجاءت أمها إلى الشيخ عبد الرحمن وسألته أن يدعو الله ليجمع بينها وبين بنتها وقالت له إذا رجعت إليّ بنتي فهي لك وما تناسل منها لأولادك دائما لك عليها ما للمالك على المملوك ولأولادك على أولادها مثل ذلك لا نعصي لك أمرا ولا نطيع فيكم عبدا ولا حرا ، فقال لها اذهبي لأدعون الله في أمرها ، فبعد مدة يسيرة نظرت الأم إلى بنتها مقبلة عليها بعد ما أيست من اجتماعها معها فأسرعت إلى تلقيها فلما التقتا ثار جميع الجيران إليها وبعدما فرغوا من التحايا سألوها عن شأنها وعن السبب الذي وصلت به إليه فقالت لهم إن شأني لعجيب ، بينا أنا في بلاد كَلْ كَرِسْ إذ سمعت صوت الشيخ عبد الرحمن يناديني فالتفت فلم أر شيئا فمضيت ثم ناداني فالتفت فلم أر شيئا ثم ناداني ثالث مرة وقال لي هلمّ فأقبلت إلى جهة الصوت فلما توجهت نحوه ساقتني الريح حتى التفت ولم أر شيئا من البلد الذي كنت فيه فأوجست الخوف من الهلاك والعطش فرأيت طائرا على شجرة وقصدته فإذا تحت الشجرة ماء طيب بارد فشربت منه فزال عني الجوع والعطش فسرت أمامي وكلما خفت رأيت ذلك الطائر أمامي على شجرة فأقصدها فأجد عندها ماء مثل الأول فلم يزل ذلك دأبي إلى أن وصلت إليكم ، وأما المدة التي قطعت فيها المسافة بين بلادنا وبلاد كَلْ كَرِسْ فلا تحقق ما قيل فيها إلا أنها دون المعتاد بمراتب كثيرة وما زالت هذه القصة تقص في نسل تلك الأسيرة ويتقربون بها إلى نسل الشيخ ويفتخرون بأنهم عبيد لهم لا ينقضون عهدهم . وأجل كرامة أكرمه الله بها ما أصلح له في ذريته فقد كان ابنه محمد الصالح عالما عاملا ، وأولاد محمد الصالح كذلك إلا أن الشيخ محمود أشهر من أخويه وكان له من البنات خمس كلهن أتت بعدد من العلماء الأعلام وهن : أم الشيخ القطب حماد بن محمدُ وأم مُهنّ وإخوته ، وأم إسماعيل بن محمد الصالح وأخويه محمد محمود ويوسف وأم مَتَّال بن الأمين وأخويه ، والخامسة هي أم الشيخ خبَّ بن محمد أحمد وستأتي تراجم هؤلاء عند ذكر أقوامهم . وهذه الذرية الطيبة بارك الله فيهم لم يزالوا على المناقب

واالفضائل إلى الآن وهذه الكرامة هي أجل الكرامات كما قيل :
و أجلهن نجابة الأبناء ... نِعم الإله على العباد كثيرة
***

36 ـــ ترجمة الشيخ محمد الصالح بن عبد الرحمن :

كان من العلماء العاملين ومن الأولياء الكاملين ، وكان الصلاح وسمه كما كان الصالح اسمه ، وكان ممن يقوم بمهمات جماعته ومن القائمين بوظائف المسجد يلازم قراءة صحيح البخاري في المسجد في شهري رجب وشعبان وقراءة الشفاء في رمضان ، وكان من المدّاحين للنبي صلى الله عليه وسلم حسن الصوت فيما بلغني ، وأما حسن الخلق فكان فيه آية يحكى أنه كان له خادم سيئ الخلق فإذا أساء إليه حتى أغضبه كظم غيظه ثم قال له أن ما منّ الله به علي من الصلاح لا أستبدله بما أبتلي به غيري من ضده ولا يزيد على ذلك ولا ينتقم منه وكان حسن العشرة مع أهله وجيرانه وكل من يعرفه أما العلم فكان من المعتنين به بعد الكبر بكتابة الكتب وبأمر أهله بالتعلم ولم أقف على كيفية أخذه للعلم ولا علىتسمية أشياخه وتلاميذه لأن إهمال مثل ذلك هو الغالب في أهل بلده لا يعتنون بتدوين أخبار علمائهم ، وغاية ما أعرف من حال تعلمه أنه تربى بين علماء أهل بيته وعلماء حي أخواله من أهل تِكِرَتِنْ فكان مترددا بين خاليه عَمّنًا والميمون ابني أحمد وأمثالهما من حيهما ، وبني عم أبيه عُمار وممّا ومهدي وحَدي وأخِيْ عنهم ، وكان ممن عاصر سميه المفسر محمد الصالح بن محمد ميدِ وحضر مجلسه في التفسير وكان من معاصريه ومجالسيه الذين يتذاكر معهم في الفنون محمد بن حدي وليس له رحلة إلى الخارج لمجرد طلب العلم ورحل مرة إلى إنْشكّغَنْ برسم التجارة ولقي بعض العلماء هناك وأتى في تلك الرحلة بكاغد جيد كتب فيه الجزء الرابع من صحيح البخاري بيده وكان له قبل ذلك ثلاثة أجزاء منه بخط جده وقد كفاه أسلافه كثيرا من مئونة الكتابة فقد ورث أبوه وجده وعمه من الكتب في سائر الفنون ما يستغرق عمر من يشتغل بقراءته ويشغله عن الكتابة والتدوين . أدرك أواخر القرن الثالث عشر الهجري ومات في حدود العشرين من الرابع عشر وخلف ثلاثة بنين كلهم من أهل العلم وأعلمهم محمود الذي تأتي ترجمته بعد هذه ، وأما أخواه فلم يشتغلا بالتصنيف لا نظما ولا نثرا بل كانا على ما عليه جل علماء البلد من الاكتفاء بما يروون عما يروون ، أما محمد فمات 1351هـ وأما نوح فمات 1402هـ .

***

37 ـــ ترجمة شيخ الشيوخ محمود بن محمد الصالح بن عبد الرحمن :
هو واحد الأحدان ، ونادرة الزمان ، المشهود له في جميع البلدان بالسبق في كل ميدان ، لا يختلف في ذلك اثنان ، وأول من ترجمه الشيخ حمّد بن محمد بن حدي وهو من أكبر تلامذته أولا ثم صار من أقرانه الملازمين له فكان أعرف به من غيره وهو الذي حرص أولا على إعطاء ذكره بالترجمة كما أن ترجمته له هي أول عمل من التراجم للأشياخ الذين ترجمهم ، وليس عمل التراجم مألوفا قبل ذلك فإن إهمال أخبار العلماء هو الجاري في البلد فلما كتب في خبره ما كتب بداله أن يترجم غيره من أشياخه الذين يعرفهم وأسلافه الذين بلغه شيء من أخبارهم فشرع في تراجمهم قبل أن يتم ما أراده من ترجمته فأريد أن أبدأ بما كتب ثم أذيله بما أعلم مما لم يكتب ولفظ ما كتبه هذا :

(هو الشيخ الولي العارف بالله الجليل الكلاليّ نسبة الأشعري عقيدة المالكي مذهبا الحمادي طريقة ، مرآة سيرة السلف ومرقاة الجيرة من الخلف ، محمود بن محمد الصالح بن عبد الرحمن ابن محمد المختار بن أحمد بن هَمّهمّ ولد عام أربعة وثلاث مائة وألف 1304هـ وتوفي عام سبعين في بلْدمن الصحراء يقال له تِنْ مَدْ غَنْ وقبره مشهور هناك يزار ، كان ربعة من الرجال ليس بالقصير ولا بالطويل البائن أسمر اللون وسطا بين الضخامة والنجافة جميل الوجه حييا عفيفا نظيفا بساما حسن الخلق لين الجانب كثير التذكر طويل التفكر جل نظره الملاحظة رحيما بالخلق هماما بأمور المسلمين حريصا على العلم وأهله ، كثير المطالعة أخذ من التقوى بحظ وافر ، وكشف له من حقيقتها عن وجه سافر ، وخطا في جدد الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرى ، خطوا غير قاصر ، ويريك سمته ودله هدى المصطفى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ لمحا باصر ، وكان من تتابع عوارف بذله بحيث لا يدرك مداه ، فلا تستريح من الاختلاف بحوائج أهل الدارين يداه ، وجبل من الصبر على ما يخشع لو نزل عليه الجبل ، ومن الحلم والاحتمال ما لو تلكف بعضه لقلنا وحمى ولا حبل ، وعليه من سيمى الخشية والإنابة ما أثمر لقلبه الهيبة وله في قلوب الخلق المهابة ، ومن أنوار سر الولاية ، ما تغني فيه الفراسة عن الرواية ، فكأنه المغنى بما قيل :
على مقدار قد أبى المعالي ... دعو ألبس المعالي فهي ثوب
أو ما قيل :

على ما فيك من شرف الخصال ... ولو صورت نفسك لم تزدها وأما العلم فهو فيه آية وآية وآيه ، بلغ فيه الغاية لو كان له غاية ، فقد أعطى من سعة الباع وكثرة قاطع ، ما يعجب السامع والرائي ، ويشارك الداني في علمه والقاصي النائي ، عض في الفنون بضرس قاطع ، وحاز جملتها ببرهان ساطع ، وفاق فيها أقرانه ، فأفحم من يطلع له منهم قرنه ، ولا تكاد تجده إلا مفيدا ، ولا من الناس إلا منه مستفيدا ، حتى ضرب أمَره مثلا بينهم الناس ، وضرب عن شاواد راكه من تمناه ، صفح اليأس ، على ما منى به من الاشتغال بسياسة الخلق من مثل السعى على الأرامل والأيتام ، وإنزال الوفود والضيوف وفصل الخصومات بالحق وهو في جميع ذلك مستغرق القلب واللسان بذكر الله . ذكر شيوخه : حفظ القرآن صبيا على يد خال أمه حَمّسّا من أبناء أعمام أبيه أيضا وأنساه إياه الصبا ، ثم اشتغل بتجويد حفظه بعد ما بلغ مبلغ الرجال حتى حله وصار من مجودي القرآن ، ثم أخذ النحو والتفسير على يدي ابن عمه إسماعيل وأبيه المفسر محمد الصالح بن محمد بن ميدي من أبناء الغر الثمانية ، ومتن المقامات الحريري أوبعضه عن الثقة شيخنا وشيخ شيوخنا سعد الدين وهو من بني أعمام أبيه يلتقيان في جده الرابع هَمّهمّ ، وتخرج في فني البيان والأصول على يد الحر الخضم أحمدُ بن مَكّا من أهل تَنْغَ أكّل ، وفي الفقه والحساب على البحر الغطمطم محمد أحمد بن فُكّ من إخواننا الكنتيين ، وعلى يد العلامة الندب الفهامة محمد الصالح عرف السدّادَ من أبناء أعمام حايْ ....وفي علم الكلام على يد السيد شعيب بن مُحمد بن مَحمد بن سيدي بو بكر بن أبناء عم الشيخ حماد يلتقي معه في جده الأدنى مَحمد ولازمه كثيرا وحضر غير ما يوم في غير ما فنّ ، دروسه ودروس الشيخ محمد بن محمد محمود من أبناء أعمامه وأعمام الشيخ حماد يلتقيان معه في الجد الثاني سيدي بو بكر وكثيرا ما سمعته يثني على هذين الشيخين وبنوه بقدرهما حتى كأنه لم تر عيناه شيخا مثلهما أو غيرهما ، وأكثر الظن به ولا جزم أنه أخذ رواية صحيح البخاري أو بعضه عن والدي محمد بن الخضر من أعمام أبيه أيضا يلتقيان في ملتقاه مع سعد الدين ، والذي أجزم به بلا شك كثرة ما يثني عليه ويشكره في توقيفه على ما لولاه لم يقف عليه من سيرة سلفه الصالح . وبعد هذا كله تربى في الطريقة على يد شيخنا حماد قدس الله سره وتلقى عنه الورد ، ثم أخذ في المطالعة والاطلاع بنفسه واستغنى عن أضواء غيره بضياء شمسه حتى بلغه الله ما شاء من المراتب ، وقلده ما له ارتضاه من الخطط والناصب فصار هو المرجع في المسائل

النوازل ، والمقدم في المحافل والمتميز بعليا المنازل ، ولقي غير من ذكرنا من أعيان علماء وقته منهم النجم الثاقب العلامة النحرير الشيخ بايْ بن سيد عمر بن سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي أرسله إليه الشيخ حماد مع الشيخ الخال سعد الدين وصُحتهما أخونا وقريبنا إِتْوَتَوَنْ الشنضهاري وهو في بلاده البعيدة من جهة كِدَال فلما وفدوا عليه مسْهلهم بعد ما مرحبهم وأكرمهم ووفى لهم أدبهم وجعل الكل يفاوض بعضهم البعض فيما الله أعلم بحقيقته مما تكنه صدورهم وما يحسه الرآون والسامعون مما تنطوي عليه بطون الأوراق والدفاتر فما برحوا مقيمين على ذلك برهه يتناهبون معه كل وقت نزهه ، ثم انصرفوا من عنده راشدين ، ولوجهة الشيخ القطب قاصدين فكثيرا ما سمعت الشيخ الأخ محمود يثني على الشيخ العلامة بَايْ وبلغني عن غير واحد كثرة ثناء العلامة عليه كذلك ، وممن لقيهم من كبار العلماء آية دهره المحقق أحمد بن إمَشَكّغْ من أهل تَكيدِتْ ، حدثني أعني الشيخ محمودا عن نفسه فاه إلى فيّ أنه صادفه وافدين على القطب برسم الزيارة فرحب كل منهما بالآخر وأقاما كذلك مدة وإذا بالتكيديّ ذات يوم يلتمس من القطب استحضار ندب ثقة من أهله يملي عليه سورة من المنزل فيروي له فيها رواية أمَسْرْكَضْ المشهورة قال فبينا أنا مقبل على بعض شئوني إذا بنداء من قبل الشيخ يستنهضني ثم سمته بنفسه هاتفا من يدعو لي محمود فمثلت بين يديه وهجمت هجوم السيل عليه فقال لي أنت الكلاليّ وهذا أحمد التكيديّ يراودني على فتى يفسر له سورة من المنزل قال فأخذ بيدي حتى أتاه بي وهاتاني له وقال له هذا ابن خالي محمود وهو عين مبتغاك ونفس متمناك فلما استقر بنا القرار وفج بالجبان منا الفرار ، وقد أحدقت من كل الجهات بنا الأبصار ، استدعيت بتفسير الجلالين فعثرت منه على سورة القيامة فأخذت في تدريسها بتلك الرواية فما جاوزت مطلعها إلا وقد بادرني بالمباحثة في زيادة " لا " التي في أولها حتى شبعنا الكلام فيها ثم جعل يباحثني فيما ورآها كلمة كلمة ويذاكرني في علومها جملة جملة فنا ففنا نحوا بيانا ولغة وأصولا من حين ذرقن الغزالة إلى أن فرغنا من آخرها صكة عميّ فانصرف عني راضيا وعليّ مثنيا ، ومنهم ومنهم ، ومن حديثه رضي الله عنه أنه في أول نشأته كان أكثر ولوعه بفنون الآلة وعلوم البلاغة وأقاويل أهل الفصاحة وتراكيب أبناء اللغة ومعظم لهجه بإنشاء الشعر وإنشائه وامتياحه من حسائه بكل دلو ولو على طول شائه إلى أن بلغ به الجد في هذا المضمار ، والتفكه بذلك الجمار ، أن كان على يديه وصول ما وصل إلى هذا القطر ، من

شتى متفرقات دواوين الشعر مثل ما لأبي تمام وما للمتنبئي والبحتري أثر ما في المجموعة النبهانية وقصائد الصرصري وكثر منه تداولها حتى ارتسمت في خزانة حفظه وبقي يستحضر معاني ما ذهب النسيان بجواهر لفظه ، وصار تطبعه طبعا ، وتحول أسه ربعا ، وكان عمدة في علوم الأدب وترجمان لسان العرب ، وجعل يبتكر فكره من أنواع البيان ما يزري بالحبر ، ويستخرج فهمه من لآلئي قعر بحره ، العبر ، فلله دره من مفلق راض الكلام وذال صعابه وافترع كل طود منه شامخ وتتبع شعابه ، ولم يترك فيه وردا معينا إلا وتضلع من زلاله ، ولا روضا أريضا إلا واستظل تحت ظلاله ، ولكن لعمر ، ما تمكن هذا التمكن ولا طار سيطه كل مطار ، حتى امتلأت من ذكر اسمه مسامع النواحي والأقطار ، إلا بعد تعلقه بذيل شيخنا غوث وقته حماد على رسم الإرادة ، والقائه بيديه زمام المقادة ، فبعدئذ واستتم ثلاثين من عمره ، واجتنى باكورة زهره وتمرة ، فتح الله عن بصيرته ، وبرز للعيان بعض طويات سريرته فتفجرت ينابيع الحكمة من قلبه وأخذ الحق والحقيقة بمجامع لسانه ولبه ، فاعتزل الخلق جانبا ، واتخذ الحق صاحبا ، وكان أحب الأحباب إليه من يدارسه العلم أو يذاكره وأنفس أوقاته عنده ما يسامر فيه أهله أو يحاضر ، لا سيما فيما يتعلق بكلام الله وسنة رسوله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وسيرة أصحابه وكرامات الأولياء فجموع هذه العلوم هو حلواء خوانه ، وسلعة صوانه ، وملتزم ذمته ، ومحلظ عنايته وهمته ، أنفق في نشرها أمواله وأثمانه ، وأتعب في جمعها بنانه ولسانه ، وقد كنا نعد من حسناته ، ومستحسنات آثاره وحركاته ، مما قسمت له يد التوفيق ، ولحظته به عين التحقيق أن كان على يديه وصول كثير وحصول عسير من فيض الكتب الجديدة ، والتآليف المفيدة العديدة ، منها في التفسير " معالم التنزيل " لأبي السعود حصل كله استعارة وجله كتابة بيده المباركة ، ومنها " حاشية الصاوي " على تفسير الجلالين و " تسهيل ابن جزي " ، ومنها في الحديث " إرشاد الساري على صحيح البخاري " للقسطلاني ، و " تحفة الباري " معه مهموشتين بشرح " النواوي على صحيح مسلم " اشترى أسفارها جملة وفرقها على أصحابه ، وفي السيرة " شرح الزرقاني على المواهب للقصطلاني " وفي اللغة " تاج العروس " للمرتضى الزبيدي على متن القاموس ، وسفر يحتوي على " نهاية ابن الأثير " و " الدر النثير " له و " مفردات الراغب بهامشه " وفي النحو " حاشية الخضري على شرح ابن عقيل " للألفية ابن مالك ، و " حاشية الصبان " ، وفي الأصول " حاشية التفتازاني " على التلويح ،

و " حاشية البناني " على شرح الجلال المحلي لجمع الجوامع لابن السبكي ، وفي الفقه " جواهر الإكليل على مختصر خليل " لعبد السميع الآبي ، وفي علم الحقيقة " الذهب الأبريز " لعبد العزيز الدباغ ، وفي غير هذه الفنون كتاب " الحاوي للفتاوي " للإمام السيوطي ، كل هذه لم تصل إلى أهله أولا إلا على يده المباركة وحسبك هذا من عنايته بالعلم . انتهى ما كتبه من أول الأمر ، وحدثني أنه يريد الزيادة عليه بكثير من أخباره وأحوال أهل بيته وجاءه الأجل ولم يصل إلى مراده مما نوى رحمة الله عليهما قلت : وأما تصانيفه فأكثرها منظومات منها نظمه لجمع الجوامع في أصول الفقه سماه " مقرب الشواسع " ومنها نظمه لتلخيص القزويني في علم البلاغة سماه " محرض الجريص " وذكر أنه بلا زيادة ولا تنقيص ، ثم قال : جود نظمه والأخضري أم ... وقبلنا الحبر السيوطي العلم

ومذهب عينه خليق ... لكن كلاهما على طريق
والأخضري منهج النقص سلك ... فإن ذاك زاد فيه وترك

ومنها قصيدة يرد فيها على من يرد المطلقة ثلاثا إلى زوجها بدون محلل إذا كان طلاقه على مال ، بحجة الخلع فسخ ، ومنها رآية طويلة يرد فيها على من نسب شيخه حماد إلى الجنون ونفى عنه النسب الشريف وعن جميع أهل بيته المشهورين قبل طعن الطاعن ، وذكر فيها كثيرا ممن ينتسب إلى الشرافة في البلد برسم أنهم بنوا أعمامه ، وذكر فيها أشياء كثيرة غير ذلك وقد مر كثير منها في الكلام على نسب الدغوغيين ، ومن منظوماته أرجوزة قال فيها :

برد أهل الزيغ والغيون ... سميتها بقرة العيون

وسببها أنه رأى أرجوزة لبعض المتشددين المسارعين إلى التكفير بالتوسل والتبرك ونداء الغائب وزيارة قبور الصالحين وغير ذلك من الأمور المختلف فيها بين العلماء من زمن السبكي وابن حجر وابن تيمة وابن القيم إلى زمن محمد بن عبد الوهاب وأصحابه وأتباعهم وكان موضوع الأرجوزة الانتصار لمذهب السبكي ومن وافقه وإبطال مذهب من خالفهم ، ولما جاء عبد الله بن المحمود إلى بلادنا قادما من الحرمين وهو من جماعتنا أصلا لكنه تربى في المدينة المنورة وتعلم فيها ما تعلم رحل إلى استقباله وكان حيه بعيدا من حينا ولكن تجشم المشاقّ للقائه وكان ذلك في أيام شدة الحر ولكن هوّن عليه تلك المشاق وشدة محبته للقادم من الدينة مطلقا وشدة محبته لوالد القادم فلما تلاقيا مرحب كل منهما بالآخر فكان عبد الله يسمه والدا وه يسميه ولدا وتناظرا في سائر العلوم حتى تبين لكل منهما ما بين

أنظارهما من الاختلاف لأن عبد الله تربى بين أمة حنبلية عقيدة وفقها ينكرون أقوال الصوفية وأعمالهم والشيخ محمود نشأ بين قوم لا يرون الهدى والسنة والتمسك بسيرة السلف الصالح إلا أن يكون المرؤ أشعريا في عقيدته بمعنى أنه مباين للمعتزلة موافق للأشعري فيما خالفهم فيه مع أن المقرر عندهم في إقراء العقيدة أولا عقيدة ابن أبي زيد وهي سلفية سنية لكنهم يطلقون على أنفسهم مثل ما قال ابن عاشر :

وفي طريق الجنيد السالك ... في عقد الأشعري وفقه مالك

ج فلما اختلفا في المنحى وجد شيء من التنافر بينهما مع أن كلا منهما يرجو أن يرجع إليه صاحبه ويتفقا على ما هو عليه ولم يرجعا إلى التفاهم كما ينبغي بل نادى كل منهما على صاحبه بأنه ضال مضل فالشيخ محمود ينسب من ينكر التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم ثم الصالحين إلى بغضه لهم وأنه ينكر خصوصية النبي صلى الله عليه وسلم ويغيظه ما أعطاه ربه من الفضل ويبغض الأولياء والصالحين وأهل السنة جميعا وينسبه إلى الابتداع ويتمسك بأقوال ابن حجر الهيثمي في ابن تيمية وأقوال السبكي فيه ثم بأقوال النبهاني ودحلان في ردودهما على الوهابية وهو مع ذلك من أكابر الصوفية السنين وممن يطالع كتب القوم حتى استقر في حافظته أن خلاف ما عنده ضلال ، وعبد الله يتبرأ ممن كان يعتقد الخير في المذكورين وينسبهم إلى الضلال تارة وإلى الشرك تارة أخرى هذا هو السبب الأصلي للتنافر بينهما أولا فكانت بينهما مشاعرة على طريق الناظرة وإظهار كل منهما حجته ثم تحول الأمر إلى تخطئة كل منهما الأخر من جهة العربية ثم وصل الأمر إلى تبادل ما قدر لهما من الهجاء وسوء القول وصار إلى محاكاة جرير والفرزدق وأمثالهما فأنشد فيما جرى بينهما ما يزيد على عشرين قصيدة ، وكان جل شعره قبل ذلك في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ثم في مدح شيخه حماد وله في ذلك من القصائد ما يفوت الحصر في حياة الشيخ وبعد وفاته رثاه بخمس قصائد كلها تتضمن الثناء عليه والثناء على ابنه المحمود وأنه وارث مقامه والمستحق لخلافته وله كثير من القصائد في مراثي إخوانه العلماء . وأما قصائد التي جرت بينه وبين عبد الله فكثيرة لم يكن عندي منها وقت الكتابة شيء وقد جمع تلامذته كثيرا من شعره فكان ديوانا حافلا في موضوعات شتى ولم يحص جامع الديوان شعره لأن كثيرا منه ضاع قبل تنبه الناس للتدوين وكثيرا منه ذهب به بعض من يستحسنه إلى بلادهم ولم تبق له نسخة عند أهله . ومما قال : لعبد الله بن المحمود قصيدته السينية التي أجاب بها سينية عبد الله التي

أولهـــا :
في كل علم غيره يا مفلس ... أفلســت فــي علــم القــريض وتفلــس
وسبب تلك القصيدة أن عبد الله اطلع على بيت أنشده محمود فــي أيــام
شـــبابه قبـــل أن يعـــرف عبـــدَ الله بـــسنين كثيـــرة وهـــو :
بلــغ النــصاب وحولــه شــوال ... أمــا القــريض فإنــه لــي مــال
فلما رأى عبد الله البيت أنشد قصيدته التي ذكر البيت الأول منه وبعده :
جوعا وعريــا إنــه لمؤســوس ... قــل للــذي يرجــو زكاتــك ....
إلى أن قال فيها في شأن القريض (علم ميئس) فلما قرأ القصيدة علــى
زين الدين بن إنْكَنّ وهو من جماعة تَنْغَ أكِل أباه ابن عم الشيخ محمــود
يلتقي معه في الجد الخامس حتى وصل إلى قوله " ميئس " قال له زيــن
الدين أخطأت في هذه الكلمة وصوابها " مــويس " قــال ابــن مالــك :
.... ويــا كمــوقن بــذا الهــا اعتــرف
فرجع إلى قوله وأصلح الخطأ ثم أرسل القصيدة إلى محمود واطلع على
الكلمة المغيرة فرأى أنها كانت أولا " مُيْئس " ثم أصــلحت " بمــويس "
وعلم أن ابن عمه زين الدين هو الذي أرشد الناظم إلى إصــلاح خطئــه
فقــــــال فــــــي جــــــواب الــــــسينية :
مني على جدة وأنت المفلــس ... إن القــريض بــرغم أنفــك يقــبس
شرقا وغربا ، ما عليها حــرس ... والــسائلون زكاتــه اســتغنوا بهــا
لــو كــان يؤكــل مثلــه أو يلــبس ... شــبع وري واكتــساء دائــم
هــذا الكماشــي الغــوي المــبلس ... وأشــد شــعرور عليــه إغــارة
كشفته للنظــار كــشفا " ميــئس " ... فيــه تــشاعر غيــر أن مقامــه
بصوابه من قبل رشــد يــؤنس ... لا تفــرحنّ بتبــرع ابنــي زيننــا
رامي ابيه؟ يريه كيف يقرطس ... لو نــال ترشــيدا لمــا أومــا إلــى
ـــــــه بمجـــــوز لــــــو كـــــان فقـــــه يــــدرس
... وتـــــــصرف المحجـــــــور مــــــا امــــــضائــ
من " مُؤيس " وتكررت عندك " ميئس " ... فرددت ما أعطاكــه متبرعــا
يتفكهون إذا تحلق مجلس ... أضحوكة أبدا بها غلماننا ومراده بالكماشي
عبد الله بن المحمود فإنه كثير التردد إلى كُمَاش من بلاد غانا فلما جرى
التنافر والتهاجي بينه وبين الشيخ محمود جعل يعيره بمغــادرة المدينــة
المنورة التي تربى فيها واستبداله منها أرض كفرة السودان فكان يــسميه
الكماشي وذلك من جزئيات ما أعرضت عن نشره مما تبادلاه من سيئي
القول والله يغفر لي ولهم . ومرة وقف عبد الله علــى قــصيدة مديحيــة
لمحمــــــــــــود يقــــــــــــول فيهــــــــــــا :

سبحان من أولاه مـا أولاه ... مـن عاظـه فـضل المحمـد فليمـت
فأنـشد قـصيدة داليـة أولهـا :
سفها كما قد زدت في اسم محمد ... قد زدت في ديـن النبـي محمـد
ما إن تزاد به ولا في أحمد ... فـانظر إلـى الخـضري تلعـم أن أل
فأجابـه بداليـة أخـرى علـى بحرهـا ورويهـا وأولهـا :
في النحو إني فيه غير مقلد ... يـا ظـالم الخـضري غيـري أرشـد
إلى أخرها ، وحاصل : ما قرره فيها ما أشار إليه ابن مالـك بقولـه :
للمح ما قـد كـان عنـه نقـلا ... وبعـض الأعـلام عليـه دخـلا
وذكر أن مقصوده بالمحمد هو الوصف لا العلم ثم أتبع ذلك بما لا أطيل به . اهـ وآخر ما كان من أمره معه أن جئته يوما فقال لي قد بدالي أن أتخلى عما أنا فيه منذ سنين من معارضة عبد الله بن المحمود ومجاراته في الشعر فإنه لا يعجزني عن نظم الشعر ولا أعجزه عنه ، وأما الأشياء التي اختلفنا فيها فقد تيقنت أنه لا يرجع إلى ما عندي فيها كمـا أنـي لا أرجع إلى ما عنده فيها فكان تكثير الكلام بيني وبينه فيها من قبيل اللغـو فرأيت الإعراض عن مخاصمته وكثرة الاستغفار والحـرص علـى أن أموت مسلما كما أوصى به يعقوب بنيه وزهدت في كل شيء إلا الموت على الإسلام فإذا رأيت من يتوجه إليه أرسلت إليه بـأن يـريح نفسه ويرحني ، وكان ذلك آخر أمره . وأما قصائده في غير هذا الموضـوع فكثيرة لكن المدون المحفوظ منها ما جمعه الشيخ الخضر بن الشيخ حماد في كتابه " التبر التالد " من مراثيه الخمس وأما التواليف المنشـورة فلـم يعتن بها إلا أن يفتي في بعض المسائل فيأمره أحد الخصمين بكتابة مـا قال فيكتبه ، وأرسل بعض علماء تنبكت وهو الشيخ محمد محمـود بـن الشيخ الأرواني مسائل فيها الغازات وفيها ما يتعلق بالنحو ومـا يتعلـق بالأصول وغير ذلك أرسلها إلى علماء كاو فوصلت إلى الشيخ محمـود فأجاب عنها بجواب طويل ثم ذكر في آخر الجواب أنه بعد ما تعب فـي تحصيل الجواب وتجويده أخبره بعض ثقات أصحابه أنه رأى تلك الأسئلة بعينها في الكتب القديمة غير موجهة إلى معين ولم يطلع علـى جـواب عنها قديم كقدم خطها فلا يدري هل وجهت إلى أسلافنا فأجيـب عنهـا وصاع الجواب أو بقيت بلا جواب فقال في ذلك وهو أخر جوابـه فـإن كان السؤال بقي بلا جواب له أيها المعاصرون ، وأنتم معه شـاكرون :
من اتحفوك بما تهوى وتنتظر ... قد قيض الله من نسل الأولى غبـروا
أولى به وكذا كانوا إذا اختبـروا ... فـإن حبـوك جوابـا قبلنـا فهـم
وما تكائـدهم فـن ولا ضـجروا ... أو أهملـوك لنـسيان ومعـذرة

من علق ما تر كود ، ليس يفتخر ... فاحمد لهم وارثا يقضي ديونهم هذا ما تيسر لي جمعه من أخبار أبناء جدنا هَمّهمّ بن أحماد ولا أدعي الإحاطة وعسى أن يكون عند غيري منها ما لم يبلغني .
أما أخوه باب بن أحماد فلم أعرف من تفاصيل ذريته مثل ما أعرف من تفاصيل أخبار أهل بيتنا الأقربين ، وخبرهم الإجمالي أن كبار العلماء ما زالوا فيهم وإن لم يخلفوا أثرا علميا بالنسبة إلى التصنيف فقد خلفوا بالنسبة إلى الآخذين عنهم ومن كبار علمائهم ممن لم أدركهم مفلح بن محمد الصالح وابن عمه حازْ والد إنْكُنّ وممن أدركتهم إنْكُنّ وابنه زين الدين وعمر بن مسلم ، وأما غير من ذكر من أبناء جدنا الغزالي فلا أستطيع التفصيل الشافي في أخبارهم إنما أستطيع أن أذكر من يجمعني وإياهم جد من جدودي فإن كان فيهم عالم ذكرته وإلا أكتفيت بسرد نسبه إلى أن يبلغ الجد الذي يجمعني معه ، أما من اجتمع معه في الجد السادس وهو أحمادُ بن أنك فهم المسمون باسم أهل تَكَلّتْ وعلمائهم هم الذين ترجمت مشاهيرهم وترتيب أقربيتهم إليّ هكذا :
(أنا أباها الكاتب محمد العتيق بن الشيخ سعد الدين بن عُمار بن محمد الأمين بن همّهمّ بن أحمادُ الصغير بنْ أحمادُ الكبير بن أنك بن با بكر بن أدّ بن الغزالي بن علي بن يحي) . فجدي الأدنى عُمار : اجتمع فيه مع أولاد عمي محمد احمدُ بضم الدال المعروف بالكرماني أما بنوا عُمار بلا واسطة فقد سبقت تراجمهم وأما بنوا بنيه فلم أترجم منه إلا أحمد بن محمد أحمد لأني لاأترجم الأحياء وأرجو أن يترجموا بعد وتكون تراجمهم تذيلا لما كتبت ، وأما جدي الثاني محمد الأمين : فلا ينتسب إليه من جهة الذكور إلا أبناء عُمار ومحمد بفتح الميم أخو عُمار قد مرّ في ترجمته أنه لا ينتسب إليه أحد من جهة الصلب وله ثلاث بنات كل منهن أتت بعالم أو عالمين أو أكثر .
وأما جدي الثالث وهو محمد بن همّهمّ : فهو الجامع بيني وبين الشيخ حمّد بن محمد وقد سبقت ترجمته وتراجم أبيه وجده وأبي جده الذي هو عم جدي الأدني . وأما جدي الرابع وهو همّهمّ بن أحمادُ : فهو الجامع بيني وبين ذرية محمد الصالح بن عبد الرحمن بن محمد المختار بن أحمد بن همّهمّ وهو أيضا الجامع بيني وبين ذرية المختار بن أحمد بن حكاك بن همّهمّ وقد تقدمت تراجم المشاهير من هؤلاء جميعا .
وأما جدي أحمادُ الصغير : فهو الذي يجمعني مع ذرية باب بن أحمادُ الموجود بعضهم في أرض كُس وبعضهم في أرض هُدَّار .
وجدي أحمادُ الكبير : هو الذي يجمعنا مع ذرية الشيوخ الكبار أبناء

الشيخ بن أحمادُ وهؤلاء لم يعقبوا إلا الشهرة العلمية ولا نتسب إليهم أحد بالأباء ، وبناتهم ليس في أحيائنا خارج عن ولادتهن .
وأما جدي أنك : فهو الذي يجمعنا مع الشيخ محمد المختار المعروف باسم تَبّلَ وقد سبقت ترجمته ولا أعرف من أهل بيته من أترجمه ولم أجد من يخبرني عنهم بشيء وسرد نسبه هكذا : (محمد المختار بن أحمد بن البكري بن محمد الملقب أنْك بن أبي بكر ويقال بابكر بن محمد الملقب أدّ بن الغزالي ...إلخ)
ورأيت ممن ينتسب إليه الشيخ نجيّ بن إبراهيم ويعد من أهل العلم وهاجر إلى مكة في حدود السبعين بعد الألف وثلاث مائة 1370هـ وما هناك وخلف ابنين هما أحمد ومحمود
ولم يبق من ينتسب إلى تَبّل بالأباء غير ابني نجيّ وأما من ينتسب إليه من جهة البنات فكثيرون في أحيائنا وفي حي أهل بكّ وغيرهم من أحياء السوقيين .
وأما جدنا با بكر : فلا ينتسب إليه من السوقيين غير من ذكر من أبناء أحمادُ وأخيه البكري جد تَبّل : وبلغني أن بعض ذريته صار إلى أخواله من سنغاي في أرض كَيْكَرُ قرب فَرْغُ ولم أدرك من أسلافي من يعين أحدا من أولئك بأنه ابن عمهم ولا من يواصلهم ولكنهم يذكرون أن بعض بني عمهم نكح عناك وولد له وانقطع يقيني وما أنا من المتكلفين ولا ممن يقفوا ما ليس له به علم . وأما جدنا محمد المعروف باسم أدّ : فقد تقدم أنه جامعنا مع حي فَنْبَلَكُ لا فرق في ذلك بين من كان جدهم آيَ والد أحْنى ومن كان جدهم هَابَّ جد بني عبدُ وبني عمهم وتقدم أن معتمدي في ذلك ما حدثني به الشيخ أحمد بن عبدُ وهو الذي أخبرني أنهم يجتمعون مع بني أحْنى في محمود بن أدّ بن الغزالي .
وأحْنى هو : (ابن آيّا بن أُبابَ بن همّهمّ بن القاري بن محمد بن محمود ...الخ)
ويجتمعون مع علي بن محمد المعروف باسم أَهَبُّ في القاري ومع بني أمّاش في أبيه محمد والجميع ينتهي إلى محمود . هكذا حدثني بعض من ينظر في الخطوط القديمة وبعض من يبحث في الأنساب من الجماعة .

وينتسب إلى جدنا محمد المعروف باسم أدّ أيضا : رجال من حي أهل كَرَتْ منهم سيدهم حَبو بن المصطفى وأخوه إسماعيل وابن عمهما أحمد محمد بن حَمَنُ هاجر إلى مكة وتوفي فيها وترك أولادا ومن سوى هؤلاء

من حي أهل كَرَتْ لا يشاركونهم في الجد وقد سألتهم عن سلسلة نسبهم فذكروا لي أنهم لا يحفظون أسماء أسلافهم وأنهم أتكلوا على مكتوب قديم كتبت فيه الأسماء وضاع المكتوب مع كتب كثيرة بسبب حريق أصاب مكتبة أحمد محمد قبل هجرته وسبب عدم فحظهم للأسماء أنهم ساروا بسيرة جيرانهم من إمْغَادْ وإمُوشَاغْ في هجران أسماء الأموات حتى بلغوا من ذلك الهجران أنهم يعدون تسمية الميت بحضرة بعض أقاربه جفاء يقع التفاتن بسببه فكير من أولئك المجاورين لهم لا يعرفون أسماء أجدادهم الأدنين فضلا عما فوقهما ، ومن ساروا بتلك السيرة الخالفة للسنة والعروبة إذا كان بعضهم من أهل العلم واضطره الحال إلى ذكر نسبه كتب الاسم وحين أتيت جماعة أهل كَرَتْ باحثا عن الأنساب والأثار القديمة العلمية وذكروا لي ضياع سلسلة نسبهم طلبت الاطلاع على مكتبتهم المخطوطة فمكنوني منها فرأيت مخطوطات قديمة كثيرة تدل على أن من خلفوها من كبار العلماء وفتشتها أبحث عن أسماء من كتبوها أو ورثوها أو تأليف أو قصيدة لبعض أهلها فلم أجد من ذلك شيئا والذي أخذته عن سلفي في شأن نسبهم أن جدّنا بابكر بن أدّ له ثلاثة أخوة مسمون بأسماء الخلافاء الثلاثة عمر ، وعثمان ، وعلي كما سمى باسم أبي بكر وأن أخاه عمر هو جد أهل تِكَشِ وأهل كَرَتْ وأخوه عثمان لا عقب له في أحياء السوقيين وأخوه على هو الذي يقال له عالَّ وهو والد محمد بن عالَّ الذي تقدمت ترجمته هذا ما أعرفه من ذرية جدنا أدَّ بن الغزالي ومن عرف غيره فلا حجر عليه في ذكره . وأما نسب بني عمنا من أهل تِكَشِ : فلم يضع كما ضاع نسب أهل كَرَتْ بل نقلته من خط الأخ محمد بن إبراهيم بن الكريم ولكنه ضاع بضياع كتبي في محنة كاو فإذا روجع المهتدي بن إبراهيم أو إخوته أو بنو عمه إنْسَمَيْ فسوف يوجد إن شاء الله وينبغي أن يلحق هنا إذا وجد ولا أعرف شيئا من أخبارهم العلمية ومن عرفه فليكتبه فإن ما أكتبه إنما هو فتح الباب لمن بعدي ليكتب كل أحد من معلوماته مثل ما كتبت من معلوماتي ويكون لي أجر من سن سنة حسنة ويستفيد من كتاباتي من يريد الزيادة عليها .

وأما جدنا الغزالي بن علي : فالمنتسبون إليه سبطان سبط محمد المعروف باسم أدّ وهو الجامع لجميع من تقدمت سلاسلهم وتراجمهم وسبط أخيه عقيل وهذا السبط لم يبق منه إلا أولا المكودي المقيمون بأعمال تِرَا ، وأولاده سعد ، وهم التبيان والشيخان العالمان أحمدُ بضم الدال دائما ، والمهدي ، وأولاد مجد الدين بن الذاكر أخي سعد ، والمكوديّ والد سعد والذاكر هو : (ابن عمر بن أنك بن حميد بن أحمد

بن محمد بن حَنْبُ بن باب بن حامَّ بن عقيل بن الغزالي ...إلخ) وجد المكودي أنْكَّ هو الواصل أولا إلى إغَشَرْ الذي ينسبون إليه تابعا لخاليه الأنصاريين الذين هما أصل أهل إغَشَرْ الأنصاريين وقد ذكرت فيما سبق في أول الكلام على بطون بني علي بن يحي وتقسماتهم أني لم أعرف من أخبار العلماء من هذا البطن شيئا إلا ما قدمته من خبر سعد بن المكودي وابنه أحمدُ والمهدي ، وأما انفصالهم عن بني عمهم الأقربين فسببه على ما أخبرني به الشيخ أحمد بن الشيخ سعدُ أن جدهم أنْكّ الذي هو جد المكودي هو الذي وصل إلى أرض إغَشَرْ تابعا الصالح وأمَّـزَّاكِ ابني عبد القادر جامع أهل إغشر الأنصاريين وهؤلاء الأجداد الثلاثة الأنصاريان والشريف هم الذين خرجوا من جماعة أهل بَكُّ إلى جهة الجنوب وكان في البلد الذي خرجوا إليه قبائل كثيرة من التوارق يعمرون ما بين إغَشَرْ والبحر ، ومن تلك القبائل إغَتَفَـنَنْ وإبَيْبَـتَنْ وإغنْدَسَنْ وإكَشَّمَضَنْ ، وكانت عمارة هؤلاء على ما قيل متصلة بيتا فبيتا إذا زارهم بعض إخوانهم فلا يركب فيما بين أحيائهم لشدة تقاربهم وتلاصق بيوتهم من ساحل البحر إلى أرض إغَشَرْ وكانوا أهل رفاهية وترف ومفاخرات ثم أخنى عليه الدهر فانقرضوا إلا بقية من إغَتَفَنَنْ وأما أهل السوق فليس منهم شيء في أرَبَنْدَ في ذلك الوقت إلا حي أهل بَارًا فلما وصل الأجداد الثلاثة إلى أرض إغَشَرْ نكح الأنصاريان من قبيلة إظَنْهكَنْ وابن أختهما الشريف من قبيلة أهل بَارًا . هذا ما حدثني به الشيخ الثقة أحمد بن سعد من أخبار أهل إغَشَرْ الشرفاء منهم والأنصار ، وأخبرني أيضا أن جده باب بن حامَّ بن عقيل بن الغزالي له ثلاثة أبناء سوى جده حَنْبُ وأن الموجودين من حي الشيخ إفْنَفَنْ وحي محمد بن القاسم وبني عبد الله بن محمد في إنْتَغُمْتْ وحي أهل إغَشَرْ الأنصار كلهم من سنل جده باب من جهة أمهاتهم وأمهات أجدادهم وبعض هؤلاء تتكرر ولادة جده عليه .

وأما أنساب أخوانهم الأنصاريين إلى إدَّ إنْتَكَرْنَكَتْ فهو على ما أخبرني به الشيخ أحمد بن سعدُ أن أميرهم في وقت الكتابة محمد هو ابن أنَّيْتُ وهذا الاسم لقب وهو ابن نوح بن عكاشة بن آسِم بن محمد أحمد بن الصالح بن عبد القادر بن محمد البكري بن محمد إدَّرْفَنْ ويقال له دَفَّ بن إدَّ إنْتَكَرْنَكَتْ وجده الصالح بن عبد القادر هو الجامع بينه وبين قاضي بن البشير فإن البشير هو أحمد بن با بكر بن بسَّ بن مَلامَلا بن الصالح المذكور وكذلك الزبير بن البساطي هو أيضا من ذرية الصالح فإن البساطي هو ابن السالك بن إنْبَلَّغَنْ وهذا لقب تارقي ابن ونَتَقْ بن أحمد بن

أمَّرَّاكِ بن عبد القادر والد الصالح الجامع بين محمد وقاضي والأقرب إلي الزبير من بني عمه إنْتَغْمُ بن سليمان بن إكّدِكّ بن تَيَّاتَيَّا بن إنْبلّغَنْ المذكور وكلهم من نسل جدنا حامّ بن عقيل بن الغزالي من جهة الإناث ولم أعرف من أخبار الأجداد المذكورين ما أعرفهم به ومن عرفه فليكتبه كما كتبت ما عرفت ولكل قوم أخبار معروفون عند البعض وإن كانت مجهولة للآخرين ولا أدعي إحاطة علمي بالأشياء كما لا أنفي عن غيري علمه بمجهولي فمن تركت الأخبار عنه من الأسلاف الماضين فلا يظن أحد أن إهمالي للأخبار عنه سببه عدم المبالاة ولا جحد فضيلة أهل الفضل ولا رفع درجة من ترجمتهم فوق درجة غيرهم بل الأمر بالعكس وإني أقول كما قال محمد المختار السوسي في ديباجة كتابه " سوس العالمه " قال قد يخطر في بال بعض الناس القصيرة النظر أن السجلماسي أو الد كالي مثلا إذا تصدى كل واحد منهما لمثل هذا البحث في ناحيته أن ذلك من العنصورية الممقوتة مع أن هذا العمل ليس من العنصورية في شيء فهل إذا توفر الطبيب للتخصص في بحث ما حول عضو من أعضاء الذات نلمزه بالعنصورية إزاء الأعضاء الأخرى ، وهل إذا قام رب أسرة بكل ما تحتاج إليه أسرته بالانفاق عليها وحدها وبالدفاع عن حقوقها وتحديد أملاكها الخاصة يلمز بالعنصورية ، أو هل الذين كتبوا عن فاس ومراكش وآسفي وطنجة وتيطاون والعدوتين وخصصوا كل مدينة على حدة يلمزون بالعنصورية إن هذا الخطل في الرأي وخطاء في تقدير الأعمال وسد للأبواب دون العاملين في ميدان خاص وتثبيط لأعمال المجتهدين ، أن اليوم غدا وأن في الميدان لافراسا مطلقة ، وأن أبواب العمل مفتوحة على مصاريعها أمام كل من يريد العمل في أي ميدان من الميادين وقد زالت الأعذار بالاستقلال وأمكن لكل ذي عزيمة أن يعمل فهل للكسالى أن ينتفضوا فيدخلوا في غمار العاملين عوض أن يملأوا الأجواء بالنقد الزائف والأعذار الواهية فعند الممات تظهر التركات ، وإنما الأعمال بالنيات ، ومن أبضأ به عمله فلا يلومنّ إلا نفسه وقد قيل :

من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا ... أقلوا عليهم لا أبا لأبيكمُ

انتهى المراد من كلامه هنا . وقال أيضا : انطوت القرون الخامس فالسادس فالسابع فالثامن عن سوس ولم نر عنها ما يدل على حركة علمية واسعة تذكر عن سوس ولو أفرد سياسيون كابن تومرت وصوفيون مذكورون في السادس فالسابع فالثامن لخيم على سوس ما خيم عليها في الثالث والرابع من ديجور كثيف في نظر التاريخ وصوفية ذلك

العصر صوفية علمية غالبا قلما يبرز أحد منهم ويذكر إلا إذا كان معه علم قليل وكثير ثم قال : السبب الوحيد أي في ضياع أخبار تلك القرون هو ما ابتلي به السوسيون إلى اليوم من عدم الاعتناء برجالهم والتفريط دائما لا ينتج إلى الجهل المظلم ، وهذا العيب لا يزال فيهم ماثلا إلى الآن ، كأنه ممتزج بدمائهم مستحوذ على ألبابهم ، فلولا دواع خاصة لبعض الناس لما رأينا أيضا من القرن التاسع إلى الآن إلا مثل ما نراه فيما قبل مما بين القرنين الخامس والثامن . اهـ المراد من كلامه هنا وقال في موضع آخر : إنما المقصود جمع المواد لمن سيكتبون غدا وينظمون وهذا هو الواجب علينا ، وأما أن ندعي أننا حقيقة نكتب التاريخ كما ينبغي فإن ذلك إفك صراح مر إلى أن قال : فكثيرا أقول لو تصدى باحث أو باحثون لكتابة تاريخ فاس من نواحيها كلها لفتحوا صفحة عربية ذهبية وهاجة طافحة ربما تنسي كل ما كتب عن بغداد ودمشق والقاهرة . اهـ كلامه وغرضي من سوقه كله الإعلام بأن ما في بلادنا من إهمال التواريخ عادة مستمرة في بعض البلاد إلى الآن غير مختصة ببلادنا ، وأن التاريخ الحقيقي ضاع في بلاد المغرب من القرن الثالث إلى التاسع وأن كلام المرء على بلده وأسرته الخاصة دون غيرها ليس إهمال ولا تنقيصا لمن لم يتكلم عليهم ، وأن المقصود في كتابة التواريخ في الوقت الحاضر هو فتح الباب لمن يأتون بعد ممن يريد أن يعمل في ميدان من الميادين التاريخية فعسى أن يفتح عليه بما لم يفتح على من قبله ، وأما أنا فما قصرت في حقوق إخواني من أهل وطني بل مكثت سنين أجول في القبائل وأفتش المكاتب لأجمع شيئا من أخبار أسلاف القبائل وأمرائهم وعلمائهم سواء منهم من كانوا من أهل القرابة الطينية أو القرابة الوطنية ولم أحصل إلا ما جمعت وكتبت ومتى بدا لبعض الناس أن يعمل مثل عملي فعسى أن يستفيد مني وعسى أن يزيد علي فينفع الله من شاء بما جمع وما ذكرته من الكلام على أولاد الغزالي بن علي هو المتحقق عندي ، ويزعم كثير من الناس أن الغزالي جدنا هو جدّ إِفُوغَاسْ من أموشَاغْ الذين بأرض مَنَكَا وذلك غلط منشأه أن لهم جدّ يقال له الغزالي بن عبد الرحمن كان أخا لأم لعم أجدادنا حامّ بن عقيل بن الغزالي بن علي بن يحي وكان جدهم على ما نقل من خطوط بعض العارفين بهم اسمه عبد الرحمن الشريف فالتبس الاسمان على من ليس عنده كثير من العلم فظن الغزالي جدّهم هو جدّنا ولم يتفطن إلى أن جدنا أبوه علي وجدهم أبوه عبد الرحمن ومن رأيت بخطه تسمية عبد الرحمن الشريف لم يرفع نسبه ولا نفى عنهم النسب الشريف ولا أثبته لهم إذ لم أر نسبتهم المرفوعة إلى

علـــي أو إلـــى بعــض مـــشاهير أجـــداد الـــشرفاء . والله أعلـــم

***

وأمـــــــا الـــــــــبطن الثـــــــــاني

من بطون بني علي بن يحي فهو بطن بني آمن ، وهذا البطن محـصور في قبيلة أهل تَبُورَقْ لم يشاركهم فيه أحد وجدهم الجامع لفصائلهم اسـمه محمد ويقال له أكّايَّ وهو ابن محمد بن إنْكِلِّ بـن ظَلّطـرْ بـن آمـن . وبني أكّايّ ثلاثة محمد بفتح الميم أوله ، والقاري ، والبكريّ ، أما محمد والقـاري فلـم أقـف علـى شـيء مـن آثارهمـا ، 38 ـــ وأما البكريّ فقد وقفت على كثير من خطوطه يدل على مهارته في العلوم وعلى كثير من التصحيحات من خطه يدل على اعتماد أهـل عصره له وممن اعتمده ومدحه من غير ذوي قرابته رجل من لـدوعلي من قبائل موريتانيا أنشأ قصيدة في مدح معاصريه من أهل السوق وذكر فـيهم البكـريّ فقـال :

شمائله عزت عن الاتصاف ... وعرج على البكري وأذكر خصاله

وهو من أقطاب علماء القرن الثاني عشر الهجري لكنه على ما يبدو آثر أن يَورى على أن يُرَوَّيَ فلم نر له تأليفا ينسبه إلى نفسه كمـا هـو دأب كثير من أمثاله في وقته وبلده ولم أقف على تاريخ ولادته ولا وفاته وأما الأولاد فلم يترك منهم إلا بنتا اسمها عائشة هي أم أحمـد بـن محمـد المصطفى جد أخوالي من أهل تِكِرَتِنْ ولا ذرية للبكريّ إلا من جهة تلك الجده المرحومة وتلك الجدة خرج من نسلها كثير من العلمـاء العـاملين منهم من مضى ومنهم من لم يزل مشتغلا بالتعلم والتعليم إلى وقتنا هـذا رحـم الله الأصـول وبـارك فـي الفـصول . 39 ـــ وأما محمد ، 40 ـــ والقاري ، أبنا أكّايّ فهما أصلا حيّ أهل تبورق ، ومحمد هو أكبر الأخوين وليس عندي كثير شيء مـن أخبـار العلماء بمن بينه وبلغني أن أحمد بن أمّغْتَال وابن عمه سال كانـا مـن الشعراء المجيدين ولم أقف على شيء مـن شـعرهما وأمـا الفـضائل والمكارم والإحسان إلى الأقارب والأرامل فتحكى عنهم عجائب في ذلك ، من ذلك أن واحدا من كبارهم كان بقارا ويكون له مائة من الحلائـب لكن يفرق لبنها على جيرانه ويبيت طاويا وكان كثير العبـادة والنوافـل الليلية إذا شرع هو في الصلاة فكلما صادف الحالب تسليمه أشار له إلى

أن يذهب باللبن إلى بعض الناس فإذا فرغ من صلاته شرب الماء ثم ينام ثم يأخذ قليلا من اللبن وفي بعض الأوقات لا يأخذ إلا الماء ، ومما يحكى من غرائب جودهم وكرمهم قصة الأخوين الكريمين وهما محمد بفتح الميم والناصر أبنا الصالح بن المنتقي وحاصل ما سمعت من قصتهما أن محمد كان بقارا فبدا له أن يسافر ثم قال لأخيه الناصر إني لا أرى سببا إلى السفر في هذا العام لأن السنة سنة جدب سوف يقاسي الناس منها الشدائد والمشاق وتلك المشاق هي التي أريد أن أجاهدها ببقري ولا أحبها إلا لمثل ذلك فقال : له أخوه الناصر إن لم يكن لك مانع من السفر سوى هذا فسافر فلك علي أن لا أرى مصرفا تصرف فيه بقرك إلا صرفتها فيه فقال له إن الناس على ما علمت من الحاجة فإذا مات أحدهم جوعا ولي شيء من البقر فأنت المسئول عن ذلك لا أنا فتحمل له ذلك وخرج إلى سفره . وأما أخوه فكان يراقب المساكين وأهل الحوائج كلما رأى ما يدعوه إلى ذبح ثورا وبقرة ليوزعها على المساكين فعل ذلك حتى زال الكرب عن الناس .

ومن العلماء الذين زانوا علمهم بالورع والتقوى وحفظ المرؤة : محمدُ المعروف باسم " أوَّ " ولم أخالطه لأنه مات في صغري وكنت أشاهد حضوره لمجالس العلماء وسمعت أنه من العلماء ولكن بلغ من الورع أنه لا يؤم أحدا في الصلاة ولا يفتي مستفتيا فكيف ينظم أو ينثر مات في حدود الستين بعد الألف وثلاث مائة ومن علمائهم الموجودين الآن عيسى القاضي ابن تَحَمّدُ ومحمدْ بن أحمدْ وأبناهما المرتضي بن محمد ومعاذ بن عيسى وكل من هؤلاء شاعر مجيد إلا محمد بن أحمد فإنه عالم علامة يدرس في النحو والفقه واللغة وكان نقالا للعلوم لكنه لم يشتغل بالتصنيف لا نظما ولا نثرا ،وأما عيسى القاضي بن تَحمد فعلامة متفنن في سائر العلوم الشرعية ، أما علم الحديث وعلم التجويد والقراءات فله السبق فيها على جميع أقرانه ويشاركهم فيما سواهما من الفنون وكان متقيدا بفروع مذهب مالك وكان مولعا بنقل المسائل والنوازل ولقي كثيرا من العلماء وأفادهم وأفادوه ، ومرتبته في الفقه تعلو على مرتبة أهل التقليد لأنه جمع بين حفظ القرآن والأحاديث وشروحها وأصول الفقه وفروعه ومعرفة كلام العرب وله حظ وافر من فقاهة النفس فارتقى عن مرتبة التقليد الصرف وإن لم يصل إلى مرتبة الاجتهاد على القول بانقراضه ، أما على القول ببقائه فهو ممن يعد من أهله لكنه لا يزيد في الإفتاء على نقل أقوال العلماء المتقدمين والمتأخرين من المالكية وله في الفقه أجوبة حسنة عن أسئلة وجهها إليه بعض إخوانه ، وله أجوبة عن المسائل الإرَوَانيَّةِ

التي أختبر بها جامعها محمد محمود بن الشيخ الأرواني قاضي تنبكت علماء السوقيين فأجاب عنها جوابا يرضي المنصف كما أجاب عنه صاحباه الشيخ المحمود بن محمد الصالح من أهل تَكَلَّتْ والشيخ إغْلَسْ بن مَحمد بن اليَمَان من أهل تِمُوكَسِنْ وله كثير من النوازل وكثير من الشعر ، وكان حافظا للقرآن مجودا له حسن الصوت به ونال من خفة اللسان في قراءته عجائب ، صحبته في جماعة من إخوانه من حفاظ القرآن وكانوا اتفقوا على أن يختم كل منهم القرآن ويتوسلوا بذلك إلى الله في قضاء مهمة تهمهم وتشق عليهم فكان السبق لثلاثة هو وحُمَيْد بن عبد الرحمن من أهل تِكِرَتِنْ وحَمَّدَ بن مُحمذ من أهل تَكَلَّتْ وأعتقد ولا أجزم أنه السابق ولكن لم يتأخر عنه صاحباه المذكوران بما يذكر وأعتقد أن المدة التي ختموا فيها لا تجاوز ثلاث ساعات ، وكان حسن الخلق والخلق برا بقرابته وصولا للرحم محبا في قلوب من رآه من الخاصة والعامة ولم أر من طلبة العلم من كان أكثر منه مطلعة ولا أشد اعتناء بالاطلاع على ما يتجدد من الكتب منه ، والذي الملاز إليه الاشتغال بالكتب.

ومن علماء أهل هذا البيت حَيَّايْ واسمه محمد الصالح وأخوه حسان ابنا محمد أحمد بن عُمر وهما عالمان عاملان بعلمهما .

أما حَيَّايْ : فكان يدرس في الفنون وأكبر همه في مطالعة الكتب ولم يشتغل بالتأليف ولا بنظم الشعر .

وأما أخوه حسان فعالم عامل عابد محبب إليه الخلوت والصمت والذكر وهؤلاء الستة في قيد الحياة عام 1395هـ وحسان مات في ذي القعدة من عام ثمانية وعشر وأربع مائة وألف 1418هـ .

الخبر عن علماء سبط القماري بن أكَّايَّ :

أما بنوا القاري فكانوا قسمين :

- بني محمد إكنن
- وبني أخيه سيدي بو بكر

أما هذان الأخوان فلم أقف على شيء محقق من آثارهما وقد رأيت شيئا من الثناء والمدح موجها إلى أحدهما ولم أدر تعيينه لأنه ذكره بالكنية في اللغة التارقية التي يجعل أهلها " أكْ " محل ابن فقال :

وعي فقه مالك بمحض اقتطاف ... مآثر أكَّ القاري في الفهم جمة
بمص ولا حسو ولا بارتشاف ... وعب فنون العلم عبا وما اكتفى

وأما سيدي بو بكر بن القاري : فبلغني من خبره أنه ما خرج من حيه طالبا لشيء إلا مرتين أحدهما أنه سمع بفتى من كَلْ كُنْهَانْ متفوق في

علم النحو يغلب فيه كل من غالبه فخرج إلى لقائه ومغالبته في العلم فلقيه وغلبه ، والمرة الثانية خرج فيها إلى محمد المصطفى بن محمد إكنن ليأخذ عنه تفسير مختصر خليل بشروحه فلما قدم عليه وأخبره بمراده رحب به وأنزله في بيته فرأىالضيف في النوم النبي صلى الله عليه وسلم جاءه بقعب من لبن فسقاه إياه فانتبه وفي فمه آخر جرعة من اللبن فكوشف مضيفه بذلك فقال له يا غلام ابتلع ما في شدقيك فابتلعه فلما أصبح قال له الحق إلى حيك فقد خصل مرادك ولم أسمع زائدا على هاتين المرتين أما بنوا محمد إكنن : فأكثرهم علماء عاملون حملة للقرآن ومتوارثون فنون العلم ولكن غالبهم لا يتعطى الإنشاء لا نظما ولا نثرا فلم أر له أثرا أكتبه . المتعاطون للإنشاء منهم أولهم وأكثرهم أثرا فيه نظما ونثرا ابنه أحمد الإمام :

وقد ترجمه الشيخ الخضر بن الشيخ حماد في كتابه " التبر التالد " ترجمة واسعة ومما بلغني من أخباره أن إمامته التي شهر بها وصارت له لقبا إنما نالها بشهادة أكابر الفقهاء والأولياء والقضاة باستحقاقه لها وهو شاب حدث وفي ذلك السن ابتداء في التدريس في مسجد " إكَدَشْ " وكان قاضي قضاة أهل السوق في وقته الصالح المعروف بسَلّهُ بن محمد البشير هو الذي رغب فيه وتفرس فيه الخير وهو صغير فراود والده عنه ليقراء له ابنه القاضي محمد الشيخ الفية ابن مالك فسلمه إليه ودرس صغار الحي في علم النحو ودرسه هو كبارهم في سائر العلوم ثم حبسه أهل ذلك الحي يعني " إكَدَشْ " من عند أنفسهم ولِمْ يسمحوا له بفراقه لهم وكان الحي الذي رغب في بقائه معهم معظما مبجلا في حي قومه لا يتعرض كل منهم للآخر في شيء رغب إليه فيه فبقي في حي " إكَدَشْ " إماما ومدرسا وكاتبا إلى أن مات فيهم ثم بقيت فيهم ذريته من أواسط القرن الثاني عشر الهجري على أوائل الربع عشر أيام تغلب فرنسا إلى البلاد وانحلال عرى دولة أهلها فرجع من بقي منهم إلى بني عمه آل سيدي بو بكر . ومما يحكى عن أحمد من العجائب أنه لقي الشيخ سيدي الختار بن أحمد الكنتي ففاوضه في شيء من العلوم حتى غضب الكنتي فقال له لئن لم تسكت عني لأسلبن منك ما معك من العلم فقال له أحمد لا تقدر على سلبي فبات أهل الحي في قلق عظيم مما قال له الشيخ الكنتي فلما انصدع الفجر بادر أحمد إلى المسجد على عادته فأذن ثم جاءه أصحابه وصلى بهم ، وكان الشيخ الكنتي ممن صلى خلفه فلما سلم قال له يا أحمد أنشدك الله إلا ما أخبرتني حيث كنت البارحة فإنه طلبتك في الأرض التي نحن فيها فلم أجدك فطلبتك في التي تليها ثم الثالثة إلى السفلى إلى الثور الذي

تحت جميع الأرضين ، ثم طلبتك في السماء فلم أجدك فقال له أحمد لم أزل معك في كل مجال جلته وكنت إبرة في جيب قميصك فانظر إليه تر مكان الإبرة فنظر الناس إلى محل الإبرة من جيب قميص الشيخ فقبل أحمد ولاذ بحقوه واستعفاه واصطلحا . اهـ ما بلغني من القصة ولا يحسب أحد أنها على الحقيقة وإنما ذلك من جولان السر إن صحت الرواية ، وأما رؤية أثر الإبرة في جيب القميص فغير معقول ولا أظنه إلا من زيادة القصاص وأما جولان سر المرء مع سر الآخر في العالم السفلي والعلوي فغير بعيد.

وأما التواليف المنثورة : للشيخ أحمد فلم أطلع عليها ومنظوماته كثيرة بعضها حل لألغاز في فنون العلم وبعضها قصائد في مواضع مختلفة وله أرجوزة في نظم أسئلة ابن سخنون سماها " المنهج الميمون " وهي جيدة في بابها نظما وفقها . ومن شعره ما جرى بينه وبين سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار المذكور وكان الشيخ سيدي محمد أرسل كتابين إلى أهل السوق لم أعثر على مضمونهما ولم أرهما إلا أني وقفت على الشعر وجوابه وعلى رسالة من سيدي محمد إلى الشيخ حَنَّ والشيخ أحمد الإمام يعتذر لهما في شيء أنكراه عليه فأجابه كل منهما بقصيدة ، وأجاب هو أيضا كلا منهما بقصيدة أخرى وقصيدة أحمد هي هذه :

وقد أوشكا أن يبكيا الحجر الصلدا ... كتابان شوشا بما اشتملا ، جلدا من الختم وأنفضوا وقد نقدوا نقدا ... وقد قبض ناس قبلنا ما عليهما علقنا به شيبا ومردا ولا بدا ... وأنتمُ براء ، إنما النقد نقدنا رمسنا المريب منهما ثم لا يبدى ... ولو وردا من غير فض عليهما دواع تريب كل ذي مقلة رمدا ... ولكن فشا في الشامتين وغيرهم وود العدو لو كبدنا له كبدا ... فود الصديق لو تعود عهودنا سعاة بنان الإخاء ولادا ... أليس من أعظم الفواقر أن يرى يشد عيانا ، بعضها بعضها شدا ... وما نحن إلا كالمباني وأنيمُ بقاياه واعتلت فلم ناله جهدا ... وكالجسم ، كلما اشتكى البعض تشتكي وما كان غيره بهذا لنا قعصدا ... لهذا بعثنا بالكتاب تنبها ولا يك مألوف الدنو لنا بعدا ... فلا يك طود الود إلا كعهده فأنى يحل من مواثقنا عقدا ... فرغما لأنف البين فهو طريدنا فظل رضاضا ، ما نسام به طردا ... رمينا بفهر صولة ولوصل نابَه ولا فاصم حبلا من الحب قد صدا ... وما حدثان الدهر أصلا ، بصارم وأغصانه لم تشك حرا ولا بردا ... رسا في ربى الحشاء قدما أساسه فلم يرقه وآش ولا رامه هدا ... بقنة سد الود نحن وأنتمُ

له النار لا تبقى طحالا ولا كبدا ... بفيه الرماد والرغام ، وفي الحشا
حبيناهم من صفو طي الحشا زبدا ... نرى سبة إن نستقيل أحبة
تجر لكم من لم يلد ومن لدّا ... لكم بمجامع القلوب أعنة
تهب بأسباب مناقضة عهدا ... أعوذ برب البيت من كل قاصف
سلاما له لم أحص عدا ولا حدّا ... أقول على بدر الزمان مسلما
من الترك لا سمك الذي ضمن الحمدا ... ألا لا يربك أيها الندب ، ما جرى
وما كان إخلال بذاك السمى ، عمدا ... لعل اليراع قد أخل برسمه
لما كان للمجد الذي حزته ، جحدا ... على أنه لو غاد رأسمك ناسخ
من الناس ، رب كان في ملكه فردا ... أعاذك أن يستهجل اسمك فاضل
على أنه يعنى بصاحبه جدا ... كما أصبح التصريح بالاسم آية
دليلا على التعظيم والغاية البّعدى ... يكون لدى بعض المواضع تركه
فإنا نرى في حقكم خنقنا إدّا ... نعيذ من الخلق الذميم نفوسنا
ومن هو خير من أسر ومن أبدى ... صلاة وتسليم على خير من وفى
وكتب الشيخ سيدي محمد ما لفظه : وهذا الجواب المسمى " الطالع الأسعد ، والسعي الأحمد إلى جواب العلامة أحمد :
إليه مع الإكرام في حقه أهدي ... إلى أحمد أهدي سلام وأن يهدي
له الرشد والتوفيق للشرعة بمرشد ... وإني إليه الله أحمد سائلا
تكون على وفق المنى طالعا سعدا ... وأسأل عن مرضي أحوالة عسى
وإن أو شكا أن يبكيا الحجر والصلدا ... وبعد فمضمون الكتابين مرشد
ومرتبة ما الطود في جنبها طودا ... إلى كونكم منا بمنزلة سمعت
بخدش لود لا يرم ولا يصدا ... ولو فض من ختم الكتابين لم يكن
فما نحن إلا البيت والجسد الفردا ... فقل للشناة والوشاة رغمتم
إلى رسمه حتى يسر ولا يبدى ... ويا عجبا ما الخامل الملجأ الفتى
وتبرئة من زور ما زور إلا عدا ... وحاصل ما نصنا إليكمُ ، توجع
صقال الفكر الندب لم يحفظ العهدا ... ألم تعلموا أن العتاب وإن أسا
يتائم سلك نظمت لكم عقدا ... فكيف بكم والحفظ للعهد والوفا
بنوام خير لا حقود ولا صدا ... ونحن وإياكم وإن جهد العدا
لما عزل الود القديم وما أسدى ... لذاك بعثنا بالرسائل لحمة
يد المبتغي ، جهلا ، لأطامه هدا ... ولسنا نقيم الود حيث تناله
يسوم من الميثاق حلا ولا عقدا ... ومن أين للبيْن المشتت ملك أن
من الحب للأحباب ، جوهره الفردا ... وما حدثان الدهر إلا مبرز
تراثه أجدادنا الجد فالجدا ... فكيف بحب راسخ ومؤرث

ونغرس في حافته الحب الودا ... فنحن بحمد الله ، نجني جناؤه
مبانيه جدران المودة والحدا ... ونثبت من آساسه ونقيم من
نعودها بداء فكيف بها عودا ... نرى العار والشنار في قطع عادة
أوائلنا والطبع والشرع فامتدا ... وكيف بحبل محكم الفتل مدة
وأن لكم منا النصائح والحمدا ... ويشهد رب العرش أنا نحبكم
فلا سهو في الإخلال منه ولا عمدا ... وأن لنا حرصا وضنا بودكم

هي الخمر دأبا في مفارق من ودا ... وحييت إذ حييتني بتحية
لو سم ولا لاسم متى لم يكن وجدا ... فديتك ، ليس الترك عار أو سبة
ولم يبق وحرا في الصدور ولا حقدا ... وهبه بوجد كان للعتب مسقطا
ولم أشترط شرطا ولم أعتبر قصدا ... لذلك لم أثن العنان لسقطة
دلالا فلا عكسا شرطت ولا طردا ... وذكرى لاستهجانه غير قادح
للاطراء موضوعا وأن تعقد المجدا... سوى أن من شان الرسائل كونها
مسماه جان مسرف مذنب جدا ... والا فمثل سمي يحق استتاره
عظيم رجاء أن يقال فلا يردى ... له في عميم الفضل من متفضل
لا حصر في طلق إلى الغاوة البعدى ... ولولا التذاذي بالمكاتب لم أكن
وتحقيق ما أخفى الجنان وما أبدى ... ولكنها تأكيد قرب وحظوة
بلى كنتم إربا لمن حب والقندا ... ولم لا ، ولستم أهل حنق ولا أذى
ولا زلتم حلوى المفاكه والشهدا ... أعاذكم الله الكريم من الردى
وباعث خير سد خرق الجفا سدا ... ولا زلتم ممن له النفس واعظ
وطيب سلام أرج الغور والنجدا ... وكل صلاة غللت بتحية
وعترته والمقتفي الأثر الأهدى ... على أحمد الهادي النبي وصحبه
وقد وقفت على مجلد يحتوي على نسخة من كتاب " رحمة الأمة في اختلاف الأيمة " وكتاب " الأجوبة المهمة " للشيخ سيدي المختار بن أحمد الكنتي كلاهما يشترك أحمد الإمام وشيخه سلّهُ بن محمد البشير في كتابته ، قد كتب أحمد الإمام على وجه الصحيفة المبدوّ فيها كتاب " رحمة الأمة أبياتا يخاطب فيها من لم يسمه ، وصورة ما كتبه هذا : ومما أنشده عبيد الله أحمد بن مَحمد إكّـنَّنْ (وبعد ذلك سطر ممحو)
من الله في طي اختلاف الأيمة ... إليك كتابا كاسمه عين رحمة
تجده ردا في كل فتوى ملمة ... فدونك فاضبط ما به من فروعه
بيان وإيجاز وحكم وحكمة ... ترى كل باب منه يجمع بين ما

بها لمع بيض خلت من مذمة ... ظفرنا بحمد الله ، منه بنسخة
أبوا عرضها على الصحاح المتمة ... كأن قصارى أمرها أن أهلها

وكثرة ثلم في أماكن جمة ... فأصبح تحريف الحروف يشينها
نجرد في تهذيبها كل عزمة ... فعُمنا وأغيى القصدا تحافك المنى
وتخليصها من كل شين ووصمة ... ولم نال جهدا في إقامة عودها
كما ستراه واضحا غير ....مة ... فلم نحط إلا دون أغيى مرامنا
تخلله من شاردات أهمت ... فطورا نسد بالقرائن بعض ما
لنص الكتاب أن يشاب بتهمة ... وطورا نرى الأعراض عنه صيانة
سوى الظن والتصويب عن قدر همتي ... فلم يبق في تصحيح ما أسود حيلة
وصادا لذا التصويب من فوق كلمة ... فنرسم طاء إن ظننا حقيقة
بأجوبة للمشكلات مهمة ... وآخر يدعى وهو أهل بوسمه
فذاك وهذا ، للبغي من تتمة ... فكن بهما لا كل حدك آنسا
ففيها المنى تمت وبالخير عمت ... وذاك وذا ، للعين آية قرة
وله شعر كير غير هذا ، وأما تاريخ وفاته فلم أقف عليه ووقفت على تاريخه لنظمه أسئلة ابن سخنون بعام ألف ومائتين وإحدى وعشرين 1221هـ.

* * *

ومن مشاهير علمائهم السيوطي بن أحمد الإمام : وليس لي عنه معلومات كثيرة ووقفت من شعره على شيء جيد ووصفه بعض معاصريه ومراسليه من العلماء والأشياخ بأنه من الأفاضل والأماجدومن مشاهير بني محمد إكنن محمدُ بضم الدال المعروف باسم " أهمَّنُ " ابن محمد بن مَحمد إكنن وهو وأبوه لم يكونا مع بني عمهما الأقربين الذين يسمون أهل تَبُورَقْ بل كانوا مع إخوانهم من أهل تَكَلَّلْتْ ومنهم يحسبان ولم يزل أهل هذا البيت مع أهل تَكَلَّلْتْ من عهد مَحمد بن محمد إكنن والد أهَمَّنُ في أوائل القرن الثالث عشر إلى عام سبع وخمسين من القرن الربع عشر الهجري ففيه انتقل الشيخ مفلح أبو ذي الكفل وابنه وبقية بني عمهم الأقربين فصاروا مع بني عمهم من أهل تَبُورَقْ ، هذا ومحمدُ هذا الذي أترجمه هو أبو أم والدي أخذت عمن أدركتهم من كبار السن كثيرا من الثناء عليه بالعلم والفضل ، وله كثير من الكرامات ، يحكى أن بعض العبيد سرق شاة فاتهمه أهلها بها وبالغ في جحودها حتى

جاء إلى الشيخ أهَمّنُ ووضع يده على كتفه وقال له أسأل الله بحرمتك أن يفتضح سارق الشاة التي اتعمت بها فلصقت يده بكتفه وعجز الناس عن تخليصها حتى اعترف بأنه هو الذي أخذها فتخلصت يده وتعجب الناس .

***

ومن مشاهيرهم مفلح بن آلآد واسم والده محمدُ بن أهَمّنُ :

ولد في أواخر القرن الثالث عشر في حياة جده ولما ابتدأ في التعلم أرسله جده إلى الميمون بن أحمد من أهل تِكِرَتِنْ فتعلم عليه شيئا من الفقه ، ثم ارتحل إلى حي أهل تَنْغَ أكَّلِ في أرَبَنْدَ فتعلم منهم النحو وأتقنه غاية الإتقان ثم تعلم ما سوى ذلك من الفنون عن أشياخ أهل تَكَلَلَتْ وأخذ التفسير عن محمد الصالح بن محمد ميدِ ، ثم اشتغل بالتدريس وتخرج على يديه في علم النحو كثير من الناس وأخذ عنه بعض التلاميذ كثيرا من علم الفقه ولكن الغالب من تلاميذه من يأخذون النحو لأنه أحب العلوم إليه ولأن من المجرب عند قومه أن من طلب النحو بواسطته يفتح عليه وإن كان مايؤسا من نجاحه قبل الوصول إليه ، وأحب الأشياء إليه التعلم والمذاكرة وطريقة سلفه ، وله كثير من الرسائل والقصائد في الرد على مضاديه في العلوم والمذاهب ، وأخذ الطريقة الصوفية عن ابن عم أبيه الشيخ حماد بن محمدُ ، ومن رسائله رسالة في الذب عن شيخه حماد ، ورسالة " في الرد على الوهابيّة " ورسالة شرح بها " أرجوزة " لبعض أهل المغرب في المسح والتيمم ، وأولها :

في الحوض مطلقا سوى التيمم ... ولم يجز لأحد وعمم

وحاصل تلك الرسالة أن المتوضئ ينتقل إلى التيمم إذا أضر به الماء ولا يمسح لأن الأمراض التي تبيح التيمم في بلادنا ربما أضرّ المسح بمن هي به كما يضر به الغسل . وله رسالة في " التحذير من المبادرة في بإصلاح شيء في الكتاب يظنه المصلح خطاءا " لأنه ربما ظن الصواب خطاءا ، وتلكم فيها على فضائل أشياخه وأسلافه والتنويه بأقدارهم . ورسالة في " إثبات شرف عشيرته الدغوغيين " ومن شعره قصيدة في الرد على من يرجع المطلقة ثلاثا إلى مطلقها بدون محلل " اعتمادا على أن الخلع فسخ لا طلاق . وله قصائد كثيرة في مواضع شتى . وتوفي عام تسع وستين وثلاث مائة وألف 1369هـ .

***

ومن مشاهيرهم الشيخ ذو الكفل بن مفلح المذكور : وهو غروة أهل بيته

وواسطة عقدهم ولد عام اثنين وعشرين وثلاث مائة وألف 1322هـ في أوطان أسلافه من الصحراء في أعمال قاوَ ولم يزل في ذلك الوطن إلى أن انتقل إلى النيجر عام ألف وثلاث مائة وسبعة وستين 1367هـ فبقي في أرض آير حتى توفي فيها عام ألف وثلاث مائة وإحد وثمانين 1381هـ

وأما شيوخه : فإنه تربى في حجر والديه وأخذ النحو اللغة والبيان والفقه عن والده وعن إخوانه من شيوخ أهل تَكَلَّتْ الذين نشأ من بينهم وفي جوارهم ، والتفسير عن ابن عم أبيه محمد بن محمد محمود ، تلقف جميع تلك الفنون فيما بين طفولته وأوئل شبابه وبرع في نظم الشعر في تلك المدة ، وكان ممن يقربهم الشيخ حماد ويفيض عليه من الأسرار فنال من بركته ما لا تسعه العبارة ولا اليراعة ، ثم حبب إليه السياحة والجولان والعذلة فخرج من الحي أولا برسم التجارة فأطال الغيبة نحو سنة فلما رجع عتب عليه والده وأعيان حيه ولاموه على تلك الغيبة فألان لهم جانبه حتى ظنوا أن لن يعود ثم غاب غيبة أخرى بعيدة ولم يظهر للناس شيئا من حقيقة أمره وفي رمضان من عام ألف وثلاث مائة وستة وخمسين 1356هـ فأجاه من العلوم الإلهامية والأنوار ما غلبه على عقله ففزع الناس من ذلك وامتلأت البيوت بكاءا وحزنا لظنهم أنه مجنون أو مسحور فبلغ الخبر إلى الشيخ محمود بن محمد الصالح وكان من المولعين بحبه ومن ذوي قرابته الأقربين فقصده فلما جاءه وجد أهل الحي محدقين به بين متحير لا يقدر على الكلام من شدة ما يجد ، وبين من يقول مسحور ، ومن يقول مصاب بالعين ويستعظم الجميع أن يصفه بالجنون فلما نظر إليه الشيخ محمود قال : للناس ما به شيء مما تخشون ولكن نابه الذي نابني قبل ، وكنت في ذلك المجلس وأنا ابن اثني عشرة سنة وما سمعت قط بأن الشيخ محمودا كان قد أصيب بمثل ذلك وكنت مع صغري ممن قاسى الألم إشفاقا على ذي الكفل حبي له وحبه إياي منذ رأيته وكان بيته حيال بيتنا وكان لي كالأخ الشقيق أو فوق ،فلما سمعت من الشيخ محمود تلك الكلمة بآدرت إلى بعض من سبقني فسألته عما قال الشيخ فقال لي كان في ابتداء سلوكه لطريق الصوفية مغلوبا على عقله لا يكلم الناس ولا يدخل في أمورهم وربما فاتته الصلاة فحكم الناس له بالجنون ، وبعد مدة تزيد على عام رجع إليه عقله وصار كما ترى ، فلما سمعت ذلك ذهب عني الورع ورجعت إليه ، والشيخ محمود يخاطبه بأقوال لا أفهمها ويجيبه بأشد منها انغلاقا عليّ ، فمما قاله الشيخ محمود بعد مجاوبة طويلة أتذكر"يوم ألست بربكم " فأجابه بأن قال له " إذا

استولى الروح على الجسد ظهر له المبدأ والمعاد " ومن ذلك أن كان الشيخ محمود ولد ابن عشرة أعوام ، وكان ذو الكفل يتأمل أكف الناس كأنه يقرأ عليها مكتوبا فنظر إلى ابن محمود كما ينظر إلى الناس فأخذ الشيخ محمود كف ابنه ونصبه بين عيني ذي الكفل فلما نظر إليه لم يزد على أن قال في كفالة إبراهيم فلم يفهم الحاضرون لكن الشيخ محمودا فهم أن ذلك نعي ابنه فاسترجع ولم يبين للناس حتى مات لابن بعد أربعة أعوام ، فحينئذ أخبر الناس أن استرجاعه حين قال ذو الكفل ما قال ، إنما كان لأنه فهم من كلامه أن الابن يموت صغيرا ويكفله إبراهيم عليه السلام كما يكفل من مات من أولاد المسلمين . ومن كلامه في تلك الأيام أبيات كثيرة لا يعرف الناس معناها ، منها أبيات يرددها وهو في القيود ويقصد بيت الشيخ محمود وهو يرددها فلا يزيد الشيخ في جوابه على أن يقول كذب اللعين ، ومنها قوله :

أجاب القلب صح لي الهيام ... نداء الله في أذني فلمنا

ومنها :

وقد يكتسني لباس بعد ذوو القرب... تعاميت حقبة وما بي عمى القلب

فلا بدع ، فالإستار تهتك بالحب ... فإما نطقت بالذي ضم صدرنا

لديه إذا يدعووا سعى إذا لبي ... فإن أك منكم فكلي غائب

وإذا بلغ إلى قوله وأسعى إذا لبي كاد أن يطير في الجو واضطرب وتحرك بحركات قوية لا يستطيع أحد مقاومتها . ومنها : مخافة مالك

فيحتطف العقل ... وما بي من مس ولكن تهزني

وكثيرا ما يردد في تلك المدة قوله : زعموا أني أسيح لطلب الدنيا وما ذاك بذلك ولو طلبتها لأتتني طوعا أو كرها .

وهو مع هذه الإنشادات مقيد لئلا يهلك نفسه إذ لا شيء من العقل معه لكنه أعجز من يطلب كفه عما يريد من الحركات ، وربما أخذ قيود الحديد التي وضعت في رجليه كأنه يستهزء بمن وضعها في رجليه فينظر إليه الناس غير مقيد فهاب الناس من تقييده وتركوه ، ثم أفاق من تلك الغشية وراجعه حسه فأفاض علوما من معاني الآيات والأحاديث يتعجب منها السامعون ، وأنشد أشعارا على منوال الكلام القوم الذي لا يدرك بمطالعة الكتب ، وأيس أقرانه من إدراك شأوه وأولغ الكبار من أشياخه بسؤاله عن غوامض العلوم ورفع إشكالاتهم إليه ليحلها ، ومن أولئك الأشياخ شيخي والدي سعد الدين بن عُمار وأخوه أحمد المعروف بالكرماني كانا ممن يسأله عن غوامض العلوم وكان قبل تلميذا لهما وابنا لهما لأنهما أبنا عمة والده ، وكان يعظمهما غاية التعظيم ويقر لهما

بالفضل وينزلهما بمنزلة والده في البر والتعظيم ولما أخذ في الكلام على معاني العلوم التي لا تسطر عز من يذاكره فيها وإذا ظفر به كان أحب الناس إليه ، وأنشد أشعارا كثيرة في ذلك المجال تبلغ الديوان ، منها مينبئي عما ناله من العلوم والأسرار ، ومنها ما يبين به مقام الشيخ المحمود بن الشيخ حماد تارة يخاطبه وتارة يشير إلى تلك المعاني من غير خطابه ، فمن التي خاطبه بها قصيدته الحائية التي أولها :

فادخل فإنك محفوق وممنوح ... بشراك بشراك باب الله مفتوح

واللامية التي أولها :

وهنأت من توالي ... خصتك ذات الدلال

والتي أولها :

ويبسط لي فيه الرجا لينيله ... أمانا ، إنا بالخوف يقبضني له

ولا صادر قبضي فيشفي غليله ... فلا وارد من بسطه متتابع

ومن التي أشار فيها لمقامه من غير خطابه التائية التي أولها :

.... مه لا تمار فهذه أمارات ...ألخ

ومن العجب أن كثيرا من الأشعارالتي أنشدها في شبابه لم يظهر للناس أنها تتحمل شيئا من دقيق المعاني لكونه له حين أنشدها مستترا لا يريد الظهور كما قال في بعض قصائده :

فكم بظهورهم القوا بجيب ... ومن خلع الخفاء أخلع علينا

فلما غلبه ما يجد وظهر عليه شيء من تلك الأسرار التي كان يكتمها تبين للناس من تلك الأشعار الأولى معنان كانت تخفى عليهم قبل ، وعلموا أنها كالتي أنشدها بعد ظهور أمره ، وله قصائد في المديح النبوي على هذا المنحنى من الاستغراق في عبارات القوم التي لا يفهمها إلا من آمن بها وذاق منها ، وقصائد بمناسة حجاته ولكن يفيض بها بعض الأسرار . والحاصل : أنه سكران يصحو في بعض الأحيان فإذا سكر أزاغ بعض الأسرار التي لا تنشر وذكر شيئا من فضائله وإذا صحا تواضع وتصاغر وتجاهل ، ويتفاوت حاله في السكر فتارة يغيب عن عقله فيريد أن يهيم على وجهه وتارة يمرض صورة حتى يفوه ببعض ما في صدره فيبري ، وتارة يصحو في ظاهر الأمر ولكن يتكلم بأشياء يعرف من يخالطه أنه لا ينطق بها صاحيا ، ومن كلامه الذي شافهني به إذا رأيت من يطلب مناظرتي في العلم أو مصارعتي فاعلم أنه مغلوب لأن المناظر يأخذ العلم عن الرجال وفي الكتب وأنا آخذه عن قلبي كلما

نظرت في شيء بقلبي عرفت حقيقته وكذلك المصارعة يعتمد على قوة ساعديه وأنا على قوة ربي وشتان ما بين القوتين . ومن كلامه الذي يردده كثيرا ادّع فإنك ادعيت حرصة وإن حرصت طلبت وإن طلبت وجدت . وبعبارة أخرى إني مدع لقوله تعالى { ولهم ما يدعون } .
وكنت معه يوما لقرء شيئا من قصائد الشيخ حماد التي أعجزت الفحول من البلغاء ، وكلت عن شأوها بحور العلماء ، فسألته عن معنى بعض عباراتها فسكت ، ثم عاودته بالسؤال فتصامم فألححت عليه لأنه كشف قناع الهيبة بيني وبينه وكأنه يدللني كما يدلل الصبي الصغير فلما علم أني لا أتركه قال لي هذه العبارات لا تدرك بالتعليم ، بل بالذوق وبعد التسليم ، ولو تتبعت ما خاطبني به على هذا المنحى لضاق به الدفتر .
وأما غزارة علومه فمما لا يختلف فيه اثنان ممن يعرفه ، لقيته مرة قادما من بعض سياحاته فتفاوضنا في الكلام حتى سألني عن الشيخ محمود بن محمد الصالح فأخبرته بسلامته وكانت تلك الليلة من ليالي سكره فقال لي إذا لقيته فقل له أدخر لك وأدخر لك وجعل يكرر تلك الكلمة فقلت له ماذا تدخر له ، فقال أتكلم معه في أربعين علما فقلت له أمن تلك العلوم النحو والبيان والفقه فقال لي كلا ، النحو صار من المبتذلات فقلت : له أريد أن تخبرني ببعض تلك العلوم ، فقال لي أتعرف شيئا من علم الألوان فقلت لا ، فقال : أتعرف شيئا من علم الأصوات فقلت أو أن للأصوات علما ، فتغير وجهه كالمغضب واستعظم تلك الكلمة حتى كاد أن يقع بي لولا ما طبع عليه من محبتي ، ثم قال لي بماذا يتفاهم الملائكة قبل أن يخلق آدم الذي أنباهم الأسماء فعلمت أنه ليس بصدد أن يخاطب ويجيب ثم غاب عن حسه وأخذا في أحوال تضيق العبارة عنها .
وأما العلوم الشرعية والعربية التي تقرأ في بلادنا فاشتغل عنها من حين فأجاءه ما فاجأه من الأنوار . فقال لي : مرة تركت لكم حظي من كتبكم وحسبي مصحفي ، وفتح عليه من أسرار معاني القرآن حتى كأن كما روي عن ابن عباس ـــ رضي الله عنهما ـــ أنه قال لو ضل عقال أو عنان وجدته من كتاب الله تعالى " . ربما قال : لبعض أصحابه سلوني عما شئتم أجبكم من كتاب الله . وربما قال : متى قرأتم لي حديثا بنويا قرأت لكم من كتاب الله ما يبينه ذلك الحديث ، ولبث سنين لا نظر في الكتب اكتفاءا بما يفهمه من القرآن ، وكان والده في قيد الحياة ، وكان حاله على العكس من حاله هو لأن والده ما زال مكبا على الكتب بالإقراء والمطالعة والتصنيف ، فلما توفي والده عام تسع وستين وثلاث مائة وألف 1369هـ قام مقامه في تلاميذه وأهل بيته وتنازل وتدلى ورجع

إلى مطالعة الكتب والإفتاء فيها وإقرائها ولم يزل كذلك حتى توفي . وله من الرسائل العلمية " رسلة في وجوب الهجرة من البلاد التي يحكم عليه الكفار وإن كان أهلها مسلمين " ورسالة في " السلام " ورسالة " عبر بها رأيا لبعض الصالحين " من قومه . ورسالة " أجاب بها بعض علماء قومه " وكان نهاه عن حجته الثانية لعذر قام به يخشى عليه من السفر لأجله فلم يصادق منه القبول ..... الشعر فتقدم أن قصائده لا تقصر عن ديوان مستقل . ولم يرحل قط في طلب العلم بل تربى في حجر والده وتعلم منه ومن أشياخ أهل تَكَلَّتْ الذين يجاروهم ويذاكر أقرانه من الصغار ، وكثيرا ما يجتمع ببعض العلماء في سياحاته التي دامت نحو عشرين سنة فيفيدهم ولم أسمع أنه استفاد منهم بل هو في تلك المدة كما تقدم يستغني بما يلهم من معاني الآيات ، وما يفيض على قلبه من أنوار أسرارها . وأما الشجاعة : فسلم له أهل النجدة ببلاده أنه لا يدانيه فيها أحد لأن المخلوقات في نظره في حد سواء ، لا يخاف إلا الله ولا يرجو إلا هو فلا يلتفت إلى أحد برسم رغبة ولا رهبة ، وجرت له في ذلك أمور خارقة متكررة مع الجبابرة من المسلمين ومن الكفار ، يأتي إلى بعض أهل السلطنة منهم فيطلب منه مالا يطلب مثله من مثله فيسخر له ويسعفه بمراده ، وربما نهى بعض حكامهم عن شيء فيقتحمه جهارا ولا يعاقبه الناهي ، وربما هم بعض المتمردين بنكايته فينقلب عليه الأمر فيذله الله ويعز وليه وتكرر ذلك منه حتى اشتهر بين الخاص والعام أنه لا يصرفه عن مرامه أحد وخاف منه الحكام وخضوا لسطوته كما يخضع لهم غيره وألقيت عليه المهابة فكان يخاطب بعض أهل السلطنة كما يخاطب الغلام أو كما يخاطب الكلب إذا تظاهر بالمعاصي بين يديه وكان فيه حدة إذا غضب لم يقم لغضبه أحد ليينه أشد من حدته إذا غضب وشفع إليه بعض المسلمين سكن غضبه ، وكان سريع الغضب سريع الفيئة إذا إفاء بعد غضبه استرضى من غضب عليه وتملق له حتى يرضى ، وربما أعطاه شيئا من المال جبرا لخاطره . وأما كراماته : الخارقة فلا تحصى بل صارت معاملته كلها كالخارق في جميع الأحوال ، ومن أعجب وأغربها أنه مرض في بعض السنين فدقه الطبيب فتبيغ الدم في موضع الدقة وصار ذلك مرضا أغيي الأطباء مدة شهور وقد سعوا له بكل حيلة ولا يزال المرض يتفاقم والجسم ينحل حتى لزم الفراش وبقي عظاما بلا لحم فحينئذ أرسل إليه الشيخ الخضر بن الشيخ حماد وهو ابن عم أبيه فقال له إذا استعملت لنفسك ما تعمله للمرضى حتى برئت فلك علي من الأجرة ما يزيد على ما يعطيك من عملت ذلك

لأعز أبنائه عليه فلما بلغه الحديث لم يجب بشيء وفي بعض الأيام جاء الطبيب الذي يقوم بأمره ورأى منه ما أفزعه فكتب إلى أميره في تِلاَيير وهو فرنسي يخبره بأن الشيخ ذا الكفل غلبني ما به فانظر أنت ما ترى ، فركب الفرنسي بفور وصول الخبر إليه فقصد قرية آيَرُ التي فيها الطبيب الذي أرسل إليه وبقربها حي الشيخ فلما أتاه ذهب معه إلى الشيخ فلما وصلا إلى حيه قال الطبيب الصغير وهو من السودان لأميره الفرنسي قف هنا حول الحظيرة التي تخيط ببيوت الشيخ حتى آتيه وأخبره بمجيئك فلما دخل عليه طبيبه الذي يعرفه وأخبره أن الطبيب الأمير حاضر صاح عليه وقال له أي حاجته لي في ذلك الكلب والله لا يدخل عليّ ، ثم أقبل على الرجل الذي أرسله إليه الشيخ الخضر وقال له يا فلان ما الذي قال لك الشيخ فأخبره بما قال له فجلس ووضع يده على موضع الجروح من ظهره إلى ساقه وقال " بسم الله " ثم مسح بكفه على موضع الورم فزال بإذن الله وقام ولبس ثيابه وتلقى الفرنسي الذي حول الحظيرة والطبيب ينظر ويتعجب فلما وقف بين يدي الفرنسي الطبيب الكبير نظر إلى الطبيب الذي أرسل إليه مغضبا وقال له تعبتني بكذبك لم كتبت إلي أن الشيخ أعيى داءه وأفزعتني ، فقال له الشيخ خل سبيله فقد صدقك ولكن شفاني الله الآن ، فتأمله وجسه بيده وطالع أحواله حتى تيقن أن لا بأس به فعجب مع الناس المتعجبين ورُعب من عظم ما رأى وما سمع وكان ذلك عبرة لأولي الأبصار . ومنها ما جرى بينه وبين بعض عظماء فرنسا وحاصل : ما جرى بينهما أن سيارة للشيخ اصطدمت مع شجرة كبيرة في أرض وَغَدَكُو فخسرت وهلك فيها بعض الناس فقام أولياء الهالكين يطلبون غرامة الهالك فوقع خصام شديد في ذلك حتى استدعاه عظيم وَغَدَكُو الفرنسي وأحضر عددا كبيرا من عظماء فرنسا وقضاتهم فمكثوا أياما يطلبون فصلالقضية ، وكان ذلك أواخر رمضان وفي بعض الأيام قال لهم الشيخ إني أريد أن أذهب إلى منزلي لأحضر الاحتماع الذي يكون عندنا في ليلة القدر فقال له لا تذهب الآن لأنك في وسط الخصام ، فقال له الشيخ لا بد من ذهابي وإذا ذهبت فلا أرجع إليكم ففزع صاحب له هو الذي يترجم بينه وبين الجماعة وقال له يا شيخي هذا الكلام لا أحب إبلاغه على هؤلاء الجماعة فليس جزاءه عندهم إلا القتل ، فصاح عليه وقال له بالله الذي لا إله إلا هو لأخرجن ثم لأعود فنهض من مجلسهم نهضة مغضب يكاد أن يبطش بهم فنظروا إليه متعجبين وختم الله على أفواههم وغل أيديهم بقدرته ثم سار إلى المطار وصادف طيارة تقصد إلى نيامي فركب فيها ولم يلق أولئك الحكام حتى مات بعد

سنين . ومن كراماته الخارقة ما شاهدته حين صحبته في حجته عام تسعة وسبعين — 1379هـ — وهي حجته الثانية في العام الذي قبله ، وكان في غاية المرض قبل أن نشرع في أعمال الحج حتى أيسنا من أن يحج ولكن خرج معنا يوم التروية وهو قريب من حد الاحتضار يعمل ما نعمل من غير شعور ظاهر بل لم يزل مغمى عليه من الشدة فلما خرجنا إلى عرفة خرج معنا على تلك الحالة فلما وصلنا مسجد نمرة وتفرق عنه أصحابنا بقيت معه أراعيه وبقي معنا رجلان من أصحابنا فلما راح الناس إلى الموقف قال لي أحد الرجلين ما ذا ترى في أمر هذا الرجل وما ذا نصنع فقلت له لا أدري فقال لي أما أنا فلا أمكث مع من كان في حجته الثالثة حتى يفوتني الحج فذهب وبقيت معه وبقي معي الرجل الآخر وهو محمد يشكر بن محمد الصالح فلما جاء العصر ولم يتحرك مريضنا بأي حركة دنوت منه فأجلسته وقلت له راح الناس جميعا ولم يبق إلا نحن فقال لي جئني بالماء فجئته به وهو مغشي عليه فأجلسته فشرع في الوضوء ثم أغمي عليه قبل أن يتمه فجلست معه هنية ثم أجلسته وشرع في الوضوء فأغمي عليه ولم يزل حاله كذلك حتى أصفرت الشمس وخفنا من أن يفوتنا الوقوف ، ثم من الله علينا بأن أفاق وتوضأ وصلى الظهرين ثم راح معنا وهو لا يقدر على شيء حتى حال الناس بيننا وبينه فاغتممنا لذلك وحكمنا بأن لن نراه وقصدنا جبل عرفة مع ذلك فلما وصلنا إلى الجبل ولقينا أصحابنا لم ندر ما نقول لهم حياء وحيرة ، ثم التفت فرأيته بجنبي مستقبلَ القبلة ورافعا يديه يدعو فلم أزل بعد ذلك معه وأتعجب من أدائه المناسك مع الضعف الذي منعه من الكلام ومن الطعام والشراب حتى أتم حجه ، فلما وصلنا إلى جدة بعد الفراغ من الحج وكنا في طيارة دولة مالي وهو في طيارة النيجر وجب أن نفارقه فنزل في منزل أهل النيجر وزرته في منزله وصادفته وقد جاءه بعض أهل الحكومة وقال إن طريق السيارة إلى المدينة مسدود في هذه الأيام وهو حينئذ قريب من حد الاحتضار لا نرجو أن يعيش بعد أن يتحرك فلما سمع أن طريق المدينة مسدود جلس كأنه لم يصبه شيء وغضب وصاح على المخبر وقال له من ذا الذي يريد أن يصرفني عن النبي صلى الله عليه وسلم بالله الذي لا إله إلا هو لا يصدني عنه أحد ولا يحول بيني وبينه حجاب فسخر الله أهل الحكومة وأذنوا للسيارة التي هو فيها في المسير حتى وصل إلى المدينة وقضى منها وطره ، ثم رجع وهو في جميع حركاته في تلك الحجة كأنه لا ينظر لنفسه ولا يرى لذاته حقا ولا يحس بما يرى عليه من أثر المرض لشدة استغراقه في حب

الحرمين . وأما جوده على الأقارب والأجانب : فحدث عنه ولا حرج ، أقبلت عليه الدنيا فأعرض عنها ثم تبعته فجعل يفرقها في الأقارب والأباعد ، سخر له الملوك والأغنياء فأهدوا إليه أموالا جزيلة وبسطت عليه الهدايا حتى كأنه من الملوك فأنفق جميع ذلك في سبل الخير من مواساة الإخوان وقرى الضيوف الكثيرين وفك العناة وإعانة أهل النوائب والقيام بمؤن الجيران . ومن عجيب أمره أنه مع استغراقه في الأحوال التي يعانيها ويغشى عليه من عظمها في جل الأحيان ، كان من أكثر أهل وقته في دعاء الناس إلى التحرر وطرق الترقي من جهة التربية والتعاليم ومن جهة الاقتصاد والسعي في طلب المال والاحتراف وعدم التواكل والرضى بالضعف والذل ، وكان مع ما آتاه الله من سعة الرزق وكثرة الهدايا المتواترة إليه ، لا يترك التجارة وتتبع القرى والجولان في البلاد لأجلها ، ويرعى الماشية بنفسه مع كثرة الخدم من الموالي والتلاميذ ويعمل في الحرث بيديه ويدعو أصحابه إلى أن يعملوا مثل أعماله في تلك الأمور ، قال لي مرة وهو ينهضني في السعي إلى ما أترقى به من أسباب العائش ويرادوني على تربية المواشي وتنميتها اعلم أن ما أعيش به في خاصة نفسي وعيالي كله من كسب يدي من زرعي ومن بقرتي التي أملكها قديما ، وأما ما يحصل إليّ من الهدايا والتجارات فهو الذي أفرقه في حوائج الناس ، وربما قال لي : كن رجلا فإني لا أحب إلا من يكون رجلا فإن الناس ثلاثة رجل ونصف ، رجل ولا شيء فنصف الرجل هو الذي يعمل لدنياه فقط أو للآخرته فقط ، والرجل هو الذي يعمل لهما معا ، ولا شيء هو الذي لا يعمل لكل منهما . ولم يزل ذلك المنحى مرامه وهدفه يربي عليه تلاميذه وأتباعه ويحرض عليه من يرجو منه الاستماع من سائر أهل بلده وخصوصا أهل قرابته . وأما عبادته : من الصلاة والصيام فقل من الناس من يعمل مثلها لا يفطر للمرض غالبا ولا يتيمم لأجله كأنه لا يرى لنفسه حقا من الاستراحة ويقنع بالروح والريحان الموعودين للمؤمنين في الجنة . وأما الخطابة وحسن الجواب : فقد أوتي من ذلك العجب العجاب ، من ذلك أمور جرت بينه وبين الشيخ الخضر بن الشيخ حماد في انتقاله عنه إلى أرض النيجر والشيخ في أعمال كَاوَ فلما انتقل أرسل إليه الشيخ يأمره بالرجوع إليه فلم يرجع ثم سار إليه الشيخ بنفسه فلما اجتمعا قال له الشيخ الخضر يا بني أما تعلم أنك ولد ولا تزورني وتريد أن أزورك أنا الوالد وما معنى ذلك فقال له ذو الكفل ذاك سنة أبينا إبراهيم عليه السلام يخرج من الشام لزيارة ابنه إسماعيل عليهما السلام بمكة وجهتي منك كجهة مكة

من الشام .... فضحك الشيخ متعجبا من سرعة جوابه وحسنه ، وقال له مرة يا بني ألم تقرأ قوله تعالى في معرض الإمتنان { وبنين شهودا } . وأنت تريد أن تفوتني من مشاهدتك التي كانت من أجل النعم عليّ ، فقال له ذو الكفل لم يقل " وبنات شواهد " وأنا لا أكون لك ابنا في البلد الذي أنت فيه بل أصير بالمقام فيه بنتا تكون عليك كلا فكوني لك ابنا بعيدا منك في الجوار أحب إلي من كوني بنتا تكون معك في البلد . وقال له الشيخ الخضر مرة ألست رعيتي فلم بعدت عني واتخذت وطنا غير وطني ، فقال له ذو الكفل إني رعيتك ولي رعية أسأل عنها وكلنا مسئول عن رعيته فطلبت أنا ما أمون به رعيتي وأما أنت فرعيتك نفسي ولا أنازعك منها شيئا والله لو أمرتني الآن بلفظ نفسي ومفارقته لفعلت من غير تأخير . ومما جرى بينهما أن بعض جيران ذي الكفل في النيجر انتقل عنه بعد أعوام ورجع إلى البلد الذي يقيم فيه الخضر وسمع ذو الكفل أن بعض الناس تلكم في الموضوع بما لا يعجبه فسمع الشيخ الخضر أنه استاء من تلك الكلمات فكتب إليه رسالة يعتذر فيها من عدم عيادته له في المرض الشديد الذي سبق أنه أصيب به مدة فأسل إلى الشيخ الخضر يأمره بأن يستعمل لنفسه ما يعمل مثله لغيره ويكون له عليه الأجر إذا برئ فقال " بسم الله " ومسح على الورم فزال بإذن الله ، يعتذر له في ذلك ويكذب له ما بلغه أنه قال له فلما جاءته الرسالة استراح مما به من الأسف على تلك الكلمة ولكن لم يرجع إلى جواره حتى قبض لأن مصرعه تبين أن لا يكون إلا في كَرَيْ فإنه توفي في نيامي ولكن حمل إليها وبينها وبين نيامي ما يقرب من مائتي كيلو متر ، ولفظ الرسالة : (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما ، من المحمود ((1)) الودود ، إلى ذي الكفل المودود ، الحمد لله الذي لا يعبد سواه ، ولا يسعد إلا من تولاه ، فقربه وآواه ، والصلاة والسلام على نبيه الحبيب الأواه ، وعلى آله وأصحابه ما حنّ غائب إلى مأواه ، أما بعد : فمن الوالد إلى الولد البار ، سلام وتحية كل منهما سار ، أجدد بهما عهد المحاوره ، وأمحوا بها ما عساه يشوش عليك من عدم المزاوره ، فأولا أخص بطيب عرفهما ما بين برديك ، وثانيا من ترعاه بعينيك وتحضنه بكلتا يديك ، ثم إني أعتذر إليك من ترك تجديد العهد القديم ، وعدم اشخاص رسول بعد رسول حين داواك الحكيم ، بأني حين سمعت بالمرضة التي كادت تذهب لب الحليم ، بلغني أنك قد نهيت الناس عن عيادتك فتأدبت لذلك في حقي وحق رسولي ، ثم إني لم أزل في تشوف وتشوق حتى وآفاني كتابك فإذا هو

ناطق بخلاف ما سمعت من التثبيط ، صارخ بملئ فيه على سم التهييج والتنشيط ، لكن وافق إتيانه أن نابني بعض أضعفت من قواي حتى اضطرني ذلك إلى لقاء الطبيب والإقامة عنده مدة فكان ذلك من العوائق ، وفي أثناء تلك الإقامة قيض الله لي بحسن إنعامه من بشرني بمبادء البرء وأن الشدة قد أعقبتها خفة ، ولله الحمد والمنة ، وأما الآن فإني وإن قدرت على تجسم الملاقاة لكن لا يقنعني إلا التجاور بالمنازل وعلى المناهل ، ولا يحسبني ولا يغنيني التلاقي إلا بجميع الأهل على الرواحل ، فإني لا أرضى لنفسي أن أكون كمن وآصل صوم سنة وأفطر على رأس ذبابة ، وقد علمت أني صمت عن جوارك منذ سبعة أعوام فإفطاري على لمة ساعة لا يزيدني إلا حرارة القلب والتياعه ، وإني منذ عرفتك لا صبر لي على فراقك ولكن لما شيدت داري في أقصى الشمال وشيدت بنيانك ، في أقصى الجنوب وطنت نفسي على ما أجد لكون تلك المرتبة من

---

(1) 1) الشيخ المرسل يسمى المحمود ويسمى الخضر ويرد ذكره في هذا الكتاب بكل من الاسمين . التنائي ، مظنة عدم تواتر الثلاقي ، في أثناء هذا التجول ، فقد زال التسلي وزاد الحنين وآن الأخذ بالثأر من تلك السنين ، فالرأي الذي نرتجي خيره ، ولا نرتضي منك غيره ، أن ترجع إلى مسقط رأسك ، ومجني زهراء أسك ، حيث تقول فلا تقبح ، وتشرب فتتقمح ، ثم إذا أردت الهجرة أنشأتها من هاهنا حيث أهلك ووطنك ومالك كما هو الشأن إذ سبيل من هاجر إلى الله ورسوله أن يبتداء الخروج من وطنه ومستودع أهله وماله قال تعالى { للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا } . الآية وما كنت ليقنطني ما بك من ضعف الجسم من بلوغ أملي فيك فإن الله تعالى خلق الإنسان من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ، فأرجوا منه تعالى أن يقويك بعد ضعفك وينقهك من مرضرك فيتهيا التداني ويتسنى نيل الأماني ، وإن كنا قد أسلمناك فيما مضى إلى الموماه ، لمعان خفية وحكمة معماه ، فما موماتك بأكبر من اليم ، بل اليم أكبر وشأنه أعظم وأفحم ، وقد رد الله كليمه موسى بعد ألا لقاء فيه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ، فعسى أن يقر عيني بردك إليّ في أقرب زمن ، وقد كنت فيما سلف ربما بعثت الفكر بعد الفكر في اقتصاص الأثر ، والآن إن شاء الله سأمدها بمدد ، من نفثات اللسان وقطرات المداد على تطاول المُدد ، كل ذلك لتقاضي دين وصالك واستطلاع أهلة إقبالك ، فإذا شاء الله ما شئنا أنا وأنت ، فسردك إلينا على أحسن ما كنا وكنت ، وما

أنا من أن يجمع الله بيننا كأحسن ما كنا عليه بآيس :
يظنان كل الظن أن لا تلاقيا ... وقد يجمع الله الشتاتين بعد ما ثم إني
أذكرك وإن كنت غير ناس ، أن هذا عصر تألف الأجناس ، فكل شكل قد
انضم إلى شكله وكل فرع فها هو قد أوى إلى كنف أصله ، وفي النفس
زيادةٌ على هذا ، كلام لو بثثتكه شفاها ، لعددت ترك استنهاضي لك
سفاها ، لكن لا يليق بي إلا طي نشره ، واصطيان لبه تحت قشره ، هذا
وأما تلك الكلمة البشيعة فمما أنزهك إن تصغى لمثله ، أو يخدم طرسك
بنانك في تبليغه ونقله ، والذي صدر مني ما قلت حين عزم أنَدْبَرْ
المصطفى على التجهيز فعاتبه بعض أحبته في الانفصال عنا وأعتذر بأن
مقامه هنالك إنما هو عن رأي مني فسألني المعاتب عن أصل هذا الكلمة
فقلت له حاشا فإني منذ فرقت منزل والده بحيال منزل والدي ما نحيته
ولا عقدت عقدا بإخراجه عن جواري بل ولا بإخراج جار لي أصيل
الجوار ممن سواه ، وإنما وقعت الفرقة من بعضهم عن غير مشورة مني
فما عدا أمري أن سكت واطمأننت رفقا بهم وتحاميا عما عسى يغير
خواطرهم لو أظهرت الإنكار هذا إن شاء الله أو نحوه أو دونه ، ومنذ
عزم الإقامة معنا لم تزل تواتر إرسالاتي إليك بأني لست الآمر بفراقك
وما هو إلا أن قوّلت ما لم أقل فبينت ما هو الحق ، ثم بدا لي أنك غائب
ولم تصادفك رسلي وأما غيره من أولئك الجيران فما علمت أني عزمت
على واحد منهم بالإنتقال عنك ولا أشرت به عليه ، وإنما الواقع فيما
بيني وبينهم أني كلما لقيتهم أظهرت لهم فرط الحنين إلي لقياهم ، ثم منهم
من أعاتبه علي ترك المزاورة والمراسلة ، نعم لما علمت منهم العزم
على الرجوع سكت عنهم كسكوتي عنه أولا حين المزايلة ، وأما الأمر
فلا . والسلام على أهل السلام فليكن علينا وعليك . إهـ . ولم يقدر الله
جوارهما بعد حتى مات ونقل الشيخ الخضر ذريته إليه . أما بنوا سيدي
بو بكر بن القاري : فجلهم علماء وقل منهم من لم يكن من العلماء
الأعلام ، سمعت عن بعض شيوخ بلدهم أنه قال : في بعض أعيان
علمائهم من النوادر ما اتفق لفلان وفلان من ذرية هذا الشيخ ، وهو أن
يكون الرجل من أعيان العلماء وأبوه وجده كذلك ، وترى منهم إخوة
أشقاء كلهم عالم وكلهم يحفظ القرآن عن ظهر غيب ويكون أولادهم
وأولاد أولادهم على نحو آبائهم وأجدادهم حتى صاروا كالحلقة المفرغة
لا يدرى أين طرفاها ، وكانوا على هذا الوصف مدة قرنين أو أكثر ،
وفي أوائل القرن الرابع عشر ظهر فيهم الشيخ القطب الجامع بين
الشريعة الحقيقة حماد بن مُحمدْ بضم الميم والدال ابن مَحمدْ بفتح الميم

وسكون الدال ابن سيدي بو بكر ففاض نوره وبركاته على جميع أهل البلد عموما وعلى حيه خصوصا ففاقوا في الفضائل والعلوم من كان مساويا لهم قبل وكثر فيهم النظام والنثار لكن لم يزالوا على طريق علماء الصحراء من عدم الاعتناء بالتدوينات ، وكثير منهم فاق كثيرا من المصنفين في فنون العلم لكن لا ينثر ولا ينظم تورعا من أن يسند إليه شيء ، ومنهم من يعرض عليه أصحابه أشعارهم لينظر فيها نظر الناقد ويصحح ما يحتاج إلى التصحيح فيغير منها ما لا يرتضيه ويعمل في المنثورات كذلك لكنه لا يؤلف بين كلمتين وإذا احتاج إلى الإرسال في بعض حاجاته أمر من تلامذته وإخوانه من يكتب له ما أراد وكانت تلك السيرة هي الغالبة في علماء حيه قديما ولذلك لا يقدر أحد على ترجمة الكثيرين ممن يستحقون أن يخلد ذكرهم وتدون فيه الدواوين ، ولا أظن المترجمين منهم يبلغون عشر من لم أقف له على أثر أعتمده في ترجمته لا من جهة التصنيف ولا من جهة من يأخذون عنهم من التلاميذ ، ومن الأسباب المؤثرة في ذلك أن طريقهم في التصنيف كما تقدم ، وأما التلمذة فلم يسلكوا فيها طريقا يشتهر بها الشيخ ولا من يأخذ عنه فإنهم لا يرحلون إلى الخارج في طلب العلم ، بل الغالب منهم أن يأخذ المرء عن أبيه أو أخيه أو عمه أو بعض عشيرته ، بذلك جرت عادتهم منذ قرنين أو قرون ، وشذ منهم أفراد ارتحلوا إلى بعض إخوانهم الأقربين نسبا ووطنا فتعلموا منهم فكان ذلك معينا لمن يترجمهم على الكلام فيهم .

***

أول من علمته منهم رحل في طلب العلم جدهم سيدي بو بكر فقد اشتهر أنه سمع بفقاهة محمد المصطفى جد أهل تِكِرَيْنْ فرحل إليه ليأخذ عنه الفقه فلما أتاه تلقاه بالبشر والتكريم والتعظيم فبات عنده ضيفا ، فلما جنّ الليل ونام الناس رأى الضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وناوله قدحا من لبن وجعل يشربه حتى روي فاستيقظ وفي فمه آخر جرعة من ذلك اللبن فناداه مضيفه وقال له يا فتى ابتلع ما في شدقيك ، ثم ارجع إلى أهلك فقد تم مرادك . وحدثني بعض أولاده وهو الشيخ حَبَّ بن محمد أحمد أنه أخذ عن أسلافه أن هذا الجد ما غاب عن حيه إلا مرتين : أحدهما هذه المرة التي رحل فيها لأخذ الفقه فحصل مراده من غير الطريق المعتاد . الثانية : أنه سمع عن بعض أقرانه من حي أهل كُنْهَانْ أنه يفتخر بمعرفة علم النحو ويتعزز بأنه يغلب فيه كل من ناظره حتى تخيل أن لا مساوي له من أقرانه فرحل إليه ليناظره فاجتمع معه وناظره وغلبه فرجع ولم يطلب في تلك السفرة إلا غلبة ذلك المفتخر ،

ولم أر له شيئا من التصنيف ، ولم أقف على ميلاده ولا وفاته ولكن وقفت على ما يفيد أنه معاصر لأشياخ كانوا في وسط القرن الثاني عش الهجري ، منهم جدي مَحمد بفتح الميم ابن هَمَّاهَمَّا فقد اشتهر من أمره مع أخيه هذا المترجم أنهما ليسا في وطن واحد وكانا في زمن تكثر فيه الغارات وكان محمد مما يلي بلاد المكثرين للإغارات فإذا سمع أن العدو عازمون على الغزو تبين وتبين له أنهم دخلوا البلاد ركب بنفسه وأنذر أخاه المترجم فصار لا يتهيا للفرار من الأعداء وإن فر جيرانه وأهل وطنه إلا بإنذار أخيه مَحمد الذي التزم أنه كلما سمع بخبر العدو وأيقنه أنذره ليهيئ ما ينجيه منهم . وأتحقق أن محمد هذا مات عام خمس ومائتين وألف 1205هـ . ومن المعاصرين له ممن يتحقق أنهم من اواخر القرن الثاني عشر وأدركوا أوائل الذي بعده الشيخ المختار الكنتي فقد ذكر حماد في قصيدة واجه بها الشيخ بَايْ أن جديهما جرت بينهما عهود وثيقة فقال :

وبين جي سيدي بو بكر ... عهد بناه الشيخ ما بينه

وأولاد الشيخ سيدي بو بكر المباشرين بلغني أنهم علماء عاملون أهل كرامات ، ولم أقف على شيء من آثارهم العلمية .

***

وابنه مَحمد بفتح الميم جد الشيخ حماد وهو الذي انتشر فضله وكراماته في الأفاق . ترجمه الشيخ الخضر بن الشيخ حماد في كتابه " التبر التالد في مناقب الشيخ الوالد " وعقد فيه فصلا يتكلم فيه على أعيان عشيرته وذكر في ترجمته أنه معاصر للحاج عمر الفوتي الثائر في القرن الثالث عشر ، وكان له عارفة مع بعض قواد جنوده تمكن به من أن يشفع عنده لبعض المسلمين الذين يغزونهم . قال ومن كراماته أن إمرءة من إمْغَادْ كانت تحسن إليه وتعتقد فيه الخير ، راودته يوما على أن يضمن لها أن تحسن عاقبتها فأبى من ذلك الضمان وألحت عليه حتى قال لها أفعلُ بشرط أن لا تطلبي مني أمرا دنيويا بعد فالتزمت له ذلك ، وفي بعض الأيام فزعت فاستغاثت به وقضيت حاجتها ثم تذكرت الشرط فندمت وقالت له فعلت ما فعلت ولكن أريد أن لا يغير ضمانك لي فقال لها الحمد لله الذي أنقذني من الورطة التي وقعتني فيها والآن لا أعود إلى ذلك الضمان . وقال أيضا بلغني أن بعض المعتقدين فيه أهدى له جاما كبيرا في بلد بعيد وأخبره بذلك فحضر الجام بين يديه من غير حامل يرى . ووقائعه في هذا الباب كثيرة . ومن أجل كراماته أن أولاده كلهم علماء عاملون أسخياء يحفظون القرآن ويأتون في تلاوته بالغرائب ، منهم من

يختمه في اليوم أكثر من مرة ، ومنهم من لا يزال حالا مرتحلا في التلاوة لا يفتر عن القراءة ليلا ولا نهارا . وأما الآخذون عنه فلم أقف على أثر من يقوم بتعيينهم ، وكذلك شيوخه إلا أني وقفت بخط عم جدي َحمد ألاغْ المعروف باسم آلاَّ أنه أجازه برواية صحيح البخاري وكتب له سلسلة شيوخه إلى صاحب الصحيح . ورأيت بخط الشيخ الخضر أن له قصيدة لامية يحض فيها على تكثير الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما رآها ابن عمه أحمد بن مَحمد إكْنَنْ أنشد أخرى على بحرها ورويها ممتثلا فيها ما أمر به من الصلاة ، وكلتا القصيدتين في " التبر التالد " من أراد أن يقف عليهما فليرجع إلى كلام مؤلفه على آبائه .

***

38 ـــ ترجمة مُحمد بضم الميم ابن مَحمد ــ بفتحها ــ ويعرف بلقب " حَـامَّ " :

هو من أشهر علماء البلد في القرن الثالث عشر الهجري وهو الذي انتهت إليه رياسة قومه في العلوم الشرعية وفي القيام بأمور جماعته ، وكان معظما في الصدور ولا فرق في تعظيمه بين السلاطين والجبابرة وبين غيرهم ، وله كثير من القصائد في موضوعات شتى من المديح النبوي والدعاء في المهمات وقد جرب في وقته وبعده أن من الدعاء المستجاب دعواته في قصائده ، وكان يأتي فيها بأنواع من الدعاء لا تخطر على البال إلا لمثله . ومن قصائده المشهورة والمجرب قضاء الحوائج عند قراءتها التي أولها :

تبارك الله وا غوثاه غوثاه ... حصنني الحصين إذا ما السوء أخشاه

والتي أولها :

فلا حول إلا برب العلي ... إذا ما ألمّ وعمّ البلا

رحيما بنا محسنا مفضلا ... فرب العلي دائما لم يزل

ويعطي المؤمّل ما أملا ... يدافع عنا برحمته

والتي أولها :

أدعو لها ، وإليك منك منجانا ... إياك يا مالكي إذ منك حمانا

وله قصيدة في الوعظ والإرشاد أولها :

وراقبوا الله في سر وإعلان ... غضوا عيونكم يا حزب إخوان

وقد شرحها شيخنا المفسر محمد الصالح بن محمد ميدِ شرحا واسعا سماه " مسلك الذاهب ومرتع الراغب " وله قصيدة في مدح شيخه حَنَّ بن أمَتَّال والإنكار على إخوان له انتقلوا عن البلد الذي فيه إلى بلاد أرَبَنْدَ وأولها :

إلى منزل يأباه أسلافنا الكيسي ... ألا لا تروا ما ذا كم الرأي هجرة

وقد اتفقت كلمة معاصريه ومجاوريه على تقديمه في الفضائل والإقرار له بالسبق منهم الشيخ الأنصاري اليعقوبي سيدي محمد والد التقي النقي هاني من أهل تِنَقَّسَا فإنه خاطبه بقوله :

تسمى بها لفظا وأحرزها معنى ... إلى لى سيدي مني السلام سيادة
ويعلو عن أن يهدى إلى غيره ، مغنى ... سلاما يليق بارتفاع مكانه

مر إلى أن قال :

فمن تُقص نُقصِه ومن تُدنه يدنى ... وهل أنت إلا سيد عمّ نفعه
صوابا فخطاناك في الأمر ، أخطأنا ... وإن كان أمر في الأمور أتيتَه
وغيث به تجبى الرغائب أو تجنى ... فأنت غياث العالمين وغوثهم
أظلت ويستشفى به الداء إن عنا ... وكهف به تكفى المكاره كلما
وإلا فمن يعرى لذلك أو يعنى ... فسكن نوائر الزمان وقم بها
وإن نمتم عنا ولو ساعة ضعْنا ... وأنتم رعاة الكون سرا أو جهرة

انتهى ما وقفت عليه من القصيدة في تأليف الشيخ الخضر بن الشيخ حماد ناقلا له من خط شيخه محمد بن محمد محمود وكلاهما ثقة عدل رضى فنقلهما لا شك فيه كما لا شك في أن هذا الشاعر ما أخبر عن شيء من أخبار الشيخ عن ظن وتخمين ، بل عن بصيرة ويقين . ورأيت من إخواني المعاصرين من عقد له ترجمة واسعة لكن اخترت عليها شهادة هذا الشاعر لأنه عاصر الشيخ الذي يخاطبه وصاحبه وأحاط علما بكثير من شمائله . ولم يرحل في طلب العلم بل أخذ العلوم الشرعية عن شيوخ حيه وأخذ ورد القادرية عن الشيخ حَنّْ بن أمَّتَّالْ الأنصاري وهو أخذه عن الشيخ سيدي المختار بن أحمد الكنتي ، ثم صار شيخا في القادرية ، وأخذها عنه قومه وأكبر الآخذين عنه أخوه نوح بن محمد وهو الذي خلفه في إعطاء الورد القادري وعن الشيخ نوح أخذها شيخ الشيوخ حماد بن محمدُ الذي صار شيخا مربيا لجميع من يتأهل لذلك في البلاد القريبة منه والبعيدة . وأما ولادة الشيخ المترجم ففي أوائل القرن الثالث عشر تقريبا ووفاته في أوائل الذي بعده ، ولم أطلع على تعيين يومها لكن اطلعت على ما يفيدأنه حي عام عشر من القرن الرابع عشر ، وسمعت أنه عاش مائة ، وله أربعة من الإخوة سوى خليفته نوح ، وهم : محمد المعروف باسم أمَّ ، ومحمدُ والد الشيخ حماد ، ومحمد الصالح والد عمران وإخوته وهم : محمد آيَّ ومحمد أحمد وعيسى وأحمد المعروف باسم حَمَتَّ ، وجميع المذكورين من أولاد مَحمد ـ بفتح الميم ـ والد مُحمد ـ بضمها ـ وأولادهم من كبار العلماء على ما بلغني لكن لم أقف لهم على أثر منظوم

ولا منثـــــــــور إلا مـــــــــا ســـــــــاذكره .

39 ـــــ ترجمـــــة الـــــشيخ شـــعيب بـــن محمـــد :

مختصرة مما كتب في " التبر التالد " ولفظ ما فيه بحروفـه : (ومـنهم البدر الزاهر ، والبحر الزاخر ، والحبر المعدود فـي الأوائـل لا فـي الأواخر ، صاحب المآثر والمفاخر ، بل حقه أن يسمى مجمع البحـرين الأغزرين ، أو ثالث القمرين ، ورابع اللؤلؤ والمرجان واللجين ، الحائز بإحراز العلم مع العمل كلا المفاخرين ، ألا وهو شعيب بن مُحمـد ابـن سيد ، أرضاه الله كما نريد ، وأتانا وإياه الحسنى والمزيد . مر إلـى أن قال : أخذ الفنون عن أبيه مُحمدْ الملقب حَامَّ ، وما سمعته ارتحـل فـي طلب العلم لقريب من شيوخ البلد ولا نازح إلا ما كان من أمـر الـشيخ محمد الصالح المعروف باسم حَاي فإنه الذي آخذ عنـه التفسير بعـد ارتحاله إليه من مسافة يومين أو أكثر ، وسمعت أنه لمـا عـزم علـى التوجه إلى الشيخ حَاي للسماع منه أشرف على المكتبة وهو بمرئي مـن والده فأخذ بطرف الحبل المربوط في كتاب المحلي ليجذبه ففهم أبوه أنه أراد حضور المجلس التفسيري ، فقال إن كنت متى تجـاذبوا أطـراف مسألة نحوية أوردت نصها المحفوظ في محله من الألفية أو الفريـدة أو الكافية ، أو بيانية قرءت نصها من كتاب الجوهر المكنـون ، إن كـان متضمنا لها ، وإلا فتخلفك ها هنا أحب إلي من عار الافتضاح بين الناس فأخذ صاحب الترجمة الكتاب وشرع في السفر لعلمه أن الـشرط الـذي شرطه أبوه هين عليه ولم ينطق ببنت شفة ، ثم لما حضر المجلـس لـم يفارق الشيخ حَاي حتى أخذ عنه التفسير كله ، وكان في مدة إقامته عنده مشتغلا بخدمة الدرس قائما بحفظ الرواية واستكمال الدراية أحسن قيام . وشاع في الناس أن التفسير في ذلك العام ما وفى بحقه إلا هو والأكفـؤه عبد الرحمن بن الميمون . مر إلى أن قال : الآخذون عنه منهم الأسـتاذ محمدْ بن محمد محمود ، ثم شيخي السعيد بن محمد الأمين ، والـسيدان الجليلان محمدُ بضم الدال ابن محمد محمود ، ومُحمدْ بن نوح ، والعلامة الموفق بن المصطفى ، والإمامان المبجلان محمد أحمد بن محمد الصالح وأخوه عمران ، ومحمد المعروف باسم آيَّ ، والأستاذان الكريمان محمود بن محمد الصالح وسعد الدين بن عُمار ، وجل أقرانهم من حينـا ومـن حيهم بل سائر الأحياء المجاورين له ، وكان الشيخ يعظمه جدا ويكرمـه غاية كما هو عادته مع الأفاضل ، وينزله من نفسه منزلة الكتـف مـن الكاهل . مر إلى أن قال : وكانت له آثار علمية نظما وخطا ، كتب بيده المباركة نسخا عديدة متفرقة من أهمها : تفسير الجلالين خطـه مـرتين

أولاهما حصلها بعد الجدوالين وبعد إتمامها حمـرة وسـوادا وتطريـرا ومقابلتها تصحيحا وتوفيرا ، تسلط عليها أكف الأعداء ، من سكان البرار والبواد، فصبر على تلك البلية الكبرى ، وشمر على ساق الجد حتى جدد كتْبه مرة أخرى وزاد على الأجر الأول أجرا ، عسى أن يكون له ذخرا . ومما كتبه ولا أكاد أحصيه : الجزء الأول من صحيح البخاري قد أجاد خطه وهو الآن عام ألف وثلاث مائة وسبعة وتسعين 1397هـ بأيـدينا على حسنه ورونقه الأول ، وعليه في تصحيح النسخ المكتوبة بعـده المعول . وأما نظمه ففي غاية من السهولة والعذوبة قلما يستعصي منـه شيء على الأذهان ، جامع مع السلاسة ، حسن الوصف وجودة السبك ونصاعة المعاني على وجه يستثير الطرب ، وتستحليه النفوس استحلاء شهي الضرب ، والقرائن دالة على أنه له ملكة الاقتدار على النثر كالنظم لكن لم يصرف له الهمه ولا يجوم حوله إلا بقد لمه . ثم قال : وله مـع الشيخ مساجلات شعرية تنبئ عما له من صفاء القوة الفكريه ، وما للشيخ من غزارة العلم وفيوضاته الغيبية السريه ، فما أميلحها من شذور تزري بالعقود الدريه ، وإن كادت لتفعل بالألباب ما تفعله الرشفات الخمريه ، أو النفاثات السحريه . ثم جاء بالقصائد التي جرت بينهما وهي طوال من اشـتاق إلـى الاطـلاع عليهـا فعليـه بكتـاب " التبـر التالـد " .

40 ـــ ترجمة الشيخ محمد بن محمد محمود : (نص ما في " التبـر التالد " أوله ومنهم الهلال ابن الهلا اللامع ، والزلال ابن الرهام الهامع ، والضياء ابن الفجر الصادق الساطع ، الغاض في العلوم بضرس قاطع ، والسابق في ميدان الدرس والتدريس بلا منازع ، ولا مدافع ، وهو الشيخ محمد بن محمد محمود : صاحب المقام المحسود ، والكمال المـشهود ، غير المجحود . مر إلى أن قال : نشأ بين علماء أجلة من أعمام ، وبني أعمام فأخذ عنهم لا يحتاج إلى نصب الأدلة ، ولم يرتحـل إلـى الـشقة البعيدة للتعلم لكن عنى بتفتيش الكتب والتدبر ، فرحل إلى إكلاد من ذلك الباب . ومما يحكى عنه أنه قال : لو جعلت كل قرطاسة من قـراطيس كتب حينا في غير محلها لأعدتها في موضعها . لعله يشير إلـى أنهـا يعرفها بعينها . وله قلم في قيد العلم جار وصيته في حفظ ما يقـرءه أو يكتبه سار ، ومما كتبه بيده شرح ألفية المعاني ، نسأل الله أن يوصله في دار الجزاء إلى غاية الأماني . شيوخه : أخذ التفسير عن الشيخ محمـد الصالح بن محمد بن ميدِ إلا حزبين أو ثلاثة من أوله أخذها عـن أبنـه الشيخ إسماعيل . مر إلى أن قال : وممن استمد منهم فقها محمد أحمدُ بن الصالح الكنتي السوقي مكث عنده مدة للتفقه بعد تضلعه من علوم الآلات

. يروى أنهما لما فرغا من صلاة العشاء ليلة من ليالي إقامته عنده شرع مُحمدُ يقرأ عليه من أشاعر العرب ما يستحسن في المحاضرات من الحكم حتى جنّ الليل عليهما فجعل محمد أحمدُ يسمعه من أشعار المحاضرات إلى وقت السحر ويقول له أتعرف هذا البيت ولمن هو ؟ فتعجب السامعون من حفظهما . إلى أن قال : وغد تولى التدريس في حيه سنين يستخرج لهم في العربية السر المكين ، وملأ الأسماع من تفسير المنزل وما سمي المفسر إلا بعد الاستحقاق لأن المشائخ الثقات الذين يدعونه بالمفسر لا يسمون به أحدا ما لم يجمع بين فهم التفسير من جهة السنة وبين تضلعه في فهم مسالك أهل اللغة مستمكا برواية شيخه فإن زاد على الرواية بكثرة الاطلاع والمدد الوهبي فهو المفسر عندهم وهذا قليل من ترجمة الشيخ الفتي بن محمد أحمدُ له وقد رضيها صاحب " التبر التالد " الذي أمره بوضعها وضمنها كتابه وهي طويلة . وترجمه أيضا ابن أخته الشيخ محمدُ بضم الدال دائما ابن محمد الصالح المعروف باسم تَانْ ــ بفتح النون ــ ترجمة طويلة عبر فيها عن أحواله بعبارات رائقة رشيقة ، يطول الكلام بجلبها فاكتفيت بوجودها في كتاب " التبر التالد "

ومما قاله فيه بعد كثير من الثناء ما لفظه : أخبرني غير ما مرة شيخي محمود بن محمد الصالح أنه رأى كثيرا من العلماء ومارس من فحولهم ما شاء الله في طول الأرض وعرضها وجاذب الجل أطراف الحديث في الفنون بأسرها ، وفاوضهم في منظومها ونثرها ، فلم تر عينه مثل الشيخ المفسر محمد الصالح بن محمد بن ميدِ والشيخ شعيب بن محمد والشيخ محمد بن محمد محمود ، ثم يقول هؤلاء الوعول الثلاثة لم يرتق في زمنهم قنة نيقهم لا رابع ولا خامس ، وهذا شيخ شيوخنا سعد الدين بن عمر كثيرا ما أسمعه في إشادة ذكره بأنافة قدره ، وإعلاء منارة فخره ، وهذا الشيخ إسماعيل بن الشيخ المفسر محمد الصالح فقد أثنى عليه في غير ما مجلس وأقر له بالسبق في ملا وخلا وعنونه بذلك في كتابه " الدرر الثّمَان في شرافة الغر الثّمان " وحسبك بهذه الثلاثة المهرة بالقرآن وعلومه وهم الخيرة البررة المشهود لهم بالسبق في مضمار اللسان ، وميدان البيان ، وطهارة الجنان ، وطاعة الأركان ، فلك فيهم أسوة حسنة ولم يتخلف عنهم في ذلك أحد نعلمه . أما شيوخه قبل شموخه وبلوغه أشده فأعمامه الذين يلتقي بهم في الجد الثالث وهم : شعيب بن محمد والشيخان الأغران عمران ومحمد آيَّ أبنامحمد الصالح والشيخ الرباني عَبُّ بن موسى ، والشيخ أحمد باب بن حامَّدْ وأضرابهم وكانوا إذ ذاك

لطوائف العلماء في هذه البلاد هم الإيمة السادة القاده ، ومحك الأذهان والوقادة مر إلى أن قال : وأما تلامذته والمستمدون من أمداده فد بي دبي ، وآيتهم أنهم مصابيح أحلاك الجهل والغي ، ومفاتيح اللثغة والعي من كل حي ، وليس فيهم عيي ولا غبي ولا هبي ابن بي . أما خطه : التصنيف والتأليف فهي ولا ريب ألف سليقته وحلف قريحته وطوع يد فكرته لكنه مغلوب عليها ومشغول عنها بما دفع إليه من شئون الحضرة وفنون الخصوصية ، وآداب الإرادة وشروط التلمذة . مر إلى أن قال : وله قصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم مرتبة على حروف المعجم ، وأخرى غيرها كثيرة وقصائد في الاستسقاء مجربة لنزول الأمطار واستدفاع البلاء والأعداء واستكشاف ما نزل منه . ثم ذكر ما جرى بينه وبين الشيخ حماد من القصائد . والترجمة المطولة مسرودة في " التبر التالد " .

***

41 ـ ترجمة موسى بن محمد محمود : ملخصة من " التبر التالد " ولفظه :

(ومنهم اللوذعي الحاذق ، الماهر السابق ، موسى بن محمد محمود وهو شقيق الشيخ محمد المشهور ، وكان مشاركا له فيما أحرز من الفنون في وقت الصبا والشباب ، ويرى بعض الناس أنه لو عاش إلى الكهولة لكان له من الذكر مثل ما له ، وبحسب المرء فضيلة أن يقرن مع الشيخ محمد في العلم ، وكان من الماهرين بالقرآن ومن السابقين في علم النحو وغيره مما يقرأ الشباب ، ومات قبل بلوغ سن الكهولة فلم تكن له تلاميذ كما كانت لأقرانه لذين عاشوا بعده مرإلى أن قال : ومما يشهد له بالصلاح وحسن المحال ، منام شيخنا رضي الله عنه الذي رأى فيه والد موسى في الجنة ، وله دار في غاية الحسن إلا الركن الرابع من أركانها فسأله الشيخ عن سبب ذلك فقال له إن أولادي كلهم حفظوا القرآن وأتقنوه إلا محمدُ ـ بضم الدال ـ وكان الحفاظ الذين تزينت أركانهم محمدْ ـ بسكون الدال ـ ومحمد أحمد المعروف باسم آيّدْ وموسى صاحب الترجمة فلما انتبه الشيخ دعا محمدُ ـ بضم الدال ـ وقال له لا بد لك أن تشتغل بحفظ القرآن حتى تستوي أركان الدار ، فأقبل محمدُ على الاشتغال بحفظ القرآن حتى ختمه وجاء شهر رمضان فصلى فيه التراويح بنفسه حتى ختم القرآن في الصلاة ورآه ظهره فناداه الشيخ عند

انسلاخ الشهر فقال هل المراد ، فظن أنه إنما سأله عن أمر ضيوف يستخدمه في ضيافتهم فأجابه على حسب ظنه بأن قال له لا ، قال له الشيخ إنما أسألك عن أمر الدار التي أخبرتك بها وأمرتك بإتمام حظك منها ، فقال له محمدُ قد ختمت القرآن في صلاة التراويح من هذا الشهر فقال له الشيخ إني ما سألتك عن جهل فقد تجددت لي رؤية تلك الدار ورأيت أركانها سواء فعلمت أنك أتممت الحفظ أو كما قال . والقصة بشارة مشتركة ينبغي أن تثبت في ترجمة كل من الإخوة الأربعة وفي ترجمة والدهم . مر إلى أن قال : وكان برارا رحيما بالناس وصولا للرحم هشاشا بشاشا مولعا بالمطالعة وملازمة القراءة والعبادة حتى توفي عام ألف وثلاث مائة وأربعة وأربعين 1344هـ ولم يترك ولدا رحمة الله عليه . إهـ المراد مما كتبه . قلت والإخوان اللذين لم يترجمهما صاحب " التبر التالد " لعدم جريان المخاطبات الشعرية بينهما وبين والده وذلك هو السبب في إهماله ذكر كثير من علماء حيه الذين يفوقون كثيرا من الناظمين والناثرين ويستحقون أن يخلد ذكرهم بالكتابة فيهم وعنهم .

42 ـــ ترجمة الموفق بن المصطفى بن الصالح :

هو العالم العلامة ، المتقن الفهامة ، المشارك في العلوم الشرعية التي تقرأ في بلاده ، ولد في أرض تَبُورَقْ أو ما يقاربها في حي مشهور بالدؤب في التعلم والدراسات والمذاكرات والإعراض عن كل ما يشتغل عن ذلك والإقبال على ما يسعدهم في الدارين من الذكر والتذكير والقناعة والغنى بما في أيديهم عن الناس ، فأخذ عن مشائخ حيه من العلوم ما أغناه عن الرحلة في الطلب إلى بلد آخر أو قوم آخرين فنشأ تضلعا في علوم العربية من النحو والبيان وهو في سن الشباب ونظم بعض الشعر ثم ظهر أمر الشيخ حماد فكان من السابقين إلى تلمذته والدخول في حوزته وهو شاب ولكنه يعد مع الكمل الكبار وما زال يترقى في مراقي أهل الكمال حتى توفي وهو ابن نيف وستين عاما تقريبا . أخذ الفقه والتفسير عن ابن عمه محمد بن محمد محمود ، وأخذ تلخيص المفتاح عن ابن عمه شعيب بن محمد ، وهكذا أخذه للعلوم لم يزل في أهل بيته من تؤخذ عنه الفنون العلمية إما من كان مشهورا بالبراعة في فن أو فنين وإما من كان مشاركا في الفنون كلها والعادة أن كل عالم منهم يحرص على تعليم قرابته مجانا إحسانا إليهم وطلبا للأجر من الله فكان كل متعلم يأخذ عن كل معلم كحالة السلف قلما ينفرد واحد منهم بأخذ الفنون عن شيخ معين ولذلك تعذر تعيين الشيخ الذي يأخذ عنه بعضهم وتعذر إحصاء الآخذين عن الشيوخ ، ولما برع في العلوم واستغنى عن

المعلمين بما روى عنهم وبما أوتي من الفهوم ، حبس نفسه في خدمة العلم بالتدريس والحرص على التعليم وكتابة النسخ من الكتب المقررة للتدريس من سائر الفنون فكتب بيده كثيرا من كتب النحو واللغة والبيان ثم ختم أعماله بخدمة الكتاب العزيز فكتب بيده الشريفة تفسير الجلالين ، ثم بذل الجهد في تصحيحه حتى أدرك المنى من ذلك ، ثم اشتغل بتطريره وتحشيته إلى أن أخرج نسخة منمقة يعجب بها الناظر ويستفيد منها كل عالم ماهر ولا تتعزز على المبتدئين بل ينتفع بها كل مطلع عليها من ذوي البداية وأهل النهاية ، أقبل على نشر العلم والعمل بما علم ، وكان حييا حليما وقورا مهيبا سكيتا معرضا عن اللغو قل من يكلمه إلا فيما يتعلق بالعلم أو بضرورياته الدنيوية ، ولا يلتفت إلى من لا يذاكره في العلم بل كان كماا قال بعض الحكماء " لا تصحبن من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله" وكان شديد الحرص على إفادة من يرى منه قابلية أخذ العلم فلا ينتظر من يطلب الأخذ منه بل هو الذي يدعو من يتفرس منه القابلية للأخذ عنه ثم يصبر على القاء الدروس إليهم ابتغاء مرضاة الله لا لطلب شيء دنيوي وكان ذلك دأبه حتى مات ووفاته عام ألف وثلاث مائة وسبعين 1370هـ . وما كتبته من ترجمته م ــــــ

ترجمة الشيخ محمد بن نوح ويعرف باسم مَهَامَ : مختصرة مما في " التبر التالد " ، ونص ما فيه : (ومنهم صاحب المناقب الجليله ، والمآثر الجميله ، المنعوت بالأوصاف الحميده ، والمزايا العديده ، شاعر العلماء ، وعالم الشعراء ، المعدود من أكابر الأكبار ، ووارث العز والمجادة كابرا عن كابر ، الأ وهو محمد بن نوح أرضاه الله وإيانا بفضله الممنوح ، كان رحمه الله ماهرا في الفنون ، مفتوحا عليه في حل معضلات الشروح والمتون ، خاضعة لمطرقة فكره الإشكالات المقلقه ، إذ بها تستلان مثل الحديد بالنار المحرقه ، فنظره سديد ، وشأوه في العلم بعيد ، وباعه فسيح مديد ، فلو رأيته حين يزال الإشكال ، ليفتح عنه غلق الإقفال ، لشهدته له بالنجابة وتقديمه فيها على الأشكال . مر إلى أن قال : وأما حرصه على التعلم والتعليم فحدث عن البحر ولا حرج ، بلغ فيه الغاية ، فما أحراه أن يخص بحمل الرايه ، فكم ظل سحابة يومه يعاني المطالعة والكتابة ، وكم بات مثل ما يظل مستصحبا دواته وكتابه ، فلا يفصله عن أحدهما إلا ما يفصل الإبهام عن السبابة ، أما نهاره فجعله تكرير ، أو نسخ أو تقرير ، وأما الليل فيستعين فيه بالسراج ، يشتريه إن قدر ولو غلا ثمنه وراج ، فشئونه في التعلم على نحو ما قال القائل : ، ،

وثم إذا أصبحت أصبحت غادياددجج ... أراني إذا ما بت بت على هوى
ولما ابتلي بالإفتاء والتدريس ، خاطب نفسه بلسان الحال قائلا :
لا تنعمي الليلة بالتعريس ... أحدى لياليك فهيس هيس فترقى في الجدإلى
مرتبة ثانية فما هو إلا أن ودع الراحة وتركها جانبا ، فلم يتخذ إلا
الصدق في المطالعة صاحبا ، فجمع ما عنده من نصوص المذهب ، ثم
أضاف إليه ما في الهوامش والطرر مع العناية بكتب النوازل فجعل
الجميع نصب عينيه ، مكبا عليه بكلكله وبكلتا يديه بحيث لا يترك تأملها
وتفيشها إلا في أوقات الضرور ، وما فعل إلا الابتغاء التمكن في ضبط
مذاهب الجمهور ، حتى لا يفوته اتباع المشهور ، لأن سيفه المشهور ،
وما سواه عنده مهجور أو كالمهجور ، وكان برا عفيفا نزيها نظيفا سهل
الخليقة لين العريكة من أشد الناس ورعا ، وأقلهم طبعا ، وأحرصهم على
الأمه ، وأشدهم بها رأفة ورحمة ، وأغضهم للأبصار ، وأحفظهم لحرمة
الجار ، وأقواهم على صون الأسرار ، سيرته سيرة السلف الماضيه ،
وشيمته شيمة النفس المطمئنة الراضيه ، قد ضيق عليه الروع فلم يبق له
في فضاء الدنيا متسع ، لا يكاد يسرد الكلام خوفا من الوقوع في غيبه .
انتهى المراد من كلامه وقد أقطنب في الثناء عليه ووصفه بصفات الكمال
بعبارات رائقة وقد سبق أن أمرني صاحب " التبر التالد " بعقد ترجمة له
ففعلت وعرضتها عليه فرضيها وضمنها كتابه المذكور فألخص يسيرا
منها هنا : وأول ما قلت أو كتبته في ترجمته : هو العلامة الفهامة
الدراكة وهو ابن عم الشيخ حماد الأدنى ، مولده عام ألف وثلاث مائة
وسبعة أو ثمانية أو تسعة 1309هـ ولد في أهل بيت مشهورين بالعلم
والولاية والكرم وخصال الكمال ، وكان في ذروة من كلا الطرفين
الأعمام والأخوال ، فنشأ أولا في تربية والد ولي مشهود له بالسبق في
العلم والعمل والكرم فأخذ عنه ما تحتمله قابلية الصغير من العلوم
والآداب وحسن الشيم ، ثم فارقه فجعل يأخذ عن بني عمه الذين كانوا
أكبر منه سنا ، فأخذ عن شعيب بن محمد ، وعن بني عمه محمد الصالح
وهو محمد المعروف باسم آيَّ وإخوته ، وأخذ عن محمد بن محمد
محمود ، وعن ابن عمه السعيد بن محمد الأمين ، وعن كثيرين ممن
يستحق أن يؤخذ عنه العلم ، فأخذ عن هؤلاء النحو فأحسنه والتصريف
فأتقنه واللغة والبيان والفقه والحساب فعن قريب صار إليه المرجع
والمآب ، ثم أخذ التفسير عن الشيخ المنتدب لذلك في حيه وهو محمد بن
محمد محمود ، وحضر مجلسه أيضا على إسماعيل بن محمد الصالح ،
وعلى سعد الدين بن عُمار وهما من إخوانهم أهل تَكَلَّتْ اشتغل بعلم

الحديث واشترى نسخة من فتح الباري ولم تكن في بلده أولا فاعتنى بها مطالعة وتحقيقا حتى رآها ، وله حظ وافر من علوم القوم وآداب التصوف ، وكان من السابقين في إرادة ابن عمه الشيخ حماد ، وممن يشهد لهم الشيخ بالبر والوفاء . وأما تلامذته : فلا يحصون لأنه لم يزل من صباه إلى الكهولة إلى الشيخوخة مدرسا في جميع الفنون ، فكان أهل حيه جميعا من تلامذته ، وله تلاميذ في قبائل أهل العلم الذين يفد عليهم فيما بين بلاد النيجر وبلاد تِنْبَكْتُ برا وبحرا ويمينا وشمالا ، وكان مواظبا على المطالعة والكتابة ونقل العلوم عن كل من رآه ممن يتأهل للأخذ عنه فكان تلاميذه بواسطة قلمه أضعاف من أخذوا عنه بسماع من فمه ، ومن أشهر تلاميذه من حيه الشيخ المحمود بن الشيخ حماد وأخواه المنير والبشير ، وعيسى القاضي بن تَحَمَّد ، وحيّاي بن محمد أحمد ، ومحمد بن شعيب ، وحَبَّ بنْ محمد أحمد ، وعَنْ بن عمران ، وغيرهم من أهل طبقتهم ، وممن أدركه ممن بعدهم ، ومن غير حيهم محمدُ بن تَانَ وجماعة أخذوا عنه الفقه في مجلس حافل ، وأما من استفادوا من خطه فجميع أهل تُبُورَقْ و تَكَلَّتْ و تِكِرِتِنْ . وأما أخلاقه فمستمدة من الأخلاق النبوية من الحلم والكرم والسخاء ولشجاعة والزهد وغيرها كغض البصر عن المحارم وكثرة الصمت والذكر والاجتهاد فيما يصلح العامة والخاصة من جهة الدين ومن جهة الدنيا ، ولو تتبعت تفاصيل هذا الأجمال لضاق عنها الدفتر والديوان ، وحسبك ما ذكرت من أن أخلاقه مستمدة من الأخلاق النبوية لأنه كان متعتنيا بمعرفة سيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ومن بعدهم من أيمة الإسلام ، وكان كثير التلاوة للقرآن والتفكر فيه ، وكان عاملا بمعلوماته متى نقل شيئا من الفضائل حاول أن يعمل به فما ظنك بأداء الفرائض والسنن ، ومن زهده وورعه وبره بالجيران والإخوان أنه صار في حي من أولاد إخوته كلهم تلاميذه وأصغر منه سنا وكانت العادة الجارية في البلد أنه هو الذي يتولى أمورهم ويتصرف كيف شاء كما يتصرف الأمراء والرأساء ، ولكن خالف تلك العادة فقدمهم جميعا على نفسه مع قيامه بمصالحهم ، وما ذا إلا للمبالغة في البر والتواضع والزهد في المناصب ، ومن ثناء أكابر الشيوخ عليه أن الشيخ المحمود بن محمد الصالح سمع من يبالغ في الثناء على والد المترجم حتى قال أن محمد ابنه الذي تمدحونه لم يبلغ إلى كعبه فقال له محمود ليس الأمر كما قلت فإن من يعد الصحابة حسبه أن يفوق محمد بن نوح بما فوق الأذن من الجممة ، وكان الشيخ سعد الدين بن عُمار يقول كثيرا دليل سبق محمد بن نوح على الأقران أن أول بيت

خاطبه به الشيخ هو الذي قاله فيه " وقد وصلت فدعني " وهي خصوصية له ما نالها أحد سواه ، وكذلك من سوى هذين من الشيوخ والتلاميذ و الأقران والأقارب ، والأجانب لا يذكرونه إلا بخير ، وكان من أهل الكرامات لكن همته في الاستقامة ومن خطه حفظت قول بعض السلف " الاستقامة خير من ألف كرامة " . توفي في شوال من عام ألف وثلاث مائة وثمانية وسبعين 1378هـ عن سبعين سنة تغمده الله برحمته وأعاد علينا من بركاته . اهـ ما أردت نقله هنا والترجمة المبسوطة موجودة في " التبر التالد " فينظر إليها من أراد .

***

44 ـ ترجمة محمدُ ـ بضم الدال دائما ـ ابن عبد الرحمن بن مُحمدُ ـ بضم الميم ـ المعروف باسم حَامّ :

كتب فيه صاحب " التبر التالد " ما نصه :

(نشأ في تربية عمه العلامة الفهامة شعيب بن محمد وأحسن تبيته وتعليمه فبرع في علم النحو وهو صغير السن ، فقرأ كافية ابن مالك بعد ألفيته ، وغيرها من صغار كتب النحو ، ثم شغف بقراءة الكافية والاعتناء بها وإذا حضر مجلس النحاة من قومه فلا يفتر عن الاستدلال بأبياتها ومسائلها في كل مناسبة ، ثم قرأ من الفقه ما يتعلق بقسم العبادات واعتنى بقراءة صحيح البخاري ولازمه حتى كأنه يحفظه ، ثم قذف نور التعلق بالمشائخ في قلبه فتعلق بابن عم أبيه الشيخ حماد وأنشأ شعرا يتضمن اتخاذه إياه شيخا واستمداده من أمداده الغزيرة فلامه بعض الناس في مخاطبته وهو صغير السن ومزاحمته للفحول في هذا المجال الذي لا يستحق الإجراء فيه إلا أكابر الرجال فلم يجب بشيء حتى أتاه الجواب من الشيخ وفي ضمنه تبشيره بالقبول والثناء على شعره بالفصاحة والبلاغة ففرح بذلك ، وأظهر عدم المبالاة بأقوال العذال والثبطين . ثم أطنب صاحب " التبر التالد " في ذكر أحواله مع شيخه وذكر سكره وصحوه . إلى أن قال : وأما رضاه بالقضاء فمن مقتضيات اتصافه بالمحبة لأن أنفة المحبة تستدعي من كل محب أن لا يتسخط لأجل فعل صدر من محبوبه وأن يفرح بما قضى به عليه ولو مرا كما يفرح بالأمور الملايمة لطبعه وهواه فلو رأيته حين يصاب بفادحة في النفس أو المال ، وسيرته حينذ أن يكثر الثناء على الله ويظهر العجز والافتقار مدّ ملا بالتوكل ، ومدثِرا بارضى والتسليم فلا يقول ولا يفعل إلا ما رضي

الرب ، وترى أنوار السكينة على جبينه ساطعة كالبروق اللامعة أو فوق البروق ، ولما مرض مرض الموت ظهر عليه من آثار الرضى والاطمئنان ما يقضي منه العجب ، من ذلك أنه هم بإنفاق بعض ماله فعارضه ابن عم أبيه محمد بن نوح ولم يسلم له ما أراد لأنه ما كان أهلا للتبرع حينئذ ، ولكن ما أظهر له العلة مخافة أن ينكسر خاطره ، فلما ألح عليه في الاستعجال بين له فقال أي ابن عبد الرحمن الحمد لله ، ولوائح الفرح والسرور لائحة عليه إذ ذاك لكون ما نزل به مراد الله تعالى ولأنه أمارة قرب اللقاء ولا شيء أجلب ممنه للسرور عند أهل المحبة وهذا أدل دليل على كماله في مقام التسليم والإذعان ، وعلى أنه منقطع إلى الله فلا حظ فيه لغير الله ومن ثم سماه الناس عبد الله وشهروه بهذا الاسم من بين الأسماء وما سماه به أب ولا أم ، وكفاه بهذا عزا ومفخرا كما قيل :

نعم ما أسمو به ذاك المسمى ... وأدعني غير دعي عبدها

وأخباره في اقتناء المكارم واجتناب الذائل والمحارم ، وفي الزهد والورع والتطور في أحوال الأولياء ومقاماتهم كثيرة لا يضبطها إلا ديوان حافل ، والوقت ضيق عن تتبعها وتفصيلها جزءية جزءية فلنقتنع بهذا القدر اليسير الحمد لله العلي الكبير ، ثم ذكر أول قصيدته للشيخ وهو :

وهل للشفا من السقام سبيل ... ألا ليت شعري هل يداوي العليل

وجواب الشيخ له بقصيدة أولها :

فصبح بليغ قدره لا يزول ... أتاني ولم أحسده شعر جميل

إلى آخرها . وبها أتم الترجمة ولم يذكر ميلاده ولا تلاميذه ولا وفاته ، أما الميلاد فلا أعرفه وأما الوفاة ففي عام ألف وثلاث مائة وستين 1360هـ وخلف بنين ثلاثة كلهم ماتوا ولم يترك ولدا . انتهى

ثم اعلم أن هؤلاء المترجمين كلهم من أبناء سيدي بو بكر وهم : ستة أولهم شعيب بن محمد وآخرهم ابن أخيه محمدُ ـ بضم الدال ـ ابن عبد الرحمن ، وإنما خصهم صاحب " التبر التالد " بالذكر لأن موضوع كتابه الإخبار عن أحوال الشيخ الوالد وما جرى بينه وبين مريديه ، فذكر من المريدين من خاطب الشيخ بشعر وأجابه بشعر آخر ، وذكر كثيرا من أهل حيه وترك كثيرا من العلماء الأجلة ممن لم يخاطبه بالشعر ، وممن ذكرهم ممن جرى منهم خطاب للشيخ وليس من بني جده سيدي بو بكر لكن يجتمع معهم في الجد الخامس أحمدَ بفتح الدال ابن المهدي ولفظ ما كتبه فيه هو :

ومنهم السيد الهمام ، الخضر الأريحي القمقام ، الصين الديّن الحائز لكل من الشرفين ، والآخذ بمجامع المجد من كلا الطرفين الهادي المهدي ،

أحمد بن المهدي : كان رضي الله عنه من العلماء الأعلام وسدنة المحابر والأقلام ، كثير الجد في تحصيل العلوم واستفادتها ، عامرا للأوقات في حفظها ونقلها وأفادتها ، ولما عزم على الإرادة قدم بين يدي نجواه قصيدة بث فيها شكواه ، لآئذا بالشيخ ومستشفعا به في دفع بلواه ، وبين مراده لكن لم يقدر للشيخ أن يجيبه مع تصميمه في العزم على إنشاء قصيدة يتحفهبها كما أتحف سائر المهدين للقصائد ، نعم أنشأ بيتا فذاماله ثاني ، وأنه لا ولج في المسامع من نغمات الأغاني ، بل ومن رنات المثاني ، وهو صارخ ملئ فيه بمقابلته له بالترحيب ، وعلى إنزاله منزلة المكرم الحبيب ، وهي الضالة المنشوده ، والنعمة المحموده ، ولفظ البيت :

في جو قلبي وبه خيما ... أهلا لحِب حبه قد سما

وحبه له أمر شاهده الرائي ، واستيقنه لشهرته القاصي والنائي ، وكان فوق ما يبلغه وصف الواصفين ، وأجل من أن تحيط به معرفة العارفين ، ثم ذكر قصيدته للشيخ وأولها :

بنعمة جلى بها عمما ... حمدا وشكرا للذي أنعما

وبتمام القصيدة انتهى من ترجمته ، ولم يؤرخ مولده ولا وفاته .

هذا وممن يستحقون إخلاد ذكرهم ، ولكن لم يترجمهم صاحب " التبر التالد " للعلة المذكورة أولاد محمد المختار بن محمد أحمد بن سيدي بو بكر وهم :

محمد محمود والد الشيخ المفسر محمد الذي سبقت ترجمته .

ومحمد الأمين والد الشيخ السعيد .

ومحمد الصالح والد مُحمد الملقب أحَنَّوْ .

وكذلك محمد أحمد المعروف باسم آيَّدْ .

ومحمدُ ــ بضم الدال دائما ــ وهما شقيقا محمد وموسى الذين سبقت ترجمتهما ، وهما من العلماء كشقيقيهما .

ومنهم السعيد بن محمد الأمين : وهو شيخ الشيخ المحمود الذي أقرأه القرآن والنحو وهو المنتصب لإقراء الصغار ولتعليم الشباب النحو والكبار الفقه ، وما زال التعليم والإفتاء والخط حرفته حتى صار شيخا لجميع المتعلمين من حيه ، وكان زاهدا ورعا معرضا عن كل ما يكتسب الشهرة إلا التعليم فكل من رآه في غير مجلس العلم لا يظن أنه يعرف شيئا من أحوال الدنيا ولم أر له نظما ولا نثرا . توفي عام تسعة وستين وثلاث مائة وألف 1369هـ .

ومن المشهورين بالعلم والتقوى أبناء محمد الصالح أبي عمران وهم :

محمد المعروف باسم آيَّ وعمران ،
وأحمد ،
ومحمد أحمد ،
وعيسى ،
وكلهم من العلماء الأعلام ومن المجيدين للخط وقد كتبوا كثيرا ونفعوا المسلمين بخطوطهم ، وأجودهم خطا عيسى ، ومحمد أحمد وخطهما أكثر انتشارا وانتفاع إخوانهما به أكثر .
وكذلك أولاد عمران الأربعة وهم : محمد ، ومحمد الصالح المعروف باسم مَانِ ، ومحمد أحمد المعروف باسم عَنْ ، وأحمد ، وكلهم من أهل العلم والصلاح ، وأكثرهم تأثيرا بالخط محمد وهو أكبرهم ، وكان ممن جمع بين إجادة الخط وخفة اليد ، وليس منهم من خلف منثورا ولا منظوما حتى أن محمد أحمد المعروف باسم عَنْ يكثر قول الشعر بسهولة وسرعة ولكن لا يدونه ولا يدونه غيره ، وشرع مرة في نظم التلخيص حتى نظم كثيرا من أبوابه ثم حيل بينه وبين إتمامه حتى ضاع ما حصل .

ومن مشاهير علماء أهل ذلك البيت محمد المعروف باسم حَبَّ ابن محمد أحمد بن محمد الصالح : حفظ القرآن في صغره ولم يزل على حفظه إلى أن مات ، ثم تعلم العلوم الشرعية في حيه ، ثم ارتحل إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وسنة الزيارة فمكث في تلك الغيبة حولا وخمسة أشهر ، ولقي كثيرا من العلماء في الحرمين ، وفي دولة السودان ، واستفاد علوما كثيرة في تلك الغيبة ، ثم رجع إلى أهله واشتغل بمطالعة الكتب وإفادة من استفاد منه ، وصنف في سفره إلى الحرمين رسالة في ترغيب الناس في الحج سماها " تصنيف التشويق إلى البيت العتيق " ونظم الشعر وأقر له أقرانه بالسبق في ، ثم تركه ، وحدثني بعض إخوانه أنه قال له سبب تركي للشعر أنه يعرض لي في الصلاة كثيرا فسألت الله أن يسلبه مني لئلا يتشوش خاطري به في الصلاة فاستجيب دعوته وضاع كثير مما حصل قبل دعوته . ومما ظفرت به من شعره قصيدة في الوعظ والتوبة وهي :

تطيع الهوى والنفس في الشهوات ... متى أنت يا ذا اللهو والهفوات
فإن العلى في الجد واليقظات ... كفى من لذيذ اللوم والهزل فانتبه
خشوعا لنا تتلوه من بينات ... ألم يأن شيخَ اللهو واللغو أن ترى
إلى الغافر الستار للهفوات ... ألا فاتعظ بالذكر ثم انزجر وتب
بيوم عظيم الهول والسكرات ... لعلك تنجو من أليم عذابه

هدى أحمد من قبل بغت الممات ... وجدّ بصدق في اتباعك للهدى
وجانب فريق اللغو والكذبات ... وصاحب فريق الصدق والذكر والتقى
وعاطر شيوخ العلم والتربيات ... واعرض عن الجهال واهجر طباعهم
وبين النبي المصطفى من صُفاة ... فإنهم نعم الوسائل بيننا
ووسعك نقس عنه من كربات ... وقل حسنا للناس لا تؤذ مسلما
وأخراك ، ما تخشاه من أزمات ... ينفس عنك الله دنيا وبرزخا
وإياك والتقليل من حسنات ... وإياك والتكثير من كل سيئ
إذا قال ذو التفريط يا حسراتي ... لدينك فاحتط ، مخلصا تنج في غد
فسعيا إلى الأنوار والرحمات ... ولا تن ، إن الدين نور ورحمة قرينة
أهل الظلم والظلمات ... ولا تستطب هذي الخبيثة إنها
بها يبلغون الحسن عند الوفاة ... وليست لأهل العلم إلا مطية
ومن عبروها للعلى والنجاة ... ومن عمروها للدناءة والردى
طلاقا بتاتا واتق الشبهات ... وكل من حلالها وطلق حرامها
بهاك مناك لا بمنع وهات ... وقابل شحيحا مولعا بادخارها
صلاتك بالآصال والبكرات ... وزاع على طره وإخلاص نية
وناج كريما مجزلا للهبات ... وفي ساعة الأسحار قم متهجدا
على وجنة الجاني حيا العبرات ... وناد بيا ربي خشوعا وسافحن
ويا خير سامع لصوت الدعاة ... ويا بر يا رحمن أولى وأخرا
عفوا عن الأوزار والسيئات ... عبيدك هذاجرءة قد عصاك يا
هو الشافع المحمود في العرصات ... فغفر إله عفوا عليه بجاه من
فرحماك في ذلي وفي ضرعات ... لك العز كل العز ، والذل لي أنا
عن الخلق بالألطاف والنفحات ... فقيرك ياربي الغنى فأغنه
على الاقتدا بالأتقياء التقاة ... ضعيفك يا ربي القوى ، فقوّه
عن الفتية السباق في الحلبات ... عجوزك يا ربي القدير مخلف
على كل شيء ما ، من الممكنات ... فالحقه بالسباق إنك قادر
وفي الحال أصلحنا جميعا وآت ... وهبه من الأولاد قرت أعين
فإنك ربي منجز للعدات ... دعا ثلث الليل الأخيرَ استجب له
إلى الماء والأوراد والصلوات ... وإن أصبح الخطأ مثلي فليقم
إلى ساعة الإشراق فالضحوات ... مولي بيت الله وجهك ذاكرا
تنور قلبا مظلم الحدقات ... وصل الضحى إن الضحى جاء إنها
فتندم يوم الفوز بالغرفات ... ونفسك زك بالتقى لا تُدَسِها
وغيبة أهل الخير والبركات ... وعن أربع يهلكن صم عن نميمة
وأقك للآباء والأمهات ... ومدح الولاة الجائرين بجورهم

وبـــين صـــفاء القلـــب فـــي الخلـــوات ... وكـــن ســـاعيا مـــن يـــبن مـــروءة جلـــوة
وقوفا إلى يوم انقضاء الحياة ... وفي عرفات الأمر بـالعرف لا تـزل
ملائكة المعروف في عرفات ... يبـاهي بـك الـرحمن جـل جلالـه
مباعدة الضُّلال في الدركات ... ومن كرم المولى مع الخـوف ارتجـي
مرافقة الأحبـاب فـي الـدرجات ... وأسـأله مـن فـضله وامتنانـه
طننت به التحسين للختمات ... ومن بـاب حـسن الظـن بـالله إننـي
على الرحمة المهداة خير الهداة ... فيا رب صـل ثـم سـلم وبـاركن
مع السادة الأصـحاب والـسيدات ... محمـد المحمـود حامـد ربـه

انتهت . وله مكاشفات من أغربها ما وقع في سفره إلى الحج في المـرة الأولى وهي أن جميع الحجاج القادمين من غرب أفريقية لما وصلوا إلى السودان حبسهم الحكومة ، ومنعتهم من ركوب البحر إلا بشرط لا تـتم قبل أيام الحج فلما علمت الجماعة أنهم لا يصلون إلى مكة في تلك الأيام تحيروا وتفرقت أراؤهم بين من يرى الرجوع إلى أهله وبين من يرى أن لا يستدبر الكعبة حتى يحج ولو بعد أعوام وكان الشيخ محمد حَبَّ ممـن يرى أن يقيم حتى يجد سبيلا إلى مكة ولو بعد حين فرجع من رجع وبقي هو في طائفة ترى مثل رأيه فبينماهم جلوس ذات يوم يتحدثون ويذكرون أمور الحج إذ قال لهم فيما حدثني به مشافهة إني إذا نظرت إلـى وجـه المرء علمت ما يكون منه من الحج وعدمه فبادر إليه شاب من الـسنغال ذو قوة وجدّة وثروة وحرص على إتيان مكة فقال له ما تقول فيّ ، فقال له إنك لن ترى مكة فحزن لذلك حزنا شديدا ، ثم قام إليه رجل من رفقته وهو محمد أحمد بن نَجيٌّ المعروف باسم كَمَنْكَمًا فقال له ما تقول فيّ فقال له إنك لا تدخل الباخرة وكان الناس إذ ذلك لا يعبرون البحر إلا بواسطة البواخر ولا يعرفون أن البحر يعبر بالطائرة ولكن لم يقل له مثل ما قال لأول وعصم الله لسانه من أن يصرح له بعدم إتيانه مكة ولم يخطر ببال أحد أن يصل المرء إلى مكة إلا بركوب الباخرة أما الرجل الذي قال لـه إنك لن ترى مكة فمرض بعد أيام قليلة ومات ، وأما الذي قال له إنك لا تدخل الباخرة فرجع إلى أهله ثم سافر في الطائرة وكان أو مـن ركـب الطائرة من أهل البلد قال لي الشيخ محمد حَبَّ كنت جالسا في المـسجد الحرام إذ دخل علي أخونا محمد أحمد فأشكل علي وصوله بعد ما تبـين لي أنه لا يخل الباخرة فسألته كيف وصل فأخبرني أنه وصل بالطـائرة ومن العجب أن ذلك الأخ حج أربع مرات وكلها في الطـائرة ولـم يـر الباخرة حتى مات ولما قص علي القصة قلت له ما تقول فيّ فقال لي لا

تشك أنك ستحج فقدر الله أن رافقته في الحج بعد ذلك بسنين . وله كثير من الكرامات غير هذه . مات عام ألف وثلاث مائة وثمانية وتسعين 1398هـ .

***

وممن يستحقون أن يخلد ذكرهم لما كان لهم من العلم والفضل محمد بن شعيب بن محمد : وكان من العلماء العاملين الفائقين في العلوم التي تقرأ في حيه وليس له نظم ولا نثر ولكنه فوق كثير من الناظمين والناثرين وربما عرض عليه إخوانه منظوماتهم ومنثوراتهم لينظر فيها نظر الناقد المحقق فيجتهد في التحقيق حتى يظهر رأيه فيما عرض عليه ، وكان سنيا محبا لأهل السنة وقافا ، عند الأمر والنهي محتاطا لدينه فوق احتياط غيره ، أما أخذه للعلم فعن بني عمه لم يرحل عن حيه في طلب العلم وكان أبوه وجده كما سبق في ترجمتهما من السابقين وخلفا مكتبة زاخرة بنفائس الكتب من خطوطهما وخطوط إخوانهما وماتا قبل انتشار الكتب المطبوعة في البلد فكانت مكتبتهما من المخطوطات فاطلع عليها ثم أضاف إليها كثيرا من المطبوعات ، وكان حييا وقورا ورعا ، ومن ورعه أنه لا يؤم أحدا في الصلاة ولا يفصل بين خصمين ولا يكتب في نازلة مع أنه أوتي حظا وافرا من الحفظ وفقاهة النفس . مات رحمه الله عام ألف وثلاث مائة وست وتسعين 1396هـ وزاد عمره على السبعين ولم أتحقق تعيين عام ولده .

***

45 ـ ترجمة شيخ شيوخنا حماد بن مُحمدُ ـ بضم الميم والدال ـ : وهو الذي سلم له أهل بلده السبق في جميع الميادين الدينية وقدمه العلماء الكبار الذين كانوا أكبر منه سنا لما رأوا من غزارة علمه واطلاعه من أسرار العلوم على ما لم يطلعوا عليه ولم يدون في كتبهم ، فكان كبار العلماء من أهل بلده هم السابقين إلى تصديقه والاعتراف بفضله والاغتراف من وبله ، فلا تسأل عما كان ممن سواهم من أقرانه ومن بعدهم ، فكتبوا من فضله كثيرا ونشروه بين الخواص والعوام حتى انقاد له من علماء بلده كل من يشار له بالبنان وسخر له السلاطين والجبابرة ونال من التمكين ما لم ينله الملوك معه وقبله ، وكساه الله أردية من المحبة والهيبة والجلالة ، وجدد كثيرا من السنن وأمات كثيرا من البدع حتى نسيت . وقلت لبعض كبار أصحابه يوما وهو يقرر أنه مجدد أبطل كثيرا من البدع ، أين كبار المشائخ السابقين على الشيخ من هذه الأمور التي تذكر أنها ما صلحت إلا على يديه ، فقال لي أولئك المشائخ يسعون

في الإصلاح على قدر طاقتهم ولكنهم لم يتمكنوا كتمكنه ولو عرفت حالة الناس قبله لتبين لك أن كثيرا من الإصلاحات التي تراها هو السبب فيها فلما قال لي ذلك تفطنت لما كان سبب سؤالي وهو أن والدي الشيخ الذي رباني من أكابر أصحاب الشيخ وتلاميذه وكان من المتقيدين بسيرة السلف الصالح ثم بسيرة شيخه المستمدة من الكتاب والسنة وأخلاق السلف الصالح والسير عليها من غير التفات إلى ما يخالفها من العوائد والمذاهب ، فلما رأيت أعماله وأنا صغير ظننت أن أعمال غيره مثل أعماله ولما أجابني الشيخ المذكور بما أجابني تفطنت لأن كثيرا من الناس لم يعتنوا بحكاية أعمال الشيخ مثل ما يعتني بها وإن كانوا محبين له معتقدين كماله كما لم يعتنوا بكتب السيرة النبوية مثل اعتنائه بها ، والشيخ الوالد وقليل من أمثاله إذا تكلموا بفضائل الشيخ فلا يلتفتون إلى الكرامات الخارقة التي ظهرت على يديه فكانت سبب إقبال الخلق عليه إنما يتكلمون بما رزق من التمسك بالسنة وبما فتح عليه من العلوم التي لم تدون في الكتب وممن يكثر وصفه بالتمسك بالسنة خليفته وابنه الشيخ المحمود فقد قال لي يوما ونحن نبحث في بعض الأمور إذا أردت أن تعمل في شيء على وفق السنة ولم تجد في الكتب ما تأخذه ووجدت عمل الشيخ فيه فخذ به فإنه لا يريد أن يعمل إلا على وفق السنة وكفى من فضل المرء أن يتفق العدول على أن أخلاقه تحكي أخلاق من قال الله فيه { وإنك لعلى خلق عظيم } . ولكن لا بد من تشويق الناظر إلى مطالعة كتاب الشيخ الذي هو خليفته في الإرشاد وهو ابنه الشيخ المحمود الذي يسميه بعض الناس الخضر وأسميه أنا بكل من الاسمين في كتاباتي فإن ذلك الكتاب هو الذي فيه بسط أخباره وتفاصيلها ، وقال : في أوله بعد الحمد والصلاة أما بعد فإن من أفضل ما قدم المرء لحياته وصرف فيه جل أوقاته ، التعلق بأذيال أهل الله وخدمة جنابهم الجليل ، والإشادة لذكرهم ، والثناء عليهم بالجميل ، ولا أعرف في الأعصار المتأخرة أحق بما ذكر من الشيخ حماد ، ولا أولى منه باسم الولي ولا بسيمى أهل السداد ، فالجيلي وإن كان شيخ هذا الجيل ، والحاتمي وإن أغرب في القيل ، وأغرب عن الحقائق بلسان طويل ، والغزالي وإن رقق في نسجه لغزل صوف التصوف ترقيق نبيل ، لكن ما جروا إلى غايه ، وما نصبوا للمجد رأيه ، ولا حكوا بالسنة روايه ، ولا عقلوا بأفئدة درايه ، إلا وزاحمهم في المجال بمنكب راق في الولايه ، وبساعد ساعدته الكلاءة والعنايه ، فأحرى به أن يسمى بديع الزمان ، وربيع البلدان ، لأنه اغشوشبت به أجادب القلوب بعد ما أشفى أهلها على الخسران ،

واخصوصبت وازينت لما بسط عليها من زهرة العلم والإيقان ، فكم رأينا من مريديه مستغرقا في العرفان ، عطشان نطشان من شدة الحب والتوقان ، سكران حيران من مكابدة الوجد والهيمان ، وما بلغ به ما بلغ إلا لحظة منه أو لحظتان ، بل ما أجدره أن يسمى بالمفرد الجامع ، والكوكب اللامع ، وأن يشاد ذكره بين المحافل والمجامع ، رجاء أن تقربه العيون وتشنف به المسامع . مر إلى أن قال : وإني أسميته " بالتبر التالد في ذكر مناقب الشيخ الوالد " وإن شئت قلت " اللؤلؤ والمرجان في مناقب غوث الإنس والجان " أو تقول " النجم الثاقب في فضل الشيخ حماد وما له من أصناف الناقب " ورتبته علىمقدمة وعشرة أبواب وخاتمة . مر إلى أن قال : فالمقدمة تحتوي على إحدى عشرة روضة كل روضة منها راجعة إلى الولاية بنسبة خاصة إما بتعرفيها كما في الأولى أو بتقرير صفة من صفات أهلها أو بتوجيه الثناء إلى مجلسهم العالي أو بالتخذير من الإنكار عليه بما يزوره العدو والقالي ، أو نحوها مما ستعرفه فيما بين يديك من الأمالي، الباب الأول في التعريف به وبأبويه مع أفراد من أجداده رضوان الله عليهم ولا تتحرر مقاصده إلا في فصلين . قلت وفي هذا الباب ذكر مولده ووفاته ونص ما كتبه في ذلك : وأما مولده الزماني ففي سنة ألف ومائتين وخمسة وثمانين 1285هـ ووفاته في عام ألف وثلاث مائة وستة وخمسين 1356هـ فعمره إحدى وسبعون سنة ولا علم لي بشهر ولادته ولا يومها ، وكذا لا علم لي بالمكاني إلا أني أعرف أنه من أعمال كَاوَ وأنه في إحدى الصحاري الواسعة التي في شرق إنْبُورَغَنْ بينه وبين قرية كِدَالْ . اهـ . ثم قال الباب الثاني في ذكر طرف من مطالع بداياته ، وطَرف من وقائع بدائع نهاياته ، وانتظام أبحاثه في خمسة فصول ، الباب الثالث في أوصافه السَّنية ، وأخلاقه العذبة السُّنيه ، وفصوله تنتهي إلى عشرة كاملة ، الباب الرابع فيما أتيح له من كمال الظهور ، وما غرس له من خالص الود والمهابة في الصدور ، وفيه ستة فصول الباب الخامس في الكلام على شيخ التربيه ، وفي بيان ما امتاز به شيخنا من بدائع الترقيه ، ودقائق التصفية والتنقيه ، وتحرير مقاصده في ثلاثة فصول ، الباب السادس في طريقته وتحته ستة فصول ، الباب السابع في الأوراد وفصوله ستة أيضا ، الباب الثامن في جمع وارداته المشهوره ، من غير فرق بين نشائدها المنظومة وفرائدها المنثوره ، وفيه جملة من قصائده غير الواردات ، ولم أعقد له الفصول ، الباب التاسع ف يالمخاطبات الشعرية الجارية بينه وبين

المريدين ، الباب العاشر فيما ظهر على يديه من أصناف الكرامات الباهره ، وفيه ستة فصول الخاتمة في خمس مقالات تحتوي على نكت لطيفة وطرف . اهـ ما أرادت نقله مما هنا . قلت والكتاب كبير الحجم في جزءين كبيرين الأول منهما خمس مائة وأربعون صفحة ، والثاني خمس مائة وثمانون صفحة وخطهما رقيق ولو كتبا بخط غير رقيق صارا ضعف ما كانا وهو ألفان ومائتان وأربعون والإحالة على ما في ذلك الكتاب خير من تكلف كتابة غيره وخير من نقل بعضه المستلزم ترك كثير من الفوائد ، ولكن أنقل أبياتا لصاحب الكتاب فيها كفاية عن التطويل ونقل الأخبار . وسببها أن بعض خواص أصحابه طلب منه أن يبين له طريقنا معشر الحماديين على وجه الاختصار فأجابه بالأبيات وهي :

بآدابها واللغو فاتركه جانبا ... عليك بذكر الله والخمس أدها
وبرّ ذويها خير برك صاحبا ... ولا تنس عهد الشيخ واسلك طريقه
وناج بجنح الليل مولاك راغبا ... وحافظ على الأوراد واقرأ مرتلا
وإياك ما رمت الصفا والشوائبا ... ورع واتضع واقنع واخلص لتجتبي
فإن جاز ، أولا فاعتزله مجانبا ... وقف إن نويت الفعل وقف تثبت
لتنجو ، نفسا أقحمتك المعاطبا ... وحاسب بأطراف النهار مناقشا
يريبك فاستغفر إلهاك تائبا ... فمهمى وجدت الخير فأشكر أو الذي
صباحا ومسيا واجتهد إن تواظبا ... ومن كل بر فاغتنم كل ممكن
يوافقه ، إن كنت للنجح طالبا ... وخذ بهدى المختار لا تأت غير ما
جهلت فسل عنها وفتش مكاتبا ... تساير ما أتقنت سيرته فإن
وسلّم أذاهم نازعوك المناصبا ... ودع من أذاك الخلق واحمل أذاهمُ
بقلب ولا تحظ بطرف مراقبا ... ومثّلهم موتى وللميت لا تمل
فكن زاهدا فيها متى سرت ذاهبا ... وزهدك في الدنيا الطريق لما مضى

انتهت الأبيات وهي كافية لمن حفظها وعمل بها فهي خلاصة ما في كتاب السنن والسير والأخلاق السلفية ، وهي لباب أقوال الصوفية المرضيين ، وليس فيها زائد على سيرة السلف الصالح ، وليس فيها من البدع ما ينكره أهل الشرع على من تسمى باسم الصوفية ، وليس فيها شيء مما يختص به بعض أهل الطرق ويلزمه تلاميذه ، وكبار تلاميذ الشيخ نظروا في كتب الصوفية وطرق المشائخ الذين قبله واطلعوا على كتب كراماتهم وما يقول عنهم أتباعهم وترغيب كل منهم في طريق شيخه حتى أن بعض المغالين منهم إذا نظرت في كلامه أوهمك أن طريقه هو الموصل الوحيد إلى المطلوب ولكنهم لا يلتزمون إلا ما ألزمهم الشيخ

سواء كان من الأوراد أو من النصائح العامة التي يوجهها إلى سائر المريدين أو ما يخاطب به من تجري بينهم وبينه أشعار بتضمن ما كان للمريدين منها تسليمهم القيادة إليه واستمدادهم منه ويتضمن ما كان للشيخ منها إرشادات ونصائح ربما واجه بها واحدا معينا وربما قال لبعض الناس أن ما قلته لفلان غير مخصوص به بل هو عام لجيمع المريدين ففهم كبار أصحابه أن طريقه هو ما خاطب به جميع المريدين على وجه العموم ولم يلتفتوا إلى قول بعض الطاعنين أن شيخهم الذي تزعمون أنه مثل أكابر أهل الطرق ، لا طريق له وإنما يربي مريده بطرق قوم آخرين تزعمون أنه مثلهم أو فوقهم ولم يلتفتوا إلا إلى ما يؤخذون عنه من العلوم والآداب والأوراد فإن وافقوا غيرهم ممن قبلهم فبالا تفاق كما يقع الحافر علي الحافر لا على وجه التقيد به لأن طريقة شيخهم ثبت عندهم أنها مستمدة من الكتاب والسنة مستقلة عن غيرها من الطرق المنسوبة إلى من قبله من المشائخ فكان كبار أصحابه يحترمون المشائخ ويصدقون بما لهم من المزايا ولا يتعرضون للإنكار عليهم لكن لا يأخذون بأقوالهم أخذ التزام ولا يجاكونهم في الأمور التي تنكر عليهم من جهة علماء الشريعة وينكرون كل أمر مخالف للشرع وإن كان منسوبا إلي بعض الأوليا ، وأما شيخهم فلم يلزمهم إلا الصدق في الإرادة ثم التعلم ليعرفوا ما يأتون وما يذرون ويكونوا على بصيرة من أمرهم ولا يكنونوا ممن رام الوصول بأشياء مبتدعة ، وكانوا ممن ضل سعيهم في الحياة الدنيا ويحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ولم يأمرهم بعد الصدق في الإرادة والتعلم إلا بما في الأبيات السابقة ، فجزاه الله عنا وعن المسلمين خير الجزاء ورزقنا السلوك على منهجه الذي قرره في قصائده وقرره لنا كبار أصحابه آمين .

***

46 ـــ ترجمة ابنه الكبير الذي خلفه وأحسن الخلافة وهو الشيخ المحمود ويسمى الخضر أيضا ترجمته قبل اشتغالي بتراجم أصحابه بمدة طويلة وسبب ترجمتي له في ذلك الوقت أنه كتب رسالة سماها " فتح الودود في الرد على مدعي الروية ووحدة الوجود " فوصلت إلى بعض إخواننا وأراد أن يطبعها فأرسل إلي صحاب الرسالة يأمره بأن يرسل إليه ترجمته لتطبع مع الرسالة فولاني ذلك وذكر لي شيئا من أحواله التي لم أشاهدها بعضها لصغري وبعضها لأنها سبقت وجودي ، فلما فرغت منها عرضتها عليه وسلمها وهي هذه :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله تعالى على محمد وآله وصحبه وسلم
التعريف بمؤلف " فتح الودود في الرد على مدعي الرؤية ووحدة الوجود بقلم تلميذه وابن عمه محمد العتيق بن الشيخ سعد الدين رحم الله الجميع هو تاج العلماء العاملين وقطب دائرة العارفين ، مربي السالكين ، ومراقي الواصلين ، زين المحافل والمجالس ، ومرآة المناظرين وأهل المدارس . نسبه : هو الشيخ المحمود ويعرف أيضا باسم الخضر بن الشيخ الشهير المجدد في القرن الرابع عش رالهجري حماد بن مُحمد بضم الدال ــ ابن مَحمدْ بفتح الميم وسكون الدال ــ ابن سيدي بو بكر بن القاري بن أكَّايِّ بن محمد بن إنْكِلَّ بن محمد بن آمن بن على بن يحي بن إبراهيم الدغوغي بلدا المراكشي إقليما . وأمه زينب بنت محمد محمود بن محمد المختار بن محمد أحمد بن سيدي بو بكر ، يجتمع أبواه في الجد الثاني لأبيه ، وأم أبيه زينب بنت عبد الرحمن من بطن أبناء عمهم أهل تَكَلَّتْ ، وأم جده من بطن العلويين الأدرعيين ، وأم جده الثاني أنصارية ، وسائر أمهاته وأمهات آبائه وأجداده إما فهرية أو إنصارية وإحياء عشيرته وعشائر أمهاته كما قال بعض شعرائهم : خزجي الجزر محمود النسب ... بعضنا فهري جد والسوىفمعادنه من جميع جهاته معادن خير . مولده ولد عام إحد وثلاثين وثلاث مائة وألف 1331هـ ومولده المكاني ووطنه ووطن أسلافه الأدنين أعمال كَاوَ التي هي مجالات قومه تارة في الساحل الشرقي ، وتارة في الغربي الغالب من استيطان أسلافه محل قريب من هضبة تُنْدَبِ على حافة نهر النيجر بين كَاوَ وبُرَمْ يعرف باسم تَبُورَقْ نزله جده الثاني في أوائل القرن الثالث عشر الهجري بعد ما لبث مدة في مجالات أهله الصحراوية ، فسكن هو وأهله في ذلك المنزل واتخذوه مقرا في الشتاء والصيف وإذا جاء زمن الأمطار انتجعوا الصحاري الشرقية لنهر النيجر أو الغربية له ، ثم رجعوا وقت الشتاء إلى موضعهم المسمى باسم تَبُرَقْ فنسبوا إليه ولزمهم الانتساب إليه إلى الآن ، ثم غيروا ذلك الوطن وملازمته ، فصاروا يجولون في الصحاري الشرقية يتخيرون ماشاءوا من المنازل ولا يضبطهم بلد معين ، ولكن لا يبعدون عن قرية كَاوَ أكثر من يومين ، ولهم شديد اتصال بها وهي مركزهم الكومي . أسرته : أسرته ثوم من الأشراف الدغوغين انتقل أسلافهم من بلاد بني عمهم في المغرب الأقصى إلى بلاد الصحراء التي تحكم عليها كَاوَ في الوقت الحاضر ، وجدهم الجامع لبطونهم علي بن يحي بن إبراهيم الدغوغي الشهير ، وأسرته هي العاصمة العلمية في بلاد كَاوَ ، ويرحل إليهم كل راغب في

العلم ، ولا يرحلون في طلب العلم إلى من سواهم ممن يقربهم ، ويجلبون الكتب من الأفاق على وجه الشراء ، وهم أسرة طاهرة ممتازة في العلوم والمعارف ، ومشهورة بالفضل والصلاح من أول دخول أسلافهم للوطن الذي صاروا إليه من بلاد كَاوَ إلى وقتنا ، ويعترفون لهم كل من يعرفهم بشرف النسبة وكونهم من أولاد الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه كما يعترفون لهم بمزايا لا توجد في غيرهم كوجود إخوة أشقاء كلهم فائق في العلم وكوجود عالم مشهور بالعلم والفضل كشهرة أبيه وجده وأعمامه وأعمام أبيه وأولاد إخوته وأولاد أعمامه ، ويتعجب الناس من تسلسل تلك الاتفاقية فيهم وككثرة حملة القرآن والعلمة بالعلم فيهم ، وككونهم يعتادون أن يختم الصبي منهم القرآن وهو ابن ثمان سنين وإذا أتم العاشرة ولم يختم القرآن عد بليدا وإذا بلغ خمسة عشرة عاما ولم يتخرج في علم النحو لم يعد من النبلاء ولم يشاركهم في تلك الخصوصية من أهل بلادهم إلا من يشاركهم في الأجداد بالأمهات كالأنصار الأيوبين واليعقوبين والعلويين الأدرعين المشهورين بأبناء الثمانية ، ومن سوى هؤلاء قل أن يستظهر صبيهم القرآن وأن يتخرج في النحو وهو في سن الصبا ، ومن مزاياهم الإعراض عن المناصب الدنيوية مع استحقاقهم الرغبة عن مخالطة السلاطين مع احترام أهل السلطنة لهم وتوقيرهم إياهم وحرصهم على مخالطتهم ، ومن مزاياهم الجمع بين اتقان سائر الفنون وبين حفظ المال وحسن القيام به والاستغناء عن الناس بتدبير ما في أيديهم فكان أمرهم مقصورا على عبادة ربهم لا يتعلمون من الفنون إلا ما يتعبدون بالعمل به وما يتوصلون به إلى فهم مقاصد الشريعة والتمكن من اللغة العربية ولا يقتنون من الأموال إلا ما يستعينون به على ما هم فيه من العبادة والتعلم ، ويكفون به وجوههم عن التعرض إلى ما في أيدي الناس وينفقونه في المكارم كصلة الرحم وقرى الضيف وإعانة المستعين وإغاثة الملهوف وإيتاء حق اليتيم والمسكين وغير ذلك من أنواع البر ولا ينافسون أبناء الدنيا في متاعها وزينتها ولا في مناصبها الفانية كان ذلك سيرة لهم منذ قرون ، ثم ظهر فيهم في أوائل القرن الرابع عشر الهجري شيخ شيوخنا أحد المجددين والد الشيخ المترجم له فتمم ما أسسوا من مكارم الأخلاق كما أتم النبي صلى الله عليه وسلم ما أدرك من مكارم الأخلاق في قريش ، فلما ظهر ذلك الشيخ وتمكن فيما لم يتمكن فيه من قبله من أسباب الترقي والتقدم ، قادهم إلى المعالي وترقى بهم في العلوم والمعارف والمكارم فصاروا غرة دهرهم وقطب دائرة المعارف في قطرهم فنشأ فيهم الشيخ صاحب الترجمة وهم على

تلك الحالة فأخذ عن كبراء علمائهم .شيوخيه وكيفية أخذه للعلوم : لما بلغ من العمر خمس سنين وخمسة أشهر أخذ في التعلم كما هو عادة قومه ، وسلمه والده إلى ابن عمه الشيخ سعد الدين بن محمد الأمين فابتداء بتعليمه من تلقين حروف التهجي إلى أن ختم القرآن ، ومكث في قراءة القرآن وحفظه وتجويد تلاوته ثلاث سنين ثم لم ينسه بعد ذلك . ولما رسخ الكتاب العزيز في حافظته أقرأه باب العقائد من رسالة الشيخ السلفي السني محمد بن أبي زيد القيرواني ، ثم أخذ في تعلميه في فن النحو فأقرأه المقدمة الآجرومية على طريق أشياخنا المعهودة من تدريب التلميذ أولا على معرفة الفرق بين ما يسمى في اصطلاحهم النحويين كلاما وما لا ، والفرق بن الاسم والفعل والحرف ، ومعرفة علامات كل منها ويدربونه على ما ذكر ما دام يقرأ باب الكلام ، ثم تدريبه ثانيا إذا قرأ باب الإعراب ، وباب معرفة علاماته على معرفة علامات الإعراب وتقسيمها بين المعربات ، وتوقيمه على إعراب المُثل والشواهد كلمة كلمة حتى لا يحتاج الطالب بعد الفراغ من تلك التدريبات إلى من يعرب له الكلمة إلا في النادر ، ثم لما فرغ من قراءة المقدمة المذكورة أقرأه قطر الندى لابن هشام ، ثم ألفية ابن مالك ، ثم لامية الأفعال له ثم ثلاثة أرباع من كافيته ، وأخذ الربع الآخر عن خاله مُحمدُ ـ بضم الميم والدال دائما ـ وأخذ مقامات الحريري عن خاليه محمد أحمد المعروف بآيَدْ ومُحمدْ ـ بضم الميم وسكون الدال دائما ـ وهو أبو الموفق ، ومحمد إبراهيم ، والأخوة الثلاثة بنوا محمد محمود بن مُحمد المختار ، وهم أشقاء أمه والشيخ السعيد الذي هو شيخه الأول ابن عمهم الأدنى يجتمعون معه في الجد الأقرب ، وعلى أخواله هؤلاء مدار أخذه للعلم في الصغر وهم المعتنون بحمله على التعلم في المنشط والمكسل ، ولما شب وذاق حلاوة التعلم ونشط إليه من غير منشط وبرع في علم النحو تاقت نفسه إلى قراءة علم البيان الذي هو ثمرة علم لنحو وإلى قراءة علم المنطق فأخذ تلخيص المفتاح للقزويني والسلم المرونق للأخضري عن خاله شيخ الشيوخ مُحمدْ ـ بضم الميم وسكون الدال ، ثم شرع في التفقه فأخذ عن خاله المذكور آنفا كفاية الطالب الرباني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، وأبواب الطهارة من مختصر خليل ، وأخذ عن الشيخ حمزة بن أحمد من أهل إسكَنْ أبوابا من الربع الثاني منه ، وأخذ ما بقي من المختصر عن ابن عم أبيه الشيخ الثقة محمد بن نوح ، ثم لما شرع في علم التفسير أخذ النصف الأخير أولا عن خاله الشيخ محمدْ ـ بسكون الدال ـ ثم أخذ تفسير النصف الأول عن الشيخين المفسرين إسماعيل بن

محمد الصالح وسعد الدين بن عُمار وهما من أهل تَكَلْتْ والشيوخ الثلاثة هم كبار من أخذ التفسير عن الشيخ المفسر محمد الصالح بن محمد يعني والد الشيخ إسماعيل ، وأجازه سعد الدين بن عُمار بما أجازه به شيخه المفسر المسند محمد الصالح والد إسماعيل من كتب الحديث كصحيحي البخاري ومسلم والمأطا والسنن الأربعة وغيرها من مروياته ، وكتب له سند إجازاته ، وأجازه والده الشيخ حماد بن محمدُ في كتب الحديث والتفسير ، وهو أكبر مؤثر في تعلمه لأنه هو الذي يتخير له المعلمين من سائر الفنون التي يقرءها ، ويختار له ما يقرأ من الكتب ويشدد على معلميه في أمر تعليمه ويشدد عليه في التغلم وفي استغراق جميع أوقاته في الطلب حتى لم يترك له طلب العلم من نفسه نصيبا يشتغل بمهماته الدنيوية ، وأما غير المهم مما يشتغل به الصغار فأبعد بعيد أن يتركه متعلقا به ، لم يذق للصبا واللهو طعما في حياة والده بل نشأ في هيئة الكهول وفي أدبهم وأخلاقهم وبذلك استحق الانتصاب للخلافة عن والده وهو في سن الشباب واتفق أهل الحِل والعقد من كبار المشائخ على إقامته مقامه وتسليم جميع أمورهم إليه ، ومما أخذه عن والده الورد القادري لقنه إياه وهو ابن ثمان عشر سنة ولما تلقنه عنه وهو مشغول بتحقيق ما حصل من العلوم وتحصيل ما لم يحصل عسر عليه الجمع بين التزام الورد وبين ما هو فيه من مقاساة شدائد الطلب وضبط مقرؤاته وتحقيقها فهم بأن يطلب منه التخفيف في الأوراد التي ألزمه إياها لأنه إما أن يشغله عن الطلب أو يشغله الطلب عنها ، ثم منعته هيبته من توجيه الخطاب إليه فصبر والتزم الجمع بين الورد وطلب العلوم ففتح الله عليه وفاق أقرانه المجردين للطلب في العلوم والمعارف وطويت له المسافات في التعلم واعترف له كبار المشائخ بالسبق في العلوم النقلية والعقلية وفي علوم الحقائق ومصطلحات أهل التصوف وفهم مقاصدهم بأنه حصل ثمرة ما في خزائن قومه من الكتب بواسطة المشائخ والمطالعات ، وحصل له بالإلهام فنون من المعرفة ومن التحقيق زائدة على ما في الكتب ، وحصلت له مخائل جميع ما تحقق فيه بعد الكبر وهو في سن الشباب وفي حياة والده فأظهر والده وشيخه من الفرح بذلك وشكره ما شاء الله وخلع عليه خلعة سنية وأعلن رضاه عنه . وممن أمجازه في كتب الحديث ابن عمه عيسى بن تَحمدُ أجازه بما أجازه به مولاي عبد الرحمن الذي أجازه بما أجازه به الشيخ بايْ بن سيد عمر الكنتي من كتب الحديث ، ثم لقي أوَسُّكْ بن هَلَيْ الكلادي وكان ممن أجازه الشيخ بايْ بلا واسطة فأجازه أيضا وكتب له الإجازة وما حمله إلى استجازته

إلى الرغبة في علو السند والتبرك بتكثير الشيوخ ، وكتب إلى بعض تلاميذه وهو ابنت عمته الشيخ إسماعيل بن سيد محمد الأنصاري الذي هاجر إلى مكة ثم صار إلى الرياض وكان من أهل دار الإفتاء بها ، ليستجيز له المسندين من علماء الحجاز فأرسل إليه بدفترين مطبوعين أحدهما إجازات الشيخ محمد ياسين له والأخر المسلك الجلي في أسانيد محمد علي . ومن الشيوخ الذين يعدهم من شيوخه من لم يقرأه شيئا من الكتب التي قرأها ولكنه استفاد منهم برسم المباحثة والمناظرة في سائر الفنون ما لا تقله ثمرته عن ثمرة ما أخذه برسم الإقراء كالشيخ محمود بن محمد الصالح فإنه ما أقرأه شيئا في أيام صغره وطلبه ولكن استفاد منه بعد الكبر في سائر الفنون ما يعده من أشياخه لأجله ، وكالشيخ حُمَيْدِ بن عبد الرحمن الأنصاري فإنه أخبرني عنه أنه ممن استفاد منه كثيرا من المسائل الفقهية وتبصر بواسطته في صناعة القضاء وتخريج المسائل علىى القواعد ، وكالشيخ محمد الأمين بن هَلَيْ الكلادي فإنه باحثه في الفقه واستفاد منه ما لم يزل يشكره ويثني عليه لأجله ، ومن أقرانه من يعدهم من شيوخه لكثرة استفادته منهم كالشيخ عيسى بن تحمدُ ، والشيخ حمَّدَ بن محمد وغيرهما ، وكثير من علماء بلده يعدهم من شيوخه لما استفاد منهم في المناظرات فلا يطاق حصر أولئك لأن كثيرا من أهل الأقطار القريبة منه ما زال علمائهم يفدون على حيه برسم الاستزادة من العلوم فكان يتلقاهم ويفيدهم ويستفيد منهم . وأما ما أخذه من العلوم بالمطالعة من غير إقراء شيخ فكثير فقد كان في أيام قراءته للنحو إذا أخذ كتابا عن الشيخ راجع حواشيه بنفسه وطالعها بالتحقيق والضبط حتى يصير ضبطه لما في الحواشي كضبطه للمتون التي يأخذها عن الشيخ ، فطالع حاشية الصبان على منهج السالك ، وحاشية الخضري على ابن عقيل ، وحاشية يس على التصريح وكتاب المغني لابن هشام ، وحاشية الأمير عليه ، وحاشية المنصف عليه ، وناظر الحذاق في قواعدها ، وأضاف إليها كثيرا من كتب غيرها ، ثم لما أخذ عن شيخه تلخيص المفتاح للقزويني بشرح السعد التفتازاني طالع حاشية البناني عليه حتى حققها وضبطها ، وطالع كتب علم العروض ، وعلم القراءات والتجويد ، وكتب علم الحساب ، وكتب مصطلح الحديث ، وجمع الجوامع لابن السبكي في الأصول ، ثم عرضه على الثقة الفِنّ المتفنن أحمدُ بن الصالح المعروف باسم مَكَّا وهو من أهل تَنْغَ أكَّلِ ، وكثيرا من حواشي شروح مختصر خليل كحاشية الدسوقي على الدردير وحاشية العدوي على الخرشي ، وطالع كتب الأصول في المذاهب الأربعة ، وكثيرا من فقهم

الفرعي ، وبرع ..... فيما أخذه عن الشيوخ ثم اشتغل بالتصوف فطالع الإحياءللغزالي ، ولطائف المنن للشعراني والعهود المحمدية له وشروح الحكم لابن عطاء الله والكوكب الوقاد للشيخ المختار بن أحمد الكنتي .... وشرح الشيخ المختار على قصيدته التي أولها :

.... شغف الفؤاد بحب ذات الواحد

وهو شرح كبير يتضمن من علوم القوم ومعارفهم ما لا حاجة معه إلى غيره ، وطالع مؤلفات الشيخ سيد محمد بن الشيخ المختار المذكور كجنة المريد والطرائف والتلائد وغيرها حتى تضلع من علوم القوم واصطلاحاتهم وأحاط علما بما ينفردون به عن علماء الظاهر وما ينكره عليهم المنتقد ويتأوله المحب المعتقد ، وما يغمض إدراكه عن القاصر في العلوم ويتضح المقصود فيه لذوي الفهوم ، وميز بين ما هو من القواعد المجمع عليها عندهم وبين ما تنفرد به كل طائفة من طوائفهم من الآداب والأذكار ، وميز بين كلام الأيمة الذين مبنى أمرهم على الكتاب والسنة وأخلاق السلف الصالح وبين كلام المتشبهين المدعين المحرفين للكلم عن مواضعه فأخذ نفسه بالعمل بالسنة ظاهرا أو باطنا وترك ما خالفها وجعل يدعوا أصحابه وأتباعه إلى ذلك ، ثم تاقت نفسه إلى تحصيل الكتب التي ليست في خزائنه وجمعها من المكاتب الشرقية والغربية فاعتنى أولا بجمع شروح كتب الحديث على اختلاف مذاهب مؤليفها كشروح أبي داوود للخطابي وخليل أحمد صاحب بذل المجهود وصاحب المنهل العذاب المورود ، وشروح صحيح مسلم للآبي وعياض والنووي وشروح المؤطأ للزرقاني وللباجي والسيوطي ، وشروح البخاري للقسطلاني وابن حجر وصاحب تحفة الباري وغيرها ، ثم اعتنى بجميع مصنفات الحديث والأثار كالسنن الكبرى للبيهقي ومصنف عبد الرزاق ، ثم جمع من فقه المذاهب الثلاثة غير مذهب مالك الذي هو مذهبه ومذهب أشياخه وأسلافه وأدرك كثيرا من كتبه مجموعا في خزانة أبيه وأعمامه وأخواله فروعا وأصولا ، فحصل الأم للشافعي والمغني لابن قدامة الحنبلي وكتبا من الفقه الحنفي وكثيرا من كتب أصول الفقه في المذاهب الأربعة .... حتى تاستوى في حقه جميع المذاهب الأربعة ووقف على مدارك كل من قواعد أهلها ، ولكن لم يزل متقيدا بمذهب مالك تأدبا مع أشياخه وأسلافه المتقيدين به ولأنه هو السابق إلى حافظته ولأن كثيرا من مسائله الاجتهادية نظر فيها نظر المجتهدين فوافق نظره فيها أنظار مالك وأصحابه وأتباعهم فعمل فيها تبعا للحجة لا تقليدا ، وغير مذهب مالك من المذاهب إنما يتعلمه وينظر في مسائله أصولا وفروعا ليعرف أقوال

علماء السلف ويعرف المجمع عليه من المختلف فيه كيلا يقع فيما يقع فيه القاصرون في العلوم من إنكار ما خلاف مذهب إمامهم كإنكار خلاف المجمع عليه فإن ذلك ليس من دأب الراسخين في العلم بل دأبهم الإحاطة بأقوال علماء السلف والسكوت عمن عمل بقول واحد منهم والإنكار على من خرق إجماعهم فكان من أكثر الناس تأدبا بهذا الأدب كما يقتضيه استكثاره من كتب الأيمة وكان وصوله إلى ما وصل إليه من كثرة الشيوخ في بلده وسهولة جلب الكتب من غير عناء ولو سمع من كان عنده من العلم ما ليس عند قومه لأسرع إليه ، وأما الدنيا فأهون عنده من أن يرحل في طلبها ولم يخرج عن وطنه إلا حاجا ، وحج مرتين الأولى عام 1358هـ والثانية 1378هـ . وأما مساجدبلاده فزار جلها واجتمع بمن فيها من العلماء وناظرهم وأفادهم واستفاد منهم . ذكر الآخذين عنه أخذ عنه أخوه الشيخ المنير بْن الشيخ حماد النصف الأخير من ألفية بن مالك ، وأخذ عنه ابن خاله الشيخ حِيَّايْ بن محمد أحمد مختصر الآجرمية وقطر الندى لابن هشام وألفية ابن مالك وأبوابا من أوائل كافيته وهو إذا ذاك في سن الصبا ولما شبّ كثر الأخذ عنه في النحو والبيان والمنطق واللغة وتخرج على يديه في علم النحو كثير منهم المرحوم أحمد بن محمد الصالح المعروف بمتّال وغيره ، ثم انتصب للتدريس في الفقه والأصول والتفسير والتوحيد لكن بصورة يتعذر معها تعيين الآخذين ، وهي أن يعقد مجلس يحضره المتعلمون والمستمعون والصغار والكهول والكبار ويكون مجلس تعليم ومباحثته يُعلم فيه المدرس المتعلمين ويباحث أقرانه وشيوخه ويستفيد بعضهم من بعض ويأخذ عنه الجميع من الفوائد والأبحاث وإيضاح المشكلات ، ولما أفضت إليه الخلافة عن والده عام ألف وثلاثمائة وست وخمسين 1365هـ كثرت عليه الوفود من علماء الأقطار القريبة منه فكان يباحث من يفيد عليه من العلماء ويستفيدون منه ويستفيد منهم فكثر أخذه والآخذون عنه بحيث لا يستطاع حصر أحيائهم وقبائلهم فضلا عن أسمائهم لأنه صار شيخ الشيوخ في سائر الفنون ، وتعين أسمائهم يدعو إلى التطويل الممل وضبط مأخوذات من يقدر على تعيين أسمائهم منهم على سبيل التحقيق متعسر فأعرضت عن التعرض لذلك ولكن لا بد من تعيين بعضهم فممن أخذ عنه بعد انتصابه للإقراء والتدريس ابنه المرحوم أحمد الشفيع المتوفى عام ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين 1375هـ تخرج على يديه في العلوم وهو ابن عشرين ، ومنهم ابن خاله أحمد بن محمد أحمد أخذ عنه التوحيد والمنطق والبيان وجل مختصر خليل ، ومقدمة جمع الجوامع لابن السبكي وما بعدها إلى مبحث

النهي والكتاب الأول من كتاب الشيخ المترجم له " الجوهر اللامع نظم جمع الجوامع " ، ومنهم البراء بن محمدُ أخذ عنه تلخيص المفتاح والسلم المرونق ، ومنهم إسماعيل بن السعيد أخذ عنه العقائد وفن البيان ، ومنهم .... محمد بن عبد الله الأنصاري أخذ عنه أبوابا من الخلاصة وفن المعاني والبيان ، وممن أخذ عنه المنطق أحمد المعروف باسم أخي بن المسدد من أهل تِمُكَسِنْ . وممن أخذ عن البيان معاذ بن عيسى بن القاضي ، والمحمود بن يحي الأنصاري ، وأخذ عنه الفقه جماعة منهم أخواه المنير والبشير وابن أخيه زين الدين بن المنير وابن بنته أحمد بن محمد ومنهم محمد ، والحاج ابني أحَمَ ، ومحمد يحي بن حمَّدًا ، وأحمد بن الكرماني ومحمد الرشيد ابن أحمد بن موسى ، ومحمدُ بن تَانَ الأنصاري ، وجماعة من بني عمه منهم محمد بن حُمَيد ومحمد أحمد بن محمدُ بن عبد الله ، والمحمود بن محمد الأغ ، ومحمد أحمد بن المرتضى وغيرهم ، ومنهم محمد الصالح بن إبراهيم بن أحمد البكا ، المحمود بن المرتضى وغيرهم . وأما التفسير : فيمليه في جماعات لا تضبط كل عام ، وممن حضر دروسه وانتفع بها جماعة من أكابر أشياخه الذين صاروا يعتبرونه شيخا لهم ، منهم بعض شيوخه في التفسير وهو سعد الدين بن عُمار وأخوه أحمد الكرماني ، ومحمد الصالح وأحمدُ ابنا الأمين ، ومحمد والمرتضى أبنا خال أمه أحمد البكا بن البخاري ، والشيخ حمزة بن أحمد وأخوه أكَتَّ وهما من بني عمه أهل إسَكَنْ ، وغيرهم ، ومنهم جماعة من أقرانه الذين يباحثهم ويستفيد منهم ويفيدهم كالشيخ حَمَّدَ بن محمد بن حادي من أهل تَكَلَلْتْ ، والشيخ حُميد بن عبد الرحمن الأنصاري من أهل تِكِرَتِنْ وأخويه محمد ونوح ، وكالشيخ محمد بن محمد الأمين ، ومحمد بن معاوية وهما مِّن أهل إسَكَنْ ، ومنهم أقرانه من عشيرته الأقربين كالشيخ عيسى القاضي بن تَحْمَدُ ، ومحمد بن شعيب ، ومحمد أحمد بن عمران ، وحَبَّ بن محمد أحمد ، وغيرهم ومنهم ابن عمته الشيخ إسماعيل بن سيد محمد الأنصاري الذي هاجر إلى الحرمين ودرس في مكة ثم انتقل إلى الرياض ودرس فيها ثم كان عضوا من أهل الإفتاء بها .

وأول ما أخذته عنه أيها الكاتب الهيللة التي يلقنها الأشياخ للتلاميذ فقد لقننيها وأنا ابن ثمان عشرة سنة بأمر الشيخ الوالد ثم أمرني الوالد بأن آخذ عنه شيئا يكون رابطة بيني وبينه وأستمد منه بواسطته فلما أتيته لأخذ الورد عنه لم يزد عليّ أن قال لي عليك بالتعلم والجد في الطلب فهو خير الأوراد ، ثم قال لي داوم على الصلاة على النبي صلى الله

عليه وسلم مائة مرة صباحا ومساءا فلبثت مدة من السنين ليس لي من الأوراد التي تؤخذ عن الأشياخ إلا تلك المائة ، ثم أخذت عنه الورد القادري ، ثم أخذت عنه جمع الجوامع لابن السبكي إجازة ، ثم أخذت عنه نظمه له رواية ، وانتفعت بدروسه وأبحاثه ومؤلفاته من سائر الفنون ، ثم لازمت مجلسه وجعلت أستمد منه كل يوم وليلة وأباحثه في المسائل من سائر الفنون وربما أشكلت عليّ مسألة وطلبت حلها من الكتب وتعبت في التفتيش فلا أجد ما يزيل عني الإشكال ويكشف الغطاء حتى أراجعه فيها فيجيني بما يقلع الإشكال من أصله جزاه الله عني بأحسن الجزاء ، وأما الآخذون عنه من غير عشيرته فلا يحصون فممن أخذ عنه من علماء دو إسحاق أحمد بن آدم ، وأحمد بن عبد السلام ، والبكّا بن الوافي ، وفاضل بن الحسن ، وغيرهم ، وممن أخذ عنه من علماء إكلاد محمد الفقيه بن إبراهيم الأنصاري الذي ذكر الشيخ في ترجمته كتابه " فتح الودود " أنه ممن طلب منه أن يؤلفه ، وأما من أخذوا عنه الورد القادري فهم أضعاف أضعاف من أخذوا عنه العلوم لأن والده الذي هو إمام الإيمة في قطره وحائز قصبات السبق في ميادين الفضائل بشهادة المعتبرين من أهل عصره والقائم بالإرشاد والتربية والترقية في نظمه ونثره ، ربما أمره بتلقين الورد لمن جاء يرغب فيه فيلقنه إياه نيابة عنه ، ثم لما مات والده وخلف كثيرا من المشائخ الذين تربوا على يديه اتفقوا على إقامته مقامه وتقديمه على الجماعة منهم من يقول إنه وصل إلى مقام أبيه في تلك الأيام ، ومنهم من يقول إن لم يصله حالا فسوف يصله مآلا فقدموه على أنفسهم ودعوا إليهم عشائرهم وقبائلهم فابتدر كل من فاته الأخذ عن والده أن يأخذ عنه الورد الذي يؤخذ عن والده وأشياخه من فرق بين العالم والجاهل ولا بين الذكر والأنثى ثم تتابع على أخذ الورد عنه أقرانه من جميع القبائل ، ثم من ينشأ بعدهم ، ولم يزل على ذلك وكثير ممن انتفع به ما رآه قط إنما انتفع به بواسطة الأجوبة والفتاوى ، وهم لا يحصون كما أن كثيرا من المتعلقين به المنتفعين بآثاره المتأدبين بآدابه الواصلين بأسبابه ما أخذوا عنه العلوم إنما أخذوا عنه العمل بمقتضاها فنفعهم الله ببركة ملازمته واقتفاء آثاره كما نفع المتعلمين بما أخذوا عنه من العلوم أو فوق ذلك

آثاره العلمية : لم يزل منذ ذاق العربية وهو في سن الصبا ، مشغوفا بتحقيق المسائل وتبين مقاصد المدققين من أهل الحواشي فكان كثيرا ما

يستشكل شيئا من مسائل فن النحو ولا يجد لإشكاله مزيلا فيعاني إيضاح ما بدى له أنه هو حل الأشكال فيكتبه في حاشية الكتاب وفي قراطيس إن كان لا تسعه حاشية الكتاب ، ثم عمل في فن المعاني مثل ذلك وهو في سن الشباب ، ثم لما اشتغل بعلم الفقه وتحقيق مسائله وطلب الجمع بين متعارضات أقوال علمائه وتطبيق ما ينزل من النوازل على منقولات السلف الذين لم تدركهم تلك النوازل بأعيانها ، ألف في ذلك رسائل تقرب المقصود منها لأهل البداية ، ولا يستغني عنها أهل النهاية ، منها رسالته الكبيرة في " المسح على الجبيرة " ينكر فيها على من ينتقل من الغسل أو الوضوء إلى التيمم ولم يمسح حين أضر به الماء ، ومنها رسالته موجودة عند بن مدّا يتكلم فيها على تحقيق الدينار والدرهم الشرعيين المتعتبرين في الصداق والسرقة وغيرهما ، وسبب تلك الرسالة أنه وقع النزاع بين العلماء في تقدير كل منهما فمال المترجم أولا إلى تحقيقها بحسب ما ينقش عليهما ، ثم رجع عن ذلك إلى أن تحقيقهما إنما يعرف بالوزن ، وذهب إلى الميزان فوضع فيه قبضة من الشعير ووضع في الكفة الأخرى فضة فوجد ما يزن خمسين حبة وخمسي حبة من الشعير الوسط الذي هو وزن الدرهم تَنَكَةً وزيادة ، ووزن الدينار أيضا بالحبوب حتى تحقق وزنه فوضع في ذلك رسالة قرر فيها ما رجع إليه وزيّف الأولى ، ومنها رسالة يتكلم فيها على ما في شرح الدردير وحاشية الدسوقي عليه عند قول خليل " كسائل دينارا فيعطى ثلاثة ، ورسالة في بيع البقرة الخائفة من المرض المسمى تَلَصْبَتْ ، ومنها رسالة يتكلم فيها على الترخيص في السلم الحال مع أن جل المالكية لا يرون جوازه ، وجلب فيها أدلة على جواز العدول عن كلام الأشياخ للقادر على الاستنباط والإستدلال والقياس من المتأخرين ، ومال فيها إلى أن الاجتهاد الجزئي لا ينقطع وبين ذلك مع شدة تضيقه على نفسه في العدول عن مشهور مذهبه كما اعتذر فيها عن عدوله عما قيل فيه أنه المشهور بأن ما عدل إليه هو الذي يعتقد رجحانه ومشهوريته لقوة دليله عننده ولولا خشية الملل لنقلت حروف كلامه واعتذر فيها عن عدوله عن كلام أشياخه ربرئ نفسه من أن يكون ذلك تضليلا منه لهم ، وله في غير الفقه رسائل مفيدة منهارسالة في تعريف المفرد الهوائي وما يتعلق به من علم الفرائض ، ورسالة في كيفية الحساب الذي يعرف به أحوال السنة العجمية من الكبس وغيره من مصطلحاتهم ، ورسالة في جواز التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ورسالة في كون الصلاة للمتقين المخلصين فيها كالمعراج للنبي صلى الله عليه وسلم يصلون بها إلى المعالي الحسية

، وأما ما وصل إليه من المعالي المعنوية فلا يحاكيه فيه أحد ، وجاء في تلك الرسالة بأبحاث فقهية وصوفية وإلهامية واختراعية مستمدة من المألوفة ، ولكن استخراجه إياها من غوامض أصولها كالاختراع ، ومن تصانيفه كتابه المسمى بعنوان " النفع بشرح رسالة الوضع " وهو مجلد مستقل بناه على رسالة الوضع للعضد برسم الشرح لكن أتى فيه بأبحاث لم يلم بها العضد حتى كأنه المخترع لموضوعات الكتاب لعدم المواد التي يستمد منها على وجه الصراحة فعانى المشقة في التقاط مستمداته من غير مظان التقاطها من مطولات حواشي فن النحو وفن البيان وغيرهما حتى جمع من ذلك ما يقصر من الانتفاع به كثير من الطالبين ولا ينتفع به إلا القليل من حذاق الطلبة الراغبين ، ومنها كتاب " التبر التالد في مناقب الشيخ الوالد " بناه أولا على التعريف بوالده ومناقبه وآثاره وطريقته ثم جمح به عنان القلم فتكلم فيه على العلوم والمعارف وأحوال الصوفية المتقدمين المتأخرين ، وعلى طريقة والده ومريديه وتاريخ أسلافه وغير ذلك حتى أخرجه مجلد ضخما يساوي مجلدين ، ومنها كتاب " فتح الودود في الرد على مدعي الرؤية ووحدة الوجود " جمع فيه بين الرد على الفرقة الزاعمة للمناكر وبين تبيين أن الشريعة والحقيقة لا اختلاف بينهما حقيقة لأن مدار الشريعة على إصلاح ظواهر العبادات ، ومدار الحقيقة على إصلاح بواطنها ، ومن المعلوم بالضرورة أن المعتنين بصلاح الظاهر لا يعتبرون من العبادات ما ليس معه إخلاص كما أن المعتنين بإصلاح البواطن لا يزيدون على الاهتمام بالتخلص من عيوب النفس التي تصد عن الإخلاص ، ومستمد كلتا الطائفتين قوله تعالى { وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين } فوجب اتحادهم في نفس الأمر وإن كان القاصرون يظنون بينهم الإختلاف ، ومن قواعد أهل التصوف قولهم " من تحقق ولم يتشرع فقد تزندق ومن تشرع ومن تحقق فقد تفسق ومن جمع بينهما فقد تحقق " ، وكتابه " فتح الودود " متضمن من ذلك ما فيه غنية عن غيره من المصنفات كما يطلع عليه المطلع المتضلع من الفنون ، وإن ذهل عنها الجاهل ..المغبون ، ومن مصنفاته نظمه لجمع الجوامع لابن السبكي في الأصول وقد حاول فيه أن لا يترك كلمة من الأصل إلا أتى بها كما عدل فيه عن طريقة الرجّاز إلى طريقة الشعراء من اعتبار قواعد العروض وميزان الشعر حتى اضطره ذلك إلى استعمالات غير مألوفة لاستلزام المألوفة عدول عن مقتضى قواعد العروض ، ولما فرغ من نظمه ابتدأ في شرحه فشرح خطبته وباب القياس ثم تركه بنية العودة إليه واشتغل بتصانيف أخر ، وأما أجوبته عن

المسائل الواردة عليه من علماء الأفاق فلا تحصى ، ومن مناحيه في التصنيف رعاية أحوال الناس وتفاوتهم في المراتب العلمية وانقسامهم إلى طوائف كل طائفة ترجو أن تستفيد منه مما يشتغل به من العلم فوائد زائدة على ما حصلوا فكان ينظر فيما تشتد إليه رغبة كل قسم من تلك الأقسام والطوائف فيتحفهم بما يرضيهم ثم ينظر في رغبة قسم آخر فيرضيهم ثم في رغبة آخر وآخر ، كان كبار المريدين في عصر والده مكبين على كتب الطريقة الصوفية مطالعة وتفقها وعملا بمضمونها من الأخلاق والآداب مع الإعراض عن استشكال أي مشكل منها تأدبا مع الأشياخ ، ومن أكبر ما وقفوا عليه مما يحتاج إلى التفسير والايضاح قصائد شيخهم حماد ففيها أشياء غامضة لا يهتدي لفهمها إلا من وفقه الله لذلك وكان عليها نور يدل على حقيقتها جملة وعليها مهابة تمنع من الإقدام على تفسيرها ، فلما توفي شيخهم ولم يبن لهم معناها تأسفوا من ذلك وعضو الأنامل من ما فاتهم فصرف المترجم همته في اتحافهم بمرغوبهم من حلّ بعض مرموزها وإيضاح بعض ما يشير إليه من العلوم والمعارف فجاء من ذلك بما فيه كفاية لكل متأمل راغب ولخص في تلك التفسيرات لباب كتب القوم وأوضح من معانيها ما كان منغلقا وأفاد من علوم القوم وآدابهم وأحوالهم ما لم يفده من قبله من المؤلفين ، ثم نظر إلى طائفة الفقهاء من أصحابه فعمد إلى مشكلاتهم من الكتب التي يتعاطونها فحل منها كثيرا ثم نظر إلى أهل الفنون كافة فكتب لكل طائفة منهم مما يتعلق بفنها الخاص شفاء غلتهم ، ومن أراد التحقيق واستراب في الموضوع فلينظر إلى مؤلفاته التي ذكرت أسماءها . وأما طائفة القراء الذين همتهم العظمى في تلاوة القرآن كلما حلّوا ارتحلوا فنبههم على صورة الختم غير التي يستعملونها ، فمنهم من يختم في أسبوع ومنهم من يختم في أقل ، والختم الجاري في المساجد يحصل في شهر وخمسة أيام لكل ليلة ويومها حزبان وتختص ليلة الجمعة بقراءة سورة يس ويومها بسورة الكهف ، وكثير منهم لا تنضبط تلاوته ، بل أكثر اشتغالهم التلاوة فجزاء لهم الأحزاب والسور على الأيام فنظم أبياتا في كيفية الختم في عشرة أيام ، ثم أبياتا في كيفية الختم في خمسة عشر يوما ، ثم اخترع دعاء فيه إشارة إلى تجزئة الختم في عشرين يوما ولفظ نظمه لكيفية الختم في عشرة أيام هكذا :

براءة يوسف فالفتية الفضلا ... فتح نساء فحمد من إلهي علا
ت فصلت بالحديد العد قد كملا ... يلي تبارك فالأحزاب ثمت ذا
فاعلم ثلاث ثلاث ضعف هذا تلا ... جيم لألّ وباثان ، وبعدهما لتاسع

إلى سورة المجادلة ، لأن أولها { قد سمع الله } . وقوله " يـا رب نـوح عليه السلام " إشارة إلى سورة نوح التي هي آخر المراحل . وأما الشعر فله في صوغه قدم راسخة ، وقد نشأ بين فحول من الشعراء يعترف لهم كل من يعرفهم بالسبق في فنون الشعر وفاقهم فيه كما فاق فـي سـائر الفنون المعتبرة ، فنظم قصائد في مواضع شتى واتخذ الناس شعره إماما يرجعون إليه في فنون البلاغة ففاق من يحاكيه في صوغ الشعر من لـم يتقيد بمحاكاته . فمن قصائده ما هو في المديح النبوي ، ومنها ما يتعلـق بالدعاء والاستغاثة والاستسقاء ، ومنها ما هو سؤال عن جواب منظـوم ورد عليه من بعض العلماء ، ومنها ما هـو متعلـق بالتوحيـد ، فمـن المديحيات قصيدته التي شرع فيها بعد رجوعه من الحجة الأولى الواقعة عام ألـف وثـلاث مائـة وثمانيـة وخمـسين 1358هـــ وأولهـا :

إذ بات يشهد وبالحان فالحان ... هاج الهوى يـا سـمير سـاجع البـان
بعد الهد وسـبا عقلـي وأصـبان ... وبـرق ذي سـلم إذ آل ملتمعـا
عهدا تقادم في أفياء نعمان ... يـا بـرق ذكرتنـي ، والـصب مـدّكر
بالوصل وهنا ، وفي غربي عسقان ... وعيشة لي بشرقي العقيق مضت
وأهلها وسقاهم كل هتان ... وفي منى يارعي ذو العـرش عهـد منـى
دامت لـداوت أسـيفا نـضو أحـزان ... لله لله أيـام الحجـاز فلـو
إلـــــــــــــــــــــــــــى أن قـــــــــــــــــــال :
عهدا سيرعاه مني نازح دان ... يا جيـرة القبـة الخـضراء إن لكـم

ومنها قصيدته التي يوازن بها " بانت سعاد " لكعب بـن زهيـر ، وقـد أنشدها عام حجته الثانية التي ركب فيها الطيارة بعد ما ركب في الأولى الـــــــــــــــــــــــــــسيارة :

سمعي أصم وقلبي اليوم متبول ... مهما خطا بك مهمـا لمـت مقبـول
لم تستملني أن تملى الأباطيل ... بل ما تـشاء فـالحح ، مـا علـيّ إذا
سول ، فمالي على التسويل تعويل ... مر ، اعص ، هول ، اهـون زد يـــــــــــــــزد شــــــــــــــــــــــغفي
قلبي الولوعو ومنك النصح مأمول ... مأمل جفني تذراف الـدموع ولا
يكاد يغرقـه مـن فيـضه نيـل ... هـذا بجمرتـه يـصلى وذا ليـدا
في الصدر والرأس واقد ومكحول ... وما أدعيت الهوى إلا ويـشد لـي
للبيت أموا ، ومن يدعونه إيل ... هاتيك نجب المهاري زمها نجب قاسوا
جوى فلذا ما شق تجويـل ... قاسـوا بأذرعهـا شـق الفـلا ، ولكـم
بالصدق تانوا ومني التوق مدخول ... مروا ثُبات فما لي والثّبات ، أهـم
مخبول عشق وهم مثلي مخابيل ... لا ، مـا أرانـي إلا شـكلهم فأنـا

مسئولهم هي لي بعد اللقا سول ... منىً مناهم وفيها منيتي وكدى
سبع لعقد الهوى لا بد ، تحليل ... إن كنت صبا إلى سلع فصبرك مذ
عذر المقام ، أما في الأمر تسهيل ... أو كان قبلك بالعذراء هام فما
يخشى ، إذا زم للبيت المراحيل ... لو كان وجدك جد ألم يعقك أذى
أخرى ، ألم يأن أن تقضى التآجيل ... كم قلت صبري إلى عام إلى سنة
في اللاحقين لجمع الشمل شمليل ... يا ليت إذ فاتني السباق تنهض بي
يشفي الهوى فإذا المفصول موصول ... لا بل طُوَيّرة تطوي الهواء كما
صوت التسابيح تتلوها التهاليل ... مهما علا صوتها في الجو نتبعه
قدام شوق له تغلي المراحيل ... لنارها حولنا سوق ويجذبنا
بلٌّ الدموع فتذكيها البلابيل ... يكاد يطفئ تي أو تيك آونة
ما شئت كثر ، فمهر الحور مبذول ... غالي الكَريّ لنا في الأجر قلت له
خلناه غبنا فكالتكثير تقليل .. لو بالنفوس اكترينا والنفائس ما
في عين من هام بالخضراء ، ما اللولو ... ما العيْن ما العِين ما الياقوت
أحمره
ومنها :
أبرّ انضيت له المراسيل ... يا خير مقصورة في الأرض حل بها
لعلك السعد أو قلب أو أكليل ... ما أنت إلى لبدر الحسن منزلة
أبان معناه عن مغناك ترحيل ... فإن يرح لنغائم الجنان فما
يسمع لمثلكما أهل وما هول ... فقت القصور كيما فاق البدور فلم
ومنها :
تظلني حول مثواه التظاليل ... ليتي أظل بعامي أو أبيت ، أبي (1)
لي الطوائر أو هذي الموابيل ... وليت لي موعدا بالوصل تنجزه
والروض ، سولي ، إمّا سيل ما السول ... وفي المخلق لو حم الوصول
له
صدق التقاه وإخلاص وتبتيل ... وأبي مسجى هنا كم حشو بردته
كالغصن لا قصر فيه ولا طول ... مليح خدٍّ سوى القدِّ معتدلا

(1 (1) ....

زنديه طول وفي جفنيه تكحيل ... أقنى أزج وضيئ الوجه أفلج في
فواحة زانها للعين ترجيل ... ذو لمة ربما طالت لمنكبه

غر الجياد ولم تحو السرابيل ... حلو الشمائل ، أندى منه ما حملت
آباء آبائه الغر البهاليل ... ينميه للشرف الأسنى العطارف من
أزكى ظهورا لها المحمود محمول ... هم حاملو نوره قبل الظهور ، وما
منهن حوا ولا قنواء عطبول ... أمّاته الطهرات قط ما أينت
عفان عنها وعنه الذم معدول ... كل عفيفة أثواب ، بنى معها
ومن أغر إلى غراء منقول ... فلم يزل وهو من سام لسامية
بين الأماثيل تضرب الأماثيل ... حتى انتهى لرضيعي سؤدد بهما
باواه ثم له بالوحي تفضيل ... لكل ذروة فضل عبدُ مطلب
من المجادة عنه النكس معزول ... جرى أبوه فلم يقصر إلى أمد
وفي ابنه للذي يبنيه تكميل ... ومثله يدرك الأقصى فأدركه
خلق وخلق وتنميق وتذييل ... به المكارم تمت والمحاسن في
في دهمة الدهر غرات وتحجيل ... أيامه بهجة هب إن زينتها
من سره بسنا التوحيد مشغول ... وافى وما ثم منيدعو العليّ ولا
للخير من فيه للخيرات تأهيل ... فيدوخ الكفر والكفار ثم هدى
إذ نالها منه إذلال وتذليل .:. به إسافٌ أسيف مثل نائلة
ومنها ذكر الصحابة وجهادهم :
شيب ومرد لهم جرد أبابيل ... لما دعا ياخيول الله ، ثار له
أسد ضراغم بل شم رآبيل ... غر أكارم بل صيد خضارم بل
وما لهم عن حياض الموت تهليل ... شعارهم في الوغى تهليل خالقهم
والشاهد النور والدلال جبريل ... باعوا النفوس من المولى بجنته
وإنما ينكث العهد الأراذيل ... وفوا فوفى لهم أجرا وما نكثوا
وسط المعارك أو خارت عجاجيل ... سبان عندهم زارت ضراغمة
نالت رماحهم الأعداء أو نيلوا ... ولا يبالون إن شنوا إغارتهم
لديهم صح ، منصوب ومفعول ... بالحذف كم جزموا ما لم يصح وما
ولن يضيع لدى الأحرار مكفول ... فالنصر للدين دين هم به كفلوا
أمسى وأصبح فيه الرفع معمول ... فكم بعامل ماض من اسنتهم

شرك فدام لأهل الشرك تسفيل ... وكم بخفض تلقوا ما أضيف له
حامي الحقيقة ، لا نكس ولا فيل ... كتائب الله يستتلهم سند
كالليث آواه في أشباله غيل ... حفوا به لوذا في بطن طيبته
لبى لدعوته عزل ولا ميل ... لبوه حين دعاهم للجهاد فما
يجل ، تنادوا ألا يا قومنا جولوا ... مهما يخض لجة خاصوا هنالك أو

خانت فحسبكمُ البيض المصاقيل ... جلوا فصولوا فإن أرمـاح طـعنكمُ
ومنهـا فـي يـوم بـدر :
للموت ، حكم له من قبل تسجيل ... يا يوم بدر لدن ساق العدى زمـرا
من كبرها وعلى الهام الأكاليل ... جاءوا بفخر وفـي أعنـاقهم صـعر
مأوى وأوصالهم نتن خراديل ... فمـا أتـى اليـل إلا و القلـب لهـم
زرع وأيـدي كماتـه مناجيـل ... أحـزاب أحمـد أردتهـم كـأنهمُ
فابن المخازي بواكيه المخاذيل ... قولوا لعمـر ولا تبكـوا لمـصرعه
صقرين ، هل سيف ذا أو ذاك مفلول ... ما ذا لقيت من البدرين إذ وثبا
منك الوريد ، أما فيهن تنكيل ... وكيف ذقـت ظبـي الأسـياف واردة
أحزابكم ، من له بالسبي نتفيل ... أي الفريقين من حزب النبـي ومـن
فيها مـع الظلـم سـجين وسـجيل ... أأنـتم يـوم يلقـيكم بمظلمـة
من حزب طه دم من ثم مطلول ... طلـت دمـاءكم بالعـدوتين ومـا
نصرا فديْن لعمر الله ممطول ... فما أعـزتكم العـزي فـإن وعـدت
ها ، ضل عنكم بها الوقت توسيل ... باللات فاستشفعوابل لات حين ندا
تغني عليكم ولا تلـك التماثيـل ... ذوقـوا مـن المـثلات لا أمـاثلكم
ومنهـا فـي ذكـر وقعـة الفيـل :
على الحريم أولئك المخاذيل ... بوركت محمودا إذ بركـت يـوم بغـى
مأكول عصف وما كادوا فتضليل ... بـاءوا بمثلبـة صـاروا بنقمتهـا
سـجيل تنكـيلهم طيـر أبابيـل
ج ... غـداة ترمـي عـزيهم بالحجـارة مـن
ومنهـا فـي ذكـر القـرآن :
يكفي لو أعطوا من الإنصاف ما سيلوا ... آيات قرآنه تـشفي ومنظـره
ورتّ ، وناجى به القومَ الأناجيل ... عن صدق دعوته التورية مذ حقب
ضل الهدى منهم ، بهت دجاجيل ... فما لأهل الكتاب بعد مـا عرفـوا
إلى أن قال :

بل هم فروع وخير الخلق ياصول ... فهو الإمام وباقي الرسـل شـيعته
أو نخلة هو والرسل العثاكيـل ... كأنـه طـود عـزٍ هـم لـه قـنن
لكن لطه على التفضيل تفضيل ... حازوا الفـضائل بالإجمـال قاطبـة
جلت ، ومعجزة المختار تنزيل ... وكلهـم نـال مـن مـولاه معجـزة
لكل ما شئت تبيان وتفصيل ... هدى ونـور ، شـفاء للـصدور ، بـه
وعد وعيد وتحريم وتحليـل ... قـص ووعـظ وتوحيـد إلـى مثـل

لـدّ التـدبر فيـه لـدّ ترتيـل ... طابـت يوانعـه فاضـت ينابعـه
أهل النهى كالتفاريع التأصيل ... منـه المسائل تـستقرى ويـضبطها
ـه لا ، ولا من ورائه الأباطيل ... يبقى .....(1) لا تأتيه بـين يديـ
ومن يرم فله بالعجز تخجيل ... أعيى المـصاقع مـا فـيهم معارضـه
ومنهــا فــي ذكــر الإســراء :
في خير ليل فدته البيض والليل ... أسرى به الله من قدس إلـى قـدس
والتسع الأفلاك لليسر المراحيل ... دليلـه الـروح والأمـلاك موكبـه
شوقا إليه فترحيب وتبجيل ... والرسـل قاطبـة حتـى الخليـل أتـوا
في النور حيث حجاب الغيب مسدول ... للمستوى جازوا لماوى فزج به
يهديه من نوره الوضاح قنديل ... فجال فـي العـز والرقـاء مرتقيـا
ما عقل كل البرايا عنه معقول ... بل فوق ذاك إلى حجب العمـاء إلـى
حتى رأى غير أن الكيف مجهـول ... فكـافح العبـد مـولاه وقرّبـه
بقاب قوسين حيث الفصل مفصول ... طوى وجود السوى عنه ليـشهده
وهي طويلة ويكفي ما نقلت منها شاهدا على مكانة ناظمها وتمكنه مـن
الـشعر ومـن الأدب ومـن علـم الـسير :
ومـن قـصائده فـي الـدعاء والاسـتغاثة التـي أولهـا :
أدعوك ربي ومـن نـدعوا سـوى الله ... بعـزة الله باسـم الله بـالله
مما دهى واعتماذنـا علـى الله ... بـك اسـتجرنا رجـاء أن تعافينـا
رحماك رب البرايا رحمة الله ... شعارنا عند مس الـضر حيـث فجـا
أن لا تفوز مساعيه لدى الله ... أنـى لعبـد دعـا الـرحمن منزعجـا
نجيتهم حين إذ تابوا إلى الله ... كم أمـة أجرمـوا حتـى إذا اعترفـوا

(1) 1) لعل الكلمة المبيض لها " مدى الدهر " . المؤلف

مؤمنا خـوفهم مـن نقمـة الله ... ونحـن آل الأولـى آلفـتهم كرمـا
تخييب آمال من يرجو نـدى الله ... فكلنـا مـرتج للخـصلتين ولـن
حسبيهم حسبهم مما سوى الله ... أنـت الـولي وكيـل الكـل كـافلهم
وبعـدها نجحنـا وعـد مـن الله ... بـدأتنا بالعطايـا قبـل مـسألة
في كل هول ألا فرّوا إلى الله ... أنت العفـو الكـريم المـستغاث بـه
لا تيأسوا لا تملوا من دعا الله ... وأيقنـوا بأمـان منـه عـن عجـل
وهي طويلة نحو ثمانين بيتا وكل بيت منها مختوم بلفظ الجلالة ، وسببها

أنه وقع الوباء في حيه عام ألف وثلاث مائة وأربعة وستين 1364هـ وكثر الموتى ففزع إليه الناس وفزع هو إلى الله وأنشأ هذه القصيدة فاستجاب الله دعاءه وكشف عن الناس ما نزل بهم .
ومن قصائده في الاستسقاء قصيدته التي أنشدها عام ألف وثلاثمائة وثلاث وتسعين 1393هـ وقد أصاب البلاد من الجدب وفناء الماشية والجلاء عن الأوطان ما لم ير مثله فهلك كثير من بني آدم وفنيت الأموال وماج الناس بعضهم في بعض وعم الخوف والحزن وأيس أكثر الناس من الحياة وتشتتوا في الدول البعيدة ، فلما فرغ من القصيدة التي أولها . نزل مطر مبارك عم الأفاق فأنبت الأرض نباتا خارقا وأفركت الزروع بمطر واحد وأثمرت به الأشجار وأطعمت به القفار البرية التي تطعم من غير عمل أحد وبورك في بقايا المواشي بأمور خارقة ، منها درور من لم تلد منها ، ومنها تكثير الأولاد وسرعة نباتها ، ومنها الاستغناء بالقليل من ألبانها وغير ذلك مما يطول تفصيله . وأولها :
وصلى الله على طه الكريم ... بسم الله الرحمن الرحيم
وألأمْنُ سؤلي وسقى ورده صاف ... مني السؤال ومنك البذل يا كافي
ضيق أتى بخروق عزت الرافي ... لم يخف عنك الذي قاسى عبادك من
بؤس هو الموت أولا مس الطاف ... ومن شدائد أدناها الجلاء ومن
إلاك ، أو سيد يرجى لإتحاف ... فارحم بفضلك ناسا ما لهم وزر
شبهائهم فيموتوا حتف آناف ... والطف بهم رب كي لا يطحنوا برحى

جباء ظهر كعيش المرمل العاف ... أو يأخذوا بذنابي عيشه ضفف
تحذ والرمادة حذو القاف بالقاف ... وارحم سواما تشكى الضر من سنة
تقتات إلا بمجلوب من أعلاف ... صافت بمجدبة منها شتون فلا
في الأرض ساعية أو ذات أخفاف ... فإن تدم هكذا لم تبق ثاغية
تصلى به واعتراها يبس أخلاف ... والإبل ذابت ذراها من لظى غرث
يأتي على كنهه أطناب وصّاف ... وأنت يا رب نعم الرب وصفك لا
نوح وعفوك لم يسمح به عاف ... وبابك الرحب مفتوح وفضلك ممـ
ديْن علينا فليتي بالقضا واف ... غذيتنا بأياد شكرها أبدا
نابته دهياء منجى البائس الخاف ... مولاي أنت الودود البر مجلا من
نترك ثناءك حتى وقت أشراف ... فلنُثن بالطيب الزاكي عليك ولا
والله كلمة صدق ما لها ناف ... ألست يا رب بالله العلي بلى

كلُّ الجباه له من عال أو سافل ... والله إنك لله الذي خضعت
شأن وأمرك بين النون والكاف ... وأنت في كل يوم جل نعتك في
ولو سلكنا سبيل الغافل الغاف ... رحماك أوسع من أن لا تناولنا
عزم وفوز وأمن يوم إيقاف ... فاسمح بعفو وتسير ومغفرة
سح رضاب ركام نافع شاف ... يا رب وامنن بغيث مسبل غدق
تجري فيوضا بقيعان وأحقاف ... جود ملح ملث ودقه درر
صبحا قواديه تسقي سقي إسعاف ... تهمي سواريه ليلا بعد ما بكرت
أيدي الشمال باغوار وأشراف ... ريح الجنائب تمريه فتفرغه
حتى تفيض السواقي فيض رجاف ... كذاك يوما إلى يوم إلى جمع
تحوي من أبّ ومن جناتٍ ألفاف ... فتزدهي الأرض بأعْشيشا بها وبما
زهو ونور ومن خصب وأرياف ... ومن زخارف كالوشى البهى ومن
يمتاس مخضوضرا في حسنه الوافي ... والزرع في كل أرض ناعم
خضل
سوق قضاء مسوق قبل أخراف ... قد أخرج الشطا بدأ أو استواه على
والله إن شاء يهنينا بأضعاف ... يزهو فتبدو مآتٍ حب سنبله
يخشى ولا الفار وهو الفاسق الجاف ... وكل آفاته تنفي فلا وبر
يؤذي فيفضي لإفساد وإجحاف ... ولا عصافير أو دود ولا سبب وضيق
حال وفي ضعف وأضعاف ... يا رب عبدك في عجز ومسكنة
أن سوف تقبلني فضلا على مافي ... إليك أنهي شكا يأتي على ثقة
صيف ، ويا رُبّ أصياف كأسياف ... وهؤلياء أجيال أضربهم
عفو يطهر من ظلم وإسراف ... وحـ ......حاجاتي وأعظمها
أخلاف صدق لمن مروا من أسلاف ... وأن تقربنا زلفى وتجعلنا
أوجبت تضييع أغمار وأجلاف ... ولا نرى أبدا خلفا يضيع ما
نال السحاب فأذاها بأجفاف ... يا رب فاغفر ذنوبا شوم موقعها
لي جذبة هي معراجي ورفراف ... ونجني واهدني ثم أهد بي وأتح
كأس المحبة هنِّأني بسلاف ... وزج بي في مقامات الخصوص ومن
روحي ، وسرى نورا ليس بألطاف ... تسقي به باطني صرفا فيقدح في
وهي طويلة تبلغ ثمانين بيتا . ومن قصائده الواردة في الجواب عن سؤال منظوم قصيدته التي أولها :
لولا مزامير من آل ابنة العرب ... ما لذة الراح هزتني فما طربي
وهي جواب عن سؤال لبعض آل الشيخ المختار وهو سيد محمد بن بادي ، وحاصل سؤاله أن الأمور الحادثة في الحكومة لتأمين المسافر هل تلزم مريد الحج وتكون من الاستطاعة الموجبة للخروج إلى الحج أولا تلزمه

لكونها لم تكن في الصدر الأول فيسقط الحج لتوقفه على أمور شاقة لم ينص العلماء الأولون على وجوب التزامها ، ومن مضمون سؤاله أيضا حكم ركوب الطيارة في الحج ، ولفظ السؤال :
عنه عليّ لزوما أسعفوا طلبي ... وإنني جاهل حكما سؤالكم
زاد وقوّى وأمن الطرق من رهب ... عن حجنا الفرض إذ حد استطاعته
في العصر ، زادت أمور لاتقا العطب ... على النفوس ومال يَقِلّ ، وقد
مُضِنٍ وحسرات لكرنْتين للطبب ... ككَرْتِدَنْدِ وتصوير وفصددَوا
لذا وإتيانه من بعد أو قرب ... وأخذ مال وأموال مكررة
على تساريح أموال ومجتلب ... والحبس في كل ما معمورة دخلت
شرعا تزيد لنيل الأمن والسبب ... هاتي أمور على حد استطاعته
لو في عموم استطاع هي أن تنب ... هل غير لازمة والعذر ينجي بها
أو يفرض الحج أو من شاء فليثب ... وهل على قادري الطيار ممتنع
للصلاة وتغرير وإن تصب ... لكونها خارقا وثقل لازمها
في الجو للنار في الدهان والقصب ... زبر الحديد وأصوات الرعود بها
مستهلك النفس من علته عن ترُب ... لآلة نهى لا تلقوا ، يكدِّرها
لملة الدين كم ضر فكم ثقب ... وأنها أثرت في زي منفعة
والجاهلين وعون الضد بالنشب ... صارت لحج ذوي الثروات مفخرا
مر إلى أن قال بعد سوق أدلة منع ركوب الطيارة وأسقط الحجج على ما لا يقدر على الوصول إلى مكة إلا فيها ، وبعد صوق أدلة المبحين لركوبها قياسا على سفينة البحر لأن الجو كالبحر ما لفظه :
عن أصلَي الخلف ، والترجيح لم أج ب (1) ... وقد كفيت مجيبي البحث أكثره
من كفتي منع ذا الطيار والطلب ... فرجحوا لي من ذا الخلف واحدة
وحاصل : جوابه المنظوم ترجيح كفة الطلب يعني إيجاب الحج على القادر على ركوب الطيارة والتزم جميع اللوازم التي يتقف عليها سفر الحج وإن لم تكن في العصور الأولى . ومن لفظ قوله بعد أجوبة كثيرة :
إباح تيك يبحها ، أو يعب يعب ... فما الطوائر إلا كالمواخر من
يسير فيها كفلك البحر للأرب ... قسها بعلة ما كنت توصل من
جسما يشف ويجري لأعلى الترب ... ولا تقل مركب يعلو بجثته
مع المخيل بنص غير مضطرب ... فمثل ذا شبهى للاعتبار به
نقحته طبق ما حررت في كتبي ... والوصف من قبله مناسب بيدي
في صدق حصري وسبري فضل مقتضب ... سبرت قسمت إذ أنفي سواه ولي

الحاق فرع بأصل منه مقترب ... وذو الأصول لدى فقد النصوص لـه
أبى عليه قياس الفرع كل أبي ... فلا تخل غير مـن لـم يجتهـد أبـدا
مـر إلـى أن قـال :
يرجح لدى الوزن إلا كفة الطلب ... وآزنت ما بين أطراف الخلاف فلم
ومـن قـصائده التوحيديـة قـصيدته التـي أولهـا :
والرسـول إلـي طـه محمـد ... ربـي الله ذو الجـلال الممجـد
وجميـع أبياتهـا مختومـة باسـم محمـد صـلى الله عليـه وسـلم .

---

(1) 1) ....

وسأله بعض إخوانه أن يبين له الطريق التي يسلك فيها من يريد الوصول إلى الله تعالى على وجه الاختصار فكتب له الأبيات الآتية ، ثم طلب منه آخرى أن يهـدي إليـه نـصائح مختـصرة فكتـب إليـه ، وهـي :
بآدابها واللغو فاتركـه جانبـا ... عليـك بـذكر الله والخمـس أدهـا
وبرّ ذويها خير برك صاحبا ... ولا تنس عهد الشيخ واسـلك طريقـه
وناج بجنح الليل مولاك راغبا ... وحافظ علـى الأوراد واقـرأ مـرتلا
وإياك ما رمت الصفا والشوائبا ... ورع واتضع واقنع واخلص لتجتبـي
فإن جاز ، أولا فاعتزله مجانبا ... وقف إن نويت الفعـل وقـف تثبـت
لتنجو ، نفسا أقحمتك المعاطبا ... وحاسـب بـأطراف النهـار مناقـشا
يريبك فاستغفر إلهاك تائبا ... فمهمى وجدت الخيـر فأشـكر أو الـذي
صباحا ومسيا واجتهد إن تواظبا ... ومن كل ير فـاعتنم كـل ممكـن
يوافقه ، إن كنت للنجح طالبا ... وخذ بهدى المختار لا تأت غيـر مـا
جهلت فسل عنها وفتش مكاتبـا ... تـساير مّـا أتقنـت سـيرته فـإن
وسلّم أذاهم نازعوك المناصبا ... ودع من أذاك الخلق واحمـل أذاهـمُ
بقلب ولا تحظ بطرف مراقبـا ... ومـثّلهم مـوتى وللميـت لا تمـل
فكن زاهدا فيها متى سرت ذاهبا ... وزهدك في الدنيا الطريق لما مضى
ومن آثاره العلمية استنساخ النسخ ونقلها من المطبعة إلى الخط اليـدوي فلم يزل منذ شب إلى الآن في ذلك العمل لم يرح نفسه وإخوانه وعمّالـه من تلك الخدمة ولا أظنه يريحهم ما دام حيا وربما كـان حاملـه علـى الاستنساخ أن تكون المطبعة غير واضحة لجميع القرآء فينقلها إلى الخط الجيد ليتمكن جيمع القرآء من الانتفاع بها ، أو يكون الكتاب المطبوع لا نسخة له إلا واحدة يضن صاحبها بإعارتهـا ويـستحيل عنـده بيعهـا فيستعيرها منه ويسلط عليها كل كاتب حتى يحصل منها نسخة جامعة بين

الجيد والرديئي ، ثم يتخير المجيدين من الكتاب فينسخون له نسخة جيدة ويتفضل على بعض أصحابه بالنسخة الأولى الجامعة بين الغث والسمين ، وما ذاكرته من آثاره العلمية قليل بالنسبة إلى ما تركته . وأما غير العلوم فلا يرضى أن يكون له أثر فيه لحقارته عنده وزهده في متاع الفانية وقد أجمع رأيه ورأي أصحابه عام أحد وسبعين وثلاث مائة 1371هـ على أن يتركوا الجولان ويتخذوا قرية يستقرون فيها فبنوا ديارا وبنى مسجدا كبيرا أنفق فيها أموالا كثيرة ، ثم بنى دارا كبيرة لسكناه فرأى من إقبال الدنيا وأهلها عليه ما خشي من الفتنة في دين صغار أهله وأتباعه إن دام عليهم ففر من ذلك إلى الصحاري وتبعه أصحابه لما يلزم في سكنى الصحاري من التقلل في الدنيا وزهرتها وتركوا الديار على حالها واختاروا سلامة أديانهم مع الفقر على التوسع في الدنيا مع الفتنة في الدين . وأما أخلاقه : فمجملة في أبياته البائية التي أولها :

.... عليك بذكر الله ....

وتفصيلها لا تسعها هذه النبذة ولا يرضى بنشرها خوف الإطراء والعجب ، ولا نشر فضائل الحي يشبه الغير وأعيذه بالله من شر كل عائر ومن شر حاسد إذا حسد ، لكن لا بدّ لي من ذكر يسير من زهده وجوده وورعه وتعظيمه للعلماء وتواضعه وحرصه على إخوانه المؤمنين أما زهده : فيكفي منه أنه ممن سخر له الأقطار القريبة منه فيتقربون إليه الهدايا الجزيلة ولكن لا يملك شيئا منها ولا يقتات بمرغوب ...... ولا يركبه ولولا الوفود لكان ملبوسه كذلك ، لكن منعه من أن يكون ملبوسه مرغوبا عنه موافقه السنة في التجمل للوفود فكان يلبس فاخرا الثياب ويتلقى بها الوفود ثم ينزعها ويكسوها بعض الناس واتخذ ذلك عادة جارية . وأما جوده : فيكفي منه أنه أشاع في الناس أن كل مسلم رأى شيئا من ماله ورغب فيه فهو له ، وكان يكرر ذلك في المجالس ، ومن العجب أنه هو الذي تسند إليه الأمور العظام من القيام بموؤن جماعته وكثرة الضيوف وأهل الحوائج الذين لا رجون غيره لكشف نوائبهم ويسعف الكل بمراده ولا يقتني شيئا ولا يستعد لما لم يأت بل يعتمد على ربه وإعانته وأخلافه على ما ينفق ابتغاء مرضاته ، ويأتيه من العون ما لا يأتي المقتنين الممسكين المستعدين للنوائب ، وسمعته ذات مرة يقول إذا وصل إلي واحد من أصحابي شيئا كان يرغب فيه من مالي فهو الذي أعطانيه وملكنيه تمليكا جديدا لأنه بنفس رغبته فيه صار ملكا له ، فقلت

له إن بعض المهدين إذا أهدى إليك بيد أحد قال له هذه أمانة بيدك أريد أن تجعله في يد فلان فما وجه الانتفاع بتلك الأمانة قبل بلوغها محلها أو ليس الانتفاع بها قبل وصولها إليك خيانة ، فقال لي لم يكن خيانة فإن المرء لا يكون أمين أحد في مال نفسه فإن جميع المسلمين ماذون لهم في أخذ ما شاءوا من مالي . وقال لي مرة قد ازداد إيماني وتقتي بربي وطمأنينتي بأن رزقي عند ربي لأن ما أكرره من الإذن في أخذ مالي تلقاه الناس بالقبول وسارعوا إلى أخذ ما قدروا عليه من أملاكي لكنهم لم يقدروا على صد ما هو رزقي حقيقة بل يصل إلي من غير تحيل مني ومن غير تقصير منهم في أخذ ما ظفروا به ، وله في ذلك حكايات غريبة ، وربما وقع الخصام بين الآخذين في شيء سمي له فيدعيه بعض الناس ويدعيه آخر فيفصل الخصام بأن المباح لمن أخذ أولا . وأما ورعه : فمنه أنه مكث سنين يفتي ثم أعرض عن ذلك مع الاستعداد التام من كثرة الكتب وضبطها وفقاهة النفس ولكن كان آخر أمره أنه لا يفصل بين اثنين بل يرسل الخصوم إلى غيره ليكفيه مؤنة **الفصل** وربما كان ذلك المرسل إليه بعض تلاميذه ممن لا يستقل بأمر دونه ولا يفصل إلا بمراجعته فيراجعه في النازلة ويدله على مظان حكمها حتى يتيقن ما عنده فيفصل بين الخصمين اعتمادا على ما اقتبسه منه ولكنه بنفسه لا يباشر **الفصل** حذرا من أن يحكم بغير ما أنزل الله . ومن ورعه في الأموال أنه يأتيه كثير من الأموال فيفرقه ولا ينتفع بشيء منها ، وقد ذاكرته مرة في أمر الأموال التي تهدى إلينا ممن لا يعتني بتطييب ماله فإنها إن تركناها بالكلية اختل كثير من الأموال المسندة إلينا من مصالح الضيوف والضعفاء والفقراء والجيران الذين لا يجدون شيئا إلا بواسطتنا ، وإن قبضناها وانتفعنا بها لم نأمن الوقوع في الشبهة أو الحرام ، فقال لي نأخذ على رخص الفقهاء وننفق على طريقة أهل الورع ننفق على أنفسنا وخواصنا ما لا شبهة فيه ونفرق غيره على الناس . وأما تعظيمه للعلماء وتواضعه فمنه أن تعظيمه لتلاميذه كتعظيمه لشيوخه فيعد نفسه من تلاميذ من كان يعده من مشائخه فيتبادل معهم التوقير والاحترام . وقد قال لي مرة إن العلماء الذين آمركم بتعظيمهم كل من يعرف معنى كلمة الإخلاص مؤمنا بها ، لأن ذلك هو ظاهر القرآن لا خصوص من يقرأ الكتب ويدرسها . وأما حرصه على المؤمنين الأقارب والأجانب فقد اشتهر عند كل من يعرفه من ذلك حسن لقائه لمن لا يوبه به ، ومنه سعيه في الإصلاح بين كل متنافرين ، ومنه كثرة أمره لمن يجالسه بالإحسان إلى الناس واحتمال أذاهم وكف أذاه عنهم ، وقد سمعته مرة

يقول وددت أن كل من أراد أن يسيء إلى مسلم صرف إسآته إلي فأعفو عنه وأستره إن لم يكن معي من يشفي عنه فلو قدر على أحد من المسلمين أن يسيء إلي خاليا ما سمع بذلك أحد أبدا لشدة حبي لجميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم . توفي لثالث عشرة ليلة خلت من شعبان ليلة الإثنين من عام 1407هـ .

***

47 ـــ ترجمة الشيخ المنير ـــ ويسمى أيضا أنَارَ ـــ ابن الشيخ حماد رضي الله عنهما : ولد عام ألف وثلاث مائة وستة وثلاثين 1336هـ وتربى في حجر والده الذي هو شيخ الشيوخ في وقته وتعلم من آدابه ما يحتمله سنه فإنه لم يبق معه إلا ثمانية عشر عاما ، وتعلم العلوم الشرعية على شيوخ من حيه منهم الشيخ محمد بن محمد محمود ، والشيخ محمد بن نوح والشيخ المحمود ، وكان حريصا على حضور مجالس العلم التي تعقد في حيه دائما ، تارة يحضر مجلس التفسير وتارة مجلس الفقه وتارة مجلس تدريس الأصول الفقهية ، وكان سابقا في علوم الأدب واللغة العربية وأحب العلوم إليه بعد علوم القرآن الحديث النبوي فإنه كان يقرأه تفقها ، وكان الناس قبله يهابون العمل بالحديث فيقرءونه تبركا لا تفقها لما يقال من أن المقلد محجور عليه لا يجوز له أن يخرج عن مذهب إمامه ويعمل بالحديث وإن كان صحيحا إلا معارض له وإن التقليد هو الواجب في العصور المتأخرة لا يعدل عنه إلا ضال مضل ، وهذا القول هو الذي سبق إلى قلوب أهل البلد وتمكن فيها حتى صار بعض المتفقهة ينكر على من عمل بالحديث ، وكان الشيخ المترجم لا يرى ذلك الرأي ولا ينقاد له لكن لا يخاصم أهله بل تركهم وماهم عليه وأقبل عليه وأقبل على الاشتغال بالحديث قراءة وتفقها وقلل من قراءة كتب الفقه وإعانة على التقليل من قراءة كتب المتأخرين أنه لا يفصل بين الخصوم ، وفتح بعمله في كتب الحديث بابا مسدودا قبله فتبعه من بعده من المتعلمين واقتنوا كتب الحديث وشروحها لتعلمها والاستنباط منها على سبيل السلف الصالح وأعرضوا عن أقوال المثبطين عن تعلمها ، فعسى أن يكون له من الأجر ما يكون لمن سن سنة حسنة فكان من بعده من علماء قومه يجمعون بين الفقه والحديث بخلاف من يقتصر في تعلم الفقه على مختصرات الفروع ، فجزاه الله عن المسلمين خيرا . ولما مات والده واتخذ الناس أخاه المحمود خليفة له كان له عضدا يعاونه ويشد أزره وحاول أن يقوم عنه بكل أمر يشق عليه من أمور العامة والخاصة لكي يتفرغ هو لما هو الأهم عنده من التصنيف والإرشاد وتعاونا على ما

تصلح به أمور العامة والخاصة وتسابقا في المكارم والإحسان إلى الخلق ، وأيضا النفع إلى القريب والأجنبي والصديق والعدو . وسمعته مرة يقول لولا القيام بمؤنة ضيوف أخيه لم يقتن مالا ولم يدخر شيئا ، وكان كل منهم برا بصاحبه ويعتقد كل منهما في الأخر أنه بمنزلة والده في وجوب البر يجب له عليه مثل ما يجب عليه للوالد كانا كذلك منذ خلفهما والدهما إلى أن مات الأخ الأكبر فأقامه الناس مقامه وصار إليه حظه من الميراث وتم له الأمر ولم يحدث بعده ما يحدث الخليفة بعد استخلافه لأنه لم يزل مشاركا له في الأعمال التي يقوم بها فاستمر على حاله ، وأكبر مهماته التعلق بالمصحف في كل مناسبة وفي كل حال من الخوف والأمن لا يشغله شيء عن النظر في المصحف ويشغله النظر فيه عن كل شيء ولا يفارق كتب التفسير ، وربما فهم من الآية معنى دقيقا لم يدركه غيره ولم يره في كتب من قبله بل بطريق الإلهام والفتح الرباني . ولما ضعف في آخر عمره عن النظر في المصحف كما كان يعمله في أيام قوته جعل يأمر بعض الحفاظ أن يقرأ عليه ويستمع مه وكان من عمله الذي لم ينقطع إلى آخر أيامه أن يجمع أهل القرآن ليقرءوا القرآن كله في داره بكرة وعشيا . والأهم عنده بعد المصحف السعي في نفع المسلمين بالإحسان إلى الجيران وكفالة الأيتام وإنكاح الأيامى والقيام بالضيوف بالقرى وبالإجازة ، وبسطت عليه الهدايا ما شاء الله فبسطها على الأقارب والأجانب وكان من سنته تأليف القلوب بالعطايا الجسيمة والإحسان إلى غير المخلصين له فكان يعطي من يعرف منه عدم النصح يستثقل الناس إحساناته إلى من لا يرونه أهلا لها ولكن لا يلتفت إلى قولهم بل يحسن من ينكرون إحسانه إليه وربما كانت إحساناته إلى بعض أهل القوة والفساد سببا لدفع عدوانه عن الناس عموما وخصوصا من له علاقة بالشيخ ثم يصير بعد ذلك من محبيه المخلصين ، ومن سيرته أنه لا يرد الهدية فمن يخاف أنه إذا ردت عليه هديته ساءة ذلك فغضب ويحدث إلى بعض الناس شرا بل كان يوهمه أنه يحبها ويظهر له الشكر ويأخذها ويصرفها في بعض أمثال الهدي ممن لا يبالي بما يأكل . مثلا إذا أهدى إليه بعض الحكام مالا قبله وادخره ولا ينتفع به حتى يأتي بعض أمثاله وكانوا كثيرا ما يفدون عليه بعضهم لطلب الحوائج وبعضهم للتبرك وطلب الدعاء ، وربما يستصحبون معهم الهدايا فإذا أتاه منهم طالب حاجة أعطاه من هدية إخوانه التي يعجبه الانتفاع بها ولا يعجبه ردها على مهديها لئلا يتأذى بردها عليه ، وربما أتيته فيقول لي اليوم أعطيك من الحلال الطيب فإني لا أريد أن أعطي مثلك إلا الطيب ، وقال

لي إن لي وعاء مختصا بالحلال لا أخلط ما فيه مع الهدايا التي تأتي من بعض من لا آمنهم . وكان يحب أهل العلم ويعظمهم ويسبغ عليهم العطايا . وأما الإحسان إلى اليتام فله فيه طريق لم أر مثله لغيره وهو أنه إذا وصلى المغرب وما بعده من النوافل استحضر أيتام حيه فيطعمهم وإن كان الزمان زمانا يقتات الناس فيه باللبن بدأ بسقيهم قبل صغار أولاده ولا يسقي أولاده إلا بعد فراغه من سقي الأيتام ، ومن العجب أن الصغير من أبنائه إذا جاوز ثلاث سنين دربه على أن لا يشرب إلا بعد شرب الأيتام فيرضى الصغار بذلك ويتدربون على إيثار الأيتام على أنفسهم ، وصحبته مرة في سفرة قصيرة حتى نزل على بعض إخواننا فلما صلينا المغرب قال لبعض رجال الحي أن لي وردا لا أريد أن ينقطع وهو مبادرة سقي الأيتام أول الليل فعجل إلي اللبن فأتاه باللبن عاجلا فقال له إئتني بيتيم أو أيتام أسقيهم.فقال له الرجل كل يتيم في حينا له من اللبن ما يزيد على كفايته فتأسف لما فاته من سقي الأيتام في تلك الليلة . وأما قرى الضيف فله فيه أيضا طريق غريب وهو أنه لا ينتظر بالقرى أن يحضر الضيوف بل يهيئ ما قدر له من أنواع الضيافات ثم ينتظر من يأتيه فإذا حضروا عجله إليهم قبل الوقت المعتاد فيه ذلك وإذا أتى عليه وقت الغداء ولم يحضر عنده ضيف وذلك من النادر ، قال لبعض جيرانه كن ضيفي في هذا اليوم وخذ حق الضيوف . وأما إجازة الوفود فكان يعتني فيها بما لا يعتني به غيره وربما اجتمعت عنده جماعة مختلفة الأجناس أو البلدان أو الأعراض فيجيز كُلًّا منهم بما يناسبه ، قال لي مرة ما معناه لا تنس أن إجازة الوفد مما وصانا به رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله " وأجيزوا الوفود بنحو ما كنت أجيزهم " وكان غيره من سائر أهل البلد إنما يعتنون بالضيافة وأما الإجازة فلا تكون إلا من قليل لقليل ممن تشهتد بينهم الروابط ، وقال لي مرة إن الشيخ الوالد حماد رضي الله عنه أتيته يوما وأنا أقرأ أول الكافية فقال لي يا فلان اجتهد في نفع المسلمين فإن الله لا يسألك عن سبب ضرب زيد لعمر ، فبذل جهده بعد ذلك في الخدمة للمسلمين وعاش بعد والده ستين سنة لم يزل يبذل فيها جهده في إصلاح أمور المسلمين عامتهم وخاصتهم حتى أكرمه الله بالشهادة فعاش سعيدا حميدا ، ومات شهيدا لسبع عشرة خلت من جمادي الأولى عام أربع مائة وخسمة عشر 1415هـ تغمده الله برحمته آمين .

***

48 ـــ ترجمة الشيخ البشير بن الشيخ حماد : وهو أصغر من أخويه الذين سبقت ترجمتهما ، ولد عام ألف وثلاث مائة وخمسين 1350هـ

في شهر شعبان ، ومات والده وهو ابن خمس سنين فلم يأخذ عنه شيئا ، وتربى بين كبيريه المحمود والمنير فأحسنا تربيته وفضلاه على أولادهما وبالغا في نصحه فأخذ أدهما وتعلم منهما ما فاته أن يتعلمه من أدب والدهم الشيخ وعلومه حتى كأنه شاهده ولم يفته إلا معرفة جسده ، ولما بلغ سن التحمل ابتداء القراءة على ابن عمه الشيخ السعيد بن محمد ابن الأمين وكان شيخه يعظمه لمكان والده ، فلم يسلك به طريق الأشياخ مع التلاميذ من تكلفيهم المشاق في التعليم والتأديب حتى فرغ من القرآن ولم يتمه فشرع في تعلم النحو على ما هو العادة في قومه فسلك به أشياخه في علم النحو سبيل شيخه الأول من الإكرام والتعظيم ولما شب وحبب إليه التعليم بدا له أن يفارق قومه ويطلب العلم في محل لا يعظمه أهله كتعظيم قومه له ولعله يناله فيه من ذل التعلم ما تعقبه عزة العلم فخرج ليلا منفردا من غير استئذان أحد فأعمل مطيته جادا في السير فارا من أن يلحقه أحد ، ويخشى أن يرسل كبيراه في طلبه لما يعرف من شفقتهما عليه وعزة فراقه عليهما ولا يحب مخالفتهما ولا رجوعه عن مقصده فجد في السير وطوى المسافات المتباعدة في مدة قصيرة حتى وصل إلى حي إكِلاّدْ ونزل على شيخهم الأكبر الأمين بن هُلَيْ وتتلمذ له ومكث عنده حولا كاملا جادا في الطلب يهين نفسه ويخدم لشيخه في الأعمال الشاقة ليصل إلى مطلوبه فلما تم الحول رجع إلى أهله وفي المدة التي يقيم فيها عند شيخه الكلادي لا يسأل عن أهله ولا يراسلهم خشية أن يشغله شيء عما هو فيه ومرة قال لبعض إخوانه إذا طلبتم أن تراسلوني وتواصلوني خرجت من المحل الذي تعرفونه إلى محل لا تعرفونه فكف الناس عن الإرسال إليه وقرأ في تلك الغيبة النحو واللغة وشيئا من الفقه ، ثم رحل إلى أهله فقرأ فيهم علم البيان والفقه وأصوله ، وكان مولعا بحب العلم والعلماء محترما لأهل الحرمة مباعدا عن الاستحقاق بالحرم معظما لأهل العلم الذين كانوا أصغر منه سنا فكيف بمن كانوا أكبر منه وليس له رحلة بعد ما أتى من إكِلاّدْ إلا إلى الحرمين الشريفين برسم الحج فإنه كان مولعا بزيارة تلك البلاد المقدسة ، سافر إليها ست مرات كل مرة يكون معه فيها جماعة من الناس يكون قائما بأمورهم ومتوسطا بينهم وبين الحكومة السعودية لأنهم لا يعرفون العربية ، وربما قصرت نفقة بعضهم عن القيام بمهمته فيقوم هو بما يحتاج إليه رفيقه ، وكان حريصا على إيصال النفع للمسلمين بماله وجاهه ، وكان معروفا عند الرؤساء معظما فيهم يراعون حرمته في كل من لاذ به مع أنه لا يدعى باسم الإمارة ، وكان برا بكبيريه لا يدخل في شيء إلا بأمرهما ، وربما ترك شيئا من

مصالح العامة حذرا من أن يظن به أنه ينافس أخويه ، وكان محترما لهما غاية الاحترام ، وكانا له كذلك وكانا له بمنزلة الوالد في النصح والشفقة ويرى هو نفسه بمنزلة الولد لهما ، ولما رأيا منه الرشد والحرص على المسلمين اتخذاه مستشارا يصدران ويوردان عن رأيه ومع كونه من العلماء لا ينظم ولا ينثر ، وكان مع أخويه كما تقدم من البر والاحترام حتى مات الأخ الكبير الشيخ المحمود وبقي مع أخيه المنير كذلك حتى مات قبل أخيه بنحو شهر في ربيع الآخر من عام ألف وأربع مائة وخمسة عشر 1415هـ .

***

ومن علماء أهل هذا البيت أحمد بن آيَّدْ وهذا لقبه واسمه محمد أحمد : وكان من العلماء الكبار وكان لا يفارق الكتب وقل له نظير في علوم العربية ، وكان له حظ وافر من علم الفقه وله نظم التلخيص للقزويني ، وكان من الشعراء المجيدين ، له شعر كثير في موضوعات شتى أخذ عن شيوخ حيه الذين يسبقونه ، وأخذ عنه من سبقهم من متعلمي حيه وغيرهم ، وكان برا نزيها حليما وقورا محبا للخير وأهله . ومات عام ألف وأربع مائة وخمسة عشر 1415هـ .

وهذا آخر ما تيسر لي جمعه من أخبار علماء بني آمَنْ رحم الله الجميع .

وأما البطن الثالث من بطون علي فهو بطن بني أحمد الأحمر بن يحي بن إبراهيم الدغوغيّ :

ينقسم هذا البطن في العصر الحاضر إلى قسمين :

1 . بني باب بن أحمد الأحمر ،

2 . وبني إنَلْبُشْ بن محمد بن محمد إدّرْقَنْ المعروف باسم وَدِّيَ بن أحماد بن عبد الكريم بن أحمد الأحمر .

أما بنوا بَابَ أيضا قسمين :

1 . بني الزبير بن باب

2 . وبني أمَّا بن باب

فبنوا الزبير كانوا بجوار أخوالهم الأنصاريين أولاد القاضي محمد البشير في أرض منَكَا ويقال لهم إكَدَشْ الشرفاء ، وسيدهم في الوقت الحاضر : مَلُولْ بن محمود بن عيسى بن نوح بن محمد بن أحمد المعروف باسم وَنْسَطَّقَنْ ابن كَلِكَ بن محمد المدفون في تِكِرَوَنْ ابن إكُلْ بن ونكِلَّ بن الزبير بن باب بن أحمد الأحمر .

أما بنوا أمّا بن بابَ : فكانوا في الجوار مع أخوالهم أهل كُنْهَانَ فصاروا معهم حيا واحدا قديما وحديثا ويسكنون في أعمال أنْسَنْكُ قريبا من القرية ، وسيدهم الآن : ثَاتَ بن حامد ابن محمد بن محمد إكْنَنْ بن محمد بن حَمَكَايَّ بن عثمان بن محمد بن أعالَّ بن أمّا بن باب ...الخ .

وأما بنوا إنْلَبُشْ : فصاروا أيضا قسمين :

1 . قسم يقال لهم أهل إسكَنْ وهم ذرية إسحاق بن إنْلَبُشْ ومعهم أولاد أخيه الذي هو جد أبناء المهدي وسمه محمد إكْنَنْ . وسرد نسبهم على ما كتبه الشيخ مَهَامَ أن المهدي المعروف باسم أبي نعيم هو ابن محمد الصالح بن أتِوشَلَ بن آكَّ بن محمد المصطفى بن محمد إكْنَنْ بن إنْلَبُشْ .

2 . وقسم يقال لهم أهل زَمْكَّيْ وهم ذرية أبي بكر الصديق بن إنْلَبُشْ .

أما أهل إسكَنْ فسيدهم في الوقت الحاضر : محمد بن المنير بن سيدي محمد بن الحنفي بن محمد بن حامَّ بن إسحاق بن إنْلَبُشْ . أما أهل زُمْكَّيْ فسيدهم : أحمد بن شِيتَ بن أبو بكر بن كُوكَلْ بن الحناني بن أبي بكر بنْ إنْلَبُشْ . وهؤلاء انتقلوا عن زُمْكَّيْ إلى أرض هُدَّار وهو مسكنهم الآن ، وإخوانهم أهل إسكَنْ صار مسكنهم دُغَيْ من أعمال كَاوَ في أرَبَنْدَ .

وهذا البطن يعني بطن أحمد الأحمر بجميع أقسامه الأربعة لم يزل متحليا بالفضائل من العلوم والكرم والولاية إلى الآن ، وقد انتفع بكل منهم من كان يجاوره أو يقصده بالوفادة وبذلوا من سابغ إحسانهم ما شاء الله ، وتوارثوا ذلك خلفا عن سلف .

أما الآثار السلفية فلم يعتنون بتدوينها كغيرهم من أهل بلدهم ، ويضاف إلى ذلك أنهم لا ينشرون مكارم أسلافهم حذرا من الفخر بها والاغترار بالنسبة إلى أهل تلك الآثار ، ولكن لا بد من بعض الاختلاف في الوسائل وإن كان المقصد متحدا ، فمنهم من وقفت له على شيء من الأثر كرسالة أو قصيدة ، ومنهم من لم أقف له إلا على خط قديم جيد ينبئ عن الاعتناء التام بالكتب وكون الكاتب من حملة العلم .

أما بنوا إنْلَبُشْ : فرأيت من آثارهم أرجوزة له في العقائد ، ورسالة مثلها ، وأرجوزة في الفرائض سماها " عدة الحافظ " كان علماء البلد يعتنون بحفظها ، وهي جيدة في بابها ، وأرجوزة في العقائد أيضا سماها " هادية لقلوب " وقال في أخرها مؤرخا لها :

في عام ست وثلاثين سنه ... في هجرة من بعد ألف ومائه

ورأيت في بعض الخطوط القديمة أن له عليها شرحا ولم أطلع عليه ولم أقف على تاريخ مولده ولا وفاته ، واستفدت من بيته المذكور أنه عاش في أول القرن الثاني عشر الهجري .

ورأيت لابنه محمد المعروف باسم أهَمَّ قصيدة يرثي فيها بعض شيوخه واستعمل فيها الكلمات الغريبة بحيث لا ينتفع بها القارئ ولا يفهمها إلا بمراجعة معاجم اللغة ، ولم أر من آثاره غيرها ومن أراد الاطلاع عليها وعلى بعض أراجيز والده فليرجع " مجموع حَبَّ بن محمد أحمد .ومن آثار محمد الملقب إِتْلَبُشْ رسالته التي وجهها إلى قائد تِبْكَتُ في وقته يذكر له فيها أصول السوقيين وأن منهم من يتواتر على شرافته كذرية إبراهيم الدغوغي ، وذرية محمد المختار المعروف باسم أيتَ ، وما سواهم من أصحابهم ذرية صحابة النبي صلى الله عليه وسلم وإن لم يكونوا من ذريته فيجب على المسلمين احترام جميعهم . وتوسل إليه بذلك الكلام لينالوا من بره ويكف عُماله عمن يسكن بشاطئ البحر منهم ولا يعاملوهم بما يعاملون به جيرانهم من السودان أهل سُنغاي والطوارق ، وأطال الكلام في الرسالة على المنحى المذكور من الحماية والذب ، ونجح في مسعاه ذلك واحترم أولئك القواد جماعة أهل السوق واتخذوا منهم مشايخ يعتقدون ...كل ما يجوز اعتقاده في أهل الخير وصار ذلك كلمة باقية في أعقابهم ، جزاه الله خيرا ، ثم لم يزل العلم في أولاده ولكن لم أر أثرا لواحد منهم إلى زماننا هذا ، حدثني الشيخ حَبَّ بن محمد أحمد عن بعض علمائهم ويغلب على الظن أنه محمد بن محمد الأمين بن حَبيب الله أنه قال له من بركة شيخنا حماد ومنته على حينا أن أهل بيتنا لم يزالوا متمسكين بالعلم فيهم علماء كبار ولكن الإنشاء نظما ونثرا انقطع فيهم بعد أهَمَّ وأبيه إلى أن نلنا ببركة الشيخ وتلمذتنا له إن كان فينا نظام ونثار . قلت والمشهورون من نظامهم ونثارهم في هذا العقد الشيخ حمزة بن أحمد من كبار أصحاب الشيخ حماد الملازمين له ، وممن سبق إلى اتخاذ ابنه المحمود خليفة له وكان من أهل الورع والفقه ولكن لم أر له منثورا وقصيدة إرادته للشيخ حماد وجواب الشيخ له موجودتان مع ترجمة محمد بن .... له في دوان قصائد المريدين وتراجمهم الذي جمعه الشيخ محمدُ بن محمد محمود .

ومن شعارئهم محمد بن صالح الذي كان سيدهم سابقا : له شعر كثير لا تكلف فيه توفي عام ألف وثلاث مائة وتسعين 1390هـ .

ومن مشاهير علمائهم المشقح بن سيدي محمد : وكان من العرضين عن أسباب الشهرة حتى أن عالميته لا يعرف بها إلا من لازمه وخالطه وحتى أنه من الأمراء الكبار في أيام فرنسا ولكن لا يأتيهم إلا بأمر شيخه ولا يستأذنه في الذهاب إلى الحكومة بل كانت الرسائل تتوالى عليه من الحاكم الفرنسي ولا يجيبه ولا يذهب إليه ، وكان أهله يخافون عليه من

عدم إجابة رسائل الحكام فإذا كثر ذلك ذهب بعض أهله إلى الشيخ وأخبره الخبر فيأمره الشيخ بالذهاب إلى الحكومة فإذا أتى الحاكم الفرنسي تلقاه بالإجلال والاحترام بعكس ما يعامل به الأمراء الجادين في الاستماع له ولا يلومه فإذا فرغ من المهمة التي دعاه إليها وأتحفه بما يتحف به أمثاله من الأمراء أظهر كراهة ذلك وامتنع من مس تلك الهدية فيأخذها بعض الحاضرين ولولا أن الناس قهروه على الإمارة بأمر الشيخ له ما ارتضى بتحملها له ، وكان يختار الخمول على الظهور والتزيي بزي الفقراء على التزي بزي الأمراء وليس له عقب رحمه الله .

ومن علمائهم محمد بن معاوية : له قصائد ونظم جمع الجوامع في الأصول ، وله شوارد في لمسائل الفقهية ، توفي عام ألف وثلاث مائة ونيف وثمانين 1383هـ .

ومن علمائهم محمد بن محمد الأمين : ويعرف باسم خَدُو وهو أعلم من الجميع مشارك في الفنون وغلب عليه الفقه أصولا وفروعا ، وكان متشددا في التقيد بمذهب مالك ، وله تآليف منها " القول الأسبغ الأشبع في المسائل الأربع " ومنها تأليفه " في الرد على عبد الله بن المحمود " ومنها " رسالة في القبض والسدل " يتعصب فيها لمن يرى كراهية القبض وسنية السدل وينكر فيها على من خالف قول ابن القاسم في المدونة وبسط فيها الأقوال وأفاد ، وكم باحث في ذلك الموضوع من خالفه من أصحابه الذين يرون سنية القبض ويعملون به ، ومنها " رسالة في الرد على من يدعون رؤية الله بأبصارهم في هذه الدار ويرون أنه حال في كل موجود أو متحد به " وله رسائل في الردود على من يفتون بخلاف المشهور ، وكان من أحسن الناس خلقا ما لم ينكر شيئا من جهة الشرع فإذا أنكره ملكته الحمية والغضب ولا يخاف ذا سطوة ولا يداهن على المنكر . أما جوده : فمما لا يختلف فيه اثنان وانتفع به الناس دينا ودنيا ونال مرتبة عظيمة عند الرؤساء ونفع المسلمين وعلم كثيرا من الناس ، وأحب المجالس إليه وأحسنها عنده مجالس العلماء حتى كأنه لا يعتبر غيرهم من أهل الغنى والرياسات ، ومن رسائله " رسالة يذكر فيها شيئا من أخبار أسلافه موجبها أن ابن عمه حمّدا بن محمد بن حدي من حي أهل تَكَلّتْ لما قام بتدوين آثار بني علي بن يحي وأخبارهم كتب إليه يريد منه أن يفيده ما يتعلق بأهل بيته الأقربين فكتب في جوابه الرسالة المذكورة ، ومما كتبه فيها أن أصل تسمية حيهم باسم أهل إسَكَنْ أن قبيلة عظيمة من أهل السوق لهم إمارة كبيرة وأتباع كثيرون وكانوا يسكنون في الموضع المسمى إسَكَنْ وهو قريب من بُرَمْ كانت تلك القبيلة أخوال

محمد حَامَّ الذي هو الجامع لأهل إسكَنْ الدغوغيين الذين هم الموجودون الآن ، فلما شب محمد حامَّ وكانت تلك القبيلة على عادة غيرهم من قبائل البربر التي اعتادت توارث الإمارة بالأمهات مالت الرعية إلى عزل من كان أميرهم قبل وتأمير الشريف الذي جمع بين كونه شريفا وبين كونه من أولاد النساء اللاتي لا يتأمر إلا أولادهن فاستنكف أمير القبيلة أن يعزل وغضب على الرعية وعلى الشاب الذي يريدون تسويده فلما علم الشريف بذلك ذهب إلى موضع خال وجلس فيه ثم قال من كان لي فليلحق إلي ومن كان لغيري فليذهب إليه فلحق به بعض الناس وتخلف البعض عند أميرهم فبنى مسجدا له ولمن تبعه وانعزل عن جماعة الأمير ، ثم لم تزل جماعته تتزايد وجماعة الأمير تنتقص ، فلما مات الأمير اجتمع الكل على الشريف وتقدم وحسده قوم الأمير الذي قبله ولكن لم يتمكنوا من إيصال شيء من الأذى إليه ولما انتقلت إمارة القبيلة إلى هذا الشريف وأولاده لم ترجع إلى من كانت فيهم قبل بل بقيت في أهل البيت الشريف إلى الآن وانقرضت تلك القبيلة تماما وورث بنوا محمد حَامَّ اسمهم كما ورثوا إمارتهم ، وهذا رويته بالمعنى إذ لم يحضرني اللفظ وقت الكتابة . ويقول من يقص الأخبار الماضية من حي أهل بَكُّ إن هذا الحي السوقي المنقرض كان من أتباع إمارتهم يأخذون من رعيتهم شيئا من الأوات فيؤدونه إلى أمير السوقيين في بَكُّ ثم يؤديه ذلك الأمير إلى سلطان البلد من السودان ثم الرماة ثم من التوارق ولم يزالوا في تبعية أمارة بَكُّ حتى آلت إمارتهم إلى أهل البيت الشريف فأسقطوا وساطة أهل بَكُّ بينهم وبين السلاطين واستقلوا بأنفسهم ولا أمير عليهم إلا سلطان البلد من التوارق . وذكر الشيخ محمد بن محمد الأمين في رسالته هذه كثيرا من الكرامات التي وقعت لأسلافهم ، ومنها أن بعض أجدادهم طلب منه بعض المتجبرين شيئا فلم يسعفه به فغضب المتجبر وانصرف عنه ولم ينله بأدنى أذى . وللشيخ محمد بن محمد بن الأمين أجوبة فقهية في مسائل عديدة سوى تآليفه المذكورة ، مات عام ألف وثلاث مائة وتسعين 1390هـ وخلف من حيه تلاميذ يرجى أن ينتفع الناس بهم وهم في قيد الحياة وقت الكتابة .

أما بنوا الزبير بن باب بن أحمد الأحمر : فلم أقف من آثارهم إلا على خمسة رجال منهم

أولهم أحمد المعروف بوَنَسَطَفَنْ ابن كَلِكَ بن محمد المدفون في تِكِرَوَنْ ابن إكَّلْ بن وَنْكِل بن الزبير بن باب : وقفت على نظمه " لجمع الجوامع " ولم أقف على تاريخ ميلاده ولا وفاته وعلى على أثر غير ذلك النظم ،

والأربعة الباقون كلهم من نسله وهم : هارون ، وأحمد أبنا محمد بن وَنْسَطَفَنْ ، ومحمد بن دانيال بن وَنْسَطَفَنْ ، ومحمد الصالح بن محمد بن دانيال .

أما هارون : فوقفت له على قصيدتين محقق أنهما له وعلى قصيدة تشبه شعره مقرونة بقصيدة له في ورقة ولكن لم تنسب إلى أحد ، وله شعر كثير أسمع به ولم أره ، ولم أر شيئا من النثر منسوبا إليه مع ثناء العلماء عليه ووصفهم إياه بأنه من كبار العلماء ، والقصيدتان المحقق نسبتهما إليه أولهما قصيدة خاطب بها الحاج عمر الفُوتي القائم بالثورة الإسلامية على أمراء السودان وعلى التوارق في القرن الثالث عشر الهجري ومدحه بما بلغه من خصاله وسيرته ، وأرسل إليه بيعته في تلك القصيدة وهي :

إلى الأمير العظيم الشأن في الدينْ ... مني سلام يفوح كالرياحين
إلى الهمام المهيب الشيخ من حفظت ... به المساجد من نقص وتهوين
إلى الشهير الذي قد حاز منزلة ... بها ترجح وزنا في الموازين
إلى النبيه النبيل المستمى عمرا ... مأوى العفاة وميعاد المساكين
يا باب بيت علوم الدين إن نسيت ... يا محرزا خصل سبق في الميادين
يا ثائرا ثار للعلياء بهمته ... يرجو بذلك أجرا غير ممنون
عدلتَ والناس في شؤم وذبذبة ... عن المشائم قصدا للميامين
جددت للناس دين الله جهدك إذ ... نهضت نهضة محي الدين مأمون
جردت سيفا على الأعداء مجتهدا ... من النصارى ومن سِيغُو الفراعين
لقيتهم وشياطين تأزُّهم ... بكيد ذي همة في الحرب ميْمون
وجد معتصمَ بالله متبع ... فيما يحاوله ، ما في الدواوين
وجد أغلمة من فُوتَ مقدمة ... يوم التذامر أشباه السلاطين
في جحفل كهزيع الليل مرتكم ... يغشاه بالعذاب الموجع الهون
وينزل العصم من أعلى معاقلها ... ويجعل الباسل المرهوب كالدون
أصلحت أسلحة الإسلام محتسبا ... أغمدت بالجد أسياف السلاطين
حتى استكانت لك الأيام واتصلت ... بك البشائر من فُوتَا إلى فُون
وخاب من رام أن يسعى لحربك مِن ... مَن كان يزهى بجمع من سراحين

فقل جدهم وكل حدهم ... فأمعنوا هربا في الماء والطين
فأحجموا واتقوا بالراح من فرق ... وثل عرشهم حينا إلى حين

وقتلوا إذ رغا وصاح فوقهم ... سقب السماء فتثخين بتثخين
كانوا أشداء ما رقوا على أحد ... ويقتلون ضعاف الحور والعين
وظاهروا كل غاو مفسد أشر ... بريبة وخنا ما عاش مزنون
لا يستحون من الإسلام من شطط ... فأشبهت حالهم حال المجانين
ولا يرون لذي سن على كبر ... حقا ، ولا لصغير السن موهون
وعندهم علماء السوق أرذلة من ... فقع ، وأولى بإذلال وتأبين
وقتلهم عندهم حل وما حكموا ... إلا بما يشتهون أو بمظنون
والحكم بالظن جرح في الشهادة وال ... أحكام ما لم يجيء فيه بتبيين
رداهم في مهاوي كل مردية ... فيَّ وكِكٌ وتعمير البساتين
فإذ فرغت ، ودين الله منتصر ... من العلوج ، بسر فيك مخزون
وفاز قدحك في رأي تراه بهم ... وجُلْت فيهم بتحريك وتسكين
وصلت صولة ندب لا يقام لها ... ودست فيها طلى الإبكار والعون
فهوّن الأمر بالماضي عليك تهن ... لك المهمات في الآتي بتمكين
وقم بأمر إله العرش معتمدا ... عليه في كل مفروض ومسنون
وسر إلى فئة المهدي تنصره ... بالصافنات الجياد والبراذين
وبالصواعق والسمر اللدان وبال ... بيض الخفاف وبالتشديد واللين
وبالفوارس من غلب الرجال بهم ... تداس هامة بادي الكفر ملعون
وباجتهادهم في مجتلد ... تهد أركان أقوام بلا دين
من كل منغمس في الكفر منهمك ... في كل ما عمل يأتيه ، مغبون
وكل ذي شرك للشرك مقتنص ... وذي هوى في هوى طغواه مجسون
أو تلتقوا مع من قد حان مخرجه ... من كل ذيخ مع الدجال مقرون
فصابروا واصبروا فكل واقعة ... تعدو على كل مسخوط ومأبول
حتى تُلين قناةَ الغي صولتكم ... وتستقيم غواه الهند والصين
وإنني لو قدرت أن أعينكم ... أعنتكم بالرماح والسكاكين
لكن مثلي وضعف المرء معذرة ... يصغي إلى آية من سورة التين
أغاثك الله من بغي البغاة كما ... أغاث أيوب من ضر وذا نون
بسر ما أنزل الرحمن من سور ... بسرعة الأمر بين الكاف والنون
وحاطك الله في أمر تزاوله ... من سهم كل بلية ومفتون

هذا وإن الزمان قد تقارب وال ... أشراط جاءت بلا حدس وتخمين
فلا تثق بوميض ألّ فيه على ... ما كان من غير فيه وتلوين

فكم أغار على أبنائه وجفا ... من كان يبثي بتقديم وتعيين
أعاذنا الله من آفات دورته ... وعمنا بإلى رعي وتأمين
وذاد عنا من الحساد شرهم ... وفل عنا ظبي الأعداء آمين
بجاه سيدنا المختار من مضر ... خير الورى وملاذ كل مسكين
صلى عليه الذي صفى بواطنه ... بالشق والغسل من مولاه جبرين
في آله وصحابه وعترته ... ما وحد اللهَ مستقرء البراهين
ها إن ذي بيعة تلجو بصحتها ... دياجى الشك من وحي الشياطين
وإنها ، وهدايا الخير مرأمة ... هدية من عبيد الله هارون
والثانية : قصيدة يخاطب بها محمد بن يلُّ بن عثمان بن محمد فُودِي إمام سكَتُ الفلاني يمدحه فيها ويذكر فيها بيعته له ، وأظن هذه هي الأخيرة لأن الحاج عمر ساءت التفاهم بينه وبين أهل بلدنا في آخر الأمر حتى آل الأمر إلى غزو جنوده أرضهم وتبادل الحروب الشديدة فأنكر عليه علماء كناتة وأهل السوق بعد ما مالوا إلى متابعته ورفضوا صداقته ومالوا إلى مواصلة أهل سكَتُو فخطابهم لهم هو المتأخر الناسخ ، وأشدهم في الإنكار أحمد البكا بن سيدي محمد بن سيدي المختار الكنتي ، وكان هذا الشيخ الكنتي فيما قبل صديقا له ولكن انقلبت الصداقة عداوة ، ورأيت أيضا قصيدة لبعض شعراء وقته أظنها لهارون يمدح فيها التوارق ويذب عن الشيخ البكا ويتألم مما نال أهل السوق وغيرهم من المسلمين بواسطة جنود الحاج عمر وينقد شعر شاعر لهم اسمه " مُضيفي " ، وسآتي بها بعد هذه لظني أنها من شعر هارون . والقصيدة المتوجهة إلى الإمام محمد بيلُّ هي هذه :

إلى سيد سادت جدودته قبل ... كذاك يسود بالجدود له النسل
إلى الشيخ نجل الشيخ والعلم الذي ... له اخضوضعت في عزها البيض والكحل
إلى عالم تهدي معالم علمه ... جهولا ، إلى ما اعتناقه دونه الجهل

إلى فاضل تغني فضائل فضله ... إلى من يَبِلُ ذَا السقام به ، بَل
هو الوبل في المغنى فوافق لفظه ... فجاء على وفق اتفاقهما البل
سلام كما لاحت من الغيم برقة ... يفوح فواح الزهر باكره الطل
سلام يعم النشر منه من انطوى ... له ، وخصوصا من له العقد والحل
وأبلغ إكرام وأزكى تحية ... يضيق عن استيعابها الوعر والسهل
حمدنا إليك الله جل جلاله ... بما اتضحت من نور مصباحك السبل

وأحييت سنة أميتت وأحييت ... شرائع لا يرضى بها العقل والنقل
وشام أولو الحاجات برقك فالتقت ... لدى بابك المستنطر السفن والإبل
فأمك من هَوْصَا جميع ملوكها ... وهَوْصَ من كُرْمَا لك القول والفعل
فآويت مطرودا وأكسيت معدما ... وأطلعت مغلولا لا أضر به الغل
وأنجيت مفروسا وقد ضبئت به ... على غرة أنياب قسورة عُضل
كما قدت للدين الحنيف فأخبتوا ... مصاعب لا تنقاد إلا إذا كلّوا
وأبرأت كمّها وأرشدتهم إلى ... سلوك طريق الحق من بعد ما ضلوا
طلعت وأهل الأرض من غبش الدجى ... حيارى فلا الشمس تنير ولا زحل

مر إلى أن قال :

بعثنا بهاتي بيعة مستمرة ... تقوم بما قامت به اليد والرجل
فلا تستقل اليوم ذا من عجالة ... مشوشة فالطل يعقبه الوبل
فإن الهدايا والعوائق جمة ... على قدر مهديها مقادرها تعلو
وإن قبول العذر للناس حرفة ... يفاعلها يسمو ، وأنت له أهل
كما أننا نلقي بأصفى مودة ... إلى سيد سادت جدودته قبل

وأما القصيدة المظنونة التي فيها النقد غلى شاعر أهل فُوتَا فلفظها :

على أصلها تجني براقش فالحزم ... تأني اللبيب حيث لم يستقم غرم
خلا الجو من وال فأصبح نهبة ... لمستأسد الذِئْبَان واستنسر الرخم
شمت " مضيفي " والشماتة فلتة ... بمن شمتوك قبل ما استأسد العجم
أثرت غبار الشعر بالهجو وانتحت ... بك النفس إن خلا لك الهدم والرم
ورقعت قوما لن يعدوك منهم ... ولا لك فيهم قبل خال ولا عمّ
تعد بفي ولا تعد بمن إذا ... تقاطعت الأقوام أو وصل الرحم

أبا الشعر ، أما أنت ملصقَ قومه ... نبغت بهجو من هم السادة الشم
فخل سبيل الشتم واذهب إليك يا ... " مضيفي " وحاذر ما به الدهرَ تعتم
وخل شقاق البيض ويحك ، علهم ... ينالك من إيعادهم ما به تأم
وما الحرب إلا دولة من أديلة ... يهنأ ومن زلت به ناله الغم
أدِلنا عليكم مرة بعد مرة ... ويوشك أن نحظى بأخرى وتغتموا
هذا دَيكم هلا رجعتم لتَوْسَ أو ... عبرتم لهَوْصَ كي يفيض لكم غنم
أثرتم وهجتم فتنة جل شؤمها ... عليكم ولا يبقى به لكم الرسم

وليس لكم من حجة مستقيمة ... وذلك لا يخفى على من له العلم
مر إلى أن قال :
ألا اقلعوا واستعتبوا تعتبوا ولا ... يغركم أن نالنا الكيف والكم
ولا يجر منكم شقاق وبغضة ... تخوف أولاد وينتهب الصرم
وأما لددتم واللجاج ضلالة ... فأدلوا بحجة يحق بها الحكم
وما مثل استئسادكم تزعمون أن ... أردتم رشادا أو يحيق بنا الذم
سواء الذي قد قيل في الأرضة اعتدت ... وتزعم أن كلها السد والرم
وإن تلك آية المحارب منزعا ... لكم وأبحتم حرب كل من اعتموا
فما لكم وللذين استبحتمُ ... من المسلمين ما لكم بهم رحم
قتلتم من أهل السوق من غير خربة ... كثيرا وما فيكم لذلك مغتم
وما لكم وللتوارق ما لكم ... عليهم ولايات ولا والسئم والرم
ولستم لهم أيمة تزعونهم ... وليسوا لكم رعية بكم التموا
وإن كنت مرشدا بتوب وغيره ... فحسبك أن ترى بمن علت ، تهتم
ففي قوله منكم بعيدا " أولي الأمر "... تحاج لمن باتت له الحجج العصم
ولو كان ذاكم من تراب وسنكر ... من أمصارهم لم يستقل بهم لوم
فإنهم قد نالهم من هنا تنا ... كثير . ولكن لم يطيقوا فما هموا
وأنتم بذي بلى ولما يحق بكم ... من البيض أخفار ولا نالكم ظلم
وما تدعون من جهاد فليته استـ ... ـتبد بمُوشِ أو بسِيكُ الأولى صموا
فخلوا مناواة التوارق إنهم ... متى استلحموا أو نبذوا السلم يلتموا
إذا يزحفوا إليكم بكتائب ... يعبئها فتى يشاربه قدم

من المشرق الأعلى لدَاج يقودهم ... بنوا كَرِدَنَّ الساحتون لما أموا
ويستأصلوا ما بين كَالَ وهُنْبَرِ ... ويكثر في أمصارها الأيم واليتم
لُهَام صهيل الخيل فيه كأنه ... رعود أجابت رزها السحب والسحم
وتبرق من فوق الرؤس رماحه ... وأسيافه لمعا كما لمع النجم
مر إلى أن قال :
وصنعتهم في الطعن والضرب ما لكم ... بها قبل إذا تراشقت السهم
مبارزهم له يمين نكاية ... ويسرى وقاية وذاك هو الحزم
وصاحبهم يداه لن يتفرقا ... لشغلهما بما يهيئه الضم
بكمت عراب من كِدَالَ وبكَرْنَ ... لإرهاب أعداء وتشعيب ما لموا
وما بلغوا من خربة وحرابة ... وأخفار من والوا ونقض لما رموا
فتقتيلكم للصالحين ونهبهم ... أشد وفي تقتيلهم لكم السمّ
وقتل الذراري والنساء فإنهم ... وإن أشركوا ، اضراركم بهم جرم

فهلا سألتم والشقاق مزلة ... من الحرب ، بعقده تعقد السلم
أخا الفضل سيدي البكايَ وحزبه ... فإن جدوده جدودتَكم أموا
وقانا وإياكم من الغي ربنا ... وأرشدنا إلى طريق بها نسموا
ويرزقنا اتباع سنة سيد الـ ... أنام ويهدينا إلى ما به نسموا
عليه صلاة الله ثم سلامه ... وأصحابه ما نور الأفقَ التم
وأما أخوه أحمد بن محمد بن وَنْصَطَفَنْ : فوقفت له على قصيدتين أولاهما مكتوب في أولها هكذا " أنشد أحمد بن محمد بن وَنْصطَفَنْ شاكيا إلى شيخه التقي النقي الورع الصالح المحب في الله غاية المحبة ذاك حَنَّ بن أمَّتَّال ، سوء الكسب ومشفقا على نفسه أن لا يصدر من الشيخ بأسوء الحالين الجلب والسلب . هذه الكلمة فقال :
ليت شعري والعلم لله ربي ... هل لي الجلب منك أم حال سلب
ليت شعري هل يستفيق مليم ... بعد تحلية العذار بشيب
أو يرى بعد سن ستين عاما ... قابل النصح والهدى من مرب
فعلاج الكهول خلت عويص ... في اقتياد ورعي حالي وقلبي
إنني بك سمتغيث على ما ... كان مني من اكتساب وَكسب
الوحاء الوحاء إني صريع ... للهوى والحطام جنبا لجنب لا أراني أفيق
من غمرة الغيـ ... ـي إذا لم أحل عامي شيخ جذب
همة الشيخ لا تعاظمها الأغـ ... ـيار من كل ذي سفاه وحوب
ربنا استر عيوبنا بكمال الـ ... ـدين واختم لنا بخوف وحب
أجابه الشيخ فقال :
ثق بنيل المنى بألطاف ربي ... ولطيف الحنو مني وجلب
وستأتي قصيدة الشيخ حَنَّ بتمامها في ترجمته .
والثانية مكتوب في أولها هكذا " رثي أحمد بن محمد بن وَنْسَطَفَنْ شيخه ذا المآثر العديدة والفضائل المديده ، ونْفَنْدَسَنْ (1) بهذه الكلمة فقال :
لله في الخلق تدبيرَ وتقدير ... والعبد في قبضة الرحمن مقهور
سبحانه من حكيم واحد صمد ... يحي ويفني ، وكل فيه تدبير
يقضي الأمور ولا يقضى عليه ومن ... يكره قضيته فإنه بور
بينا يهنأ مغبوط بنعمته ... إذا اعتراه معاذ الله ، تكدير
جلت مصيبتنا إذ غاب سيدنا ... وشيخنا ودم الأقدار مهدور
فأصبح الدين مغمورا لغيبته ... وألفة الناس تعلوها الأعاصير
فحق للعين إن غاضت مدامعها ... سكب النجيع ودمع الحزن ميسور
إنا له وإليه راجعون فما ... يجدي الأسى وقضاء الله مقدور
تفنى الكرام ويبقى بعدهم همج ... لا يستقل به قصر ولا عير

أدهى الرزايا وفاة عالم شهرت ... لــه المزايــا فــلا فخــر ولا زور
أكـــــرم بـــــه مرشـــــدا ينتــــاش ســــادرنا ... مـــــن غيـــــه ، ولنـــــصح منـــــه تـــــأثير
عز العلوم ورمها وتربية الــ ... أصحاب وهو بنــشر العلــم شــمهور
من للتفقد للإخوان معــتملا ... فيمــا يــدوم لهــم بــصنعه ، الخيــر
من للزيارة للإخوان في زمــن ... عــز المسير بــه وبــان تقتيــر
يا ليت شعري هل بقى بمكافئه ... وهل يلي إرثه في النــاس سرســور
يا إخوتي جددوا آثار سيرته ... وبالذي قــد علمــتم عنــده ، ســيروا
فإنكم ، والكريم مبتلــى غلــو ... يــراد مــنكم لكــل النــاس تــوقير

---

(1) 1) ونفيندسن عالم مشهور من أهل كَنْهَانْ ، وابنه محمد إِكْنَنْ أشهر منه له مؤلفات مات في أول القرن الرابع عشر ولم يبق من ينتسب إليــه بالذكور , وبنته هي أم مُحمد بضم الميم ابن موسى من كبار العلماء في وقته .

الله يكرم مثــواه ويحفظـــه ... كمــا يظــن بــه ، ممــا بــه الحــور
ويورث الرتبة العلياء خلفته ... طورا ويقضي لهم فــي الكــون تخييــر
الله يخلفنا من بعــده خلفــا ... يــسلي وتعمــر منــه الأرض والــدور
بجاه سيدنا المختار أمرنـــا ... بالــصبر فيمــا قــضاه الخــالق النــور
صلى وسلم عدّ الرمــل خالقنــا ... عليــه مــا بــان تــدبير وتقــدير

وهذان الأخواني أعني : هارون وأحمد لم أقف على تاريخ ولادتهما ولا وفاتهما ، وتيقنت معاصرتهما لمن كان في أواسط القرن الثالــث عــشر الهجري كأحمد البكا الكنتي والحاج عمر الفُوتي ، وحَــنَّ بــن أمَّتــال ، وغيــرهم
وأما محمد بن دانيال : فهو العلم الفرد ، وواسطة العقد ، وهو الذي بقي ذكره في الأفواه إلى الآن ، وهو الذي ذلل كل صــعب منغلــق وألآن ، وعنت له علماء وقته في كل الفنون ، واتخذوا قوله حجة بها يحتجون ، وعمدة عليها يعتمدون ، واعتبروه من علماء السلف ، وزينة الخلــف ، أفنى شبابه في تعلم العلم وتعليمه والإفتاء فيه ، وكهولته في التــصنيف والرد على المبتدعين ، ويوصف بأنه آية في تلقي العلوم يأخذ الكتاب في أول النهار ويفرغ من مطالعته عند غروب الشمس ويغدو في آخر حتى احتوى على جميع ما في خزائن حيه من الكتب ولم أسمع لــه رحلــة ،

ومن تآليفه " ردع الأقران عن التحكم في القرآن " تكلم فيه على أشياء كثيرة منها شروط المجتهد وعزة تحصيلها في أهل بلده وأفاد فيه علوما جمة ، ونصائح نافعة ، ومن تواليفه " رسالة في تحريم الزوجة " ومنها " الغوادي والسواري في الرد على سيد العابد الأنصاري " ومنها " الرد على رجل من مَلْخْيَا " يقال له عبد بغير إضافة ، ومنها " الرد على سيب الأماسني " ومنها " الرد على مَحمد بن الهادي السوقي " ومنها " الرد على علماء دِتِكْ في إباحتهم غزو المسلمين الذين يجاورن الإنصار بن النابغ أمير إولِمّدَنْ وقومه ، ورأيت .. بعض تلك الردود فخره بمعرفة علم الأوفاق ، ونص ما قال بعض كلام طويل " وأما استعمالنا لهؤلاء التوارق ليهزموا أولئك فلا أصل له وكلما طلبوا منا ذلك أيسناهم أن نرفع لذلك رأسا حتى ...ضهم ليغتاظ لذلك ولكن لم نترك ذلك إلا إبقاء على المسلمين ولو عزمنا على ذلك لأنجحنا الله بقدرته ومشيئته فإنا نعلم أوقات الإجابة وأسبابها وشروطها ، ونعلم الآيات التي فيها مناسبة ما صلب ، والأسماء المتاهلة لذلك عربيها وعجيها ، ونعلم الأوفاق الحرفية والعددية والخواتم ، ونعلم برج كل شخص حين استقبال الكواكب له واستدارتها بحيث يكون ذلك كله أو عليه ، ونعلم ما لو بثثناه عليكم لطارت عقولكم وتاهت حلومكم ولعجزتم عن إدراكه ، فبالله العلي العظيم السميع العليم لئن لم تدعونا لقابلناكم بجنود الله تعالى ، ولنرسلن إليكم ما لا طاقة لكم به ولا قبل " . كذا نقله عنه أخوه ومعاصره الشيخ محمد إكْنَنْ بن وَتْقَنْدَسَنْ الكنهاني في تأليف لهُ يوجهه إلى علماء أهل كَرِسْ ، وقال بعد هذا ما لفظه : " وقلت أنا ومنا من يقدر على استنطاق الحروف ، وتكعيبها واستخراج الروحانيين منها ، وتسليط العفاريت عليكم فاتركونا ما تركناكم " .

وما سوى علم الأوفاق من العلوم التي تدرس في بلادنا ثبت سبقه فيها بطريق التواتر ، وشهد له قلمه وألسنة من يعرفونه بذلك لا سيما علم الفقه أصولا وفروعا . وأما الشعر فلم أر فيه ما ينسب له إلا قصيدة واحدة قرظ بها شرحا لمحمد بن مَحمد بن ميدِ على قصيدة مُحمد بضم الميم ابن مَحمد بفتحها ابن سيدي بو بكر أولها :

غضوا عيونكم يا حزب إخوان ... وراقبوا الله في سر وإعلان ومكانته في العلوم هي التي أخذت بضبعيه ورقته فوق أقرانه حتى اتخذه سلطان السلاطين في وقته وهو الإنصار بن النابغ عضدا وعمدة يعتمد عليه في شئونه ، فتوسل بذلك إلى رد ما شاء من الأحكام التي لا يوافق عليها وإنفاذ ما يراه صوابا وصار تحت إنفاذاته كل من كان تحت ولاية ذلك

السلطان ، وحاربه كل من يحاربه . وأشد الناس محاربة له علماء دنّك فقد كثرت بينه وبينهم ماجريات حتى صاروا يعملون الطلاسم والأوفاق لإهلاكه . يحكى أن بعض أولئك الطلبة الذين يحاربونه عمل عملا يريد به إهلاكه في جوف الليل فخرج صورة سهم ذاهب إلى بلاد الشيخ محمد وصادف ذلك أن قام من مضجعه ومشى بين البقر فكوشف بذلك السهم قاصدا إليه فاتقاه بذلول من البقر فلما أصبح المستعمل قال لقومه إني عملت البارحة عملا ورميت به أهل أتَرَمْ فاتقاه شيخهم ببقرة ولو دخله هلك وهلك قومه عن أخرهم فلما دخل البقرة أيقنت أن بقر أرضهم ستفنى ، فكان الأمر كما قال وقع الوباء في البقر حتى لم يبق منها إلا أفراد عند قليلين وجل أهل البلد نفد ما بأيديهم من ذلك الجنس حتى صار ذلك الوباء آية يؤرخ بها أهل البلد ، وذلك الوباء البقري وقع عام عشر من القرن الرابع عشر 1310هـ . ولم أقف على تاريخ وفاته .

***

أما إظَبْظَبْ بن محمد : فكان علامة ولكن لم يصل إلى مرتبة أبيه ولم يصل إلي من أخباره كثير إلا أنه كان من الأمير فِهر بن الإنصار بمنزلة أبيه من أبيه في الاعتماد عليه وهو الذي حرضه على حرب فرنسا باسم الجهاد في عام خمسة وثلاثين وثلاث مائة وألف 1335هـ فلما وقعت الهزيمة على فهر ومن معه في أضرَنْبُكَرْ أخذه فرنسا في جماعة من أصحابه وماتوا في أيديهم . وأما الآثار العلمية فإن كانت له فلم أقف على شيء منها ووقفت على رسالة منه إلى أمير أشَّرفَنْ محمد إكْنَنْ بن محمد تشهد لمنشئها بالتمكن في اللسان العربي والحرص على إصلاح الأمة وعدم الخوف من ذوي السطوة إذا أراد النصح والإرشاد ولفظها بعد البسملة :

(الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، هذا وإنه بسلام يرتئب به ما الفيئ بقيل وقال ، وتضمحل به شية الركبان والرحال ، ممن لا يليق أن يقال قال ، فضلا عن التصدي للتطفل على موائد الرجال ، لولا خلو الوكور وانقلاب الأمور ظهر البطن ، وقلة الغيرة على ظهور الفتن والمحن ، الفقير إلى الله الغني المتعال ، محمد الصالح بن محمد بن دانيا إلى ابن أحداها ، الحاوي رتبة لا يدرك مداها ، الشريف الأمجد الأنجد محمد إكْنَنْ بن مَحمد . أما بعد : فدونك أحسن الخطاب ، وإياك والارتياب ، وإن استروحت فيه رائحة العتاب ، إذ ببقائه يبقى الود بين الأحباب كما قال الشاعر :

إذا ذهب العتاب فليس ود ... ويبقى الود ما بقي العتاب أيها الأخ ألم يأن

لك أن تلوم نفسك على ما سبق منك من التفريط ، في القيام بما قام به سلفك الصالح من الشروط ، الذين كالوا الأمور بمستقيم قسطاسها ، وبنوا على أشد أساسها ، وخصوا كل أحد بما استحقه ، وأعطوا كل ذي حق حقه ، فيا لهم من قادة ما أحلمهم ومن سادة ما أكرمهم ، وما أغناك عن الانخراط في غير سلكهم ، وأفقرك للجري على إجريائهم ، أين أمُّك وأين تذهب ، وأي شيء تطلب ، فليتك حين استخلفت فقحت بعد ما صاصات فتشيم بروق مزون حلومهم فترده كل زمن ، وترد موارده وتسقي حتى تضرب بعطن ومن ثم تكون مولى رماها وسماها ، ومتبوء السلكى من مخلوجة سماها ، ويهدي إليك فرقدا حسن سيرتك الراغب ، ومنار صيتك الطالب ، وتكون على بساط الرشد جالسا ، ولبرود المجد لابسا ، فحينئذ ينبعث إليك بالخاصة الأمل ، وتمد إليك أعناقها العامة لا يعتريهم في ذلك الخجل . هذا وينبغي لك أن تتقبل مني هذا وتتلقاه بيد القبول والإقبال ، وتنظر إليه بعين الرضى والإجلال ، وتأخذه باليمين ، وتشد عليه يد الضنين ، ومع هذا كله أوصيك ونفسي بتقوى الله سرا وعلانية وبها يجلب إليك كل خير ، ويدفع عنك كل ضير ، وبطاعة أولي الأمر منكم وهم العلماء العاملون بعلمهم . والسلام) .
هذا ما عثرت عليه من آثار أهل هذا البيت وفي الوقت الحاضر كان منهم متعلمون على سيرة السلف بارك الله فيهم . وبه ختمت الكلام على من مضى من بطون علي بن يحي الموجودون في قيد الحياة لم أترجمهم ، وعسى أن يأتي من يترجمهم بعد موتهم .

***

وأما غير بني علي من الدغوغيين فقد أسلفت قليلا من الكلام عليهم لعدم إحاطتي بكثير من المعلومات عنهم . ومنهم من لم أجد من أخبارهم شيئا أو اطلعت على أسماء آبائهم فأنا الحق سلاسلهم على حسب ما رأيت من الخطوط ، فقد وجدت من سلسلة أهل وَام ما لفظه : (إِلّ بن محمد الصالح بن إِنْكَسُنَنْ بن إِسَالّسْ بن حمَّ بن إبراهيم بن محمد الصالح عرف بأكَلِيكَ بن عال بن أَيِّنْ بن آلَ بن تَكَانَ بن مُحمد بن مَحمد بن أبي بكر ذي الفيلة ابن عثمان بن تُدكِنْ بن طَيْدَرَتْ بن أكَّار بن إبراهيم الضغوغي) إلى آخر ما تقدم من نسب إبراهيم .
ووجدت من نسب آخر : (عبد الله ـ المعروف باسم تُتَّا ـ ابن موسى بن إِدْوَلْ بن محمد المصطفى بن محمد المختار بن أحمد بن باب بن

وَنَتَقْ بن أَيِّنْ بن آلَ) . إلى آخر ما تقدم من نسب إِلْـلْ . ونسب إِلْـلْ مصحح من خط ابن عمه محمد الأمين بن تَكَدُتْ .
ومن بني عم عبد الله موسى أحمدُ بضم الدال المعروف باسم أَخَّمْ الساكن في أرض بَنْكَلَرَيْ وهو : (ابن محمد المعروف باسم هَنْبَلٍ بن محمد المختار ، ويجتمع مع عبد الله بن موسى في جده الثاني محمد المختار بن أحمد بن باب ...الخ) .
ووجدت بخط آخر في نسب أهل مَرْسٍ ما لفظه : (يحي بن جابر بن هَمّهمّ بن المنصور بن إِمِشَكّغ بن محمد أحمد بن أَعَالَّ بن أحمد بن الحسين بن الصالح بن بايْ بن آل بن موسى بن أبي بكر ذي الفيلة بن عثمان ابن تُدَكِنْ بن ظَيدَرَتْ بن أكار بن إبراهيم الضغوغي) .
قلت : ومحمد أحمد بن أعالّ الذي هو الجد الرابع ليحي هو الجامع لفصائل أهل مَرْسٍ إلا أهل بيت آرَ فجدهم أخ لمحمد أحمد وأُعالّ هو الجامع لحي أهل تِمُكَسِنْ وحي أهل أضغاغ وجدهم اسمه محمد الطاهر .

***

الباب الخامس

على الكلام على من ينتمي إلى القرشية من غير الدغوغيين وهم قسمان :
1 . قسم ينتمي إلى الفهرية دون الهاشمية .
2 . وقسم ينتمي إلى الهاشمية .
وفيه فصول :

الفصل الأول

فيمن ينتمي إلى الفهرية من السوقيين الكنتيين وهم بنوا يوسف بن يعقوب بن محمد الكنتي بن علي بن يحي بن عثمان . ومحمد الكنتي هذا هو الجامع بين الكنتيين الصائرين إلى الاندماج في جماعة السوقيين ، وبين بني عمهم الباقين على العروبة الذين يجمعهم أحمد البكا بن محمد الكنتي ، وقد ذكر الشيخ المختار بن أحمد فضائلهم وسماهم بأسمائهم ولم يدخل فيهم بني عمهم السوقيين لانفصالهم عنهم ، فذكر أولاد أحمد البكا،وسكت عن أبناء أخيه يعقوب ، ولم ينف عنهم أنهم من بني عمهم بل جرت له أمور معهم يعترف فيها بأنهم من بني عمه وإن صاروا يتزينوا بزي غير زي قومه .
وأهل هذا البيت يرفعون نسبتهم إلى عقبة المستجاب ولا يميلون إلى

أنساب جيرانهم المخالطين لهم بالقرابة والجوار ، فمنهم من كان مع أخوال له يحوزون الهاشمية ومنهم من كان مع أخوال له يحوزون الأنصارية ، لا يفارقونهم ولكن لا يدعون أنهم من بني عمهم ويحوزون بنوة العم لجماعات بعيدين منهم في الوطن وذلك لشدة محافظتهم على النسب الذي حازه أسلافهم منذ قرون ، ومباعدتهم من ادعاء نسب غيره وعندهم خطوط قديمة يضبطون بها أنسابهم . وهاك سرد سلسلتهم على ما في الخطوط القديمة ، وأبدأها بالموجودين معي الذين هم أقرب نسبا وجوارا ، ثم أصلهم بمن وقفت على سلسلة آبائه حتى اجتمعوا بهم في بعض الجدود .

أما الموجودون معي فهم : أبناء الشيخ حَمَكُ ويجتمع فيه أبناء الشيخ محمد أحمدُ بضم الدال وأبناء الأمين .

أما الشيخ محمد بن أحمدُ : فهو ابن الصالح المعروف بقُكَّ وهو ابن مَحَا بن محمد الشيخ بن حَمَكُ . والشيخ محمد أحمدُ : هو والد أحمد والد الحسين . ومحمدُ كدُ وهو أيضا والد الفتي والد أحمدُ وهو أيضا والد محمدُ بضم الدال الذي هو أبو لوط وأحمد ومُحمد . وأما الشيخ الأمين : فهو ابن مَتّال ومحمد بن محمد الصالح والمحمود بن أحمد . ومتّال اسمه محمد الصالح أيضا وله أخوان أحدهما يشاركه في الاسم والآخر اسمه أحمدُ .

أما متّال : فهو والد الشيخ عبد القادر الذي ستأتي ترجمته إن شاء الله . وهذا رفع نسب جدهم الجامع حَمَكُ على ما في الخطوط القديمة : (هو ابن محمد إكْنَنْ بن إكَولْ بن أبي البتول بن آكَّ بن أحمد بن بُهَبَّ بن عبد الملك بن يوسف بن يعقوب بن محمد الكنتي بن علي بن يحي بن عثمان بن أبي بكر بن يَهُسٍّ بن أقرد بن محمد ابن هنطلفع بن يبن بن يحي بن علي بن بلم بن دومان بن وارث بن عقبة المستجاب بن نافع بن عبد القيس بن لاقط بن عامر بن ضريب بن أمية بن الحارث بن ضبة بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة...الخ) .

أما بنوا عمهم أولاد حَمَكُ : فهم موجودون في حي كَلْ كُنْهَانْ وجدهم محمد بن إكَولْ . والموجود منهم في الوقت الحاضر أبناء سهل ، وأبناء محمد يحي الملقب بالْبَرْبُوش وأبناء فكْني

أما رفع نسب سهل فهو : (أن أباه أحمدُ بن محمد بن أحمد بن محمد الطاهر بن سيدي باد بن محمد بن آي بن محمد بن إكَولْ) .

أما محمد المعروف بالْبَرْبُوش : فهو (ابن يحي بن حمّات بن محمد بن أمَّقَّ) أخي محمد الطاهر المتقدم في نسب سهل .

وأما فكّني : فهو (ابن محمد بَا يزيد بن محمد أحمد بن حمكّادَّ أخي أمَّقَّ ومحمـــــــــــــــد الطـــــــــــــــاهر) .
وجميع حي أهل كُنْهَانْ من ذرية هؤلاء الأجداد مـــن جهـــة الأمهـــات . ورأيت أقواما يقولون إنهم من أهل هذا البيت ولكن لم أر سلسلة نـــسبهم حتى أعرف من يجتمعون فيه مع من قدمت سلاسلهم ولا أدعي حـــصر أهل هذا النسب فيمن ذكرت لأني لا أعرف إلا من أجاورهم منذ قـــرون وتفرعوا من أجدادي وتفرعت من أجدادهم ولا مانع من أن يكـــون لهـــم إخوان لا أعرفهم . وأما محمد الكنتي الذي هو الجد السادس عشر للشيخ الفتي ومن يساويه في رتبة النسب من بني عمه ، وهـــو الجـــامع بـــين السوقيين الكنتيين وبين العرب الكنتيين . فيقال إن سبب تسميته بـــالكنتي على ما نقلت من خط الشيخ الفتي بن محمد أحمدُ ناسبا له إلى من قبلـــه بصورة البلاغ أنه يسيح بالأفكار في منازل الأذكار فكلما ترقى من مقام من مقامات الحب والفنا تحدث بما أنعم به عليه وقال كنت في مقام كـــذا فنسب إلى قوله " كنت " كما ينسب إليه الـــشيخ الـــذي يقـــص الأخبـــار الماضية ويقال من ديدن آبائه كابرًا عن كابر أنه ينظـــر الوالـــد بمـــرآة الكشف إلى أولاده حتى ينظر من هو أحق بإيداع راية جهـــاد الـــنفس ، وأنوار التقمص بلباس الأنس ، فيدعو له بالتعمير ليـــرث ســـره ، فلمـــا علمت أم أولاده أنه حان وقت نظره إلى أولادها ليختار منهم من يـــدعو ببقائه ويدعو على الآخرين بالموت ، ذهبت إلى أبيها وأخبرته وطلب منه أن لا يدعو على غير من اختار من بنيها ، فقال لها إذا خرج إلى الخلوة فاتبعيه من غير أن يشعر فإذا وصل على المحل الذي يدعو فيه فاعلمي أنه بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم وقولي له أسألك بحق من تناجيـــه أن تترك لي أولادي ولا تدع عليهم ، فقال لها لك ذلك لكن لـــو تركـــت الأمر على قانونه لم يولد ولد من ذريتي إلا وهو يبلغ الدرجة العليا مـــن الولاية إلى انقضاء الدنيا ولكن سوف يوجد فيهم العارف إلى آخر الدهر ، ثم قال الشيخ الفتي هذا ما أخذناه من أفواه الكبار . وقيل تلك الأم مـــن قبيلة ابدُكَلْ . اهـــ . ما نقله الشيخ الفتي بن محمد أحمدُ من أخبار هـــذا الشيخ ولم ينقل شيئا من أخبار من بعده من الأجداد مـــع البحـــث عـــن أخبارهم إلى جده الرابع حَمَكُ وهو الذي قام بتدوين ما بلغه من أخبـــار أهل بيته وترجمة بعض أعيانهم ، وليس عندي زيادة على ما كتب بـــل أستفيد منه وأنقل كلامه على من ترجمهم ، ثم أترجم من لم يترجمهم من الذين أدركتهم .أما الذين ترجمهم فأولهم جده الرابع حَمَكُ ترجمه ترجمة واسعة وصفه فيها بالشفقة على الجار والقريب والإكثار من تلاوة الذكر

الحكيم وتدريس العلوم الشرعية ، ثم قال ومن اعتنائه بالعلم نسخه للكتب العلمية بيده ففي أيدينا نسخة شرح الخرشي على مختصر خليل بخطه والقاموس ، وكتاب الشفا للقاضي عياض . واتفقت الكلمة أنه يؤدي الأمانات إلى أهلها وصار ذلك سننا لأولاده حتى أن بعضهم يأبى من حملها فكان ذلك فيما بينهم كالمثل السائر ويتواصى بنوه بذلك إلى الآن . وقيل كان لا يقسم بالله قطعا . اهـ المراد مما كتب ولم يذكر ميلاده ولا وفاته ولا شيوخه ولا تلاميذه وهو مدفون في مقبرة إِنَغْوِيْ . ثم كتب الشيخ الفتي بن محمد أحمد عن جده محمد الشيخ بن حَمَكُ ما لفظه : عندي من إمارات كونه من علماء السنة حاشية الجلالين ، والعهود المحمدية ، وقد هيأ له أبوه حَمَكُ سلالم يرتقي بها إلى مرتقي العلماء المحققين . إهـ ولم يذكر شيئا عمن بعده من آبائه إلى والده الشيخ محمد أحمدُ فإنه لما تكلم عنه أطنب بعبارات لا تفيد شيئا عن حياته وإنما أفادت تمكن المترجم نفسه من اللغة العربية ومعرفته عبارات الأدباء المتأخرين . والغرض مما كتبه عنه من حيث التعريف به وبحياته ومن أخذ عنهم ومن أخذوا عنه : أنه أخذ التفسير عن الشيخ مَدَوْ ، وحضر مجلس محمد الصالح بن محمد بن ميد في التفسير بعد ما أخذ علم الأدب عن مَدَ أحمد ، وحاضر الشيخ محمد بن دانيال ، وتفقه على يدي عَمَّنَا بن أحمد وابن عمه أحمد بن الصالح كَ ، وطالع كتاب العهود المحمدية في طريقة السادة الصوفية ، ثم صار من كبار الشيخ حماد بن محمدُ . وأما المستمدون منه فهم محمد بن محمد محمود مفسر أهل تَبُورقْ ، وسعد الدين بن عُمار مفسر أهل تَكَلَّتْ ، ومحمود بن محمد الصالح ، ومتَّال ، وأحَمَ ، وبعد هؤلاء ابنه أحماد وحمّد ابن محمد ، وحُميد بن عبد الرحمن ، ومحمدُ بضم الدال بن عبد الله بن الميمون ، وأحمدُ بضم الدال بن الأمين ، ومحمد الأمين بن محمد بن عَمَّنَا ، وسَولَّ بن داوود ، وهؤلاء كلهم جماعته الذين يجاورونه ، وعَال وأخوه إغْلَسْ ابنا محمد بن اليماني وهما من حي كَلْ تَمُكَسِنْ . وأخذ عنه عُمر بن إِنْكَسُنَنْ من أهل تَمُكَسِنْ علم البيان ، وهذا لم يذكره الفتي ولكني سمعت أنه هو الذي أخذ عنه البيان ، وأخذ عنه من الإسحاقيين المنير بن آدم ، وعَمَّنا حَنَّ أخو عبد السلام ، هذا خلاصة ما ذكره من شيوخه وتلاميذه ولم يذكر مولده الزماني وذكر أن مولده المكاني تِنْ تَبُورَغِنْ قريبا من أضَرْ نَمِلْ وأرخ وفاته بربيع الثاني من عام 1344هـ .ثم كتب عن ابنه أحمَادْ : ما حاصله أنه تربى في حجر والده وتعلم منه العلوم والآداب ولم يفارقه منذ ولد إلى أن مات والده وكان سائرا بسيرة والده ومتخلقا

بأخلاقه ومتأدبا بآداب آبائه ولم يزد على ذلك كثيرا وترك من أخباره أن والده مات عن صغار ابنين وابنتين فأحسن القيام عليهم حتى بلغوا ولم يذوقوا من مشاق اليتم ما يذوق غيرهم ، وكان معه في تربية صغاره التربية الإسلامية كثير من إخوانه الذين تتلمذوا على والده وكانوا حريصين على أن ينال الصغيران ما قدر لهما من ميراث أبيهما فحالوا بينه وبين تعليمهما حتى نشئا عالمين وشدا أزره وأحسنا إليه بعد الكبر كما أحسن إليهما في حال الصغر تقبل الله منهما ومنه وتوفي عام ثلاث أو أربعة وسبعين وثلاث مائة وألف 1374هـ ودفن في مقبرة تُونِيَ . ثم كتب عن شيخه وابن عم أبيه محمد الصالح المعروف بمتّال بن الأمين ، وصنع في الكلام عنه كما صنع في الكلام عمن يترجمهم من العلماء الذين ترجمهم من أهل بيته وغيرهم وهو الإطناب في الثناء بعبارات رائقة ولم يؤرخ مولده ، وذكر من شيوخه أنه أخذ القرآن عن أحمدُ بالضم الدال بن الصالح بن محمد المصطفى والنحو واللغة عن شيخ أهل تَبُورَقْ في وقته حامَّ بن مَحمدْ والفقه عن ابن عمه محمد أحمدُ بن فُلكّ والتفسير عن محمد الصالح بن مُحمد ميدِ من أهل تَكَلْتْ وشيخه في طريقة الصوفية حماد بن محمد من أهل تَبُورَقْ . وأما الآخذون عنه فذكر منهم نفسه يعني محمد الصالح المعروف بالفتي بن محمد أحمدُ وأخاه محمدُ القاضي ومحمد الأمين بن محمد بن عَمَنْا ومحمد بن عبد الرحمن بن الميمون وابن المترجم محمدُ الياضُ بضم الدال وأحمد بن عبد السلام من دو إسحاق وكثير من قومه . وله قصائد كثيرة ولم ينسب له منثور . هذا ما كتبه . وقلت زيادة على ما كتب هو من أهل التقوى والورع ومن ورعه أنه أفنى عمره في التعلم والتفقه ولكن لا يقضي ولا يفتي فإذا تعين عليه أن يقوم شيئا في النازلة لعدم من يحيل إليه المستفتي أخذ الكتاب وقرأ ما فيه ثم يقول لغيره ترجم للناس ما في الكتاب فإني لا أحكم وصحبته مرة وأنا شاب لم أقرأ الفقه ولم أقر إلا النحو واللغة فكان إذا سئل عن شيء قرأ في الكتاب ما يتعلق بالنازلة ثم يأمرني بترجمته لئلا يكون قاضيا أو حاكما وأكثر شعره في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ثم في مدح شيخه حماد والتعلق بذيله وذب المنكرين عنه وله أشعار في الردود على مخالفيه في المسائل وهي كثيرة ليس عندي منها شيء وكان نحويا فقيها أصولا وفروعا بيانيا منطقيا له حظ وافر من جميع الفنون ولكن أحب الكتب إليه ما يتعلق بالتصوف من علوم القوم ومن كراماتهم ، وكان شديد التعظيم والاحترام لأهل العلم ولأهل البيت النبوي ، وكان يبذل جهده في نصح المسلمين ونفعهم رحمة الله عليه

وتاريخ وفاته 1373هـ وزاد على السبعين ولعله وصل الثمانين ودفن في مقبرة نُونِيَ .

وأما من لم يكتب عنهم شيئا ولم أحتج إليه في الأخبار عنه أني رأيتهم فمنهم :

الشيخ الأمين والد متّال الذي ترجمة :

يعد الأمين بن ممّا بن أحمد بن حمَكُ من كبار العلماء والأتقياء ومن أهل الأدب والمروؤة وكان في أول أمره يطالع الكتب ويحضر مجالس العلماء فلما طعن في السن أعرض عن كل شيء سوى ما يتعلق بأمور الحياة الدنيا وما يتعلق بالعلوم والإفتاء وأقبل على الإكثار من تلاوة القرآن والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وكان ذلك ديدنه حتى مات 1358هـ وله كرامات تحكى ومدفنه في مقبرة ولَتْ سَكَيْ .

***

ومنهم محمد الصالح بن الأمين صغير متّال وشقيقه : ولا يعرف الفرق بينه وبين كبيره لأن كلا منهما اسمه محمد الصالح إلا أن الكبير يلقب باسم متّال ، كان من أهل العلم والصلاح وكان كثير الصمت وكثير الذكر حييا وقورا جيد الخط نفع أقاربه بماله وبخطه وبحسن العشرة وليس له أثر منظوم ولا منثورا ، و كان من حيائه وورعه أنه لا ينسب إلى نفسه قولا في المسائل العلمية بل يحيل السائل على غيره وإن كان يعرف ما سئل عنه ، مات سنة ثمان وستين وثلاثة مائة وألف 1368هـ وهو في مقبرة إنمّنَسْ

***

وأما أحمدُ بضم الدال بن الأمين صغير أخويه المذكورين : فهو من العلماء الأفاضل ومن أهل الصلاح والتقوى والمروؤة ، وكان نحويا فقيها يدرس في النحو وفي الفقه ويجيد التعبير والتفهيم حتى رغب أكثر الطلبة في الأخذ عنه لأنه لا ينغلق تعبيره عنهم وكل مشكل عرض في الدرس عبر عنه بما يوضحه للسامع ، و كان محبا للعلم وأهله ومعظما لشيوخه ، أخذ عن شيوخ كثيرين من أهل بلده منهم الشيخ سعد الدين بن عُمار .

ومنهم محمد أحمدُ بن فُلَكَّ ،

ومنهم محمد بن محمد محمود :

وكان حريصا على حضور مجالس الدروس ولا يستنكف أن يأخذ عن من كان أصغر منه سنا ، وكان يفتي بمشهور مذهب مالك ولا يعدل عنه ولم يكن كأخويه الذيْن رفضا الحكم في النوازل لأجل الورع ولم يكونا

فيما يظهر أزهد ولا أروع منه ولكنه يفتي ولم أر له منثورا ولا منظوما إلا قصيدة واحدة في الذب عن شيخه وأهل بيته ، وأولها :

غضب الزمان علي إن لم أغضب ... من أغضب الجبار في آل النبي

ولم يرحل عن أهله في طلب العلم بل أخذ عن شيوخ قومه ورحل إلى الحرمين حاجا ولقي في تلك الرحلة بعض العلماء وأخذ عنهم مات عام أربعة وتسعين وثلاث مائة وألف 1394هـ ودفن في مقبرة كَرَيْ . ومنهم أولاد متّال الثلاثة الذين لم يتركوا أثرا ولكنهم من العلماء وهم أحمدْ بسكون الدال ومحمد أحمدُ بضم دال أحمدُ ، ومحمد بضم الدال ، أما الأولان فلم يعيشا طويلا ولم يتركا أثرا يذكر . وأما محمدُ بضم الدال فله من القصائد كثير وله رسالة في الكلام على الذكر ولكن ذلك كله ضاع رحمة الله على الجميع . وابنه عبد القادر هو الذي عاش بعد إخوته سنين .

ترجمته هو الشيخ عبد القادر بن محمد الصالح ويعرف أبوه باسم متّال ولد عام خمسة وثلاثين وثلاث مائة وألف 1335هـ في منازل قومه من الصحراء في أعمال كاو وتربى في حجر أخواله سعد الدين ومحمد أحمد وأحمد أبناء عُمار وتأدب بآدابهم السني ، والمتولي لتلقينه العلوم منهم الشيخ سعد الدين وهو الذي خصه بأن لا يسميه باسمه بل يطلق عليه اسم شيخي أخذ عنه شيئا من القرآن ولم يتمه إلا بعد ما فرغ من قراءة علم النحو وشيء من العقائد والفقه المالكي وكان تلقى هذه العلوم في زمن صباه ولما شب أقبل على حفظ القرآن برواية ورش كما هو عادة قومه واشتغل بذلك حتى أتم حفظه ولم يزل على ذلك الحفظ لم ينسه حتى مات ولما فرغ من حفظ القرآن اشتغل بعلم اللغة وعلم البلاغة حتى أتقنهما ثم اشتغل بعلم الفقه المالكي والتفسير وقراءة الحديث وكان له حظ غير قليل من علوم القوم وآدابهم ، وأخذ العلم عن جماعة من قومه منهم ابن خالته حمّدًا بن حدي ، ومنهم الشيخ والده محمد الصالح وأخوه أحمدُ ومنهم محمود بن محمد الصالح ، ومنهم حُميد بن عبد الرحمن الأنصاري ومنهم الشيخ المحمود بن الشيخ حماد وكثير من علماء قومه ولم يرتحل إلى الخارج في طلب العلم وأجازه جماعة في كتب الحديث منهم خاله سعد الدين ومنهم محمود بن محمد الصالح ومنهم إسماعيل الأنصاري الذي صار إلى الرياض وعمل في دار الإفتاء وكان عضوا في هيئة كبار العلماء هناك وكان من قبيلة المترجم ولكنه هاجر إلى البلاد المقدسة وبقي فيها إلى أن مات في الرياض ، وكان عبد القادر نقالة للعلم كثير الاشتغال بنقل العلوم من سائر الفنون ، ولا يفارق الدواة والقلم ، وكان

كثير التعليم لصغار قومه وشبابهم يقرئ الصغار القرآن ويدرس الشباب في النحو اللغة وانتفع بعلمه كثير من الناس من قومه ومن غيرهم وكان حبيبا وقورا كثير الصمت متباعدا عن فضول النظر والكلام حتى صار مثلا في الصلاح والإقبال على ما يعنيه والإعراض عما لا يعنيه ، ومن صمته أنه قرأ الفنون التي تقرأ في بلاده وأتقنها ولكن لا يعرف من لا يخالطه أنه يعرف شيئا إلا أن يرى شعره أو إنقاله من الكتب وشعره كثير جيد جله في المديح النبوي ومد شيخه في الطريقة وفي زمان شبابه له كثير من القصائد الإخوانيات وكان مجيدا في تلك القصائد ، ومن قصائده تقاريظ لمؤلفات إخوانه وضاع كثير من ذلك وبقي منه قليل ومما بقي من تقاريظه ما قرظ به الشيخ المحمود بن الشيخ حماد حين فرغ من كتابه

" التبر التالد " وهو موجود في الكتاب المقرظ ، وقرظ جواب العتيق بن الشيخ سعد الدين للشيخ سيد محمد بن بادِ الكنتي في مسألة الحج بالطائرة وأرسل إليه سيدي محمد قصيدة فيها شيء مما لا يليق بما قاله في قصيدته وكان غاية في القدرة على جوابها لكنه أعرض عن مجاوبته وقابله بالإعراض . ولم يزل مقبلا على التعليم ومطالعة الكتب والتخلق بأخلاق السلف الصالح والتأدب بآدابهم حتى مات في عصر الثلاثاء 11 رمضان عام 1414ه الموافق 22 فبراير 1994م في ينامي عاصمة النيجر ودفن في مقبرة كودَالْ إحد أحياء العاصمة غربا

***

ترجمة الشيخ محمد الصالح المعروف باسم الفتي ابن الشيخ محمد أحمد :
هو من العلماء العاملين مات أبوه صغيرا وتربى في حجر كبيره أحمد وأخذ العلوم الشرعية عن شيوخ من حيه ، منهم محمود بن محمد الصالح وهو شيخه في أيام صباه ، ومنهم ابن عم أبيه الشيخ محمد الصالح المعروف باسم مَتَّالِ بن الأمين وأخوه أحمدُ بضم الدال ابن الأمين ، ومنهم حُميد بن عبد الرحمن الأنصاري ، ومنهم ابن عم أمه الشيخ سعد الدين بن الشيخ عُمار وابن أخته حمّدا بن محمد بن حدي ، وكل هؤلاء ممن أخذوا عن والده ومنهم الشيخ المحمود بن الشيخ حماد شيخ الشريعة والطريقة في قومه ، وأجازه شيوخه رواية كتب الحديث وممن أجازه ابن خال أمه إسماعيل بن محمد الأنصاري المهاجر إلى الحرمين ثم استوطن الرياض . وأما الآخذون عنه فلا يحصون لأنه انتدب للتدريس في النحو والفقه وربما حضر درسه جماعات لا يسعني إحصائهم وكان ماهرا في علوم النحو والبيان واللغة والفقه المالكي ، وكان أديبا وقورا أحسن الخلق

والخلق حكميا ينطق بالحكم مع كثرة الصمت ، وكان له منظومات ومنثورات كثيرة فقهية ومنظوماته في الفقه منظومة جمع فيها نظائر ذات الوليين من المسائل التي تفوت فيها الزوجة على الزوج الأول لدخول الثاني واسمها " ترقية الأفهام " وشرحها زين الدين بن محمد الصالح بن الميمون بشرح سماه " تنقية الأوهام في شرح ترقية الأفهام "وهو مفيد جدا ، ومن منثوراته تراجم وضعها لبعض الشيوخ وأجاد فيها وأطنب ، منها ترجمته لوالده ومنها ترجمته لشيخه مَتَّال ، ومنها ترجمته لشيخه محمد بن محمد محمود ومَهَامَ ، وله شعر كثير جيد في موضوعات شتى منها المديح النبوي ومنها الإخوانيات الجارية بينه وبين أقرانه ومنها ما يخاطب به الشيخ المحمود ، ومنها تقريظه لكتاب " التبر التالد " وضاع أكثر منظوماته ومنثوراته في كارثة كاوَ الواقعة يوم الأحد 17 من جمادي الأول عالم 1415هـ وبقيت من شعره بقايا منها تقريظان وضعهما على " التبر التالد " للشيخ المحمود أولهما رويها حرف السين والثاني رويهما حرف القاف ، أما السيني فأوله :

وافى منصف دار راسخ راس ... مستطرفا ، فعلى الخدين والراس
ما راقني ذهب إبريز موهبة ... أغلى ومعدنه يعلو على الناس
زاحم على سلسبيل فار من قمر ... ثان إلى الشفع في روضات قرطاس

مر إلى أن قال :

قد صعد النظرين وهو ذو قدم ... حتى رأى والدا بمظهر الراس
فالبَر لم أعن ضد البحر ، حمل ما ... للأصل من خلق ، أوساط أطراس
أدى معاني في مستخلف ، خلف ... والأمر مشترك فالشهد بالكاس
وشى وأنفق عسجدا ومن طرف ... يسخو أعلى الأذان فهو المنفق الكاس
ناهيك من مدح شتى ومن منح ... من وصف الأول أو من وصف إلياس

وهي اثنان وثلاثون بيتا . وأما القافية فأولها :

أفاق القلب لا ما إن أفاقا ... رأى نورا جلا واضاب فاقا
متى ما رمت تدركه فهيئ ... مطيات الحقائق ، لا حقاقا
وهبه مصنفا وشاه دار ... يوضح فن معرفة فراقا
فأعرب عن علوم القوم ضمنا ... وفي المقصود حررها انطباقا
لئن ظهروا طوالع في علوم ... فقد نال أطلاعا واعتلاقا
بتبر تالد بيني قصورا ... من المعنى يرونقه رواقا

وهي خمسة وأربعون بيتا . وله قصيدة أخرى يخاطب فيها ابن خاله العتيق بن سعد الدين ويدعو له فيها بمناسبة بنائه دارا وهي هذه :

باسمك اللهم بارك في العتيق ... إن يقم بالغرب أو أم العقيق
واهدنا فيمن هدوا واتبعوا ... سنة الهادي وساروا في الطريق
واجعل الدار التي قد شادها ... ظل علم للتقي فيها البريق
إن أتاها جاهل مستغرق ... قام بالفور لإنقاذ الغريق
أو أتاها سائل نال المنى ... أو أتى عطشان أسقاها المذيق
أو أتاها عاقل زاد النهى ... أو أتى الزائر فالوجه الطليق
يرتع العالم في روضاتها ... أسر ترحيب وتسليم أنيق
حي في عفو وفي عافية ... فاعلا في كل أمر ما يليق
بالذي طاف نبيا مرسلا ... أو نبيا أو وليا بالعتيق
أسلمي يا دارُ مما يختشى ... ومن الشوم ، فشوم الدار ضيق
أسلمي يا دارنا من طارق ... غير من يأتي بخير من صديق
صل يا رب على خير الورى ... طه ، من تصديقه أمر حقيق
وعلى الآل الأولى قد طهروا ... وعلى الأصحاب يا نعم الرفيق

ومن شعره قصيدة هنأ فيها الشريف العربي الشِنْبَكْنِيَّ مولاي زيدان ، ومن موجها أنه هو القائم بأمر جماعتنا في الحج عام ألف وثلاث مائة وتسع وتسعين 1399هـ وكان العتيق بن سعد الدين هو الواسطة بينه وبين الجماعة في جميع ما يتعلق بسفر حجهم ، وفي تلك المدة ولد لمولاي زيدان ولد سماه عَلِيّا فقال الشيْخ الفتي في ذلك هذه القافية :

من أديم شمس الضحى خذ رفيقا ... كي تحمله السلام الحقيقا
واقتبس من ضياء بدر الدياجي ... للتحايا ما لا يزال أنيقا
ثم أوصلها لحضرة واف ... يرتضيه عدل يسمى العتيقا

في مهم قد كان رائد قوم ... فانثنى قائلا وجدتم صديقا
هبه طلا يدعى يزيد مثنى ... زيد رفعا وعيشة لن تضيقا
بارك الله فيه كان دليلا ... سائس الركب فالعقيق العقيقا
حين جاء العتيق وهو بشير ... بالحجيج أبديت وجها طليقا
رب ظن يقوى وظنني بزيد ... أن يكون لنا شقيقا شفيقا
ها وبشرت ثانيا بهلال ... من بدور فالبدر نال الشقيقا
إن يوم السرور بابنك عيد ... للمحب يكسو الصديق البريقا
فاستجيب دعاء داع بخير ... لكما ذا قرابة أو صديقا
أنت مسك فالابن نفحة طيب ... أنت زيد فالزيد للزيد سيقا

كنت عذب الخصال فالابن يرجي ... أن يكون برا يحاكي الرحيقا
إن بعض الرجال مصباح ركب ... كم يبين للرفاق الطريقا
إن في الشرفاء خيرا كثيرا ... فالسعيد من نال منهم رفيقا
وتوفي عصر الأحد آخر يوم من صفر عام 1410هـ الموافق يوم من وسنة 1989م ودفن في مقبرة وادي الشرف .

الفصل الثاني

فيمن ينتمي إلى الفهرية من الكنتيين الباقين على العربية وهم بطون عديدة :

1 ـ منهم أولاد الوافي .

2 ـ ومنهم الرقاقدة .

وكثير من القبائل ذكرهم صاحب الطرائف وذكر أن جامعهم أحمد البكا بن محمد الكنتي وسمى فصائلهم والذين ذكر فيهم المشيخة أولاد أحمد الرقاد وأولاد الوافي .

أما أولاد الرقاد : فإنما ذكرهم في سلسلة المشائخ الذين يؤخذ عنهم الورد القادري .

***

أما أولاد الوافي : فهم المشهورون في بلادنا بالعلم والولاية وجميع الفضائل وأشهرهم في ذلك المختار بن أحمد بن أبي بكر بن الوافي وهو المسمى في بلادنا بالشيخ الكبير متى أطلق اسم الكبير وتبعه في ذلك أولاده وأحفاده بحمد الله ، والشيخ المختار تغني تسميته عن ترجمته وهو بحر من العلم يقذف بالدرر النوادر في كل فن وألف في سائر الفنون وأفاد ، وهو الذي كان سبب وصول الورد القادري إلى أهل السوق أخذه عنه الشيخ حَنَّ بن أمَّتَّال السوقي الأنصاري ثم انتصب حَنَّ للمشيخة فيه وتتابع كبار المشائخ على أخذه عنه .

وأما مؤلفاته وقصائده : فيضيق الوقت عن طلب إحصائها وأكثر قصائده في الدعاء والمدائح النبوية ، وألقي عليه القبول وسخر له الخلق في زمانه يستوي في ذلك التسخير العلماء والعامة والملوك والجبابرة ، وأما تسخير الجبابرة له فيكفي منه ما ذكره صاحب الطرائف أن كَاوَ الذي تغلب على بلاد الطوارق والسودان ومن فيها من العرب وهو جد سلاطين إولمّدن الذين يتغلبون ويتأمرون في بلاد كَاوًا وتنبكت قبل

الاستعمار الفرنسي وفي بلاد مَنَكَا خاصة بعد الاستعمار هو الذي ذكر صاحب الطرائف أنه جاءه مع أخيه أكَادَدُ وقالا له نحن لك كالعبيد المماليك فمرنا بما شئت . وذكر أيضا أن أمّا والد كَاوَ أتاه مرة فأهدى له الشيخ فرسا قل له نظير فقال له الأمير أمّا إني حين خرجت من بيتي قسمت الناس إلى ثلاثة أقسام صاحب مال يتحفني بشيء من ماله وصاحب حاجة أو ظلامة أقضي حاجته أو أزيل ظلامته ، والثالث رجل صالح ذو بركة أنال بركة دعائه ، أما الأولان فقد ظفرت بهما ونلت من مال أهل الأموال وقضيت حوائج الضعفاء وأزلت الظلم عن المظلوم ، وأما الثالث فإنما أتيتك رجاء أن تكونه فادع الله لي بقضاء حوائجي ، وأما فرسك فرد عليك . والخوارق التي حصلت على يديه في حق أحبابه وفي حق أصدقائه لا تحصى وأخباره هي موضوع كتاب الطرائف والتلائد لابنه سيدي محمد وهو كبير الحجم أجاد فيه وأفاد . وتوارث بنوه من بعده ما ناله من التعظيم والقبول ومن بث العلم ونشرها . ومن أشهر أولاده الذين فازوا بوراثته خليفته بعده وهو سيدي محمد صاحب الطرائف وهو الذي ورث علومه ومقامه ، وكان كوالده كثير التأليف النثرية والنظمية ومن رأى أثره في الكتب ولم يعمه الحسد والبغض اعترف بأنه لا نظير له في وقته أو قليل النظير .

ومن أشهر أولاد سيدي محمد ثلاثة من بنيه وهم المختار بن سيدي محمد الذي يقال له بَادِي جد أمراء كُنْتَ فقد كان مشهورا بالولاية العظمى ويعد من الأقطاب المقبورين في تنبكت .
ومنهم أخوه أحمد البكا : الذي كان مشهورا في وقته بجهاد أهل البدعة حتى جرت بينه وبين أهل سيغو حروب دامية وقصائد فخرية وجرى بينهَ وبين الحاج عمر الفوتي مثل ذلك ولقب في أتباعه بأمير المؤمنين ، وكان ممن يجمع بين الحديث والفقه مخالفا لأهل الجمود على التقليد الذين لا يرون التفقه إلا بقراءة الفروع ولا يقرءون الحديث إلا تبركا ويرون في ذلك النجاة في دينهم ودنياهم فلما نظر أحمد البكا في حالهم رد عليهم بما مخلصه أن الاقتصار على كتب الفقه مع الإعراض عن كتب الحديث طريقة عمياء والاقتصار على كتب الحديث مع الإعراض عن أقوال العلماء طريقة عوراء والجمع بين قراءة الحديث للتفقه والتبصر وقراءة كتب الفقه هو الطريقة الأمثل وأطال في ذلك الموضوع وأفاد وأجاد .
ومن مؤلفاته كتاب يرد فيه على واحد من التجانيين سماه " فتح القدوس في الرد على أكَنْسُوسْ " وأكَنْسُوسْ رجل مغربي كان تلميذا للشيخ

المختار الصغير أخي أحمد البكا وأخذ عنه الورد القادري ثم تحول إلى التجانية فأنكر عليه أحمد البكا وجعل يذكر له مناكر التجانيين ويلعنهم في بعض الأوقات حتى جاء في ذلك بكتاب كبير الحجم . ومن قصائده قصيدة يفتخر فيها على بعض خصومه بكثرة الأتباع والأعوان من الطوارق والفُلان ، وسببها أن واحدا من أهل أرُبَّا نزل عليه ضيفا فطلب الناس أن يقتلوه فحماه وأمّنه فكانت بينه وبين من يريدون قتله مشاعرات فيها كثير من من الفخر والهجاء ومنثورات يحاول فيها كفهم عنه ، وبلغني أن آخر ما وقع منه مع ذلك النصراني أنه خرج به من تنبكت مجيرا له حتى وصلى إلى الشيخ السوقي حَنَّ بن أمَّتَّال فوافقه على تأمينه فأمنه أمير إولمّدن بتأمينهما حتى وصل إلى مأمنه من بلاد الجزائر . وجرى بينه

وبين الحاج عمر الفوتي تفاتن شديد بالأقلام والسيوف لم ينته إلا بموتهما عفا الله عنهما .

ومنهم سيد عمر بن سيدي محمد : وهو والد الشيخ بَايْ وهو الذي ورث ما كان لأبيه وأخويه من تربية المريدين والتأدب بآداب السلف والتخلق بأخلاقهم فسلم أهل بيته وبنوا جده ذلك المقام له ثم لبنيه من بعده .

ومنهم الشيخ العلامة التقي السني محمد المعروف ببَايْ بن سيد عمر : كان نادرة زمانه في العلم والتقوى وله تآليف كثيرة منها " نوازله الفقهية " في أربع مجلدات ، ومنهما شرحه " للأحاديث المقرية " في جزأين ضخمين ، واتفق أهل عصره على أنه أعلم أهل زمانه وأتقاهم وأورعهم وكان يفتي بمشهور مذهب مالك ولكن ليس على طريق المقلدين الجامدين بل ينقل عن شيوخ المذاهب كلها ويستدل بالآيات والأحاديث في بعض فتاواه .

ومنهم سيدي المختار بن سيدي محمد : وأبوه هو الأخ الكبير للشيخ بَايْ وكان من شيوخه ولم أر له أثرا وكان أخوه الشيخ بَايْ يثني عليه ، وسيدي المختار بن سيدي محمد هذا هو الذي خلف الشيخ بَايْ في الإفتاء وفصل الخصومات وفي تربية المريدين .

ومنهم سيد أحمد البكا بن سيدي محمد دفين سَمِتْ وابنه حامٌّ .

ومنهم سيدي محمد بن بَادي : ويعرف بسيدِ حَمْ وهو ابن أخت الشيخ بَايْ وتلميذه ووارثه في الإفتاء وكان له حظ كبير من علم الفقه وله نوازل ومنظومات كثيرة ، ومن منظوماته بائيته التي أولها :

يا علمي زمني مشاهدي العجب ... مما طرا من جديد كان في حجب
وموضوعها حكاية أقوال المانعين لركوب الطيارة إلى الحج وأقوال المجزين له وطلب الترجيح بينها وقال في أخرها :
هذا سؤالي وآل السوق أول من ... فالعرب فالعجم من ندب ومنتدب
فأجابه جماعة من علماء أهل السوق بقصائد كثيرة على بحرها ورويها وكلهم يرجحون له القول بالطلب . ومنهم سيدي محمد بن البكّا ويقال له أمّكْ يعني أنه من الفقهاء ، ولما وصلت إليه أجوبة أهل السوق لابن عمه سيدي حَمْ أنشد قصيدة في مدحهم وموافقته لهم .
ومنهم الأمير الميمون بن حماد وابنه أهْمَادَ كل منهما عالم متبحر وهؤلاء هم الذين وقفت على بعض آثارهم ولم أقف على تاريخ وفياتهم وميلادهم ولهم إخوان لم أطلع لهم على أثر .

الفصل الثالث

فيمن ينتمي إلى الهاشمية

وهم في بلادنا خمسة أقسام : كلهم يرفع نسبه إلى الحسن بن علي ، ومنهم من يرفع نسبه إلى الحسين بالتصغير ابن علي ويأتي نسبهم بعد أنساب أولاد الحسن مكبرا وهم أقلية في بالبلد . القسم الأول : (من ينتمي إلى علي بن أبي طالب بواسطة محمد بن عبد الله الكامل أخي إدريس) وهؤلاء لا يسمون في بلدهم باسم قبيلة كما يفعل غيرهم بل لا يعرفون إلا باسم أشَرِيفَنْ يعني الشرفاء وهم كثيرون في بلاد تَغَارُسْتْ وتنبكت وبلادها ، ومنهم جماعة في بلد كَاوَ وهم أولاد مُختار الذين يتأمرون في بلادهم على كثير من الخلائق مع قلة عددهم ولكن نالوا من البركة والعز والاحترام ما أخضع لهم الجبابرة وأهل النجدة ببركة نسبهم الشريف ولهم من الفضائل ما لا يحصر ، وكانوا فيما مضى أهل ثروة يملكون من أنواع الأنعام وخصوصا البقر ما لا يملك غيرهم مثله من أهل بلادهم واشتهروا بالسخاء والبر والإيثار وإيواء الضعفاء ورحمة المساكين وإكرام العلماء وإجلالهم وبذل المعروف لكل من أتاهم وأنشدت القصائد في مدحهم وذكر ما اختصوا به من الفضائل والمكارم ويتنافسون في أنواع البر كما يتنافس غيرهم في المفاخر الدنيوية ، و كانوا قبل الاستعمار الفرنسي ذوي سيادة في وطنهم ولهم قليل من الأتباع مع كونهم تحت إمارة إولّمّدن فلما جاء الاستعمار الفرنسي إلى منطقة كَاوَ فرّ عنهم الأمراء وكرهوا مجاورتهم لكفرهم وخافوا من شرهم لكون سلاحهم لا يقاوم بالسيف والرمح فلما فرّ الأمراء وفارقوا البحر تبعهم جميع الرعايا ، ثم عجز الناس عن مفارقة أوطانهم البحرية فرفضوا اتباع

الأمراء الخارجين من وطنهم ، وكان أمير هؤلاء الشرفاء ممن سبق إلى الرجوع إلى الوطن ومسالمة الفرنسيين فاتخذ الفرنسيون منهم أميرا على كل من يرجع إليهم من الفارّين فتتابعت القبائل الفارة على الرجوع إليهم والاحتماء والتحصن بهم فرحبوا بهم وأحسنوا إليهم ...بوا عنهم فكان ذلك سببا لكون إمارتهم من أكبر الإمارات في البلد وأكثرها أتباعا ...د وصل عدد القبائل التابعة لهم إلى ثلاثين قبيلة في كل منها أمير على قومه ولكنه مأمور لأمير الشرفاء فأول أمرائهم بعد ما حكم فرنسا على البلاد مَحمد بفتح الميم بن محمد ...مد بن مختار ، ومختار هو الجد الجامع لهم وعاش الأمير مَحمدْ سنين قليلة ثم تأمر بعده ....نه محمد إكْنَنْ وهو الذي نقضد عهد فرنسا مع من نقضه في عام خسمة وثلاثين وثلاث مائة وألف 1335هـ فلجأ ضعفاء أتباعه إلى عمه أحمد بن محمد أحمد وكان لبيبا عاقلا يعرف ...لناقضين للعهد لا يحصلون على شيء لضعفهم عن مقاومة السلاح الذي يملكه الفرنسيون فكان مع ...ماعات الذين راسلوا حاكم فرنسا وأخبروه أنهم لا ينقضون الصلح معه فأجازه الحاكم الفرنسي ... كل من استجار به وقام مقام ابن أخيه الأمير محمد إكْنَنْ يصلح شئون الناس ويقوم بمهماتهم حتى رجع إليه من نقضوا العهد مع ابن أخيه إلى مصالحة فرنسا يستشفعون به فشفعه الفرنسي فيهم واطمأنت البلاد وسكنت الفتن ثم رجع ابن أخيه إلى مصالحة فرنسا فغضبوا عليه وسجنوه مدة ثم أطلقوا سراحه وتخلى عمه عن أمور الرعية ورجع هو إلى الإمارة حتى مات فخالفه أخوه يحي ثم مات فخلفه ابن عمه الصالح بن مَدَمَّ ثم مات فخلفه ابن عمه أفَرَيْبُ بن الصَّلاةَ فمكث عاما وبعض عام فعزله الناس لأسباب لا داعي إلى ذكرها ولم يعزل من أهل بيته إلا هو منذ ابتدأت الإمارة فيهم من عهد محمد إلى أيام محمد أحمد بن الحسن الذي هو الأمير وقت الكتابة وهو عام 1418هـ .والأمراء الخمسة المذكورون لم أطلع على من تكلم على سيرتهم ولا من أرخ وفاتهم وليس فيهم من .... ذكرا . ولما غزل أفَرَيْبُ تأمر مكانه ابن عم أبيه محمد أحمد بن محمد إكْنَنْ وهو الذي أدركته وشاهدت بعض أعماله وقد اشتهر بالعدل والتقوى والسخاء وإكرام الوفود وعدم المداهنة وأنه لا يخشى في الله لومة لائم وكان الأمراء في زمانه يخافونه لما نال من التعظيم والاحترام عند الحكومة الفرنسية وتسخير الحكومة له حتى صار يمنعهم من بعض مطالبهم التي لا يجترئ غيره من الأمراء على منعها ومع ذلك يحترمونه ولا يمنعونه مما طلب منهم لأنه لا يخاف ولا يرجو إلا الله فأخاف منه ربه كل من رآه من مسلم أو كافر أو جبار وإذا

ظلم واحد من الأمراء بعض رعيته وشكاه إليه ونهاه عن ظلمه فلم ينته فغل ذلك المظلوم من ديوان ظالمه وجعله ديوانه هو قهرا على ظالمه ثم لا يقدر الأمير الظالم ود ذلك المظلوم إلى ديوانه فكان ذلك سببا لكف الأمراء عن كثير من ظلم رعاياهم خشية أن يلجئوا إليه ، وأما الصلاح وكثرة الذكر والشدة على العصاة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فكان في ذلك على طريقة كبار العلماء والأولياء لا على طريقة الأمراء ومدة إمارته من خمسة وأربعين وثلاث مائة وألف 1345هـ إلى سنة ست وستين وثلاث مائة وألف 1366هـ وجميع مدته إحد وعشرون عاما ولما مات خلفه سميه وزوج ابنته محمد أحمد بن محمد إكْنَنْ وسامه كاسمه واسم أبيه كاسم أبيه ويفرق بينهما بأن الكبير ليس بينه وبين جدهم الجامع مختار إلى رجل واحد والآخر هو ابن محمد إكْنَنْ بن محمد بن محمد أحمد بن مختار وعاش في الإمارة ثمان سنين وتوفي عام ثلاث وسبعين وثلاث مائة وألف 1373هـ وهذان لم يتركا ولدا ذكرا كم سبقهما من الأمراء ثم تأمر بعده هَمَّهَمَّ بن أحمد بن أحمد بن محمد أحمد بن مختار ومات عام ثمانية وثمانين وثلاث مائة وألف 1388هـ ولم يترك ولدا .

ثم تأمر بعده أخوه مُحمد بضم الميم الأولى وسار بسيرة أسلافه في الصلاح ونفع الناس بقدر وسعه وتعظيم أهل العلم والرحمة بالضعفاء وإكرام من لجأ إليه ، ومات عام ألف وأربع مائة وواحد 1401هـ وكان له من الأولاد أبو سفيان وعيسى وعلي .
ثم خلفه ابن عمه محمد أحمد بن الحسن بن محمد أحمد بن الصالح بن مختار وهو في قيد الحياة عام ألف وأربع مائة وثمانية عشر 1418هـ .
أما العلماء فليسوا كثيرين من أهل هذا البيت وما سوى التعلم من الفضائل هم من السابقين فيه قديما وحديثا ومع كونهم ليسوا من العلماء هم أشد الناس في بلدهم تقيدا بالعلماء وتشبها بهم وتمسكا بالعمل فيما يأخذون عنهم من العبادات والمعاملات والأخلاق وإذا أرادوا تأمير أمير منهم فلا يتولى أمر إمارته إلا العلماء المخالطون لهم ولا يصدر شيئا إلا ع ن مشورتهم ويكون عند أميرهم مسجد تقوم به جماعة من أهل العلم لا يفارقهم في الجوار ويتخذ منهم رفيقا يلازمه في الحضر والسفر لئلا يعمل في شيء إلا بما يوافق الشرع ويلقي عليه نوازل من يلقاهم من

رعيته فيعمل بقوله وينفذ حكمه تقبل الله منهم إحساناتهم وتجاوز عن مساويهم .
وسرد نسبهم أن الأمير الحالي هو :
(محمد أحمد بن الحسن بن محمد أحمد بن الصالح بن مختار بن هَمَّهَمَّ بن محمد أحمد بن أوَّ بن آبّ بن أوّ بن محمد كَمَ بن أحمد بن محمد بن هاشم بن عبد الله بن أحمد بن محمد الحسن بن محمد بن علي بن محمد بن حسين بن قاسم بن أبي القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي محمد بن عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن حسين بن أحمد بن إسماعيل بن قاسم بن محمد بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه) . هذا ما رأيته بخط قديم وليس في البلد من يشاركهم في جدهم الداخل إلى البلاد التي يسكنونها وهو محمد كَمَ إلا أهل بيت في قرية كَاوَ كانوا مع أخوالهم من الرماة ومنهم يكون القاضي وهم لا يزالون بجوار المسجد الذي بناه إسْكِيا وإن شاركهم غيرهم فيما فوقه فليس عندي سلاسلهم والموجودون من أهل هذا البيت كلهم من نسل رجلين فقط مِنْ بني جدهم مختار أحدهما أحمد والد مُحمد بضم الميم الذي تقدم ذكر إمارته ووفاته وأولاده وهو أيضا والد مَحمد بفتح الميم وهو ليس من الأمراء وله ابن واحد اسمه أحمد وابن له أيضا يسمى محمد إكَّنَنْ .
والرجل الثاني محمد أحمد بن الصالح بن مختار وهو والد الحسن والصلاة ، أما الصلاة فابنه واحد اسمه أحمد ، وأما الحسن فهو والد الأمير محمد أحمد الذي هو الأمير وقت الكتابة وما سوى هذين الرجلين من أبناء مختار ليس له عقب فمن ادعى فيما بعد أنه من نسل مختار وذكر جدا ينتسب إليه غير أحمد بن محمد ومحمد بن أحمد بن الصالح بن مختار فقد كذب وافترى وادعى نسبا غير نسبه . إهـ ومن القبائل التي تسمى باسم أشَرِيفَنْ بنوا باب بن إبراهيم وهم أهل وَغَيْ وأهل تَنْهِلَّتِينْ وأهل هَسِيَ وأهل تِكَنْكَنْتْ ويأتي نسبهم ونسب بني عمهم من شرفاء الكَصْبَ ولم أطلع من أخبار هؤلاء إلا على أسماء الأباء . ونقلت من خط العالم العلامة الشيخ محمد حَبَّ بن محمد أحمد ما لفظه : هذا آباء شرفاء كَلْ وَغَيْ وأهل تَنْهِلَّتِينْ وأهل هَسِيَ وأهل تِكَنْكَنْتْ وجامعهم باب وهو الذي يقال له بَبَان : (أحمد بن إبراهيم بن الحاني بن أبو هريرة بن محمد الشيخ المعروف بإدَّ بن باب بن إبراهيم بن سيد محمد بن مولاي أحمد بن محمد بن عبد الله ابن يوسف بن محمد بن سعيد بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن علي بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى

بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه) ثم كتب : وأما محمد الشيخ فهو جد كلْ وَغَيْ وله أخ واسمه آبَّ وهو الجامع لأهل تَنْهَلَّتِنْ وأهل هَسِيَ وأهل تِكَنْكَنْتْ وكتب الشيخ حَبَّ أيضا ما لفظه : وقد وجدنا هذا بخط العلامة الثقة عمنا محمد بن نوح من خطه أيضا نقلنا ما نصه : (شرفاء الكَصْبَ : عبد الحميد بن محمد الكبير بن محمد الجمعة بن القاضي بن باب أحمد بن ادَّ بن مولاي بن أبي بكر بن أحمد بن حامَّ بن علي بن عيسى بن أبي ذر بن أحمد بن محمد بن يوسف بن سعيد بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن علي بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن يحي بن القاسم بن علي بن محمود بن عمر بن علي بن عيسى بن القاسم بن يحي بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن سليمان بن عيسى بن مولاء إدريس بن مولاي إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب) . ويوجد أهل بيت من قبيلة دُو إسحاق يقال لهم أشَّرِيفَنْ وهم آل بيت السالم بن خَتِيرْ وقد كنت أسمع أنهم من بني عم آل مختار الذين يتأمرون في أعمال كَاوَ وبحثت عن سلسلة نسبهم لأعرف الجد الذي يشتركون فيه فلم أجد إلا قليلا من الأسماء لم تنته إلى الجد الجامع ، وفي أرض طَاوَ قبائل كثيرة تسمى باسم أشَّرِيفَنْ .
وأما من ينتسب إلى الحسين بن علي بالتصغير : فأعرف منهم أهل بيت في أهل كُنْهان ولا أنفي أن تكون تلك النسبة لغيرهم إذا كان أسلافه يحوزونها من قديم إنما أنفي علمي بهم ، ونسب أهل كُنْهان الذي وقفت عليه نقلا من الشيخ محمد حَبَّ بن مخْتَد أحمد أن أميرهم في الوقت الحاضر هو : (محمد بن موسى بن محمد الأمين ويلقب إنْ أمُدْ ابن حَالَّ بن إدَّانِن بن آسول بن أبان بن حماد بن محمد أحمد بن محمد الطاهر بن محمد إنْتَا بن الحاني بن أمين ويلقب أشَرْوَ ابن عبد الرحمن بن عبد الصمد بن عبد الجبار بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الواحد بن عبد الجليل بن أبي محمد بن الحسن بن محمد بن يحي بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن إسماعيل بن محمد بن إسحاق بن جعفر الصادق بن الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه) كذا رأيت بخط الأخ الحاج بن محمد أحمد ناقلا له من خط الشيخ حَبَّ بن محمد أحمد .
والقسم الثاني
من ينتمي إلى علي بن أبي طالب بواسطة الأدرعي بن الحسن بن علي بن محمد بن الحسن بن الجعفري بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ويقال لهم عند بعض الباحثين في الأنساب الأدرعيون وهذا الاسم

لا يعرفه إلا القليل من الناس والاسم المشهور عند الخاصة والعامة ببلادنا " آتَّمَنْ " ومعناه الثمانية أو أبناء الثمانية وأصل الاسم في ما يحكا و يكتب أنهم ولدوا جميعا من بطن واحدة في وقت واحد وكانوا ثمانية فرباهم والدهم العالم وهو محمد بن محمد بن أبي بكر المسمى " إغَفْنَسَنْ " وهيَ كلمة تارقية معناها بالعربية رئيسهم ، فرباهم جميعاً ولقنهم العلوم حتى صاروا كلهم علماء وتعجب الناس من أمرهم لأنه ليس من المعهود أن يولد هذا العدد من حمل واحد ولا أن يكون هذا العدد من الأخوة حملة العلم بل المعهود في الإخوة ذوي العدد الذي دون هذا أن يكون بعضهم من أهل العلم وبعضهم ليسوا كذلك فلما رأي الناس من الأخوة الثمانية خلاف ما يعهدونه خصوهم باسم الثمانية وسموا بنيهم أبناء الثمانية تعجباً من أمرهم ورفضوا نسبتهم إلى بعض جدودهم وكان انتسابهم إلى الأدرَع نسيا منسيا إلا عند أهل العلم الذين يهتمون برفع أنساب الناس . والأخوة الثمانية انتشرت ذريتهم في البلاد فتعذر الكلام على جملتهم والذين بقيت هويتهم في أحيائنا ثلاثة :

أبو الهدى

باب

ربيعة

أما أبو الهدى : فتنتسب إليه جماعات كثيرة متفرقون في أحياء السوقيين منهم من يسكنون ببلاد (تِيس) ومنهم من هاجر إلى الحرمين وأقاموا هناك ومنهم من كانوا في جماعة أهل (كَنْشَشْ) ، ومنهم جماعة من قبيلة أهل (تَكَلَّلْتْ) وهم الذين أقدر على الإخبار عن بعض شخصياتهم البارزة وترجمة من خلفوا منهم أثرا علميا لأنهم المخالطون لأجدادي نسباً وجواراً منذ أكثر من قرنين وصاروا حياً واحداً لا يميز بعضهم من بعض الانتساب قوم منهم إلى جد غير الذي ينتسب إليه الآخرون .

وأما ربيعة : فلم أعرف من ينتسب إليه تحقيقاً إلا بني محمد الإمام وهم من جماعة أهل (تكللت) ، وأخو الإمام المسمى (أد حاتّ) ذريته في أهل (كُنْهَانَ) . وأما باب فذريته بعضهم في أهل (تكللت) ، وبعضهم في أهل (تَبُورَقْ) ولا أعرف من ذريته غير أولئك إلا رجلا واحدا في أرض (تيس) اسمه محمد بن عال والموجودون من ذرية هؤلاء الجماعة الثلاثة في أهل (تكللت) هم الذين أدركت الناس يقولون لهم " بنوا الثمانية " وإن كان لهم بنوا عم في بعض الأحياء فلا أعرفهم ولا أدعي الإحاطة ، وقد كنت أسمع أن جماعة من قبيلة (إسَمَّضْوَنْ) منسوبون إلى أخ للثلاثة الذين ذكرتهم ثم سمعت أن تلك الجماعة إنما

ينسبون إلى ربيعة نفسه ، ومن كلمتهم في موضوع الانتساب إلى بني الثمانية من غير أهل (تكللت) كلهم ينتسبون إلى أبي الهدى وهم أكثر بكثير ممن ينتسب إلى أخويه باب وربيعة ، وأخبرني بعض أصحابي أن ببلاد " إكَدَزْ " قوماً ينتسبون إلى يحي ويقولون : إن جدهم واحد من الثمانية وكانوا فيما مضى أهل علم وعندهم مخطوطات قديمة خلفها أسلافهم تشهد لمن خلفها أنهم من أهل العلم وبلغني أيضا أن أهل (تِيغَزَرْتْ) ينتسبون إلى واحد منهم ويحوزون الشرافة ولقيت بعضهم فأطلعني على أسماء آبائه ولكن بخط ردئي كثير اللحون وانتهى ذلك الخط إلى الحسين بن علي . والله أعلم وقبل الشروع في تراجمهم أذكر أن بعض ما لا يبالي بما يقول ربما طعن في الرواية التي تواترت بين الأسلاف والأخلاف من أن الثمانية ولدوا في حمل واحد وعلمهم والد لهم جميعا وصاروا كلهم علماء ويعد ذلك من المحال فيتوسل بذلك إلى الطعن في نسب من ينتسبون إليهم ولا حجة له في عد تلك الرواية من المحالات لوقوع مثلها أو أكبر منها فيما أطلعنا عليه من النقول فقد نقل الشيخ / الحاج بن محمد بن أحمد وهو من الجماعة الذين أريد الكلام عليهم وكان بحاثة في الأنساب والتواريخ ومعرفة رجال العلم والحديث والتاريخ ما لفظه : (ذكر الرهوني شارح خليل نقلا عن الإمام ابن عرفة أنه قال : سمعت من غير واحد ممن يوثق به أن بني العشرة الذين بنى والدهم مدينة " سَلاَ " بأرض المغرب كان سبب بنائه إياها أنه ولد له عشرة ذكور من حمل واحد من امرأة له فجعلهم في مائدة ورفعهم إلى أمير المؤمنين يعقوب المنصور فأعطى كل واحد منهم ألف دينار وأقطع والدهم أرضا بواد " سَلاَ " فبنى بها مدينة تعرف الآن بمدينة العشرة ، وبنى يعقوب المنصور مدينة تسامتها الوادي يفصل بينهما . قال : ثم رأيت في هذا الوقت رجلا يعرف ببني العشرة فسألته عن نسبه وسببه فذكر لي مثل ما ذكرته . اهـ ما نقله عن الرهوني . ونقل أيضا عن الذهبي في تاريخ الإسلام أن البريد أتى من اليمن سنة 680هـ أن امرأة ولدت عشرة أولاد في بطن واحد فسموا بنيهم بني العشرة ثم قال الشيخ الحاج : وأعجب من ذلك ما ذكره الحافظ السخاوي ونصه (روينا في تاريخ بخار لغنجار من حديث محمد بن الهيثم بن خالد البجلي الحافظ أنه قال : كان ببغداد قائد من قواد المتوكل وكانت امرأته تلد البنات فحملت المرأة مرة فحلف لها زوجها إن ولدت هذه المرة بنتا لأقتلنك بالسيف فلما قربت ولادتها وجلست القابلة إليها ألقت مثل الجرب وهو يضرب فشقوه فخرج منه أربعون ابنا عاشوا كلهم . قال محمد بن الهيثم رأيتهم ببغداد

ركبانا خلف أبيهم وكان اشترى لكل واحد منهم ظئرا ثم قال : ومثل ما ذكره الحافظ أبو عبد الله الذهبي أيضا في تاريخ الإسلام أن امرأة ولدت ببغداد في أيام المأمون شيئا كالجراب يتحرك ولما فتحته القابلة وجدت فيه أربعون ولدا كالأصابع وكلهم ذكور فرفع خبرها إلى المأمون فأمر أن يجعل لهم مواضع وعزلهم في دار وأجرى عليهم النفقة إلى أن أدركوا وجعلهم من جملة جنوه وزوجهم وأعطاهم الدور بمحل واحد ، وكانوا يسمون بنيهم بني الأربعين) .

وأما أنسابهم على ما كتبه الشيخ / الحاج ناقلا له من الخطوط القديمة فهو أن الثمانية بنوا محمد بن أبي بكر المعروف باسم إغَقْنَسَنْ بن ضرار بن محمد بن عبيد الله بن عبد الله الأدرعي بن الحسن بن علي بن محمد بن الحسن بن جعفر بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه

وهذا أوان الشروع في تراجمهم وتراجم من لهم أثر علمي من أولادهم :

أما أبو الهدى : فقد ترجمه قبلي منه قبلي فأنقل ما يتعلق به الغرض من كلامه وأترك ما لم يتعلق به الغرض من التعريف به وقال عنه ذلك المترجم ما لفظه : (كان رحمه الله عالما جليلا فقيها صوفيا ورعا في الفتوى لقي كثيرا من أكابر العلماء في القرن التاسع والعاشر كالشيخ / السيوطي والشيخ / محمود البغدادي ، وعثمان بن أَقْلاَوَسْ وأحمد بن أبي أويس ، وأحمد الزورقي ، ومحمد بن عبد الكريم المغيلي واخذ عنهم وله نوازل وأجوبة غير مدونة وقد وقفت على كثير منها في كتبنا القديمة وكثير من أجوبته الفقهية يعبر فيها بلفظ سئل ابن عبد الكريم وأنا حاضر ويذكر المسألة ثم يقول فأجاب يعني " المغيلي" بكذا وبعضها يعبر فيها بلفظ سمعت محمد بن عبد الكريم يقول ويذكر المسألة وفي بعضها سألت محمد بن عبد الكريم عن كذا وأجاب بكذا وهكذا أو رأيت له تعليق على مواضع من مختصر خليل ويشهد لملاقاته للسيوطي والمغيلي ما وجدته بخطوط كثير من قدماء السوقيين ولفظه : قال أبو الهدى السوقي رحمه الله تعالى سألت شيخنا محمد بن عبد الكريم مباشرة بلا واسطة عن أنكحة هؤلاء المكثرين الحلف بالطلاق والتحريم تخلقوا وتطبعوا به ويكثرون منه حتى يتيقن بحنثهم في أيمانهم وأنهم يحلفون بالتحريم بالكذب ويكثر منهم ذلك في جميع الأحيان ، فقال : الواجب أن يفرق بينهم وبين أجنبياتهم بالأشخاص ، وأما الطلاق فقد حصل إذ لم تكن روجة بعد الحنث بل هي أجنبية ساكنة معه ويزني بها لا سيما مع تكرار الحنث به ... إلى أن قال ثم حججنا البيت شرفه الله وأعزه وقصدنا نبينا

عليه الصلاة والسلام فدخلت مصر وظفرت بلقاء جلال الدين السيوطي أيده الله بداره فاستفتيته فيما استفتيت فيه ابن عبد الكريم فأجابني بمثل ما أجابني ابن عبد الكريم حتى كأنه يسمعه ويبصره حين يجيبني ... إلى آخر كلامه .مر إلى أن قال : وأما محمود البغدادي المذكور فيشهد لملاقاته له ما ذكره صاحب قدوة المعتقد من أن الشيخ أبا الهدى كان يقول قلت لسيدي محمود البغدادي أوصني فقال : أوصيك بتقوى الله فإنك إن اتقيت الله أراك العجائب في نفسك . فقلت : ما هو تقوى الله فقال أن تتبع ظاهر الشرع وإن ضربك عبد أسود فأعلم أن الله هو الذي ضربك لا هو . ثم قال وكان يقدم الشيخ محمود البغدادي على مشائخه كمحمد بن عبد الكريم المغيلي وعبد الرحمن السيوطي وعثمان بن أقْلاوَسْ والشيخ أحمد الزورقي والشيخ أحمد بن أبي أويس ويقول لتلامذته بعد ما لقيه وأخذ عنه الطريقة كل ما قلته لكم قبل ملاقتي الشيخ محمود اتركوه وأتوني اليوم أقل لكم لأني قد اطلعت بنوره على أسرار ما علمت . اهـ . مر إلى أن قال : وكان الشيخ المترجم رحمه الله كثير الرحلة في طلب العلم ولقاء المشائخ ، وصفه محمد بن الطاهر من مؤرخي إكَدَزْ في القرن العاشر الهجري ولفظه : (في الكلام على سيدي محمود البغدادي الذي تقدم ذكره ، كان من المجددين وسيد الطائفة الصوفية له القدم الراسخ في القطبانية والولاية العظمى وقد أقبل عليه بعض العلماء العاملين من أهل السنة وممن لهم الرحلة في طلب العلم كسيدي أبي الهدى الذي كان يمشي إلى القاهرة ويحضر مجلس جلال الدين السيوطي في مصر حتى جاء الشريف الحسني ـ يعني الشيخ محمود ـ فألزمه نفسه وخلع له كل ما كان مخالفا لطريقته وقال : لتلامذته اتركوا ما أخذتم عني وخذوا عن هذا الولي التقي ... مر إلى أن قال : ومن آثاره التي ذكرها بعض المترجمين شرحه على مقصور ابن أبي مدين في الوعظ وقد تقدم أنه توفي قبل إكماله وكمله عبد الرحمن ابن الفقيه بن عبد ربه . وأما وفاته فقال صاحب قدوة المعتقد لما وصل أبو الهدى إلى (آيَرْ) ودعا الناس إلى طاعة الله تعالى واشتهر بالدأب في طاعة الله تعالى وإرشاد الخلق إلى طاعة الله وبناء المساجد ومحبة المسلمين والعون لهم في الدين والدنيا والشفقة عليهم والإنفاق على كل من لاقاه توفي إلى رحمة الله تعالى في " تَدُقْ " ليلة الاثنين في سنة اثنين وثمانين وتسعمائة 982هـ ودفن قدام مسجدها وقبره الآن ظاهر يزار أعاد الله علينا من بركاته وبركاته مثاله آمين .

ونقل الشيخ محمد حَبَّ بن محمد أحمد عن محمد إبراهيم بن محمد

المؤمن المؤرخ الأغلالي عن بعض مؤرخي إكَدَزْ أنه رأى في كتبهم التاريخية أن اسم أبي الهدى محمد بن محمد وأنه من كَلَسُوكْ زار مصر في عهد السيوطي وهو الذي كناه بأبي الهدى واسم شيخه عثمان بن أَفَلاَسْ وقبره في " تَدُقْ " وكان مكتوبا عليه اسمه وهو يزار ويتبرك به إلى الآن . ولما خرج من مصر في أوائل القرن العاشر الهجري جاء إلى بلاد " آيَرْ " ولقي سيدَ محمودَ البغدادي المدفون في " أَكَلَنْغَ " وأخذ عنه طريق التصوف ورجع إلى بلاده والسوقيون إذ ذاك في " تَدَمَكَتْ " . انتهى العرض من كلامه

وأما أخوه باب فلم أزل أسمع أن أحمد باب التنبكتي لما لقيه سأله بعض الناس عما بينهما فقال له أنا أروى والسوقي أدرى وينسب إليه بعض النوازل والفتاوى

وأما أخوهما ربيعة فلم أر من تكلم عنه إلا أنه من جملة الإخوة المشهورين بأخذ العلوم التي تقرأ في بلادهم عن والدهم ولم أر من خصه بالكلام عنه

وأما ذرية الثمانية الموجودون في أحيائنا فلم يزل العلم والفضل والمكارم فيهم ذلك ما بلغنا عن من قبلنا وشاهدناه فيمن عاصرناهم ولم تخل جماعتهم من علماء أجلة وأولياء كبار ومهرة في حفظ القرآن وتحفيظه وتفسيره من القرن التاسع الهجري إلى الآن ومكاتبهم مملوءة بمخطوطاتهم وينفقون بعضها على من شاء الله من قرابتهم ومن المتعلمين من غير قرابتهم ولم يزل فيهم أجواد تنقل حكاياتهم وتؤثر رواياتهم وزهاء معروفون بالزهد ومكاشفون مشهرون بالجد في العبادة معروفون بالخمول وإخماد النار والتواضع لله تعالى مع عزة النفوس وعدم التواضع لملخلوق أيا كان ومما شهروا به كرم الطباع ونفرتها عن الأخلاق الرذيلة واستشرافها إلى الأخلاق الجليلة والإعراض عن المناصب الدنيوية والزهد فيها ، ومن أسباب عدم الإطلاع على كثير من أخبارهم على وجه التفضيل أنهم ما زالوا يؤثرون الخفا عن الظهور فلم يتركوا أثرا علميا يعرف به مؤثره إلا القليل منهم ولذلك لم نطلع على أخبار من في القرن الحادي عشر الهجري منهم الشخصيات البارزة التي نقدر على التكلم عليهم كانوا من أهل القرن الثاني عشر الهجري وما بعده . فبطن أبي الهدى من الشيخصيات البارزة فيهم في القرن الثاني عشر أحمد بن وَنْكِلَّ وكان هو وابن عمه محمد الإمام ممن خرج مع أحمد بن الشيخ وهَمَّهَمَّ واسمه محمد أحمد بن أحْمادُ ـ بضم الدال وزيادة الألف بعد الميم ـ ويقال إن الأشياخ الأربعة اتفقوا على مغادرة مجمع

إخوانهم السوقيين والانفراد في منزل خال من الجماعات يقدرون فيه العمل بالسنة ومجانبة البدعة وحمل من معهم على ذلك الطريق فلما انعزلوا عن الجماعات اختاروا للإقامة منها في الصحراء التابعة لقرية كَاوَ ويسمى " أَمَسْرَكَضْ " وهو الذي تحولوا منها إلى " تَكَلْتْ " الذي ينسبون إليه لملازمتهم له حتى صار الانتساب إليه باقيا في أخلافهم إلى الآن فملا استقروا في ذلك المنزل وحان وقت الصلاة تنازعوا فيمن يكون عنده المسجد لأنهم لا يرضون أن لا يكون لهم مسجد وكان من عادة قومهم السوقيين أن المسجد لا يكون إلا عند بيت سيد الحي وهم جميعا معرضون عما يشبه الإمارة وزاهدون في الرئاسة فتدافعوا فيمن يكون عنده المسجد ويتبرءون من التطلع للرئاسة فما زالوا يتدافعون الأمر إلى أن خاف محمد بن وَنْكِلَّ من خروج الوقت فقام إلى بيت هَمَّهَمَّ وأذن عنده ثم بادر ابن عمه محمد الإمام إلى إقامة الصلاة فاستقر أمر المسجد بعد ما بالغ في الإباء ولكن لما اتفق عليه أخواه غلباه كما يغلب الاثنان الواحد . ويقال إنهم لما فرغوا من الصلاة تكلموا فيما يقيمون به أمورهم الدينية والدنيوية فألزموا السيد هَمَّهَمَّ أن يقوم بمهمات أمورهم الخارجة عن الحي مثل ملاقاة الرؤساء وسياستهم واستقبال الضيوف وإجازاتهم فالتزم ما لزموه ووفى بمقدوره وكان ذلك باقيا في عقبه إلى الآن . والتزم محمد الإمام القيام بما يتعلق بالمسجد من إقامة الصلوات فيه وكونه إماما فيها فذلك لقب بالإمام وبما يتعلق بتعليم الصغار وتحفيظهم القرآن ثم بتعليم الكبار ما سوى القرآن وبكتابة الكتب بأجود خط ومن تلك الكتب ما جعله وقفا على أهل المسجد وأدركت في خزانة كتبنا نسخة من القاموس بخطه مما جعله وقفا . أما محمد بن وَنْكِلَّ فالتزم لهما المعاونة على جميع مصالح الجماعة سواء ما يتعلق بالأمور الدينية وما يتعلق بالدنيوية وقد وفّى كل منهم بما التزمه حتى صارت ذريتهم مثلا في التمسك بالسنة ورفض البدع وهجران ما لم يعرفوا أصله وقال بعض من رآهم إنهم هم المشابهون لأهل المدينة في عصر الصحابة والتابعين مما يعمله أولاد هؤلاء الأشياخ الثلاثة في أمر المسجد أنهم خصوه بأكبر أولاد هَمَّهَمَّ فإذا كانوا في منزل لا يكون مسجد الجماعة إلا عند بني هَمَّهَمَّ وإذا افترقوا في المنازل في بعض الأحيان كما هو عادة أهل صحراء اتخذت كل جماعة منهم مسجدا عند كبيرهم إذا رجعوا إلى الاجتماع تركوا المسجد التي اتخذوها وقت الفرقة وعادوا إلى الاجتماع في المسجد الذي عند كبير بني هَمَّهَمَّ ، ومن أعمالهم في أمر المسجد أنه إذا مات الكبير الذي عنده المسجد لم ينقلوا المسجد إلى محل آخر يقوم

واحد من بني محمد بن وَنْكِلَّ فيؤذن عند بيت من يريدون استخلافه ثم يقوم واحد من بني الإمام فيؤم الناس وكان ذلك حكاية لما عمله أسلافهم في اليوم الأول من انفصالهم في الجماعة وتمسكا بسيرتهم وتبركا بمحاكتهم وكانت الذرية الناشئة من الأشياخ الأربعة مشهورين بالتمسك بالسنة فوق ما يتمسك بها غيرهم وأدركت كثيرا من الناس لا يلتزمون كثيرا من السنة والآداب فإذا أنكر عليه بعض الناس شيئا قالوا له نحن لسنا من أهل تَكَلَّتْ الذين يضيقون على أنفسهم ويلازمون مخالفة أهوائهم والتمسك بالأخلاق التي لا يستطيع غيرهم التزامها ولا يلتزمها سواهم وربما يكون خاليا من العمل فيكون وبالأعلى صاحبه بخلاف التقيد بآداب الجماعة التي هي ثمرة العلوم فإذا أرسل واحد من إخوانهم ولده ليتعلم منهم العلوم قال : إن التأدب بآداب ذلك الحي أحب إلى التعلم الخالي من التأدب بآداب الشرع .

وأما أولاد محمد بن وَنكِلَّ : فاتفقت الكلمة على أنهم ما لزالوا على التعلم والتخلق بالأخلاق المرضية وما زال ذلك فيهم إلى الآن فمن علمائهم من كان مشهورا في وقته بالتعلم والتعليم وكتابة الكتب المفيدة من كل فن ولكن لم يشتغل بالتصنيف ولا ينظم الشعر فالآثار العلية التي خلفوها خطوطهم الجميلة الكثيرة وقد تركوا مكاتب زاخرة بخطوطهم قل من عنده مثلها وفيها مخطوطات لم أرها في غيرها وقد ذهبت في الكارثة التي دمرت قرية أهلها في " كَاوَ " يوم الأحد السابع عشر من جمادي الأولى عام ألف وأربع مائة وخمسة عشر هجرية 1415هـ . ومن علمائهم الكبار من خلف آثارا علمية منهم مَحمد ــ بفتح الميم ــ المشهور باسم ومَلَّنْ وقفت له على بعض الشعر وقيدته ثم ضاع

ومنهم ابنه أحمد المشهور بمِيدِ وابن ابنه مَحمد وهذان وقفت لهما على قليل من الآثار

أما أحمد المشهور " بمِيدِ " فله منظومة في الفرائض

وأما ابنه محمد فله منظومة في معاني الأفعال وتصاريفها وهي جيدة مفيدة لكل طالب لغة وتصريف .

وأما محمد بن مِيدِ فابنه محمد الصالح المفسر وبنوه الثلاثة إسماعيل ومحمد محمود ويوسف كلهم خلف أثرا عليما وأما ومَلَّنْ ومِيدِ ومحمد ابنه فقد ترجمهم الشيخ إسماعيل بن محمد الصالح في كتابه " الدرر الثمان في إثبات شرافة الثمان " ونقلت التراجم بعينها ثم ضاعت في الكارثة المذكورة ، وأما محمد الصالح وبنوه الثلاثة فقام أخي الشيخ

إسماعيل بن محمد الأمين من بطن محمد الإمام بترجمتهم وترجمة كثير من بني أعمامهم سواهم وأطنب فيها ولكن على الأسف ضاع ما جمعته وكتبه من ذلك في الكارثة المذكورة ولو وجدته لاكتفيت به ومع جهلي بكثير مما كتب عنهم لا بد لي من الكلام على شيخ شيوخنا مَحمد الصالح بن محمد بن مِيدِ لأنه شيخ والدي وأهل طبقته ، وسمعت عنهم كثيرا من خبره وكذلك أبناؤه لأني عاصرت إخوانهم وتلاميذهم ورأيت آثارهم .

أما شيخ الشيوخ مَحمد الصالح بن مَحمد بن مِيدِ فلم أقف على تاريخ مولده بالضبط ولكنه عاش في النصف الثاني منن القرن الثالث عشر الهجري ومات في الربع الأول من الذي بعده أما شيوخه فأهل حيه من أعمامه وأخواله ولم يخرج من حيه طالبا للعلم وأشهر من أخذ عنهم العلوم مَهْدِي بن الصالح ، ومَدَ أحمد بن مِـدَوْ وأهل طبقتهما وكان مشهورا بالتضلع في سائر الفنون حتى وصفه بعض عارفيه بأن قال : أي فن سمعته يتكلم فيه قلت لا يحسن غيره من شدة حفظه وضبطه لقواعده . أما من أخذ عنه العلوم فلا يحصون كثرة بعضهم من تتلمذ له في الصغر وبعضهم تتلمذ له بعد الكبر وأجل وأكبر ما يؤخذ عنه من العلوم علم التفسير فكان يشتغل بتعليمه من شبابه إلى آخر أيامه ولذلك لقب بين العلماء بالمفسر ثم علم الحديث وهو الذي يأخذ عنه أهل بلده الإجازات فيه وعمله بالعلم أفضل من علمه فقد كان مشهورا بالتقوى التواضع وكثرة البكاء من خشية الله حتى صار عوام بلده يلقبونه باسم محمد الصالح صاحب البكاء وكان ملازما القراءة والقرآن آناء الليل وأطراف النهار مع بذل الجهود في الإرشاد والتعليم والقيام بمقدوره مما يصلح أمور المسلمين في معاشهم ومعادهم وتلامذته هم الذين صاروا بعده أئمة في أحيائهم يؤخذ عنهم ما أخذوا عنه فمن المشاهير الذين أخذوا عنه العلم من حيه محمد الصالح بن الصالح المعروف باسم السَّدَادَ بفتح الدال دائما ومنهم أولاد الثلاثة الذين ما زالوا معه حتى مات وورثوه في الفضائل وهم محمد محمود وإسماعيل ويوسف ومنهم أحمد البكائي بن البخاري ومنهم مُحمد بن حَدي ، ومنهم الشيخ المفسر سعد الدين بن عُمار ، ومحمود بن محمد الصالح وطبقتهم من حي أهل تَكَلْلَتْ ومن غير أهل تكللت عبد الله وعبد الرحمن أبناء الميمون من أهل تِكِرتِنْ وأقرانهما من حيهما ثم بعض صغارهم كالشيخ محمد الصالح المعروف باسم تَـانَ وأقرانه وأشهر من أخذ عنه التفسير من حي أهل تَبُورَقْ شيخ عصره شعيب بن محمد وابن عمه مُحمد بضم الميم بن محمد محمود وهذان هما الأشهر وأخذ معهما جماعات كثيرون منهم ابن أخت الشيخ محمدنْ بن

المصطفى وأقرانه

أما الشيخ محمد بن محمد محمود فهو الذي صار إماما في العلوم عموما وفي التفسير خصوصا فكان تأتي إليه الجماعات والوفود للسماع منه والشيوخ الثلاثة المشهورون بأن يؤخذ عنهم التفسير ونصب الناس كلا منهم أخذ التفسير عنهم كلهم من تلامذته وهم ابنه إسماعِيل ومُحمد بن محمد محمود وسعد الدين بن عُمار وأخذ عنه التفسير جماعة من أهل تِمُكَسِنْ منهم إنْكَسْنَنْ وعلماء طبقته وكثير من الناس لأقدر على حصرهم لأن من .... لم يعتنوا بضبطهم وإنما اعتمدت في تسمية من ذكرتهم على ما أخذت من أفواه من أدركتهم من العلماء وعلى الأسف ما أخذته من ذلك أخذته في وقت الصبا ولا أهتم بأخبار الآخذين ولا كيفية أخذهم ولا تاريخه وعلم انتهى إلى الشيخ محمد الصالح علم من قبله من قومه وكان فيه إماما لمن بعده . وأما أثره في التصنيف فأقف من تعليمه فله تواليف في موضعوعات شتى لم يسبقه غيره إلى الكلام فيها منها رسالته المسمات " بالردع والتهديد عن تكفير أهل كلمة التوحيد " وسببها أن أهل بلدنا لما دخل عليهم الفرنسيون وطنهم من " كَاوَ " وأعمالها في الصحراء كره الناس مجاورتهم ولا يستطيعون مقاومتهم ففر الناس منهم إلى الصحراء ثم عجزوا عن مفارقة أوطانهم البحرية ودام الإقامة في الصحراء التي لا ماء فيها ولا قوت ولا ملابس فأضطر بعضهم إلى الرجوع إلى أوطانهم في البحر مهادنة المتغلب الفرنسي الذي من صالحه وأدى إليه الغرام أمن على نفسه وماله ولج بعضهم في هجران البحر لكراهتهم مجاورة الكفار وخوفهم من شرهم فكان في أولئك المبالغين في اللجاج والفرار جماعة من العلماء يقولون للناس من شرب ماء البحر بعد أن نزل به الكفار فهو كافر بموالاته للكفار وحق المسلمين أن يجاهدوا الكفار لا أن يجاوروهم ... وكان في الطوائف الراجعة أيضا جماعات من العلماء هم الذين سبقوا إلى مصالحة المتغلب ليأمنوا من شرهم ومن شر المحاربين الصحراوين الذين يغيرون على الناس دائما ولا مدافع وليس لهم رادع ديني ولا أخلاق فلما كثر تكفير من لم يصالح المتغلب لمن صالحهم قام الشيخ المترجم بالذب عن أهل الإسلام وجمع من النقول التي تمنع المرء من تكفير أخيه المسلم حتى جمع كتابه المذكور فاستراح الناس من غير من يعاتبهم من العلماء ثم اضطر الحال أولئك المكفرين إلى أن يرجعوا إلى وطنهم ويصالحون المتغير الفرنسي فاستوى المنكرون ومن أنكروا عليهم ومنها شرحه لقصيدة أخيه الشيخ مُحمد ــ بضم الميم ــ بن مَحمد ــ بفتحها ــ من أهل تَبُورَقْ المسمى " مسلك

الذاهب ومرتع الراغب " والقصيدة موضوعة في الوعظ والأدب وتهذيب الأخلاق وأولها :
غضوا عيونكمُ يا حزب إخوان ... وراقبوا الله في سرّ وإعلان
وهذا الشرح يحتوي على كثير من الفوائد لم تجمع في غيره من الكتب ولذلك لازمه الشيخ محمد بن حَادِ وصار أنيسا له لا يفارقه حضرا ولا سفرا حتى مات ولم أر من منثوراته غير هذين وله كثير من الفتاوى لم ينتدب أحد لجمعها وتدوينها ، وله كثير من القصائد بعضها في المديح النبوي وبعضها في الوعظ ، وبعضها في المراثي منها مرثيته (1) لابن عم أمه عبد الرحمن بن محمد المختار ، ومن وعظياته التي أولها :
خير مألوف وخير المكسب ... طاعة الله تعالى والنبي
نفسي توبي من ذنوب سلفت ... وإلى الله بدارا فاهربي

(1) 1) تقدمت في ترجمة عبد الرحمن

رحمه الله رحمة واسعة وأعاد علينا من بركاته وبركات علومه آمين . ووفاته في الرابع الأول من القرن الرابع عشر وضاع مني تحديد عامها . ورفع نسبه إلي محمد بن وانْكِلّ هو أن جده مِيدِ : هو ابن محمد المعروف باسم " ومَلَنْ " بن محمد بن وانْكِلّ . وأما أولاده الثلاثة فكانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أن طرفاها وأكبرها محمد محمود وأصغرهم يوسف وأوسطهم إسماعيل وهو الذي عاش بعد أخويه ووصل إلى السبعين وأخواه مات كل منهما في سن الشباب فتعين أن يكون لإسماعيل فضل عليهما وترك كل منهما أثرا يدل على علمه وفضله وأدبه وصلاحه وعاش الأكبر والأصغر في النصف الأول من القرن الرابع عشر وعاش بعدهما الأوسط قريبا من عشرين سنة .
أما محمد محمود : فأثره الأكبر أرجوزته التي يذكر فيها ما كان عليه أهل عصره من المحدثات التي تخالف السنة وينكرها عليه ويحذرهم منها ويعظهم وأولها :
ما لي أرى الناس مع الأشباه ... جميعهم في فدفد التباهي
قد استوى حرهم والعبد ... كما استوى فتيهم والعود
ويستوي الرجال والنساء ... كما استوى الضابط النّساء
إلى أن قال :

ولا ترى من ينكر الكبائرا ... فضلا عن أن يستنكف الصغائرا
ولا ترى فُتية تخشى الرجال ... ولا من العبيد من سعى وجال
ولا يشاور الفتى أباه ... فضلا عن العم ومن سواه
إلى أن قال :
فانتبهوا يا معشر الإخوان ... وقوا النفوس هوة الهوان
وانتهجوا سنة خير الخلق ... وحاولوا اكتساب حسن الخلق
وهي طويلة وشرحها الشيخ الوالد سعد الدين بن عُمار بأمر من ناظمها وأطنب في شرحها حتى وصل الكتاب إلى نحو أربع مائة ورقة جمع فيها ما قدر له من النصائح والمواعظ والآداب وأقوال العلماء وحكايات الصالحين وقرظ الشيخ حَمَّدَ بن محمد بن حَدِي النظم والشرح معا بقصيدة أولها :
خاف الضلالُ وحقه أن يجْأرا ... لما أغارت حوله ، ما لي أرى

وهي من النوادر وجرت قصائد بين المترجم والشيخ حمّاد بن محمد مذكورة في كتاب " التبر التالد في مناقب الشيخ الوالد " للشيخ المحمود الذي ترجم فيه كثيرا من مريدي شيخه والده رحمه الله رحمة واسعة ، وعاش في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري ولم أدركه ولم أضبط تاريخ وفاته .
وأما الشيخ إسماعيل بن محمد الصالح : فهو أعلم من أخويه وقد عاش بعدهما سنين يعلم الصغار والكبار ويسعى في مصالح جماعته وكان شديد التمسك بالسنة حتى عدّ ما أدركه من عمل أسلافه وأشياخه من السنن التي من تركها عدّ مبتدعا وكان شديد الإنكار على من رأى منه التساهل في السنن والميل إلى المحدثات ، وكان عالما بسائر الفنون التي تقرأ في بلاده من عهد صباه وشبابه إلى شيخوخته . أخذ سائر الفنون من النحو ، واللغة ، والفقه والتفسير ، والحديث وأقرأه أحمد بن البكا بن البخاري القرآن برواية ورشْ عن نافع وأجاد حفظه وكان يعاون والده على التدريس حتى مات والده فقام مقامه وكان الشيخ محمد بن محمد محمود من أهل تَبُورَقْ ممن أخذ التفسير عن والده وفاته بعض الأحزاب فلما توفي والده أخذها عن الشيخ إسماعيل وهو من أقرانه وكذلك الشيخ محمود بن محمد الصالح من أقرانه ومن تلاميذه والده وكان ممن أخذ عنه شيئا من علم النحو وأما من أخذ عنه من غير أقرانه فلا يحصون وقد عقد مجلسا للتفسير في حيه فأخذه عنه جميع علماء حيه من الصغار

والكبار ثم عقد مجلسا آخر في للتفسير في حي أهل تَبُورَقْ بأمر شيخ الشيوخ حماد بن محمدُ ليأخذه عنه ابنه الشيخ المحمود الذي كان خليفته فأحضر معه جميع أصحابه من حي أهل تَبُورَقْ وبعض أهل إسَكَنْ وبعض أهل تَكَلْتْ وكان ماهرا في التفسير والنحو والفقه وسائر الفنون وكان من كبار أصحاب الشيخ حماد ومريديه وكان ذلك الشيخ يحترمه وجرت بينهما قصائد في شأن تلمذته له مودعة في كتاب " التبر التالد " وبعد وفاة ذلك الشيخ أنشأ قصيدة في رثائه ومدحه وضمنها أن ابنه الشيخ المحمود هو وارث سره وخليفته وأنزله منزلة والده في البر والتوقير والتقديم حتى توفي وكل منهما راض عن الآخر وقد ترجمه أخونا إسماعيل بن محمد الأمين ترجمة طويلة مودعة في " التبر التالد " وهو أعرف به لأن جدته لأمه شقيقته وتربى بين يديه . وأما الجود وحسن الخلق وقرى الضيوف والسعي على أهل الحاجات فيضرب به المثل فيها وكان جيد الخط خفيف اليد فيه نفع كثيرا من الناس بخطه وكان كثير الشعر وأما النثر فلم يكثره وكان من منثوراته " الدّرر الثّمان في إثبات شرافة الثّمان " وهو جيد في بابه وكان يتولى القضاء في بلده ويلتزم الإفتاء بمشهور مذهب مالك ، وكان لا يداهن ولا يخاف في الله لومة لائم ولا يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير فرق بين الجبابرة وغيرهم توفي في شعبان من عام ألف وثلاث مائة واثنين وستين 1362هـ.

وأما الشيخ يوسف بن محمد الصالح : فهو من العلماء ولم يزل في تربية والده يلقنه العلوم والآداب حتى مات ولم أر من اعتنى بضبط شيوخه وتلاميذه وله شيء من الشعر وأما النثر فلم أر له شيئا منه إلا كتابا سماه " إظهار العزل الخَلع لسلطان فسخية الخُلع " وسببه أن بعض القائمين بالفتاوى في بلاده يأتيهم من طلق زوجته ثلاثا فيرجعونها إليه بلا محلل إذا كان بعض تلك التطليقات في مقابلة مال ويحتجون بالخلع فسخ الإطلاق فلا يعد من التطليقات التي لا يحل للزوج أن يراجع بعدها إلا بمحلل هذا ما عند العلماء الذين يرد عليهم ، وأما المترجم وقومه فيقررون أن الخلع طلقة لا رجعة فيها فكان بينهم وبين إخوانهم الذين يجعلونه فسخا خصام شديد حتى ألف في ذلك كتابه المذكور وأطنب فيه وأجاد وجلب من النقول كثيرا مما لا يوجد في غيره وكلها تدور على أن الخلع الذي يكون فسخا ما ذكر فيه لفظ الخلع وذلك لا يكون إلا فيمن يتكلم باللغة العربية ، وأما الطوارق والذين هم أهل البلد فلا يكون منهم إلا الطلاق على مال فلا ينبغي أن يراجع واحد منهم من طلقها ثلاثا إلا

بعد زوج ولا ينبغي لمن يتحلى بالعلم أن يسلط إلا زواج المطلقين على مبتوتاتهم لشيء من الحطام يأخذه منهم . توفي تقريبا بعد الألف وثلاث مائة وأربعين 1340هـ . وقال إسماعيل بن محمد الأمين في ترجمته له الطويلة توفي عام إحدى وأربعين وثلاث مائة وألف 1341هـ .

ومن أعيان بني محمد بن وَنْكِلَّ : الشيخ الصالح بن محمد الصالح : ويعرف باسم السَّدَّادَ بفتح الدال الأخيرة دائما وكان يضرب به المثل في العلم والتقوى والورع ، وكان من أكبر تلاميذ بن عمه الشيخ مَحمد الصالح بن مَحمد بن مِيدِ ولم أعرف من شيوخه إلا إياه لكن العادة أن يأخذ طالب العلم عن شيوخ حيه وفي حيه شيوخ كثيرون يغلب على الظن أنه أخذ عنهم وأن لم أقف على تعين من أخذ عنه ولا ما أخذ عنه وصفه بعض من سبقه من علماء حيه بأنه لم يحدث شيئا من الفضائل بعد الكهولة والشيخوخة بل كان في شبابه على ما كان عليه بعد الكبر يؤخذ عنه النحو واللغة والفقه وأما التفسير فمن ورعه أنه يأبى أن يؤخذ عنه لئلا يقول في كتاب الله ما لم يقل توفي عام تسعة وستين بعد الألف وثلاث مائة 1369هـ .

ومنهم ابنه محمد علي بن السّدّادَ : حفظ القرآن وهو صغير على يد أحمد بن البكا بن البخاري وأخذ النحو عن محمد بن البكاي وأخذ كثيرا من الفقه عن الشيخ محمد المذكور وعن ابن عمه محمد الشيخ بن موسى ولازم والده وأخذ عنه كثيرا من العلوم ولم يفارقه حتى مات وحضر مجلس التفسير الذي يدرس فيه الشيخ سعد الدين بن عُمار وأخذ رواية كتب الحديث عن جماعة من الأشياخ وأعظمهم والده السّدَّادَ بن الصالح ، وأخذ علم البيان وعلم الأصول عن الشيخ حمَّا بن محمد بن حَدِي ، وأخذ عنه شيئا من مختصر خليل ، وأخذ عن الشيخ المحمود بن الشيخ حماد شيئا من التفسير والفقه ومن الآداب التي يلقنها المشائخ للتلاميذ هم في علم التصوف وكان من كبار أصحاب ذلك الشيخ ومن المتقيدين به في أحوالهم وفي علومهم وفي جميع شئونهم ، وكان شيخه يثني عليه ويعده من كبار الصالحين ، وسمعته مرة حتى ذكر أنه وصل إلى مقام أبيه ولم يفقه أبوه الذي اشتهر بالعلم والصالح والورع . وليس له رحلة في طلب العلم إلى الخارج ولكنه أخذ عن شيوخ أهل تَبُورَقْ وأهل تَكَلَّتْ وأهله وسافر إلى حي إخوانه أهل تَنْغَ أَكْلِ وحضر مجلس علمائهم وانتفع بهم وانتفعوا به . وأما الآخذون عنه فكثيرون لأنه ما زال يقرئ القرآن والنحو واللغة والفقه في حيه وكان شيخا لمن بعده من أهل حيه فأول تلاميذه حَمَّطايا بن الشيخ إسماعيل ، ومحمدُ ـ بضم الدال ـ ابن زيد ،

ومحمد بن نُوحَ , وتلاميذه الصغار ابنه البشير وكان مع سعة علمه كثير الصمت وقورا لا يخوض مع الخائضين ولا ينطق إلا بما يراه صوابا سواء في الأمور الدينية والدنيوية ، و كان محبا للناس محبوبا لمن خالطه من سائر القبائل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر برفق والين وأدب ، وآخر أمره أنه مرض فأمره بعض الأطباء بأن يذهب معه إلى " بَمَاكو " لأجل التداوي فلما وصلها مات في مستشفاها في رمضان من عام ألف وأربع مائة وسبعة 1407هـ رحمه الله رحمة واسعة .ومنهم محمد الصالح بن العربي : وهو ابن عم محمد علي المذكور وأبوه شقيق أبيه كان عالما فاضلا أديبا وقورا حسن الخلق والخلق ، وكان مشاركا لابن عمه المذكور في جميع الأشياخ المذكورين أخذ عنهم معه جميع ما أخذه عنهم وكان ممن يكثر مطالعة الكتب ويدرس من التلاميذ من جاء إليه يطلب العلم ويُقرئ النحو واللغة والفقه ويكثر من قراءة صحيح البخاري ، وله شيء من القصائد الإخوانية والمديحية ولم يترك أثرا منثورا ، توفي عام أربعة وتسعين وثلاث مائة 1394هـ .
ومن علما هذا البيت محمد أحمد المعروف باسم الْعَربي : وهو والد محمد الصالح المذكور أدركته ولكن مات في صغري ولم أعرف من أخباره إلا أنه يعد من العلماء ، توفي عام 1367هـ .
ومنهم البشير عم العربي والسَّدَّادَ رأيت من أثره العلمي قصيدة وأردت نقلها ولم يقدر ذلك حتى ضاعت مما ضاع من كتبنا .
وكذالك جده مَحمد ــ بفتح الميم ــ ابن بَّلَدْ رأيت من أثره قصيدة واحدة تدل على أنه من العلماء ولم أطلع من أخباره على سواها رحم الله الجميع رحمة واسعة .
وأما ذرية الشيخ أبي الهدى من غير أهل تَكَلَّتْ :
فالمعروف من علمائهم عندي :
إفْنَقَنْ بن أُكَّنَتْ .
حي إزَمَمَّر .
أما الشيخ إفْنَقَنْ بن أُكَّنَتْ : فهو من أكابر الحفاظ ومن الأجواد المحسنين إلى القريب والأجنبي ومن المولعين بالكتب ومن المعظمين للقريب والنافعين لهم ، جالسته مرات فرأيت من حفظه عجائب منها أن خزانة كتبه كبيرة ولكن إذا تكلم مع المرء في شيء يحتاج إلى إحضار الكتاب ذكر لبعض خدمه تعين الظرف الذي فيه الكتاب الذي يريده ووصفه له وصفا كاشفا لا يلتبس على أحد بعده فإذا أتاه الكتاب لم يستعن بالفهرسة في طلب مقصوده بل يفتح الكتاب ويأخذ منه مراده وجل تلك الكتب

مخطوطة غير مرقمة وليس فها فهارس ولكن يهتدي منها إلى المطلوب دون تفتيش كأنه يحفظها وراء ظهره ، وحدثني مرة أنه كان في أيام شبابه لا يستأنس بشي سوى الكتب مكث مرة ستة أشهر لم ينم فيها إلا قليلا مثل ساعة ليلا ونهارا وكان له بيت خال ليس معه فيه إلا الكتب ولا يخرج منه لأية حاجة إلا أن يذهب إلى حي إخوانه أهل كُنْتَهَانَ ليذاكر أصحابه فيه ويقيم معهم ليالي ثم يرجع إلى منزله ، وقال : لي كنت جادا في طلب العلم في حياة أخي كبيري سيدي محمد لا شغل لي سواه ولا أستأنس بغير الكتب والعلماء فلما مات تعين عليّ القيام بأمور الناس لأنهم ظلموني وأناطوا بي أمورهم باسم الإمارة وليس لي معدل عن مرادهم إذ لم يبق غيري من أهل بيتنا أحيلهم عليه فلما قمت بالوساطة بين الناس وبين الحكومة الفرنسية اشتغلت بذلك عن كتبي وحيل بيني وبين المطالعة كما يسرني . هذا ما قال لي عن نفسه والذي شاهدته منه عدم الاشتغال عن الكتب بشيء ، وكان وفود أهل الحوائج تتوالى عليه ليلا ونهارا يأتون إليه من سائر الأفاق فإذا أتاه من ليس من أهل العلم سأله عن حاجته وقضاها له وأسرع إذهابه ، وإذا أتاه بعض العلماء حبسه في منزله مدة يتذاكران في العلوم ثم أوفر له الجائزة كان ذلك حاله مع أقرانه من العلماء الكبار ، والظاهر من حاله أن إعجابه بالعلماء الذين كانوا أصغر منه سنا أكبر من إعجابه بأقرانه فإذا ظفربشاب عالم بالغ في تقريبه وتقديمه والإحسان إليه .

أما شيوخه : فلم أعرف منهم على وجه التعيين إلا أنه أخبرني أن شيخه الذي أقرأه القرآن واحد من حيه اسمه محمد بن حكيمٌ ، وأما غير القرآن فلم أسأله عن شيوخه فيه وأعرف أن أباه وأخاه الذي كان أكبر منه وهو سيدي محمد كلاهما من العلماء ، وأعرف أيضا أن من حالة حيه إتيان العلماء الكبار إليهم لينالوا من رفدهم وأن يحبسوا من جاءهم من العلماء ليستفيدوا من علمه ويتعلم منه طلبة الحي سائر الفنون لا يخلو حيهم في الزمن الماضي من عالم أو علماء يبثون فيهم أنواع العلوم ، قال بعض من يعرف حيهم في الزمن الماضي هو محل قول الشاعر : ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا ... . وكانوا ممن أنعم الله عليهم وسخر لهم كثيرا من القبائل التابعة وأفاض عليه من أموالهم ما شاء الله وسخرهم للناس فكان حيهم لا يزال موردا ومأوى للناس ، وكان من كبار أصحاب الشيخ حماد بن محمد ثم من كبار أصحاب خليفته المحمود ، وكان يبالغ في الإحسان إليهما وإلى من يقرب منهما وذكر الشيخ المحمود بن الشيخ حماد في كتابه " التبر التالد " كثيرا من أخباره وأخبار

أخيه وأبيهما وإحسانهم إلى والده وإحسان إفْنْفَنْ إليه وكان صاحبه في سفر الحج مرتين المرة الأولى كانا في السيارات ولقيا فيها كثيرا من المشاق والمتاعب ، وذكر رأفته به وإحسانه إليه في تلك السفرة ، والمرة الثانية كانا في الطائرة وكنت معهما ولما وصلنا إلى جدة في آخر الليل استقبلنا محمد بن إفْنْفَنْ وكان وصل قبل ذلك إلى مكة مع أخته بريرة ومع جماعة من عبيدهم ، فلما رآنا محمد أسرع إلى عبد القدوس الأنصاري وأخبره بمجيء وفد من كَاوًا يقدمهم إفْنْفَنْ والشيخان المحمود وأنار ابنا الشيخ حماد فجاء إلينا مهرولا وبشرنا بتيسير كل أمر نخشى منه العسر من جهة الحكومة وكان وزير الملك سعود بن عبد العزيز فخرجنا من جدة إلى المدينة ثم رجعنا إلى مكة فاستقبلتنا جماعة من عبيدي إفْنْفَنْ أمرهم بالجد في خدمة الشيخين واتخذ منزلا غير منزلنا ونزلنا نحن عند بيت إسماعيل بن محمد الأنصاري وكانت زوجته بريرة بنت إفْنْفَنْ فبالغت هي وأخوها وعبيدها في الإحسان إلى الشيخين بأمر أبيها وسيدهم فما زال الشيخان المحمود وأنار يذكران من إحسان الشيخ إفْنْفَنْ وأهله إليهما في ذلك السفر وقد طال عمره حتى ذهبت قواه ولكن لا يفتر عن ذكر الله وعن الإحسان إلى الناس وآخر أمره أنه لا يفارق المصحف ، ومن العجائب أن المصحف الذي يقرأ فيه رقيق الخط ولكن يقرأ فيه بدون النظارات ، وذكر لي بعض إخواني أنه سمعه يحرض ابنه المحمود على التعلم حتى قال : له لا أعرف من أهل بيتنا جاهلا قبلي .

مـــات عـــــام...

أما أبوه فهو في وقته أمير العلماء وعالم الأمراء سلم له من يعرفه أنه فائق في العلوم وأنه نادرة في الكرم والجود منّ الله به على الناس في قضايا كثيرة أهماها أنه لما ورد الاستعمار الفرنسي على البلاد وتفرق الناس في أمرهم بين من يرى مصالحتهم ليأمن على نفسه وماله وبين من يرى مباعدتهم ومجاهدتهم مع عدم استعدادهم لمقاتلتهم كان الشيخ أَكّنَتْ ممن مال إلى مصالحتهم فأمن كثير من الناس بسببه ثم لما ندم الناس على مخالطتهم بعد سنين ونقض أكثرهم الصلح مع الفرنسيين وبقي القليل على الصلح كان الشيخ أَكّنَتْ ممن بقي على الصلح ولجأ إليه كثير من الناقضين للصلح بعد الهزيمة فشفع فيهم عند الحكومة وشفعه فيهم ونال مكانة عظيمة عند الحكومة ، وكان ذا وجاهة قبل ذلك عند سائر الناس وكان أهل بلده يعظمونه لعلمه وكرمه وورعه وزهده ورأيت ممن يعرفه من يتعجب من كثرة تلاوته للقرآن مع ما هو فيه من أمور الناس وكثرة حوائجهم إليه وقيامه بها ومع كونه من كبار العلماء لم

يخلف منثورا ولا منظوما . توفي بعد الأربعين من القرن الرابع عشر الهجري

وأما سيدي محمد بن أكّنَتْ : فهو أيضا من كبار العلماء والأمراء المرضيين ومن كبار أصحاب الشيخ حماد . توفي عام إحدى وخمسين وثلاث مائة وألف 1351هـ ولم أقف على شيء من أخبار أهل هذا البيت ولا بآثارهم إلا ما كان من مَحمد بفتح الميم ابن الهادي بن محمد المختار المعروف باسم حَبْتَارَ ابن أهَالَسْ فقد رأيت له تأليفا سماه " نصيحة الأمة " تلكم فيه على أشياء كثيرة ينكرها على أهل بلده وأهل زمانه وذكر فيه شيئا من التواريخ وشيئا من كلام الصوفية أنكر فيه دعوى كثير من الناس أنهم من الشرفاء وذكر فيه كثيرا من السودان يدّعون الحرية وهم أرقاء ، وذكر تلاميذه في أول ذلك الكتاب أنه مجتَهد مجدد وبالغ في وصفه بالصفات الحميدة ، ويشهد له ذلك التأليف أنه اطلع على كثير من الكتب ، وأنه ممن يحب إحياء السنن وإخماد البدع ، ولم أقف على أشياخه وتلاميذه إلا أنه يقول في بعض الأحيان شيخنا مَحمد حَنَّ ولا أدري متى أخذ عنه .

وجدهم محمد المختار المعروف باسم حَبْتَارْ رأيت له إجازة أجازه بها بعض أبناء الشيخ أحمد بن الشيخ .

وأما رفع نسب أهل هذا البيت إلى الشيخ أبي الهدى فهو أن الشيخ إفْنَقَنْ هو " ابن أكّنَتْ بن هَمَّاهَمَّا بن حَبْتَارَ بن أهَالَسْ بن العباس بن كَلِكَ بن إنْسِيسُنَنْ ــ يعني المعلم ــ ابن أحمد بن أبي الهدى " وفي إنْسِيسُنَنْ هذا يجتمعون مع إكَرْوَيْ بن مَطَالِ ، وسلميان بن كَرَيَنْ ولم أر أثرا علميا في أسلاف هذين الرجلين وإنما المعروف عندنا في حق مَطَالِ الشجاعة والكرم وحسن السيرة وإكرام أهل الفضل ورحمة الضعفاء والأرامل رحم الله الجميع وتقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم .

أما بنوا أزَمَمَّرَ ... : ولم أعرف من أخبار من لم أدركهم منهم إلا رواية شفوية تحكي بعض الكرامات الخارقة من بعضهم ، وأما العلم فالمشهور به ممن لم أدركهم على حسب ما بلغني :

. محمد أحمد بن الثاني والد سيدي محمد ، والمحمود بن محمد والد عبد الله ،

والحبيب والد محمد الصالح المعروف باسم " مَيْتَالِ " وإخوته .

وهؤلاء لم أقف لهم على أثر علمي وإن كانوا معدودين من العلماء .

أما المحمود بن محمد : فظهر بدعوة صوفية مبنية على التقشف والتجرد

من اللذائذ وكان يدعو العامة إلى تعليم التوحيد بلغتهم الطارقية حرصا على إرشادهم ، وكان ممن دعا إلى جهاد الفرنسيين فتبعته طائفة من يديه والتقوا بالعدو في محل يقال له " تَهْتَسْتْ من أعمال " تِنْبُكْتُ " فستشهد كثير من أتباعه ووقعت الهزيمة على جماعته فطلبه فرنسا ليهلكوه ففرّ من بلاده ، ثم هاجر إلى البلاد المقدسة في جماعة من أتباعه فلقوا أنواعا من المصاعب والشدائد يسجنون ويرد بعضهم إلى البلاد التي هاجروا منها ولكن لم تنقص تلك الشدائد من عزيمته بل أبرز من الجدّ والشجاعة والتوكل على الله ما يقضي منه العجب وصار من معه يرجعون خوفا على أنفسهم من الهلاك وهو ما زال مصمما على وجهته حتى وصل إلى الحرمين الشريفين بعد كيت وكيت ولم يبق معه من أتباعه إلا نفر دون العشرة منهم ابن عمه أبو بكر بن إنْفَ ، والطيب بن إسحاق ، والقاسم أبو عبد القدوس وهما من الأنصار السوقيين من حي مَلَخَيَا ، ورجلا من إكُوبَيْتَنْ ، ورجل من أهل الحُرْمَهْ . وما زال في المدينة المنورة حتى توفي فيها وبقي ابنه عبد الله صغيرا ولم أقف على تاريخ وفاته .

وأما من رأيت من علمائهم فمنهم : سيدي محمد بن محمد أحمد بن الثاني : كان من العلماء الفضلاء ولكن لا يؤلف نثرا ولا نظما ، وكان أديبا وقورا حسن الخلق نقاعا للمسلمين حين كان وفي وطنه الأصلي وهاجر في أخر أمره إلى الحرمين في جماعة من أبناء عمه وعبيدهم ومواليهم وأتباعهم وأقام في المدينة المنورة مدة ثم تحول إلى مكة المكرمة فلقي أنواعا من ضنئ العيش وقابلها بالصبر حرصا على المقام في الحرم ، وما زال في مكة حتى أصابه مرض أعي الأطباء ووجد طبيبا ماهرا أرشده إلى الرجوع إلى وطنه الأصلي وزعم أنه إن شرب من الماء الذي تربى عليه زال مرضه ولا يُزال إلا بذلك فرجع إلى من إخوانه في أرض " بُرْكِنَافَاسُو " فجاءه أجله هناك رحمة الله عليه .

ومنهم يحي بن سهل : كان من العلماء الأتقياء الفضلاء ، وكان ممن هاجر في وطنه الأصلي إلى مكة ومات فيها ولم يخلف أثرا علميا .

ومنهم أبو بكر بن إنْفَ : الذي تقدم أنه من جماعة الشيخ المحمود الذين وصلوا معه إلى المدينة المنورة ، وكان من أهل الفضل والصلاح على ما يظهر ، وكان يعمل في التدريس حتى أدركه الكبر وكان مشهورا بالعدالة معظما عند من رآه من الملوك وغيرهم ، وكان له منزلة عظيمة عند الملك سعود بن عبد العزيز وأكرمه بإلحاق جماعة كثيرة من المهاجرين إلى جماعته ثم رفض زعامة الجماعة وفوضها إلى ابن عمه محمد الحسن الهاشميّ وانقطع إلى العبادة ولم يزل في المدينة المنورة

حتى توفي فيها .

ومنهم محمد الصالح بن الحبيب : ولد في أرض " تِسِ " وتعلم هناك ثم هاجر إلى الحرمين وأقام بمكة يدرس النحو والتفسير في المسجد الحرام وأقام في ذلك العمل سنين وتوفي في عام ستة عشر وأربع مائة وألف 1416هـ .

ومنهم عبد الرحيم بن أبي بكر بن إنْفَ المذكور : ولد في المدينة وتعلم فيها وكان أديبا وقورا نظم شيئا من القصائد وألف في بعض الموضوعات وأجاد فيها ولم تطل حياته بل مات في شبابه رحمه الله .

ومنهم عبد الله بن الشيخ المحمود : وصل مع أبيه إلى المدينة المنورة وهو صبي ومات أبوه في صغره فقام بتربيته تلميذ والده الطيب بن إسحاق ، وتعلم في المدارس هناك وتلقى كثيرا من العلوم ونظم الشعر وعمل شيئا من التعاليق على بعض الكتب ثم خرج من المدينة على موطن أسلافه في أرض " تِسِ " من أعمال " أنْسَنْغُو " وظهر باسم الداعية وأصلح بعض شئون أهل بلده من جهة الدين وغير كثيرا من المنكرات المعتادة في ذلك البلد كاختلاط الرجال والنساء ، والتساهل في الوضوء والصوم وتوريث ابن الأخت بدل ابن الصلب ، ومن إصلاحه فتح باب الهجرة إلى الحرمين فقد حضّ عليها قومه ومن يتبعهم من جيرانهم ، ومن إصلاحاته أيضا الحضّ على التعلم والترغيب فيه فقد وجد في وطنه التكاسل عن التعلم والميل إلى محاكاة أهل اللهو واللعب المعرضين عن ذكر الله المنهمكين في الشهوات والتكاثر والتفاخر وأعمال الجاهلية فأنكر عليهم تلك المحاكاة ، وشدّد في النهي عنها وأمرهم بالتعلم والتكسب بالتجارة ، وطلب الحلال ، وأنشد في مدح العلم وذم الجهل قصيدته التي أولها :

العلم أفضل ما سعيت لكسبه ... وأعزّ مدخر وخير عتاد ومع ما عمله من الإصلاح فقد كان فيه حدة وشدة تمنعه من التفاهم مع علماء بلده فقد كان مسارعا إلى تكفير من خالفه من أهل العلم وغيرهم ، وفتح للجهال باب الطعن في أهل الفضل وتنقيص أهل الخير ، فواجه كبار العلماء بالتكفير فقابلوه بالمثل لأن التكفير هو أبغض الأشياء على نفس المسلم فمن رمى به أحدا من إخوانه لا يصبر على مقابلته بالمثل ، أجابوه بأجوبة تنفي عنهم ما رماهم به ووقعت بينه وبينهم نفرة أثارت العداوة والتفاتن بين أتباعه وأتباع غيره من علماء البلد . وممن اشتد التنافر والتباغض بينهما الشيخ محمود بن محمد الصالح الكَلَالِيّ فإنه أنشد قصائد كثيرة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم قبل إتيان عبد الله إلى

البلاد بسنين كثيرة فلما ورد عبد الله على البلاد ولقيه وتباحثا في العلوم ظهر له ما بين مذهبيهما من الاختلاف فجرت بينهما مشاعرة على طريقة العلماء من ذكر كل واحد منهما دليل ما قال مما تنازعا فيه ، ثم أنشد عبد الله قصيدة يسميه فيها باسم الشيطان والمشرك وما بدا له من الألقاب السيئة فأجابه عنها وبيّن له حجته فيما ينكر عليه ، ثم عمد عبد الله إلى قصائده المديحية التي أنشأها قبل أن يعرفه فزعم أن فيها شركا وكفرا فكفّره ووصفه بالألقاب السيئة ، فأجابه بعدد من القصائد بعامله فيه بالمثل ثم خرجا من طريق المناظرة العلمية إلى طريق المهاجاة والمفاخرة حتى أرسل عبد الله إلى محمود دفترا يتضمن قصائده التي هجاه فيها ومنثورا عنوانه " حُدَيَّا الكلاَّليّ " فملأ الشيخ محمود دفتره بحواش يجيبه فيها ويكذب ما رماه به من السوء ويصفه بمثل ما وصفه من السوء . ومن رأى كلام كل منهما في صاحبه ولم ير كلام الآخر مقته وظنّ أن ما قاله فيه مطابق للواقع . ومن رأى كلامهما معا علم أن ما كان بينهما قد سبق مثله بين كثير من العلماء بعضهم في بعض ، فمن أراد الله به خيرا أعرض عما تبادلاه من السوء وانتفع بهما معا ، ومن لم يفعل ذلك وأخذ كلا منهما بقول صاحبه هلك مع الهالكين ، ولذلك لما اطلعت على بعض ما جرى بينهما جمعته وجعلت له مقدمة أحذر الناس من الطعن في أحدهما تبعا لقول الآخر فيه ، ثم ذيلته بذكر ما ينبغي أن يعمله من اطلع عليه من الإمساك عما شجر بينهما والاستغفار لهما معا ، فإن كلا منهما يذكر أنه مظلوم ينتصر ممّن ظالمه وليس غيرهما كذلك ، ولا حجة له إن وقع في عرض أحدهما ، ومما يدعو غيرهما إلى الإمساك عما جرى بينهما أن كلا منهما لم يذكر غير خصمه بسوء ولم يتعده على الطعن في قومه بل كل منهما ينهي أصحابه عن التعرض لأذية صاحبه ويرى أن ينفرد بالقول فيه ويرى كل منهما أنه أشعر من صاحبه وأعلم . ثم ختمت الكلام على ما جرى بينهما بذكر أدلة الشيخ محمود فيها ليعلم الناظر أنه على حق فيما قال ، وليستفيد الناس مما كتبت فليس كل الناس يعرف الأدلة التي جمعتها . عفا الله عني وعنهما توفي عبد الله عام اثنين وسبعين وثلاثمائة وألف 1372هـ.
وهذا آخر الكلام على بطن أبي الهدى .
أما الشيخ باب أخو أبي الهدى : فقد وقفت على أجوبة فقهية منسوبة لرجل اسمه " باب بن محمد بن مهمد ويقال إنه هو ، ووقفت في الخطوط القديمة على أنه لقي أحمد باب السوداني التنبكتي الشهير فباحثه في

العلوم فلما افترقا سأل بعض الناس بابا السوداني عمّا كان بينهما فقال له السوقي أدرى وأنا أروى ، ولم أقف على أثر علمي إلا تلك الأجوبة .

أما ذريته : فلم أر من آثارهم ما أستدل به على مؤثره ، وقد اشتهر أولاده بالعلم والولاية من أول أمرهم إلى الآن ، وأدركت الناس يعترفون لكثير منهم بالولاية ، أما من لم أدركهم منهم فلم أر من يعتني بتدوين أخبارهم وآثارهم وإهمال الأخبار الماضية سواء منها ما يتعلق بغيرهم عادة منتشرة في بلادنا وفي غيرها من البلاد الصحراوية ، وقد رأيت كثيرا من تواليف أهل العلم يشكون فيها ما اعتاده بلادهم من إهمال أخبار علمائهم وفضلائهم حتى قال صاحب " المعسول " محمد المختار السوسي المؤرخ الشهير انطوت القرون الخامس فالسادس فالسابع فالثامن عن سوس ولم نر عنها ما يدل على حركة علمية واسعة تذكر عن سوس ولولا إفراد سياسيون كابن تُومَرْتٍ، وصوفيون مذكورون في السادس والسابع والثامن لخيم على سوس ما خيم عليها في الثالث والرابع من ديجور كثيف في نظر التاريخ وصوفية ذلك العصر صوفية علمية غالبا قلما يبرز واحد منهم ويذكر ، إلا إذا كان معه علم قليل أو كثير . اهـ من كتابه " سوس العالة " ص 18 ، وقال في ص 9 السبب الوحيد " أي لعدم معرفة أخبار سوس " هو ما ابتلي به السوسيون إلى اليوم من عدم الاعتناء برجالهم والتفريط دائما لا ينتج إلا الجهل المظلم ، وهذا الغيب لا يزال فيهم ماثلا إلى الآن كأنه ممزوج بدمائهم مستحوذ على ألبابهم ، فلولا دواع خاصة لبعض الناس لما رأينا أيضا من القرن التاسع إلى الآن إلا مثل ما نراه فيما قبل مما بين القرنين الخامس والثامن . اهـ قلت وإذا كان هذا هو حال المغرب الذي ما زال محلا للحضارات والدول فما الظن بأهل الصحراء الذين لم يخالطوا شيئا من أهل الحضارات ، ولهذا لم أقدر على ذكر شيء من أخبار أهل هذا البيت إلا من رأيتهم ولم أعرف من أخبارهم من قبلهم إلا أن بني البصيري الثلاثة وهم :

لُ

ومحمد المصطفى

ومحمد أحمد

وابن عمهم المختار

بلغني أنهم من العلماء الكبار ، وأما الذين أدركتهم من علمائهم فمنهم : محمد بن أحمدُ بضم الدال ويقال له " مَمَّايْ " وهو من العلماء والأولياء وأهل
ويتكلم كثيرا بكلام الصوفية ، وكان من الشعراء المجيدين ومن المحسنين النافعين لمن شاء الله من عباده توفي عام 1363هـ

ومنهم الشيخ عثمان بن محمد ويعرف باسم " أكّدُ " : كان من كبار العلماء ماهرا في النحو واللغة وعلوم البلاغة والفقه والتفسير ضابطا لما قرأه من الكتب كأنه لم ير شيئا إلا حفظه ، وكان أخذه للعلم من كبار المشايخ من أخواله كالشيخ شعيب بن محمد بن محمد محمود , والسعيد بن محمد الأمين ، ومحمد بن نوح ، وأقرانهم ، وكان مولعا بحب العلم والعلماء لا تجده إلا معلما أو مطالعا أو ساعيا فيما لا بدّ منه من أمر عياله ، وكان حسن الخلق كثير التبسم مع الوقار يحسن ملاقاة الناس ويلاطفهم ويتودّد إليهم ويحسن إلى القرابة والجيران والضيوف ومن يلقاهم في أسفاره من الناس وكان من المعرضين عن اللغو ومن المكثرين بتلاوة القرآن ، وكان كثر التلاميذ قلما يخلق من تدريس طلبة حيه الصغار والكبار ، ولم يخلف منظوما ولا منثورا مع تفوقه على كثير من الناظمين والناثرين ، مات عام أربعة وتسعين وثلاثمائة وألف 1394هـ .

ومنهم أخوه إسَّالِ ، وابن عمه حَمَّاتْ : وهذان ماتا في صغري ولم أعرف منهما إلا أن إسَّالِ رأيت له قصيدة ، وأخبرني بعض أقرانهما أنهما لو عاشا لم يكونا دون الشيخ عثمان في العلم ولكنهما ماتا في الصغر ولم يتعلما ما تعلم هو بعدهما .

ومنهم ابن عمه إحمَّدْ : كان معتنيا بتحفيظ القرآن .

ومنهم ابن عمه المصطفى بن محمد الصالح ويقال له " أنْدبَلْ " كان من العلماء والفضلاء والكرماء والأجواد ، وكان حسن الخلق نقاعا للناس ، ويقرأ التلاميذ في النحو والفقه ، وكان له شعر كثير جيد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وفي مدح شيخه المحمود بن الشيخ حمّاد ، وكان من الأبرار ومن المبالغين في تعظيم المحرمات توفي عام 1403هـ . ورفع نسبهم إلى باب هو أن أحمد الذي هو بمنزلة العم لجميع الموجودين منهم هو (ابن محمد الصالح المعروف باسم " بَلاَّي " ابن محمد بن حَلَّنَّا بن إدَّلاَّلْ بن إدَّنِنَ بن أكَّ المهدي بن أوَسُّكْ بن القاري بن إنْكِلَّ الولي بن باب أحمد الثمانية)

وأما ربيعة أخو أبي الهدى وباب : فلم أسمع من خبره إلا أنه من جملة أولاد أبيه الذين اشتهر أنهم لقنهم سائر العلوم الشرعية ، ولم أسمع شيئا من خبر أولاده الذين قبل محمد الإمام بن محمد بن أحمد بن ربيعة .
وأما محمد الإمام : فقد سبق أنه من أركان الجماعة الذين خرجوا من المجمع السوقي وانعزلوا في أرض " أَمَسْرْكَضَ " وكانت ذريتهم هم المسمين أهل " تَكَلَّتْ " قديما وحديثا ، وسبق أنه هو الذي تولى إمامة الصلاة في اليوم الأول من تأسيسهم لأمور الجماعة وأنه هو الذي فرض على نفسه القيام بالأمور التابعة للمسجد من تحفيظ القرآن للصغار وتعليم الكبار سائر العلوم ، وأنه كان من أجود أهل عصره خطا وأنه يكثر من كتابة الكتب ، ونفع الناس بها ، وقد أدركت نسخة من " القاموس " بخطه جعلها وقفا على المتعلمين الذين يتعلمون في المسجد المختصٍّ بأهل " تَكَلَّتْ " ، ومازال قائما بإمامة الصلاة ويقال إنه لم يترتب عليه سجود السهو في مدة إمامته إلا ليلة وفاة الشيخ أحمد بن الشيخ . ومن أعظم ما نابه من فراق ذلك الشيخ عرض له سهو كان سبب سجوده . وبقيت إمامة الصلاة في عقبه لشدة وثوق الناس بديانتهم وأمانتهم وورعهم حتى قيل : إن واحدا منهم إذا خرج إلى المسجد ألقي على وجهه حصير يجول بينه وبين النظر على ما سوى موطئ قدميه حتى يصل إلى المسجد . وللشيخ الإمام : ابنان هما أصل الموجودين من نسله الآن وهما : مَمَّان وإدَّا
أما مَمَّانِ فهو جد اليَّ بن مُحَجَّرْ لم يشاركه فيه غيره من بني جده ولم أسمع من خبره إلا أنه ممن عدهم الشيخ سَلَهُ ـ ابن محمد البشير ـ في مرثيته وقال عنه : ومَمَّانِ الأوفى أخو الزهد والتقى ... ولا تنس ذا الحياء وصوم اللسان
وشهادة مثل هذا الشيخ له بالوفاء والزهد والتقى كافية . لأنه ممن سلم له أهل عصره أنه كان من المكمّل ، وأنه كان يعتني بالقصائد المديحية وكان حسن الصوت بها يطلب الناس منه أن يسمعهم صوته بها حتى قيل إن بعض الجن طلب منه أن يسمعه صوته بها وقيل عن إن ذلك الجني تاب على يديه وصار تلميذا له يخدمه خدمة خارقة حتى سمعه في بعض الأيام وهو في مجلس من العلماء ، ذكر لمن معه أن ما تكلموا فيه موجود حله في كتاب عند بعض إخوانه في بلد بعيد فقال له الجني صف لي الكتاب الذي ذكرت والأوراق التي يتعلق بها غرضه فعن قريب رأى الناس تلك الأوراق بين قصبتين ولا يرون من جاء بها فقرأ على الناس

مطلوبهم من تلك الأوراق فنسخوها ثم خفيت عن أعين الناس فذهب بها الجني فردها إلى محلها . وقيل كيفية تلمذة هذا الجني له أنه استأذنه أن يحضر مجالس دروسه ويستفيد منها فأذن له .
أما أخوه إدًّا بن الإمام : فيوصف بالشجاعة والقوة وسخاء النفس ، فهو الذي بعد نكبة " إنْمَنَسْ " التي هلك فيها أهل " تَكَلَّتْ " ولم يبق من رجالهم إلا ثلاثة :
إدًّا بن الإمام
وحكَّاكَ بن هَمَّهَمَّ
والصالح بن أحمدْ
فقام الثلاثة مقام الجميع في تربية الأولاد وتعليمهم والقيام بأمور الجماعة ، وكتب إليهم صديقهم وشيخهم حَامَّ الكلاَّليُّ نصيحة سَنية يجمعه فيها مع أخيه حَمّكَاكَ ويأمرهم بالأوامر التي إذا بنوا عليها أمورهم صلح حالهم ومثالهم . والظاهر أنهما عملا بتلك النصائح وتوارث أخلافهما بعدهما العمل بها فجزاه الله خيرا . ومما يحكى من قوته أنه عمد إلى شجرة فقلعها بعروقها فلما قلعها قال : لأصرفنّ هذه القوة في العبادة فداوم الصوم . فقال له الشيخ سَلَّهُ ــ بن محمد البشير ــ في مرثيته لأهل حيه :
.... ولا تنس ذا الحيا وصومْ الزمان
كما وصف أخاه مَمَّانٍ بقوله : ومَمَّانِ الأوفى أخو الزهد والتقى ...
....
ومما يحكي من شجاعته ما ذكره الشيخ حَمَّدَا بن محمد في تاريخه ولفظه ما كتب هكذا : " ومن العجائب ما جرى للشيخ إدًّا بن الإمام في تفتيشه عن أخيه محمد أحمد بن أحمد ابن الشيخ وكان الشيخ محمد أحمد رحل عن أهله ولا يدرون ما فعل حتى طالت غيبته ودامت سنين فعيل صبر أخيه إدًّا بن الإمام عن فراقه فخرج في طلبه حتى ظفر به في أرض " ولالتة " مغيّرا زيّ أهله ومتزينا بزي العرب الذين يقيم بينهم فأقام معه حتى جاء معه إلى حيهما . قال الشيخ حَمَّدَا بعد قوله : " ومن العجائب ما جرى للشيخ إدًّا في تفتيشه عن أخيه محمد أحمد " وهو أنه في بعض أيام سفره أدركته الهاجرة في فيافي جرداء ما فيها قط مستراح لأحد فجعل يجدّ في السفر مُأوّيا يرتاد أي نابت على وجه الأرض يتقي بظله من الوقدة , ويستريح تحته بالرقدة ، فإذا هو بسرحة عالية عظيمة ملتفة الأغصان على وفق ما يرضي المسافر فأنضى إليها العنس وأجهد في الوصول إليها النفس ، فلما وصل إليها صادف تحتها من عظام جيف

الحيوانات ناسا وغير ناس ، ما يوجب النفار منها والفرار ، ويحق لمن رآه وعاينه عدم السكون والقرار ، ولكن مع ذلك أكره نفسه على تكلف القيلولة تحتها ليقضي الله أمرا كان مفعولا ، ثم لما قام قائم الظهيرة أخذ في الاستعداد للصلاة فجعل وَضوءه إلى مكان قريب ، فلما شرع في الوضوء رأى قبالة وجهه حصيا من التراب تتطاير قليلا قليلا في مكانين متقاربين فأتبع نظره ما بدا له واشتغل مدة بالنظر إليه عما هو فيه ولم يزل يتفكر ويتأمل فيما يرى حتى ألهم أن حصيات المكانين ما أثارهما إلا نفَس يجري من منخري حيوان كامن في باطن الأرض ، فحينئذ حمل على ذلك المظنون برمح له من أجود ما أنت راءٍ أمثاله وتحرى بين المنخرين فطعنه به طعنة صادقة ساخ بها سائر رمحه في الأرض حتى انتهى إلى مبداء الزج فاتفق أنه قد أصاب رأس ذلك الحيوان الباطنَ ، وعند ذلك تفرغ لما شرع فيه أولا من أداء فريضة الصلاة ، وما سلم من صلاته إلا والأرض ترتج وتهتز وتزلزل تزلزلا شديدا أولها صوت كصوت الرعد القاصد ولم يبرح هو ينتظر لماذا يؤل الأمر إلى أن خرجت له بعد حين لية من حية كانت أعظم حية رئيت على وجه الأرض فالتوت تلك الحية على الرمح كالدائرة ثم جعلت جثتها تخرج كذلك لية لية وتلتوي على الرمح كالأولى فما تم خروجها من باطن الأرض حتى صار مجموع الليات كالهضبة العظيمة ، فلما استيقن أنها كانت ميتة عالج تخليص رمحه من تلك الجثة نهاية المعالجة ، فهيهات يجد إلى ذلك سبيلا ، فلم يعد أن راح ومضى لسبيله متأسفا على ما فاته من استصحاب الرمح ولم يزل مجدا في السير إلى أن ساقه غروب الشمس إلى قوم هم أقرب الناس إلى مكان السرحة المذكورة فبات عندهم وبمجرد وصوله إليهم بادروه بالسؤال عن أيّ مقيل راح منه لعلمهم أن لا مقيل في الجهة التي جاء نحوها إلا تلك السرحة ، فأجاب بأنه راح من السرحة وعندها قال . فاتفقوا على تكذيبه وقالوا له هيهات لا يمر بتلك السرحة أحد ما إلا وهلك ، فكيف نصدقك في القيلولة عندها أوما رأيت كثرة جيف المارين بها من القوافل والرواحل ، وما زالوا به حتى جاءهم بأغرب عندهم وأعجب وهو قتله لذلك المهلك للمارّين فما زادهم حديثه إلا تماديا وتوغلا في التكذيب فحينئذ أخبرهم بارتباك رمحه في تلك الجثة وأنه أعوزه تخليصه من العظام ، وقال لهم وإن بقيتم في ريب إلى الآن فاغدوا بنا غداة غد إلى مكان السرحة ليغنيكم المنظر عن المخبر ، فلما أصبح الصباح غدوا عليه واستصحبوه إلى موضع السرحة فلما دنوا منه تراء لهم شبه هضبة فاتفقوا كلهم على أنهم مع شدة معرفتهم بالسرحة

قديما وحديثا لا يعهدون عندها هضبة قط فكادوا أن يصدقوه في دعواه لكن بقي لهم أن يشاهدوا ما ذكر لهم في شأن الرمح فما انتهوا حتى بلغوا المحل فعند ذلك علموا الأمر مشاهدة فعظم الرجل في أعينهم وزادوه تبجيلا وإعزازا وبالغوا في الدعاء له والثناء عليه ثم جعلوا ينحتون تلك العظام التي ارتبك بها الرمح حتى خلصوه وسلموه ومضى لسبيله ، فلله دره ما أعظم نفعه ثم بعد أيام وقع في شدة أخرى وتخلص منها بإذن الله تعالى وذلك أنه قد مرّ ذات يوم في أثناء الطريق وإذا هو بلصوص كامنين في كلتا جنبتي الطريق فوثبوا إليه على غفلة فما راعه إلا أحدهم وقد أخذ بزمام الناقة واستمسك أصحابه بكل من قوائمها الأربع محاولين لاستنزاله عنها ومستعجلين راجيا كل منهم أن يستخلصها لنفسه فجعلوا يختصمون فيها أيهم تكون في خصته والشيخ مع ذلك مطمئن النفس آخذ في الاحتيال لتخليصها ونجاة نفسه فبينما الملأ في شدة إذا به قد أطلق رأس الناقة من الزمام ثم ضربها فوثبت نافرة أشد نفارة وجعلوا يتعلقون بها لئلا تفلت فما زالوا يتساقطون عنها لشدة نشاط أوجب لها إحداث حركات لا يستطيعون معها إمساكها والشيخ في أثناء ذلك ثابت على ظهرها غير متزلزل ولا مضطرب ، فلما انقطعوا عنها آيسين من الظفر بها صاح به صائح وقال إن أمكر منجبة بك ولم يزل هو تشد به ناقته جريا حتى إذا أيقن بالأمان رجع الزمام إلى الناقة ثم سار على هيئته إلى أن بلغ مقصده " . اهـ ما كتبه . قلت : ومما يدل على سخائه أنه أتعب نفسه في كتابة " الشفا " للقاضي عياض حتى أتمه وجلّده ثم أتى به جدي مَحمد بن هَمَّهَمَّ وقال له خذه بلا عوض ، وكان مثل تلك النسخة لا يسمح من تعب فيها بأن لا يأخذ منها عوضا ، وربما وجد فيها ناسخها عددا من البقر لعزة تحصيلها ، وبقيت تلك النسخة موروثة في أولاده حتى وصلت إليّ ثم هلكت فيما هلك من كتبنا في نكبة " كاوا " وكان هذا الجد وجميع أبنائه وأحفاده إلى الآن من المشهورين بإجادة الخط وتنميقه وتصحيحه ، وكتبوا كثيرا من الكتب العلمية لأنفسهم ولإخوانهم وتبرعوا ببعضها وأخذوا ثمن بعضها وأحب الأموال إليهم ما نالوه من ثمن خطوطهم لأنه الحلال وهو كسب إيمانهم وكانوا متعففين مستغنين بأموالهم عن أموال غيرهم فبورك لهم فيها يقتنونه من الأموال حتى اشتهروا بكثرة البقر مع الجد في التعلم والتعليم ونسخ الكتب ، وكان كل من يعرفهم لا يطمع في أن يميلوا عن الحق تبعا لهوى أحد ولا طمعا مما في يده لأن لهم من المال ما يغنيهم عن غيرهم .

ولمحمد بن الإمام المعروف باسم " إدَّا ابنان :

محمد المعروف باسم " بَلّى "
ومحمد أحمد المعروف باسم " حَاحَ "
وكل منهما خرج من نسله كثير من العلماء الذين بذلوا جهدهم في خدمة القرآن بتحفيظه وإقراء علومه للكبار وكتابته وغير ذلك .
وبنوا محمد المعروف باسم " بَلّى " أربعة :
محمد الشيخ ويقال له " حنذُ " .
ومَحمد بفتح الميم دائما .
وعَبٌّ (1) .
وأحمدُ .
وكلهم عالم مجيد للخط وتبعهم في ذلك أبنائهم ومن أجود أحفادهم خطا أحمدُ بضم الدال دائما ابن محمد بن بَلّى ، وابنه محمد أحمد المعروف باسم " أحَمَ

(1) 1) اسمه عبد القادر .

ومنهم مَحمد بفتح الميم بن عَبٌّ : يحكى عنه أنه قال لو محي مصاحف الدنيا وجاءه الناس بالكاغد لكتب لهم مصحفا مهموزا مشكولا على ما فيه كتب الرسم لم ينقص منه شيء ولم يكن ذلك القول منه فخرا لأنه كان مشهورا بالزهد والإعراض عن الدنيا وما يورث الشهرة .
ومنهم ابن أخيه محمد الشيخ بن موسى بن عَبٌّ : وهو من العلماء الكاملين نحوي لغوي ، صرفي ، فقيه ، فهامة، يجيد التغبير في إقرائه حتى لا ينغلق شيء عن الطالب بعد تعبيره ، وليس له نظم ولا نثر ، ولكن يفوق كثرا من أهل النظم والنثر توفي عام 1383هـ . وترك ابنا عالما اسمه محمد ثم توفي ذلك الابن عام 1414هـ وبه انقرض بنوا عَبٌّ بن بَلّى
أما محمد بن بَلّى : فليس له عقب من جهة الذكور ، وإنما المعقب من أولاده
الشيخ مُحمد الشيخ
ومَحمد بفتح الميم
أما مَحمد بفتح الميم بن بَلّى : وابنه أحمدُ بضم الدال فلم أر من كتب عنهما شيئا ، وإنما أعرف من أمرهما أن كان منهما من أجود أهل

عصره خطا وقد انتفع كثير من الناس بخطهما .
أما محمد أحمد بن أحمدُ ويقال له " أحَمَ " فهو الذي ترجمه أخونا وتلميذه إسماعيل بن محمد الأمين فقال : سمعته يقول أخذني عمي موسى بن عبد القادر المعروف باسم " عَبٌ فأقرأني أربعين حديثا " يعني النووية " ثم أقرأني رسالة ابن أبي زيد القيرواني من أولها إلى أخرها ، ثم أقرأني " الأجرومية " مع شرحها " مفهم الأقران " ثم أقرأني " الخلاصة " و " اللامية " وهناك تفرس في النجاح فصرت أدور بينه وبين الشيخ المفسِّر محمد الصالح بن محمد بن ميدِ وابنه محمد محمود ، والشيخ السدَّادَ ، والشيخ مفلح بن محمدُ حتى أتقنت عنهم " مقامات الحريري " و " رواية الأشعار الستة " . هذا ما حكاه عنه ثم قال : قلت أيها الكاتب ثم رجع إلى جيرانه وأخوال أبيه بني محمد المصطفى جدّ أهل " تِكِرَتِنْ " فأخذ الفقه عن عبد الله بن الميمون ، وحضر مدارس الشيخ محمد أحمدُ بن فُكَّ .
قال إسماعيل وأما المنطق والبيان فلا علم لي بمن أخذهما عنه إلا أنه من أهلهما ، وأما التفسير فأخذ منه على الشيخ محمد الصالح بن محمد بن ميدِ من سورة " يس " إلى آخر القرآن الكريم ثم أخذ الباقي عن الشيخين محمد بن محمد محمود وسعد الدين بن عُمار .
وأما تلاميذه : فمنهم ابن أخته سَوَلَّ بن داوود ، وبنوا عبد الرحمن بن الميمون الشيخ حُميد ونوح ومحمد عيسى ومحمدُ بضم الدال دائما ابن تَانَ ، ومنهم أحمدُ بن عبد السلام الإسحاقي والشافعي بن يوسف الإسحاقي وعبد الله بن محمد الأنصاريّ أنه مكث هو وابن عمه إسماعيل بن سيد محمد الأنصاري فصلا من الفصول يأتيان إليه يدرسان عليه " الأشموني " على الألفية .
وأما إفادة الطلبة : وفتح ما انغلق عليهم فذلك جار منه مجرى النفس .
هذا ما ذكره ، والظاهر أن طلبة العلم في حيه استفادوا منه كلهم لأنه ما زال معلما مرشدا ناصحا لجميع المسلمين ، وكان الطلبة يرغبون في الأخذ عنه لما رأوا من اجتهاده في إيضاح العبارة وتفهيم الطّالب فكان ذلك سببا لكثرة الآخذين عنه . وأما تلاميذه الذين لم يذكرهم إسماعيل : نفسه فقد كان أول من رباه وتعلم منه النحو ، ومنهم الشيخ الفتي بن محمد أحمدُ بضم الدال ، وأخوه محمدُ بضم الدال ، ومن في طبقتهما من حي " تِكِرَتِنْ " وكان جيد الخط كوالده وجده وأعمام أبيه ، وجميع بني جده ، وله حظ وافر من ذلك التراث ، ومن تلاميذه الذين لم يذكرهم إسماعيل : مَهمّن بن محمد الصالح بن الأمين السوقي الكنتي ، ومنهم ابنه الأكبر محمد أقرأه القرآن برواية ورشْ وحبسه على حفظه حتى

استقر في حافظته ولم ينسه بعد ذلك ثم أقرأه عقيدة " ابن أبي زيد القيرواني " و " نظم الأخضري " . ولما شرع في قراءة النحو وكان بين محمد بن عبد الرحمن بن الميمون حتى قرأ الأجرومية وألفية ابن ملك ولاميه ، وكان وصولا للرحم برا بقرابته ، ومات أخوه وشقيقه المختار وترك ابنين وثلاث بنات فأحسن القيام عليهم وآثرهم على أولاده في الحنان والشفقة ، و كان ذلك من أعمال أهل " تَكَلَّتْ " التي توارثوها وتواصوا بها حتى كان ما يخالف ذلك الإيثار سبة ومعرة فكان أحدهم إذا مات أخوه عن أولاد قرّبهم وآثارهم على أولاده وبالغ في حفظ ما لهم وتنميته وتهذيبهم وتعليمهم الآداب وتحسين أخلاقهم ، وأعرف كثيرا منهم عامل أولاد أخيه وإخوته بعدُ يتمهم معاملة أحسن من معاملة أبيهم لهم وأحسن من معاملته لأولاده ، والغالب أن أولئك الأيتام إذا كبروا بالغوا في الإحسان إلى عمهم حتى يكونوا أبر به من أبنائه . تقبل الله من الجميع إحسانهم ، وليس له أثر منثورا فيما رأيت ولم يكثر النظم ، وله أبيات تتضمن التيازه بجناب الشيخ حمّاد بن محمدُ وهي :

ألا يا حضرة الغوث الأمين ... على سرّ الولاية واليقين
سليني بالتلطف عن مرادي ... فإن سؤال ذي كرم بلين
أقل لك إنني والله ربي ... مراد جناب عزكم المكين

فأجابه الشيخ بجواب كاف مضمنه الحث على الصدق والتبشيرُ ببشائر كثيرة وهو :

ألا قل للذي من عن يميني ... أتى ويقول مبتدرا سلين
فما لك لا تسائل منك قلبا ... عن الصدق المسبب لليقين
وما الحضرات تنفع أيّ نفع ... كذوبا فاسألن قضاة حين
فإن تصدق فسوف تنال ربحا ... هنا وهناك يا روح الجبين
وتنقل بعدُ من بُعد لقرب ... ومن ذلّ إلى عز مكين
ومن خفض المقام إلى ارتفاع ... ومن عطش إلى ماء معين
صلاة الله في أسنى سلام ... على مختاره الهادي الأمين
وجملة آله وجميع صحب ... وكل التابعين ليوم دين

وله أبيات يدعو الله فيها بحسن الختم متوسلا بأهل البيت الدين ختمت بهم الأشياء وهي :

يا ربنا أرزقني حسن الختم ... بمن ببيته ظهور الختم
فانه قد ختم الرساله ... به إله العرش ذو الجلاله

كذلك بابن عمه ختام ... خلافةٍ كما ارتضى الأعلام
وختمت بعمه العباس ... هجرة أهل دينه الأكياس
كذاك بابنيه الحسين والحسن ... قد ختم الأسباط مسبل المنن
وختمت دولةُ هذا الدين ... بنجله المهديِّ ذي التمكين
أنلني اللهم حسن الاختتام ... بجاه أهل البيت سيد الأنام
محمدٍ صلى عليه الله ... في آله الغر ومن تلاه

انتهى ما كتبه الشيخ إسماعيل . وكان صبورا على البلايا عفيفا يحسبه الجاهل به غنيا من التعفف ، وكان أمّارا بالمعروف نهّاء عن المنكر شديدا على من يأتي المنكر لا يخاف في الله لومة لائم ، توفي أول ليلة من ذي القعدة سنة ألف وثلاثمائة وستين 1360هـ

أما بنوا محمد الشيخ بن بلَى : فلم أعرف شيئا عمن لم أدركهم منهم إلا أن محمد الأمين بن المكّى بنْ محمد الشيخ كان ممن يضرب به المثل في إجادة الخط وهو من العلماء ، وأخوه محمد الصالح بن المكّى أدركته ولكن مات في صغري وسمعت أنه من العلماء الحفاظ ولكن لم أر أثرا خلفاه نظما ولا نثرا . والذي خلف أثرا علميا من أهل ذلك البيت هو إسماعيلِ بن محمد الأمين بن المكّي وهو الذي يكثر النظم في موضوعات كثيرة ، وأما النثر فلم يعتن به إلا أنه وضع تراجم لجامعة من شيوخ حيه أجاد فيها وأطنب وأفاد وعلى الأسف ضاع مد دوّن من ذلك ولم يبق منه إلا ما في " التبر التالد" من ترجمته لشيخه أحَمَ وتراجمه لبني محمد الصالح الثلاثة وهم :

إسماعيل
ومحمد محمود
ويوسف

وأجاد في ذلك ، وله رسائل بليغة تشهد بمكانته واقتداره في الكلام العربي وتعلم النحو واللغة والبيان والفقه في حداثة سنه وصاحب كبار العلماء من حيه من أعمامه وأخواله وأخذ عنهم ، وأول من أخذ عنه ابن عم أبيه محمد أحمد المعروف باسم " أحَمَ " وعلماء جيرانه من أهل تِكِرَتِنْ ، ثم أخذ عن غيرهم وعن الشيخ محمود بن محمد الصالح ، والشيخين محمد والمرتضى ابني أحمد البَكاي ، والشيخ أحمدُ بن موسى الأنصاري وحُميد ابن عبد الرحمن ، والشيخ المحمود بن الشيخ حمّاد ، وحَمَّدًا بن محمد بن حَدِي والموفق بن المصطفى ، وجميع أقرانهم ، وكان محبوبا عند الكبار يقربونه ويعدونه منهم في حال صغره وتلقى العلوم التي تدرس في بلاده في حال صغره وشبابه ، وكان حاملا للقرآن

أقرأه لكثير من الناس ويقرأ النحو واللغة والتفسير ، وآخر أمره أنه أعرض عن مخالطة الناس وأحاديثهم وأقبل على الذكر حتى مات في صفر من عام ألف وأربعمائة وستة عشر 1416هـ

أما محمد أحمد بن إدًّا بن الإمام ويعرف بحَاحَ : فحاصل ما بلغني من خبره أنه من العلماء وذوي الهمم الجامعين بين الخدمة في العلم والخدمة في المال وكان كما قيل " خيركم من لم يترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه " ولم يكن كلا على الناس ، وكان كما هو من سيرة أهل بيته مقتنيا للمال يستغني به عن التعرض لما في أيدي الناس ويكف به نفسه عن مخالطة من لا تعجبه مخالطته من أهل الفسق والفجور ، وعن مخالطة السلاطين الذين لا يرضون من مخالطهم أن لا يوافقهم في أهوائهم المخالفة الشرع .

ومما يحكى من قوته وهمته وحرصه على الجميع بين التعلم وتنمية المال أنه كان بقارا قل من يساويه في ملك البقر وكانت بقره ترد البير كل يوم ولا يسع الناس سقيها في يوم واحد ، وفي بعض الأحيان كان يكتب نسخة من شرح عبد الباقي على مختصر خليل وكان يرد كل يوم ليراقب حال بقره فيأخذ كراسة من النسخة التي يكتبها ويجمع بين كتابتها ومراقبة الخدم الذين يسقون البقر ولا يأتي عليه آخر النهار إلا وقد فرغ من كتابة الكراسة ومن سقي ما ورد في ذلك اليوم من بقره فيروح إلى الحي وإذا وصل إلى الحي أخذ كراسة أخرى فيبيت يدلكها ليسهل مرور القلم عليها فإن بعض الكاغد يصعب مرور القلم عليه إلا بعد دلكه بحجارة معدة لذلك فإذا أفرغ من دله بات حتى يصبح فيبكر به إلى البير مع بعض البقر فيعمل مثل ما عمل في اليوم الأول ولم يفتر من ذلك حتى فرغ من كتابة ذلك الكتاب ولم يفته حضور حالة بقره ، وتلك النسخة بقيت في أولاده ميراثا حتى أدركتها ، ولم أطلع من أخباره على ما سوى ذلك إلا أن العلم لم ينقطع من أهل بيته إلى الآن بحمد الله .

وأما البخاري : فكذالك لم أطلع على شيء من تفاصيل أخباره .

وأما أحمد البكا بن البخاري بن حَاحَ : فهو الذي أدركته ولكن لم أسأل عن تاريخ مولده وكان من العلماء ومن الكتاب ، ورأيت بعض الكتب التي سمعت أنه هو كاتبها وأشرف خطة يقوم بها تحفيظ القرآن فقد قيل إنه أقرأه لزهاء مائة بدأ ذلك العلم من صغره إلى آخر حياته ، وكان من المعمرين حتى ضعف عن الأعمال التي كان يعملها من قبل ولكن بقي في خدمة التحفيظ حتى مات ، ومن الذين تعجب الناس من تحفيظهم له في تلك الحالة الوديعة بن الشيخ إسماعيل بن محمد الصالح ، وكان ممن

أقرأهم القرآن الشيخ إسماعيل نفسه ، وكان إسماعيل لا يقول له إلا شيخي ، كذلك أبناؤه وأبناء إخوته جلهم هو الذي حفظهم القرآن ، وغالب الظن المحتف بالقرائن أنه مكث في خدمة تحفيظ القرآن الكريم أكثر من ستين سنة ، وكان برا أمينا ، قال عنه شيخ شيوخنا محمد الصالح والد الشيخ إسماعيل " أحمد البكا أمين هذه الأمة " ، ومن أمانته وبره بقرابته ما علمه في حق تركة أخيه المعروف باسم " حَلاَلَ " فإنه مات عن ابن وبنت صغيرين ثم ماتت أمهما فبقيا في كفالته وأحسن القيام عليهما وبالغ في نصحهما وتنمية مالهما وجرت في ذلك قصة ما زال الناس يتعجبون منها ويرددونها وهي : أن بعض الناس أتاه بعد وفاة أخيه المذكور بقبضة من النبق فقال له هذا شيء كنت أدخره لأخيك المتوفي فأخذها منه وباعها وأدارها حتى حصلت له من ثمنها شاة فأودع تلك الشاة عند راع أمين فاجتهد في حفظها حتى حصل من نسلها قيمة عجلة فاشترى بها عجلة فقام بحفظها وتنميتها وما بلغ الصبيان اليتمان مبلغ الرشد حتى حصل لهما نصاب من البقر من تلك القبضة فلا تسأل عن تنميته لما سواها ، وما حُسن الخلق وإكرام الضيف والإحسان إلى ذوي القربى والإعراض عن اللغو وكثرة الذكر فله منها الحظ الوافر . توفي عام 1368هـ

ولأحمد الكبا : أربعة من البنين كلهم من العلماء وهم :
محمد .المرتضى .وإبراهيم .ومحمد الصالح . وكذلك ابن أخيه عيسى بن حَلاَلَ من العلماء وحملة القرآن والمشتغلين بإقرائه وكتابته ومن لمشتغلين منهم بالإنشاء نظما ونثرا : محمد والمرتضى .

أما محمد بن البكا : فهو من حملة القرآن المكثرين تلاوته ، وأما العلوم الأخرى من النحو واللغة والتصريف والبيان والتفسير فهو من حاملي الرأي فيها وأحب الأشياء إليه تذليل صعاب العلوم وحل مشاكلها قلّ له نظير في ذلك ،

أما شيوخه فأهل حيه من أخواله وأعمامه فلم يرحل عن حيه في طلب العلم إلا مرة رحل فيها إلى شعيب بن محمد شيخ أهل " تَبُورَقْ " فأخذ عنه شرح سعد الدين التفتازاني على التلخيص ، وأخذ التفسير عن الشيخ محمد بن محمد محمود من أهل " تَبُورَقْ " وعن خاله إسماعيل بن محمد الصالح ، وعن الشيخ الوالد سعد الدين بن عُمار ، وشارك الشيخين محمود بن محمد الصالح وأحمد بن موسى في أخذ سائر الفنون ، ولم أقدر على أن أقول فاقه أحد ممن رأيت إلا أن يكون مفوقا في البعض فائقا لمن فاقه في غيره ، وله كثير من المنظومات والمنثورات . وأهمّ

منثوراته : شرحه على نظم الشيخ الوالد لقطر الندى المسمى " غيث الجدى " وهو شرح جيد أطنب فيه وأكثر فيه من الفوائد النادرة .
وأهمّ منظوماته : " منية الأمّال في تصريف الأفعال " وأرجوزة ترجم فيها إلى اللغة العربية أرجوزة طارقية نظم فيها بعض إخوانه كثيرا من المواعظ والنصائح فترجمها هو إلى العربية بنظم بلغ الغاية في الجودة ، والمنظومات التي يقرب فيها المشكلات ويحلها لا تحصر .
توفي عام 1388هـ .
أما المرتضى بن أحمد البكا : فهو قرين أخيه محمد المذكور آنفا وهو كمثله مشارك في العلوم وله سمت حسن ووقار ومرؤة ، وكان نظّاما نثّارا ، وأخذ تعاليمه عن شيوخه
وأهم من أخذ عنهم : خاله السّدّادَ ، بن الصالح وهو لا يسميه باسم غير شيخي وما زال من شبابه إلى كبره يؤخذ عنه العلم ولكن لم يقم أحد من أهله بضبط شيوخه ولا تلاميذه أما مؤلفاته ومنظوماته : فقد كانت مجموعة قبل ما أصاب مكاتب جماعتنا في " كَاوَا " من تسلط أيدي الجيش عليها فنهبوا وحرقوا ومزقوا ولكن بقي بعض البقايا بسبب غيبتها عن محل الكراثة وكثير من مؤلفاته لا يكتب فيها اسمه ولا يسندها إلى نفسه فرارا من أن يكون في ذكر اسمه شيء من محبة الاشتهار وهو بريء من مثل ذلك كما هو حال كثير من أهل بيته ، فقد بلغني أنه لما أنشد قصيدته الأولى ورآها شيخه خاله السّدّادَ قال له هذا مما لا يعمله أهل بيتنا مع كثرة كبار العلماء فيهم وتفوق علمائهم على كثير من الناظمين والناثرين وكلهم آثروا الخمول على الظهور ولم يشذ عن ذلك السبيل اللميدِ ولعل كلام هذا الشيخ هو الذي دعاه إلى إهمال اسمه في أوائل مكتوباته وأبت طبيعته واقتداره العلمي من إهمال الإنشاء رأسا .
ومن رسائله رسالة وجهها إلى العالم السنغاوي محفوظ بن إبراهيم من أهل " تِيَنْعَوْتْ " يذكر فيها فضيلة العلم وأهله ويدعو فيها إلى تعظيم العلم وأهله ويحذر من عدم احترامهم وقد قرأها عليّ وقال : لي ذلك الأخ السنغاوي هو الذي أمره أولا بوضع الرسالة ، فقال له إن كان مرادك بوضعها أن تترفع على غير العلماء وتطالبهم برفع منزلتك وإجلالك فلا أعينك على ذلك وإن كان مرادك أن تعرِّف الناس من ذلك ما يجهلون وأن تأخذ نفسك بما يجب عليك فسأفعل ، فقال له : إنما أريد أن ينتفع بذلك وأعمل به ويعمل به من اطلع عليه من الناس فجمع له من ذلك فوائد كثيرة .
ومن أهم منظوماته : أرجوزة في الزكاة تكلم فيها بما ينبغي أن تصرف

فيها وما يترتب على التساهل في شأنها وعدم تقوى الله فيها ، وهي طويلة جيدة في بابها . وله منظومات غيرها كثيرة منها ما يسميه " السبعيات " وهي على حروف الهجاء كل حرف منها ينظم فيه سبعة أبيات تحتوي على النصائح ومكارم الأخلاق . توفي عام 1393هـ .
أما إبراهيم بن أحمد البكا : فهو من العلماء ولكن صرف همته وجميع سعيه في نفع المسلمين واشتغل عن كثيرة التعليم والكتابة الذين هما مهمة أخويه بالسعي في مصالح المسلمين وإكرام الضيوف حتى اشتهر في بلده بأنه خادم الضيوف مع كثرة أهل الكرم في قومه وسائر أهل بلده ، وكان له مزيد انبساط وترحيب بالضيوف ففتح الله عليه من أنواع التيسير والإمداد أمورا عجيبة منه أنه يأتيه كثير من الضيوف في حال ضيقة لا استعداد مع أحد من أهل البلد فيها فيفتح الله عليه من الرزق ما يكرم به الضيوف ، ومنها أنه لا يفرق بين كثرة عدد الضيوف وقلته ، فكان يقري الضيف الواحد بما يكفي عشرة أو أكثر ، ومنها أن الضيوف تأتيه وقت القيلولة فيقوم بأمرهم ويذبح لهم بقرة أو ثورا فيطعمهم قبل صلاة الظهر ، وربما أتوه بعد ما نام الناس ونبّهوه فيقوم ويذبح بقرة ويجمع الخدم فيخدمهم في الدق الطبخ وجلب الماء حتى يوسع على الضيوف بما يزيد على حاجتهم قبل صلاة الفجر ، ومن حاله مع الضيوف أنه لا يكل أمرهم إلى الخدم بل يتعب في خدمتهم بنفسه ويرى التعب في خدمة الضيوف أحسن من تكثير النوافل كما روي
" إطعام الطعام خير أعمال الإسلام " وكان برا بأمه حتى قال للناس يوم موته لا تذهبوا بي المقبرة إلى المقبرة بل ادفنوني بحيث تراني أمي وترحمني فدفنوه خارج الحي بمحل قريب لم يسبق أن يكون مقبرة ولكن صار بعد ذلك مقبرة كبيرة . توفي 1373هـ .
أما أخوه محمد الصالح : فكان من العلماء الأبرار والمحسنين إلى القريب والبعيد عاش سنين كثيرة بعد بلوغه النكاح ولم ينكح لأنه لا يرضى أن يوجب لأحد على نفسه حقا ما دامت أمه في قيد الحياة وما زال على ذلك حتى مات عام أربعة وسبعين وثلاثمائة وألف 1374هـ
أما ابن عمهم عيسى بن حَلاَلَ : فمن العلماء الصالحين وقد تقدم في ترجمة عمه أحمد البكاي أنه هو الذي رباه بجميع أنواع التربية فقد مات أبواه وهو طفل فأخذه عمه وقام له مقام الأب والأم في الحنان والحضانة حتى بلغ سن أخذ العلم فأخذ في تعليمه حتى بلغ مبلغ الرجال ، وكان من المهرة بالقرآن يعلمه الصغار بجد واجتهاد ونصح ولما بلغ الأشد كان عونا لعمه في تحفيظ تلاميذه القرآن ، وكان هو الذي يتولى كتابة ألواحهم

ثم يرسلهم إلى عمه ليتولى حبسهم على القراءة حتى يحفظوا ما على ألواحهم ، وكان له تلاميذ في القرآن غير الذين يعاون عمه في شأنهم ، ومن جده في التحفيظ أن بعض تلاميذه ختم له القرآن في عام واحد وه يحفظه وذلك التلميذ هو عَنْ بن عمران وهو الذي أخبرني بذلك ، ومن مهارته في القرآن أنه هو الذي يؤمهم في التراويح ، و كان لا يفارق القلم يده إما كاتبا لتلميذ أو كاتب كتاب لبعض إخوانه ، وكان صالحا يظهر عليه سيما الصالحين لم أسمع من ذكره بسوء ولا من ادعى عليه جرما ، ويحكى عن بعض إخوانه أنه كان معهم في سفر فأصابهم برد شديد وأوقدوا نارا وباتوا حولها كما يفعل من يصطلي فأصابهما النوم واستيقظ صاحبه قبل الفجر فرأى عليه شبه ثوب أسود وكان عليه ثوب أبيض حين نام فلما رأى السواد أنكره فناداه فلما انتبه وأراد القيام سقط عنه بعض ذلك السواد فعلم صاحبه أن ثيابه احترقت حتى صارت رمادا وهو لا يشعر ولم يصبه شيء من ذلك الحريق فحمد الله على سلامته وألقى عليه ثوبا واستبشر بعدم احتراقه وعد ذلك من الكرامات . توفي عام اثنين وسبعين وثلاثمائة وألف 1372هـ .

رفع نسب بني محمد الإمام الموجودين في الوقت الحاضر إلى ربيعة أحد الثمانية هو أن الشيخ : (الحاج بن محمد أحمد المعروف باسم " أحَمَ " ابن أحمدُ ـــ بضم الدال دائماـــ ابن مَحمد بن بَلّى بن إدًّا بن الإمام بن محمد بن أحمد بن ربيعة) .وبنوا عمه بني البكاي بن البخاري وآمِدِ بن عيسى بن حَلاَلَ أخي البكاء , وأبنا محمد المعروف باسم " إلّيَّ " وأقربهم إليه العارف بن محمد بن محمد الأمين بن المكّي بن حندُ بن بَلّى وهو الجامع لهما .

هذا ما تيسر جمعه من خبر العلماء من بني أبي الهدى وباب وربيعة أعني الأموات منهم أما الأحياء فموجودون بحمد الله متوافرون ولكن لا أتكلم عليهم .

القسم الثالث

من ينتمي إلى علي بن أبي طالب من جهة المختار المعروف باسم أيتَّ وهم كثيرون ومنتشرون في القبائل والبلدان وقال فيهم الشيخ محمود الكلاليّ في رائيته التي يعد فيها الشرفاء :

وبنوا أيتَّ دبي دبيّ دونهم ... أبناء أعمام لنا أنصار

وقبائل البيض في صحراء تنبكت وفي بعض قراها يحوزون الانتساب إلى موسى بن أيتَّ وبعض الناس الحائزين الانتساب إليه يسمون جدهم باسم عبد السلام بن أيتَّ والمنتسبون إليه من أحياء السوقيين قليل بالنسبة

إلي غيرهم من القبائل منهم : أولاد هدلّ بن حمكن بن حم بن أبو بن محمد أحمد بن الداني بن إبراهيم بن عبد السلام بن أيتَّ) كذا وجدت بخط قديم ومنهم جماعات في أرض هُدَّار .
وأما غير السوقيين من القبائل فجل من يدعي منهم الشرافة يدعي أن جده أيتَّ وأكثرهم أميون لا يعرفون شيئا من أخبار أسلافهم ، ومنهم من لا يعرفون أسماء آبائهم ولكنهم يحوزون الشرافة من جهة أيتَّ ، وأما أهل العلم من ذريته فأكثرهم قبائل إِفُوغَاسْ الذين بأرض كِدَالْ وهم الذين يهتمون بنسبهم الشريف أكثر من غيرهم فقد قال لي زعيمهم إِنْتَالَّ بن الطاهر جدنا أيتَّ مدفون في أرض تِبَلْبَلْتْ من الجزائر وما دون من آبائي كلهم أعرف مدافنهم حتى والدي الطاهر ولا أشك في شيء من أمرهم ، وبنوا عمه الذين يشاركونه في الجد كلهم معروفون في أرضه وفي أرض تنبكت وغيرها ، ومن القبائل التي تدعي الانتساب إليه كثير من أحياء دو إسحاق وكثير من قبيلة إِمْغَادْ ولكن هؤلاء لا يرفعون أنسابهم إلى من فوق أيتَّ وقد رأيت في خطوط قديمة رفع نسبه إلى محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ورفع نسبه على ما في الخطوط القديمة هو (أيتَّ بن إبراهيم بن داوود بن محمود بن سعيد بن عبد الرحمن بن عبد الجبار) الذي يجمع بينه وبين القطب أبي الحسن الشاذلي الشهير وما بعده من الأسماء فيه اختلاف واضطراب وسقوط بعض الأسماء في سلسلة لبعض الناس مع وجودها في بعض آخر ، وقد وجدت في كتاب " سلوة الأنفاس فيمن اقتبر من العلماء بفاس " في الكلام على أبي الحسن الشاذلي ص 89 ما لفظه : والقطب الشاذلي رضي الله عنه ينتهي نسبه إلى مولانا إدريس بن إدريس رضي الله عنه من طريق ولده عمر دفين جامع الشرفاء بفاس ورفع نسبه على ما هو التحقيق هكذا : (أبو الحسن على بن عبد الله بن عبد الجبار ابن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصي بن يوسف ــ وقيل ثقيف موضع يوسف ــ ابن يوشع بن ورد بن علي المكنى بأبي طالب ــ وقيل بُطَّال بدل علي ــ ابن أحمد بن محمد بن عيسى المكنى بأبي العيش بن يحي بن إدريس الثالث بن عمر المخاضي بن إدريس بن إدريس بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرمه الله وجهه) .إهــ ما نقلته من " سلوة الأنفاس" بلا زيادة ولا نقصان ولما ظفرت به تركت الاعتماد على الخطوط التي تعتمد على الكتب التي ذكرها صاحب النقل المذكور أن ما فيها غير صحيح ، وجعلت أصحح لمن عندهم سلاسل أنسابهم ما يخالف ما في الحقيقة .

وأما من يدعي الانتساب إلى أيتَّ وليس معه سلسلة آبائه فمتى طلب مني رفع نسبه قلت له أما محمد المختار المعروف باسم أيتَّ فعندي تصحيح نسبه إلى إدريس بن إدريس ولا قدرة لي على تصحيح نسب إلا بشهادة الخطوط القديمة فمن كان عنده خط قديم فإني أقدر على إصلاح ما فيه من الأخطاء في نسب أيتَّ . وأما رفع نسب الموجودون في الوقت الحاضر إلى أيتَّ فلا سبيل لي إليه إلا من كان معه خط قديم فيه أسماء آبائه وآبائهم ، وكثير من الناس يتسارع إلى تكذيب مدعي الانتساب إلى أيتَّ ولست من أولئك ولا من المتسارعين إلى تصديق كل أحد وإثبات الشرافة له على وجه القطع بل من كان معه خط قديم وحيازة مشهورة فأنا أصدقه وأصلح له ما كان في يده من الأخطاء ، ومن لم يكن معه إلا الأسماء تنتهي إلى رجل اسمه أيتَّ لا يدري هل هو الشريف أو غيره أو لم تكن أسلافه مشهورة بادعاء الشرف ثم حدث في قومه دعواها وليس معهم خطوط قديمة ولا حيازة مشهورة فإني أقف في أمرهم لا أنفي دعواهم ولا أثبت شيئا إلا بمثبت شرعي فالحائزون لهذه النسبة حيازة قديمة تسلم لهم دعواهم قطعا وغيْرُهم يلزمهم التثبت ويلزم غيرهم أن لا يقطع في أمرهم بنفي ولا إثبات

أما المنتمون إلى أيتَّ من دو إسحاق فأكثرهم اشتهارا بذلك فيما أعرف بنوا حمَّهُودَ وهم الذين يقال لهم أهل أكْلِ تَغْمَ نسبة إلى وسمهم ، وأهل العلم من أولئك آل الشيخ آدم وهو (ابن محمد بن وَفَلْكَنْ بن إبراهيم بن حسان بن حَمَّ هُودَ بن الصالح بن ضَافِ بن آنفْ بن الفق بن مرزوق بن أيتَّ ...الخ) وحدثني الشيخ أحمدُ بضم الدال ابن الشيخ آدم أن جدهم الفق بن مرزوق بن أيتَّ ليس مرزوق أباه وإنما ذلك المركب كله وهو الفق بن مرزوق اسم واحد وهو ابن أيتَّ كما أخبرني أن جده الرابع حسان يجتمع فيه مع قوم في أرض دتَكْ وهم (آل عبد الحميد بن عبد الجبار بن الشبرخيتي بن حَنْطَفا بن حنزل بن تحمد بن حسان) المذكور وجميع قبيلة أهل أكْلِ تَغْمَ الموجودين في أرض تَلاتَيْتْ بنوا عم آدم .

وأما غير أهل أكْلِ تَغْمَ فمنهم من ينتسب إلى حمهُود ومنهم من ينتسب إلى جده الفقيه ابن مرزوق ، ونقلت من خط الشيخ حَبَّ بن محمد أحمد الذي كان يعتني بأنساب أهل بلده وجمعها : (بسم الله وكفى والسلامان على المصطفى ، أما بعد : فإن واحدا من أماثل أهل الدين من الإسحاقيين أخبرني أن مَدِتْ بن سَلّهُ الإسحاقي وكان معمرا سمع كثيرا من الأخبار المروية عن الأسلاف الماضين كثيرا ما يقول لهم اعلموا أن

هؤلاء الناس الذين يقال لهم دو إسحاق كلهم من ذرية الشريف أيتَّ بالآباء إلا عشرة بيوت عد منهم أهل بيت السالم بن ختير وهم الذين يقال لهم الشريفن في أعمال مَنَكَا بأرض تِدَغْمِنْ وعد منهم أيضا أهل بيت محمد بن أبْلَلْ أمراء إدُكَرتَنْ وأهل بيت محمد المختار بن الْغَمَير وأهل بيت بَادِ بن إطَرْدِلْ وأهل بيت كرْدُوسْ وغيرهم ، وأما أهل بيت الشيخ حَيْنَحَ والد الشيخ الصالح أزَمْزِمْ ، والذين يقال لهم تَرْبَنَاسَ وأبناء سَيْدَمَ من كل أبَكْتْ وتَلَلْ أزُورْ وهم أخوال الشيخ عبد السلام بن محمد فهم فيما يقوله الناس من عرب كنَانة أصلا ، وأما إدَبُنْ وهم قوم محمد إكْنَنْ بن حَبًّا وأهل بيت مختار بن أصْغَيَّرْ وأهل بيت كَفَطْ وأبناء ملاق وآل الأمير أدَرْكَجُجْ فقد بلغني أنهم يدعون لأنفسهم أنهم من أبناء عم أهل أكَلِ تَغْمَ والناس مصدقون في أنسابهم . وأما تَركَاز وأهل تَسْكُمْت واكر فَقَّنَنْ وكَلَ اغْسَبَّيْ وكل اظَرْ وابَلَغْتَنْ فقد تلاقى نسبهم جميعا من عند الفق بن مرزوق . وأما الميسور بن محمد بن القالي فهو من أبناء عم بَايْ وحماد بن اتَّرِطْ من كَلْ تَبَاغَرْتْ ، وقد بلغني أنهم من ذرية عبد الله بن آنِفْ بن الفق بن مرزوق) هذا ما نقله عن مخبره ثم كتب بعده والناس مصدقون في أنسابهم ،وربما فرفوا من أنسبابهم حديثا ما لم يعرفوه قديما . والسلام . هذا ما ننقله من غير زيد ولا نقص ، ثم كتب في نسب الأمير أدَرْكَجُجْ ما لفظه : (أيوب بن أدَرْكَجُجْ بن آدم بن هود بن أحمد بن سحنون بن محمد بن عبد الله بن حمَّهُود) وهذا نص ما أخذته من فم محمد آبَّ بن أدَرْكَجُجْ أنهم أخذوا ذلك من فم الثقة آدَمْ وابنه المنير ومحمد الأمين وكلاهما ثقة ، ثم كتب الشيخ حَبَّ ما لفظه : وأخبرني محمد المعروف بوكَزْلَنْ أن عبد الله الذي ينتسب إليه أدَرْكَجُجْ هو الذي كان أولاد إدَّأوتَّ بن إبراهيم بن شريف تندُرْ بن الفق بن مرزوق بن أيتَّ ...الخ) وكتب حَبَّ في نسب الشيخ البكا : هو (ابن الوافي بن الصالح بن أبي بكر بن إدَّا بن الفق بن محمد بن عثمان بن شمس الدين بن حماحمّ بن حاد بن أوَتَّ بن إبراهيم بن شريف تَنْدُرْ بن الفق بن مرزوق بن أيتَّ ...إلخ) وكتب في نسب الشيخ أحمدُ بضم الدال (ابن عبد السلام بن محمد بن الخصائص بن عبهِ بن هابلَّ بن أدَّرْفَ بن خارجة بن ادَّ بن أوَتَّ بن إبراهيم بن شريفَ تندر بن الفق بن مرزوق بن أيتّ) وكتب في نسب كَرْسَسُتَنْ (قاسم بن حدَامَ بن امتال بن شرم بن حبلّ بن آبّ بن محمد أحمد أخي حمّ هُود) وقد تقدم نسب حمَّهُودَ في سلسلة نسب الشيخ أحمد بن آدم .أما ذرية محمد المعروف بتَنْفُوطِ فهم من أبناء عم كَلْ بَرْيُ الذين هم من الدغوغيين . وأما يكِّ وبنوا عمه من كَلْ أبَكْتْ فهم يحوزون من

قديم أنهم من عرب كنانة أصلا . وأما ذرية صالح وأبناء مَنِي وأبناء الهدى وأبناء آمدُّ وأبناء آتَّرِظْ وأبناء سَالَةُ فهؤلاء كلهم قد بلغني أنهم من كَلْ أكَيْكْ الذين في بلاد مَنَكَا . إهـ ما وجدته بخط الشيخ حَبَّ من الأخبار نقلا عن بعض معمري الإسحاقيين .

القسم الرابع

من ينتمي إلى علي بن أبي طالب من طريق عامر أبي السباع وهم كثيرون في بلاد موريتانيا وما وراءها من الصحراء وليس في بلادنا منهم إلا أولاد رجل واحد اسمه محمد أحمد بن نَجِيٌّ ويلقب بكَمَنْكَمَّ وهم في أرض بنْكَلاَرَيْ من أعمال تِيرَا .

القسم الخامس

من ينتمي إلى الحسين بالتصغير بن علي بن أبي طالب وهم قليلون بالنسبة إلى الحسن مكبرا والذين اطلعت على سلسلتهم منهم أولاد موسى الكُنْهاني ومن شاركهم في الجد وقد تقدم سرد نسبهم في آخر القسم الأول من أقسام من ينتمي إلى علي بن أبي طالب

الباب السادس

في الكلام على السوقيين الأنصار

وفيه خمسة فصول :

الفصل الأول

في الكلام على نسبهم

أما نسبهم اليعقوبي والأيوبي من أهل السوقيين إلى الأنصار فلم نر ولم نسمع من يشك فيه ولا من مدعيه من يطلب الانتساب إلى غير الأنصارية لأن فيهم أمرين كل منهما يمنع من ذلك أحدهما : أن جلهم علماء أتقياء يعرفون ما ورد من الوعيد في الانتساب إلى غير موالي المرء الثاني : أن نسبهم أعز عليهم من جميع الأنساب ولا يرون لأحد أيا كان فضلا عليهم من جهة النسب وإن بلغ من العز والسلطنة ما بلغ إلا أن يكون هاشميا فاطميا فإنهم يعترفون لمن ينتمي إلى الشرافة بالفضل والتقدم لا يبلغ أحدهم من التاعظم والتكبر حيث يتكبر ويترفع على من يحقق انتسابه إلى الشرافة بل إما أن ينفي ذلك المتعاظم صحة نسب من يستطيل عليه ، وإما أن يستخف به جاهلا أنه شريف فإذا علم انتسابه إلى الشرف ندم على ما صنع في حقه واسترضاه ، وكذلك لا ترى منهم أحمق ولا جاهلا يخفي عليه ما يستحق أهل البيت النبوي من التعظيم والتقديم وما بينهم وبين الأنصار من المواخاة التي عقدها النبي - صلى الله عليه وسلم - بين المهاجرين والأنصار لا سيما في بلادنا التي وصل

إليه كل من الفريقين غريبا فاشتدت الروابط بين فروع الأصلين وجددوا المواخاة المدنية التي عقدها الرسول - صلى الله عليه وسلم - واستمروا عليها وجعلوها أقرب القرابات التجددة حتى صار من العزة عندهم تقديم القرابات المتجددة على تلك المواخاة سواء في ذلك يعقوبيهم وأيوبهم ويثبتون للشرفاء المرتبة الأولى في الفضل ولأنفسهم المرتبة الثانية ولا يرضونها لغيرهم ويتعززون بالأنصارية ولا ينكر أحد عليهم دعواهم الأنصارية وكيف يسمع لمنكرها وعندهم شهود إثباتها من الحيازة القديمة والخطوط الكثيرة المتداولة من قديم الأزمان فمع كل أيوبي سلسلة آبائه من والده إلى أيوب الأنصاري ، ومع كل يعقوبي سلسلته إلى يعقوب الأنصاري ولا منازع في ذلك . وأما ما وراء هذين الجدين فلا يبحث عنه فيما مضى لعدم داع للبحث في تلك العصور القديمة لاكتفاء أهلها بثبوت أنصاريتهم قديما من غير منازع وكف الناس الطعن في الانتساب في تلك العصور فلما كثر الطعن في الأنساب في العصور الأخيرة ونفى البعض أنصارية البعض وتعاظم عن مشاركته معه في الجد قام علماء الشعبين من أثبت أنصارية الجميع سواء المتعاظم ومن يتعاظم عليه وأثبتوا أن يعقوب وأيوب أخوان وأنه لا فضل ليعقوبي على أيوبي من جهة النسب ولا لأيوبي على يعقوبي وإن كان لأحدهما فضل على الآخر فبأمر خارج عن النسب ومضت فترة طويلة من الزمان لم يلتفت الناس في أمر أنسابهم إلى تحقيقها وإثباتها والرد على الطاعن فيها بالتحكمات العقلية المبنية على الحسد والاحتقار ثم ترقت الهمم في وقتنا الحاضر إلى البحث عن أمور لا يلتفت إليها من قبلنا لعدم مواد يستندون منها في العصور الماضية ووجود بعض المواد المفقودة لديهم عندنا فحاولنا أن تعرف من هذين الجدين شيئا غير مطلق الأنصارية من جهة تاريخ وصولهما أو وصول أسلافهما إلى هذا الوطن الذي لم يكن وطنا للأنصار أصالة ، ومن جهة رفع نسبهما إلى الأنصاري الصحابي الذي ينتسبان إليه ومن جهة تعيين عصرهما كما نبحث عن هذه الجهات الثلاث في حق كل جد شريف تنتسب إليه طائفة أو طوائف من أهلا البلد الشرفاء لا نعرف ضروريا أن هذا الوطن الذي كنا فيه ليس وطنا أصليا للشرفاء ولا للأنصار وأن من هاجر من الفريقين عن أصله الحجازي كثيرون منتشرون في أقطار الإسلام فلما وصلنا من البحث إلى هذا القدر كاتبنا إخواننا في الآفاق ليساعدوا بما اطلعوا عليه من المهمة ، وممن كاتبناهم في ذلك أخونا الشيخ إسماعيل الأنصاري من الشعب الأيوبي الذي هاجر إلى الحرمين ثم صار إلى الرياض عاصمة الدولة العربية السعودية ونال

مكانة عند أهل الدولة حتى صار عضوا من مجلس الإفتاء في العاصمة فكانت إقامته بالرياض ويفد في كل موسم على مكة برسم الحج أو لقاء من يحج منا ومن غيرنا من أهل الآفاق فأرسلنا إليه ليشاركنا في البحث فإن له من الكتب كثيرا ليس عندنا وله تمكن من تفتيش كثير من الكتب التي ليست في ملكه ومن ملاقاة أهل الأفاق في موسم الحج ومن تلقي أخبار كل دولة بواسطة الوزراء والسفراء وغيرهم .

وكتب إلينا فيما يرجع إلى تعيين عصر الجدين أنه لم يقف عليه ولكن لم يزل يسمع من الأسلاف وهو صغير أنهما أخوان ولم ير بعد انفصاله عن بلادنا ما ينقله عما تلقف من الأسلاف .

وكتب إلينا فيما يرجع إلى رفع نسبهما ما لفظه : (أسمع تارة من بعض الإخوان أيام كنت هناك " أيوب الأنصاري " في نسبنا وأسمع تارة " أبا أيوب " فأشكل علي ذلك بعد ما فكرت فيه هناك حتى أخبرني بعض الإخوان بأنهما معا موجودان في نسبنا فإن من أجدادنا " أيوب بن خالد بن أبي أيوب الأنصاري " وقد وقفت في بحثي على أنصاري يسمى باسم أبي أيوب يمكن أن يكون هو ذلك فوجدت في الجزء الأول من " تكملة الصلة " لابن الأبار الحافظ المؤرخ الكبير ص 43 " أبا أيوب بن حيون بن عبد الواحد بن عفيف بن عبد الله بن رواحة بن سعيد بن سعد بن عبادة الأنصاري " وقد ذكره أيضا صاحب " الحلل السندسية " ج 3 ص 180 نقلا عن " تكملة الصلة ") .

وقال الشيخ إسماعيل : (وإيضاح لما عندي من السلسلة أذكر ما يلي : " إسماعيل بن سيدي محمد بن ماحي بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الشهير باسم أَنِكَرْ وهو الذي انتقل عن قومه إلى أَزَمَمَّرَ وهو جد أهل تِسِ الذين هاجر بعضهم إلى الحرمين وبقي بعضهم في تِسِ وأَنِكَرْ هو ابن أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن محمد بن محمد بن محمود حَوَّ . وأملى علي بعض الإخوان الذين جاءوا هنا لأداء الحج " محمود حَوَّ بن محمد بن خالد بن محمد بن محمد ابن أيوب بن خالد بن أبي أيوب الأنصاري . فهذا ما تحصلت عليه فيما يتعلق بنسبي) . ثم كتب ما لفظه : (ووجدت في تكملة الصلة ج 1 ص 160 " يعقوب بن أحمد بن عمر الأنصاري " ، ووجدت غيره ولا أزل أبحث عنه والغالب على ظني أنه من أولاد سعد بن عبادة الذي هم أكثر الأنصار ببلاد الأندلس والمغرب) انتهى .

ثم قال الشيخ إسماعيل (هذا مع أنني أرى الاكتفاء بما يتبادر مما أدركنا عليه سلفنا وهو أن يعقوب أخو أيوب فعلى هذا تكون سلسلتهما واحدة) إهـ كلامه . وهو عندي حسن من جهة أنا إذا وجدنا في بعض الكتب ما

يفيد أن أبا أيوب الأنصاري الذي نقل صاحب " التكملة " نسبه هو جد أيوب الأنصاري الذي هو جدنا لم نحتج بعد ذلك إلى رفع نسبه بل نكتفي بهذا ، ومن جهة القطع بأن ذلك المنسوب في " تكملة الصلة " هو جدنا فلم نر ما يفيده بل لا نزال نبحث عن أخبار أيوب الذي هو جدنا وعن نسبه مع تمسكنا بما في كتاب " الصلة " لاحتمال أن يكون هو المقصود . والذي يشفي الغليل وتتشوف نفوسنا إلى أن يكون نتيجة البحث إن شاء الله أن نقف على ما يفيد أن الجد الفلاني هو الذي دخل بلاد الصحراء التي يسكنها أهل تَمَاشَقْ في وقت كذا وله من الذرية كذا ، أو مثل ذلك مما يفيد القطع ولا نستبعد أن يمن الله علينا بالبيان في ذلك {ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون} ولا فرق في بحثنا عن هذا القدر من التحقيق بين من اسمه أيوب ومن اسمه يعقوب ولا بين من ينتمي إلى الأنصار ومن ينتمي للشرافة فإنهم جميعا ليسوا من أهل الوطن بالأصالة والأسماء تتشابه فيحتاج من يريد التحقيق في الشعوب الذين انتقلوا من العربية إلى البربرية إلى ما يفيده أن فلانا الذي هو جد آل فلان هو المنسوب إلى كذا أو أن وصوله إلى الوطن الذي يعمره أولاده في وقت كذا ، أو أن بني عمه موجودون في بلد كذا ، وهذا القدر من التحقيق هو المقصود وإن استبعده المتكاسل أو أعرض عنه الجاهل ولا يعارض البحث عن هذا القدر الاعتراف بثبوت أصل الإنتسابات التي لم تزل محوزة حيازة قديمة ومحفوظة بالخطوط التي تداولها الأخلاف عن الأسلاف منذ قرون الله أعلم بمبتدأها .

ومما يقوي مدعي اليعقوبيين والأيوبيين السوقيين للأنصارية سوى ما تقدم من قدم الحيازة ما كنا نشاهده في الوقت الحاضر من المعاصرين وبلغنا بالروايات المسلسلة عن الأسلاف الغابرين من تمسكهم بالخصال التي مدح بها الأنصار الصحابة في القرآن والحديث والمكارم التي مدح بها أسلافهم قبل الإسلام كالإيثار على النفس مع الخصاصة وعزة النفوس والقلة عند الطمع والكثرة عند الفزع والإقدام والإيواء والنصر للإخوان عموما والشرفاء خصوصا والرضى بفدائهم بالنفوس والأموال ، وهذه الخصال يشترك فيها اليقوبيون والأيوبيون ولبعض الأيوبيين زيادة على من سواهم خصوصية الافتخار في المجالس بتذللهم لكل شريف وتعززهم على من سواهم والمبالغة في إظهار تعظيمهم وحس الاعتقاد فيهم حتى كادوا أن يصلوا إلى مذهب غلاة الشيعة من إثبات الحقوق النبوية لجميع أهل البيت العلوي ، فمنهم من يفتخر بأنه لو أمره بعض الشرفاء ببعض

الخالقات لامتثل أمره ، وجل هؤلاء المبالغين ليسوا من حملة العلم . وأما العلماء منهم فطريقتهم المبالغة في التوقير والتبجيل لا سيما في حق الضعفاء من الصغار والنساء والمستضعفين ممن الرجال ليس معه ما يهاب أو يجب لأجله إلا مجرد النسب الشريف فيظهرون من تبجيل هؤلاء أشد مما يظهرون من تعظيم من يعظمه سائر الناس لوصف قام منبه غير شرف النسب كالعلم والجاه والرياسة والنجدة وغيرها ، وقد حدثني الشيخ الوالد أنه حين كان في تَنْغَ أكَلِ صغيرا تلميذا غريبا وفي جوارهم من الشعب الأيوبي الشيخ السني حَتَبُ لا يسمع هذا الشيخ الأنصاري من أراد أن يستخدمه في محقرات الأمور التي جرت العادة باستخدام الصغار فيها إلا أنشد :
يصلي على المختار من آل هاشم ... وتوذي بنوه إن ذا لعجيب

وحدثني أيضا أنه إذا ذبح بقرة أرسل إليه منها ما جرت العادة بإهدائه إلى العظماء مع غربته وصغره وتوفر العلماء الكبار ... في الحي الذي يجاوره لكنهم لا ينتسبون إلى الشرافة فآثر الصغير الغريب بالهدية الشريفة وتركهم وقصص الشيخ حتَبُ في هذا الباب كثيرة وكذلك بنوا عمه الأقربون . ومما زاده بنوا محمود حَوَّ وبنوا محمد سيد على سائر إخوانهم من بني عمهم أنهم لا يستقلون عن آل علي بن يحي الدغوغي الشرفاء تماما بل لا يزالون يختارون الاندماج فيهم على تمام الاستقلال فإن استقلال القبيلة في عرف بلادنا أن تستقل بمنزل تنسب إليه وبوسم خاص يتميزون به عن سائر القبائل وهذا هو الاستقلال التام وبعض القبائل يشترك في الانتساب إلى الوطن ويفترقون في الوسم الذي يسمون به ملاكهم ، وربما كان لأهل الحي الواحد وسام متعددة على حسب اختلافهم في الجدود والمنزل متحد كما يكون لبني الجد الواحد منازل متعددة يعرف كل منهم بمنزله الخاص وينسب إليه ووسمهم متحد لاتحادهم في الجد فكل من الاستقلال بالوسم وبالمنزل استقلال ناقص ، فاستقلال بني محمود حُوَّ عن الدغوغيين ناقص لأنهم لا يرضون بمفارقتهم في التسمية الوطنية وينفردون عنهم بالوسم الذي يختصون به وهو (لام ألف) مع (لص) وصورة وسمهم (لصلا) وبنوا محمد سيد كذلك ينفردون بالنسبة إلى منزل ينزله أسلافهم ويختصون به وهو (تِكرتِنْ) لكن لم يرضوا الاستقلال بالوسم بل كانوا يسمون كما يسم أهل تَكَلّتْ وأهل تَبُورَقْ الذين يتحدون في الجد الدغوغي . وأما غير هؤلاء من بني عمهم فلم يلتزموا من الاندماج مثل ما التزمه

هؤلاء بل كانوا مستقلين في جميع أمورهم تماما مع شدة الاتصال والارتباط وتبادل الاحترام والتعاضد والتواد كما سيأتي في تراجم إدَّ إِنْتَكَرْنَكتْ . وقد تكلم الشيخ الخضر على آل أحمد بن أبي بكر من الأيوبيين ، وآل [من اليعقوبيين وذكر من وفائهم لوالده الشيخ حماد ومن سبب سبقهم الناس إلى تصديقه واتخاذه شيخا فأحببت إيراد لفظه تبركا واعترافا بصدقه فيما قال وأداي لحق تصديقه والشهادة له على ما أثبته ونص كلامه : (وأسعد الأنصار بصحبته ، واغتنام نصحه ومحبته ، بطنان منهم أحدهما : بني أبي بكر فهم من أعضاء جماعته ، وسهام كنانته ، وكانوا أقرب الأنصار إليه في الجوار كما هو حال آبائهم مع آبائه إذ ما زالت الدار تجمعهم وإياهم بحيث لا يزالوا يلونهم ربيعا ولا خريفا ولا شتاء ولا مصيفا ، ومن ثم تناولهم معهم اسم واحد عند الناس كَلْ تَبُورَقْ .

البطن الثاني : أبناء محمد سيد اليعقوبي وكانوا هم وإخوانهم المذكورون من أنصح الناس للشيخ وأهل بيته أولا وآخرا ، وقل من الناس سواهم من سلم من جفوة أو هفوة في حقه قبل اشتهاره باسم المشيخة وبعد ذلك وهم بحمد الله ماواجهة أحدهم بكلمة مزّة أو مُرة ، ولا سمعها عنه في عمره ولو مرة ، وذلك من عناية الله بهم . ومن أسباب سبقية هؤلاء ما استأثروا به من خصائص التواصل والتآلف معه في العهد القديم على أن منهم من يوغل في البر أيام النجعة الربيعية أو في وقت آخر فتطول المسافة بينهم وبين الشيخ لكن لا يرضى هو ولا يرضون أن تنقطع الأخبار بينهم وبينه لكونهم من أهل مشورته قديما وحديثا ، ومبنى هذا الاتصال الأخوة في الدين والتعاون على البر ونشر العلم مع ما زاد من تقادم العهود واشتباك الأرحام الماسة بحيث لا يوجد منهم أحد إلا وهو متفرع عن واحد من أجداد الشيخ وكثير منهم من حفدة جده الأقرب والشيخ أيضا متفرع عن جد كل منهم إما ثانيا أو ثالثا أو فوقهما فلما كانوا بهذه المنزلة قربا واتصالا وصل إليهم من خبره ما خفي عن الناس فبايعوه قبل مبايعة الناس) . إهـ كلامه وقد أكثر الناس في بلادهم في مدحهم بما اختصوا به من الخصال الحميدة ومن أحسن ذلك أبيات لابن عمتنا وأخينا المحمود بن يحي الأنصاري الأيوبي وهو :

لله قوم جدهم يعقوب ... وعصابة ينميهم أيوب
أصلان للأنصار كل منهما ... بتواتر متقادم منسوب

ولكل فصل منهم ذرية ... حازت فضائل نشرها المطلوب
هم من هم قوم أفاضل قادة ... نبلاء كل منهم مندوب
ورثوا المفاخر واقتفوا آباءهم ... نصرٌ وإيواء هوى مغلوب
علم تراثي وعز ثابت ... وتحمل ومُجاور محبوب
وسخاوة رسخت وإيثار علي ... رغم الخصاصة تالد موهوب
وصداقة مما يريب بريئة ... وقرابة يقتادها تقريب
وطلاقة وبشاشة لا هيبة ... كلا ، سواء أهيب ومهيب
خطبتهم العليا وهم خطابها ... يا هيئ مالِيَ خاطب مخطوب

سيماهم التعليم بعد تعلم ... في الله جل ، فطالب مطلوب

وقد شهدت له وشهد له كل من يعرفهم أنه ما غلا في شيء من أوصافهم بل جاء بها على وجه التحقيق .

وقد ادعى الانتساب إلى الأنصار كثير من أهل البلد غير السوقيين ولكن ضاعت سلاسل أنسابهم واختلط الأنصاري نسبا بالأنصاري حلفا أو ولاء ، وكثير منهم لا يردون خاطبا بل ينكحون من شاءوا ويحسب أولاد الأخوات من عشائرهن وجل هؤلاء ليسوا من أهل العلم لا قديما ولا حديثا وبعضهم كان أسلافه من أهل العلم ثم طال عهد أخلافهم بالتعلم والكتابة فاستوى الجيمع في عدم الضبط فافترق الناس في أمر هؤلاء فمنهم من يجري على ظاهر قول مالك " الناس مصدقون في أنسابهم " ويثبت لهم الأنصارية جزما من غير بحث عن حقيقة حالهم ولا وقوف على سلسلة كل منهم ولا تفريق بين الموالي وغيرهم ولا بين من كان منهم ابن أخت وغيره ، ومنهم من نفى أنصاريتهم لعدم تخلقهم بالأخلاق الأنصارية التي تقدم الاحتجاج لأنصارية السوقيين بتخلقهم بها وغير ذلك من العقليات المجردة ، ولي سعة في السكوت عن الخوض مع كل من الفريقين لكن لابد من بث شيء من النصح لكلا الجانبين حاصله أن من كان معه خط قديم في حيازة أسلافه للنسب وفيه ذكر أسماء آبائه فلا ينحى عن دعواه لقصوره عن شأو أسلافه فرب ولد لم يكن على سنة أبيه الأقرب فكيف بالجدود الأقدمين ولا يقطع ذلك نسبه ، ومن لم يكن معه شيء من المثبتات فليتق الله وليحذر من الانتساب إلى غير آبائه ولينته الناس عن الحاقه إلى من لم يحققوا انتسابه إليه فإن كان قبيلة تسمى باسم يقارب الأنصارية كاسم إنصَرْ فلا بأس بتسميتهم باسمهم الذي ألفوا التسمية به ولكن لا يقال لكل فرد منهم أنصاري ولا لجماعتهم الأنصار إلا أن يحيط القائل علما بنسبة من ينسبه وإلا فليسمه بالاسم المشترك

الذي يشمل العرب والموالي وأبناء العمات وغيرهم من سائر الأتباع والله أعلم .

الفصل الثاني:

في تقسيم بطون الشعب الأنصاري السوقي

ينقسم أولا إلى قسمين :

1 ـــــ أيوبي

2 ـــــ يعقوبي

ثم انقسم كل من القسمين إلى أقسام فاليعقوبي :

أولاد أشَلُّومْ بن يعقوب بن محمد بن يعقوب الأنصاري الشهير : منهم من ينتمي إليه بواسطة الولي الكبير محمد المعروف بإِدَّ إِنْتَكَرَنَّتْ بن يوسف بن هارون بن محمد بن نوح بن أشَلُّومْ . ومنهم من ينتمي إليه بواسطة محمد سيد الجامع لبطون أهل تِكِرَتِنْ وهو محمد سيد بن محمد بن أحمد بن نَانَّ بن محمد بن عثمان بن نوح بن أشَلُّومْ . هكذا رأيت في بعض الخطوط القديمة نوح بن أشَلُّومْ وفي بعضها بزيادة محمد بين نوح وأشَلُّومْ ، فعلى الرواية الأولى الجامع بين هذين البطنين نوح بن محمد بن أشَلُّومْ نفسه . ومما ينبغي التنبيه عليه هنا ما حدثني به السيد إِنْتَالَّ بن الطاهر زعيم بلد كِدَالْ وهو أن أشَلُّومْ ليس لقب شخص كما توهمه كثير من الناس بل هو اسم وادي فيه مقبرة الشيخ الولي الأنصاري واسمه محمد فكان الناس فيما مضى يقولون محمد إِنْ أشَلُّومْ يعني المدفون في وادي أشَلُّومْ ثم تطاول الزمان واختصرت العبارة بما أوهم أن أشَلُّومْ هو لقب الشيخ . وحدثني أيضا أن ذلك القبر يعرفه وكان مشهورا بين أهل ذلك البلد يزورونه تبركا واعتبارا...إلخ . ولم نعرف لبني محمد سيدي عشيرة أقرب إليهم من بني محمد بن يوسف ، وقد اطلت على سلسلتين لبعض الناس فيها أسماء تشابه أسماء آبائهم حتى تنتهي إلى يعقوب الأنصاري ولكن تخالفها في الترتيب فلا أدري أكانت تلك الأسماء هي التي في سلسلة أهل تِكِرَتِنْ وعكس الكاتب ترتيبها من غير قصد أو كانت غيرها على الترتيب الذي رأيت فيكون الجامع بين الفريقين يعقوب الأنصار .

وقد كان في بعض أحياء السوقيين من ينتمي للأنصارية ولم أقف على سلسلته فأتبين أنه يعقوبي أو أيوبي .

ومن بطن اليعقوبيين بطن أم أجدادنا بني علي بن يحي فهي آبَّ بنت عثمان المعروف باسم إِدَّ إِنْتَمَزْكِدَّ هكذا يكتب أسلافنا ولا يعتبرون رفع نسب عثمان هذا ثم رأيت بخط بعض القدماء هكذا : (تمت الملحة بحمد

الله علي يد أفقر العباد إلى رحمة ربه محمد بن محمد بن محمد بن عمر بن أحمد بن آكَّ بن عيسى بن إدّ إنْتَمَزْكِدَّ بن مهمد بن أشَلُومْ بن نوح بن عبد الله ابن يعقوب الأنصاري) ولا أدري هل هذا البطن له بقية أم لا .
واستفدت من هذا النقل أمرين أحدهما رفع نسبة هذه الجدة والآخر أن الشعب الأنصاري اليعقوبي هو الذي ورد عليه جدنا الجامع علي بن يحي وكان ورود هذا الشعب على هذه البلاد سابقا على ورود أسلافنا نحن ، ومن هذا الشعب ابتدأت سوقيتنا ولم تزل الخلطة بيننا وبينهم من ذلك الوقت إلى الآن ، ومدة ذلك تزيد على ستة قرون أدام الله علينا وعليهم وصل ما أمر به أن يوصل هذا وأما أسباط بني محمد بن يوسف فثلاثة :
الأول : بنوا محمود الشيخ ويقال لهم أشَيُّوخَنْ وهم في أعمال تَغَارُسْتْ
والسبط الثاني : أهل تِنَقَّسَ وهم ساكنون في تلك البلاد أيضا .
والسبط الثالث : بنوا البشير بن إدَّ إنْتكَرَتَّتْ وهؤلاء صاروا ثلاثة أقسام :
ــ قسم في بلاد مَنَكَا ويقال لهم إكَدَشْ ــ وقسم في بلاد بُورَمْ ويقال لهم أهل تَكَرَنْكَّتْ ــ وقسم في بلاد دُور وهم قوم العالم الشهير محمد أحمد بن الجُنَيد ولم يستقلوا باسم يعرفون به كما استقل إخوانهم في بلد تِرَا حي يقال له كَلْ أغشَرْ وهم بنوا عم الولي الكبير حكيمٌ الذي بقيت ذريته في حي إفَنْقَنْ وهذا ما أملاه علي حفيده حَمَّطَايَا بن محمد بن حكيمٌ من سرد أسماء آبائه (حكيمٌ بن إفَنْدَسَنْ بن الأبطحي بن بَالِلْ بن ألغَتَيْ بن محمد بن البكري بن دَقَّ بن إدَّ إنْتَكَرَنْكَتْ) وبنوا عمه الذين يقال لهم أهل إغشَرْ معهم سلاسل أنسابهم كما معه سلسلته هو ولا ينتسب إلى الشيخ محمد بن يوسف من القبائل السوقية غير ما ذكرت .
وأما القسم الأويوبي السوقي :
ويقال لهم أهل لام ألف لأن صورة وسمهم الذي يسِمون به (لا) فجامعهم محمود حُوَّ الأنصاري ثم صاروا أسباط فأتكلم علي ما بلغني من أخبار كل سبط من أسباطهم .

الفصل الثالث

في الكلام على مشاهير الشعب اليعقوبي اليوسفي من الجد الجامع لبطونهم الشيخ محمد بن يوسف إلى أولاده الموجودين في الوقت الحاضر .

***

أما محمد بن يوسف :
فلم أقف على كثير من كلام القدماء عليه إلا أنه ولي كبير ظهر في زمان

كانت رياسة السوقيين فيه لقبيلة أهل كَنْتَش فعاملوه بما يعامل به الرؤساء من ظهر بينهم بغير ما يألفون وما يشتهون وقابلوه بما يستطيعون من التكذيب والجفاء والتعزز عليه وعلى أتباعه فجرت بينهم وبينه ماجريات لا غرض لي في تفصيلها إلى أن كان عاقبة الأمر أن ظهر الله فضله ومنزلته كما يظهر على كل من عاند أولياؤه أنوارهم ومزاياهم ودام نوره في أعقابه وأعقابهم قرونا وكثر فيهم العلم والصلاح والولاية وأنواع العز والكرامة وسخر لهم من حولهم من القبائل وما زال ذلك يتزايد إلى أن سخر لهم سلاطين البلد من إولمّدن وبني آلاد فولهم قضاء كل من تحت حكمهم . وهذا خبره إجمالا وقدما قيل :
نعم الإله على العباد كثيرة ... وأجلهن نجابة الأبناء

وأما تفاصيل خبره فذكر الشيخ محمد بن الهادي أنه رحل من بلاد ببلاد تادمكة بعد أيام سنْ علي وفتنته إلى بلاد آير فلقي هناك شيخا من الصوفية يقال له الشيخ محمد البغدادي فأخذ عنه طريقة الصوفية ثم رجع إلى بلاده وصار من أئمة الطريقة ورأى الناس فيه من عجائب الكرامات ما دعاهم إلى الإقبال عليه إلا قليلا ممن أراد الله أن يجعل إنكارهم له سببا في ظهوره ، ورأيت بخط الشيخ حَبَّ نقلا من كتاب قدوة المعتقد للشيخ أبي أحمد الصادق ...ابن أويس من علماء إكَدَرْ في تعديده لتلاميذ الشيخ محمود البغدادي ما لفظه : ومن تلامذته أي الشيخ محمود البغدادي محمد بن يوسف الملقب بادَّ ولم يترجمه وكلا هذين الشيخين يشير إلى أنه من أهل القرن التاسع أوالعاشر لأنه معاصر للسيوطي وأبي الهدى وكلاهما عاش في 9 إلى 10 ولم أعثر على تاريخ وفاته ولا على شيء من أخبار بنيه قبل محمد المختار المعروف بأمَّدْ إلا كلمات يسيرة من بعض المؤلفين نصها: محمد المختار المعروف بأمَّدْ بن الولي الجليل محمد أحمد بن البشير ، وسيأتي في رسالة أمَّدْ وصفه أباه بالقضاء وجده البشير بالمشيخة وجد أبيه محمد يوسف بالقطب الرباني ووصفه لهم هو اللائق بالقبول والاكتفاء به .

***

ترجمة محمد المختار المعروف بأمَّدْ ولد محمد البشير جد إكَدَشْ :

مقتضى ما وقفت عليه من أثره أنه عالم جليل فقيه وأن قضاءه عم الأقطار البعيدة فقد رأيت رسالة منه إلى علماء قطر بعيد من قطره الذي هو فيه يعاتبهم في فتوى أفتوا بها ويذكر لهم أنهم أفتاتوا عليه وعلى الشريعة ، وقيل إنه هو قاضي القضاة لأمراء وقته كردَنَّ جد إولمّدن ومنه توارث أولاده مرتبة قاضي القضاة ، وقيل إنه لما تمكن بسبب ولايته قضاء البلاد ترقت همته إلى جمع عشيرته بل جميع قبائل السوقيين في وطن واحد برسم الإقامة وترك التجول فجمعهم على بير يقال له تِنْتَلَقّونْ فبنى لهم المساجد والمدارس وألزمهم العكوف عليها والاجتهاد في تجديد ما اندرس من آثار أسلافهم فمضت على ذلك مدة ثم بدا له أن ذلك لا يسعهم من جهة معايشهم فأذن لهم في التفرق وتتبع مصالحهم بشرط التزام الجماعة والتعليم والإرشاد لمن معهم من الأهل والجيران والأتباع وأذن لبعضهم أن يفصل الخصومات لمن معه بشرط التقيد بمشهور مذهب مالك وبعضهم لم يأذن له بل كانت له ولبنيه من بعده عادة تفقد القضاة وتعهدهم بأن يجتمع علماء القبائل إلى قاضي القضاة فيختار منهم جماعة ويسيرون في البلاد يفتشون على المناكر يغيرونها ، ومن أشد ما يعتنون بتغيره الفتاوي الباطلة يبطلونها أو يعزلون أهلها بعد التنكيل والتثريب واتخذوا تلك العادة سنة باقية فيهم وسموا ذلك السفرة سفرة القضاء فكانوا يلبثون فيها شهورا في تلك التفتيشات وشهر في تلك السفرة بإطالة الغيبة فيها حتى صار اسم سفر القضاء لقبا يطلق على كل سفر طويل المدة ، ويقال إن ابنه محمد البشير هو الذي ولي قضاء القضاة أولا وهو الذي جمع القبائل السوقية لنشر العلم وإقامة معالم الشريعة وتجديد آثار السلف الصالح وهو الذي أذن لهم في التفرق بعدما تبين له أن الاجتماع على الوجه الذي أراده يعنتهم . والله أعلم

وأما عصره فلم أر من أرخه إلا أن أبناؤه كانوا في أواخر القرن الثاني عشر فإما أن يكون هو في أوائل ذلك القرن أو في أخر الذي قبله ، ونص الرسالة التي وقفت عليها من أثره هكذا : (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على طه الكريم الحمد لله رب العلمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، والعاقبة للمتقين ، وبعد : فمن القاضي محمد المختار المعروف بأمَّدْ بن القاضي محمد أحمد بن الشيخ البشير بن الشيخ القطب الرباني محمد بن يوسف المعروف بادَّ

إنْتَكَرْنَكَّت إلى أمينه وحبيبه ودرة جيبه ويمينه وشماله عمه وخاله القائم بمهمات الإخوان ثبت الله تعالى قدمه على الصراط في الدنيا والآخرة وجعلها من القائمين في ظلال عرش الله في جوار نبي الله الشيخ الفقيه محمد أسَطَفَنْ وإلى أخويه المباركين الشريف تَسْنٍ والفقيه أحمد ابن ذي النورين وإلى ابنه المبارك محمد الهاشمي وإلى جماعتهم الميمونة وإلى جميع إخواننا إيَيْبَتَنْ وإلى جميع أولاد دَاغْمَنَّ وإلى جميع بني إسحاق وإلى جميع المسلمين كافة مسلما عليهم غاية السلام ومهديا إليهم أزكى التبجيل ومعلما لهم بأن سبب الحروف إلى قطرهم الجليل وظلهم الظليل ، بعد تجدد التحية بدمع القلم ، إذ لم تتهيأ بعد بنقل القدم ، أن أخانا باب بن محمد قدم علينا مشتكيا أنه غصب من يده عبد لأم له ضغيفة هي عمة لنا وخالة ، وله ولصغيره شضركة فيه بمجرد زعمه جناية على طرف صبي لألكَسْ بن عال من غير قرينة تنضاف إلى ذلك فأفتاهم بعض إخواننا من بني أغْمَنَّ بتملك العبد إفتياتا علينا وعلى الشريعة فإن وصل إليكم فخذوا على يد الظالم وردوا إليه عبده لأن إقرار العبد كما هو معروف بل مجمع عليه كما رواة الإمام ملك فيما يلزم سيده غرما لا يقبل اللهم إلا أن تقوم قرينة تدل على صدق العبد فيعمل بإقراره معها كما في مسألة البرذون في المدونة ، وهذا حيث لا يتهم العبد بالفرار عن مولاه ، فإن أتهم فأحرى أن تحقق عوقب بنقيض

قصده وأدب على حسب جرمه بخروجه عن طاعة الله وطاعة رسوله - صلى الله عليه وسلم - بنزع يده من سيده) ومر إلى أن قال : بعد جلب ما اعتمده من النصوص على إبطال الفتوى المذكورة ما لفظه : (تأملوا رحمكم الله هذه النصوص تستفيدوا من مجموعها أن إقرار العبد فيما يلزم بدنه إنما يعمل به إذا لم يتهم على الفرار من مولاه فإن أتهم بذلك لم يعمل بإقراره ولو قامت عليه بينة كما هو مقتضى القواعد المالكية من معاملة الشخص بنقيض مقصوده الفاسد ، ومن سد الذريعة الفاسدة ومن حماية الكليات الخمس التي هي الأموال والنفوس والأديان والأنساب والأعراض التي اتفق على وجوب حفظها في جميع الأديان كما نقله القرافي في تنقيح الفصول إلى علم الأصول " ومن اعتبار المصلحة المرسلة كما هو مذهب الإمام مالك ، وقد ألفنا في توضيح النازلة " رسالة تبلغ كراسة " والعجب العجاب أن العلة التي من أجلها منع إقرار العبد فيما يلزم رقبته هي التهمة فلما تحققت وتيقنت وتبين أن لا سبيل

إلى المقصد الذي اعتزاه العبد صار ذلك المانع هو السبب وذلك قلب لحقائق وجهل بالمقاصد ولا يسمى الحاكم به عاقلا فأحرى عالما فأحرى مفتيا . والسلام عليكم) .

أقول أما المسلم عليهم في أول الكتاب فلا يدرى من أي الشعوب نجارهم وإن كان لهم ذرية فلا تُدرى أخبارهم ، وأما إِبَيْبَتَنْ فقبيلة من قبائل إمُوشَاغْ انقرضوا قديما في أرض آيَرْ وبقي عبيدهم هناك يسمون بأسماء ساداتهم ، وأما بنوا أغمَنَّ فموجودون في الوقت الحاضر في أرض طَاوَ ، وبنوا إسحاق موجودون فيما بين أنْسَنْكُ ومَنَكَا وقد صاروا أحياءا وبطونا فيهم أمراء وعلماء ولكن لا علاقة بينهم وبين جميع من يشركهم في الخطاب المذكور فالله أعلم هل كان سلفهم وقت الخطاب مع بني أغْمَنَّ في وطنهم الذي كانوا فيه الآن من أرض طَاوَ أو كان بنوا أغْمَنَّ معهم في المساكن الحالية ثم انتقلوا إلى أرض طَاوَ أو كان الجميع ببلاد آيَرْ التي انقرضت فيها قبيلة إِبَيْبَتَنْ ، وأيا ما كان قطرهم غير القطر الذي يسكنه المرسِل وإنما أرسل إليهم لاتساع دائرة قضائه وأمره ونهيه . انتهى

***

وقد رأيت في الخطوط القديمة رسالة لبعض علماء السوقيين سقط منها تعريف مؤلفها ولكنه ذكر أن غرضه الإنكار على قوم يهدرون جنايات العبيد زعما منهم أنهم يعتمدون على فتوى هذا الشيخ ، فأحببت إيرادها هنا لما تحتوي عليه من الفوائد ولتعلقها بفتوى الشيخ المترجَم ونص الرسالة هكذا : (بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العلمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحابته أجمعين ، أما بعد : فقد سألني بعض الأخوة ممن لا تسعني مخالفته أن أجيب فيما حدث وفشا في هذا الزمان من إرادة سادات العبيد إهدار جنايات عبيدهم الجانين على أطراف بعض الأحرار مرة ومرة على الأموال زعما منهم أن علمائهم أفتوا لهم بذلك ويعنون بعلمائهم جهلة الوقت وطلبته ممن لم يفهم المراد زاعمين اعتمادهم على ما كتب السيد الفاضل المرحوم المختار بن الولي محمد أحمد إلى بعض البلاد لضعف عقولهم وجهلهم المركب مراده فيما كتب من زجر أهل تلك البلاد وردعهم على فساد فشا

منهم من أخذهم عبدا في جنايته إذا جنى على أحد أراد أن يملكه أحب السيد أم كره فأفتى وحكم بإهدار أغراض العبيد وأصحاب الجنايات بأن ترد العبيد إلى سادتهم رغما لهم ولأصحاب الجنايات كما هو مراد الشرع إن شاء الله ، حيث جعل للسادات إن شاءوا دون إهدار ما أفسدوه كما سنبينه بعد إن شاء الله حتى يفهم من التبس عليه مرامه ومراده وسنبين نحن مراد الشارع في النازلة حتى لا يجد الملبس مسلكا من جهة الشرع يلبس به بين الحق والباطل ، فأقول والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب : أما ما تواتر عليه النصوص في المذهب وأجمع عليه أن العبد يتعلق برقبته الجنايات الثابتة عليه بالبينة من الحدود والأموال ولا يراعى في هذا الحال إقرار العبد ولا عدمه لأن الاعتماد على البينة كما لا يخفى ولكن لسيده الخيار في الأموال بين الإسلام والفداء والدماء إن عفا ولي الدم ، وأما من لم يثبت بالبينة فكل ما يتعلق ببدنه من

الأحكام فيقبل إقراره فيه إن أقره به لأنه الذي يتوجه إليه الحق ويقع عليه الحكم إلا أن يتهم فلا يعمل على إقراره حينئذ وإنما يعمل لفساد الإقرار بالتهمة كإقراره بقتل مماثله واستحياه سيد مماثله ليأخذه فيبطل حق الولي إن لم يجهل مثله ذلك وإلا إلى القصاص بعد الحلف بأنه جهل ، أنظر عبد الباقي عند قول المختصر " ويجب عن القصاص العبد " قلت وإنما بطل الحق هنا لأنه ليس إلا الإقرار الفاسد باتهام العبد بالقرار من سيده به لمستحييه ولو ثبت الحق بالقتل هنا بالبينة واستحياه سيد مماثله ليأخذه فلا يبطل حقه كما هو صريح المختصر عند قوله " ولا دية لعاف أطلق إلا أن يظهر إرادتها " إلى أن قال " كعفوه عن العبد " عبد الباقي " فلا شيء له إلا أن تظهر إرادة ذلك آخذه أو أخذ قيمة المقتول أو دية الحر فيحلف فيخير سيد العبد الجاني بين دفعه أو قيمته أو قيمة العبد المقتول أو دية الحر منجمة " إلى أن قال " ثم ليس له الامتناع مما ذكر فيجبر على العطاء ولا يجري فيه قوله " ويبقى على حقه إن امتنع " فالتشبيه غير تام " إهـ

وعند قوله أيضا " وإن قتل عبد عبدا ببينة أو قسامة خير الولي فإن استحيا فالحاصل أن الاتهام في الجواب هنا محله ما ليس فيه الإقرار لا

ما ثبت بالبينة إذ لا يراعى فيه الإقرار ولا عدمه كما مر حتى تبطل باتهام العبد بما ذكرنا بل ولا بتحققه فأحرى به وما لم يتعلق ببدنه مما يوجب الإرش والغرم فلا يقبل إقراره فيه إلم يكن مأذونا لأنه إقرار على غيره وهو السيد لما في التتائي عن البساطي وهو وقد يقال إن قدم قبول العبد في الإرش للاتهام إلا بقرينة تصدقه كمشي دابة ععلى أصبع صبي فقطعته فتعلق به الصغير وهي تدمي ، ويقول فعل بي هذا فصدقه العبد فيقبل ويتعلق برقبته " إهـ للقرينة الدالة وعدم التهمة في هذه الصورة ونحوها كما في التتائي عن البساطي وما ليس فيه القرينة من هذا الوجه فلا يقبل منه إلا البينة كما هو صريح التتائي بعد مسألة البرذون ، حيث قال " وأما غير هذا من إقرار العبد فلا يقبل إلا ببينة " هذا حاصل ما قاله أهل المذهب في النازلة وعليه جرى ما قاله المرحوم القاضي محمد المختار وهو مراده كما يفهمه من تأمل وأمعن النظر في النقول التي أهداها إلى محمد إسطَّفَنْ بن محمد بن أمُوسْ وإهَلَشَّتَنْ في في أمر عبد أم باب بن محمد .... من نص ما ذكرنا إلا أنه رحمه الله بعد ذكره النقول قال تأملوا رحمكم الله هذه النقول تستفيدوا من مجموعها أن إقرار العبد فيما يلزم بدنه إنما يعمل به إذا لم يتهم على الفرار من مولاه فإن اتهم بذلك فلا يعمل بإقراره ولو قامت عليه بينة " هكذا فيما وقفت عليه لفظ " ولو قامت عليه بينة " لم أفهم المراد منه إذ لا يجتمع العمل على الإقرار وعدمه مع قيام البينة كما قدمنا ولعل الناسخ أفسده وإنما هو " إلا إن قامت بينة " ويدل له ما نقله هو عن التتائي وهو ، وأما غير هذا من إقرار العبد فلا يقبل إلا ببينة . وأما ما في كتابه إلى إمِلَّكَظَنْ من قوله " إني حكمت في جميع بلادنا على إهدار جنايات العبيد الذين

يقصدون الهروب على أربابهم بتلك الجنايات " فحاشاه أن يقصد بذلك إهدار ما أثبته الشرع من ذلك مما زعمتم بظنكم إهدارا إذا لم نقف على ذلك مما رأينا من فتاويه لا منطوقا ولا مفهوما ، وإنما مراده إهدار أغراض أولئك العبيد وأرباب الجنايات من قصد العبيد إفاتة رقابهم بذلك وقصد أرباب الجنايات أخذهم بتلك الجنايات ، وقوله " بإهدار جنايات العبيد " على حذف مضاف أي بإهدار أغراض جنايات العبيد أي في جنايتهم مما ذكر فافهم كما يدل عليه ما ذكر لا من المعاملة بنقيض المقصود والعقاب والأدب على حسب جرم العبد بخروجه عن طاعة ربه ورسوله بنزع يده من سيده فإنه يبين أن

مراده رد العبد لسيده الشاكي زعما منه ومن صاحب الحناية كما هو مراد الشرع إذ لم يسلمه وليس فيه ما ظنه الجهلة من أن مراده إهدار ما أفسده أولئك العبيد حتى جعلوا ذلك أصلا من الأصول لفهمهم الركيك وجهلهم المركب مراد هذا الشيخ فضلوا وأضلوا فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولكن رحمة الله لم يتفق لي أن أسأله عن هذه المسألة مع سماع كلام بعض الطلبة يزعمون عليه حتى أوقفني الله على ما كتب بعض الطلبة من فتاويه في ذلك ففهمت مراده على ما ذكرنا دون ما ظنه الجهلة وطلبتهم ، وقد قال لي بعضهم إنما تركنا النصوص في هذه النازلة لسد مفسدة وهي أن كل عبد أراد أن يملكه شخص جنى عليه فيأخذه ، فقلت له أي شيء حصل بإهدار ما أفسده العبد سوى المفسدة ألا ترى أن الشرع سد تلك المفسدة بالخيار النافي ضرره في قصد العبد الفرار منه إلى المجني عليه وقد نصوا على الخيرة تنفي الضرر وقد عرف أن مشروعية الشيء لا تكون إلا متضمنة للمصلحة دارئه للمفسدة وكيف يمكن ترك نصوص .... جلب المصلحة ودرء المفسدة إلى الإهدار المذكور الذي لا يحصل شيئا بل يترتب عليه مفسدتان أحدهما : ضرر المجني عليه بإهدار جناية بمراعاة ضرر سيد العبد وقد علم من الدين أن الضرر لا يزال بالضرر ، وقد ورد النص إذا ورد ورد شيء فيه

الأذى لشخص فليس لك اعتبار هذا الأذى إذ لم يشرع إلا لمصلحة وإن كان الأذى هذا ظاهرا ، وقد نقل أيضا عن تبصرة الحكام " واعلم أن الله سبحانه شرع الأحكام لحكمة أي لمصلحة منها ما أدركنا ومنها ما خفي علينا المصالح العبادة ودرء المفاسد تفضلا لا وجوبا " إهـ من كتابه ، العجب في إبطال ألفاظ حَمِدْتُ ، وأيضا قد ورد النهي عن ضرر مسلم وفي قواعد الأصول " الضرر لا يزال " ومن فروعه " رد المغصوب ونحوه وقيمته إن فات " والنهي كما قاله مالك أيضا إذا ورد النص فيه عن شيء ظاهره منفعة شخص فليس لك اعتبارها لأنه لم يرد عنه إلا المفسدة . انتهى من ذلك الكتاب أيضا .
والحاصل : أن صاحب العبد لا يراعي أذاه في نازلتنا من عدم الإهدار إذ قد ورد النص فيه ولا تراعى منفعته من إهدار الجناية في ضرر صاحب الجناية إذ قد ورد النص في النهي عن ضرر مسلم فافهم .

الثانية : جلب مفسدة هي أعظم وأشد وهي أن الناس لو علموا إهدار جنايات العبيد الفارين لمن يرغبون منهم لأمر بعض أهل الهوى والفساد عبيدهم بإظهار الفرار لبعض من قصدوا إذايتهم بالجناية على طرفه أو ماله ثم يرجع عبد كل إليه مجانا وذلك فساد أعظم . ثم قال لي بعض إنما أهدرنا تلك الجنايات للاتهامات أي لاتهام أن صاحب الجنايات تواطئوا مع العباد الفارين إليهم على تلك الجنايات فأبطلنا حقهم لينزجروا على ذلك ، قلت له هل هذه الفتوى بالإهدار المذكور على جهة التعزير بالمال أم لا ؟ فإن كان من باب التعزير بالمال على القول به في قضية لا تعلق لها بالمال فقد ينافيه لأن معناه كما في عبد الباقي عن البزاري أن يمسكه عنده لينزجر ثم يعيده إليه لا أنه يأخذه لنفسه أو لبيت المال كما ظنه الظان فلا يجوز أخذ مال مسلم بغير سبب شرعي أي كشراء أو هبة . إهـ منه مع أن من شرط النهي عن المنكر وجوده في الوجود من غير تجسس ولا تفتيش كما ذكره وما لم يظهر فلا ينكر حتى يترتب عليه التعزير الذي قدمنا وإهدار دم مسلم أو ماله الثابتين يقينا بالاتهام والشك مع أن الأصل أن اليقين لا يرتفع بالشك وأن المواتات إن فرضنا كونه مانعا من حقوق أرباب الجنايات لا يؤثر الشك فيه لما علم من أن الشك في المانع لا يؤثر مع أنه لو تحقق أنه أذن له في اتلافه لضمن على ما أفاده الشيخ عبد الباقي في الوديعة عن الخطابي في الاستفتاء قال : " قال ح
لا يجوز للمودع إتلاف الوديعة ولو أذن له ربها فإن فعل ضمن كمن قال لرجل اقتلني أو

ولدي " قاله في كتاب الاستفتاء ، ثم قال هو " والظاهر دخول الخلاف فيه كمن أذن لرجل في قطع يده " إهـ دون ما للشارح من عدم الضمان في قوله " اقطع يدي أو احرق مالي " وأيضا المسألة يبعد فيها بالنظر إلى المقاصد أو العادة أن يغرى الشخص عبدا قطع طرفه وإهلاك مال له بال فأحرى ، وقد تواتر في أفواه العلماء أن العبد مرهون في جنايته ما لم يفده السيد مع أن فتح المفسدة التي ذكرناها أشد وهي أيضا أظهر قصدا مما ذكرته لأن الإغراء على مال الغير أكثر قصدا ووجودا من إغراء على مال الإنسان نفسه كما لا يخفى على من له أدنى تأمل . هذا ما ظهر لي إن كان صوابا فمن الله وإن كان خطاءا فمني والسلام .

* * *

ترجمة الشيخ محمد البشير والد الشيخين سَلَهُ وأمَّالْ :
هو شيخ الشيوخ في وقته وقاضي القضاة في وقته وأبوا القضاة المشهورين الذين لم يزل العلم متسلسلا فيهم يأخذه الأصاغر عن الأكابر ولا يرحلون بأي جهة في طلبه وقد كان بينه وبين معاصريه من أجدادنا علاقات وعهود ومبادلة التعظيم والاحترام يبجلونه لما نال من عزة العلم والعمل وعزة النسب الأنصاري الذي ينتسب إليه فكان يرى بر أسلافنا الدغوغيين من أقرب القربى إلى الله ورسوله تمسكا بقوله تعالى { قل لا أسئلكم عليه أجرا إلا المودة في

القربى } وما ورد من الأحاديث الآمرة ببر أهل البيت وتعظيمهم وله في ذلك قصص مشهورة ورثها عنه أولاده من بعده من ذلك أن بعض المنتمين إلى البيت العلوي أراد أن يوصيه ببنيه فقال له الشيخ لا قدرة لي على أن يكون الشريف تحت حجري بل أنا تحتهم في كل شيء ، ومثل ذلك من تعظيم أهل البيت الذي يُنْقل عنه كثير ومن ذلك أن جدنا محمد أحمد المعروف باسم هَمَّهَمَّ وإخوته إذا أتوا إلى مجلس درسه بدأ بحاجتهم من التعليم حتى يفرغ منها ثم يقبل على من سواهم ، ومنها أنه لا يؤم أحدا منهم ويقول قدموا قريشا ولا تقدموها . وأما أسلافنا فيعترفون له أيضا بما حاز من الفضائل وعامل أبناءهم أبناءهم بمثل ذلك ويرون محبته أهل ذلك البيت من الإيمان لما ورد من (أن علامة الإيمان حب الأنصار) ويقال إن عم أجدادنا تَبَّلَ هو الذي تولى خطة قاضي القضاة أولا من سلطان إكَدَزْ الذي تولى منه كَرِدَنَّ الإمارة على بلاد تَادَمكة وأعمالها فآثر بها الشيخ محمد البشير لشدة محبته له ولما يرى فيه من أهلية القيام بذلك المنصب الجليل ،وقد قام بها أحسن قيام ، ومن قيامه بها ما مر من تفتيشه عمن بعُد عنه من القضاة بعزلهم ويرشد غير المغزول إلى الصواب ، ولا يقدح في ذلك خلاف الرواة فيمن سن سفرة القضاة هل هو أو والده لأنه إن كان والده هو الذي أسسها أولا فلا شك أنه بنى بعد تأسيس أبيه وأن أولاده من بعده شيدوا ذلك البناء . أما آثاره العلمية وأخلاقه المرضية فقد تواترت في البلاد يأخذها الأخلاف عن الأسلاف .
وأما العلمية فلم أقف على شيء منها لا نظما ولا نثرا ، وحدثني بعض أصحابي أن له أثرا منظوما ولم يطلعني عليه وكذلك وفاته لم أر من أرخها ولا شك أن ابنه سَلَهُ عاش بعد ألف ومائتين فيشبه أنه عاش في أوائل القرن الثاني عشر . أما ثناء الناس عليه وعلى أهل بيته فكثير ،

وممن أثنى عليه من غير أهل بلده شاعر من قبيلة إدَوْعَلِي من قبائل موريتانيا وقفت على قصيدة له في

قرطاس بال سقط منه بعض المسطور ومن سواقطه اسم الناظم واسم قبيلته موجود ، وأنشد قصيدة في مدح أعيان السوقيين الذين وفد عليهم فأكرموه وقال في محمد البشير ما لفظه مشيرا إلى ناقته :

فأعملتها بالسير حتى أنختها ... بباب كريم صادق القول وآف
محمد البشير قاضي مهذب ... كثير رماد البيت ضخم الأثافي
فقيه نبيه محسن متواضع ... تردى بأخلاق حسان نظاف

ومن أحسن ما عبر به عن حالتهم مع أهل بيتنا الدغوغيين من تبادل التعظيم والتبجيل والإكرام قول عالم الشعراء وشاعر العلماء محمود بن محمد الصالح يصف حالهم مع أهل بيته ويستبعد أن يصدر منهم في جانبهم خلاف المألوف وهو :

أنصار دين الله لا أعداؤه ... نزهون مأمونون لا غدار
هم ما هم هم سادة هم قادة ... سلفت لنا بوصالهم أعصار
وجرت مجالس في النصيحة بيننا ... وكرامة وزرناهم أو زاروا
متعاقدين على المودة بيننا ... حلفا قديما شاده النجار
كنا نقدمهم على أهلية ... فيْنا بها لجميعهم إقرار
إذ لم نزل في كل دور تظهر الـ ... أقمار من أفلاكنا الأقدار

مر إلى أن قال :

منهم غيوث هاطلات ديمة ... تسقى بها الانجاد والأغوار
وأسود بأس في الندى فياضة ... من دأبها التذبيح والتنحار
وفتى يفيد ويستفيد فتضبط الـ ... ألفاظ عنه وتؤثر الأخبار
ومناظر متبحر ومدرس ... علم البيان فدأبه التفسار
وفتى بما يفتى به يفتي ولا ... يقضي بذي ضعف فسل هل جاروا
وفتى وجيه أيد تعنو لـه الـ ... أشرار والدعار والشطار
سجد الزمان لما يقول مهابة ... ونرشد ما يأتي له أخبار

انتهى الغرض منها وهي كافية في الشهادة بما لهم من المفاخر والمآثر وما كان بيننا وبينهم من الاتصال والتواد في الماضي والحاضر .

***

الشيخ محمد الصالح المعروف بسَالَّهُ بن محمد البشير :

لما مات محمد البشير قام ابنه سَالَهُ مقامه بأهلية واستحقاق بعد مشاورة من أهل الحل والعقد واتفاق لا بتوريث المناصب المذموم فقام مقامه في بر منقول ومرقوم غير مشوب فيما بلغنا بشيء من الشقاق ولا سوء معاملة وأحسن إلى الرفاق وجرى على سنن أبيه غير مقصر ولا متوان حتى شهد له بالسبق في ميدان من معاصره من قصي ودان وأثر آثارا تدل على حرصه على نشر العلوم ونفع الإخوان فإنه متمكن من استكتاب من شاء من كتاب أهل وقته ولكنه لا يفارق القلم حتى ملت منه اليدان ، وعندنا الجزء الثاني من صحيح البخاري بخطه وخط ملازمه أحمد بن محمد إكَّنَنْ بن القاري الدغوغي ويشتركان فيه شركة غريبة يخط واحد منهما صفحة ويخط صاحبه أخرى ويشتركان في صفحة واحدة بل في سطر واحد ، وأخبرني الشيخ الوالد أن تلك النسخة لما فرغ كاتبها من تصحيحها وفد عليه حم جدي الأدنى محمد إكَّنَنْ بن محمد بن هَمَّهَمَّ فقال له كل ما في ملكي احتقره لاتحافك به إلا هذه النسخة التي تعبت في تحصيلها وهي أعز علي من كل شيء كما أنك أعز علي من كل وافد فهي لك ، ومن تلك النسخة عرفت عرفت أيها الكاتب خطه إذ لم تزل في مسجدنا تقرأ كل عام ، وليس لكاتبها كرامة أعظم من بقاء أثر مثل ذلك فخدم الحديث النبوي رغبة في التقرب إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثم أهدَاها إلى بعض ذريته زيادة في التقرب فجزاه الله على حسن عمله أن أبقى ذلك العمل يشفع به مدة تقرب من مائتي عام . ومما وجدته من خطه الذي لا أشك فيه نسخة من كتاب " رحمة الأمة في اختلاف الأيمة " ونسخة من " الأجوبة المهمة لمن له من أمر الدين همّة " يشترك في نسخهما مع ملازمه أحمد بن محمد إكَّنَنْ المذكور بالصورة التي عملاها في نسخة " صحيح البخاري " الموجودة عندنا وتلك النسخة وقفت عليها عند قوم ليسوا من ذرية أحد الشيخين اللذين كتباها فأظن سَلَهُ هو الذي وصل به سلف من رأيتها بيده ابتغاء مرضاة الله لأنه ليس ممن يحترف

بالخط وقد اعتناه الله عن أن يقتات بخطه كما مكنه من استنساخ من شاء من النسخ ولولا ما تقدم من حرصه على نفع الناس بعمل يديه ما باشر الخط نفسه فضلا عن أن يحترف بالخط لغيره . وممن رأيت من أثره

قصيدة يرثي فيها إخوانه جدود أهل تَكَلَّتْ الذين ماتوا في وقت واحد عام سبعة ومائتين وألف 1207هـ وأتبع القصيدة بكلام يوجهه إلى بعض أبنائهم ، وتلك القصيدة نقلتها من خط الناظم نفسه غير شاك في نسبتها إليه لأن خطه معروف عندنا جدا ، وصورة ما كتبه هكذا (ولما قام عبيد الله محمد الصالح المعروف بسَلَّهُ بن محمد البشير على طلل أحبابه وشيوخه بقَسَنْقَسْ طلل التفسير بعد موت أصحابه وثمرات فؤاده ثار منه الشوق وبكى وتمثل ببيت إمرء القيس : لمن طلل أبصرته فشجاني ، وذيله بأبيات فقال :

لمن طلل أبصرته فشجاني ... كخط زبور في عسيب يمان
ديار لقوم قد بنوها وشيدوا ... بناها بدين دائم اللمعان
وبالفقه والتفسير والنحو واللغى ... حديث ومنطق عروض بيان
وإقراء ضيف وإقراء طالب ... وإطراء سامع بغير توان
وأمر بمعروف وكف مناكر ... ووعظ بلا عنف ولا هذيان
محمد الأمين بحر زمانه ... وحَمَّ خضم الحود صاف الجنان
وتلوهما محمد أحمد ذو النهى ... وأحمد كهف العلم حبر الزمان
ومن عقله عند الفساد وجوده ... لسائله ، بحران يلتقيان
ومحمود المحمود ذو الحلم والتقى ... .
وممان الأوفى أخو الزهد والتقى ... ولا تنسى ذا الحيا وصون اللسان
إذا ما ذكرتهم تجبر شوقهم ... بقلبي والعينان تنهملان
أعلل نفسي بالفروع سجية ... وأذكرهم ....
فيا رب يا رحمان أجزل ثوابهم ... غدا بجوار المصطفى في الجنان

ثم يسلم هذا المشجون المشتاق المترجم عن مكنون غرامة الدمع الدفاق ، على الحي لمبارك المشتهر بطيب المبارك ، ذكورا وإناثا وكبارا وصغارا وعبيدا وإماءا ، ويقول لقرة عينه محمد المختار بن أحمد بن هَمَّهَمَّ انظر بارك الله فيك ، وجعل النطق بالحق مغنم فيك ، خزانة الكتب واجتهد ما استطعت في استخراج مجموعة صغيرة من مضمونها كتاب شرح الدرر الترياق في علم الحروف والأوفاق ، فقد مسني الحاجة إليه واطلعت فيه على أشياء لم أقدر عليها دون الوقوف عليها فمتى ظفرت به فوجهه إلي في يد من لا يضيع بيده) انتهى ما كتبه وقد عنّ لي أن أعرف للناظر من يرثيهم هذا الشيخ : أما محمد الأمين وحَمَّ ومحمد أحمد الذين بدأ بهم فهم أولاد الشيخ أحمد بن الشيخ وليس

لهم عقب من جهة الذكور ، وأما أحمد الذي قال فيه (كهف العلم حبر الزمان) ومحمد بفتح الميم الذي قال فيه (ومن عقله عند الفساد) البيت فهما أبناء محمد أحمد المعروف بهَمّهمّ الأول هو جد الشيخ محمود بن محمد الصالح ، والثاني هو جدي أيها الكاتب ، ومحمود الذي قال فيه (محمود المحمود ذو الحلم والتقى) البيت فهو ابن أحمد بن همّهمّ ولم يعقب ، وأخوه محمد المختار الذي يطلب منه الكتاب هو جد الشيخ محمود . ومممانِ الذي قال فيه (أخو الزهد والتقى) وأخوه محمد الملقب إدَّ الذي قال فيه (ولا تنس ذا الحيا وصون اللسان) فهما أبناء محمد الإمام ذرية الأول منهما بنوا محمد المعروف بإلَيَّ وذرية الثاني سائر بني عمهم .

ولنرجع إلى ما نحن فيه من الكلام على الشيخ سَلّهُ فنقول من أعدل الشهود الشاهدين له بالفضائل التي عز فيها المماثل قطب وقته العلم الشهير مربّي السالكين ومرقي الواصلين ، المستغني بشهادات إذ هو المبرز من وقته إلى الآن عند جميع السادات ألا وهو الشيخ سيدي محمد ابن قطب الأقطاب مأوى السروج والأقتاب بدر البدور وأبو الأنوار ، الشيخ السيد المختار المعروف بالشيخ الكبير وهو ابن أحمد بن أبي بكر بن الوافي الشهير فقد اعترف الشيخ سيد المختار وابنه المذكوران بما له من المزايا ونظم كل منهما في ذلك ونثر ما لو جمعه جامع وسطر لكان فيه غنية وعبرة لمن اعتبر ، ومما كتبه الشيخ سيدي محمد من وصفه قوله في رسالة وجهها إلى محمد حَنَّ بن محمد المختار ما لفظه : (ومن فظيع ما سودت به مبيض وجه الكتاب وملت به أرشدك الله إلى غير الصواب ، قولك إماما أو سمت به العدل الرضي ...إلخ) يعني الشيخ سَلّهُ (فإني لم أسمه ولا يوسم بغير الوسم الصالح ، والدين الراجح ، إذ لا يخفى مكانه ، ولا يجحد في أبواب المجد رجحانه ، ولقد حوى من المفاخر أوفر نصيب ، ورمى في كل فن من المعالي بسهم مصيب ، شاد فضله حتى انتشر في المغارب والمشارق ، حيث لا يجحده إلا مبغض مشاقق أو منافق حل من أنيق المجد ذروته ، ومن جواد السبق صهوته ، إن دبر حكم ، وإن تكلم أفهم ، فهو كما هو أرفع ، وغناؤه نفع في الحادثات قديما وينفع ، ومع ذلك يبلغه على ألسنة الوشاة ، ما لولا اشتمال شمل الود المنيع لرموه بالشتات فما راعني إلا والمكاتب تطعن في جنب إخواني بعامل الحزن ، فأعددت دونها ترس الرسائل والتبريات

للصون ، فلا تكاد أيها الأخ تقف في تلك الرسالة على جملة إلا وفيها من وجوه التبرية والتحاشي ما يملأ صدر الحاسد غيظا ويصم أذن الواشي ، فما كان مثل العلامة الصالح بأهل للوسم بغير صالح ولست أرشدك الله في اطلاعك على منشور أحواله ، ومتواتر أقواله وأفعاله ، بأوسع منابه عينا ،

ولا بأحسن منافيه ظنا ، ولنا أن نقول فيه ما تولى الشاعر نسجه بفيه :
له همة تعلو السماكين رفعة ... ويسمو على البدر المنير سناؤه
فلا فخر إلا ما حواه فخاره ... ولا جود إلا جوده وسخاؤه
ولولا أنك مدحته بالقرآنيات، من الآيات البينات ، وصدقت فيما نطقت ، لقلنا قصرت في المديح ، وجئت بنسمة من فلك الريح ، وفي الكتاب إشارات غطينا عليها عين الجواب ، وصلى الله وسلم على النبي الأواب ، وعلى سادتنا آله وكافة الأصحاب ، ما شعب العُتّاب ما تشغب العتاب ، وآخر دعوانا أن الحمد لله وخاتمة الكتاب تحية المحب الفقير الناصح ، إلى العلم الفرد الشامخ الولي الصالح ،
سلام مضيئ كالدراري الثواقب ... مضيع كاردان العذاري الكواعب
إلى فلك الحمد العلى مناره ... إلى ملك المجد الشهير المناقب
أبي السعد عبد الله صالح عصره ... وحامل رايات العلى والمذاهب
سراج أولي الألباب واسط سلكهم ... وسيف عداة الدين عين المواهب
له رتب ترتيبها زين الورى ... فمن آئب منها غير ذاهب
هو الشمس تنويرا ونورا ورفعة ... فقل في مزاياه وجئ بالعجائب
روى للمجد موصولا عن البر والتقى ... وصح له إسناد علم المكاتب
لئن بدرت مني إليه بوادر ... أو أبصر مني عورة من معائب
فمن ثقة مني بواثق وده ... وعلم بأن العفوحلي المناصب
فما ساد إلا من تغافل وارتدى ... بحلم ولم يجفل بشأن الأكاذب
ومثل العلا أن يكب كعب جواده ... يقال ويخفى عن منال التخاطب
ويعفو ويولي الصفح إن فرطت له ... فوارط من خل صفي مقارب
ولا بأس بالعتبى لذي الود إنما ... دليل بقاء الود عتب المعاتب

وهذه الشهادة من العدل المعاصر الخبير بتفصيل أخباره ، أحب إلي مما يملي من غير رواية وإن كان صحيحا في نفسه . وأما الشيخ المختار فجرت بينهما مراسلات ووفادات ومفاوضات ومدحه بقصيدة أو قصائد ، ومن رسائله إليه رسالة يعتذر فيها للسوقيين عموما وللشيخ سَلَّهُ خصوصا يخبرهم فيها أنه لا يعتبر إنكار غيرهم من أهل البلد ولذلك أرسل إليهم يبين لهم حججه في حرب إنْتَصَرْ ويذكر موجبات قيامه لدفاعهم . وأما المعاصرون له من السوقيين ومن بعدهم فلم أر منهم من يترجمه إلى أن شهرته بالعلم والولاية والعدالة ما زالت تروى وينقلها الأخلاف عن الأسلاف إلى هلم جرا ، ولم أر ممن أخذ العلم عنهم ولا من أخذوه عنه إلا أنه أخذ إجازات كتب الأحاديث عن عم أجدادنا وشيخهم حَمَّ بن أحمد بن الشيخ ، وأخذ رواية كتاب الشفا للقاضي عياض عن جدنا مَحمد بن همّهمّ ، وأخذها عنه أحمد بن محمد إكْنَنْ بن القاري ، ولم تكن له رحلة في طلب العلم ولا حاجة به إليها ولم تكن عادة قومه في أيامه فإن المقصود في الرحلة بما ذكره القسطلاني في مقدمته ونصه : (قال الخطيب والمقصود بالرحلة أمران أحدهما : تحصيل علو الإسناد وقدم السماع ، والثاني : لقاء الحفاظ والمذاكرة لهم والاستفادة منهم فإذا كان الأمران موجودان في بلده ومعدومين في غيره فلا فائدة في الرحلة أو موجودين في كل منهما فليحصل حديث بلده ثم يرحل) إهـ كلامه وما ذكره الخطيب من عدم إفادة الرحلة في حق من وجد في بلده ما يغنيه عنها جار في حق هذا الشيخ لأن حيّه في وقته هو الذي يرحل إليه وكل ما يقرأ في البلد من العلوم وآفر فيه والمعلمون كذلك متوافرون فيه فكل متعلم فيه يعلمه أبوه أو عمه أو غيرهم من قرابته ولا يلتفتون إلى ضبط ذلك كما هو جار في أحياء قومه إلى الآن فلا سبيل لضبط مثلي أساتيذ وتلاميذ من هو في القرن الثاني عشر . وأما تاريخ وفاته فهو أوائل القرن الثالث عشر لأن معاصريه من أجدادنا ومن آل الشيخ

المختار الذين يراسلونه كذلك أولاد سَلَّهُ ، ولما مات رحمة الله عليه خلف من الأولاد ثلاثة كلهم تولى خطة القضاء على الترتيب وهم :

محمد الشيخ

وخزيمة

وهَمَّهَمَّ

وكانوا على سنن أسلافهم من حفظ العلوم وبثها والقيام في نحور

السلاطين يعظوهم ويذكرونهم الله ويأمرون بالعدل وينهون عن المنكرات ويذبون عن وطنهم من يصول بقلمه من علماء الآفاق كأهل دَنَّكْ وجماعة فُوتًا ومن تبعهم من أهل تنبكت يقررون لهم أن لا يجوز لأهل بلادنا الخروج عن طاعة أمرائهم من إولّمّدنْ إذ لم يروا فيهم الكفر المبيح للخروج عن السلطان ، ورأيت رسالة منهم ومن ابن عمهم حَنَّ بن أمّتَّالْ إلى الشيخ المختار بن سيد محمد بن الشيخ المختار الكبير يقررون فيها أن لا يجوز لأهل بلادنا الخروج عن طاعة أولي الأمر منهم من علماء السوقيين وأمراء إولّمّدن ، وذكروا فيها كثيرا من النقول التي يحتجون بها على ما يقررونه .

***

أما هَمَّهَمَّ فله تأليف في الرد على بعض علماء دَنَّكْ يعترف من رآه لمؤلفه بالسبق في العلوم ومحبة الخير للمسلمين ، ومن أراد أن ينظر إليه فعليه بمجموع الشيخ حَبَّ بن محمد أحمد من أهل تَبُورَقْ.

***

أما خزيمة فلم أطلع من أثره على كثير بل على رسالة قصيرة يرسلها إلى بعض الناس في شأن خصومة بينه وبين بعض إخوانه ولكنه من قضاة أهل بيته .

***

وأما محمد الشيخ : فهو أكثرهم تأثيا على حسب ما اطلعت عليه فعندي من رسائله التي أجمعها بين الناس نحو أربع منها رسالته إلى النابغ سلطان البلد ونصها :

(بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – وآله وصحبه ، الحمد لله وحده والسلامان على من لا نبي بعده ، وبعد : فيسلم القاضي بن القاضي محمد الشيخ بن محمد الصالح على حبيبه وقرة عينه السلطان ابن السلطان النابغة بن كَـوَى غاية السلام ويخصه بالتحية والإكرام ، ويقول له سبب الكتاب إليك إعلامك علمك الله كل خير ووقاك كل ضير أنه قد بلغني أمرك بالقدوم عليك ولم يمنعني من امتثاله إلا أنه لا قدرة لي على القدوم عليك الآن لموت ما عندي من مركوبات الجمال ولكن لا بد لي من الحيلة التي تجمع بيننا إن شاء الله بأن أحمل كتبي ومتاعي على ما لي من الحمر وأركب أنا على رمكة حتى أقدم على بعض حاشيتي في البحر وآخذ ما عندهم من الجمال

وأركبه إليك ، هذا خبري ثم اعلم أنه قد انتشر الظلم والفساد في الأرض وبلغا فيهما مبلغهما شرقا وغربا ويمينا وشمالا وقريبا وبعيدا فما من قوي إلا وقد أراد أن يغير على ضعيف ظلما وعتوّا وجبروتا ورياسة ، ولذلك بلي تارة بأعدائنا وتارة بالجدب ، وتارة بالوباء فصار الناس اليوم كغنم في أرض مذئبة بلا راع فانتبه لذلك أشد الانتباه ، وجتهد كل الاجتهاد لا خيب الله مسعاك ، ولا شمت بك عداك في كشفه ولا تترك الناس تحرقهم شمس الظلم والجور ، فإن السلطان ظل الله في أرضه فأظللهم بظل العدال يظلك الله يوم لا ظل إلا ظله ، فقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل) إلى آخر الحديث ، وارعهم حق الرعاية فإنك مسئول عنهم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) إلخ ، واعلم أيضا أن أخا الّيهَتْ المسمى بإسْتّابْ قد أخذا بغيرا من بعض رعيتي لما قدم على قرابة له كانت هناك فابعث إليه حتى يرسله إليك ، والسلام) .

ومنها : (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، الحمد لله الذي أوجب تبين الحق بأكيد الميثاق والقسم ، ونهى عن كتمانه والمراء في الدين أن يقفو كل أحد ما لم يعلم ، والصلاة والسلام الأتمان على من خطب بـ{ قل ربّ زدني علما } مع أنه المخصوص بنقطة العلم وجوامع الكلم ، وبدائع الحكم ، وعلى آله وأصحابه الذين شأنهم أن يحيل بعضهم على بعض فيما سئلوا عنه مع أنهم نجوم الاهتداء ، وأهل الكمال الأعم ، والفضل الأتم ، فرضي الله عنهم أتم رضوانه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الخسر والربح والندم هذا أوانه من المعترف بالجهل والعجز والتقصير محمد الشيخ بن القاضي سلّهُ بن القاضي محمد البشير إلى أخيه وحبيبه في الله أقدْ سلام الله عليك ورحمة الله وبركاته ، سلام يقشع ظلمات الوهم والاعتساف ، وتنصب به ديمة الحنان وقبول الحق والاتصاف ، وتشرق به أنوار الاعتقاد وحسن الظن بالإخوة والانتصاح والاستصلاح والائتلاف ، حتى تستعد روحانيته ، وتعدل داعيته ، وتستمد قابليته للمواهب الربانية بالاتحاف والإسعاف باللطائف والألطاف ، أما بعد : فقد بلغنا عنك ما لا يسعنا السكوت عنه ولا التغافل ، ولا أن ننعمك عينا بما تشبعت به من الزور والباطل من قولك في مسألة إبن الاوّلْ ومن خاصمه بعد ما نزلت علينا أولا ، فأحلنا عليك ووكلناها إليك رفقا بأهلها ورفعا الحرج والمشقة عنهما وظنا منا

أنها لا تشكل عليك لوضوحها فما أجدى ذلك الظن فتفسخت تحت عبئها ، وأخطأت لطيش سمعك موارد ظمئها ، فأشكلت عليك كإشكالها ، وتشابهت عليك في إشباهها .
أوردها سَعد ، وسعدٌ لم يبل ... ما هكذا يا سعد تورد الإبل

وذلك أنه قضى فيها قبلك أوفلكَنْ بن إبراهيم بالمشهور وهو قول مالك وكبار أصحابه أن تصرف الحر البالغ السفيه الذكر المهمل المحقق السفه قل الحجر عليه جائز في كل فعل وعلى أي حال من معاوضة وتبرع وعقد وهبة وصدقة وغيرها كما يدل عليه " عموم المفرد المضاف " من قول خليل في مختصره " وتصرفه ...إلخ " الخرشي ولم يقل المؤلف " وفي إجازة أفعاله قبل الحجر وردها قولان " إشارة على أن المشهور عنده هو قول ملك ونقضت ذلك الحكم مع أن حكم الحاكم يرفع الخلاف ، ثم تعللت روغانا عمّا علمت في ذلك إلى قول خ " وتعين بموته " مع أن كلا من المسألتين في واد غير وادي الأخرى ، إذ تلك في السفيه المولي عليه وهذه المسألة في السفيه المهمل كما تقدم ، بل لو كانت هي هي ما أغنى عنك ذلك شيئا لأن الخلاف فيها مقرر مشهور أيضا كما سيأتي في محله إن شاء الله ، بل قد زعم ابننا سيدي بن أحمد بن محمد إكَّنَنْ أنك قلت له في التقييد ما نصه : أما قول خ " وتصرفه " مخصوص بما عدى النكاح زاعما أنك تكرر عليه قولك وأمّا في باب النكاح فلا ، وهذا عفا الله عنك هو عين التدليس والوضع الذين هما عين الحيف الوارد في الحديث أنه الموجب لأحد القاضيين دخول النار أعاذنا الله منها ، فإذا كان النكاح وما يترتب عليه من الصداق والإرث مقررا موجودا فيه الخلاف في الفرع الذي زعمت أنه متكفل بجوابك ومعتمدك في حكم هذه النازلة ، فما ظنك بالفرع الذي هو معتمد وَفَلكَنْ وكان فيه مسألته ، ثم ورد علينا الخصمان ثانيا يشتكيان اختلافكما فنظرنا في المسألة فإذا هي نازلة ومطابقة على ما حكم فيها وَفَلكَنْ كما وافق شن طبقة فأقررنا ها على ذلك وعلى ما يقتضيه من الإرث والصداق ، ونقضنا نقض ما لا يجوز نقضه من الحكم بالمشهور بل هبه كان مقابلا أشهر أو أرجح .

فلما بلغك ذلك أرسلت إلى خزّ بن دكّج فيما زعم قائلا إني لا أرضى بهذا الحكم وبما فصلنا به هذه القضية ومقتضياته من الصداق والإرث معكرا علينا ومنتقدا لما ليس فيه لأحد منتقد ، ومتشبعا بما ليس فيك ، ومتـــ ... مبارزا بلا عدد ولا عدد ، فإن كان هذا صحيحا عافاك الله من ذلك ، فما أنت في تعدي طورك وسخافة عقلك ، وادعاء ما ليس لك ، وجرأتك إلا كما في المثل السائر " أجرأ من خاصي الأسد " أو أشد حمقا ممن يدعي درة حذاق الغواصين في لجج البحار بعبوره بمخاضة النقد .

يا ذا الذي بقروع السيف هدّدني ... لا قام قائم جنبي حين تصرعه
قام الحمام على البازي يهدّده ... واستصرخت بأسود القاع أضبعه

رحم الله امرءا عرف قدر نفسه فاستراح ، وترك ما ليس في وسعه فأراح ، وفي الحديث (المتشبع ما ليس عنده كلابس ثوبي زور) وقال الشاعر :

كل من يدعي بما ليس فيه ... فضحته شواهد الامتحان

قال الله تعالى { إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعمّا يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا } وقال أيضا { فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون } وقال لنبيه أيضا { قل ما أسئلكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين } وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (لا تنازعوا الأمر أهله) وقال أيضا (ما هلك امروٌ عرف قدره) قال الشاعر :

وإذا لم تر الهلال فسلم ... لأناس رأوه بالأبصار

فاعلم يا أخي أيدك الله بنوره ، وجعلك ممن أهله لتذكيره وتبصيره ، أنه لا يجوز الحكم والإفتاء لأكثر أهل الزمان ، بل لمن له كثرة الاطلاع على العلوم والقوة على التحقيق والتدقيق والتحرز والتنميق ، لمعرفة اللسان العربي ، وما لا بدّ منه من علوم الأدب من النحو واللغة والتصريف وعلم المعاني والبيان والبديع / مع ما يزيد ذهنه ثقوبا من علم الأصول والميزان ، مع اتساع دائرة فهمه وطول باعه من المنقول والمعقول لأن المسائل تتشابه وتتداخل وأكثرها خلاف ، فإذا كان في المسألة قولان أو أقوال فلا يجوز لمن قصر باعه من المقلدين أن يحكم ولا أن يفتي فيها ، فإذًا فكيف يجوز لمثلي ومثلك أن يتصدى لهذا الخطر العظيم ، أو يتحمل هذا العبأ الجسيم ، لقصورنا وعجزنا عن تحصيل التقليد المعبّر في هذا الشأن فضلا عن التخريج والترجيح والاجتهاد ، كما

قـــــــــــــــال الــــــــــــــــــشاعر :

خلت الوكور فسدت غير مسود ... ومن الشقاء تفردي بالسؤدد

وإن الضرورات تبيح المحظورات ، إذ إنما حظ المقلد الفتوى بكلام شيوخ مذهبه ومشهوره ، والإجراء عليه أن تأهل لذلك ، بل إن كان من أهل الترجيح والتخريج ، وإني بهذا كله لأهل هذه البلاد قاطبة ممن قدّمناه آنفا فأحرى غيرهم ممن هو أكثر أهل البلد .

فأحرى من نزل بدركات عن ذلك ممن هو في خضيض الجهل المركب مع أنه لا يميز بين الحيَ والليّ في مقتضى العبارات ، ولا بين الغث والسيس في مباحث المناظرات ، ولا بين الحقيقة والمجاز في المحاورات ، بل بلغ في العي واللكن إلى أن عجز أن يسقي نفسه الظمئي من بحار ظواهر نُصوص الكتاب والسنة بغرفه ، وأن يفصح أو يبين عن مراده ولو ببنت شفه ، فكيف يجوز لمن قصارى أمره هكذا أن يغالط نفسه ويخاطر بها بتطلعه واستشرافه إلى عقبة القضاء الكئود التي فر منها وهرب سماسرة العلماء الأعيان ، وجهابذة الفقهاء المتقين الخلصان ، وامتنعوا منها وبعضهم ضرب كمالك ، وبعضهم سجن كأبي حنيفة ، وبعضهم استحْمق ليتخلص كمسعر ، وبعضهم هرب كأبي قلابة ولما قيل له في ذلك قال الغريق في البحر متى ما يسبح ، وما ذلك منهم رضي الله عنهم إلا لغزارة علومهم وشدة خوفهم من ربهم لأن القضاء مزلة ومدحضة ومحنة عظيمة الأهوال والأخطار ، قل من يسلم من مهاوي مزالّ شواهق عقبته الكئود وإنما تزل الأقدام عنها إلى النار ، في سخط الجبار ، قال الله تعالى { ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكفرون } { ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظلمون} { ومن لم يحكم بما أنزل الله فألئك هم الفسقون } وقال أيضا {يا دوود إنا جلنك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب }

هذا فإذا تحققت وتبين لك بما قدمناه أنه لا يجوز لك الدخول فيما دخلت من نقض حكم من حكم بما عليه مالك وكبار أصحابه كابن كنانة وغيره وهو الذي شهره خليل في مختصره كما تقدم عن الخرشي فاعلم أن في

المسألة التي أحلت عليها مسألة الخصمين وهي مسألة السفيه المولي عليه وهي قال فيها خليل " وتعين أي الفسخ بموته " بعد قوله " ولولي سفيه فسخ عقده " خلافا مسطورا بين العلماء مشهورا ، فمن قائل أن نكاح السفيه المولي عليه على الإجازة حتى يرد ، ومن قائل إنه على الرد ، فمن لا حظ أنه على الإجازة أوجب الصداق والإرث لفوات الرد بالموت ، ومن لا حظ أنه على الرد لم يوجب ما ترتب عليه من الصداق والإرث لفوات الإجازة بالموت .

ومن العلماء من فرق بين ذات القدر غيرها :

قال ابن سلمون في عقوده قال ابن رشد فس مسائله " وإذا لم يحضر الوصي العقد وإنما اتصل به بعد عقد السفيه بغير أمره فلم يقض فيه برد والإجازة حتى مات السفيه فهو بمنزلة ما إذا لم يعلم به حتى مات إلا أن يكون دخل بعلمه فيكون ذلك إجازة منه " ومر إلى أن قال " روى أصبغ عن ابن القاسم أنه قال إن مات هو فلا ترثه وإن ماتت هي فالنظر إلى وليه إن رآى أن ... ويأخذ له الميراث أخذه وإن رآى أن يرده رده وتركه ومثله قال سخنون ، قال ابن رشدومعنى ذلك أن النكاح يرتفع بموت السفيه ولا يرتفع بموت الزوجة فإذا مات هو لم يكن لها صداق ولا ميراث لكون النكاح على الردّ حتى يجاز وإذا ماتت هو نظر له الولي وقد يكون الصداق أكثر من الميراث فيكون له الحظ في رد النكاح ، وقال وفي المسألة ثمانية أقوال أحدها : ما تقدم وهو قول مطرف وابن الماجشون . الثاني : أنهما يتوارثان ويمضيالعقد حكاه ابن حبيب عن ابن القاسم . الثالث : أنهما لا يتوارثان ويبطل الصداق إلا أن يدخل فيكون لها منه قدر ما تحل به وهو قول ابن القاسم في العشرة . والخامس : أن الميراث بينهما وينظر في النكاح فإن كان نكاح غبطة كان لها الصداق دخل أو لم يدخل ، وإن كان غير ذلك بطل الصداق إلا أن يدخل فيكون ما تحل به وهو قول أصبغ . والسادس : أن الميراث بينهما ويبطل الصداق إن كان الزوج هو الميت وينظر في النكاح إن كانت الزوجة هي الميتة فإن كان نكاح غبطة كان لها الصداق وإن كان غير ذلك بطل الصداق إلا أن يدخل فيكون لها قدر ما تحل به . والسابع : أن الميراث بينهما ويثبت الصداق إن كان الزوج هو الميت على ما ذكره في القول قبل هذا . والثامن : أن ينظر في النكاح فإن كان نكاح غبطة مما لو نظر فيه الولي أجازه كان الميراث بينهما ووجب الصداق وإن كان غير ذلك

لم يكن بينهما ميراث ولا صداق إلا أن يدخل فيكون لها قدر ما تحل به .
قال في مسائله المجموعة فالذي أقول به واختاره وأتقلد الفتوى به إذا

كان الزوج هو الميت أن ينظر في النكاح فإن كان نكاح غبطة مما لو نظر الوصي فيه أجازه كان لها الصداق وإن كان على غير ذلك لم يكن بينهما ميراث ولا صداق وإلا أن يكون قد دخل بها فيكون لها القدر ما تستحل به . انتهى من التهذيب ممزوجا بشرحه التقييد ، ومثله للعز بن عبد السلام في شرحه على مختصر ابن الحاجب . مر إلى أن قال : فانظر عافاك الله وعفى عنك كيف جرى الخلاف في الفرع الذي أحلت عليه مسألة الخصمين فنقضت به ما لا يجوز نقضه من الحكم بالمشهور في المسألة التي هي أجنبية من التي أحلتها عليها كما تقدم ذكره ، ثم ترامت بك نفسك وهنتك إلى نقض ما أبرمناه وفصلنا به القضية من حق فيصلها وفي الحكم " ما هلك امرؤ عرف قدره " فإذا أتاك كتابنا هذا يا أخانا فأمعن النظر فيه وأقدر قدره وأعظم خطره تستفد منه إن شاء الله حفظك الله ورعاك وهداك ووقاك وجعلنا وإياك من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وصلى الله على سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - تسليما كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون)

ولما وقفت أيها الكاتب على هذه الرسالة في خزانة الكتب القديمة التي عند أخينا الشيخ أحمدُ بضم الدال بن الشيخ آدم الإسحاقي وبلغت مني مبلغًا تعجز عنه العبارة وعزمت على نقلها قال لي الشيخ الإسحاقي الذي وجدتها في كتب سلفه إن هذه الرسالة لا يتم لك فهمها ولا الإعجاب بها إلا بأن أقص عليك قصة النازلة التي أنشئت لأجلها فاسمع : مني أحدثك ما أخذت عن والدي مفي سببها فإن وَفَلْكَنْ الذي أثبت صاحب الرسالة حكمه هو جده الأدنى وهو الذي بقيت الرسالة في كتبه حتى وصلت إلي ، وحاصل ما أملاه علي أنه كان في قبيلة إهَنَّتَنْ من دو إسحاق رجل يقال له الأوَّلْ كان ينكح ويطلق حتى مات فقام ابنه ليمنع زوجته التي توفي عنها من الميراث أو الصداق أو منهما معا معللا ذلك بأن أباه كان سفيها فطالبه أخو المرءة التي توفي عنها أبوه بحق أخته من المال فتخاصما إلى وَفَلْكَنْ فحكم بينهما بأن تجد المرأة حقها من الميراث

مو الصداق فلم يرض ابن الأوَّلْ بحكمه بل رفع خصمه إلى عالم آخر من دو إسحاق يقال له أفدْ فحكم لهما بعدم الإرث والصداق لسفه الزوج فلما اختلف هذا الشيخان كما ترى ترافع الخصمان إلى حي إكدَشْ في حياة الشيخ الرباني حَنَّ بن أمَتَّالْ وبني عمه أبناء الشيخ سِلّهُ فجمعوا علماء السوقيين ليرجحوا أحد شقي الخلاف الواقع بين العالمين الإسحاقيين فرجحوا الحكم بثبوت الإرث والصداق فنظر الشيخ حَنَّ إلى ابن الأوَّلْ وكان صديقا له فنادا بأعلى صوته يا ابن الأوَّلْ أعط القالي وهو اسم خصمه حق أخته من مال أبيك ، وإعط النساء اللاتي طلقهم أبوك أيضا صدقاتهن فلما سمع العالم الإسحاقي أفدْ ما حكم به كَلَسُوكْ وترجيح حكم صاحبه على حكمه غضب وقال لا أرجع عن قولي لأنه نص كتبي فكتب إليه القاضي محمد الشيخ هذه الرسالة المشتملة على ثلاثة أمور :

الأول : صعوبة منصب القضاء الأعلى قليل من أهل العلم ممن معهم آلات قل أن تجتمع في أحد من أهل زمانه ، ويحذره من التسارع إلى الفتوى والتساهل فيه .
الأمر الثاني : الفرق بين السفيه المهمل والسفيه المولي عليه .
الثالث : أن السفيه المولي عليه الذي نصت الكتب على إبطال نكاحه وسقوط الصداق والإرث عنه بعد موته مختلف في شأنه بين العلماء .
فتحصل من ذلك أن فتوى وَقَلَكَنْ بثبوت الإرث والصداق لا يصح تعقبها لأن السفيه الذي وقعت النازلة في شأنه مهمل ولو فرضنا مولي عليه فلا يصح نقض حكم الحاكم الأول في النازلة لأنها مختلف فيها فلما حكم حاكم بشق من شقي الخلاف الواقع فيها متبعا لمشهور مذهب مالك وكبار أصحابه لم يصح لغيره أن ينقض حكمه اعتمادا على الشق الآخر فكيف يصح أن ينقض حكمه اعتمادا على وهم توهمه من اتحاد نازلته بنازلة أخرى فإن نقض الحكم مما يحتاج إلى التأمل ، قال خ " ونقض وبين السبب ما خالف قطعا أو جلي قياس " ومن نظر شروحه تبين له أن المسارعة إلى نقض الأحكام من غير سبب لنقضها لا تصح ولا تجوز بل ينقض ذلك النقض متى وقع ويقرر الحكم الأول المنقوض ، وقد قالوا مما ينقض نقض ما لا ينقض فلذالك نقض صاحبه الرسالة وأصحابه نقض الحاكم الثاني لحكم الحاكم الأول وأقروا ما حكم به الحاكم الأول فجزاهم الله خيرا . وقد فرغت من كتابة الرسالة ونقلها من النسخة القديمة التي كتبت بأمر المؤلف في يوم الجمعة تاسع شهر رجب من عام 1390هـ .

***

ترجمة الشيخ محمد الأمين القاضي بن هَمَّهَمَّ :

هو العالم العامل الولي الكامل والبحر الزاخر الناقد الماهر شهد له بالفضل كل معاصر تولى القضاء وجرى فيه على سنة أسلافه من معاناة الشدائد في تأدية حق ما حمله من الأعباء وأثر آثارا تشهد له بالسبق في العلوم منها : نظمه " لقواعد المعرب " فما من قاعدة من قواعد ذلك الكتاب إلا وهي روضة غنا فقربها على الطالبين بأسلوب غريب حتى صارت مما به يتغنى من شدة إعجاب المتعلمين بها وهي التي قال في أولها :

يقول راجي المن والإمداد ... من ربه جل عن الأضداد
الخاطئ المخطئي ما من عمل ... أعده إلا قوى الأمل
من لم يلق بالرمز والتكنيه ... فضلا عن التميز والتسميه
لكن سيأتي باسمه تلويحا ... إذ لم يكن بقابل تصريحا
باسم الإله أولا وآخرا ... أرفع أمري باطنا وظاهرا
أحمده ربا جليل الذات ... عظيم الاسم على الصفات
مصليا على النبي الهادي ... أهلَ الضلالة إلى الرشاد
الصادق المبلغ المكين ... المصطفى (محمد الأمين)
ثم الرضى عن آله الأطهار ... وصحبه لدينه (الأنصاري)
هذا وإني قاصد للمعرب ... نظم القواعد التي في المعرب
حاشية الحبر التواتي المقر ... القرشي الانتساب ، ابن عمر
عبد الرحيم معرب القرآن ... جزاه رب العرش بالغفران
لا بدع أن أبدي به المسبار ... ما عافت الأسماع والأبصار
ألم يكن صوت من الذباب ... بمذهب لفطنة اللباب
لاسي من تعوقه عوائق ... وعلقت بقلبه علائق
..........(1) لم تكن محويه ... في الأصل والفصل له مزيه
أوبًا لِمَا وعدته مرتجيا ... به ثوابا من عقاب منجيا
ومتبرئ له تعالى ... سبحانه من قوة إجلالا
فإنه البر المعين فضلا ... الصمد الفرد المهين عدلا

(1) 1) بياض بالأصل ، ولعل الساقط (حوت أمورا لم تكن محوية)

قلت والتلويح الذي أشار إليه في قوله (لكن سيأتي باسمه تلويحـــا) أراد به ذكر اسمه محمد الأمين . ولولا خشية التطويل والخروج عما نحن فيه لأتيت بجميع المنظومة هنا لما تحتوي عليه من الفوائد والقواعد الفرائد . وله قصائد في موضوعات شتى وليس عندي وقت الكتابة شـــيء مـــن شعره . وأما أثره المنثور فرأيت منه تأليفا يحتوي على أشـياء منهــا " نصيحة علماء دِتَّكْ وسلاطينهم " ومنها " الذب عن سلاطين وأهل بلده " ومنها " جواب عن فتيا تنسب للمغيلي " تمسك بها العلماء الذين يخاطبهم في استحلال أموال أهل بلده ودمائهم واسترقاقهم فتكلم على مـــا يتعلـــق بتلك الفتوى وجلب النصوص من الفقه وأصوله والنحو والمنطـــق ، ثـــم ذكر تمكنه من علم الحروف والأوفاق . وأما قضاؤه فهو الذي يعرف به في عصره وبعده ولم أسمع من ينتقم منه شيئا وكيف ينقم منه وقد حدثني الشيخ الخضر ابن الشيخ حماد رضي الله عنه عن ثقات أســـلافه الـــذي أدركهم : أن هذا الشيخ لما قُلد زعامة القضاء وقيادة حيه وانتقل المسجد إليـــه علـــى عـــادة قومـــه فـــي التـــسويد أنـــشأ وأنـــشد :

سلام علـــى اللـــذات واللهـــو والـــصبا ... ســـلام وداع لاســـلام وداد

وحدثني أيضا عن والده الشيخ حماد أنه مولع بحكايات هذا الشيخ القاضي وأنه مستغرق في الثناء عليه حتى أنه ربما هزته محبته فيقوم من مجلسه ويخطو خطوات يحكي بها مشيته ويقول للناس إنه كان يحكي مشية النبي – صلى الله عليه وسلم – المسطورة في كتب السيرة ، وإذا خاض فـــي حديثه أطنب وكلما رأى واحدا من ذريته وتذكره كاد يطيـــر فرحـــا ولا سيما إذا وفد عليه واحد منهم ، إنما يعرف الفضل من الناس ذووه . إهـــ

وأما سعيه في مصالح العباد وتسكين الفتن في البلاد فقـــد ضـــربت بـــه الأمثال وعجز عن شأوه فيه فحول الرجال ومن أعظم ذلك وأكثره نفعـــا قيامه مع الإنصار بن النابغ في إطفاء الفتن بين أهل دتَّكْ وأهـــل مَنَكَـــا ففرج سفره ذلك عن الناس غموما كثيرة ورعي الراعي وتجـــر التـــاجر وقرأ المتعلم وكتب الكاتب وازدهرت البلاد وما زال الناس في أمن ودعة بعد الصلح الذي عقده هو وسلطانه حتى نقض الأحداث عقد ذلك الصلح في آخر أيام الإنْصار وكانت وقعت مَنَكَا المشهورة التـــي وقعـــت عـــام خمسة وثلاث مائة وألف 1305هـــ . وأما حسن شمائله وسيرته فكاد أن

يكون أكثر حديث من أدركنا من أسلافنا نقلا عن أسلافهم المعاصرين له ومما يحكى عنه المبالغة في تعظيم الشرفاء حتى بلغ من ذلك مبالغ لم تسمع عن غيره منها أنه جاور حيه حي أهل تَبُورَقْ في بعض السنين يدارسون الفنون وكان هذا الشيخ هو الزعيم وقاضي القضاة فأحسن جوار حي أهل تَبُورَقْ وجعل يحذر أهل حيه من إساءة آداب جيرانهم ويقرر لهم أن من أساء إليهم في القول والفعل نكله نكلا شديدا ففي بعض الأيام عدا حمار حيه على حمار جيرانه فأخذه وربطه مدة لا يأكل ولا يشرب ليرى الناس عقوبته للبهيمة فيقلطوا من إهداره فعل العاقل إذا أتى بما ينافي التعظيم في حق جيرانه الشرفاء وسمعت عنه مثل قضة الحمار في حق أمة لهم تشاجرت مع أمة لجرانهم فنكلها نكلا شديدا رعاية لحرمة أرباب صاحبتها ثم لم تطب نفسه بالمقام معها بعد ما صدر منها من إساءة الأدب فباعها لتاجر من أهل تَوَاتْ وأخباره في هذا المنحنى كثيرة منها أنه انتقل عن حيه أخر عمره حرصا على قربه من جيرانه الشرفاء فمات في موضع قريب يقال له تِنْتَفَكْرَوْتْ ودفن هناك في أوائل القرن الرابع عشر وزرت قبره وأنا صغير يقودني الشيخ الوالد لأنال من بركته نفعنا الله ببركاته وبركات أمثاله ، وحدثني الشيخ الخضر أن والده سمع ذات يوم من سمى موضع دفن هذا الشيخ باسمه المعروف

تِنْتَفَكْرَوْتْ ومعناها بلغة الطوارق ذات الرمكة الهجينة فنهاه أن يعود لتلك التسمية وأمره أن يسمي الموضع باسم شريف وقال له منزل اختص بكرامة إقامة الشيخ محمد الأمين فيه لا يليق أن يدعى باسم غير كريم . إهـ وكفى بهذا شهادة له على إجلاله له وبعد موته اختل أمر البلاد بالاحتلال الفرنسي الذي بسببه ذهبت دولة إولّمّدنْ وزال حكمهم على البلاد فانقرض تولي منصب قاضي القضاة وصار كل عالم يفتي من يستفتيه من غير تقيد بعالم آخر إلا أن يتطوع أحد المفتين بمشاورة من شاء من إخوانه أو يستفيد ممن يراه أعلم أو أورع منه وصار أهل بيته كغيرهم من حملة العلم . وخلف هذا الشيخ أولادا .

بنوا محمد الأمين القاضي

***

أما ابنه محمد عمر :

فتوفي في حياة والده وخلف ابنا كان من نسله عبد الرحمن المعروف بِيَدَنْبَدُ وإخوته حفظهم الله وبارك فيهم ولم يصل إلي من خبره شيء .

***

أمـــــــا ابنـــــــــه ســـــــيدي :
فبلغني عنه أنه من الأولياء الفانين عن أنفسهم بمشاهدة أنوار الذكر وذوق حلاوتها حتى أنه كان يصلي ذات ليلة بقرب نار فاشتغل بلـذة المناجـاة وغاب عن حسه فوقعت قدمه في النار ولم يحس بها حتـى رآه بعـض الناس فصاح واجتمع الناس حوله وكثرت الأصوات وأخرج الناس القدم فحينئذ تفطن لهم وقطع الصلاة فأحس بألم الاحتراق رحمه الله تعالى مات ولـــــم يعقـــــب .

***

أما محمد أحمد ابنه :

فهاجر إلى الحرمين ولقي ما شاء الله من الأنكاد والمتاعب والمخـاوف حتى وصل بإذن الله وكان حميد الخصال حسن الخلق حليما صـفوحا ، أخبرني بعض الثقات أن الركب* الذين كانوا معه في السفر عطشوا ذات يوم وهم في مفازة ولم يزل بهم السير حتى أووا إلي بير قد علا التراب ماؤه ولم يدروا ماذا يفعلون فدخل فيه محمد أحمد وجعل يدبر الحيل حتى استقى أصحابه وأخذوا حاجتهم من الماء فخرج فأصابه من برودة البيـر داء تعطلت به أصابعه عن الحركة فكلما نظر إلى أصابعه قال الحمد لله الذي أذهب يدي في سبيل الله ، وأخبرني بعض أشياخنا الـذين حجـوا وزاروا عن رجل من أكْبَيْتَنْ صاحب هذا الرجل في تلك السفرة وكـان معه في المدينة عن هذا الشيخ المترجم أنه فعل فعلا في المسجد النبـوي ينكره الجندي الذي يحرسه فقام إليه فلطمه فأنفجر أنفه دما فصاح عليـه الناس وبلغ خبره إلى والي المدينة وذلك في أيام الشريف الحـسين قبـل الدولة السعودية فلما قام بين يدي الوالي وثبت حقه على اللأطم قال لـه الوالي اقتص منه فقال له لا والله هو في حل مما صنع جزاه الله عنـي خيرا فإنه داواني في نزلة دامت بي أياما ومنعتني عن اسـتعمال المـاء وتمكين وجهي من السجود فلما لطمني ذلك الرجل ورعفـت اسـترحت وتمكنت من أمور كنت فيما مضى عاجزا عنها فلا أجزيه عن إحـسانه باللطم فتعجب الناس من ذلك ومضى لسبيله ولم يزل هناك حتى مات ولم يتـــــرك ولــــدا

***

أمـــــا ابنـــــه الـــــشفيع :

فهو سيد قومه حين أدركته وقد تواتر عنه أنه كريم سخي حين يغضي حيار ويغضي من مهابته ولا يكلم إلا حين يتسم ، وأما الجود فهو شعاره الذي لا ينفك عنه والحلم أثاره تعب وأتعب في الصلاح والإصلاح بين الناس ولم أقف له على أثر علمي أثبته وأما الثناء عليه بمكارم الأخلاق فلم تزل أفواه عارفيه رطبة به وله أولاد بارك الله فيهم على نهجه ونهج أسلافه مات .

***

ترجمة محمد الأمين بن الثابت :

هو ابن عم سميه محمد الأمين القاضي وكان ممن يباريه في التعلم والتعليم في سائر الفنون وله منظومات مفيدة منها " نظمه لقواعد من الفقه " تشبه قواعد النحو التي نظمها سميه وقد انتفع الناس بها في عصره وبعده وهي عندي ولولا خشية التطويل لجلبتها ، ولم يتول منصب القضاء ولم أطلع على منثور ينسب إليه وقد أدركت من الأسلاف من يثبت له المشاركة في الفنون ، ولم أقف على تاريخ وفاته بل على أنه من حملة العلم في بلده أوخر القرن الثالث عشر ولم يعقب .

***

ترجمة آتَّ بن تقيّ واسمه محمد أحمد :

هو ابن أخي محمد الأمين المذكور وكان من الصالحين أدركته ولم ألقه وسمعت عنه من الأدب والصلاح والعمل بعلمه والتمسك بسنة سلفه الصالحين وقد أفضت له نوبة الإفتاء في أواخر القرن الرابع عشر ولم أزل أسمع من الناس الثناء عليه بالعدل في فتاويه وعدم التعزازات التي يعملها كثير من المفتين مات عام ألف وثلا مائة ونيف وثمانين . وترك أولادا يرجى أن يقوم بعضهم مقامه .

***

ترجمة موسى بن الكسائي :

هو العالم الشاعر والشاعر العالم الأديب النحوي الفقيه كان مع ابن عمه آتَّ مدة انتصابه للإفتاء تارة يسأل عن المسائل وتارة يسأل عنها آتَّ ويتفقان في الانفاذ على نحو ما ينفذ أسلافهم من إتباع مشهور المذهب ، وكان من تلاميذ الشيخ حماد الذين أنشدوا القصائد في التسليم له والتعلق بذيله وأجابه الشيخ بقصيدة أخرى على بحرها ورويها وقصيدة موسى هي هذه :

يا مشرقا غمت مآثره الورى ... يا كوكبا جلى الدجى لما جرى
يا منهلا يروي بعذب زلاله ... من أمَّه صديا ، فذا أهنى القِرى
يا غوث يا غيثما يعم غياثه ... ويخص أهل الصدق من كل القرى
أنت الندى وأين الندى وأخو الندى ... أنت المجلي غياهبا عمن سرى
إني بصدق وقد أنخت مطيتي ... برحيب دارك فاقبلن وبشرا
أشكوا إليك فأشكني ما نابني ... دهرا طويلا معسرا أو مؤسرا
إني بنفسي واللعين وبنته ... ثم الهوى ، أبلى فذد واستنفرا

واحلل وثاقي وأرق بي مراقي العلى ... وأطلب خلاصي وأطرأن عني الكرى
واغسل بعين معين بحرك باطني ... فبذا أنال غدا نصيبا أوفرا
ويصير كالمرآة قلبي صافيا ... فبعود يبصر من أمام ومن ورا
حتى توصلني إليه مهنئا ... فهنا لنتهى قصدي فقل لي أبشرا
ثم الصلاة على المكين المصطفى ... السيد السند الصفي خير الورى
والأل والأصحاب ما أهدى امرؤ ... نظما إلى شيخ فدل وأبصرا
وأما جواب شيخه له هو :
يا صادقا في سيره ومشمرا ... أبشر بما تهواه من رب الورى
واترك هوى الدنيا المجرب نتنها ... وانبذ لألئها النفيسة من ورا
وانهض بجد والحقن بمن سرى ... لإرادة المولى خلاف من افترى
وأهجر من الخلق المخوف ضراره ... فالخير منه بالتواتر ، لا يرى
والذكر فاغنمه اغتنام مبادر ... أمر الإله وقللن من الكرى
والناصح اتخذه غير مبايع ... غير الشيوخ الناظرين لمن عرى
وارفض من انتقدوا أو خل سبيلهم ... واحبس لسانك أن يطيع من اجترا
والزم مرادك واقبلن مقاله ... واعلم بأن الصيد في جوف الفرى
واقتل غلام الكبر قبل بلوغه ... كي لا يصول على الفؤاد فيخسرا
ولتبعدن عمل الرياء بأسره ... وامنع أمير العجب أن يتدبرا
وابذر عظيم الخلق في وسط الحشا ... والغمر يمنعه الثنئ أن يبذرا
ولتفرحن بالفوز من فوق السما ... ولتمرحن بالنوم من بعد السرى
ولتمرحن بالصبح وقت طلوعه ... من بعد ليل الهم جسمك قد برى
ولتفرحن بالحل بعد إفاضة ... والحلق بعدي ءوب موجدة القرى
تفري به كل المهامه قاصدا ... بغدوها ورواحها ، أم القرى
ولتفرحن بمزار سيد من مشى ... في الناس من بين الثريا والثرى

ولتمرحن بجوار روحك روحنا ... والنبذ للنفس السقيمة بالعرا
حتى تزيد نبها وشنيعها ... حتى تثوب بالاعتذار فتعذرا
واهتف لنخلك إن تطاف فـ...قها ... قد كان محمر القشور وأثمرا
ولتجن تمرتها فعصرك ذاهب ... والموت يوجب قربه أن يذكرا
وكل الثمار مهنئا ومبجلا ... ومعظما ومنعما ومخيرا

واشرب وخل الغر يجنح في الدجى ... وأحمد لما شفى الجنان وما برا
هذا قراي لمن أتى متبرئا ... من سوءيبعته فيا نعم القرى
هذا قراي لمن أتانا موقرا ... ومعظما ومبجلا ومشمرا
متذللا متمكنا في صدقه ... متلاشيا مستنصرا مستمطرا
ثم الصلاة مع السلام على الذي ... ينسي الكباء نسمها والعنبرا
المصطفى خير الورى نجم الهدى ... ليث القوغى بحر الندى رحب الذرى
والآل والأصحاب ما لبى الفتى ... من جاءه بنظامه أو بشرا
بل ما أتيح فلاح من أهدى الثنا ... يبغي تلاشي جرحه أن يهدرا

***

ترجمة الشيخ خَنَّ بن أمَّنَّالْ :

هو القطب الأعظم ، والملاز الأفخم ، مربي السالكين ، ومرقي الواصلين ، وعبرة من اعتبر ومرآة أهل القرن الثالث عشر ، نزهت الناظر ، ودليل المختار ، محمد بن محمد المختار من كفيت مؤنة الخبط فيما له من الأوصاف ، بما كتبه عنه ذوو الإنصاف من المعاصرين له من الأعلام ، ومن بعدهم من أهل الأقلام فممن وصفه ممن تغني شهادة غيره الشيخ سيد محمد ابن الشيخ المختار في نظمه ونثره ومما كتبه في حقه ما لفظه :

(من عبد ربه الغفور الستار ، المتعرف بالعجز وكثرة الأوزار ، الفقير محمد بن المختار – وهو الشيخ الكبير الكنتي – إلى يتيمة أعصار الفضولات ، وحضين أطئار المعقولات والمنقولات المحدث النجم العامل في الترجيح والتعديلات محمد بن نجم الأنوار وطلائع الأسرار ، وآية الليل وآية النهار ، خيرة الأخيار محمد المختار ، سلام عليكم ورحمة الله

وبركاته ما تواصلت بالفلك أبراجه ، واتصلت حركاته ، سلام محب صادق الحب في فالق النوى والحب ، حبا فأد أفئدتنا المفؤدة ، وكبد أكبادنا المكبودة ، ورسخ في منابت غراس مغارس الباب صدور أسرارنا ، وشمخ إلى عِنان جوّ فضاء سماء هممنا ، وأنوارنا حيث لا طائف يلم ، ولا خاطف ينم ، ولا رقيب يشوش ، ولا نقيب يفتش ، ولا كاتب يكتب ، ولا قاطب يقطب ، سوى ضمائر عامرة بالوداد ، غامرة من شوائب الطرد والإبعاد ، حالية بالإعلاق الاقتراب ، خالية من علائق البين والاغتراب .

أما بعد : حمد الله الذي لا إله إلا هو إليك فقد بلغنا كتابك العزيز لدينا ففهمنا من تصريحه وتعريضه ، وهمنا بنثره وقريضه ، فإذا أنت تذكر في نشره ، طي ما انطوى عليه كتابنا في نثره فأوجزت غاية الإيجاز ، وركبت لما يشير إليه إعجاز الإعجاز ، أما ما أوميت إليه من تزكية أنفسنا ، والثناء على جوهرنا في أبناء جنسنا ، في معرض رد الظنون وإرادة التبرأ من عرضه الموهوم والمظنون ، فأمر معموله به قديما وحديثا ، وعلى مثله حث السلف الصالح حثيثا ، ألا ترى أن يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام لما آنس من العزيز عزيز مضر وقومه الاستخفاف بشأنه وعدم الاحتفال بأمره ، قال لصاحبيه في السجن بعد ما أفتاهما فيما رأيا { لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي } ثم عدد مزاياه الخصوصية على وجه الاعتراف بالنعم والشكر للمنعم ، فقال { ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون } قال ابن قتيبة فيه إشارة إلى أن تعداد المزايا اعترافا وشكرا مزية وفضيلة وسنة جليلة ، وكذلك حيث انتقص المرء وغمص من حقه ، أو دعت حاجة إلى تعريف نفسه ومزيته ومنه قوله تعالى { اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم } راعى في ذلك مصلحة العدل في البلاد ووضع الميزان بالقسط بين العباد فأظهر من شأنه ما بلي فصح ، ووزن فرجح ، ومن تدبر آي الكتاب ، وتصفح سير النبي – صلى الله عليه وسلم – والأصحاب ، أدرك وجوه ذلك بالاستقراء ، وظهر له براة مثلنا من مثل هذا الإزراء ، وما أنتم معترفون لنا به من الفضل يضاعفه ما نحن لكم به معترفون ، ومن بحر جواهر أصدافه الغر مغترفون) .

هذا ما يتعلق بالشيخ حَنَّ من منثوره ، ثم أتبعه بمنثور ومنظوم في حق الشيخ سلّهُ كتبتهما في الكلام عليه ، ثم ختم المحاورة بقصيدة خاطب بها حَنَّ وهي :

صدت فصادت من حشاك قرونا ... قرنت بقرن من شجاك قرينا

وعدت بما وعدت على جلد الفتى ... نبئت عهد الغانيات مخونا
يبسمن إذ يبسمن صلا كاشرا ... ويصلن يوترن السهام جفونا
فإذا لحظنك أو لفظن فنفثة ... من سحر بابل تستبي المجنونا
يروين من شهد الرضاب بسلسلا ... عن مبسم يرويه عن دارينا
ويرعن ... المستهام بفاحم ... سقيت مفارقه الشذا مفنونا
وسطت عليك بقائم من قدها ... وغدت فغاد درت الفؤاد رهينا
ونوت بقلبك رحلة فترحلت ... أترى يفيدك أن تحن حنينا
كلا ، ومن سدل القرون سلاسلا ... قرنا لمن يهوى الحسان وهونا
ورمى عن أقواس الجفون بأسهم ... تدعى حواجب ، للهوى ، وعيونا
ما للحب على الصدود جلادة ... وشكاته زلفى ، تعد ، ودينا
لا ثقل أثقل من رقيب حاضر ... حضر الوصال فراقب المفتونا
فينم من أخباره مكتومها ... ويبث من أسراره المكنونا
ما كان أطيب أزمنا موصولة ... بالوصل من سعدى وقد تدنينا
لعهودها ، عيس عوامل ضمر ... دونّ وسع الفيح ، ما ، تدوينا
يُدنين من أضحى على إيراجها ... نحفا وتشفي من شجاه فنونا
وتظل تفلي عارض الفلوات من ... عرضٍ وطول باللقا تغرينا
ولئن تقدمها بشير طائر ... فالطل يسبق وابلا وهتونا
فخذ الجواب إليك حَنَّ فإنه ... بعد السلام برحمة مقرونا
وبمنة وكرامة وتعطف ... وقفا عليك يجدد التأمينا
ما كان يُقدر للوشاة ومن سعى ... صرمٌ لحبل لا يزال متينا
من كان في الحق العزيز وداده ... هيهات يضعف وده ويلينا
والود يثمر والعتاب لقاحه ... زوجان حيث الود حيث يكونا
ما كان عن حدث الزمان عتابنا ... كلا ولا ثقة بما يأتينا
لكن ليظهر سر ما امتلأت به ... أحناءنا من ودكم ويبينا
ويرى الوشاة وكل من أحناءه ... حنيت على دغل ومن يشنونا
ما كان يخفى عنه من ود ومن ... قرب ومن صلة غدت تزيينا
فالتبر تخبره بحك محكه ... بعد الصلاء ذؤابة ووزينا

فإذا استبين صفاؤه ورواجه ... كان الثمين وغيره المثمونا
ما كنتم ، لا زلتم ، إلا الحيا ... دفعات حبكم لنا تحيينا

لولا المحبة ثابت من أصلها ... وفروعها في الجو ، لم تجدونا
نولي المحبة فيكم ونودكم ... ونود فيكم كالمودة فينا
أتقول تان النسختان أهاجنا ... ممن أقام على الوداد شجونا
من بعد ما حوتا صريحا لائحا ... من كل تبرية ولو تضمينا
وجهُ الخطاب إليكم ومرادنا ... من كان ذا أحن ومن يقلينا
كيف القبول من الوشاة وقد أتى ... تفسيقهم في محكم تبيينا
بل حاصل المكتوب منا أولا ... عذر وعتبى لا جفا وظنونا
والغمص والتأبين شكلها معا ... شكل عقيم ينتج التخمينا
ما مثلكم قال الخنا أو جاءه ... التبر أنتم رائحا ورزينا
ما ضركم إخواننا ، إن كنتم ... ممن يرى بذل النصيحة دينا
بل كان فيه لعزكم وكمالكم ... حصن يحصن مجدكم ويصونا
فالنصح سنة أحمد الهادي كما ... قال ، النصيحة ، حيث حد الدينا
لا زلتم شمسا تضئ على الورى ... ومعالما ، ومكانكم مأمونا
وأهلة يدري بها الميقات من ... حج المكارم حقبة وسنينا
وعلى الرسول محمد أزكى الورى ... أزكى صلاة تصحب التأمينا

وممن شهد بفضله من معاصريه الكبار الشيخ محمد بن الهادي بن حَبْتَارَ الذي وصفه بعض العلماء بأنه المجدد في أواخر القرن الثالث عشر فإنه قلما ذكره إلا بأن يقول : قدوتنا ووسيلتنا إلى الله تعالى العالم الرباني محمد حَنَّ . ومنهم تلميذه الذي صار شيخا لمن بعده من أهل بلده في الورد القادري وهو مُحمد بضم الميم المعروف بحَامَّ بن مَحمد بفتح الميم ابن سيدي بو بكر جدّ أهل تَبُورَقْ فإنه ممن يعتقد فيه الكمالات التي تمكن لغير النبي والملك وقد رأيت له قصيدة يشدد فيها النكير على إخوان له ارتحلوا من الساحل الشرقي الذي فيه الشيخ حَنَّ إلى أرَبَنْدَ فرأى أن صنيعهم ذلك بمنزلة الخروج عن الإمام فأرسل إليهم تلك القصيدة ناصحا ومعاتبا وأثبت فيها لشيخه مقام القطبانية وأن ببركته تجلب إلى أهل وطنه الخيور ، وتدفع عنهم الشرور وأول القصيدة :

ألا لا تروا ماذاكم الرأي هجزة ... إلى موطن يأباه أسلافنا الكيسى
وفيهـ :
علـى م بناؤكم إذا ما أويتم ... إليه وخليتم وراءكم الأسا
على م تدور ، إن نأت بكم النوى ... رحاكم وقطبها هنا ، راسيا أمسى
به يستقيم المهيمن أمركم ... به الدفع عنكم لا سلاحا ولا ترسا
به المنديات تنزوي عن جنابكم ... به نفحات الله تغشاكم حسا
وما عني بـ" الأسي " والقطب " إلا شيخه حَنَّ رضي الله عنه ، وهو مرجع الضمير في " به " و " به " والمقصود بالثناء في بقية القصيدة كلها .

ومنها أحمد بن محمد بن ونسطفن عم العلامة الشهير محمد بن دانيا فقد رأيت قصيدة مكتوبا في أولها هكذا : أنشد أحمد بن محمد بن وِنْسَطَّفَنْ شاكيا إلى شيخه التقي النقي• الورع الصالح المحب في الله غاية المحبة ذلك حَنَّ بن أمَّتَّال سوء الكسب ومشفقا على نفسه أن لا يصدر من الشيخ بأسوء الحالين الجلب والسلب هذه الكلمة :
ليت شعري والعلم لله ربي ... هل لي الجلب منك أم حال سلب
ليت شعري هل يستفيق مليم ... بعد تحلية العذار بشيب
أو يرى بعد سن ستين عاما ... قابل النصح والهدى من مرب
فعلاج الكهول خلت عويص ... في اقتياد ورعي حالي وقلبي
إنني بك سمتغيث على ما ... كان مني من اكتساب وكسب
الوحاء الوحاء إني صريع ... للهوى والحطام جنبا لجنب
لا أراني أفيق من غمرة الغيـ ... ـي إذا لم أحل عامي شيخ جذب
همة الشيخ لا تعاظمها الأغـ ... ـيار من كل ذي سفاه وحوب
ربنا استر عيوبنا بكمال الـ ... ـدين واختم لنا بخوف وحب
ولما وردت على الشيخ أجابه بقصيدة على بحرها وريها يثبت فيها أولا أنه من الكاملين المكملين وممن حاز مقام الغوثانية ، ثم رجع إلى التواضع وهضم النفس وهي هذه :
ثق بنيل المنى بألطاف ربي ... ولطيف الحنو منا وجلب
ولتطب خلدا بقرة عين ... بعد تحلية العذار بشيب
بتخل من الهدى وتخل ... من غيون القلوب أو رين حجب
فلتطالع خلال قلب ونصح ... طالع الحب من طلائع لب

وانتجع لغيوث صوب شـهود ... وأرو مـن صـرفه لـسمع وقلـب
فيربي القوي ذو الحلول حـولي ... بعـلاج الكهـول أو كـل صـعب
قلت لبيك يـا مريـد مـراد ... أنـت فـي حظـوة الكـرام المحـب
سوف أسقيك من كؤس غرامي ... مترعا مـن رحيـق أنـس وحـب
إنني لك حائط حوط غـوث ... لا تـرع مـن خيـال كـسب وذنـب
بسوف انتاش منكم كل عـان ... وصـريع الهـوى بجمعـي وجـذبي
أو يفيق الجميع من غمرة الغيـ ... ـي لنور الهدى ومنـشور قـرب
واحـــــــاكم بمقعـــــــــد صـــــــــدق
... عنـــــد بـــــر مهـــــيمن خيـــــر رب
ذاك إن شاء ربنـا هـو حـسبي ... ولنـا منـه مأمـل غيـر خـب
ذاك ما كنت قد شهدت سناه ... في تخوم الغيـوب فـي غيـب غيـب
ولنا نسبة به من حبيب اللـ ... ـه صـفوة كـل عجـم وعـرب
وردت واردات حـي بتحديـ ... ـث بـذلك شـكر نعمـة ربـي
فله الحمد ربنا كـل حـين ... وميكـان حـ..ـى وملـح وعـذب
ذاك من شاء فليصدق هو الحـ... ـق ومن لم يـشا فـصاحب ريـب
حقق الله ظننا فيه وهو الـ ... ـمستعان المعـين كاشـف كـرب
يا أخي يا أخي قد أحـسنت ظنـا ... يـا أخـي بكـل عيـب وربـي
خلت أورامـه بإحسان ظـن ... سـمنا وهـو ذو الـونى والتـأبي
ظالمـا سـنة الرسـول بجمـع ... لحطـام الـدنى كفعـل المكـب
آمـرا باسـتقامة وهـو لاه ... فحقيـق لـه الحنـو بـرأب
ودعاء لـه بتـوب نـصوح ... رافـع مـا جنـاه مـن كـل حـوب
كيـف حليتـه بحليـة شـيخ ... غيـر أو لـه بلـوم وعتـب
فجـزاك الإلـه محـسن ظـن ... خيـره وأدام سـتري ورعبـي
من لنا بالشيوخ إنـي لمثلـي ... مـسمع بهـم ولـو طيـف سـرب
قد خلو والزمان منهم خلـى ... ليـت لـي مـسمعا بهـم ذاك نحبـي
ليت لي مجمعـا بهـم فيلمـوا ... شـعثي أو يـزاح غمـي وخطبـي
ليت لي مشهدا بهم فيرصوا ... ما وهـي مـن ديـانتي وشـك رئـب
ليت لـي نظـرة بمـن قـد رآهـم ... فيـنم بـذكرهم روح صـب
ليت لي نفحـة بنـشر شـذاهم ... فيـراح المفـؤاد مـن روح طـب
رب فاجمع بهم شتاتي وشملي ... فيك وارأب بهـم ثئـي كـل حـب
وعلى الخاتم الرسول صلاة اللـ ... ـه والآل أجمعين وصحب

وممن شهد بسبقه بعد أهل عصره الشيخ المحمود بن الشيخ حماد من أهل تَبُورَقْ فإنه عقد ترجمة يقول فيها : (وأما حَنَّ بن أمَتَّال فهو الأنصاري اليعقوبي صاحب الفتوحات الوهبية ، والفيوضات الغيبية ، الجامع بين الشريعة والحقيقة ، والهادي إلى أقوم مناهج الطريقة ، وقد اتفق المعتبرون في أهل بلده من أهل عصره ومن بعدهم على تزكيته وحسن الثناء عليه حتى أن منهم من أثبتوا له الغوثانية بعد ما اعترف هو بها لنفسه كما ستسمعه في قصيدته البائية) مر إلى أن قال : (وكان رضي الله عنه غرة زمانه ، ونخبة أقرانه ، وللأخذ عنه تأثير لائح على أتباعه وأخذ أنه فلا يعدم الصادق منه فتحه ، ولا يخلو من أيصادف نفحه) إهـ .

وأما الأخذون عنه على التعيين فلم أعرف منه إلا هؤلاء الثلاثة المعترفين بالاستمداد منه وهم : أحمد بن محمد ، ومُحمد بن مَحمد ، ومَحمد بن الهادي ، ومُحمد بن دانيال .

وأشياخه في العلم الشرعي لا أعرف منهم إلا عمه سلَهُ وأخاه حَمَّلاَلّ بن أمَتَّالْ ، وفي الورد القادري الذي صار إماما فيه يلقنه الكبار الشيخ المختار بن أحمد الكنتي تلاقيا ولم يرحل إليه وأما آثاره العلمية : فوقفت منها على البائية المذكورة وعلى تأليف يرد به على بعض الناجمين في عصره ممن يوجب خلع طاعة السلاطين إذا لم يكونوا قائمين بالسنة ويرى أن من لم يحارب سلاطين إولمّدِنْ فهو كافر حلال الدم والمال ، فكتب إليه الشيخ حَنَّ كتابا يذكر فيه كثيرا من الأحاديث الواردة في حرمة أهل لا إله إلا الله وحرمة خلع السلاطين إلا أن يرى منهم الكفر البواح ، وأطال في ذلك وأجاد ، ورأيت نسخة من ذلك الكتاب في صغري بيد بعض الإخوان ثم رأيته وقد ضاع جله ولم أر له نسخة أخرى ، وقد رأيت مسائل يعتمد فيها على قوله وأسند إليه الشيخ الخضر حزبا فيه دعوات يرجى قبولها ولفظ ما كتبه هكذا :

(ومما نفث به لسانه الفصيح ، وجاش به صدره المشروح الفسيح ، حزبه المسمى الحياة وهو هذ : (بسم الله الرحمن الرحيم ثلاث عشرة مرة ، وبه الحول والقوة ، رب سهل ويسر ولا تعسر علينا يا مسير كل عسير ، أب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ فق كل من هو لا ي ، لا إله إلا الله محمد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – اللهم صل على درة الكون بهائه ، وشمسه وضيائه ، وسلم عليه وعلى

آله أتم صلاة وتسليم وأعم تحية وتكريم ، إنك على كل شيء قدير ، بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العلمين الرحمن الرحيم ملك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . الحمد لله الذي هدانا لهذه وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . لقد جاءت رسل ربنا بالحق . الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور . الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب . نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين محمد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – . هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم . ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ي . يا نعم المولى ويا نعم النصير . يا رب اغفر وأرحم بسم الله فوقي بسم الله خلفي بسم الله أمامي بسم الله اكتنفت وفي حرره الحصين دخلت وبحصنه احتجبت وبأسمائه الحسنى تسربلت وبسر أنوار اسمه الجميل ترديت وبقوة أمداد اسمه القوي القهار قهرت وغلبت أعداي من الجن والإنس وسائر المخلوقين واحتجبت وقهرت وبجلال بهاء ... اسمه الأعظم الأكبر الحي القيوم ذي الجلال والإكرام تدرعت ، وببوارق أنوار أسرار كلامه العظيم احتجبت وتمسكت ، وبخفي لطفه الحسن الجميل تعلقت ، وبركنه القوي التجأت

وأستندت ، سبحانه وبحمده ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، فتاح عليم باسط معز جواد كريم علي رحمن عظيم ، يافتاح يا عليم مائة وعشرين ، يا باسط يا معز يا جواد يا كريم يا علي يا عظيم يا الله يا رحمن يا رحيم يا حي يا قيوم ثلاثا ، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، اللهم يا منور يا فتاح نور قلبي بنور معرفتك كما ينبغي أن تعرف به واقذف بحقك على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق واشرح لي صدري ويسر لي أمري واجعل لي من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا . اللهم ثبت قلبي على دينك وملة رسولك اللهم ثبتنا على طاعتك واختم لنا بأعلى مراتب الإيمان يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام . اللهم صل على محمد – صلى الله عليه وسلم – كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون اللهم إني أقدم إليك بين يدي كل نفس ولمحة

وطرفة يطرف بها أهل السموات وأهل الأرض وكل شيء هو في علمك كائن أو قد كان وملئي ذلك كله . الله لا إله إلا هو الحي القيوم إلى آخر الآية . أقسمت عليك ببسط يدك وكرم وجهك ونور عينك وكمال عنايتك أن تعطينا خير ما نفذت به مشيئتك وتعلقت به قدرتك وأحاط به علمك واكفنا شر ما هو ضد ذلك واكمل ديننا وأتمم علينا نعمتك وهب لنا حكمتك البالغة مع الحيوة الطيبة والموتة الحسنة وتول قبض أرواحنا بيدك وحل بيننا وبين غيرك في البرزخ وما بعده وما قبله بنور ذاتك وعظيم قدرتك وجميل فضلك إنك على كل شيء قدير يا رب العلمين سبعا . يا أرحم الراحمين سبعا . الأخلاص والمعوذتين . اللهم صل على سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – وعلى آله ولا تحل بيننا وبين الرحمة والأمان يا حنان يا منان وسلم على المرسلين والحمد لله رب العلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) انتهى .

وأما كراماته فلا تزال تحكى من منذ عصره إلى الآن وبعضها أغرب من بعض ومنها : أن بعض الجبابرة من إولمّدنْ في وقته كان لا تناله الأحكام ولا يستمع الزواجر والمواعظ ربما نهاه الشيخ عن بعض أفعاله لا ينتهي فيعجل إليه من العقوبة ما ينفك بسببه عن الفعل الذي نهاه عنه ، وربما أغلظ عليه الشيخ في القول فيغضب فيحول الله بينه وبين الانتقام منه ، وله مكاشفات في أسرار العلوم واستنباطات على نحو ما يفعله كبار الصوفية من ذلك أنه سمع العلماء يبحثون في نازلة تتعلق بالطلاق فقال إن ذلك الرجل غير طالق وفي فاتحة الكتاب دليل ذلك سبع مرات فقال له بعض الحاضرين ممن يباسطه خل عنا هذا الكلام وانقل لنا في التبصرة لابن فرحون التي لم تزل تلازمها حتى أذهبت بصرك . وربما يحكى عنه من الغيبة عن الحس والاستغراق في الفكرة ما يتعجب منه .

ومن مكاشفاته المنتشرة ما وقع منه وقت احتضاره ، وهو أنه لما أحس ببادىء الموت قال للناس استحضروا الخضر وهو ابن محمد إكّنَنْ ويعرف باسم حَدِي وهو عم ابن عم جي الأدنى ، فقال الناس له إنه بعيد فقال أرسلوا إليه وإن كان بعيدا وألح عليهم في ذلك . فقالوا لبعض الحاضرين اذهب وغب عنا وإذا سألنا عن الرجل الذي يلح علينا في

أمره أخبرناه بأنك ذهبت في طلبه فذهب الرجل موهما أنه يطلب الشيخ الخضر ثم اختبس في بيت من بيوت الحي بعيد عن المجلس الذي ذهب منه ، ثم بعد مدة أفاق الشيخ المحتضر من بعض السكرات فقال للناس ألم أقل لكم استحضروا الخضر فقالوا له قد ذهب فلان في طلبه فقال لهم إن فلانا لم يطلبه بل هو في بيت فلانة يطمع في شيء من الطعام يراه عندها ، فلما علموا بأنه كوشف بحالة الرسول وخافوا أنهم إن كتموا عنه حقيقة الأمر انكشفت له أرسلوا رسولا آخر يطلب الشيخ الخضر فلقيه عن قريب وأخبره الخبر فأتي معه ولما حضر وكان الشيخ المحتضر محجوبا عن الحاضرين ناداه يا خضر أدخل فإن الغاسل لا يبعد عن مغسوله فدخل ثم أتاه اليقين رحمة الله عليهما .

***

وأما محمد الأمين المعروف باسم حَمَّلالَ : فبلغني أنه من أشياخ أخيه حَنَّ وأنه من كبار العلماء والأولياء ، ولم أر من أثره إلا أبياتا نحو عشرة يقرظ بها تأليف الشيخ حَنَّ الذي ألفه في الرد على الطاعنين من الفلان أتباع الحاج عمر ، ولم تكن الأبيات عندي وقت الكتابة وإذا ظفرت بها ألحقتها هنا إن شاء الله .

***

ترجمة البحري بن مَحمد بن حَنَّ :

بلغني أنه من حملة القرآن وأنه نحوي صرفي بياني منطقي فقيه يدرس في جميع الفنون يفتي بمشهور مذهب مالك ويتقن مختصر خليل وشرحه لعبد الباقي ويقدم ما أدرك من عمل أشياخه على كثير مما يقوله أهل الحواشي الجديدة وله في ذلك وقائع مع من يريد العمل بكل ما يجده في الكتب من غير تقيد بعمل الأشياخ ولا بحث عن المشهور ، وسمعت عنه أنه على سنة سلفه من تعظيم الشرفاء وأنه كثيرا ما أوصى الناس بذلك ، وسمعت عنه من تعظيم أهل بيتنا ورعاية حرمتهم لما حازوه من النسب الشريف وتسليم الأعلمية لهم كثيرا من ذلك أنه ساء التفاهم بينه وبين بعضهم في بعض الأوقات فانتصر له بعض الأجانب وأساء الأدب في حق الشيخ محمود بن محمد الصالح ثم سار إليه متوسلا ومتقربا بذلك الجفاء الذي صدر منه إلى الشيخ وقال له يا شيخ قد منعت محمود بن محمد الصالح أن ينزل عندي فصاح عليه الشيخ البحري وهم بضربه وقال له إذهب عني لا تقربني بعد ما طردت شريفا عالما لا بارك الله

فيـــك .
وحدثني عنه بعض تلاميذه أنه جاءه رجل آخر ممن يزعم أنه يتعصب له فقال له قد لقيت بعض علماء أهل تَكَلَّتْ وهو ســعد الــدين بــن عمــر فناظرته فأفحمته فقال له البحري قد أتيتني ببهتان عظيم إن ابن عُمار أنا الذي أعرفه شابا وكهلا وقد أعجز من هم فوقك صغيرا فكيف تفحمه بعد الكهولة أسكت عني فإنك كذاب فخجل وصار ضـحكة فـي المجلـس ، وبلغني عنه أيضا أنه أتاه خصمان فتلكم أحدهما ولما اقتضت النوبة إلى الآخر أخرج من جيبه قرطاسا وقال له حجتي مكتوبة في هذا القرطــاس فلما نظر إليه البحري قال له أليس هذا الخط لسعد الدين بن عُمار فقال له بلى فقال لم تأتون بعد أن حكم بينكم وأظهر الإنكار على الخصم الذي لم يقتنع بحكمه قال له اعلم أن ذلك الرجل لا يتعقب حكمه في مسجدنا ولــم يقع بيننا وبين أهل بيته خلاف في حكم شرعي قط وقد زكيناه قديما فــي صغر سنه فلا تعد تطلب الحق في خلاف قوله فإنه المحق ومن أهل بيته يأتي الحق .

ويحكى عنه من تعظيم أهل العلم كثير ، وقد جرى بينــه وبــين بعــض إخوانه من العلماء شيء مما يجري بين العلماء من التنافس حتى ســاءت التفاهم بين فريقه وغيرهم فهم بعض المتعصبين لفريقه بمنابذة الفريــق الأخر والإساءة إليهم ما استطاعوا ، فلمــا علــم بــذلك قــال لأولئــك المتعصبين العلماء إذا أهينوا في بلد نزعت بركته فعليكم بتعظــيم أهــل العلم واحترامهم والإحسان إليهم فإذا جاءكم بعــض العلمــاء الــذين لا توافقوهم فبالغوا في إكرام نزلهم وإحسان قراهم وما يتعلق بــإنزالهم ولا تحادثوهم ولا تجالسوهم . ولو لم تكن له فضيلة غير هذه النصيحة لكفى بهــا دلــيلا علــى نــصحه لأهــل الإســلام .
أما مقامه في العلم وسبقه في الفنون فقد شهد به من يعرفه وقد عاصرته ولم تقدر ملاقاتي له ولكن الشيخ الوالد يخبرني عنه كثيــرا ويوصــيني بتعظيمه واحترامه وقد شهدته في مرض وفاته هو في غايــة الــشدة إذ جاءه من أخبره بموت البحري فبلغ منه ذلك مبلغا كاد أن ينسيه ما هــو فيه فجعل يستغفر له ويدعو ويأمرنا بالدعاء له حتى طال ذلك .

وأما شيخنا الخضر بن حماد رضي الله عنه فقد ذكره من المقتدى بهم وممن يهتدي بهديهم جامعا له مه والده ومع الشيخ بَايْ ومع الشيخ الكبير وغيرهم من أيمة البلد ، فقال في رسالته التي يرد بها على المبتدعة الذين يدعون رأية الله تعالى في الدنيا مالفظه : (والعجب كل العجب أنهم يطمعون في استقالتنا بأقوالهم المموهة ، ونحن أعلم بما تحتها من البواطن المشوهة وكيف لا وعندنا سماسرة العلم ، وبياطرة النثر والنظم ، ولنا التمكن في الهدم والوضع ، والتصرف في أساليب القدح والمنع ، وأيضا من تلامذة الشيخ حماد رضي الله عنه وأتبعه اللائح على كل منهم بهاؤه وشعاعه ، وتلامذة تلامذته الكبار وهم أعداء منشترون في جوانب الأمصار ، وكلهم أو جلهم عارف بصار ، وماهر نظار ، ومنا تلامذة الشيخ بَايْ حامل الرآية وابن حاملي الرأي ، وتلامذة البحري وموسى الكسائي وكلاهما في العلم ضريب الخليل والكسائي ، وتلامذة عيسى بن وَدَا ، وناهيك به خبرا معظما وبحر علم وندى ، ومنا أتباع الشيخ سَدِيدٍ صاحب الرأي الحازم والقول السديد ، وكل هؤلاء متشبث بطريقة لها أذكار وأوراد وأنوار ، ولأهلها أهوال ومقامات وأسرار ، ما منها جلي والخفى إلا وهو مستمد من أيمتهم الأكابر ، المخصوصين بغرائب المفاخر والمآثر ، وهم الشيخ حماد رضي الله عنه والشيخ حَنَّ بن أمَّتَّالْ والشيخان البجلان والتيجاني والمختار الكنتي ، والسيد الإمام عبد القادر الجيلي قدس الله أسرارهم وضاعف أجورهم وأنوارهم ، ومستمد الخمسة سيد الوجود وعلم الشهود سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وعلى آله وصحبه وسلم تسليما فهو الذي حباهم بالمواهب السنية ، وسقى كلا من كأسه بشربة روية هنية) انتهى المرادمنه ولم أر له أثرا علميا وأخبرني بعض علمائنا أنه رأى له شعرا أنشده في أيام شبابه ولم يقرأ علي شيئا منه ، وقد ورث الشيخ العلوم من أبيه وأعمامه ولكن لم أقف على شيء من آثارهم ، وبلغني أن كلا من أولاد

الشيخ حَنَّ عالم ولي وهم : محمد والد هذا المترجم ، ومحمد آتَّ ، وحذيفة ، ومسلم ، وكذلك أولادهم لم أر شيئا من آثارهم إلا ما كان من الشيخ حماد بن محمد . وتوفي البحري عام 1370هـ .

***

ترجمة الشيخ حماد بن محمد الأنصاري :

هو حماد بن مُحمد بضم الميم ابن مَحمد بفتحها ابن الشيخ حَنَّ ، ولد على

حسب ما رأيته بخطه عام ألف وثلاث مائة وأربعة وأربعين 1344هـ ومات والده وهو صغير فبقي في كفالة عمه الشيخ البحري وتلقى العلوم عن شيخ حيه ففاق كثيرا من أقرانه في النحو واللغة وعلم البيان وأصول الفقه ، وقرأ مختصر خليل ، وطالع كثيرا من شروحه وحواشيه ، وكان مولعا بحب العلم والعلماء ، ومن أحب العلوم إليه ما يتعلق بالحديث ورجاله ، وهاجر إلى الحرمين عام ألف وثلاث مائة وسبعة أو ثمانية وستين 1368هـ فمكث مدة في مكة ثم انتقل إلى الرياض برسم التدريس فأقام فيه مدة ثم تحول إلى المدينة المنورة وكان أستاذا في الجامعة الإسلامية بها بقسم الدراسات العليا ، وأخذ عنه كثيرون وأخذ عن كثيرن ، وصنف كثيرا من التصانيف فيما يتعلق بالحديث ورجاله ، وحدثني عن سبب هجرته من بلادنا إلى البلاذ المقدسة أنه كان يوما مع أصحابه وهو صغير السن مشغوف بتعلم كل شيء فرآه بعض كبار حيه وبين يديه صحيح البخاري فقال له ما معناه إنه ينكر عليه أن يذهب وقته في التفقه في الحديث لأن ذلك من وظيفة المجتهد ويرى ذلك الكبير أن حظ أهل بلادنا من الحديث التبرك بألفاظ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – دون التفقه فيه ، قال لي لما أغلظ علي ذلك الشيخ في الموضوع عزمت على مغادرة البلاد التي لا يقرؤ فيها الحديث إلا تبركا إلى بلاد يقرؤ فيها تعلما وتفقها فلما وصلت إلى البلاد المقدسة وجدت فيها بغيتي والحمد لله فأقمت واشتغلت بما تراني فيه الآن ، وهو جمع الكتب وأقرأها وتحقيقها والتصنيف فيما يرجع إلى الحديث ولم يزل في وظيفة التدريس في الجامعة حتى وصل إلى التقاعد ولكن لم

يفارق الجامعة يعرض عليه الناس مؤلفاتهم لنقدها وتصحيحها ويراجع بعض الكتب هناك يستعين بها في مؤلفاته . وأما جمعه لنفائس الكتب من سائر الفنون فمن العجائب أتيته مرة وهو بين الدواليب التي فيها كتبه فمشى بي بين الكتب يطلعني على أسمائها حتى قال لي إن تلك الدواليب التي تراها ولم نذهب إليها إنما جمعت فيها كتب المخالفين لنا من أهل الفرق كل فرقة من فرق المسلمين هناك مؤلفات علمائها ، فقلت له ما حاجتك في جمع أقوال المبتدعين ، قال لي إ نما أريد أن أطلع على كل قول منسوب لأحد من كلامه لا من كلام خصمه ، وأطلع على ما يزعم أنه دليله على ما قال ومن عجيب أمره في

محبة العلم أن العالم الأجنبي أحب إليه من القريب غير العالم ، أقمت في ضيافته مرات وشاهدت من ذلك غرائب ، وقد استفد منه كثيرا واستفاد مني كثيرا . ومما أفاده مني الإجازة في كتب الحديث والتفسير كما أخذتها عن الشيخ عيسى القاضي بن تحمد توفي عام ألف وأربع مائة وثمانية عشر 1418هـ بالمدينة المنورة رحمه الله رحمة واسعة . وممن لم أذكرهم من آل محمد البشير أكثر ممن ذكرت لكني لم أر لكثير ممن سمعت أخبارهم آثارا أعتمد عليه ولا تلامذة أستفيد منهم حقيقة أخبارهم فأمسكت عن الخوض في ذكرهم اتباعا لتحسين الظن ، وبعضهم لم أسمع عنه شيئا إلا على وجه الإجمال ، فقد اتفقت الكلمة على احتواء ذلك الحي على جلة العلماء والأولياء من عصر سَلّهُ إلى أيام البحري وموسى وآتَّ ومدة ذلك تزيد على قرنين والحمد لله رب العلمين .

***

وأما غير آل محمد البشير من بنيّ محمد بن يوسف فلم آخذ عن الشيخ الوالد كثيرا من أخبارهم كما أخذت عنه أخبار آل محمد بن البشير الذين قلما يسكت عن حديثهم وكان قبل وجوده مخالطا لهم ومجاورا فحدثني ببعض ما شاهده من معاصريه وما حدثه أسلافه عن أسلافهم ، وكأنه يبتغي أن أتعلم ذلك في الصغر كما أتعلم العلوم الشرعية والآداب ، ولكن منعني صغر السن وهيبته من استزادته فيما لم يتبرع بذكره ، وبالأسف فارقته قبل الاهتمام بجمع ما حدثني به والاستفادة عما لم يحدث به من أخبار هذا البيت وأخبار غيره من بني عمهم ، ولما شرعت في السؤال عن الأخبار الماضية وتدوين الآثار وبالغت في البحث وتفتيش الخزائن رحلت إلى جهة أتَرَمْ حيث كان حي أهل تِنَقّسَا وحي أشّيُوخَنْ لأستفيد شيئا من الآثار السلفية فلم يتفق أن ألقى مفيدا من أهل تِنَقّسَا فإني قربت من حيهم فسمعت أن من فيه من أهل العلم غائبون وليس في الحي من يكون مظنة للإفادة عما أستفيد وصرفتني الصوارف عن العود إليهم ثم اجتمعت برجال من أشّيُوخَنْ وفاوضهم في الموضوع فلم أجد منهم مسعفا بالمطلوب لا بالروايات ولا بالاطّلاع على الآثار القديمة إلا أن الشفيع بن لوط أخبرني عن مبدء انتقالهم من وطن أسلافهم في أوْظَ إلى وطنهم الحالي ، بما حاصله أن جدهم محمود الشيخ كان مدفونا مع أبيه في أرض تَكَرَنْكَتْ ثم هاجر ابنه إلى بلاد دُورُ وهي البراري الغربية من قرية كَاوَ فاستوطن هناك مع عبيده وأتباعه وتلاميذه ثم بدا لابنه في

الهجرة إلى بلاد أَتَرَمْ مع رعاياه وتلاميذه فسار بهم مغرِّبا حتى انتهى إلى أمير أمراء السودان في أرض سَارِيَامُ فأخبره بمجيئه إلى بلاده وأن معه أقواما يحرثون ولا يطيب له منزل إلا لائقا بالزراعة وطلب منه أن يقطعه شيئا من الأرض يملكه ملكا شرعيا لا ينازعه فيه أحد بعد فسأله الأمير السودان عن الموضع الذي يختاره للإقامة فيه فذكر له موضعا من الصحراء بعيدا عن المناهل

يقال له أربَنْكُ فقال له كيف تقيم في هذا الموضع ولا ماء فيه فقال له الشيخ إذا اقطعتنيه جاءه الماء بإذن الله فقال له الأمير السوداني إن قدرة على الإقامة فيه فأقم ولا منازع ، فسار الشيخ الأنصاري إلى البحر ثم وضع فيه عصاه وجرها وجرى الماء في أثرها فما زال يسير والماء يجري وراءه كأنما يقوده بزمام حتى وصل إلى حيث اختار الإقامة فوقف ووقف الماء ولم يزل ذلك مسيل ماء يصلح للزراعة ونهرا كأنه بحر لا يغيض من ذلك الوقت إلى يومنا ، وكان الأرض ملكا لذرية ذلك الشيخ وذريته من بعده وما زالوا محترمين عند جميع أهل بلادهم لا يتعرض لأذاهم وحفائهم إلا من أراد الله أن ينتقم منه بسبب ذلك . هذا حاصل ما حدثني به من أمرهم . وأخبرني كثير مناهل بلادهم أنهم ما زالوا أهل فضائل لا سيما فضيلة الجود والإطعام والإحسان إلى الوافد وبسط الوجوه له واحترامه إن كان من أهل الاحترام والشفقة عليه إن كان من الضعفاء كالمساكين والأرامل والأيتام ، وأنهم لم يزل منهم من يشار إليه بالبنان في جمع أنواع البر والإحسان . وأما آثار المشاهير منهم فلم يقدر أن وقفت على شيء منها ، وإنما كتبت ذلك ليلا ييأس من يرى خطي من الاطلاع عليها اعتمادا على أنها لو كانت موجودة لاطلعت عليها فإني حين دخلت بلادهم صادف ذلك مسير سيدهم اليَزِيدْ بن زُقَّا إلى جهة مَنَكَا عام 1391هـ وكان السيد هو المظنة لأن ينال شيء من ذلك من جهته لأن خزانة أسلافه الكتبية صارت إليه ولما لم ألقه أعرضت عن سؤال غيره ممن لم يكن مظنة للمعرفة ، وأما أسلاف أهل تِنَقَّسَا وأهل تَكَرَنْكَتْ فقع د وصل إلي من أخبارهم أشياء من جهة إخواننا أهل تَبُورَقْ الذين يخالطونهم ويكثرون من مارفقتهم في الأسفار فكانوا معهم كما كتب الشيخ الخضر بن الشيخ حماد في ذكر والوافدين على أبيه ، ونصه بعد كلامه نعلى وفادة آل محمد البشير عليه هكذا : (وأما إخوانهم من أهل تَكَرَنْكَتْ وغيرهم فكانوا أيضا من

إخوان الصفا وخلا الوفا ، لهم عهد قديم ، وود صميم ، توارثناه معهم عن الأباء الأولين والجدود الأقدمين لكن ما وقع بنينا وبينهم تجاوز إنما استغنى أسلافنا وأسلافهم بالتواصل والتزاور ، فكانوا دائما في الموافقة وأصدق مرافقة بلا مفارقة ، ومما قوّى بينهم دواعي المواصلة أن جركاتنا السفرية لا تكون غالبا إلا إلى جهة تنبكت وهي مقصد أسفارهم أيضا فربما تلاقوا مع أسلافنا في الطريق فيكونون معهم رفقة واحده ، ومنهم من كانت إقامته هناك دائما ، فمن وصل منا إلى منتهى السفر كان مع أخلائه منهم في حي واحد من أحياء التوارق وغيرهم أو في أحياء متجاورة فهم في السفر مترافقون وفي الإقامة متزاورون ومتوازرون) . وقال في حق آل البشير أيضا : (القائلون بتدعيم هذه الوصلة في عهد الشيخ جماعة كثيرة منهم الأغر الوضّاح ، والماجد الجحجاح الشفيع بن محمد الأمين ، والكريمان المبجلان موسى ابن الكسائي وسليمان بن أيوب ، وأفراد سواهم من أبناء محمد البشير ، ومن إخوانهم التّكَرَنْكِيّينَالسيد مَحمد بن هُلَيْ ، والعالم العلامة عيسى بن وَدَا وأخوه إبراهيم والد هَمَّنُ وكان له قدم راسخ في صحبة الشيخ والتصديق بخصوصيته كما دل عليه قوله :
ما كنت أنكر شيئا من محاسنكم ... .

إلى آخر الأبيات الآتية . والأربعة الأوتاد ، النازلون في الفضل منزلة الأكتاف من الأكتاد ، وهم محمد أحمد بن العلوي ، وإشَمَّسَنْ والد كَفيلٌ ، ومحَاحَ ، والمستكفي . ومن أهل تِنَقَّسَا مَحمد الملقب هَمَّنبر ، وأيَّـيْ ، ومن أشَّيُوخَنْ زُقَّا ، وذو النُّور ، و أضرابهما) انتهى الغرض من كلامه لكنه لم يسقه في معرض تاريخ هؤلاء الأعلام بل في معرض ذكر وفادتهم على والده وقد ذكر الشيخ حماد جماعة منهم في معرض اعترافهم بشرافة أهل بيته ووصفهم بأوصاف زكية فقال بعد ذكر جماعة من أهل بيتهم تواطئوا على حيازة الشرف من انصه : (فممن سار بتلك السيرة وانتهج ذلك المنهج بلا وتيرة أبناء أبَكّنْ وأغَدَنْفَسْ هذا مَحمد بن إنْتَكَلَسُتْ الذي تلقفنا عن آبائنا أنه قد بلغ الغاية القصوى في العلم والشرف والتقوى قد أقر لأسلافنا بالفضل وتوارث المجد والشرف طرافا ، أسكننا الله وإياه الفردس الأعلى يوم يتلاقى الناس أشراقا وأطرافا ،

وهذا محمد بن هلّيْ من هو ابن جلا ، رحمه رب الأرضين والسموات العلى ، قد حذا فينا ذلك الحذو ونتحى في السر والجهر ذلك النحو والأمر أشهر أن يذكر ، وأكثر من أن يحصر ، وهذا إبراهيم بن وَدَّا الروضة الأنف ، والعقد الذي ثمن وشرف ، قد أبرز لنا حسن طويته حيث أقسم على تعظيمنا جهد اليّته ، في أبيات خاطبني فيها عافي نفسه الكريمة من العذاب متوافيها وهي :

ما كنت أنكر شيئا من محاسنكم ... يا حمدٌ أنكروا ما كنت أم عرفوا
لو لم أكن عند شيخ ما أريد سوا ... ه كنت عندك حيثما تقف أقف
لكنني عند شيخ لم أرد أحدا ... ما دام حيا ولو ممن هم سلفوا
إني لأعلم أن فيك منزلة ... لسالك من حوالي روضها تحف
والله يعلم أني من معظّمكم ... أنتم ومن بالنبي المصطفى عُرفوا
إن انتمى منتم فخرا ، فإنكم ... نماكم شرف إلى الأولى شرفوا
ما كنت أرجو لنفسي غير حبكم ... آل النبي الأولى مضوا ومن خلفوا

وهذا التقي النقي الولي مَحَاحَ يقال بالحاء المهملة وبالمعجمة من لاحت على محياه لوائح الفلاح والصلاح ، قد بلغ من توقيرنا بحيث يتولى خدمتنا إذا نزلنا بساحته بنفسه الكريمة ، ولا يكل ذلك إلى ابنة قومي واقعدي لحسن الشكيمة جزاه الله عنا خيرا وأجزل لنا وله أجرا ، وهذا هشيمة الكرم الكريم المعصربادي ، فإن جلاله لمنصبنا الجليل باد ، للحاضر والبادي ، جعلى الله ضريحه روضة من رياض الجنان ، وشفع فيه جدنا ونبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - الذي هو خلاصة لوى وعدنان ، وهذا المنفق السمح ، الفصيح الفح ، سيدي محمد بن أسّايْ رحمهم المنزل الآي ، قد كان شرفنا عنده سماء تظلله ، ونحن عنده نجومها فلا يطاها ظله ، وعلى إجرياء هؤلاء الأكياس جرى عيسى وغيره من أمثاله الأنداس ، ومن المنتظمين في هذا السلك السابقين في ذلك المضمار أبو أُيِّيْ محمد الأمين شمس الشموس وقمر الأقمار ، فإنه مقر لآبائنا بالفضل والتقدم ، ويلاقيهم بالبشر والترحيب والتوقير والتعظيم ويحرض الناس على التبرك بهم وبآثارهم ، ويثني عليهم في المحافل بالعلم والولاية وصفاء أسرارهم ، ومع ذلك لو يبلغ نصيف أبيه المرتضى ولأمده ، بل هو مجل وأبوه مصل ولكن ما أعزر وبله وما أكثر ما عنده ، وأما جد .. إنبَّدَ الذي عقبت من شمائله نسمات الند ، وقطرت من سلسبيل أو صافه مياه المجد ، الذي العلم لسان أوصافه ،

والكرم خيم أسلافه ، فهو الذي طلت على أسلافنا سحائب احترامه ، ورفرفت عليهم أجنحة طيور إكرامه ، وكانت مودتهم ، منظومة في سلكه خلاصه ، فما عند طو عندهم إلا التناصر والتعاضد والتناصح والمخالصة فشتان ما بين اليوم والأمس ، وهيهات القمر من الشمس ، وكذلك أحمد بن مُخَا التقي النقي الصافي وقاهما عذاب الآخرة الله الكافي ، وكذلك التقي هَانِي الصاعد في أوج التهاني ، وأبوه سيد محمد الذي الكرم بين ثوبيه ، والتقى بين برعيه ، وجده ملُّو منبع النور واليقين ، وينبوع

المعرفة والتمكين ، القائل في قصيدة أنشأها فعرف برياها المشامّ ، وملا بلذتها المسامع والمسامّ ، وحمى بها حمى عمّنا مُحمد المشهور بحَامٍّ ، الذي اشتهر صيته بين الخاص والعام :

إلى سيدي من السلام سيادة ... تسمى بها لفظا وأحرزها معنى

سلاما يليق بارتفاع ... .

مر إلى أن قال :

وهل أنت إلا سيد عم نفعه ... فمن تقص نقصه ومن تدنه يدنى

وإن كان أمر في الأمور أتيته ... صوابا فخطاناك في الأمر أخطأنا

فأنت غياث العلمين وغوثهم ... وغيث به تجبى الرغائب أو تجنى

وكهف به تكفى المكاره كلما ... أظلت ويستشفي به الداء إن عنا

فسكن نوائر الزمان وقُم بها ... وإلا فمن يعري لذلك أو يعنى

وأنتم رعاة الكون سرا وجهرة ... وإن نمتم عنا ولو ساعة ضعنا

وكذلك العالم الحائز للمعالي ، محمد بن السَّالي ، رحمهما المتعالي ، قد اجتهد في أداء ما عليه من توقيرنا من جهة النسب العالي ، فانظر إلى تأدبه مع عمنا مُحمد المذكور في رسالة وجهها إليه يستعير منه كتاب الشفا ، بتعريف حقوق المصطفى ، حيث قال : (من العبد الحقير الذليل ، إلى السيد الرفع الجليل) إلى آخر ما قال ، وكذلك إخوته قد انتهجوا ذلك المنهاج ، واقتبسوا من نور مصباحه الوهاج) أنتهى كلام الشيخ حماد وقد ترجم الشيخ محمد بن محمد محمود علامة زمانه ومرآة أشياخه وأخدانه الذي أحرز لقب محمد الفقيه بين أقرانه جماعة من أهل هذا البيت الأنصاري في دوان وضعه لجمع قصائد شيخه حماد وقصائد مريديه وفيه قصائد لقوم من أهل تَكَرَنْكَتْ فيما جرى بينهم وبين الشيخ فممن ذكرهم وكتب شعرهم محمد أحمد بن العلوي .... هَمَّن بن إبراهيم

بن وَدَّى ومنهم الشيخ بّادي المربي للمريدين . وأما من وقفت على شيء من آثارهم من غير واسطة .... هؤلاء المذكورين

***

فمنهم من أهل تِنَقّسا مجد الدين وقد وقفت له على أبيات ورسالة غريبة بليغة يخاطب بهما الشيخ أحمدُ بضم الدال بن مَكّا من أهل تَنْغَ اكْلِ ، والرسالة آية في حسن الرصف والتنسيق تشهد على منشئها بأنه من أهل الأدب والتحقيق ، ولو تليت على الأصمعي أو ابن المقفع لأقر بأن صاحبها هو الفصيح المصقع ، وكذلك الأبيات لا بأس بها ولكنها دون الرسالة في البلاغة والمحسنات البديعية ، وحدثني من رأيتها بيده أن سببها وموجبها أنه توفي شيخ من حي منشئها فرثاه الشيخ أحمد بقصيدة وذكر فيها أن من خلف مثل فلان وفلان وفلان حتى سمى عددا من تلاميذه وأهل بيته لا ينبغي أن يقال مات ولا ينبغي لحي كان فيه مثل أولئك أن يجزع على من فات . ثم سمى الشيخ مجد الدين في آخر من سماهم فتأثر بذلك وأرسل إليه قصيدة أولها :

لله در عصابة أفتاني ... حكم الوساوس أنهم فتاني
أهلا بهم بل مرحبا بقريضهم ... وخصوصا أحمدُ سيد الفتيان
أهلا به وبشعره وبنثره ... وبوعظه المبري من الأشجان
شعر كأن حروفه منحوتة ... من معدن الياقوت والمرجان
سجعاته تلهيك عن فجعاته ... حلو ومر فيه يجتمعان
والأذن ضاحكة بلذة سمعه ... وبوقعه العينان تنهملان
إلى أن قال :
من أنها أخذت تعد فتى فتى ... أعيان حيي نعم من أعيان
حتى أتت بابي لأخر سيرها ... وأنا الكفيئ لها وغير ثان
هلا سألت القوم يا ابن أحمد ... إن كنت جاهلة رفيع مكاني

إلى آخر القصيدة . ثم بعد ذلك بلغ الشيخ مجد الدين أن الشيخ أحمدُ بن مكّا لما سمع قوله في القصيدة النونية :

وكذاك أبو الصقر العريف أحمدبـ ... ـن السيد الهادي وحيد زمان

قال : إن هذا البيت غير متزن ، وقد بقي منه حرف واحد .ثم بلغه أيضا أنه لم سمع قوله في بيت آخر " ما قط يفترقان " قال أي أحمد أن هذا أيضا لحن آخر لأن " قط " لا تدخل على المضارع ، فأنشد مجد الدين

قصيدة أخرى أولها :
يا قوم ما لكم لقد فاجأني ... ما لست أرقب وقعه إذ جاني

أنعستم أم قد غفلتم عنه .. ... لم يلجكم للورع ما ألجاني
إني سبكت قصيدة ذهبية ... رصعتها بالدر والمرجان
فرفقتها أرجو الها الترحيب من ... من تعتريه بدون ضيق لبان
وسحبته يطوي الصحيفة ... مثنيا ، متعاميا عن مثلب الإخوان
مثل الذي عاملته لما أتى ... منه قريض أخي مراثي حان
رقصته طربته مع أنه ... لم يبلغ المسموع بالأذان
لكن بعين السخط يظهر منه ... وأنا نظرت بمقلة الرضوان
لا غرو يرشح كل قدح بالذي ... هو فيه من مر ومن حلوان
يا معشر الشعراء يا صناعه ... ورواة شعر العرب بالإتقان
ها إنني لكم سأنشد ناظما ... تقطيع ما قد عيب بالنقصان
متافعل متفاعل متفاعل ... وكذلك الباقي هما سيان
مر إلى أن قال :
وسمعت أن قد عبت قول براعتي ... وسليقتي ما قط يفترقان
أجهلت أن معاني الألفاظ في الـ ... ألفاظ مثل الروح في الأبدان
إلى أن قال :
قسما لئن حركت بي شفتيك من ... بعد الذي أرسلت في ذا الآن
هذا ما بقي بيدي بعد ضياع كتبي وضاع أكثره ، والرسالة العجيبة التي قرنها بها وأودعها من العبارات الأدبية ما يقضي منه العجب وعسى أن يظفر بها بعض المفتشين للكتب فيما بعد .

***

ومنهم أي من أهل تَكَرَنْكَتْ أمية بن أسّاي : وهو عالم جليل عابد ناسك يذكر الله بمجرد رأيته له حظ وافر من العلوم وغلب عليه الاشتغال بعلم القراءات والتجويد قلما يقرأ أحد القرآن بحضرته إلا رد عليه ونسبه إلى اللحن وجل عمله قراءة القرآن أناء الليل وأطراف النهار ، وكان حسن الصوت بالقرآن لا يقدر من سمع تلاوته أن يذهل عنه ، وآخر أمره أن خرج من بلاه قاصدا بلاد الحجاز برسم الهجرة فتوغل في الصحاري

التي بين بلادنا وبلاد آيَرْ فلقيه هناك بعض قطاع الطريق من العرب وصادفوه وهو يتوضأ فقتلوه ، وذلك عام أحد أو اثنين وثلاثين بعد الألف وثلاثمائة 1332هـ ، وقد رأيت من خط العالم العلامة سيد عمر بن سيد علي الكنتي الذي مات ببلاد دَنَّكْ مدحه بالعلم والتقوى وتسأسفه على قتله ظلما رحمه الله تعالى .

***

ومنهم ابنه سيد محمد المعروف باسم أنْبَاكَوَّ : وهو كأبيه فيما بلغني من جهة التنسك والصلاح والإعراض عن لذات الدنيا وشهواتها فضلا عن مناصبها ، مقيما ببلاد كِدَالْ إلى أن وقعت الفتن التي وقعت بين أهل ذلك البلد وبين حكومة مالي عام ألف وثلاث مائة وثلاث وثمانين 1383هـ فكان ممن قتله رئيس كِدَالْ في ذلك الوقت وهو الفاجر دُوبِ وكان مولعا بسفك الدماء ظلما وعدوانا لم نسمع مثله في ذلك وقد لحق به مكره السيئ بعد أعوام فأخذه الحكام وحبسوه حتى مات في الحبس رحم الله سواه ورضي عن غيره . وسمعت من بعض الثقات أن هذا الولي سيد محمد بن أمية لما أراد الظالم أن يعدمه استدعاه فقال له اعلم أنك ستقتل غدا فأخبرني عما تريد أن أصنع بك فقال له سيد محمد لقد بشرتني بإجابة دعوتي فإني قرأت القرآن طفلا صغيرا ولم أزل أختمه آناء الليل وأطراف النهار من ذلك الوقت إلى الآن وكلما ختمته دعوت الله أن يميتني شهيدا فإن قدر لك أن تقتلني ظلما فذلك من إجابة دعوتي ، ثم إني لا أريد منك إلا اثنتين أحدهما : أن تريني موضع قبري وتتركني حتى أحفر فيه قبرا على طريق السلف ، وتمكنني من أن أعلم كفني بنفسي حتى لا يبتدع فيه الناس . والثانية : أن تخبرني بساعة قتلي حتى يكون آخر ما أعمل فيه الصلاة فسخر الله له ذلك الفاجر فمكنه من كل ما طلبه منه من عمل كفنه وقبره حتى فرغ مما يرتضي من ذلك ثم لما أصبح آذنه بساعة قتله فاغتسل كما يغسل الميت ثم اشتغل بالصلاة فكان آخر عمله رحمه الله وعامل قاتله بما يستحقه .

***

ومنهم أدَسْ بن أمية : وهو في قيد الحياة وما رأيته قط وقد أرسل إلى تسليمات على لسان بعض الأخوان ، وقد ذكر لي مبلغ تسليمه أنه حريص على رؤيتي لمحبته لوالدي ومحبة والده له وقد رأيت من آثاره كلاما له في مسألة وقع النزاع فيها بين علماء كِدَالْ من العرب وأهل السوق وإفُغَاسْ فكتب كل من المتنازعين رأيه وحججه ثم رفع السلطان بن السلطان الشريف إنْتَالَّ بن الطاهر رئيس أضْغَاغْ تلك المكتوبات إلى حينا ليقتبس من رأي مقدمنا الشيخ المحمود بن الشيخ حماد ثم آراء جماعته فوقعت المكتوبات بيدي وأمرني الشيخ بكتابة ما اتفقنا عليه في النازلة فتأملت المكتوبات جميعا ورأيت حسنها رصفا وأبلغها وأقربها إلى الصواب ما كتبه الشيخ أدَسْ بن أمية فعلمت أنه نحوي لغوي فقيه ، وسمعت أنه تقي حسن السمت ، أطال الله عمره في العفو والعافية . مات بعد ما كتبت هذا .

***

ومنهم وَرتِغْر : وهو من بني محمد بن يوسف ولا عقب له ولا أدري من أي أسباطهم هو رأيت له قصيدة في الاستسقاء وهي :

أنا عبد سوء ذو خـ...ـا وجفاء ... ومهتك الحرمات والأحماء

***

ومنهم نادرة زمانه ، ومصباح أوانه ، العالم العلامة ، البحر الفهامة المضروب في الأفاق مثلا طلاع الثنايا وابن جلا محمد أحمد بن الجُنيد : وهو من سبط أهل تَكَرَنْكَتْ وقد فارق أجداده إخوانهم قديما وانحازوا إلى بلاد أدلَنْ بأرض دُور فأقاموا هناك معظمين مبجلين مشهورين لم تنقطع الوصل بينهم وبين إخوانهم بل كانوا يتزاورون ويتوازرون ويتناصحون ويتناصرون ، وكانوا أهل علم وفضل ، وفي أوائل القرن الرابع الهجري طلع منهم هذا النجم الثاقب ، المضيئ في الغياهب ، فتلقت همته إلى المعالي ورحل في الأفاق ، وتعلم العلوم الشرعية وعلم الأوفاق ، فألقيت عليه المحبة من جميع من رآه ، وخلعت عليه خلع المحبة والمهابة شئي أقرانه في الجود والحلم وحسن الخلق وظهر على يديه من خوارق العادات ، ما تمكن بسببه من أزمة القلوب واستتبع أهل بلاده جميعا منهم متعلم ومسترزق ومتوسل لنيل حاجته تعجز حيلته عن إداركها بنفسه فكان محط رحال الأفاضل ، ومقتدي يقتدى به في اقتناء الفضائل ، وذكره الشيخ الخصر ممن وفد على والده فقال : (ومنهم الشيخ محمد

أحمد بن الجُنيد وهو ابن جلا ، المضروب في آفاق البلاد مثلا ، وقد وفد على الشيخ مرة أو أكثر فلقاه من الترحيب والإكرام ما يلقي مثلـه مثلـه لكنني لا أحفظ شيئا من حديثه معه وقتئذ لمكاني من الصغر ، وما ظفرت بعد بمن يحكي لي ولو جملة منه مع الحرص على ذلك لو وجدت إليـه سبيلا) إهـ كلامه وأما آثاره العلمية فلم أقف على شـيء منهـا مـع الحرص عليها واجتمعت مع ابنه عماد الدين مرات في الأسفار ووعدته الزيارة ليمكنني من خزانة كتبه ولم يحـصل ذلـك حتـى مـات عـام 1391هـ فرحلت إلى عيسى بن وَنمُدَّتْ القائم مقامه بعد وفاته بعـامين فسألته عن تأليف أخبرني بعض الناس أن الشيخ محمد أحمد ألفـه فـي شئون شتى وفيه شيء من التواريخ والأنساب فذكر لي أن كتـب عمـاد الدين لم تصل إليه بل بقيت حيث توفي في أرض إنتِلَّتْ من أعمال كَاوَ . ورأيت

رسالة تدل على أنه ممن يسعى في الإصلاح بين الناس وممن لهم الكلمة المسموعة ، وعلى أن منشئها من العلماء ومن الكمـل وتلـك الرسـالة خاطب بها شيخنا حماد في شيء جرى بينه وبين بعض إخوانـه وذكـر فيها أشياء كثيرة ، وأجابه الشيخ وأطنب في الجواب حتى بلغ نحو أربعة كـــــــراريس .

وأما حسن الخلق والحلم والصبر والجود فلم يزل من يعرفه يتعجبون من حظه منها ، وأغلب العلوم عليه علم الأوفاق وهـو الـذي يـأتي فيـه بالعجائب الخارقة ويهابه العظماء لأجله وتمكن بسببه من استباع من شاء ، ولم أدر من شيوخه إلا باب أحمد بن سيد محمد بن الـشيخ المختـار الكنتي وهو من كبار الأولياء وهو الذي أخذ عنه علم الأوفاق وغيـره . وكان الشيخ محمد أحمد شجاعا بطلا شهما ذا نفس أبية ، وهمة عليـة ، كان جل أموره مبنيا على قول الحكيم " ما تعلقت الهمة بشيء إلا حصلته " وعلـــى قـــول الـــشاعر :

وإذا كانـت النفـوس عظامـا ... تعبـت فـي مرامهـا الأجسام

وعلـــى قـــول الآخـــر :

وكن رجلا رجله في الثرى ... وهامة همته في الثريا

وقد ابتلي بالمخاوف ولم تحفظ عنه لفتة جبن بل كان من معه من الأبطال يجبنون في بعض الأحياء فيثبت هو ، وجرت له قصص غريبة في أعوام احتجابه من فرنسا ، ولعلك تشوف إلى معرفة شيء مما جرى بينه وبينهم وهو طويل كثير لا يحيه دفتر ولا دفاتر ولا يقدر على إحصائه أحد ولو أنفق فيه ما بيده من آلات الكتابة وإعانة عليه الراوون والكتب . وحاصل ما بلغني منه أنه حدثته نفسه بمحاربة فرنسا بعد استيلائهم على البلاد مدة خمسة عشر عاما أو أزيد ، فدعا الناس إلى رأيه وزين لهم أن الموت في سبيل الله أحسن من الحياة تحت حكم كافر فلبى دعوته كثير من قادة البلد وكثير من العلماء الذين لهم القول النافذ عند العامة ، وتخلف عنه جماعات لا يرون مثل رأيه بل رأوا المقام على ما كانوا عليه من مصالحة فرنسا على مال يدفعونه إليهم في مقابلة أمنهم على النفوس والأموال والدين والوطن فصار أهل البلد فرقتين : فرقة ترى المقام على الصلح بينهم وبين العدو لما يشاهدون من ضعفهم وقوة العدو ولهم أيمة يقتدى بهم من العلماء الكبار كالشيخ حماد من أهل تَبُورق والشيخ بَايْ وأكَّنَتْ والد إفنْفَنْ وغيرهم واستتبعوا كثيرا من الأمم . والفرقة الأخرى فيها أيضا كثير من العلماء والأمراء وقائدهم الأكبر محمد أحمد بن الجنيد وهو الذي يحث الجميع على القتال ويوهن لهم أمر الكفار حتى قيل عنه إنه قال لأتباعه إذا لقيتم العدو ورموكم بالرصاص فلا يخرج من فم المدفع إلا ماء واتكل كثير من الناس على ذلك وجرءهم على الإقدام من شدة اعتقادهم فيه فلما جمع من تبعه من الناس وعلم قواد فرنسا بذلك ساروا إليه بجنودهم فالتقى الجمعان بوادي كَبْرُ من أعمال دُور فانهزم المسلمون وقد انهزموا قبل ذلك في وَصَلُ من أعمال تِرَ وفي أنبَل ، ولما كثرت الهزائم وأيس المسلمون من الانتصار عدا عليهم قواد فرنسا بالقتل والنهب والأسر وما قدر لهم من أنواع النكايات وطلبوا الشيخ محمد أحمد فاختفى منهم

ولجوا في طلبه وهددوا بالقتل من رآه ولم يخبر به فلقي الناس شدائد من ذلك كالتي لقوها في الحرب لأنه محبوب معظم لا يجترئ من يعرفه أن يتسبب في إيصاله إلى فرنسا ، وسجن كثير من الناس بسببه والشيخ في أثناء ذلك يتجول في الصحاري مع عياله وخدمه وحشمه كأنه لا يلتفت

رآه ولم يخبر به فلقي الناس شدائد من ذلك كالتي لقوها في الحرب لأنه محبوب معظم لا يجترئ من يعرفه أن يتسبب في إيصاله إلى فرنسا ،

وسجن كثير من الناس بسببه والشيخ في أثناء ذلك يتجول في الصحاري مع عياله وخدمه وحشمه كأنه لا يلتفت إلى حرص العدو على أخذه ، وحجبه الله عن أبصار الأعداء ربما سمعوه في موضع فيقصدونه ولا يطلعون عليه أو رأوه بعض أشياعهم فيذهب ليخبر به فيموت أو يجن قبل وصوله إلى مقصده ، ومكث على ذلك أعواما ، مختفيا أو محتجبا من أعدائه مع مواصلة من شاء من أصدقائه ومن أشياخه وكان يراسله في تلك المدة يأمره بالاجتماع مع القواد الفرنسيين ليصالحهم ويكون كسائر من حاربهم ثم صالحهم ليأمن ويطمئن وتستقيم أحواله ، وأنكر عليه الشيخ بَايْ ما كان يعمله منن التعزيز بنفسه وأتباعه وتكررت الإرسالات من الشيخ بَايْ إليه ، فلما تيقن أن عزيمة شيخه بَايْ أن يجتمع بفرنسا سار إليه محتفيا حتى وصل إليه فقال له ها أنا ذا بين يديك فاعمل فيّ ما تريد ، فذهب الشيخ بَايْ إلى قائد فرنسا في كِدَالْ فقال له أريد أن أعرض عليك خطة إن أنت قابلتها نلت بها مقاما عند رؤسائك وإن لم تقبلها فلا عليّ ، فقال له القائد ما هي قال له : إن التزمت لي أن لا يؤذى أحد من قومك وجندك محمد أحمد أحضرته بين يديك فتظفر بما أعجز أصحابك ، ويعلو بذلك مقامك ، فتعجب الفرنسي وقال له أتقدر على إحضاره أو تعلم مكانه وكان الشيخ بَايْ ذا أمانة وأخ.... عند فرنسا بأمر من الله لا بتصنع ولا تودد ، فقال له الشيخ بَايْ قد قلت ما كان لي أن أقوله ولا .... إلى الزيادة عليه ، فقال له الفرنسي إن أحضرته

بين يدي ولم يشعر به أحد عملت الحيل في تخليصه ، فذهب الشيخ بَايْ وأحضره ، فكاتب ذلك الفرنسي أمرائه وكلمهم في شأنه حتى آل الأمر إلى إرساله إلى تنبكت ثم إلى كَاوَ فوقع الصلح بينه وبينهم على شرط أن يقيم بقرب كَاوَ ولا يــ.... إلى منزله الأصلي فأقام مكرما مبجلا تفد إليه الوفود من جميع الجهات ويجيزهم حتى مات عام 1351هـ ودفن بالساحل الغربي تعبر السيارات في قرية إِبَلَّبَلَنْ .

***

ومنهم العلم الشهير السراج المنير ، الشيخ الكبير ، المقدم في وقته وبلده على من سواه من المشاهير ، ويوصف بصفات الكمال ، وحميد الخصال عند سائر الجماهير ، وهو : حَكِيمُ ويقال له عبد الحكيم بن إِفَنْدَسَنْ ينتمي نسبه إلى دَقَّ بن إدِّ إِنْتَكَرَنْكَتْ ، انتقل جده عن قومه إلى إخوانهم الذين

يقال لهم أهل بَكُ فلقي من التعظيم والاحترام ما يليق بمقامه ، فأقام فيها حتى مات وبقيت ذريته ، ثم انتقل بعضهم إلى بلاد نيجر بموضع يقال له إغَشَرْ فيه إذ ذاك كثير من القبائل التارقية وكانت عمارة أولئك فيما بلغني متصلة بيتا بيتا من إغَشَرْ إلى بلاد تِلايير حيث كانت إمارة إغَتَفَتَنْ ، فلما تناسل أولئك المنتقلون إلى أرض إغَشَرْ وصاروا حيا مستقلا باسم أهل إغَشَرْ لى الآن وهم عشيرة الشيخ حكيمٌ الأقربون . وأما جده وأبوه بعـ... فلم يزالا في جوار إخوانهم من أهل بَكُ ولم يزل الشيخ بعدهما كذلك حتى مات وبقية ذريته مع ذرية الشيخ حَبْتَّارَ جدّ إفْنَفَنْ في مكان أهل بَكُ الأولين ، فإن الأولين من تلك القبيلة انقرضوا عن آخرهم وبقي العلويون والأنصاريون الطارئون عليهم مكانهم يسمون باسمهم ويسو... رعاياهم { إن الأرض لله يرثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين } .

هذا ما بلغني من تاريخ أهل بيته على وجه الإجمال ، وسمعت أنهم لم يزالوا من أهل الفضائل علما ودينا وموؤة وعبادة وصلاحا وزهدا في المناصب وجود وغيرها من الخصال الحميدة وطلبت الوقوف على آثارهم العلمية ووجدت قراطيس بالية فيها بعض الأثار ، ولم أجد سبيلا لمعرفة ا لمؤثر فإما أن ينقطع اسمه أويسمى باسم إذا سألت عنه لم أجد من يعرفه ولا من يعرف شيئا من نسله وأعوزني التحقيق فتركت التلفيق . وأما الشيخ حكيم نفسه فأشتهر بأنواع الفضائل حتى أدركت حكايات تسند إليه يأخذها الناس عن أسلافهم ولم تزل تروى حتى وصلت إليّ ، وقد رأيت له تأليفا في نازلة فقيه أجاد فيها وأفاد وبلغ منه المراد ، ورأيت أيضا من كلام الشيخ محمد بن الهادي من أهل عصره ثناء عليه واحتراما لجنابه ونسبته إلى التقدم في العلم والولاية وكان معاصر الشيخ حَنَّ وغيره من أهل القرن الثالث عشر ولم أتحقق أخذه عن واحد منهم ولا أخذ أحد منهم عنه . ومما يحكى من عجائبه ما سمعت الشيخ أتُوتَّا بن محمد الأمين يخبر عنه أنه كان يعدو يوما مع الصبيان وهو صبي حتى مر بوالده أو عمه الشك مني فقال له كبيره ذلك :

حكيم مالك وللملاهي ... لا ينبغي للّهْو غير اللاهي

فلما سمع بهذا البيت وصلى إلى شغف قلبه فترك اللهو والتصابي من يومئذ . وسمعت ذلك الشيخ أيضا يحدث عنه أنه كان ذات ليلة يصلي في جوف الليل أمام بيته فدخل سارق فأخذ من خزائنه وكانت خزائنه تحتوي على ما تشتهيه النفس من أنواع المتاع واللباس وكل شيء يملك في بلده فلما ذهب السارق بما أخذ وأمن الطلب رجع في أثره فوجده يصلي فأخذ من المتاع ما قدر عليه وذهب به ولم يقطع صلاته كما فعل في المرة الأولى ، ثم رجع السارق في المرة الثالثة ودخل البيت وصادف ذلك تسليمه في الصلاة فقال له يا أخي اذهب واقتنع بما حملت فإن الصبح قريب وعسى أن يستيقظ الناس فيجدك على حالتك ويؤذيك فاذهب عافاك الله ثم مضى هو في صلاته ، وكان الشيخ فيما بلغني مجاب الدعوة ذا همة عالية وهو الذي استنصر به الأمير هَلَوْ بن وَزَيْد في محاربته مع الإنصار بن النابغ ونصر ببركته ودعائه ولم يزل منصورا حتى مات . وذرية هذا الشيخ في الوقت الحاضر بعضها في بلد تِسِ مع آل إفـنْقَنْ ، وبعضها في أرض بَنْكَلَرَيْ من أعمال نيجر ، ولم أطلع على وفاته لكنه أدرك أواخر القرن الثالث عشر الهجري . هذا ما ظفرت به من أخبار السبط اليوسفي اليعقوبي نفعنا الله ببركته جميع من ذكرتهم ورحم من ذكرتهم ومن لم أذكرهم وبارك في بقاياهم .

الفصل الرابع

في الكلام على سبط آل محمد سيد من اليعقوبيين

وهم عشيرة أمي فإنها أم سليم بنت عبد الله بن الميمون بن أحمد بن محمد المصطفى بن محمد إكْنَنْ بن محمد سيدي الذي هو جامع أهل تِكِرَتِنْ ، ومحمد سيدي هذا يجتمع مع السبط اليوسفي في محمد بن أشلُوم بن يعقوب بن محمد بن يعقوب الأنصاري ، وسرد سلسلة آبائه هكذا : (محمد سيدي بن محمد بن أحمد بن نَانَ بن محمد بن عثمان بن محمد بن أشلُوم) ولا أعرف من السوقيين يعقوبيا غير هؤلاء ، و قد رأيت منهم من ينتسب إلى يعقوب الأنصاري وأوقفني على سلسلة آبائه فرأيت فيها أسماء تشبه أسماء أجداد محمد سيدي على غير ترتيبهم بل على العكس فلا أدري هل كانت تلك السلاسل مستقيمة والأسماء التي فيها إنما وقع

التشابه بينها وبين أسماء إخوانهم أو كانت تلك الأسماء للأجداد الذين نعرفهم في سلسلة أولاد محمد سيد ووقع الغلط فيها من جهة النساخ ، فلما أعوز اليقين أعرضت عن التخمين .
وأما أهل إنْتَصَرْ : فجلهم ينتمي إليه ولم أقف على سلاسل أنسابهم ، وينتمي إليه بعض القبيلة التي تسكن كَاوَ وغلب عليها أخيرا اسم أشَّرِيفَنْ تغليبا لاسم ساداتهم من آل مختار الذين هم الشرفاء ومهم أنصاريون وغيرهم ، ولكن غلب علىى الكل اسم الشرافة فبنوا هَامَّ من هؤلاء إنما ينتسبون إلى يعقوب الأنصاري وإن كان في البلد يعقوبيون غير من ذكرت فلا أنفي ولا أثبت . والله أعلم ، ونسبة العلم إليه أسلم . والمقصود الآن ذكر ما وصل إليّ من خبر هذا السبط وترجمة بعض مشاهير علمائهم فإن كثيرا من مشاهيرهم الذين أدركتهم لا يقدر من لم يرهم على التكلم فيهم لإعراضهم عما يورث الشهرة من التصنيف مع الاقتدار التام ، ولم يزل ذلك سنة في سلفهم يتوارثونها منذ قرون ، وإنما يعتنون أولا بتحصيل العلوم وتحقيقها ، ثم بتعليمها لأهليهم ومن يرد عليهم من طلبة إخوانهم وأتباعهم ، ثم بالعمل بالعلم وتلك المرتبة هي التي يفنون فيها كثيرا من أوقاتهم وأعمارهم فربما وصل إليها شاب منهم في أوائل شبابه فيعكف عليها ويحاسب نفسه في القيام بها إلى أن يدركه الهرم وهو على ذلك ، ومع اتفاقهم قديما وحديثا على إهمال ما يورث الشهرة والإعراض عن غير ما يجب القيام به من أمر المعاد فلابد وجد منهم أفراد ضاق عنهم نطاق الخفاء والخمول ممن أراد الله أن يبين بهم سواء السبيل ، فظهرت لهم على الرغم آثار توجب لهم على من شاهدها الثناء الجميل وصدرت منهم فتاوى يرتضيها ويعتمدها كل قبيل ، وأثلوا من الفضائل والمكارم ما لم يزل ينقل ويتعجب منه ويرويه الناس جيلا بعد جيل ، ومضت فترة من الزمان لا يعتني أحد من أخلافهم بنشر تراثهم تخلقا بأخلاقهم التي يتوارثونها ، ثم لما أراد الله إظهار بعض فضائل هؤلاء الأفراد القليلين بالنسبة إلى من لم نقف له على أثر قام بتدوين ما تيسر من ذلك بعض علماء أحفادهم وأولادهم وهو الشيخ العالم عالم الشعراء وشاعر العلماء محمدُ بضم الدال بن محمد الصالح المعروف باسم تَانَ فاجتهد في جمع المتفرق من ذلك ولم يجد مستمدا إلا من ثلاث جهات الأولى : ما كان في يده من خطوطهم القديمة وتقريراتهم في شتى الفنون . الثانية : ما يرويه عن كبار أهل بيته وكبار أهل بلده من أخبارهم المنتشرة التي لم تزل ينقلها الأخلاف عن الأسلاف من القبائل التي يخالطونها منذ قرون . الثالثة : ما يجري بينهم وبين معاصريهم من

الدغوغيين فبضرورة ذلك الاختلاط يعتمد مؤرخ هذا السبط على ما كتبه إخوانه الدغوغيين من أخبار أسلافهم وما يجري بينهم وبين معاصريهم أو تلاميذهم من أهل هذا البيت ولما جمع من ذلك ما تيسر له جمعه شرع في تدوينه معترفا بالقصور عن استفاء ما ينبغي لمن يترجمهم من الكلام على فضائلهم فذكر من كان في أواخر القرن الحادي عشر تقريبا وهو محمد سيدي ثم ذكر بعض أعلام ذريته ممن كان في القرن الثاني عشر وما بعده إلى الوقت الحاضر وسكت عما قبل ذلك لما ذكرت من الأمور التي تلازم وطننا وتمنع المتكلم في ماضيه عن الإطناب ، ولقد أجاد فيما كتب وجاء بعبارات رشيقة ومعان دقيقة تدل على اقتداره في معرفة كلام العرب وعلى أن له أصلا يستحق أن تنتشر آثاره وتطنب ، وأطال في أشياء اكتفي منها بالقليل ولو بقي ما كتبه في أيدينا لانتفع به من طالعه لكن المكتوبات التي جمعها والتي جمعها غيره من إخوانه ضاع كثيرها بسبب الفتنة الواقعة علينا والمدمرة قريتنا قرب كَاوَ في جمادي الأولى عام 1415هـ ولو كنت كبعض الكاتبين ممن يشتغل بأشياخه وأهل بيته ويكل من سواهم إلى أخيه المشتغل به لاكفيت بما كتب في حق هذا السبط لكنني لا أقتصر على شعب دون شعب فكيف على قوم دون آخرين فلا بد لي من الكلام على أفراد من هذا السبط وإن ذكرهم الغير ، لأنهم أجدادي لأمي وأخوالي وأصدقاي أجدادي لأبي الذين يوثرونهم على كل أحد بالمناصحة والمصادقة وقد أخذت عن كبرائهم الذين أدركتهم ومنهم جدي لأمي عبد الله بن الميمون أن أسلافهم لا يزالون بسيرة أسلافنا ويدرسونها ويلقنها الأكابر للأصاغر كما يلقنونهم السيرة النبوية ، وحدثني أخي وشيخي حَمَّد بن محمد أن الشيخ عبد الله قال له يوما وهو مع أقرانه من أولاد إخوته : (اعلم أن أولئك الذين كنت بينهم أمانة في عنقك عليك حملهم على السبيل وإرشادهم إلى ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم كذلك كنا مع والدك الذي هو قرننا وكان آبائنا مع أبيه وكان أجداده مع معاصريهم من أهل بيتك من زمان قديم

فاجتهد في بقاء تلك السيرة ولا تتغير وأنت حي) ومما يوضح ما ذكره الشيخ عبد الله من تلك الارتباط والاتحاد بين أهل بيتهم وبين أهل بيتنا قديما وحديثا أن بني عمهم بني محمد بن يوسف لم يصل إلينا شيء من أخبارهم معهم ولا مع غيرهم من إخوانهم السوقيين إلا في القرون الأخيرة .

وأما أهل بيتنا فأول ما بلغني من ارتباطهم بهم خصوصا سوى ما كـان من الارتباط العام بين الشعب الأنصاري السوقي وبين الشريفي السوقي من منذ اختلطوا في هذه البلاد في القرن الثامن أو التاسع الهجري إلـى الوقت الحاضر ، هو أن أم محمد سيدي بنت باب بن حَامَّ بن عقيل بـن الغزالي فهو ابن أخت أجدادنا يجمعها وإياهم الغزالي بن علي بن يحـي الـــذي هــو جـــدها الثالــث .

***

الكلام على خبر الجد الجامع محمد سيدي :

أما ما بلغني من خبره فهو أنه كان معاصرا لعم أجدادنا قطب وقته محمد المختار المعروف بتَبَّلَ وبنهما من الصداقة ما يستحق تعهده لتركته بعـد وفاته ، وأما القرابة بينهما فعلمي منا أن الشيخ تَبَّلَ يجتمع مع أم محمـد سيدي في الجد الرابع وهو الغزالي بن علي بـن يحـي بـن إبـراهيم الدغوغي ولعل بينهما قرابات غير هذه هي التي حملته على شدة الاعتناء بتركته ، ومن اعتنائه به على ما حدثنا أسلافنا عـن أسـلافهم بروايـة مسلسلة إلى الوقت الذي وقعت فيه الواقعة : أن الشيخ محمد المختار لما سمع بوفاة محمد سيدي وهو في بلد غير بلده سافر مع بعض أهل بيتـه وبني عمه ، ويقول بعض الروايات ذلك البعض الذي صحبه هـو ابـن عمه جدنا محمد أحمد المعروف باسم هَمَّهَمَّ وسار إلى أن وصـل إلـى حيث توفي ، وكان له جيران يتقيدون به ويستآون بمساءة أهله فلما أديـا حق التعزية والنظر فيما خلف أراد الشيخ محمد المختار أن ينقل ذريتـه إلى حيث كان ليعلمهم ويؤدبهم فشق ذلك على جيرانهم وقالوا له إذا فلعت ذلك ضاع المال والرعية فصمم على عزمه من الإقبال على تعليم الأولاد والأعراض عن غيره ولح الجيران على بقائهم معهم يحفظون أمـوالهم وعيالهم فلم تزل المشاحة والمحاجة بين الشيخ وخصومه حتى قـال لـه صاحبه الذي هو جدنا الرأي نقرع بين الابنين فمن خرج سـهمه ذهبنـا معه وتركنا الأخر لمصالح منزلهم ، وكان لمحمد سيدي ابنان ، أحدهما : وَنْكِلَّ جدّ أحْنَى ، والأخر : محمد إكْنَنْ جدّ سائر إخوانه فرضـي الكـل بالقرعة فأقرعوا فخرج سهم محمد إكْنَنْ الذه هو صغير ، وذهب الشيخان إلــى منزلهمــا والمنــزلان غيــر متباعــدين جــدا .

***

ترجمة الشيخ محمد إكْنَنْ : يبتدء الكلام عليه من حـين وصـوله إلـى

الشيخين اللذين سار إلى منزل أبيه وأتيا به فنقول : لما وصلا به إلى الحي تبناه الشيخ تَبَّلَ ورباه حتى بلغ الأشد ولقنه العلوم ثم خلع عليه خلعة الاستخلاف في الأمور المتعلقة بقبائل إنْصَرْ الذين يقال لهم فيما بعد دَبَّاكَرْ وكانوا إذ ذاك أمما كثيرة لهم مواش وزروع نخيل في أرض كِدَالْ واختصوا من بين سائر القبائل بالخيل العتاق التي يشترى فرد منها بعشرات المئات من البقر والإبل وسائر الأنعام فتوفرت الأشياء المحتاج إليها عندهم ، وكانوا من أتباع الشيخ محمد المختار فولى محمد إكْنَنْ جميع أمورهم التي يتولاها قبل مَن أخذ صدقاتهم وصرفها في مصارفها والإفتاء في نوازلهم وكف أيدي الظلمة من الولاة عنهم وكف بعضهم عن بعض وإصلاح جميع ما يقدر عليه من أمورهم ورضيت قبائل دَبَّاكرْ بتلك التولية من ذلك الوقت إلى الآن ولعل القضاء في مسائل دَبَّاكرْ نوازلهم ليس من القضاء الذي تولاه تَبَّلَ بواسطة أمير إكَدَزْ بل كان تولاه قبل مسيره إلى أمير إكَدَزْ بتولية جماعة المسلمين أو من يولي المناصب قبل ولاية كَرِدَنَّ فالقضاء الذي سار إلى سلطان إكَدَزْ في طلبه وتولاه منه بالشرط المتقدم ثم نزل عليه لمحمد البشير بن أَمَّدْ أو أبيه هو القضاء العام لأعمال البلد التي يحكم عليها سلطان السلاطين كَرِدَنَّ ، وهذا القضاء الخاص بقبائل دَبَّاكرْ هو الذي ولاه للشيخ محمد إكْنَنْ فإن أولاده لم يزالوا يخبرون بأن قضائهم إنما تولاه أسلافهم من يد الشيخ تَبَّلَ ويستبعدون كل الاستبعاد أنهم كانوا تحت تنفيذ احد من القضاة فيما يرجع إلى تلك القبائل ...... فيعترفون بأن قضائهم في نوازلهم إنما كان بصورة أن يرفع من يتولاهم من العلماء نوازلهم إليهم ليحلوا مشكلها أو يبينوا لهم ما يحتاج إلى البيان لكونهم أيمة الفقه في بلدهم فاحتاج إلى ما عندهم من الفقه جميع المفتين والمستفتين ، ومثل دَبَّاكرْ في التقيد بأهل هذا البيت قبيلة إفوغَاسْ من إمُوشَاغْ ومن تبعهم من عبيدهم ومواليهم وهم أحياء كثيرة ولعل أصل اختلاطهم بهم من بين سائر العلماء ما كان بين هذا الجد وبين جدهم الغزالي من القرابة فإن الغزالي جد إفوغَاسْ ابن أم لحامّ بن عقيل بن الغزالي جدنا ، وحام هو جد أبي محمد إكْنَنْ لأمه . والذي لا شك فيه أن أولاد محمد إكْنَنْ هم المتأولون لسائر أمور إفوغَاسْ من المعاملات الدينية والدنيوية مما يتولى مثله العلماء من أمور من سواهم من إمَاجَغَنْ هم المتولون لحساب أموالهم وأخذ زكواتهم وعقد أنكحتهم وتوريث تركاتهم وهم الذين يتولون تسمية أولادهم ويضبطون لهم أنسابهم وهم الذين يشفعون عندهم لمن يريد الإيقاع به وكانت لهم عندهم حرمة وجاهة وصداقة مستمرة من ذلك الوقت إلى الوقت الحاضر

، ولم يبلغنا أن قبائل دبَّاكرْ وإفوغاسْ وأتباعهم كان أمرها إلى غير أولاد هذا الشيخ من العلماء ، وكان معظما عند سلاطين إولّمّدنْ يحترمونه ولا يتعرضون بسوء لمن لاذ به وكان أولاده بعده كذلك حتى ذهبت دولتهم وبقيت الحرمة والصداقة والتبجيل لأولاده عند أولاد أولئك السلاطين . هذا ما بلغني عنه مما يتعلق بالأمور السياسية ، وأما الأثر العلمي فلم أر ما يسند منه إليه إلا أن رواية مختصر الشيخ خليل المترجمة باللغة التارقية هو الذي تلقفها عن شيخه الذي رباه وصار إماما فيها تؤخذ عنه ، ثم عن أبنائه بعده ، ورأيت بخط قديم إجازة الكتب الحديث التي تقرأ في بلادنا أخذها عن جدنا أحمد بن الشيخ . وأما زمانه فلم أر من انتدب لتعيينه لكن معاصريه من أجدادنا الذين ثبتت مخالطتهم لهم لا شك أنهم في أوائل القرن الثاني عشر الهجري .

***

ترجمة محمد المصطفى :

ومن مشاهير أهل هذا البيت محمدٌ المصطفى بن محمد إكّنَنْ جد العلماء الكبار من أهل تِكِرَتِنْ وهو من الفقهاء المشهورين في زمانه يؤخذ عنه الفقه ويرحل إليه في طلبه وممن رحل إليه في طلبه سيدي بو بكر بن القاري جد أهل تَبُورَقْ ، قيل لما وصل إليه أخبره بما يطلب رحب به ثم باتا فرأى الشيخ الضيف في منامه أن النبي – صلى الله عليه وسلم – أتاه بإناء من لبن فأمره بشربه فجعل يشربه حتى بقيت منه بقية في فمه فانتبه وفي فمه تلك البقية فكوشف مضيفه بذلك فناداه يا فتى ابتلع تلك البقية ثم أغد إلى أهلك فقد قضيت حاجتك فامتثل أمره ورجع إلى أهله وكان ممن يشار إليه في الفقه.ومما يحكى من فقاهته ما تقدم في الباب الرابع عند الكلام على أحمد بن همّهمّ من سفرهما إلى أرض دِنّكْ وملاقاتهما لعلماء ذلك القطر ومغالبتهما معهما لأولئك العلماء ، والذين يروى من سبب تلك السفرة ورويناه عن الثقات من أسلافنا أن خَتُوتُ سلطان إولّمّدنْ في دِنّكْ غزا بلانا بجيوش لا قبل لأحد من أهل الدفاع والقتال بها فكيف بالضعفاء والرعايا فنهبوا ما اطلعوا عليه من المواشي وغيرها وكان من أكثر من نهبوا أموالهم جماعة تتبع الشيخ محمد المصطفى بن محمد إكّنَنْ ومنهم جماعة من دبّاكرْ فشق ما ناب دَبَّاكَرْ على محمد المصطفى فوق ما يشق عليه ما نابه هو وحيّه فتفكر فيما يصنع بهم ثم انتجت له فكرته المباركة أن يذهب إلى أخيه أحمد بن همّهمّ ليتعاونا على تخليص بعض أموال ضعفاء المسلمين الذين أغار عليهم خَتُوتُ وجنوده فوافقه الشيخ أحمد

على السفر إلى بلاد الأعداء المغيرين في زمن لا يجترئ أحد من أهل البلد فيه أن يتوجه إلى تلك الجهة ولا أحد من أهل تلك الجهة أن يتوجه إلى الجهة الغربية منهم إلا في جيش عرمرم من شدة ما كان بين أهل البلدين من التباغض والتناحر بحيث لا يأمن أحد أن يلقى أخر فينجو منه ولكن الشيخين لم يلتفتا إلى تلك المخاوف بل غلبّا جانب التوكل مع الحرص على نفع المسلمين فسارا مع المخاوف حتى وصلا إلى السلطان خَتُوتُ فتعجب الناس من وصولهما إليه مع كونهما من أهل البلد الذي يحارب أهله ومع كونهما من أشياخ أعدائه الذين يعتبرونهم أقوى قوة لهم فأنزلهما السلطان وأكرمهما ثم سألهما عن سبب سفرهما وإلى أين يتوجهان فقالا له لا نقصد غيرك ولا حاجة لنا إلا أن تشفعنا في المساكين الذين سبقت إليك أموالهم فقال لهما إني لم أغر على بلادكم إلا بأمر علماء بلدي وهم الذين قالوا لي لا حرج عليّ في غزو بلادكم ولا نهب أموال أهلها بل دماء أهل بلدكم حلال فضلا عن أموالهم لأنهم خوارج بغاة ولا فرق بين السلاطين والرعايا ، وأما علماء بلادكم فهم الذين يقوون السلاطين ويتعاونون معهم على المناكر فهم أشد ظلما فلا بد لي من إحضارهم وجمعهم ومناظرتكما لهم حتى يتبين إلى المحق من المبطل فجمع علماء بلده وناظراهم حتى غلباهم فقالوا للأمير نريد أن تحبس لنا هذين الضيفين مدة حتى نستفيد منهما فقد علمنا أن عندهما ما ليس عندنا فأخذ أحمد يعلمهم من العلوم ما سوى الفقه وأما الفقه ففوض أمر طلبته إلى أخيه محمد المصطفى فكان يدرسهم مختصر خليل وشروحه وكان ماهرا في ذلك وكان أولاده بعده كذلك حتى اعترف لهم إخوانهم من أحياء السوقيين بأنهم أشد اعتناء بعلم الفقه حتى كأنهم لا يعرفون غيره أو لا يعرفه غيرهم ولكن لا يعتنون بالتصنيف فيه كما هو العادة الغالبة في بلادهم ، وقد ترك مخطوطات كثيرة منها ما هي بيده ومنها ما كتبه إخوانه .

***

أحمد بن محمد بن المصطفى : ومن مشاهير علمائهم أحمد بن محمد بن المصطفى

وأخوه الصالح : والد أحمدُ بضم الدال الذي هو شيخ الشيخ محمد أحمدُ بن فُكّ .

أما الصالح : فلم يبلغني من خبره على وجه التفصيل إلا أنه هو معلم ابنه أحمدُ الذ هو شيخ محمد أحمدُ الذي هو شيخ الشيوخ الذين أدركتهم .

أما أخو أحمدْ : فكان مشهورا بالعلم والجود في زمنه وكان حافظا لمختصر خليل الذي هو المعتمد في أهل بلده ، يحكى أنه ركب بكرة صعبة يريد أن يذللها فامتنعت من المسير به حتى لجأت إلى شجرة فبركت تحتها فأخذ أغصان الشجرة واتقاها وابتدأ دراسة المختصر وأبى أن ينزل عنها فلم تزل باركة ولم يزل هو قارئا حتى ختم المختصر على تلك الحالة فنهضت به وسارت إلى حيث يريد ولم تستعص بعد وفي القصة دليل على مهارته في الحفظ وعلى كونه من الصابرين . وأما جوده فتحكى منه حكايات منها أنه مفتوح عليه تأتيه الهدايا من أصدقائه ، وكان ممن وسع عليهم ومن القائمين بأمور جيرانهم فكلما أتى عليه شيء فرقه في الجيران والضيوف ولا يدخر شيئا لغد ، وكان معظما عند سلاطين البلد وعوامه ، وكانت له مكتبة من المخطوطات ، ذكر أخي محمد بن تان كثيرا من مخطاطاته التي كتبها بيده ، ورأيت أنا منها الثمار اليوانع شرح جمع الجوامع وهو موجود عند أولاده .

***

ومن مشاهيرهم عَمْنَا بن أحمد بن محمد المصطفى :

كان من المشهور بالمهارة في الفقه أصولا وفروعا ، ومن المشهورين بالصدع بالحق لا يخاف لومة لائم في الله ، وكان يفصل بين الخصوم من غير محاباة ولا مداهنة ، يحكى أنه رآه بعض الناس في النوم فقال له قد علمت أن ما أقول للناس في نوازلهم هو الحق فاستبشر الرآئي بذلك ، وكان جيد الخط ومن آثار خطه نسخة من المحلي شرح جمع الجوامع ، سمعت أنها خطها بقصبة واحدة من الثمام ، وسمعت أنه كان في تلك المدة يلزم عماله بحفر بير في مكان لم يسبق حفر البير فيه في أرض تِكِرَتِنْ وكان يغدو كل يوم إلى محل البير ويحمل معه الكتاب الذي يكتبه فيشتغل العمال بالحفر ويشتغل هو بالكتابة وفي اليوم الذي أتم فيه الكتاب وصل الحفار إلى ماء البير ويتعجب الناس من جمعه بين الخدمة في العلم والخدمة في المال والقيام بمؤن الناس واستقبال عظماء الوافدين ، وأوتي شيئا من نفوذ الكلمة في بلده ومن الهيبة ومن تسخير الجبابرة من إمَاجَغَنْ له . يحكى أن بعض أغنياء أفوغَاسْ من إمَاجَغَنْ منع زكاة ماله فطلب منه أدائها ووعظه فلم يتذكر بل استمر على المنع والإباء وأيس

الناس من استماعه للناصحين والوعاظ وجاهده الشيخ عَمْنَا بلسانه وفي بعض الأيام نزل عليه ذلك الجبار ومعه امرأة زففها من بعض سادات قبائلهم وسار بها إلى أهله ، فلما أراد الرحيل عنه التفت الشيخ إلى العروس فقال لها يا بنت فلان لا تذهبي مع فلان فإنك مسلمة وهو كافر بمنعه الزكاة فلا يحل لك أن تكوني معه فاعتاظ ذلك الجبار وأمر خدامه أن يجعلوا هودج المرأة على جملها ثم قال لها قومي واركبي فامتنعت من القيام فاشتد غيظه واستكباره ولم يلتفت الشيخ إلى غضبه وحاول الجبار أن تقوم اليه الزوجة وبالغت هي في الإباء حتى يئس صاحبها من أن تقوم إليه فرجع إلى استرضاء الشيخ والآن له جانبه وقال له مر المرأة بأن تخرج وتركب وأرسل معي من يأتيك ببقرك يعني زكاة بقره وكان بقارا فحينئذ قال الشيخ للمرأة اذهبي معه لأنه

تاب فرضيت وسارت معه وأرسل معه بعض خدمه ليأتي بروس الزكاة فلما جاءه أعطاه البقر وقال له قل لمحمد أحمد ما أخرجتها لله إنما أخرجتها لك . ومن تسخير الجبابرة له ما جرى بينه وبين موسى بن بُضال أمير إولمّدنْ دنّكْ فقد جرى بينهما مثل ما جرى بين جده محمد المصطفى وبين خَتُوتُ سلطان دنّكْ في وقته من طلب الشفاعة في ردّ أموال الضعفاء الذين أغار عليهم جيشه ونهب أموالهم . ويروي أن محمد أحمد المعروف باسم عَمْنَا وشقيقه الميمون لما أغار أهل دنّكْ على بلادهما في زمن موسى بن بُضال الذي دام الحرب بينه وبين سلطان بلادنا النابغ بن كَاوَ حتى قتل النابغ فيها ونهبت أموال أهل البلد قام الشيخان الأخوان عَمْنَا والميمون ابنا الشيخ أحمد وسار إلى سلطان دنّكْ موسى بن بُضال ومعهما جماعة من الضعفاء الذين ذهبت أموالهم وأغلبهم من قبيلة دبّاكَرْ فلما وصلا احتجّ على حيلة إرغارتهم على الأموال بأقوال علماء بلده كما كان في زمن خَتُوتُ فقال له ليس لأحد حجة في ظلم المسلمين وأخذ أموالهم فقال لهما لأجمعن بينكما وبين علمائنا حتى يتبين الحق فأرسل إلى علمائه الذين أبواحوا له الغزو ونهب الأموال فلما حضروا قابلهم محمد أحمد وخاصمهم وأبطل حججهم واشتد ذي سطوة وطبع أخيه الرفق ولين الجانب وإلانة القول لكل أحد ، وأما العلم فهما أخوه وأمره بالصبر وكانا عند ذلك السلطان يخاصمان العلماء حتى تبين للسلطان أنهما على الحق فقال لهما أرسلا معكما من الناس ليأخذوا ما عرفوه مما أتى به الجيش ثم بالغ في إكرامهما حتى جمع من

معهما من الناس ما لم يتلفه الجيش من أموالهم فسرحهما إلـى بلادهمـا وأعطاهما جوائز من عـ.... ورفرحا عن أهل بلادهما ، وفي تلك المدة كان ذلك السلطان يرسل إليهما الخصوم فيصد .... محمد أحمد بـالحق وما يبالي سخط الخصم أم رضي ، وفي بعـض الأيـام أتـاه رجـلان يختصمان في جمل قتيل صاحبه فقال لهما أما الجمل فليس لأحد منكمـا وأما القتيل فعليكما -

ديته فلما سمع أخوه ذلك الكلام أشـ... وخاف أن يسطو به الظلمة الذين يخاطبهم بكل ما بدا له ، فقال له أما علمت أن هؤلاء أعداء لا يبالون بما صنعـ.. له إني لا أترك الحق لخوف ولم يبلغنا أن أحدا أصابه بمكروه في تلك السفرة بل بلغني أن ذلك السلطان أتاه يوما فصادفه يدعو فقال له ماذا تصنع وما الذي تدعو به فقال له أدعو الله أن يمنعك من غزو بلادنا أبـ... فقال له أعزك الله لا أعجب إلى مما جربتـه منـك مـن عـدم الانـصراف عـن الحـق وعـدم المبـالاة بمـن أنكـر عليـك .

***

ومنهم الميمون بن أحمد : وكان شقيقا لغَمْنَا وقرينا له في كل فضيلة فيما بلغنا ألآن طبعه لين الجانب والإحسان إلى كل أحد والإغضاء عن كثيـر مما ينهض به أخوه ، وبلغني أن مَن إحسانه إلى صغار حيه أنهم كـانوا يتخذونه ملعبة يأتون إليه فيصنعون به ما يصنعون بالشجرة أو الحجارة ولا يعارضهم و...... ينكر عليهم ، وأما الكبار ممن رآه فكانوا يعظمونه ويعتقدون فيه من أوصاف الكمال ما يمكن أن يتصف بـه ... حتـى أن تلميذه الشيخ مفلحْ ابن محمدُ سمع أناسا يثنون على ابنه عبد الله وكان من الكمل في زمانه فقال لهم لو رأيتم أباه لعلمتم أنه لم يبلغ شأواه فتعجـب السامعون من أن يكون أحد فوق عبد الله . وأما شيوخه فلم أر من يتكلم عليهم ولم أغرف من تلاميذه إلا الشيخ مفلح بن محمدُ المذكور ، ومحمد بن حَدِي ، وأدركت من يثني عليه ويحترم أولاده لأجـل احترامـه لـه ووضع له القبول في الأرض ولم أقف على تاريخ وفاته ، وقبره في .... بجـوار قبـر جـدي عُمـارْ بـن محمـد الأمـين .

***

ومنهم مَحمد بفتح الميم ابن عَمّنَا : لم يصل إلي من أخباره إلا أنه هو القائم بأمور جماعته بعد عمه الميمون وأثنى الناس على قيامه بأمور جماعته من جهة الأمور التعليمية ومن جهة سياسته أمولهم وهو المدافع عنهم وهو المحترم عند السلاطين في أيامه فكان ملاذا للضعفاء وغيرهم وكان قلما يا ... الضيوف مشهورا بإكرامهم وإجازة من يطلب الإعانة من والوفود تواتر على ذلك أقوال من أدركناهم من كبار السن ، ولم أطلع على ميلاده ولا تاريخ وفاته .

***

ومنهم أبناء الميمون وهم :

عبد الله .

وعبد الرحمن .

ومُحمدْ .

ومحمد الصالح .

وكلهم من أهل العلم لكن كانوا كما تقدم من حال أسلافهم من الاشتغال بالتعلم والتعليم عن التصنيف ولم أر لهم أثرا علميا إلا أن عبد الله وعبد الرحمن كانا ممن أجازهم محمد الصالح بن محمد ميدي برواية كتب الحديث ، ورأيت إجازته لهما وأخذا عنه التفسير .

***

أما عبد الرحمن : فسمعت من الكبار الذين أدركتهم وصفه بالعلم والشجاعة وكونه من المعتبرين عند رؤساء البلد وممن يلجأ إليه الضعفاء ويقوم بحوائجهم ، ومات قبل وجودي .

***

أما عبد الله : فأدركته وتمكنت من معرفة بعض أخباره وهو أبو أمي أدركته شيخا كبيرا لا يهتم إلا بما يصلح أحوال الناس وتأتيه الهدايا فيفرقها من غير فرق بين القريب والبعيد ولا يفتر عن ذكر الله ، حفظ القرآن ولم يزل ملازما لقراءته في الصلاة وغيرها وكان في أول أمره معتنيا بتحفيظه لصغار أهل بيته وغيرهم من بني أقائه وأهل عهده ، وكان يدرس الفقه ويعتني بمصطلح الحديث ويلازم قراءة صحيح البخاري ، ولما طعن في السن أعرض عن إلقاء الدروس وأقبل على تلاوة القرآن وقراءة كتب الصلوات على النبي – صلى الله عليه وسلم – ، وأما نفع المسلمين فلم يقطعه مع شدة ا لضعف من الكبر وكثرة

الأمراض حتى مات ، ومما يهتم به أفراح الصغار واتحافهم بما يعجبهم من المطاعم والملابس وغيرها حتى صار كل صغير في حيه يتخذه أبـا أو جدا ياوون إليه كل حين ويلعبون عنده ولا يزجرهم ، ومن خـصاله الشريفة حسن العهد فكان يتخذ أولاد أصدقائه من غير قرابتـه بمنزلـة أولاد إخوته إذا كان في حيه تلميذ من الإسحاقيين أو من دبّاكرْ قام بأمره وتيـ...ـاه رعاية لعهد والده أو جده وكنا معشر أولاده وأولاد إخوته لا نرجوا أن يؤثرنا بشيء على أولئك التلاميذ بل يسوي بيننا وبينهم ، وإن شئت قلت يفضل أولئك الغرباء على قرابته من شدة اعتنائه بهم . وأمـا صلة الأرحام والإحسان إلى الأقارب ونفعه لهم فقلّ له نظير فيها . ومما أكرمه الله به إطلاق ألسنة الخلع في الثناء عليه يشهد له كل من يعرفـه بحسن السيرة والإحسان إلـى جميـع الخلـق فكـان يعظـم العظمـاء ويسترضيهم ويرحم الضعفاء ويعطيهم ولم يبلغني أن أحدا من عارفيـه تنقصه بشيء لا من جهة المرؤة ولا من جهة معاملة الخلق وأما معاملته للحق فـ... ..... أنه يحفظ القرآن وعرف تفسيره ... الليـل وأطـراف النهار ويحاول العمل بما حفظ مّنْ القرآن وأخلاق السلف الصالح حتـى مات رحمه الله عام 1397هـ في أضرَنْمِلْ ، وليس له أي ذكر إلا واحدا مات قبله واسمه محمدُ

بضم الدال مات 1361هـ وكان ذلك الابن من العلماء أيضا قال حمّـد ابـن محمـد فـي مرثيتـه لـه :

كـان مـا بيننـا محمـدُ بـرّا ... يتـوخّى مـن الأمـور الـسدادا
وتراه في مجلـس العلـم سكّيـ ... ـتا ولكـن إذا أجـاب أجـادا

وهو آية في الصمت وحسن الخلق والوقار وكان ممن يجيدون الخط ونفع بخطـه كثيـرا .

***

ومن علمائهم بنوا عبد الرحمن بن الميمون وهم ستة كانوا كلهم من أهل العلـم وهـم :

أحنـى .

وحميـد ،

ونـوح ،

ومحمـد المعـروف باسـم أمّـا .

ومحمدْ بسكون الدال ويعرف باسم ظَلّعَ ومحمد ع.....

***

أما أكبرهم أحنى : فلم أدركه ولم أطلع له على أثر ويثني عليه من يعرفه وله بعض الشعر ومات شابا قبل أن يكون في سن أخذ العلم عنه وكذلك أخوه أمّا ، ولا عقب لهما ولم أدركه وسمعت إخوانه يصفونه بالعلم والذكاء وحسن الخلق وله شيء من الشعر جيد . وأما الأربعة الباقون فأعرفهم وأتمكن من أخبارهم .

*** أما الشيخ حُميد : فهو أعلم إخوته بل أعلم من كثير من أهل بلده وعصره كان من النوادر في العلم وجودة الخط وكثرة نقل العلوم والحرص على تعليم الناس وإرشادهم من غير فرق بين الصغير والكبير ولا بين الذكر والأنثى ، وكان كذلك نادرة في القيام بمصالح المسلمين والحرص على نفعهم ، ومِنْ عجب ما شاهدته منه أن كل فن سمعته يتكلم في مسائله ظننت أنه لا يحسن غيره وكذلك لم ينس شيئا مما حفظه في الصغر والشباب ، وأعجب من ذلك أن من وقف على خطوطه ظن أنه لم يشتغل بغير الخط ولم يضف إليه غيره ومع ذلك هو القائم بأمور جماعته ويخدم بنفسه في مصالحهم ومصالح مواشيهم ولولا تيسير الله ما جمع بينهما ، وترجمه أخي محمدُ بالضم الدال دائما ابن محمد الصالح المعروف باسم ثَانَ وهو من تلاميذه ترجمة واسعة طويلة ضاعت منه.... إلا قليلا ولفظ ما بقي في يدي منها هكذا : (هو حميد بن عبد الرحمن بن الميمون الأنصاري اليعقوبي ، ولما أبرزته الإرادة أبراز الهلال ، وبشرت ببلوغه مبلغ الرجال براعة الاستهلال ، ساقته العناية إلى ما خلق له فاتخذ مكتفة والده متعله ، ولازمه أول ما عقله ، حتى أتم حفظ الكتاب العزيز عليه ، وتلقى مبادئ العلوم من بين يديه وأول خطوة خطاها بعده في الطلب ، وأولى خطة خطب بها سعادة جده بالتعلب ، إلى ابن عمه العالم البارع والأستاذ الفاضل محمد الأمين بن مَحمد بن عَمْنا فأقرأه رسالة ابن أبي زيد ومقدمة الأجرومي وملحة الإعراب للحريري ، وألفية ابن مالك ولاميته ، وجعل الكافية وتحفة المودود في المقصور والممدود له ، والمقامات للحريري وبقية الكافية أخذها عن الأستاذ محمد الصالح بن الشيخ محمد الأمين " مَتَّال " ثم أخذ النصف الأول من مختصر خليل على ابن العم المتقدم وعلى عمه الشيخ الفاضل عبد الله بن الميمون وهو الذي وقفه على رواية البخاري ومصطلح الحديث ثم أخذ بقية المختصر عن الشيخ الصالح محمد أحمدُ بن الصالح الكنتي ، ثم أخذ رواية التفسير المترجمة باللغة التارقية المعهودة على

الشيخين الماهرين المجيدين لها وهما : محمد بن محمد محمود الـ...ورقي وسعد الدين بن عُمار الكلاليّ . ذكاؤه ومكانته العلمية : كان حاذ الذهن ، جيد الحافظة ، بحيث لا يكاد أن يسمع شيئا إلا وحفظه ، شديد الذكاء سديد النظر ، سليم الفطرة عجيب الإدراك بعيد القعر قوي العارضة في المناظرة سريع الإفحام ، في الخصومة ولما آنس من نفسه جودة الفهم والانسلاخ من ظلمات الوهم تنور بنور قلبه مشكاة العلوم ، النقلية ومحك ما سبكته الأفكار الثاقبة من الفنون العقلية ، الشيخ الأستاذ العالم العلامة محمد أحمدُ بن الصالح الكنتي فجد واجتهد في تلقي العلوم التي تدرس بمدارسه الغامة خاصة ولازمه ملازمة الغريم بحيث لا يبرح تجاهه ولا و.... حتى تخرج على يديه شمس الشريعة وبدرها وجبر العلوم وبحرها لغة ونحوا وصرفا وبلاغة وأدبا وفقاهة في كل باب منه ولاسيما في المعاملات والفرائض ، وله ضرس عاضّ في العقائد حتى كأنه أسوة لأربابها من حيث لا يستقي إلا من ذلال معين عيابها فما مضى ذلك الشيخ لسبيله إلى رحمة الله منيله ما لا يدلي على تفصيله ، ألا وهذا الشيخ المترجم نائب منابه ويف... عن كل مهوم مصابه منابه فأنشد لسان الحال والقال بمقال وغير مقال " ما أشبهة الليلة بالبراحة والغادية بالرائحة ")اهـ ما بقي بيدي مما كتبه عنه . وكان برا وصولا للرحم نفاعا للجيران مكر ما لكل من جاءه من غير فرق بين العظماء والضعفاء حتى اكتسب بتلك الأخلاق الفا... أن كان مهيبا معظما محبوبا عند سائر من رآه من قبائل البلد ومن بره بقرابته ما جرى منه ... وفاة ابن عمه محمدُ بضم الدال ابن عبد الله فإنه حين مات ترك أولادا صغارا وولدين كبيرين فكان للأولاده أبا وللوالدين ابنا وعامله عبد الله معاملة الأب لابنه البار وفوض إليه أمره وأئتمنه كل شيء حتى صار له كواحد من أولئك الصغار الأيتام فأحسن القيام بتلـ... الرعية حتى مات عمه ثم استمر في القيام بالصغار حتى شب أكبرهم حسان ولم .... على أمورهم شفقا عليهم حتى مات وكان كذلك مع عمه محمدْ بسكون الدال حتى مات وانتقل المسجد إلى ابن عمه ثَانَ وكان ضغيفا وعن قريب مرض مرض الموت فأحسن ... والقيام بأموره حتى مات ولازمه في أيام احتضاره حتى شهد موته وانتقل إليه المسجد الذي هو عنوان التسويد فأحسن القيام بأمور الحي ولم يخل أحد من إحسانه والرفق به وتـ... أحواله سمعته يوما يخاطب واحد من أبنائه وسأله عن بعض جيرانه وما حمل من ... قدم منه فقال له الابن لم أسأل فقال له لا تعد إلى عدم السؤال عن أحوال الإخوان والجيران فإن قاموا بأنفسهم واستغنوا عنك شكرت وإلا جاهدت

في سد خلاتهم وحاجاتهم ، وكان من العار عنده عدم تفقد أحوال الإخوان والجيران ، وكان من المفتين الملتزمين مشهور مذهب مالك ، وكان الناس يلجئون إلى استفتائه فربما أتاهم بشيء مستغرب فيطلبه على محله من الكتب ، وكان من أشد الناس ملازمة المطالعة الكتب إذا تجدد له كتاب ... عن كل ما يشغله عن مطالعته حتى يفرغ منه ومع ما أوتي من سعة الاطلاع وك... الذهن لم يزل على سيرة أسلافه المتقدمين .... بما يرْوون عما يُرَوْون ولم يؤلف ولم ين... وكان أصحابه الناظمون والناثرون يعرضون عليه إنشائهم وأشعارهم لمعرفته بنقد الكلام من جهة العربية ونقد ما يمليه الناثر والمفتي من جهة موافقته للصواب رحمه الله مات عام 1371هـ ودفن في مقبرة الإسحاقيين بتَلاتَيْتْ . وتأتي ترجمة ابنه محمدُ .

***

أما أخوه نوح : فكان مشاركا له في جميع ما تقدم من العلوم ومن الفضل وكان نحويا فقهيا معتنيا بأصول الفقه جيد الخط ولكنه لم يعتن بتكثير المخطوطات كحال أخيه حُميد ، وكان حافظا للقرآن مكثرا لتلاوته في الصلاة والنافلة وغيرها ، وكان كثرا الصمت عما لا يعنيه ، وكان في الإفتاء كحال أخيه المتقدم ومات بعده بعام سنة 1372هـ وله ابنان كانا من العلماء أيضا وهما في قيد الحياة ولا أترجم الأحياء .

***

أما أخوهما محمد المعروف بظَلّعَ : فهو كملهما في العلم والصلاح وحفظ القرآن وتكثير تلاوته ونفع المسلمين والإعراض عن اللغو والإغضاء عن جهالات الجاهلين وهو القائم بجماعته وإوَاد أخويه بعد موتهما وكان برا بهم وزاد على أخويه أنه ينظم كثيرا من القصائد دونهما ويشاركهما في العلوم التي قرأوها ويقرأ النحو والفقه والعقيدة مات عام 1381هـ وله ابن عالم وهو في قيد الحياة وقت الكتابة .

***

أما الرابع محمد عيسى : فله حظ في العلم ولكن لم يترك أثرا علميا ولا ولدا .

***

ومن علمائهم بنوا محمد الصالح بن الميمون وهم :

مُحمـــــــدْ الملقـــــــــــب بالمفــــــــــسر .
ومَحمــــــــــــــــــــــــــــــــــــد الأغْ .
ومحمـــــــــدُ بـــــضم الـــــدال ويقـــــال لـــــه قَـــدْ
وحمـــاد .
وليس منهم من له أثر علمي لما تقدم من حال قومهم إلا حماد الذي هـو أصغرهم فله منثورات ومنظومات . ومحمد الأغ له من البنين ثلاثة كلهم من أهل العلم وأعلمهم صغيرهم المحمود ولا أتكلم عليهم لأنهم في قيـد الحياة . أما مؤلفات حماد بن محمد الصالح ويقال لحماد هذا زين الـدين فمنها : شرح مقامات الحريري واسمه " تـزين المقـلات فـي شـرح المقامات " وشرح عدة الحافظ في الفرائض واسـمه " عمـدة اللاحـظ " وشرح مقدمة ابن رشد واسمه " العقل والرشد في شرح مقدمة ابن رشد " وشرح أرجوزة الفتي بن محمد أحمدُ السوقي الكنتـي فـي نظـائر ذات الوليـ... واسمه " تنقية الأوهام في شرح ترقية الأفهام " وشرح أرجوزة لأحمدَ بن عبدُ في مسائل العـ... وشرح أرجوزة مَلَوْ ابن محمـدُ فـي الفرائض ، و " تقريب البعيد في الفرق بين التأويل القريـب والبعيـد " وتتمضن مع ذلك موجبات الكفارة وأنواع الكفارات كلها ، وشرح بيـوع الآجل واسمه " بلوغ الأمال " و " القول السديد في منع تكفير أهل التوحيد " وهو رد على عبد الله بن الزّمْزمْ ... وتآليف فـي مـسائل الزكـاة ، وتـــآليف فــــي شــــروط صــــلاة الجمعــــة .
وله شوارد بعضها في الفقه وبعضها في العربية وأبوبة فقهية وأشـعار ونثـ... وهو الأن في قيد الحياة لكنه في غاية الضعف والكبر ولذالك لم أهمل الكلام عليه كما أهـ... في شأن الأحياء من أهل بيته .ومن علماء هذا البيت محمدُ بضم الدال دائما ابن حُميد بن عبد الرحمن بن الميمون : وهو من علماء الجامعين بين عدد من الفنون كان نحويـا فقهيـا بيانيـا أصوليا منطقيا خلف له والده كثير من مهمات الكتـب ومـن خطوطـه وحواشيه على الكتب والتعليقات المفيدة وأعانه ذلك على التعلم لأن والده كفاه كثيرا من المهمات التي يهتم بها من ليس له سلف كسلفه من طلبـة العلم ، أقرأه والده القرآن صغيرا وحفظه ولم ينسه بعد الكبر ثـم أقـرأه العقيدة والنحو وشيئا من الفقه ثم رحل إلى حي تَنْـغَ أَكْـلِ المـشهورين بالمهارة في إقراء علم النحو وتذليل صعابه وقرأ فيهم النحو مرة ثانيـة وأتقنه جيدا ، ثم رجع إلى أهله فقرأ علم البلاغة على الشيخ حَمَّـدًا بـن محمد وأخذ التفسير عن الشيخ سعد الدين بن عُمار وعن الشيخ المحمود بن الشيخ حماد وأخذ عن كثير من شيوخ حيه سوى هؤلاء من هم محمد

بن شعيب أخذ عنه دروسا من مختصر خليل . وأما الأثر العلمي فلم يخلف منه كثيرا له رسالة في النحو بحل ... مشكلا في السيوطي على ألفية ابن مالك في باب التوكيد عند قول ابن مالك :

وما من التوكيد لفظي يجئ ... مكررا كقوله ادرج ادرج

وله " نظم في تراجع الحملاي " ، وله رسالة أخرى في الفقه في جواب نازلة نزلت في بعض أحياء ذُو إسحاق ، وله منظومات في موضوعات شتى ، منها أبيات استقبل بها وفدا أتانا في كَاوَ فيه إمام مكة محمد السُّبَيِّل ووزير داخلية مالي وهي :

بشرى لنا هذه إحدى أمارات ... نجاحنا وتتابع المسرات

فلننشرح ولتطب أرواحنا فرحا ... من زورة غبّها نيل السعادات

ركب نوى أرض مالي كان يقدمهم ... إمام مكة سائس الكرمات

أهلا به وبهم أهلا بسيرتهم ... وجمعهم كل شمل للديانات

أهلا بمكيهم أهلا بوفدهم ... وكل من ثم من أهل المقامات

من فاضل يرتضي وزير داخلنا ... أو من نجيب رئيس للجماعات (1)

شكرا لمالكنا شكرا لكم ولما ... دفعتم من تراكم الضلالات

---

(1) 1) رئيس جمعية مالي الإسلامية . وله أشعار غير هذه الأبيات .

وأما حسن خلقه وصبره على المكاره وتواضعه وحسن سيرته ومحبته لأهل العلم وتعظيمه العلماء والحرص على الاستفادة منهم فمما لا يختلف اثنان ممن يعرفه في إتصافه بها حتى ربما ظن من لم يعرفه أنه ليس من العلماء لعدم افتخاره بما نال من العلم ومن السيادة كما يظن من لم يعرفه أنه مسكين لا رأي له مع كونه أميرا لقبيلته ، وذلك من تواضعه ولما تولى رياسة قبيلته وتوسط بينهم وبين الحكومة أحسن القيام بمهماتهم السياسية وصفح عن أهل زلات أهل الزلات منهم وقابل جفواتهم بالصفح والعفو ودفع السيئة بالحسنة ، وكان يسعى في حوائجهم ويبذل ماله في مصالحهم العامة و بصون أموالهم بماله ويتعب جسمه في خدمتهم ويريحهم . ومن إصلاحه بناء مسجد أنفق فيه مالا كثيرا ، وكان الناس يصلون فيه حتى خربت قريتهم ودمرها جيش مالي وخرج الناس منها هاربين بعد كثرة القتلى فيهم ، وكانت تلك الوقعة يوم الأحد 17 من جمادي الأولى عام 1415هـ فلما خرج الناس من ديارهم بلا زاد ولا مراكب ولا أي شيء من العدة تلقاهم قادما من سفر هي التي بلغه فيها الخبر فسارع إلى ملاقاة البقية الهاربين من أثر الوقعة فقام بهم أحسن قيام وبالغ في انقاذهم مما يقاسونه من الشدائد ، وكان ذلك خاتمة أعماله

لأنه مشتغل بذلك إذا أصابه مرض جاء بسببه إلى الطبيب في قرية نيامي فتوفي عند ذلك الطبيب في خمسة عشر من شوال عام ألف وأربعمائة وخمسة عشر 1415هـ تغمده الله برحمته ودفن في مقبرة كُدَلْ من مقابر نيامي ، ولم يدفن في المقبرة العـ... .

***

تراجم محمد الصالح المعروف باسم ثَانَ بن مَحمد بن عَمْنَا وأبنائه وأخيه محمد الأمين أما محمد الأمين : فلمَ أدركه ولم يخلف أثرا علميا وليس له ولد وبلغني من خبره أنه من الطلبة الأذكياء وأنه من تلاميذ الشيخ متّال والشيخ محمد أحمدُ بن فُكَّ وأنه من شيوخ الشيخ حُميد ابن عبد الرحمن وأدركت من عافيه تأسفهم على فقده ووصفه بأوصاف السيادة وهو في سن العشباب رحمه الله .

وأما محمد الصالح المعروف باسم ثَانَ : فهو من العلماء أخذ عن محمد الصالح بن مَحمد بن ميدي التفسير ثم أخذ عن محمد بن محمد محمود وأخذ أيضا عن الشيخ شعيب بن محمد ولا يسميه إلا باسم شيخي ، وكان من أصحاب حماد بن محمدُ ومن المستغرقين في محبته والثناء عليه ، وكان من الأبرار بقرابته أدرك بني عم والده الأقربين وهم بنوا الميمون فأنزلوه منزلة الابن وأنزلهما منزلة الأب ولا يسمونه إلا باسم البنوة وأكبرهم في ذلك عبد الله بن الميمون لأنه بمنزلة شقيق والـ... وكان ربيب جده عَمْنَا وهو الذي يدعوه باسم الأبوَة دون والده الميمون فكان محمد الصالح ثَانَ أحب أولاد إخوته إليه وأقربهم إليه وكان هو القائم بما يقوم به الابن من أمور والده حتى كبر ابنه محمدُ بن عبد الله ، وكان حييا صبورا لا يتطلع إلى ما يورث الشهرة فأحسن إلى أبويه ، ولكن لم يغير لابن عمه المذكور ما كان عليه قبل يحكمه في شؤن والده ، ومن إحسانه إلى بني عمه أولاد عم أبيه الميمون أنه خلى بينهم وبين تربية بنيه وفوض إليهم أمورهم من التعليم والإرشاد وحسن التربية فكان بنوا عمه لأولاده بمنزلة الأب في حسن التربية وإعطاي الأموال وغير ذلك ، ومع كونه من العلماء لم يشتغل في آخر أمره إلا بتلاوة القرآن وكنا نتعجب من أنه كلما أراد أن يخاطب واحدا منا قال له سوف أقطع القرآن حتى أقول لك كذا فإذا فرغ مما أراد أن يخاطب به من يخاطبه عاد إلى التلاوة ولما اشتد به المرض الذي مات فيه أعرض عن مخاطبة الناس وانقطع إلى القراءة ولم يسمع منه إلا صوت صدره بالقرآن وفي اليوم الذي مات فيه دنا منه الشيخ حُميد وكان ملازما له فقال له أسمعني الآية التي كنت تقرأها الآن فقرأ قوله تعالى { وأما إن كان من أصحاب اليمين

فسلم لك من أصحاب اليمين } ففرح بذلك وتفآل به ، وكان ذلك آخر ما سُمع منه توفي رحمه الله عام ثمانية وستين وثلاثمائة وألف 1368هـ .
وأما أولاده فخمسة كلهم من أهل العلم وهم : المحمود ، وحسان ، ومحمدُ بضم الدال ، ومحمدْ بسكونها ومحمود ، وأقرأهم للقرآن حسان وكان مشتغلا في جل عمره بتحفيظ القرآن للأولاد فإذا لم يخدم في أمر الأولاد قبل على التلاوة ، وحدثني بعض أصحابي أنه رآه يكتب لوح بعض تلاميذه ويقرأ لتلميذ آخر درسه ويدرس عليه آخر وذلك من العجائب والنوادر ومن أمارات المهارة ، وكان له حظ من العلوم سوى القرآن لكن غلب عليه خدمة القرآن بالتلاوة والتحفيظ مات عام 1380هـ وترك ابنا وبنتا ثم ماتا بعده فليس له عقب .
وأعلمهم محمدُ بضم الدال دائما ومحمود .
***
أما محمود : فكان عالما فقيها غلب على طبيعته الاشتغال بكتب الفقه حتى كأنه لا يرى غير ما فيها شيئا يعجبه مع أنه يُقرأ الصغار القرآن والنحو واللغة نشأ بين والده وبني عم أبيه فتربى فيهم وتلقى عنهم شيئا من العلوم ، ثم أخذ عن الشيخ حمدًا وعن الشيخ المحمود وغيرهما من شيوخ أهل تَكَلْتَ وأهل تَبُورَقْ وكان على سنة سلفه من الجود وحسن القيام بأمور إخوانه والدفاع عنهم والإحسان إلى الجيران والضيوف حتى توفي عام 1403هـ ألف وأربع مائة وثلاثة

أما محمدُ بضم الدال : فهو أعلم من الجميع وأجود من كثير من أجواد أهل عصره ينفق في السراء والضراء وينفق ما يضن به من كرائم المال ومن الكتب واعترف له أهل بلده بالأجودية وأنه لا يخشى الحوادث والنوائب ولا يدخر شيئا لغد . وأما أعلميته فشهدها من حضر دروسه في البيان والفقه والأصول وكلُّ فن قرأه استعرق مدة لا يشغله إلا تحقيقه وتذليل صعابه بكثرة نقل ما يتعلق بالمسألة التي يريد تحقيقها من الكتب عمل ذلك حين يقرأ النحو في شبابه ثم استمر على ذلك حين يقرأ ما سوى النحو من الفنون إلى زمان كهولته . وأما أخذه للعلم فكان أولا عن مشائخ حيه من أهل تِكِرتِنْ أخذ عنهم النحو وشيئا من المختـ... وأول من أخذ عنه عنهم ابن عم أبيه عبد الله بن الميمون قرأ عليه القرآن ورسالة ابن أبي زيد ثم أخذ النحو عن كثيرين من حيه منهم ابن خالة

أبيه أحَمَ واسمه مَحمد أحمد بن أحمدُ بضم الدال ومنهم محمدُ بضم الدال بن عبد الله ومنهم حُميد ونوح ومحمد ابناء عبد الرحمن بن المنير ، ومنهم محَمَدْ بسكون الدال بن محمد المختار المعروف باسم لَقْلَقْ الأنصاري ، وأخذ ثانيا عن شيوخ أهل تَكَلْتْ الكبار كالشيخ سعد الدين بن عُمار وأخذ عنه شيئا من التفسير ، والشيخ محمودبن محمد الصالح أخذ عنه تلخيص المفتاح في البيان وجمع الجوامع في الأصول وشاركته في أخذ هذين الكتابين عنه ، وأخذ عنه شيئا من التـ... ومن الفقه ولازمه في آخر أيام الشيخ محمود حتى أخـ... عنه أنه قال له ... قد بلغتك معلوماتي من سائر .. وكالشيخ حَمّدا بن محمد كان يذاكره في جميع ما قرأ ويحققه عنه وجل ما أخذ عنه علم غريب اللغة وهو الذي استمد من شعره أو.... يحاكيه في ا... ثم فتح الله عليه في النظم فاستغنى عن كل أحد فيه وأخذ ثالثا عن شيوخ أهل تَبُورَقْ الكبار كالشيخ محمد نوح عرض عليه كثيرا مما قرأه ... وكالشيخ المحمود بن الشيخ حماد عرض عليه كثيرا مما أخذه فيه وكان من كُتّابه يكتب له مؤلفاته ... له ما يرغب فيه من الكتب التي يريد استنساخها ثم صار أمره إلى أن رغب في جواره وخدمته فانتقل عن حيه إليه ثم لازمه ملازمة الظل فصار أخذه عنه غير مضبوط لأنهما يتذاكران في كل ...رم وحبب إليه في صغره صحبة كبار العلماء وقربوه وعدوه من جماعتهم واعتبروه فو.. ما يعتبرون ... الشباب لما رَأوه من محبته للعلم والعلماء وحرصه على التعلم وكان من أحسن الناس خطا مع خفة اليد فيه وكان يزين الثبت بالطرر ويأتي من ذلك بالعجائب وكان نفاعا للناس بخطه ولما دخل في سن الكهورة انتصب للتدريس في سائر الفنون ونصح الآخذين عنه فكان يحرص على أن يؤخذ عنه العلم كحرصه على أن يأخذه في وقت الشباب فأخذ عنه جماعة أو جماعات يطول الكلام بتعدادهم منهم الشيخ البشير بن الشيخ حماد وجميع أهل طبقته من أهل تَبُورَقْ وأهل تَكَلْتْ وأهل تِكِرَتِنْ ، وكان من الصابرين على البلاء ابتلي في أخر عمره بمرض أو أمراض يشفق الناس عليه من أجـ... ولكنه لم يقابلها إلا بالصبر ولم يترك شيئا مما كان عمله قبل من التدريس والخط حتى مات . أما قيامه بأمور جيرانه وإحسانه ... وإلى سائر قرابته وإلى من شاء الله من غيرهم فمما لا خلاف فيه . وأما الإنشاد فأغلب ما عمل فيه نظم الشعر واعترف له من عرفه أنه من حاملي الراية فيه ولا أظن قصائده تكون دون الأربعين وكان نظمه في موضوعات مختلفة فاللائق أن يقوم أحد بتدوين شعره ويجعل له ترجمة مقدمة لا أن يلحق بالتراجم لكثرته . وأما

النثر فلم يكثر فيه فما قدر له أن يكتب في فن من الفنون التي يقرأها الناس ولكن كتب في تراجم بعض كبار علماء قومه فأظهر من اقتداره على صوغ الكلام وسجعه ما شاء الله بعض تراجمه موجود في كتاب " التبر التالد " وبعضها فقد ومن نظمه قصيدتان قرظ بهما بعض توالفي . والحاصل أن قصائده ينبغي أن تجمع ليستفيد منها من يريد معرفة العربية ومن يريد أن يسلك مسلكه في الإجادة ، توفي عام 1402هـ .
أما أخواه المحمود ومحمد : فلم يتركا أثرا علميا ، وكان المحمود من الحرصين على التعلم وجمع الكتب ، ومحمدْ بسكون الدال خرج من حيه فاعتزل بمصحفه فاقتنى المال ونفع به كثيرا من قرابته رحم الله الجميع ومات ولم ينكح .

الفصل الخامس

في الكلام على السبط الأنصاري الأيوبيّ

وهم بنوا محمد بن محمد بن محمود حُوَّ ، قد تقدم في **الفصل** الأول من الباب السادس أن جميع الأنصار السوقيين أيوبيهم ويعقوبيهم لم يزالوا متمسكين بالخصال الحميدة التي مدح بها الأنصار الصحابة في القرآن والحديث والمكارم التي مدح أسلافهم بها قبل الإسلام كالإيثار على النفس مع الخصاصة وعزة النفوس والقلة عند الطمع والكثرة عند الفزع والإقدام والإيواء والنصر للإخوان عموما وللشرفاء خصوصا والرضى بفدائهم بالنفوس والأموال . وهذه الخصال يشترك فيها اليعقوبيون والأيوبيون ، ولبعض الأيوبيين زيادة على من سواهم خصوصية الإفتخار في المجالس بتذللهم لكل من ينتسب إلى الشرافة وتعززهم على من سواهم والبالغة في إظهار تعظيمهم وحسن الإعتقاد فيهم حتى كادوا أن يصلوا إلى مذهب غلاة الشيعة من إثبات الحقوق النبوية لجميع أهل البيت العلوي ، فمنهم من يفتخر بأنه لو أمره بعض الشرفاء ببعض المخالفات لامتثل أمره ، وجل هؤلاء المبالغين ليسوا من حملة العلم . وأما العلماء منهم فطريقتهم مع الشرفاء البالغة في التوقير والتبجيل لاسيما في حق الضعفاء من الصغار والنساء والمستضعفين من الرجال ممن ليس معه ما يهاب أو يحب لأجله إلا لمجرد النسب الشريف فيظهرون من تبجيل هؤلاء الذين لا يعتبرهم غيرهم أشد مما يظهرون من تعظيمهم من يعظمه سائر الناس لوصف قام به غير شرف النسب كالعلم والجاه والرياسة والنجدة وغيرها ، وما زلت أسمع أن أهل هذا البيت فيهم كبار العلماء والأولياء وسمعت أسماء بعض كبارهم ووصفهم بالعلم والأدب والولاية وأنواع الفضائل ولكن لم أقف لهم على أثر علمي

ولا علي من يحصر تلاميذهم قد جمع أخي وابن عمتي المحمود بن يحي الأنصاري كثيرا من أخبارهم وأثنى على جماعة منهم بأنهم من كبار العلماء ولكن لم يذكر شيئا من آثارهم العلمية وليتني اطلعت على ما جمعه لأستفيد منه أخبار من لم أدركهم ولكن ما جمعه ضاع . أما الذين أدركتهم فلم أر منهم من يعتني بالتصنيف وإنما كان همهم مصروفا إلى الشعر وهو الذي يأتون فيه بالغرائب من المحسنات ومن الذين وقفت على شعرهم ولم أدركه سيدي محمد بن ماحي فقد رأيت له رسالة يوجهها إلى الشيخ حماد بن محمد في ضمنها قصيدة همزية أغرب فيها بذكر الحروف التي تتركب منها الكلمات المقصودة ونقلتها من خط أخي المحمود بن يحي ولفظها : (بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على طه الكريم ، حمدا لم جعل التعلق بأذيال أولي المحاضـ.. والمشاهدة ، مفاتيح تنقيح بها بغلقات الفلاح والسعادة ، وصلاة وسلاما على سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - قطب دائرة الوجود ، وعلى من سيماهم في وجوههم من أثر السجود وبعد : فإني لما كشف عني حجاب المماثلة البشرية ، وأطلعت على ما أودعك المولى الكريم من الخصوصية ، جعلتك فيما بيني وبين ربي حجابا وجنه ، فكيف أتحجب وأتترس من أعداء الإنس والجنة ، وأتوسل في الخروج من رق الأغيار ، إلى المهيمن العزيز الجبار ، فالآن إذ خشيت أن أحجب بالإكتفاء بالإسرار ، رأيت أن أجمع بين الإسرار والإظهار ، فأقمت بعون الله اللام مقام الدال حياء وهيبة من أن أشافهك بالأمر والحال :

ما كنت في أخريات الناس من حسد ... ولا لإنكار ما مولاك أولاكا
لكن تأخرت إجلالا لما شهدت ... عين البصيرة من تفخيم معناكا
فلا تعرض لي ولا تحرك لي ... ولا لسان معي في حال مرآكا

ولولا الحياء والهيبة التي تعتريني عند مجالستك ، وتحول بيني وبين أن أسألك من دعواتك وأن أستأذنك في التعلق بأذيالك ، والدخول في زمرة أطفالك ، ما عقدت البنان على القلم ، على أني سواء عندي أخطأت أم أصبت في المقال ، إن ظفرت بالقبول والإقبال ، وإلا فإنا لله وإنا إليه راجعون :

ألا لا أبالي اليوم ما صنع الدهر ... إذا منعت مني مليكة والخمر

لهذا والسلام ورحمة الله وبركاته عليك ، وعلى من معك ومنك وإليك ، ما أخلص من سيقت له العناية ، ففاز بتوفيق الله بحسن النهاية ، شعر :

إدَارمَــي وهــي قفــر ... عــين وشــين وراء

دار بهـا قبـل يقـضي ... واو وطـاء وراء
لكـن علـى الـدار أختـى ... مـيم وواو وراء
وجـاء بعـدك عنهـا ... مـيم وطـاء وراء
حتـى أنمحـت وهـي جـدا ... قـاف وفـاء وراء
دع عنـك مـا لـيس فيـه ... خـاء ويـاء وراء
ولـم يكـن فيـه إلا ... تـاء وعـين وبـاء
والـداء فأشـك لـشيخ ... لديـه طـاء وبـاء
بـه يـتم ويعلـو ... همـز ومـيم وراء
ولا تـذق طعـم نفـس ... فالـذوق شـين وراء
فـإن غنمـت قبـولا ... منـه فحرفـك ظـاء
أولا ، فإنـك جـدا ... خـاء وخـاء (1) وهـاء
يـا غـوث حمـاد إنـي ... دال ونـون وفـاء
وعلتـي مـا عليهـا ... حـاء وجـيم وبـاء
إذ لـيس يخفـى علـيكم ... فـضلا عـن الـضد خـاء (2)
تـداركني فعجـزي ... عـن هـذه الـداء ظـاء (3)
وأرحـم إليـك عـويلي ... فأنـت بـاء وراء
وأنـت مـشتك لـشاك ... وأنـت حـاء وراء
وأنـت للخلـق حـصن ... وأنـت للعلـم بـاء
وأنـت بالـك حقـا ... مـيم وراء وبـاء
نفـسي فـداك ومـالي ... لهـا عمـادي تـاء
مـن الـسلام سـلام ... عـين وذال وبـاء
علـى الرسـول وآل ... مـا طـار فـي الجـو طـاء
ومـا أتِـمّ بهمـز ... شـين وعـين وراء
ولـه أيـضا فـي مـدح شـيخه حمـاد قـصيدة داليـة أولهـا :
يا سيدي يا ولي الله حمـاد ... أنـت الحجـاب وأنـت المـاء والـزاد

---

(1) (1) خائـب وخاسـر وهالـك . المؤلـف
(2) (2) خيـر .
(3) (3) ظاهر . واتخذ أصحابه هذا البيت مطلعا لقصائدهم في موضوع مدح شيخهم والانقياد له وكان صاحب البيت هو الذي يتخذونه إماما وقدوة ، وليس عندي من أخباره التفصيلية شيء ، وقد سمعت من أقرانه الذين أدركتهم الثناء عليه ووصفه بالفضائل رحمه الله ولا أقدر علـى

تعيـــــــــين ولادتـــــــــــه ولا وفاتـــــــــــــه .

***

ومن الذين وقفت على أثرهم ممن لم أدركهم حمّتِ بن أبي هريرة : وكان من المجيدين ورأيت بخط الشيخ إسماعيل بن محمد الصالح قصيدة لــه كتب في آخرها ما لفظه : (انتهت القصيدة البليغة التي تكاد من بلاغتها أن يحجر عليها أن تكتب إلا بمداد ذوب ... وأن يذهب من ينقب علــى مخدرات معانيها البديعة كل مذهب على يد كاتبها إسماعيل بــن محمــد الصالح راجيا من المولى الرحيم أن يرحمه وناظمها الذي كان أبا عذرها ، ومبتكر حلوها ومرها حَمَّاتِ بن أبي هريرة الأنصاري البالغ في التقوى ومقاساة الأتصال بالمولى مبلغا لا تحيط به العبارات وأن يجعله من الذين يقاله لهم غدا سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين آمين . أنتهى مـا كتبــه عنـــه وعـــن شـــعره ، وأمـــا القـــصيدة فأولهـــا :

عل أنت أشجانا تكابد أسـرها ... واكفـل مهاملهـا وكـافح عـسرها
واركع لسلطان الهوى وأسجد له ... واستكف حر العـور منـه وقرهـا
فلربمـا سـام المحـب تعبـدا ... لكـن عبادتـه نكابـد شـكرها
إني أراه متى استطال على أمري ... أشلى إليه مـن المهانـة مجرهـا
فلقد جنت يده علـى وكـم جنـت ... منهـا رعيتـه بـشيعا جورهـا
يوم ابتلتني بـالفراق غديّـة ... مين أهـل حنـة لا أحـاول غيرهـا
فغدا ، يحن ولات حين حنينه ... قلبـي ونـار الغـم أبطـن جمرهـا
وتروح روحي إذ برحت براحة ... من لمحها والنفس تُـسلب صـبرها
ولعبرتي صبب وتصعد زفرتي ... والخد مـا اتخـذت سـواه مقرهـا
ممن لي بأس أو معز مسعد ... مـن علتـي ويقـي فـؤادي ضـرها

وأطـال فـي التغـزال إلـى أن قـال بعـد عـشرين بيتـا :

دعها فإنك لست تدرك صفوها ... وأحسب عريكتهـا توافـق خبرهـا
لكن محبا في الحفاوة بالغا ... أغيى المدى بدآ كريما مدرها

إن الصفاء إلى الوفا للمصطفى ... وعليه تبني رحى الـسيادة دورهـا
كل الخصال الحسنيات قد أحرزت ... كفاه وهـي لـه غـشاء غرهـا
رشأ مليح حـاز أوفـر بهجـة ... أنـساك فـارة تـاجر أو عطرهـا
لو عاشر امرأة العزيـز صـلاوة ... لأراحهـا همـا وبثـت سـرها
أو غازلته وجد في تعطافهـا ... هنـد ، لخـصت بالقطيعـة بـشرها
أو كان شر الخنساء يوم بكائها ... لـسلت برعيتـه وناسـت صـخرها

فإليه من عندي سلام طيب ... تأتي له نفس المصادق بشرها
وتحية كالقطر في فوح الكبا ... يا فوز منتشق يقابل نشرها
وعلى النبي الزمزي محمد ... أوفى صلاة والسلامة إثرها
وعلى صحابته وعليه آله ... ما حبرا نظم الصلاة ونثرها
ولم أقف على غيرها كما لم أقف على تاريخ ولادته ولا وفاته ولا عقب له وهو ابن عم موسى والد الشيخ أحمدُ بضم الدال الذي تأتي ترجمته عن قريب .

***

وممن ذكرهم الأخ المحمود بن يحي ووصفهم بكثير من الفضائل وأبنهم من كبار العلماء ولكن لم يذكر لهم أثرا علميا لا نظما ولا نثرا ولم يذكر شيوخهم ولا تلاميذهم جماعة تزيد على عشرة منهم :
والده يحيي بن محمد الصالح ،
ومنهم ابن عم والده الكَلاعي بن ماحي ولا عقب له ،
ومنهم محمد بن الهادي ويقال له حَنَّ ،
ومنهم محمد بن محمدُ بن إبراهيم بن أمَّن ،
ومنهم أهُكَّ بن ثَاني ،
ومنهم محمد بن المصطفى ،
وابن عمه محمود ،
وابن عمهما محمد بن محمد المختار المعروف باسم لقالقَّا .
وممن ذكر لهم أثرا :
محمد الصالح المعروف باسم هَنْدِيًا ذكر له أبياتا أولها :
يا سيدي يا من به التوصل ... إلى متى إلى إلهي أصل
وسمعت أنه من العلماء الشعراء أو الشعراء العلماء .
ومنهم محمد بن عبد الله المعروف باسم بَرْكُوشْ .
... محمدُ بضم الدال ابن هنديّا .
ومنهم المنير بن مسلم .

***

وأما من أدركتهم ممن ذكرهم وعرفت شيئا من أخبارهم بالمشاهدة فمنهم محمد الأمين بن ثَاني ويقال له نَرَى : وهو من كبار العلماء وكان مشهورا بالولاية واحترام المحترمات ، وكان يصعق كلما سمع كلمة تنافي تعظيم الجناب الإلهي أو النبوي ، وكان مستغرقا في محبة علم

التوحيد حتى كأنه لا يعرف غيره من العلوم من كونه يعرف غيره ، وله قصيدة يخطب بها الشيخ يذكر فيها إرادته له وأولها :
لك حماد مكنة وقبول ... عند رب السما وحظ جزيل
وأجابه الشيخ عنها بأخر وتماثلها في البحر والروي يبشره فيها بقبوله لشعره وأنه منه بمكانة عظيمة . والقصيدتان موجودتان في " التبر التالد " .
ومنهم أحمدُ بن موسى ، وأخوه محمد الأمين ويقال له مَتَلَّمِنْ .
***
أما أحمد : فمن العلماء الأتقياء وكان حبيبا وقورا صموتا ، وكان له مشاركة في سائر العلوم لكن بلغ من الحياء والصمت أن من لم يخالطه لا يعرف أنه عالم ولا يعرف عالميته إلا تلاميذه وخلطاؤه من إخوانه الذين يشاركونه ، وكان معرضا عن الإفتاء وعن التعرض للمناصب ولولا شعره ما عرف قدره ولا مذهبه ولا شيء من أحواله لأنه لا يأتي من نظمه بغرائب وبدائع وهو من المتفوقين ي النظم وكان نظمه في موضوعات شتى منه ما كان على طريق الإخوانيات التي تجري بين الأقران ، ومنه ما كان ردا على بعض المفتين ، ومنه ما كان في الدعاء ، ومنه الرثاء لبعض المشايخ ، وشعره لو جمع لكان ديوانا حافلا فلا يحصيه أحد في الترجمة لأن إحصاءه يدعو إلى التطويل . فمن محاسن شعره أن بعض أصدقائه قال له أريد أن ترسل إلي سلاما منظوما ووعده إن فعل ذلك أن يهدي إليه شيئا ، وكان ذلك الصديق من السودان أهل الزرع واسمه محفوظ بن إبراهيم فأنشد مرتجلا :
إليك سين ولام ... ممدودة بعدها، م
ما جاوز القوس لام ... أو جاور الرأس لام
أو عرف الجنس لام ... أو جرت الاسم لام
أو قارنت إن لام ... أو سامت الجزم لام
وقيت مما تلام ... عليه أو تستضام

إيه ووافاك عام ... فيه يغاث الأنام
وفيه يلفى الطعام ... لديك وهو ركام
مر إلى أن قال :
لازلت منك يرام ... خير فيلفى المرام
ومنك يرعى ذمام ... وعنك ينثى أثام

بحـــق مــــن ســـاد ســـام ... بـــه عليـــه الـــسلام
وبعــــــد ذا فــــالتزام ... مـــــن الكــــرام لــــزام
والعهـــــــد أمــــــر عُظـــــام ... ونـــــاكثوه لآم
وحـــــافظوه كِـــــرام ... وأنـــــت حـــــر كُـــرام
لـــــه أبـــون قيـــام ... بحفظـــــه مــــا أقـــاموا
والوعــــد ديــــن حــــرام ... إخلافــــه والـــسلام

ومن محاسنه أيضا لاميته التي قالها حين ســمع أن بعــض المتعــززين المفتخرين بأنهم من سلالة جد كريم كان هــو وذريتــه أفــضل النــاس وأعزهم استطال على بعض أهل البيت لولاية جده وبنيه وتوليهم منصب القضاء وبلغ ذلك المفتخر بنسبه من التعاظم أن رفع نفسه فوق الــشرفاء وأنزلهم بمنزلة الأرقاء لبني جده الذي زعم أنه من أكبر الأولياء ، فقــال أحمد منكرا عليه تعاظمه واحتقاره لأهل البيت النبوي ورفعه جده فــوق جــدودهم ونــسبه فــوق نــسبهم والتعــزز بــأنهم القــضاة :

يا ليت شعري هل حوى الجد الولي ... ما لم يكن يحوي أبو حسن علي
أولاية لم يحوها هذا جــوى ... هــذا فمــن ينمــي لــه فهــو الــولي
أم أي مقبة هنا وهناك قد ... حــصلت لــذاك وذا ، لــه لــو تحــصل
أم هل أتى في فضل ذا ما لم يرد ... في فضل ذا أيــضا عــن أفــضل مرســـــــــــــــــــــل
لا لاوايهمــــــا الحليــــــــل لأمّتــــــا الـــــــــــ ... ـــــــزهرا وصــــــهر المــــــصطفى المزمــــــل
وولـــــــي مـــــــن كــــــان الرســـــول وليــــــه ... والــــــــــداخل الإســـــــــلام أول أول
أم هل له ولولده ، هيهات مــن ... مــولى وجــد كالرســول الأفــضل
أم هــل تكــون ســيادة وســعادة ... إلا بعلــم أو بأصــل معتــل
أم هل على العلوي يفخر بالقضا ... والمصطفى قد قال أقــضاكم علــي
أم هل يسوق تجاهنا الرزق الذي ... منه العلوم سوى القــضاء المنــزل
أم هل تُرقٍّ وأنهم ...ـام الورى ... أبناء بضعة خيــر مــن ذرا الــولي
وبنوا الأمــاء تحــرروا وتحولــوا ... ســادات ســادات أتــم تحــول
وتخلصوا من ربقة التعبيد واســ ... ـتعلوا على الأحرار بعــد تــسفل
أم ما الذي هو أصل تي الدعوى التي ... ثبتت بلا أدنى دليل منجل

إني لأجهل أصلها إن لم يكن ... حسدا ومن يعلمه فليذكره لي
ومن حسان شعره وكله حسان قصيدته الاستسقائية التي أولها :
يا ربنا يا من إذا لم يُسأل ... يغضب وإن يسأل يجب السول
ولكم وكم أعطى جليلا زا... ... عن جاجة لمغفل لم يأسل
يا حي يا قيوم يا من فضله ... قد عم ذا فضل ومن لم يفضل
يا فرد يا صمد المجيب لمن دعا ... أنت القريب وأنت راحم من بُلي
إنا ، وإنك عالم قد مسنا.. ... من سوء ما نجنيه ضر منجل
وأحاط حائط حاجة بجهاتنا ... طرا فما أغنى حويل الحول
ويقيد محل صفدت آثامنا ... أعناقنا مغلولة للا رجل
والقيظ يشوّينا وكوينا بلف... ... ..حات بها مسياوهـ.جا نصطلي
وعلى العيال اشتد خوفه معيل ... واغتم إشفاقا على المال ، الملي
والأرض أضحت من لباس النبت معـ ... ـراة وغورا ما بها من منهل
فتذبذبت أراونا وتبددت ... أحياؤنا من طول بؤس منهل
إذ ضنت الخضراء عنا بالسما ... فشحت الضراء عنا بالحلي
مر إلى أن قال :
يا قائل ادعوني يليها استجب ... لكم ، استجب إن الجزا شرطا يلي
أدعوك ممتثلا ومنتجزا ...ـ ... ـدك بالإجابة يا حميد ويا ولي
لو لم ترد نجحي بمسئولي لما ... علمتني طلبا فجد يا لسؤل لي
لو لم تجب إلا مطيعا لم تجب ... إبليس وهو إمام كل مضلّل
إن لم أكن أهل الدعاء فأنت يا ... رحمان أهل تكرم وتفضل
إن نطعك بسائر الطاعات يا ... ربي فبالدعوى أطعنا فاقبل
ولئن قرفنا سيئات جمة ... فبسيئات اليأس لما نعمل
مر إلى أن قال :
غثنا بغيث من أتي من غبه ... من أي ما صقع يحدث بالولي
يكسو البلاد وسادها وتلالها ... ثوبى نباتات وماء سلل
ما إن يغادر ربوة إلا كتسته ... حلل الخلا أو واديا الأملئ
قال لي بعض العارفين به والمجاورين له لما بلغ هذا المحل رأى سحابة فقال :
ولقد تبدت لي مخايل جابتي ... فثنيت حينئذ عنان المقول
فلك المحامد كلها ولك الثنا ... ..خير مسئول فأفضل مفضِل
يا رب إيماني لديك أمانة ... ووديعة فاحفظه لا يتحول

إشدد وشد صرح الصلاة مكرسا ... بأساس تسليم على طه العلي
خير الأنام محمد في آله ... وصحابه الغر الهداة الكمل
إهـ ولتاه بعض أصحابه يوما فقال له يسلم عليك الشيخ المحمود بن الشيخ حماد فقال بالفور :
وعليك التسليم والرحمات ... من ربنا تلثهما البركات
..احييت بتحية أرض وما ... نقلت لحرف ساكن ، حركات
يآي بثالثة من الفآت قد ... سرت كما عرفت به الباءاته
وبالا وليس السير مسئوله فكم ... سارت بمثلي منكم اللحظاته
..هذان البيتان فيهما بعض خفاء على كثير من الناس ومعنى قوله "يآئ بثالثة من الفاءات قد جرته باء البركات " التي هي باء الكلمة " الثالثة " جعلها باء جر فجر بها يا المتكلم ، يعني نفسه ...سين السلام التيه فاء الكلمة الأولى وراء الرحمة التي هي فاء الكلمة مركب منهما أمر من السير ..هو سر فلذلك حل لغزه بقوله :
سر بي إلى رب على ما بي ولا ... تظفر بي القطاع والآفات
...ز بي المخاوف والمتالف واطربي.... طرفي ، ولا تبطئ الخطرات
وهي ستة وعشرون بيتا .
وقال في مدح شيخه حماد بن محمد :
بشرى لنا بالمغنم البارد ... والمنهل المُنهل للوارد
والطالع السعد الذي ضوءه ... يضيء للجيرة الوافد
ونعمة عمّي قد أسبلها الـ ... ـمولى على المولود والوالد
مر إلى أن قال :
غيث مغيث لم يزل بارقا ... وليس وقت الصوب بالراعد
جابي اليتامى باليتامى العلى ... كنز العطايا نجعة الرائد
وأهاله من عارف ناسك ... باني المعالي سائل سائد
وجاضع مبنهل حاسع ... وراكع مهتبل ساجد
مذكّر مدّكر ذاكر ... مرتل مدبر سارد
ما ينقم الجهال منه سوى ... تعظيم أمر الأحد الواحد
والشوق والوجد لحضرته ... فيا له من واصل واجد
والنبذ للدنيا وراء القفا ... والصد عن متجرها الكاسد
والصفح والإغضاء عن هفوة ... من كل مار مارق مارد
والأمر بالمعروف مؤتمرا ... به إئتمار المرشد الراشد
وترك ما ينكر مشتمرا ... في الزجر للغير ، عن الساعد

كم ليلة لليلاء باردة ... أحيي بجفن سياهر ساهد
يعرض إن تعرض عليه الدنيا ... إعراض فإن ذاهب زاهد
إلى أخرها وهي طويلة .

***

وأما أخوه محمد الأمين المعروف باسم مَتَّلمِنْ : فقد رأيته وهو من الكرام حسن الخلق خال من الفخر بالعلم حتى لا يعده من لم يعرفه من أهل العلم لعدم فخره ، ولا أعرف شيوخه وليس له تلاميذ كأخيه أحمدُ ، ورأيت له قصيدة في الاستسقاء يبتدء أبياتها بحرف من حروف قوله تعلى { سيجعل الله بعد عسر يسرا } وأولها :
سيجعل الله بعد شدة الزمن ... يسرا يزيل سواد شدة الفتن
يا من إذا ما دعاه العبد من قلق ... ومن أسى زال خوفه مع المحن
جد ياكريم فإن الخلق خيرهم ... ما صير القلب خوفا منه ذاخرن

***

ومنهم جماعتهم الموجودون في تَنْغَ أكَل بأرض كُوس : أدركت منهم أحمد بن سيدي الأمين وأخاه أحمد محمد ، وابن عمهما محمود بن محمد المعروف باسم خَبَلا وهؤلاء كلهم من العلماء الأخيار ، والأجواد الأبرار ، يعرفون في أرضهم بالعلم والسخاء والنزاهة .

***

وأحمد بن سيدي الأمين : من الآيات في إتقان العلوم وحفظها ولا يزال بيته مملوء من التلاميذ كما لا يخلو من ضيوف يبالغ في إكرامهم ولم أر له نظما ولا نثرا .

***

ومن العلماء الأجلاء من أهل بيته حَتَبُ ، وابنه المحمود : كلاهما من العلماء .

***

أما حَتَبُ : فيذكر عنه أنه من المتشددين في إنكار المنكر ، ومن المحافظين على السنة ومدح النبي ، وتعظيم أهل البيت النبوي ، ولم أقف له على نظم ولا نثر ، ولم يكن بجوارنا حتى أعرف من معاصريه وتلاميذه كثيرا من أخباره .

***

ومن رأيتهم محمد بن مسلم ويعرف باسم مَوَال : كان من العلماء ومن أحسن الناس خلقا بساما في وجوه الناس إن صدرت منه فلتة غضب فعلى سبيل الندور ، وقد أدرك الكبر عنده والديه فأحسن صحبتهما وأحسن إلى أولاهما بأنواع البر والتعليم والإرشاد وكان فائقا في نظم الشعر ولم أر له نثرا ، ومن أحسن شعره ما رثي به الشيخ بايْ بن سيد عمر الكنتي ، وما رثي به الشيخ حماد بن محمدُ ، وما رثي به خاله مُحمد بن أحمدُ بضم الدال أحمدُ دائما أما ما رثيته للشيخ بايْ فأولها :

نزيل الحد كوكب مسعود ... أم بدر تم ذلك الملحود
بل ذاك سيف أفاد كل مهمة ... والسيف بعد إفادة مغمود
وكتاب أكمل صنعة واستصوبت ... حركاته فلطيه مردود
ورفيق قوم في الجنان وآهم ... رجعى فالآن استنجز الموعود
قصد الحمام من النفوس نفيسها ... أنت النفيس فمثلك المقصود
كل الخلائق قد أتوك محبة ... والموت خلق منهم معدود

وهي تزيد على ثلاثين بيتا . وأما مرثيته لخاله محمد بن أحمد ويعرف باسم مَمَّ ييباي فأولها :

...بد دعاه إلهه فأجابا ∴ قطع العلائق دونه وحجابا
ضحى الحبيب بنفسه مرضية ... ...ذ راضهالا ترتضي استصعابا
بذل النفائس فاستقل جميعها ... فسخا بنفس ما بذلك تأبى
...تخذ المنية سلما لينال من ... دار السلامة منية فأصابا
تاقت قرونته للقيا ربها ... .بأم دفر يألف الأربابا

وهي أيضا تزيد على ثلاثين بيتا ، وله كثير من القصائد الحسان . توفي عام ألف وثلاث مائة وخمسة وسبعين 1375هـ ومن علمائهم وشعرائهم المحمود بن يحي : وهو من الفضلاء المحسنين، مات أوبوه وهو رضيع وأمه بنت عم والدي فجاءت به أمه إلى قومها وكان لها أخ اسمه محمد الصالح بن مَحمد بفتح الميم فتربى على يديه وعلى أيدي بني عمه أبناء عُمار وكانت ولادته في حدود ثمانية وثلاثين بعد الألف وثلاث مائة 1338هـ فلما بلغ سن التعليم قال ...و عم والده الأقربون لأخواله هذا الصغير لا ننزعه من أيديكم لأنا نثق بأن تكونوا في تعليمه وتأديبه مثلنا أو فوقنا ، ونحن نقوم بحفظ ماله وتنميته ، فقرأ القرآن والعقائد ومبادئ علم النحو على يدي خاله شقيق أمه ، ثم مات خاله قبل بلوغه فبقي في تربية بني عم أمه وتعليمهم ولم يألوه نصحا ولا محبة ، وكان يأخذ النحو عنهم وعن مفلح بن محمدُ المشهور بالمهارة في علم النحو وتفهيمه ، وعن محمد أحمد المعروف باسم آخَمَ بن أحمدُ وأكثر الناس تأثيرا فيه

الشيخ حمّدا بن محمد ، وكانت أمه بنت عمه ، وكان بيته ملاصقا لبيت أمه وملازما له في الجوار ، فكان أكثر ما تعلم من الفنون إنما تعلمه بواسطته قرأ عليه النحو اللغة والبيان وتأثر به في نظم الشعر ، وكان أولا يحكي مسلكه في النظم ، ثم أخذ فن البيان عن الشيخ محمود بن محمد الصالح ، ثم عرض كتاب تلخيص الفتاح على الشيخ المحمود بن الشيخ حمادُ مرة ثالثة حتى تضلع من علم البلاغة وقرأ المنطق على شيوخ حيه من غير اختصاص بأحد ثم قرأ جمع الجوامع على الشيخ حمّدا وعلى الشيخ المحمود ، وأخذ التفسير عن ابن عم أمه الذي رباه وهو الشيخ سعد الدين بن عُمار ، وأخذ عنه أيضا كثيرا من مختصر خليل في الفقيه ، وأخذه أيضا عن الشيخ حمّدا بن محمد ، وعن الشيخ أحمدُ بن الأمين السوقي الكنتي ، وكان حسن الخلق والخلق سمحا جوادا يرحم الضعفاء والأرامل ويحب المساكين ويعظم العظماء ويحبه سائر من خالطه وكان محبا للعلماء والعلم حريصا على الاستفادة من كل من كان أهلا للإفادة سواء كان كبيرا أو صغيرا ،وكان ممن وضع له القبول والمحبة في قلوب الناس وخصوصا أهل العلم فإن العلماء الذين نشأ بينهم كانوا يحبونه ويجلونه ويستحسنون شعره وأدبه ويعتبرونه من الكبار في أيام شبابه ويعدونه من العقلاء الناصحين ويشاورونه ، وخاله الذي كان من أعظم مربيه وشيوخه وهو الشيخ سعد الدين بن عُمار فوض له أموره العامة والخاصة حتى عده كل من يعظمه ويثق بمنزلته ، وكان برا بإخوانه وجميع معارفه ، وكان له تلاميذ في النحو والفقه واللغة ، وكان له من الذكاء والفطنة ما يتعجب منه قل أ، يستعصى عليه تركيب صحيح الوضع ، كنا معشر أقرانه وزملائه في الدروس نلجأ إليه في إفهام ما يستعصي علينا من العلوم التي نقرأها معه وله جولات في أحياء إخواننا السوقيين غير حيه مثل آل الشيخ إفنْفَنْ وأهل تَنْـغَ أكَلْ وأهل تِمُوكَسِنْ وعلماء دَوِ إسْحَاقْ وغيرهم ، ففاوض علماءهم في سائر العلوم ورضوه وزكوه وأعجبوا بشعره وما نال من سهولة ألفاظه مع بلاغته حتى كان شعره لا يصعب فهمه على كل أحد مع ما يحتوي عليه من المعاني الشريفة ، ولم يشتغل بالتصنيف كأنه لم يعتبر الإنشاء إلا نظما ، ووضع تراجم لكثير من علماء عشيرته الأيوبيين ولكنها ضاعت وبعض تراجمه لهم مدون في كتاب " التبر التالد " للشيخ المحمود بن الشيخ حماد فلينظره من أراده عنناك . وأما الشعر فهو الذي يهتم به ويكثر منه وله شعر كثير جيد بعضه في مدح إخوانه وذكر ما يقاسي من فراق من فارقه منهم وبعضه في المراثي وبعضه في المدائح النبوية ، وبعضه في

التقاريظ ، ومن أجود شعره قصيدته التي خاطب فيها أصدقاءه من بني الشيخ محمد المعروف باسم أزَمَمَّرَ ، وسببها أنه بلغه أن واحدا منهم أهدى له شعرا يتضمن شوقه إليه ولم يصل إليه فحرك فيه ذلك كل ساكن وتذكر أياما مضت كان بينه وبينهم فيها تواصل وتعاطف ومؤانسة ، وكان ما بينه وبينهم من المودة والإخاء شيئا يتوارثه الأخلاف عن الأسلاف ويتواصون به ، وكان يكثر زيارتهم حين كانوا معه في البلد قبل هجرتهم إلى الحرمين الشريفين وانقطع التزاور بينه وبينهم على نحو ما كانوا عليه قبل إلا أنه حج بعد وصولهم إلى الحرمين ثلاث مرات يجدد الصلات بينه وبينهم . ولما سمع الشعر الذي لم يره أنشد قصيدته الآتية يذكرهم فيها بما يعرف من فضائلهم ويذكر من يثنون عليهم من إخوانهم الذين حجوا واجتمعوا بهم فرأوا من إحسانهم إليهم ما دعاهم إلى كثرة الثناء عليهم وبث فضائلهم فعمم في مدحهم ثم خص منهم أشخاصا سماهم وأشار إلى أنهم من أحبابه وخواصه ، والقصيدة هي :

صب أصاب قواه سحر ساحر ... أن طن في أذنيه شعر شاعر
لم أدر أن السحر من أسمائه ... شِعرٌ وأن الشعر منه مخامر
سمعت به آذاني ولم أر ، فاعتزى ... جسمي الضنا والقلب شوق قاهر
وذكرت أياما مضت ولياليا ... لا ثم منتهر ولم يك ناهر
أيام نسبح في بحار المشتهى ... والعيش غض والخدود نواضر
أيام لا شيء يفرق بيننا ... لله ذالكم الزمان الغابر
فتساقطت عبراتنا واصاعدت ... زفراتنا وإلى الشتات الخاطر
قلق يدوم وحرقة ، ثبج الحشا ... يصلى به ، والجفن دام ساهر
وتشاجر الـ....ال اما عاذر ... أو قائل أن المثاب الصابر
لو أنصفوا لم يحضروا أهل الهوى ... كل امرئ يهوى فقالٍ نافر
أعم أصيم المسمعين مخبل ... مسلوب عقل مستهام حائر يا عاذلي نحيا
فليبدون ... أيي وأيكم الملوم الحائر
ما لي وللاحي ، وكل معاصر ... تيسيٍّ أصل قد ألِفتُ مهاجر
أين الفتى مَيْتَالِ (1) واحد عصره ... أين المحب ابن المحب الغابر
أين الفتى الحسني ابن محمد (2) ... أين الصديق الأحمدي (3) الماهر
أين البنون رعاهمُ مولاهمُ ... أين اللواتي وليتهن حواضر
القانتات الطاهرات أبوة ... وجدودة والأمهات طواهر
قرأت عيني لم تزل من بعدهم ... مَرْهَا هامٍ دمعها متناثر
حبات قلبي روح جسمي قوته ... قواته وهم شذاه العاطر
أو بعد هجرتهم وكنت مخلّفا ... تجدي النصائح أو تفيد زواجر

لا لا ولم ، لما ولن ، ما لم يعد ... يوما من الأيام أمس الدابر
أيْهَانَ كلاّ ء أيآن (4) فهل سلا ... عن حزبه آلاخئون غادر
ما كنته بالله جل ، أليتي ... والله لا تخفى عليه سرائر
هم سادتي وأحبتي وعشيرتي ... وهم الفصيلة غائب وحاضر
ولهم عليّ ولي عليهم ذمة
... مرعية لا هم ولا أنا خافر
أوت جدودهم الجدود جزاهمُ ... خير الجزاء الله فهو القادر
فتلازموا وتدارسوا وتواهبوا ... وتعاونوا ، هذا لذلك ناصر
شركاء في محويهم رحماء في ... ما بينهم فمشاوَر ومشاور
ومنهِّض ومنهَّض ومساعِد ... ومساعَد ومذاكَر ومذاكِر
لا خائن في صحبة لا أخذة ... من فلتة لا لا ولا متفاخر
لا بدع أن الشمس مطلعها السما ... وسموهم جدًا فجدًا ظاهر
هم مطلع الأنوار منذ وجودهم ... علم تراثي وصيت سائر
درسٌ وتدريس وسر فيهم ... سار ، سواء صاغر أو كابر
رشد وإرشاد صدور وسعت ... مشروحة للمعلوات مصادر
كرم وإكرام قِرى كم عجلت ... للمستضيف فذابح أو ناحر
مر إلى أن قال :
شهدت بذاك عدول كل قبيلة ... فلهم على رغم الجهول مفاخر
شهد البشير (5) بذا وسير صيتهم ... بين القرى . أما المنير (6) فناشر

---

(1) 1) مَيْتَال هو محمد الصالح بن الحبيب
(2) 2) هو
(3) 3) الشيخ / محمد بن أحمد
(4) 4) لغة في " هيهات "
(5) 1) البشير بن حماد
(6) 2) هو ابن حماد .والسيد المحمود (1) عدل مرتضى ... في عصره ، مثن عليهم شاكر
والوالد المرضي حَمّادٌ (2) لهم ... من عنده في الشكر حظ وافر
سماهم نصا " أهالي بدره "
... والقوم قولهم عليه الساتر
فالله أعلم ما المراد بـ" بدره " ... وكفاهم منطوقها والظاهر
والسيد القاضي العتيق (3) بفضلكم ... أفتى وسلم عَنْ وحَبَّ (4) الماهر

وهنا تخلص إلى تخصيص صديقه وقرينه وزميله في الطلب محمد بن أحمد فقال :

أما ابن أحمد منكمُ فقد ارتقى ... فنن العلى والكل بحر زاخر
ألف التعلم عنفوان شبابه ... حتى المشيب فناظم أو ناثر
جلساؤه أشياخه لا أهله ... آلاته دولابه ومحابر
أقلامه أصحابه ومبيته ... حيث المدارس والأنيس دفاتر
حملاته في الدرس لا يقوى لها ... فاحضره يوم الإمتحان ، معاصر
أوراده بعد الصلاة صِلاته ... ولسانه والقلب تال ، ذاكر
متأدب ورع وقور عليم ... متفنن في كل فن ماهر
خاض الفنون وراضها فاجتازها ... رغم العوائق أين أين مناظر
وافت قواف منه لم ينسُج على ... منوالهن البحتري الشاعر
وهي طويلة ولكن فيما سطرته منها كفاية .

---

(1) 3) المحمود بن حماد
(2) 4) حماد بن محمد
(3) 1) العتيق بن سعد الدين
(4) 2) حَبَّ بن محمد أحمد

ومن جياد شعره قصيدته التي خاطب فيها إغْلَسْ بن مَحمد بن اليَماني عالم كَلْ تَمُوكَسِنْ وشاعرهم ، وسببها أن القحط عم بلادنا في عام ثلاث وتسعين بعد الألف وثلاث مئة 1393هـ وكاد أن يفني جميع المواشي التي هي قوام أهل البلد فجلا الناس عن أوطانهم وعمت الحيرة وتفرق أهل البلد شذر مذر ولجأ بعضهم إلى القرى القريبة منهم وبعضهم هام على وجهه ولا يدري أين يقصد وبعضهم فرّ إلى الدول المجاورة ليجد ما يسد به رمقه فلما رأى الشيخ إغْلَسْ بن محمد ما أصبح فيه الناس خشي من ذهاب المرؤة وضياع العلم فيمن كانوا يهتمون به ويحافظون على إقامة معالمه بالدرس والتدريس فأنشأ قصيدة يعظ فيها الناس ويذكرهم ويوصيهم بالصبر على الشدائد والمواظبة على سيرة أسلافهم الصالحين ويحذرهم من الجري خلف الأهواء ومحاكاة غيرهم من أبناء الدنيا والذين لا همّ لهم إلا بطونهم ولا يهتمون بإصلاح حالهم ولا مستقبلهم ، ثم أرسل قصيدته إلى حينا مستعينا بهم في نهي الناس عن أن يستفزهم ما صاروا

فيه ويتركوا تراثهم من التأدب والتعلم ، فأجابه جماعة بما يتضمن تبشيرهم له بأن ما يخافه من إعراض الناس عن تراث أسلافهم لأجل ما نابهم لم يقع في جماعتهم بل ما زالوا متمسكين بما كانوا عليه ولم تزلزلهم الزلازل والزعازع ، ومن المجيبين المبشرين له المحمود بن يحي صاحب الترجمة ، وأول قصيدته :

فأجأتكم أحدى بنات قضاعه ... .

فلما وصلت إليه فرح بها واستبشر ولم يتمالك أن جمع جيرانه من الإسحاقيين فقرأها عليهم وترجم لمن لا يحسن العربية منهم وأوقفهم على ما يعجبه منها ولا التزام الإتيان بجميعها لأنها طويلة بل آخذ بعضها مما يدل على تمكن الناظم من صوغ الشعر وهي :

فأجأتكم إحدى بنات قضاعه ... فاقبلوها وجنبوها الإضاعه

وارفعوها فوق الرؤس ارتفاعا ... إنها رفعة أبوها رفاعه

إنها درة وزادت عليها ... في الرواج إضاءة ونصاعه

برهمانية تفوق اللآلي ... إنها تنتمي لأهل البراعه

كلمة بحترية تتأبى ... أن تكون محكية في الصناعه

من أديب مبرز عربي ... علوي من ذا يطيق نزا..

عربي راض الشناخب معنى ... كل لفظ ما رام إلا نخاعه

أين منه زهر فكيف زهيرٌ ... مِنّا كثر وما حميد بن طاعه

في النزال مجرب لم تُسيّر ... مذ عرفناه ، فرة منه س....

لا يبالي مهما انتضى السيف يوما ... من يسايفُ مفردا أو جماعه

في الفنون مقدم فليفاخر ... من تصدى من ذا يطيق قراعه

منذ مصت ثدي اللغي شفتاه ... لم يدعه ولم يملّ ارتضاعه

مر إلى أن قال :

أيها الناصح المؤمن إيه ... عظ ومروانه آمنا من ضراعه

أيها السالم (1) أرق واسلم معافى ... لا عدمناك لا عدمناك ساعه

هكذا الدين إنما هو نصح ... ثابت نفعه ، رزقنا اتباعه

لاه درك من فتى غير لاه ... آثر العلم بل أراد ارتفاعه

صدقت كلمة أتت منك حضيـ ... ـضي لشعب أصبحت تخشى ضياعه

قد لعمري نبهت شيبا ومردا ... وصغارا منا فسمعا وطاعه

غير أنا فأفرح وأبشر ، على ما ... قد عهدت ولا نريد ضياعه

والشباب يقرطس الكتب سفرا ... بعد سفر ، وكلهم مد باعه

نقرأ المنزل الحكيم صباحا ... ومساء ولا نمل سماعه

جمة كتب التفاسير فينا ... ما ورثنا وما نرى عند باعـ...
والصحاح بشراك تتلى قديما ... وحديثا أنى تكون مضاعه
نقتريها تفقها واقتباسا ... واحتسابا لرجو بذاك الشفاعه
بين كفي كل ابن خمس من الأطـ ... ـفال لوح كم تعتليه اليراعه
فنحط الحروف خطا أنيقا ... لم يقرمط مجودين ارتضاعه
ونمد الممدود منها ونوفي ... كل حرف حقوقه وطباعه
لا ترى الألفات تشكو اعوجاجا ... لا . ولا الميم تشتكي الطمس ساعه
أسطر تستوي كأسنان مشط ... قومت أسهما تمام الصناعه
مر إلى أن قال :
حسبنا الله رازقا ووكيلا ... وكفيلا ، طوبى لمن قد طاعه
هاكها هاكها هدية حب ... كان حبك ، مذ رآك طباعه
هاكها هاءها عراضا ... لك حاشا من أن تكون رفاعه

(1) 1) هو تعريب : إغلّسْ

ومن آخر ما أنشد قصيدته الميمية التي ضمنها الاستغفار وذكر عقيدته وأولها :
أستغفر الله مما قلته بفمي ... من كل ما لم يلق شرعا ، من العلم
أستغفر الله مما قلت مقلتي ... من كل مستنكر عقبه وأندم
أستغفر الله مما صب في أذني ... لغوا وفحشا وما يفضي إلى التهم
أستغفر الله مما قد جنته يدي ... أخذا وغيرا ، فكم من ذلة وكم
أستغفر الله من سعي بلا غرض ... دنيا وأخرة ، كلفته قدمي
أستغفر الله غفار الكبائر من ... كل المآثم باديها ومكتتم
يا رب عفوا عن الزلات إنك ذو ... عفو ، وإنك برّ واسع الكرم
يا رب يا رب أنتَ الرب ليس لنا ... رب سواك فلم نرتب ولم نهم
والدين الإسلام ديني لا نبدله ... هيهات ، دنيا معاذ الله لا ولم
توفي عام ألف وأربع مئة وستة 1406هـ ودفن في مقبرة أحيائنا شرقي كَاوَ

ومن مشاهير علمائهم الكبار إسماعيل الأنصاري : هو إسماعيل بن سيد محمد بن ماحي بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الشهير باسم أَنَيَكَرْ وهو الذي انتقل عن قومه إلى أَزَمَمَّرَ وهو جدّ أهل تِيس الذين هاجر

بعضهم إلى الحرمين وبقي بعضهم في تِيِس . وكانت أمه قرشية كما كان أبوه أنصاريا ينتمي نسبه إلى أبي أيوب الأنصاري وتقدم سرد نسبه أول الباب السادس . أما مولده ففي حدود أربعين بعد ألف وثلاث مئة هجرية 1340هـ وولد في أرض تِيِس ومات أبوه وعمه الكَّلاعِي وابن عمهما يحي وتركا أولادهما صغارا فنقلهم بنوا عمهم إلى حضانتهم وتربيتهم الجسمية والعلمية فأخذه ابن عم أبيه محمد بن عبد الرحمن المعروف باسم إنتُو فأقرأه القرآن برواية ورش ثم أقرأه ابن عم أبيه محمد بن تَانِي الرسالة ، ثم أخذه ابن عمته محمد الصالح بن محمد المعروف باسم مَسَّا وجعل يقرؤه علم النحو ابتداء بالمقدمة الآجرومية ، ثم توفي ولم يبلغ مراده من علم النحو فرجع إلى حي أخواله من أهل تَبُورَقْ وكان سيدهم الشيخ حماد بن محمد وصيا عليه ، وهو الذي يأمر من شاء بتعليمه ما تقدم فأرسله مع الشيخ أحمدُ بن مكّا من أهل تَنْغَ أكَلِ ، وكان الشيخ أحمدُ بن مكّا معروفا بالتقدم في الفنون ويضرب به المثل في التقدم في فن النحو على وجه الخصوص ، وأقام عنده مدة انتشر فيها أنه غلب أقرانه في فن النحو ، ثم رجع إلى حي أخواله المذكورين فقرأ فيه علوم اللغة والبلاغة وشيئا من الفقه ، ثم أخذ شيئا من الفنون على الشيخ حمّدا بن محمد ومن معه من المشائخ . وأخذ الفقه عن جماعة منهم الشيخ محمود بن محمد الصالح ، وحميد بن عبد الرحمن الأنصاري ، وأخذ شيئا من النحو عن أخيه نوح بن عبد الرحمن ، أخذ كثيرا عن كثيرين لا أضبطهم ، ثم انتقل إلى الحي الذي ولد هو وأبوه وجده بجوارهم فاشتغل فيهم بالتعلم والتعليم ، وجعل يجول في أحياء العلماء من أهل بلده ويفتش خزائنهم ويباحث ويناظر ويعترف له من ناظره بالتفوق ، وكان معه في الحي الذي هو فيه عالمان جليلان سيدي محمد بن محمد أحمد ، ومحمد الصالح بن الحبيب ويتباحث معهما كثيرا ، ثم ورد عليهم أخوهم عبد الله بن المحمود وكان أبوه هاجر به وهو صغير فلم يأت عليه سن التميز إلا بالمدينة المنورة فتلقى العلوم هناك ثم رجع إلى وطن قومه بعد ما كان كهلا وكان محبا للعلم والعلماء ولما ظفر في حيه بالشيخ إسماعيل فرح باجتماعه معه في حي واحد فكان كل منهما يستفيد من الآخر ويشكر ما استفاد منه ، ومن العلماء الذين يخالطهم في تلك المدة محمد الصالح المعروف باسم إقْنْفَنْ ابن محمد المعروف باسم أكّنَتْ وكان من كبار العلماء وعنده مكتبة ضخمة من تراث أسلافه قل من له مثلها فلما اجتمع به قربه ومكنه من رؤية ما تحتوي عليه بتلك المكتبة من النفائس ، ومكث في تلك السنين عاكفا على جمع العلوم وتفتيش المكاتب لا يشتغل

بالتدريس ولا بالتصنيف ، وبعد وصوله إلى مكة عام سبعة وستين وثلا مئة وألف 1367هـ اشتغل بالتدريس في مدرسة الصولتية بمكة المكرمة ثم انتقل إلى الرياض ودرس في المعاهد العليا واشتغل بالتصنيف فنصف كثيرا من الكتب منها مختصر ومنها مطول ، وبلغت مصنفاته قريبا من أربعين مصنفا ، منها ما يتعلق بالعقائد ومنها ما يتعلق بالحديث ، وجلها ردود على بعض الزاعمين للرياسة العلمية وحفظ الأحاديث فيذكر له في رده ما لعله لم يطلع عليه من قبل ، ومن خدمته للعلم وضعه للمقدمات والتحقيقات والتعليقات على كتب المتقدمين ، وما زال في خدمة العلم حتى انتقل إلى رحمة الله وأجاز كثيرا من علمائنا بالإجازات التي أخذها من علماء المشرق وأجازه بعضهم بالروايات التي يجيز بها مشائخ بلادهم وكنت ممن أجازوه وأجازهم . وأما خدمته في مصالح المسلمين فقل له نظير فيها ويأتي من صلة أقاربه بالعجائب لأنه ما زال يغدق عليهم الهدايا مع بعده عنهم لأنه ساكن في الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية وبنوا عمه وبنوا أخواله في أعما كَاوَ من جمهورية مالي يرسل الهدايا إلى من لا يلقاهم بمكة وما يصل به الوافدين أكثر وأكبر فقد كان دأبه منذ سكن في الرياض أن ينزل إلى مكة في موسم الحج ليتلقى حجاج قومه ويقوم به فتارة يخرج معهم إلى المناسك حاجا يراعي أحوالهم وتارة يخرج معهم لرعايتهم غير محرم ، وليس ذلك العمل مقصورا على قرابته بل يعم كل من يرافقهم في السفر وكان الناس في الأعوام الماضية في عهد سعود وعهد فيصل لا يقدرون على اتخاذ المنازل بمكة بل يتعلق كل بمن معه من قرابة الشيخ إسماعيل ويُسوِّي بين الجميع في البر والإحسان ، ولما كثر المال في المملكة العربية السعودية من عهد الملك خالد بن عبد العزيز وما بعده وكثر انتقال الناس إلى مكة من أهل بلادنا استغنى غير قرابته عن النزول عنده لوجودهم من ينزلون عنده من إخوانهم فاستراح من النزال الأجانب وتمكن من الإحسان إلى قرابته بالأموال وبنفائس الكتب التي لم يروْها من قبل والتي رأوها ولم يتمكنوا من اقتنائها بالنسخ ولا بالشراء وقد أشرت إلى كثير من خصاله في المرثية التي رثيته بها ، وما منعني من نقلها هنا إلا أن كثيرا من تلامذته كتب عنه شيئا كالترجمة لحياته وأعماله وأنشد كثر من جماعتي قصائد في مرثيته تبلغ ثمانية أو تسعا فلما وصلت إلى الرياض بعد وفاته قال لي أكبر بنيه محمد إنه يريد أن يجمع ما كتب عنه من التراجم وما قيل فيه من المراثي ويكون ذلك مجموعة تعبر عن حياته وآثاره . أما لين الجانب والتواضع وحسن الخلق فقل نظيره فيها فإنه كان

مقربا عند كبار المملكة علمائهم وأمرائهم وكان كثير من أهل المناصب من تلامذته يعظمونه ويبجلونه ولكن لم يزل متواضعا في زي المساكين لا يظهر ما له من المقام عند الكبراء إلا إذا احتاج بعض الناس إلى الوساطة والشفاعة فيلجأ إليه فيقوم بمهمته أحسن قيام وتقضي حاجته بواسطته كما يسره . وعاش نيفا وسبعين سنة باذلا جهده أولا في التعلم وثانيا في التعليم والإرشاد والتصنيف ، ولم يصرف شيئا من عمره في اللهو واللعب ولا في جمع الدنيا لكن لما أعرض عن الدنيا وأقبل على التعلم والتعليم فتح الله عليه أبوابا من الرزق الواسع ويسر له صرفها في مصارف الخير . تقبل الله إحسانه وتجاوز عن إساءته ، ومات يوم الجمعة لثمان بقين من ذي القعدة عام ألف وأربع مئة وثمانية عشر 1418هـ رحمة الله عليه .

الباب السابع
في الكلام على العرب المخالطين للتوارق في الوطن
وفيه فصلان :

الفصل الأول
فيما وقفت عليه من الكلام على أول دخولهم للوطن التارقي

أما غير كناتة من قبائل الساكنين في صحراء تنبكت المسماة أزَوَادْ فلم أر من يذكر تاريخ أول وصولهم إليها ولا من يذكر شيئا من أمرهم فيما قبل زمن الشيخ الكبير لكني أعرف أن الصحراء لا حدود لها في الزمن الماضي ولم تكن فوارق بين من يسكن في صحاري موريتانيا ومن يسكن في صحاري تنبكت لأنهم جوالون في المراعي والمنازل يشرقون تارة ويغربون أخرى .

وأما كناتة : فذكر بعض علمائهم وهو سيدي عمر بن سيد علي أنهم وصلوا إلى البلاد التي يسكنها الطوارق في العام المفتتح للثلاثين بعد ألف ومائة 1130هـ ، ورأيت كتابا من الشيخ حامَّ الكلاديّ إلى الأمير كَاوَ بن أمَّ يقول له فيه : (اعلم أن أهل تنبكت والبرابيش والأنصار هم أهل البلد أصالة فإذا أحسنت إليهم أحسنت إلى الجميع) أو كما قال ، ثم وصّاه بقبيلة إكَلاَدْ ولم يثبت لهم من الأصالة مثل ما أثبت للبرابيش مع كونهم من القدماء في الوطن ولم أر من الكلام عليهم بعد تلك الأيام إلا أشياء تقع بينهم وبين جيرانهم وشيئا يقع بينهم وبين من يحكم عليهم من

آل كَرِدَنَّ . ووجدت في بعض الكتب القديمة قرطاسا قديما باليا مقطوع أواخر السطور مكتوبا فيه رسالة من أمَّ أكْ الشيخ سلطان إولمّدنْ في وقته إلى بعض أهل القوة والنجدة من عرب أزَوَادْ يهدده فيها ويشدد عليه النكير ويسبه لما بلغه من أخذه شيئا من مال العرب الضعفاء ، ويستفاد من تلك الرسالة أمران :

أحدهما : حكمه على أولئك العرب وكان حكمه فيها يقال ممتد إلى بلاد فَلَنْكِ إلى رأس الماء والأمر الثاني : بذله الجهود في إغاثة الضعفاء وتنكيل الأوقوياء المعتدين عليهم . ونص الرسالة بعد البسملة والصلاة : (من السلطان أمَّ بن السلطان أكْ الشيخ بن السلطان كَرِدَنَّ إلى أولاد سليمان وخصوصا منهم محمد بن رحال ومحمد بن حافظ ومحمد بن منصور قائلا لمحمد بن منصور الله يلعن أباك وجدك يا خدعة يا لكع بن لكع نسيت أن أخوالي قتلوا أخوالك فبالله الذي لا إله إلا هو لتعودنّ في أهل آلِّ الذين هم أجدادك ، الله يعلن جدتك وجد جدتك وقد حلفت لكم بالله لا أفقد بعيرا ولا فرسا مما نهبتموه ، ولكن استثنيت ابن رحال وابن حافظ وابن منصور في الحلف بالحربة إن ردّوا عليّ جميع مع عندهم من البرابيش) إهـ المراد منها .

ورأيت رسالة الشيخ المختار بن أحمد الشيخ الكبير الكنتي إلى واحد من سادات العرب يقول له فيها بعد ألف سلام : (وبعد فليكن في كريم علمك أن كتابكم العزيز ورد علينا وتلقيناه براحة القبول والإقبال ، ثم تصفحته فإذا هو متضمن لإرادة النقلة من أرضكم وطنكم ومسقط رؤسكم إلى استيطان رأس الماء ، وأخذ الخير لكم من التوارق ...إلخ) إلى آخرها ولم أطلع على ما وقع من المرسل إليه بعد وصول الرسالة إليه هل وصل إلى بلاد التوارق أو بقي في منزله . وهذه الرسالة فيها أشياء من الحكم وليست مقصورة على جواب من شاوره في أمر الانتقال ، فأردت أن أنقلها برمتها ولفظها بغير زيادة ولا نقصان : (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله وسلم ، الحمد لله ... جعل القلم نائبا عن القدم ويغني عن مشافهة الكلام فما بفم ، والصلاة والسلام على شفيع الأمم ، فهذا وإنه من عبد ربه المختار بن أحمد بن أبي بكر إلى عيبة نصحه ، وأهل وده ، وأبنائه ، جماعة السميدع الهمام هنّون بن بَيْدِ ألف سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد : فليكن في كريم علمك أن كتابكم العزيز ورد علينا وتلقيناه براحة القبول والإقبال ثم تصفحته فإذا هو

متضمن لإرادة النقلة من أرضكم وطنكم ومسقط رؤوسكم إلى استيطان رأس الماء وأخذ الخير لكم من التوارق ، فوافى ورود كتابكم أمر التوارق قد مرج ، وشملهم قد تبدد وحرج ، مع بعد دار من يعتمد على عقده ، ويعول على عهده ، وهو كَاوَ بن أمَّ بن أكْ الشيخ ، وقد وقع الحرب والموت بين قبائله الذين هم ساعده ، ومن في حربه وسلمه يساعده ، وقد ورد علي كتابه مستعينا بي لأعينه في صلح ما بينهم ، وشعب ما انصدع من بيضتهم ، لتعذر ذلك ساعتئذ لموافاته ما وقع بين البرابيش وإكَوَدَّرَنْ من الجناية فاشتغلت بكف أبناء أكْ السَّغَادَ ـــــ هم إكَوَدَّرَنْ ـــ وغيرهم من إولَمّدنْ عن غزو البرابيش حتى أذعنوا لذلك وانقادوا لما أمرتهم به من الكف ، قائلين إنهم ... كالميت بين يدي غاسله ، ثم بعثت إلى كَاوَ أمره بإفراغ الجهد في إصلاح من قبله من إولَمّدنْ ولا يشوشه ما بلغه ...... مع بين البرابيش وبين أبناء السَّغَّادَ فإذا استحكم الصلح الذي يحاول بين قبائله فليقدم علي بنفسه حتى ننظر في أمر العامة وتأمين السبل ، لأن قبيلة من إولَمّدنْ يقال لهم إتَكَيْتَكَيَنْ قتلوا شريفا من قافلة تَوَتْ وجرحة القافلة رجلا من إولَمّدن كسروا فخذه برصاصة فلا ندري أيموت أم يعيش ، وبلغني عن السنة الواردين أن كَاوَ أصلح بين إولَمّدنْ ، وبلغني أيضا أنه لم يفعل إلى الآن والأرض بعيدة ، وقد خالف عليه بعض إولَمّدنْ وفر بقومه إلى أرض السودان فأعانوه على حرب كَاوَ وتحزبوا معه في عدد كثير ومنعة شديدة فإن أصلح الله أمر البلاد فيما بينها فإيقاع الصلح فيما بينكم وبين التوارق ، أمر سهل لأن جميع التوارق عبيدي وطوع يدي ، وإن تعذر ذلك فلا أرى لكم أن تقتحموا على أرض في حال فساد ذات بينها لأن من عجز على إصلاح نفسه فهو عن إصلاح غيره أعجز ، وليس أمر التوارق كأمر العرب ، لأن العرب يأخذون الدية ويصلحهم بذل المال بخلاف التوارق فإن الدية عندهم من المحال ، والميت إذا مات لا يذكرون اسمه لطغيانهم وتجبرهم . وحاصل الأمر أن عيني من ورائكم وأنتم تحفظوا على أنفسكم حتى أرى التوارق ويروني وأشافههم بالكلام وأعلم ما عندهم وأنظر في حقيقة أمرهم فيأتيكم رسولي بالأمر الذي لا مرية فيه ، والأحب إليّ بقائكم هذا العام في أرضكم حتى تسكن هذه الفتنة فإذا أسكنت كنتم على بصيرة من أمركم وكنا كذلك على بصيرة من الأمر حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا ، فإن الدول بيد الله يصرفها كيف يشاء ، وإني لأرى مخايل ذاهاب دولة التوارق وغيرهم من عمال هذه الأرض لأن الدولة كالفرس الغائرة إذا أقبلت أسرعت ، وإذا توالت أسرعت ،

وقد تدبر ثم تقبل وقد لا تقبل ، فإن كان بينكم وبين المبارك غيظ فأصلحوه فإن زوال غيظ الصديق أسهل من استصلاح عداوة القديم العداوة ، وسنان الصديق خير من زج العدو ، قال الشاعر :
ومن يعص أطراف الزجاج فإنه ... يطيع العوالي ركبت كل لهذم
وإصلاح دار أسهل من ابتداء دار ، وأمر لصوص هذه الأرض اليوم في إدبار ،
وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم - (لا تصحب من أدبرت دولته وأيامه) وأن في غدرتهم السكاكنة عبرة لمن اعتبر لأنهم صديق من قديم الزمان ولا يطالبهم أحد من ....هذه الأرض بنفس ولا مال فغدروا بهم من غير سبب بعد ما أمنهم ابن رحال فلم يغن عنهم شيئا وقد شاورتموني وبذلت لكم النصح فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول (المستشار مؤتمن) وقال : (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (من أراد أمرا فشاور فيه امرء مسلما وفقه الله لارشد أموره) وعن حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه أنه قال قال النبي - صلى الله عليه وسلم - قال .... لابنه إذا استشهدت فأشهد ، وإذا استعنت فأعن ، وإذا استشرت فلا تعجل حتى نظر) وعن سمرة بن جندب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : (الرجال ثلاث : رجل ترد عليه الأمور فيصدرها برأيه ، ورجل يشاور فيما أشكل عليه فينزل حيث يأمره أهل الرأي ، ورجل حائر بائر لا يأتم رشدا ولا يطيع مرشدا) قال الشاعر :
ومن الرجال من استوت أخلاقهم ... من ستشار إذا استشير فيطرق
حتى يجول بكل واد فكره ... فيرى الصواب بما يشير فينطق
فبذاك يشعب ما تفاقم صدعه ... وبذاك يرتقي كل أمر يفتق
فاقصد بها أهل الديانة والحجا ... يخطو إليك من الأمور الأوثق
وإن الله تعالى أمر بالمشاورة رسوله عليه السلام فقال تعالى { وشاورهم في الأمر } مع اغتناء الله عن مشورتهم ولكنه أراد سبحانه أن يعلم أمته من بعده ما في المشورة من الحظ وقال أبو الأسود :
وما كل ذي لب بمؤتيك نصحه ... وما كل مؤت نصحه بلبيب

ولكن إذا ما أجمعا عند واحد ... يحق له من طاعة بنصيب
وقال تميم الزيات :
إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... بحزم نصيح أو نصيحة حازم

ولا تحسب الشورى عليه غضاضة ... فإن الخفاف تابع للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها ... وما خير سيف لم يؤيد بقائم
وخل الهوينا للضعيف ولا تكن ... نؤوما فإن الحر ليس بنائم
وأدن إلى الرأي المقرِّبَ نفسه ... ولا تشهد النحوى امرء غير كاتم
فإن الفتى لا يطرد الهم بالمنى ... ولا يبلغ العليا بغير المكارم
ورشح أخا يقطع عليك برأيه ... علاقة هم أو ضريبة عازم
وما نازع الأبطال إلا مشجع ... أريب ولا جلّى العمى مثل عالم
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، اللهم فرج الهم كاشف الغم مجيب دعوة المضطر رحمن الدنيا ورحيمهما أنت ترحمني فارحمني رحمة تغنيني عمن سواك) إهـ .

الفصل الثاني

في ذكر بعض ما وقفت عليه ممن كان بين شيوخ كناتة وبين أمراء إولّمّدنْ وعلماء كَلْسُوكْ

ولا أنفي أن يكون بينهم وبين القبائل الأخرى شيء من العلاقات لم يحفظ بالأقلام فضاع .

أما الشيخ المختار بن أحمد الكنتي فذكر في كثير من المكتوبات أن التوارق صاروا من شدة الانقياد له أنه كان يقول " التوارق عبيدي " وبعضهم قالوا له " نحن بين يديك كالميت بين يدي الغاسل " وصار يفتخر بتبعيتهم له على من يحاربه من إنْتَصَرْ ومن العرب ، وكان بينه وبين سلطان إولّمّدنْ في وقته وهو أمَّا بن أكْ الشيخ بن كَردَنَّ علاقات ودية ، وكان من أشد الناس احتراما له ، ذكر صاحب الطرائف أن الشيخ المختار كان يفد عليه ، وكان هو أيضا يفد على الشيخ كثيرا ، وقال إن السلطان أمَّا وفد على الشيخ المختار مرة فأهدى له فرسا فرده عليه فسأله الشيخ لم رددت عليّ الهدية أكنت تستقلها فقال له : والله لكني لما خرجت من بيتي قسمت الناس ثلاثة أقسام : رجل ذو مال أصيب من ماله ، ومظلوم أزيل ظلامته ، ورجل صالح يدعو لي وأتبرك بدعائه .

أما الأولان : فقد ظفرت بهما قبل وصولي إليك فأصبت من مال ذي المال وأزلت ظلامة المظلوم .
وأما الثالث : فإنما قصدتك لاعتقادي أن تكونه فلا أرزأك زائدا على ما أكلت من ضيافتك ولولا ما خفت من سوء الأدب ما أكلت منها مأكولا

ولا شربت مشروبا . فدعا له وارتحل مغتنما ما نال من الدعاء . ووفد عليه الشيخ مرة في أخر عمره فلما أخذ في الرحيل من عنده ، قال له : يا سيدي ادع الله لي وقال له أمَّا أنا فميت في هذا العام ، فقال لِمَ قال أراني أمرض إمراضا لا أعتادها .....فقال له الشيخ لا بأس على الأرض بعدك إذ خلفت رجالا ، فقال لم أخلف من أراه يغني عن المسلمين ويرد علنهم المظالم ، فقال له الشيخ ما بال أخيك مَهَمَّدْ ـــ وهو أبو تَكوَلْتْ ـــ فقال له مَهمَّدْ قد أدركه الكبر وبه من الشرة والرغبة في الدنيا ما لا يقيم معه قسطاس العدل ، فقال له الشيخ فأكَدَدُ ابنك ـــ وهو أبو كَلَ أَهَرَ ـــ قال ذلك رجل إلا أن وجهته ومحبته لإولمّدنْ وذلك قاض بإيثارهم على المساكين والزوايا وهيهات يعدل مع ذلك سلطان . قال فكَاوَ ـــ وهو أبو كَلْ تَلْتَيْتْ ـــ قال ذلك رجل صدق إلا أن السلطنة لا تخلص إليه إلا وقد انتشر الجور في الأرض وفسدت أحوال الناس فلا يغني عن الضعفاء والمساكين شيئا . فمات أمَّ ذلك العام وكان الأمر كما تفرس في الثلاثة . إهـ

وفي الطرائف أيضا كثير مما يفيد أن الأمير كَاوَ كان للشيخ المختار كأبيه أمَّ في المحبة ولانقياد ، والوقائع والعلاقات بين الشيخ المختار وبين الأمير كَاوَ وأبيه أمَّ كثيرة يطول الكلام بتتبعها .

وأما أهل السوق : فحاصل ما في الطرائف أنه ورد على بعض أحيائهم تلميذا حين خرج من وطن أسلافه متغربا في طلب العلم فأخذ عن علمائهم كثيرا من الفنون وأطال في ذلك ، ثم لما بلغ مبلغ الرجال وتحلى بحلي أهل الكمال وجلس على كرسي المشيخة وإعطاء الأوراد القادرية كانوا من مريديه وممن يعتقد في أنه من كمل الأولياء ، وأخذ عنه الشيخ محمد حَنَّ بن أمَّتَّال كثيرا من العلوم ، وأخذ عنه الورد القادري الذي صار فيه شيخا لكثير من المريدين بعد موت شيخه ، وكان بينه وبين السوقين روابط وعلائق ودية ومبالغة في تبادل الاحترام ، وكان ذلك سنة باقية في عقبه ويرون عدم تبادل الاحترام فيما بينهم نقضا للعهد ، وقد أنشد الشيخ المختار بن أحمد قصيدة في مدح السوقيين والدعاء لهم ويعرض فيها بشيء مما جرى بينه وبين إنْتَصَرْ وهم الذين وهم الذين يسميهم ببني جالوت ، ويثني على أهل السوق بأنهم لا يعملون مثل عملهم ، وتلك القصيدة :

جزى الله أهل السوق عنا بفضلة ... فما حسدوا فضلا وما نطقوا هجرا
فإنهم ذاقوا عسيلة علمهم ... فأورثهم فضلا وأعقبهم ذخرا

يضمون علم الغيْب عفوا لعلمهم ... ففازوا بقصب السبق واستحدثوا فكرا
إلى أن قال فيها :
حووا كل فضل عن كرام أجلة ... رووه عن آبائهم مداولة دهرا
لهم عقبة جد تهدوا بهديه ... ويحي ولم تلتبس أعارفهم خسرا
تشاركنا ثدي الكرام وننتمي ... إلى باذخ من جذم عدنان لا فخرا
وليس إلى جلوت يجمعنا أب ... ولكن إلى خير البرية نستقرا
إلى أن قال فيها :
تعالوا إلى نصر الإله ودينه ... فها نحن جيران لكم نبتغي نصرا
ووالله لولا الله أخشاه فيهم ... لالبستهم بوسى وداهية حمرا
ولو شئت أطعمت الصفاح لحومهم ... ومن دمهم أنهلت قبل القنا سمرا
ولكن أصون العرض عن كل فاسق ... جحود لنعمى الله يكفرها كفرا
إلى آخرها ، وقوله " وليس إلى جالوت يجمعنا أب ...إلخ " تعريض إلى نفي إنْتَصَرْ عن العرب وإثبات أنهم من البربر ذرية جالوت لا من الأنصار الذين يدعون الانتساب إليهم . وكان موقف كل إنْتَصَرْ من الكنتيين يخالف موقف السوقيين وأمُوشَاغ الذين يعظمونهم ويتبركون بهم ويعتقدون فيهم الولاية العظمى المتوارثة فيهم يرثها الخلف من السلف ، وموقف كل إنْصَرْ منهم أنهم ظلمة أعداء لا يعترفون لهم بمثل ما يعترف به الناس لهم بل كانوا يحاربونهم من عهد الشيخ المختار إلى أن انتهت الحروب القبلية في البلاد بعد حكم فرنسا عليها ، وكانت بينهم حروب وغارات وأشعار هجائية ، ورأيت رسالة للشيخ يخاطب فيها إخوانه من السوقيين ويذكر لهم أنه لا يعتبر أحدا من أهل البلد سواهم ويعتذر لهم عما جرى من الحروب بينه وبين إنْتَصَرْ ، ويذكر لهم أنه يرى دفاعهم عن الضعفاء من الواجب عليه لما رزق من الجاه والمكانة فوجب عليه الدفاع عن حريمه والضعفاء المحتمين به ويذكر فيها شيئا من هنات إنْتَصَرْ أوجب سقوط حرمتهم وأباح مقاتلتهم ، ويذكر أنه لولا مراعاة خواطر السوقيين ما تكلم في ذلك الشأن .

وثناؤه على السوقيين وافتخاره بالتمكن من التوارق سوى كل إنْتَصَرْ كثير . وأما الرسائل التي تجري بين أولاد الشيخ المختار بن أحمد الكنتي وبين علماء أهل السوق وأمراء بني كَاوَ فكثيرة منها رسائل أولاد سيدي محمد بن الشيخ الكبير المختار بن أحمد إلى النابغ بن كَاوَ ، ومنها رسالة من أحمد البكا إليه ونصها : (من عبد ربه الغني به أحمد بن محمد بن

المختار إلى السلطان بن السلطان بن السلطان بن السلطان : النابغة بن كَاوَ بن أمَّ بن أكْ الشيخ بالسلام الأسنى ، والتحية الحسنى ، وبحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو والوصية لنفسي ولك بتقوى الله العظيم واقتفاء آثار نبيه الكريم ، لأنه تعالى يقول { إن كنتم تحبون الله فاتبعوني } هذا فيما يرجع إلى اتباعه - صلى الله عليه وسلم - واقتفاء آثاره ، وأما التقوى فحسبك فيه قوله تعالى { والعاقبة للمتقين } وقوله { إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين } ولا يغرنك تسويل الشيطان أن التقوى والاتباع صارا في زماننا هذا من متعذر الأمور ومتعسرها ، فما لم تتق فاتق في سواه ، وما لم تتبع سنته - صلى الله عليه وسلم - فيه فاتبع في غيره { وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين } وإياك إياك والتهاون بذوي الانتساب إلى رب الأرباب وإن كان انتسابه إليه فيما يرى مدخولا ، وعملهم الذي يتقربون به إليه تعالى معلولا ، فإن ذلك غير قادح في نفس انتسابهم ، ولا مبيح للوقوع في جنابهم ، فإنه سبحانه ربما انتقم منهم بتسليط العباد ، وانتقم منهم لسابق الوداد ، وانتقامه منهم تطهير أو تأديب ، وانتقامه لهم بتنكيل أو تعذيب ، ولا يخفاك ما بينّ المقامين ، فشتان ما بين الانتقامين ، فاضرع إلى الله تعالى أن لا ينتقم بك منهم ولا ينتقم بهم منك وأن يسد الباب جملة وتفصيلا عنك ، والله تعلى يوفق الجميع للرشاد ، ويعصمنا وإياكم من الزيغ والعناد ، وبعدُ : فسترى أخانا أبا بكر بن عبد الله ابن عم المخطار قادما عليك بالمهر الذي تطلب) مر إلى أن قال : (فها أنا ذا بعثته به إليك متلافيا ما فات ، غير ملتفت إلى ما فرط منك أدنى التفات ، فإن كنت في استرضائي كما أنا راغبا فأبعث إليّ صُحْبَة بأمة سباعية كأحسن ما يكون فإني إليها محتاج للدين*، والسلام) نقلتها من خط منشئها أحمد البكّا بن سيد محمد . ومنها رسالة من سيد محمد بن الشيخ سيد محمد سمي أبيه إلى النابغة . ومنهما رسالة من سيد المختار بن سيد محمد أخي أحمد البكّا إلى السلطان النابغ يحذره فيها من التعرض لمحاربة " فُوتّا " ـــ يعني جماعة الحاج عمر ـــ ويخبره أنه لا قبل له بجنودهم . وأخرْى منه إلى علماء أهل السوق يأمرهم فيها بنهي النابغ عن التعرض للحرب . وأخرى من جماعة أهل السوق إليه يذكرونه فيها العهود التي بين أسلافهم وبين جده الشيخ المختار الكبير والعهود التي بين جده وبين إولّمّدنْ ، ويخبرونه بأن طاعة أمير إولّمّدن هي الواجبة على أهل قطرهم لأن مبدأ أمر إمارتهم إنما كان تبعا للسلطان الشريف إمام المغرب فلا يجوز لأحد من أهل قطرهم نزع يده من بيعتهم ، وإذا

نزع يده من طاعتهم فله حكم الخوارج والبغاة . ويخبرونه عن جماعة أهل السوق بأنهم أولى بأمور بلدهم لأنهم أيمته وقضاته ورعاته وسواسه قديما وحديثا من أول وصول الإسلام وتعالميه وسياساته لوطنهم وسبر أحوالهم ، علم أن إبقاءهم في المناصب التي يتأهلون لها هو الأصلح له وللوطن والسكان فيبقيهم) هذا خلاصة ما كتب به أهل السوق إليه ولم أطلع على ما كان منه بعد تلك المكاتبات ، وظاهر أمره أنه لما ثار الحاج عمر بن سعيد الفوتاوي مال إلى متابعته ومعاضدته على ما هو فيه من حرب التوارق والفلان وتنبكت وجميع أعمالها وأعمال كَاوَ التي هي محل سلطنة إولمّدنْ ، ويرآه أولى بالطاعة والنصح من سلاطين إولمّدنْ ، ولم أر من حاله معه ما يحملني على الكلام فيما بينهما . وأما أخوه أحمد البكّا فرأيت رسالة طويلة يوجهها إلى الحاج عمر ، وفيها : (ومما لا بد من الكلام فيه بعد أن أقدم لك مقدمة عليه أمر التوارق فإني وجدت أخي سيد المختار قد دخل مدخلا بينهم وبين الشيخ أحمد بن محمد لبُّ أصلح بينهما فكان في ذلك صلاح للأرض وتسكين لأهلها إلا أنهم يقيمون على بعض ما هم عليه ، ثم بعد ذلك بمدة صاروا يراجعون ما كانوا عليه من التدريج ، ثم لما ملكت هذه الأرض قطعوا الطمع من سكناها معك فعزموا على الانتقال والانحياز إلى إخوانهم وسلاطينهم ورأوا أن يقضوا أربهم منه بمرة فكلمتهم وثبتهم عما نووا من الفساد وقلت لهم إن الأرض اليوم للحاج عمر فإن الفلان كأنهم عزلوا سلطانا وأقاموا آخر ، هذا كله فلا تظلموا وسكنوا بعض السكون) مر إلى أن قال : (فإنا لا ... مع التوارق أمر ولا حال إلا أن الله تعالى جعل هيبة ومحبة لنا في قلوبهم ، وإنا نداريهم وندفع كثيرا من شر... عن كثير من عباد الله وظني أن عندك شيئا من سيرتنا معهم ومع غيرهم من أمثالهم من لصوص العرب ، فمطلبي أن تسكنهم لعمارة هذه الأرض لا سيما تِنْبَكْتُ فإنها لا عمارة لها إلا بالتوارق ولا ... منك أن تقرهم على الظلم بل أنههم عنه وردهم ودع لهم من عوائدهم وأحوالهم لا من الظلم ... أهل البوادي وأرباب المواشي عارة الأرض والقرى ، فاكتب إليّ بما تقول لهم وما ترضي منهم) انتهى المراد منها .

والظاهر أنه كان في وقت إنشائها مواليا للحاج عمر وطالبا منه أن يرفق بال... ثم حدث بينه وبين الحاج عمر منافسة على الملك ، فإن بعض من وقفت على رسائلهم إليه يسميه أمير المؤمنين ، وبعضهم يسميه بغوث الثقلين ، وخاطب الحاج عمر في بعض رسائله بما يخالف

الصداقة والمؤدة . وكذلك حدث بينه وبين صاحب سِيغُو أحمد أحمد بن الشيخ أحمد مشاورة ومحاورة بسبب ضيف انجليزي نزل في ضيافته فأمنه . وذلك الضيف سمى نفسه بعد دخوله بلاد تِنْبَكْتُ عبد الكريم واسمه الأول " بارث " ولما سمع أحمد أحمد بنزوله عنده طلب أن يأخذه فيقتله فدافع عنه ، وجرت في ذلك وقائع كثيرة بينهما حتى أنشد قصيدة فخرية يذكر فيها ... التوارق التي تنصره على عدوه وسمى منهم : موسى بن بُضَالْ زعيم توارق دِنَّكْ ، والقُطّبَ بن كَاوَ زعيم أولِمّدنْ مَنَكَا ، وتَرْغَيْتَمُوتْ ، وأخْبِ بن سالم أمير إكَوَدَّرَنْ ، وأكْ الخَنَّ زعيم إمَدَّغَنْ كُوسِ ، وابن حَمَّلاسِ أمراء تَنْكَرِ إكِفْ ، ثم ذكر الفلان وكَلَسُّوكْ . وآخر ما كان منه في شأن ذلك الضيف الإنجليزي أنه خرج معه إلى بلاد إولِمّدنْ وكَلَسُّوكْ فنزل على الشيخ حَنَّ بن المختار واستعان به وبالأمير البلد الإنصار بن النابغ فأمنه حتى خرج بلاد الصحراء إلى محل أمنه . والقصيدة التي يفتخر فيها ويذكر أنصاره من العرب والتوارق والفلان هي :

أحقا أتى من عند أحمد أحمد ... محمد سيْد العبد والعبد أسود
يسائل عن ضيفي ليرجع ضيفةً ... فيسلبه من ماله ويقـ....
إلى أن قال :
أيأخذه من قبل أن تأخذ القنا ... على رأسه والمرفي المـ....
أيأخذه والسيف والرمح نائم ... على سرق إن الوشيح مقصد
أيأخذه أين التوارق كلها ... ومن عرب شيخ وكهل وأمرد
بنوا الشيخ عثمان فودي جندنا ... ومن جندنا موسى بن بُضال يشهد
وتَرْغَيْتمُوتَ الأسد يقدم حيهم ... لكَاوَ بن أمَّ القطبَ يبرق ويرعد

وأخْبِ بن سَالَمْ حوله إكَوَدَّرَنْ ... وللوَغْدِ أكْ الخنّ جيش محشد
وفي تَنْكَرْ إكِفِ رجال أعزة ... بنوا خمَّلاسِ القرم فيها تسود
وتنصر ضيفي من كَلَسُّوكَ فتية ... لهم أسد في النائبات وأسود
هم القوم في الإسلام لا يخذلونني ... وهم إخوتي أجدى إلي وأنجد
ولي من بني فلّانَ في الأرض عصبة ... إلى نصر دين الله تسعى وتحفد
أحب إليهم من بنيهم وأهلهم ... وأنفسهم دين الإله يؤيد
إذا مرأوا كفرا وعصيان ربهم ... أبوا ونبوا عن كل ما هو مفسد
ولي من رجال الله في الأرض ثم من ... ملئكة نصر وجيش مشدد
وحسبي فحسبي الله جل جلاله ... فما النصر إلا منه والله أمجد
فما النصر إلا منة لا من ملائك ... وإن كثروا جدا وعزوا وأيدوا

هو الله جل الله عـود نـصره ... علـى كـل جبـار يـضر ويعنـد
وإني لتكفيني من أحمد دعوة ... إلى الله في جوف مـن الليـل تـصعد
أسددها سهما إليه بسحرة ... فيـصبح منهـا وهـو بـالموت مقـصد
فإن تاب يوما فهو خيـر لـه وإن ... أبـى توبـة فـالأمر لله مـسند
ومن قبله فرعون ، نمروذ قبله ... وعـاد وشـداد بـن عـاد تمـردوا
وكل عليـه قـد دعـا أنبيـاءهم ... ففـادوا وبـادوا كلهـم تبـددوا
دعا ربه موسى وعيـسى وصـالح ... وهـود وإبـراهيم ثـم محمـد
ومدعونا سـبحانه واحـد كمـا ... أجيبـوا ..... المـؤمنين وينجـد
فيا ربنا أنصرنا كما قد نـصرتهم ... فإنـك لا حجـر عليـك ولا يـد
وصل علـيهم ثـم سـلم مباركـا ... فمـا مـنهم إلا حميـد وأحمـد
ولـم أدرِ مـا آل إليـه الأمـر بينـه وبـين أحمـد أحمـد .
وأما الحاج عمر الفوتي فكانت بينهما مشاروة سنانية ولسانية لم تنقطع إلا بموتهما مات السابق منهما في عام 1280هـ ومات الأخر في الذي بعده ، والله أعلـــــــــــــــــــــــم .
ومن الرسائل الجارية بينهم في شأن الطوارق والإيصاء بهـم وإحـسان معاملتهم رسالة من باب إلى سيد المختار بن سيد محمد المعروف باسـم بادِي ـــ وهو جد أمراء كناتة ـــ ونصها :

(الحمد لله الذي لا مرد لعطائه ، ولا مهرب لنا عن قضائه ، والـصلاة والسلام على سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – أشرف أنبيائه وعلى آله وصحابته وكافة أتباعه وأصفيائه ، هذا وإنه من المختار الملقب بَابَ إلى خلاصة المجد والجود ، الحائز على شرفيهما من نتـائج الجـدود ، المتكفل بإعباء بما استخلف فيه مما عز وجود في الوجود ، لا سيما لمـا تقارب الزمان ، وتزايدت الأضعان ، وقل في مساعدة الأمو... الجـسام الإخوان ، وصار أحرى الناس بالإصلاح أقربها إلى الخسران ، حليـف الصيت العالي المنار بَادِي محمد بن سيد المختار موجبه إعلامـك أنـك علقت بي أمرا وأعطيتني عليه عهدا أثق به من أمثال.. إن كل ما نقدتـه عليك أو سمعت به عنك ، أن لا أكتمه عنك ولا أهابك فيه ، ولا أحجـم عنك وأنت لا تخالفني في شيء بعثت لك في شأنه ، عهدا أكيدا ، وأنا لم أسمع عنك بعدي إلا شيئا توهمته من المبلغين عنك رسالة تطلب بها مني الدعاء فيما أنت بصدده وذلك لم يفوها لي بشيء منه إلا أن في صـ... حرجا لا يطلع على داخله مما لست له بأهل ، وحاشاك ممـا لا ترجـع عائدته ولا فائدته عليك أو على عشيـ... بخير ، إذ أنت اليوم حكمـك

حكم فصيل القوم الذين مرضت جمالهم التي تطيق الحمل والضراب ولم .... إلا فصيل لا يطيق الحمل ولا الضراب فأخذوا تميمة وجعلوها في عنقه فأستـ... **الفصل**ان في المراعي ولم يستر.. فسئل لمَ لم يفعل كما فعلت **الفصل**ان فأنبأ بأنه نزل منزلة استقبح على نفسه فيها صنيع أصحابه موالفيـ....

واعلم بأني لا أكلفك اليوم إلا بأمرين إن أطعتني فيهما ضمنت لك على الله ما ضمنه مالك بن دينار الأنصاري ، وكنت لك مؤيدا بالدعاء الصالح في جميع أمورك ، وإلا فقد قطعت ساعديك ، وإنا لله وإنا إليه راجعون . أما الأول : فمساعدتك عمك لرجاء أن يجعل الله فيكما ما وعد به نبييه الكريمين موسى وهارون بقوله تعالى { سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا } لعل الله يجعل لكما سلطانا في أموركما لإعانتكما هذه العشيرة وذبكما عنها بما أنتما أهله ، واعلم أنه لما أنزل الله بهذه العشيرة الداهية الدهياء والنائرة العمياء ، بذنوبها بعدما ضاقت عليها الأرض بما رحبت ، وكادت أرجاؤها تنقض من كل جانب ومكان ، قيض الله لها عمك فأبردها بماء حلمه وإحسانه وأطفأها بتؤدته وأفتنانه عادة منّ الله بها على كناتة دون غيرها ، وخصها بها دون سائر القبائل أنه كلما نزل بها أمر مثل هذا قيض لها فردا يقودها بسياسة أمورهم يفتح الله عليها به ، فأطعه ولا تخالفه .

واعلم أنك أخبرتني أن حلمه واحتماله لا تقاومها الجبال ، فشد على مساعدته يد الوصال ، وعامله على حاله معاملة الرجال . الأمر الثاني : إعلم أن هذه الأرض بحر وسفينته التوارق وكناتة نزلاء هم فيها والسفينة لا يعبر بدونها البحر ولو تحـ... فارقاع دار عفت خير من بناء أخرى جديدة ، والتوارق عادتهم معنا قبل رد العدوّ النائي ، والاستعانة بهم على العدوّ والداني ، فلما عجزوا عن النائي وصاروا يطلبون ضعطنا بالداني ، وصاروا كالذباب يتقي المواضع السليمة ويقع على القروح ، صار الحلم والصفح والإغضاء أحرى بنا منهم لأنهم لا يدرون الأمر من أصله ، ولا يميزون بين وصله وفصله ، فعاملاهم وسايساهم بما كانت تسايسهم وتعاملهم به آباءكم فإنهم أصدقاءكم ولو علموا ما عملوا ، أحرى أهل أكْ

الشيخ ـــ هو جد أمراء إولمّدنْ ـــ أحرى الإنصار ـــ هو السلطان في وقته ـــ أرحرى إرتَنْ ـــ هو سيد تَكوَلتْ ـــ فلا يخالفكما معهم ما كانت آباءكم تلقيه للكلاب فإن التوارق كلاب الدنيا جيفة فلا تنازعوا الكلام في جيفة وكونا معهم كحال آبائكم معهم فهو أصلح لدينكما ودُنياكما ، والتقيا مع إخوانكما وتعاونوا على رد المناكر وإطفاء النوائر فساعة في الخير خير ، والخير يعجل إليه والشر لا يعجل عليه ، وسائسوا كناتة بما يليق من حالها من غير إهانة ولا مذلة ، ولا تخرجوا عن التوراق أمركم كما كانت سيرة آبائكم وأصلحوهم ولو أفسدوا أنفسهم وأصلحوا أنفسكم قبلهم فبإصلاح النفس تصلح الرعايا قال الشاعر :
فأبدأ بنفسك فأنهها عن غيها ... .

البيت ، واعلموا أن والديكم لم يخلفوكم للحرب إنما خلفوكم لإعانة المظلوم وإغاثة الملهوف واجتناب المحارم ، فلا تبعدوا ما منّ الله به عليكم وخصكم به دون غيركم كما حذّركم منه ونهاكم عنه بقوله تعالى { يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطن ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر }) إنتهى ما وجدته منها في قرطاسين باليين من غير ذكر التاريخ ولا اسم الناسخ ولعله هو الآخر ، ولم أجد شيئا من أخبارهم معهم بعد سيد المختار وأخويه أبناء سيد محمد بن الشيخ الكبير إلى زمان حماد بن محمد بن سيد المختار بَادِي فإنه وقعت الحروب بينه وبين إولمّدنْ في أوائل القرن الرابع عشر الهجري وصادف ذلك دخول فرنسا للبلاد فهجر إولمّدنْ أوطانهم القريبة من البحر وهاجروا عنها ونصبوا الحرب لفرنسا ومن يحكمون عليه فانتهز حماد فرصة محاربتهم للقوات الفرنسية وصالح فرنسا فاستعان بهم وأمدوه بالسلاح الذي لا يقاومه ما بيد التوارق من الرماح والسيوف وأعانوه بخيل البحر ، ويقال إنه قال لقائدهم إن الأرض لا تسكن إلا بإبادة الطوارق منها وهم لا سبيل لكم إلى الظفر بهم لأن أرضهم مفاوز يتنعون بها من جيوشكم التي لا تألف العطش ولا يقدرون على تتبعهم في مفاوزهم فالرأي أن تقووني بالسلاح أعطيها لرجالي الذين يقدرون على تتبعهم في منازلهم ومفاوزهم فإذا كان ذلك رجعتهم إليكم مقهورين أذلاء أو أفنيهم فيطيب المقام في الأرض لأنهم آفة الأرض وأهلها .

وبلغني أنهم أعطوه السلاح ثم قالوا له خذ ما شئت من خيل أهل البحر فجمع من أحياء العرب جيشا كثيرا وغزا بهم أحياء إولَمّدنْ في منازلهم الصحراوية وليس لهم من السلاح إلا السيوف والرماح فالتقى بهم فقتل منهم كثيرا في تَغَرْغَرْتْ ببلاد كِدَالْ وأكثر القتلى في تلك الوقعة من حي تَكِولَتْ ، ثم غزاهم فوجدهم في تِكِرِرْتْ بأرض مَنَكَا فأكثر فيهم القتل ، ثم غزا حي كَلَ أهَرَ في أرض تِنْ أوَّنِنْ فقتل رؤساءهم حتى ظن الجيش أنهم أفنوهم . وأما أهل تلاَتَيْتْ الذين كانت فيهم رياسة البلد فلم يصبهم ما أصاب إخوانهم المذكورين ولا تسأل عن غير إولَمّدنْ من الرعايا فقد بذل الجيش العربي جهوده في إبادة كل من يتكلم باللغة التارقية ، قيل إن أميرهم حماد بن محمد أوصاهم بأن يقتلوا كل ذكر رأوه ولو من البهائم ولو تيسا وفعلوا ذلك حتى بقي لكثير من الناس معز كثيرة ليس فيها فحل ، وقيل حلف أميرهم أنه لا توقد نار لتارقي بين مدينة تِنْبَكْتُ ومدينة طَاوَ وذلك هو مسكن إولَمّدنْ وأتباعهم ، فلما بلغ الأمر ما بلغ من القتل والنهب والتشريد عزل الناس أميرهم الذي امتنع من ملاقاة فرنسا ومصالحتهم وهو لأوَيْ بن النابغ وأبدلوا مكانه ابن أخيه فِهْرٌ بن الإنصار فلما ولي بادر إلى ملاقاة قائد القوات الفرنسية في كَاوَ فصالحه وأحسن استقباله وأكرمه فأمن أهل البلد من غارات العرب لأن سبب إغارتهم أنهم صالحوا فرنسا وحاربهم التوارق فقووهم على غزوهم ولما صالحوهم نهوهم عن حربهم ، ولما تمت المصالحة بين الأمير فهرٌ وبين القوات الفرنسية وأمن الناس من الأعداء شرعوا في إصلاح ما فسد من أمورهم في أعوام الحرب واقتنوا الأموال وسافروا إلى البلاد التي يجلبون منها حوائجهم قبل الحرب وفي مدة قليلة استعادوا ما فات من قواهم فذهب أميرهم فهرٌ إلى قائد القوات الفرنسية فاستأذنه في غزو العرب ليأخذ ثأره منهم فأذن له فجمع جيشا عرمرما وغزاهم ووجدهم في أرض

كَرْشُولْ من أعمال بُرَمْ فاشتد القتال بين الفريقين وكثر القتل في العرب وفر من لم يقتل إلى أربَنْدَ حتى خلت منهم مساكنهم في أوْظ ونهبت أموالهم ثم عادوا إلى أوطانهم بعد ما أمنوا من غزو عدوهم فسمع أعداءهم أنهم رجعوا إلى الأماكن التي فروا منها واجتمعوا بأرض إنْتَاسِتْ فغزوهم بغير استئذان القائد الفرنسي فقتلوا منهم قتلا ذريعا فغضب الفرنسي على الأمير فهر ولامه لوما شديدا ثم سجن من ظفر به

من الغازين معه فانتهى التوارق من غزو العرب كما انتهى العرب من غزوهم بعد ما رجعوا إلى مصالحة فرنسا ، وبعد مدة من طمأنينة البلد وزوال الحروب قام الأمير فهر ونقض الصلح بينه وبين فرنسا ونصب لهم الحرب فكان العرب مع فرنسا وساعدوهم على من نقض الصلح ، ثم غلب فرنسا على جميع أهل الوطن وأطفئوا نار الحروب الأهلية فكان العرب مع الطوارق جيرانا محكومين لفرنسا لا يحكم بعضهم على بعض ، وكانت إمارة العرب الذين يسكنون في منطقة كَاوَ في آل الشيخ المختار منهم من يتبع أهل بادي وهم الذين يكون فيهم السلطان ، ومنهم آل سيد عْمر ، ومنهم أهل بايْ ، ومنهم أهل الشيخ سيد البكّا ، وللرقاقدة إمارة كبيرة لكنها تابعة لإمارة أهل بادي في أيام فرنسا ، واستقلوا عنهم بعد استقلال مالي وهم من قبائل كناتة .

وأما العرب الذين يسكنون في منطقة تِنْبَكْتُ : فبلغني على وجه الإجمال أنهم قبائل كثيرة منهم ذوو النجدة ، ومنهم أهل الثروة ، ومنهم ومنهم ، ولم أجل في أحيائهم حتى أعرف أخبارهم على وجه التفصيل ولم أر شيئا من آثار علمائهم ، وكذلك سكان تِنْبَكْتُ من الطوارق لا أعرف تفاصيل أخبارهم .

الباب الثامن

في الكلام على السودان وما كان من إمارتهم ودولهم

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول

في الكلام على مالي القديمة ، وما كان فيها من معانقة الإسلام ، ومن الملك

وقد جمعت كثيرا من كتب التاريخ المتكلمة على البلاد كتاريخ السعدي ، والفتاش ، ومن كتب المصريين والجزائريين ، وغيرهم ، ذلك المجموع ولم يبق في يدي منه إلا يسير فاخترت تدوين ذلك اليسير على تأخير الأمر وطلب الزيادة على تأسفي على ما فات مما جمعت يريح خاطري أن كثيرا من تلك المكتوبات التي ضاعت مني موجودة عند بعض إخواني من السودان المعتنين بأخبار البلد من بَنْبَرَ ومن الفلاّن والسنغايْ

. أما وصول الإسلام إلى مالي فأحسن ما وقفت عليه ما كتبه الدكتور إبراهيم علي طرخان في كتابه " دراسات في التاريخ القومي الإفريقي " ولفظه (**الفصل** الثاني في انتشار الإسلام في مالي ، لم يكن المرابطون أول من دخل الإسلام إلى بلاد السودا الأوسط ولعـ... في القرن الحادي عشر الميلادي كما هو متواتر بل إن الإسلام وصل إلى تلك البقاع في القرن نفسه الذي ظهر فيه ... القرن السابع الميلادي ، فقد أشار أحمد باب مؤرخ صنْغيْ إلى وجود اثني عشر مسجدا في مدينة غانة كـومبي ـــ هي عاصمة دولة غانة القديمة وقد اندرست منذ فوقرون ، ومواضعها تحكم عليه .... موريتانيا حاليا وقد اكتشف ... بعض الباحثين في أوائل القرن العشرين فوجد كثيرا من الآثار الدينية والصناعية ـــ ووجدت تلك المساجدحـ... عام ستين من الهجرة كما أن أمبرطورية أودغشت الإسلامية قامت بدور كبير في نشر الإسلام منذ القرن التاسع الـ... أودغشت أيضا اندرست وصار محلها من حكومة موريتانيا ، وقد أكتشفت حديثا أيضا) ثم قال : (ومع أن حكام أوغشت من البربر البيض من قبيلة صنهاجة إلا أن سكانها ومؤسسيها من السوتك السودان ، وتقع هذا المدينة شمال غربي كومبي صالح عاصمة غانة ، ويقول أبو الفداء وهي في براري سودان المغرب ، ولقد أسهم في نشر الإسلام في السودان التجار المسلمون والدعاة الذين جاءوا من وادي النيل ومصر بصفة خاصة ، ومن بلاد المغرب ونشطت ... المتنوعة طوال عصور التاريخ المختلفة بحيث لم يحدث أن

انعزل قلب أفريقية تجاريا وثقافيا عن بقية أجزاء ال... وعن آسيا وأروبا في أي فترة من فترات التاريخ وزاد الاتصال وسهلت الرحلة والنقلة منذ استخدم الجمل في ...) ثم قال : (ثم كان للفتح الإسلامي لبلاد المغرب أثره الكبير في دفع المسلمين شمالا حتى الأندلس وفرنسا وجنوبا ... السودان ، يقال إن حملة إسلامية وصلت في عام مائة واثنين إلى السنغال وعادت بكميات كبيرة من الذهب وكـ... أصلا موجهة لطاردة البربر ، ليس من شك أن لهذه الصلات المختلفة أثرها في التعريف بالإسلام في بلاد السودان ، ثم جاء دور المرابطين في القرن الحادي عشر الميلادي ، والمعروف أن المرابطين لم يقتصر دورهم على نشر الإسلام بيـ... مسالك الأمصار . وحالة الملك في مالي تغير أيام منسا موسى وابنه

محمد وجعلت الأقاليم التي يتشملها اسم مالي تنشق عن محل الملك وتستقل بأنفسها حتى صار محل الملك تابعا بعد أن كان متبوعا ، وأهمل المؤخون الذين رأيت تواليفهم ذكر اسمها فضلا عن ذكر تفاصيل أحوالها حتى صار اسم مالي مجهولا عند كثير من الناس قبل عهد استقلالها ، وكثير ممن وقفت على آثارهم يتكلمون على سيغُو وماسنه وجني وتِنْبُكْتُ وكَاوَ ولا يذكرون اسم مالي فغاب خبرها فيما بين القرن الرابع عشر الهجري والثامن إلا على أهل الأقاليم التي بقيت فيها بقية من العلماء فكل أقليم يعرف أهله من أخباره ما لم يعرفه غيرهم ولكن لم يعتنوا بمحل الملك القديم بل يتكلم كل منهم على أقليمه بحيث لا يعرف أن له علاقة باسم مالي ونسي اسمها وجهل محلها فيما قبل القرن الثامن عشر الميلادي وفيما قبل التغلب الفرنسي عليها ورأيت صورا في بَمَكّيْ عاصمتها الآن رجال من أهل الدفاع حاولوا صرف القوات الفرنسية عن وطنهم حتى قتلوا وأخذ فرنسا وطنهم بالقهر والغلبة وحكموا عليه مدة ثم منحوهم الاستقلال عام ألف وتسعمائة وستين ميلادية وترأس فيها مودبُو كيْتَا ثم قلب عليه الحكم موسى تَرَاوَرِي ثم

أخذه تُمَان توري ولكن لم يتول منصب الرياسة بل تولاه ألفا عمر كُونَاري .

وأما حالة العلم في مالي القديمة : فلم أر من يذكرها وإنما رأيت من يتكلم على العلماء في سيغُو وفي تِنْبُكْتُ وفي جني وفي ماسنه وي أواسط القرن العشرين حدث الاتصالات ما لم يكن قبل فعرف أهل الأقاليم من إخوانهم ما جهله من قبلهم وعرف أهل منطتنا كَاوَ إخوانهم الذين في غربيهم فيهم أهل العلم وعرف كثير من أهل العلم في سيغُو وبَمَكّيْ أن أهل كَاوَ فيهم العلماء وعمل أهل بَمَكّيْ ما يسمى بجمعية مالي للاتحاد وتقدم الإسلام واتخذوا لها فروعا في المناطق والولايات فكنت من أعضاء الجمعية التي في كَاوَ وسافرت إلى بَمَكّيْ لأجل ذلك فاجتمعت بأعضاء الجمعيات وتعارفت معهم فعجبوا من كون منطقة كَاوَ محلا للعلماء الكبار وما سمعوا بذلك قط ، وتعارفت مع رجال من بَمكيْ ومن سيغُو وغيرهما من المدن التي فيها ، واستفدت منهم وأفدتهم وأشدهم تحببا إليّ وتقرُبا وتبادلا للمعارف محمد العاقب بن سيدي محمد السوسي من أهل سيغُو فقد اتصلت به وزرته في منزله عام خمسة وأربعمائة وألف 1405هـ وكان في صحبتي إذ ذاك الأخ الحاج محمد بن محمد

المعروف باسم أحَمَ والبشير بن أحمد الكرماني فتلقانا بالبشر والترحيب في أول يوم ، ومكننا من مجلسه ومكتبته ، وكان له مكتبة كبيرة فيها مختارات الكتب القديمة والحديثة ، فقال لنا فارقتكم الغربة والوحشة ثم نوه بأقدارنا في مجلسه وقال لنا الدار داركم والمجلس إخوانكم والكتب كتبكم فاعملوا ما شئتم ثم سألنا عما معنا من منظوماتنا ومنثوراتنا فاطلعناه على شيء من نظمنا ومن نثرنا فأعجب بذلك غاية الإعجاب وبادر بإرسال جميع ذلك إلى محل التصوير فصور منه نسخا ثم سألنا عن شيء من آثار سلفنا فأطلعناه على ما معنا من الآثار وصوره أيضا ، ثم سألنا عن أسماء رجال وجدهم في إجازات الكتب الحديث أخذها من أهل تِنْبُكْتُ أخبرناه أن بعضهم من أسلافنا فزاد ذلك

من مكانتنا عنده فلم يتمالك أن أنشد قصيدة تحتوي على التنويه بأقدارنا وترحيبه بنا وهي بائية ، فلما رأيتها بلغت مني مبلغا دعاني إلى أن أنشد أخرى في جوابها وقلت :

شكر المطربة الشيوخ الشيب ... ببراعة وبلاغة ونسيب
شكر الحب هاجها شكرا لما ... معها من التقدير والترحيب
شكر الندب صاغها من فكرة ... صواغة للجوهر المثقوب
شكرا له شكرا لما أسدى لنا ... من فضله الممدود والمسكوب
من بشره من طيب بخسه ومن ... تمكيننا من كنزه المكتوب
من بثه بين الأنام لما لنا ... من موجبات الفضل والتحبيب
ما أنس لا أنسي مقالته لنا ... قبل التعارف دون ما تجريب
الدار داركم والإخوة إخوة ... لكم فلا تقفوا كحال غريب
أيامه كالعيد لكن أمسه ... يربو عليه اليوم في الترحيب
أكرم به أعجب به من عالم ... متواضع لله أي مهيب
نثارة نظامة خطابة ... بالحق لا يألوا عن التأديب
لله تربية تربى العاقب الـ ... أرضى بها فغدا فتى كالشيب
لله منه غزير دَر فائض ... بالدُّر ، بالموروث والموهوب
ورث المفاخر من أب وأبي أب ... والعلم بالترتيب والتعقيب
شهدت خطوطهم على ما قلته ... فمقالتي أمنت من التكذيب
الله يحفظه ويحفظ داره ... من مورثات الحزن والتخريب
لا تنس من أهل الفضائل فتية ... زرناهم بجواره المحبوب
كالهاشمي الهاشمي بن الفتى الـ ... منصور وارث سره المرغوب

والشيخ منصور وسعد والأولى ... أهدوا سلام مرحب وأديب
كإمام جامعهم وكالمدني ومن ... ضاهاهمُ من أفاضل وأريب
الله يشكر سعيهم ويثيبهم ... ويقيهمُ سوءا وهجم كروب
الله يحفظ أهل سيكو كلهم ... من غالب يسطو على المغلوب
الله يشملهم بعفو دائم ... وبرحمة والله خير مجيب
ثم الصلاة على النبي وآله ... ما سر محبوب بشعر حبيب

والأفاضل الذين سميتهم في الشعر هو الذي شرفنا بزيارتهم وأكرمهم بإرسالنا إليهم لنقابلهم فالشيخ منصور يعـ... لقاءه ويمكث زائره شهرا يطلب لقاءه ولم يحصله لكنه لما علم أنا ضيوف لمحمد العاقب يكرمهم ويعظمهم خرج إليه وجالسناه مدة ثم دعا لنا وانصرف إلى منزله ، والشيخ سعد مؤلف كثير التأليف من سائر الفنون وكثير من مؤلفاته طبع في البلاد البعيدة لكن لما لا قيناه أظهر لنا من التعظيم والاحترام ما شاء الله ثم أطلعنا على كثير من مؤلفاته ، وكذلك سائر من زرناهم من أهل الفضل هناك كلهم يجلوننا مع سواقه في سيارته وخاطبه الأخ الحاج محمد بن محمد أحمد بقصيدة فائية فأجابه بأخرى على بحرها ورويها ، وقصيدة الأخ الحاج لم أظفر بها وقت الكتابة ، وقصيدة محمد العاقب هي هذه :

شكرا وشكرا للبليغ العارف ... شكرا لبحر باللآلئ قاذف
حدث عن البحر الخضم بما تشا ... فالبحر يعجز عنه وصف الواصف
أثنى علي ببعض أوصاف له ... كرما وذلك دأب كل موالف
فهو التقي هو النقي صفاته ... وهو التريم بن التريم (1) العارف
وهو الكريم النفس طبعا ما به ... كبر ولا عجب كطبع مخالف
ما إن على أبوابه من حاجب ... غير الندى ويجيب هل من عارف
يا آل سوق فزتم بمآثر الـ ... ـعلياء عليكم وقفها من واقف
إن قلت عدد مجدهم كي ينجلي ... صدق الدعاية من تليد طراف
صف دينهم صف لينهم للخلق أجـ ... ـمعهم لذي بعد وقرب آلف
هذا وإن القاصدين لفضلهم ... والمؤتوين لهم ، بظل وارف
يسقون من صافي العلوم فترتوي ... من دون إبساس بدر واكف
وكفاهم فخرا وعزا مثابتا ... هذا العتيق بفنه المتكاسف
ذو الفرع والأصل الأصيل وحافظ ... ومحدث يقفو سبيل السالف
هو مهتد هو مقتف هو مقتدى ... وعلى حدود الله عين الواقف

صعب المشاكل إن دجت ظلماءها ... فيحلها مـن ظـاعن أو عـاكف
ما إن له هم بزهرة ذي الـدنا ... ويـرى الـسراب شـرابها كـالزا..

---

(1) 1) التريم : المتواضع .

إن كان غر الغرّ با طلها فذا ... داعي الهـدى لـم يـستمل بزخـارف
السود فوق البيض يألف فاعجبن ... من آلـف الـضدين جـد محـالف
وكفـاهم فخـرا نبـوغ محمـد ... مـنهم مجلـي شـعره المتئـالف
هو ناثر هو شاعر هو كاتب ... هو ناقد صـرف اللغـى مـن زائـف
يجي دفين ثراه رقة لفظـه ... ويعيـد تـرب النثـر تـرب النـادف
وله من الشعر المرقق مسمع للـ ... ـصم الجماد ومرقصات الآسـف
لله در محمـد مـن سـيد ... سـني المعـالي ظللـت بملاحـف
هذا قليل من فضائل قـومهم ... والمـدعي حـصر الجلـل مجـازف
يا سعد جدي إذ ظفرت بواثق ... من ودهـم مـا لا يـزال بعاصـف
ونوافح الصلوات أهدي سرمدا ... للمصطفى هـادي الـورى بفـ..
وإلى ذوي القربى الأكارم من بهم ... شملتهم غـر العلـى بمطـارف
والصحب من فرعوا ذرى قنن الهدى ... وحموا حمى الإسلام كل مخا..
ما قال من فرط السرور أخو صفا ... شكرا وشـكرا للبليـغ العـارف
انتهت هذه ، وله كثير من المؤلفات والمنظومات ، وله تلاميذ كثيـرون في بلده وفي غيره من البلدان النائية ، ربما دعي إلى بعـض العواصـم ليحضر من الأساتذ والتلاميذ ، وربما حضرت معه في بعض المجـامع والمناسبات فأقول في ذلك شعرا أو خطبة ويعمل مثل ذلك فكنت آخذ منه ويأخذ مني لحرص كل منا على انتاج صاحبه ، ولكن ضاع ذلك بضياع كتبي في كارثة كَاوَ وبقي من أثره منظومة ينكر فيها على أهل بلده وأهل زمانـــه مـــا يعملونـــه مـــن البـــدع وأولهـــا :
يقول راجـي رحمـة المجيـد ... العاقـب الـسوسي نجـل سـيدي
المـالكي مـذهبا والأشـعري ... عقيـدة سـدد فيمـا يقـ..
حمـدا لمـن نهـى عـن ابتـداع ... وأمـر النـاس بالإتبـاع
وحصر الخيرات في هذا السنن ... والشر كلا فـي سـوى هـذي ...
صـلاته علـى الـذي عنـه ورد ... بـأن كـل محـدث فهـو رد
وآلـه وصـحبه الهـداة ... الموضـحين سـبل النجـاة
هـذا وإنـه مـن المـراد ... جمـع مخالفـات ذي الـبلاد

في رجز مقرب للفهم ... من غير شبهة وغير وهم
لكي أرد محدثات " مالي " ... فكيف لا أردها ومالي
لأن ما يضرهم يضرني ... وكل ما يسرهم يسرني

سميته " تذكرة العباد ... بمحدثات هذه البلاد "
كي ينتهوا عنها ويرجعوا إلى ... ما أمر الله به وأنزلا
أرجو ثواب الله في رد البدع ... وأن أكون طائعا ومتبع

وهي طويلة وقد أطلعني على آثار جماعة من أهل بيته الأقدمين يستدل بها على كون أهل بيته من خدمة العلم . وطلبت منه أن يكتب لي شيئا من أخبار والده كما كتبتُ له أنا شيئا من أخبار والدي فكتب لي ما لفظه : (هو الشيخ سيدي محمد بن عثمان السوسي ولد سنة 1289هـ في بلدة سَنْسَدِي وأدرك هذا الشيخ من حياة والده سبع سنوات ، ثم ربي تربية اليتم في حجر والدته الكريمة السيدة خديجة صَمُهْ إلى أن بلغ سن المراهقة أوائل البلوغ ولم يبدأ تعلم القراءة والكتابة والشيخ الوالد من المعدودين في الطبقة العليا من الذكاء بل هو من الأفراد النوادر في ذلك إذ تعلم من مبادئ القراءة والكتابة ومن سور القرآن وصغار كتب الدين والعربية بعدالتمكن من البلوغ ، ثم درس نفسه على نفسه فبلغ على مستوى في كل من اللغة العربية والدراسات الشرعية ، وأبرز دليل على ذلك ماكتبه من المؤلفات العديدة التي زادت على الثلاثين في مختلف الموضوعات ، ثم قضى سني عمره المباركة في خدمة العلم والدين تعليما وتأليفا ودعوة إلى الله تعالى بالقلم واللسان زاهدا في الدنيا وحطامها مقبلا على الآخرة في قعوده وقيامه وتخرج على يده في علوم العقل والنقل رجال يشار إليهم بالبنان وخلف مكتبة زاخرة بنفائس المطبوعات والمخطوطات ومن بينها من آثار علماءا الوطن الأقدمين ما يعد من أعظم المفاخر الأثرية لمَالي . وفاته انتقل إلى رحمة الله تعالى ليلة الخميس السادس من شعبان سنة 1383هـ الموافق 1963/1/3م تغمده الله برحمته وأسكنه في أعلى عليين من فسيخ جنته آمين) انتهى من خطه . وأما العلماء الذين أسمع بوجودهم في ماسنه وجني فلم أرهم ولم أطلع على آثارهم .

الفصل الثاني

في الكلام على سُنْغَيْ

أما فيما قبل إمارة إسكيا وأولاده فلم أر كثيرا من الكلام عليهم لا من جهة الملك ولا مجهة العلم ، ووجدت أن لهم ملوكا يلقب كل منهم باسم " زَا " حتى وصلت أسماء أولئك الملوك إلى ثلاثين ومن نقلت ذلك من كتبهم لم يذكر تفاصيل أحوالهم في الملك وبعد تحول الملك من أسرة " زَا " تحول إلى أسرة " سِنّ " وكان فيهم من الملوك نحو ثلاثين سِنّ علي الذي هو آخر ملوكهم باستثناء المدة القليلة التي ملك فيها ابنه أبو بكر داغو الذي قتله محمد إسكيا واستولى مكانه على الملك .
وأقدم شيء رأيته مما يدل على ملكهم واتصالهم بالبلاد في القرون السالفة أن السحرة الذين حشرهم فرعون لمجادلة موسى عليه الصلاة والسلام كان من بينهم رجال خرجوا إليه من كُوكِيَا ، وكُوكيا قيل هي عاصمة السودان قبل نقلهم إياها إلى كَوْكَوْ ليتمكنوا من الاتصال بالشمال ، وبعض المؤرخين يقررون أن الزنوج الساكنين في نهر النيجر أصلهم من العرب والبربر والصنهاجيين خرجوا من بلاد ليبيا بزعامة عائلة ضياء فوصلوا إلى النيجر وخالطوا مَن كان هناك من الزنوج وناكحوهم حتى كثر نسل أولئك البيضان وصار إليهم الأمر وكان اللون واللغة واحد مع اختلاف الأصول في القرون السابقة ، قال ذلك المؤرخ الليبي وفي أولاد تلك العائلة كانت الملوك القدامى لسُنغايْ سواء ما كان قبل أسْكيَا وما كان بعده والله أعلم .

أما ما كان من إمارتهم بعد سُنْ علي وإسكيا فكتب منه كثيرا وما نقلته من أخبار سُن علي فبعضه من تاريخ الفتاش وبعضه من تاريخ السعدي ومما نقلته عن السعدي ما لفظه : (أما الظالم الأكبر والفاجر الأشهر سُنٍّ علي برفع السين المهملة وكسر النون المشددة كذا وجدته مضبوطا في ذيل الديباج للعلامة الفقيه أحمد باب رحمه الله تعالى فإنه كان ذا قوة عظيمة ومنه جسمية ظالما فاسقا متعديا متسلطا سفاكا للدماء ، قتل من الخلق ما لا يحصيه إلا الله تعالى وتسلط على العلماء والصالحين بالقتل والإهانة والإذلال) مر إلى أن قال : (وفي سنة ثلاث وسبعين وثمان مائة 873هـ دخل في تِنْبُكْتُ في رابع رجب الفرد وخامسه وهي رابع سنة أو خامس سنة من دخوله في السلطنة عمل فيها فسادا عظيما جسيما كبيرا فحرقها وكسرها وقتل فيها خلقا كثيرا ولما سمع " سلطان التوارق "

أكّل بمجيئه أحضر ألف جمل رحل فقهاء سَنْكَرَيْ ومشى بهم إلى بِيرْ وقال إن شأنهم هو الأهم عليه ومشى فيهم الفقيه عمر بن محمد أقِيتْ وأولاده الثلاثة المباركون الفقيه عبد الله والفقيه أحمد وهو أكبرهم والفقيه محمود وهو أصغرهم سنا ومشى فيهم خاله الفقيه المختار النحوي ابن الفقيه إنْدَغْ محمد وأدر الإمام الزمّوري رحمه الله تعالى في بيرْ فأجازه كتاب الشفا للقاضي عياض) مر إلى أن قال :

(فاشتغل الظالم الفاسق بقتل من بقي منهم في تِنْبُكْتُ وإهانتهم وزعم أنهم أحباء التوارق وخاصتهم فأبغضهم لذلك) مر إلى أن قال : (ولم يزل يقتل فيهم ويذلهم إلى العام الخامس والسبعين والثمان مائة 875هـ خرج من بقي من أهل سَنْكَرَيْ هاربين إلى بير أيضا فجعل تِنْبُكْتُ كُـيْ ـــــ معناها صاحب تِنْبُكْتُ المختار محمد نِضُّ في أثرهم فوصلهم في تِعْجِيتْ فتقاتلوا ومات في ذلك خيارهم وهي الوقعة المعروفة بها) مر إلى أن قال : (أما الذين هربوا منه في الفغ كَنْكُ إلى تَكَدَّهْ فبقوا هنالك ساكنين متوطنين ومع هذه الإساءة كلها التي يفعلها بالعلماء يقر بفضلهم ويقول لولا العلماء لا تحلو الدنيا ولاتطيب ويفعل الإحسان في آخرين ويحترمهم) مر إلى أن قال : (وفي سنة ثمان وتسعين وثمان مائة 898هـ توفي سُن علي راجعا من غزة كرمْ بعدَ ما حارب الزغرانيين والفلانيين وقاتلهم ولما وصل بلاد كرمْ في رجوعه انطلق عليه سيل هنالك في الطريق يسمى كُن فأهلكه بقدرة القادر المقتدر في خامس عشر من المحرم فاتح عام الثامن والتسعين والثمان مائة 898هـ) مر إلى أن قال : (فتولى ابنه أبو بكر داعو السلطنة في بلد دَنْغَ وكان الأسعد الأرشد محمد بن أبي بكر الطوري وقيل السُّنَّكِي من كبار قواد سُن علي فلما بلغه ذلك الخبر أضمر في نفسه الخلافة وتحيل في ذلك بأمور كثيرة فلما فرغ من إبرام حبل تلك الحيل توجه إليه فيمن كان معه من خواصه فأغار عليه في البلد المذكور في ثاني ليلة من جمادي الأولى في العام المذكور فانهزم جيشه وولى هاربا حتى وصل قرية يقال لها أنْكَغُ وهي بقرب كاغُ (1) فوقف هنالك حتى جمع عليه جيشه ثم التقى معه فيها يوم الاثنين رابع عشر من جمادي الأخرى فجرى بينهما حرب شديد وقتال عظيم ومعركة هائلة حتى كادوا يتفانون ، ثم نصر الله تعالى الأسعد الأرشد محمد بن أبي بكر وهرب سُنْ داغو إلى

(1) 1) كاغْ وكَاوَ وكَوْكَوْ أسماء لمسمى واحد .

آيَرُ فبقي هنالك إلى ان توفي فتلمك الأسعد الأرشد يومئـذ فكـان أميـر المؤمنين وخليفة المسلمين ولما بلغ الخبر بنات سُنْ علي قلن إسكِيا ــــ معناه لا يكون إياه ــــ فلما سمعه أمر ألا يلقب إلا به فقالوا " إسْـكِيَا " محمد ففرج الله تعالى به عن المسلمين الكروب وأزال به عـنهم الـبلاء والخطوب واجتهد بإقامة ملة الإسلام وإصلاح أمور الأنـام وصـاحب العلماء واستفتاهم فيما يلزمه من أمر الحل والعقد وميز الحلق بعد ما كان الكل في أيام الخارجي جنديا بين الرعية والجند) انتهى المراد من كلام السعدي بإسقاط كثير مما لا داعي إلى جلبه من إفـسادات سُـن علـي وبغضه للتوارق واقتصرت على كلام السعدي لظني أنـه هـو الأولـى بالصواب وأعرضت عن كثير من الشفويات التي أسمعها من كثير مـن أهل البلد وأما الشيخ السوقي محمد بن الهادي فذكر في تأليفه المـسمى " نصيحة الأمة " (أن الحاج إسكيا محمد هو الإمام العادل الذي لم تعرف بلادنا مثله منذ قرون وأنه هو الذي جمع بين السودان والتـوارق تحـت حكم سلطان واحد وكان التوارق قبله يختـارون حكامـا مـن أنفـسهم والسودان كذلك لا يحكم كل منهم على الآخرين مع مجاورتهم في الوطن فجمعهم محمد إسكيا تحت حكمه فبلغ حكمه دَنْدِ من جهة الجنوب وتَوات من جهة الشمال وإكَدَزْ من جهة المشرق . وقيل إلـى برْنُـو الأكـراد ووصل من جهة المغرب إلى مالي وكان له اتصالات وعلائق ودية مـع ملوك المغرب وحج في جماعات كثيرة منهم العلماء والأمراء والجنـود وزار مصر واجتمع مع كبرائها وعلماءها ودعوا له بالبركة والتمكن ، ثم وصل إلى مكة واجتمع مع علمائها وأميرها ولقبه بلقب أمير المسلمين في غربي السودان وكان محبا للعلماء يستفتيهم ويستشيرهم ويرفـع إلـيهم النوازل يستفتيهم فيها فكان ممن يسألهم جلال الدين السيوطي ذكره محمد بن الهادي ممن يسألهم ويجيبونه ولم أر ما جرى بينهما وكان منهم محمد بن عبد الكريم المغيلي ووقفت على أجوبته له وكان يجله ويحترمه حتى

حارب المغيلي يهود توات وطلب إخراجهم منها بالقهر واستعان بإسكيا في قتلهم وطردهم فلم يفعل وقال له إنهم ذميون فغضب من ذلك وساء التفاهم بينهما بعد أن كان من المقربين عنده حتى بلغ سوء التفاهم بينهما أن دعا عليه وعلى دولته بالخراب ويذكر بعض أهل الأخبار أن محمد إسكيا كان في أول أمره ... لبعض شيوخ السوقيين ، وكان شيخه مكرما له فلما نال الملك عظم السوقيين وقربهم ورفع أقدارهم على من سواهم من الناس مع شمول عدله لجميع من يحكم عليهم ، ولما رجع من الحج بنى مسجده المشهورة في قاوَ وهو موجود إلى الآن تصلى فيه الجمعة وقيل بنى مثله في إكَدَزْ ولم أره وعمل كثيرا من أعمال الخير سوى المسجد ونشر العدل والأمن في سائر بلاد مملكته وما زال ملكا حتى أدركه ضعف الكبر فأخذ ابنه الأكبر ملكه ثم تتابع الملك في بنيه إلى مائة سنة ثم غزاهم ملك المغرب بسلاح قوية لا يملكون مثلها فاستولى على مملكتهم وأكثر جنوده القتل والتخريب فخرج من لم يقتل من آل إسكيَا إلى بلاد النيجر التي يحكم عليها حاكم تِرَا في الوقت الحاضر وكان فيهم إمارات كبيرة تحت حكم كل منهما عدد كثير من القرى التابعة والإمارات الكبرى التي تحكم على قرى سُنْغايْ هناك خمسٌ إمارة : إكِررِ ، وإمارة كَكَرُ ، وإمارة تِرَا ، وإمارة ضَرْكَلْ ، وهذه كلها ليست على ضفة النيل والخامسة التي على ضفة النيل آيَرُ ، ويقال لهؤلاء كُيْزَ وينتسبون كلهم إلى سُنْغايْ ، وأخبرني واحد منهم عنده كثير من الأخبار السالفة مع أنه أمي ويزعم الإحاطة بأخبار أسلافهم أخبرني : أن آل إسْكِيا أنفسهم لم يتخلف منهم أحد في بلاد كَاوَ وإنما تخلف فيها عبيدهم ورعاياهم وشيء من عبيد التوارق تناكحوا مع عبيدهم حتى طال الأمد فسموا أنفسهم باسم سُنْغايْ ويعارض ذلك الخبر أن كثيرا من أهل كَاوَ وغيرهم ممن ينتسب إلى إسْكيَا يسردون أسماء آبائهم حتى يصلوا بهم إلى إسْكِيا . والله أعلم . والكتب التي تتكلم

على دولة إسكيا والغزو المغربي لها لم أر فيها ما يتكلم على من بقي في بلاد كَاوَ ممن يقال لهم سُنْغَيْ هل هم من آل إسْكيَا أو من غيرهم . أما الطوارق الذين يسكنون مع سُنْغايْ فيما قبل ملك إسْكيَا وفيما بعده فلم أر كثيرا من الكلام عليهم فيما بينهم وبين ملوك سُنغايْ لا من جهة الصداقة ولا من جهة العداوة ، وقد رأيت في كتاب عنوانه " العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين

مالي وسُنْغايْ " رأيت منه يسيرا من ذلك ونقلت منه أنه قال في ص 69 " وجعل إسْكيَا محمد من قوات الجيش القائم المنظم عدته في الغزو والفتح والجهاد فضم إليه فرقا من فرسان البربر ثم فرقا أخرى من أبالة الطوارق وفرقا من المشاة " إهـ وقال في ص 75 " ومن الأعمال الجليلة التي قام بها إسْكيَا داوود إبرامه اتفاقا مع الطوارق الذين يسكنون مشارف الصحراء وشمال تِنْبكْتُ وقد كان الطوارق من قبل يمارسون السلب والنهب والغارات المفاجئة على المدن " إهـ وقال في 85 " خلف إسْكيَا داوود إسْكيَا إسحاق في حكم سُنْغايْ وفي عهده قام الشريف محمد القائم بالانتقام لحادث نهب درعة فبعث بجماعة من فرسانه الأشداء لغزو تَغازة وقتل حاكمها وطائفة من التوارق وكانوا يعملون في نقل الملح على الإبل ، ونتيجة لهذه العملية قام إسْكيا داوود بتحويل مناجم التعدين إلى تَوْدَنِّي جنوب تَغازة حسب نصيحة الطوارق " وقال قبل هذا بقليل في الكلام على إسْكيَا إسحاق الأول " ولم يقتنع إسْكيَا بهذه الإشارة الخفيفة ـــ يعني قوله إن إسحاق الذي يسلم ممالح تَغَازة لم يولد بعد ـــ بل أرسل ألفين من الطوارق للإغارة علىٰ درعة إحدى ولايات مراكش وأمرهم بنهب ما يصادفونه في الأقليم على أن لا يقتلوا أحدا وأن يصلوا إلى أسوار مراكش إن استطاعوا وقد نهب الطوارق والمهم أن الحملة أدت غرضها واشعرت المغاربة بقوة دولة سُنغايْ " إهـ وقال في ص 109 " وبعد الهدوء في

تِنْبكْتُ أدرك مَامِي ـــ قائد مغربي ـــ أن الأمل في إقرار السلام الدائم فيها أو في أي مكان آخر ما دام الطوارق لم يقهروا فأرسل حملة لتأديبهم لأنهم تسببوا في هذه الاضطرابات وبمساعدة البدو قبض عليهم وقتل كل رجالهم وباع نسائهم وأولادهم رقيقا وسبب ذلك هبوطا في أسعار الرقيق غير أن فرقة أخرى من طوارق صنهاجة القوية ثارت على مَامي وهجمت على إحدى الحاميات المغربية وأبادتها ولم ينقذ الموقف إلا وصول نجدة مراكش " إهـ وقال في ص 118 " بعد وفاة المنصور لم يستطع خليفته زيدان أن يحافظ على السودان الغربي وتخلى عنه مما أدى إلى إثارة النزاع بين القادة وتقاتلهم فيما بينهم وبلغ بهم الضعف مبلغا جعلهم يدفعون الجزية لحكام سيغُو الوثنيين فاستبدلوا سُنغايْ المسلمة على أرضيها بسيادة سيغُو الوثنية وبدلا من أن يكون المنصور قد ضم بلادا

إسلامية لخلافته المسلمة قطع جزءا من العالم الإسلامي وسلم سيادته لسلطنة الوثنية واستقلت حامية كَاوَ وجَنّي وبَنْب ولم يبق للباشوات إلا مدينة تِنْبَكّتُ ولما سآت الأحوال قرر مولاي زيدان أن يتخلى نهائيا عن السودان عامَ 1618م ودفن مشروع والده وبقي بعض جماعات المغاربة سادات أنفسهم يختارون باشواتهم وقادتهم الذين وقعوا تحت سيطرتهم ويعزلونهم متى أرادوا وبدأ عددهم يتضاءل على مر الزمن واختلطوا بالقبائل السودانية ، ونشأ جيل مختلط مغربي سوداني عرف باسم الرماة ، وهكذا أنشأ أسرة محلية من سلالة باشوات تِنْبَكّتُ تدين بالتبعية الإسلامية لسلطان المغرب وتعتمد على العناصر الخليطة من البربر والمغاربة وأهل السودان والمعروف أن هذه العناصر في تِنْبَكّتُ حاليا تعرف بأرَّمَة وهو تحريف لاسم الرماة وقد نسب هذه الأجيال اللغة العربية وأصحبت تتحدث باللغة الوطنية كما غلب عليها اللون الأسمر ، وفيه أيضا في الكلام على ما كان من المنصور وقومه حين عزم على غزو السودان ما لفظه : (أوضح المنصور لمجلس الشورى

وفي خطاباته لملك سُنغايْ أنه يريد إدخال السودان الغربي في خلافته الإسلامية ويريد جمع كلمة المسلمين تحت قائد واحد ولكنه لم يعمل شيئا من أجل نشر هذا الإسلام وتدعيمه بل أرسل جنودا معظمهم من المرتزقة وكانت لغة جيش جود الرسمية هي الأسبانية فأدى جيش الفتح إلى تدهور مستوى اللغة العربية بدلا من نشرها ، والمعروف أن الدول المهزومة تعمل على تقليد الفاتحين في كل شيء وخاصة اللغة وكان هناك عدد كبير من الجنود المسيحيين في حملة الفتح كما كان هناك قائد من القساوسة وهو القائد " مامي " والمعروف أن القساوسة والجنود المسيحيين لم يعملوا على نشر الدين الإسلامي بل ربما أثروا تأثيرا عكسيا على اعتقاد المسلمين السودانيين وبدا ظاهرا للعيان أن هدف الحملة الكسب المادي ، وتروى قصة طريفة للقاء الذي تم بين العالم السوداني أحمد باب التنبكتي وبين المنصور السعدي عند لقائهما في مراكش بعد نفي العلماء إليها يقول اليفرني ـــ صاحب نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ـــ لما دخل أبو العباس بعد التسريح من السجن على المنصور وجده يكلم الناس من وراء حجاب وبينه وبينهم شملة مسدولة فقال له :إن الله تبارك وتعالى يقول { وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب }

وأنت قد تشبهت برب الأرباب فإن كانت لك حاجة في الكلام فأنزل إلينا وأرفع عنا الحجاب فنزل المنصور ورفع الأستار فقال له أبو العباس أي حاجة لك في نهب متاعي وضياع كتبي وتصفيدي من تِنْبُكْتُ إلـــى هنـــا حتى سقطت من فوق ظهر الحمل وأندق ساقي ، فقال له المنصور أردنا كي تجتمع الكلمة وأنتم في بلادكم من أعيانها فإن أذعنتم أذعن غيركم ، فقال له أبو العباس هلا جمعت الكلمة بتُرك تلمسان وما يليها من البلدان فإنهم أقرب إليك منا ، فقال له المنصور وقال النبي - صـــلى الله عليـــه وسلم - (إتركوا الترك ما تركوكم) فامتثلنا الحديث ، فقال أبو العبـــاس ذلك زمان وبعده قال ابن عباس (لا تتركوا الترك ولو تركوكم) فسكت المنصور ولم يحر جوابا وانفض المجلس) . مر إلى أن قال : (وفـــي عهد الباشوات كان الهم الأول للباشا أن يرضي جشع القسم الذي يدين له منصبه والفرص التي أعطيت له ليربح ربحا شخصيا مهما كان الثمن ، وأصبح السودانيون المساكين ضحايا لكل أنواع التعذيب والتنكيل فعند ما يشعر الباشا بالضعف يدعو الطوارق لنجدته وكانت مكـــافئتهم التقليديـــة إطلاق الحرية لهم للنهب وأدت الفوضى وعدم الأمان تلقائيا إلى التدهور وحدوث المجاعات الطاحنة) إهــ ما نقلت من كتاب " العلاقات المغربية الســـــــــــــــــــــــــــــودانية " .

الفـــــــــــــــــــــصل الثالـــــــــــــــــــــث

في الكلام على حالة منطقتي كَاوَ وتِنْبُكْتُ بعد ذهاب دولة آل إسْكِيَا منهما

يزعم بعض الناس أن الجيوش المغربية الذين يقال لهم الرماة كانت لهـــم دولة في الوطن بعد جلاء أهله الأصليين آل إسْكِيَا فيقول ذلـــك الـــبعض دولة إسْكِيَا خير من دولة الرماة ودولة الرماة خير من دولة التوارق لأن الرماة معتمدون على دولة ..فاء ملوك المغرب والتوارق غير معتمـــدين على دولة ينظمون أمورهم على قوانينها بل هم أمة أمية تغلبـــوا علـــى الوطن بالسيف فكانوا يخربون ولا يعمرون ويأخذون الغرامات والجبايات بدل كونهم هم القائمين بالدفاع عن الوطن فاستحقوا من أموال الرعية ما يقوم بمؤنهم ليتفرغوا للدفاع ، والأمم التي تغلبوا عليها لا يهتمـــون مـــن أمورهم إلا بمجرد الدفع عنهم وسياسة الرعية وضبط أحوالهم وعمـــارة أرضهم بعيدون عن الاهتمام بها) كذا قال . وبعض الناس لا يثبت أن ما

كان من الرماة يسمى دولة بل غاية أمرهم أنهم لما هزموا أهل البلد الأصليين وطردوهم من منازلهم تغلبوا على من بقي من الضعفاء الساكنين معهم في البحر من كَاوَ إلى تِنْبُكْتُ ولم يحكموا على شيء من البلاد النائية عن البحر والبلاد التي أقاموا بها أذاقوا أهلها من أنواع الظلم والاستضعاف والاستغلال ومكثوا على ذلك مدة طويلة لا يجترئ أحد أن يتعرض لمقاومتهم خوفا من قوات المغرب .

يقول مؤلف كتاب " العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي) ص 109 (وبعد الهدوء في تِنْبُكْتُ أدرك " مامي " قائد مغربي أن لا أمل في إقرار السلام الدائم فيها أو في أي مكانٍ آخر ما دام الطوارق لم يقهروا فأرسل حملة لتأديبهم لأنهم تسببوا في هذه الاضطرابات وبمساعدة البدو قبض عليهم وقتل كل رجالهم وباع نساءهم وأولادهم رقيقا ، وسبب ذلك هبوطا في أسعار الرقيق غير أن فرقة أخرى من طوارق صنهاجة القوية ثارت على مَامي وهجمت على إحدى الحاميات المغربية وأبادتها ولم ينقذ الموقف إلى وصول نجدة من مراكش) وقال في ص 118 (بعد وفاة المنصور لم يستطع خليفته زيدان أن يحافظ على السودان الغربي وتخلى عنه مما أدى إلى إثارة النزاع بين القادة وتقاتلهم فيما بينهم وبلغ بهم الضعف مبلغا جعلهم يدفعون الجزية لحكام سِيغُو الوثنيين فاستبدلوا سُنْغايْ المسلمة على أراضيها بسيادة سِيغُو الوثنية وبدلا من أن يكون المنصور قد ضم بلاد إسلامية لخلافتة المسلمة قطع جزء عزيزا من العالم الإسلامي وسلم سيادته لسلطة وثنية واستقلت حامية كَاوَ وجَنّى وبَنْبَ ولم يبق للباشوات إلا مدينة تِنْبُكْتُ ، ولما ساءت الأحوال قرر مولاي زيدان أن يتخلى نهائيا عن السودان عام 1618م ودفن مشروع والده وبقي بعض جماعات المغاربة سادات أنفسهم تختارون باشواتهم وقادتهم الذين وقعوا تحت سيطرتهم ويعزلونهم متى أرادوا وبدأ عددهم يتضاءل على مر الزمن واختلطوا بالقبائل السودانية ونشأ جيل مختلط مغربي سوداني عرف باسم الرماة ، وهكذا نشأت أسرة محلية من سلالة باشوات تِنْبُكْتُ تدين بالتبعية الإسلامية لسلطان المغرب وتعتمد على العناصر الخليطة من البربر والمغاربة وأهل السودان ، وقد نسيت هذه الأجيال اللغة العربية وأصبحت تتحدث باللغة الوطنية كما غلب عليها

اللون الأسمر) إهـ المراد من كلامه وهو يفيد أن ما كان من الرماة لا يسمى دولة وأن حكم المغرب في مناطق كَاوَ

وتِنْبُكْتُ وجَنّى وغيرها من بلاد سُنغايْ انتهى عام 1618م وهو بالتاريخ الهجري عام ألف وعشرين سنة 1020هـ ، وغيره من المؤرخين يذكر أن مدة حكم سلاطين المغرب على بلاد سُنغاي ستة وعشرين عاما فلم يكن تغلب الرماة علىسكان البحر من السودان والطوارق بعد تخلي مولاي زيدان عنها مما يسمى دولة مع أن ذلك التغلب لم يبلغ سكان الصحاري التي تحت حكم كَاوَ وتِنْبُكْتُ في عهد إمارة آل إسْكيَا . ولما انقطعت الصلات بين المغرب وبين الرماة واستبدوا بأحكامهم وجعلوا يختارون القادة والباشوات بأنفسهم من غير اعتماد على سلاطين المغرب وكان همهم استضعاف السكان واستغلالهم قام عليهم التوارق وأنقذوا من كانوا يستضعفونهم من المساكين ، قال محمد بن الهادي السوقي في كتابه " نصيحة الأمة " (وأول من ثار عليهم جيل إدَمُوسَنْ فوقعت بينهم معارك تقع الهزيمة فيه على الرماة وبعد ذلك بعامين تغلب إولّمّدنْ على جميع القطر وحكموا على جميع من فيه من السكان والقبائل) إهـ . وتعددت إمارات الطوارق في البلاد وقسموها بينهم أقساما كل قسم مستقل بنفسه عن القسم الآخر ولم أر ما يفيد أن الطوارق الصحراويين كانوا تحت حكم الرماة حين حكم الرماة على التوارق الساكنين معهم في البحر بل رأيت في كلام المؤرخين المصريين المتكلمين على أمم غرب أفريقية رسم خريطة بلادها في القرن العاشر الهجري الذي كانت فيه دولة آل إسْكيا وسمى أهم المدن الصحراوية في ذلك الوقت وذكر منها تبسنن وهُكَّارْ وتَدَمَكتْ وتكَدًّا وأرْوان وولاتة ثم ذكر في موضع آخر ما يدل على أن أهل تدمكت ــ بمعنى المدينة لا بمعنى الجيل الذي يطلق عليه الاسم في الاصطلاح الجديد ــ لم يكونوا تحت حكم الرماة حين حكموا على بلاد سُنغاي فقال ما لفظه : (وفي عام ألف ومائة وسبعة عشر 1117هـ خرجت أوآخر فلول الجيش المغربي لتصد هجوما عنيفا شنته تدمكتْ في قلب الصحراء الكبرى بزعامة القائد أغْمَرْ فقضى على تلك

الفلول وعاد من بقي منهم إلى تِنْبكتُ وقدموا ولائهم إلى أغْمَرْ فسمح لهم أن يختاروا الباشا ثمنا لخضوعهم) إهـ الغرض منه .
قلت : وسلطان البلاد في ذلك التاريخ هو أكْ الشيخ بن كَرِدَنَّ لأن أباه كَرِدَنَّ مات عام ألف ومائة وعشرة 1110هـ وخلفه على الملك ولا يكاد أن يكون تحت حكم الرماة بل جميع سكان المنطقتين تِنْبكتُ وكَاوَ وهم الطوارق بجميع قبائلهم والعرب بجميع قبائلهم والسودان بجميع مدنهم والفلان والرماة كل ذلك صار تحت حكمه وقهره . وفي رسالة لعم أجدادنا إنْلَبُشْ جد كَلْ أسكَنْ إلى قائد تِنْبكتُ في أوائل القرن الثاني عشر الهجري ما يشير إلى أن حكمه مقصور على أهل البحر من أمم التوارق وأن أمير التوارق والصحراويين في ذلك الوقت هو أكْ الشيخ بن كَرِدَنَّ ولم يكن تحت حكمه وخاطبه ذلك القائد في موضوعات شتى منها قوله له (وذكرت لأكْ الشيخ وجميع إولّمّدنْ ما بلغنا عنك من حسن السيرة ولا بد من وقوع ذلك في قلوبهم جدا لأن طبيعتهم على الإصلاح وإن أفسدوا ولا أقول ذلك لجميع التوارك إلا لأجل النصيحة العامة لا لأجلك بخصوصك بل لصدهم عن تِنْبكتُ لأن هذا البلد الموسس على الخير قديما وحديثا المورود من جميع البلاد المصدر منه الخيرات لكل بقعة ينبغي أن يراعى حقه) إهـ المراد من كلامه ومقتضاه أن حاكم تِنْبكتُ هو الذي يحتاج إلى أن يخاطب أكْ الشيخ بكف عدوانه عنه ولو كان حاكما عليه ما أمره إلا بطاعته وعدم الخروج عنه ، ولم نر في الخطوط القديمة ما يفيد خروج بعض الوطن عن سلطنة إولّمّدنْ يستوي في ذلك الرماة وغيرهم وأظلم الجو على تاريخ أهل البحر بعد ما صاروا أتباعا لأن كثيرا من الأخباريين الذين اطلعت على كتاباتهم لا يذكرون عنهم شيئا بعد ذهاب دولة آل إسْكيَا إلا من جهة علمائهم ويذكرون شيئا من أخبار علماء تِنْبكتُ وما يجري فيها من الإمارات التابعة لإولّمّدنْ ، ويذكرون إمارة التوارق فيها وإمارة الرماة

فُوتَا وإمارة أحمد البكا بن سيدي محمد فيها حتى سماه بعض الكاتبين أمير المؤمنين ، ويذكرون كثيرا من العلماء فيها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر .
وأما منطقة كَاوَ : فلم أر عنها مثل ذلك لأن العلم انتقل من القرى في تلك المدة وصار في الصحراويين من العرب وكَلَسُّوكْ وإكِلادْ ودُ إسْحاق وإفُوغَاسْ وكثير من قبائل طَاوَ ولم يبق من المتعلمين في القرى البحرية

إلا الفلان فإن كثرا من قبيلة كَابِرُو يتعلمون النحو واللغة والفقه وغيرُهم من قرى السودان الذين يسمون إهَتَنْ حظهم من العلوم فيما علمت حلقات تحفيظ القرآن وتعليم مختصرات الفقه المالكي قل أن تجد فيهم قرية إلا وجدت فيها مقرئ العدد من التلاميذ وأكثرهم قياما بإقراء القرآن من جهة تجويد خطه وتجويد قرآته .

وأما الفُلان : فهم قبائل عديدة منهم من لا يخدم العلم بل همهم رعاية المواشي وخدمة الزروع ، ومنهم قبيلة تتعلم وهم كَلبرُ والذين يسكنون في الجانب الغربي من البحر بين كَاوَ وأنسَنْكُ وبَاج في قرب أنسَنْغُو ويكون فيهم بعض أهل العلم وكَابِرُو أكثر علماء ومن علمائهم : حفيظ وابنه عمّار ومفلح وبُنْكان مفلح وبُنْكان جَيْبَلَّ والأمير هُسَبَ وابنه بَزٍّ وهو أعلم من الجميع وله ولأبيه كثير من الشعر ، ومن علمائهم محمود بن عبد بن زبير وهو أكثرهم جولانا في بلاد العرب للتعلم تعلم أولا في كَلَسُوكْ تَنْغَ أكَلِ ثم في تِنْبَكْتُ ثم في موريتانيا ثم في القاهرة ثم تعلم الفرنسية في باريس حتى تخرج من العربية والفرنسية معا بدرجة ممتاز ثم خدم في أمور حكومية وتولى الخدمة في مركز أحمد بابا في تِنْبَكْتُ سنين ثم تولى سفارة مالي في المملكة السعودية وكان له اتصال بالعلماء وكبار الدول التي يخدم فيها ومواصلات بالدول التي لم يخدم فيها سواء كانت عربية أو إسلامية أو فرنجية وقتنى كثيرا من الكتب ولم يزل في سفارة مالي بالرياض حين كتبت هذا .

وأما حالة المنطقتين : من جهة تعلق المتغلبين من إولمّدنْ بأهلها فهي أنهم لا ينزعون العزة من أهلها بعد استيلائهم على وطنهم بل يبقون إمارة القبائل في ساداتهم الذين يرضون لهم السيادة وإمارة القرى فيمن يرضون إمارتهم فكل عزيز قوم يكرمونه ويرفعون درجته فوق درجة إخوانه بشرط أن لا ينازعهم في منصبهم وبشرط أن يؤدي إليهم ما يفرضون عليه وعلى قومه من الجبايات طائعا ومن لم يؤد غرامتهم طائعا أخذت منه قهرا مع الإذلال بخلاف من يؤديها طائعا فإنه يسلمون له ملكان له من العز سواء كان أبيض أو أسود من مبدء حكمهم شرقا إلى نهايته غربا ، وربما وقع التنافس أو التشاجر أو القتال مع بعض القبائل فيها بينها فيقومون بإطفاء تلك النوائر وإذلال الظالم وقد يحاول بعض القبائل التابعة أن يذل جاره كما كان من الرماة مع الفلان فتكون بينهما أمور عظام ومعارك تنتهي لعدم استنسلام من يطلب خوه إذلاله

فينتهي الأمر إلى السلاطين من إولمّدنْ فيحولون بين الظالم وبين المظلوم ، وكان ذلك حال الوطن حين هجم عليه فرنسا ..... ولما دخل القواد الفرنسيون بلاد تِنْبكْتُ وكَاوَ قابلهم سكان البحر بالاستسلام والتذلل فأمنوهم على أنفسهم وأموالهم وأوطانهم وقابلهم سكان الصحراء بعكس ذلك واستنكفوا أن يذلوا لأحد فلجئوا أولا إلى الباعدة عن الأوطان التي من بقي فيها كان ضعيفا محكوما عليه ثم حاولوا دفاعهم وقتالهم وكانت بينهم وبين القواد معارك طاحنة غُلبوا ورجعوا إلى الصلح فصالحهم بعض أهل البلد ولا أنكر إخوانهم ما فعلوا ونسبوا إخوانهم المصالحين إلى الكفر وقرروا أن الواجب جهاد الكفار وقتال من صالحهم وأن المسلمين الذين صالحوهم لا فرق بينهم وبين الكفار فاشتدت الحروب والمعارك حتى غلب القواد الكفار على الوطن وذللوا أهله وقتلوا كثيرا من رؤسائهم وغربوا بعضهم فاستسلموا قهرا وغلبة وصالحوهم على أداء الغرامة تشبه الجزية التي يأخذها المسلمون من الكفار فأمنوهم

على أنفسهم وأموالهم وسلبوا الملوك الطوارق ملكهم على القرى البحرية واتخذوا من كل قرية رئيسا على قومه واقتصر ملك السلاطين من إولمّدنْ على الطوارق الصحراويين.» ثم ندم السلاطين على استسلامهم للقواد الفرنسيين فنقضوا الصلح الذي أبرموه معهم ونصبوا لهم الحرب وقاتلوهم في أماكن عديدة مثل أَضَرَنْبُكَرْ في أرض مَنَكَا بقيادة فهرٌ بن الإنصار وتَهْتَسْتْ في أرض تِنْبَكْتُ ، وكَبْرُ في أرض بُورْكِينَا فَاسُوا بزعامة الشيخ محمد أحمد بن الجُنيد السوقي الأنصاري ومن تبعه من أمراء قبائل الطوارق ، وأماكن غير هذه وبقيت طوائف من أهل البلد على الصلح منهم أمراء وعلماء وقال علماءهم ما دعا إليه إخوانهم من الحرب ليس جهادا دينيا إنما هو فتنة فتركوا معاونة إخوانهم الناقضين ، ولما هزم الناقضين لجأ من معهم إلى الباقين على الصلح فاستشفعوا بهم وشفعهم فيهم القواد الفرنسيون وسكنت الفتن ولكن الملك السلطنة لم يرجعا إلى ملوك إولمّدنْ بل كل قبيلة أو جماعة اتخذ فيهم القواد الفرنسيون سلاطين لا حكم لأحد عليهم إلا للفرنسيين فكثرت الأمراء والسلاطين في الأمم التي كانت من قبل لا يحكم عليها إلا سلطان إولمّدنْ وبقي أهل الوطن على ذلك مدة الاستعمار ثم أحدث الحكام الفرنسيون صورة للسلطنة فيها تقديم بعض رساء البلد على عدد من القبائل فيكون كأمير الأمراء ويكون سيد القبيلة اميرا على قومه أو قبيلته فقط مع حكم

أمير الأمراء عليه ويسمون أمير الأمراء كَنْتُو ومن دونه في المرتبة الضامن ولا يكون للضامن أن ينفذ أمرا في رعيته إلا بإذن من كَنْتُو فكان في البلاد كثير من الأمراء الكبار الذين يحكم بعضهم على عدد من أمراء القبائل منهم كثيرون في منطقة كَاوَ وكثيرون في منطقة تِنْبَكْتُ بعضهم من السودان وبعضهم من البيض ، ولما استقلت جمهورية مالي عام ألف وثلاث مائة وثمانين 1380هـ الموافق لألف وتسع مائة وستين 1960م قسموا الدولة إلى ست ولايات

وكانت المنطقتان معا ولاية واحدة وكان ذلك في أيام مُودِبُو كَيْتَ وأول أيام موسى تَرَاوَرِي ثم قسموا الولاية إلى قسمين وكانت منطقة تِنْبَكْتُ ولاية سادسة ومنطقة كَاوَ سابعة ثم قسموها قسمين وفرقوا بين كَاوَ وكِدَالْ الولاية الثامنة وبقيت بُرَمْ وأنْسَنْغُو ومَنَكَا في حكم كَاوَ ، ومما عمله رؤساء الجمهورية بعد استقلالها تكثير الحكام والمراكز فكان الحاكم الذي يحكم في مدينة كَاوَ أيام فرنسا واحدا يحكم على كثير من المدن البحرية وكثير من الأمراء الكبار الذين يحكمون على عدد من الأمراء ولما كان زمن الاستقلال صار حاكم كَاوَ يحكم على كثير من المراكز التي يحكم فيها حكام محكومون وتعدد الحكام المحكومون في كثير من القرى وفي كثير من الأماكن التي يسكن فيها الأمراء الكبار من قبل فكان في كل منزل الكبير الأمراء حاكم هو الذي كان له من أمور الناس وأحكامهم ما كان للأمير الكبير قبل وزال حكم أمير الأمراء وصار أمير كل قبيلة مستقلا بأمور رعيته لا واسطة بينه وبين الحكومة التي في كَاوَ وصار ذلك هو المعمول به في جميع مناطق مالي وفي مناطق جمهورية النيجر ولم يتغير ذلك بالانقلاب الواقع على مُودِبُو كَيْتَ ولا الواقع على موسى تَرَاوَرِي ولا بعد الحكم المدني الذي ترأس فيه ألفا عمر كُونَارِي ولما غيرت حكومة مالي النظام الذي نظمه فرنسا لضبط أمور الناس بالأمراء الكبار الذين يحكمون على أمراء القبائل وضعوا مكانه لضبط أمور الجماعات نظاما آخر وهم حكم البلاد عن طريق النواب الذين يكونون أعضاء في مجلس البَرْلَمَان في بَمَكُو ويسمى كل نائب باسم " دَبَتِ " بمعنى أنه هو مرجع الأمور العامة السياسية في المنطقة التي كان نائبا فيها أو عنها فكان : محمد الحسن هَيْدَرَا نائبا في منطقة تِنْبَكْتُ ،

والحسين بن شِيكْعْ نائبا في مدينة كَاوَ وتوابعها ، وكان الحسن بن تُــوجَ مقيما في كَاوَ ولكنه هو المسئول عن أهل كِدَالْ ، وكان يعقوب

مَيْغَ هو المسئول عن أنسَنْغُو ومَنَكَا ، كان هؤلاء نواب المناطق في أيــام رياسة مُودِبُّو كَيْتَ ، ولما وقع عليه الانقلاب سقط البرلمان أي مجلــس الشورى وكان الحكم للعسكر فكانت امور الناس في تلك الأيام لا تدار إلا بالقوة ولا سبيل لغير من في الجيش أن يكلم من كان عسكريا بل يعمــل العسكريون في أحكام البلد ما شاءوا ومن غير معارض ، وفي عام ألف وثلاث مائة وثمان وتسعين 1398هــ الموافق لتسع وسبعين وتسع مائة وألف 1979م غير الرئيس تَرَاوَرِي وضعه الأول الذي ليس القول فيــه إلا للعسكر ووضع قنونا يعتبر فيه مصالح الشعوب جميعا وفتح للعامــة بابا لاختيار من شاءوا من الوكلاء والنواب ومنع استبداد أحد بأمور قومه إلا أن يكونوا مختارين له إما بالاتفاق أو باختيار الأكثر له فيكون الحكم للأكثر ويسقط اختيار غير الأكثر .

وصورة ذلك الاختيار أن كل قرية أو حي مــن أحيــاء الــصحراويين يتخذون من أنفسهم جماعة باسم الوكلاء وتتخذ الجماعــة واحــدا مــنهم رئيسا لمجلس شوراهم ثم يجتمع أولئك الرؤساء عنــد حــاكم المركــز ويتخذون مجلسا عاما لجميع الوكلاء فيختارون جماعة هم النواب علــى أهل المركز جميعا من غير فرق بين قبيلــة وقبيلــة ولا قريــة وقريــة فيختارون مجلسا أعلى من مجلسهم هو الحاكم على المجــالس الــصغار ووكلاء القبائل والقرى الذين يبتدئ بهم الأمر ثم يرتقي إلى مــن فــوقهم يسمون بالفرنسية " كُمَتِ " ومن فوقهم في المرتبة " سُسَكْسِيُنْ " ومن فوق أولئك يسمون " سَكْسِيُونْ " ومن هؤلاء يختار من يكونون أعــضاء فــي المجلس الذي يرأسه رئيس الجمهورية ويسمى " بِ إِس " فإذا كان لأهل القرية مشكلة رفعوها إلى مجلس " كُمَتِ " فإن قدروا على حلها حلوهــا ورفعوا ما عملوا إلى مجلس " سُسَكْسِيُنْ " ليوقع علــى مــا فعلــوا وإن عجزوا عن حلها رفعوها إلى المجلس الذي يحكم على مجلــسهم ، فــإن حلوها وإلا رفعوها إلى من فوقهم ثم يكون الأمر هكذا إلى أن ينتهي إلى مجلس الرئيس إذا اقتضى الحال ذلك ، ولما كثر الوكلاء الصغار والكبار

في المنطقة وذاق كل أحد طعم الحرية في اختيار الوكيل والنائب استراح الناس من كثير مما يعانونه فأقبل الناس على أعمالهم وأحدثوا من الأمور الدينية والدنيوية ما لم يكونوا يعملونه أيام الحكم الفرنسي فاتخذ أهل القرى البحرية كثيرا من المساجد تصلى فيها الجمعة وكان أهل منطقة كَاوَ ... فيما قبل لا يتخذون جماعا للجمعة ولا تصلى الجمعة في الأزمان القديمة إلا في المسجد الذي بناه إسْكيَا في القرن العاشر الهجري وصار الأمر في هذه السنين إلى أن كل قرية تمسى قرية فيها جامع تصلى فيه الجمعة بإمامة واحد من أبنائها على عكس ما كان قبل حين لا تصلى الجمعة إلى في المسجد القديم ولا يؤم فيها إلا واحد من أهل بيت مخصوصين ووصل أمر المساجد في كَاوَ إلى أن فيها أربع جوامع كل واحد

منهما يغتص بالناس يوم الجمعة ، وكذلك حدث في البلد كثير من الأسواق وكثير من المدارس الفرنسية والعربية وخرج كثير من أبناء الوطن إلى الخارج برسم التعلم والتجارة بعضهم إلى البلاد الإسلامية لطلب العلم والمال وبعضهم إلى البلاد الأروبية فكانت حالة أهل القرى في هذا الزمان أحسن من حالة أسلافهم من جهة الدين ومن جهة الدنيا فإن الحملة المغربية التي خربت دولة آل إسْكيَا تركت أبناء الوطن أذلاء ضعفاء طعمة لكل متغلب وكان المتغلبون لا يهتمون بالتعليم في حق أنفسهم فكيف يهتمون به في حق من لا يريدون منه إلا الاستغلال وجباية الخراج ، ولما ذهبت دولة المتغلبين الأميين وجاءت القوات الفرنسية وطلبوا انعاش الوطن الذي انعزل عن أخبار العالم منذ قرون بدءوا بأمر الناس بالتعليم الفرنسي واتخذوا له مدارس فأقبل أهل القرى على تعاليمهم ونفر منها أهل الصحراء واختاروا الأمية والأخذ بأذناب البقر والحرية في التنقل على التعلم والاستيطان وخافوا من التعلم الفرنسي أن يكون أولادهم كفارا وأن يكونوا خدما لمن يتعلمون منهم ولما استقلت البلاد صار الحكم فيها لأهل القرى الذين تعلموا وتجروا وجالوا في البلادان حتى استحقوا بذلك التقدم في الأمور وبعد مدة طويلة رضي أهل الصحاري بالتعلم الفرنسي فنجح منهم جماعة متفرقة في البلدان تعلموا من اللغة الفرنسية ما قدروا به على العمل في الحكومة فعاشوا واقتصروا على العمل تحت الحكومة منهم من يعملون في المكاتب ، ومنهم من يعملون في التدريس ، ومنهم من يعملون في الجند وفي النظام الذي الذي

عمله موسى تَرَاوَرِي باسم " إدِبّ مْ " قام رجالهم الذي تعلموا الفرنسية وكانوا من قبل لا يسألون عن مشاركة السود في المناصب الحكومية لما يعلمون من قتلهم وتفرقهم وتفرق آراء قبائلهم وأهوائهم واختلاف مصالحهم فلما رأوا كثرة الوكلاء في الدولة حتى في أحياء الصحراويين ووجدوا فرصة لاتخاذ الوكلاء الكبار والنواب منهم انتهزوا

تلك الفرصة فطلبوا ما يستحقونه بعلمهم وباتفاق شعوبهم على توكيلهم فنالوا من المراتب مثل ما نال إخوانهم الذين سبقوهم إلى التعلم ومداخلة الحكومة الكبرى ، وفي عام ألف وأربع مائة وواحد 1401هـ الموافق لألف وتسع مائة وواحد وثمانين 1980م اتخذ أهل مالي جمعية إسلامية في العاصمة بَمَاكَو تسمى " جمعية مالي للاتحاد وتقدم الإسلام " وكان لها فروع في سائر الولايات والمناطق وصورة تلك الفروع أن كل محافظة تحتها كثير من المناطق وتمسى بالفرنسية " رِيجْيُونْ " وبالعربية محافظة يكون فيها حاكم كبير يسمى " كُفَرْنِيرْ " وهو الذي يتولى الحكم على جميع المناطق التي تسمى باسم " سِرْكِلْ " ويكون معه حاكم دونه يسمى باسم " كُمَنْدَ سِرْكِلْ " يحكم على ثلاث مراكز فقط من مراكز الحكم فلزم أن يكون في مدينة كَاوَ جمعيتان أحدهما باسم حاكم المحافظة وهو الذي يتولى أمرها والأخرى باسم سِرْكِلْ فأرسلت الحكومة إلى رؤساء المناطق ليحضروا ويختاروا من يستحقون العضوية في مجلس الجمعية الكبرى أو الجمعية الصغرى فاتخذوا أعضاء الجمعية الكبرى من أهل مدينة كَاوَ وقليل من أهل القرى القريبة منه ، ثم أرادوا اتخاذ الأعضاء الذين يستحقون العضوية في جمعية سِرْكِلْ فاتفق أهل القرى التابعة لسَرْكِلْ على أن يكون أخونا وصديقنا بَزّ بن هُسَبَ الكَابري رئيسا فيها وأنا إذ ذاك غائب وإنما اختاروه للرياسة في المجلس لكونه أعلمهم بالعلوم الشرعية وكونه ابن أمير كان من أعلم بلده ، فقال لهم إن الأمور الدينية لا ينبغي أن يترأس فيها إلا العلماء الكبار ولي أخ من السوقيين اسمه العتيق بن سعد الدين كان أعلم مني وأجدر برياسة المجلس ، فقالوا له أنكتبه وهو غائب لا ندري أيرضى أم لا ؟ فقال لهم أكتبوه وأنا الضامن لرضاه بما حكمت به عليه فاتخذوني رئيسا للجمعية التي تكون باسم " سِرْكِلْ " وجعلت كلما انعقد المجلس خطب بما يدعو إلى اتحاد المسلمين وكونهم روحا متحدة

في أجسام متفرقة وربما قرأت عليهم من الآيات والأحاديث ما يدعوهم إلى التوافق والتآلف وإلغاء ما يدعو إلى الافتراق والاختلاف مثل قوله تعالى { واعتصموا بحبل الله ولا تفرقوا} وقوله تعالى { ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم } وقوله - صلى الله عليه وسلم - (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) وقوله - صلى الله عليه وسلم - (لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يسلمه) وقوله (إياكم والبغضة فإنها الحالقة) قال أبو الدرداء راوي الحديث لا أقول تحلق الشعر ولكنها تحلق الدين . وقوله - صلى الله عليه وسلم - (لا فضل لعربي على عجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى الناس كلهم من آدم وآدم من تراب) بمثل هذا أخطب في المجالس ، وربما أتتنا نازلة أو خصومة فيفوضون أمرها إلي والظاهر من حال الحاضرين أنهم يرضون ما أقول لهم ويظهرون لي من التعظيم والاحترام فوق ما يرضيني منهم وبعد سنين جاء الأمر من العاصمة بَامكُو بتجديد أعضاء الجمْعيات فاتخذني أهل المجلس الأعلى الذي فوق مجلسنا عضوا من أعضائهم ونلت منهم الاحترام والتوقير فكلما جاءنا سؤال أو نزاع من بعض الأقطار التي تتبع الجمعية أحالوا علي النظر فيها ثم الكتابة ، وربما طلب أهل بمَاكُو إحضار شخص أعضاء الجمعية ليحضر بعض المناسبات العامة لجميع الأقاليم فيبعثوني إليهم وكنا كذلك إلى أن جاء وقت تجديد أعضاء الجمعيات في المرة الثالثة وعقد لذلك مؤتمر عظيم حضره أكثر من مائة رجل من أعضاء الجمعيات في سائر أنحاء الجمهورية فحضرت فيه فلما حان وقت انتخاب الأعضاء وقع نزاع شديد بين طوائف الحاضرين واشتد التنافر بينهم وتضليل بعضهم لبعض ومنهم من وصل إلى تكفير مخالفه وكان قريبا من المحال عندهم أن يوجد مجلس واحد يجمعهم مع ما هم عليه من الاختلاف ، فلما رأيت تلك الاختلافات سآني ذلك وشق علي فأمرتهم بالتفاهم والتوافق ، وقلت لهم

إن كثيرا من الاختلافات الواقعة بين الناس قديما وحديثا إذا تأملها متأمل علم أنها لفظية لا توجب ما وصل إليه الناس من التنافر والتباغض وتبادل التكفير والتضليل فالأحسن أن تختار الجماعات فيما بينهم

أشخاصا من علمائهم الذين يثقون بعلمهم وأمانتهم ونصحهم للمسلمين فيجتهدوا في تشخيص الجزئيات المتنازع فيها بين مجيز ومانع وينظروا فيها نظر متبصر لا يتعصب لأحد على أحد وليس له هدف إلا تبيين الحق ولا يستبعد من نفسه الخطا ولا من خصمه الصـ... فإذا فعلوا ذلك وظهر الحق تيسر لهم عقد مجلس للاتحاد وتقدم الإسلام ولم يرضوا كلهم بقولي فأمرني من يوافق في المنحى بتأخير هذا الرأي لعدم فهم كثير من الحاضرين المتعصبين إلا ما يوافق أهوائهم ومألوفهم فأعرضت عن مخاطبتهم في نفس المجلس ولكن صورت القضية بصورة أن أهل البلد بمنزلة خصوم يحتاجون إلى فصال خصوماتهم وشخصت الجزئيات التي يختلفون فيها فتكلمت على كل منها وذكرت ما قال كل من الفريقين فيها ثم ذكرت ما يزيل التنافر بين الخصمين فيها إما برجوع المرء إلى موافقة أخيه أو بتسليم كل منهما أن ما قاله صاحبه له وجه يمنع المرء من تضليل مرتكبيه فيكون معه كما كان المسلمون بعضهم مع بعض مع اختلاف مذاهبهم الفقهية قديما وحديثا فكنت في ذلك نحو سبعة كراريس وسمية الرسالة " نصيحة المتوسط الغالي من طوائف جمهورية مالي " وما حملني على كتابة ما كتبت من ذلك إلا شدة حرصي على اتفاق الإسلام من غير فرق بين أبيض وأسود ومن غير فرق بين قوم آخرين ، وكان ذلك الحرص مما طبعت عليه وزاد ما حفظت من الآيات والأحاديث ، وتلك الطبيعة يشاركني فيها قليل من أهل بلدي الذين يحضرون معي في المجلس ويخالفني الأكثر من سائر الأجناس التي يجمعها اسم الدولة ، وربما سافرت إلى بَمَاكُو باسم الجمعية ويكون معي من أهل بلدي رجال من أهل السياسة يعملون في أمورهم الخاصة بهم وأعمل في شأن الجمعية ونلتقي ونتحدث في موضوع ما تتفق

به كلمة أهل وطننا عموما وأهل كَاوَ خصوصا ، وربما وجدنا الموافقة من بعض الإخوان الذين نتحدث معهم في الموضوع ومرة قلت للحسين بن شكم الذي كان سابقا من النواب الكبار في أيام مُودِبُّو كَيْتَ ثم كان الأمين العام والكاتب بالفرنسية في جمعية كَاوَ الكبرى وكان من المعتبرين في بلدنا ، قلت له إني تفكرت في أمر أريد أن أعرضه عليك فإن وافقت فيه علمت ما تقدر عليه في إنفاذه فإنك تقدر على ما لا أقدر عليه ، فقال لي : قل ما بدالك ، فقلت له : إني تفكرت في أمر منطقتنا وما نزل بها من التأخر عما كان عليه أهل زمانهم وانعزالهم عن العالم

المتحضر ثم تفكرت في أبناء الوطن من البيض والسود وما حدث لهم من أسباب التقدم التي لم تكن لمن قبلهم فمنهم علماء بالعربية ومنهم علماء بالفرنسية ومنهم تجار كبار ذووا ثروة عظيمة ، ومنهم من كانوا عظماء في الحكومة الكبرى ، ومنهم من كانوا في الخارج ولهم قوة وثروة فلوقمت أنت بتنبيههم على أن يتفقوا على إحياء وطنهم ونفض الغبار عنه وإعا... مجد أسلافهم واتفق السود والبيض على ذلك ولم يعملوا بالتفرقة بين السود والبيض بل يعملون على ما يتقدم به وطنهم ، لأن الوطنية من أنواع القرابة التي لا يجحدها إلا من لا يعتبر قرابة النسب لونبهتهم على ذلك وانتبهوا لكان خيرا في الدنيا ووالآخرة ، فقال لي أحسنت وسأقوم بمقدوري مما قلت ثم كتب إلى عالم كبير كان من كبار العلماء في المملكة السعودية ولكنه من أبناء وطننا وهو أبو بكر إسماعيل الذي في الرياض وله مؤلفات جيدة كتبت إليه بمثل ما خاطبت به الحسين فاستحسنه ، ولم أزل كذلك أحاول موافقة أهل الوطن بعضهم مع بعض وأنكر ما يؤدي إلى التفرقة والمقاطعة بسبب اختلاف اللون البشري وأجد من بعض الإخوان موافقة في المنحى حتى قامت الثورة الصحراوية التي يسميها القائمون به" جبهة تحرير أَزَوَادْ " وهجم بعض قوادها على قرية مَنَكَا في ذي الحجة المتم تسعة بعد ألف وأربع مائة

1409هـ فقتلوا فيها بعض أهل الحكومة ثم عادوا إلى تِـدَغْمِنْ فقتلوا حاكمها ومن معه من الجند ، ثم رجعوا إلى موقعهم في الجبال ، ولما وصل الخبر إلى العاصمة بعثوا جنودا مسلحين بأنواع السلاح الثقيلة فطلبوهم فاقتتلوا معهم ووقعت خسائر في الأرواح بينهم ، ثم هجموا على مواقع الجنود في الصحراء وأكثروا فيها القتل حتى لجأ بعض أهل المواقع إلى المدن الكبار فقامت الحرب على الساق واضطرمت الفتن وكثر خروج الجيش إلى الجبال التي يتحصنون بها وكثرت المعارك والخسائر وكثر في الصحراي قتل الأبرياء الضعفاء فقام السيد إِنْتَالَّ بن الطاهر زعيم كِيدَالْ وذهب إلى رئيس مالي في تلك الأيام موسى تَرَاوَرِي وطلب منه كف الجيش عن قتل الأبرياء ، ثم أمر كل من لم يتابع الثوار في الحرب بأن يكتبوا أسماءهم وأسماء قبائلهم إلى الرئيس يخبرونه أنهم ما زالوا على ما كانوا عليه قبل الثورة ولا ينقضون العهود ولا يقطعون الصلات ففعل الناس الأبرياء من الحرب ذلك وأذيع في الراديو فسكن بعض الفتنة وبقي الحرب بين الثوار والجند ورفع القتل عن الشعب الذي

لم يحارب وبعد ما تبين للرئيس موسى تَـرَاوَرِي أن زعيم الجبهة المحاربة رجل من أَفُوغَاسْ يقال له إيَّدْ بن غال قال للسيد إنْتَالَّ اذهب إليهم في مواقعهم وفاوضهم وأسألهم عما يريدون من الحكومة واطلب منهم أن يكفوا عن الهجمات ويرجعوا إلى التفاوض والتفاهم ، فلقيهم إنْتَالَّ وكتبوا له ما يريدون أن تفعله الحكومة لهم وزعموا أنهم لا يريدون سفك الدماء إذا وجدوا مرغوبهم وأنهم لا يطلبون إلا الحقوق التي كانت لهم في القوانين الدولية ومنعتها لهم حكومتهم ، فلما بلغ كلامهم إلى الرئيس أمره أن يرجع إليهم مرة ثانية فرجع إليهم في وفد كبير يضم كثيرا من رؤساء قبائل الطوارق فذكروا لهم أن رئيس الجمهورية يفتح لهم باب المفاوضة ولا يحب أن يتفانى أهل دولته فيما بينهم فجاء زعيمهم إيَّادْ مع نفر من أصحابه إلى الرئيس فعقدوا

معه الصلح ووعدهم أن يسعفهم بما يريدون فلما سمع قوم إيَّادْ بذلك أنكر أكثرهم الصلح وانشقوا عن طاعته بزعامة غيسى بن أدَر من قبيلة شَمَنَمَّسْ وتبعه أكثر طوائفهم ووقع الانقلاب على الرئيس موسى تَرَاوَرِي فعم الخوف وكثرت الفتن ، ثم آل الأمر إلى إرسال الحكومة وفدا كبيرا يطلب الصلح والموافقة ويأمر المنشقين بالتفاهم مع إخوانهم واتحادهم معهم في الغرض الذي يريدون وكنت في ذلك الوفد ولقيناهم في مدينة تَمَنْغَسَتْ الجزائرية وفي الوفد كثير من أهل الدوائر الحكومية على اختلاف أنواعها ، فلما لقيناهم وتفاوضنا معهم قلت لهم اعلموا أني لم آتكم لأكلمكم فيما بينكم وبين الحكومة من الخصام فإن ذلك إنما هو حق إخواني من كبار الحكومة الذين جئت معهم وإنما أتيتكم لأذكركم وأعظكم وأبلغكم قول الله تعالى { ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم } ولا أقول لبعضكم اتبع فلانا وفلانا بل أقول لكم لا تذهبوا ريحكم بالتنازع ، فلم يكن جوابهم إلا أن قالوا لنا اذهبوا الآن حتى نعقد فيما بيننا مؤتمر خاصا بنا ونرسل إليكم النتيجة ، فرجعنا ولما علمت الحكومة أن الجماعة الذين يتزعمهم غيسى بن إدَر ما..لوا صحار بين يهجمون على القرى ويرصدون السيارات تارة يذهبون بها وتارة يتركونها ويذهبون بما فيها أمر تُومَانْ تُورِي الذي يتولى حكم البلاد حكما مؤقتا بأن ترسل حكومة كَاوَ إليهم جماعة يتفاوضون معهم ويذكرون أن جميع ما يطلبونه من الحكومة مما يسكن الفتنة سترضى به إلا تقسم الوطن الذي يذكرون أنه لا يرضون إلا بتخلي الحكم البنباري عن وطنهم فإن أرض مالي لا

ينقسم على كل حال ، فأرسلت الحكومة جماعات في عدد من السيارات تتألف من أهل الحكومة ومن رؤساء القبائل ومن الجمعية الإسلامية وأرسلوني برسم كوني عضوا من أعضاء الجمعية مع صاحب لي من أهل كَاوَ وكان عضوا منها فذهبنا إليهم فلما قربنا منهم توقفنا خشية أن يسمعوا صوت السيارات فيطلقوا عليها النار من غير

معرفة من فيها وأرسلنا إليهم رسولا كان يعرفهم ويعرفونه فرجع إلينا مع جماعة منهم في سيارات مسلحين تسلحا قويا فذهبوا أمامنا حتى وصلوا إلى المحل الذي لا يرضون أن يتجاوزه أحد إليهم فأنزلونا فيه وكثنا فيه خمس ليال بأيامها يأتوننا ونتحدث معهم طول النهار ثم يرجع بعضهم إلى منازلهم ويبقى بعضهم معنا يحرسنا وإذا غربت الشمس قالوا لنا اخرجوا كل ما تحتاجون إليه من السيارات ثم اغلقوها واعطونا مفاتيحها ، ثم إذا جاء الليل فلا يخرج أحد منكم إلى جهتنا بل إلى غيرها ، واقمنا معهم على تلك الحالة وتفاوضنا معهم كله راجع إلى طلب اتفاقهم مع إخوانهم وحكامهم ولا يزيذون في الجواب على أن يقولوا : أما إخواننا أبناء وطننا وهم العرب والطوارق والفلان والسودان ـــ إهَتَنْ ـــ فنحن وهم شيء واحد لا نطلب شيئا لأنفسنا دونهم ولا نطلب إلا تحرير الوطن الذي يجمعنا وإياهم من استعباد الأجانب ، وأما حكومة بَنْبَرَ التي غصبت حقوقنا وحرمتنا من كل شيء فلا نصالحهم إلا بأن يؤدوا إلينا حقوقنا المغصوبة ، وبثمل ذلك يقول من حضرت معهم في مجالس الإصلاح في تَرْكَنْتْ وفي كُوس وفي جَبَقْ كلهم يقرر أن جميع أبناء الوطن لا يفرق بينهم بسبب الاختلاف في اللون ولا بالاختلاف في اللغة وكذلك من أحضُرُ مجالسهم في كَاوَ وكثير منهم يذكر من اتحادهم مع إخوانهم الطوارق في المصالح ما يدعوهم إلى الحرص على الاتفاق ، وقال بعضهم يوما من يريد أن يفرق بين بيضان المنطقة وسودانها كمن يريد أن يفرق بين بياض العين وسوادها ، ومع اتفاق العقلاء من البيض والسود على بعضهم من بعض وأن مصالح وطنهم متحدة يقوم السفهاء والشباب من كلا الفريقين بعكس ما يقرره عقلائهم ، فالسفهاء من البيض ما زالوا يقطعون الطريق ويهجمون على بعض القرى وينهبون السيارات ، والسفهاء السودان يجمعون السلاح لحرب إخوانهم واتخذوا منظمة عدوالية يسمونها " كَنْدَكُيْ " ومعنى اللفظة ملاك الأرض فاستلحقوا بهم

بعض السودان ممن يتكلم بلغة الطوارق فبدأوا بطرد البيض من ديارهم في القرى ثم بنهب أموالهم ثم بالإغارة على أحياء المساكين البيض ثم بقتل من ظفروا به من البيض الأبرياء ويكون معهم بعض الجيش الحكومي يحولون بينهم وبين من يريد مدافعتهم عما أرادوا ، ويقتلون معهم ويرصدون غير المسلحين ولا يتعرضون لأهل الجبهة المسلحين ، ولم يقع بينهم قتال بل كان الضعفاء من أهل الموطن كطعمة لكل من الجهتين ويتحامى كل منهما لقاء الآخر وكان كل من الجيش وكَنْدَكَيْ لا يقصدون بسوء في أول الأمر ولا علم لنا بحقيقة أمورهم إلا أن جماعة من الجيش خيموا بين قريتنا ومدينة كَاوَ وكانوا أولا لا يمنعون شيئا يتوجه إلينا من وصوله إلى الحي ثم جعلوا يصدون عنا من يريد زيارتنا من أهل المدينة وصدوا عنا أطباء كانوا يأتون إلينا وصدوا أمراضنا عن الوصول إلى الأطباء وكنا في حصار مدة ، ثم هجم علينا الجيش من غير سبب نعرفه فصب النار على القرية ودمرها وقتل خيار الحي وألجئوا من لم يقتل إلى الخروج من ديارهم ، ثم جعلوا يأخذون من المتاع والكتب ما يعجبهم ويسلطون من يتبعهم من رعاع المدينة على أخذ ما لم يأخذوا ، وكان همهم الوحيد إبادة البيض والتفريق بينهم وبين من معهم من السودان فيقتلون البيض ويتركون السود ولا يؤذونهم بأدنى أذى ، وسرد القصة سيأتي وهو من موضوع الخاتمة ، وبعد خروجنا من القرية ووصولنا إلى النيجر كنا نسمع اجتماعات بين البيض والسود تعقد على الإصلاح فيما بينهم ووصل ما قطع من الصلات ومبادلة المنافع وتحسين الجوار ولم أزر المنطقة بنفسي ولا أكتب ما لا أتيقن .

وأما جماعتنا التي خرجت من القرية بعد قتل من قتل من إخوانهم وأشياخهم فلم يبلغني أن أحدا من حكومة كَاوَ سأل عنهم بعد خروجهم من قريتهم ولا أن المرتكبين للظلم الشنيع فيها ندموا ولا أن غير المرتكب له أنكر على المرتكب ، ولم نسمع منهم إلا الشماتة والمسابقة إلى نهب المتاع الذي خلفناه في الديار والمبالغة في البغض حتى قيل : من لم يصّهر الشماتة والفرح بما كان ولم يذهب إلى نهب المتاع اتهم بأنه يحبنا ويؤذى لأجل ذلك ، فمن كان يحبنا ويكره ما نالنا لا يجترئ أن يظهر ذلك خوفا على نفسه ، ولم نسمع من يجترئ من أهل كَاوَ على إظهار

الإنكار إلا الشيخ كِنْدُ ومن معه من أهل داره ، وأما أهل بَمَكّيْ فسمعنا أن الرئيس نفسه زار القرية بعد ما خرجنا منها ورأى مصارع الناس فبكى وقال هذا شيء لم آمر به ، وأخبرني بعض الثقات أنه أرسل قبل ذلك إلى قائد العسكر الذي في كُرْكُوسُ وأوصاه بأن لا يصيبنا شيء من المكروه من جهة الجيش ولكن لم يبال بذلك ولما وصلنا إلى النيجر جاءنا مستشاره إبراهيم ويقال له أرْش وقال لنا إن الرئيس هو الذي أرسلني إليكم نائبا عنه في تعزيتكم ويريد أن يعرف المحل الذي أنتم فيه وما تريدون أن يعينكم به ولا يطالبكم بالعودة الآن فأقمنا مطمئنين لا يسأل عنا أهل كَاوَ ولا نسأل عنهم إلا أن نسأل عن حالة من بقي في البلد من الإخوان وعن حالة الأمن فيه وعن حالة معيشة الناس لأجلهم لا لأجلنا .

الخاتمة

في الكلام على قرية أهل السوق التي خربها أهل كَاوَ وقتلوا خيارها وتشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول

في الأخبار عن أحوال الجماعة الذين بنوا القرية قبل بنائها وبعد بنائها والجماعة الذين بنوا القرية مركبة من ثلاثة أحياء من أحياء السوقيين وهم :

كَلْ تَبُورَقْ .

وكَلْ تَكَلَّتْ .

وكَلْ تِكِرَتِنْ .

وهذه الأحياء أصلهم واحد ولكن تفرقوا في المنازل التي ينسبون إليها وما كان تفرقهم إلا لأجل اختلاف مصالحهم ومعارفهم فكان لكل منهما أصدقاء وأتباع ليست لغيره فاستقل كل واحد من الأحياء بأموره وأتباعه واتخذ كل منهم مسجدا تدور أمورها جماعته على السيد الذي يكون عنده المسجد ولا يسمى أحدهم باسم الإمارة في الزمان السابق ويكره سيدها أن يسمى به وكانوا كلهم مع سيادتهم تابعين لإمارة إولّمدّنْ كغيرهم من أهل البلد ثم حدث أن يكون لكل حي من الأحياء الثلاثة أميرا يقوم بأمورهم التي تتعلق بالحكومة وكانوا مع اتحادهم في الأصول لا يلتزمون التجاوز بل يلتقون في بعض الأحيان ويتوانسون مدة ثم يفرقون ويكون التواصل بينهم في الغالب بالتزاور والتناكح ومع كونهم متفرقين في المنازل ليس

لهم بلد إلا أعمال كَاوَ فهي التي يسكن فيها أسلافهم من زمن سابق على عهد إسْكيَا إلى اليوم ، وكان أسلافهم يجولون في أعمال كَـاوَ ولكـن لا تزيد المسافة بينهم وبين كَاوَ على يومين وكانوا فـي بعـض الأحيـان يعبرون البحر إلى أرَبَنْدَ فيقيمون فيه مدة تارة يذهبون إليه فـرارا مـن الأعداء وتارة فرارا من الجدب وإذا ذهب الخوف من الغارات وأخصبت بلاد أوْظَ رجعوا إليه لأنه الوطن الأصلي لهم ولأسلافهم وربما سكنوا في البحر بجوار السنغاويين يجاورونهم في الجزائر البحرية ويشاركونهم في المراعي البحرية والبرية ولا يشاركونهم في الزراعة لأمرين أحـدهما : أنهم يختارون الجولان ورعاية المواشي على الإقامة لحفظ الـزروع لأن معيشة أهل المواشي في بلادنا في الزمن الماضي أحسن من معيشة أهل الزروع وفي ذلك الزمان لا أسواق في البلد ولا تجـارة وإنمـا حـدثت الأسواق في البلاد بعد دخول الاستعمار الفرنسي لها . الأمر الثاني : أن المشتغلين بالزروع يشاركون أهل المواشي في ثمرتها بحيث يكون غير الزارع أكثر طعاما من الزارعين فكانوا إذا كان زمن الشتاء والـصيف يجاورونهم في البحر وإذا جاء إبان

المطر خرج من لم يكن لهم زروع بمواشيهم وبقي أهل الزروع وأرسل مواشيهم إلى الصحراء فتارة يكون رعايتهم مع الذين ليس لهم إلا الماشية وتارة ينفردون عنهم في الجـ... ولكن يراقبونهم لأن كثيرا من الرعـاة البحريين إذا لم يكن لهم مدافع عنهم من أهل الـصحراء تـسلط علـيهم اللصوص والبغاة ونهبوا ما في أيديهم فيلوذ الرعاة إلى جوار الـسوقيين والأشراف لأن لهم احتراما عند أهل البلد بحيث يتحاشى اللصوص عـن إذاية من يجاورهم ويلوذ بهم ، فكان رعاة أهل البحر يلوذون بجـوارهم ومقاربتهم في أيام الربيع والخريف ، وإذا فرغ أهل الزروع من عمـل زروعهم رجع إليهم رعاتهم ورجع إليهم إخـوانهم الـذين ذهبـوا مـع مواشيهم ويستقبلونهم بالترحيب ويهدون لهم الهدايا المناسـبة ويـتحفهم إخوانهم القادمون عليهم بمنافع البر التي كانت غالية عندهم ثم يقيمـون معهم على أحسن حال يتبادلون المنافع والمصالح ، وربما كان لـبعض السوقيين أصدقاء من السودان يثق بهم غاية الثقة ويقربهم ويفضلهم على كثير من إخوانهم من الطوارق وغيرهم وكذلك السنغاويون لهم أصـدقاء من السوقيين كانوا أحب إليهم من إخوانهم وقرابتهم ، وربما أرسلوا إليهم أولادهم يتعلمون فيهم ويتربون عندهم ، وربما أقام بعض السوقيين فـي

بعض قراهم يؤمهم في الصلوات ويعلمهم أمور دينهم ويكرمونه ويتحفونه بما شاء من أموالهم ويخدمونه بأنفسهم إن أراد استخدامهم ، هذا هو حالهم معهم قبل دخول فرنسا للبلد وبعده لم يغير الاستعمار الفرنسي ما كان بينهم من الصداقة والصلة ولم يتغير بعد الاستقلال وتكوين جمهورية مالي ولم يتغير من أحوالهم القديمة إلا الجوار فإنهم في الزمن الماضي لا يفارقونهم في المساكن في جميع الأزمان بل يفارقونهم تارة ويجاورنهم تارة ثم حدثت في الصحراء أبار لم تكن قبل ، وكانت الإقامة عندها أصلح للمواشي من الإقامة في البحر فاختاروا الإقامة في الصحاري مع التمسك بما كانوا عليه قبل من الصداقة والصلات بينهم وبين

إخوانهم المقيمين في البحر ولا يعد كل منهم أخاه أجنبيا في الوطن لاختلافهم في اللون أو اللغة بل يعتبرون بينهم روابط الجوار والصداقة والعهود القديمة بين أسلافهم .

والحاصل : أن ما حول مدينة كَاوَ لا فرق في ذلك بين شرقها المسمى أوْظ وبين غربها المسمى أرَبَنْدَ ، وربما يسكنون في وسط الجزائر البحرية ، وربما يغير الأعداء على أوطانهم ويسلبون أموالهم ولكن لا يخرجهم ذلك من وطنهم بل يقيمون فيه ويحاولون استرداد ما ذهب منهم بل حيلة غير محرمة حتى يرجع إليهم مثل ما ذهب منهم أو أحسن من غير جلاء عن الأوطان ، وربما أجدبت بلادهم فيرتحلون إلى ما يقرب منهم من بلاد النيجر فيقيمون فيه مدة وإذا أخصبت بلادهم رجعوا إليها ولا يطيب لهم وطن غيرها كان الجولان في الصحراء وتفرق الأحياء الثلاثة في الجوار الموروث من الأسلاف القدامى حال الجماعة الذين آل أمرهم إلى الإقامة حول مدينة كَاوَ إلى عام ألف وثلاث مائة وست وثمانين 1386هـ فأمرهم شيخهم ومقدمهم جميعا وهو الشيخ المحمود بن الشيخ حماد وهو من حي كَلْ تَبُورَقْ أمرهم برفض التفرق في الجوار وتوحيد الأحياء الثلاثة في المنازل وتصييرهم حيا واحدا مع بقاء كل حي على حالته الأولى في الاستقلال بالمسجد وبالإمارة فامتثلوا أمره واتحدوا في الجوار بزعامت ومعاونة أخويه الشيخ أنار والشيخ البشير ، وكانوا كذلك مدة ثمان عشرة سنة حتى نسوا الحالة الأولى من تفرق الأحياء ، وفي شهر يوليو من سنة 1984م الموافق لست ليال خلون من ذي العقدة

عام 1404هـ نزلوا المحل الذي بنوا فيه الديار لأن الجدب عم بلادهم وما يقرب منها وماتت المواشي التي يعتادون المعيشة بغلات تارة وبأثمانها تارة أخرى ، فلما ماتت المواشي في البلد موتا فوق المعتاد وبقي أهلها في الحيرة وهام بعضهم على وجهه وهاجر جلهم إلى الدول المجاورة ليجد ما يعيش به نظر مقدم الجماعة . الثلاث الذي فوضوا إليه أمورهم منذ التزموا الاتحاد في

الجوار نظر فيما هو الأصلح لهم فأرى أن الأصلح رفض الجولان والانتقال ولزوم الإقامة والأسـ... ورأى لهم أن يقربوا من مدينة كَاوَ وبحيث يتمكنون من السوق ويقربون من حكومتهم ويلوذون بحمايتها ويتمـ... طرق التجار القادمين من الجزائر ومن النيجر ومن بَمَكّي ويقطعون أطماعهم من الحياة البدوية ويطلبون الحبـ... الحضرية وإنما اختار لهم ذلك المحل لأنه أرفق بهم وأجمع لمصالحهم فنزلوا في المحل الذي فنوا فيه الد.. وكان بينه وبين مدينة كَاوَ أربعة أميال أو خمسة ولم ينضموا إلى نفس المدينة لأنهم يريدون أن يكون لهم منزل واسع لم يسبقهم إليه أحد يتمكنون فيه من بناء ما شاءوا من الأبنية من غير معارض ولا منازع ويقدرون علي اقتناء المواشي وهناك وادي لم يسبق أن زرع فيه احد يريدون أن يتخذوه مزرعة ، وكان ذلك المحل بعيد ... البحر بنحو ميلين ويشق جلب الماء من البحر إليه ولم تبلغه العمارة ولا منفعة فيه لأهل البحر إلا رعاية ماشيتهم فيه وأخذ الحطب منه ولكن عزم الشيخ المقدم على الإقامة فيه متوكلا على الله تعالى وراجيا فضل ربه أن يسهل له أسباب الإقامة هناك وإن لم يكن ذكل معتادا ووافقه أصحابه ثقة بأن يمن الله عليهم بما يعينهم على الإقامة ولو على خلاف المعادة فقيض الله لهم معينا حريصا على نفعهم وهو عمر بن كُو.. من قبيلة كَايرُ فحفر لهم بيرا وبنى لهم مسجدا بالخوص ، ثم جاءهم معين آخر وهو من قرابتهم واسمه ابـ.... بن يوسف الشيوخي وكان مخالطا لأمم أرُوبًّا فجاءهم بجماعات من أهل أرُوبًّا ليعينوهم على أمورهم ، وكان من تلك الجماعات أهل منظمة الصليب الأحمر " كُرُوْرُجْ " فأعانوهم بشيء من الأطعمة والأدوية وكان منهم أهل منظمة " إنِ سِـ فـ "فأعانوهم بحفر آبار ثلاثة على هيئة البزبوز " فَنْفِ " لشربهم وسقي مالهم من الدواب ، وببناء مسجد كبير لم يتقف بالخشب كما هو المعهود في البلد ، فلما وجدوا من الماء ما يكفيهم لقوا جيرانهم من

أهل كَاوَ والقرى القريبة من الموضع الذي نزلوا فيه وأخبروهم أن أسلافهم ما زالوا يجاورون أسلافهم ويشاركونهم في المنازل والمراعي البحرية مدة إقامتهم معهم ويرتحلون عنهم وينتجعون ، ثم يرجعون إلى جوارهم ، وقالوا لهم إن المألوف عندكم من مجاورتنا لكم مدة ، ثم الارتحال عنكم ليس هو المقصود الآن من نزولنا هنا بل مقصودنا إقامة دائمة كإقامتكم ولا ننافسكم في شيء ولا غرض لنا إلا الإقامة بقرب السوق والحكومة فرحبوا بهم وقالوا لهم نحن لا نظن في جواركم إلا الخير ولا ننتظر منكم ما لا نحب فأقيموا معنا كما ترضون ، ثم أخبروا حاكم المنطقة وسائر رؤساء الدوائر بأنهم مريدون الإقامة الدائمة ورفض ما اعتادوه من الجولان فرحبوا بذلك أيضا وكتبوا لهم ورقة الإذن بذلك فشرعوا في البناء وكان من أول ما بنوا مسجد جامع بنته لهم منظمة إنِسِفْ ولما بني طلبوا من الحكومة الإذن في اتخاذه مسجدا جامعا تصلى فيه الجمعة مستقلا عن مساجد كَاوَ فأذن لهم وصلوا فيه الجمعة ، ثم بدا لهم أن يتخذوا الزروع في الوادي الذي نزلوا بساحله ولم يسبق أن زرعه أحد فاستأذنوا الحكومة في ذلك فأذنت واتخذوا الزروع ونجحوا في ذلك وأخصبت زروعهم فتعجب الناس مما نالوا من الزرع ومن الماء في ذلك المحل ثم شرعوا في ابتناء دور السكنى وبناء مسجدين للجامعة غير المسجد الجامع لأن القبائل الثلاث المجتمعة هناك كان لكل منها مسجدهم الخاص وكان المسجد الجامع عند قبيلة الشيخ المحمود فبنت القبيلتان الأخريان مسجدين خاصين لكل منهما مسجده الخاص ويجتمعون جميعا يوم الجمعة في الجامع الذي بجوار الشيخ المحمود بن الشيخ حماد الذي هو مقدم الجماعات وهو الذي بنته منظمة

" إنِسِفِ " وهذا المسجد تصلى فيه الجمعة مدة عامين ثم جاء بعض الخبراء وتأمله فقال للناس إن هذا البناء سوف ينهدم فخافوا من ذلك فقام الشيخ المحمود وبذل أموالا كثيرا واجتهد حتى بنى مسجدا جامعا يسع من المصلين خمس مائة أو أكثر فانتقل إليه المصلون وتركوا الذي خافوا مو وقوعه وانهدامه وبعد مدة قليلة وقع المخوف وانهدم الأول . ومن أعمالهم أنهم في عام 1406هـ طلبوا من الحكومة أن تأذن لهم في بناء مدرسة عربية فرنسية فأذنت لهم وأخذوا أوراق الإذن بذلك من حاكم

جَبَقْ ومن حكام كَاوَ ومن وزارة التعليم ووزارة الداخل ووزارة الخارج في بَامكُو فلما حصلوا من الأوراق على ما ذكر شرعوا في الأعمال التي يعملها أهل القرى فكان منهم الحارث والتاجر ومن يعمل في أمور المدرسة وكان مما بنوه في أول الأمر دار لكُفْرَتِيفْ عملوا فيها بما يرضي من يشرف على أمور الجمعيات المالية . أما المدرسة التي أخذوا أوراقها فلم يوقفوا عملهم فيها من التعليم على أن يحصل البناء بل شرعوا في التعليم حين أذنت لهم الحكومة ، وسموا مدرستهم قبل بناء دورها اسم

" مدرسة النجاح " فقسموا التلاميذ بين ستة مواضع من المسجد الأول وسموا كل قسم باسم المرحلة التي يبلغها مستوى العلمي وتفاوت الطلاب فيها بحسب تفاوت مستوياتهم في العلوم لأنهم ما زالوا متعلمين بالطريقة التقليدية وبعد قليل من السنوات ارتفعت درجات جماعة منهم فذهبوا إلى مدارس بَمَكُو أولا ليتعلموا في المدارس الثانوية هناك ، ثم منها إلى موريتانيا لمتابعة الدراسات العليا ومنهم من وصل إلى الجامعة الإسلامية في الدينة المنورة وما زال الباقون يدرسون من غير بناء دار أو دور للمدرسة لقلة الإمكانيات ، وكانت المدرسة مقصورة على درجة الابتدائي أولا ، وكان تلاميذها نحو مائة وأساتيذ فساعدنا بعض المحسنين من السعودية بمبلغ مكننا من اتخاذ ثلاثة عشر أو أربعة عشر أستاذا من بينهم مدرس الفرنسية وسائرها يدرسون العربية والعلوم الشرعية ، ونظرنا إلى تفاوت مستويات التلاميذ وعلمنا أن منهم جماعة يستحقون أن ينتقلوا من الابتدائي إلى الإعدادي فغيرنا اسم المدرسة الأول وهو " مدرسة النجاح " وجعلناها معهد يحتوي على الابتدائي والإعدادي وسميناه " معهد الإمام مالك الإسلامي " كما سمينا قريتنا باسم " قرية وادي الشرف " وكان اسم الوادي قبل نزولنا فيه أَنْجَوَاكْ وربما سمى الناس قريتنا باسم قرية كَلَسُّوكْ وأما بناء دار للمدرسة فلم نتمكن منه حتى تبرع بعض المحسنين السعوديين بمبلغ أدينا فيه رواتب للمدرسين وشرعنا بسببه في بناء ثلاثة فصول كبار فلما وصل البناء إلى محل التسقيف وأعددنا الخشب وما يستلزمه التسقيف من جميع الأشياء ولم يبق إلا حصوله جاءنا مبعوث هيئة الإغاثة الإسلامية السعودية فقال لنا إن الهيئة تكفلت بإتمام البناء الذي شرعتم فيه بغير الخشب وبناء ثلاثة فصول أخر دورتي مياه فأمسكنا عن إتمام البناء واتخذنا دارا من دورنا لإدارة المعهد

واتخذنا لإدارة أمور أعضاء تصل إلى العشرة وزعنا التلاميذ بين المساجد يقرؤن فيها إلى أن يتم

البناء وجعلنا فصول الابتدائي في مسجدين وفصول الإعدادي في مسجد آخر واشتغلنا بالتدريس فلما وقعت الامتحانات نجح كثير من طلبة الإعدادي فانتقلوا إلى المعهد الإسلامي السعودي في موريتانيا واستحق كثير من أهل الابتدائي الانتقال إلى الإعدادي ، ثم كثر الراغبون في التعلم ممن لم يشتغل بالدراسة قبل من الجماعة ومن غيرهم حتى صار الحي قبل الواقعة التي نستعيذ بالله من مثلها ما فيه إلا معلم أو متعلم يستوي في ذلك الصغار والكبار والذكور والإناث والسود والبيض ، هذا ما كان من أمر المدرسة ، ثم اتخذنا جمعية إسلامية تسمى " جمعية البر والدعوة إلى الدين الحنيف " مهمتنا فيها الدعاء على الله على ضوء الكتاب والسنة ومحو الأمية من سائر أهل البلد ومحاربة الانعزال عن أهل الخير والعلم في العالم الإسلامي كله والعالم العربي خصوصا واتخذنا للجمعية نيفا وعشرين عضوا بين أهل العلم وأهل الفضل من رؤساء قبائل الوطن ، وحين بدأنا في الكتابة إلى البلاد البعيدة ليشاركوا في المؤتمرات التي نعقدها لتنفيذ مخططاتنا وقعت المواقعة الشنيعة ، هذا ما يتعلق بأعمالنا في الأمور الدينية
أما دور السكنى فحين حصل الإذن الحكومي بالإقامة شرع فيها الناس وتسابقوا فيها وجاءهم من لم يكن منهم حين شرعوا في الإقامة فرغب في جوارهم والبناء عندهم فما زال الناس يبنون الديار حتى وصلت إلى عدد كبير يقال إنه زاد على المائتين وأنا لم أشتغل بإحصائها ولا أريد أن أكتب ما لا أعلم ، والواقع أنها كثيرة وأن منها ما كان بناءها أحسن من بناء جل الدور في كَاوَ ومن بينها دار للطب مزخرفة بنتها منظمة " لاسِمْ " تم بناءها ولم يبتدئ العمل فيها إذ كان ما كان من إجلاء سكان القرية عنها .

والآن أعود إلى الكلام على ما جرى بيننا وبين جيراننا السنغاويين وما جرى بيننا وبين الحكومة مدة مجاورتنا لهم ، أما السنغاويون فكان أسلافهم مع أسلافنا كما تقدم من الصداقة والاحترام وحفظ العهود القديمة

فكانوا معنا على السنن المعهودة مدة عشرة أعوام لم أشهد عليهم بأية إساءة ولم نشاهد منهم مكروها قبل نهضة الطائفة التي تسمى نفسها " كَنْدَكُيْ " وكانت تلك التسمية جديدة وحين سمعنا الكلمة ظننا أنا داخلون في الاسم لأن معنى الكلمة في لغة سنغايْ " مالك البلد " والبلد لم نزل نجاورهم فيه وطننا أنهم إذا أرادوا إخراج الأجانب من الوطن ومحاربتهم كما يقولون لم يحكموا لنا بحكم الأجانب لأنهم يعرفون ما كان من أسلافهم وأسلافنا ، فكنا نسمع باسم تلك الطائفة ولا نرى منهم أحدا حتى جاء رجال منا قادمون من أبيدْجَانْ فأخذتهم جماعة مسلحون وأخرجوهم إلى خارج القرية ثم أطلقوا عليهم الرشاشات فمات واحد منهم وجرح الثاني ، ثم جاءهم الشرطة فنزعوا الرجلين من أيديهم وحملوهم إلى المستشفى ثم راقبوهما لئلا يقتلا فكانا كذلك مدة أيام ثم أخرجوهما إلينا وذلك اليوم هو ابتداء نقض أهل كَاوَ للعهود القديمة التي بيننا وبينهم وقطع الصلات وإظهار العداوة والبغض ، ثم شرع أولئك المسلحون في قتل الأبرياء وإظهار حرب الطوارق الذين لا سلاح لهم وأهل السلاح لم يقع قتال بينهم ولا يبحثون عنهم فكانوا يرصدون في الأسواق والشوارع ويقتلون من رأوه من البيض الضعفاء والغرباء لا ينكر عليهم أهل الحكومة شيئا من أفعالهم بل يكون معهم العسكر في بعض الأحيان ويذهبون إلى الصحراء ويقتلون من رأوه من المساكين الذين لا سلاح لهم ولكن لا يحمون حولنا ويميزون بيننا وبين غيرنا ، ثم جاء عسكر جديد واتفق مع أهل كَنْدَكُيْ وخالطهم فتغير الحال وزال ما كان من احترامهم لنا فحالوا بيننا وبين المدينة ومنعوا من وصول الشيء إلينا إلا بواسطة من كان معنا من السودان ولا يسمحون

للبيض منا بدخول القرية ، وممن صدوهم عن زيارتنا أطباء كانوا يخرجون إلينا بأجرة فيداوون من المرضى من لم يقدر على الذهاب إلى المدينة فهددهم بالقتل متى خرجوا إلينا ، ومرة اشتد بي المرض فذهبت إلى الطَبيب فاعترضوني ومنعوني من دخول المدينة فأرسلت إلى رئيس البُوليسْ فبعث إلي بسيارته وجماعة من أصحابه فحملوني حتى وصلت إلى دار الأطباء ثم رجعوني إلى منزلي وكررت ذلك ثلاث مرات ، ولا يقدر كل مريض أن يعمل مثل ذلك فانقطع التداوي ، ومات بعضهم ، ومع ما فعلوا من الحيلولة بيننا وبين المدينة يزعم بعضهم أنهم لا يتعرضون إلا للمجرمين فمن تحققوا أنا منا لا يتعرضون له وأكثرهم من

لم يميز بين البيض وغرضه إبادة جميعهم ، وفي بعض الأيام أخذ بعض الناس وسيق إلى رجال الدرك فاستجوبوه ولم يجدوا سبيلا إليه فجاءوا به إلينا وقال لنا رئيسهم إنما جئت إليكم بهذا الرجل لتعلموا أنا لا نطلب إلا المجرمين ولا نأخذ كل أبيض ولا نحارب غير المجرمين فمن ورد عليكم من أهل الصحاري فليصحبه واحد منكم يشهد له أنه ليس من البغاة لأنا نثق بكم ولا نثق بغيركم ، ومكثنا نحو شهرين يقتل الناس من حولنا وتنهب أموالهم ولا يقصدنا أحد بسوء سواء كان من الجيش أو من سُنغايْ ، وفي بعض الأيام قدم علينا رجال من بَمَكُّيْ فأرسلوا إلينا يأمروننا بإرسال جماعة منا ليحضروا مجلسا يريدون أن يعقد لبث الأمن وإزالة الشقاق بين الأنه ليس من البغاة لأنا نثق بكم ولا نثق بغيركم ، ومكثنا نحو شهرين يقتل الناس من حولنا وتنهب أموالهم ولا يقصدنا أحد بسوء سواء كان من الجيش أو من سُنغايْ ، وفي بعض الأيام قدم علينا رجال من بَمَكُّيْ فأرسلوا إلينا يأمروننا بإرسال جماعة منا ليحضروا مجلسا يريدون أن يعقد لبث الأمن وإزالة الشقاق بين الإخوان فأرسلنا إليهم جماعة وبعثنا لهم عشرة آلف من سيفا إعانة لهم على مؤن المؤتمر فأظهروا شكرها والثقة بنا لكن مع المسلحين كثير من الرعاع لا يحترمون

أحدا بل غرضهم إبادة اللون الأبيض ونهب الأموال بالسرقة والغصب وكل شيء وأولئك الرعاع أشد على الناس من كَنْدَكُيْ ومن العسكر . هذا ما جرى بيننا وبين جيراننا من سُنغايْ لم نر ممن نعرف منهم أحدا منذ قامت نهضة " كَنْدَكُيْ " وسمعنا أن الناهضين إذا رأوا من أحد عدم رضاه بأفعالهم قتلوه فهابهم جميع الناس لأنهم يقتلون من أرادوا قتله ولا ينكر عليهم أحد .

وأما الحكومة التي كانوا بجوارها من أهل العسكر ومن غيرهم فلم نر منهم إساءة منذ جاورناهم في مدة تزيد على عشر سنين بل كان الكثيرون منهم يأتون إلى أشياخنا لطلب البركة والدعاء لهم بقضاء حوائجهم ... إلينا كبرائهم وبعض كبراء بَمُكُّيْ لذلك حتى رئيس الجمهورية زارنا لذلك مرتين ، مرة قبل توليه منصب الرياسة ، ومرة بعده . ولما قام ثوار الطوارق والعرب ضد الحكومة أخبرنا الحكام والجيش أنا لسنا من أهل الحرب ولسنا ممن ينقض العهد ولا نطالب الحكومة إلا بالأمن ولا نريد

إلا الاشتغال بما كنا نعمله قبل من الإصلاح بين الناس وتعليمهم وإرشادهم ، ولسنا مع الثوار وإن كنا نشاركهم في الاسم والنسب واللغة فقبلوا منا ذلك ومضت أيام الحرب ولم يحوموا حول إذايتنا وكنا نأتي كبارهم ونكلمهم ونقرر لهم ما كنا عليه ويقبلون ذلك ويطلبون منا الدعاء بصلاح أحوال البلد .

وفي بعض الأيام جاءنا بعض كبار العسكر من بَمَكّيْ " تَمَاجُرْ " وكان صديقا لبعض أشياخنا فقال لنا : لا تخافوا من ضرر العسكر فإني أوصيت بكم كبار العسكر هنا ليراقبوكم ويكفوا عنكم عدوان المعتدين فتثبتوا وأثبتوا في منازلكم فإن رجال العسكر يفرقون بينكم وبين غيركم ويعلمون أنكم غير مفسدين ولا محاربين ، وقبل وقوع الواقعة الفظيعة بأيام جاءنا وفد يقدمه حاكم المحافظة " كُفَرْنِيرْ " ومعه رؤساء الدوائر رئيس الشرطة ورئيس رجال الدرك ورئيس قوات الأمن وجماعة من الضباط فقال لنا حاكم المحافظة هؤلاء حكام القرية جئتكم بهم لتتعارفوا معهم ولتعلموا أنا لا نحب إلا ما تحبون فإذا كانت لكم حاجة إلى أحد منهم لم تحتاجوا إلى من يتوسط بينكم وبينهم فأثبتوا ولا تخافوا أي ضرر من جهة الحكومة ، فأقمنا مطمئنين بقولهم لا ننتظر منهم خلاف قولهم ولا نترقب من غيرهم أن ينتهك حرمتهم ولا نعتقد من أهل العسكر أن يعملوا شيئا لا يرضاه هؤلاء ، كنا على حالنا من الأمن بالتأمينات المذكورة إلى ليلة الأحد السابع .... من جمادي الأول عام 1415هـ الموافق 23 من أكتوبر 1994م فهجم الثور العرب عند صلاة العشاء على مدينة كَاوَ فقتلوا فيها من قتلوا وفر من فر وأطلق الجيش النار فيما حول القرية بعد خروجهم منها ، فلما أصبح الجيش خرج باسم طلب أولئك الهاجمين فمروا حولنا ولقوا من سألوه عنهم فقال لهم لا معرفة لي بهم وهذا أثرهم فهابوا من اتباعهم ورجعوا إلى قريتنا مغتاظين فأطلقوا النار على جانب القرية الشمالي الذي كان مسكنا لجماعة من العرب قبل طرد أصحابهم من ديارهم في المدينة فقتلوا كثيرا من الناس هناك ، ثم دخلوا وسط القرية ووجدوا جماعة حول المسجد الجامع يتعلمون ويتدارسون فجمعوهم في محل واحد ثم جلسوا خلال الديار وجعلوا يخرجون الناس من بيوتهم ويسوقونهم ويميرون بين السود والبيض ...

إلى محل القتل ويتركون السود لا يتعرضون لهم بشيء ، فلما جمعوا جماعة من

العلماء والطلاب حول المسجد الجامع وفيهم ستة من أبناء الشيخ أَنَارَ وجماعة من أبناء عمهم قتلوهم جميعا ، ثم ذهبوا إلى بيت الشيخ أَنَارَ الذي كان محترما عند المسلمين والكفار وكل من رآه أو سمع به ، ويعتقد الناس فيه أنه من أهل البركة والصلاح ، وكان كبير السن لا يصلي الفريضة إلا جالسا ، ووجدوا مجلسه غاصا بالناس فبدءوا بقتله ، ثم قتلوا كل أبيض معه وتركوا من كان معهم من السودان وأصيب بعض الحاضرين بجروح خطيرة أدت إلى موته فيما بعد ثم ذهبوا إلى بعض المساجد وكانت سيارتهم ودباباتهم محيطة بالقرية ، السيارات أربع والدبابات ثلاث لا يقدر أحد أن يخرج ، وكان هناك بيض وسود مختلطون فميزوا البيض وقتلوهم عند المسجد وتركوا السود ، وكان عدد القتلى على ما قيل أكثر من ستين شخصا والذي لا شك فيه خمسون وكثير ممن بدءوا بقتلهم قبل وصولهم إلى المسجد الجامع لا أعرفهم ولا يحصيهم أحد لأن الناس مشغولون عن الإحصائيات حينئذ ولا يهم أحد إلا نفسه ، وكان من بين القتلى كثير من العلماء يعدل كل منهم عند عارفيه مائة إنسان عادي ، وكان قتل هؤلاء القتلى عند نحر الظهيرة ثم رجعوا إلى مدينة كَاوَ ، وقال بعض من يعرف الفرنسية إنه سمع واحدا منهم يقول لأصحابه إن الناس ماتوا فلنذهب إلى المدينة ثم نرجع لأخذ الأمتعة وانصرفوا فاغتنم الناس فرصة ذهابهم وخرجوا فارين إلى الصحراء وأحالوا دفن القتلى على السودان الذين لا يقتلون ، وأول من خرج زين الدين بن الشيخ أنار وكان معه خمسة من أصحابه هم البقية من الحاضرين في القرية وغيرهم من الجماعة مسافرون ، خرج هؤلاء فتتابع الناس في أثرهم غير استعداد للخروج وكان ذلك عند صلاة الظهر وأما أنا فلم أخرج معهم بل خالفتهم إلى منزل الشيخ حيث وقعت المجزرة الكبرى ، وفيه بعض الجرحى فلما علمت من لم يمت من الجرحى حاولت نقلهم من محل البلاء إلى منزلي ، وكنت كذلك إذ رجع بعض الجيش لإبادة البقية ولكن تلقيتهم لأني

أرجوا أن يكون ما وقع فلتة وافتياتا على الرؤساء الذين يؤمنون الناس وأستبعد أن يكونوا راضين ولا مشاركين فيه ، كما أستبعد أن يخرج الفارون إلى محل بعيد لأنهم مشاة حفاة فيهم من لا يقدر على المشي فظننت أنهم لا يجاوزون ثلاثة أميال أو نحوها فلما لقيت من رجع من الجيش بعد خروج الخارجين قلت لهم هاهنا جرحىأريد أن يصلوا إلى المستشفى وإنما قلت لهم ذلك لظني أن من ذهبوا لا يبعدون لضعفهم عن الخروج وأرجو أن يقيموا بمحل قريب حتى يبرد الجرحى ويتفاهموا مع من لم يغزهم من جيرانهم وحكامهم ولكن تبين لي خلاف ظني من الجيش ومنالخارجين معا فإن الخارجين أبعدوا ولم أدرك أوائلهم إلا ثلاث ليال والجيش أيضا أخلفوا ظني فيهم لأن رئيسهم قال لي حين أخبرته بالجرحى نحن الآن إنمانريد أن نقف على مصارع القتلى فإذا فرغنا من ذلك رجعنا إلى الجرحى فانتظرنا حتى نرجع إليك ، فذهبوا إلى محل لا أستطيع الذهاب معهم إليه فعدت ، فعدت إلى المسجد الجامع ودخلت فيه لأصلي العصر وكنت في المسجد إذ رأيت سيارة من سيارتهم تـ... وكان المنزل يقرب بعض المساجد ليس بينه وبينه بناء ثم سمعت طلقات النار ثلاث مرات وأنا أصلي فرغت من الصلاة رأيت السيارة منصرفة عن المنزل ، ثم أطلقت النار مرتين في مكان قريب مني ثم جعوا إلى المدينة ، ثم خرجت من المسجد وقصدت منزلي وكان فيه بعض الجرحى فوجدت عند المسجد ثلاثة قتلوهم كما هو العادة عندهم ، ومن بين القتلى شيخ كبير أعمى يجاوز الثمانين ولا يصلي إلا جالسا ... الذين قتلوهم أخيرا لم يبق غيرهم ولم أدرك أحدا من الجيران حين ، رجعت إلى منزلي بل وجدت خسمة ... ينتظرونني فقالوا لي لا تلتفت إلى هؤلاء القتلى ولا تشتغل بهم ونحن لا يحبسنا بعد ذهاب الناس ... فلا بد أن تخرج معنا قبل رجوع أولئك القاتلين فإنهم سيرجعون ، وأنت مقصودهم الآن لأن جميع من .... سواك قتلوهم فلنترك القتلى حتى نرجع إلى دفنهم ونخرج بالجرحى حتى نبلغهم إلى

الخارج .... بمحل قريب ، فخرجنا ببعض الجرحى آخر النهار حتى أدركه الموت قبل وصولنا إلى الخارجين ، فلما فرغنا منه ذهبت إلى بيوت من السودان قريبة مني فأقمت فيهم يوم الاثنين وأرسلت إلى الديار من يدفن القتلى و... الكتب فرجعوا إلى آخر النهار ، وأخبروني أن العسكر منعهم من الوصول إلى الديار وحال بينهم وبين... وأنهم لما

أيقنوا أن أهل القرية جميعا خرجوا ، قصدوا إلى إخلاء الديار فأخذوا من الأمتعة ما يعـــ... ثم أذنوا لمن معهم من الرعاع في الأخذ فأخذوا الأمتعة ، ثم أخذوا من الكتب ما يريدون بيعه ، ثم أحرقوا بعضها وأرسلوا مع الريح بعضها ، ثم أشغلوا النار في بيوت الحشيش ، وكنت أشاهد الدخان واللهب ... النهار فلما يئست من وصول شيء من كتبي إلي ذهبت يوم الثلاثاء في أثر الجماعة الخارجين يوم الأحد فما.... إلا في بلد أسَلوَ بعد ثلاثة أيام من خروجهم .

الفصل الثاني

في ذكر ما صنع الناس بعد خروجهم من ديارهم قبل وصولهم إلى النيجر

الفصل تفاصيله محزنة ولا يتعلق الغرض بكثير منها ، وحاصله على سبيل الاختصار والإجمال أن الشيخ زين الدين بن أنَارَ لما وقع ما وقع من قتل أهل بيته قال له بعض الناصحين أخرج بمن بقي من الناس ولا تنـــ... فإن الفاعلين سيرجعون لإبادة مَنْ بقي ، فخرج ومعه خمسة من أصحابه أعمى الله عنهم عين الجنود يقتلون إخوانهم ، ومن عداهم من الرجال غائبون ، فذهب مستقبلا القبلة غير قاصد لشي سوى نفسه ومن معه وغير معين لمنزل يقصده بل خرج متوكلا على الله وكان كما قال سيدنا إبراهيم الخليل { إني ذاهب إلى ربي سيهدين } وكما قال سيدنا موسى عليه السلام { ففرت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما } فتسابق الناس إلى متابعته من غير ازواد ولا رواحل ولا شيء من المتاع بل خرجوا مشاة جلهم حفاة فهداهم الله إلى مناهل ليس من العادة أن مسك الماء في مثل تلك الأيام ولكن قضى الله أن يكون* فيها ماء ، ووجدوا عند تلك المناهل أقواما من معارفهم وأصدقائهم يحزنون لما وقع فوق حزن المصابين بموت قرابتهم لأن المصابين كانوا من حملة القرآن يستحضرون آيات التسلية ويعرفون الوقائع الماضية التي يصاب فيها خيار الناس ، وغيرهم غلب عليه الفزع واليأس من الحياة والخوف من ذهاب الدنيا ، فكان المصابون هم الذين يسلونهم ويصبرونهم ولولا تصبيرهم لهم لماتوا غما أو هاموا على وجوههم لا يدرون إلى أين يتوجهون بل يكفيهم أن ينجوا من الأعداء ويبعدوا عنهم ، وما زال الشيخ ومن معه يذهبون إلى جهة القبلة حتى وصلوا إلى بعض المنازل التي كنا نقيم فيها قبل ذهابنا إلى كَاوَ ، فلما وصلوا إليه توقفوا ليتلاحق الناس

ويستريح من كانوا معهم فما زال الناس يتلاحقون إلى ذلك المنزل حتى وصلوا جميعا بعد عشرة أيام من خروجهم لم يضع أحد ممن توجه إلى جهة القبلة وخرج قليل من الناس إلى غير تلك الجهة فسلم جلهم وضاع قليل منهم ، وأما من كانوا مع الشيخ زين الدين فكل من ورد عليه منهلا من أصدقائهم

ومعارفهم بالغ في برهم والإحسان إليهم ومواساتهم بما يقدرون عليه من الشياه ومن المراكب والقباب ، ويطلب منهم الاستراحة معه حتى يستعدوا لمتابعة الرحيل فلا يلتفتون إلى قول من يطلب منهم الإقامة معه ولا يخبرون أحدا بتعين ما يقصدون من الجهات والأهم البعد من البحر وأهله .

وأما أهل البحر فانقطع عنهم خبرنا وانقطع عنا خبرهم إلا أن بعض من يأتينا من كَاوَ ويخبرون أن أهلها فرحون بما أصابنا شامتون بنا ويفرحون بما نهبوا من كتبنا وأمتعتنا وبلغنا أن كُنْدَ كُيْ قالوا لأهل كَاوَ من لم يذهب إلى ديار أهل السوق ويأخذ من أمتعتهم علمنا أنه يسوؤه ما فعلنا بهم فنقتله كما قتلناهم ، ولم نسمع من الفاعلين نادما ولا من غيرهم منكرا إلا أن الشيخ قنْد وسمعنا أنه تكلم كثيرا بإنكار ما وقع ، ورئيس الجمهورية بلغنا أنه زار محل الواقعة فبكى وقال إن صنيع كَاوَ هذا لم يكن بأمرنا ، ونظن أن من الناس من لا يرضى بما وقع ولكن يخاف على نفسه إن أظهر الإنكار ، ولما بعدنا عن البحر أرسلنا بعض السودان الذين لا يقتلون إلى ما يلينا من الأسواق وليجلبوا شيئا من منافع السوق فحملوا ما حملوا ولكن أخبرونا أن أهل البحر ما زالوا يبحثون عن أخبارنا ويرصدون في الأسواق يمنعونها من كل أبيض ولكن منعهم من وصولنا النفع إلى من بقي من أهل السوق أشد حتى أنهم في بعض الأحيان إذا رأوا أسود يشتري الطعام والملح والأثاي قالوا له إنك لا تشتري هذا لنفسك ولا تشتريه إلا لأهل السوق ونحن لا نرضى وصول النفع إليهم ، ومرة بلغنا أن بعضهم قال لأصحابه أن تفريقكم بين الأبيض والأسود ممن يتكلم باللغة الطارقية لا فائدة فيه لأن السود يحملون المنافع إلى البيض ففرقوا بين الناس باللغة لا باللون فإن السود الذين يتكلمون باللغة الطارقية لا فرق بينهم وبين البيض ، ولما علمنا أن الأسواق ممنوعة منا علمنا أن الإقامة لا تكون في بلد تمنع أسواقه فعزمنا على الخروج إلى النيجر وأخفينا

على الناس مقصودنا فبعض الناس يقول لنا إن كنتم تريدون الخروج من البلد فلا تتركونا لأنا لا نحب الإقامة في أوطاننا بعد خروجكم من البلد ولكن لا نبين لهم حقيقة أمرنا فرفضنا إرسال أحد إلى الأسواق وتوجهنا إلى جهة القبلة متباعدين عن البحر وأهله حتى وصلنا إلى أرض إضِلِمَنْ فطلب منا أخواننا هناك أن نقيم في ذلك البلد ولا نخاف شيئا من جهة العسكر ولا من جهة كَنْدَكَيْ لأنهم عقدوا الصلح مع الجميع فلم نلتفت إلى قولهم وواصلنا الرحيل مدة شهر جمادي الآخرة ووصلنا إلى بلد النيجر مهل رجب من غير أن يعرف أحد وجهتنا وما زالت الألطاف تحف بنا والمواهب تغمرنا من يوم خروجنا من ديارنا إلى وصولنا إلى بلد النيجر ولله الحمد .

الفصل الثالث

فيما جرى بيننا وبين أهل النيجر بعد وصولنا إلى بلدهم

وملخصه : أنا لما وصلنا إلى إنَاتَسْ الذي هو أقرب إلى الحدود بين مالي والنيجر أرسلنا إلى حاكم أَيَرُ وأمير القرية نخبرهما بوصولنا إلى البلد فأجاب كل منهما بالترحيب والقبول والتأمين والإذن في النزول في أي موضع نستطيب الإقامة فيه ، ثم جاءنا صاحب تِلاَّبِير يبلغ سلام حاكم المحافظة وسلام وزير الداخلية ومعه حاكم أَيَرُ ورئيس رجال الدرك وجماعة من العسكر فأظهروا قبولنا والفرح بكوننا في أرضهم واستقبلناهم وشكرناهم وجاء مع الجماعة مستشار جمهورية مالي فذكر لنا أن سبب سفره أن يبلغنا تعازي الرئيس ، وأن يعرف موضعنا والمحل الذي يريد الإقامة فيه وأن نخبره بما نريد من الإعانة فقلنا له أما تفقد الرئيس لنا وتعزيته فنشكره عليها ، وأما الإقامة فلا نريدها إلا بعد حصول الأمن ، وأما المعونات فيكفينا منها الأمن من شر الأعداء الذين أخرجونا من ديارنا ثم ما زالوا يبالغون في إظهار بغضنا وتشويه سمعتنا ، ثم قلنا لوفد رئيس النيجر نحن ما أخرجنا من أرضنا إلا الخوف من القتل ولا نطلب منكم إلا الأمن والاحترام وعدم الثقة بأقوال أعدائنا فينا فقبلوا ذلك وقلنا لصاحب مالي نحن لا نحارب أهل مالي ولا نقدر على محاربتهم ونعلم أن ما أصابنا قضاء من الله لا مرد له ونرغب إلى الله أن يوفر أجرنا في الفاني ، ويبارك لنا في الباقي ، ولا نبغي على أحد بل

نَكل أمورنا إلى ربنا ورب المعتدين فإليه إيابهم ، وعليه حسابهم ، وما خرجنا من ديارنا إلا لطلب السلامة من شر الأعداء ، ولا نريد منكم بعد التأمين إلا أن لا تطلبوا منا الرجوع إلى بقعة البلاء وإلى جوار المبغضين الذين نقضوا العهود وقطعوا الصلات بيننا وبينهم بلا سبب ، فإنا لا نأمن جوارهم بعد ما كان ، فقال لنا لا نتكلم إلا برجوعكم فرجع صاحب تِلاَبير وبات عندنا صاحب مالي مكرما معظما حتى كان الضحى يوم الاثنين سابع شعبان 1415هـ الموافق 9 يناير عام 1995م فانصرف عنا وصحبته إلى أيَرُ وودعته ثم

بقينا في المنزل الذي زارنا فيه ولم يأتينا أحد من حكومة كَاوَ ولم نسمع ذكرهم لنا بخير ولا بشر ثم بعد ثلاثة أعوام من مقامنا في ذلك المنزل جاءنا وفد من أهل كَاوَ ويطلب منا الرجوع فوعده الناس الرجوع بشرط الأمن ولم نزل في أعمال أيَرُ نتظر من الأمن ما نطمئن به ونرجع إلى الوطن ولم نزل في ذلك الانتظار إلى وقت الكتابة وهو ربيع الآخر [1] من عام 1420هـ . وهنا انتهى ما تيسر من النقول جلبه ، ومن الوقائع ما سهل تحصيله وكتبه ، وقد شرعت في تدوين هذا الكتاب عام اثنين وتسعين بعد ألف وثلاث مائة 1392هـ من الهجرة النبوية وكتبت فيه أبوابا وفصولا ثم وقفت لاستزيد من المعلومات وأطلع كثيرا من المخطوطات في خزائن إخواني وأجول في الأحياء والقرى لمقابلة أهل العلم وكبار السن ، ثم قصر باعي عما طمحت إليه همتي أولا من إزالة التنكير والإبهام عن سائر أهل الوطن ، ولم أزل في تلك الوقفة إلى أكثر من عشرين سنة ، وكثير ممن ذكرتهم من العلماء والأمراء أورخ حياتهم في الوقت الذي كتبت عنهم فيه ومات بعضهم ولم أكتب تاريخ وفاته لعدم تحققي لما كان منه بعد ما كتبت عنه أولا ولعل من ينظر فيما كتبت يكون عنده علم بعض ذلك فيلحقه تعليقا ، وبعد ما كتبت كثيرا من الأبواب والفصول ، وجمعت كثيرا من الوثائق لأضمها إلى ما كتبت شغلني عن الاشتغال بضمها أني ربما كتبت في موضوعات شتى وأنتظر وقتا أتفرغ فيه لإتمام ما شرعت فيه من التدوين ثم ذهب كثير مما جمعت بسبب الكارثة التي ذهبت فيها مكتباتنا ، وأيست من وجدان جميع ما خلفت في داري من الكتب ، ثم من الله علي بوجدان ما كتبت من الأبواب والفصول فبادرت إلى كتابة الأبواب والفصول التي لم يسبق أن

كتبت فيها شيئا في المدة التي وقفت فيها للاستزادة ، واقتصرت على ذلك وأعرضت عن طلب الزيادة التي

(1) بعد ما كتبت هذا رجعنا إلى الوطن فتلقانا إخواننا بالترحيب والحمد لله فوصلنا في أوائل جمادي الأخر . المؤلف

كنت أنتظرها من قبل لأمور .

ومنها أني بلغت من السن ما أخشى أن يفوتني ببلوغه كثير من المأمولات والطموحات ، فإذا لم أتدارك تدوين ما حصلت جاءني الأجل ، وفاتني مقصودي من نفع الناس بما جمعت . ومنها أن الحامل لي على بذل همتي في إزالة التنكير عن الوطن وأهله أن كثيرا من الإخوان لم ينتبهوا لما تنبهت له من تأخر شعبنا ووطننا وانعزاله عما أصبح أهل زمانهم يعملونه ويتنبهون به وبعضهم لم يبال به . ومنهم من يقدر على الكتابة ولكن يكتفي أن يقوم غيره بالمهمات ويستريح ، وكثير منهم يقدرون على التأليف ويتكاسلون عن الكتابة . وكثير منهم لم يزالوا على العادة المألوفة في البلد قديما وحديثا من عدم التعرض للتصنيف والتأليف وإن كان مع المرء من الاستعداد ما يهيئ له مقصوده لو قام بالتصنيف ، وأكثر الإخوان أو غالبهم أميون لا يعرفون الكتابة ولا يهتمون بتدوين الآثار والأخبار . فهممت أولا بأن أنوب عن الجميع وأكفيهم مؤنة إحياء تراثهم ، وتدوين أخبار أسلافهم ، ثم بدا لي قصوري عن كل ما كنت آمله فانتهيت بما حصلت ، ومن الأمور التي دعتني إلى الانتهاء أن حالة أبناء الوطن الآن خير من حالتهم حين قمت بالكتابة عنه ، وشرعت في جمع ما جمعت ، فإن كثيرا من أبناء الوطن الآن يقدر على الكتابة بالعربية ويسأل عن أمور لا تخطر بالبال لمن قبلهم ، وكثير منهم يقدر على الكتابة بالفرنسية ، ومنهم من يقدر على الكتابة بالعربية والفرنسية معا يمكنه أن يسأل من معه من المعمرين من قومه عما لم يشاهد فيدونه ، ففي كل قوم أو قبيلة من يقدر على الإخبار والكتابة عن قومه وسلفه إذا قام بذلك ، وكل أحد عنده من أخبار قبيلته وسلفه ما ليس عند غيره فإذا قام كل أحد بمقدوره من ذلك حصل مقصودي من زوال التنكير والإبهام عن وطننا ، وإن لم يحصل بقلمي ، والمرجو من الله أن يحصل ذلك على أيدي بعض إخواني وأبناء إخواني ولو بعد موتي وأفوز بأجر من سنّ للناس سنة تنفعه وأتبعوه فيها .

والله ولي التوفيق ، وحسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
وصلى الله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم
وآله وصحبه وسلم تسليما

وقع الفراغ من الكتابة والجمع على يد المؤلف مهل ربيع الآخر 1420هـ عام ألف وأربعمائة وعشرين من الهجرة
الموافق 14 يليو 1999م

ووقع الفراغ من نقله إلى الحاسب الآلي
على يد الطالب : عبد الحكيم بن المصطفى بن أبي بكر المنكاوي
يوم الأربعاء 22 / 7 / 1427هـ
الموافق 16 / 8 / 2006م
بسم الله الرحمن الرحيم
تنبيهات مهمة :
الأولى : لا يسمح طباعة هذا الكتاب إلا بعد مقابلته مع الأصل لتصحيح بعض الأخطاء التي تركنا بعض الفرغات لها ، وبعضها إما سهوا منا أو زلة قلم ، أو سوء التخمين في المكتوب وهذا والحمد لله قليل جدا . ولا أدعي خلوه من الأخطاء لأن الكتاب طويل جدا ونقله استغرق علينا الوقت فتكاسلنا عن مقابلته مع أصله . وبحثنا مع ذلك عن المخطوط الأصلي الذي أخذت منه هذه النسخة فما وجدناه إلى الآن ، والذي رأيناه في أيدي الناس كلها صور متماثلة وأغلبها أخذت عن نسختنا المصورة .
الثانية : كثرة الأخطاء ، والفرغات في هذا المكتوب سببه ما يلي :
1 ـ طول الكتاب ، واختلاف خطوطه
2 ـ أن النسخة التي نقلنا منه عبارة عن صورة للمخطوط ، وهذا أدى إلى مسح أطراف بعض السطور ، وبعض الهوامش التي وضعها المؤلف ، لذا لك كثرت فيه الفراغات .
3 ـ أن بعض الفرغات موجودة في الأصل .
4 ـ أننا اعتمدنا على حقوق النقل : وهو أننا ننقل اللفظة بحروفها وألفاظها ولو
الثالثة : الهوامش الموجودة في هذا الكتاب كلها من وضع المؤلف .
الرابعة : بعض أسماء القبائل وأسماء المدن في هذا الكتاب مكتوب

بحروف ليست موجودة في الحاسب الآلي مثل كلْ تكَلْلتْ فكاف تَكَلْلتْ تحتها ثلاث نقاط وتنطق مثل الجيم المصرية ، وهكذا غالب أسماء القبائل الطارقية .

الخامس : حولنا ترقيم تراجم العلماء لكن ما أتممناه على الوجـه الـذي على الوجه الذي أردناه .

الكتاب يحتوي على
ستة وسبعون وستمائة صفحة
676 وهو تام حسب ما بلغنا
[illegible]
محمد [illegible]
آل الشيخ [illegible]
[illegible] العمري القرشي
29 ذي الحجة
1435 هـ
موافق 23/10/2014 م
إمضاء المالك

